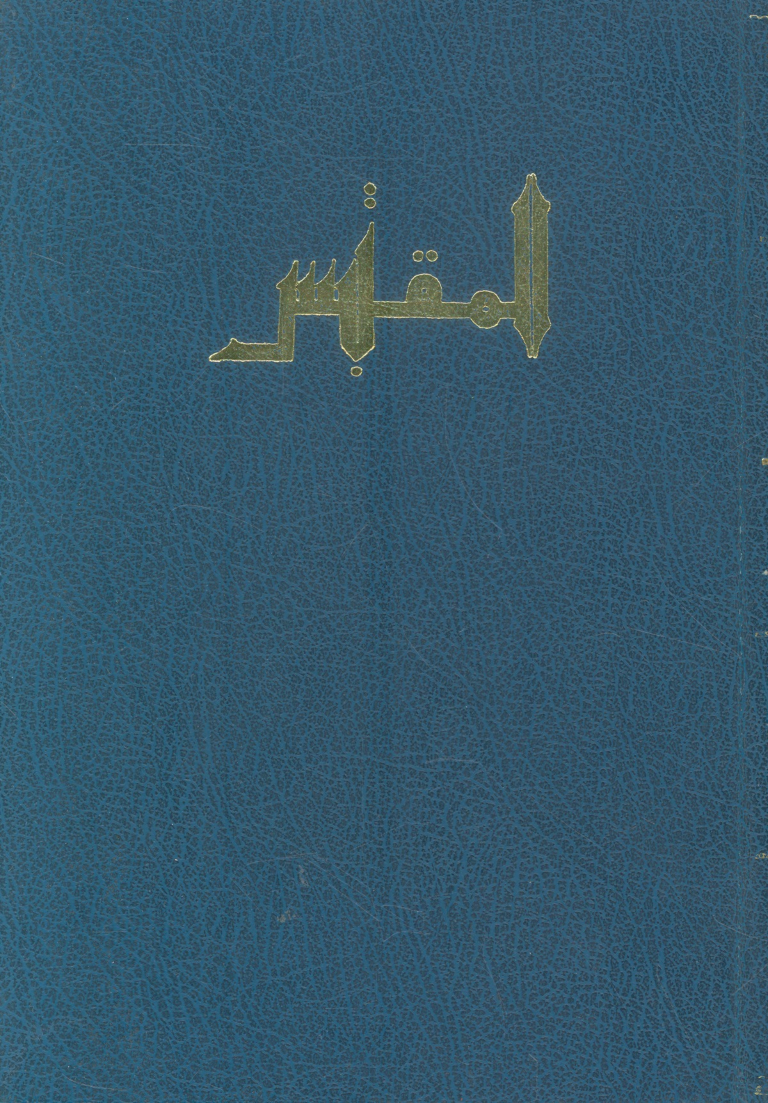
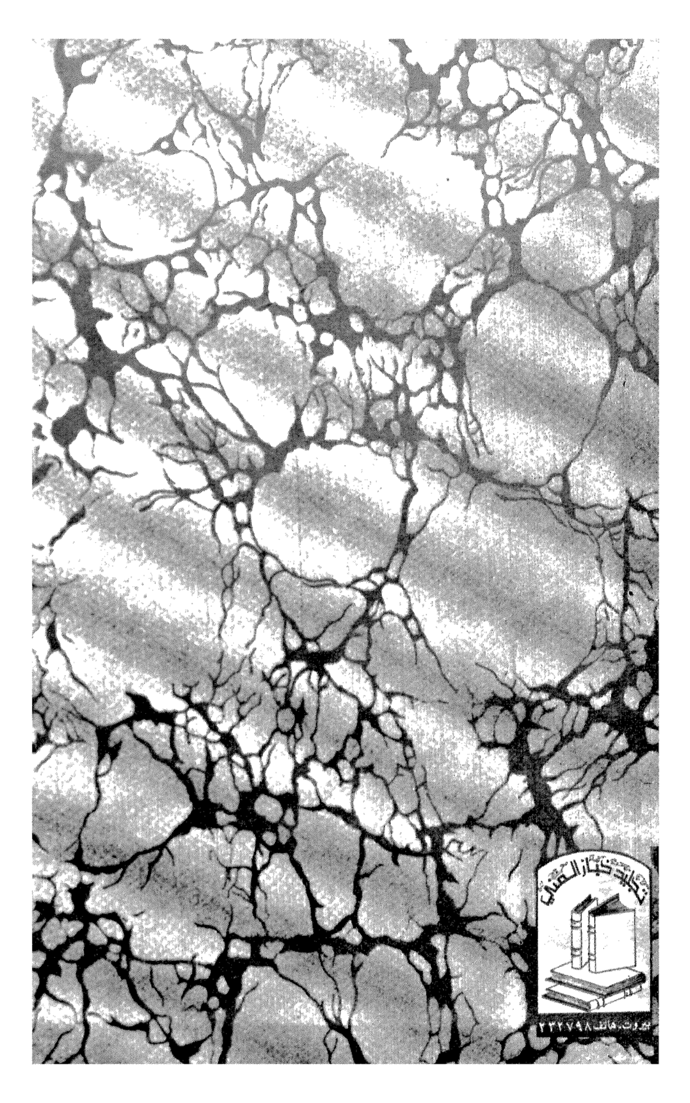
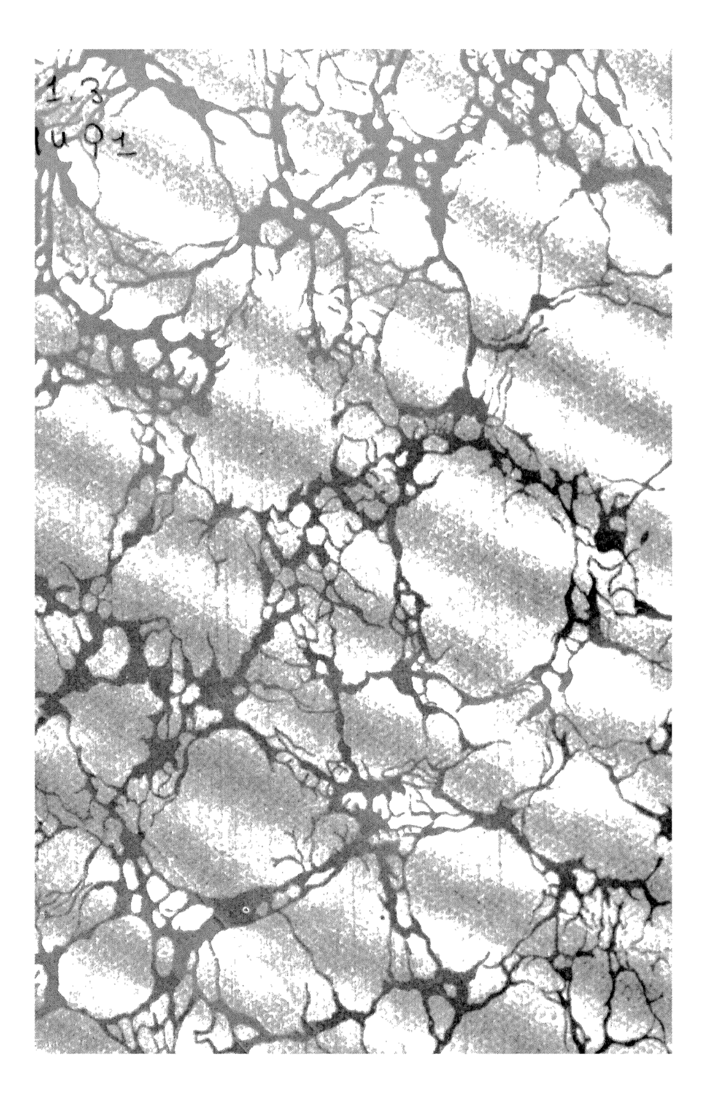

المقتبس


تجليد خباز الفني
بيروت، هاتف ٢٣٢٧٩٨





مجلة أدبية علمية اجتماعية

تصدر مرة كل شهر عربي بدمشق

لمنشئها

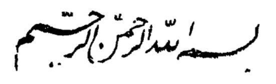
محمد كرد علي

المجلد الرابع

١٣٢٧ — ١٩٠٩

قيمة الاشتراك في دمشق ريالان مجيديان ونصف
وفي سائر الجهات ثلاثة عشر فرنكا

طبع بمطبعة المقتبس بدمشق



سنتنا الرابعة

يفتتح المقتبس عامه الرابع بحمد الله جل ثناؤه والشكر عَلَى ما وفق اليه من نشر الحقائق التي يهديه اليها البحث والدرس لاهجًا بالدعوة التي طالما دعا اليها مجملاً و مفصلاً من ان مقصده نبش دفائن المدنية العربية و بث خزائن الحضارة الغربية مع ما ينبغي لذلك من النظر في تاريخنا وتاريخ الغربيين وآدابنا وآدابهم ومناحينا ومناحيهم واعمالنا واعمالهم ناعيًا عَلَى الجامدين عَلَى القديم اذ الاقتصار عليه وحده هو العقم بعينه داعيًا الى تناول الضروري من الحديث لان القديم وحده يبلى ولا حديث لمن لا قديم له ومن لم يحرص عَلَى جديده فهو اقرب الى الزهد كل حين بقديمه

ندعو الى الاخذ بمعارف الغربيين لان ما اصاب هذا الشرق من ضعف العقول والملكات نشأ عن انصراف القلوب عن الاهتداء بهديهم ونهج سبيلهم في مادياتهم ومعنوياتهم والوقوف عند حد ما رسمه المخرفون والمخرقون فصدونا عن سبيل الانتفاع بالماضي و بالحاضر وحرموا بالتعصب الممقوت ما لم يحرمه عقل ولا نقل وسدوا الآذان عن سماع داعي المدنية وغضوا الابصار عن النظر في بدائع العلم والصناعة

وان المقتبس ليغتبط اليوم بصدوره من ضفاف بردى بعد ان انتشر عَلَى ضفاف النيل ثلاث سنين ولئن كان بردى بعض جداول النيل وترعه فان المدلك بعض دم الغزال ولئن قدر لمصر اليوم ان تسبق الشام في قوتها الادبية والعلمية فليس ذلك من الجديد لما عرف به قديمها وان كان وادي النيل افسح وانضب فوادي جلق افيحاء اثمر واعشب والسر في السكان لا في المكان . فعسى ان لا تكون ارض الشام اقل استعدادًا لقطف ثمرات العلوم والمعارف وان يظل موازرونا عَلَى اتحاف هذه المجلة بنتائج عقولهم فلا تعظم فائدة العمل اذا استقل بهِ الفكر الواحد ولا تتنوع بغير افانين الفنون والآداب ونسأله تعالى تسديدنا وهدايتنا

الشام والحرية [1]

سادتي الفضلاء

احمد اليكم الله الذي آخى بينكم بجمعكم في صعيد واحد بعد ان كانت كلمتكم متفرقة واشكره تعالى اذ جعل لي لساناً ناطقاً في هذه الدار الكريمة المشرقة بانواركم المتألقة واقدم اليكم بالثناء الصادر من صميم الفؤاد على تنازلكم باجماعكم على طلب مقولة مني في هذا المقام وقد سئمت الكلام فهربت من مصر الى الشام ولكنني اظن ان الله كتب عليّ الكلام حتى يوم الحمام فليس لي من مفر والسلام

بيد اني اسألكم الصفح يا نجوم الفيحاء عما تجدونه في محاورتي لكم من التقصير فعذري ظاهر وانتم انتم الكرام

لعل هذه تكون اول محاضرة في ربوع هذه الحاضرة بعد ان هبت عليها نسمات الحرية العاطرة وقد طال عليها الاستعباد· والحرية خلق شريف يجاهر بسلطانها الانسان بما يريد ما دام داخلاً في حدوده المرسومة له ولا يتعدى دائرة غيره فلذلك اردت ان اتكلم عن شيء من حضارات الاسلام التي توطدت دعائمها في دمشق الشام وفي دار السلام وفي القاهرة الفاطمية وفي قرطبة الاموية· فلاجدادكم في هذه الحضارة الباهرة فضلان بدمشق وبقرطبة وانتم البقية الصالحة لهؤلاء الاسلاف الاشراف والامل معقود بكم ان تقتدوا بهم وتزيدوا عليهم كما هي سنة الترقي وكما هو شعار الاتحاد·

---

[1] هذه محاضرة القاها احمد زكي بك من علماء القاهرة في دار صاحب المقتبس بدمشق ليل ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٢٦ بحضور جمهور كبير من اهل العلم والادب والقضاء والوجاهة

فلم يبق لكم عذر بعد اليوم في وضع دعائم النهضة الحديثة بدياركم الشهباء الزهراء وقد كنت فيكم تلك البذرة الصالحة على ما شاهدته بعيني وخبرته بنفسي

الا ترون من الفضول ايها الفضلاء ان يقوم فيكم نزيل من النزلاء ويناجيكم بما انتم اهله بلا مراء . لعمري هذا منتهى الفضول من الواقف بينكم وهو ضعيف وصوته اضعف لانه يتكلم امام مائة الف اذ يعتقد ان كل واحد منكم بالف . فانتم ان لم يكن لكم عذر بعد اليوم في النهوض بامتكم وبلادكم فلي الف عذر في هذا المقام وانتم انتم الكرام . خصوصاً اذا اعترفت لكم بانني من الطائفة الثالثة التي اشار اليها الخليل بن احمد في قوله ان الرجال اربعة : رجل يدري ويدري انه يدري فذلك عالم فاتبعوه ورجل يدري ولا يدري انه يدري فذلك غافل فنبهوه ورجل لا يدري ويدري انه لا يدري فذلك جاهل فعلموه ورجل لا يدري ولا يدري انه لا يدري فذلك مائق فاحذروه . لا اريد الافتخار بقولي لاادري لانني لا ارضى بذلك المذهب الذي يزعم اصحابه ان من قال لا ادري فقد درى نصف العلم وانما ارتضي مذهب ابراهيم بن طهمان الخراساني فانه ولد بهراة ونشأ بنيسابور ورحل في طلب العلم ونال منه قسطاً وافراً حتى كان له ببغداد جراية فاخرة من بيت المال فسئل يوماً في مجلس الخليفة فقال لا ادري فقالوا تأخذ في كل يوم كذا وكذا ولا تحسن مسألة فقال انما اخذت على ما احسن ولو اخذت على ما لا احسن لفني بيت المال ولا يفنى ما لا ادري . فاعجب امير المؤمنين جوابه وامر له بجائزة فاخرة وزاد في جرايته

فلذلك ارى في اجماعكم علي الزامي بمحاضرتكم غلي ما انا فيه من تشتت

البال بالاسفار والحنين الى الديار انكم انما قصدتم ان تنجعوا القائمين بالعمل عَلَى احياء حضارة الاسلام وشد أزر الطالبين للعلم فلذلك امتثلت امركم لئلا اخرق الاجماع ولئلا اكون شاذاً عن رأي الجماعة وتمثلت بما قاله الخليل ايضاً فقد قال ثلاثة تيسر المصائب: مرّ الليالي والمرأة الحسناء ومحادثة الرجال . فقد جئت لاحادثكم واستفيد منكم فاردتموني على الخطابة بينكم فكان مثلي معكم كمن يحمل الصدف الى عمان ولا اقول الدرر او كمن يحمل العرض من علوم الشرق الى اهل دمشق ولا اقول الجوهر

سادتي الكرام

مصر والشام توأمان ربطتهما الطبيعة والاخلاق قبل الاسلام وبعد الاسلام بعروة وثقى ليس لها انفصام فلا عجب اذا كانت كل منهما تحن للاخرى وتشاركها بعاطفة الود والقربى فيما يحل بها من سعد ورخاء او ما ينزل عليها من نحس وشقاء لهذا تروني يا ابناء الاكرمين لا استغرب منكم هذا الحنين لرجل من ابناء النيل اتاحت له الايام ان يحل بركابه في ارض الشام وقد كان آلى على نفسه ان لا يضع قدماً في ارض سورية ولا في غيرها من ارجاء السلطنة لما لاقاه من صنوف الحيف حينما غرر بنفسه في احد فصول الصيف فولى وجهه شطر قبة الاسلام منذ بضعة اعوام .

اما الآن وقد تفككت قيود الاستعباد ودالت دولة الاستبداد وزالت سلطة الفرد وقامت شورى الامة عَلَى اساس ثابت كالجبال الرواسي واعني به القانون الاساسي فاشرق نور الدستور عَلَى الجمهور فقد انفك عنه قسمه وصار في حل من العهد الذي اخذه عَلَى نفسه فلم يتمالك من الشخوص في اول فرصة الى تلك الربوع التي خفقت عليها رايات الحرية في صدر الاسلام فرحت

تحت ظلالها ونالت بها اقصى آمالها ونثرت ثمراتها في الشرق ثم ارسلت فروع هذه الشجرة الزاكية النامية الى ما وراء البحر فصادفت خير مغرس في رياض الاندلس فان الحرية الاسلامية اينعت لاول مرة في الشجراء فتارجت باريجها الارجاء وانبتت حضارة الاسلام في ارض جاوزت فاز ثمرتها بها المغرب كما اختال بها المشرق

امتازت دولة العرب القائمة في دمشق على عهد معاوية ومن تلقى صولجانه بنعمة الحرية التامة حتى كانت هذه البقعة المباركة عروس الدنيا وقرارة المجد وكهف الشرف واشرق سناها على الدنيا من ادناها الى اقصاها

غير ان الانسان جبل على الاندفاع مع التيار وعدم الوقوف عند الحدود فلم تلبث هذه الحرية ان انقلبت الى الاباحة فصار الناس فوضى وكان رؤوس الدولة اول من اسرف في الاساءة الى الحرية فتابعتهم الامة والناس على دين ملوكهم فانهار هذا الملك العظيم وغاضت عيون الحضارة في دمشق التي تزدان على الدهر بعيونها الفياضة ·

لذلك اناشدكم الله ان تتعهدوا الحرية التي عادت الى ربوعكم في هذا العهد السعيد فتحافظوا عليها ولا تفرطوا في العناية بها حتى لا تعود الى الذبول فكفاكم ما حاق بكم من الخمول بسبب الانحراف عن صراطها المستقيم وهذه نصيحة خالصة امحضكم اياها ياوجوه العرب لئلا تضيع منكم الحرية بتجاوز الحدود الذي يجعلها اباحة فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين· وكفاكم كفاكم موعظة ما قاله مروان آخر الامويين حينما ضاع ملكه في الشام وفر الى وادي النيل فالتجأ هو واهله وشيعته الى كنيسة في قرية بوصير من صعيد مصر فلحقه المسودة اي جنود بني العباس وشعارهم

السواد وكانوا في نفر قليل جداً بحيث كان من اسهل الامور على مروان ومن معه ان يبيدهم عن آخرهم لو لا ان دولته كانت في ادبار ودولتهم في اقبال فلم يمهلوه حتى يطلع النهار فلجأُوا الى شجر ونخل ثم ناوشوه القتال فخرج اليهم وهو يقول : كانت لله علينا حقوق فضيعناها ولم نقم بما يلزمنا فلم غدا ثم انتقم منا · ثم فكر في كثرة جيوشه بالشام فقال : اذا انقضت المدة لم تنفع العدة · وذلك انه كان عند ما استفحل امر بني العباس استعرض جيوشه بالرقة فمر به من العرب وحدهم ثمانون الف فارس على ثمانين الف فرس عربي · ثم احتزوا رأسه واخرجوا اكبر بناته من الكنيسة وهي ترتعد فقيل لها لا بأس عليك فقالت اي بأس اعظم من اخراجي حاسرة من حيث لم ار رجلا قط · ثم اجلسوها ووضعوا الرأس في حجرها · فصرخت واضطربت · فقيل لهم ما حملكم عَلَى هذا · قالوا كفعلهم بيزيد بن علي حين قتلوه فانهم جعلوا رأسه في حجر زينب بنت علي (صاحبة المقام المشهور في القاهرة) ثم ارسلوا الرأس الى مدينتكم هذه فنصب عَلَى باب المسجد الاموي ثم بعثوا به الى الكوفة فخر السفاح ساجداً لله وتصدق بعشرة آلاف دينار

هذا الذي قاله مروان شبيه بقولة هرقل حينما جاء اهل الاسلام واجلوا الاروام عن بلاد الشام · ركب البحر وهو ينظر الى الشام ويقول الوداع يا سوريا سلام عليك يا سوريا · ويشبه ايضاً قول ام ابي عبد الله آخر سلاطين بني الاحمر بغرناطة حينما اجلاه الاسبنيول عن تلك البقية الباقية للعرب في ديار الاندلس · فانه بعد ان سلم البلاد الى فرديند وايزابلا وخرج في حاشيته واهل بيته · اعاد نظرات كلها حسرات وارسل رائد الطرف بمزيد الاسف وهو يتلهف عَلَى الحمراء فتهاطلت دموعه عَلَى خديه فقالت له امه :

أبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

ان الذكرى تنفع المؤمنين لذلك اردت ان اسرد عليكم هذا الن الذي كان فيه ضياع الملك من دمشق ونزولها عن درجتها السامية التي لم تعد لها الى الآن لئلا يتجاوز الناس حدود الحرية وقد اشرقت عليهم وعاينا في هذا العهد النوراني المجيد فيقعوا في شر اعمالهم كما وقع الاولون و العاقل من اذا مرت به العبرة ازدجر او قيلت له الموعظة ادكر ·

فلقد بلغ ملك بني امية ما بين قرني الشمس ثم زال لانهم اساؤا الى الحرية التي نشروا اعلامها ورفعوا منارها حتى بلغت دولتهم من المجد اعلا ذراه فتقرب اليهم ملك الروم بارسال مائة عامل من مهرة الصناع وارسل اليه مائة الف مثقال من الذهب الاحمر وباربعين حملا من الآلات حينما اراد الوليد تجديد الروضة الشريفة والزيادة فيها فبعث بهم الى واليه عمر بن عبد العزيز فاستخدمهم وانتم تعلمون ورع عمر بن عبد العزيز الذي لا يشبهه ورع مع ما تعلمون من شدة الخلف بين العرب والروم على امتلاك آسيا الصغرى التي كانت بين الفريقين حاجزاً حصيناً يرد العرب عن امتلاك فروق وهي كانت ولا تزال مطمح الانظار ·

ومما يدل على بلوغ الحرية في دمشق نهاياتها دون ان تتجاوز حدودها ان معاوية كان يمد الاسمطة للعامة ويوأكلهم وان الوليد بن عبدالملك بنى في مدينتكم دار الضيافة العامة وهو اول من فعل ذلك في الاسلام وذلك للتحبب الى الرعية بمخالطتها وتعرف احوالها وكان الخلفاء يسائلونهم في العلم والسياسة بهذه الوسيلة وها هو التاريخ وها هي كتب الادب تخبرنا بكثير من الاصلاحات التي حدثت بهذه الواسطة الشريفة التي كانت تربط الامة

بالخليفة وسرت من الامويين الى العباسيين فكان الرشيد يجالس الناس على المائدة فكانت حكومة المسلمين في الصدر الاول وفي ايام السلف الصالح اشبه شيء بالحكومة الديموقراطية اسيے حكومة الامة بالامة كما هو الحاصل الآن في دولتنا العثمانية فلم يكن فيها من القاب الشرف ولا رتب الفخار بل كان الناس كلهم سواء فلا ترى ولا تعرف الا فلانًا ابن فلان ولا يكون التعظيم الا بالكنية وهي من المفاخر التي استأثرت بها العرب دون سائر الامم الى هذا الزمان فكانوا يقولون ابو فلان فان لم يكن له ولد قيل ابو فلان باسم ابيه هكذا كان الناس في ايام بني امية مهما بلغت درجاتهم وعلت مناصبهم كما هو الشأن الآن في بلاد الاميركان التي هي بلاد الحرية الحقيقية بأكمل معانيها فليس منهم الا مستر فلان حتى رئيس الجمهورية فنازلاً من الوزراء الى كل ارباب الوظائف الى عامة الناس وكذلك الحال في بلاد سويسرة التي تتفجر منها ينابيع الحرية الصحيحة في اوربا فلا يمتاز فيها ولا في اميركا رجل باي لقب اللهم الا باللقب الذي يطابق رتبته في العسكرية فقط . فاما اول من تلقب من الخلفاء فهو عبد الله ابو جعفر وقد غلب لقبه حتى انني لو اكتفيت بهذه الاشارة عنه لما عرف من هو الا الاقلون واما اذ ذكرت لكم اللقب الذي اشتهر لعرفتموه لانه اصبح له علمًا سيے التاريخ وهو المنصور ثاني الخلائف من بني العباس ثم تغلغلت الدول الاسلامية في الالقاب فكثرت وتنوعت وتعددت حتى صرنا الى ما ترونه الآن فصار الجوهر تغشاه اعراض براقة خلابة ضغطت عليه وطمست معالمه حتى كاد يضيع ان لم نقل ضاع فصرنا ولنا الالقاب نتهافت عليها ونتطلبها من سبيل الحرام اكثر مما نتطلبها من سبيل الحلال بل اصبحنا وعدم الالقاب

هو اللقب فيا حبذا الرجل منا الذي يشابه الحرف عند النحاة فيكـ . ـد العلامة له هو العلامة ·

اما وقد تنبهنا من رقدتنا واخدنا باسباب الرجوع الى الحياة .. اشار الى محو الرتب والغائها كاتب مجيد في جريدة " شوراي امت " .. بالتركية في عاصمة الامبراطورية العثمانية فاستميحكم ان اقول .. هذا الموضوع :

فقد جاء الوقت الذي نجاهر فيه بضمائرنا واميالنا ونقول الحق . .. به فقد كان هذا العاجز يقول لكثير من اصدقائه في مصر انني و .. ان اتخلى عن هذا اللقب الذي نلته بجدي واجتهادي ولطالما جاهدت بالتأفف منه لا استنكافا منه لانني اراه فوق قدري ولكن استنكافا لكثيرين ممن حازوه او حازوا اعلامنهُ وهم انما شروه بفضل الدراهم او ببعض المساعي الممقوتة · كثيرون من اصدقائي وهم احياء يرزقون يشهدون لي بانني طالما تمنيت على الله ان يزول عني هذا اللقب لا بالتجريد فانه مشين ولكن بالتسليم فانه شريف بحيث ارجع الى اسمي احمد افندي او احمد بن ابراهيم او ابو ابراهيم احمد زكي فاتكنى باسم والدي اذ قد جعلني الله في نعمة وافية من عدم الحصول على خاف لي ولكن الآن يجب ان نشير في محو الالقاب بطريقة معقولة مقبولة فلا نلغيها مرة واحدة من الحاصلين عليها لانهم ربما لا يرضيهم ذلك وهم ان لم يعبروا عن عدم رضائهم جهراً فربما يكون فيهم كثيرون لا يرضون به سراً ونحن في عصر الحرية ينبغي ان نحترم ارادة كل انسان وان لا يفتات البعض على البعض ولو في الالقاب · واحسن وسيلة هي ان لا نسلك في هذا الموضوع شططاً بل نسير فيهِ سيراً

وسطاً وذلك في رأيي هو تخيير اصحاب الالقاب في التنازل عنها فمن رضي فيها ونعمت ولا ريب ان الاكثرين يرضون التجرد من هذه الالقاب التي قد ترهقهم عسراً اما الذين يريدون حفظها فامرهم اليهم · ولكن الدولة تقرر انها من الآن فصاعداً تلغي الرتب فلا القاب عندها منذ اليوم بحيث لا يأتي زمن طويل حتى تنقرض الالقاب ويبقى الناس كلهم افندي او سيد او خواجه او شيخ او ابو فلان وتصبح الامة كلها سواء تحت هلال الدستور لا يتميز بعضهم عَلَى بعض الا بالعمل النافع للمجموع فتكون الامة كلها راقية لان كل فرد يتطلب النبوغ ويسعى الى التفوق بكده وجده وحسبنا ذلك فخارا ·

بهذه الوسيلة يزداد سواد اهل الفضل في هذه البلاد فيكون لاهل العلم والعمل دلال عَلَى ارباب الدولة كما كان لامثالهم في ايام عز الاسلام فان الخليل بن احمد الذي ذكرته في صدر هذه المحاضرة كتب اليه سليمان بن علي الهاشمي يستدعيه لتعليم ولده بالنهار ومنادمته بالليل وبعث اليه بالف دينار ليستعين بها عَلَى حاله فاخرج للرسول زنبيلاً فيه كسر بالية وقال : اني مادمت اجد هذه الكسر غني عنه وعن غيره ورد الالف دينار عَلَى الرسول وقال اقرأ عَلَى الامين السلام وقل له اني قد الفت قوماً والفوني اجانسهم طول نهاري وبعض ليلي وقبيح بمثلي ان يقطع عادة عودها اخوانه واني غني عنه وعن غيره وكتب اليه بهذه الابيات ·

ابلغ سليمان اني عنه في سعة وفي غنى غير اني لست ذا مال
وان بين الغنى والفقر منزلةً معروفة بجديد ليس بالبالي
سما بنفسي اني لا ارى احداً يموت هزلاً ولا يبقى عَلَى حال

والفقر بالنفس لا بالمـال تعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال
والرزق عن قدر لا العجز ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتـال

والخليل هذا كان يقسم الايام الى ثلاثة : معهود ومشهود ومو...
وكان دائماً يتمثل بقوله :

يكفيك من دهرك هذا القوت مـا اكثر القوت لمن يموت

ولم ينفرد الخليل بهذه المزية الفاخرة في التكبر والدلال على اهل الدولة وارباب المال فامثاله كثيرون اذكر منهم من يحضرني ذكره في هذا المقام فمنهم حماد بن ابي سلمة دخل عليه مقاتل بن صالح الخراساني فاذا ليس في البيت الا حصـير وهو جالس عليه وبيده مصحف يقرأ فيه وبجانبه حرازفيه علمه ومطهرة يتوضأ فيها . قال مقاتل فبينا انا عنده جالسـاً دق داق الباب فقال : يا صبية اخرجي فانظري من هذا قالت : رسول محمد بن سليمان قال قولي له يدخل وحده فدخل فناوله كتاباً فيه

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن سليمان الى حماد بن ابي سلمة اما بعد فصبحك الله بما صبح به اولياءه واهل طاعته وقعت مسألة فانا نسألك عنها والسلام .

فقال ياصبية : هلمي بالدواة . ثم قال لي اقلب الكتاب واكتب : اما بعد وانت صبحك الله بما صبح به اولياءه واهل طاعته . انا ادركنا العلماء وهم لا يأتون احداً فان كانت وقعت مسـألة فأتنا وسلنا عما بدا لك وان اتيتني فلا تأتني الا وحدك ولا تأتني بخيلك ورجلك فلا انصحـك ولا انصح نفسي والسلام .

فبينا انا عنده اذ دق داق الباب فقال : يا صبية اخرجي انظري من

هذا قالت : محمد بن سليمان قال : قولي له ليدخل وحده فدخل فسلم ثم جلس بين يديه · فقال مالي اذا نظرت اليك امتلأت رهبا قال : سمعت عن ثابت النسائي عن مالك ان رسول الله قال : ان العالم اذا اراد وجه الله هابه كل شيء فاذا اراد ان يكنز الكنوز هاب كل شيء · فقال اربعون الف درهم تأخذها تستعين بها على ما انت عليه قال اردها على من ظلمته قال : والله ما اعطيك الا ما ورثته قال : لا حاجة لي فيها ازوها عني زوى الله عنك اوزارك قال فتقسمها قال فاعلي ان عدلت ان يقول بعض من لم يرزق منها لم يعدل ازوها عني زوى الله عنك اوزارك ·

هذه السنة الصالحة انتشرت بين علماء المشرق فارتقت بهم الامة وكان لها شأن كبير لانهم كانوا يطلبون العلم للعلم وقد انتشرت هذه السنة الحميدة في عامة امصار الشرق وشاعت ايضاً في بلاد الاندلس حتى في ايام تقهقرها · فقد الف احد العلماء الاندلسيين كتاباً في اللغة فبلغ ذلك مجاهداً العامري صاحب الجزائر جزائر ميورقة ومنورقة المعروفة الآن بجزائر الباليار فوجه للعالم بالف دينار وبكسوة وخلعة وتحف كثيرة وطلب منه ان يتكرم بوضع اسمه في صدر الكتاب وانه الفه برسمه· فرد المال وهو في حاجة الى اقله وقال : كتاب صنفته لله ولنفع الناس لا افرده لواحد منهم ·

ويقرب من هذا مالك بن دينار فانه ترفع عن الملوك ونصح اللصوص · دخل اللصوص داره فلم يجدوا شيئاً يسرقونه · ولما هموا بالخروج قال لهم ماذا عليكم لو صليتم ركعتين فتابوا وانابوا · وقد كان لهذه السجية في مصر شأن كبير فلا احدثكم الا بحادثة واحدة من هذا القبيل · فانتم تعلمون من هو شيخ الاسلام زكريا الانصاري فقد كان اهل الدولة يتسابقون اليه

ويقبلون عليه وهو عنهم معرض ايما اعراض . مع انهُ كان يقتات بقشور البطيخ الملقاة في الطريق ولا يكفيه النهار للدرس وليس لديه شيء من الدنيا يقتني به مصباحاً لنفسه فكان يأخذ الكراريس ويدرس على ضوء القناديل المعلقة على ابواب البيوت .

وامثال شيخ الاسلام كثيرون في مصر وغير مصر يطاول بذكرهم المقام وربما كان في ايرادها ما يدعو الى الملل والسأم غير اني استميحكم الآن في ذكر نادرتين واقول نادرتين لانه بعد ذلك السلف قد خلف من بعدهم خلف فصار شمم العلماء وترفعهم بعلمهم في هذا الزمان الاخير كالكبريت الاحمر بل هو اندر .

فالاولى تقضي عليَّ صلة الرحم ان اغتنم هذه الفرصة لاذاعتها ولست اخشى تكذيباً لها لان الذين رأوها او علموا بها علم اليقين لا يزالون احياء يرزقون وهم في مصر كثيرون . وذلك ان جدي لامي الشيخ ابراهيم سويدان حضر اليه برشيد والي مصر عباس الاول وقد انتهى اليه علمهُ وصلاحه وزهده وانعطافهُ عَلَى المساكين فاعطاه مالاً كثيراً فلم يرض فالح عليهِ وقال له اهل البطانة خذ هذا المال فانهُ حلال وهو يساعدك عَلَى نفع المساكين فامتثل بشرط ان يضع الامير المال في كمه فرضي الوالي واخذ جدي المال فطاف به في الاسواق يفرقه بواسطة غلامهِ عَلَى هذا وذاك حتى فرغ المال كله ثم ذهب الى النيل فغسل هذا الكم الذي لامستهُ دراهم الوالي .

واما الثانية فهي معلومة لكم جميعاً وهي واقعة بينكم هنا وبيننا في مصر . ذلك استاذ الشام عَلَى الاطلاق العلامة الشيخ طاهر الجزائري فهو يضم بين طمريه العلم الجم والخلق الاشم . انا لا ادري كيف يعيش هذا الرجل في

بلد مثل مصر قد اشتد فيه الغلاء حتى شكا منهُ الاغنياء وقد بذلت ما في وسعي كما يعلم الاستاذ كرد علي صاحب المقتبسين واماء المقتبسين ورب هذا البيت الكريم في ان ينالهُ شيء من الاوقاف الخيرية على ان يكتب عريضة لذوي الحل والعقد وقد تلطفت معهُ كثيراً بواسطة رب هذه الدار فلم يرض الى الآن . فماذا اقول عن هذه البقية الصالحة . لااقول سوى كلمة واحدة تخرج من صميم الفؤاد بحب واخلاص فليعش الشيخ طاهر الجزائري

هذه الحرية وهذا الشمم هما جرثومة من ذلك الماضي المجيد وقد دفنت في عصر الدستور المنير ارضاً خصيبة فلعلها تتأصل في نفوسنا ونفوس الناشئين ليكون لقومنا ما كان للاسلاف من العز الذي ضرب رواقه في المشرقين وفي المغربين .

هذه الحرية هي التي جعلت الاخلاف من بني امية يحتملون الكلم الشديد والقول المر من العلويين ومن سائر الناس . لو فرضنا ان احتمالهم للعلويين كان من قبيل المداراة ومن باب المحافظة عَلَى الملك فما ذا نقول عما سجله التاريخ من معاملتهم للعامة . افليس ابو صخر الشاعر الخزاعي المشهور بكثير عزة هو الذي كان يجاهر بالتشيع لعلي وبنيه وقد كانوا يسبونه عَلَى المنابر بامر الخلفاء الامويين . افليس هو الذي قام في يوم من الايام فصعد المنبر في بيت الله الحرام واخذ باستار الكعبة وقال :

لعن الله من يسب علياً وبنيه من سوقة وامام
أيسب المطهرون اصولاً والكرام الاخوال والاعمام
يأمن الطير والحمام ولا يأ من آل الرسول عند المقام

فانزلوه من المنبر واثخنوه ضرباً بالنعال وغيرها فقال :

ان امرأً كانت مساوئه　　حب النبي لغير ذي عتب
وبني ابي حسن ووالدهم　　من طاب في الارحام والصلب
اترون ذنباً ان احبهم　　بل حبهم كفارة الذنب

ومع انه سب الامام جهاراً وفي الكعبة وضربه القوم خوفاً من الخلافة فقد دعاه عبد الملك ليستوزره ثم ازدراه لدمامتهِ وقال تسمع بالمعيدي خير من ان تراه فقال كثير : مهلاً ياامير المؤمنين فانما الرجل باصغريه قلبه ولسانه فان نطق نطق ببيان وان قاتل قاتل بجنان ثم انشد :

وجربت الامور وجربتني　　فقد ابدت عريكتي الامور
وما تخفى الرجال عليّ إني　　بهم لاخو مثابته خبير
ترى الرجل النحيف فتزدريه　　وفي اثوابه اسد مزير
ويعجبك الطرير فتبتليه　　فيخلف ظنك الرجل الطرير
وما عظم الرجال لهم بزين　　ولكن زينها كرم وخير
بغاث الطير اكثرها فراخاً　　وام الصقر مقلاة نزور
لقد عظم البعير بغير لب　　فلم يستغن بالعظم البعير
فيركب ثم يضرب بالهراوى　　فلا عرف لديه ولا نكير

فناشده عبد الملك الاشعار في الاخوان ثم قال : ان كنا اسأنا اللقاء فلسنا نسيء الثواء · حاجتك · قال : تزوجني عزة فاراد اهلها عَلَى ذلك فقالوا : هي بالغ واحق بنفسها فقيل لها فقالت : ابعد ما شبب بي وشهرني في العرب ما لي الى ذلك سبيل ولعلها احسنت في التنصل والاعتذار وتلطف فلم تذكر ان سبب امتناعها هو دمامة خلقه ·

وبقي كثير مع تشيعه للطالبين مرعي المقام نافذ الكلمة عَلَى خلفاء بني امية

مع انه سبهم ولعنهم في البيت الحرام فان يزيد بن عبد الملك حينما جاؤا اليه باسارى بني المهلب امر بضرب اعناقهم وكان من حسن حظهم ان الامر صدر بحضرة كثير فقام وانشأ يقول :

فعفواً امير المؤمنين وحسبة فما تحتسب من صالح لك يكتب
اساؤا فان تعفو فانك قادر وافضل حلم حسبة حلم مغضب

هذه الحرية التي اشتهرت بها الدولة الاموية في دمشق هي التي جعلت الناس احراراً في اعمالهم وفي اعتقاداتهم فقد كان كثير هذا يقول بالرجعة على مذهب الهنود ويخالف الملة الاسلامية كثيراً في ذلك كما كان يخالف سنة الدولة ويتشيع لعلي ولكن الخلفاء عرفوا قيمة الحرية فتركوا الناس يعتقدون كما يشاؤون ويكتفون منهم بتوحيد الكلمة من جهة السياسة ٠ انني ايها السادة ارى الدين لم يخلق الا ليقرب المخلوق من الخالق فلا يمكن ولا يجوز ان يكون الدين سبباً في ابتعاد المخلوق من المخلوق فالدين لله وللامة الوطن فعلينا ان نتمسك بعروة الوطن ليعود لامتنا فخارها السابق وتكون لنا منزلة سامية بين الخلائق ٠ وقد بدت علينا علائم هذه النعمة المباركة فالواجب يقضي بتعهدها وانمائها ليكون المسلم والمسيحي والاسرائيلي اخوة في الوطن فانهم اخوة في الانسانية ابوهم آدم والام حواء افنكون في هذا العصر الزاهر اقل احتمالا وتسامحاً من اجدادنا الكرام في صدر الاسلام فقد وسعت صدورهم اهل الملل والنحل ووضعوا ايديهم في ايدي بعضهم بعضاً فكان منهم سور منيع لحفظ الدولة ورفع راية الوطن ٠

هذا صدر الدولة العربية قد وسع كثيراً من امثال كثير وقد كان يقول بالتناسخ والرجعة ومع تشيعه كان يخالف جمهور اهل الشيعة فكان

مخالفاً لاهل السنة ولاهل الشيعة ومع ذلك كان له في الدولة العز ذلك المقام الكريم · كان يقول بامامة محمد بن الحنفية وانه احق من الحسن والحسين ومن سائر الناس وانه حي مقيم بجبل رضوى لايموت · ... عن نفسه انهُ يونس بن متى بمعنى ان روح هذا الذي التقمه النون ... فيه فصار هو هو · ولقد سأل يوماً ماذا تقول الناس عنه فقيل ... الدجال فقال اني لاجد في عيني ضعفاً منذ ايام (اشارة الى ان الدجال اعور كما يقال) وحينما حضرته الوفاة كان يقول لاتبكوا علي ... بعد اربعين يوماً ارجع اليكم ·

كل هذه الاقاويل لم تمنع الناس عن القول حينما مات هو وعكرمة في يوم واحد بعد الظهر : لقد مات افقه الناس واشعر الناس ·

لم يكن كثير وحيداً في القول بالرجعة والتمتع بالحرية في الرأي فقد تمسك بمذهبه بعده كثيرون منهم السيد الحميري الشاعر المجيد وهو ابو هاشم اسمعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة كان يقول ايضا بامامة محمد بن الحنفية وانه لم يمت بل هو مقيم بجبل رضوى وقال في ذلك

الا قل للوصي فدتك نفسي — أطلت بذلك الجبل المقاما
اضر بمعشر والوك منا — وسموك الخليفة والاماما
فعادوا فيك اهل الارض طرا — مقامك فيهم ستين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت — ولا ذاقت له ارض عظاما
لقد امسى بمورق شعب رضوى — تراجعه الملائكة الكراما
هدانا الله اذ حزتم لامر — به ولديه نلتمس التماما
تمام امامة المهدي حتى — يروا آياتنا تترى نظاما

وكان الحميري يشرب الخمر جهاراً ويقول بالرجعة ليلا ونهاراً . قال لرجل تعطيني ديناراً بمائة دينار الى الرجعة قال ان وثقت لي بمن يضمن لي انك ترجع انساناً انما اخشى ان ترجع كلباً اوخنزيراً فيذهب مالي .

هذه الحرية في الفكر والاعتقاد كانت لذلك السيد الحميري في ايام الامويين فلما دالت الدولة وتغيرت الايام وانتقل الملك الى بني العباس بقي الرجل عَلَى حريته في نحلته ولم يعارضه احد من اهل الدولة الجديدة لان الحرية كانت شعار الدولة العربية فان انتقل السلطان من بيت الى بيت فالحرية ثابتة الدعائم هنا وهناك والناس بفضلهم لا بمذهبهم ورأيهم . انظروا الى السيد الحميري ودلاله عَلَى اهل الدولة الناشئة كما كان لامثاله في الدولة البائدة ذلك لما استقام الامر لابي العباس السفاح خطب يوماً فاحسن في خطبتهِ . فلما نزل عن المنبر قام اليهِ السيد الحميري فانشد

دونكموها يا بني هاشم — فجددوا من آيها الطامسا
دونكموها فالبسوا تاجها — لا تعدموا منكم لها لابسا
دونكموها لاعلا كعب من — امسى عليكم ملكها نافسا
خلافة الله وسلطانه — وعنصراً كان لكم دارسا
لو خير المنبر فرسانه — ما اختار الا منكم فارسا
والملك لو شور في ساسة — ما اختار الا منكم سائسا

فقال لهُ السفاح : سل حاجتك فقال ترضى عن سليمان بن حبيب بن المهلب وتوليه الاهواز فكتب له منشوراً بالولاية ودفعهُ اليهِ فأخذه وقدم بهِ عَلَى سليمان بالبصرة فلما وقعت عينهُ عليهِ انشده

اتيناك يا قرم اهل العراق — بخير كتاب من القائم

اتيناك من عند خير الانام وذاك ابن عم ابي القاسم
اتينا بعهدك من عنده عَلَى من يليك من العالم
يوليك فيهِ جسام الامور فانت صنيع بني هاشم

فقال لهُ سليمان شريف وشافع ووافد وشاعر ونسيب سل حاجتك فقال :

سأحكم اذ حكمتني غير مسرف ولا مقصر يا ابن الكماة الأكارم

في ابيات طلب بها جارية فارهة جميلة ومن يخدمها وبدرة ومن يحملها وفرساً رابعاً وسايسة وتختاً من صنوف الثياب وحامله قال قد امرت لك بجميع ما سألت ولك عندي في كل سنة مثله ·

هذه هي الحرية التي جعلت هشاماً الخليفة الاموي يعطي الكميت وقد انشده مائة الف درهم وقد كان الكميت مجاهراً بحب العلويين وبذم الامويين ·

هذه هي الحرية التي اشرقت اليوم شموسها عَلَى دولة آل عثمان وهي التي نرجو بها ارتفاع الدولة ومجد الوطن لا نفرق بين دين ودين ولا نعرف شيئاً آخر سوى اننا نستظل كلنا براية الهلال ·

فحذار حذار من التهاون بها او الاستهتار في سبيلها حتى لا تعود تلك الايام السود وما فيها من ظلم وظلام ·

ان الامة العثمانية قد اثقلتها المظالم واخنت عليها يد الاستبداد حتى كادت تقضي عليها ولكن العناية الربانية تداركتها بنفحة من نفحات الحرية فعادت اليها الروح ودب في جسمها الانتعاش فظهرت بهذا المظهر البديع الذي يعجب به من في الارض ومن في السموات · فاحرصوا يا رعاكم الله عَلَى الحرية فانها ملاك السعادة ·

اياكم ثم اياكم ان تنقلب هذه الحرية اباحة فتتدهور الامة في هاوية ليس لها قرار ·

يقولون ان هذا الانقلاب سلمي لم تسفك فيه قطرة من الدماء · نعم ولكن المقدمات التي اوصلت الامة العثمانية الى هذه الغاية الجيدة كانت محفوفة بالحبس والكبس · بالتشريد والتجريد · بالاحراق والاغراق بالتيتيم والتلطيم ·

افلم يكن في هذه الشناعات وفي تلك الدماء الزاكيات وفي ذلك الصراخ الذي بلغ عنان السماوات ما يكفي لشراء هذه الحرية الثمينة باغلى الاثمان يا آل عثمان ·

وفي هذا المقام اتقدم الى اهل الادب منكم وكلكم اهل الادب في تدوين تلك الحوادث التي هي اشبه بالخرافات لانها لاتكاد تدخل في دائرة المعقولات دونوها ولكن بالصدق والاخلاص ليعرف المعاصرون منكم والناشئون بعدكم انكم اشتريتم هذه الحرية باغلى الاثمان ودونوا هذه النكت وتلك النوادر مع الامانة والصدق حتى لاتنعكس النتيجة فكل شيء جاوز الحد انتهى الى الضد · لا تكتفوا بروايتها فان الذاكرة اصبحت في هذه العصور ضعيفة والمطالب كثيرة وانما هو التدوين عرفنا به مفاخر الاولين وان كان لم يصل الينا منه الا القليل · اصبحنا في عصر تشعبت فيه المعارف وكثرت امامنا الحاجيات فلا مناص لنا من التدوين الذي يحفظ الحوادث للدهور الآتية والاجيال المستقبلة ·

نعم نحن في حاجة الى تدوين كل شيء اذ قد صار من المستحيل علينا ان نضارع الحفاظ الذين اشتهرت بهم حضارة الاسلام · بل اين لنا ان

نكون مثل عامر بن شراحيل او ابن ادريس الشافعي او ابن حزم الظاهري وامثالهم ممن يعدون بالالوف هذا عامر بن شراحيل كان يقول : ما كتبت سوداء في بيضاء ولا حدثني رجل بحديث قط الا حفظته وما احببت ان يعيده علي · وما ادري شيئاً اقل من الشعر ولو شئت لانشدتكم شهراً لا اعيد ولقد نسيت من العلم ما لو حفظه رجل لكان عالماً · وهذا الشافعي يقول

علمي معي حيثما يممت ينفعني صدري وعاء له لا بطن صندوق
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي او كنت في السوق كان العلم في السوق

وهذا ابن حزم الظاهري الاندلسي احرق القوم تواليفه فقال

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل ان انزل ويدفن في قبري

ومع ذلك فقد دون الناس من اجدادنا في كل فن وفي كل شيء حتى اننا بفضل القليل الذي خلص الينا من مدونات الاقدمين عرفنا اموراً خصوصية لايمكننا ان نبدي شيئاً مما يماثلها في عصرنا هذا فمثال ذلك انا عرفنا ان السيدة سكينة المدفونة بمصر القاهرة كان مهرها الف الف درهم (خمسين الف ليرة فرنساوية تقريباً) وعلمنا انها ولدت الرباب فكانت تلبسها اللؤلؤ وتقول ما البسها اياه الا لتفضحهُ · وكان مجلسها بالمدينة كعبة للادباء والشعراء واخبارها معهم اشهر من نار عَلَى علم وخصوصاً مع الفرزدق ·

هذا من الامور الخصوصية الداخلية واما الامور العمومية فقد علمنا منها

مثلاً ان الخليفة الاموي هشام كان اذا صلى النداة بجامع دمشق فاول من يدخل عليه صاحب حرسهِ فيخبره بما حدث في الليل ثم يدخل عليه موليان له مع كل واحد منهما مصحف فيقعد احدهما عن يمينه والآخر عن شماله حتي يقرأ عليهما جزأه ثم يقومان فيدخل الحاجب فيقول فلان بالباب وفلان فيقول ائذن فلا يزال الناس يدخلون عليه حتى اذا انتصف النهار وضع الطعام ورفعت الستور ودخل الناس واصحاب الحاشية وكاتبه قاعد خلف ظهره فيقوم اصحاب الحوائج فيدنون حوائجهم فيقول لا ونعم والكاتب خلفه يوقع ما يقول حتى اذا فرغ من الطعام وانصرف الناس صار الى قائلته فاذا صلى العصر دعا بكتابه فناظرهم فيما ورد من امور الناس فاذا كانت العشاء الآخرة اقام الصلاة ثم اختلى بسماره من رجال العلم والادب ·

واتفق انهُ بعد ان صلى العشاء الآخرة واقبل سماره كعادتهم جاءه الخبر بان خاقان ملك الترك خرج بارمينية فنهض في الحال وحلف لا يؤْويه سقف حتي يفتح الله عليه ·

بمثل هذا التدوين عرفنا ايضاً كيف كان الخليفة العباسي يجلس للناس ويشتغل بامور الدولة فقد كان المنصور العباسي مثلاً يشتغل صدر نهاره بالامر والنهي والولايات وشحن الثغور والاطراف والنظر في الخراج والنفقات ومصالح الرعية فاذا صلى العشـــاء نظر فيما ورد عليهِ من كتب الثغور والاطراف وشاور سمارة وكان ولاة البريد يكتبون اليهِ كل يوم بسعر القمح والحبوب والادام وسائر المأكولات · ويحيطونهُ علماً بكل مايقضي بهِ القاضي في نواحيهم وبما يرد الى بيت المال وعلَى العموم بمايتجدد

من الحوادث في دائرة ادارتهم · فينظر في كتبهم بعد صلاة المغرب فان رأى تغيراً في الاسعار كتب الى العامل يسألهُ عن العلة ومتى ورد الجواب تلطف حتى يعود سعر ذلك البلد الى حالهِ · وان شك في شيء مما قضى بهِ القاضي كتب اليهِ في ذلك فان انكر شيئاً كتب اليهِ يوبخهُ و يلومهُ فاذا مضى ثلث الليل قام الى فراشه وانصرف سماره فاذا مضى الثلث الثاني قام من فراشــه فتوضــأ وتبوأ المحراب حتى يطلع الفجر فيعود الى عمله في الامس ·

ومشى العباسيون عَلَى هذه السنة حتى ان المعتصم عند ما جلس مع سماره في اواخر الثلث الاول من الليل ومعهُ كأس يشرب بها قال له احد سماره : انهُ سمع من رجل قادم من الثغور ثغور الروم ان في عمورية امرأة مسلمة في الاسر قالت وامعتصماه فختم عَلَى الكأس وقام من فوره واخذ الجند حتى استولى عَلَى عمورية وخلص الاسيرة ثم شرب كأسه ·

ومثلهما المنصور بن ابي عامر في الاندلس فقد بلغه ان بارض الجلالقة اسيراً يستنجد بهِ فقام من مجلس سمره لا يلوي عَلَى شيء حتى فتح تلك الحصون وخلص الاسير·

بهذه العناية من العلماء عَلَى طلب العلم ومن الرؤساء عَلَى حفظ بيضة الدولة كان للامة الاسلامية مقام كبير حتى اذا ما تولاها التراخي فاهملت شؤونها سقطت الى الحضيض · اما وقد رأيناها وهي تتأهب بفضــل الدستور وفي ظل الهلال المنير لاسترجاع مجدها فقد وجب علينا ان نتعاون قلباً وقالباً عَلَى العمل فيما يرفع شأنها فباعمال الافراد يرتقي المجموع وترتفع منزلة الدولة ·

وكيف لا نصل الى هذه الغاية من ايسر طريق وفي اقرب وقت وقد رجعت دولتنا الى السنة القديمة المجيدة تلك السنة التي قامت بفضلها الدولة العربية في ابهى المظاهر وابهر المناظر — تلك السنة ياسادتي هي سنة الشورى التي امر الله بها المسلمين وقامت بها دولتهم فعنت لها المشارق والمغارب

فان الدين الاسلامي يأمر بالشورى فاذا نظرنا الى التاريخ نجد ان دولة الاسلام بعد ان ذهب صاحب هذا الدين الى الرفيق الاعلى قد قامت بالشورى وبالمبايعة من الجماعة فقد اتفقوا كلهم عَلَى ابي بكر ثم تسلسلت الحوادث وصارت الخلافة ملكا عضوضاً يتوارثها الابناء او الاعمام او ابناء الاعمام في الشرق والغرب في دمشق وفي بغداد وفي القاهرة وقرطبة في المغرب الاقصى وفي القسطنطينية يتوارثونها بالبيعة ولكنها بيعة مزدوجة تكون اولاً من الخاصة الذين يتفقون على الخليفة ثم من العامة الذين يقرون عَلَى ماقره الخاصة ولا نجد لذلك استثناء الا في دمشق فان عمر بن عبد العزيز بعد ان جاءته الخلافة عفواً تنازل عنها وقصة ذلك ان سليمان بن عبد الملك لما مرض كتب كتاب العهد لابنه ايوب ولم يكن بالغاً فرده عن ذلك رجاء ابن حياة فقال له ما ترى في ابني داود فقال له بقسطنطينية وانت لا تدري احي هو ام ميت فقال فمن قال رأيك يا امير المؤمنين قال ما ترى في عمر فقال اعلمه والله صالحاً فاضلاً خيرا فقال ان وليتهُ ولم اول احداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ولا يتركونهُ فكتب له وجعل من بعده يزيداً اخاه وختم الكتاب وامر بجمع اهل بيته فقال لهم هذا عهدي فاسمعوا له واطيعوا وبايعوا عَلَى من فيه ففعلوا . فجاء عمر بن عبد العزيز لرجاء بن حياة فقال يارجاء قد كان لي عند سليمان حرمة وانا اخشى ان يكون قد اسند اليَّ من هذا

الامر شيئاً فان كان فاعلمني استعف فقال رجاء والله لااخبرك بحرف واحد فمضى . ثم جاءه هشام فقال لي حرمة وعندي شكر فاعلمني فقال لا والله لا اخبرك بحرف فانصرف هشام وهو يضرب بيد على يد ويقول . فالى من . ثم جددت البيعة ومات سليمان . فقرأ رجاء بن حياة الكتاب فلما ذكر عمر بن عبدالعزيز قال هشام والله لانبايعهُ . فقال له رجاء والله اذن اضرب عنقك . قم فبايع . فقام يجرر رجليه ويسترجع اذ خرج عنهُ هذا الامر وعمر يسترجع اذ وقع فيه . ثم جيء بمراكب سليمان بن عبد الملك مركب الخلافة فقال عمر قربوا اليّ بغلتي ثم خطب فقال : ايها الناس قد ابتليت بهذا الامر من غير رأي كان مني ولا مشورة واني قد خلعت ما في اعناقكم من بيعتي فاختاروا لانفسكم فصاح الناس صيحة واحدة قد اخترناك يا امير المؤمنين تلي امرنا باليمن والبركة . فقال اوصيكم بتقوى الله خلف من كل شيء ليس من تقوى الله خلف وبعد ان اتم خطبته نزل فدخل داره فامر بالستور فهتكت وبالثياب التي كانت قسطا للخلفاء فحملت وامر ببيعها وادخال ثمنها في بيت المال . ولما بلغ الخوارج سيرته وما رد من المظالم قالوا ما ينبغي لنا ان نقاتل هذا الرجل .

وقد حدثنا التاريخ بان عمر بن عبدالعزيز اشترى ملطية من الروم بمائة الف اسير فارضاهم وجعل لدولته سداً منيعاً دونهم فكانت ايامه كلها سلاماً في سلام فانظروا الى ماجرى في هذه الايام فقد قامت النمسا بالتهام البوسنة والهرسك غنيمة باردة وبغير ثمن فهل عندها مائة الف اسير او الف او اسير واحد فقط .

ولعمري ما كان اغناها عن الدخول في هذه الورطة التي اوقعت نفسها

فيها بلا طائل ولا فائدة معجلة او مؤجلة ظاهرة او باطنة لانها تحتل هاتين الولايتين بمقتضى معاهدة برلين فاي فائدة لها في هذا التملك الذي لا يرضى به حر عاقل او ذو ضمير حي ولذلك قابلتها الامة العثمانية بحرب سلمية ولكنها كانت على النمسا شراً من امتشاق الحسام تلك هي المقاطعة التجارية التي نرى آثارها في طول البلاد وعرضها هذه المقاطعة ليست من مستحدثات هذا الزمان فان اول من سنها هو نبي الاسلام عليه السلام . فقد غضب عَلَى رجل من اهل المدينة فامر الناس بمجافاته فما كان احد يتعامل معه عَلَى الاطلاق ولا كان احد يقرؤه السلام حتى تاب واهتدى فعسى ان تكون النتيجة في هذه الايام الاخيرة مثل ما كانت في تلك الايام الاولى .

وليست المقاطعة هي السنة الشريفة الوحيدة التي احياها بنو عثمان في هذا الزمان .

فاننا اذا تصفحنا التاريخ وجدنا ان الدول تقوم عَلَى ربوات من الجثث والهامات واذا اقتصرنا عَلَى ذكر دول الاسلام نرى ان دولة الامويين قامت بالسيف والنار فحروب صفين وغيرها معلومة للخاص والعام وكل الناس يعلمون ان الحجاج قتل ١٢٠ الف نفس في توطيد دعائم الدولة المروانية . كذلك دولة العباسيين قامت عَلَى قتل الامويين وقد سفك ابو مسلم الخراساني دم ٦٠ الف انسان . وكذلك دولة الامويين في الاندلس قامت عَلَى اطلال الحرب واشلاء القتلى . ومثل هذا وقع بمصر حينما دالت دولة الفاطميين فان صلاح الدين رحمه الله واكرم مثواه اضطر بحكم السياسة لارتكاب هذا الامر ولكنه تلطف فلم يدع للوم سبيلاً وذلك انه حبس الفاطميين والفاطميات في قصر كبير ومنع الرجال عن

النساء وصبر عليهم حتى قضوا نحبهم حتف انفهم · وكذلك حدث في القاهرة حينما تبوأ محمد علي سريرها فانه اخذ في مداراة المماليك واكتساب ثقتهم فلما اعيته الحيل اضطر لابادتهم في وقعة القلعة المشهورة · هذه الامثال وقد ذكرت منها القليل تدلنا عَلَى صحة قولهم ان الملك عقيم وان تأسيس الدول لا يقوم الا عَلَى الدماء · حتى جاءت هذه الايام فرأينا دولة الشورى قد قامت بسلام عَلَى سلام في سلام فعليها الف تحية وسلام ·

لعمري انها معجزة غريبة في بابها · نعم رأينا معجزة المعجزات فكيف لانصدق بما رواه لنا التاريخ من المعجزات ·

بلاد الشام هي موطن المعجزات ففيها قام الانبياء · بلاد العرب كانت لها اكبر معجزة بظهور احمد · بلاد اوربا واميركا جاءتنا بمعجزات العلوم والصناعات والفنون · بلاد اليابان في اقصى الشرق كانت لها في هذه الايام نهضة تفوق المعجزات · فلم يبق الا آل عثمان وكأنهم عجزوا عن المعجزات حتى اتونا بالامس بمعجزة هي نهاية مايصل اليه اهل الارض فقيامهم باقامة دولة الشورى هو معجزة المعجزات ·

لذلك حضرت اليكم لاهنئكم ايها السادات بمعجزة المعجزات · باعجوبة الاعاجيب وانني ارجو لدولتنا بقاء ليس له انتهاء والسلام عليكم ورحمة الله ·



القديم والحديث

لم يأت عَلَى هذه الامة دور مثل هذا اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث وانهزم القديم بضعف القائمين به وقوة انصار الحديث . عنينا بذلك ارباب التقليد ممن يرون السعادة في الاكتفاء بما تعلموه من آبائهم وورثوه عن اجدادهم من العلوم والآداب و يعدون ما عداها ضرراً يجب البعد عنه ومحاربته بكل وسيلة كما عنينا ارباب التجديد الذين يزعمون ان الاكتفاء بعلوم اهل الحضارة الحديثة وحدها كافية في رفع شأننا .

نشأت للامة ناشئة بعد ان كثر احتكاكنا باوربا في اواسط القرن الماضي عادت القديم معاداة خرجت فيها عن طور التعقل وذلك نكاية بما رأته من دعاة ذاك القديم وأكثرهم مثال الجمود والبلاهة وانموذج الفساد وسوء التربية فقامت تزهد فيهم وفيما يدعون اليه تحمل عليهم حملاتها و تتحامل عليهم بتمحلاتها وكذلك كان شأن انصار القديم مع دعاة الحديث يرمونهم بكل كبيرة و يسلبونهم كل فضيلة و يطعنون بعلومهم الا قليلاً و يعدون النافع منها مما لا يضر ولا ينفع

لاخلاف في ان ملكة الدين والآداب ضعفت في البلاد الاسلامية لضعف حكوماتها والعامل الرئيسي في كل البلاد هو السياسة اذا ضعفت يتبعها كل شيء فجهل الحكام والملوك منذ نحو الف سنة هو الذي رفع شأن المنافقين من العلماء الرسميين فصار العلم الديني يتعلمه المرء لالينال السعادتين و يكون عضواً مهما في جسم المدينة الفاضلة بل ليخدم به اغراض امراء السوء و يستولي عَلَى عقول العامة و تقبل يداه ويكرم بالباطل وهذا ماحدا بحجة الاسلام الغزالي واضرابه في عصره و بعده ان ينحوا عَلَى فقهاء السوء انحاءهم عَلَى امراء السوء لانهم يتعلمون علوم الفقه والفتيا ليتقربوا بها فقط من السلاطين ويجعلوا من الدين سلاحاً يقاتلون به من يناصبهم في شهواتهم واهوائهم . ولقد فضل الغزالي في الاحياء وتهافت الفلاسفة من يتعلمون الطب عَلَى الفقهاء وقال ان من يقولون ان علوم الدنيا تنافي الدين يجني عَلَى الدين .

شغلت الامة زمناً بنفسها فضعفت ملكاتها وكانت الحروب الصليبية وغارات التاتار من العوامل المنهكة لقواها ثم قام ملوك الطوائف وفرقوا الشمل بعد اجتماعه الى ان جاءت الدولة العثمانية وهي تاتارية لا تقيم للمدنية وزناً ولاتعرف لعلوم العمران لفظاً

ولا معنى قوتها بجندها وعلمها في ارهاف حدها وعظمتها ببطشها ومجدها باكتساح البلاد واخضاع النفوس لسطوتها فحاول محمد الفاتح احد ملوكها ان يجعل من القسطنطينية دار علم كما هي دار ملك مجاراة لدولة الجراكسة في مصر والشام ومهد لذلك الاعطيات والهبات وانشأ المدارس وحبس الاوقاف ولكن ذلك ... الا بدوامه حتى اذا مضى لسبيله عادت الحكومة الى زهدها في العلوم وقد ... رسمية على عهد المفتي أبي السعود الذي سعى لجعل العلم وراثياً وصار ابن ... اباه ووظائفه ورواتبه وان كان اجهل من قاضي جبّل . وتلك هذه ... هو الجناية الكبرى على الدين والدنيا والبلاء العمم على البلاد .

ومع ان الفرس والترك سواء في العجمة فالفرس اقدم من الترك ... اللغة العربية منذ القديم . والعربية لغة الدين لا يبرز في علومه من لم يتعلمها ولا يفهم الكتاب والسنة من لم يحكم بيانها . وما تراه من حال علماء فارس اليوم واتقانهم العربية وارتقاء علومهم الشرعية وانحطاط العربية في بلاد الترك وضعف ملكة العلوم الدينية فيها لا يرجع الا الى ان ميل ابناء فارس الى احكام العربية قديم فيهم وان الترك بامرائهم المتبربرين جمدوا على فروع قليلة من الفقه والكلام وزهدوا فيما عداها فجنوا على البلاد جناية كبرى

ولما ارادت الدولة ان تنهض وتتشبه باوربا واخذت على عهد سليم الثالث تتعلم فنون الحرب والبحر والسياسة وما ينبغي لها من الطبيعة والرياضة والاجتماع اخذت روح التفلسف تسري الى الاستانة ومنها سرت الى الولايات ومصر فلم يعبأ انصار القديم بما رأوه اولا واحتقروا ذاك السيل الجارف الآتي عليهم من اوربا وارتأى بعضهم ان خير ما يقابل به المتزندقون ان يكفروا او يحرموا او يضربوا او يحبسوا او يهددوا بالقتل او يقتلوا ولم يعدوا لذلك من العدد اللازمة لبث دعوتهم وحفظ ملكة الدين في القلوب لتسير مع علوم الدنيا كتفاً الى كتف وجاءت ادوار اصبح الوزراء وولاة الامر الا قليلا من الطائفة التي نزعت ربقة القديم فلم يبق عليها الا اسمه بل كان بعض المتطرفين في انحلالهم يدعون سراً وجهراً الى عدم التأدب بآداب الدين محتجين بما هو ماثل للعيان من فساد القائمين عليه وانحطاط المنتسبين اليه .

وها قد اصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين والدنيا والامة شطرين شطر هو الى

البلاهة والغباوة وشطر الى الحمق والنفرة وبعبارة اخرى نسينا القديم ولم نتعلم الجديد . ومن الغريب ان معظم المستنيرين بقبس العلوم الاوربية منا لا يرجعون الى آداب دينهم و يميلون في الظاهر والباطن الى ان يكون الدين فقط جامعة تجمع الامة على مثال الجامعات السياسة والجنسية واذاسألتهم عن الحلال والحرام وعما شرعته الاديان صعروا اليك خدودهم وقالوا لك ان الامة تعيش بحديثها دون قديمها وان ذاك القديم ان لم يضرنا الاخذ به فهو لا ينفعنا والعاقل لا يقبل الا على ما ينفعه و يعلي قدره

تلك هي شنشنة انصار الحديث اوالملاحدة والزنادقة الطبيعيون كما يطلق عليهم المتدينون وهذه حالة هولاء مع اولئك وستكون الغلبة لانصار الحديث اذا لم يقم خصومهم بلم شعثهم على صورة معقولة مقبولة وبين هذين الفريقين فريق ثالث اختار التوسط بينهما فلم يطرح القديم كله ولا الاخذ بالحديث بجملته بل آثر ان يأخذ النافع من كل شيء و يضم شتاته وهذا الفريق المعتدل على قلته لا يلاقي العقلاء من اهل الفريقين الآخرين مقاومة فعلية وعامتها غير راضين عنهم بالطبع لان اكثر الناس يحبون ان تكون معهم اوعليهم ولا وسط بين ذلك .

ولقد كتب الينا احد علماء الشرقيات في برلين وهو ممن طافوا بلاد الشرق وسكنوا فيه زمنا وانقطعوا لدرس احواله الاجتماعية وعلومه الارثية كتابا بالعربية فيه المقتبس وما يجب للمسلمين ان يقوموا به لقيام امرهم بعد ذلك السبات الطويل قال فيه :

اما الرسائل التي هي لبها (المجلة) فرأيتها تدور ابداً على حث الناس على درس العلوم المدنية التي تركت في العالم الشرقي منذ نحو خمسمائة سنة واقتباس الآثار الافرنجية الحديثة فيها واحياء الادبيات العربية وهذا مطابق بحسب اختباري للطريقة الصحيحة لسعادة الامم اذ لا فائدة من تقليد الاجانب وحده ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية (الوطنية) وحده بل الخير كل الخير في الاخذ من هنا وهناك وتعميم الدرس والبحث مع اضرام تلك الشعلة العظيمة التي هي ذات نور وذات حرارة وذات انبات واعني بها المبدأ الشعبي ولنا ان نسميه الشعوبية على شرط ان نجرده من الرائحة غير المقبولة

اجتهد الاسلام والنصرانية ان ينشأ آ جمعية تقوم بالدين وحده ليكون اصل

الشهادة بذلك الدين ظاهرين عَلَى الدين كله الا انهما فشلا . وتقد ... المسلمين بان الجامعة الاسلامية التي ستكون في آخر هذه السنة لن تأتي بما يرجون ... تقوية عروة الدين بل ستقوي الاحزاب الشعبية وربما يتسع الخرق بين الجماعات ... المذهب الديني . اما انا فاقول ان تقوية روابط المسلمين مع من حولهم من ... المبنية عَلَى وحدة التربية والاخلاق والعادات وعَلَى وحدة اللسان لا تحط ... الدين نفسه لان هذا الاجتماع من شأنه ان يدعو الى نمو عامة القوى فيزيد من ... الحياة الدينية اعتقاداً وعملاً كما يزيد من له ميل الى غير الدين قوة فيما اختاره ... فمن مصلحة كل دين ان يكون نصف منتحليه مجتهدين مخاصين أكثر من ... فاترين غير مكترثين بشيء اه

هذا ما كتب لنا به العالم الغربي الشرقي منذ اشهر ونشرناه ليطلع عليه ... والحديث فيعلم الجامدون عَلَى مسطور القديم ان لاقيام لامرنا بغير الاخذ من مدنية ... ويدرك انصار الحديث بان هذه المدنية الجديدة التي بهرتهم بزخارفها وسفاسفها لا تنفعهم ولتنفع بني قومهم الا اذا رافقها ما يجملها من علوم الاسلاف وآدابهم والامم التي تنزع ربقة قديمها جملة واحدة وتنتقل الى طور آخر دفعة قد ينعكس عليها الامر ويلتوي عليها القصد ولم تنجح اليابان الا لكونها اقتبست المدنية الغربية ومزجتها باجزاء مدنيتها وهذا سر قول العالم المشار اليه « لا فائدة من تقليد الاجانب وحده ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية » اي ماورثناه عن اجدادنا من التشبث باهداب الوطنية وذكر القديم والحرص عليه

ولنا في الغرب دولتان كبريان هما مثال في اقتباس الجديد والحرص عَلَى القديم . فقد شهدنا المانيا الى اليوم تجري في مدارسها وكلياتها عَلَى آداب النصرانية المنقحة فلا توسد التدريس فيها الا لرجل عرفت ترجمته وحياته مخافة ان يفسد عليها تربية ابنائها فتكون مدنية دينية اما فرنسا فناهضت الدين منذ زهاء مئة سنة وزادت مناهضتها له في السنين الاخيرة حتى نزعت لفظ الجلالة من المعاهد العامة واخذت تضيق الخناق عَلَى اهل التدين من حملة العلم والاقلام حتى صار المتدين سراً يتجاهر بالانحلال جهراً ليأمن عَلَى معاشه ورزقه وسموا هذا حرية ولكن الله يحصي عَلَى الامم ذنوبها كما لا يغفل عن الافراد وها قد اخذت المدنية الافرنسية التي بهرت العيون في الزمن الماضي ترجع

القهقرى وعلماء الاخلاق فيها يبكون دماً عَلَى انبتات شملهم وتراجع عمرانهم حتى روى بعض الاحصائيين ان عدد الفرنسيس سينزل في اواخر القرن العشرين الى ثلاثة ملايين لان المواليد اخذت تنقص عن الوفيات اما في المانيا فبفضل التربية الدينية والحرص عَلَى الاخلاق قبل الحرص عَلَى تلقين العلوم فان النفوس تتزايد سنة عن سنة بحيث خيف من تكاثر نسلهم عَلَى البلاد المجاورة لهم مع ما هم عليهِ من المدنية الصحيحة والعلم بالصناعات والفنون ولا غرو فان من خلق الالماني ان يترك من القديم كل ما ينفع منه اما الفرنسوي فيجرف منه النافع مع الضار وشتان بين الخلقين والمدنيتين وها هي النتيجة قد ظهرت للعيان منذ الآن

وبعد فان كل عاقل عرف تاريخ هذه الامة يرى الخير كل الخير في احتفاظها بقديمها وضم كل ما ينفع من هذا الجديد عَلَى ان تكون للدين والعلم حريتهما فتكون المعتقدات بمأمن من طعن الطاعنين بها كما تجري المدنية عَلَى الشوط الذي تستنسبه واذا رأى بعضهم في بعض المعتقدات ما لا ينطبق عَلَى روح الحضارة والعلوم العصرية فالاولى ان يطبقوا العقل عَلَى النقل كما هو رأي كبار علماء الاسلام منذ القديم . واذا عجزت عقولهم عن ذلك فالاجدر بهم ان يأخذوا بعض القضايا بالتسليم ويتركوا العالم حرًّا يسير وحده دون ان يعوقه عائق وما نخال وكل عاقل الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله اعلم

التربية والامهات

هي الاخلاق تنبت كالنبات اذا سقيت بماء المكرمات
تقوم اذا تعهدها المربي عَلَى ساق الفضيلة مثمرات
وتسمو للمكارم باتساق كما اتسقت انابيب القناة
وتنعش من صميم المجد روحا بازهار لها متضوعات
ولم أر للخلائق من محل يهذبها كحضن الامهات
فحضن الام مدرسة تسامت بتربية البنين او البنات

واخلاق الوليد تقاس حسناً باخلاق النساء الوالدات
وليس ربيب عالية المزايا كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت في جنان كمثل النبت ينبت في الفلاة

***

فياصدر الفتاة رحبت صدراً فانت مقرّ اسني العاطفات
نراك اذا ضممت السفل لوحا يفوق جميع الواح الحياة
اذا استندالوليدعليك لاحت تصاوير الحنان مصورات
لاخلاق الصبيّ بك انعكاس كما انعكس الخيال عَلَى المراة
وما ضر بان قلبك غير درس لتلقين الخصال الفاضلات
فاوّل درس تهذيب السجايا يكون عليك ياصدر الفتاة
فكيف نظن بالابناء خيراً اذا نشأوا بحضن الجاهلات
وهل يرجى لاطفال كمالٌ اذا ارتضعوا ثديّ الناقصات
فما للامهات جهلن حتى أتين بكل طياش الحصاة
حنون عَلَى الرضيع بغير علم فضاع حنوّ تلك المرضعات

***

أأم المؤمنين اليك نشكو مصيبتنا بجهل المؤمنات
فتلك مصيبة ياامّ منها « نكاد نغص بالماء الفرات »
تخذنا بعدك العادات ديناً فاشقى المسلمون المسلمات
فقدسلكوا بهن سبيل خسر وصدوهن عن سبل الحياة .
بحيث لزمن قعر البيت حتى نزلن به بمنزلة الاداة
وعدّوهن اضعف من ذباب بلا جنح واهون من شذاة
وقالوا شرعة الاسلام تقضي بتفضيل الذين عَلَى اللواتي
وقالوا ان معنى العلم شيء تضيق به صدور الغانيات
وقالوا الجاهلات اعف نفسا عن الفحشا من المتعلمات
لقد كذبوا عَلَى الاسلام كذباً تزول الشم منه مزلزلات
اليس العلم في الاسلام فرضاً عَلَى ابنائه وعَلَى البنات

وكانت امنا في العلم بحراً تحل لسائليها المشكلات
وعلمها النبي اجل علم فكانت من اجل العلمات
لذا قال ارجعوا ابداً اليها بثلثي دينكم ذي البينات
وكان العلم تلقيناً فامسى يحصل بانتياب المدرسات
وبالتحرير من كتب ضخام وبالقلم الممد من الدواة
ألم تر في الحسان الغيد قبلاً اوانس كاتبات شاعرات
وقد كانت نساء القوم قدماً يرحن الى الحروب مع الغزاة
يكن لهم على الاعداء عونا وفي مدن الجروح الداميات
وكم منهن من أسرت وذاقت عذاب الهون في اسر العداة

***

فماذا اليوم ضرّ لو التفتنا الى اسلافنا بعض التفات
فهم ساروا بنهج هدى وسرنا بمنهاج التفرق والشتات
نرى جهل الفتاة لها عفافاً كأنّ الجهل حصن للفتاة
ونحتقر الحلائل لا لجرم فتؤذيهن انواع الاذاة
ونلزمهن قعر البيت قهراً ونحسبهن فيه من الهنات
لئن وأدوا البنات فقد قبرنا جميع نسائنا قبل الممات
حجبناهن عن طلب المعالي فعشن بجهلهن مهتكات
ولو عدمت طباع القوم لؤماً لما غدت النساء محجبات
وتهذيب الرجال اجل شرط لجعل نسائهم متهذبات
وما ضر العفيفة كشف وجه بدا بين الاعفاء الاباة
فدى لخلائق الاعراب نفسي وان وصفوا لدينا بالجفاة
فكم برزت بحيهم الغواني حواسر غير ما متريبات
وكم خشف بمربعهم وظبي يمرّ مع الجداية والمهاة
ولولا الجهل ثمّ لقلت مرحى لمن ألفوا البداوة في الفلاة

بغداد معروف الرصافي

الشعوبية

يقوى تفاخر اهل كل عنصر بعنصرهم واهل كل جنس بجنسهم كما كانت الهمجية والعصبية الجاهلية . جاء الاسلام فكان من اعظم اصلاحه الغاء الجنسيات والقضاء على التفاخر بالآباء والاجداد فساوى بين العربي والاحمر والاصفر والابيض والاسود وكانت قاعدته العامة لا فضل لعربي الا بالتقوى

والظاهر ان دعوى الشعوبية اي عدم الاعتداد بالعرب وتفضيل . . . دخلت بدخول اجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط في خدمة الدولة . . . فنشأت منها العداوات بين العرب اهل الدولة وبين العجم كما كانت . . . البلاد بين تركي وعربي كلما اشتد الاول في ارهاق الثاني

سألنا استاذنا الشيخ طاهر الجزائري عن الشعوبية فكتب الينا . . . « اما الزمن الذي ظهرت فيه الشعوبية فلا يحضرني فيه شيء . والوقوف على اوائل الاشياء من اصعب المسائل وادقها الا ان الذي ظهر لي ان ذلك حدث بعيد عصر الخلفاء الراشدين لوجود الداعي الى ذلك وهو التفاخر بالجنس الذي هو من عادات الجاهلية التي اتى الدين بابطالها . ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي في اوائل الامة زال عنه الشك في هذه المسألة ولا يدخل في هذا الامر بحث المؤرخ عن خصائص الاجناس مما يقصد به الوقوف على الحقائق فان هذا نوع آخر الا ان من بحث عن احوال الامم ووفى النظر حقه تبين له ان العرب في الجملة لا تساميهم امة البتة

« واظن انه لا بد ان تؤلف بعد حين كتب في خصائص الامم وكتب في خصائص البلاد كما ألفت كتب في خصائص اللغات وتجعل من الفنون التي يعنى بها وتميز عن غيرها ولا نذكر بطريق العرض الا ان فن خصائص الامم تتيسر المشاغبة فيه والمغالطة اكثر من غيره الا ان كل فن وضعت مقدماته ونقحت مسائله يبدو بسرعة عوار المغالط فيه . هذا وكما حدث بعد عصر الخلفاء امر المفاضلة بين العرب والعجم حدث امر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية وهما الفريقان اللذان يجمعهما اسم العرب ونشأ بسبب ذلك من الفتن ما يعرفه المولع بالاخبار ولم يزل اثر ذلك باقيا

في بعض الجهات الى ما قبيل عصرنا وقد رأيت في بعض البلاد اناساً يقولون الى الآن نحن قيسية وآخرين يقولون نحن يمانية . »

هذا ما قاله استاذنا وفيه من كشف الغامض ما لم نظفر به في كتاب .
والشعوبي بالضم محتقر امر العرب قال ابن منظور وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقر امر العرب شعوبي اضافوا الى الجمع لغلبته عَلى الجيل الواحد كقولهم انصاري وهم الشعوبية وهم فرقة لا تفضل العرب عَلَى العجم ولا ترى لهم فضلا على غيرهم واما الذي في حديث مسروق ان رجلا من الشعوب اسلم فكانت تؤخذ منه الجزية فامر عمر ان لا تؤخذ منه قال ابن الاثير الشعوب ههنا العجم ووجهه ان الشعب ما تشعب من قبائل العرب او العجم فخص باحدهما ويجوز ان يكون جمع الشعوبي كقولهم اليهود والمجوس في جمع اليهودي والمجوسي

قال شارح المفصل في شرح قول الزمخشري « الله احمد عَلَى ان جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعرب والعصبية وابى لي ان انفرد عن صميم انصارهم وامتاز وانضوي الى لفيف الشعوبية وانحاز » والشعوبية مصدر الشعوبي بضم الشين وهو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم عَلَى العجم فضلا اذ الفضل بالتقوى وهو منسوب الى قوله تعالى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم .
وقال ابن الحاجب في شرح المفصل ايضاً (١) والشعوبية بضم الشين قوم متعصبون عَلَى العرب مفضلون عليهم العجم وان كان الشعوب جيل العجم الا انه غلبت النسبة اليه لهذا القبيل ويقال ان منهم معمر بن المثنى وله كتاب في مثالب العرب وقد انشد بعض الشعوبية للصاحب بن عباد يمدحه

غنينا بالطبول عن الطلول	وعن عنس عذافرة ذمول
فلست بتارك ايوان كسرى	لتوضح او لحومل فالدخول
وضب بالفلا ساع وذئب	بها يعوي وليث وسط غيل
اذا نحروا فذلك يوم عيد	وان ذبحوا ففي عرس جليل
يسلان السيوف لرأس ضب	هراشاً بالغداة وبالاصيل
باية رتبة قدمتموها	على ذي الاصل والشرف الاصيل

(١) هو من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق .

اما لو لم يكن للفرس الا نجار الصاحب العدل الجليل
لكان لهم بذلك خير عز وجيلهم بذلك خير جيل

فقال له الصاحب قدك ثم قال لبديع الزمان اجبه فاجابه مرتجلا

اراك على شفا خطر مهول بما اودعت رأسك من فضول
طلبت عَلَى مكارمنا دليلا متى احتاج النهار الى دليل
السنا الضاربين جزى عليكم فان الجزى اقعد بالذليل
متى قرع المنابر فارسي متى عرف الاغر من الحجول
متى علقت وانت بها زعيم أكف الفرس اعراف الخيول
فخرت بملءُ ماضغتيك فخراً على قحطان والبيت الاصيل
فخرت بان مأكولا ولبساً وذلك فخر ربات الحجول
تفاخرهن في خد اسيل وضرع من مفارقة رسيل

فقال الصاحب للشعوبي : كيف ترى فقال : لو سمعت ما صدقت ثم قال له : جائزتك جوازك ان وجدتك بعدها في مملكتي ضربت عنقك

وفد النعمان بن المنذر على كسرى (١) فوجد عنده وفود الروم والهند والصين فذكروا من ملوكهم وبلادهم فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم عَلَى جميع الامم لا يستثني فارساً ولا غيرهم فقال كسرى واخذته عزة الملك يا نعمان لقد فكرت في امر العرب وغيرهم من الامم فرأيت الروم كذا ووصف من حالهم وجعل يثني عليهم ورأيت الهند التي لها كذا وكذا ثم قال مثل ذلك في الترك والخزر والصين متى ذكر قبيلة اثنى عليها ووصف ما يفتخرون به ثم قال ولم ار للعرب شيئاً من خصال الخير وجعل يصف شأنهم وهو يحقرهم ويصغرهم فقال النعمان : اصلح الله الملك وجعل يثني عليه ثم قال : الا ان عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له فان آمنني من غضبه نطقت به قال كسرى فانت آمن فقال النعمان اما امتك ايها الملك فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به في عقولها واحلامها وبسطة محلها وبحبوحة عزها وما اكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك واما الامم التي ذكرت فاي امة تقرنها بالعرب الا فضلتها .قال كسرى : بما ذا قال النعمان بعزها ومنعتها وحسن وجوهها

(١) كتاب الف با لابي الحجاج يوسف بن محمد البلوي .

ودينها وبأسها وسخائها وحكمة السنها وشدة عقولها ونفتها ووفائها فاما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجنود لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل حصونهم ظهور خيولهم ومهادهم الارض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر اذ غيرها من الامم انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور

واما حسن وجوهها والوانها فقد تعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المحرقة والصين المختنمة والترك المشوهة والروم المقشرة واما حسبها وانسابها فليست امة من الامم الا وقد جهلت آباءها واصولها وكثيراً من اولها وآخرها حتى ان احدهم يسأل عن وراء ابيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه وليس احد من العرب الا يسمي آباءه اباً اباً حفظوا بذلك احسابهم وضبطوا به انسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب الى غير نسبه ولا يدعى الى غير ابيه واما سخاؤها فان ادناهم رجلا الذي يكون عنده البكرة او الناب عليها بلاغة في حمولته وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزئ بالشربة فيعقرها له ويرضى ان يخرج له من دنياه كلها فيما يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الثناء

واما حكمة السنتها فان الله اعطاهم في اشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالاشارة وضرب الامثال وابلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من السنة الاجناس ثم خيلهم افضل الخيول ونساؤهم اعف النساء ولباسهم افضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة والحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم التي لا يبعد عن مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر

واما دينها وشريعتها فانهم متمسكون بها حتى يبلغ احدهم من تمسكه بدينه ان لهم اشهراً حرماً وبلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل ابيه او اخيه وهو قادر على اخذ ثاره وادراك دمه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بالاذى واما وفاؤها فان احدهم يلحظ اللحظة ويومئ الايماء فهي الب وعقد لا يحلها الا خروج نفسه وان احدهم ليرفع عوداً من الارض فيكون رهناً بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته وان احدهم ليبلغه ان رجلا استجار به وعسى ان يكون نائياً عن داره فيصاب فلا يرضى حتى تفنى تلك القبيلة التي اصابته او تفنى

قبيلته لماالخفر من جواره وانه ليلجأ اليهم المجرم المحروب من غير معرفة ولا قرابة فتكون انفسهم دون نفسه واموالهم دون ماله واما قولك ايها الملك انهم يئدون اولادهم من الخ... فانما يفعله من يفعله منهم بالاناث انفة من العار وغيرة من الازواج واما تحاربهم واكل بعض ... بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من الام... اذا آنست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف وانه انما يكون ... المملكة العظيمة اهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائرهم فيلقون اليهم امورهم و ينقادون ... اليهم بازمتهم

فاما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكاً اجمعين ... انفتهم من اداء الخراج والوطء والعسف فعجب كسرى مما اجابه النعمان به وقال : ... لاهل لموضعك من الرياسة في اقليمك ولما هو افضل ثم كساه من كسوته وسرحه ... موضعه من الحيرة فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقيص العرب وتهجين امرهم بعث الى اكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة وجماعة من رؤوس العرب سماهم فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم : قد عرفتم حال هذه الاعاجم وقرب جوار العرب منهم وقد سمعت من كسرى مقالة اتخوف ان يكون لها غدر واقتص عليهم مقالة كسرى وما رد عليه فقالوا : وفقك الله ايها الملك ما احسن ما رددت عليه وابلغ ما حججته به فمرنا بامرك وادعنا الى ما شئت قال: النعمان انما انا رجل منكم وانما ملكت وعززت بمكانكم وبما يتخوف من ناحيتكم وليس شيء احب الي مما سدد الله به امركم واصلح به شأنكم والرأي ان تسيروا بجماعتكم ايها الرهط وتنطلقوا بكتابي هذا الى باب كسرى فاذا دخلتم عليه نطق كل واحد منكم بما حضره ليعلم ان العرب على غير ما ظن او حدثته به نفسه ووصاهم بوصايا فذهبوا اليه وقد ساق القصة صاحب العقد واوردها ابو الحجاج يوسف بن محمد البلوي في كتاب الف با

ومن حجة (١) الشعوبية على العرب ان قالت انا ذهبنا الى العدل والتسوية وان الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد واحتججنا بقول النبي عليه الصلاة والسلام : المؤمنون اخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم . وقوله في حجة الوداع وهي خطبته التي ودع فيها امته وختم نبوته : ايها الناس

(١) العقد الفريد الجزء الثاني ص ٧٠

ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربي على عجمي فضلٌ الا بالتقوى . وهذا القول من النبي عليه الصلاة والسلام موافق لقول الله تعالى (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) فابيتم الا فخراً وقلتم لا تساوينا وان تقدمتنا الى الاسلام ثم صليت حتى تصير كالحني وصمت حتى تصير كاوتار ونحن نسامحكم ونجيبكم الى الفخر بالآباء الذي نهاكم عنه نبيكم صلى الله عليه وسلم اذ ابيتم الا خلافه وانما نجيبكم الى ذلك لاتباع حديثه وما امر به صلى الله عليه وسلم فنرد عليكم حجتكم في المفاخرة ونقول : اخبرونا ان قالت لكم العجم هل تعدون الفخر كله ان يكون ملكاً او نبوة فان زعمتم انه ملك قالت لكم : وان لنا ملوك الارض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالقة والاكاسرة والقياصرة وهل ينبغي لاحد ان يكون له مثل ملك سليمان الذي سخرت له الانس والجن والطير والريح وانما هو رجل منا ام هل كان لاحد مثل ملك الاسكندر الذي ملك الارض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها وبنى ردماً من حديد ساوى به بين الصدفين وسجن وراءه خلقاً من الناس تربي عَلَى خلق الارض كلها كثرة لقول الله عز وجل (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) فليس شيءٌ ادل عَلَى كثرة عددهم من هذا او ليس لاحد من ولد آدم مثل آثاره في الارض ولو لم يكن له الا منارة الاسكندرية التي اسسها في قعر البحر وجعل في رأسها مرآة يظهر البحر كله في زجاجتها وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب احدهم الى عمر بن عبد العزيز : من ملك الاملاك الذي هو ابن الف ملك والذي تحته بنت الف ملك والذي في مربطه الف فيل والذي له نهران ينبتان العود والفوة والجوز والكافور والذي يوجد ريحه عَلَى اثني عشر ميلاً الى ملك العرب الذي لا يشرك بالله شيئاً اما بعد فاني أردت ان تبعث اليَّ رجلا يعلمني الاسلام ويوقفني عَلَى حدوده والسلام . وان زعمتم انه لا يكون الفخر الا بنبوة فان منا الانبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ما خلا اربعة هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمداً ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الاصل وانتم الفرع وانما انتم غصن من اغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم وادعوا

ولم تزل للامم كلها من الاعاجم في كل شق من الارض ملوك تجمعها ومدائن تضمها واحكام تدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها في الادوات والصناعات مثل صنعة

الديباج وهي ابدع صنعة ولعب الشطرنج وهي اشرف لعبة ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون والاسطرلاب الذي يعدل به النجوم ويدرك به علم الابعاد ودوران الافلاك وعلم الكسوف لم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصيها ويقمع ظالمها وينهى سفيهها ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا اثر في فلسفة الا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم وذلك ان للروم اشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض فما الذي تفخر به العرب على العجم فانما هي كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض فرجالها موثوقون في حلق الاسر ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل فاذا ادركهن الصريخ استنقذن بالعشي . قال يجيء يعير العرب باختلافها في النسب واستلحاقها للادعياء

زعمتم بان الهند اولاد خندف وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة ناسل وبرجان من اولاد عمرو بن عامر
فقد صار كل الناس اولاد واحد وصاروا سواء في اصول العناصر
بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم واولى بقربانا ملوك الأكاسر
اتطمع في صهري دعيا مجاهراً ولم تر ستراً من دعي مجاهر
وتشتم لؤماً رهطه وقبيله وتمدح جهلا طاهراً وابن طاهر

وقال الحسن بن هانيء على مذهب الشعوبية :

وجاورت قوماً ليس بيني وبينهم اواصر الا دعوة وبطون
اذا ما دعا باسمي العريف اجبته الى دعوة مما عليّ يهون
لازد عمان بن المهلب نزوة اذا افتخر الاقوام ثم تلين
وبكر يرى ان النبوة انزلت على مسمع في البطن وهو جنين
وقالت تميم لا نرى ان واحداً كأحنفنا حتى الممات يكون
فلا لمت قيساً بعدها في قتيبة اذا افتخروا ان الحديث شجون

قال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب : واما اهل التسوية فان منهم قوماً اخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه فذهبوا الى قوله عز وجل : ان اكرمكم عند الله اتقاكم وقوله : انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم -

والى قول النبي عليه الصلاة والسلام في خطبته في حجة الوداع ايها الناس ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهليـة وتفاخرها بالآباء ليس لعربي على عجمي فخر الا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب . وقوله المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم وانما المعنى في هذا ان الناس كلهم من المؤمنين سواء في طريق الاحكام والمنزلة عند الله عز وجل والدار الآخرة لو كان الناس كلهم سواء في امور الدنيا ليس لاحد فضل الا بامر الآخرة لم يكن في الدنيا شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم اذا اتاكم كريم قوم فأكرموه وقوله صلى الله عليه وسلم اقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم وقوله صلى الله عليه وسلم في قيس بن عاصم هذا سيد الوبر . وكانت العرب تقول لا يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا . تقول لا يزالون بخير ما كان فيهم اشراف واخيار فاذا حملوا كلهم جملة واحدة هلكوا او اذا ذمت العرب قوماً قالوا : سواسية كاسنان الحمار وكيف يستوي الناس في فضائلهم والرجل الواحد لا تستوي في نفسه اعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله ولكن لبعضها الفضل على بعض وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس الخمس وقالوا القلب امير الجسد ومن الاعضاء خادمة ومنها مخدومة

قال ابن قتيبة : ومن اعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب بآدم عليه السلام وبقول النبي عليه الصلاة والسلام لا تفضلوني عليه فانما انا حسنة من حسناته ثم فخرهم بالانبياء اجمعين وانهم من العجم غير اربعة هود وصالح واسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام واحتجوا بقول الله عز وجل ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ثم فخروا باسحق بن ابراهيم وانه لسارة وان اسماعيل لامة تسمى هاجر قال شاعرهم :

في بلدة لم تصل عكن بها طنباً ولا خباء ولا عك وهمدان
ولا لجرم ولا نهد بها وطن لكنها لبني الاحرار اوطان
ارض تبني بها كسرى مساكنه فما بها من بني اللخناء انسان

فبنو الاحرار عندهم العجم وبنو اللخناء عندهم العرب لانهم من ولد هاجر وهي امة وقد غلطوا في هذا التأويل وليس كل امة يقال لها اللخناء من الاماء الممتهنة في رعي الابل وسقيها وجمع الحطب وانما اخذ من اللخن وهو نتن الريح يقال لخن السقاء اذا

تغير ريحه فاما مثل هاجر التي طهرها الله من كل دنس وارتفعاها للخليل فراشاً وللطيبين اسماعيل ومحمد امًّا وجعلهما سلالة فهل يجوز للمحد فضلاً عن مسلم ان تسمى الخناء

قال بعض من يرى رأي الشعوبية فيما يرد به على ابن قتيبة في تباين الناس وتفاضلهم والسيد منهم والمسود انا نحن لا ننكر تباين الناس ولا تفاضلهم ولا السيد منهم والمسود والشريف والمشروف ولكنا نزعم ان تفاضل الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا باحسابهم ولكنه بافعالهم واخلاقهم وشرف انفسهم وبعد هممهم الا ترى انه من كان دنيّ الهمة ساقط المروءة لم يشرف وان كان من بني هاشم في ذؤابتها ومن امية في أرومتها ومن قيس في اشرف بطن منها انما الكريم من كرمت افعاله والشريف من شرفت همته وهو معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام اذا اتاكم كريم قوم فاكرموه وقوله في قيس بن عاصم هذا سيد اهل الوبر انما قال فيه لسؤدده في قومه بالذب عن حريمهم وبذله رفده لهم الا ترى ان عامر بن الطفيل كان في اشرف بطن في قيس يقول :

وإني وان كنت ابن سيد عامر ... وفارسها المشهور في كل مركب
فما سودتني عامر عن وراثة ... ابى الله ان اسمو بام ولا أب
ولكنني احمي حماها واتقي ... أذاها وأرمي من رماها بمنكب

وقال آخر :

انا وان كرمت اوائلنا ... لسنا على الاحساب نتكل
نبني كما كانت اوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وقال قس بن ساعدة لاقضين بين العرب بقضية لم يقض بها احد قبلي ولا يردها احد بعدي ايما رجل رمى رجلاً بملامة دونها كرم فلا لوم عليه وايما رجل ادعى كرماً دونه لؤم فلا كرم له . ومثله قول عائشة ام المؤمنين كل كرم دونه لؤم فاللؤم اولى به وكل لؤم دونه كرم فالكرم اولى به . تعني بقولها ان اولى الاشياء بالانسان طبائع نفسه وخصالها فاذا كرمت فلا يضره لؤم اوليته وان لؤمت فلا ينفعه كرم اوليته وقال الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكر والاقداما * وجعلته ملكاً هماما

وقال آخر :

مالي عقلي وهمتي حسبي ما انا مولى ولا انا عربي
ان انتمى منتم الى احد فانني منتم الى ادبي

روى ابو العيناء الهاشمي عن المخذمي عن شبيب بن شبة قال كنا وقوفاً بالمربد موضع بالبصرة وكان المربد مألف الاشراف اذ اقبل ابن المقفع فبششنا به وبدأناه بالسلام فرد علينا السلام ثم قال : لو ملتم الى دار نيروز وظلها الظليل وسورها المديد ونسيمها العجيب فعودتم ابدانكم تمهيد الارض وارحتم دوابكم من جهد الثقل فان الذي تطلبونه لم تفاتوه ومها قضى الله لكم من شيء تنالوه · فقبلنا وملنا فلما استقر بنا المكان قال لنا : اي الامم اعقل فنظر بعضنا الى بعض فقلنا: لعله اراد اصله من فارس فقلنا: فارس فقال : ليسوا بذلك انهم ملكوا كثيراً من الارض ووجدوا عظيماً من الملك وغلبوا على كثير من الخلق ولبث فيهم عقد الامر فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم قلنا : فالروم قال : أصحاب صنعة قلنا : فالصين قال اصحاب طرفة قلنا فالهند قال اصحاب فلسفة قلنا السودان قال : شر خلق الله قلنا : الخزر قال : بقر سائمة قلنا : فقل قال : العرب قال : فضحكنا قال : اما اني ما اردت موافقتكم ولكن اذ فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار اثرت اصحاب ابل وغنم وسكان شعر وادم يجود احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ويشارك في ميسوره ومعسوره ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ويفعله فيصير حجة ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح ادبتهم انفسهم ورفعتهم هممهم واعلتهم قلوبهم والسنتهم فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم في انفسهم حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم اشرف الذكر وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر على الخير فيهم ولهم فقال سبحانه ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين فمن وضع حقهم خسر ومن انكر فضلهم خصم ودفع الحق باللسان اكبت للجنان اه

اما عناية الاسلام باسقاط الجنسية فتراه ماثلاً من حسن معاملتهم للموالي فقد (١) ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش موتة زيداً مولاه وقال ان قتل فاميركم

(١) الكامل للمبرد

جعفر وامر رسول الله أسامة بن زيد فبلغه ان قوماً قد طعنوا في امارته وكان امره على جيش فيه جلة المهاجرين والانصار فقال عليه السلام ان طعنتم في امارته فقد طعنتم في امارة ابيه قبله ولقد كان لها اهلاً وان أسامة لها لاهل . وقالت عائشة لو كان زيد حياً ما استخلف رسول الله غيره وقال عبد الله بن عمر لابيه : فضلت أسامة عليّ وانا وهو سيان فقال : كان ابوه احب الى رسول الله من ابيك وكان احب الى رسول الله منك اوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ازواجه ان تميط عن أسامة اذى من مخاط اولعاب فكأنها تكرهته فتولى منه ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال له يوماً ولم يكن أسامة من اجمل الناس لو كنت جارية لحليناك وحلبناك حتى يرغب الرجال فيك وفي بعض الحديث انه قال أسامة من احب الناس اليّ . وكان صلى الله عليه وسلم ادى الى بني قريظة مكاتبه سلمان فكان سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علي بن ابي طالب عليه السلام سلمان منا اهل البيت ويروى ان المهدي نظر اليه وبيد عمارة بن حمزة في يده فقال له رجل: من هذا يا امير المؤمنين فقال: اخي وابن عمي عمارة بن حمزة فلما ولى الرجل ذكر ذلك المهدي كالمازح لعمارة فقال له عمارة انتظرت انه يقول: ومولاي فانفض والله يدك من يدي فتبسم امير المؤمنين المهدي ولم يكن الاكرام للموالي في جفاة العرب

زعم الليثي انه كانت بين جعفر بن سليمان وبين مسمع بن كردين منازعة وبين يدي مسمع مولى له له بهاء ورواء ولسن فوجه جعفر الى مسمع مولى له ينازعه ومجلس مسمع حافل فقال ان انصفني والله جعفر انصفته وان حضر حضرت معه وان عند عن الحق عندت عنه وان وجه اليّ مولى مثل هذا واومأ الى مولى جعفر فقال مولى مثل هذا عاضاً لمابكره وجهت اليه واومأ الى مولاه فعجب اهل المجلس من وضعه مولاه ذلك الموضع الذي تباهي بمثله العرب وقد قيل الرجل لابيه والمولى من مواليه . وفي بعض الاحاديث ان المعتق من فضل طينة المعتق . ويروى ان سلمان اخذ من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تمرة من تمر الصدقة فوضعها في فيه فانتزعها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابا عبد الله انما يحل لك من هذا ما يحل لنا . ويروى ان رجلا من موالي بني مازن يقال له عبد الله بن سليمان وكان من جلة الرجال نازع عمرو بن هداب المازني وهو في ذلك الوقت سيد بني تميم قاطبة فظهر عليه المولى حتى اذن له في هدم

داره فادخل النعلة دار عمرو فلما قلع من سطحه سافا كف عنه ثم قال يا عمرو قد أريتك القدرة وسأريك العفو وقد كان في قريش من فيه جفوة ونبوة

كان نافع بن جبير احد بني نوفل بن عبد مناف اذا مر عليه بالجنازة سأل عنها فان قيل قرشي قال واقوماه وان قيل عربي قال واامادتاه وان قيل مولى او عجمي قال اللهم هم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت . ويروى ان ناسكا من بني الهجيم بن عمرو بن تميم كان يقول في قصصه اللهم اغفر للعرب خاصة وللموالي عامة فاما العجم فهم عبيدك والامر اليك

ومثل ذلك ما كان بعضهم يقولونه لا يقطع الصلاة الا ثلاثة حمار او كلب او مولى وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب ولا يمشون في الصف معهم ولا يتقدمونهم في الموكب وان حضروا طعاما قاموا على رؤوسهم وان اطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه اجلسوه في طريق الخباز لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر احد من العرب وان كان الذي يحضر عزيزاً وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم الى ابيها ولا الى اخيها وانما يخطبها الى مواليها فان رضي زوج والا رد فان زوج الاب والاخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح وان كان قد دخل بها كان سفاحاً غير نكاح

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الموالي والعرب ان الحجاج لما خرج عليه ابن الاشعث وعبدالله بن الجارود ولقي مالقي من قراء اهل العراق وكان اكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالي من اهل البصرة فلما علم انهم الجمهور الاكبر والسواد الاعظم احب ان يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا فاقبل على الموالي وقال انتم علوج وعجم وقراؤكم اولى بكم ففرقهم وفض جمعهم كيف احب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه اليها وكان الذي تولى ذلك منهم رجل من بني سعد بن عجل بن لجيم يقال له حراش وقال شاعرهم

وانت من نقش العجلي راحته . وفر شيخك حتى عاد بالحكم .

يريد الحكم بن ايوب التميمي عامل الحجاج على البصرة .

ولقد اورد ابن بسلم في الذخيرة في ترجمة الاديب ابي جعفر احمد الدودين

البلنسي رسالة ابن غرسية يخاطب بها ابا جعفر بن الجزار في فضل الشعوبية وذم العرب ابتدأها بقوله

يا ابن الاعارب ماعلينا باس   لم نجك الا ما حكاه الناس

وقال :

ولم اشتم لكم حسبًا ولكن   حدوت بحيث يستمع الحداء

وقال فيها في وصف العجم

هم ملكوا شرق البلاد وغربها   وهم منحوكم بعد ذلك سؤددا

حلم وعلم ذوو الآراء الفلسفية الارضية والعلوم المنطقية الرياضية حملة الاسترلوميقا والجومطريقا والعملة بالارتماطيقا والانولوطيقا والقومة بالموسيقى والنطوبيقا والنهضة بعلوم الشرائع والطبائع والنفرة في علوم الاديان والابدان ما شئت من تحقيق وترفيق حبسوا انفسهم عَلَى العلوم الدينية والبدنية لاعَلَى وصف الناقة المدنية فعلهم ليس بالسفاف كفعل نائلة وإساف اصغر بشأنكم اذ بزق خمر باع الكعبة ابو غبشانكم واذ ابو رغالكم قاد فيل الحبشة الى حرم الله لاستئصالكم

والرسالة كلها عَلَى هذا النسق استغرقت مع الردود عليها سبع عشرة ورقة من الذخيرة ولولا غلبة التحريف الكثير عليها لاوردناها برمتها وقد رد عليها كثيرون من ادباء الاندلس في عصر كاتبها ومن جملتهم المخاطب بها ابو جعفر وردودهم كلها الى السفاهة والبذاءة اقرب وكتابة ابن غرسية امتن وحججه اوضح .

وكنا نود ان نشبع الكلام عَلَى الشعوبية اكثر مما اشبعناه واكتفينا الآن بما لدينا من النقول الصحيحة ولعل احد موازر بما يكتب في هذا الموضوع ليجلوه اكثر مما جلوناه وفوق كل ذي علم عليم

اللسان

كلُّ حرفٍ تعطي عليه جوابا خطأً كان لفظه او صوابا
فتمعن قبل الاجابة تسلم من جواب يجني عليك عذابا
بين فكيك ليث غابٍ اذا ما فهت جهلاً في القلب انشب نابا
من يفه عن روية يقضب الغيظ فتغدو اعداؤه اصحابا
مقول المرء مثل حانوت عطار حوى ماقدمرَّ طعماً وطابا
فاذا ما اراد يقطر أريا واذا ما اراد يقطر صابا
رب سهم ان اوترته اناة فلج القصد واستقاد الرغابا (١)
واذا ما رماه طائش فكر يتعدى المنى فقاد الصعابا
كم قتيل للفظةٍ لو عداها ما عداه برد الصفا جلبابا
غادرته تحت التراب اذا لم تلفها غادرت بفيه الترابا
كان قبلا يسقى من المسك كأساً صار يروى من الصديد شرابا
ايها اللين الذي هو ذو اللبدة قد حل داخل الفم غابا
قل لنا ماصنعتَ بالناس قدماً فلقد قيل قد صنعت عجابا

***

لفظ الكيس اللطيف انا من ساد اهل العروش والاربابا
اوضح القلب كاشفاً ماحواه مطفئاً فيه ثائراً لهابا
بكلام مثل الندى فاق في جلب الاماني هاطلاً سكابا
سقطه في السماع خير ونعمى مرجعٌ للشيخ العتيِّ الشبابا
تجد الملك والممالك في قبضة كفي وما رجوت استجابا
اقتن الكلَّ بافتتاني ومن تا فيه مثلي محبباً خلابا
بي يصبي الملاك الرعايا فتبدي آي حب اذا دنا او غابا
ويسوس الشعب الوزير بها ز المزجى ويبلغ الآرابا

(١) لم ترد الرغاب في المعاجم ولكنها وردت في الشعر قال ابو العتاهية
واسأل الله اذا خفت فقراً فهو يعطيك العطايا الرغابا

واخو المجر الوسيع بي اسند	ق الاماني فامطرته سحابا
كم دعوتُ ابن خيشة في نعيم	يكتسي فاخر الدمقس ثيابا
كم منى دونها الثريا دنت بي	فجنت قطفها الاكف اقتضابا

***

واذا ما اطلقتُ من حكماتي	ضيقت شرقي المغاني الرحابا
ودعوت الصبح المنير ظلاماً	واعتبرت الحق المبين كذابا
واطرحت الخل الصفي قصيا	بعد ما كان يستزيد اقترابا
واتخذت الرأي الضلال دليلا	وتركت الراضين عني غضابى
واجتلبت الالوف تلقى الوفا	مرويات مناصلاً وحرابا
ناطقات الكرات متقدات	حاصدات كهولها والشبابا
كم صباح تكسى النهار كستها	شرقي بردة الظلام إهابا
و بنوها الفراخ أمسوا بيتم	يتلوّون حيرة واكتئابا
اترك المعلم الاغن وقد با	ت بمسعاي شر مسعى يبابا
فانا من أدير خمراً وغسليـ	ـناً واجنى الزقوم والعنابا
وانا من تجيب شأني أني	انشرُ الميت او ابين الرقابا
وقصارى امري مبين ببيت	لذوي النبل مشرع أبوابا
من تخطى بي الروية أخطا	من حدا بي نهج الصواب اصابا

دمشق امين ناهر خير الله

الحاكي او الفنغراف

بقلم عيسى افندي اسكندر المعلوف

(نظم هذه الابيات ونقشها على اسطوانة بصوته تلبية لاقتراح صديق له)

صوت السلام اميركا حياك ‏ ‏ ‏ ‏ وبكشفه كولمبس أحياك
ان الصحائف والمطابع والمدا ‏ ‏ ‏ ‏ رس والمعامل زينت مغناك
وكذا الزراعة والصناعة والتجـ ‏ ‏ ‏ ‏ ـارة عززت في نجمها مبداك
سميت نصف الارض عن ثقة وقد ‏ ‏ ‏ ‏ فاخرت كل الارض في انباك
فعلى أديسن ألف ألف تحية ‏ ‏ ‏ ‏ وبما اجتنيت من الفنون مناك
يكفيه ايجاد الفنغراف الذي ‏ ‏ ‏ ‏ قد شاع بين العرب والاتراك
أنى بنفخ البوق بعثة ميتنا ‏ ‏ ‏ ‏ فاقامه من قبره الفتاك
وتصيد الاصوات من بحر الهوا ‏ ‏ ‏ ‏ بشباكه كتصيد الاسماك
فيعي باذن مايقال كسامع ‏ ‏ ‏ ‏ ويعيده بلسانه كالحاكي
هو صادق في نقل اخبار وفي ‏ ‏ ‏ ‏ حفظ الكلام وليس بالافاك
يتقلد الاصوات كيف تلونت ‏ ‏ ‏ ‏ بفصاحة وهو الضحوك الباكي
ونراه ينطق باللغات كأنه ‏ ‏ ‏ ‏ متلقن بالروح وحي ملاك
ويدور كالدولاب وقت تكلم ‏ ‏ ‏ ‏ فكأنه سيارة الافلاك
ومحل حفظ الصوت شبه دماغنا ‏ ‏ ‏ ‏ في شدة الاحساس والادراك
ولسانه بعد الفكر ناطق ‏ ‏ ‏ ‏ بعواطف القلب الشكور الشاكي
هذا تحية عمرنا واديسن ‏ ‏ ‏ ‏ مبدي العجائب فيه كل رجاك
لازال بالعمر الطويل ممتعاً ‏ ‏ ‏ ‏ ماشنف الآذان صوت (الحاكي)

سير العلم والاجتماع

حياة النبات

يرى اوسونسكي احد كبار علماء روسيا ان حياة النبات تشبه بجملتها حياة الانسان فلها مزاج وشهوات وميل وكراهة كالآدميين وكان علم الزراعة من قبل يرى ان النباتات عارية من هذه القوى فيكتفي الزارعون بزرعها وسقيها او بتغذيتها وذلك بوقايتها من اخطار رداءة الهواء وتحسين ما يلائم طبيعتها من الاجواء٠ ولكن هذا العالم رأى الآن ان لا سبيل الى الانتفاع من النباتات واستنبات الجيد منها الا بمعاملتها معاملة من يعقل ويحس وقد مثل لذلك بنبات البطارس (الخنشار) والفطر والطحلب وقال انها تنقبض اذا اخذت ووضعت على قطعة من خشب مغشاة بالجلاتين واستدل من تأثر هذه النباتات على انها حساسة كالحيوان ومن رأيه ان النباتات تتأثر بالنور والهواء اكثر من جميع الحيوانات فمنها ما يتجه نحو الشمس ومنها ما يوجه وجهه قبل المشرق ومنها ما يغلق نفسه عند الغروب ومنها ما يسهر في الليل وينام في النهار نوماً اشبه بالموت٠ ومن انواع البقول ما ينام على سوقه ومنها ما يقي نفسه من حرارة اشعة الشمس بان تجعل اوراقها على صورة لا تتعرض بها للنور مباشرة وانا لنرى الازاهير في الاصاصي (اواني الزهور) توجه وجهها نحو النوافذ كما نرى الهندباء تتنبأ بسقوط المطر ولا تفتح ونبات المستحية تخاف من الضجة بل قد يغشى عليها متى اطلق امامها مدفع ٠ ومعظم النباتات تتأثر بالاثير والمورفين والكوكايين ٠ وعلى هذا فقد استنتج العالم بان ارسطو كان على صواب في قوله ان للنباتات روحاً فقال ان معرفة ذلك من حال النبات يدعو الى احسان تربيته وتعهده فاذا فعل المزارعون الفلاحون وارباب الحدائق ذلك فهناك الغلات الجيدة في الكمية والكيفية ٠

المجموع العصبي

بحثوا في المؤتمر الطبي في جنيف مؤخراً في ضعف المجموع العصبي (نوراستينيا) والخمر فقال بعضهم ان المكثرين من تناول الماء اكثر عرضة لهذا الضعف من غيرهم ومعلوم ان هذا الضعف لا يتناول القوى الطبيعية فقط بل يتناول القوى العقلية والحاسة الادبية ويشعر المصابون باضطراب في الوظائف العضوية وجميع هذه الاسباب تؤثر تأثيراً مضعفاً في الجسم والعقل ٠ وجرى البحث فيما اذا كان الاعتماد على المنعشات

في مثل هذه الحال لا يفيد المصاب بهذا الداء اذا شفعها بتحسين اصول غذائه . لا شك ان المصاب بضعف الاعصاب يشكو من سوء الهضم في الغالب فمن الاحتياط ان لا يعطى من الاطعمة المائعة والسائلة ما يهيج معدته وليس معنى هذا انه ينبغي حذف جميع المنعشات من طعامه وقد تبين ان الخمور على انواعها تضر بالمصاب بهذا الضعف كما ثبت ان المكثرين من تناول الماء مصابون بالسوداء وسريعو الانفعال والسخط .

الماء المقدس

لفت راهب ايطالى من المشتغلين بعلم الجراثيم والطب الانظار للاخطار التي تحدث من اجران الماء المقدس في الكنائس فثبت لديه ان في كل مئة سنتمتر من الماء المقدس في كنيسة القديس كروس في تورين مئة وخمسين الف جرثومة اذا اخذ الماء من سطح الجرن واذا اغترف من داخله يحتوي على ستة ملايين جرثومة . وقد حقن بهذا الماء حيوانات فكان سبباً في قتلها بالسل او الخناق او غيرها من الامراض العضالة وقد بين الطرق الواقية من تناول الماء على الصورة المألوفة واخذ رجال الدين هناك يبحثون في واسطة تدفع الجراثيم عن الماء لا بغسل الاجران بالسليماني فقط بل بالنظر في كيفية تناول الماء .

طهارة برلين

اصبحت مدينة برلين بالنظر للارتقاء الذي ما زال متواصلاً فيها وفضل العناية في تطهيرها ووقايتها من اطهر مدن العالم ان لم نقل انها اطهر مدينة في العالم فاصاب الصحة من هذه الطهارة حظ وافر فقد كان معدل الموت فيها سنة ١٨٧٦ — ٢٩ فاصبح سنة ١٩٠٠ — ٣٥ وصار هذه السنة ٣٨

الحكم بالاعدام

نسمع الكثيرين من اصحاب الرأي يقولون حينما يبلغهم ان الاشقياء كمنوا لفلان فسلبوه متاعه وقتلوه شر قتلة لو نفذ الحكم بالاعدام لوقف الاشقياء عند حدهم ولما تجرأوا تلك الجرأة على قتل النفوس التي حرم الله قتلها قال احد نواب الفرنسيس ما جعل الاسافل يغتالون الكرام الا عدم الشدة في العقوبات وها نحن اولاء نعربه بالحرف الواحد: كل جمعية لها الحق ان تتخذ جميع الوسائل الضرورية لحفظ كيانها

واني لا اظن انه يمكن ان تعاقب المجرمين كافة لانه يوجد منهم من يستحيل وجود عقاب يناسب فظاعة جرمهم واني لست من الذين يقولون ان السبب في كل الجرائم البؤس فلا محل لتلك الاعذار التي ينتحلها لهم بعضهم قبل ان نلغي حكم الاعدام يجب ان نتحقق من امر العقاب الذي يحل محله · قد لطف قانون السجون ولكن الجرائم لم تخفف بل لا تزال في ازدياد وزاد على ذلك ان الجرائم التي ترتكب اليوم افظع من التي كانت ترتكب امس نعم ان البشر ليسوا بمعصومين وقد يغلطون ولكن طرق التحقيق المتبعة اليوم بفرنسا والمرافعات القضائية تجعلنا نقول ان الخطأ اقل من القليل ·

وارجو من زملائي ان يشملوا بنظرهم القوم الصالحين اكثر من ان يشملوا به المجرمين · فالجاني الذي يدخل تحت جنح الليل الى بيت فيه أُسرة آمنة مطمئنة شاهراً بيده مسدساً لا شك انه يستحق عقاباً عَلَى هذه الجريمة الفظيعة بالاشغال الشاقة المؤبدة فاذا لم يجر عليه الحكم بالاعدام فلاشك ان هذا الاثيم يقتل كل من يقع تحت يديه كي لا يكون شاهداً عليه · الحكم بالاعدام وحده كفيل بغل ايدي سفاكي الدماء فارجو من زملائي ان يزنوا هذه الفكرة بميزان النصفة ولا يسلبوا الهيئة الاجتماعية سلاحها ·

مزرعة المستقبل

جربوا الكهربائية عَلَى شواطيء البحر المحيط الهادي باميركا في تعهد المزارع وحرثها وزرعها وحصادها فاستعملوا لذلك ادوات دافعة ورافعة تتحرك بشلالات مجاورة فتحدث منها القوة المطلوبة فاتى ذلك بنتائج مهمة · ولئن كانت النفقة على هذا العمل تستدعي صرف مئات من الريالات الا انه يتوفر بها ثلاثة ارباع ما ينفق في العادة عَلَى مثل هذه المزارع لاستثمارها واستنباتها فضلا عما في ذلك من الاقتصاد في الوقت والذين يتبرمون من المزارعين من كثرة النفقات والايدي العاملة في مزارعهم يعلقون الآمال الكبيرة على ان تكون الكهربائية اعظم عاملة في مزارع المستقبل ·

الصحة في السويد

اتفقت المجتمعات كلها عَلَى ان الرياضة البدنية من اسلم الرياضات النافعة حتى ان بلاد السويد تعتبر هذه الرياضة اعتبارها للفروض الدينية وتقضي على السكان عامة ان يعمدوا اليها فالرياضة البدنية اجبارية في المدارس عَلَى كل طفل منذ صغره

فتبعث الحكومة باساتذة من قبلها الى كل مدرسة ليشرفوا فيها عَلَى تعاطي هذه الرياضة كما انها تقضي عَلَى كل تلميذ ان يسبح سواء خاف من الماء ام لم يخف كمدرسة تكره عَلَى العوم • والحكومة هناك تدفع للاطباء المنتشرين في الاقاليم المختلفة من البلاد رواتب من خزانتها لان ما يتناوله الطبيب في القرى من زبنه لا يكفيه في معاشه • ومن العادة في البلدان المأهولة بالسكان ان لا يتناول الطبيب اجرة عيادته بل يترك معاشه لذمة زبنه فيدفع له كل زبون بقدر طاقته بحيث يسمن كيسه بدون طلب ولا ابرام ويعيش كالاغنياء او احسن •

اللبن الحليب

استبان لارباب الاحصاء ان الغرام باللبن الحليب في العالم يزيد ولا ينقص فقد بلغ ما يصرف كل يوم منه في العالم كله مليوناً وثلاثمائة وثمانين الفاً وخمسمئة طن منها خمسمائة الف طن في الولايات المتحدة • واللبن هو الغذاء الطبيعي المغذي والشافي واللذيذ والبسيط •

احترام الآراء

خطب ارنست لافيس في احدى المدارس الفرنسوية في معنى احترام الآراء والمذاهب فقال ان القضاء والشرطة لم يجعلا الا لدفع الناس بعضهم عن بعض وان الاسباب التي تدعو كبار الرجال الى ان يتباغضوا بغضة شديدة جداً ترجع الى امر واحد الا وهو الاختلاف في الآراء السياسية والدينية وينشأ عن هذا الاختلاف احياناً بغض وكراهية • فالناس يختلفون في العقائد فمنهم الملحد بعد طول التأمل ومنهم المؤمن الذي احب ان يموت عَلَى دين اجداده ومنهم المحافظ الذي يرى بقاء القديم على قدمه في السياسة وان الاحتفاظ بالتقاليد من الضروريات في الحياة العامة ومن دافع عنها فيقوم بالواجب عليه وكأنه يدافع عن مصلحة الوطن نفسه ومنهم الثوري الذي لا يرى السعادة في غير اهراق الدماء وان الخير معقود بنواصي الفتن ولا تستقيم الامور بدونها اما انا فاقول انه من الممكن ان يتخالف الناس بدون ان تسوء حالهم وانه قد يتأتى للخصوم ان يحب بعضهم بعضاً ويحترم بعضهم بعضاً فاذا قدروا على ذلك فانه يجب عليهم ولا سبيل الى ان يعيش الناس بعضهم مع بعض في سلام الا اذا جعلوا التسامح رائدهم واذا قضي على احد الرجلين ان يحكم عليه فمن يفصل بينهما ؟ لاشك ان

القوة هي الحكم ولكن استعمال القوة في مصادرة الافكار هو من الاغلاط التي نلوم المستقبل عليها ولكم حكموا باسقاط بعض الآراء في القدم فما زالت عَلَى انتشارها الى اليوم ولكم حكم القضاة في الامور الذهنية فعدنا نحن اليوم نحكم عليهم بل ننقم عليهم سوء حكومتهم ولكم اقيمت التماثيل اليوم لرجال ذهبوا بيد الغدر والقهر ورموا في النار فاصبحت الساحات التي اعدموا فيها مزدانة اليوم بتماثيلهم التي نصبت تمجيداً ٠

يقول قوم ليس اشق من ارادة المرء ان لا يعمل مع غيره ما لا يريد ان يعملوه معه وان انصار الحرية اذا قبضوا عَلَى القياد يمنعونها غيرهم فيخالفون بذلك قاعدة الحرية كما يقولون ان الحكم بين المتناقضات ليس له الا حاكم واحد يخضع له العالم باسره صاغرين ونعني به « العالم » ولكن من يدعون الى العلم يجهلون ماهيته فان الفضيلة الكبرى في العالم هو انه يبحث عَلَى الدوام وربما ضلَّ في ابحاثه ضلالا بعيداً ولكن من فضيلة العالم هو انه يجد بنفسه الاغلاط التي ارتكبها وانه يرجع عن الاوهام التي جاء عليه زمن فاعجبته واخذت بمجامع قلبه ثم يعود الى البحث وما موضوع بحثه الا الحوادث ففي الحوادث التي اكتشفها يتخذها الناس حججاً وبراهين فهم ينظرون مثلا في حوادث تاريخ الارض والانسان التي ابرزها العلماء الى عالم الوجود خلال القرنين الاخيرين ويتناقشون بما تجدد لهم من هذه الحوادث في معتقداتهم الموروثة ويعزمون اما على رفضها او على قبولها ولكن العلم لا يكتب الغلبة لدين على آخر بل يأخذ في سبيله باحثاً مستقصياً ولا يعرف احد الى اي طريق ينتهي به البحث وما عظمته وجماله وانسانيته الا بما يبدو عَلَى معاطفه من الشك والريبة ٠ ولا ارى مخلصاً للناس من تعليل الاختلاف بين الناس الا بالحرية والتسامح والاكثار من المدارس التي لا تسمع فيها للمباحث الدينية صوتاً وان الحرية اذا لم تكن متأصلة في الاخلاق لا تجدي بنيها نفعاً ٠

النوم

كتب احد الباحثين في المجلة الباريزية بحثاً في النوم وما ينبغي للانسان منه حتى تجود صحته فقال ان النوم هو احد نواميس الكون وجميع البشر على اختلاف في اعمارهم خاضعون له . وان الرجل العادي يموت من قلة الهواء في خمس دقائق ومن قلة الماء في اسبوع ومن قلة النوم في عشرة ايام اما الاكثار من النوم فيجعل في الرأس ثقلاً

وفي الجسم كسلاً . قالت لعقيلة مريم ماناسين في كتاب لها نشرته حديثاً انه لا ينام نوماً طويلاً الا من فرغ ذهنه وقل فكره وان اناساً يسترسلون الى النوم عندما يتفرغون من مشاغلهم لان طبائعهم مفتقرة بحيث يتعذر عليهم ان يجدوا من افكارهم الخاصة مادة يهتمون بها وقد اكد سارس من علماء الاخلاق ان ارباب السخافة ينامون طويلاً .

وقد سأل صاحب البحث جلة من كبار ارباب العلم والفنون في فرنسا في معنى ما يلزم للرجل المفكر من النوم فكانت اجوبتهم متفقة في الجوهر وان اختلفت في العرض فقال احدهم : اني متى تعبت يستحيل عليَّ ان اتعاطى اي عمل كان فاراني مفتقراً الى الراحة . وعليه فالواجب ان ينام المرء ليعيش لا ان يعيش لينام وقال آخر: انني في حاجة لان انام ثماني ساعات على الاقل ولكن كيفية النوم تهم اكثر من كميته ومن رأيي ان لا يعمد طالب النوم الى استعمال المنومات والمخدرات وقال جول كلارسي احد اعضاء المجمع العلمي : اني في حاجة الى النوم كثيراً ويقل تعبي عندما انام وانام سبع ساعات عَلَى الاقل عَلَى اني اعمل بلذة ان نمت قليلاً او كثيراً وانا لا اشكو الا من الارق فان التفكر في اشغال الغد هي التي تؤرقني حتى السحر . وقال كورمون من مجمع العلوم : انام من ثماني الى تسع ساعات واتأثر لاقل حركة تحدث امامي وكثيراً ما اقضي الليل ساهراً كأني ملسوع فان نمت ليلتي اتعاطى عملي من الغد واذا افرطت في نومي لا احسن العمل ايضاً ومتى تمت لي ثماني ساعات تكون صحتي الى الاعتدال وقال الاستاذ ديولافوا : ان النوم كالغذاء فبعض الناس يحتاجون لطعام كثير وبعضهم يتبلغون بالقليل كما ان بعضهم ينامون طويلاً وبعضهم يكتفون بقليل من السهاد ومن القواعد العامة ان قلة النوم والارق يجلبان التعب ويقللان الميل للاشغال العقلية وعَلَى العكس في النوم الكافي والسهاد المصلح المعوض فانهما من شروط العمل اما انا فانام سبع ساعات . وذكر آخر انه اذا نام يتضاعف عمله ويجود عشر مرات عما اذا لم ينم وتسهل اموره وانه عَلَى ثقة من ان بلزاك الشاعر لو كان نام القدر اللازم له لجاد شعره اكثر وخلدت آثاره فقد ظن انه يسهره يقتصد وقتاً وفي الحقيقة انه اضاعه ويقال ان نابوليون لما انهك السهر قواه نام في معركة واترلو وهو واقف .

وذكر الكاتب اسباب الارق فقال انها قد تكون ادبية مثل الاهتمام بالاشغال والالم للمستقبل والتعب العقلي وتعب الوجدان والحزن وتبكيت القلب وقد ينشأ

الارق من امراض طبيعية صرفة وفي الغالب ان المرء يحرم النوم بتساهله لانه يحسن الاضطجاع عَلَى فراشه ولا يتخذ الاسباب اللازمة فلقد اهتدينا الى افضل الطرق في الاكل وافضلها في الشرب ولم نهتد الى الطريقة المثلى في النوم فان اردت بهذا ان تنام فعليك ان تتخذ لك غرفة بعيدة عن الضجة خالية من الانوار الاصطناعية والحيوانات والزهور والاثاث والبسط وان تكون معرضة كل التعرض للتهوية حتى في الشتاء وان يكون الفراش منحنياً قليلاً من الرأس الى الاقدام بحيث ترتاح فيه الاعضاء جيداً وان يتخذ الفراش من الصوف وتكون المخدة لا رخوة ولا يابسة وان يكون من الغطاء الخفيف ومن الوسائد القليلة التضاعيف والنعومة وعليك ان [illegible] بساعتين او ثلاث فالاولى ان لا تغفي الجفون الا بعد ان يتم الهضم [illegible] هالوبو ينصح للمشتغلين بالاشغال العقلية ان يناموا بعد الاكل ومن رأيه ان [illegible] ترك الدماغ يستريح خلال الهضم · وخير طريقة يعمد اليها الفيلسوف والشاعر في نومهما هو ان يقطعا الليل شطرين وذلك بان يناما بعد العشاء حتى الساعة الواحدة صباحاً (بعد نصف الليل) ثم يأخذان في الاشتغال ثلاث ساعات قبل ان يعاودا النوم وينبغي لهما ان لا يتخليا عن القيلولة في خلال ايام القيظ ويفضل النوم منفرداً وعَلَى النائم ان يختار وسط الفراش لينام هنيئاً وترتاح اعصابه وتنبسط وان لا ينهض وذراعاه فوق رأسه كما يفعل بعض النساء تدللا لان ذلك مما يخالف نواميس الفسيولوجيا فاذا صدر النائم صفحة وجهه كثيرا يتعب اعصاب ذراعيه واعصاب صدره وينقبض عنقه ويبهز تنفسه فلا يمتد طويلا وعليه فالواجب ان يكون الرأس واطئاً ما امكن حتى يتسرب الدم الى الدماغ عَلَى صورة منتظمة وان يتمدد الجسم كل التمدد وان لا ينثني الساقان وان لا يشبك احدهما مع الآخر وان لا ترفع الركبتان ولا ينفع النوم مستلقياً عَلَى الظهر ويؤكد بعض الاطباء ان هذا الضرب من النوم ينشأ عنه مرض النخاع الشوكي وربما كانوا مبالغين في تصورهم عَلَى ان النوم بالاستلقاء يحدث ارقاً مضنياً او كابوساً او اضغاث احلام والنوم عَلَى الشق الايسر اصعب حالا من الاستلقاء ايضاً لانه يوقف الهضم ويؤدي الى ضيق التنفس والاختناق والى حدوث حركات في القلب تضغط عليه وتؤذيه · وعَلَى النائم ان لا ينام وبطنه منبسط فالافضل ان ينام المرء عَلَى جانبه الايمن لما في ذلك من النفع للحواس وعَلَى هذه الطريقة ينبغي لنا تعويد اولادنا وان نقتصر نحن ايضاً ان ننام مثلهم ·

واذا حدث لنا ارق فالواجب علينا ان نعمد الى الطرق البسيطة لجلب الكرى الى العيون وذلك بالمشي والاستحمام قبل النوم ولا ينبغي اخذ شيء من العقاقير والمخدرات لانها ضارة وتأثيرها موقت لا يلبث ان يزول هذا وعلى كل انسان ان لا يغفل امر النوم فقد قال ليبسول ان في النوم لصحيحي الجسم قوةً وفرحاً وللمريض شفاء وهناء ·

البنون والبنات

خطب المسيو ارنست لافيس احد اعضاء المجمع العلمي الباريزي في معنى وجوب المساواة بين البنين والبنات في احدى مدارس البنات في فرنسا قال ما محصله : علمت المدرسة انكن ايتها الفتيات لم تخلقن لتعشن عيشة اصحاب القناطير المقنطرة من المال بل هي تعلمكن استعمال ادوات العمل واعني بها المقراض والابرة وتعلمكن مبادي الاقتصاد المنزلي اي تدبير المنزل وليس من منزل مهما كان صغيراً الا هو محتاج الى ربة تدبر امره وتصلح شأنه وتقوم على تعهده · فالنظام والنظافة والذوق والراحة كلها تدعو المرء لان يزيد المكث في داره ويحل منزله محلاً رفيعاً من سويداء قلبه ومن حسنت ادارة بيته وكان فيه اللطف والظرف يحسن هندام نفسه

وحسن تدبير المنزل هو من اكبر الدواعي لادخال النظام على ثروة البيت وان قلت ومعنى القيام على تدبير المنزل التفكر للغد والنظر في المستقبل ابداً وحسن استعمال الوسائط التي تدفع اليوم عنا عوادي الحياة وتصرف عنا السوء · وهذه الذرائع هي التي تعلمها المدرسة · الا فاستمعن لقولي والبحط علمكن بانه من مابيت وان صغر الا وفي المكنة ان يكون كبيراً · فالام المتوسطة الحال اذا قامت بالواجب عليها وراعت قواعد الاقتصاد في دخلها وخرجها ونظرت ابداً في لوح المستقبل يتأتى لها في البلاد الديمقراطية ان ترفع ابناءها مكاناً علياً وتنيلهم من الرغائب ما كان قصياً وعندها لا يلبث ذاك البيت الصغير ان يكبر بفضل السعي والانكماش

لا تكتفي المدرسة اليوم كما كانت امس بان تعلمكن القراءة والكتابة والحساب فان معرفة الاشارات وتقليدها واتقان وضع الارقام هو من الامور التافهة البسيطة تود المدرسة ان تفهمن ما تقرأن وان تتعلقن فيما تكتبن وان تتلقن في حساباتكن حتى تفهمن في حياتكن بعد حين ما يقال لكن وما تقلن وما تعلمن

فالمدرسة تعلمكن واجباتكن وهي تعتقد كما تعتقد الانسانية منذ زمن طويل ان هناك شرًا وخيرًا فالخير هو نتيجة عمل العامل وهذا العمل شريف في ذاته والمدرسة تعلمكن الجمال فهي تدرسكن تاريخ بلادكن وتملي عليكن بالتعليم الوطني ما هي معاهدنا ونقاليدنا وقوانيننا . ولقد رأى بعضهم ان تعليم البنات هذا القدر من التعليم ليس فيه لهن غناء ولكننا لو تابعناهم على آرائهم لظللنا بدل التقدم الى الامام متأخرين الى الوراء . واي بلاهة اعظم من ان نترك نصف الشعب الفرنسوي جاهلاً بلاده ونقضي بهذا الجهل على النساء والامهات ان يخرجن من عداد ابناء الوطن .

المدرسة توسع دائرة ابصاركن بتعليمكن الجغرافيا تدرسكن المبادئ اللازمة في تصور العالم والنواميس الكبرى في الطبيعة وهي تريد ان تعرفن مسكن الجنس البشري والتخوم الفاصلة بين اقطاره وعرضه وطوله وقرب البلاد من الحرارة والبرودة . تتوخى المدرسة بل تجعل من اهم واجباتها الضرورية ان ترفع الغشاوة عن ذكاء الفتيات وتشركهن ما امكن بتسهيل طرق التعليم في معرفة الاعمال العظيمة التي يقوم بها الفكر في جميع ضروب المعرفة وان تنبه فيهن الشعور بالآداب السامية وتعدهن الى الاطلاع على حقائق الحياة كما هي الآن .

المدرسة هنا لا تميز بين البنات والبنين فقد رأيت في كلية السوربون في احدى ايام الآحاد في هذا الربيع مشهدًا اخذ بمجامع قلبي . شهدت مئات من العذارى الاوانس وقد تزين واخذن ينشدن الاناشيد وكن عبارة عن تلميذات المدارس العالية في باريز اقمن حفلة لاسراتهن ولعمري من كان يظن منذ خمسين سنة ان يكون لفرنسا مدارس عالية للبنات . كنت في سنة ١٨٦٩ امين سر المسيو دروي ناظر المعارف العمومية فحاول هذا الاستاذ الشهير العظيم وكانت آراؤه كلها صائبة سديدة ان يؤسس مدارس ثانوية للبنات فوافقه بعضهم على ما ارتأى ولكن ما لبثت الفكرة ان انتشرت بين الناس بان الاخوات لسن كالاخوة في التساوي وان المذكر افضل من المؤنث كما جاء في كتب النحو التي الفها الرجال . فكان القوم يظنون انه يكفي الابنة قليل من التعليم وان هذا التعليم من خصائص الكنيسة فقط ان تعلمه ولذلك قاوم رجال الدين في انفاذ مشروع الناظر المشار اليه .

اتت ايام وازمان فاصبح عدد المدارس العالية للبنات ٤٢ مدرسة جامعة و٥٠

مدرسة داخلية و٦٩ مدرسة ثانوية وبلغ عدد المتعلمات فيها ٣٠٨٣١ بعد ان كان اقل من النصف قبل عشر سنين وهم يؤسسون هذه السنة اربع جامعات اخرى وربما خمساً وتسع مدارس داخلية وربما عشراً ولم يكن في اول سنة ١٩٠٣ غير ٣٠ مدرسة داخلية فزادت الى هذه السنة ثلاثة اضعاف ·

النساء فقط هن المعلمات في هذه المدارس يستعددن لهذا العمل الشريف بالدرس والتربية الكثيرة فيعلمن ناصحات باخلاص ونشأة وانك لتجد مفتش المعارف والرؤساء ونظار المجامع العلمية يتمدحون بلسان واحد المعلمات والمتعلمات لانهن يتوفرن على تعليم البنات احسن تعليم بل اقول ولا اخشى من الحق انهن يعلمن احسن من تعليم المعلمين من الرجال وقد كان الناس يقولون من قبل ان النساء لا يستطعن ان يفهمن العلوم ولا ان يعلمنها وها هن اليوم يتبحرن في هذه العلوم ويعلمنها كأحسن معلم ·

الا وان في منافسة البنات للرجال في مضمار العلم لاكبر دليل على صحة ما اقول فقد رأيناهن ينصرفن الى الدراسة اكثر من الشبان فاصبحن بفضل السهر والدرس رصيفات في الكليات للاساتذة من الرجال وقد خلفت العقيلة كوري زوجها في كلية العلوم البارزية وكانت شريكته في اختراع الراديوم · كل هذا يدل دلالة صريحة ان النساء مستعدات كل الاستعداد للتعلم وان من حقهن ان يتعلمن · اعتقد صغار الفتيان منذ خلق العالم بان البنات من جنس غير جنسهم وان الرجال اسمى مقاماً واكبر عقلاً واقوى جناناً اذا قيسوا بالجنس اللطيف · وما قول الناس هذا من الجنس اللطيف اي النساء وهذا من الجنس القوي اي الرجال الا من الاوهام في المرأة نشأت من التوحش وما كتب للرجال من قوة العضلات وكانت الانانية والمصلحة هما المساعدتين على انتشار هذا الفكر ·

وها قد ضعف اليوم هذا الوهم وانتشرت الحقيقة كالشمس الساطعة وما اسهلها وابسطها ولكن الحقائق البسيطة هي التي يطول عهد اكتشافها · الحقيقة التي اعنيها هو ان للبنت كما للصبي ذكاء وان كانت الكفاآت واميال الذكاء في الذكور والاناث متفاوتة الدرجات فليس معنى ذلك ان الذكاء الانثوي اضعف من الذكاء الرجلي بل ان معنى ذلك ان كلاً من ذكاء الفريقين متمم لصاحبه ليتألف من مجموعه ذكاء الانسانية · والحقيقة بان للابنة كما للصبي قلباً يحب ويفرح ويحزن بل ان حظ البنات

من الاحزان في هذه الحياة اعظم واشد وفي قلوب الزوجات والامهات من بنات المستقبل مادة عظيمة من الدموع سيفرغونها في حياتهن المستقبلة . الحقيقة بان معظم البنات كمعظم البنين مضطرات الى الكدح لمعاشهن وانهن يصعب عليهن السير في هذا السبيل ومغزى ذلك ان الواجب يقضي على البنات والبنين ان يجتمعن ذات يوم ليؤسسن معاً أسرة جديدة ويحدث من هذه الحقيقة البسيطة ان البنات والبنين متساويان في حقوق الانسانية فلا مسوغ والحالة هذه الى ان يعاملا معاملة تختلف في سبيل اعداد الجنسين لجهاد الحياة .

وبعد فان النساء لا يصبحن كلهن عالمات كما لا يكون المتعجرفات فيهن بقدر المتعجرفين من الرجال والعجرفة من الامور البشعة والنساء لا يحببن ان يكن بشعات كما انهن لا يتولين الاعمال كلها لما يقوم في وجوههن من منافسة الرجال منافسة شديدة ولان الطبيعة تقضي بان تكون للنساء صناعات خاصة بهن وللرجال كذلك فاذا جاء فيهن النساء المخرفات تضطرهن الحال الى الاعتدال بيد ان الحقوق المخولة للنساء اليوم لا تكفي لتغيير حالتهن الاجتماعية .

ولقد عنيت دائماً في حياتي الطويلة ان اشوق افكار الشبان بل الاطفال الى الحياة وان اطلعهم عَلَي ما عساهم يطلعون عليه في حياتهم وارى الآن انه من الواجب ان القنهم محبة حب الوقت اذا كان للوقت ثمن عندهم . انا مقتنع بان الناشئة متى عرفوا بعد حين الوقت الذي عشنا فيه يعترفون له بالفضيلة الجليلة من انه عمل عَلَى تقويةِ كل نوع من انواع الضعف كضعف الولد وضعف المرأة وضعف الشيخ وضعف الفقير وضعف العاجز والزمن .

وهذا العمل الشريف الذي تممته الازمان لانلحظه كما ان المتحاربين لا يلحظون في معمعان الحرب كل ما يجري بينهم بل يرون من خلال التراب والدخان حركات لا يميزونها وهجات واناساً يفرون وآخرين يركضون وغيرهم يسقطون وهذا الاضطراب العظيم يبعدهم عن تصور ما تم ومع هذا يتم في ساحة الوغى ما انصرف اليه المقاتلة وتخفق اعلام النصر على من كتب لهم .

ولكن قوماً يقولون انانهاض الضعيف من كبوته يضعف من قوة الحاكم وسطوته ويرى ولاة الامر ان هذه السطوة ضرورية مشروعة وانها اذا فقدت فهناك القضاء

على المجتمع وعلى العالم . ولكن الناس لم يسمعوا هذه النبوآت الا عندما تمس آراءهم او عاداتهم القديمة اما انا فاعتقد بان هذا المجتمع في تبدل ولن يزول فاذ ذهبت صورته يبرز في صورة اخرى .

لغة البلاد

كانت اللغة البلجيكية الشائعة هي الافرنسية مع ان اكثر من نصف اهلها يتكلمون باللغة الفلامندية وقد علم من احصاء اخير ان ٢٧٤٤٠٠٠ من اهل البلجيك يتكلمون باللغة الفلامندية و٢١٤٥٠٠٠ يتكلمون بالافرنسية و٧٠٠٠٠٠ يتكلمون بكلتيهما والسواد الاعظم من السكان يطلبون فقط ان تكون اللغة الفلامندية اللغة الرسمية للنصف الشمالي من البلجيك وقد صرح النائب الحر المسيو جورج لوراند بانه يحق لكل فرد ان تدار شؤونه بلغته وان الموظفين وهم خدمة الناس يجب عليهم ان يكلموا الامة بلغتها . قالت المجلة التي نقلنا عنها هذا الخبر وهذا من المعقول بمكان وهو الذي سيكون عليه القرار .

الجامعة المصرية

افتتحت المدرسة الجامعة يوم ١٥ كانون الاول الماضي حساباً غربياً وهي المدرسة التي انشأها بعض رجال النهضة المصرية وجمعوا لها الاعانات الطائلة من ارباب الخير لتعليم الناشئة تعليماً اوربياً عربياً وطنياً . والدروس التي تلقى فيها الآن محاضرات على الحضارة الاسلامية يلقيها الاستاذ احمد زكي بك ومحاضرات على الحضارة القديمة في مصر والشرق الى ظهور الاسلام يلقيها الاستاذ احمد كمال بك ومحاضرات على آداب اللغتين الانكليزية والافرنسية يلقيها الاستاذان ملر و بوفيليه ومحاضرات على ادبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب وعلاقتها باوربا يلقيها الاستاذ دي كوبه .

غرف القراءة

افتتح مساء ٢٤ ذي القعدة الماضي بضعة عشر اديباً من شبان دمشق واعضاء جمعية النهضة السورية غرفاً للقراءة مجانية ووضعوا فيها ما يلزم للمراجعة والمطالعة من الكتب والمجلات والجرائد . وهذه الغرف من احسن المشاريع الادبية في هذه الحاضرة بعد اعلان الحرية .

هجرة الاسبانيين

شغلت مسألة هجرة الاسبانيين رجال البحث فيها اذ رأوا ان عدد المهاجرين تضاعف في خمس سنين فكان الراحلون عنها سنة ١٩٠٠ بحسب الاحصاء الرسمي ٦٢٤٨٢ فغدوا سنة ١٩٠٦ — ١٢٧٠٠٠ وهذا القدر فيه نظر لان كثيرين يفرون بدون ان يأخذوا جوازاً من الحكومة فيسافرون سراً فراراً من وجه رجال الشرطة والذين يعودون من المهاجرين كل سنة هم نصف هذا القدر ومعظمهم من الجزائر وهم يعملون في الفلاحةِ اما المهاجرون الى اميركا فقلما يرجعون الى بلادهم وترى الآن ٥٠ مليون هكتار من الارض الاسبانيةِ بوراً لا زرع فيها ولا ضرع لقاء ٢٢ مليون قابلة للزراعةِ ٠

جرائد الهند

تصدر في اقطار الهند ٧٧٤ جريدة يومية بتسع عشرة لغة مختلفة واكثرها انتشاراً جريدة كورالدري تصدر في بومباي ويطبع منها كل يوم خمسة آلاف نسخة وفي كلكتا جريدة بازوموتي وهي اسبوعية يطبع منها خمسة عشر الف نسخة ٠

الجنون في اميركا

يزداد فقد العقل في الولايات المتحدة بصورة مخيفة ٠ ففي ولاية نيويورك ستة وعشرون الف وثلاثمائة وسبعة وخمسون مجنوناً وذلك واحد في الثلاثمائة واغلبهم من المهاجرين ٠

بيان وايضاح

نبهت في كلامي عَلَى الطالع السعيد (١) عَلَى نوع من الزجل سماه المؤلف بالبليقة ولم ادر ان كان يراد به مطلق الزجل في ذلك العصر او نوعاً مخصوصاً منه ثم وقفت اخيراً على بيان وافٍ لهذا النوع في كتاب الاقصى القريب لابي عبد الله محمد التنوخي وهو من مقتنياتي الحديثة احببت ان اتحف به المقتبس الاغر ٠ قال عند كلامهُ على ... الموشحات والازجال ما ملخصه ومنها قرقيات المصريين وبليقاتهم والفرق بينهما وبين الزجل ان الزجل متى جاء فيه الكلام المعرب كان معيباً والبليقة ليست كذلك فيجيء فيها المعرب وغير المعرب ولذلك سميت بليقة من البلق وهو اختلاف الالوان وتفارق

(١) المقتبس م ٣ ص ٦٠١

البليقة القرقية في ان البليقة لا تزيد على خمس حشوات غالبًا وقد تنتهي الى السبع قليلا والقرقية تزيد كثيرًا على حكم الزجل في ذلك وسميت القرقية قرقية من القرقة وهي لعبة يلعب بها صبيان الاعراب انتهى . قلت وهذه اللعبة ذكرها صاحب القاموس ورسم صورتها الا انه سماها قِرْقًا لا قِرْقة والخطب سهل . احمد تيمور

قصيدة للمعري

نشر المقتبس (١) قصيدة لامية لابي العلاء المعري لا توجد بديوانه عثر عليها احد علماء المشرقيات في كتاب الوافي للصفدي وقد عثرت له على ابيات لامية ايضًا لا توجد بالديوان في كتاب التذكرة لابن العديم وهو من كتب دار الكتب الخديوية وهذه النسخة بخط ابن العديم نفسه ونصها :

قرأت بخط الشيخ ابي الفضل عبد الواحد بن محمد بن العطار الربعي الحلبي على ظهر كتاب انشد ابو العلاء المعري في من قتل وصلب .

أبدرَ دجىً غالته احدى الغوائل فاصبح مفقودًا وليس بآفل
اتته المنايا وهو اعزل حاسر خفيٌّ غرار السيف بادي المقاتل
غلام اذا عاينت عاتق ثوبه رأيت عليه شاهدًا للحمائل
يمسّح المسك الزكيّ مرجّلاً يرفّ على المتنين مثل السلاسل
سواءٌ عليه في السوابغ جرأةً ثنى عطفه او في رقاق الغلائل
ونزّ الى العلياء ان حيل بينه وبين ظبى اسيافه والعوامل
وعريَ من برديه والسيف لم يكن ليخضب الا من دماء الافاضل
أحلوك من اعلى الفضاء محلةً نأت بك عن ضنك الثرى والجنادل
وليس بعار ما عراك وانما حمال اتساع الصدر ضيق المنازل

انتهى

الا ان قول ابن العديم انشد ابو العلاء يحتمل انه انشدها لغيره وليست له ويحتمل عكسه على اني ارجح كونها له لما عليها من المسحة المعرية وقد عرضتها على الاستاذ الشيخ طاهر الجزائري فصوب رأيي فيها وزاد انه لم يعهد في الغالب ان ابا العلاء ينشد لغير العرب فالراجح انها من كلامه وقد اعجب بها كثيرًا . القاهرة : احمد تيمور

(١) مجلد ٢ ص ٩٧

مطبوعات ومخطوطات

التربية الاستقلالية

او اميل القرن التاسع عشر

لالفونس اسكيروس ترجمه عبد العزيز افندي محمد

وطبع بمطبعة المنار بمصر سنة ١٣٢٦ : ص ٤٦٦

هذا السفر من اجل كتب التربية عند الفرنسيس جرى فيه مؤلفه على اسلوب اميل القرن الثامن عشر لجان جاك روسو وصاغه في قالب رسائل ملدة حوت خزنة افكار ترقي في المرء ادب النفس وادب الدرس . وقد قدم له رصيفنا صاحب المنار مقدمة ذكر فيها غرض المؤلف وفائدة كتابه وكذلك فعل مترجمه الاديب . وكان نشر هذا الكتاب تباعاً في اجزاء كثيرة من مجلة المنار فافرد الآن ليعم نفعه وهو من افضل ما يتخذه ارباب البيوت ويتلونه على صبيانهم وبناتهم ونسائهم فتنطبع في القارئ والسامع ملكة التربية العملية وصورة من صور الآداب العملية في المدنية الغربية فعسى ان ينتفع بالفرع كما انتفع بالاصل وان يلهم العارفون لغات الاجانب منا الى تعريب مثل هذه الاسفار النافعة .

دلائل التوحيد

تأليف الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي

طبع بمطبعة الفيحاء بدمشق (ص ٣٠٧)

عرف مؤلف هذا الكتاب بالهمة العالية في التأليف والنشر والنظر في الفنون الاسلامية واللسانية . وكتابه هذا حوى من ادلة الكلاميين والفلاسفة الالهيين ما تدحض به حجج المبطلين والسفسطائيين وتحل به شبهات الجامدين من الماديين وقد التزم في حجاجهم جانب الادب والحكمة فلا يدفع الشبهة الا بالحجة ولا يدفع الباطل الا بسلطان الحق عازياً بعض الشواهد لاربابها مغفلاً الآخر على حسب الحال .

دواني القطوف

في تاريخ بني المعلوف

تأليف عيسى افندي اسكندر المعلوف . طبع في المطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ (ص ٧٤٩)

هذا المؤلف من كتاب العربية وشعرائها المجيدين ترجم وكتب كثيراً فعد من

جملة من خدموا الآداب العربية وقد اختص هذا التأليف بوصف أسرته الكبرى خاصة وبعض الأسر السورية ولا سيما المسيحية عامة والمّ بتاريخ معظم اصقاع سورية قديمها وحديثها ومناشئ سكانها واصولهم وعاداتهم وحكوماتهم آخذاً عن الشيوخ مشافهة ومن بطون الدفاتر والكتب المطبوعة والمخطوطة مما يصعب وصول كل باحث اليه فجمع شتيتاً من الحوادث والكوائن خدم بها تاريخ البلاد خدمة يشكر عليها وتاريخ الافراد هو تاريخ السياسة ٠

تقرير جمعية العروة الوثقى

سنة ١٩٠٦ — ١٩٠٧

في القطر المصري جمعيتان اسلاميتان قامتا باجل الاعمال النافعة من تربية البنين والبنات احداها الجمعية الخيرية الاسلامية في القاهرة والثانية جمعية العروة الوثقى الخيرية الاسلامية بالاسكندرية ٠ وامامنا الآن تقرير الثانية الاخير وفيه ان عدد مدارس الذكور التي اسستها كان في السنة الماضية ١١ مدرسة فيها ١٩١٠ اولاد ومدارس البنات ٦ عدد تلميذاتها ٥٥٧ بنتاً وقد تبرع لها المحسنون في خلال السنة الماضية بالف جنيه بعضها من محسني اليونان وغيرهم كما تبرع المسيو موربوندو وحده بالف ليرة افرنسية واعطى ورثة المسيو نقولا آبيت الى الجمعية الف جنيه وهي مما خصها من توزيع الخمسة آلاف جنيه التي كان اوصى بها لتصرف على الاعمال الخيرية في الاسكندرية وذلك عدا الاوقاف التي وقفت عليها وهي تساوي بضعة الوف من الجنيهات ٠ وكان المرصد لنفقات التعليم ٥٦٤٦ فبلغت النفقات الحقيقية ٥٧٣٠ ج و٨١٦ م ٠

رحلة الحبشة

لصادق باشا المؤيد وتعريب رفيق بك العظم وحقي بك العظم ٠ طبعت بمطبعة الجريدة بمصر سنة ١٣٢٦ — ١٩٠٨ (ص ٣٣٥) .

المؤلف والمعربان ممن اشتهروا بالآداب وخدمة الاقلام ٠ والمؤلف هو احد افراد أسرة تعلم معظمهم التعليم العصري وبرزوا في الفنون التي احكموها ٠ وقد كانت الحكومة العثمانية انتدبته في مهمات سياسية فرحل الى جغبوب مقر الشيخ السنوسي كما رحل الى كفرة وآسيا الصغرى والحجاز وآخر رحلاته رحلته الى بلاد الحبشة

في مهمة من السلطان العثماني الى الامبراطور منليك الحبشي فلم يشأ ان يضيع رحلاته في الطعام والمنام والسلام والكلام بل قيدها بالورق ونشر بعضها بالتركية فعز ... نسيبه، ان لا ينتفع برحلته الى الحبشة عند العرب فعربها تعريبًا متقنًا وفيها و... بلاد النجاشي وصورة مصغرة من تاريخها الحاضر والغابر واجتماعها واصول س... وعاداتهم وادارتها وصلاتها ببلاد الاسلام ومشاهيرها امس واليوم بحيث جاء الكتاب مرجعًا لابناء هذه اللغة وسوف تنتفع به الاجيال المقبلة كما تنتفع نحن الآن برحلة ... جبير وابن بطوطة وغيرها من رحالة العرب والعجم · وكتب الرحلات من انفع كتب العمران والحضارة وفي هذا الكتاب صور بعض المشاهير من الاحباش وغيرهم وبعض الرسوم والمصورات على نحو الرحلات الافرنجية ·

تركيا الجديدة

لجميل افندي معلوف طبع بمطبعة المناظر في سان باولو من بلاد برازيل

(ص ١٥٤)

كتاب اجاد مؤلفه في وضعه اتى فيه على اسباب الانقلاب العثماني وتاريخه وقسمه الى ستة كتب الكتاب الاول في اسباب الانحطاط في الشرق والثاني في تفرنج الشرقيين والثالث في التعليم والرابع في القانون الاساسي والخامس في الديانة السياسية والسادس أبقاء ام فناء · كل ذلك مكتوب بقلم يدل عَلَى ان للمؤلف جولة في المسائل السياسية والاجتماعية وذوقًا في التأليف والتأثير في الافكار ومن رأيه ان الثورة الاخيرة في السلطنة كانت لقلب مبدإ لا للانتقام من شخص ولو كانت شخصية لفشلت لان كثيراً من ملوك بني عثمان قتلوا ولم ينتج من قتلهم فائدة للبلاد بخلاف هذه الثورة التي اشبهت ثورتي فرنسا واميركا اللتين أُريد بها قلب المبادىء لا نقل السلطة من مستبد الى يد مستبد آخر

قال « ولا بد ان يعقب هذا الانقلاب السياسي الصغير ثورة ادبية عظيمة ضد المبادىء القديمة كلها فيثور الابن عَلَى ابيه والمرأة عَلَى زوجها والخادم على سيده والرعية عَلَى كاهنها وشيخها ورجال الدين على كتبهم وابناء اليوم جميعًا سيثورون على خرافات اجدادهم ويبرزون امام العالم امة جديدة مجردة عن كل علاقة مع الاجيال الماضية »

الفتاوى النظم

تأليف محمود افندي الحمزاوي طبع بمطبعة « روضة جلق » بدمشق
سنة ١٣٢٦ هـ (ص ٨٦)

هي رسالة منظومة في قسم المعاملات من الفقه الحنفي فيها فوائد كثيرة لايستغني عنها مستفت . ونظم المؤلف وسط ولعله ارقى من كثير من منظوم الفقهاء والمحدثين والمؤلف احد مفاتي دمشق الذين نفاخر بهم لم يشتهر بالنظم اشتهاره بالفقه والحديث وله رسائل وكتب طبع بعضها و بعضها لم يطبع .

نخبة عقد الاجياد
في الصافنات الجياد

تأليف الامير محمد باشا الحسني الجزائري طبع على نفقة المطبعة الاهلية في بيروت
سنة ١٣٢٢ (ص ٣٠٤)

هو كتاب موجز من سفر مطول بهذا الاسم ذكر فيه المؤلف نشأة الخيل وانسابها وتكريمها والقول في لحومها وانواعها والوانها واعضائها وصفاتها وتقفيزها واطوارها وخدمتها والانفاق عليها وتأديبها وكيفية تضميرها والسباق وما يتعلق به الى غير ذلك من الفوائد المهمة التي لا يستغنى عنها في هذا الباب فنشكر للامير المؤلف هديته ونرجو ان ينسج عَلَى منواله معظم الاعيان والامراء فيصرفون شيئًا من اوقاتهم في خدمة الآداب والمعارف .

ابحاث باحث

نشر المسيو لوسين بوفا من المتضلعين من العلوم المشرقية والعارفين بالعربية والفارسية والتركية كراسة اشار فيها الى ابحاثه ومقالاته في المجلات الافرنجية مثل مجلة العالم الاسلامي والمجلة الآسياوية ومجلة السجلات المراكشية والمجلة الاسبانية ومعظم هذه الابحاث مما اشتهر بين اهل الادب والعلم وقدره الباحثون حق قدره فنثني على نشاط صديقنا المشار اليه .

مجلات وجرائد

لم يكد الكلام الذي وضع عَلَى الافواه والالسن منذ زهاء عشرين سنة في السلطنة

يرتفع عن الناس بفضل القانون الاساسي حتى ظهرت جرائد ومجلات كثيرة بلغات مختلفة في قواعد البلاد بل في كورها الصغيرة · ومن الجرائد اليومية التي ظهرت في بيروت جريدة « الاتحاد العثماني » لمنشئها احمد افندي حسن طبارة من قدماء الصحافيين وجريدة « الثبات » لصاحبها اسكندر افندي الخوري ورئيس تحريرها خليل افندي زينيه من قدماء الكتاب وجريدة «الوطن» لمنشئها شبلي افندي ملاط ونجيب افندي شوشاني من الادباء الشعراء و« وحديقة الاخبار » وهي اقدم جريدة سورية صدرت يومية ايضاً لمنشئيها وديع افندي الخوري وحنا افندي الخوري و« بيروت » لصاحبها عبد القادر افندي الدنا وامين افندي الدنا صدرت يومية ايضاً و« الحقيقة » للشيخ احمد عباس الازهري ومديرها حسن افندي الاطور و« المفيد » لعبد الغني افندي العريسي من الادباء الكاتبين ومدير سياستها حسن افندي بيهم من قدماء الكتاب · وبهذه الجريدة اصبحت جرائد بيروت ولبنان اثني عشرة جريدة · وصدرت في حلب جريدة يومية لصاحبها حكمت ناظم بك اسمها « صدى الشهباء » نصفها بالعربية والنصف الآخر بالتركية · واصدر صاحب هذه المجلة جريدة يومية باسم « المقتبس » ايضاً في مدينة دمشق ·

ومن المجلات الحديثة مجلة « المباحث » في طرابلس الشام لصاحبيها جرجي افندي يني وصموئيل افندي يني من قدماء الكتاب المشتغلين بالآداب وهي علمية ادبية سياسية فكاهية تصدر مرتين في الشهر وصدرت في بيروت مجلة « النبراس » وهي شهرية تبحث في الاجتماع والعمران والعلم والادب والتاريخ والانتقاد والسياسة لمنشئها الشيخ مصطفى الغلاييني من الكتاب الادباء · وصدرت في بيروت مجلة « المنتقد » وهي عمرانية اجتماعية انتقادية فكاهية تصدر مرتين في الشهر لمنشئها محمد افندي باقر ومديرها كمال افندي بكداش · وصدرت فيها ايضاً مجلة « روضة المعارف » لصاحبها محمد علي بك القباني ورئيس تحريرها الشيخ عبد الرحمن سلام الشاعر الاديب وهي تصدر مرتين علمية ادبية فكاهية · وصدرت في مصر عدة جرائد ومجلات ايضاً منها مجلة « الجامعة المصرية » وهي نصف شهرية لاصحابها محمود افندي شاهين ومحمد كامل افندي فيضي وعبد الله افندي امين وهما من ادباء القاهرة وهذه المجلة تنشر دروس الجامعة المصرية ·

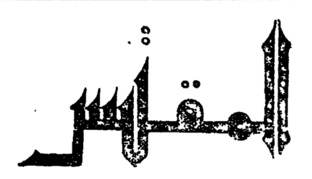
والذي يلاحظ عَلَى معظم هذه الصحف انها تكاد تكون متشابهة في موضوعاتها فلو تفننت كل واحدة وخاضت عباب موضوع يخالف اختها لنفعت البلاد نفعاً اكثر وصادفت من الرواج والاقبال ما تستحق ·

المنجد

للاب لويس معلوف اليسوعي طبع بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت

(ص ٧٣٧)

هو معجم عربي مدرسي موجز مرتب عَلَى الاسلوب الحديث مزين بصور بعض الحيوانات والنباتات والادوات والاعضاء قدم له المؤلف الاصطلاحات التي اختارها. وفيها فوائد كثيرة وكنا نود لو كان هذا المعجم اوسع مما هو عليه لئلا تفوته بعض الشيء وان تكون بعض الفاظه معززة بالشواهد الخفيفة لتكون اعلق في الذهن · وقد تحرى المؤلف كل المحافظة عَلَى عبارات الاقدمين ما امكن واغفل ذكر ما يمس حرمة الآداب من الكلمات المبذوءة التي لا يضر جهلها وقلما افاد علمها · قال واذا شئت البحث عن كلمة فان كانت مجردة اطلبها في باب اول حرف منها وان كانت مزيدة اوفيها حرف مقلوب عن آخر جردها او ردها الى الاصل ثم اطلبها في باب الحرف الاول من وفها الاصلية وقد جعل اول كل مادة في صدر السطر بين هلالين وعد اليمين نقطة مربعة الشكل وان كانت الكلمة من الدخيل فنقطة مستديرة · والكتاب من اجود طبع عهد باللغة العربية واصغر حرف واوسط حجم حتى يسهل على الطالب نقله كما ينقل المعاجم الصغيرة الافرنجية فنشكر للمؤلف عنايته بخدمة اللغة والآداب ونرجو ان يكون مصنفه نافعاً للمدارس والطلاب ·



صفر سنة ١٣٢٧

ايقاظ الرقود (١)

الى كم انت تهتف بالنشيد وقد اعياك ايقاظ الرقود
فلست وان شددت عرى القصيد بمجد في نشيدك او مفيد
لان القوم في غي بعيد

اذا ايقظتهم زادوا رقادا وان انهضتهم قعدوا وئادا
فسبحان الذي خلق العبادا كأن القوم قد خلقوا جمادا
وهل يخلو الجماد عن الجمود

اطلت وكاد يعييني الكلام ملاماً دون وقعته الحسام
فما انتبهوا ولا نفع الملام كأن القوم اطفال نيام
تهز من الجهالة في مهود

اليك اليك يا بغداد عني فاني لست منك ولست مني
ولكني وان كبر التجني بعز علي يا بغداد أني
اراك على شفا هول شديد

تتابعت الخطوب عليك تترى وبدل منك حلو العيش مرا
فهلا تنجبين فتى اغرا اراك عقمت لا تلدين حرا
وكنت لمثله ازكى ولود

---

(١) قصيدة لمعروف افندي الرصافي العالم الاجتماعي الشهير نظمها لما ارسلت الدولة حملة على القصيم من بلاد نجد واصابها ما اصابها منذ بضع سنين

اقام الجهل فيك له شهودا وسامك بالهوان له السجودا
متى تبدين منك له جحودا فهلا عدت ذاكرةً عهودا
بهن رشدت ايام الرشيد

زمان نفوذ حكمك مستمر زمان سحاب فيضك مستدرّ
زمان العلم انت له مقر زمان بناء عزك مشمخر
وبدر علاك في سعد السعود

برحت الاوج ميلاً للحضيض وضقت وكنت ذات ثلى عريض
وقد اصبحت في جسم مريض . وكنت باوجه العز بيض
فصرت باوجه الذل سود

ترقى العالمون وقد هبطنا وفي درك الهوان قد انحططنا
وعن سنن الحضارة قد شحطنا فقطنا يابني بغداد قطنا
الى كم نحن في عيش القرود

ألم تك قبلنا الاجداد تبني بناء للعلوم بكل فن
لماذا نحن يا اسرى التأني أخذنا بالتقهقر والتدني
وصرنا عاجزين عن الصعود

كأن زحل يشاهد ما لدينا لذاك احمر من حنق علينا
فقال موجهاً لوماً الينا لو اني مثلكم امسيت هينا
اذاً لنضوت جلباب الوجود

ركدتم في الجهالة وهي تعشي وعشتم كالوحوش اخس عيش
أما فيكم فتى للعز يمشي تبارك من ادار بنات نعش
وصفدكم باصفاد الركود

حكيتم في تونقكم جدياً فصرتم كالسها شعباً خفيا
ألا تجرون في مجرى الثريا تزحم بدورها فلكاً قصيا
فنبرز منه في وضع جديد

حكومة شعبنا جارت وصارت علينا تستبد بما اشارت
فلا احداً دعته ولا استشارت وكل حكومة ظلمت وجارت
فبشرها بتمزيق الحدود

حكومتنا تميل لباخسيها مجانبةً طريق مؤنسيها
فلا يغررك لين ملابسيها فهم كالنار تحرق لامسيها
وتحسن للنواظر من بعيد

لقد غص القصيم بكل نذل وامسى من تخاصمهم بشغل
فريقا خطتي غيٍّ وجهل كلا الخصمين ليس له باصل
ولكن من التنكيل المريد

اليهم ارسلت بغداد جندا ليهلك ثم عن عبث ويفدى
اقصد ابن الرشيد اضاع قصدا فلا يا ابن الرشيد بلغت رشدا
ولا بلغ السعود ابن السعود

مشوا يتحركون بعزم ساكن وورثة حالهم تبكي الاماكن
وقد تركوا الحلائل في المساكن جنود ارسلت للموت اكن
بفتك الجوع لا فتك الحديد

قد التفوا باسمال بوال مشاة في السهول وفي الجبال
يجدون المسير بلا نعال بحال للنواظر غير حال
وزي غير ما زي الجنود

مشوا في منهج جهلوه نهجا يجوبون الفلا فجا فجا
الى حيث السلامة لا ترجى فيالهفي على الشبان تزجى
على عبث الى موت مبيد

وكل مذ غدوا للبيت أما تودع اهله زوجا وأما
وضم وليده بيد وشما بكى الولد الوحيد عليه لما
غدا يبكي على الولد الوحيد

تقول له الحليلة وهو ماش رويدك لابرحت اخا انتعاش
فعدك من يحصل لي معاشي فقال ودمعه بادي الرشاش
وكلتكمو الى الرب الودود

عساكر قد قضوا عريا وجوعا بحيث الارض تبتلع الجموعا
الى ان صار اغناهم ربوعا لفرط الجوع مرتضيا قنوعا
بقد لو اصاب من الجلود

هناك قضوا وما فتحوا بلادا هناك باسرهم نفدوا نفادا
هناك لحيرة عدموا الرشادا هناك لروعهم فقدوا الرقادا
هناك عروا هناك من البرود

اناديهم ولي شجن مهيج واذكرهم فينبعث النشيج
ودمع محاجر بدم مزيج الا ياهالكين لكم اجيج
ذكا بحشاي محتدم الوقود

سكنا من جهالتنا بقاعا يجور بها المؤمر ما استطاعا
فكدنا ان نموت بها ارتياعا وهبنا امة هلكت ضياعا
تولى امرها . . . . .

ايا حرية التعنف ارحمينا فانا لم نزل لك عاشقينا
متى تصلين كيما تطلقينا عدينا في وصالك وامطلي
فانا منك نقنع بالوعود

فانت الروح تشفين الجروحا بحرج فقدك البلد الفسيحا
وليس لبلدة لم تحو روحا وان حوت القصور اوالصروحا
حياة تستفاد لمستفيد

اقول وليس بعض القول جدا لسلطان تجبر واستبدا
تعدى في الامور وما استعدا الا يا ايها الملك المفدى
ومن لولاه لم نك في الوجود

انم عن ان تسوس الملك طرفا أقم ما تشتهي زمراً وعزفا
اطل تكر الرعية خل عرفا سم البلدان مهما شئت خسفا
وارسل من تشاء الى اللحود

فدتك الناس من ملك مطاع ابن ما شئت من طرق ابتداع
ولا تخش الاله ولا تراع فهل هذي البلاد سوى ضياع
ملكت او العباد سوى عبيد

تنعم في قصورك غير دار أعاش الناس ام هم في بوار
فانك لم تطالب باعتذار وهب ان الممالك في دمار
أليس بناء قصرك بالمشيد

جميع ملوك هذي الارض فلك وانت البحر فيك ندى وهلك
فاين لهم علاك وذاك افلا لئن وهبوا النقود فانت ملك
وهوب للبلاد وللنقود

التجارة والاسلام(١)

يا كرام الشام اراني كمن هو في المنام يتنقل من امر غريب الى امر اغرب وكل ماأراه من هذه المظاهر يزيدني في كل آونة سروراً عَلَى سرور حتي لا يكاد يوجد موضع لزيادة السرور · رأيت في هذه الليلة مشهداً حافلا ومثالاً يدل عَلَى الوطنية الحقيقية في هذه المعاهد فلذلك لم اتمالك ان ابتدأ كلامي بالاشارة الى حكمة من رجل قديم وهي انه جمع احد الرجال اولاده واوصاهم بالرمز لانه وجد الاشارة افضل من كل عبارة فقدم لهم اعواداً من اغصان الشجر واعطى لكل واحد منهم عوداً وقال له إقصم هذا فكان ماسهل عليه من كسره · ثم ضم الاعواد بعضها الى بعض واعطاها للقوي من اولاده فالثاني فالثالث فالرابع فكانت النتيجة سلبية فقال بهذا الاتحاد يكون نيل المراد · لذلك احييكم بوجود هذه العاطفة عاطفة الود والاتحاد التي تربطكم بعضكم ببعض ومافترق عضو الا وكان مشلولاً والاتحاد ممدوح ويد الله مع الجماعة ·

من دواعي السرور التي رأيتها في هذا البلد الامين انني اجتمعت بنفر من الخاصة ثم بالعامة امس واليوم اجتمعت بالوسط وهم التجار وخير الامور الوسط اجتمعت بهؤلاء في نادي التجارة وهي اساس الملك وركن العمران

(١) وهي محاضرة ارتجلها ليلة الاربعاء في ٢١ ذي الحجة في المنتدى التجاري بدمشق احمد زكي بك واستملاها منه صالح افندي قباز

ولا اطيل الكلام في فوائدها فكلكم ادرى بها مني وتعرفون مزاياها . على التجارة قامت الامم وارتقت الممالك حتى قيل في الامثال : اذا كان مجد العالم بكراريسه فمجد التاجر بكيسه ولكن مجد العالم لا يكون له شأن في ترقية الوطن الا اذا امده التاجر بكيسه . العلماء قوم يشتغلون بالعلم ولو اشتغل الناس كلهم بالعلم لكانوا في غير هذه الدنيا او من غير هذا العالم اذ ما الفائدة من الورق المكتوب ان لم ينضمّ له الورق المضروب وما الفائدة في الطمامير ان لم تؤيدها الدنانير . ألم تروا ان سيد الخلق كان تاجراً وان كثيراً من علماء الاسلام اشتغلوا بالتجارة والعلم لما في التجارة من سعادة الدنيا وحياة الامم وما في العلم من سعادة الآخرة . اذا نظرنا الى المسلمين رأينا الخلفاء وارباب الدولة منهم يتجرون بامتعة الدنيا ليكسبوا قوتهم من الحلال لان التجارة هي المكتسب الحلال الصافي من كل قذر .

تعلمون ان علوم العرب قد اخنى عليها الزمان ولكن بقي لنا شيء قليل من ذلك البحر الزخار . كان ابن جبير الاندلسي وابن حوقل البغدادي والمسعودي يطوفون البلاد للتجارة والمكسب ويدونون كل ما يشاهدونه من المعارف ليفيدوا ابناء جنسهم بكل ما استفادوه من التجارة . بهذه الوسيلة تملك العرب في ايام مجدهم اطراف الدنيا وارتقى لديهم العلم ولذلك كان الاسلام ذلك المظهر البديع في الدين والسياسة الذي ضمن له كل درجة في ارتقاء العالم

ماهي الاسس التي قامت عليها الحياة ؟ هي الزراعة والصناعة والتجارة . فالزراعة اول مصدر حقيقي لمعيشة الانسان حتى اخذ في التحضر والتمصر ولكنها كانت قاصرة فجاءتها الصناعة فاشتغلت بما تنتجه الارض من الخيرات

واستحصلت منها خيرات اخرى صناعية · بقيت هذه الحالة في دور الطفولية في ادوارها الاولى فجاءت التجارة وصلةً بين الزارع والصانع سبباً في تقدم العلوم وارتقاء المدارك وحسب التجارة فضلاً ان سيد البشر ونبي العرب والعجم قد اشتغل بها كما ذكرنا

ليست كل البلاد زراعية بل منها ما هو جبل او واقع في سفح جبل فلا يمكن ان تنبت لها الارض شيئاً ونرى الانسان في مكان كهذا ليس للزراعة فيه اثر ومع ذلك يعيش بفضل التجارة ولهذا يمكن الانسان ان يستغني عن الزراعة والصناعة ولا يمكنه الاستغناء عن التجارة لانها تنقل له المحصولات الزراعية والصناعية من البلاد التي تمتاز بهما ولكن اذا بارت التجارة عدمت الزراعة والصناعة فالتجارة والامر على ما ذكر سيدة المعايش ·

كان تجار الشام ملوك التجارة وأعني بالشام تلك البلاد التي يحدها من الشرق العراق ونهر الفرات ومن الغرب البحر الابيض المتوسط (بحر الروم) ومن الشمال بلاد آسيا الصغرى المعروفة عند العرب بارض الروم ومن الجنوب بادية الشام او بادية السماوة او بادية النفود ولا ادري معنى النفود فأغتنم الفرصة لفهم معنى هذه الكلمة :

رأيت في كتب الافرنج وخرائطهم تسمية هذه البادية ببادية النفود قائلين ان النفود معناه الرمل ولكني بحثت في هذه الكلمة وحورتها وقلبتها فلم اعثر في كتب اللغة على اسم يوازي هذا الاسم الذي هو شبيه بالعربي ونقله جغرافيو الالمان والانكليز

وكلامي يسمعه بالطبع كثير من التجار الذين تمر قوافلهم بتلك البادية

فعسى ان يحققوا (١) معنى هذه الكلمة حتى لا يقال ان الافرنج يأتوننا بكلمة عربية ولا نعرف معناها

وبهذه المناسبة اقول انا نجد لبلادنا مصورات باللغة الافرنجية واللغة العربية واذا نظرنا للعربية نجدها كلها مترجمة عن الافرنجية وربما كان المترجم يتحرج في بعض الاسماء فيتركها .

في احد دروسي اردت ان اشرح للتلاميذ حالة بلاد العرب عند ظهور الاسلام فرأيت خرائط مصر ودار السعادة كلها خلواً من اسماء البلاد والاماكن لذلك دعوت تلامذتي لان يتلافوا هذا النقص ويستعينوا بالذي ابقاه لنا مثل ابن خرداذبه والاصطخري والمسعودي لنسد هذا النقص حتى اذا قرأنا شيئاً عن اخبار العرب عرفنا مواطن القبائل والشعوب وقلت لهم ان الذي يساعدنا على العمل الاكبر لهذا المقصد ان نسأل التجار وتلاميذ الجامعة الاسلامية الكبرى وهي الازهر الذين يأتوننا من سائر البلاد الاسلامية فانهم اذا سألوا اهل العلم والتجار الوافدين الى مصر يمكننا ان نرسم خريطة وافية لبلاد العرب كافة احسن من التي عملها الافرنج واضاعوا في سبيلها كثيراً من الاموال والارواح ثم نعمل خريطة لبلاد العراق والشام واتمنى من الذين يهمهم ذلك ان يستعينوا باهل البلاد سواء كانوا من اهل العلم

(١) «المقتبس» سئل الشيخ عبد الله الاحمد الرواف النجدي نزيل دمشق في هذه الايام: هل لكلمة النفود إستعمال بين العرب ؟ فاجاب : نعم: النفود في لغة اهل نجد ومن يخالطهم من القبائل هو كل رمل متراكم ويسمونه ايضاً بالاحقاف . يقال فلان في النفود وبيته او جماله في النفود يعني الرمال المتراكمة الكبيرة قال هكذا يستعملونها منذ القدم الى الآن ويتكلمون بها ، وكثيراً ما رأينا السياح الاجانب مثل هوبرت الفرنسي وغيره يطوفون البلاد ومعهم كتب واوراق وخرائط يثبتون فيها ما يتلقونه عمن كان معهم من العرب . . .

او التجار لانا بمجرد انقطاعنا عن طلب العلم والكسب قد نزلنا الى الحضيض ووقفنا في طريق الجمود بينا كان الافرنج يكدون

انا اذا اردت ان اعرف مواقع دمشق لا اقدر عَلَى ذلك الا بالخرائط الافرنجية واما خرائط مصر ودار السعادة فكلها خلو من ذلك . هذا نقص يجب ان نتعاون عَلَى سده حتي لانكون عالةً عَلَى الافرنج لا في العلم فقط بل في مواقع بلادنا

اول خريطة رسمت في العالم رسمها نفر قليل من اهل الشام وهم الفينيقيون وبلادهم جزر صغيرة متواصل بعضها ببعض ولم يكن لديهم قوة غير التجارة فملكوا بها العالم كله ووصلوا في ذلك الزمان المظلم الى مضيق جبل طارق ومنه الى بلاد الانكليز وهم اول من عرف تلك البلاد وقد ملكوا منها كثيراً كما اسسوا كثيراً من البلاد في اسبانيا وكانت لهم المستعمرات في صقلية وغيرها . ثم نزحوا الى تونس واقاموا في قرطاجنة تلك المدينة الكبيرة ولقد كانت هذه المدينة تاج ملك الفينيقيين والدهر تارة لها وتارة عليها . اولئك هم آباء الشام حتى دار الدور وغار منهم الروم واليونان فاتوا ايضاً بطريق التجارة والملاحة وصاروا يأخذون املاك القرطاجنيين وحينئذٍ تقدمت رومية وازالت اثرهم من الوجود لكنا لاننسى ان انيبال بفضل التجارة مر من الجزائر ومراكش الي اسبانيا ومنها الى فرنسا فايطاليا ووقف حتى صاح الرومانيون ببعضهم : مالكم قاعدون والعدو عَلَى الابواب وحينئذٍ لم يتمكن انيبال من اتمام مقصده ولو كانت عنده السفن الحربية لكان محق رومية ولكنه ابعدعنها كثيراً ولم يأته المدد فذهب فريسة اقدامه الهائل ولاشك انه فخر لاهل الشام لانه فينيقي والفينيقيون من الشام

دار الزمان دورته وجاء المجد للعرب فابتدأت تجارتهم بالنصر وكانوا يقصدون الفتوح والتوسع في الملك بواسطة التجارة ولذلك كان الخليفة العباسي يهدد اهل الهند اذا اقفلوا باب التجارة امام تجار بغداد والشام ·

ذهب فريق من اهل الكوفة الى الهند بقصد التجارة واقاموا فيها لكن الهنديين حرفوا اسم الكوفيين وسموهم (كوكل) وكذلك اتاها جماعة هربوا من الحجاج ايام تجبره على الذين يرغبون في مناوأة السلطة المروانية وذلك انه اجلى نفراً من قريش وكان فخر قريش قبل النبوة بالتجارة كما قال تعالى (لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) فلما اجلاهم ذهبوا عن طريق البحر الى الهند فسماهم اهلها بالنوائت (النوتية) وبقوا فيها زمناً طويلاً حتى انتشروا انتشاراً هائلاً وهم الذين اسسوا الاسلام هناك·

فللتجارة اذن فضل كبير في انتشار الدين الاسلامي ايضاً · كان التجار يتجهون الى شطوط افريقية فيرى اهلها من حسن معاملتهم وعظم اخلاقهم ما يزهدهم في دينهم رغبة في انتحال الاسلام ولذلك لم ينجح كثير من النصارى كما نجح تجار الاسلام · فالتجارة هي اساس العمران والتاجر اساس نجاحه الامانة والصدق في الاخذ والعطاء

لما دالت الدولة في دمشق وانتقلت الى بغداد اختار المنصور الموقع التجاري لبناء العاصمة الكبرى وهي بغداد التي قال عنها علماء العرب : ان العراق سرة الدنيا وبغداد سرة العراق فبغداد سرة الدنيا

كان كرسي الدولة العباسية عند اول قيامها في الكوفة ثم صار في الهاشمية ثم في الانبار لكن الخليفة رأى عاصمة بلاده في موقع غير تجاري فاراد ان يجعلها في اهم مركز تجاري لتكون مضمونة البقاء على الدوام ولذلك ارسل

الرسل ليقفوا على الجهة المطلوبة فاختاروا البقعة التي اقيمت فيها بغداد قائلين للخليفة : « هنا تجيئك الميرة من المغرب وطرائف مصر والشام عن طريق الفرات وتجيئك في السفن من الصين والهند عن طريق دجلة . وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة وتجيئك الميرة من ارمينية فما فوقها عن طريق الزاب وانت بين انهار لا يصل عدو اليك الا على جسر اوقنطرة فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لا يصل اليك عدوك وهو محتاج لعبور دجلة والفرات وهما خندقان طبيعيان لبلدة امير المؤمنين . » فامر بحشر الصناع والفعلة من الشام والموصل وفارس والكوفة وواسط والبصرة واختار قوماً من اهل الدين والعدالة والمعرفة والهندسة فوكل اليهم امر العمال وكان فيهم الحجاج بن ارطاة المهندس وابو حنيفة ابن ثابت الفقيه (وانما اختار ابا حنيفة لان المنصور اراد ان يولي ابا حنيفة القضاء فامتنع فضربه فامتنع فحلف انه لا بد ان يوليه عملاً ولذلك امره بان يتولى الطوب واللبن ليعدّ بقسمه) وامر بتخطيط المدينة كلها فلما تم تخطيطها بالرماد اقبل يدخل من كل باب ويمر في طرقاتها ورحابها فرآها وافية بما تميل اليه النفس فوضع اول حجر بيده قائلاً : بسم الله وبالله والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال للعمال : ابنوا على بركة الله . وعند البناء امر بطبخ الطوب الاحمر (الآجر) وكان يعد على يد ابي حنيفة بالملايين فاستدعى لذلك وزيره جعفر البرمكي وقال له ماراًيك في هدم ايوان كسرى لجلب انقاضه واستعمالها في البناء فاجابه الوزير : انه رأي غير صائب لان الايوان من آثار الفرس وهذا البناء الذي تقيمه الآن من آثار الاسلام ينبغي ان لا يدخل فيه اثر لغيرهم . فقال له الخليفة : اخذتك

النعرة لقومك وحننت الى العجم فاردت ان تمنعني عن ذلك · ولم يعبأ بقول وزيره وارسل فعلة فنقضوا بعضه واتوا به الى بغداد فحسبوا النفقة فوجدوها تزيد بكثير عَلَى استحضار ادوات جديدة· ولذلك رأى الخليفة ان الاولى جلب الطوب الاحمر الجديد وحينئذٍ استدعى جعفر ثانياً وسأله في ذلك قائلاً : اريد ان اجلب الاحجار من الجبال لا من انقاض الايوان فاجابه الوزير « لا تفعل ذلك يا امير المؤمنين بل ثابر عَلَى ما باشرت به لئلا يقال ان ملك الاسلام عجز عن نقض ما بناه ملوك الاكاسرة » رأى المنصور ان الكلام صواب ولكن لا يمكنه العمل به لان المدينة تجارية اقتصادية فلم يسمع قول وزيره ·

استمرت دولة العرب عَلَى هذه الحال من الترقي في العلم والتجارة في آن واحد والتجارة من فرنسا وروسيا وبريطانيا الى الهند وغيرها كانا عن طريق بغداد حتى دالت الدولة منها وانتقلت الى الاندلس فكان للتجارة فيها رقي عظيم لكن اهلها اصبحوا بعد مدة مثل الاعواد التي ذكرتها لكم فدالت دولتهم بسبب التفرق والانقسام

قامت عَلَى انقاضهم دولة اسبانيا وسعت حتى رقيت بما اكتسبته من علوم الشرقيين وكذلك اخذت في الترقي دولة البورتغال وليس في وسعها التوسع في الملك فهجم ارباب الاقدام فيها عَلَى المخاطر ولما كانت الهند اعظم محل تجاري بما ترسل من البهارات والابازير والفلفل والافاوية الى بغداد واوربا أرادوا ان يذهبوا اليها ليستعمروها وتولدت عندهم رغبة جديدة في ان يصلوا الى الهند عن طريق آخر لان الاسلام في المغرب الاقصى ومصر واقفون لهم بالمرصاد لذلك استغنوا عن طريق البر وسلكوا طريق

البحر فاكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح وتملكوا بلاد موزامبيك وزنجبار ووصلوا الى الهند وعاملوا تجارهم قائلين لهم لا نريد سوى الفلفل بهذه الوسيلة صار لهم مع اهل الهند معاملة قوية لكن تفرق تجار الهند جعل لهم عليهم كلمة فاستغاثوا بملوك مصر وآل عثمان فلم يجيبوهم لان العداوة كانت متأصلة بين السلطان سليم والغوري ملك مصر

وذلك ان الغوري ارسل طائفة من الجند الى الهند على سفن (ويسمونها اغربة) صنعها في السويس فلما وصل قائده الى اليمن حدثت بينه وبين اهلها مناوشات اضطرته لان ينسى الوظيفة التي ارسل اليها وهي انقاذ البلاد من البورتقال فبقي في اليمن وفي اثناء ذلك كانت القاهرة في اضطراب شديد انساها الهند ايضاً لمحاربتها مع السلطان سليم وانتصاره في واقعة (مرج دابق) التي قتل فيها الغوري واستولى هو على حلب ومصر والشام ثم اشتغلت الدولة العثمانية بمحاربة السلطان اسماعيل الصوفي ونسيت الهند فكان هذا التفرق والاضطراب اعظم وسيلة لامتلاك البورتقال تلك البلاد الغنية بتربتها ومحصولاتها

رأينا بلاد الهند فتحت على يد التجار كما امتلكها الانكليز اليوم بواسطة التجارة ايضاً لما اصبحت انكلترا ملكة البحار واهلها ملوك التجار ٠

في ذلك الوقت قامت اسبانيا لتوسع دائرة ملكها فرأت انها لا يمكنها طلب الهند من طريق البورتقال والمنافسة التجارية اساس الاستعمار فقام خريستوف كولمب وجرى في البحر من جهة الغرب ليملك بلاد الهند ٠ بهذه الوسيلة اكتشف اميركا وسماها الهند الغربية ٠ وارتقت اسبانيا حتى كانت كلمتها هي العليا خصوصاً في ايام شارلكان فانها اغتنت وتدفقت اليها الاموال

من جهات الدنيا ولكنها تضعضعت اخيراً باخراج المسلمين وبالتراخي فألهاها التكاثر حتى دخلت في عداد اهل المقابر · في هذه الآونة كانت اوروبا جارية نحو التمدن والشرق قد أخلد الى النوم والسكون الى الموت والجمود · وهنا اذكر لكم كلمةً عن تمدن الاوربيين :

كانت اوروبا في منتهى التوحش حين كانت بغداد في اوج الحضارة حتى ان تجار العرب لما ذهبوا لاستحضار العنبر من شلسويج وصفوا اهلها بانهم وحوش عراة لايسترون عوراتهم الا بقطع من الجلود (ذكره القزويني في آثار العباد واخبار البلاد) هذا وصف احد سياح العرب لتلك الدولة التي هي اليوم في ارقى درجات الحضارة ·

تنبهت اوروبا من رقدتها باختلاطها مع العرب شرقاً في الشام وغرباً في الاندلس فجمعت الزبدة والخلاصة النافعة من مدنية اليونان والرومان وضمت الى ذلك ما اخذته من احتكاكها بالشرق ايام الحروب الصليبية فتولدت لديها الحضارة · دخل احد امرائها في زمن الحرب الصليبية احد الحمامات في فلسطين (صور او صيدا) فاستعمل معه الحمامي النورة فاستعجب الامير من ذلك وخرج في الحال فأتى بامرأته وقال له افعل معها كما فعلت معي · في تلك الايام كان تعليمهم مبنياً على اسس العرب مثل كتب ابن سينا والفارابي وابن رشد وغيرها مما ترجموه الى لغاتهم ·

كانت هذه الحركة اول مبدأ لترقيهم بعد ان كانوا عبيداً لقليل من السادة وكانت اوروبا ملكاً لافراد من الملوك · كان السكان عبيداً لهؤلاء السادة فاذا بيعت الارض بيعت رجالها وحيواناتها وكل شيء معها حتى كان للسادات حق التخفيذ اي ان لا تزف العروس حتى يأخذها الرئيس

فباختلاطهم باهل الشرق دفعوا هذه الوصمة عنهم وقامت لديهم شبه حكومات ابتدائية في تلك البلاد ثم عثروا على مصنفات اليونان فصاروا يأخذون عنها مباشرة بعد ما كانوا يأخذون عن العرب واستمروا على هذه الحالة لكن عبرت عليهم نفحة من الافكار الصائبة التي اكتسبوها من المسلمين فاخذوا بالتجارة مع القوم ودرس علومهم باتقان غير ان ضغط الملوك وخصوصاً البابارات باسم الدين كان سبباً لتفرقهم على بعضهم اذ كان التعصب آخذاً منهم مبلغاً عظيماً . ومع ذلك فقد اوجدت شدة الضغط افراداً نوابغ كسروا قيود الاستعباد وفكوا الاغلال الجمود مجاهرين بالحرية فكان من اجل ذلك ما كان من امر ديوان التحري القسيسي وواقعة القديس برثلماوس بين البروتستانت والكاثوليك وواقعة صلاة العصر في صقلية حيث قام الناس بعضهم على بعض . ولذلك اضطر ارباب الافكار الحرة وهم البروتستانت الى المهاجرة من المانيا وفرنسا الى انكلترا وهولاندة حيث نشروا العلوم ووسعوا دائرة الافكار فترقت بهم البلاد وافاضت المعارف منها على باقي بلاد اوروبا . سعى القوم وراء العلم والمعارف كثيراً فكان ذلك اسهل طريق لتأصيل دعائم التمدن بينهم حتى ان غاليله لما قال بدوران الارض وانكروا قوله وحكموا عليه بالاعدام قدم الى النطع والسيف وهو يقول : ومع ذلك تدور . وكذلك قام في ايطاليا (جوردانو برونو) فاحرقوه بالنار لانه نشر افكاراً حرّة واما اليوم فكم له في بلاد اوروبا من تماثيل لانه كان من الذين سعوا في تفكيك الرقاب من ربقة الجهل والعبودية

ثم قام ميرابو بنشر الافكار الحرة بين الشعب حتى ان الملك ارسل من قبله الى هذا الحزب رجلاً يقول لهم (اخرجوا من هذه الدار) فاجابوه

نحن هنا نواب الشعب بارادته فلا نخرج الا بأطراف الحراب وكذلك قام (دانتون) وكان يخطب بالقوم ويقول: من اراد الظفر فعليه بالجرأة والاقدام ثم بالجرأة والاقدام وليكن شعاره على الدوام الجرأة والاقدام — جاء فولتير وروسو فاقاموا هذا الصرح العظيم فوق ذلك الاساس المتين وكانت احدى الجمعيات العلمية حينئذٍ اقترحت وضع كتاب في الاجتماع والعمران جاعلة مكافأة كبيرة لمن يسبق في هذا المضمار ويجيد في التأليف فألف عندها جان جاك روسو كتابه (عقد الاجتماع) الا انه لم ينل الجائزة المعينة وانما اخذها رجل آخر لاغراض في النفوس لكن الافكار لم تستنر الا بهذا الكتاب ولذلك اسبل الدهر ستره على ماسواه ·

انتشرت بهذه الوسيلة روح الحرية في فرنسا فكانت سبباً لتقويض اركان الاستبداد ورفع منار الحرية على تلك البلاد وصار كل واحدٍ يقول مايريد لان الافراد اصبحوا احراراً في اقوالهم وافكارهم وبذلك بلغت اوربا ماتراه اليوم من التقدم المدهش وخوارق الاعمال ·

انتشرت الحرية من فرنسا الى امم اوربا فترتب على ذلك وجود المجالس النيابية وهي حكومة الشعب بالشعب التي كانت السبب لرقي دول اوربا كلها · وهم اليوم على هذه الدعامة الاسلامية فالحمد لله الذي اعادلنا الشورى في هذه الايام · في تلك الآونة انفسح المجال امام التجار وبات لهم طريقان طريق من الشرق وهو طريق رأس الرجاء الصالح وطريق من الغرب وهو طريق اميركا لكن بعد الشقة وطول المدة التي تزيد عن سبعة عشر يوماً الجأتهم الى فتح ترعة السويس فكانت اكبر ممهدٍ للتجارة وترقيها على مانشاهده اليوم بالعيان ·

ولكن لدينا طريق اهم واكثر فائدة وهو طريق بغداد فمتى تمت السكة الحديدية في هذا الطريق تعود لنا التجارة · والسكك الحديدية في الارض كالشرايين في الجسم فاذا لم يجر شريان في البلد كان ذلك سبباً لهدم الحياة فيه وكلما انتشرت السكك في البلاد كان فيها زيادة الخير · من اجل هذا ارجو من اهل الشام وخصوصاً التجار ان ينعموا في هذه البلاد التي هي من اغنى اقطار الدنيا على الاطلاق ولكن تنقصها السكك الحديدية واناشدهم ان يهبوا للتعاون على تأليف الشركات الوطنية حتى تبقى ثروة البلاد في البلاد ولا يتمتع بها الاجنبي وانتم منها محرومون · اؤمل من اهل الشام ان يضعوا الميامين بعضها في بعض لنقل خيرات البلاد الى البلاد وبذلك ترقى دور التجارة والصناعة وتنال كثيراً من الفوائد دون ان يشترك فيها الاجنبي الا بما لا مندوحة عنه

رأيت القسم الاعظم من التجارة هنا بيد الاهلين فحذار حذار ايها الكرام من ان تذهب من ايديكم وعليكم بالسعي في اصلاح طرق المواصلات كيلا تكون بيد الشركات الاجنبية ·

نحن نسمع في مصر ان التفاح في الشام يعطى بصورة علف للدواب لما في سبيل نقله من الصعوبة ، نسمع ذلك ونأسف كل الاسف لاننا نستجلبه من البلاد الاخرى بقيمة غالية · فاذا اصلحت طرق المواصلات تجدون مورداً للرزق واسعاً وبه تنالون الفوائد الجسام وتعيدون للشرق مجده ان شاء الله

الجباية في الاسلام(١)

العشر

العشر : لغة جزوء من عشرة وجمعه اعشار وعشور وفي اصطلاح الفقه ما اخذ عن ارض العشر واما ارض العشر « فكل (٢) ارض اسلم اهلها عليها وهي من ارض العرب او ارض العجم فهي لهم وهي ارض عشر بمنزلة المدينة حين اسلم اهلها وبمنزلة اليمن وكذلك كل من لا تقبل منه الجزية ولا يقبل منه الا الاسلام او القتل من عبدة الاوثان من العرب فارضهم ارض عشر وان ظهر عليها الامام لان رسول الله صلي الله عليه وسلم قد ظهر عَلَى ارضين من اراضي العرب وتركها فهي ارض عشر حتى الساعة : وايما دار من دور الاعاجم ظهر عليها الامام وتركها في ايدي اهلها فهي ارض خراج وان قسمها بين الذين غنموها فهي ارض عشر وكل ارض من اراضي الاعاجم صالح عليها اهلها وصاروا ذمة فهي ارض خراج » « واما ارض الحجاز ومكة والمدينة وارض اليمن وارض العرب التي افتتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزاد عليها ولا ينقص منها لانه شيء قد جرى عليه امر رسول الله صلى الله عليه وسلم وختمه فلا يحل للامام ان يحوله الى غير ذلك » كذا فسواد العراق وارض الشام وارض مصر وغيرها مما فتح الاسلام عَلَى عهد اوذمة فهي اراض خراجية يجب عليها الخراج غير ان ابا يوسف رحمه الله جوز للامام « الخليفة » ان يصير الارض الخراجية عشرية فقال « فكل ارض اقطعها الامام مما فتحت عنوة ففيها الخراج الا ان يصيرها الامام عشرية ٠٠٠ الخ » ومن ثم يتضح ان الخليفة يحق له ان يحول ارض العراق وارض الشام وارض مصر وكل ارض خراجية الى اراض عشرية ٠

واما مقدار العشر الشرعي فهو واحد من عشرة عن محصول الاراضي العشرية التي تسقى بماء المطر او بماء الانهر سحاً « سقياً » او نصف واحد من عشرة عن محصول الاراضي العشرية التي تسقى بالدلو اوالدولاب « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما سقت السماء او سقي سحاً العشر وفيما سقي بالغرب او السواني والنضوح نصف عشر » ٠

واما العشر النظامي فقد جاء في المادة الاولى من نظام الاعشار الصادر في ٩ حزيران

---

(١) راجع ما نشرناه في الجزء الرابع من المجلد الثاني من مجلة المقتبس (٢) الخراج لابي يوسف

سنة ٣٢١ ما تعريبه بالحرف « يؤخذ العشر عن المحصولات الارضية » ولم يعرفه بغير هذا التعريف لان ما كان يؤخذ من العشر حينئذ اثني عشر وثلاثة وستين سانتيما من المائة عن المحصول وهذا لا يعبر عنه بالعشر وكانت الدولة عقيب التنظيمات الخيرية تجبي العشر واحداً من عشرة باسم الخزينة ثم اضافت عليه واحداً من المائة باسم المنافع — من اجل الاشغال العمومية — ونصفاً من المائة باسم المعارف فصار العشر يومئذ ١١٠٥ من المائة وفي سنة ٣١٣ مالية ضمت الدولة نصفاً آخر باسم خزينة فبلغ العشر اثني عشر :

١٠٠٥	الخزينة
١	باسم المنافع
٠٠٥	باسم المعارف
١٢	

فكانت هذه الزيادة من اجل سد العجز المالي يوم اخذت الجواسيس تتكاثر والاستبداد تشتد وطأته وفي سنة ٣١٦ صدرت الارادة السنية قاضية باخذ ستة في المائة عن بدل العشر يعني ان تؤخذ الستة عن الاثني عشر من المائة فبلغ العشر يومئذ ١٢٠٦٣ اثني عشر وثلاثة وستين سانتيماً فصار هذا الكسر سبباً لشدة ظلم ملتزمي الاعشار اذ اصبحوا يأخذون ثلاثة عشر في المائة تفادياً من تشويش الحساب عَلَى زعمهم وبعد سنتين اصدرت نظارة المالية امراً عاماً مبنياً عَلَى ارادة سلطانية قاضياً باسقاط ١٣ سانتيماً من العشر تخفيفاً عن الاهالي ودفعاً لتشويش الحساب فاصبح العشر اثني عشر ونصفاً عن المائة وهذا عبارة عن الثمن ولذلك لو اردنا ان نعرف العشر نظاماً لقلنا ان العشر النظامي ثمن اي واحد من ثمانية من عامة المحصول وبعد اسقاط الثلاثة عشر سانتيماً حارت الدوائر الرسمية في توزيع هذا النقص عَلَى حصص الاعشار ولذلك وضعت دائرة الديون العمومية « دستوراً » قاعدة من اجل حساب الحصص فعممته نظارة المالية في جميع دوائرها كي يطبق العمل عليها وهذه صورتها :

ميليم	سانتيم	عدد تام	
٦٠	١٧	٧٩	حصة العشر القديم
٠٠	٩٦	٣	الضم الجديد الذي وضع سنة ٣١٣
٦٠	١٣	٨٣	حصة العشر القديم والجديد معاً ١٠٠٥ — ١٠٠

٤٠	٩٨	٤	حصة التجهيزات العسكرية (المعدات الحربية)
٠٠	٨٨	١١	حصة المنافع والمعارف
٠٠	٠٠	١٠٠	

وبذلك صارت بدلات الاعشار تحال دفعة وتوزع عَلَى هذه القاعدة مثلاً لو احيلت قرية يبدل قدره اربعون الفًا يوزع عَلَى نسبة الحصص المذكورة اعلاه وهذه اقسام من المائة فلذلك يجب ضرب القسم ببدل القرية وتفريق عددين من حاصل الضرب من اجل المائة فيظهر مقدار الحصة وهذا مثاله :

العشر القديم	الضم الجديد	التجهيزات العسكرية	المنافع والمعارف
٧٩،١٧٦	٣٫٩٦	٤٫٩٨٤	١١٫٨٨
٤٠٠٠٠	٤٠٠٠٠	٤٠٠٠٠	٤٠٠٠٠
٣١٦٧٠،٤٠٫٠٠٠	١٥٨٤٫٠٠٫٠٠	١٩٩٣٫٦٠٫٠٠٠	٤٧٥٢٫٠٠٫٠٠

المجموع

٣١٦٧٠٫٤ العشر القديم

١٥٨٤ الضم الجديد

١٩٩٣٫٦ التجهيزات العسكرية

٤٧٥٢ المنافع والمعارف

٤٠٠٠٠٫٠ بدل عشر القرية

وهذه الاربعون الفًا هي اثنا عشر ونصف عن محصول القرية اي ثمن محصولها فما اغنى نظارة المالية عن هذا الدستور او هذه القاعدة لو جعلت هذه الاثني عشر ونصفًا لى هذا الترتيب

١٠ العشر القديم

٠٫٧٥ العشر المضموم

١٫٧٥ المعارف والمنافع

٠٫٤٥ التجهيزات

٢٫٧٥

فكرت مليًا فلم تتجلَ لي الحكمة في المحافظة على ذلك التشويش وعلى ما اظن ان هذا التشويش اما حفظًا لاحكام الارادة السنية او لمقصد خفي يراد به حفظ زيادة واردات احدى الحصص والله اعلم .

عرفنا العشر فيما سلف تعريفاً لغوياً وشرعياً ونظامياً واليك العشر وحالة تلزيمه والزامه وجبايته وضرره الذي تئن منه الامة العثمانية ٠

يؤخذ العشر عن عامة المحصول بموجب القانون الا من الحطب والفحم وما فسد بعد زوال الطراوة من الخضر والبقول كالجبازة والباقلاء والخس والكراث والسبانخ واما ما حفظ بالملح او الكبيس بماء الملح من الخضر فيؤخذ عنه العشر (اي الثمن)

اختلف الائمة الفقهاء في جواز اخذ العشر عن الخضر فيجوزه ابو حنيفة رضي الله عنه (١) « على انه عند ابي حنيفة يجب العشر في الخضروات ويخرج حقها يوم الحصاد اي القطع — ابن عابدين »

وقد خالف ذلك الامام ابو يوسف فقال حدثنا الوليد بن عيسى قال : سمعت موسى بن طلحة يقول لا صدقة في الخضر الرطبة والبطيخ والقثاء والخيار ٠ وعن علي رضي الله عنه انه قال ليس في الخضر زكاة البقل والقثاء والخيار والبطيخ وكل شيء ليس له اصل ٠ وعن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال ليس في البقول زكاة اه وفي الخانية « لا يجب العشر فيما كان الادوية كالموز والهليلج »

ومن هذه العبارة يظهر ان واضع النظام راعى القولين ولكنه لم يترك ما وجد منه ربحاً مهماً للخزينة ولو كان فيه رحمة الامة ٠

وقد يجب العشر في كل ما اخرجته الارض فالعشر الشرعي الحقيقي هو كما ذكر في الكتب الفقهية قال وحدثنا ابان بن ابي عياش عن انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال فيما سقت السماء اوسقي سيحاً العشر وفيما سقي بالقرب (دلو) اوالسواني او النضوح نصف العشر اه كتاب الخراج

وفسره بقوله انما جعل العشر في الاول ونصف العشر في الدالية لمؤنة الدابة والسانية :

« يجب العشر في الاول ونصفه في الثاني بلا رفع اجرة العمال ونفقة البقر وكري الانهار واجرة الحافظ ونحو ذلك (درر) ٠ قال في الفتح لا يقال بعدم وجوب العشر في قدر الخارج الذي بمقابلة المؤنة بل يجب العشر في الكل لانه عليه الصلاة والسلام حكم بتفاوت الواجب بتفاوت المؤنة ولو رفعت المؤنة كان الواجب واحداً وهو العشر دائماً في الباقي لانه لم ينزل الا ... للمؤنة والباقي بعد رفع المؤنة لا مؤنة

( ) حاشية ابن عابدين

فيه فكان الواجب دائماً العشر لكن الواجب قد تفاوت شرعاً فعلمنا انه لم يعتبر شرعاً عدم عشر بعض الخارج وهو القدر المساوي للمؤنة اصلاً اه » حاشية ابن عابدين .

فقد فهم مما تقدم ان صاحب الشرع عليه السلام نظر الى حالة الزراع وفرض عليهم العشر بالنسبة لريعهم الحقيقي ولا يخفى ان الارض التي تشرب بالدلو والدولاب ليست كالارض التي تشرب من الانهار سيحاً (يعني سقياً) او من ماء المطر فالاولى تحتاج الى عمل ودراهم اكثر من الثانية ولذلك عد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم نصف عشر الاولى بمثابة عشر الثانية اه

وقد اعتبروا الضم على العشرة امراً لازماً مشروعاً لاحتياج الحكومة من اجل المعدات الحربية وتعمير الطرق وانشائها وتعميم المعارف عَلَى انهم خصصوا نظارة ومستخدمين من اجل المعدات الحربية ليموهوا على الامة زاعمين انهم بعملهم هذا يدخرون هذا الضم للمعدات الحربية و يدفعون عنه سوء الاستعمال فهيهات هيهات !

اتدري ما ذا كانت النتيجة ؟ لم تكن الا تزييد الضريبة عَلَى الامة وايجاد وظائف للمتوبين والملتمسين وصرف الواردات في غير ما وضعت له ومن اغرب تصوراتهم ظنهم ان حصة التجهيزات اذا دخلت الخزينة تبعت قانون الفوضى في نظارة المالية فكأن الحكومة ارادت ان تعترف بعجزها عن تنظيم امور ماليتها وحفظ ايرادها من سوء الاستعمال .

واما حصة المنافع فلم نر ولم نسمع بانها صرفت في تعمير الطرق او الجسور واما ما صرف عَلَى الطرق والجسور فهو من بدلات العملة المكلفة التي كانت مأكلاً للولاة والمتصرفين والقائمقامين والمهندسين .

واما حصة المعارف فكان القسم الاعظم منها يصرف لاولئك الجواسيس الذين تصدروا على كراسي العلم ليمنعوا الجرائد والكتب المفيدة و يلقبوها بذلك التعبير الذي ترتعش لذكره الفرائص وهو (مضرة) كأنهم كانوا نافعين ! ويصرفون هذه المبالغ عَلَى السفاهة والبذخ . ويحتجون بجواز هذه الضمائم بما يوجد في الضرائب من الضمائم في بلاد الغرب وقد فاتهم ان تحميل اعظم الضرائب عَلَى عاتق الفلاح ظلم وضرره في عمران البلاد واضح . اشرت الى ان الشرط في وضع الضرائب حفظ النسبة بين ايراد الاشخاص الحقيقي فان حسبنا ريع الفلاح السالم الفينا ريعه اقل من ثلث ما تأخذه الحكومة باسم العشر وزد عليه ان بذاره وبقره ولباسه ومؤنته قد استدانها بفائض يتجاوز

الخمسة والعشرين اذا ماقلت الخمسين في المائة فاي ارض تضمن لفلاحنا التمس هذا العشر الفاحش وهذا الفائض المدهش ؟

تلزيم العشر

يعلم العثمانيون كافة ان العشر يؤخذ بطريق البدل الا في بعض الانحاء كثيراً ان تدفعه للحكومة عيناً وبدل الاعشار يباع مزايدةً وللمزايدة والاحالة لوقات محدودة تحددها مجالس الادارة وعندما تطرح بدلات الاعشار للمزايدة تستدعي الحكومة شيوخ القرى وتكلفهم بوضع بدل عشر قريتهم بزيادة عن بدلها السابق فان اجابوا تخلصوا ورجعوا الى قريتهم وان ابوا او اعتذروا لقلة المحصول عندهم ضربوا واهينوا وادخلوا السجن وهذا العمل مغفور في نظر اولي الامر لان به تزيد واردات العشر .

ولا ينكر ان بعض الاهالي ايضاً يسعون في تخفيف بدل الاعشار فيهضمون حقوق الخزينة فان كان في قريتهم ربح تهاجم عليها ... مون وان كان فيها خسارة أحيلت على اهلها بالكفالة المتسلسلة بالرغم من انوفهم ... ل قضاء وفي كل مركز متصرفية اومركز ولاية . في جميع انحاء المملكة العثمانية اعيان من ارباب النفوذ يلتزمون ضيعهم ويختصون بقرى عدوها من مستثمراتهم وعندما يضع هؤلاء اختامهم في قائمة المزايدة لايستطيع احد من الملتزمين ان يزيد عليهم فان زاد حل به البلاء لان ذلك الوجيه يستطيع بسيطرته ان يسجنه او يتهمه بجناية فيتوب عن الالتزام هذا اذا صادف من يرحمه ويخلصه من ذلك الافتراء .

وارباب النفوذ لا يتعدى بعضهم على بعض لانهم تقاسموا الغنيمة وكل منهم رضي بما اختص به واعتاد الملتزمون ايضاً ان يتقاسموا القرى او يتشاركوا في بدلات القرى التي تربح ربحاً عظيماً ومنهم من جعل السفه مسلكه فتراه يهدد الذين لا نفوذ لهم ولا سيطرة عندهم في التزام ضيعهم ويأخذ منهم دراهم معدودات تحت اسم حق السكوت لئلا يزيد على بدلها وخوفاً من ان يصير البدل قانوناً يطلب الزيادة عليه في السنة الآتية وقد يلتزم ملتزم بدل اعشار قرية من اجل دين له على اهاليها على امل استيفاء ديونه حتى ولو كان محصولها لايعادل بدلها .

والمهارة والشطارة التي تطلب من القائمقام والمتصرف او الوالي الغيرة على تزييد بدلات الاعشار ولو كان فيه ظلم الاهالي وخرابهم وقد تبلغ قرى الاهالي فوق بدلها الحقيقي وربما يدفعون ٢٠ في المائة ويرضون بهذه الخسارة لما صادفوه اثناء الاحالة

من الضغط والتضييق والضرب واما المتوسطون فيكون بدل بلادهم معتدلاً ولكن قرى ارباب النفوذ تحال بابخس الاثمان فقرية يبلغ بدلها مائة الف قرش مثلاً تحال عليه بخمسة اوعشرة آلاف قرش فالفقراء يظلمون والاغنياء والوجوه وارباب النفوذ يظلمون الخزينة ويأكلون حقوقها فان نظرنا الى انحاء المملكة باسرها نجدها منقسمة بين اولئك المستبدين ولذلك نجد ما خسرته الخزينة بسببهم اعظم مما تستوفيه بالضرب والحبس من اولئك الفقراء المدقعين ·

جباية العشر

فبعد احالة الاعشار يتهاجم الملتزمون كَلَى اختلاف طبقاتهم الى القرى ويستخدمون الاشقياء والمحكومين والفارين من وجه الحكومة ويتخذونهم آلة لجباية حقهم من العشر ولما يصل الملتزم في جنوده الى القرية يجمع المختار والشيوخ ويعدهم بان يترك لهم قسماً مما يترتب عليهم من العشر على شرط ان يقدروا البساتين والصحارى والكروم والخضر باضعاف اضعاف اثمانها الحقيقية ولذلك ترى الفلاح يدفع عن بساتينه وكرومه وخضره نصف ما اخذه من الثمن اذا لم نقل كله ويعطون الملتزم دفتراً بما رفع قبل الاحالة ويتفقون معه كَلَى اعطائه ١٤ في المائة بدل ١٢٫٥ وهو العشر النظامي والباقي عوضاً عما اكله الدواب ويسمونه اطعامية وتلفية وهذا المقدار يختلف بحسب رضا الشيوخ ومن البلاء المبرم اذا صاروا شركاء في المتزم يتحكم في الاهالي تحكم النمرود ولذلك تدخل المملكة في حرب داخلية ايام الاعشار فيفتح باب الرزق للحاكم فيعذبون الزراع حينئذ انواع العذاب وان احيلت القرية على الاهالي فالبلاء الاعظم يأتيهم من شيوخهم ووجوههم والمطلع كَلَى احوال الفلاحين ايام الاعشار وما يقاسونه يعلم منه ومما فصلناه ان احالة بدلات الاعشار كَلَى هذه الصورة مضرة بالاهالي والخزينة ايضاً ·

مضرات الالتزام

صاحب المال اي الفلاح يصبح كالمحكوم عليه ريثما تحال القرية ويأتي الملتزم فلا يستطيع الاكل من ماله ولا اطعام دابته فبينما هو يعرف انه مكلف بدفع العشر للحكومة التي قامت بحفظه وحفظ ماله وعرضه يرى نفسه محكوماً عليه لرجل مثله من افراد الرعية وهذا ما يصعب على الطبع والاحساس ولما كان اخراج الغلة متوقفاً كَلَى الاحالة والمساعدة من الملتزم وقد تمضي شهور ريثما تجري الاحالة فيضيع على الزراع

السعر وربما يخسرون الوفا وقد تنقص البيادر في هذه البرهة بسبب اكل الدواب والعصافير والطيور وهذه لاتأكل سوى الحبوب ولا ترجح على القمح والشعير شيئاً ومن غرائب الالتزام ان الفلاحين يجبرون عَلَى نقل الغلة من مسافة ساعة بحسب المادة ٩ من نظام الاعشار وهناك اناس من اصحاب النفوذ اهل البطالة ينتظرون موسم الاعشار ليلتزموا قرية او قرى باعتبار قيم اراضي آبائهم وهؤلاء قلما تجد في قلوبهم رحمة فيستبدون بالاهالي ويظلمونهم ظلماً لا مزيد عليه والاهالي لا يستطيعون الشكوى فلو تجاسر احدهم واشتكى من تعدى عليه وغصب ماله الذي احرزه بعرق جبينه بين شدة الحر وزمهرير البرد كان البلاء عليه من الحكومة ومن ذلك الملتزم ٠

وان ارادت الحكومة ان تجبي الاعشار بنفسها (امانةً) تحتاج الى استخدام مأمورين ويصعب عليها ان تجد مستخدمين صادقين يحفظون حقوقها وتكون قد سلطت عَلَى الامة اناساً يظلمونها ويسومونها سوء العذاب ويخونونها معاً فتكون حينئذ ظلمت الاهالي واضاعت ايرادها ٠

وقد يستحسن بعضهم تلزيم الاعشار لما فيه من الزيادة من سنة اخرى وفاته ان كان ثمة زيادة فذلك من شدة الضغط او من نتائج الترقيات التي اخذت تنتشر رويداً رويداً وان حالة الفلاح احسن من قبل ولا ننسى ان الزيادة بجانب النقص والخسارة بجانب الربح وخلاصة الكلام ان تلزيم بدلات الاعشار واحالته عَلَى ما ذكرنا وجبايته مضر بالاهالي وببيت المال ايضاً ٠

ماذا تفعل الحكومة ؟

تجعل العشر ضريبة على الاراضي (لا تخميساً كما يظن الناس) واليك التفصيل :

اما اراضي الحجاز والمدينة ومكة واليمن وارض العرب فكلها عشرية لا يجوز تحويلها الى غير ذلك ولا يزاد عليها ولا ينقص منها لانه امر جرى عليه امر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمه فاصبح امراً دينياً « لانه ثبت ذلك بالكتاب والسنة والاجماع والمعقول اي يفترض لقوله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده فان عامة المفسرين قالوا انه العشر او نصفه وهو مجمل بينه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سقت السماء ففيه العشر وما سقي بقرب او دالية ففيه نصف العشر٠٠ الخ حاشية ابن عابدين ص ٥٣ » وعد العشر من العبادة « قال ابن عابدين في حاشيته اذا ادى بنفسه فله

ثواب العبادة واذا اخذه الامام يكون له ثواب ذهاب ماله في وجه الله تعالى ـ بدائع » « وفي البزازية لا يحل الأكل من الغلة قبل اداء الخراج وكذا قبل اداء العشر الا اذا كان المالك عازماً على اداء العشر اه » وقد عد العشر زكاة او صدقة اه . فاهل تلك البلاد المباركة الذين عرفوا بالتدين والمحافظة على العهود والاقوال لا يتأخرون عن اداء العشر الشرعي بل انما يأتون به الى بيت المال ليحل لهم الأكل من المحصول فيجب استيفاء العشر فيها كما وضعه صاحب الشرع عليه السلام ولا يجوز تحويله او تزييده او تنقيصه وتجب العناية بتفهيم اهاليها ان العشر فرض ديني لايجوز أكله والحيلة فيه . واما ما كان في الاهالي من الخيانة فهو من سوء تأثير الاستبداد وظلم المأمورين وفساد اخلاقهم .

واما ارض الشام وارض مصر وسواد (١) العراق وغيرها فارض خراج يحق للامام ان يحولها الى ارض عشرية ويضع عليها العشر كما يشاء وقد سبق ذكره غير ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما مسح سواد العراق سأل عماله عَلَى الخراج حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف « فقال لعلكما حملتما الارض ما لا تطيق فقال عثمان حملت الارض امراً هي له مطيقة ولوشئت لاضعفت وقال حذيفة وضعت عليها امراً له هي محتملة فقال: انظرا الا تكونا حملتما الارض ما لا تطيق اما لئن بقيت لارامل اهل العراق لادعهن لا يحتجن الى احد بعدي » فتأمل ومن هذا يتضح ان الامام لا يجوز له ان يحمل الارض فوق طاقتها من العشر او الخراج .

هل يجوز جعل العشر الجاري الآن ضريبة عَلَى اراضي الخراج ؟

جاء في كتاب الخراج ان عمر رضي الله عنه مسح سواد العراق فبلغ ستة وثلاثين الف جريب وانه وضع على جريب (٢) الزرع درهماً وقفيزاً وعلى الكرم عشرة دراهم وعَلَى الرطبة خمسة دراهم وعلى جريب النخل ثمانية دراهم وعَلَى جريب القصب ستة دراهم وعَلَى جريب الحنطة اربعة دراهم وعَلَى جريب الشعير درهمين وعَلَى جريب السمسم خمسة دراهم وعلى الخضر من غلة الصيف عَلَى كل جريب ثلاثة دراهم ومن جريب القطن خمسة دراهم وجاء في كتاب الخراج ايضاً ان عبد الملك بن مروان

(١) لخضرة اشجاره وكثرة زروعه ــ حاشية ابن عابدين (٢) الجريب مكيال مقداره اربعة اقفزة والقفيز ١٤٤ ذراعاً فالجريب ٥٧٦ ذراعاً اه

احد خلفاء بني امية حمل الاموال عَلَى قدر قربها وبعدها فجعل عَلَى كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً وعَلَى كل الف اصل كرم مما قرب ديناراً وعلى كل الفي اصل مما بعد ديناراً وعلى الزيتون عَلَى كل مائة شجرة مما قرب ديناراً وعَلَى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك وما دون اليوم فهو في القرب وحملت الشام عَلَى مثل ذلك وحملت الموصل عَلَى مثل ذلك» فتبين مما تقدم ذكره ان الخراج كان عبارة عن ضريبة مقطوعة عَلَى الارض تنوعت بالنسبة للايراد الصافي وقد سبق ان ارض الشام والعراق ومصر وغيرها كالاناضول والروم ايلي وطرابلس الغرب مما افتتحه المسلمون عنوة كانت اراضي خراجية وقد جوز الامام ابو يوسف تحويلها لاراضي عشرية وجوز تزييد مقدار العشر وتنقيصه فيها فيتضح لك مما تقدم ومما تقتضيه المصلحة العامة ان تحويل العشر الجاري حتى الآن الى ضريبة عادلة تطرح عَلَى الاراضي الخراجية على شرط ان تطيق حملها وتكون متناسبة مع الريع الحقيقي جائز بل واجب ٠

ما هي القاعدة في تحويل العشر الى ضريبة ؟

تتألف لجنة قوامها رجال ممن لهم خبرة بفن الزراعة واقتدار بتخمين القيم ويصحبهم مهندس ويرأسهم رجل ذو خبرة واطلاع على احوال البلاد والفلاحين دارس في المدارس العالية ويشترط في الجميع ان يكون ممن تحلى بشرف النزاهة والصدق والاستقامة فيتجولون في انحاء الولاية ويفحصون قوة انبات الاراضي ويقسمونها الى ثلاثة او اربعة اقسام اعلا واوسط وادنى وضعيفة (يعني قلما تعطي ريعاً) ثم ينظرون في بدلات اعشار عشر سنين او خمس عشرة سنة عن قرية ما عَلَى شرط ان ينظروا الى حقيقة البدلات السابقة فان كانت للاهالي فلا شك بانهم يجدون بدلاتها فاحشة فيجب عليهم التخفيف وان كانت لارباب النفوذ فلا شك بانهم يجدون بدلاتها ناقصة فيجب عليهم التزييد وربما وجدوا قرية من قرى الاهالي محفوظة من الغدر الفاحش لاتفاقهم وتيقظهم كما انهم يجدون بعض قرى الاعيان مظلومة لتجاوز بعض ارباب النفوذ او لغضب اولي الامر عليهم ثم يقسمون مجموع البدلات على عشر سنين او خمس عشرة سنة وبعد ذلك يوزعون خارج القسمة عَلَى حسب درجات الاراضي من حيث قوة الانبات وهكذا يفعلون في الولايات التي هي من الاراضي الخراجية ولا بد من

النظر الى نوع الاراضي ان كانت مشجرة او غير مشجرة ويجب تفريق الاراضي التي تسقى بماء المطر او بماء النهر سيحاً من الاراضي التي تسقى بالدلو او الدولاب وتفريق الاراضي القريبة من المدن والمرافئ «الاساكل» عن الاراضي البعيدة · وخلاصة الكلام يجب على اللجنة ان تحمل الارض ضريبة تطيقها ولا تتجاوز عشر محصولها فان فعلوا اراحوا الامة وتزايدت واردات الخزينة ودخلت تحت قاعدة الانتظام وخف الظلم وصار ايراد الدولة معلوماً فلا تخطئ في تنظيم ميزانيتها وان ظلم رجل بضريبة فله ان يراجع ويدفع ظلمه والآن قد فتح باب العدل فلا يبقى مظلوم على غدره ان شاء الله ·

منافع الضريبة على الاراضي

يعرف الانسان ما عليه من الضرائب فيحسب مصروفه على اراضيه وربعه الحقيقي فيسعي في عمارة اراضيه ليخفف عنه الم الضرائب ويضمن ربحاً عظيماً فان وصل الى مرغوبه عمر الارض فتعمر البلاد وان خسر ترك الزراعة وانصرف الى التجارة وعلى ما اظن ان الحكومة الدستورية ستسعى في تخفيف الضرائب عن عاتق الامة واخص منها ضرائب الزراع واذا خفت عنهم اغنتهم وجعلتهم يتزوجون ويعملون الولائم ويكتسون ويصرفون المبالغ في اللبس والفرش فيزيد ربح التجار وارباب الصناعة فتروج التجارة والصناعة وتكثر ثروة الامة فتزيد واردات البلاد مع واردات الخزينة واكرر قولي ان الحكومة لا تغنى الا بغنى الامة والامة لا تغنى الا بتخفيف الضرائب · وحينئذ ترى فلاحنا قد اصبح حراً وتخلص من استبداد الملتزمين ومن اسرع في اخراج محصوله وادرك الاسعار في غلائها ربح الارباح وصار في رغد من العيش وهذه النعم لا تجدها في تلزيم بدلات الاعشار وكفى بذلك عبرة ·

شكري العسلي

عبث الوليد

ابو تمام حبيب الطائي وابو الطيب احمد بن الحسين المتنبي وابو عبادة البحتري هم الشعراء المعول عَلَى شعرهم في المولدين جمعوا الى جزالة الالفاظ وحسن السبك معاني الحضارة واساليب الحكمة ولذلك كانت دواوينهم من جملة ما يقضي على طالب الادب ان يتدارسها ويستظهرها وكانت مما اوصى بتعلمه ضياء الدين بن الاثير صاحب المثل السائر كل مشتغل بالمنظوم والمنثور لانها حوت عامة المزايا اللغوية والادبية ٠ ومن اجل هذا ترى هذه الدواوين قد خدمت اجلّ خدمة منذ القديم ولا سيما ديوان ابي تمام وديوان ابي الطيب فنظر فيهما مشاهير اللغويين والعلماء وتعاورتهما الاقلام بالشرح والنقد الا ان ديوان ابي عبادة البحتري لم نسمع بان احداً من العلماء تصدى لنقده غير ابي العلاء المعري ٠

فان هذا العلامة الحكيم اللغوي ابى أن يغفل كلام البحتري من وضعه عَلَى محك انتقاده بعد ان الف في ديواني الطائي والمتنبي كتابين مستقلين دعا الاول ذكرى حبيب والثاني معجز احمد ٠ فالف في الثالث كتاباً سماه عبث الوليد (١) قال في مقدمته : اثبت ما في ديوان البحتري ما أُصلحُ من الغلط الذي وجد في النسخة المكتوب في آخرها انها بخط طغر بن عبد الله الجبلي وانما اثبت ذلك ليكون مولاي الشيخ الجليل ادام الله عزه كأنه حاضر للقراءة ولم يمكن اثبات جميع الاغلاط لان اكثرها غير محيل وقد وُصل بذكر شيء ما جرى اليه ابو عبادة من الضرورات وما يجتنبه امثاله وبالله التوفيق ٠

قال ابو العلاء في الكلام عَلَى قول ابي عبادة :

اذا تشاكلت الاخلاق واقتربت دنت مسافة بين العجم والعرب

اذا وقعت بين في هذا الموقع فالاختيار خفضها وكذلك ترفع اذا وقعت في موقع رفع كما جاء في الكتاب العزيز لقد تقطع بينكم ٠ اكثر القراء عَلَى الرفع ويجوز النصب فقال قوم يكون الاسم مضمراً كأنه قال لقد تقطع الوصل بينكم وقال قوم بضمر ما كأنه

(١) ان النسخة التي نعتمد عليها هنا هي نسخة استنسخها احمد بك تيمور لخزانة كتبه عن نسخة دار الكتب المصرية

قال لقد تقطع ما بينكم وحسن حذف ما هنا كما حسن حذف لا اذا قيل والله افعل اي والله لا افعل قال امرؤ القيس :

كلاّ يمين الاله يجمعنا شيء واخوالنا بني جُشما

اي لا يجمعنا . وهذا البيت ينشد بخفض بين ونصبها

يديرونني عن سالم واديرهم وجلدة بين العين والانف سالم

فالخفض على الاضافة والنصب وعلى تقدير ما

وقال المعري في مكان آخر : وكان في النسخة هذه الابيات التي اولها

يا أُمتا ابصرني راكب يسير في مسحنفر لاحب

والابيات الثلاثة منها مذكورة في امالي قوم من العلماء المتقدمة ويجوز ان يكون غلط بها على ابي عبادة فنسبت اليه او ظنها بعض الناس من شعر العرب فالحقها بما يحكى عنهم والبيت الثالث الثابت في هذه النسخة لا يوجد في الحكاية المتقدمة وقد اختلف في اشياء من هذا الجنس وربما حسد بعض فنسب شعره الى المتقدمين ليكاد بذلك وينقص من قدره . وحكى بعض الكتاب انه رأى كتابا قديما قد كتب على ظهره انشدنا احمد بن يحيى ثعلب من الجآذر في زي الاعاريب . وذكر خمسة ابيات من اول هذه القصيدة وهذا كذب قبيح وافتراء بين . وانما فعله مفرط الحسد قليل الخبرة بطرق الصواب غرضه ان يلبس على الجهال . وقد رويت ابيات ابي عبادة التي في صفة الذئب لبعض العرب ويجب ان يكون ذلك كذبا مثل ماتقدم في حديث البائية التي لابي الطيب . وقد نسبوا الابيات التي في صفة الذئب الى عبد الله بن انيس صاحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو من بني القرك راشد بن وبرة ولا ريب ان ذلك باطل والرواية التي يرويها اصحاب اللغة يجيئون بالبيتين الاولين فيجعلونهما من قول جارية ثم يقول فاجابتها امها :

الحصن ادنى لو تأيّيته

على ان هذه الابيات بعيدة من نمط ابي عبادة وان كان الشاعر المغزر يجوز ان يأتي بكل فن من القول .

وقال المعري في الكلام على بيت البحتري الذي هو

والخدود الحسان يجنين منا جلّنار الربيع طلقا وورده

جلنار من اطراف كلام العرب هو اسما موجودا في الكلام القديم ويجب

ان يكون المراد به جل نار اي ماعظم من الجمر ثم كثر في كلام العامة حتى جعلوه كالاسم الواحد وأجروه مجرى الاسماء العربية غير المركبة - والشعراء المولدون يعربون الراء فيقولون كأنه جلنار ورأيت جلناراً ولو اضافوه وقالوا جلّ نار لكان اقيس ولو انهم جعلوه بمنزلة حضرموت لوجب ان يقول هذا جلنارُ ورأيت جلنارَ ومررت بجلنارَ فلا يصرفون ولم يأخذوا به في هذا المنهاج بل ادخلوا عليه الالف واللام فقالوا الجلنار واجترؤا على توحيده فقالوا جلنارة فأجروه مجرى تمر وتمرة وقال بعض المحدثين :

غدت في لباس لها اخضر كما تلبس الورق الجلنارا

ولا اعلم هذا الاسم جاء في شعر فصيح وانما هو لفظ محدث وكأنه في الاصل جاء على معنى التشبيه شبهوا حمرته بحمرة الجمر وهو جل النار ثم تصرفوا في نقله وتغييره (١) وقالوا في تسمية الطعام الفارسي نيدباج وزعموا ان ني بالفارسية رمان وفارس تنطق بالياء كأنها الف والالف كأنها الياء فيجوز ان يكون نار في جل نار من هذا النحو فكأنهم ارادوا جل الرمان ويجوز ان يكون جل بلسانهم في غير هذا المعنى على ان لغتهم اختلطت بالعربية وصارت فيها حروف كثيرة من كلام العرب وهم يسمون الفارسية الخالصة الفهلوية والذين يتكلمون بها اليوم قليل تفتقر اليهم الملوك في تفسير سير المتقدمين ·

وقال في كلامه على بيت :

سند صدورا ثمملات بوقفة في المنازلات كأنهن المسند

اشبه ما يجعل المسند ههنا ان يكون في معنى خط حمير لان مذهب الشعراء في ذلك معروف واياه قصد ابو عبادة كما قال ذؤيب :

عرفت الديار كرقم الدوا ة يزبرها الكاتب الحميري

وكانوا يسمون خطهم المسند وسموا هذا الخط العربي الجزم لانه جزم من ذلك الاول اي قطع وقد يحتمل ان يعني بالمسند الحديث المسند اي هذه المنازل قد صار حديثا يذكر ·

وقال في الكلام على بيت :

يغضون دون الاشتياه عيونهم وفوق السماط للعظيم المؤمر

(١) كتبت على الحاشية هذه العبارة : هذا تطويل بغير طائل فانه معرب كلنار ومعناه بالفارسية زهر الرمان اه ·

الاشتيام كلمة لم يذكرها المتقدمون من اهل اللغة فاذا سئل من ركب البحر عنها قال البحريون الذين يسلكون بحر الحجاز يسمون رئيس المركب الاشتيام فان كانت هذه الكلمة عربية فهي الافتعال من شام البرق لان رئيس المركب يكون عالماً بشؤون البروق والرياح ويعرف من ذلك مالايعرفه سواه فكأنه سمي بالمصدر من اشتام كما قيل رجل زور وهو مصدر زار ودنف وهو مصدر دنف وفي البحر سمكة تعرف بالاشتيام وهي عظيمة ويجوز ان يكون سميت برئيس المركب كأنها رئيسة السمك واذا اخذ بهذا القول فهمزة الاشتيام همزة وصل وان قطعت فقد جرت عادة ابي عبادة بقطعها في المصادر كثيراً فهو ضرورة وان وصلها صار في البيت زحاف فقد جرت عادته باستعمال مثله وان كان الاشتيام كلمة اعجمية فالفه الف قطع كالف ابريسم وابرهيم ونحو ذلك . وقال في قوله :

ان اتبع الشوق ازراء عليه فقد جافى من النوم عن عيني ماجافا

قوله ازراء عليه ردي وانما المعروف ازريت به وزريت عليه وقد عابوا على ابن دريد قوله في رسالة الجمهرة الى الازراء على علمائنا وقد حكى بعض اهل اللغة ازريت عليه وليس بمعروف وانما الفصيح ازرى به كما قال الاعشى:

فان تعهدي لامرئ لمة فان الحوادث ازرى بها

ومثل هذا ما صححه للبحتري في قوله : اذا استقلته جرد الخيل فقال انها غير مستعملة وانما المعروف اذا استقلت به ويقولون استقل القوم اذا ساروا غير متعد وانما اراد بقوله استقلته اقلته ولو قال اقلته لاستقام الوزن ولعل ابي عبادة كذلك قال : كما انكر عليه لفظة البرطيل الذي تستعمله العامة في معنى الرشوة وقال انه لا يعرف في الكلام القديم وكذلك وردت لفظة الاطروش في شعر البحتري فانكرها المعري وقال انه لا اصل لها في العربية وقال في :

اخواله للرستمين بفارس وجدوده للتبعين بموكل

يروى للرستمين على الجمع وكذلك التبعين ويروى بالتثنية والجمع اشبه لانهُ قال اخواله فجمع وكذلك قال جدوده فان تكون الاخوال والجدود للملوك كثيرة اشبه من ان تكون لملكين وموكل اسم موضع باليمن ويقال انها دار مملكة حمير وهو مفتوح الميم والكاف وكذلك نقل اهل اللغة وكان ابو عمرو الزاهد يقول الموكل قبة الملك فان كان ذلك شيئاً قديماً سمعهُ فقد يجوز ان يكون حمل على ان هذا الموضع يقال له موكل وهو

مقر مملكة القوم والذي يتهم به ابو عمرو يتخرج كثير منه عَلَى هذا النحو وكأن قبة الملك تسمى موكلا لانه يقعد فيها- ويكل اموره الى الخدم والحشم وقدم هذه البلاد رجل من اهل نجران ممن يسكن البادية فصيح ينتمي الى زبيد من مذحج فسمع فتى في المكتب ينشد هذه القصيدة فلما انتهى الى قوله بموكل كسر الكاف فقال النجراني بموكل وكذلك حكاه اهل العلم ·

وقال في كلامه عَلَى :

وكنا نرى بعض الندى بعد بعضه فلما اتجعناه دفعنا الى الكل

كان المتقدمون من اهل العلم ينكرون ادخال الالف واللام على كل وبعض وروى الاصمعي انه قال كلاماً معناه قرأت آداب ابن المقفع فلم ار فيها لحناً الا في موضع واحد وهو قوله : العلم اكبر من ان يحاط بكله فخذوا البعض وكان ابو علي الفارسي يزعم ان سيبويه يجيز ادخال الالف واللام عَلَى كل لا انه لفظ بذلك ولكنه يستدل عليه بغيره والقياس يوجب دخول الالف واللام عَلَى كل وبعض وقد انشد بعض الناس قول سحيم عبد بني الحسحاس :

رأيت الغني والفقير كليهما الى الموت يأتي الموت للكل معمدا

هذه نموذجات من كتاب عبث الوليد وقد وقع في ٩٤ ورقة وحوى فوائد لغوية وادبية قلما يعثر عليها في الكتب المتداولة وقد جاء في آخره تم الاملاء المعروف بعبث الوليد وهذه السمة موقوفة بين امرين احدهما ان يراد عبث الوليد الذي هو البحتري والآخر ان يعني الوليد الذي هو الصبي وكون الرجل مسمى بالوليد يحتمل هذه التسمية ·

وصف الأسطول

كلما زهت طبيعة قطر وحف بضروب النعيم الصناعي والطبيعي تفنن السن ابنائه في وصفه والميل الى رباعه ولذلك تجد للشاميين في وصف اقليمهم من الامادح مالا تجده للعراقيين وما تجده للاندلسيين لاترَاه لادباء المصريين · والاندلس هي من البلاد التي زهت بنضرتها وتاهت بفطرتها ولذلك ترى شعراءها وكتابها اشبه بالاوربيين في مناحيهم الادبية لهذا العهد ينطقون بوصف ما تقع عليه ابصارهم وما كانت تقع الا على اثر في الحضارة وشيء من العمران واذ قد اضطرتهم الحال ان يخوضوا غمرات البحار كالفينيقيين ايام عزهم والبريطانيين في ايامنا كان لهم من اساطيلهم ما وصفه شعراؤهم فيما يلي ·

قال ابن هانئ يصف الاسطول:

معطفة الاعناق نحو متونها كما نبهت ايدي الحواة الافاعيا
اذا ما وردنا الماء شوقاً لبرده صدرن ولم يشربن غرقى صواديا
اذا اعملوا فيها المجاذيف سرعة ترى عقرباً منها على الماء ماشيا

وقال ابو عمرو يزيد بن عبد الله اللخمي الاشبيلي الكاتب

ويا للجواري المنشآت وحسنها طوائر بين الماء والجو عوّما
اذا نشرت في الجو اجنحة لها رأيت به روضاً ونوّراً مكمما
وان لم تهجه الريح جاء مصافحاً فمدت له كفاً خضيباً ومعصما
مجاذف كالحيات مدت رؤوسها على وجل في الماء كي تروي الظما
كما اسرعت عداً انامل حاسب بقبض وبسط يسبق العين والفما
هي الهدب في اجفان اكحل اوطف فهل صنعت من عندم اوبكت دماً

قال ابن الابار وقد اجاد ما اراد في هذا الوصف وان نظر الى قول ابي عبد الله ابن الحداد يصف اسطول المعتصم بن صمادح

هام صرف الردى بهام الاعادي ان سمت نحوهم لها اجياد
وتراءت بشرعها كعيون دأبها مثل خائفيها سهاد
ذات هدب من المجاذيف حاك هدب باك لدمعه اسعاد
حمم فوقها من البيض نار كل من ارسلت عليه رماد
ومن الخط في يدي كل رد الف خطها على البحر صاد

قال وما احسن قول شيخنا ابي الحسن بن حريق في هذا المعنى من قصيد انشدنيه

وكأنما سكن الاراقم جوفها من عهد نوح خشية الطوفان
فاذا رأين الماء يطفح نضنضت من كل خرق حية بلسان

قال ولم يسبقهم الى الاحسان وانما سبقهم بالزمان علي بن محمد الايادي التونسي في قوله.

شرعوا جوانبها مجاذف اتعبت شادي الرياح لها ولما تتعب
تنصاع من كثب كما نفر القطا طوراً وتجتمع اجتماع الربرب
والبحر يجمع بينها فكأنه ليل يقرب عقرباً من عقرب
وعلى جوانبها اسود خلافة تختال في عدد السلاح المذهب
وكأنما البحر استعار بزيهم ثوب الجمال من الربيع المعجب

ومن هذه القصيدة الفريدة في ذكر الشراع

ولها جناح يستعار يطيرها طوع الرياح وراحة المتطرب
يعلو بها حدب العباب مطارة في كل لج زاخر مغلولب
يسمو بآخر ذي الهواء منصب عريان منسرح الذؤابة شوذب
يتنزل الملاح منه ذؤابة لو رام يركبها القطا لم يركب
وكأنما رام استراقة مقعد للسمع الا انه لم يشهب
وكأنما جن ابن داود هم ركبوا جوانبها باعنف مركب
سجروا جواحم بينهم فتقاذفوا منها بالسن مارج متلهب
من كل مسجون الحريق اذا انبرى من سجنه انصلت انصلات الكوكب
عريان يقدمه الدخان كأنه صبح بكر على ظلام غيهب

ومن اولها: اعجب باسطول الامام محمد وبحسنه وزمانه المستغرب
لبست بها الامواج احسن منظر يبدو لعين الناظر المتعجب
من كل مشرفة على ما قابلت اشراف صدر الاجدل المتنصب

ومنها جوفاء تحمل موكباً في جوفها يوم الرهان وتستقل بموكب

وقال ابو عمر القسطلي

وحال الموج بين بني سبيل يطير بهم الى الصوب ابن ماء
اغر له جناح من صباح يرفرف فوق جنح من سماء

واخذه اسحق بن خفاجة فقال

وجارية ركبت بها ظلاماً   يطير من الصباح بها جناح
اذا الماء اطمأن ورق خصراً   علا من موجه ردف رداح
وقد فغر الحمام هناك فاه   واتلع جيده الاجل المتاح

قال المقري ولا يخفى عليك حسن هذه العبارة الصقيلة المرآة وقال ابن الابار وقد قلت انا في ذلك

يا حبذا من بنات الماء سابحة   تطفو لما شب اهل النار تطفئه
تطيرها الريح غرباناً باجنحة الحمائم البيض   للاشراك ترزؤه
من كل ادهم لا يلقى به جرب   فما تركبه بالقار يهنؤه
يدعى غراباً وللفتخاء سرعته   وهو ابن ماء وللشاهين جؤجؤه

وقال عبد الجليل بن وهبون يصف الاسطول

يا حسنها يوماً شهدت زفافها   بنت الفضاء الى الخليج الازرق
ورقاء كانت ايكة فتصورت   لك كيف شئت من الحمام الاورق
حيث الغراب يجر شملة عجبه   وكأنه من غرة لم ينعق
من كل لابسة الشباب ملاءة   حسب اقتدار الصانع المتأنق
شهدت لها الاعيان ان شواهنا   اسماؤها فتطيرت في المشرق
من كل ناشرة قوادم اجنح   وبنى معاطفها وهادق سودق
زارت زئير الاسد وهي صوامت   وزحفن زحف مواكب في مازق
ومجاذف تحكي اراقم ربوة   نزلت لتكرع من غدير متأق

وقال القسطلي في اسطول انشأه المنصور بن ابي عامر من قصيدة

تحمل منه البحر بحراً من القنا   يروع بها امواجه ويهول
بكل محالات الشراع كأنها   وقد حملت اسد الحقائق غيل
اذا سابقت شأو الرياح تخيلت   خيولا مدى فرسانهن خيول
سحائب تزجيها الرياح فان وفت   اطافت باجياد النعام فيول
ظباء فلاة ما لهن مفاحص   وورق حمام ما لهن هديل
سواكن في اوطانهن كأن سما   بها الموج خيث الراسيات تزول
كما رفع الآل الهوادج بالضحى   غداة استقلت بالخليط حمول
اراقم تحوي ناقع السم ما لها   بما حملت دون العداة مقيل

العربية والتركية

أصيبت الامة بعد سقوط دولة بني العباس بفتور غريب في العلم والآراء لما عانته من اهاويل الحروب والفتن . ولما قامت الدولة العثمانية تجمعت تحت لوائها الاقطار المختلفة نظرت الى الاقطار العربية من الوجهة السياسية ولم تعن بها ولا بغيرها من الوجهة العلمية الاجتماعية شأنها في عامة ادوارها واقطارها ولم يشذ عن ذلك الا مصر فكانت اشبه بمملكة مستقلة حتى بعد استيلاء العثمانيين عليها . وبعيد ان قامت الدولة تؤسس لها مدارس في العاصمة والولايات لتعلم العلوم الحديثة وتستبدل النور بالظلمة والعلم بالجهل قام محمد علي والي مصر فنزع القطر المصري من المماليك في الظاهر ومن الدولة في الباطن وانشأ فيه مدارس عربية وتوفر بدلالة جماعة من مستشرقي الفرنسيس النبهاء على ترجمة الكتب العلمية من اللغات الاوربية فانتعشت اللغة العربية في مصر فقط وظلت كتب العرب عنها يأخذون علومهم وموطن الطباعة والكتب والصحف وبانوارها يستضيئون وذلك لغناها العظيم وتاريخها المجيد القديم .

بقي الامل في نهوض العربية محصوراً في مصر لان الشام والعراق والجزيرة والحجاز واليمن ونجد وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش امست في فتور . وقد أنشئت في تونس وسورية بعض المدارس والمطابع تدرس بالعربية وتطبع اللازم من الكتب العربية لكنها لم يمض على تأسيسها بضع سنين حتى أطفئت شعلتها بما اصاب سورية من بلاء المراقبة وما اصاب تونس من الاحتلال الفرنسيوي . والمراقبة واحتلال الغريب ما يقتل روح العلم وينزع حياة النهضة القومية . وقد اوشكت مصر ان تصاب بضعف لغتها لما احتلها الانكليز لولا ان قامت الامة وطلبت جعل العربية لغة المدارس الابتدائية والثانوية فلم تر الحكومة بداً من اجابة طلبها .

اما هذه الديار فكان اول ما انصرفت اليه الوجوه بعد اعادة القانون الاساسي العثماني مسائل التعليم فالتركية لسان الدولة الرسمي تريد ان تعلمه جميع العناصر العثمانية ليجيء منهم في المستقبل مزيج واحد وتقوى وحدتهم السياسية . وقد نشرت نظارة المعارف برنامجها ولم تشهد فيه ذكراً للعربية في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية بل قالت ان تعليم العلوم بالتركية للذكور والاناث وللصغار والكبار وللعرب والترك

والروم والارمن والبلغار والارناؤد حتى ان المبادي البسيطة التي سمحت بتعلمها من العربية تدرس في كتب الفها اتراك باللغة التركية · فادرك بعض الباحثين في احوال البلاد والمناصر ان غرض الحكومة من هذه الخطة (تتريك) العرب وغيرهم · وهو عمل اذا كان نافعاً من حيث السياسة فلا نفع فيه من حيث الاجتماع والعلم خصوصاً بعد ان رأينا اصغر الشعوب الاوربية تحافظ على لغتها الاصلية محافظتها على اعراضها واموالها وارواحها ·

لا بد للحكومة ان تجعل التعليم اجبارياً في المملكة فاذا جعلته باللغة التركية ولم تراع حالة كل قطر ولغة اهله تسوء العاقبة ولا تأتي الشجرة التي تريد غرسها الآن بثمرة جنية بل يكون شأن البلاد العقم في العلم والفكر ومن لم يتعلم العلوم بلغته هيهات ان يأتي منه عضو يفيد أمته وبلاده· واذا فعلت الدولة ذلك الآن فتكون في عهدها الدستوري اظلم منها في عهدها الاستبدادي وتكون حكومة مصر ارفق باهل مصر من حكومتنا بنا لانها منا فينتظر عن يدها الكثير وتلك ليست منهم وكل شيء تأتي به يعد كبيراً ·

وبعد فان كانت الحكومة العثمانية لم تنشط اللغة العربية في الماضي مع انها لغة الدين والآداب والحضارة فهي لم تضع العقاب في سبيلها مباشرة ولكن الغلطة الفظيمة التي ارتكبتها ولا يغفرها لها التاريخ هو ان القائمين باعبائها منذ البدء جعلوا اللغة التركية لغة الدولة الرسمية خلافاً لما جرت عليه دول الاسلام السالفة كدولة المصامدة البربر في الغرب الاقصى والادنى ودولة الجراكسة في مصر والشام ودولة آل سلجوق التركية في العراق والجزيرة ودولة بني بويه الفارسية ودولة آل ايوب الكردية في مصر والشام والحجاز واليمن وغيرها من الدول التي طرحت لغاتها وعمدت الى اتخاذ اللغة العربية لغة الحكومة والدولة فكان الجراكسة والبربر والفرس والاكراد والاتراك يتخلون عن لغاتهم مختارين ولا يستعملون في الرسميات غير العربية لغة البيان والعلوم اما الترك فجروا على غير سنة الدول السالفة فلم يروا من المصلحة تعلم لغة عامة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها واكتفوا بلغة ملفقة بدوية ما برحوا يتوفرون منذ قرون على اصلاحها وهيهات ان تكون كما يحبون ·

ولما جاء السلطان سليم فاتح مصر والشام وكان على شيء من المعرفة يحسن

العربية كما يحسن الفارسية والتركية احب ان يتلافى الغلط الذي سارت عليه دولته وان يجعل اللغة العربية لغتها الرسمية أسوة الدول الاسلامية البائدة فقام عليه بعض ضعاف العقول من اهل دولته وارادوه عَلَى العدول عن رأيه مخافة ان تندثر لغتهم بل تخلصاً من ان يتعلموا لغة غيرها فكان عملهم هذا من جملة السدود التي حالت دون آل عثمان وبسط ايديهم على الممالك الاسلامية المجاورة لهم واللغة العربية اعظم رابطة بين المسلمين .

ولقد كانت الدولة ولا تزال تعلم في مدارسها الرسمية العربية كما تعلم الفارسية وذلك لان التركية مزيج من هاتين اللغتين وبدون معرفة قليل من اللغتين لا يتأتى لتركي ان يكتب كتابة صحيحة في لغته فكان شأنها من بعض الوجوه شأن المدارس في اوربا لا تزال الى اليوم تعلم اللاتينية واليونانية لانهما اصل لغات اوربا وان كانتا بادتا او كادتا . ولكن مدارس اوربا اخرجت كتاباً بهذين اللغتين ولم نعهد من مدارس الحكومة العثمانية كاتباً بالعربية او الفارسية . هذا والتركية ليست لغة دين ولا لغة علم ولا لغة حضارة قديمة ولا مدنية معروفة كالعربية التي شهد اهل الارض بامجاد اهلها وحضاراتهم . ومن الغريب انه لم ينبغ في الدولة العثمانية كاتب عربي من اصل تركي على حين نبغ وينبغ من الفرس والاكراد وغيرهم اناس يؤلفون بالعربية فتحسبهم عرباً خلصاً . وانك لتقرأ العجمة في كلام ابن كمال باشا وكاتب جلبي وطاشكوبريلي وغيرهم من الاتراك الذين عانوا القلم العربي وعدوا في المصنفين ما لا تقرأوه في كلام الراغب الاصفهاني وابي بكر الخوارزمي وحجة الاسلام الغزالي بل ان هؤلاء عَلَى منشأهم الفارسي كانوا ائمة الانشاء العربي .

اذا تعلم ابناؤنا اليوم عَلَى الطريقة التركية لا يلبثون ان يجيئوا اتراكاً و يتقنوا التركية كارقى ابنائها وبذلك لا يخدمون ابناء لغتهم ادنى خدمة وقد رأينا معظم الذين تعلموا من ابناء سورية والعراق في المدارس الرسمية لا يحسنون التكلم بالعربية العامية فضلاً عن ان يكتبوا سطرين صحيحين بلغتهم بل رمارأيتهم يمزجون المصطلحات التركية وبعض الالفاظ التركية بينما هم يتكلمون بالعربية فكان شأنهم في هذا شأن اكثر التوانسة والجزائريين من سكان المدن يتكلمون بعربية تكاد تكون اقرب الى الافرنجية لما خالطها من الالفاظ الافرنسية والاسبانيولية والطليانية .

وقد رأى بعض العقلاء ان احسن حل لمسألة اللغة العربية في المدارس الرسمية واسلم عاقبة على اجيال الدولة المختلفة هو ان يجعل تدريس العلوم المادية كلها باللغة العربية كالطبيعيات والرياضيات والفلك والكيمياء والطب وان تجعل العلوم السياسية كلها باللغة التركية كالجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والحقوق والاجتماع وبذلك لا يقع حيف على العرب وهم نصف الدولة او يزيدون ولغتهم افضل لغات سائر العناصر العثمانية . والمستقبل كفيل بحل هذه المعضلة العلمية .

ضرار العلماء

بلد الاصلاح بادئ بدء غريباً لا يأنس به الا ذوو الاستعداد الفطري لمبادئ العالية وابناء العلم والتهذيب من رجال الامة والبقية الباقية منهم يناهضونه اما بدافع جهلهم وتعصبهم او لعدم انطباقه مع ما ينزعون اليه من التقاليد التي وجدوا عليها آباءهم ولهذا تعترضه قبل ان يدرج من عشه قوتان متناقضتان : الواحدة تسعى لانمائه والاخرى تعمل على تلاشيه ويساعد الثانية في الغالب مال وخول في ملك ضخم البنيان وجاه منبسط الظلال ...

بين هاتين القوتين تشهر حرب شعواء يضطرب لها فلك الاصلاح ولا بد ان تنجلي وقد ازهق الحق الباطل لان القوة الحقيقية بجانبه . ولقوة الحق حركة كبرى في ميدان تنازع البقاء

الا وان انصار الباطل كانوا وما زالوا في كل عصر ومصر يوقظون الفتنة ويضرمون جذوة الثورة فيقومون بدعوى الغيرة على الدين مرة وخدمة النفع العام تارة اخرى وما يريدون بذلك كما يشهد الحق الا منافعهم الشخصية فهي قبلة آمالهم التي يولون شطرها وكعبة امانيهم التي يسوقون نحوها مطايا هممهم وهممهم .

وليس اضر شيئاً على العلم والدين من هؤلاء فبمثلهم كسد سوق العلم وراجت بضاعة الجهل المزجاة وهم بما يختلقونه من الاوهام مثلوا الدين بأقبح صورة مشوهة يفر منها الناظر فرار السليم من الاجرب وفتحوا للدين مجالا واسعاً امام الاغيار فاخذوا يسلقونه بالسنة حداد وينزلونه في غير المنزلة التي وضعها السلف الصالح أيام كانوا على بيضاء نقية لا يضرهم من خالفهم اذا كانوا هم المهتدين .

منيت الامم الاسلامية جمعاء بمثل هولاء منذ ثلاثة عشر قرناً او يزيد · بيد انه مع وجود هذه الطغمة بين ظهرانيهم وارتفاع جلبتهم وضوضائهم وتملهم عَلَى اطفاء شعاع الاماني الذهبية في مهب تلك العواصف لم تعدم رجالا توفرت عَلَى الاخذ بناصر الحق وسلبت قرارها رغبة في شد ازره ممن تمحضوا للعلم الخالص واغترفوا من معينه وشلا فكانت القوة بجانبهم يخيفون بها اعداء العلم الالداء ويكافحونهم والغلبة لهم وان تألبت عليهم الجموع الكثيفة وتحلقت امامهم الصفوف كالبنيان المرصوص ممن تجمعهم جامعة الجهل تحت لواء الحسد الذميم ·

***

شهد شيخنا التاريخ منذ نشأ الفكر البشري هذه الاعمال البربرية ولم تزل صفحاته ندية بعد فلم يجف ما اريق من الدماء في سبيل نصرة الحق ولم يتبخر ما اذرف من الدموع الصافية المصدر والمورد عَلَى تلك العقول الرصينة التي بينا ترصد فضاء السماء الفسيح اذا بها تفحص اعماق هذه الارض وتجتهد في استكناه اسرار الحياة المطوية طي كتل تلك الطبقات الصماء · وها هو قد حشد في صدره الوفا مؤلفة ممن ذهبوا ضحية الجهل والحسد ما لو جمع وأفرد بمؤلفات خاصة لاخرجت للناس مجلدات ضخمة في « محكمة التفتيش الاسلامية الكبرى »

وليس بالنزر القليل ما نال الائمة المصلحين من النكبات التي يسود لها وجه الانسانية فكم كفر من هو اشد تمسكا بدين الله واتوا عَلَى من هو اعظم اعتصاماً بحبله المتين وحكم بالزندقة عَلَى من كان يحارب الدهريين وضلل من كان يجاهد في سبيل الشرك واضطهد من كان يعمل فكرته للاجتهاد والعمل في كتاب الله وسنة رسوله ·

وياليتهم وقفوا عندهذا الحد فلم يتخطوا دائرة الانسانية بتمثيلهم عباد الله المصلحين اقبح تمثيل وضربهم بالاسواط حتى تشل الاطراف او تعتل احدى الاعضاء فتفقد وظيفتها وسلخهم جلودهم وهم احياء مما لم يعهد نظيره الا بين ظهراني الامم العريقة في التوحش والهمجية ·

وامامي الآن كثير من امثال تلك الحوادث في بطون عدة من التواريخ التي تضم تراجم مشاهير المشارقة والمغاربة آتي عَلَى شيء منها مقتصراً عَلَى رجال الفريق الاول ممن ذاقوا الارَم ولقوا من معاصريهم الا لاقي لقاء بث فكرة اصلاحية او القيام بمشروع جديد

ليعلم ان التاريخ هو المحشر الذي ينسل اليه الناس من كل حدب وانه لايفلت احداً دون ان يناقشه الحساب :

هذا مالك بن انس (١) سعي به الى جعفر بن علي بن عم ابي جعفر المنصور فدعا به وجرده وضربه سبعين سوطاً ومدت يداه حتى انخلع كتفاه وذلك جزاء قوله الحق حين سئل عن مبايعة محمد بن عبد الله بن حسن وقولهم له : «ان في اعناقنا مبايعة ابي جعفر» فقال : « انما بايعتم مكرهين وليس عَلَي مكره يمين » فاسرع الناس الى محمد فسعى به فضرب لذلك ·

قال صاحب الفلاكة : « ثم لم يزل بعد في علو ورفعه كأنما كانت تلك السياط حليًا تحلى بها » · وهذا ابو حنيفة النعمان الفقيه الكوفي ضربه يزيد بن عمر بن هبيرة الفرازي وكان امير العراقين مائة سوط وعشره اسواط وكل يوم عشرة اسواط ايضاً وذلك لما اراده لقضاء الكوفة ايام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية فابى وبقي عَلَى الامتناع وسجنه فتوفي في السجن في احد القولين · وقيل : ان سبب سجنه الابدي ما ذكره الزمخشري وهو من كبار الحنفية في تفسير آية « لاينال عهدي الظالمين » ان ابا حنيفة رحمه الله كان يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن علي رضوان الله عليهما وحمل المال اليه والخروج معه عَلَى اللص المتغلب المسمى بالامام والخليفة كالدوانيقي واشباهه · وقالت له امرأة : اشرت عَلَى ابني بالخروج مع ابراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل فقال : « ليتني مكان ابنك » وكان يقول في المنصور واشياعه : « لو ارادوا بناء مسجد وارادوني عَلَى بناء آجره لما فعلت » اه · وحينئذ يعلم الباحث المدقق ان سبب سجنه امر سياسي ·

ومثله احمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي امر المعتصم بضربه فأخذ وجيء بالعقابين والسياط وضربه ضربا مبرحًا حتى اغمي عليه وغاب عقله ثم امر باطلاقه الى اهله فنقل وهو لا يشعر وذلك انه ابى ان يقول خلاف ما يعلم او يعتقد حين اجلسه المعتصم ودعاه الى القول بخلق القرآن فامتنع وقال للمعتصم « ما قال ذلك ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم · فقد دعا الى شهادة ان لا اله الا الله وانا اشهد ان لا اله الا الله وان القرآن علم الله ومن علم ان علم الله مخلوق فقد كفر » · فناظره احمد بن ابي دؤاد وغيره وانكروا عليه الآثار التي اوردها وقالوا للمعتصم :

(١) اعتمدنا في هذه النقول عَلَى كتاب (الفلاكة والمفلوكون)

« هذا كفرك وكفرنا » وقال له اسحق بن ابراهيم نائب بغداد : « يا امير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة ان تخلي سبيله ويغلب خليفتين » فعند ذلك حمي واشتد غضبه وكان ما كان ·

وكذلك يوسف بن يحيى البويطي صاحب الامام الشافعي كان الشافعي يسأل عن الشيء فيحيل عليه فاذا اجاب قال : « هو كما اجاب » وقال عنه الشافعي : « هو لساني » حمل الى بغداد في ايام الواثق بالله من مصر وفي عنقه غل وفي رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة حديد فيها طوق وزنه اربعون رطلاً وارادوه عَلَى القول بخلق القرآن فامتنع ومات بالسجن في قيوده ·

وضم الى هؤلاء الائمة من اساطين العلم والعمل من لم يرفعوا لاعمال المفسدين رأساً ولم يقيموا لها وزناً وليس ما اصابهم من المصائب باقل مما نال هؤلاء كابن تيمية والغزالي والنسائي وابن رشد وابن حزم فقد حمل حسد الجهلة الاغمار من معاصري الاخير ان تألبوا عليه وكادوه واستظهروا عليه بالامراء فاحرقوا كتبه الثمينة ومصنفاته وفي ذلك قال :

فان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل ان انزل ويدفن في قبري الخ ··

وانك لترى العجب العجاب حينما تأتي عَلَى تراجم المشاهير وما تجد في غضونها من المحن والاحن التي قصد من ايقاعها بهم غمط فضلهم والحط من كرامتهم ووضعهم امام سيل شهرتهم الجارف سوراً من الجمود اركانه التعصب الاعمى ودعائمه الجهل المطبق ·

ولقد افضت ضراء العلماء والوقيعة بهم الى الطعن بالمذاهب وقيام طائفة عَلَى اخرى كلما لاح لها من الفرصة بارق · ومن ذلك قيام الاكابر عَلَى محمد بن هبة الله بن محمد بن الحسين (١) الملقب بلقب ابيه جمال الاسلام وحسدهم له فانهم خاصموه واستظهروا بالسلطان عليه وعلى اصحابه وصارت الاشعرية مقصودين بالاهانة والمنع عن الوعظ والتدريس وعزلوا من خطابة الجامع وتبع من الحنفية طائفة أشربوا في قلوبهم الاعتزال والتشيع فخيلوا الى ولي الامر الازراء بمذهب الشافعي عموماً وبالاشعرية خصوصاً قال السبكي : « وهذه هي الفتنة التي طار شررها وطال ضررها وعظم خطبها

(١) طبقات الشافعية ج : ٣ ص ٨٦

وقام في اهل السنة خطيبها فان هذا الامر ادى الى التصريح بلعن اهل السنة في الجمع وتوظيف سبهم على المنابر وصار لابي الحسن الاشعري بها اسوة بعلي بن ابي طالب رضي الله عنه واستعلى اولئك في الجامع فقام ابوسهل في نصر السنة قياماً مؤزراً الخ . . »

ومما يجدر ذكره في هذا الباب من المتأخرين الشيخ عبد الغني النابلسي فان اهل الشام تألبوا عليه ووصموه بوصمات لم تكن من الشيخ رحمه الله في شيء . وما دعا اولئك الرعاع الا حسدهم لمنزلة الشيخ حتى اضطروه الى مغادرة دمشق والسكنى بالصالحية حيث دفن ثمة . وفي ذلك يقول من قصيدة مطلعها :

يا من تكلم فينا بالذي فيه وقعت في كف ضرغام وفي فيه

الى ان قال :

فقد جحدت الغيور الحق ماشه هيهات انك تنجو من اياديه
وان جهلت فما بالكفر يعذر ذو جهل لذي الشرع والشيطان يطاغيه
دم في ظنونك مفتوناً فسوف ترى من الذي منه قبح الفعل يرديه
ولا تقل اي جاه للضعيف يرى فان للبيت رباً سوف يحميه
يا مستحين اعراضاً محرمة بسوء ظن وتلبيس وتمويه
أهكذا ملة الاسلام تأمركم؟ أم قد سلكتم عن الاسلام في تيه؟
تباً لكم ولمن قد عاد يتبعكم والعبد مولاه في الاعداء يكفيه

وبعد فان التاريخ يعيد نفسه والحوادث لا تفتأ تتعاقب على مر الايام وان الحال صورة من الماضي وان طرأ عليه من مؤثرات التجديد ما ادخله في طور جديد ولا يخلو كل عصر من شرذمة نفاق واختلاق حتى في هذا العصر يعترضون كل عمل نافع يقوم به المصلحون في مصر وسورية والعراق ويعينهم فيما يطلبون تلكم الرعاع الذين هم اتباع كل ناعق .

الا فليعلم اولئك الاغرار ان موت المصلحين في سبيل نصرة الحق بعث ونشور وان رمي الآخرين بالكفر والزندقة هو حياة لهم وذكرى . ولقد كانت لاولئكم الجهلة الاغمار حياة مادية ولكن كانوا يتجرعون منها الحنظل ويموتون في كل يوم مراراً . وكانت لهؤلاء العلماء المصلحين شعلة حياة مادية اطفأها الحسدة فخلت محلها حياة ادبية مملوءة ضياء ونوراً !! . .

دمشق : صلاح الدين القاسمي

شرف الموسيقى

كل شيء يشرف ويوضع بشرف القائمين به ووضاعتهم وكل علم يشرف ويوضع على نسبة اعتبارية من فائدة تتوقع منه وغاية تكون وراءه وصناعة الموسيقى هي من إمارات الظرف تعدُّ عند الامم الحديثة المتحضرة من الفنون الجميلة كما كان يعهدها العرب إبان حضارتهم من الكماليات ·

قال ابن خلدون والغناء يحدث في العمران اذا توفر وتجاوز حد الضروري الى الحاجي ثم الى الكمالي وتفننوا فتحدث هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجياته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر احوالهم تفننًا في مذاهب الملذوذات وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في امصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام باهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها ·

قال واما العرب فكان لهم اولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء متساوية لم يزل هذا شأنهم في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته في ترك احوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك كثيرًا ما ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو ديدنهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالي للعرب وغنوا جميعًا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها اشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب خاثر مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم اخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وانظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كملت ايام بني العباس عند ابراهيم بن المهدي وابراهيم وابنه اسحق وابنه حماد ·

قال وكثر ذلك ببغداد وامصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصليين

غلام اسمه زرياب اخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل امير الاندلس فبالغ في تكرمته وركب للقائه واثنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات واحله من دولته وندمائه بمكان فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوائف • وطما منها باشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب وانقسم على امصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها • وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لانها كالية في غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح وهو ايضاً اول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه •

وقال ابن خلدون ايضاً : ولقد عذلت يوماً بعض الامراء من ابناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالاوتار وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي افلا ترى الى ابراهيم بن المهدي كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له يا سبحان الله وهلا تأسيت بابيه واخيه او ما رأيت كيف قعدذلك بابراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي واعرض •

هذه زبدة تاريخ الغناء او الموسيقى في العرب وطرف مما كان من عناية ملوك الاسلام بها ايام الحضارة ولقد انتشرت بعد حتى صار يتعلمها بعض اهل العلم من غير نكير وشرفت باقبال الكبراء عليها بحيث لم تكن في شرفها دون غيرها من العلوم • فقد ذكر ابن ابي اصيبعة ان الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقى وعملها الى غاياتها واتقنها اتقاناً لا مزيد عليه ويذكر انه صنع آلة غريبة يسمع منها الحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات وله كتاب الموسيقى الكبير الفه للوزير ابي جعفر محمد بن القاسم الكرخي وكتاب في احصاء الايقاع وكلام له في النقلة مضافاً الى الايقاع كلام في الموسيقى •

ويحكى ان القانون الذي يضرب عليه للطرب هو من وضعه وانه كان اول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم •

والف يعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب في الموسيقى فكتب رسالة في ترتيب النغم الدالة على طبائع الاشخاص العالية وتشابه التأليف ورسالة في المدخل الى صناعة الموسيقى ورسالة في الايقاع ورسالة في الاخبار عن صناعة الموسيقى ومختصر الموسيقى في تأليف النغم وصنعة العود الفه لاحمد بن المعتصم ورسالة في اجزاء

جبرية الموسيقى · والف احمد بن الطيب السرخسي العالم الحكيم كتاب الموسيقى الكبير ولم يعمل مثله كما الف كتاب نزهة النفوس ولم يخرج باسمه وكتاب اللهو والملاهي ونزهة المفكر الساهي في الغناء والمغنين والمنادمة والمجالسة وانواع الاخبار والملح صنفه للخليفة ·

والف ثابت بن قرة كتاباً في الموسيقى ورسالة الى علي بن يحيى المنجم فيما امر باثباته من ابواب علم الموسيقى ورسالة الى بعض اخوانه في جواب ما سأله عنه من امور الموسيقى · وكان ابو بكر محمد بن طفيل من فلاسفة المسلمين في الاندلس يأخذ رواتب كثيرة مع الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد وغيرهم ويقول لو نفق عليهم علم الموسيقى لانفقته عندهم ·

وكان ابن باجة الفيلسوف الاندلسي على جلالة قدره متقناً لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قال ابن سعيد ان ابن باجة في الموسيقى بالمغرب بمنزلة ابي نصر الفارابي بالمشرق واليه تنسب الالحان المطربة بالاندلس التي عليها الاعتماد · وكان ابن يونس المنجم المشهور يضرب بالعود على جهة التأدب · وكان ابو المجد بن ابي الحكم من الحكماء المشهورين يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويجيد الغناء والايقاع والزمر وسائر الآلات وعمل ارغناً وبالغ في اتقانه · وكان ابو زكريا يحيى البياسي من افاضل العلماء جيد اللعب بالعود وعمل الارغن ايضاً وحاول اللعب به وكان يقرأ عليه علم الموسيقى · وكان ابو الصلت امية بن عبد العزيز الاندلسي العالم الرياضي الطبيب متقناً لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود · وكان ابو الحكم الاندلسي الطبيب الشاعر يعرف الموسيقى ويلعب بالعود · وكان الحرث بن كلدة الثقفي احد اطباء العرب يضرب بالعود تعلم ذلك بفارس واليمن · وكان قسطا بن لوقا البعلبكي العالم الفيلسوف بارعاً في علم الموسيقى · وكان امين الدولة بن التلميذ يحب صناعة الموسيقى وله ميل الى اهلها · وكان صفي الدين عبد المؤمن بن فاخر العالم المفنن عالماً بالموسيقى ·

وكان نجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة لان امه كانت عالمة بدمشق وتعرف ببنت دهين اللوز فاضلاً في الادب والطب وله معرفة بالضرب بالعود استوزره الملك مسعود صاحب آمد وحظي عنده · وكان فخر الدين بن الساعاتي الفلكي الفيلسوف الطبيب خدم بني ايوب وتوزر للملك العادل والملك المعظم وكان ينادم هذا ويلعب بالعود · وكان رشيد الدين بن خليفة الطبيب العالم اعرف اهل

زمانه بالموسيقى واللعب بالعود واطيبهم صوتاً ونغمة حتى انه شوهد من تأثر الانفس عند سماعه مثل ما يحكى عن ابي نصر الفارابي فكثر اعجاب الملك المعظم به جداً وبعد ذلك اخذه اليه واستمر في خدمته .

وذكر ابن خلكان ان ابا بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور كان في شبيبته يضرب بالعود ويغني فلما التحى وجهه قال كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف فنزع عن ذلك واقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة .

وكان ابو الحسين علي بن الحمارة آخر فلاسفة الاندلس آخر من برع في الالحان وعلمها وهو من اهل غرناطة قال في نفح الطيب واشتهر عنه انه كان يعمد الى الشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغني به فيطرب سامعيه . وكان الفاضل ابو الحسين بن الوزير ابي جعفر الوقشي آية في الظرف والموسيقى والتهذيب وشيخه في هذا الفن ابو الحسين بن الحسن بن الحاسب كان ذا ذوق فيها مع صوت بديع اشهى من الكأس للخليع قال ابو عمران بن سعيد ما سمعته الا تذكرت قول الرصافي :

ومطارح مما تجس بنانه لحناً افاض عليه ماء وقاره
يثني الحمام فلا يروح لوكره طرباً ورزق بنيه في منقاره

وكان محمد بن احمد بن ابي بكر القرموطي المرسي من اعرف اهل الاندلس بالعلوم القديمة المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب فيلسوفاً طبيباً ماهراً يقرئ الامم بالسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها ولما تغلب الافرنج على مرسية عرف له حقه فبنى له مدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود قاله في النفح .

وعلى الجملة لم تكن صناعة الموسيقى بالمنزلة التي يصورها اهل جيلنا من الغضاضة والضعة بل عرف بها اناس من اهل الصيانة والعلم وما كان كل من تعاطي صناعة الغناء عارياً من سائر العلوم فقد كان اسحق بن ابراهيم الموصلي نديم الخلفاء وشيخ الغناء ومع هذا كان من العلماء باللغة والشعر واخبار الناس وله يد طولى في الحديث والفقه والكلام وكان المأمون يقول لولا ما سبق لاسحق على السنة الناس واشتهر بالغناء لوليته القضاء فانه اولى واعف واصدق واكثر ديناً وامانة من هؤلاء القضاة ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه مع انه اصغرها عنده .

ومثل هذا ما وقع لقاضي اشبيلية ابي بكر بن القاضي ابي الحسن الزهري فانه

كان كثير اللعب بالشطرنج لم يكن من يلعب به مثله في بلده قال فكانوا يقولون ابو بكر الزهري الشطرنجي فكان اذا بلغني ذلك اغتاظ ويصعب عليَّ فقلت في نفسي لا بد ان اشتغل عن هذا بشيء غيره من العلم لانعت به ويزول عني وصف الشطرنج وعلمت ان الفقه وسائر الادب ولو اشتغلت به عمري كله لم يخصني منه وصف انعت به فعدلت الى ابي مروان عبد الملك بن زهر واشتغلت عليه بصناعة الطب وكنت اجلس عنده واكتب لمن جاء مستوصفاً من المرضى الرقاع واشتهرت بعد ذلك بالطب وزال عني ما كنت اكره الوصف به وهذا هو السبب والله اعلم في اخفاء كثير من اهل الوقار والعلم انهم تخلّي جانب من علم الموسيقى والضرب على العود وغيره من انواع الملذوذ ولولا التقية لانتهى الينا اسماء كثير ممن لم تبلغنا عنهم سوى اخبار العلوم المتعارفة عَلَى ان الشرف كله اعتباري ولا مانع من الغناء والتلحين اذا لم يتبعهما التلطخ بحمأة السفاهة والرذيلة ·

اما الملوك والامراء الذين عنوا بالموسيقى قديماً فاكثر من ان يحصوا منهم يزيد ابن عبد الملك ومسلمة بن عبد الملك وابو عيسى بن الرشيد وعبدالله بن موسى الهادي وابراهيم بن عيسى بن جعفر المنصور ومحمد بن جعفر المقتدر والمتوكل والمهدي والمؤيد وطلحة الموفق والطائع والمقتدر وابن المعتز وغيرهم من الملوك المتأخرين والله اعلم ·

قوى النساء

كتب باولولومبروز العالم الايطالي مقالة في المجلة الباريزية قال فيها ما تعريبه :
حكم الناس منذ قرون بان الرجل من الجنس القوي والمرأة من الجنس الضعيف · فجميع مظاهر النشاط والمتانة والقوة الطبيعية من امتيازات الرجل · عضلاته كالفولاذ ويحمل السيف ويحارب ويتسلق الجبال الخطرة ويتجشم البحار وهي في اشد انوائها ويرى الموت وجهاً الى وجه ·

اما المرأة اللطيفة المزاج فانها ترى ان قصم ساق زنبقة يعد منها قوة فهي التي يغمى عليها وهي جالسة عَلَى الكرسي وتصرخ مذعورة اذا رأت عنكبوتاً او فأرة · فلذا يسأل السائل من اين تنبعث قوتها اي جوهر شجاعتها ومقاومتها ورباطة جأشها

عَلَى ان المرأة في الغالب تظهر بمظهر الغيرية والاخلاص وسلامة العقل وانكار النفس والمفاداة وكل ما يعرف به الانسان الخارق للعادة ·

القوة والمتانة الطبيعية هما اساس القوة الادبية وشرط لازم لها وقد ابان التاريخ والاحصاء والبحث بان المرأة ليست دون الرجل في المقاومة الطبيعية للامراض والاوجاع والاتعاب فانا نرى النساء المتوحشات البربريات يقمن بأشق الاعمال فيحرثن الارض ويطحن الحب و يحملن الاثقال بيناهن مرضعات او حاملات ·

ومن الغريب انا نرى الضعف في النساء والقوة في الرجال عند بعض الشعوب المتوحشة على صورة معكوسة فنرى المرأة عندهم تضع ولداً فلا تلبث ان تنهض وتتولى في الحال اعمالها عَلَى حين يبقى زوجها في الفراش كالنفساء وهذا ما دلّ عَلَى مضائها الغريب ·

وانا لنرى النساء في بلاد الهرسك يقرنّ بالسكة بدل البقر كما نراهن في بلاد الالب ينقلن احمال العلف عوضاً عن البغال ·

وليس من رياضة مهما صعبت واقتضت صاحبها من الجرأة والثبات والشجاعة الا قامت به المرأة بنشاط و برزت في مضاميره اي تبريز · فنراها تركب الخيل و تسبح وتلعب بالسيف وتركب الدراجة وترتاض في الجبال وكل ذلك ما يقتضي له عدا اعصاب من حديد ومقاومة فائقة حضور ذهن وحذر واحتقار للموت اي مالا يمكن القيام به الا اذا اتفقت القوة الطبيعية مع القوة الادبية ·

وهناك احوال كثيرة لا ندعوها رياضة لما يقتضي لها من النشاط والشجاعة والثبات في المرأة ونعني بذلك اكتشاف البلاد الجديدة لما فيها من المخاطر وما ينبغي لدخولها من الجرأة · ومن الناس من يظن ان مجد الاكتشاف لا يحرزه الا الرجال عَلَى حين هناك عدد كبير من النساء المكتشفات والسائحات اللائي لم يهبن الاخطار واستهن بكل ما ينبغي للنجاح ·

فقد رأينا العقيلة كودرو طافت مع زوجها اقطار غويانا الموبوءة واجتازت نهر البرازيل المأهول بالهنود ومات زوجها سنة ١٨٩٩ فلم تكن اقل منه مثابرة عَلَى السياحة وحدها · وليفنكستون وهو اعظم سائح افريقي في عصرنا كانت ترافقه زوجته في اكثر رحلاته وهي التي انقذته من الهلاك في شوبانكا وقضت كالابطال وهي لا تريد ان تغادره في الزامبيز · وقد اكتشف بكير سنة ١٨٦٤ نهر البرت نيانزا وكانت زوجته اكبر

مساعدة له بجرأتها ونشاطها · وصحبت جوزفين بري زوجها سنة ١٩٠٢ الى القطب الشمالي وهي على قلة ما لقيته من الرفاهية في تلك الرحلة استطاعت ان تربي لها ولداً· ورافق كود راموسين اخواته في رحلته الى غروانلاندا · وطاف بوتانين الروسي واجفالفي المجري مع زوجتيهما في آسيا الوسطى وكانت زوجة الثاني باريزية الاصل والتربية فكتب لها السعد ان تعود الى اوروبا فوضعت لها كتاباً بديعاً في رحلتها اما زوجة الاول فبقيت الى الآخر وقضت وهي لا تخاف دركاً ولا تخشى ·

وان ماحدث لرينهارد زوجة السائح المبشر كان من المدهشات حقيقة فقد كانت ترافق زوجها مع ولد لها في بلاد التبت وكانت سياحتهما خطرة وشاقة من وراء الغاية · ولقد داهمهما لصوص من اهل التبت بالقرب من لاهاسا فهرب جميع من كانوا معهما · وبعد ان بقي المبشر كامناً مع زوجته في السياج خرج قاصداً احد المساكن القريبة يطلب معونة من فيه وظلت زوجته في انتظاره فلما نفد صبرها عرفت ان اللصوص قتلوه وعندئذ قامت تسير وحدها عائدة من حيث اتت مع زوجها وهي تتوقع الموت في كل دقيقة وبعد اربعة اسابيع قضتها ماشية في صعوبات وآلام لا تصدق بلغت مدينة « ڤاتسين لو » ناجية هي وطفلها ·

هذا ولا تشارك المرأة الرجل في مخاطر الرحلات والوحدة والحيات المؤذية والجليد والحر والمخاوف بل ان لها في الدفاع عن حياض البلاد يداً طويلة يدعوها الى ذلك حبها لوطنها او لاولادها · فقد عرفت جان دارك المحاربة الفرنسوية المشهورة بايامها الغر المحجلة كما عرفت كاترين سفورزا في القرن الخامس عشر في ايطاليا فانها بعد ان رأت زوجها يذبح تحصنت في قلعة فورلي وقاومت حصار قيصر بورجيا ثلاثة اسابيع وبقيت في مقدمة رجالها ليل نهار راجلة وراكبة وهي لم تترك سلاحها ولما اعيتها الحيل ارادت ان تقتل نفسها بنسف الحصن ولكنها بقيت حية مع زمرة من اصحابها وعادت تقاتل بين اشلاء القتلى الى ان أُسرت وعندها صاحت اني أُسلم نفسي لملك فرنسا ·

والتاريخ لا ينسى نساء مدينة سين وقد ضيق الحصار عليها الملك شارلكان فهبن يؤلفن ثلاثة توابير مؤلفة من بنات جنسهن خاصة لا يقل عددهن عن ثلاثة آلاف فلبست قائدة التابور الاول لباساً بنفسجياً وقائدة الثاني لباس حرير احمر والثالثة اكتست بالبياض · وبمثل هذا قامت حنة هاشيت بصحبها نساء بوفي للدفاع عن

مدينتهن وجاكلين روبنس عرضت حياتها للخطر لتخبأ في قاربها الذخائر اللازمة سان اومالو خلال حرب انتقال الملك الاسباني ٠

ولكم من امرأة اشتهرت باقدامها وشجاعتها بحيث يكاد ينكر عليها المرء ما يصدر عنها وهي التي عرفت بالضعف ووصفت بكثرة التأثر وكان الذي يحملهن في الغالب عَلَى تحمم المهالك تعصب ديني او كراهة للظلم او حب للحرية بقيمهن ويقعدهن ٠ وعَلَى هذا رأينا شارلوت كورداي فادت بنفسها وقتلت مارات الظالم وحدها ولما سئلت عما اتت اجابت « ان حب الحرية عَلَمني اسباب الوصول الى الظالم لاقتله ٠ » وقالت : « ما اتمس بلاد كفرنسا يعجب فيها من امرأة تفادي بحياتها دفاعاً عن بلادها ٠ »

ومن النساء صاحبات القوة الادبية يخرج اولئك الروسيات بالمئات متخليات عن ثروتهن وراحتهن ورفاهيتهن في قصورهن الآمنة الوادعة منذرات عَلَى انفسهن الدعوة الى الثورة ٠ يعرف الناس اسم صوفيا بوروفيسكايا التي مشت الى المشنقة هادئة دون ان يبدو عليها الضعف ساعة ٠ ويذكرون فيراساسولتش التي قتلت القائد تريبوف جلاد العدميين في روسيا وبرأتها محكمة المحلفين فاقرت بانها كانت تؤثر ان يحكم عليها لانها تكون اذ ذاك آمنة من انها عملت ما تقدر عليه للدفاع عن حقيقتها ٠ وقضت الفتاة فيرافنير البديعة الطلعة المحببة الي النفوس ست سنين وهي روح جميع المكائد التي حدثت في روسيا فتجتاز البلاد من اقصاها الى اقصاها وهي تحمل قذائف في مشدها وتختبئ متوارية عن انظار رجال الشرطة ولانقاذ اوراق ومستندات محظورة ٠ وقد سجنت هذه الفتاة الفتانة التي خلقت للحركة والاضطراب والشجاعة والثورة عشرين سنة في سجن شلوسبورج وخرجت منه بحماستها الاولى ومراميها التي طالما سعت لها سعيها ٠

ويرى العدميون (نيهيلست) ان من الاخلاق التي فطر عليها النساء فكانت من عوامهن الادبية انهن اذا سجن والرجال في الحبوس او تفين الى سيبيريا يعشن اكثر من الرجال ولا ييأسن كالرجال عَلَى حين يموت الرجال او ينتحرون او يجنون الا قليلا ويقضين من وحدتهم ومن بعدهم الى الابد عن عالم الاحياء ٠

ولعل احدهم يقول ان امثال هؤلاء النساء هن من النادرات يرزقن عاطفة الحب والمعاداة والمقاومة وانه قد ينشأ مثلهن وكم ترى في النساء من النابغات في الادب كجورج ساند والبصايات بروفنيك وجورج البوت و بشير ستاف ومدام هومفري وارد

كلهن من الاديبات اللائي يقلّ امثالهن في الرجال على ان النساء والرجال ايضاً الذين اشتهروا بقوامهم الادبية وافكارهم السياسية لا ينبغن الا في مجتمع او في دور يكون فيه مستوى المكارم والآداب راقياً جداً ·

وقد اظهر البحث ان نصف النساء من الشجاعة عَلَى جانب عظيم اذا نميت فيهن هذه القوة اتين بالاعاجيب ولكن من ينظر الى النساء نظراً مجرداً من التدقيق يراهن الى الوناء والضعف والجبن والتعلق باهداب الامور التافهة والالاعيب الصبيانية ·

والفرق عظيم بين القوة الادبية في الرجل وبينها في المرأة فالرجل ينشأ عَلَى ذلك بالفطرة او بالتربية ويبقى كذلك مهما شقيت حياته او سعدت بيد ان الرجال الاقوياء من حيث الطبيعة بل من حيث الادب هم اندر مما نتصورهم · والمرأة لاتعنى بقوتها الادبية عندما تكون حياتها سعيدة او عادية الا ان الحاجة اذا مست واصابها شقاء وبؤس ومرض في أسرتها ينقلب كيانها في الحال ويصبح المتوسطات والرخوات منهن قويات شديدات يقاومن المصاعب اي مقاومة ويطعن صدور العوائق بسلاح قد يكون غير ماض ولكن له من نار الحمية الموقدة ما يشحذ غراره ولا يطفأ اواره ·

ولكم شهدنا النساء يأتين من ضروب الشجاعة حين الحاجة ما لم يخطر ببال فكم رأينا عقائل كان ازواجهن عَلَى جانب عظيم من سوء الاخلاق والعشرة معهن وكن صابرات على الاذى حتى اذا فقد بعولتهن ثرواتهن وسيقوا الى السجون والمطابق يعطفن عليهم ويأخذن في الانفاق عليهم من كدهن وعملهن ·

ورأيت امرأة اخرى كانت شرسة الطباع تنأ كدزوجها وتسيء عشرته فلما اضاع ماله راحت وهي في سن الاربعين تراجع دروسها التي تعلمتها في صباها وتقدمت لنيل شهادة التعليم واخذت منذ ذاك الحين تصرف عَلَى زوجها واولادها من كسبها القليل وتعمل اعمال المطبخ والبيت بيدها وتشتغل من الصبح الى المساء وكانت من قبل لم تتنزل لتبل يدها بالماء ولا لترفع ثيابها بنفسها اما زوجها فبقي سنين يعيش من كدح زوجته يلعن الزمان ويدخن الدخان ولا يفارق داره الا للنزهة ·

ورأيت امرأة اخرى كان زوجها احد رجال الادارة وكانت مرفهة تعيش عيش الاميرات فأُصيب زوجها بالروماتيزم فاخذت تمرضه وتعنى به بنفسها ثماني عشرة سنة ليل نهار حتى انها لم تنزع عنها لباسها خلال العشر سنين الاخيرة لتكون عَلَى مقربة من سرير زوجها وتقوم بخدمته حتى القيام بل انها قضت

بعض السنين الاخيرة ولم تخرج الى الشوارع حتى صار منظر المركبات والقطارات في عينها غريباً . كلمتها ذات يوم وانا اعجب بها فقالت لي انها لم تسأم قط لانها ادركت انها تقوم بواجب وكانت كل ساعة من ساعاتها ولها ما يشغلها فيها وانها لم تمرض منذ اخذت في تمريض زوجها وكانت تغتبط عندما ترى زوجها يشكر لها بعينيه عنايتها به قالت وكنت سعيدة ان اتوفر على اطالة حياته فلما قضى نحبه لم يبق لي مطمع في الحياة واسفت عليه كثيراً وان ادركت ان آلامه انتهت بالموت .

وغريب امر النساء في مفاداتهن بكل عزيز عليهن في سبيل ما يوطدن النفس عَلَى القيام به فاذا انصرفت اذهانهن الى عمل من مثل ما تقدم يزهدن في الملاذ والبنين والبنات وينسين ان جمالهن ظل زائل وانهن يضعن حياتهن بمفاداتهن ولكن ما يلذهن هو ان يعتنين فيما صرفن وكدهن له وليس الرجال كذلك ولعلهم يؤثرون الانصراف الى عمل عام اكثر من الميل الى عمل خاص .

اعرف أسرة غنية كان لها ابن كف بصره فارادت ان تصحبه برفيق فاختارت له ابن بستانيها وجعلته له ترباً يغدوان ويروحان معاً فدرسا الحقوق معاً وصرفا على هذه الحال منذ كان الاعمى ابن عشر سنين الى ان صار ابن اربع وعشرين سنة ولما اتما دراسة الحقوق افتتحا لهما مكتب محاماة وقضيا فيه سنتين ولكن ابن البستاني ضاق ذرعه من تحمل صاحبه وانفصل عنه وان كان طيب السريرة ولم ينس ايادي أسرته عليه قائلاً ان السأم اصابه فلا يتحمل عشرة صاحبه .

كما اعرف رجلاً غنياً فقد زوجته وهي تضع له ابنة فلم تحدثه نفسه يوماً ان يعنى بتربية هذه مع انه كان يحبها حباً جماً وما ذلك الا لان الرجل بما فيه من قوة ادبية يأتي من الاعمال ما يزيد بنتائجه الاجتماعية اكثر مما تقوم به المرأة مع شخص . وعَلَى ذلك فالواجب عَلَى الرجال ان يشفقوا عَلَى النساء اذا رأوهن يعشن في الاحايين عيشاً طيباً . المرأة لا تنزع بها نفسها الا ان تكون خادمة خاضعة تقوم بوظائفها اليومية المحدودة ولكنها بحين الحاجة يكون شأنها ان تنقل فتكون ملكة . وليس غير المصائب تحملها على تغيير كيانها فعلى الرجل ان يحترمها في حال بؤسها وسعادتها .

سير العلم والاجتماع

الحروب الاسلامية

قال احمد زكي بك استاذ الحضارة في الجامعة المصرية ان الحروب الاسلامية كانت استعمارية اكثر منها دينية : ان الحرب الشرعية هي التي تقام لاعلاء كلمة الله وليس المراد من اعلاء كلمة الله الدعوة الى الاسلام بالسيف فان هذا مما لا يكون ابداً وانما المراد منها ما عرف في تاريخ صاحب الشريعة الاسلامية وبعض خلفائه وذلك ان الدين بني على الدعوة اليه بالحسنى ولكن زعماء المشركين وسائر الممالك وقتئذ كبر عليهم ان يدينوا لدين جاء به يتيم عربي ويسوي بين الملوك والسوقة ويسيغ للخليفة الثاني ان يأمر مثل جبلة ابن الايهم ان يرفع رأسه لجلف من اجلاف العرب ليثأر لنفسه فيلطمه كما لطمه . كبر عليهم الاذعان فقاوموا القائمين بنشره وشنوا عليهم الغارات يريدون صدهم عن سبيل الله واخفاء نوره ويأبى الله الا ان يتم نوره فجاز للمسلمين وقتئذ بل وجب عليهم ان يذودوا عن حياضهم ويذبوا عن اعراضهم والا لكانوا اخساء جبناء فاعد المسلمون لاعدائهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل وصدوا هجماتهم وانتقموا لانفسهم ممن آذاهم وكذلك الله يفعل بالمعتدين : فكانت تلك الحروب لدفع من يقف في سبيل المسلمين فيمنعهم من نشر دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة لذلك سميت حروباً شرعية وحق لها ان تسمى كذلك .

ولا يفهم من قول المسلمين للمحاربين : الاسلام او الجزية او الحرب : ان حربهم اياهم كان لحملهم على الاسلام فان الذي اضطر المسلمين الى الحرب انما هم المحاربون انفسهم فلما كانت تشتد الازمة بالمحاربين كانوا يحقنون دماءهم من المسلمين الذين نصرهم الله بقوة حقهم وبعدم اعتدائهم الا على من اعتدى عليهم وكان حقن الدماء باحد امرين اما الاسلام ليصيروا اخوانهم واما الجزية التي لا بد منها لاية امة مغلوبة في كل عصر من العصور والا لو كانت هذه العبارة « الاسلام او الجزية او الحرب » لحمل الناس على الاسلام لما خيروهم بين الجزية والاسلام ولم يرضوا منهم دون الاسلام شيئاً .

ان الذي يتأمل في مثير الحروب الاسلامية بادئ الامر يعلم علماً ليس بالظن ان المسلمين لم يحاربوا الا من اراد صدهم عن سبيل الله فحاربهم وآذاهم فمن ذلك ان

اول الغزوات كانت مع قريش فنتركها ونترك سائر غزواتهم كذلك لما هو معروف من امر قريش وايذائها النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه واخراجهم من ديارهم . ونذكر من بعد ذلك غزوة بني قينقاع من يهود المدينة . فقد حاربهم المسلمون لنقضهم العهد بعد غزوة بدر الكبرى وهتكهم حرمة سيدة من نساء الانصار ثم غزوة بني غطفان ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا بعد ان علموا ان بني ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برياسة دعثور المحاربي للاغارة عَلَى المدينة ثم سرية عاصم بن ثابت الانصاري وكانوا مع رهط عضل والقارة الذين خانوهم ودلوا عليهم هذيلا قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي قتله عبدالله بن انيس . ثم سرية المنذر بن عمرو وهم سبعون رجلاً يسمون القراء اخذهم عامر بن مالك ملاعب الاسنة لطمعه في هداية قومه وايمانهم فلم يرع قومه جواره وقتلوا القراء ثم غزوة بني النضير من يهود المدينة وذلك لنقضهم العهد والقائهم صخرة على النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه لما كان فى ديارهم . ثم غزوة دومة الجندل ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا لما علموا ان في ذلك المكان اعراباً يقطعون الطريق عَلَى المارة ويريدون الاغارة عَلَى المدينة . ثم غزوة بني المصطلق وهؤلاء ممن ساعدوا المشركين في احد ولم يكتفوا بذلك بل ارادوا جمع الجموع للاغارة على المدينة . ثم غزوة الخندق وكانت مع الاحزاب الذين حاصروا المدينة . ثم غزوة بني قريظة من يهود المدينة لنقضهم العهد واجتماعهم مع الاحزاب ثم غزوة بني لحيان لقتلهم عاصم بن ثابت واخوانه الذين حزن عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم غزوة الغابة لاغارة عيينة بن حصن في اربعين راكباً على لقاح للنبي صلى الله عليه وسلم كانت ترعى بالغابة . ثم سرية محمد بن مسلمة الى القصة (موضع) لما بلغ المسلمين ان بذلك الموضع ناساً يريدون الاغارة عَلَى نعم المسلمين التي ترعى بالهيفاء (موضع) ثم سرية زيد بن حارثة لمناكسة بني سليم الذين كانوا من الاحزاب يوم الخندق . ثم سرية زيد كذلك للاغارة على بني ثعلبة الذين قتلوا اصحاب محمد بن مسلمة . ثم سرية زيد كذلك للاغارة عَلَى بني فزارة الذين تعرضوا له . ثم سرية عمر بن الخطاب لما بلغ المسلمين من ان جمعاً من هوازن يظهرون العداوة للمسلمين . ثم سرية بشير بن سعد لما بلغهم من ان عيينة بن حصن واعد جماعة من غطفان مقيمين بقرب خيبر للاغارة عَلَى المدينة . ثم سرية غالب الليثي ليقتص من بني مرة بفدك لانهم اصابوا سرية بشير بن سعد . ثم غزوة موتة وكانت لتعرض شرحبيل بن عمرو الغساني للحرث بن عمير الازدي رسول النبي صلى الله عليه وسلم الى امير بصرى يحمل كتاباً وقتله اياه ولم يقتل رسول

للنبي صلى الله عليه وسلم غيره حتى وجد عَلَى ذلك وجداً شديداً . ثم سرية عمرو بن العاص لما بلغهم من ان جماعة من قضاعة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القرى للاغارة على المدينة . ثم سرية علي بن ابي طالب لمابلغهم من ان بني سعد بن بكر يجمعون الجموع لمساعدة يهود خيبر عَلَى حرب المسلمين . ثم غزوة خيبر لان اهلها كانوا اعظم محرض الاحزاب . ثم سرية عبد الله بن رواحة لمابلغهم من ان ابن رزام رئيس اليهود يسعى في تحريض العرب على قتال المسلمين . ثم سرية عمرو بن امية الضمري لقتل ابي سفيان جزاء ارساله من يقتل النبي صلى الله عليه وسلم غدراً . ثم حرب العراق لما ارتكبه كسرى عندما ارسل اليه كتاب عرض فيه عليه الاسلام فانه مزق الكتاب وكتب الى باذان اميره يأمره يقول له بلغني ان رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم انه نبي فسر اليه فاستتبه فان تاب والا فابعث اليَّ برأسه يكتب الي هذا الكتاب (اي الذي بدأ فيه بنفسه فقال من محمد الخ) وهو عبدي فبعث باذان بكتاب كسرى الى النبي صلى الله عليه وسلم مع فارسيين وبعث بهما يأمره ان ينصرف معهما الى كسرى فقدما عليه وقالا له شاهنشاه بعث الى الملك باذان يأمره ان يبعث اليك من يأتي بك وقد بعثنا اليك فان ابيت هلكت واهلكت قومك وخربت بلادك فليس بعد ذلك عذر للمسلمين في امتناعهم عن حرب الفرس . وخصوصاً وقد كان للعرب ثارات كثيرة في ذمة العجم ثم غزوة تبوك لما بلغ المسلمين من ان الروم جمعت الجموع تريد غزوهم في بلادهم . وقد اعقبها فتوح الشام والقسم الاعظم من دولة الروم .

هذه بعض الغزوات الاسلامية بادئ الامر سردناها غير مرتبة ومنها يرى القارئ ما قصدناه من ذكرها وهو ان الحروب الاسلامية لم تقم لحمل الناس عَلَى الاسلام وانما أُقيمت لاسباب اخرى تجلت فيها باجلى بيان . غير ان ناساً ممن يحطون من قدر الاسلام ويقعون فيه يقولون ان الاسلام لم ينتشر هذا الانتشار في مثل هذا الزمن الوجيز الا بالسيف فهو دين توحش وهمجية وحجتهم في ذلك غزوات النبي صلى الله عليه وسلم والحروب الاسلامية ورأى ناس من المسلمين آيات في القرآن تحض المسلمين على قتال المشركين والكفار والمنافقين وامثال هذا كقوله تعالى (يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير . وقاتلوا المشركين كافة واعلموا ان الله مع المتقين . قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . فقاتلوا ائمة الكفر انهم لاايمان لهم لعلهم ينتهون . وقاتلوهم حتى لاتكون

فتنة ويكون الدين كله لله . واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم .) ولم يفكروا في سياق الكلام ومواضعه واسباب نزوله فظنوا ان القتال شرع في الاسلام لحمل الناس على الاعتقاد به فكان ذلك الظن اكبر جرم على ذلك الدين الحنيف الذي تنزه عن مثل هذه الخشونة وتلك القسوة وذلك ان الامور الاعتقادية لا تقبلها الناس الا بالبرهان لا بالقوة والسلطان فمن قبلها منهم مكرهًا مرغمًا لا يطمئن لها قلبه واذن لا فائدة من قبوله اياها . وانما كان يتعرض المسلمون لمن آذاهم بسبب الامور الدنيوية المدنية او بسبب ظهورهم بدين جديد كانوا يدعون الناس اليه بالحسنى والموعظة الحسنة وليس عليهم هدى الناس وانما الله يهدي من يشاء فمن آمن بالله فله ايمانه ومن كفر فعليه كفره وليس لهم على احد من سلطان . هذه حال المسلمين مع من يدعونهم الى الاسلام ولكن رؤساء بعض المدعوين ضنوا برياستهم على الزوال وابوا الا ان يصدوا المسلمين عن سبيل الله التي تسهل على مرؤسيهم وعبادهم الفرار من مظالمهم الى فضاء العدل والاحسان .

غير ان هذه الحروب قد افادت الامة العربية الاسلامية فوائد جمة من اجلها الغنائم التي اغنت المهاجرين عما فقدوه بالهجرة والانصار عما ذهب في اكرامهم اخوانهم المهاجرين فشغل بذلك العرب عن غزو بعضهم بعضاً وعن اثارة الفتن الداخلية فلما فتروا عن الحرب هنيهة اثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم امتنع كثير منهم عن دفع الزكاة فاستباح ابو بكر رضي الله تعالى عنه قتالهم فردهم الى الاسلام عنوة ورأى ان يتم بعد ذلك ما اراده النبي صلى الله عليه وسلم من غزو الفرس والشام ليشغل العرب عن التفرق والخصومات والنزاع الداخلي والرجوع الى التفرق دينًا ودنيا فانفذ جيش أسامة ليضرب الاعداء بالعرب فان ذلك خير من ان يضرب بعض العرب ببعض اذا لم يشغلهم بحرب غيرهم وكذلك رأى عمر رضي الله تعالى عنه من بعده فدوخ بجيوشه وابطالهم خالد والمثنى وابي عبيدة وعمرو الاعداء وفتح البلاد لتكون موارد خير للامة العربية وليرفع عن تلك البلاد التي فتحها الاسلام ظلم الرومان والفرس الذي بلغ اذ ذاك اشده كما كانت حاله في فتح مصر وامرها معروف واباح له ولابي بكر حرب الروم وفتح بلدانهم ما اباح للنبي صلى الله عليه وسلم من قبلهما وهي الترات التي للمسلمين عند الروم ومعلوم ان المسلمين لما فتحوا مصر وغيرها لم يحاربوا الا اهل الدولة وهم الروم وذلك لامرين اولهما اخراجهم من تلك البلاد وذلك كان خيراً للمحكومين وقد كان اهل

مصر والشام يساعدون العرب على الروم وكذلك اهل العراق على الفرس · وثانيهما انتفاع العرب بالبلدان التي فتحوها انتفاعهم في الحضارة والمعايش والعلوم وغيرها ·

لاجل ذلك يمكننا ان نقول ان حروبهم كانت استعمارية ويتضح ذلك باجلى وضوح في حروب من بعد عمر من الخلفاء والامراء · يظهر ذلك لمن ينظر نظراً سطحياً الى اسباب هذه الحروب وما جرته من الفتوح التي اوجبت نشر الدين وتعميمه بالمخالطة ومظاهر الفضيلة والكمالات التي امتاز بها المسلمون في ايام السلف الصالح والصدر الاول وقد دوّن المسلمون في تلك الايام الخوالي كل دقيقة وكبيرة مما يتعلق بهذا الموضوع ولا نرى فيها امراً واحداً يدعونا الى القول بخلاف مذهبنا وهو ان الحروب كانت حروب مسلمين لا حروب اسلام وانها كانت حروب توسع في الملك واستعمار للبلدان ·

الشمس وطول الحياة

للشمس دخل كبير في اطالة العمر فقد ثبت ان الاعمار تطول في الاصقاع المشمسة اكثر من غيرها كما هو الحال في بعض قرى سويسرا واشتهرت مقاطعة لوكارنو على بحيرة ماجور ومقاطعة لوكانوا ومقاطعة ماجليازو على نهر تيسين في سويسرا بانها البلاد المشمسة وقد تطلع الشمس في بعضها ٣٣١ يوماً في السنة ولذلك ترى اهلها والنازلين فيها اطول الناس اعماراً واختارها المترفون لقضاء فصل الشتاء وربيعها من اعظم المساعدات على طول حبل الحياة في الشيوخ وكثير في اهل مقاطعة تيسين يبلغون المئة سنة من العمر اما ابناء التسعين والثمانين فهم من الحوادث العادية والاستشفاء بالشمس من افضل انواع الوقاية للصحة ·

تعليم الزنوج

اقام احد اساتذة كلية هوفارد باميركا الحجة على من يقول ان الزنجي غير قابل للتربية فقال ان الهمة التي بذلت في سبيل تعليمه منذ اربعين سنة قد اتت باحسن النتائج حتى جاء من الزنوج اطباء واساتذة وقضاة ومحامون وطابعون وغيرهم ممن يسعون السعي الحثيث لانهاض بني جلدتهم بحيث قل فيهم عدد الاميين الى النصف ·

اعمال المرسلين

تمتد اعمال المرسلين من دعاة الدين المسيحي كل يوم امتداداً غريباً ولا سيما دعاة

البرتستانتية منهم فقد كانت انكلترا مبعث المرسلين بما يدره عليهم اهل الخير وانصار الدين من الاموال الطائلة واليوم اخذت الولايات المتحدة تنافسها في هذا السبيل فترسل مبشريها الى الهند الانكليزية خاصة فالاميركان ينفقون على ١٣٥٠ مبشراً في الهند وحدها . وبحسب الاحصاآت الاخيرة بلغ عدد المبشرين للولايات المتحدة ٦٥٠٠ ولانكلترا ٨٠٠٠ ولاوربا كلها ٣٠٠٠ اما الرهبان والراهبات فقد كانوا في اوربا على عهد فولتير ستمائة الف فقط وما ندري عددهم الآن .

دار الصناعة في انكلترا

ثبت ان دار الصناعة في بورتثموت هي اقدم واعظم دار صناعة في العالم كلفت ٤٠٠ مليون فرنك فقد صرف لارتفاع بنائها زهاء الف الف الف آجرة ويبلغ علوها ٦٠٠ قدم انكليزي واعظم عمارة حربية لا تبلغ ثلث ارتفاعها . فيها من الادوات والآلات الكهربائية ما لا يوجد في غيرها كما ان فيها ١٨ الف عامل يشتغلون ٤٨ ساعة في الاسبوع اي ٧ ساعات في النهار وينفكون عن العمل ظهر كل سبت الى الاثنين . والعامل الذي يغيب ١٤ يوماً في السنة يطرد . وقد دفع للعملة سنة ١٩٠٧ ثمانية عشر مليون فرنك وليس للعملة ناظر ومفتش يراقبهم اثناء العمل لاملاحظ خفيف يأتي من حين الى آخر فمن رأى احسانه في عمله اعطاه جائزة ثمينة . ومع مكانة هذه الدار تضطر ادارتها ان تصرف بعض عملتها حيناً وقد اضطرت مرة انكلترا الى نزع سلاح مئة بارجة فصرف المعمل اربعة آلاف عامل دفعة واحدة حتى لا يعطيهم رواتبهم بدون عمل وما طالبوا بحقوقهم قبل فهم ان البحرية الانكليزية شركة مساهمة فلا سبيل الى اجابة طلبكم الا اذا رضي كل انكليزي ان تعطوا وتأخذوا مشاهرتكم بدون عمل . ولكل فرد في هذا المعمل عمله الخاص ومديره نائب اميرال دار الصناعة ببورتثموت وهو في معمله كالملك في قصره . وتقدر انكلترا ان تستصنع البارجة الحربية في هذا المعمل في سنتين على ان المانيا لاتقدر على ايجاد مثلها في اقل من ثلاث وفرنسا في اقل من خمس .

كهربائية الانسان

كل قوة في حاسة من حواس الجسم البشري فيها شيء من الكهربائية لا تدرك حق الادراك الا بآلتين حساستين جداً وهما الالكتروسكوب والالكترومتر وقد اخترع احد علماء الالمان آلة جديدة تفوق تينك الآلتين بتأثرها وتعريفها المجاري

الكهربائية في عمل القلب البشري خاصة وبهذه الآلة يتأتى تشخيص طبيعة مرض القلب ·

آلة الكذب

اخترع عالمان من علماء النفس احدهما الماني والثاني اميركي آلة سموها البسيكومتر الكهربائي اذا وضعت على الانسان يتبين بها كلام المرء صدقه من كذبه · وتتركب هذه من كالفانومتر وآلة خاصة تفيد اختلاف الافكار والاحساس والكالفانومتر مناط بمصباح يرتفع لهيبه وينخفض على حسب قوة المجرى الكهربائي ويقاس ارتفاع هذا اللهيب بواسطة مرآة تعكس اللهيب · فاذا أريد اختبار درجة صدق الرجل توضع احدى يديه على عمود من الزنك والاخرى على عمود من الفحم فينشأ من ذلك مجرى كهربائي يختلف تأثيره باختلاف قوة الاحوال النفسية التي تحدث في الشخص المفحوص بهذه الآلة فاذا كان يكذب اي اذا فرط منه تناقض بين الفكر المفكر فيه وبين الارادة التي تغير ذلك الفكر يقوى المجرى و يدل ارتفاع اللهيب على شدته ·

بندقية جديدة

لبنادق مكسيم الجديدة خاصة نافعة وهي انه يكاد لايسمع لها صوت عند اطلاقها ومهما سمع فلا يسمع الى مسافة اكثر من ١٥٠ قدماً وقد اظهرت التجارب ان هذا الاختراع يعدل في حالة الحركات العسكرية اكثر من البارود بلا دخان فيصعب به معرفة مواقع نزول الاعداء كما انه يخدم قطاع الطريق واللصوص فيتمكن القاتل بهذه البندقية التي يمكن ان يكون منها مسدس ان يطلق النار في شارع ولا يحس به رجال الشرطة على ان الصياد ينتفع من هذه البندقية اذ انه يقتل برصاصة قنيصة واحدة بدون ان يفزع اخواتها فتنفر · وبهذا صح ان نقول ان فن اطلاق الرصاص آخذ بالانقلاب وهذا الانقلاب له عوائق وله منافع ويصعب في الدنيا ايجاد خير محض ·

عمران كريت

نشرت مجلة العالم الاسلامي الباريزية مقالة في هذا المعنى قالت فيها ما تعريبه : يبلغ سكان جزيرة كريت ٣٠٣٥٤٣ ساكناً منهم ٣٣٤٩٦ من المسلمين وكان من نتائج ثورة سنة ١٨٩٦ — ٩٧ ان هاجر المسلمون زرافات من الجزيرة فتضررت كريت من حيث الامور الاقتصادية كثيراً فقد كان عدد المسلمين فيها بحسب احصاء سنة ١٨٨١ — ٧٣٢٣٤ فنزل عددهم بحسب الاحصاء الاخير الى ٣٣٤٩٦ ولا يزال

المسلمون يهاجرون منها ومعظمهم من الزراع اذا غادروا الجزيرة يبيعون املاكهم او يتخلون عن اراضيهم تاركيها بوراً حاملين معهم رؤوس اموالهم وقد بلغ ما اباعه المسلمون من المسيحيين من الاملاك منذ سنة ١٨٩٨ الى ١٩٠٢ — ٩،٤٤٢،٤٢٦ فرنكاً على حين بلغت الدراهم التي اقترضها المسيحيون لابتياع هذه الاراضي زهاء ستة عشر مليون فرنك . وكان نزول الجيش العثماني والاسطول العثماني ايام ارتفاع علم الهلال عليها يوسع على الجزيرة فينفق فيها نحو ٩٥ الف ليرة عثمانية مسانهة فتغيير حكومتها اخر بتجارتها كثيراً وكان مداخيل الجزيرة قبل الاستقلال تصرف فيها على حكم العهد العثماني وربما صرفت فيها مداخيل غيرها من الولايات ايضاً ثم ان الجزيرة لم تبرح تدفع ما عليها للديون العمومية وشركات الفنارات في المملكة العثمانية . وترى المسيحيين الكريتيين ناقمين من الحكم الاستقلالي لانه اضر بهم اضراراً مالية واقتصادية والمسلمين ناقمين لما يلحقهم من الاضطهاد في عهد الحكم الحالي ومنذ اصبحت الجزيرة مستقلة لم ترتق خطوة الى الامام حتى ان حظ ولاية بعيدة من ولايات الاناضول العثمانية ارقى من حظ كريت من حيث الزراعة والصناعة والتجارة والادارة .

الهند الشرقية الهولاندية

يقدرون عدد المسلمين في جزائر جاوه بـ ٢٧،٠٧٨١،٦٧١ وفي صومطرا بـ ٣،٢٧٥،٠٠٠ وفي بورنيو بـ ٩٨٥،٤٤٠ وفي سيليب بـ ١،١٤٠،٠٠٠ وفي بانكا واعمالها بـ ٨٦،٥٤٠ وفي ريو واعمالها بـ ٩٣٤٣٤ وفي بيلينسون بـ ٣٤٢٠٠ وفي اصبهان واعمالها بـ ٧١٢٠٤ وفي ترنات وغانة الجديدة واعمالها بـ ١٠٨٣٤٠ وفي تيمور واعمالها بـ ٣٤٦٥٠ وفي بالي وكومبوك بـ ٣٦٨٤١٨ منهم كلهم ٣٣٩٣١٦٠١ من الوطنيين و ٣٣٨٦٠ من العرب و ٧٥٣١ من الصينيين و ٥٠٦١ من الهنود وغيرهم و ٧٧٤ من الاتراك والسوريين وهكذا فقد بلغ عدد سكان جزائر الارخبيل الهندي التي يخفق عليها العلم الهولاندي اربعين مليون نسمة وبلادهم كنز ثمين لاهل بلاد القاع (هولاندة) وسيكون مستقبلها زاهراً عندما يتم تنظيم شؤونها فتأمل كيف يستولي عدد قليل متعلم كالامة الهولاندية على عدد كبير متوحش كسكان جزائر ذلك الارخبيل .

مطبوعات ومخطوطات

الاجوبة المرضية

تأليف الشيخ جمال الدين القاسمي طبع بمطبعة روضة الشام بدمشق ص ٣٧

هذه الرسالة وضعها المؤلف جواباً عما اورده كمال الدين ابن الهمام على المتقدمين بثبوت سنة المغرب القبلية ولعل بعض المعاصرين ينكرون على بعضهم اذا نقشوا بعض المتقدمين على عصرهم على حين ان ذلك مألوف معهود منذ القديم فقد ناظر — كما قال مؤلفنا المنوه بقدره — الامام الشافعي الامام محمد بن الحسن وحاور الكتاني بشر المرسي وغيرهم وحاور البيهقي الطحاوي وابن حزم الاشاعرة وغيرهم والمازري امام الحرمين والطبري الطالقاني والنووي الرافعي والاسنوي النووي وشمس الائمة الكردري الرازي وابن عبد الهادي السبكي وابن حجر العيني والسيد السعد والفيروز ابادي الجوهري وابن الاثير الصابي وابن عباد وابن ابي الحديد ابن الاثير وابو حيان ابن مالك والعز ابن عبد السلام ابن الصلاح وابن عبد الجبار بردي ونضل الله الرومي ابن الملك والناصر ابن المنير الزمخشري وزين العرب الشيرازي والسيوطي السخاوي وابن الجوزي والمؤلفات في هذا الموضوع لا تحصى

اسباب الانقلاب العثماني

لمؤلفه محمد روحي بك الخالدي ومصححه السيد حسين وصفي رضا طبع بمطبعة المنار في القاهرة سنة ١٣٢٦ ص ١٨٢

مؤلف هذا الكتاب من افاضل سورية عانى صناعة القلم والسياسة ورسالته هذه تدل على علو كعبه في تاريخ الدولة الاخير وحسن مراقبته للحركة الاصلاحية التي قام بها احرار العثمانيين ووصفها اوجز وصف يرسخ في الاذهان

تحفة الانام

للشيخ عبد الباسط الفاخوري طبع بالمطبعة الاهلية في بيروت ص ٢٨٦

هو مختصر في تاريخ الاسلام فيه مقدمة في اصل العرب واحوالهم قبل الاسلام وبعده وسير الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين والملوك العثمانيين وغيرهم بعبارة مختصرة

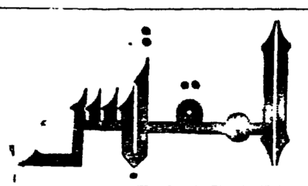
وكلام المؤلف في الغلو بالملوك المتأخرين من بني عثمان يرفع الثقة من كلامه كله فعسى ان يرفع الطابع تلك المبالغات من آخر التاريخ في طبعة ثانية

اعظم تذكار للعثمانيين الاحرار او الحرية والمساواة والمبعوثان

لمؤلفه الشيخ عبد الله العلمي

طبع بالمطبعة الاهلية في بيروت سنة ١٣٢٦ ص١٩٠

كتاب وضعه مؤلفه لما رأى كثيراً من العامة يسألون عن مجلس النواب «المبعوثان» الشوري هل هو شرعي ام لا وعن الحرية هل هي موافقة للشرع الشريف ولتزييف من قال بان الاسلام وجد وبجانبه سلطة مطلقة مستدلاً على كل نوع منها بآيات كثيرة من الكتاب . ومما جاء فيه — وهو مما ننقله نموذجاً على اسلوبه — في باب المساواة وبين المسلم واليهودي والنصراني في انهم بشروان التمسك من كل منهم بالارومات غلط جاء في الكتاب الكريم خطاباً للعرب (ليس بامانيكم ولا اماني اهل الكتاب) الموسويين والمسيحيين انما (من يعمل) من الطوائف الثلاث (سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى) من الطوائف الثلاث وهو مؤمن بالله ورسله (فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) واورد آيات كثيرة استنبط منها اموراً من هذا القبيل . وقال في حرية المساواة بين المسلم واليهودي والنصراني في الحكم عليه او له بالحكم الشرعي : المساواة في الاحكام الشرعية المحكوم بها على الناس على اختلاف عناصرها هي شريعة الله تعالى في كتابه وهي سنته في خلقه جاء في سورة النساء (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس) جميعاً المسلم وغيره (بما اراك الله ولا تكن للخائنين) المخالفين لك (خصيما) بل انهج منهج المساواة في الحكم الشرعي بالصدق والعدل . وهكذا الم المؤلف بانواع الحرية والمساواة والشورى على اسلوب عصري لا يستند فيه الا الى الكتاب واستنتاجه من الآيات الكريمة دل على بعد غوره وحسن الامعان بمعانيها وتطبيقها على حالة الزمن فنثني على المؤلف لفضله وغيرته ونحث كل من يخامرهم الشك في الحكم الدستوري ومخالفته لروح الاسلام ان يقتنوا كتابه وينصفوه وينصفوا الشريعة المدنية والشريعة الدينية



ايار ربيع الاول سنة ١٣٢٧

وداع وعتاب

للسلطان السابق عبد الحميد

الله اكبر فالظلام قد علموا　　　لايّ منقلب يفضي الالى ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت　　　اركانه وتولت اهلهُ النقمُ
وحصحص الحق في عزٍّ وفي ظفرٍ　　　يحفه خادماه السيف والقلمُ
ثارت له عصبةٌ كانت مشردةً　　　وقد تهددها الارهاق والعدمُ
من كل اروع في حيزومه حنق　　　في نفسه عزة في انفه شممُ
عبد الحميد استمع منهم مناقشةً　　　فطالما صبروا بل طالما كظموا
غادرت امتك المنكود طالعها　　　تغض مقلتها ان عدَّت الاممُ
اطلقت فيها سيوف الغادرين وقد　　　كانت بحبلك بعد الله تعتصمُ
الله الله يا راعي القطيع فقد　　　لاقت مصارعها في رعيك الغنمُ
حملتنا ما تنوء الراسيات به　　　كيف الصنيع وانت الخصم والحكم
فكم شكونا ولم تسمع شكايتنا　　　وكم دعونا وحظ الدعوة الصممُ

ولي نعمتنا قل لي اما يطلت — تلك الولاية لما ضاعت النعم
فلو رفقت امير المؤمنين بنا — ما كان أنقض مصدور وسال دم
محافظ الحرمين اعدل فهل انتشت — في ظلك الكعبة الزهراء والحرم
ام حج حجاج بيت الله في دعة — يدون ان يرهقوا فيه ويهتضموا
وليته فاسقاً[1] لم يرع حرمة من — في ذمة الله ضاعت عنده الذمم
كم استجاروا عليه فازدريت بهم — ان لم تكن ناقماً فالله منتقم
رب الهلال اجب هل كنت تقتحمه — ما اعتاد من نصرات ذلك العلم
ماذا فعلت باحرار البلاد وما — جنوا على الدين والدنيا وما اجترموا
حتى قسمتهم شطرين فازدحمت — على جسومهم النيذن والرخم
مزقت شملهم في كل ناحية — فارغموك بحول الله والتأموا
ويا سلالة عثمن اما اتصلت — منه اليك الصفات الغر والشمم
اين الغطاريف ارباب العزائم من — اسلافك الصيد من بالعدل قد عظموا
شادوا لك العزة القعساء من قدم — فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا
كانت لهم دولة بالسيف ناهضة — وفي زمانك لا سيف ولا قلم
حصدت ما زرعوا فرقت ما جمعوا — هدمت ما رفعوا بعثرت ما نظموا

ملكتنا فرأينا منك طاغية — لم يدر تدنأ له المشهود والقدم
نيرون عندك اوفرعون قد غفرت — زلاته واستجبت شاهها العجم
حجاج عصرك بل تولي المقاسيلا — ذنب ومزاك عنه الجمع والنهم
قد اخترعت ضروباً للمظالم والتنكيل ما فطنوا فيها ولا حلموا
خليفة الله قد خالفت ما امرت — به الشريعة والتنزيل والكلم

(١) راتب باشا

وسيرة الخلفاء الراشدين بها   خير المواعظ للظلام لو فهموا
ركبت مركب جور ليس يقبله   ممن يخلفه في قومه الصنم
دمرت بيتك يا هذا فانت اذن   عدو نفسك او قد مسك اللمم
حشدت زمرة غدارين كم سفكوا   واستنزفوا ثم لا قيدوا ولا غرموا
المخلصون تولوا منك وانهزموا   والخائنون على ابوابك ازدحموا
اسرفت في نهب بيت المال فاستلبت   منه الجواسيس ما شاؤوا وما غنموا
عصابة ثقلت في الناس وطأتهم   صموا عن الحق في اغراضهم وعموا
اخترتهم واختيار المرء شاهده   يا ليتهم رفقوا بالخلق او رحموا
خانوك لما رأوا منك الخيانة في   بنيك والمرء موسوم كما يسم
حبست آلك حتى بعضهم هلكوا   كأنما لم تكن قربى ولا رحم
حاولت اطفاء نور الحق وهو الذي   تثور افواهه ان سد منه فم
طال الزمن على جور تعالجه   وعيل صبر الورى واستحوذ السأم
ضيقت دارتهم في الارض فاتسعت   والمرء مستبسل ان عضه الالم
قد جمع الظلم منهم كل مفترق   وشد ما استتروا في الامر واكتتموا
وكلما نام عنهم رهطك انبثوا   يدبرون وان لاحظتهم جثموا
وعند ما اكتملت للوثب عدتهم   توكلوا واستخاروا بالذي عزموا
سلوا عليك سيوف العدل مرهفة   كأنها شهب في الافق او رجم
شقوا بها في جلابيب الدجى شفقاً   بشت له الارض وانجابت به الظلم
وطالبوك بحق كنت هاضمه   وحاكموك الى البتار واختصموا
فادوا بارواحهم حباً بامتهم   فلتحي تلك السجايا الغر والشيم
قد كان ما كان والرحمان ناصرنا   فالعدل منتصرٌ والجور منهزم

دبرت فتنة سوء تستعيد بها | من مجدك الباطل الغرار ماهدموا
مجد كبير طوته ظلمة كثفت | ثم انجلت فاذا ما تحتها ورم
كروا بعزمة حر جاء منتصراً | لنفسه واستباحوا منك ما احترموا
فانزلوك عن العرش الرفيع وما | كانوا يريدونها لكنهم رغموا
تأبى الشريعة ان تبقيك حافظها | وانت بالغدر والاغواء متهم
فاليوم تعلم عقبى من يخون ومن | يطغى وتندم اذ لا ينفع الندم
هبطت من قمة الامجاد منحدراً | كصخرة حطها من شاهق عرم
ففي هبوطك عاد الملك مرتفعاً | وفي هلاكك كل الخلق قد سلموا
كانت باقبالك الاقدار عابسة | فاصبحت بعد ما ادبرت تبتسم

دمشق : ف

السلطان عبد الحميد المخلوع

قلما جاء في الملوك من ترضيك اخلاقه واعماله لضعف التربية الدينية والمدنية ولان الملك يسكر فيقتضي له عقل كبير يحسن به صاحبه التصرف ويراعي فيه حقوق الخالق والخلائق . ولذا ندر في ملوك بني عثمان والملك متسلسل فيهم منذ زهاء ستة قرون من تأهل بالفعل للجلوس عَلَى عرش السلطنة فقد رأيناهم وفيهم الاخرق والاحمق والمتهتك والمسرف عَلَى نفسه والسفاك ولكن لم يأت فيهم عَلَى التحقيق مثل السلطان الخامس والثلاثين عبد الحميد الثاني

تقول فيهم وما اخلقنا ان نقول في غيرهم من ملوك الاسلام بل وفي الامم

الاخرى فقدتدبرنا تراجم الوف من الملوك والعظماء ولم نشهدلعبد الحميدمثيلاً في اخلاقه واعماله . بلى رأيناه يشبه الناصر لدين الله العباسي بتجسسه وحرصه والحاكم بامر الله الفاطمي بهذيانه وتلونه والحجاج بن يوسف الثقفي ببطشه وسفكه والسلطان ابراهيم العثماني بسفاهته واسرافه . ومن جمع في شخصه هذه الصفات مجسمة كان جديراً بان يدعى طاغية الملوك والسلاطين .

تولى عبد الحميد زمام السلطنة وكيلاً عن اخيه مراد الخامس لمرض طرأ على عقله وكتب على نفسه عهداً دفعه لمدحت باشا ناشر اعلام الحرية في المملكة العثمانية ثم ارسل على مايقال من احرق دار مدحت باشا وحرق العهد في جملة ماحرق واخذ يستجلب قلوب اكثر اهالي الاستانة مدة وكانته حتي اجتمع الصدر محمد رشدي باشا ومدحت باشا فقررا دعوة رجال الدولة الى الباب العالي للنظر في توسيد السلطنة الى عبد الحميد اصالةً فاجتمع نحو الف شخص من الكبراء وقرروا ان جنون السلطان مراد مطبق لايرجى ان يفيق منه فافتى شيخ الاسلام بحل امامته وبويع لعبدالحميد الذي اظهر اولاً بانه يميل الى الحكم الدستوري ومنح القانون الاساسي ثم سلبه واقفل مجلس الامة واتعب مدحت باشا في معاناة اخلاقه وكان اول عهد نكثه معه انه اخذ على نفسه ان يعين لرئاسة كتاب المابين نامق كمال بك الكاتب الشاعر الشهير وضيا بك رئيس المابينية فعين غيرهما ثم اخذ يدس الدسائس ونفى مدحت باشا ثم ارسل به الى الطائف فسجن في حبسها مدة ثم امر بخنقه .

واخذ السلطان يكثر من التضييق على اخيه السلطان مراد وعلى سائر افراد الأسرة السلطانية ولا سيما ولي عهد السلطنة السلطان الجديد محمد خان الخامس الحالي ويشرد كل من عرف بالانكار عليه من الوزراء والعظماء

فالقى بذلك الرهبة في نفوس قوات المملكة ورجال سياستها فاصبحوا يسيرون علَى رغباته وكل من خالفها ولو في سره اقصاه وسجنه وعذبه وكلما مضت سنة عَلَى ملكه يزداد مراناً عَلَى هذه الفعال ويبالغ في الاحتياط لنفسه وغدا يتولى كل امر بذاته ويبعد ارباب الوجدان من رجال الدولة ويستعيض عنهم بأناس ممن يصطنعهم وما يصطنع الا الاسافل من كل جنس من اجناس الدولة لعلمه بانهم يفادون بكل مبدإ في سبيل نصرته عَلَى الباطل حتى آلت ازمة الدولة في العهد الاخير الى ايدي السفلة من اعوانه الجهلاء الطغاة الا قليلاً .

واذ كان مفطوراً عَلَى الطمع ويحسب ان المال يعمل كل شيء اخذ يملك الاملاك باسمه على خلاف عادة الملوك والسلاطين فكان كلما سمع بان في اقليم كذا اراضي من املاك الدولة يحتال لاخذها بلا ثمن ان كانت من الاملاك الاميرية او بثمن طفيف ان كانت للافراد ثم الف الشركة الخيرية لتسيير السفن في مواني الاستانة وشركة اخرى لحسابه بين البصرة وبغداد وفتح في العاصمة مخازن لبيع البضائع ومعامل لصنع السجاد وغيره وضارب بالاوراق المالية وهكذا اصبح عبد الحميد تاجراً مزارعاً مضارباً لايهتم بشيء من امر الملك الا اذا كان تقريراً من جواسيسه الذين كثروا في العاصمة والولايات كثرة ضاقت بها خزينة الامة وكلهم امناؤه ان اخطأوا فلهم الاجر وان احسنوا فحدث ولاحرج ان تحدث عما ينهال عليهم من انعامه واحسانه . حتى لقد قلَّ جداً في عماله من لم يتجسس له لاسيما بعد ان رأى الناس ان الترقي في الوظائف لايتأتى في الاغلب الا من طريق الجاسوسية

وبهذا استنزل غضب عقلاء الامة واحرارها وكان كلما بالغ في الضغط

عليهم واشتد في ارهاقهم واعناتهم بنمو عددهم بنمو الميل الى التعلم · فكانت مدارس الدولة ولاسيما العالية منها على شدة المراقبة عليها شدة لا يتصور العقل اكثر منها وعلى اصدار اراداته تترى لجمل المعارف صورية لا حقيقية — منبعث تلك الشعلة التي قضت على استبداده الذي لم يكد يعهد له مثيل في تاريخ الامم فزحزح المتخرجون فيها اسس الحكومة المطلقة المدمرة واقاموا مكانها على التقوى اساس الحكومة المقيدة المعمرة

عرف عبد الحميد ان بالمدارس والمطبوعات تستنير العقول فيقل الراضون عن حكمه فانشأ يضيق الخناق على المدارس حتى حظر ان يعلم فيها التاريخ وعلوم السياسة والاجتماع لانها ترقي العقل وتلقح الاذهان وتدعو الامة الى سبل الرقي والامان

ورأت المطبوعات منه ومن اعوانه الجهلاء خصوماً يكفي في نعتهم انهم اعداء كل فكر وارتقاء وتجديد حتى اصبح ما يطبع تحت السماء العثمانية في الثلثين الاخيرين من حكمه عبارة عن كتب خرافات وزهد وتلفيق او اماديح كاذبة له ولارباب المظاهر او اموراً عادية لا ترقي عقلاً ولا تزيل جهلاً · ووصلت المراقبة على المطبوعات في ايامه الى درجة من الهزل لم تصل اليها في امة مغلوبة على امرها فرفعت من المعاجم كثير من الالفاظ كالعدل والمساواة والقانون الاساسي والجمهورية ومجلس النواب والخلع والديناميت والقنابل واصبحت الجرائد ابواقاً تضرب بتقديسه وتأليهه والعياذ بالله او تكتب في التافه من الاخبار والافكار · جرى كل هذا برأيه ورضاه لا كما يزعم بعض من يريدون ان يتمحلوا له الاعذار الباردة من انها كانت من عماله ووزرائه وهو لا علم له بما يأتون ·

كثرت في الايام الحميدية انواع المذ المواصيح كما طال عهده يشتد في اعنات من يخالف له فكراً او يعرض له في الاصلاح امراً حتى صار بعض العقلاء من عماله يتظاهرون بالبله او ينقطعون عن الخدمة لان سلطانهم لا يرضيه الا ان يكونوا على قدمه في الظلم وارتكاب المنكرات . ولقد نصح له بعض سفراء الدول منذ بضع سنين ان يكف من شرور بعض العمال لان استرسالهم فيها ما يسقط شأن المملكة و يضر بمستقبلها فقال لهم وماذا اعمل مع من ذكرتم وهم يحبونني ويتفانون في خدمتي اي انهم في حل من عمل ما ارادوا من العسف في الامة ماداموا يظهرون له الحب و يخدمون اغراضه

اشتهر عبد الحميد بالحقد الشديد والحرص الاكيد والحدة المتناهية والاحتيال الذي ينطلي على ضعاف العقول فيقولون انه الدهاء والحكمة . وكانت هذه الاخلاق بادية عليه قبل ان يلي امر الامة حتى قال نابوليون الثالث فيه يوم رآه مع عمه السلطان عبد العزيز في باريز ان هذا الفتى سيجيء منه داهية باقعة فما هو الا ان قيض الله له الجلوس على سرير آل عثمان حتى صحت فراسة نابوليون فيه بل برز في هذا المضمار

كان السلطان عبد المجيد يحب ابنه مراداً اكثر من عبد الحميد لان هذا كان يبدو عليه الخبث منذ الصغر ولما ترعرع شرع يتجسس لعمه السلطان عبد العزيز على اخوته وآل بيته لينال منه الاحسان و يغلو في كشف عورات اخيه مراد خاصة وكانت تقاريره للسلطان عبد العزيز متصلة كتقارير جواسيسه في عهد سلطنته ولطالما كدره السلطان عبد العزيز على تشاغله بالسفاسف و يكفي في بيان الفرق بين اخلاق السلطان مراد واخلاق السلطان عبد الحميد ان الاول كان يعنى في صباه بالشعر والموسيقى ودرس

مدنية اوربا وتاريخها على حين كان اخوه لا همّ له الا درس السحر والطلسمات وضرب المندل واخذ الفأل و يتقرب لذلك من المشايخ والبله والدجالين

مضى ثلث قرن على الامة العثمانية وهي تفنى في سلطانها فناء جنون لافناء عقل وكنت اذا خلوت حتى بخاصته وصنائعه يحدثونك من تلاعبه واخلاقه ما تسأل الله معه السلامة وتسجل على فساد اخلاقنا اكثر من فساد احكامنا واعمالنا وكل منهم يورد لك من اسباب اضطراره الى الصبر على هذه الخدمة ماهو العجب العجاب

فبالاسراف في مال الامة استمال عبد الحميد قلوب الاغمار ممن تزيوا بزي العلماء وهم جاهلون فكانوا يكذبون على الله والناس و يذكرون لهم من صفات سلطانهم ما هو الزور البحت واذا فتح المنصفون افواههم بانتقاد اسكتوهم وحرموا انكار المنكر عليهم . وبالجواسيس اطلع على الدقيق والجليل من نيات الامة وما كان يهتم الا للامور الصغيرة ولا سيما ما كان منها متعلقاً بشخصه اما عمران البلاد وترقية معارفها وصناعاتها وزراعتها وتجارتها فلم يكن لها قيد في سجل اعماله .

وكفى في عدم احتفاله بامور الرعية واصلاح البلاد انه انسلخت عن جسم الدولة في ايامه المشؤومة بلغاريا والروم ايلي الشرقية ودوبروجه في رومانيا والجبل الاسود والبوسنة والهرسك وانضمت بعض الالوية للصرب ولليونان تساليا وابيروفارتا ولفرنسا تونس ولروسيا القوقاس وباطوم واردهان وقارص ونال الجبل الاسود استقلاله وانفصلت قبرص وكريت او كادتا واحتل الانكليز مصر وهكذا انفصل من جسم الدولة نحو ثلثيها بعدد النفوس والعمران

ماذا تستدعيه الامة من سيئات الدور الحميدي ونزع سلطة الحكم من الباب العالي وكانت من قبل فيه على شيء من العقل والقانون وانتقالها الى المابين يعبث بمصالح الامة الخصيان والجواري والجواسيس والدجالون والمرتشون والمنافقون والمتطبعون بطابع السياسة الحميدية ·

فقد كانت الوظائف والرتب والاوسمة ومظاهر التكريم تباع بالمزاد كما يباع العقار والدار ويقتنيها في الاغلب من لا يهمهم الا حظوظ انفسهم واملاء جيوبهم وبطونهم حتى هلكت البلاد ليغتني عبد الحميد والمتنفذون لرغائبه وافتقر الفلاح والصانع وهما مادة حياة الوطن واغتنت تلك الطائفة الفاسدة من الموظفين الذين سماهم غلادستون كبير وزراء انكلترا جماعة من اللصوص تألفوا في صورة حكومة ·

ولكم كان عمال عبد الحميد سبباً في اهراق دماء الابرياء ونزع روح الحياة الوطنية من الناس وما ننس لا ننس سياسة المابين في المذابح الارمنية والحروب اليمانية والكريتية وغيرها من الوقائع الاهلية التي القى بها السلطان الشقاق بين ابناء هذا البيت الواحد وفرق مجتمع القلوب عملاً بالقاعدة البادرة «فرق تسد» ولو عقل لجرى على قاعدة «اعدل تسد» ·

نعم كانت المدارس منبعث تلك القوة التي قضت على السلطة الحميدية بل على السلطة الاستبدادية في السلطنة العثمانية · وناشئة الامة الذين كان يحتقرهم السلطان المخلوع ويغويهم بالمال ويطمعهم بالمراتب والرواتب هم الذين دبروا بسلطان العقل اسباب الانقلاب الاخير في المملكة وغلبوا سلطان الجهل فكان يوم ١٠ تموز الماضي مبدأ سعادة العثمانيين وتاج الايام وغرة الشهور والاعوام ·

كان الصدر محمود نديم باشا يقول للسلطان عبد العزيز ان بعض الوزراء يخوفونك بالامة وما الامة الا كمن تراهم يمشون هناك (واشار الى جماعة من فلاحي الاناضول) ومثلهم لا يميز ولا يعقل فاصنع ما بدا لك فانتهى الامر بخلع ذاك السلطان وقتله . وكان احمد عزت باشا العابد يحقر للسلطان عبد الحميد امر الامة ويزين له البطش ويقول له ان المسلمين لا يعرفون غيرك خليفة وسلطاناً ورباً صغيراً فاحكم فيهم بحكمك فهم عبيدك لا ينازعك في التصرف فيهم منازع الاحرار افراد طائشون . صم اذنك عن سماع خيالاتهم ودعهم يعوون ولا يضر عواء الكلاب بالسحاب . اما حكومات اوربا فامرها الى التفاشل ان اتحدت كلمتهن لا قبل لنا بدفعها وما دمن متخاذلات فنحن في مأمن . وهكذا جرى السلطان المخلوع في دوره الاخير على هذه السياسة الخرقاء فكانت سبباً في نزع السلطة الاستبدادية من يده يوم ١٠ تموز الماضي وانزاله عن العرش يوم ١٤ نيسان

يئس الناس من الخلاص من جور هذا السلطان الا بموته ولكن تلك النفوس الكبيرة من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي التي احتك معظم اعضائها بالاوربيين وبلادهم قطعة من اوربا ابت ان تضيع ملك بني عثمان بالاهمال والتواكل فاضطرت عبد الحميد الى اعلان القانون الاساسي في الصيف الماضي مرغماً ولما لم تطب نفسه لما جرى وانشأت تحدثه باعادة الدور السالف لتكون الاحكام طوع امره ونهيه وهو الحاكم المتحكم في الاموال والاعراض والارواح يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل اخذ يوقد نيران الفتن بين الامة ليقول لها وللاجانب ان العثمانيين لا يليق لحكمهم الا الحكم الاستبدادي

ثم احتال للتفريق بين عناصر الدولة اولاً واغواء بعض الخونة من رجاله

بالمال ليبثوا دعوته فتألفت جمعيات عناصر بعد اعلان الحرية ولكل منها نزعة خاصة . يريد الارمن توسيع الاختصاص « المأذونية » او الاستقلال النوعي بعبارة اخرى والعرب ينادون بان الترك غمطوهم حقوقهم وهم يريدون ان يشاطروهم الوظائف او ينفصلون عن الدولة وبعض الارناؤود يدعون الى مثل دعوة الارمن . ولما رأى السلطان ان الامة انتبهت لردهذه الترهات وقام العقلاء يحاربونها شرع يسلك سبيلاً آخر ويحرك عامة المسلمين باسم الدين بواسطة جمعية الفها في الاستانة دعت نفسها بالجمعية المحمدية تطالب بالشريعة الاسلامية ولا تريد القانون الاساسي لانه بزعمها مخالف للاسلام ومن قواعده الحرية والحرية ليست من شأن الدين المحمدي . وهكذا ألفت لهذه الجمعية فروع في الولايات تهيج العامة باسم الدين وتربطهم بالسلطان وذلك على يد زعانف كان للمال الذي بذله تأثير عظيم في نفوسهم ونفوس الغوغاء

كاد عبد الحميد لامته بتدبير الفتنة المحمدية بل بالفتنة العسكرية فعصت جنود الاستانة الا قليلاً بما بذله لهم من الذهب الوهاج ولم ير اعوانه الذين اثاروا الجند واسطة لاضاعة رويتهم احسن من اسكارهم فاسكروهم ليلة الفتنة وفرقوا عليهم الذهب الكثير الذي جمعه من دماء الفقير ليقوموا بالمطالبة باعادة الشرع المحمدي او يوقدون نيران مذبحة عامة يقتل فيها احرار الامة اولاً ثم الاقرب فالاقرب من رجال الاصلاح والتجديد ولو وفق عبد الحميد لاستعادة سلطته الاستبدادية وتمت له مكيدته الشيطانية لما هلك في هذه الفتنة الاهلية في انحاء السلطنة اقل من مليوني رجل كما وقع في ثورة فرنسا الاولى

ولكن الله اراد لهذه الامة الخير وقيض لها من رجال الدستور المتفانين في الاحتفاظ به من كان اخلاصهم الداعي الاكبر في نجاحهم فقامت بعض ولايات الروم ايلي على ساق وقدم تطلب التطوع في الجندية للدفاع عن الدستور وهب جند الفيلق الثاني والثالث اي ادرنة وسلانيك — ومنهما انبعثت جذوة الحرية اول مرة — وزحفا في جموع المتطوعة على الاستانة بقيادة البطل المغوار محمود شوكت باشا الفاروقي البغدادي فاستوليا على المواقع الحربية في العاصمة في اسبوع وقبضوا على المتقضين والعصاة من الجند المشاغب وخلعوا السلطان عبد الحميد مدبر تلك المكايد بفتوى من شيخ الاسلام اثبت عليه فيها قتل الانفس البريئة ومخالفة الشرع وحرق كتب الاسلام والاسراف في مال الامة وبايعوا باتفاق مجلس النواب والاعيان لولي عهده السلطان محمد الخامس وساقوا ذاك الذي عبث بمصلحة العثمانيين الى قصر الاتيني في ضاحية سلانيك ليجري عليه ما جرى على كل سلطان مخلوع خان امته ودولته بدون ان يلحقوا به اهانة · فحق للدولة والامة ان تدعو بدوام نصر الجيش العثماني المظفر لانه كان سبب حياتنا اليوم ولطالما كان هذا الجيش سبب رفع هذه الدولة العلية كما كان في بعض الادوار سبب خفضها

اعلن جيش الدستور الاحكام العرفية اي عطلت القوانين الموضوعة وجعلت العاصمة تحت الاحكام العسكرية ريثما يستتب الامر لجيش الفاتح محمود شوكت باشا ويفتك بمن اضاعوا دينهم ودنياهم بممالأة السلطان المخلوع على رغائبه فشنق كثيرون ممن كان لهم ضلع في تشويش نظام الامة واهاجة العامة باسم الشريعة وحكم على بعضهم بالاشغال الشاقة وعلى البعض

الآخر بالنفي وهكذا تمت الغلبة لكلمة الحق على الباطل وكتب البقاء للحكم النيابي في السلطنة آخر الدهران شاء الله

فكرنا ملياً في امر عبد الحميد واردنا ان ننصفه في الترجمة فما رأينا له مزية يذكر بها ويرحم . بلى وجدناه حسوداً يحسد حتى خصيانه واشق خبر يترامى اليه ان يعلم بان في احدى اطراف مملكته عالماً ينفع الناس بعلمه فيحتال عليه ليأتي به الى الاستانة ليدفنه حياً فان لم يقدر فلا ايسر عليه من التقول عليه وتزوير حيلة للانتقام منه والحط من كرامته . وكان اذا عزّ لا يلحق غباره نمرود وفرعون واذا ذل بذله يكون للادنياء غالباً ينسى منزلته ومقامه . وكان يلذه جداً ان يشهد الشقاق مستحكماً بين حاشيته ويلقي بينهم العداوة والبغضاء . وفي ايامه كثر اختلاف النساء الى قصره حاسرات متبرجات بدعوى انه خليفة وللخليفة ان ينظر الى المحارم ولا حرج عليه وعليهن ولهذا اخترع لهن وسام الشفقة . ولعل بعض من درسوا الاخلاق الحميدية عن أمم يكتبون كتاباً مفصلا فيها ليقرأ الاخلاف عن الاسلاف ما فعلته في ذاك المخلوع قلة التربية والعلم وفساد الفطرة والله اعلم

في سلانيك

لقد سمعوا من الوطن الانينا	فضجوا بالبكاء له حنينا
وناداهم لنصرته فقاموا	جميعاً للدفاع مسلحينا
وثاروا من مرابضهم اسوداً	بصوت الاتحاد مزمجرينا
شباب كالصوارم في مضاء	يرون وكالشموس منورينا

سلانيك الفتاة حوت ثراءً بهم فقضت عن الوطن الديونا
لقد جمعوا الجموع فمن نصارى ومن هود هناك ومسلمينا
فكانوا الجيش ألف من جنود مجندة ومن متطوعينا
تراهم فيه متحدين عزماً وماهم فيه متحدين دينا
هي الاوطان تجعل في بنيها اخاءً في محبتها رصينا
وتتركهم اولي انف كبار يرون حياة ذي ذل جنونا
وان الموت خير من حياة يظل المرء فيها مستكينا

***

مشوا والوالدات مشيعات خرجن وراءهم والوالدونا
يقلن وهن من فرح بواك وهم من حزنهم متبسمونا
علَى الباغين منتصرين سيروا وعودوا للديار مظفرينا
ولا تبقوا الذين قد استبدوا وراموا كيدنا وتخونونا
فان لم تنقذوا الاوطان منهم فلستم يابنين لنا بنينا
فقد هاجوا علَى الدستور شراً بدار الملك كي يستعبدونا
هم الاشرار باسم الدين قاموا فعاثوا في المواطن مفسدينا
فما تركوا من الدستور (شورى) ولاابقوا لنغمته (طنينا)

***

وكم قد قلن من قول مُهيجٍ لهم فتركنهم متهيجينا
ومذ حان الوداع دنون منهم فقبلنا الصوارم والجفونا
وما انسى التي برزت وقالت وقد لفتوا لرؤيتها العيونا
الا يا راحلين لحرب قوم لئام ضيعوا الوطن الثمينا

خذوني للوغى معكم خذوني   ممرضة لجرحاكم حنونا
وان لم تفعلوا فخذوا ردائي   به شدوا الجروح اذا دمينا

***

ولما جد جدهم استقلوا   عَلَى ظهر القطار مسافرينا
فطاروا في مراكبه سراعاً   باجنحة البخار مرفرفينا
وظل الجيش صبحاً او مساءً   تسير جموعه متتابعينا
فلم يتصرّم الاسبوعِ الا   وهم بربى فروقٍ مخيمونا
هنالك قمت مرتحلاً اليهم   لابصر ما اؤمل ان يكونا

***

وباخرة علت في البحر حتى   حكت بعبابه الحصن الحصينا
يؤثر جريها في البحر إثراً   تكاد به تظن الماء طينا
فتترك خلفها خطّاً مديداً   بوجه البحر يمكث مستبينا
ركبت بها عَلَى اسم الله بحراً   غدا بسكون لجته رهينا
فرحنا منه ننظر في جمال   يعز عَلَى الطبيعة ان يهونا
ومرأى البحر احسن كل شيء   اذا لبست غواربه السكونا
كأنك منه تنظر في سماء   وقد طلعت كواكبها سفينا

***

أتينا دار قسطنطين صبحاً   وقد فتحت لهم فتحاً مبينا
وظل الجيش جيش الله يشفي   بحد سيوفه الداء الدفينا
فارهق انفس الطاغين حتى   سقاهم من عدالته المنونا
ورد الخائنين الى جزاء   احلهم المقابر والسجونا

وحطوا قصر يلدزعن سماء		له فانحط اسفل سافلينا
واصبح خاشع البنيان يغضي		عيوناً عن تطاوله عمينا
خلا من ساكنيه وحارسيه		فلم تر فيه من احد قطينا
هوى عبد الحميد به هوياً		الى درك الملوك الظالمينا
ونزل عن سرير الملك خلعاً		وافرد لا نديم ولا قرينا
فسيق الى سلانيك احتباساً		له كي يستريح بها مصونا
ولكن كيف راحة مستبد		غدا بديار احرار سجينا
يرام حول مسكنه سياجا		ويعجز ان ينيم لهم عيونا
وموت المرء خير من مقام		له بين الذين سقوه هونا

***

لقد نقض اليمين وخان فيها		فذاق جزاء من نقض اليمينا
وقد كانت به البلدان تشقى		شقاء من تجبره مهينا
فكم اذكى بها نيران ظلم		وكم من اهلها قتل المئينا
وكان يدير من سفه رحاها		بجعجعة ولم يرها طحينا
وقد كانت به الايام تمضي		شهوراً والشهور مضت سنينا
ولما ضاق صدر الملك يأسا		وصار يردد الوطن الانينا
اتى الجيش الجليل له مغيثاً		فصدق من بني الوطن الظنونا
واضحي سيف قائده المفدى		على الدستور محتفظاً امينا
حماه من العداة فكان منه		مكان الليث اذ يحمي العرينا

واسقط ذلك الجبار قهراً وانباه بصارمه اليقينا
فقرت اعين الدستور امناً وشاهت اوجه المتمردينا

معروف الرصافي

الجباية في الاسلام

الصدقات ورسم التعداد

لما كانت الحكومة متعهدة بحفظ راحة الامة وحياتها ومالها وعرضها حق لها ان تأخذ من الامة اجرة خدمتها وقيامها بما تعهدت به نحوها باسم ضرائب وتكاليف اميرية غير ان الحكومة المطلقة كحكومتنا قبل ارجاع الدستور الى احكامه اعتبرت الضرائب من حقوقها الاستعبادية وعلى ذلك بنت قواعدها واستحلت اية ضريبة كانت واذا ازالت ضريبة من ضرائبها فللترت واعتبرت عملها كرماً منها على الرعية وكانت الاراضي يومئذ تعد من جملة الغنائم التي غنمها السلاطين والامراء ولذلك ادعت الحكومة العثمانية ان جميع الاراضي ملك لبيت المال الا ما كان ملكاً صريحاً فقسمت الاراضي على خمسة انواع وهي اراضٍ مملوكة واراضٍ موقوفة واراضٍ اميرية واراضٍ متروكة واراض موات ٠

فاما الاراضي المملوكة فهي التي يتصرف بها مالكها كيفما شاء فيبيعها ويقفها ويرهنها ويوصي بها ويحولها الى بناء وبساتين وكروم من غير ان يستأذن فيها احداً وتجري عليها احكام الشفعة وغيرها من احكام الملك وهي على اربعة انواع : النوع الاول العرصات في القرى والاراضي التي عدت من تتمة السكنى. النوع الثاني الاراضي التي افرزت من الاراضي الاميرية وجعلت ملكاً صحيحاً على انواع وجوه الملكية الصرفة وبني تمليكها على المساغ الشرعي ٠ النوع الثالث الاراضي العشرية. النوع الرابع الاراضي الخراجية فرقبة هذه الاراضي الاربعة يملك مالكها وهي كالاموال والعروض يرثها الورثة الشرعيون وتوقف وترهن وتجري عليها الهبة والشفعة وسائر احكام الملك كما هو مصرح في مجلة الاحكام الشرعية والكتب الفقهية ٠

واما الاراضي الاميرية فهي التي أُحيلت وفوضت للاشخاص عَلَى شروط ان تبقى رقبتها لبيت المال كالاراضي والمروج والمحال التي يقال لها «يايلاق» منزل صيفي و«قيشلاق» منزل شتوي والحراج التي تركت للاحتطاب والمراعي امـا المنازل الصيفية والمنازل الشتوية والغابات والمراعي والبيادر التي تركت لقرية او قرى متعددة اوقصبة فهي من الاراضي المتروكة ·

واما الاراضي الموقوفة فهي قسمان القسم الاول الاراضي المملوكة التي وقفت عَلَى الوجه الشرعي ويقال لها اوقاف صحيحة فجميع احكامها تابعة لشرط الواقف والقسم الثاني الاراضي المفرزة من الاراضي الاميرية التي وقفها السلاطين العظام او وقفت باذن سلطاني فهذه كالاراضي الاميرية في جميع احكامها ولم يمش الوقف الا عَلَى اعشارها ومنافعها الاميرية ·

واما الاراضي المتروكة فهي قسمان القسم الاول : الاراضي التي تركت للناس كافة كالطريق العام والاسواق والمرافىء والمساجد والمتنزهات والميادين العامة · والقسم الثاني الاراضي التي تركت لاهالي قرية او قصبة او لعامة الاهلين في القرى او القصبات المتعددة كالمراعي والمنازل الصيفية والمنازل الشتوية والحراج للاحتطاب ·

واما الاراضي الموات فهي الاراضي الخربة التي لم تحرث ولم تزرع وبعيدة عن اقصى العمران ·

ولو نظرنا قانون الاراضي ومعاملات الطابو وما تجري عليه المعاملات لوجدنا الحكومة العثمانية تدعي ان جميع الاراضي الخراجية والعشرية والاميرية والوقفية (ما عدا الاوقاف الصحيحة والاراضي المملوكة) والمتروكة والموات كلها ملك بيت المال وليس لمتصرفيها الا التصرف بها والانتفاع منها غير انها سمحت بتناقلها عَلَى حسب قانون الانتقال ولم تحدد مدة التصرف والانتفاع بها تهاونت عَلَى عمرانها ولهذه الاسباب عدت الاعشار وضرائب الاملاك اجرة اراضيها واملاكها لا اجرة خدمتها للشعب وعَلَى هذا النظر انشأت القواعد والقوانين عَلَى ان اكثر البلاد واخص بالذكر منها سورية لم تفتحها الحكومة العثمانية عنوةً بل ان اهلها استقبلوا السلطان سلماً بالترحاب واقروا له بالملك لما كانوا يرونه من ظلم ملوكها حينئذ.

ولقد ابنت في المقدمة ان مؤسسي الدولة الاسلامية لما فتحوا البلاد وصالحوا اهلها تركوا الاراضي بايديهم واقتصروا عَلَى الخراج اجرة القيام عَلَى ذمتهم ومن هنا يتضح ان

الاراضي السورية والعراقية اراض خراجية اي من الاراضي المملوكة الا ما ملكه غزاة المسلمين في صدر الاسلام وتقاسموه ايام الفتوحات الاسلامية وبعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل ان السبب في جعلها اراضي اميرية لان اصحابها ماتوا بلا وارث واصبحت محلولة فتملكها بيت المال وجعلها اراضي اميرية عَلَى ان العاقل يستبعد موت اهالي العراق قاطبة واهالي سورية طراً وما شاكلها عن غير وارث يرثهم فتغدو الاراضي محلولة باجمعها ولم يكتب لنا المؤرخون عن ذلك شيئاً ولذلك اعتقد ان اراضي سورية والعراق وما شاكلها من الاراضي الخراجية اراض مملوكة يجب ان تكون ملك صاحبها ولا يسعني التفصيل هنا لئلا ابعد عن الموضوع وسبب ذكر انواع الاراضي تمهيداً لجرح ما قيل من جواز اخذ الضريبة عن المواشي

وذلك ان الحكومة العثمانية لما كانت مالكة لرقبة الاراضي والغنم والدواب ترعى في بقعة من تلك الاراضي التي تنبت عشباً وان محصول الاراضي الاميرية تدفع العشر من محصولها بدل الايجار وجب عَلَى من رعى الارض ان يدفع عشر العشب والكلاء بدلاً من ايجارها نظيران العشب تأكله الدواب وان الدواب تثمر ولها ريع وثمرها وريعها يتوقفان عَلَى الرعي فقد لزم اخذ عشر العشب ضريبة عَلَى المواشي وعليه رفع العشر ومنعت الضرائب عن المراعي عَلَى ان المراعي والبيادر والخراج المتروكة للاحتطاب ومحال الاسواق والطرق العامة عدت من الاراضي العمومية المتروكة للرعية التي لا يجب اخذ ضريبة عنها الا ما كان مقيداً بالدفتر الخاقاني بان يدفع ضريبة وما كان من الاماكن التي تعد « يايلاقًا » او «قيشلاقًا» وخصص لقرية او قرى متعددة فتؤخذ عَلَى ذلك ضريبة يقال لها يايلاقية وقيشلاقية بحسب قانون الاراضي

بيد ان المواشي التي ترعى في المراعي العمومية والتي لم تكن عليها ضريبة والتي ترعى في المنازل الصيفية والمنازل الشتوية وما شابهها بل حتى التي ترعى في اراضي صاحبها تدفع ضريبة التعداد وقيل ايضاً لما كان تعيين عشر العشب صعباً رأوا ان يؤخذ العشر ممن رعى الارض بصورة ضريبة عَلَى المواشي فجعلوا في بادىء الامر رسم التعداد عشر الدواب اي نعجة عن كل عشر نعاج او شاة عن كل عشر شياه فلو اردنا ان نعرف ضريبة المواشي عَلَى حسب هذه التفصيلات لقلنا انها عشر العشب غير ان السبب الحقيقي في اخذ هذه الضريبة غير ما ذكرناه لان الاصل في دعوى ملك الارض فاسد وعَلَى ذلك يكون الفرع فاسداً

ولما كانت الحكومات تحمل الامة ما تحتاج اليه من نفقة وتأدية ديون وارادت ان توزع تلك النفقات والديون تَلَى ضرائب متنوعة ليخف حملها عَلَى الامة جعلت عَلَى المواشي قسماً بدعوى ان المواشي واصحابها تستفيد من خدمة الحكومة في حفظها من الغارة والنهب واليك التفصيل :

لو كان لرجل ارض لا تعادل قيمتها اكثر من الف قرش وليس عنده سوى عشرين رأساً من الماعز وحسبناها يدفعه للحكومة سنويًا حسب الجدول الآتي لبلغ مجموع ما يدفعه ستمائة وثمانية وثلاثين قرشاً صحيحًا

الجدول

غروش		
٠١٠	خراج اراض	اذا كان متساهلاً معه
٠١٢	خراج الدار	
٢١٢	عشر الاراضي اذا كانت مقبلة	
١٠٨	رسم تعداد الماعز مع ورق طوابع	
٠٥٠	رسم كرك ملابسه وملابس عائلته	
٠١٦	بدل طريق	
٠١٠	رسم باج بقر او خيل	
١٠٠	اعانة غير مقننة عَلَى الاقل	
٠٥٠	مخابرية للمختار	
٠٥٠	رسم دخان اذا كان يدخن دخانًا مهربًا	
٠١٠	ورق طوابع	
٦٣٨	المجموع	

فلو اضفنا مقدار الربا والعوائض الفاحشة التي يدفعها صاحبنا هذا لعلمنا السر في بقائه مديناً ابد الدهر ولئن ارادت الحكومة ان تأخذ من كل فرد من الرعية ما اصابه فالمو طلبت من صاحبنا هذا مثلاً (٦٣٨) قرشاً دفعة واحدة لطار عقله وصرف ذهنه الى الامتناع واستعد للعصيان واذا استعدت النفوس لذلك قامت في وجه الحكومة وشقت عصا الطاعة ولكن لما كانت هذه الضرائب موزعة بين ان تؤخذ من الافراد مباشرة تحت

اسماء متنوعة وبين ان تؤخذ بالواسطة كرسم المكوس«كمرك» والدخان والملح فلا يشعر بثقلها احد وهذه الحكمة في اخذ ضريبة المواشي ولهذا تؤخذ هذه الضريبة تحت اسم خدمة الحكومة لحفظها من التعدي والنهب والسلب وهذا ما اصاب المواشي من نفقات الحكومة وديونها وبعد ذلك ارى ان المراعي والاراضي للامة لا للحكومة لان الحكومة هي الامة فلا فرق بين الامة والحكومة والخزينة هي خزينة الامة ويظهر مما تقدم ان للحكومة ان تطرح ضريبة عَلَى الماشية

بقي علينا ان نبحث في كيفية تلك الضريبة لتكون عادلة :

سمى الامام ابو يوسف رضي الله عنه الضريبة المذكورة بالصدقات اي الصدقة في المواشي فقال « سمعنا حديثًا عن الزهري عن سالم بن عمر رضي الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب كتابًا في الصدقة فقرنه بسيفه او قال بوصيته فلم يخرجه حتى قبض صلى الله عليه وسلم فعمل به ابو بكر حتى هلك ثم عمل به عمر قال فكان فيه في كل اربعين شاة شاة الى عشرين ومائة (٤٠ — ١٢٠) فاذا زادت فشاتان الى مائتين فاذا زادت فثلاثة شياه الى ثلاثمائة فاذا زادت ففي كل مائة شاة شاة وليس فيها شيء حتى تبلغ المائة وفي خمس من الابل شاة وفي عشر شاتان وفي خمسة عشر ثلاث شياة وفي عشرين اربع شياه وفي خمس وعشرين بنت مخاض الى خمس وثلاثين فان زادت ففيها ابنة لبون الى خمس واربعين فان زادت ففيها حقة الى ستين فان زادت ففيها جذعة الى خمس وسبعين فان زادت ففيها بنتا لبون الى تسعين فان زادت ففيها حقتان الى عشرين ومائة فان زادت عَلَى عشرين ومائة ففي كل خمسين حقة وفي كل اربعين بنت لبون ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع » اه

وعن علي رضي الله عنه وابراهيم النخعي وابي حنيفة انه اذا كثرت الابل ففي كل خمسين حقة وكذلك الغنم اذا كثرت ففي كل مائة شاة شاة وليس في اقل من ثلاثين بقرة من البقر السائمة شيء فاذا كانت ثلاثين ففيها تبيع جذع الى تسع وثلاثين فاذا كانت اربعين ففيها مسنة فاذا كثرت ففي كل ثلاثين تبيع جذع وفي كل اربعين مسنة وفعل معاذ في اليمن مثله واما الخيل فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد عفوت لأمتي عن الخيل والرقيق » وقال ابو يوسف قد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نقله الينا رجال معروفون انه « قال تجاوزت لأمتي عن الخيل والرقيق » وقال عن سفيان بن عيينة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « تجاوزت لكم عن صدقة الخيل والرقيق » وقال

ابو يوسف فاما الابل العوامل والبقر العوامل فليس فيها صدقة وشرط ابو يوسف في اخذ الصدقة شروطاً فقال « واما ما يؤخذ في الصدقة من الغنم فلا يؤخذ الا الثني فصاعداً ولا تؤخذ في الصدقة هرمة ولا عمياء ولا عوراء ولا ذات عوار فاحش ولا فحل الغنم ولا الماخض ولا الحوامل ولا الربي وهي التي معها ولد تربيه ولا الأكيلة وهي التي يسمنها صاحب الغنم ليأكلها ولا جذعة فما دونها فان كانت فوق الجذع وما دون هذه الاربع اخذها المصدق وليس لصاحب الصدقة ان يتخير الغنم فيأخذ من اخيارها ولا يأخذ من شرارها ولا من دونها ولكن يأخذ الوسط من ذلك عَلَى السنة وما جاء فيها ولا تؤخذ الصدقة من الابل والبقر والغنم حتى يحول عليها الحول والمعز والضأن في الصدقة سواء .

فتبين مما نقدم ان الشارع عليه الصلاة والسلام نظر في قيم المواشي الحقيقية وايرادها الحقيقي لتكون الصدقة متناسبة مع الايراد الحقيقي ثم ان الصدقة (او رسم التعداد) هي شرعاً واحد من اربعين اي اثنان ونصف من مائة فلو نظرنا الى ربع الغنم وربع البقر وربع الابل وحسبنا الصدقات لم نجد تفاوتاً بين قيم الصدقات مثلا فقد جعل عليه السلام شاة عَلَى الاربعين شاة وشاة عَلَى الخمسة من الابل فاذا حسبنا قيمة الاربعين شاة وجدناها نحو اربعين ليرة بسكة زماننا ووجدنا قيمة الخمسة من الابل المتوسطة بحسب السوق نحو الاربعين ليرة فتكون الصدقة في الابل والضأن ليرة من اربعين عَلَى ان الشارع لم يأخذ الصدقة من دون الاربعين شاة والخمس من الابل رحمة بالفقراء اه

واما رسم التعداد النظامي الذي قام مقام الصدقات الشرعية فقد كان من قبل واحداً من عشرة ثم انقلب الى الرسم فصار اربعة قروش صحيحة عن كل دابة من معز وضأن فان كان عند رجل مائة وعشرون رأساً من الضأن وجب عليه دفع اربعمائة وثمانين قرشاً صحيحاً رسم تعداد وتسعة وعشرين قرشاً صحيحاً ونصفاً للتجهيزات العسكرية وقرشاً صحيحاً ثمن ورقة سكة حجاز ونصف قرش ثمن طوابع فتبلغ الصدقة عن المائة والعشرين رأساً (٥١١) قرشاً صحيحاً اي نحو خمس ليرات ونصف ريال مجيدي واما الصدقة الشرعية في هذه المائة والعشرين فهي شاة متوسطة لا تعادل قيمتها ليرة فصار رسم التعداد ستة اضعاف الصدقة الشرعية في الضأن واما الماعز فعلى المائة وعشرين رأساً منها كذلك (٥١١) قرشاً صحيحاً وهذا بمقام شاة من الماعز المتوسط وثمن الماعز المتوسط لا يتجاوز الثلاثة ريالات اي ٥٧ قرشاً صحيحاً فيكون رسم التعداد عشرة اضعاف الصدقة في الماعز وهذا منتهى الظلم فقد اتضح لنا ان الفرق بين الصدقة الشرعية والضريبة الرسمية

عظيم جداً وكنا ذكرنا في المقدمة انه يجب عَلَى الحكومة ان تستوفي رسم التعداد عندما يكبر نسلها و يبيعه صاحبها ليدفع الرسم من ريع ماله غير ان القانون الجاري حتى الآن يجبر اصحاب المواشي عَلَى دفع الضريبة في آذار او نيسان اوقبل آذار حينما تكون الخراف والحملان صغيرة لا تباع فيضطر صاحب المواشي الى الاستدانة بارباح فاحشة فيكون تحمل الضريبة مضاعفة ضريبة التعداد وفائضها فيصبح رسم التعداد عشرين ضعفاً من الصدقة الشرعية وهذه الضريبة الفادحة دفعت الاهالي الى الاحتيال وتهريب الغنم والماعز لانهم استكثروا الرسوم واعتقدوا انها ظلم صراح لا صدقة شرعية فاثار هذا التهريب طمع القائمقامين والمتصرفين ومأموري المال فصاروا يبيعون مأموريات التعداد بدراهم معدودات ولا يخفى عَلَى اولي البصيرة ان مأمور التعداد الذي لا تزيد اجرته عَلَى اربعمائة قرش لا يدفع خمسين ليرة من اجل ان ينال تلك الوظيفة الا اذا كان يعتقد تحصيل مائة ليرة والمائة لا تؤخذ الا من افراد متعددين فيضيع عَلَى الخزينة اكثر من مائتي ليرة وعَلَى ذلك فقس المملكة باجمعها تجد الحكومة قد اضاعت مبالغ تعادل ما اخذته فوق الصدقة الشرعية ولم تربح الا شيئاً قليلا غير انها حملت الامة اثقال الضرائب والظلم هذا اذا صرفنا النظر عما يذبحه الموظفون من الخراف فتخسر الامة مبالغ غير مشروعة بسبب انحراف الحكومة عن احكام الشريعة انحرافاً كلياً

ولما كانت القاعدة المشئومة تزيد واردات الخزينة بأي صورة كانت من اجل ان تصرف عَلَى بذخ الظالمين في الاستانة وكان بعض القائمقامين والمتصرفين يخشون نقص عن البدل السابق انشأوا يضيقون عَلَى مستخدمي التعداد ليأتوا بزيادة الواردات يحملون الفقراء العاجزين ما ينقصونه عن الاغنياء فتبلغ ضريبة اغنام الفقراء اضعاف اضعاف ضريبة اغنام الاغنياء وارباب السطوة والصولة ولهذا فقد نقص رسم تعداد الاغنام عَلَى توالي الايام نحو اربعمائة الف ليرة في المملكة كما انـه قل الخير وهجر الغنم اصحابها وقل اعتناؤهم وقلت المواشي فارتفعت اثمان اللحم والسمن وضاق امر المعاش

ولو نزلت الضريبة الى حد الصدقات وفرقت الحكومة بين الضأن والماعز وعدلت في رسم تعداد البقر والابل المسومة لتنفس الاهالي وهانت عليهم الضريبة واعتقدوا انها فرض ديني فلا يخفون ولا يهربون مواشيهم بسبب قلة الضريبة واداء الفريضة فحينئذ يرغب الناس في تكثير الغنم والمعز واصلاحها لكثرة ريعها ووفرة ارباحها فيكثر السمن والصوف والشعر فتسهل المواد الصناعية الابتدائية ويخرج ذلك الى الممالك

الاجنبية فستفيد الخزينة من تمتع التجار والصناع ورسم الكرك (المكوس) ويرخص السمن واللحم فتتسع عَلَى الناس معايشهم ونقوى عَلَى العمل اجسامهم وقد وقفت عند هذا القدر ريثما يتم النظام الجديد وسأعود الى البحث اذا دعت الحاجة والله الموفق

شكري العسلي

ضراء العلماء

٢

بين هذا الجيل الناشيء نفرٌ لم يكتب لهم الوقوف عَلَى حضارة المشرق وآدابه بل غاية ما وصلت اليه افهامهم من البحث والتدقيق أخذهم بغثاء العلوم الغربية الحديثة فقط فراحوا وهم ثملون بحثالة تلك الثمالة يهرفون بما لا يعرفون زاعمين ان المشرق وحده منبعث الاعمال البربرية كما ان البعض حتى من علماء المغاربة يصورون الشرقي ذلك «الغر المجرد» والعربي ذلك الذي يخوض بحاراً من رمال محرقة واشعة الشمس المذابة قطراتها تنصب عليه فتصهر رأسه في فضاء صحاري جرداء تكاد لا تتناهى...

ولو تهيأ لذلك العربي ما تهيأ للغربي من التربية والبيئة (المحيط) وتكاثر الوسائل والوسائط ما كان مدعاةً للتأثير في اخلاقه وافكاره وخيالاته وقوته العقلية وطبيعته الحيوية الخ... لاستعاض عن ظلال الخيام التي كان يستحضر في زواياها [1] بدور الكيمياء ذات البنيان الضخم والمعامل الكبيرة ولكانت له ضفاف الانهار مباءة يتفيؤ ظلالها الخضراء.

ولقد رأينا العرب لما اختلفت عليهم مؤثرات التربية والبيئة وأنشأوا يدوخون الممالك ويمصرون الامصار أُمة ناهضة بلغت في التحضر والتمصر شأواً بعيداً وضربت في المدنية والعمران بسهم وافر. ونبغ بين ظهرانيهم من الدهاة من الفوا في العلم والاجتماع والادبيات عَلَى اختلاف ضروبها فبرز الكندي وجابر الكوفي والطوسي وابن رشد وابن

(١) جابر الكوفي الكيماوي العربي المشهور

سينا والفارابي وابن ابي اصيبعة وأشمر قندي في الرياضيات والطب والفلسفة والغزالي والرازي وابن حزم وابن باجة وابن خلدون والمتنبي والمعري في الاجتماع والتاريخ والاخلاق والشعر وأخذ العظماء من الامراء يسرفون في انشاء معاهد العلم في بغداد وسمرقند والشام والاقطار الاخرى وعهدوا وظيفة التعليم الى من تألقت شهرتهم في العلم في ذلك العصر مما يدل عَلَى نهضة علمية كبرى نشأت في المشرق بقي من آثار القائمين بها اطلال بالية ومن نتائج قرائحهم بقايا ملئت بها مكتبات المشرق والمغرب عَلَى كثرة ما عداها من عوادي الايام

ألا وإن الامم تسير في تقدمها وتأخرها عَلَى نواميس عامة قد لا تختلف في الغالب إلا بقدر الاستعداد الفطري وتأثير الاقليم · وما يصح ان يقال عن تلك الامم من الاعمال البربرية ان هو الا امر طبيعي لا بد من وقوعه بين اي شعب أسفر للانحطاط في العلم واخلد للجمود في الدين

***

مر عَلَى أوربا من ادوار الظلم والظلمات ما سجل لنا التاريخ من آثارها في الأمم الغربية ما يصح ان يكون عبرة همجية وذكرى سوء · وذلك في الغالب يرجع الى عوامل ثلاثة كانت علة العلل لما نجم عنها من سقوط وصعود : الملوك ورجال الكنيسة والنبلاء · أما النبلاء : فلم يؤثر عنهم في الأعم الاغلب من حالهم سوى انهم كانوا يسعون وراء تأييد نفوذهم ونيل مشتهياتهم وملذوذاتهم بأية طريقة كانت سواء دعا سعيهم هذا الى اهراق دماء الشعب وابتزاز امواله واكتساح الاراضي الشاسعة من مستعمراته او الى مقاومة الملوك اذا آنسوا منهم ما لا ينطبق عَلَى ما ينزعون اليه من حب السلطة والجاه الذي كان دينهم وديدنهم حتى اتيح لهم نفوذ قوي كان لهم عونًا في عامة ما تذرعوا به من الذرائع لحفظ سلطتهم واحرازهم ميزةً عَلَى غيرهم من بني البشر حتى في المحاكم ومسائل القضاء ·

واما الملوك: فان استئثارهم في الملك واغراقهم في البذخ والترف حملهم عَلَى مبالغتهم في الارهاق والعسف واتيانهم كل امر منكر لمطاردة قادة الافكار من رجال الامة فكان الملك يذيب ايامه ولياليه التي كان يجب ان يقضيها فيما يعود عَلَى الامة والوطن بالمصلحة العامة في اختراع صنوف الحيل والدسائس تارة وفي احلام الموبقات مرة اخرى فمن شنطنة اقداح الى إراقة ابتسامات بين وصيف وبغا وكثيراً ما كانت «الحرب بالباب والسلطان في لعب»

وبما ستعدم عَلَى عملهم هذا غفلة الشعب واتخاذهم من اعتقاده بالملوك والقياصرة والاقيال والاكاسرة انهم آلهة الارض والآمرون الناهون في العالمين آلة صماء لتنفيذ آمالهم وأعمالهم . فكان الشعب مغلول اليد والفكر واللسان ليس له من الأمر شيء الا الطاعة العمياء . وفوق هذا كله فانه كان يرى في هذه الطاعة خيراً يصيبه او ثواباً يناله . ولم يكن من الشعب العاقل الا ان وسمهم بالالقاب السماوية ووصفهم بعامة صفات الربوبية

واما رجال الكنيسة : فكانوا يتأنون ايضاً حفظاً لسلطتهم واستبقاء لعزيز جبروتهم في اضطهاد العلم والعلماء وتم لهم ذلك بما اسدلوه عَلَى الابصار من السجف المبرقشة التي هي ليست سوى خيالات خداع وختل وتملق وتلاعب قالوا عنها انها الدين وليست منه في شيء حتى كان منهم ان كانوا يقسمون الممالك و يوزعونها ويخلعون من الملوك من يشاؤن و يدنوا كما قال احمد شعيب بك حكام اوربا المطلقين (ديكتاتور)

غضب مرة الاب (هيلدي بران) عَلَى هنري الرابع واصحابه فحرمهم جميعاً حتى اضطر الامبراطور هو وزوجته الى ان يقصدوه ليغفر لهم سيئاتهم فقطع جبال الالب في ايام الشتاء وقد ارتدى قميصاً ابيض أعد للمجرمين ووقف أمام القصر الذي كان جالساً في صدره ذلك الاب ثلاثة ايام وهو يرتجف من صبارة القر واخيراً أذن له بالحضور فتمثل بين يديه وقبل قدميه وهكذا استطاع ان يظهر بمظهر العفو [1]

وان اعمال رجال الكنيسة في محكمة التفتيش لا تكاد تمحى آثارها من صفحات الوجود فقد كان الغرض من انشاء هذه المحكمة مقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورهما باسمي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً في جنوب فرنسا وايطاليا . وفي مدة ثماني عشرة سنة من سنة ١٤٨١ — ١٤٩٩ حكمت عَلَى عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم احياء فاحرقوا وعَلَى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا وعَلَى سبعة وتسعين الفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنفذت ثم احرقت كل توراة بالعربية [2]

وقد قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ ان يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة . قال الاستاذ الشيخ محمد عبده : « لكن ذلك لم يمنع الامراء وطلاب العلوم من

(١) عن « الحرية الدينية » في التركية — لاحمد شعيب (٢) الاسلام والنصرانية — ص — ٣٨

كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض افكاره» ثم قال: « واوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب اهل اوربا ما خيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر اذا نظر حوله والتفت وراءه ان رسول الشؤم يتبعه وان السلاسل والاغلال اسبق الى عنقه ويديه من ورود الفكرة العلمية اليه »

هذا ولا تنس ما كان للحروب والثورات بادئ بدء من التأثير السيء في الحركة العلمية في المدارس فالثورة الفرنساوية دعت الى الغاء دار الفنون الذي ظل يختلف اليها الطلبة منذ زمن مديد . والغيت بالقرار المؤرخ في ١٠ آذار عام ١٧٩٤ كلية باريس وثلاث وعشرون جامعة في الولايات الاخرى وصودرت اوقافها واملاكها وان حروب التتار الشعواء اغارت عَلَى الجامعات التي أنشئت في مدينة (نوفوغوردو) و(كرسون) و(موسقو) من بلاد روسيا لما فتحها التتار بحد سيوفهم .

ولما دب في بولونيا دبيب الحياة وقامت تطالب باسترداد حريتها انشأت الحكومة الروسية تتذرع بكل جليل وتافه لصد هجماتهم وأول ما بدأت به إغلاق الجامعات والمدارس ومن ذلك جامعة (فارسوفيا) الشهيرة التي اغلقت عام ١٨٣٢ وظلت كذلك موصدة سنين واعواماً . وانه وان أذن للجامعات بعدئذ ان تفتح ابوابها بيد انه لم يعد يراعى فيها اصول الحرية في التربية والتعليم في حال من الاحوال

وانك لترى الجامعات والمدارس بعد ماتوالى عَلَى اوربا من الازمات العلمية والفكرية في حالة النزع والاحتضار إدارة وتعليماً . فاماً ما كان من امر التعليم فأنها كانت تسلك الخطة التي كانت متبعة في القرون الوسطى وكان المتطفلون عَلَى موائد العلم يتصافقون الرتب العلمية عَلَى رؤوس الاشهاد ولم يكن من المعلمين الحقيقيين من يستطيع ان يدرب التلاميذ عَلَى اصول التربية الحديثة وان كان يوجد فانهم كانوا يتقاضون مرتباً نزراً يسيراً .

***

في ذلك الزمن الذي اشتدت فيه الازمة كانت اوربا تتمخض بالثورات السياسية والدينية . بيد انها لم تستطع ان تضع حملها الابعد ان نبغ فيها فريق من اهل العلم والادب فبدأوا يجدون بما في طوقهم وطاقتهم وراء مكافحة اولئك الخونة المارقين ومناجتهم في القلم واللسان ليستردوا لبني البشر حقوقهم المغصوبة فكان فيهم العلماء والحكماء والادباء والقصصيون والشعراء امثال نيوتن وباكون وديكارت وهيكو وفولتر

ولامارتين وتولستوي ولوك وفيختي وكانت وميرابو ومولبير وغيرهم من رجال الاصلاح وكذلك كان بين هؤلاء من رجال الاصلاح الديني كثيرون ومن اشدهم جهاداً وجلاداً «لوثيروس» زعيم المذهب البروتستانتي في البلاد الاوربية والاميركية جمعاء ٠

فسد هؤلاء العظماء العجز في تربية الشعب وتعليمه واغننت النفوس بما تجدد في البلاد من الاوضاع وما ظهر في عالم المطبوعات من المصنفات العلمية والادبية واكتسبت بما اكتسته من الحلل القشيبة ميلاً خاصاً من القلوب فتهافت الناس عليها وهم في اشد الحاجة الى ما يمحو ما تلطخ على صفحات الافكار من الشوائب المبهمة ٠ وكان اول انقلاب وقع في نظام الأسرة (العائلة) والمعتقدات ٠ وتمثل هذا الانقلاب بأكمل مظاهره في المبادىء والافكار وعلم الشعب حق العلم انه مهضوم الجانب مهيض الجناح وان الملوك والامراء باجمعها ليست سوى اجراء له وانتذ نزع الى استرداد حقوقه بما مازج زوحه من قوة الحرية في القول والعمل

***

شعر الملوك ورجال الكنيسة لما آنسوا من الشعب ميلاً الى الاصلاح ورجاله بالخطر الذي يتهدد سلطتهم المطلقة فأخذوا يضيفون على مظالمهم الاولى ضروباً من الجنايات والخيانات ٠ ألا وان قصر الباستيل والآلة المدعوة المقصلة (كيلوتين) ومحكمة التفتيش وفيافي سيبريا ومراي التويلبري [1] اعظم شاهد على ما اتوا به من الفظائع والفجائع لمناهضة العلماء والحكماء ورجال الاصلاح :

هذا «لافوازيه» العالم الكيماوي المشهور الذي عني بهذا الفرع من العلم عناية خاصة واكتشف عناصر جديدة لم تكن معروفة من قبل ووضع نواميس عامة ابان فيها ما خفي تعليله على المتقدمين حتى دعي بـ(واضع الكيمياء الجديدة) — هذا الرجل على فضله وعلو كعبه في العلم وخدمته الانسانية جمعاء حكم عليه بالاعدام وسيق الى ساحة القتل حيث ذهب ضحية الجهل والغدر والخيانة

وهذا «غاليله» العالم الايطالي الفلكي المشهور عقدت من اجله جلسات متوالية في ايطاليا ضمت أهم رجال الكنيسة وغيرهم واجمعوا بخروجه عن اوامر الدين في قوله

(١) هي اشبه بقصر يلدز في عهد السلطان عبد الحميد المخلوع كانت مقراً لملوك فرنسا في باريس واحرق في مايو عام ١٨٧١

بحركة الارض ثم حكموا عليه بالاعدام فالتفت الى الجمهور وهو جذل فرح وقال : « هي تدور وفوق ذلك هي كروية»

وكذلك « دانتي » حكيم ايطاليا وشاعرها امر الكردينال « بورجينو » عام ١٣٢٩ باحراق بعض مؤلفاته في بولونيا جهاراً وطلب اخراج جثته من القبر واحراق عظامها انتقاماً منه على الخلاه ثم لم تمض على هذه الاحكام عشر سنين حتى شعر الشعب الايطالي بمنزلة هذا الرجل ففي سنة ١٣٥٠ قررت جمهورية فلورنسا ان تدفع مبلغاً من النقود الى ابنة له راهبة تدعى « بتريس » وفي عام ١٣٩٦ قررت ان يبنى له ضريح ويقام له تذكار في فلورنسا على انهم ما زالوا يحاولون بذلك الى اوائل هذا القرن فابتنوا له ضريحاً وقد احتفلوا بافتتاحه في ١٤ تموز عام ١٨٦٥ وهو تذكار مضي ستمائة سنة من يوم ولادته

ومثله « فولتر » حكيم الادباء في فرنسا نظم قصيدة هجا بها لويس الرابع عشر ملك فرنسا فحكم عليه بالسجن فسجن في الباستيل سنة نظم اثناءها قصيدة سماها التعاهد (ليج) ورواية دعاها (اوديبوس) قالوا انها احسن ما كتبه من حيث شرح العواطف الحقيقية وذلك عام ١٧١٨ ثم اطلق سراحه بدعوى انه مريض يحتاج الى تبديل الهواء في (بلومبيار) فسار وقد عول على ان لا يعود الى فرنسا ولكن قلبه ثنى عزمه فعاد الى مثل ذلك فأعيد الى السجن مهاناً بالضرب واللكم عام ١٧٢٦ نلبث هناك ستة اشهر ثم اطلق سراحه والتجأ الى انكلترا لعله يتخلص من دسائس الفرنسويين

ولقد كتب مقالات فلسفية قيل انه تعرض فيها للدين والسياسة فاحرقت بامر مجلس الامة (البرلمان) واضطر إلى مغادرة باريس خوفاً على حياته وقد ذهب بعضهم الى انه الحد لان الكهنة لم تأذن بدفنه على المادة المألوفة وان احد ابناء اخيه كان رئيساً لدير فأخذ الجثة سراً الى ديره ودفنها في الكنيسة وفي سنة ١٧٩١ نقلت الجثة الى البانثيون مدفن الملوك والعظماء والكبراء

وكذلك « روسو » فانه نال من نبال الطعن والاحتقار ما لا يكاد يخطر على بال وما ذنب هذا الرجل الكبير — كما قال احد حكماء فرنسا — سوى انه خالف سنة اهل النظر في عصره وهي اعتمادهم في اصلاح المجتمع الانساني على الرجال ومخاطبتهم اياهم فيه بان وجه خطابه الى الوالدات والاطفال وهو امر هداه اليه ما فطر عليه من جودة الطبع وذكاء القريحة » ثم قال : «وان اردت ان ابين لك كيف خدم روسو الاطفال خاصة بما نشره في كتبه من الانتصار لهم قلت ان ذلك انما كان بما القته تلك الكتب

في نفوس الفرنسيس من بذور الثورة وهيأتها به لها »

ومثله « لوثيروس » المصلح الديني الالماني فانه قام بالدعوة الى ما صح عن المسيح طبق ما ورد في الانجيل ضارباً بتلك الاوهام التي تعلقوا فعلقوا بها عرض الحائط . واول ما ناهضه هو مسألة الغفران ولم يرداعياً للابوة فالغى الرتب الروحانية وشركات الدنيا والقاعدة التي تخول الرهبان عدم الزواج ظهريا

وحملته طبيعة الحال على ان يدعي ويثبت مدعاه بان كنائس الكاثوليك جمعاء تناقض احكام الدين المسيحي على خط مستقيم وقد دعا الامبراطور «شارلكان» المجلس العام في المانيا الى الالتئام فالتئم وطلب المجلس باكثرية الاصوات احراق « لوثيروس » وقد كاد يقع ذلك لولا انه اقام سنة كاملة في دارنبورج مختفيا عن اعين الرقباء واتم خلال هذه المدة ترجمة الانجيل الذي كان شرع بترجمته بادىء بدء واحدث انقلاباً كبيراً في الادبيات الانكليزية والافكار

وبلغ بالقسيسين التعصب في اسبانيا على عهد سكيمون الثالث مبلغاً هذا حده ولم يكن منهم الا ان ابعدوا عامة من كانت تهزهم اريحية الوطنية ايام كان القسم الاعظم من واردات الحكومة مخصصاً لصندوق الكنيسة . وان شعور التعصب قد بلغ في اوربا اشده حتى كان الوباء اذا فشا نسب الى الموسويين ومن ثم ترى هؤلاء المساكين يستهدفون لضروب الايذاء والجفاء ما الله به عليم [1]

وبعد فان سلطة العلم لا تقاوم ومن قاومها كان خليقاً بكل أذى يلحقه ان لم يكن عاجلاً فآجلاً . وصوت العلم النافع — كما قال رنان — كثيراً ما يتضاءل امام همجمة المهاجمين ولجة الدجالين وللعلم صوت متى سكن ضجيج تلك الظواهر يظل ذلك الصوت يسمع فلا يعود احد يسمع غيره » قال : « ومن اجل هذا ترى المجامع العلمية على كثرة شكوى اهل الافكار المخطئة منها فائزة بفضل الغلبة لانها حارسة حسن الترتيب الحقيقي وهي قليلة ولكنها مفلحة وليس لغير العقل سلطة تبقى »

وان رجال الاصلاح كلما اغرقوا في الدعوة اليه صموا آذانهم عن جلبة الوشاة والشانئين ولم يحفلوا بما ينزل بساحاتهم من الكوارث وانهم ليعدون ما يصيبهم من اهانة واحتقار شرفاً لهم وفخراً كما قال ذلك الكاتب الفرنسوي : « كل قبضة من الوحل تلقى في جبهة

(١) الحرية الدينية — احمد شعيب

صاحب صناعة فهي أكليل من الفخار » وقد سبق من سيق من هؤلاء المصلحين الى القتل وعلى شفاههم تلوح ابتسامة السرور ولسان حالهم يقول كما قال لازوروس :« نحن نموت الآن لان الشعب نائم وتموتون انتم غداً متى استيقظ الشعب »

***

هذه آثار الادوار السوداء ونتائجها ولقد كان للامم الشرقية من آثار مثل هذه الادوار حظ وافر ولو لم يزل فيهم من القوة بقية ومن الذكاء النماء لأودت بحياتهم الادبية منها والمادية . ومما يقوي آمال رجال الاصلاح ويشد عزائمهم ما رأوه من نهضة المشارقة في هذه القرون الاخيرة فقد تناولت الحركة الاصلاحية الشمس المشرقة (اليابان) ففارس فالامة العثمانية مما يدل على ان الاستعداد كامن في نفوس البشر التربية تظهره والاهمال يخفيه

ولا بدع اذا قامت تلك الاقوام بنهضة حديثة اهتزت لها الارض من اقصاها الى اقصاها وهم الذين كانت لهم فيما مضى حضارة ضخمة فخمة قضت عليها النواميس الطبيعية بالاندثار والعفاء وقيضت من رجال الغرب من عني بامرها فبزوا بها وبرزوا . وما على الامم الشرقية اليوم الا ان تطرس على آثار الغربيين في العلم والاجتماع وتأخذ بالامور المعقولة من حضارتهم ومدنيتهم ليكتب لها عمر مديد وتاريخ مجيد ! ..

دمشق : صلاح الدين القاسمي

الرتب والاوسمة

كانت الرتب والاوسمة العامل الاقوى في افساد الاخلاق عَلَى عهد الحكومة الاستبدادية الماضية فاستعملها الظالم ذريعة لرفع من شاء ولو كان وضيعاً وتصغير من اراد ولو كان كبيراً وفي تقلد الاوسمة ونيل علائم الرتب كم خربت بيوت وشتت شمل أسرات وكانت اقل الوسائط اليها واقربها تناولا ان يعمد من يرغب في التشرف بها الى التجسس عَلَى الاحرار وايجاد السبل لارهاق من يطالب الحكومة السالفة باصلاح المختل ومداواة المعتل ٠

ومن نظر في التاريخ يجد الالقاب عند العرب والافرنج من بقايا القرون الوسطى قرون الهمجية والانحلال ٠ فنشأوها عند العرب كما قال ابن الحاج في المدخل الترك فانهم لما تغلبوا عَلَى الخلافة تسموا هذا شمس الدولة وهذا ناصر الدولة وهذا نجم الدولة الى غير ذلك فتشوقت نفوس بعض العوام ممن ليس له علم بتلك الاسماء لما فيها من التعظيم والفخر فلم يجدوا سبيلا اليها لعدم دخولهم في الدولة فرجعوا الى امر الدين فكانوا اول ما حدثت عندهم هذه الاسماء اذا ولد لاحدهم مولود لا يقدر ان يكنيه بفلان الدين الا بامر يخرج من السلطنة فكانوا يعطون عَلَى ذلك الاموال حتى يسمى ولد احدهم بفلان الدين فلما ان طال المدى وصار الامر الى الترك لم يبق لهم بالتسمية بالدولة معنى اذ انها قد حصلت لهم فانتقلوا الى الدين ثم فشا الامر وزاد حتى رجعوا يسمون اولادهم بغير ما يعطوه عَلَى ذلك ثم انتقل اليه بعض من لا علم عنده ثم صار الامر متعارفاً متعاهداً حتى أنس به العلماء فتواطأوا عليه ٠ قال ابو بكر الخوارزمي

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا من الكنى ومن الالقاب ابوابا
ولقبوا رجلا لو عاش اولهم ما كان يرضى به للحش بوابا
قل الدراهم في كفي خليفتنا هذا فانفق في الاقوام القابا

اما في الغرب فكانت الرتب العلمية والجندية في القرون الوسطى تباع بيع العروض والعقار يمنحها الملك لمن يريد من حاشيته او لمن يرى هو ورجاله انه قام بخدمة لبلاده

وربما ورثها عنه ابناؤه واحفاده من بعده على نحو ما اصبح اولاد العالم في العهد الاخير في هذه الديار يرثون وشائقه ومقامه كما يرثون ارضه ومتاعه وتطلق عليهم الالقاب هي العجب العجاب واسماء ما انزل الله بها من سلطان كأن يقال لاجهل الجاهلين اعلم العلماء المحققين وللخالع المارق ناصر السنة والدين.

الرتب على النحو الذي يعهد في الشرق والغرب اليوم لم يكن لها ما يماثلها في الدولة اليونانية ولا الرومانية وغاية ما في الامر ان الظافر في الالعاب الاولمبية في آثينة كان يذكر بالمحمدة ذكراً يورثه الشرف هو واهل بلاده وينال جائزة سنية وكذلك من كتب له النصر على اعداء رومية ولكن لا يرث ابناؤه واهله ما كان هو ابا عذرته وداعية مفخرته

ولما انتظمت حكومات الغرب الغيت الرتب من معظم الممالك الاوربية ولا يزال لها اثر في بعضها ولكنه ضئيل لا ينم عن شرف ولا ينبئ عن فضيلة ورجع الناس هناك او كادوا الى عادة السذاجة التي كانت عليها دولة العرب ثلاثة قرون واكثر فكان يدعى الكبير باسمه او بكنيته ولم يكن للالقاب سوق معروفة

كان يراد بالرتب والاوسمة وعلائم التشريف في الاصل تحريك نفوس الناس الى مباراة بعضهم بعضاً في طلب الكمال والمجد الحقيقي لان من واجبات الحكومة ان تنشط العامل وتأخذ بيد صاحب الكفاءة ليكون مثالاً صالحاً لغيره والرتب والاوسمة من الامور التي قد تساعد على هذا الشأن ولكن المتأخرين من اهل الغرب شاهدوا كما شاهد المتأخرون في الشرق ايضاً رداءة تلك الطريقة فاسقطوا بعض تلك الرتب والاوسمة وبقي غيرها عضواً اثرياً من حكومات القرون الوسطى يدل باصرح بيان على ان من الصعب جداً على حكومة لها بعض التقاليد وان كانت غير معقولة ان تنسفها جملة واحدة اللهم الا اذا كانت كحكومة الولايات المتحدة لم تبن اصول حكومتها على انقاض غيرها بل جعلت فيها العلم قائداً والعقل مرشداً ورائداً ولذلك تساوى بها العامل الصعلوك مع رئيس الجمهورية في الالقاب والتشريف

قال احد علماء الفرنسيس : ومن الواجب الاقتصاد في منح الاوسمة والالقاب وان يتوخى المنعم بها ان لا يهبها الا لمن يستحقها ممن لا ينكر عليهم استئهالهم لها ابعد الناس عن معرفة الحقيقة ومن الخطإ الفادح ان يذهب بعضهم الى ان عدد الراضين يزيد بمضاعفة علائم الشرف اذ الامر بخلاف ذلك وكلما خففت المطالب والقيود درجة زادت الدعاوي الطويلة العريضة وما انت بصاحبها في هذا المطلب الا كأنه يتقاضى

حتّاً او امراً مشروعاً وكلما زاد اعطاء الاوسمة وقعت الحكومات في شر اعمالها فتصبح في ذلك بين امرين اما ان تعطيها لاناس لااخلاق لهم او لمن لم علم واقتدار ولكنهم معروفون بالاخلاق الساقطة وكلا الحالين قبيح وافحش . وما حال الشعب اذ ذاك الا حال الاطفال في المدرسة يطمحون الى المكافآت المدرسية ويحرصون عليها اكثر من طموحهم الى التقدم الحقيقي

قلنا ان الظافر في الالعاب الاولمبية بآتينة كانت تنظم له الجوائز وكذلك الظافر في البر او البحر يجازى احسن الجزاء في رومية ويقلد اوسمة اشبه باوسمة هذه الايام علاوة عَلَى المكافآت المالية ومنها تيجان للجنود واكاليل من ورق الزيتون واكاليل من اغصان البلوط واشورة وقلائد من الذهب والفضة تناط في الصدور او في قرون صغيرة تجعل في اطراف الخوذ

***

ولم تكد ترفع عن الافواه والاقلام في البلاد العثمانية كمائم الاستبداد والحجر هذه السنة حتى قام عقلاء العثمانيين يكتبون في اسقاط الرتب والاوسمة لان في اسقاطها رفع شأن ارباب الكفاءآت وتنوعوا لذلك الاساليب وفي مقدمة الكاتبين المتخرجون من المدرسة الملكية العالية في الاستانة وهي من ارقى مدارس الدولة فقام من تحلوا فيها وفيهم الولاة وكبار العمال وتجردوا عن رتبهم محتلرين قائلين ان الرتب من قبيل الامتيازات[1] الشخصية المخلة بقاعدة المساواة وان البلاد الشوروية لا يجوز ان يكون فيها فريق من الناس محكوماً فريق آخر من اجل هذه الامتيازات الوهمية التافهة

وبعد فانه لا اثر لهذه الرتب الشخصية في البلاد المتمدنة ولا وجود لها الا في بلادنا وفي بلاد ايران عَلَى اننا نعد هذه المسألة قد حلت حلاً نهائياً لان مجلس الامة مصمم عَلَى الغائها بتاتاً وبما ان آخر الشيء ينبه الى اوائله احببنا ان نبحث في نبذة من تاريخها ليبقى حسرة في قلوب عشاقها المولعين بوضع النصب عَلَى الصدور وفوق العمائم

كان الرومانيون واليونانيون يوجهون المناصب لغير طبقة العسكرية ولكن لا يوجهون عليهم رتباً شخصية . اما العرب فكانت الرتبة عندهم هي الفضيلة والمزية الشخصية وكانوا يوجهون الرتب العسكرية عند الحاجة موقتاً

(١) من مقالة في مجلة الملكية التركية بقلم علي سيدي بك وتعريب شاكر افندي الحنبلي

واذا تصفحنا التاريخ نرى النبي صلى الله عليه وسلم عين وزيره ورفيقه في الغار لابي بكر الصديق رضي الله عنه جندياً في الجيش الذي عقد لواءه لاسامة بن زيد وكان هذا ابن أمة ولكن خبرته في امور الحرب وشجاعته اهلته لقيادة جيش فيه مثل ابي بكر الصديق ونرى عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد وجعله تحت قيادة ابي عبيدة الجراح وكان جندياً في جيش خالد بن الوليد لما عهده عمر في ابي عبيدة من التأني والاحتياط في امور الحرب

واتخذت الحكومات في القرون الوسطى باوربا عَلَى عهد الاقطاعات توجه الرتب والالقاب عَلَى المأمورين الملكيين قياساً عَلَى رتب الرهبان فرتبة فارس (شفالية) كانت شخصية ولها درجات معينة وليس عند الاوربيين اليوم رتب شخصية توجه بالانهاء بها ٠

كانت الدولة العثمانية في اول امرها توجه لقب « باشا » بمعنى الاخ الاكبر عَلَى من يخدم الدولة والدين خدماً فائقة ولقب «جاويش» و «اغا» على من يخدم خدماً صغيرة ولما اصلحت الامور العسكرية والملكية والعلمية في زمن السلطان اورخان ومن يليه من السلاطين احدثت بعض رتب خاصة بالمناصب لا يتجاوز عددها الاربعة وهي (خوجكانلق) و (قبوجي باشيلق) و (ميرميرانلق) و (الوزارة) ولا يتجاوز اصحاب هذه الرتب السبعين او الثمانين في الغالب فرتبة الوزارة كانت توجه عَلَى الصدر الاعظم وعَلَى (توقيعيء ديوان همايون) وعَلَى (دفتر دار الشق الاول) يعني ناظر المالية وتوجه نادراً عَلَى عامل الولايات الكبرى المهمة وتعلو اقدار رجال الدولة (خواجكان) و(قبوجي باش) وتوجه رتبة (روم ايلي بكلربكي) التي كانت لها صبغة رتبة عسكرية عَلَى المتخرجين من اصحاب رتبة (ميرميران)

كان لقب (سعادتلو) خاصاً بالسلطان الى عهد سليمان القانوني ويخاطب الصدر رجال الدولة بلقب (عزتلو) ومع هذا كله كانت الرتبة توجه وقتئذ في مقابل خدمة مهمة ٠ وفي سنة ١٢٤٨ أدخل بعض التغيير في الرتب والالقاب فتوجه رتبة (اولى) مع لقب (سعادتلو) عَلَى (كتخدابكي) ناظر الداخلية او مستشار الصدارة اليوم وعَلَى (رئيس الكتاب) وهو ناظر الخارجية وعَلَى ناظر (الضربخانة) وتوجه الرتبة الثانية مع لقب (عزتلو) عَلَى (امين الترسانة) و (امين دار المدافع) وعَلَى (الباش جاويش) يعني ناظر العدلية والضبطية وامثالهم ٠ والرتبة الثالثة مع لقب (رفعتلو) عَلَى مكتوبي الصدارة والبيلكجي والآمدجي ٠ والرتبة الرابعة مع لقب (فتوتلو) على امناء المكوس وبقية

رؤساء المأمورين . والرتبة الخامسة مع لقب (حميتلو) عَلَى مديري الاقلام ومميزيها وقسمت بعد ذلك الرتبة الثانية والثالثة الى قسمين وجه اول منها عَلَى رجال الباب العالي والثاني عَلَى ارباب اللياقة من مأموري الولايات وقد أُهملت .منذ ربع قرن فروع الرتبة الثالثة كما أُهملت في زماننا رتبة (خواجكان) و (قبوجي باشي)و(الخامسة)

وفي سنة ١٢٥٥ سمي القسم الاول من الثانية متمايزاً وقسمت الرتبة الاولى الى قسمين وسمي القسم الاول (اولى اولي) بالاضافة مع زيادة (حضرتلري) عَلى الالقاب و(المشار اليه) بين العبارات وسمي القسم الثاني (اولى ثانيسيّ) و بالنظر لتكاثر سواد اصحاب الرتب الاولى وتجاوز عددهم الاربعين شخصاً احدثت في سنة ١٢٦١ رتبة (بالا) مع لقب (عطوفتلو) ليكون خاصة بالرجال المجلين والممتازين على شرط ان لا يزيد عدد اصحابها على السبعة اه

اسبانيا والعمران العربي

نشر المسيو كاباتون من علماء المشرقيات بحثاً ضافياً في مجلة العالم الاسلامي البار يزية جاء فيه ما تعريبه : كتب لاسبانيا من دون سائر بلاد اوربا ان تكون مبعث اشعة التمدن الاسلامي وكهف اللغة العربية على حين ليست هذه الشبه الجزيرة متصلة من حيث موقعها الجغرافي بالشرق الاسلامي مباشرة كما هي حال الممالك البلقانية واليونان مثلاً . واقرب البلاد بها مساساً واقربها منها حمي بلاد افريقية التي كانت منذ قرون ثانوية في النشوء الاسلامي فشغلت اسبانيا مكانة عظمى في تاريخ الاسلام اكثر مما جاور آسيا الصغرى من بلاد الطونة واليونان التي لم تشهد من الاسلام الا العهد الموغل في التوحش الكثير الفتن القليل المنافع ونعني به عهد الاتراك عَلَى حين ذاقت اسبانيا اجمل عهود الاسلام واخصبها واعني به عهد العرب فتأصلت مدنيتهم في اسبانيا وازهرت فيها اي ازهار

فتح طارق بن زياد وموسى بن نصير اسبانيا من سنة ٧١١ م الى ٧١٤ وكانت مستعدة لهذا الفتح لان الفوضى كانت رافعة عليها اعلامها فاستولى العرب عَلَى عرش تلك البلاد

من ملكها رودريك الذي هلك في المعركة واظهر الاشراف ورجال الدين من الاسبانيين من الجبن والنذالة شيئاً كثيراً فهربوا من اشبيلية وقرطبة عندما سقطتا في ايدي العرب ولم يفكروا في الدفاع عنها وبلغ بهم الخوف في طليطلة ان بعضهم هرب الى غاليسيا ومن رجال الدين من لم يقفوا الا في رومية لانهم كانوا يخشون عَلَى حياتهم واموالهم عَلَى ان حكومة اسبانيا اذ ذاك كانت مكروهة من العبيد واليهود لان هؤلاء كانوا مضطهدين · خدم العبيد بادئ بدء الدولة الاسبانية قبل دخول العرب ثم قل اخلاصهم لها حتى ان قرطبة سلمها للعرب واهب من العبيد وتمت عَلَى ايديهم خيانات اخرى · وكان اليهود اكثر ضرراً عَلَى حكومة اسبانيا الغربية ولا يتأتى تقدير عددهم بالتدقيق بل هم فيما يظهر عنصر مهم للغاية انتشروا في قرطبة واشبيلية والبيرة وغرناطة وطليطلة وغيرها من المدن ولا سيما لوسنا .

وكان اليهود في الاندلس عَلَى جانب عظيم من الغنى وحسن معرفة بالتجارة وارقى علماً من جيرانهم واستحكمت بينهم الصلات حتى اصبحوا حكومة وسط حكومة فخاف الملك ورجال الدين الكاثوليكي من امتداد سلطانهم واخذوا يضطهدونهم بتحامل شديد فربى الخوف والاضطهاد في نفوسهم البغضاء وحب الانتقام · وفي سنة ٦٩٤ قبل مجيء طارق والعرب بسبع عشرة سنة دبر الاسرائيليون مكيدة بمعاونة قبائل البربر اليهود من اهل افريقية وكادوا يستولون عَلَى زمام المملكة الاسبانية · فاكتشفت المكيدة التي دبروها واخذ المسيحيون يعاملون الاسرائيليين معاملة العبيد الارقاء وكاد يقضى عَلَى العنصر اليهودي عندما بدت طلائع الفاتحين من العرب · اعتبر اليهود العرب مخلصين لهم فاطمأن المسلمون اليهم وأخذوا يعاملونهم معاملة حلفاء لهم وكلما كان يفتح العرب مدينة يجعلون نصف حاميتها من اليهود والنصف الآخر من المسلمين ولم يستثن من ذلك الا مدينة مالقة حيث قصر اليهود فلم يتداخلوا في امرها

وكان لليهود شأن واي شأن مع العرب فكان من يناله اضطهاد المسيحيين على اوائل الفتح العربي يدخل في الاسلام ويتحرر من قيود العبودية فمن ثم اصبح اليهود حلفاء المسلمين يتمتعون باراضيهم واموالهم وحريتهم في عبادتهم وغدت لهم مكانة في تنظيم شؤون اسبانيا ولا سيما في غرناطة التي ازهرت بمساعيهم وغدت تسمى في اواخر القرن العاشر مدينة اليهود ثم حدثت مذبحة سنة ١٠٦٦ نقتل فيها من الاسرائيليين اربعة آلاف رجل في غرناطة وحدها .

ولم يكن المسيحيون الاحرار في الاندلس مثل العبيد واليهود من اعوان الفتح العربي بل كانوا خصومه ومع هذا كنت تراهم عَلَى حالة حسنة مع الفاتحين ممتعين بحريتهم المذهبية ومحتفظين بالقسم الاعظم من كنائسهم وكثير منهم دانوا بالاسلام سياسة او اعتقاداً لا سيما وقد رأوا المسلمين نالوا النصر المؤزر الباهر · والسبب في تسامح العرب مع نصارى اسبانيا ان مركز العرب كان الى التقلقل وكلمتهم مختلفة وذلك لان العرب والبربر يكره بعضهم بعضاً · ثم ان العرب بطبيعتهم مفطورون عَلَى التسامح الديني وكان النصارى وحدهم يدفعون الجزية حتى اذا اخذوا يدينون بالاسلام فرغت خزائن الحكومة العربية لقلة الجزية الواردة اليها · ثم ان المسلمين اخذوا يتزوجون من الاسبانيات اللائي كن بجمالهن اعظم صلة للامتزاج بين الفاتحين وخصومهم

وكانت تجري عَلَى سادات الاسبانيول احكام الاسلام فيختلطون باشراف العرب ومن ظل محتفظاً بدينه منهم نسي مبادئه فصار يحجب نساءه كالمسلمين ويقتدي بازيائهم والبستهم وعاداتهم في مآدبهم ورفاهيتهم وخلاعتهم ويزهد في اللغة اللاتينية ويجتهد في تعلم اللغة العربية وآدابها ويسعى في نيل وظيفة في الجيش الاسلامي او التعلق بخدمة الخليفة او احد رجاله ·

ولقد كان القشتاليون والليونيون والنافاريون من سكان شمالي اسبانيا المسيحيين يأتون بكثرة للانخراط في خدمة الخليفة المنصور وكان هذا موقناً بان حب الكسب هو الذي يحمل هؤلاء عَلَى الاخلاص له اكثر من اشراف العرب الطائشين فيجري عليهم لذلك الارزاق والجرايات الوافرة ويشملهم برعايته · واذا شجر اختلاف بين مسيحي ومسلم من جنده يعطي الحق غالباً للمسيحي · وكانت ايام الآحاد ايام العطلة بدل الجمع · ولما انقسمت بلاد الاندلس بين الطوائف امسى ملوك المسيحيين يتزوجون من بنات الامراء المسلمين فقد تزوج الفونس السادس بزايدة ابنة امير اشبيلية · وان اسبانيا عَلَى ما كان بين العنصرين المسيحي والاسلامي في الاندلس من الاختلاف الذي لا مناص منه قد اصبحت مدة قرنين ونصف اي منذ الفتح العربي الى زوال الخلافة الاموية (٧٧٤—١٠٣١) تحت السلطة العربية والمدنية العربية برضاها لا بالرغم منها وقد مزجت تلك المدنية بالمدنية الاسبانية اللاتينية واليهودية التي كانت هناك قبل الفتح الاسلامي وكان ذلك بفضل العقل العربي . . . .

من الظلم ان يقال ان اسبانيا كانت قبل اغارة العرب عليها في حالة الهمجية فقد

كانت المدنية اللاتينية زاهرة فيها بفضل رجال الدين فاصبحت اشبيلية بواسطة أسقفها القديس ايزيدورس مركزاً علمياً قوي النعائم لم يقو الفتح العربي على زعزعته وانقذت مدرسة اشبيلية التقاليد اللاتينية من الحركة الشرقية فاصبحت البيع والاديار محال الاعتقادات والمعارف ولا سيما طليطلة وقرطبة واشبيلية فكان يدرس فيها علم العروض والآداب اللاتينية مع علم اللاهوت . وعلى الرغم من سعي الاساقفة انتشرت المدنية العربية بسرعة وكادت تقضي على الوطنية الاسبانية وانحلت تلك المدنية الاصلية حتى ظلت معاهدها من القرن العاشر الى القرن الثاني عشر مباءة الانحلال والتذبذب

دان كثير من الاسبانيين بالاسلام فاخذوا يتناسون اصولهم ويستعربون بحضارتهم واخلاقهم وانشأوا يتكلمون بالعربية بفصاحة لا غبار عليها وتمكنوا من آداب العرب حتى صار الخلفاء يختارونهم فيما بعد عمالاً لاداراتهم وامناء لمشورتهم واسرارهم اي في جميع الوظائف التي تقتضي ان يكون لصاحبها معرفة واسعة باللغة العربية ومتى قبل احدهم مدنية الفاتحين لا يلبث ان يعترف بانها ارقى من غيرها

كانت مدنية العرب في اسبانيا محسوسة في الامور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعية لاخصاب الاراضي البور في اسبانيا بالاساليب العلمية التي اتخذوها لريها وهي اساليب ان لم تكن اختراع العرب فهم الذين اكملوا نواقصها واحسنوا استخدامها كما انهم اسسوا معامل للحرير والجلود والبلور وغزل الصوف والقطن والكتان والقصب واقاموا ما لا يحصى من البنايات العمومية من مثل الجوامع والحمامات ومنها ما يستدعي اعجاب الامم باسرها حتى بعد ثمانية قرون من تأسيسه مثل جامع قرطبة وقصر الحمراء في غرناطة . ثم خدموا العمران بتخطيط المدن الآهلة بالسكان الغنية الرباع التي لم تسترجع بعد العرب ما كان لها في ايامهم من الحضارة وما برحت انقاضها وما فيها من جمال رائع وصناعة محكمة ولا سيما في قرطبة وغرناطة شاهدة ابد الدهر بتلك المدنية باعثة على التأسف لزوالها

نعم ان العرب فاقوا من تقدمهم في شبه جزيرة الاندلس بعلوم الطب والنبات والفلك والطبيعيات سواء كان بالعمليات او بالنظريات فكيف لا يبرزون في علم البلاغة والفلسفة والشعر وهي العلوم التي كان لهم القدح المعلى فيها . وقد اجتذب حب هذه الحضارة حتى المسيحيين ومنهم من تناسى الاحقاد والمبادئ وما انقضت ثلاثون سنة على الفتح حتى اصبح الناس ينسخون الكتب اللاتينية بحروف عربية كما كان يفعل

اليهود بمخطوطاتهم العبرية وما مضى نصف قرن الا وقد دعت الحال الى ترجمة التوراة والقوانين الكنائسية الى اللغة العربية ليتمكن رجال الدين انفسهم من فهمها

ولقد اتخذ المسيحيون اللغة العربية ترجماناً لعواطفهم وقلوبهم حتى شكا الفارو القرطبي صديق الشهيد الوج كما قال دوزي في كتابه تاريخ المسلمين في اسبانيا من ان المسيحيين في الاندلس قد افرطوا في حبهم للعربية حتى صاروا يحبون تلاوة قصائد العرب وقصصهم و يدرسون كتب علماء الاسلام وفلاسفتهم لا ليردوا عليها بل ليحلوا بها منطقهم . قال وكيف السبيل الى ايجاد رجل من العامة يقرأ التفاسير اللاتينية عَلَى الكتب المقدسة ومن منهم يتدارس الاناجيل والانبياء والرسل ومن الاسف ان جميع صغار المسيحيين الذين اشتهروا بقرائحهم لا يعرفون غير العربية وآدابها فهم يقرؤن الاسفار العربية و يتدارسونها بنشاط لا مزيد عليه و يقتنونها بالاثمان الغالية يؤلفون بها خزائن نفيسة و يذكرون في كل مكان ان آداب العربية مما يعجب به واذا حدثتهم بالكتب المسيحية يجيبونك بازدراء ان هذه الكتب غير حرية بالتفاتهم . واي المرأ اعظم من ان ينسى المسيحيون حتى لغتهم ولا تجد في الف واحد منهم من يستطيع ان يكتب كتاباً مناسباً باللغة اللاتينية الى صديق له وانت اذا كلفت احدهم ان يكتب بالعربية تجد جمهوراً يعبرون عن افكارهم بهذه اللغة عَلَى صورة بديعة وقد ينظمون من الشعر العربي ما يفوق بما فيه من الصناعة شعر العرب انفسهم

واللوم في قصور الاسبانيين عن شأو العرب ان الحضارة الاسبانية اللاتينية قد نضب معينها وذهبت نضارتها عَلَى حين كانت الحضارة العربية عَلَى اشد نضرتها على عهد خلفاء بني أمية في الاندلس ولا سيما زمن عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم الثاني وفي ايامهما كان الامويون في إبان عزهم .

فكان في قرطبة وسكانها نصف مليون نسمة ثلثمائة مسجد جامع واحواض ماء وحدائق وفيها الآكام المزروعة المغروسة والحدائق الانيقة وعَلَى نحو فرسخ من قرطبة قصر الملك الزهراء ودائرة الحريم منها تسع ثمانية آلاف امرأة فكانت قرطبة تنازع بغداد الاولية ببهجتها ونضارتها

وقد عرف عبد الرحمن الثالث اذكى ملوك عهده جناناً واكثرهم استنارة واغناهم

ـ وكان في خزائنه عشرون مليون ذهب (كذا) ـ بسخائه المتناهي في اجتلاب الشعراء وارباب الموسيقى ومشاهير العلماء يقتدي في ذلك باسلافه عامة . وان المتوسطين من هؤلاء الخلفاء ليدرون النفقات الطائلة عَلَى اناس لهم في الاسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد وكل اليهم ان يوقفوه عَلَى الحركة العقلية فيبعثون اليه باهم المصنفات واجل الآثار . مثال ذلك ان امبراطور القسطنطينية لم يراحسن من ان يهدي مصنفاً بديعاً من ديوز كوريد مكتوباً بالذهب وقد حمله مع راهب عهد اليه بتعريبه للملك استجلاباً لرضاه

فاق الحكم الثاني اباه بولعه بالآداب والكتب النادرة فكان يغص قصره بالنساخ والمجلدين والنقاشين وبلغت فهرست كتبه بحسب رواية معاصريه اربعة واربعين جزءاً وكل جزء عشرون صفحة وقال آخرون ان في كل جزء خمسين صفحة . ولم يكن فيها غير اسم الكتاب ووصفه . وقد قرأ الحكم هذه المصنفات وشرحها وحشاها وعلق عليها تعليقات تدل عَلَى طول باعه في تاريخ الادب العربي . وبذل لابي الفرج الاصفهاني من علماء العراق خمسة آلاف دينار ليخص الاندلس بتأليفه وهو عبارة عن دائرة معارف حوت اخبار الشعراء والمغنين . وكان العلماء من اسبانيا وغيرها ينهالون عَلَى قصره فيحسن فيه لقاءهم ويفرق عليهم الاحسان واشتهرت كلية قرطبة في العالم باسره وان لم تكن معروفة بانها معهد رسمي للخلفاء اكثر من جميع الكليات العربية . وكان عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني يحميان العلماء فيها من تعصب المتنطعين في العبادة . فيأتي الجامع الاعظم الوف من الاندلسيين والاجانب من كل البلاد لاشتهاره بانه معهد علمي وذلك من مدينة الاستانة الى جرمانيا حيث كان هروفستا يعجب بقرطبة وهو في ديره . وفي ذلك الجامع كان ابو بكر بن معاوية القرشي يقرئ الحديث النبوي وابو علي القالي البغدادي يملي اماليه المشهورة الغنية بالنكات اللغوية والشعرية المأثورة عن العرب القدماء وابن قوطية اعلم نحوي في عصره يدرس النحو

ورأى الحكم قبيل وفاته ان من الصعب عَلَى من بعده نشر المعارف بين الفقراء فانشأ في قرطبة سبعة وعشرين مدرسة ينفق عَلَى مدرسيها من ماله . ولئن كانت هذه المدارس الصغرى كالكليات لا تنطبق عَلَى ما نريده منها اليوم فكانت المدارس الابتدائية لتعليم القراءة وتفسير بعض آيات من القرآن ومع هذا كانت تشهد بما فطر عليه رعاياه من حب المعارف والتعلم

وان ذهاب الخلافة من الاندلس سنة ١٠٣١ م وتقاسمها بين ملوك الطوائف سواء

كانوا من اشراف الأُسر العربية او حذاق البربر لم يقف عثرة في سبيل هذه الحية بل كانت شأن عامة ملوك الطوائف شأن اولئك الامراء في ايطاليا عَلَى زمن النهضة يحاولون ان يبرروا مظالمهم بحمايتهم للعلماء ولاسيما الشعراء الذين كانت امادیحهم واهاجيهم عند العرب ذات شأن كبير حتى كان اعظم الخلفاء في بغداد ودمشق يحاول ان يسالمهم ليسالموه ويحسن اليهم ليمدحوه ·

وتقدمت اشبيلية في تلك القصور الخالعة المتحضرة فكان المعتضد ابن عباد ابن القاضي ابي القاسم محمد مؤسس الدولة العبادية من الامراء الظالمين المتهتكين يزرع الورد في جماجم اعدائه الكثار ويسرح طرفه بالنظر الى هذه الحديقة ويدمن الخمر ولكنه ينظم الغزل الرقيق ويمنح الادباء وظل ابنه المعتمد المحبوب الذي هلك في غارة المرابطين احد المشاهير بنظم الاغاني في الادب الاسباني العربي وقد اعطى من اجل بيتين فقدين لعبد الجلال الف دينار · وكان ابن عمار رفيق صباه وحاجبه زمناً شاعراً ايضاً ويساوي مولاه برقة الشعر ورشاقته وكانت رومايكا السلطانة المحبوبة التي استولت طول حياتها عَلَى عقل المعتمد وقلبه مشهورة ببديهتها وهكذا كانت غاية هولاء المفتونين الظرفاء من الحياة ان ينعموا ويترفهوا ولو لم يضيفوا اليها محبة الآداب والصنائع الفكرية لكانت حقيرة ومريرة ·

ولقد نافست مملكة المرية عَلَى صغرها مملكة اشبيلية وكان ابن عباس الوزير الجبار لزهير(١٠٢٨ — ١٠٣٨) يفاخر بيبانه المبرأ من العيوب وما اقتناه في خزانة كتبه التي تبلغ اربعمائة الف مجلد اكثر من مفاخرته بغناه العظيم بالنسبة لعصره · ذكر المعتصم الذي طرده المرابطون كما طردوا المعتمد بانه احسن الملوك العلماء واعدلهم في بلاد الاندلس فكان سخاؤه عَلَى الشعراء متناهياً حتى وهب ابن شرف قرية برمتها لبيت من الشعر قاله · وكانت قطعة من الشعر او قصيدة من المدح الرقيق تمطر عَلَى ناظمها العطايا · وهو يرغب في سماع الاهاجي ولاسيما اذا دلت عَلَى صناعة وخلت من رميه بالبخل ولذا كان الادباء يهرعون الى قصره يخدعونه ويرمونه بمطالبهم التي لا تطاق فخف اليه في المرية طائفة من الشعراء يتبعهم اناس دُجروا اليه من البلاد الاخرى ومن جملتهم ابو الوليد النحلي الذي اغدق عليه المعتصم عطاياه فضحك منه ولكن المعتصم عفا عنه لا بالحط من قدره بل انه اتبع العفو بالاحسان والانعام · ومثله ابن شرف وابن اخت غانم من مالقة وهو ابن اخت اللغوي المشهور غانم غرناطة وابن الحداد من قادش الذي اشتهر بانه اعظم شاعر اندلسي

وكان في الاندلس مثل ابي عبيد البكري ابن احد ملوك الطوائف وهو اعظم جغرافي عربي في اسبانيا وكان له ايضاً حظ وافر من الشعر وله صداقة اكيدة مع المعتصم وكان هذا او جميع أسرته يتعاطون الشعر ولا سيما ما كان منه في الغزليات والخمريات وما زال غزل ابنيه وابنته ام الكرام معروفاً الى اليوم عند كل من اطلعوا عَلَى الآداب العربية ٠

رسخت قواعد الحضارة العربية منذ القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر وبهرت العقول عَلَى ما كان من الفوضى السياسية في جميع اسبانيا الجنوبية بحيث توثر تأثيراً شديداً حتى عَلَى اعدائها الالداء اي الامراء النصارى في شمالي اسبانيا ٠ فانتشر هنا استعمال اللغة العربية بكثرة حركة فرسان ليون واراغون الذين كانوا يذهبون للغزو مع المسلمين ٠ وما كان يراه ملوك نافار وغاليسيا وليون واراغون من ضرورة الاتحاد مع جيرانهم في الجنوب (العرب) فكانوا يؤدون اليهم الجزية عَلَى عهد خلفاء الاندلس وغدا العرب عَلَى عهد الفونس السادس ملك غاليسيا وقشتالة وليون ونافار بعض اقطاعاته

فكان في قصر الفونس السادس ملك اهل الدينين كما كانوا يسمونه اناس من المدققين في اللغة المطلعين كل الاطلاع عَلَى دقائق اللسان العربي بحيث تسهل عليهم مكاتبة امراء الطوائف من المسلمين فقد كان السيد كمبادور يجيد التكلم بالعربية لا فرق بينه في العقل والاخلاق وبين مسلمي بلنسية ٠ ولما دخل الفونس السادس الى طليطلة سنة ١٠٨٥ وكانت هذه المدينة عاصمة الوزغوت القديمة قوي نفوذه من وراء الغاية باستيلائه عليها ولم يأت عملاً يضر بشهرتها بالعلوم الاسلامية وفاء بعهد تعهده في هذا الشأن وكان نقض العهد من المألوفات في عصره لان المسيحيين في الشمال ما زالوا متوحشين ينتفعون من الاحتكاك بالعنصر العربي المختلط في اخلاقه الراقي بعقله وسار خلفاؤه عَلَى قدمه ٠ فاول مدرسة أنشئت في طليطلة اوائل القرن الحادي عشر هي عربية اشتهر امرها عَلَى عهد ملوك قشتالة اي زمن ابي عبدالله محمد بن عيسى المغامي واحمد بن عبد الرحمن بن المطهر الانصاري وغيرهما من الاساتذة ومن هذه المدرسة نشأت تربية الاسبانيين عَلَى مناحي العرب ٠ وفي سنة ١١٣٠ انشأ ريمون رئيس اساقفة طليطلة في هذه المدينة مدرسة للتراجمة وبها رسخت اللغة العربية والافكار العربية في اسبانيا المسيحية (للبحث صلة)

تاريخ الامم والملوك

هو اوسع تاريخ عربي ابتنه الايام لصاحبه ابي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة عشر وثلاثمائة قال ابن خلكان في ترجمته هو صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير كان اماماً في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقة والتاريخ وغير ذلك وله مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله وكان من الائمة المجتهدين لم يقلد احداً ... وكان ثقة في نقله وتاريخه اصح التواريخ واثبتها

هذه خلاصة حال هذا العلامة الكبير وقد اصابه ما اصاب كبار العلماء في الاسلام من الحط من شأنه وايذائه قال ابن الاثير وفي هذه السنة (٣١٠) توفي محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ ببغداد ومولده سنة اربع وعشرين ومائتين ودفن ليلاً بداره لان العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً وادعوا عليه الرفض ثم ادعوا عليه الالحاد وكان علي بن عيسى يقول والله لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والالحاد ما عرفوه ولا فهموه هكذا ذكره ابن مسكويه صاحب تجارب الامم وحاشا ذلك الامام عن مثل هذه الاشياء واما ما ذكره من تعصب العامة فليس الامر كذلك وانما بعض الحنابلة تعصبوا عليه ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم ولذلك سبب وهو ان الطبري جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنف مثله ولم يذكر فيه احمد بن حنبل فقيل له في ذلك فقال لم يكن فقيهاً وانما كان محدثاً فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد فشغبوا عليه وقالوا ما ارادوا

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه ... فالناس اعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسداً وبغضاً انه لدميم

وقال الامام ابو بكر الخطيب كان الطبري احد ائمة العلماء يحكم بقوله ويرجع الى رأيه لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه احد من اهل عصره فكان حافظاً لكتاب الله عارفاً بالقراآت بصيراً بالمعاني فقيهاً في احكام القرآن عالماً بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها ناسخها ومنسوخها عارفاً باقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم في الاحكام ومسائل الحلال والحرام خبيراً بايام الناس واخبارهم وله الكتاب المشهور في تاريخ

الامم والملوك والكتاب الذي في التفسير لم يصنف مثله وله في اصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واخبار من اقاويل الفقهاء وتفرد بمسائل حفظت عنه

وقال ابن خزيمة حين طالع كتاب التفسير للطبري ما اعلم عَلَى اديم الارض اعلم من ابي جعفر ولقد ظلمته الحنابلة وقال ابو محمد عبد الله بن احمد الفرغاني بعد ان ذكر تصانيفه وكان ابو جعفر ممن لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يعدل في علمه وتبيانه عن حق يلزمه لربه وللمسلمين الى باطل لرغبة ولا رهبة مع عظيم ما كان يلحقه من الاذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد واما اهل الدين والورع فغير منكرين علمه وفضله وزهده وتركه الدنيا مع اقبالها عليه وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها له ابوه بطبرستان يسيرة

يعدهذا التاريخ من المطولات بل هو اطول واجمع تاريخ للقرون الاولى الثلاثة وقد كان مؤلفه يريد ان يتوسع فيه اكثر مما توسع حتى عرض عَلَى تلاميذه قبل الشروع في تأليفه انه يريد ان يملي عليهم تاريخًا فقالوا له كم يكون حجمه فقال ثلاثون الف ورقة فقالوا تفنى الاعمار ولا يستوفى مطالعة فقال حسبي الله ماتت الهمم واملاه في ثلاثة آلاف ورقة كما انتهى الينا

فجاء تاريخ ابن جرير مأخذاً للمؤرخين وطالبي التوسع في الوقوف عَلَى اخبار القرون الراقية في الامم وقد كبر حجمه بالاسانيد والروايات عَلَى طريقة المحدثين الا ان الحوادث بادية من خلال سطوره تنال بادنى نظر . مثال ذلك ما رواه في الجزء الاول من الكلام عَلَى خلق العالم نقلاً عن الاسرائيليات فانه بعد ان نقل الموضوعات كلها قال ان صح ما روي عن رسول الله (ص) بحيث يتوهم المطالع قبل ان يصل الى هذا الكلام ان ما اورده وعني به هو الحقيقة التي لا شائبة فيها

وتاريخ ابن جرير مرتب على السنين مثل تاريخ الكامل لابن الاثير وتاريخ ابي الفداء والمسعودي وغيرهم ومن تطويله في سرد الكوائن يستفيد المطالع اشياء كثيرة فينتفع الكاتب من حسن العبارة وجودة سبكها ويقف عَلَى تعابير فصيحة قد لا يعرفها وليست مألوفة لهذا العهد والشاعر يتعلم ضروبًا من الشعر والمقاطيع عَلَى اختلاف العصور خصوصًا والشعر كله مشكول كما شكلت الآيات القرانية والكلمات التي ربما تلتبس بل يستفيد الجندي كيفية تعبئة الجيوش في تلك الاعصر ويتعلم المكايد والباحث في الاجتماع يقع عَلَى فوائد مهمة

وفي هذا الكتاب قصائد نظمت عَلَى البديهة لشعراء مشهورين وغيرهم ومقاطيع قيلت في المناسبة وانشدت بدواعٍ خاصة وفيه رسائل الخلفاء لعمالهم ورسائل العمال لخلفائهم ومعظمها في الغاية ايجازاً وبياناً ينسج منعطم البيان والخطابة والشعر عَلَى منوالها وفيه من الحوادث كمقتل الحسين وشيعته مثلاً ما لو جرد لكان قصصاً تاريخية حماسية فمن ذلك كلام لحيان بن ظبيان احد زعماء الخوارج قاله لاصحابه : انه والله ما يبقى عَلَى الدهر باقٍ وما تلبث الليالي والايام والسنون والشهور عَلَى ابن آدم حتى تذيقه الموت فيفارق الاخوان الصالحين ويدع الدنيا التي لا يبكي عليها الا العجزة ولم تزل ضارة لمن كانت له هماً وشجناً فانصرفوا بنا رحمكم الله الى مصرنا فلنأت اخواننا فلندعهم الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والى جهاد الاحزاب فانه لا عذر لنا في القعود وولاتنا ظلمة وسنة الهدى متروكة وثأرنا الذين قتلوا اخواننا في المجالس آمنون فان يظفرنا الله بهم نعمد بعد الى التي هي اهدى وارضى واقوم ويشفي الله بذلك صدور قوم مؤمنين وان نقتل فان في مفارقة الظالمين راحة لنا ولنا باسلافنا أسوة

وقال زياد لما استعمله معاوية عَلَى البصرة وخراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان فقدم البصرة سنة ٦٥ والفسق بالبصرة ظاهر فاش فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها وقيل بل حمد الله فقال: الحمد لله عَلَى افضاله واحسانه ونسأله المزيد من نعمه اللهم كما رزقتنا نعماً فالهمنا شكراً عَلَى نعمتك علينا اما بعد فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغي الموقد لاهله النار الباقي عليهم سعيرها ما يأتي سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى منها الكبير كأن لم تسمعوا بآي الله ولم تقرؤا كتاب الله ولم تسمعوا مـا اعد الله من الثواب الكريم لاهل طاعته والعذاب الاليم لاهل معصيته في الزمن السرمد الذي لا يزول اتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية عَلَى الباقية ولا تذكرون انكم احدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا به من ترككم هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل الم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغطون عَلَى المختلس . كل امرىء منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عقاباً ولا يرجو معاداً ما انتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب حرم عليَّ الطعام والشراب أسويها بارض هدماً واحراقاً اني

رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح اوله لين في غير ضعف وشدة في غير جبرية وعنف واني اقسم بالله لآخذن الولي بالولي والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد او تستقيم لي قناتكم ان كذبة المنبر تبقى مشهورة فاذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي من بيت منكم فانا ضامن لما ذهب له اياي ودلج الليل فاني لا أوتى بمدلج الا سفكت دمه وقد اجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع اليّ واياي ودعوى الجاهلية فاني لا اجد احداً دعا بها الا قطعت لسانه وقد احدثتم احداثاً لم تكن وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوماً غرقته ومن حرق عَلَى قوم حرقناه ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته حياً فكفوا عني ايديكم والسنتكم اكفف يدي واذاي لا يظهر من احد منكم خلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه وقد كانت بيني وبين اقوام احن فجعلت ذلك دبر اذني وتحت قدمي فمن كان منكم محسناً فليزدد احساناً ومن كان مسيئاً فلينزع عن اساءته اني لو علمت ان احدكم قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعا ولم اهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فاذا فعل لم اناظره فاستأنفوا اموركم واعينوا عَلَى انفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس . ايها الناس انا اصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم واعلموا اني مهما قصرت عنه فاني لا اقصر عن ثلث لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو اتاني طارق بليل ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن ابانه ولا مجمراً لكم بعثاً فادعوا الله بالصلاح لائمتكم فانهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذي اليه تأوون ومتى تصلحوا يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع انه لو استجيب لكم كان شراً لكم اسأل الله ان يعين كلاً عَلَى كل واذا رأيتموني أنفذ فيكم الامر فانفذوه عَلَى أذلاله وأيم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاي اه

نقلت هذه الخطبة عَلَى طولها لانها مرآة ذاك الزمان وعلامة عَلَى استحكام ازمة الاحكام في رقاب الامة ولأن فيها من الشدة واللين والتفنن في اساليب التأثير مما لا يتسنى قول مثله اليوم الا لاناس من رجال الغرب ممن مرنوا عَلَى الخطابة ودربوا عليها فكانت ملكة البيان فيهم طبيعية هذا فضلاً عما حوت من البلاغة والفصاحة . وزياد هو

الذي وطد الملك لمعاوية ويزيد وقتل الحسين واشتد في استئصال شأفته وكان يقول لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من اخذه وكتب خمسمائة من مشيخة اهل البصرة في صحابته فرزقهم ما بين الثلثمائة الى الخمسمائة فقال فيه حارثة بن بدر الغداني

ألا من مبلغٌ عني زياداً ... فنعم اخو الخليفة والاميرُ
فانتَ امام معدلة وقصد ... وحزم حين يحضرك الامور
اخوك خليفة الله ابن حربٍ ... وانت وزيره نعم الوزير
تصيب عَلَى الهوى منه ويأتي ... محبك ما يجن لنا الضمير
بامر الله منصورٌ معانٌ ... اذا جار الرعية لا تجور
يدرُّ عَلَي يديك لما ارادوا ... من الدنيا لهم حلب غزيرُ
وتقسم بالسواء فلا غنيٌّ ... لضيم يشتكيك ولا فقير
وكنت حياً وجئت عَلَى زمان ... خبيث ظاهر فيه شرور
تقاسمت الرجال به هواها ... فما تخفي ضغائنها الصدور
وخاف الحاضرون وكل بادٍ ... يقيم عَلَي المخافة او يسير
فلما قام سيفُ الله فيهم ... زياد قام ابلج مستنير
قويٌّ لامن الحدثان غرٌّ ... ولا جزع ولا فانٍ كبير

ومما ورد فيه من الشعر وهو ما نورده مثالاً ما قالته هندابنة زيدبن مخرمةالانصارية وكانت تشيع ترثي حجر بن عدي من زعماء الشيعة وقد قتله معاوية بواسطة عامله زياد

ترفع ايها القمر المنير ... تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب ... ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبابر بعد حجر ... وطاب لها الخورنق والسدير
واصبحت البلاد لها محولاً ... كأن لم يحيها مزنٌ مطير
الا يا حجر حجر بني عدي ... تلقتك السلامة والسرور
اخاف عليك ما اردي عديًا ... وشيخًا في دمشق له زئير
يرى قتل الخيار عليه حقًا ... له من شر امته وزير
الا يا ليت حجراً مات موتًا ... ولم ينحر كما نحر البعير

فان يهلك فكل زعيم قوم من الدنيا الى هلك يصير

ومن خطب الحسين خطبة خطبها اصحابه لما احيط به وقام اصحابه يدعونه للمطالبة بحقه قال : ايها الناس ان رسول الله (ص) قال من رأى سلطانا جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله (ص) يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً عليَّ الله ان يدخله مدخله ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمان واظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء واحلوا حرام الله وحرموا حلاله وانا احق من غير وقد اتتني كتبكم وقدمت عليَّ رسلكم ببيعتكم انكم لا تسلموني ولا تخذلوني فان تممتم عليَّ بيعتكم تصيبوا رشدكم فانا الحسين ابن علي وابن فاطمة بنت رسول الله (ص) نفسي مع انفسكم واهلي مع اهلكم فلكم فيَّ اسوة وان لم تفعلوا او نقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من اعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر لقد فعلتموها بابي واخي وابن عمي مسلم والمغرور من اغتر بكم فحظكم اخطأتم ونصيبكم منعتم ومن نكث فانما ينكث عليَّ نفسه وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ومن جملة فوائده ما ذكره في حوادث سنة ٧١ ان عبد الملك بن مروان لما قتل مصعبا ودخل الكوفة امر بطعام كثير فصنع وامر به الى الخورنق وأذن إذناً عاماً فدخل الناس فاخذوا مجالسهم فدخل عمرو ابن حريث المخزومي فقال اليَّ وعلي سريري فاجلسه معه ثم قال اي الطعام اكلت احبُّ اليك واشهى عندك قال عناق حمراء قد أجيد تمليحها وأحكم نضجها قال: ما صنعت شيئاً فأين انت من عمروس راضع قد أجيد سمطه وأحكم نضجه اختلجت اليك رجله فاتبعتها يده غذي بشريجين من لبن وسمن ثم جاءت الموائد فاكلوا فقال عبد الملك بن مروان ما الذ عيشنا لو ان شيئاً يدوم ولكنا كما قال الاول

وكل جديد يا أميم الى بلىً وكل امريء يوماً يصير الى كان

فلما فرغ من الطعام طاف عبد الملك في القصر يقول لعمرو بن حريث لمن هذا البيت ومن بنى هذا البيت وعمرو يخبره فقال عبد الملك :

وكل جديد يا اميم الى بلى وكل امريء يوماً يصير الى كان

ثم اتى مجلسه فاستلقى وقال

إعمل عَلَى مهل فانك ميتٌ واكدح لنفسك ايها الانسان
فكأن ما قد كان لم يك اذمضى وكأن ما هو كائنٌ قد كان

ومن فوائده سأل المهدي يوماً كاتبه ابا عبيد الله بن زياد بن ابي ليلى عن اشعار العرب فصنفها له فقال احكمها قول طرفة بن العبد

ارى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوي في البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
ارى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد
ارى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الايام والدهر ينفد
لعمرك ان الموت ما اخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد

وقوله

وقد ارانا كلانا هم صاحبه لو ان شيئاً اذا ما فاتنا رجعا
وكان شيء الى شيء نفرقه دهر يكر على تفريق ما جمعا

وقول لبيد

الا تسألان المرء ماذا يحاول انحب فيقضي ام ضلال وباطل
الا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
ارى الناس لا يدرون ما قدر امرهم بلى كل ذي رأي الى الله واصل

وكقول النابغة الجعدي

وقد طال عهدي بالشباب واهله ولاقيت روعات تشيب النواصيا
فلم اجد الاخوان الا صحابة ولم اجد الاهلين الا مثاويا
الم تعلمي ان قد رزئت محاربا فما لك منه اليوم شيئاً ولا ليا

وكقول هدبة بن خشرم

ولست بمفراح اذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا ابتغي الشر والشر تاركي ولكن متى احمل على الشر اركب
وما يعرف الاقوام للدهر حقه وما الدهر مما يكرهون بمعتب
وللدهر في اهل الفتى وتلاده نصيب كحز الجازر المتشعب

وكقول زيادة بن زيد وتمثل به عبد الملك بن مروان

تذكر عن شحط اميمة فارعوى لها بعد اكثار وطول نحيب
وان امرأ قد جرب الدهر لم يخف تقلب عصريه لغير لبيب
هل الدهر والايام الا كما ترى رزيئة مال او فراق حبيب

وكلُّ الذي يأتي فأنتَ نسيبه ولست لشيءٍ ذاهب بنسيب
وليس بعيدٌ ما يجيء كمقبلٍ ولا ما مضى من مفرح بقريب

وكقول ابن مقبل

لما رأَت بدل الشباب بكت له والشيب ارذلُ هذه الأَبدال
والناس همهم الحياة ولا ارى طول الحيوة يزيد غير خبال
واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الاعمال

كتب سفيان بن ابي العالية احد قواد الحجاج وكان بعث به لقتال بعض اعدائه : اما بعد فاني اخبر الامير اصلحه الله اني اتبعت هذه المارقة حتى لحقتهم بخانقين فقتلتهم فضرب الله وجوههم ونصرنا عليهم فبينا نحن كذلك اذ اتاهم قوم كانوا غُيَّباً عنهم فحملوا عَلَى الناس فهزموهم فنزلت في رجال من اهل الدين والصبر فقاتلتهم حتى ضربت بين القتلى فحملت مرتثّاً فأُتي بي بابل مهروذ فها انا بها والجند الذين وجههم اليّ الامير وافوا الا سورة بن أَبجر فانه لم يأتني ولم يشهد معي حتى اذا ما نزلت بابل مهروذ اتاني يقول ما لا اعرف ويعتذر بغير العذر والسلام. فلما قرأ الحجاج الكتاب قال من صنع كما صنع هذا وابلى كما ابلى فقد احسن ثم كتب اليه : اما بعد فقد احسنت البلاد وقضيت الذي عليك فاذا خف عنك الوجع فأقبل مأجوراً الى اهلك والسلام. وكتب الى سورة بن ابجر : اما بعد فيا ابن ام سورة ما كنت خليقاً ان تجتريء عَلَى ترك عهدي وخذلان جندي فاذا اتاك كتابي فابعث رجلاً ممن معك صليبا الى الخيل التي بالمدائن فلينتخب منهم خمس مائة رجل ثم يقدم بهم عليك ثم سر بهم حتى تلقى هذه المارقة واحزم في امرك وكد عدوك فان افضل امر الحرب حسن المكيدة والسلام

ومع ان الحجاج معروف بالشدة فاقرأ ما يلي تعرف انه للشدة تارة وللين اخرى : كتب اليه شبيب احد قواده : اما بعد فاني اخبر الامير اصلحه الله اني خرجت فيمن قبلي من الجند الذي وجهني فيه الى عدوه وقد كنت حفظت عهد الامير اليَّ ورأيه فيهم فكنت اخرج اليهم اذا رأيت الفرصة واحبس الناس عنهم اذا خشيت الورطة فلم ازل كذلك ولقد ارادني العدو بكل ارادة فلم يصب مني غرةً حتى قدم عليَّ سعيد بن مجالد رحمة الله عليه ولقد امرته بالتوءدة ونهيته عن العجلة وامرته ان لا يقاتلهم الا في جماعة الناس عامة فعصاني وتعجل اليهم في الخيل فاشهدت عليه اهل المصرين اني بريء من رأيه الذي رأى واني لا اهوى ما صنع فمضى فاصيب تجاوز الله عنه ودفع الناس اليَّ فنزلت

ودعوتهم اليَّ ورفضت لم رايتي وقاتلت حتى صرعت فحملني اصحابي من بين القتلى فما افقت الا وانا عَلَى ايديهم عَلَى رأس ميل من المعركة فانا اليوم بالمدائن في جراحة قد يموت الرجل من دونها و يعافى من مثلها فليسئل الامير اصلحه الله عن نصيحتي له وللجنده وعن مكايدتي عدوه وعن موقفي يوم البأس فانه يستبين له عن ذلك اني قد صدقته ونصحت له والسلام · فكتب اليه الحجاج اما بعد فقد اتاني كتابك وقرأته وفهمت كل ما ذكرت فيه من امر بسعيد وعجلته الي عدوه فقد رضيت عجلته وتوءدتك فلما عجلته فانها افضت به الى الجنة واما توءدتك فانهـا لم تدع الفرصة اذ امكنت وترك الفرصة اذا لم تمكن حزم وقد اصبت واحسنت البلاء وأجرت وانت عندي من اهل السمع والطاعة والنصيحة وقد اشخصت اليك حيان[1] بن ابجر ليداويك ويعالج جراحتك وبعثت اليك بالفي درهم فانفقها في حاجتك وما ينوبك والسلام

هذه نموذجات من فوائد الكتاب الممتع ولو اتسع المقام لافضنا فيه اكثر مما افضنا فان استيعاب الكلام عَلَى اثني عشر مجلداً لا يتأتى في بضع صفحات



مطبوعات ومخطوطات

الاشتقاق والتعريب

تأليف عبد القادر افندي المغربي

طبع بمطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٠٩ ص ١٤٦

صاحب هذه الرسالة من بلغاء الكتاب ومصنفه هذا يبحث فيما يعرض للغة العربية من تكاثر كلماتها بواسطتي الاشتقاق والتعريب وان هذا الاخير طبيعي في لغتنا وفي غيرها من اللغات وان استعمال المعرب لايحط من قدر فصاحة الكلام · وقد افاض في الاشتقاق والقلب والابدال والنحت وشروط التعريب ومعربات السنة والكلام المولد والمحدث افاضة اتى فيها ببعض الشواهد عَلَى مقصده · فنثني عليه الثناء الطيب لعنايته بهذا الموضوع وبالية رجع الى ما قاله الباحثون في هذا الفن واستشهد

(١) حيان بن ابجر الكناني من بني فراس وهم يعالجون الكي وغيره

تأييداً لقوله بكلام الباحثين ولاسيما علماء المشرقيات الذين بحثوا الحسن بحث في اصول اللغات لاسيما السامية فيها

تاريخ النصيرية

للسيو رنى دوسو

هو المستشرق الفرنسوي العالم صاحب كتاب لغة الصفا وغيره من المصنفات المفيدة وله جلد على التأليف واكثر ما يكتب يتعلق ببلاد الشام وسكانها قدمائهم ومحدثيهم . وقد كتب كتاباً في تاريخ النصيرية ودياناتهم تظهر له بعد التحقيق انهم شيعة اسلامية فساء قوله بعضهم فرد عليه بان اصلهم مسيحيون وهذه كانت بين الفريقين نقطة الخلاف

وصف دوسو بلاد النصيرية وهي جبلية يحيط بها من الجنوب نهر الكبير ومن الشرق والشمال نهر العاصي ومن الغرب الساحل وجبل النصيرية يمتد من نهر الكبير الى حوالى صهيون والزاوية التي تهبط بين نهر الكبير من الشمال والعاصي يطلق عليها اسم جبل الاكراد والنصيرية ضاربون ايضاً في انطاكية حيث اشتهروا بصناعاتهم وسعة عيشهم . وبين سكان الجبال والسهل من التناقض ما يدهش . ذلك ان قلة فائدة العمل في المقاطعات الجبلية اورثت النصيري الكسل والجهل فعاش من غلة وقتية ومن السلب والنهب على حين غدا في انطاكية ملاكا وتاجراً مستعداً لانواع الصنائع وعلى شيء من الغنى وفتح له في مرسين وطرسوس واذنة اعمالاً رابحة ناجحة . وفي بلاد النصيرية بعض قرى للارمن حوالى القدموس وفي جبل النصيرية ايضاً بقايا الاسماعيلية القدماء النازلين اليوم في مصيات وقدموس وماوالاهما

وهم يكتمون نفوسهم فراراً من الجندية ولذلك لا ثقة بالاحصاء فعددهم مائة وثلاثون الفاً في سورية ويبلغ عددهم اذا اضيف اليه النازلون في تلك المدن مائة وخمسين الفاً وهم قلائل اذا نسبوا الى البلاد التي يشغلونها وهي اوسع مجالاً من سائر ما يشغله الشيع والشعوب الراحلة في سورية . وفي رأي المؤلف ان عددهم ايام ارتقائهم كان عشرة اضعافه اليوم . قال وهم بادية قائمون على الفلح والحرث وقلما يسكنون المدن دع عنك انطاكية وجسر الشغور واللاذقية

قال وخبط الناس في اصل النصيرية حتى ادعى بعضهم انهم اخلاط من الوطنيين اختلطوا مع الفرنجة في القرن الثاني عشر والثالث عشر فزعموا ان نصيري اصله من

نصراني وهو اسم تصغير، وهذا رأي رنان وقد رده المسيو دوسو بالبرهان القاطع قائلاً ان الرأي الشائع اليوم في الاندية العلمية ان اسم النصيرية اتى من محمد بن نصير ويقول ستانيسلاس كويارد المؤلف المشهور ان الديانة النصيرية نشأت كالاسماعيلية في اواخر القرن التاسع على يد الامام الحادي عشر من الشيعة حسن العسكري وكان مقيماً في سامرا بالقرب من بغداد . فالديانة النصيرية كان لها اذاً اصل مشابه لديانة الاسماعيلية فدعا وجه الشبه بين الفرقتين الى ان اخطأ اهل التأليف المسلمين بجزمهم ان الديانتين متحدتان جوهراً وعرضاً مع ان بينهما اختلافاً ومشاكسات

وقصارى القول فقد فصل المؤلف احوال هذه الطائفة تفصيلاً شافياً مشفوعاً باقوال العلماء من مسلمين وافرنج فذكر فيه اسم مائة وخمسة عشر مؤلفاً ومصدراً ذكرت النصيرية فاستقى المؤلف من مواردها ثم اتبعه بفصل في مسكنهم واصلهم ومنشأهم منذ العهد الروماني الى ايامنا ثم اشبع الكلام على عاداتهم واخلاقهم . هكذا علماء الغرب يبحثون في بلادنا فاين هم منا واين علماؤنا من علمائهم فشكراً لفضلهم وبيض اياديهم

ارشاد الاريب الى معرفة الاديب

المعروف بمعجم الادباء او طبقات الادباء لياقوت الرومي

عني بنسخه وتصحيحه الاستاذ د٠ س٠ مرجليوث

طبع بمطبعة هندية بالموسكي بمصر سنة ١٩٠٩ ص ٤٣٨

لناشر هذا الكتاب ومعلق حواشيه الاستاذ مرجليوث من علماء المشرقيات الانكليز فضل على الآداب باحياء هذا الكتاب النفيس بعد ان كاد يأتي عليه العفاء كما ثبت له الفضل باحياء غيره من آثار العرب وقد توسع ياقوت الرومي صاحب معجم البلدان في ترجمة بعض من خدموا الادب العربي الى عهده وذكر من نكاتهم واخبارهم ومنثورهم ونظامهم ما هو مرآة الحياة الاجتماعية والادبية والعلمية في الاعصار الستة الاولى للاسلام واختصر في تراجم بعضهم على القدر الذي عرفه منهم واشتهروا به بين الناس وفي هذا الجزء بقية من اول اسمائهم الف الى من اول اسمائهم جيم وعدد المترجمين فيه ١٦١ ومنهم على شهرتهم وخدمتهم للآداب من لم نظفر لهم بترجمة فيما بين ايدينا من كتب الطبقات والتراجم مثل احمد بن يوسف بن صبيح كاتب المأمون . وبطبع هذا الكتاب ونشره بين الناس تتم سلسلة مهمة من سلاسل التاريخ العربي وسيكون كله في ستة

اجزاء نشر منهما الآن اثنان . وفق الله القائم بنشرهما واعانه على خدمة الفروع التي اختصه بها لخدمة العلم والآداب

ديوان رستم

طبع بالمطبعة الادبية في بيروت

ص ٤٠٠

اسعد افندي رستم ممن ولعوا بنظم الشعر الفكاهي العصري وقد أفرد منظوماته في ديوان خاص فجاء مجموعة أدب وظرف وفكاهة . والظاهر ان الناظم توخى في منظوماته الالفاظ العامية ليحكم ايراد النكات والفكاهات ولئلا يستعصي فهمه حتى على الطبقة المنحطة من ابناء الامة على حين ان في صميم اللغة العربية كما علم الناظم من الالفاظ الجزلة المستملحة ما فيه الغناء دون كبير عناء

رحلة الى اليمن سنة ١٨٦١

نشرها بالافرنسية الاب انستاس ماري الكرملي

طبعت اولاً في مجلة الانتروبوس (الانسان) في النمسا

هي رحلة رحلها الخواجه ميخا يوسف النجار البغدادي الى اليمن ولقي فيها ما يلاقيه ارباب الرحلات في البلاد الشرقية عادة وهي لا تخلو من فوائد اجتماعية وغيرها في خصائص البلاد والشعوب

الحرية في الاسلام

تأليف السيد محمد الخضر بن الحسين التونسي

طبعت بالمطبعة التونسية بنهج سوق البلاط بتونس سنة ١٣٢٧ — ١٩٠٩

وعدد صفحاتها ٦٤ ص

هذا الموضوع من اجل الموضوعات المثقفة للعقول ذكر مؤلفه حقيقة الحرية والشورى والمساواة والحرية في الاموال وفي الاعراض وفي الدماء وفي الدين وفي خطاب الامراء واجاد في كيفية الاستخراج من الكتاب والسنة وتاريخ السلف والتطبيق على حالة العصر مما دل على عراقته في احوال العصر وتمكنه من احكام الشريعة وهو من المدرسين بجامع الزيتونة الاعظم له حظ وافر من الانشاء والتاريخ

محاضرات

ادبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب

باعتبار علاقتها باوربا وخصوصاً بايطاليا للسنيور جويدي

طبعت في مجلة الجامعة المصرية اولاً ص ١٠٩

هذه الرسالة في موضوع جليل يكاد يكون بكراً بالنسبة الينا القاه الاستاذ الشيخ المؤلف على طلبة الجامعة المصرية بلغة العرب وهو ايطالي الجنس والمنشأ معدود من اهل الطبقة الاولى بين المستشرقين الاوربيين · وهذه الدروس هي اربعون درساً كلها جمة فوائد نستدل منها على خدمة العرب لهذه الفنون الجميلة فنشكر له ولاصحاب مجلة الجامعة المصرية التي تنقل الينا زبدة دروس العلماء في كلية هي اول مفخر من مفاخر مصر ·

بلاغة الغرب

نحن اليوم في دور مثل صفحة البحر يريد ان لايترك فروقاً بين اجزاء الناس ولا مميزات في منازعهم وان لا يدع سمواً في الشعوب ولا انخفاضاً · فهو معمل عظيم الأدوات منوع الآلات يعمل ليل نهار ليبرهن للأدوار الغابرة أنه هو اول ما تغلب بالفعل على إشاعة المساواة والاخاء والتعارف واطراح التباين والتباعد والانقسام ·

فالبخار والكهرباء قد قضيا على استئثار القطر الواحد زرعه وضرعه وصنعه واشركا أطراف الارض كلها بالانتفاع مما يخرجه لبنيه كما خول بنيه التمتع بثمرات الطبيعة والناس في الاقطار الاخرى لسد حاجهم

والطباعة والصحافة كالبخار والكهرباء تنقلان ثمار العقول ونتائج التفكير من ارض الى ارض وتشيعانه من شعب الى شعب كما يتوصل زمننا الى ما أراده من القضاء على التخالف ·

على هذه الطريقة تجري روح العصر في حضارتها ولكن كثيراً ما يكون امام الباخرة فيما بين البحر والبحر برزخ وفي وجه القطار والقاطرة فيما بين البر والبر جبل ودون الطباعة والصحافة في نقل التفكير من دماغ الى آخر عجمة فرأت الهاكمون بامر هذا

العمل في القديم والحديث ان لا مندوحة لهم من حفر ترعة في البرزخ بين البحرين ونقب نفق في الجبل بين البرين وفتح منفذ الترجمة بين اللغتين

وان الانسان ليذهل لكثرة ما يراه من تفكيرهم وموازناتهم وحسابهم ومقايساتهم عند اختيار البرزخ ليحفروه ترعة والجبل لينقبوه نفقاً والمصنف او القطعة لينقلوها من لغة الى لغة وعدة اصحاب الالباب الاختيار دليلاً على اللبيب وميزاناً له

امامي الآن كتاب (بلاغة الغرب) وهو مجموع ما اختاره محمد افندي كامل حجاج المصري من منثور الافرنسية ومنظومها ونقله الى العربية مصدراً القطع بشيء من تاريخ حياة اصحابها وقد جاء فيه نموذج مما كتبه هيكو ولامارتين والفرد دي موسي واندري شينيه ودو فيني وكوبه وروستان ودوده وتيوفيل غوتيه وكورنيل وراسين .

واني اشكر لمحمد افندي كامل واكل من يصرف وقتاً في نقل شيء من العلم والادب الى لغتنا وفتح منفذ بيننا وبين جاراتنا من الامم ولكني انتقد عليه تسميته الكتاب ببلاغة الغرب في حين انه لم يرفع لنا فيه الستار الا عن بعض ادباء الفرنسيس وادبيات هؤلاء غير ادبيات الالمان والروس والانكليز . كما اني اتعجب كثيراً من اغفاله بالزاك وفلوبر وزولا والأخوان غونكور وغيرهم من زعماء مذهب الحقيقيين (ريالزم) وصرفه صفحات الكتاب جزافاً للادباء الخياليين (رومانتيست) مع اننا في زمان احوج فيه الى الهبوط من ثريا الخيال المزوق الى ثرى الحقيقة المريرة وان يتعلم القصصيون عندنا من زولا والشعراء من كوبه والمؤلفون من فلوبر كيف يصرفون الاشهر الطويلة والليالي الليلاء الباردة في اعماق المناجم وزوايا التصور واطراف المعابد وابواب الحانات ليقفوا على سرائر طبقات الهيئة الاجتماعية ويطلعوا الامة على ويلاتها وادوائها وجروحها كما هي لا سيما وهم يريدون ان تكون وهم خلف منضداتهم مرتاحون يتلاعبون بالعقول كما تشاء السياسة طوراً ويغشون القراء بما توحيه اهواؤهم تارة

وفي الكتاب غير اقتضاب تراجم المشاهير واغفال البحث في مذاهبهم الادبية تساهل لغوي في المفردات والتراكيب مثل استعمال مرسح والصحيح مسرح وصبحية والصواب صبيحة ومواضيع بدل موضوعات واثباته اسم الفردموسى كما يستعمله الفرنج دوموسيه وقوله مذهب المحققين واحسن ان نقول مذهب الحقيقيين وقوله قبل قطعة الدرس الاخير لالفونس دوده وقد دعاني لكتابة هذا وكان الاولى ان يقول الى تعريب هذا وقوله المؤلف الرئيسي وهذا التعبير لا تعرفه العرب وتأنيسه الرأس بقوله رأسه الصلعاء

وقوله حارب ضد لويس بونابارت حيث كان يقال ناضل عنه وتكريره كلمة هذا في قوله يتلألأ في كبدها بدر (هذا) المولود الذي اختاره القادر ليقبض على صولجان (هذا) الملك الفخم فما كان (لهذا) الشعب الصارخ الا ان صمت واستكان لظهور (هذا) المولود

والكتاب جيد الطبع يقع في مائتي صفحة · محب الدين الخطيب

كتاب خصائص اللغة العربية

في اصول العربية للامام ابي الفتح عثمان بن جني · هذا الامام ممن اشتهر بالاجادة بالتأليف واشهر مؤلفاته هذا الكتاب وهو كتاب تعرض فيه لاصول العربية على نحو اصول الكلام والفقه ابان فيه ما اودعته هذه اللغة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائم الاتقان والصنعة وقد قال في اثنائه : ان هذا الكتاب ليس مبنياً على حديث وجوب الاعراب وانما هو مقام القول على اوائل اصول هذا الكلام وكيف بدئ والى م نحي · وهو كتاب يتساهم ذوو النظر من المتكلمين والفقهاء والمتفلسفين والنحاة والكتاب والمتأدبين تأملاً له والبحث عن مستودعه فقد وجب ان يخاطب كل انسان منهم بما يعتاده و يأنس به ليكون لهم سهم منه

وقد الفه بعد ان اناف عمره على الستين كما اشار اليه عند قوله : ومن ظريف حديث هذا الخاطر اني كنت منذ زمن طويل رأيت رأياً جمعت فيه بين معنى آية ومعنى قول الشاعر

وكنت امشي على رجلين معتدلاً نصرت امشي على اخرى من الشجر

ولم اثبت حينئذ شرح حال الجمع بينهما ثقة بحضوره متى استحضرته ثم اني الى الآن وقد مضى لي سنون اعاني الخاطر واستمده واعانيه واتورده على ان يسمح لي بما كان رأيته من الجمع بين معنى الآية والبيت به وهو معتاص متأبٍّ وضنين به غير معط

والكتاب مشتمل على ابواب شتى يصعب ايرادها لكثرتها وهاك شيئاً مما اشتملت عليه بعض الابواب مما له علاقة باهل الآداب · ذكر في باب القول على اجماع اهل العربية متى يكون حجة : اعلم ان اجماع اهل البلدين انما يكون حجة اذا اعطاك خصمك يده ان لا تخالف المنصوص والمقيس على المنصوص فاما ان لم يعط يده بذلك فلا يكون اجماعهم حجة عليه ثم قال الا اننا مع هذا الذي رأيناه وسوغنا مرتكبه لا نسمح له بالاقدام على

مخالفة الجماعة التي قـد طال بحثها ونقدم نظرها وتتالت اواخر عَلَى اوائل واعجازاً على كلاكل ... الا بد ان يناهضه اقرانًا ويباينه عرنانًا ولا يخلو الى سانح خاطره ولا الى نزوة من نزوات تفكره فاذا هو حذاها عَلَى هذا المثال وباشر بانعام تصفحه اضاءة الحال امضى الرأي فيما يريه الله منه غير معاز به ولا غاض من السلف رحمهم الله في شيء منه فانه اذا فعل ذلك سدد رأيه وشيع خاطره وكان الصواب مئنة ومن التوفيق مظنة وقد قال ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ما عَلَى الناس شيء اضر من قولهم ما ترك الاول للآخر شيئًا وقال ابو عثمان واذا قال العالم قولاً متقدمًا فللمتعلم الاقتداء به والانتصار له والاحتجاج لخلافه اذا وجد الى ذلك سبيلاً وقال الطائي الكبير

يقول من تطرق اسماعه كم ترك الاول للآخر

وقال في باب الرد عَلَى من ادعى عَلَى العرب عنايتها بالالفاظ واغفالها المعاني : اعلم ان هذا الباب من اشرف فصول العربية واكرمها واعلاها وانزهها واذا تأملته عرفت منه وبه ما يونقك وتذهب في الاستحسان كل مذهب بك وذلك ان العرب كما تعنى بالفاظها وتصلحها وتهذبها وتداعيها وتلاحظ احكامها بالشعر تارة وبالخطب اخرى وبالاسجاع التي تلزمها وتتكلف استمرارها فان المعاني اقوى عندها واكرم عليها وافخم قدراً في نفوسها فأول ذلك عنايتها بالفاظها فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقًا الى اظهار اغراضها ومراميها اصلحوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك اوقع لها في السمع واذهب بها في الدلالة عَلَى القصد الا ترى ان المثل اذا كان مسجوعًا لذ لسامعه فحفظه فاذا هو حفظه كان جديراً باستعماله ولو لم يكن مسجوعًا لم تأنس النفس به ولا انقت لمستعمله واذا لم يكن كذلك لم تحفظه واذا لم تحفظه لم تطالب انفسها باستعمال ما وضع له وجيء به من اجله . وقال لنا ابو علي يومًا قال لنا ابو بكر اذا لم تفهموا كلامي فاحفظوه فانكم اذا حفظتموه(؟)وكذلك الشعر النفس احفظ واليه اسرع الا ترى ان الشاعر قد يكون راعيًا جافًا او عبداً عسيفًا تنبو صورته وتمج جملته فيقول ما يقول من الشعر فلاجل قوله وما يورده عليه من طلاوته وعذوبة مسمعه وما تصير قوله كلما يرجع اليه ويقاس به الا ترى الى قول العبد الاسود

ان كنت عبداً فنفسي حرة كرمًا او اسود اللون اني ابيض الخلق

وقول نصيب

سودت ولم املك سوادي وتحته قميص من القوهي بيض بنائقه

وقول الآخر

اني وان كنت صغيراً سني   وكان في العين نبوٌ عني
فان شيطاني امير الجن   يذهب بي في الشعر كل فن
حتى يزيل عني التظني

فاذا رأيت العرب قد اصلحوا الفاظها وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها وصقلوا عزوبها وارهفوها فلا ترين ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف منها ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحصينه وتكوينه وتقديسه وانما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعى وشايه وجوازه بما يعطر نشره فلا يعترجوهره كما قد عد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه فان قلت فانا نجد من الفاظهم ما قد نمقوه وزخرفوه ووشوه ودبجوه ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفًا بل لا نجده قصداً ولا مقاربًا الا ترى الى قوله رحمه الله

ولما قضينا من منى كل حاجة   ومسح بالاركان ما هو ماسح
اخذنا باطراف الاحاديث بيننا   وسالت باعناق المطي الاباطح

وقد ترى الى علو هذا اللفظ وما به وصقاله وتلاحم انحائه ومعناه مع هذا ما تحته وتراه انما هو لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الابل ولهذا نظائر كثيرة شريفة الالفاظ رفيعتهامشروفة المعاني خفيضتها قيل هذا الموضوع قدسبق الى التعلق به من لم ينعم النظر فيه ولا رأى ما رآه القوم منه وانماذلك لجفاء طبع الناظر وخفاء غرض الناطق ثم افاض في بيان معاني البيتين

وقال في باب ارادة العرب للاغراض التي نسبها اليهم حدثني المتنبي شاعرنا وما عرفته الا صادقًا قال كنت عند منصرفي من مصر في جماعة من العرب واحدهم يتحدث فذكر في كلامه فلاة واسعة فقال يحير فيها الطرف قال آخر منهم بلغته سراً من الجماعة بينه وبينه فيقول يحار يحار افلا ترى الى هداية بعضهم الى بعض وتنبيهه اياه على الصواب

—o❦o—

سير العلم والاجتماع

ادب السعادة

كتب رئيس تحرير المجلة البارزية مقالة في هذا الموضوع قال فيها ان السعادة مادة حياتنا وقائد لها وهي تتزيا باشكال متنوعة وانا اذا رأينا ما يبذله اهل الارواح الشريفة من الهمم يتراءى لنا ان رغبتهم في ان يعيشوا في شقاء ولكن اذا امعنا في استقراء تمالهم نراهم يرمون الى نيل سعادة ارقى . الغاية العامة من العلم الادب والغاية الخاصة تخليص الحقيقة من الحوادث والعواطف . المرء مدين بكل ماديه للاجيال الغابرة وهذا دين عليه يجب عليه اداؤه لمن يأتي بعده وعلى المرء فروض يجب عليه القيام بها نحو الاموات ونحو الاحياء وهذا واجب يتحتم عليه في اعماله وافكاره نقد ثبت بالاختبار ان سعادته ليست الا نتيجة سعادة مشتركة فهو مخلوق على مثال الاجيال السالفة وهو تابع للانسانية التي تحيط به . اذا عاد المجتمع الى عهد اللصوصية واختل نظامه كانت سعادة المرء الخاصة تضمحل في السعادة الاجتماعية وكل احتياط صحي يأتيه المرء يفيد المجموع كما ان صحته منائطة بما يقوم به المجموع من اساليب الصحة العامة . والامثلة كثيرة على ان التكافل مشترك والعلاقة مؤكدة بين مصالحنا الخاصة ومصالح المجموع فليس لامرئ حق ان يستمتع بالخيرات التي هي ثمرة عمل الآخرين دون ان يساعد بنفسه وعلى قدر طاقته على رفع منار السعادة وعلم الامن والسلام .

ليس الادب او الاخلاق الا بعض تكرنا نستطيع ان نصوره او نقلبه على الصورة المؤلفة منها عناصره . يقول بعضهم ان الاخلاق غريزية في المرء وليست كسبية ولو صح قولهم لكانت الاديان والتربية لغواً لا فائدة منها ولكان على الناس ان يغلقوا المعابد والمدارس ايضاً . نعم ان السعادة منائطة بشعورنا الادبي والذكاء والسعادة يسيرن معاً على خط متواز يتجليان انهما متشابهان وهما متخالفان جوهراً وعرضاً فالذكاء لا يؤثر في السعادة الا بالواسطة وذلك بتجهيز حياتنا بسلاح ماض وبالتأثير في اخلاقنا وميولنا

قال اغوست كونت مؤسس الفلسفة الحسية ان كمالنا الادبي يعيننا على سعادتنا الحقيقية مباشرة من دون ادنى ريب اكثر مما يعيننا غيره . وقال الفيلسوف ديكارت

صاحب الفلسفة الحديثة: كل من عاش عيشة لا يوبخه عليها وجدانه ولم يقصر في القيام بكل ما يراه احسن (من الفضائل) ينال عن سعيه جزاء وفاقاً وتواتيه السعادة

قال الكاتب ومتى ادركت الانسانية ان سعادتنا منا واننا انما سعداء لان لنا ارادة في السعادة تنهار حوالينا الوف من الاوهام التي تعوقنا عن كمالنا الادبي وتقف عثرة في سبيل سعادتنا . وما شقاوتنا الا ثمرة اساءتنا فهم معنى الحياة فنضر غيرنا دون ان يخطر لنا ببال ان شقاء غيرنا ضار بنا . فالحسد مثلا مصدر النقائص الاجتماعية وهو ضار بنا انفسنا . والخير والحب وهما منبع سعادة الغير ينفعان من يأتيهما قبل كل الناس . حياة العائلة المؤسسة على الحب والاحترام المتبادل تنفع اعضاءها واي نفع . وانا حيثما التفتنا نرى العبر قائلة بلسان حالها ومقالها بانه من المتعذر ان نستمتع بسعادة شريفة دائمة دون ان نمتع بها القريبين منا وكلما امتد ميدان حياتنا وشرفت مبادئها وخواتيمها يزداد التكافل بالسعادة فقد قال افلاطون ان السعادة علم فمن عمل الشر هو ممن لا يعرف الخير وهكذا الحال في السعادة فان الشقي هو الذي يجهل كيف يقدر ان يكون سعيداً

التسمم بالتدخين

جرب الدكتور سرج جبروسكي تجارب كثيرة ليبين ان التدخين يحدث في جسم الانسان آثاراً تسممية وذلك بان حقن الحيوانات تحت الجلد وفي الدم بالنيكوتين وقد استعمل لذلك جهازاً تمكن بواسطته من ان يضع الارانب ست او ثماني ساعات في اليوم في مكان محكم السد يدخل اليه نفخة دخان اللفافة (سيكاره) فكانت تظهر في غضون الاسبوع الاول على الحيوان آثار القلق ويزيد فيه افراز الدمع والبصاق وبعد امتصاص الدخان كان يستولي على الحيوان الضعف والبلادة وتثاقل مشيته وفي الاسابيع التالية تزول هذه الامارات وتحل محلها قلة القابلية للطعام . وقد مات عند انتهاء الشهرين ارنبان ودل الفحص المجهري (الميكروسكوبي) لقلبهما على تلف الجسم من فعل الدخان . على ان الاخرى قاومت خمسة اشهر وظهر فيها فساد الدم ونزل وزنها الى النصف وبهذا اثبتت تجارب الطبيب الموما اليه ان الحيوانات تعتاد التدخين ولكن فساد نسيج قلب الحيوان معادل لما يحصل في الانسان

الاستحمام

قال احد الباحثين في مجلة الحياة البيتية ما تعريبه : يتطلب التبرج والزينة ان تصرف العناية في الطهارة خاصة وتكون متناسبة مع السن والمزاج والجنس عَلَى حين ان حفظ الصحة يتطلب ان تختلف هذه العناية باختلاف الامكنة والازمنة والحرارة · والحمام الطف جميع ما تقتضيه الزينة من أنواع العناية واكثرها بساطة وطبيعة فهو الذي يؤثر تأثيراً سريعاً في الصحة · فالحمام رفاهية لا تنكر مزاياها وذلك لان المسام اذا فتحت بالحمام تسرع حركة الدم وتعمل في الحال في الجلد بان تنزع عنه القشور التي تغطي بشرة جسمنا ·

وتختلف تأثيرات الحمام بحسب درجة الحرارة او البرودة في الجو كما تختلف الاحتياطات عند الخروج باختلاف المناخ وذلك لان الحرارة تشد الجسم والبرودة عَلَى العكس تضيقه

الحمامات الباردة مقوية ويجب ان يغطس الجسم كله بسرعة وقد يحدث من الدخول في حمام بارد بعض الضرر وذلك عند ما ينغمس المرء في الماء بالتدريج فتدفع البرودة بالحرارة نحو الاطراف فتصل الى الدماغ مثلاً · ويقال بوجه عام ان الحمام البارد اذا نفع الاحداث وقوى بنيتهم فلا يليق بالشيوخ ولا بارباب الصدور النحيفة لان رد الفعل لا يتم فلا يتأتى ان تعود الحرارة الا بصعوبة

اذا أُريد الاستحمام بالماء البارد يجب على كل حال ان يكون الجسم مستريحاً والهضم تاماً كل التمام ورشح البدن لا يكون كثيراً من المشي · واذا بلغت الحرارة درجة لطيفة يمكن ان يبقى فيها المرء نصف ساعة او ثلاثة ارباع ساعة ولا يجب ان يتجاوز المستحم هذا القدر من الوقت · وعلى المستحم عند ما يخرج من الحمام ان يحتاط بتنشيف بدنه ودلكه جسمه كله لينزع منه الرطوبة ويرفع عن الجلد الاجزاء الصغيرة التي تستخرج منه بفعل الماء · واذا شعر بانه برد ينبغي له في الحال ان يدلك جسمه بماء البيون او ببعض الارواح الاخرى وعليه لاعادة الرشح تماماً ان يمرن عضلاته تمريناً خفيفاً ·

ومن الحكمة ان يمتنع المستحم عن تناول الطعام حالما خروجه من الحمام لان الحرارة تنتقل من وسط الجسم الى الاطراف فتترك الحواس الهاضمة خالية من جزء من القوة اللازمة للقيام بوظائفها

واذا ناسبت الحمامات الباردة الدمويين او السمان من الاشخاص فقد تضر المستعدين للهزال . وعلى الجملة فانها قلما تنفع من عودوا الرخاء والجلوس . ومن الاحتياط ان لا يستحموا كذلك الا باشارة الطبيب

الحمامات الحارة تزيد العرق واذا قلّ تعيده كما كان وتلين الالياف . والواجب ان يستعمل الحمام بحسب الحالة الصحية واذا أكثر منه يضعف الجسم ويتعب ويعد للنزلات

اما الحمامات الفاترة او الحارة فلا يقتضي لها الاحتياط بقدر الاحتياط للحمامات الباردة والاحتياط فيها مطلوب عند الخروج منها ويحسن بعد الحمام السخن ان يقعد المرء في فراشه بعد ان يكون قد نشف جسمه بمناشف غير ندية وحارة وذلك لان ما يحدث امراضاً كثيرة هو التعرض لفعل الهواء الخارجي

ومن القواعد التي تجب مراعاتها ان يستريح المستحم قبل الحمام البارد وبعد الحمام السخن والواجب ان يعنى بدلك الجسم عند الخروج من الحمام حتى لا يتضرر الجلد ويتخلص من الذرات القشرية التي ابقاها الاستحمام على الجسم . واذا لم يسع المرء ان ينام بعد الحمام فلا اقل من ان يمرن جسمه قليلاً فيشعر في الحال بتأثيرات هذا الاحتياط وينتفع الجسم من ذلك احسن نفع

تنفع الحمامات البخارية في البلاد التي يشتد بردها في اهاجة الرشح البطيء النادر وضروري في الاقاليم المعتدلة الاستحمام بالماء الفاتر لينزع من البشرة الذرات التي تنبعث من الجسم . وفي الاوقات الرطبة يحسن الدلك الناشف . ولما كان الرشح في البلاد الحارة يكاد يكون متواصلاً فمن الضروري ان تكون الحمامات على درجة اقل من درجة حرارة الجو ليحدث بذلك التوازن في الاخلاط ويسكن هيجانها العادي

واذا لم يساعد الحال والمكان على استيفاء شروط الاستحمام فالواجب ان يستعاض عنه بغسل بعض البدن بماء حار او بارد بحسب الموسم وقد لا تستوفى من هذا الاغتسال الشروط الصحيحة الناشئة من الحمامات ولكنها تكفي في صيانة الجسم

والاشخاص الذين يتعبون احياناً بما ينهال من الدم على رؤوسهم يجب عليهم ان يستحموا استحماماً تاماً ويغسلوا ارجلهم ويتأتى لهم الاستعاضة عن الاول والثاني بغسل

ايديهم بالماء المغلي · وهذا الدواء على سهولته نافع في امراض الاسنان لا للطاعنين في السن بل لصغار الاولاد

المحظورات

يحظر عليك ان تضع اصبعك او طرف مظلتك في عين جارك
كما يحظر عليك ان تضع اصبعك في انفك حتى ولو كان يحك
لا تنظف امام الناس انفك ولا اذنك ولا اسنانك ولا اظافرك
لا تدعس عَلَى رجل جارك ولا عَلَى ثوب جارتك
لا تجلس عَلَى طرف كرسيك ولا تهتز عليه
لا تعبث بهدب ثوبك ولا بازرارك
اذا صافحت فلا تصافح باصبع واحد بل بجماع راحتك مفتوحة
لا تدخل الى قاعة الاستقبال ومعك مظلتك ولا معطفك ولا مشمعك

غلظ الشعر

تختلف ثخانة الشعرة من واحد من عشرة من المليمتر الى اربعين · وقطر خيط الحرير كما تخرجه الدودة هو نحو خمسة مليم من المليمتر وخيط العنكبوت هو ادق من هذا بخمس او ست مرات وليس هو عشرين من المليمتر ويمكن ان تحاط الكرة الارضية بليبرة من خيط العنكبوت · كما ان قمحة واحدة من المسك تعطر غرفة مدة عشرين سنة · وفي جسمنا ٢٬٣٠٤٬٠٠٠ من المسام·

اثقل تمثال

اثقل تمثال من البرونز تجده في بطرسبرج وهو تمثال بطرس الاكبر ثقله زهاء الف طن·

الطول البشري

تبين من التجارب التي صنعت لاختبار طول قامات الرجال والنساء ان من يولد في الربيع او في الشتاء اكبر قامة ممن يولد في الفصلين الآخرين والبنات الطويلات القامة يلدن في آب اما البنون فاطولهم قامة من ولدوا في تموز واصغرهم من ولدوا في تشرين الثاني

التفنن في التعليم

ورد في قصة لديكنس ان احدى المعلمات كانت تكرر عَلَى تلميذاتها كلمات « برون » « بريسم » « بوتاتويس » ليمددن شفاههن المنضمات بعضها عَلَى بعض ويبدو الظرف عَلَى افواههن ٠وقد توسعت الآن احدى العقائل في هذه الطريقة وقامت تدعي انها تستطيع ان تعيد القبيحة من النساء مليحة وان تصير الملاح أعجوبة الاعاجيب فلمست لهذه الغاية في انكلترا مدرسة اخذ الطالبات ينهلن عليها انهيالاً وقد قسمتها صفوفاً فجعلت صفاً لتعليم البنات كيف يلقين نظراتهن الفتانة ويسحرن بها الالباب وصفاً لتعليم البنات تحريك انوفهن تحريكاً جذاباً خلاباً وصفاً لتعليم الشفاه عَلَى الحركة ومتى اتم الفتيات التعليم في هذه الصفوف ينتقلن الى صف ارقى حيث يعدن نظرة اجمالية عَلَى كل ما تعلمن فيأتين فاتنات ساحرات

النوم الضروري

كلما امكن ترك الاولاد ينامون كثيراً كان انفع لصحتهم ٠ و يؤخذ من البحث الذي تم في بلاد السويد انا لاولاد الذين لا ينامون القدر الكافي من النوم تزيد امراضهم جزئين من خمسة اجزاء ٠ فمعدل ما ينبغي من النوم للطفل الذي يذهب الى المدرسة اثنتاعشرة ساعة لمن كان في الرابعة من سنه واحدى عشرة لمن كان في السابعة وتسع ساعات لمن كان بين الرابعة عشرة الى العشرين

ارجل الصينيات

كنا نسمع بان من جمال الفتاة الصينية ان تكون صغيرة الرجلين وان القوم هناك يستعملون لتصغيرهما قوالب مخصوصة وقد ذكرت الصحف ان حكام ولايات كينغ سو وكينغ سي وكينغ هوي وناكان هوي من الولايات الصينية قد اصدروا بياناً يحظرون فيه عَلَى النساء ان يعصبن ارجلهن قائلين ان ذلك مما يمس حنان قلب الام والفتيات يضعن الحياء اذا تكلفن الجمال ويصبحن ضعيفات غير قادرات عَلَى العمل ويحسبن فقيرات ٠ وقد وعد اولئك الحكام بمكافآت للصينيات اللاتي يعدلن عن تصغير ارجلهن

اسماء الاقمشة

سميت كثير من الاقمشة في بلاد الافرنج باسماء المدن التي حاكتها اول مرة فعندهم

نوع من القماش اسمها دماس نسبة لدمشق حيث كان ينسج الحرير منقوشاً بنقوش بارزة . وعندهم قماش اسمه كاز نسبة لغزة في فلسطين وآخر اسمه اندرينوبل نسبة لادرنه في الروم ايلي والموسلين وهو الشاش الرفيع صنع لاول مرة ايضاً في مدينة الموصل فنسب اليها والكاليكو قماش صنع لاول الامر في مدينة كاليكوت من بلاد الهند فنسب اليها .

انقضاء العالم

نشر احد علماء الطبيعة مقالة في مدة بقاء الارض او انقضاء العالم ومتى صلحت الارض لسكنى الحيوانات والنباتات فقال ان من السهل ابداً السؤال عن هذه الاسئلة ولكن الصعوبة في الاجابة عنها فقد كان النظام الشمسي في البدء عبارة عن كتلة عظيمة من الابخرة المتأججة او منطاداً ضخماً من الغاز حامياً يدور بحركة فوق نفسه . فجمد البرد في الفضاء الغيوم الاصلية وانفصلت السيارات من الاجرام الموجودة في الوسط واخذت السيارات تبرد عَلَى الولاء بقدر اجرامها فيبرد الاصغر ثم الاكبر . وقد طال امد كل سيارة ونمت عَلَى توالي الازمان فجمدت الارض وتماسك سطحها السائل وعَلَى هذه الصورة نشأت القشرة الارضية

ويهمنا هنا ان نعرف عمر الارض او عدد السنين التي مضت عَلَى تكونها والاعوام التي تفصل العصر الحالي من العصر الذي ظهرت فيه عَلَى سطحها الاحياء الاولى ولا سبيل الى ذلك الا على وجه التقريب . واذ كان عمر الارض مرتبطاً بعمر الشمس كان من الواجب ان نعلم اولاً الحدود التي يجب ان نحصر فيها وجود الشمس فقد حسب علماء الهندسة كمية الحرارة التي احدثها تقلص السديم الاول في السيارة الوسطى وحققوا قوة الحرارة الحالية وما يفقد منها كل سنة واستنتجوا من ذلك مقدار الزمن الذي وجدت الشمس فيه . وبحسب ما حسبوا تبين ان الشمس موجودة منذ خمسة وعشرين مليون سنة على الاقل او منذ اربعين مليون سنة على الاكثر . ورأى الطبيعي نوكمب بحسب النور الحاضر ان الكوكب يصغر الى نحو النصف من قطره في خمسة ملايين من السنين على اكثر التقدير وانه بعد عشرة ملايين سنة يكاد يكون له قشرة فيحتمل اذ ذاك ان تصلح الارض للاحياء على الوجه الذي نعرفها به

واذا كان جرم كرتنا الارضية اصغر من جرم الشمس بـ ٣٥٥٠٠٠ مرة فظاهر ان الارض بردت قبل غيرها وثبت لعالم آخر اسمه ويليام طومسون بالتحليل الرياضي

ان الارض جمد سطحها منذ عشرة ملايين من السنين او منذ خمسة عشر مليوناً عَلَى التقدير الاكثر فيرد تاريخ اصل الاحياء عَلَى الارض الى اثني عشر مليون سنة

وبالجملة فان لنا ان نستنتج من هذا ان الارض موجودة منذ خمسة وعشرين مليون سنة عَلَى الاقل وان الاحياء الاولى التي عاشت عَلَى سطحها قد ظهرت منذ اثني عشر مليون سنة والغالب ان الكائنات الحية الحاضرة تنقضي ايامها بعد عشرة او اثني عشر مليوناً من السنين — وعَلَى هذا فآخر ايام الدنيا بعيدة بعد وبحسب ما تقدم تكون الارض الآن قد قضت نصف حياتها . مضى اثنا عشر مليوناً من السنين وبقي ما يقرب منها بعد وبذلك نطمئن عَلَى مستقبل الجنس البشري

جمال النساء

معيار الجمال في الامم اذواقها ومصطلحاتها فمن الجمال في اوربا ان تكون اسنان النساء بيضاء وفي اليابان يؤثرون من اصفرت اسنانهن وفي الهند يصبغنها بالحمرة وفي بوكارات بالسواد والنساء في غروانلاندا يدهن وجوهن بمادة زرقاء صفراء والتاتاريات مهما بلغن من الجمال الطبيعي يرين انفسهن بشعات ان لم يبيضن وجوهن عَلَى مرأى من الناس عَلَى حين ترى الاوربيات اذا وضعن الحمرة عَلَى وجوهن يخفين امره ولا يكدن يظهرنه . وفي فرنسا يفضل من النساء الممشوقات القدود وفي البلاد العثمانية يؤثرون السمينات المكتنزات كما يفضلون من استدار وجهها . اما الفرنسيس فيفضلون الوجوه المستطيلة المتناسبة . ويفضل اليونان من النساء من صغرت جبهاتهن اما الفرنسيس فيطلبون ان تكون جبهات النساء عالية مكشوفة . الناس في اوربا يفضلون الشعر الاسود او الاشقر او الاسفع ولكن سكان جزائر ماريانا يفضلون من ابيض شعرها من ربات الجمال . وعَلَى هذا فلا يتيسر لامرأة ان تتفق الامم عَلَى جمالها لان ما يراه قوم حسنة قد يراه غيرهم سيئة فسبحان مقسم العقول والارزاق

الآثار العربية

اهدى المسيو دكورد مانش لمكتبة الامة في باريز مجموعة مؤلفة من ١٥٨ كتاباً من المخطوطات العربية والفارسية والتركية وكان اهدى مثلها من المخطوطات والمسكوكات العربية الى تلك المكتبة نفسها فكتبت مجلة العالم الاسلامي مقالة في هذه المناسبة قالت فيها ان هذه المخطوطات لا تروق المشتغلين بالعربية من المستشرقين ممن يرون ان المصنفات

التاريخية الشائعة هي وحدها تحتوي عَلَى بعض الفوائد مدفوعين الى ذلك بعامل فهمهم لها من دون سائر ماخطته ايدي مؤلفي العرب وزاعمين ان مابقي من الادبيات الاسلامية عبارة عن احاديث ملفقة وهذيان ليست حرية بنظر رجل تمكن من الطريقة القويمة في المعارف وان مثل هذه الكتب لايقبل عليها ويصرف اوقاته فيها الا من تبلد ذهنه او اختل شعوره فاذا كان التاريخ الاسلامي هو من الفروع المهمة جداً في الآداب الشرقية فان سائر فروع العلوم كالفقه والنحو (واكثر مجموعة المسيو دكوردمانش منها) ربما لاتقل عنها شأناً لانها ليست وحدها التي تصور حالة العقل في الرجال الذين اتوا قبل ثلاثة عشر قرناً من الهجرة النبوية وكيف كانوا يفكرون ويذهبون في مذاهب الامور الذهنية والروحية

لاجرم ان المشاغل السياسية منذ بضع سنين ولاسيما منذ تنال مع كدن قد قلبت الافكار الاسلامية ظهراً لبطن واخذ رجال الاسلام يزينون لابناء دينهم الرجوع الى الدروس التي انغمس فيها اجدادهم بحيث كادوا يغرقون وتعزوا عن الخيبة التي نالتهم بما قرأوا فيها من الافكار عَلَى ان النظر الصحيح يقضي بان المهندسين الذين مدوا في بادية بلاد العرب خطوط السكة الحديدية من دمشق الى المدينة قد اتوا بعمل انفع مما اتى الزمخشري وجميع شراح الكافية لابن الحاجب . الا ان الافكار الحديثة توشك ان تؤدي بالاسلام الى طرق مخالفة للطرق التي سار عليها الى اوائل القرن الرابع عشر من الهجرة ويمكن ان يكون المجتمع الاسلامي بعد مائة وخمسين سنة واعني به الجيل المفكر المهذب من المسلمين مخالفاً للمجتمع الذي عاش عَلَى عهد عبد الحميد خان الغازي وناصر الدين شاه قاجار كما نختلف نحن معاشر الفرنسيس اليوم عن اجدادنا زمن لويس الخامس عشر وربما كان اختلاف المسلمين اكثر

كان المسلمون الذين عاشوا في بلاد ماوراء النهر الى اواخر القرون الوسطى عَلَى عهد الخلاف تيمورلنك قد ورثوا التمدن اليوناني وبلغوا بالعلوم الى درجة عجيبة من الكمال ثم لم يلبثوا ان ضعف امرهم وتخلوا عن هذا التراث العلمي وانصرفوا جملة الى الفقه والنحو فكان ذلك مبدأ سقوط الامم الاسلامية

ومهما كانت الطرق التي سيجري عليها اهل الاسلام في ظل العلم والدستور اليوم فانهم ولا جرم يخالفون المسلمين الذين عاشوا في ظل الاستبداد كل المخالفة ولا يتأتى الآن الوقوف عَلَى فكر العالم الاسلامي قبل مضي زمن وتصفح الكتب التي يستخدمونها في تعليم ناشئتهم وطريقة الرجال الذين عاشوا عَلَى عهد الخلافة الدينية او خلافة السلاطين الذين حلوا محل خلفاء بغداد

وهكذا فان هذه الكتب التي تشهد بفضل مؤلفيها و بعنايتهم الفائقة التي بذلوها في وضعها وهي تساوي باسلوبها وتعليمها اقل مما تساوي بدلالتها عَلَى الحركة العقلية في مدنية كانت الحاكمة المتحكمة على العالم زمناً ونعني بها مدنيّة الاسلام . ومكانة هذه الكتب لا تسقط ابد الدهر حتى ولو ادى الارتقاء العلمي الاسلامي الى طرحها والاستعاضة عنها بمصنفات تؤلف على غير نسقها وعلى اسلوب يغاير اسلوبها ولا سيما متى انصرفت النفوس عن دراسة علوم اللسان والفقه الى علوم يكون نفعها عمليًا ظاهراً .

لا جرم ان علوم المسلمين ودرسها تشبه ما كان لنا منها في عهد الحكومات البائدة وان من عانوها واتقنوها اذا تعلموا جميع دقائق النحو العربي وتبحروا في فقه السنة والشيعة لا يتأتى لهم بذلك ان يقفوا عَلَى مطالب الحياة الاجتماعية والعالم الخارجي

و بعد فان كتب النحو العربي التي هي مصنفات تامة في بابها يجب الرجوع اليها اذا اريد التعمق في هذه العلوم وفهم فكر العربي وهي تشبه كتبنا التي كانت مستعملة في المدارس قبل اصلاح بور رويال[1] . وربما زهد المسلمون في الاعتماد عَلَى الطريقة القديمة والكتب القديمة في هذه الفنون لان بعضهم يرى ان الالفية والاجرومية قبلاً تستدعي انتباه ذهن الطلبة وذاكرة فائقة لاختيار طريقة تشبه طريقة الكتب التي نعول عليها في دراسة اللاتينية وغيرها من اللغات وربما لا يمضي وقت طويل الا وتحسن طريقة دراسة الآداب العربية كما تحسنت عندنا في الغرب . عَلَى انه لا يبعد ان تقل الرغبة في هذه الدروس اللسانية كان درس الفقهية التي كانت الدروس المعول عليها فقط في العهد الماضي ولا سيما في البلاد العثمانية والفارسية و يعتبر القوم علوم الدين واللغة التي كانت موضوع اهتمام المتفقهة والمتصوفة من علوم الرجعة لان القائمين عليها اناس كانوا في الجملة مراعاة لمصالحهم اصدق انصار عروش السلاطين الذين يدعون الخلافة عن الله في الارض .

وكيفما كان الحال فانه لا يتأتى الوقوف عَلَى الفكر الاسلامي في كتب ألفت عَلَى النسق الاوربي وسارت في اسلوبها عَلَى نسق الخطط الغربية كما انك لا تسقط عَلَى الفكر الياباني قديمًا من مراجعة الترجمات الانكليزية والفرنسوية التي تعين رعايا ميكادو اليابان من اجتياز ابواب المدارس الحربية في مملكة الشمس المشرقة .

(١) هو دير للنساء البرنارديات بالقرب من شفروز في مقاطعة سان ايواز الفرنسوية نزل فيه سنة ١٦٣٥ علماء اعتزلوا العالم وانقطعوا الى تأليف المصنفات البديعة وقد خرب هذا المعهد العلمي لويس الرابع عشر سنة ١٧٠٩ .

ولا يتيسر درس الحضارة الاسلامية القديمة بغير الرجوع الى هذه الكتب في الفقه، معاملاته وعباداته، والنحو ومتعلقاته . تلك الكتب التي يهملها علماء المشرقيات لانها على غير اسلوبهم ولانها من بقايا القرون الوسطى على حين ان نشوء الدروس الذي وقع في الغرب منذ عهد النهضة قد صير الكتب المكتوبة باللاتينية باقلام اساتذة علم الكلام معقدة غير مفهومة ان لم يصرف فيها المرء وقتاً طويلاً

وفي المجموعة التي اهداها المستشرق المشار اليه عدة كتب مشهورة منها قطع من القرآن ربما كانت بخط ياقوت المستعصي الخطاط الشهير وقطعة من كشاف الزمخشري وقطعة من تفسير القرآن للبيضاوي من اوائل القرن الرابع عشر وقطعة من الحديث من القرن الثالث عشر ونسخة قديمة جداً من مقامات الحريري وكتاب في القراآت فارسي وشرح كافية ابن الحاجب بالفارسي

وقد ظفروا بهذه المجموعة في سمرقند وهي تمثل صورة من صور علم الفقه والكلام عند السارتيين والتاجكيين في بخارى وسمرقند وكشغر وبعبارة اخرى صورة من صور علوم المسلمين في التركستان الروسي والتركستان الصيني وبها يتمثل الناظر حالة المعارف عند من كانوا يعيشون في تلك الانحاء من المسلمين لان جزءاً كبيراً من الكتب التي تألف منها هذه المجموعة قد نسخت هناك

وليس في هذه المجموعة الا كتب خاصة بطائفة مهذبة من طوائف المسلمين الى حد معلوم والنسخ الحديثة من كتب الفقه والنحو تدل على ان معرفة اللغة العربية التي هي اساس الدروس الاسلامية هي في اقصى دركات الانحطاط في تركستان . على ان هذا الانحطاط يرد الى ابعد من ذاك العهد لانه وجد في عهد التيموريين في الكتب والمكتوبات على الاحجار من الاغلاط الفادحة ما يستدل منه ان معرفة اللغة العربية هو احط من ذاك العهد مما هي عليه اليوم في فارس حيث اصبح طلاب الفقه دع عنك المجتهدين ولاسيما في النجف وكربلا اساتذة في اسرار علوم الصرف والنحو

وهذه النسخ بالاجمال استنسخها اناس لم يعنوا بها حق العناية وليس لهم فيها ذوق حتى ان بعضها لم يكتبوا عليه اسمه، واسم مصنفه، لجهلهم في الغالب . وهذا الجهل وهذا الاهمال يكفيان لبيان السقوط المريع الذي صيب به ذاك الشعب الذي يسكن تلك الاقطار التي كانت فيما غبر مهد العلوم والآداب اه



ربيع ثاني سنة ١٣٢٧

المقيم المقعد

للشيخ الامام ابي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي البغدادي
عليه الرحمة

هو كتاب جليل نادر الوجود توجد منه نسخة عند بعض طلبة العلم في بغداد٠ اوله

لما كانت العربية تنقسم قسمين احدهما الظاهر الذي لا يخفى على سامعيه ولا يحتمل غير ظاهره ٠ والثاني المشتمل على الكنايات والاشارات والتجوز ٠ وكان هذا القسم هو المستحلى عند العرب نزل القرآن بالقسمين ليتحقق عجزهم عن الاتيان بمثله٠ فكأنه قال عارضوه باي القسمين شئتم ولو نزل كله واضحاً لقالوا هلا نزل بالقسم المستحلى عندنا ٠ ٠٠متى وقع في الكلام اشارة او كناية او استعارة او تعريض او تشبيه كان اجلى واحسن٠ قال امرؤ القيس

وما ذرفت عيناك الا لتضربي بسهميك في اعشار قلب مقتل

فشبه النظر بالسهم فحلا هذا عند السامع ٠ وقال ايضاً

فقلت له لما تمطى بصلبه واردف اعجازاً وناء بكلكل

فجعل لليل صلباً وصدراً على جهة التشبيه ٠ واستشهد ايضاً بشعر آخرين من شعراء الجاهلية واطال في الكلام واطنب ٠ ثم عقد فصولاً في مطالب شتى

منها فصل في بيان عادة العرب في تكرير الكلام واستشهد عَلَى ذلك بمنثور ومنظوم من كلام فصحائهم وخطبائهم

ثم قال فصل وقد تأتي العرب بكلمة الى جانب كلمة كأنها معها وهي غير متصلة بها وفي القرآن (يريدان يخرجكم من ارضكم) هذا قول الملاء فقال فرعون (فماذا تأمرون) واورد شواهد أخر من القرآن ومن كلام الفصحاء واطنب في الكلام

ثم قال فصل وقد تجمع العرب شيئين في كلام فترد كل واحد منهما الى ما يليق به وفي القرآن (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فيقول الرسول (الا ان نصر الله قريب)٠ وهو فصل طويل

ثم قال فصل وقد يحتاج بعض الكلام الى بيان فيبينونه متصلاً بالكلام ومنفصلاً وجاء القرآن عَلَى ذلك فمن المتصل (يسألونك ماذا احل لهم قل احل لكم الطيبات)٠ واما المنفصل الخ وذكر له عدة شواهد من القرآن وغيره

ثم قال فصل وقد تذكر العرب جواب الكلام مقارنًا له وقد تذكره بعيداً عنه وعَلَى هذا ورد القرآن فان المقارن من الجواب فكقوله تعالى (و يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) واما البعيد فتارة يكون في السورة كقوله تعالى (ما لهذا الرسول الآية جوابه بعده باثنتي عشرة آية وهو قوله تعالى (وما ارسلنا قبلك من المرسلين) الآية

ثم قال فصل في ذكر اقسام الخطاب في القرآن ٠ الخطاب في القرآن عَلَى خمسة عشر وجهاً خطاب عام ٠ الله الذي خلقكم ٠ وخطاب خاص (اكفرتم) ٠ وخطاب الجنس (يا ايها الناس) ٠ وخطاب النوع (يا بني آدم) ٠ وخطاب العين (يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة) ٠ وخطاب المدح (يا ايها الذين آمنوا) ٠ وخطاب الذم (يا ايها الذين كفروا) ٠ وخطاب الكرامة (يا ايها النبي) ٠ وخطاب الاهانة (فانك رجيم) ٠ وخطاب الجمع بلفظ الواحد (يا ايها الانسان ما غرك بربك) ٠ وخطاب الواحد بلفظ الجمع (وان عاقبتم فعاقبوا) ٠ وخطاب الواحد بلفظ الاثنين (القيا في جهنم) ٠ وخطاب الاثنين بلفظ الواحد (فمن ربكما ياموسى) ٠ وخطاب العين والمراد به الغير (فان كنت في شك) ٠ وخطاب التلون وهو عَلَى ثلاثة اوجه احدها ان يخاطب ثم يخبر (حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم ٠ وما آتيتم من زكوة يريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون) ٠ والثاني ان يخبر ثم يخاطب (فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم ٠ وسقاهم ربهم

شرابًا طهوراً ان هذا كان لكم جزاء) والثالث ان يخاطب عينًا ثم يصرف الخطاب الى الغير . (انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله)عَلَى قرآءة

ثم قال فصل في ذكر امثال القرآن وذكر اثنين واربعين مثلاً منها وبين ما اشتملت عليه من البلاغة والفصاحة والحكم بما لا مزيد عليه

ثم قال فصل في الحروف الزوائد والنواقص وذكر هنا مسائل لغوية مفيدة تمس اليها حاجة اللغوي وطلاب علم العربية

ثم قال فصل في المقدم والمؤخر وذكر ما يجب تقديمه في الكلام وما يجب تأخيره في النظم والنظر وهو بحث لم تظفر به يد غيره من المحققين

ثم قال فصل واعلم ان لغة العرب واسعة ولهم التصرف الكثير فتراهم يتصرفون في اللفظة الواحدة بالحركات فيجعلون لكل حركة معنى كالحَمل والحِمل والرَّوح والرُّوح وتارة بالاعجام كالنضح والنضخ والقبضة والقبصة والمضمضة والمصمصة وتارة يقلبون حرفًا من كلمة لا يتغير عندهم معناها كقولهم صاعقة وصاعقة وجذب وجبذ وما اطيبه وايطبه وربض ورضب وانبض في القوس وانضب . ولعمري ورعملي . واضمحل وامضحل . وعميق ومعيق . وسبسب وبسبس . وابكت الشيء وبلكته . واسير مكبل ومكلب . وسحاب مكفهر ومكرهف . وناقة ضمزر وضمرز اذا كانت مسنة . وطريق طامس وطاسم . وقفا الاثر وقاف الاثر . وقاع البعير الناقة وقعاها . وقوس عطل واعلط لا وتر عليها . وجارية قتين وقنيت قليلة الرزأ (كذا) . وشرخ الشباب وشخره اوله . ولحم خنز وخزن . وعاث يعيث وعثى يعثى اذا افسد . وتنح عن لقم الطريق ولمق الطريق . وبطيخ وطبيخ . وماء سلسال وسلاسل وسلسل ومسلسل وملسلس اذا كان صافيا . ودقم فاه بالحجر ودمقه . وفثأت القدر وثفأتها اذا سكن غليانها . وكبكبت الشيء وبكبكته اذا طرحت بعضه على بعض .

ثم قال فصل ومن سعة اللغة وحسن تصرفها ان العرب تضع للشيء الواحد اسماء من غير تغير يعتريه فيقولون السيف والمهند والصارم ويغيرون الاسم بتغيير يعتري فيقولون لمن نزل في الركي فملأ الدلو مائح وللمستسقي من اعلاها ماتح فالتاء المعجمة من فوق لمن فوق والياء المعجمة من تحت لمن تحت وتضع العرب للشيء الواحد اسماء تختلف باختلاف حاله فيقولون لمن انحسر الشعر عن جانبي جبهته انزع فاذا زاد قليلاً قالوا اجلح فاذا بلغ الانحسار نصف رأسه قالوا اجلى واجله فاذا زاد قالوا اصلع فاذا ذهب الشعر كله قالوا

احص والصلع عندهم ذهاب الشعر والقرع ذهاب البشرة و يقولون شفة الرجل و يسمونها من ذوات الخف المشفر · ومن ذوات الظلف المقمة ومن ذوات الحافر الجحفلة ومن السباع الخطم · ومن ذوات الجناح غير الصائد المنقار ومن الصائد المنسر ومن الخنزير الفنطيسة ·

ويقولون صدر الانسان و يسمونه من البعير الكركرة ومن الاسد الزور ومن الشاة القص ومن الطائر الجؤجؤ ومن الجرادة الجوشن وللمرأة الثدي وللرجل ثندوة وهو من ذوات الخف الخلف ومن ذوات الظلف الضرع ومن ذوات الحافر والسباع الطبي وللانسان الظفر ومن ذوات الخف المنسم ومن ذوات الظلف الظلف ومن ذوات الحافر الحافر ومن السباع والصائد من الطير المخلب ومن الطائر غير الصائد والكلاب ونحوها البرثن ويجوز البرثن في السباع كلها والمعدة للانسان بمنزلة الكرش للدابة والحوصلة للطائر

ثم قال فصل المراهق من الغلمان بمنزلة المعصر من الجواري والكاعب منهن بمنزلة الحزور منهم والكهل من الرجال بمنزلة النصف من النساء · والقارح من الخيل بمنزلة البازل من الابل · والعجل من البقر والشادن من الظباء كالناهض من الفراخ · والبكر من الابل بمنزلة الفتي من النساء · والقلوص بمنزلة الجارية · والجمل بمنزلة الرجل · والناقة بمنزلة المرأة والبعير بمنزلة الانسان · والغرز للجمل كالركاب للفرس · والغدة للبعير كالطاعون للانسان · والهالة للقمر كالدارة للشمس · والبصيرة في القلب كالبصر في العين ·

ثم قال فصل وتفرق العرب في الشهوات فيقولون جائع الى الخبز قرم الى اللحم عطشان الى الماء عيمان الى اللبن قرد الى التمر خصم الى الفاكهة شبق الى النكاح ويفرقون في اسماء الاولاد فيقولون لولد كل سبع جرو ولولد كل ذي ريش فرخ ولولد كل وحشية طفل ولولد الفرس مهر وفلو ولولد الحمار جحش وعنو ولولد البقرة عجل ولولد الاسد شبل ولولد الظبية خشف ولولد الفيل دغفل ولولد الناقة حوار ولولد الثعلب الجرس ولولد الضب حسل ولولد الارنب خرنق ولولد النعام رال ولولد الدب ديسم ولولد الخنزير خنوص ولولد اليربوع والفارة درص ولولد الحية حربش ويقولون البيض للطائر والمكن للضباب والمذن للنمل والسر للجراد والصواب للقمل ويفرقون في المنازل فيقولون بيت من مدر وبجاد من وبر وخباء من صوف وفسطاط من شعر وخيمة من غزل وقشع من جلود · و يفرقون في الاوطان فيقولون وطن الانسان وعطن البعير وعرين الاسد ووجار

الاسد والضبع وكناس الوحش وعش الطائر وقرية النمل وكور الزنابير ونافقاء اليربوع ويقولون لما يصنعه الطائر عَلَى الشجر وكر فان كان عَلَى جبل او جدار فهو وكن فاذا كان في كن فهو عش فان كان عَلَى وجه الارض فهو أُفحوص والاوحى للنعام خاصة ويقولون عدا الانسان واحضر الفرس وارقل البعير وعسل الذئب ومزع الظبي وخف النعام ويقولون طفر الانسان وصبر الفرس ووثب البعير ونفر العصفور وطمر البرغوث ويفرقون في الضرب فيقولون للضرب بالراح عَلَى مقدم الرأس صقع وعَلَى القفا صفع وعَلَى الوجه صك وعَلَى الخد ببسط الكف لطم وبقبضها لكم وبكلتا اليدين لدم وعَلَى الذقن والحنك وهز وعَلَى الجنب وخز وعَلَى الصدر والبطن بالكف وكز وبالركبة زبن وبالرجل ركل وعلى كل ضارب بمؤخره من الحشرات كالعقارب يلسع وكل ضارب منها بفيه يلدغ ويفرقون في الجماعات فيقولون كوكبة من الفرسان وكبكبة من الرجال وجوقة من الغلمان ولمة من النساء ورعيل من الخيل وصرمة من الابل وقطيع من الغنم وسرب من الظباء وعرجلة من السباع وعصابة من الطير ورجل من الجراد وخرشم من النحل ويفرقون في الامتلاء فيقولون بحر طام ونهر طافح وعين ثرة واناء مفعم ومجلس غاص باهله ويفرقون في اسم الشيء اللين فيقولون ثوب لين ورمح لدن ولحم رخص وريح رخاء وفراش وثير وارض رشة ويفرقون في تغير الطعام وغيره فيقولون اروح اللحم وأسن الماء وخنز الطعام وسنخ السمن وزنخ الدهن وقنم الجوز ودخن الشراب وصدأ الحديد ونغل الاديم ويقولون يدي من اللحم غمرة ومن الشحم زهمة · ومن البيض زهكة · ومن الحديد سهكة · ومن السمك ضمرة · ومن اللبن والزبد شثرة · ومن الثريد مردة · ومن الزيت قنمة · ومن الدهن زنخة · ومن الخل خمطة · ومن العسل لزقة · ومن الفاكهة لزجة · ومن الزعفران ردغة · ومن العجين ورخة · ومن الطيب عبقة · ومن الدم ضرجة وسلطة وسطلة · ومن الوحل لثقة · ومن الماء بللة · ومن الحمأة زفطة · ومن البرد صردة · ومن الاشنان قضضة · ومن المداد وحدة · ومن دهن البزر والنفط نمسة ونسمة · ومن البول قتمة · ومن العذرة طفسة · ومن الوسخ ورنة · ومن النمل محلة ·

ويفرقون فى الوسخ فاذا كان في العين قالوا ارمص فاذا اجف فهو عمش · فاذا كان في الاسنان فهو حفر · فاذا كان في الاذن فهو اف · فاذا كان في الاظافر فهو تف · فاذا كان في الرأس فهو حزاز · وهو في باقي البدن درن ·

ويفرقون في الكشف عن الشيء من البدن فيقولون حسر عن رأسه وسفر عن

وجهه وافتر عن نابه • وكشر عن اسنانه • وابدى عن ذراعيه • وكشف عن ساقه وهتك عن عورته •

ويفرقون في الرياح فاذا وقعت الريح بين ريحين فهي نكباء • فاذا وقعت بين الجنوب والصبا فهي الجربياء • فاذا اهبت من جهات مختلفة فهي المناوحة • فاذا جاءت بنفس ضعيف فهي النسيم • فاذا كانت شديدة فهي العاصف • فاذا قويت حتى قلعت الخيام فهي الهجوم • فاذا حركت الاشجار تحريكاً شديداً وقلعتها فهي الزعزع • فاذا جاءت بالهباء فهي الحاصب • فاذا هبت من الارض كالعمود نحو السماء فهي الاعصار • فاذا جاءت بالغبرة فهي الهبوة • واذا كانت باردة فهي الجرجف والصرصر • فاذا كانت مع بردها ندى فهو البليل فاذا كانت حارة فهي السموم • فاذا لم تلقح ولم تحمل مطراً فهي العقيم •

ويفرقون في المطر فاوله رش ثم طش ثم طل ورذاذ ثم نضح ثم نضخ ثم هطل ثم تهتان ثم وابل وجود فاذا احيا الارض بعد موتها فهو الحيا • فاذا جاء عقب المحل او عند الحاجة اليه فهو الغيث • فاذا كان صغار القطر فهو القطقط • فاذا دام مع سكون فهي الديمة • فاذا كان عاماً فهو الجداء • فاذا روى كل شيء فهو الجود • فاذا كان كثير القطر فهو الهطل والتهتان • فاذا كان ضخم القطر شديد الوقع فهو الوابل

ويقولون هجهجت السبع وشايعت الابل ونعقت بالغنم وساسأت بالحمار وهاهأت بالابل اذا دعوتها للعلف وجأجأت بها اذا دعوتها للشرب واشليت الكلب دعوته اسدته ارسلته

ويفرقون في الاصوات فيقولون رغا البعير وجرجر وهدر وقبقب ونطت الناقة وصهل الفرس وحمحم ونهم الفيل وشحق الحمار وسحل وسحج البغل وجأرت البقرة وخارت وثاجت النعجة • وثغت الشاة ويعرت • ونعم الظبي ونزب • ووعوع الذئب • وضبح الثعلب وصنغب الارنب • وعوى الكلب ونبح ومأت السنور وصأت الفارة • ونحت الافعى • ونعق الغراب ونغب • وزقى الديك وصقع • وصفغ النسر • وهدر الحمام وهدل • وغرد المكاء وقبع الخنزير ونقت العقرب • وانقضت الضفادع ونقت ايضاً وعزفت الجن •

ثم قال فصل وللعرب خاص وعام فالبغض عام والفرك خاص • النظر الى الاشياء عام والشيم للبرق خاص الصراخ عام والواعية على الميت خاص الذنب للحيوان البهيم عام

والذنابي للفرس خاص السير عام والسرى لليل خاص الهرب عام والاباق للعبيد خاص الرائحة عام والقتار للشواء خاص

ثم قال فصل ومن جملة المسلم للعرب انهم لا يقولون مائدة الا اذا كان عليها الطعام والا فهي خوان ولا للعظم عرق الا ما دام عليه لحم ولا كأس الا اذا كان فيها شراب والا فهي زجاجة ولا كوز الا اذا كانت له عروة والا فهي كوب ولا رضاب الا اذا كان في الفم والا فهو بصاق ولا اريكة الا لسرير عليه قبة فان لم يكن عليه قبة فهو سرير ولا ريطة الا اذا كانت لفقين والا فهي ملاءة ولا خدر الا اذا كانت فيه امرأة والا فهو ستر ولا للمرأة ظعينة الا اذا كانت في الهودج ولا قلم الا اذا كان مبريًا والا فهو انبوبة ولا عهن الا اذا كان مصبوغًا والا فهو صوف ولا وقود الا اذا اتقدت فيه النار والا فهو حطب ولا ركية الا اذا كان فيها ماء والا فهي بئر ولا للابل راوية الاما دام عليها الماء ولا للدلو سجل الا ما دام فيها ماء ولا ذنوب الا ما دامت ملأى ولا نفق الا اذا كان له منفذ والا فهو سرب ولا للسرير نعش الا ما دام عليه الميت ولا للخاتم خاتم الا اذا كان عليه فص ولا رمح الا اذا كان عليه زج وسنان والا فهو قناة ولا لطيمة الا للابل التي تحمل الطيب والبز خاصة ولا حمولة الا للتي تحمل الامتعة خاصة ولا بدنة الا للتي تجعل للنحر ولا ركب الا لركبان الابل والا هضبة الا اذا كانت حمراء ولا يقال غيث الا اذا جاء في ابانه والا فهو مطر ولا يقال عش حتى يكون عيدانًا مجموعة واذا كان نقب في جبل او حائط فهو وكن ووكر

ثم قال فصل وتقول العرب في الامر وهن وفي الثوب وهى وفي الحساب غلت وفي غيره غلط وفي الطعام بشم وفي الماء ثغر وحلا الشيء في فمي وحلي في عيني الخ

وهكذا جميع فصول الكتاب كلها غرر بل قلائد درر وهو نحو اربعمائة صفحة والصفحة على ربع الورق تغمد الله تعالى مؤلفه برحمته ورضوانه

بغداد   محمود شكري الالوسي



بعد البين

لقد طوحتني في البلاد مضاعا ... طوائح جاءت بالخطوب تباعا
فبارحت ارضاً ماملأت حقائبي ... سوى حبها عند البراح متاعا
عتبت عَلَى بغداد عتب مودع ... امضته فيها الحادثات قراعا
اضاعتني الايام فيها ولودرت ... لعز عليها ان اكون مضاعا
لقد ارضعتني كل خسف وانني ... لاشكرها ان لم تتم رضاعا
وما انا بالجاني عليها وانما ... نهضت خصاماً دونها ودفاعا
واعملت اقلامي بها عربية ... فلم تبد اصغاء لها وسماعا
ولو كنت ادري انها اعجمية ... تخذت بها السيف الجراز يراعا
ولوشئت كايلت الذين انطووا بها ... عَلَى الحقد صاعاً بالعداء فصاعا
ولكن هي النفس التي قد ابت لها ... طباع المعالي ان تسوء طباعا
أبيت عليهم ان اكون بذلة ... وتأبى الضواري ان تكون ضباعا
عَلَى انني داريت ما شاء حقدهم ... فلم يجد نفعاً ما أتيت وضاعا
واشقى الورى نفساً واضيعهم نهى ... لبيب يداري في نهاه رعاعا
تركت من الشعر المديح لاهله ... ونزهت شعري ان يكون قذاعا
وانشدته يجلو الحقيقة بالنهى ... ويكشف عن وجه الصواب قناعا
وارسلته عفواً فجاء كما ترى ... قوافي تجتاب البلاد سراعا

***

وقفت غداة البين في الكرخ وقفة ... لما كربت نفسي تطير شعاعا
اودع اصحابي وهم محدقون بي ... وقد ضقت بالبين المشت ذراعا
اودعهم في الكرخ والطرف مرسل ... الى الجانب الشرقي منه شعاعا
وادعم رأسي بالاصابع مطرقاً ... كأن برأسي يا اميم صداعا
وكنت اظن البين سهلاً فذاقني ... شرى البين مني ماأراد وباعا
واني جبان في فراق احبتي ... وان كنت في غير الفراق شجاعا

كأني وقد جدّ الفراق سفينة ... اشالت على الريح الهجوم شراعا
فمالت بها الارواح والبحر مائج ... وقد اوشكت الواحها لتداعى
فتحسبني من هزة في اندعنا ... ترقى هضابا زلزلت وتلاعا
فما انا الا قومة وانحناءة ... وسر اذاعته الدموع فذاعا
أبيت وما اقوى الهموم بمضجع ... تصارعني فيه الهموم صراعا
والهو بذكراهم على السير كلما ... هبطت وهاداً او علوت يفاعا
هم القوم اما الصبر عنهم فقد عصى ... واما اشتياقي نحوهم فاطاعا
لقد حكموني في الامور فلم اكن ... لانطق الا آمراً ومطاعا
فلست ابالي بعد ان جدّ بينهم ... زجرت كلاباً ام نحمت سباعا
سلام على وادي السلام وانني ... لاجعل تسليمي عليه وداعا
له الله من واد تكاسل اهله ... فباتوا عطاشا حوله وجياعا
رآهم عبيداً فاستبد بمائه ... ولم يجر بين المجدبات مشاعا
جرى شاكراً صنع الطبيعة انها ... ابانت يداً في جانبيه صناعا
وما نس لا انس المياه بدجلة ... وان هي تجري في العراق ضياعا
ولو انها تسقي العراق لما رمت ... به الشمس الا في الجنان شعاعا
وما وجدت ريح وان قد تناوحت ... مهباً به الا قرى وضياعا
سأجري عليها الدمع غير مضيع ... واندب قاعاً من هناك فقاعا
واذكر هاتيك الرباع بحسنها ... فنعمت على شحط المزار رباعا

الاستانة ... معروف الرصافي



النقل والناقلون

للتأليف طريقتان طريقة الاعتماد عَلَى من سبق لمؤلف ونقل كلامهم ليدعم به قوله ويؤيد رأيه، وطريقة ابداء راي المؤلف مباشرة دون الاستشهاد باقوال غيره مهما بلغت من المكانة . والطريقة الاولى هي الطريقة العلمية المقنعة التي تبقى عَلَى الدهر ويصعب ان يتطرق اليها الخلل الا اذا ظهرت نصوص كثيرة صحيحة تخالف ما استشهد به الكاتب .

نقد رأى ديكارت الفيلسوف الفرنسوي ان ليس في درس مذاهب الغير ولا سيما في الفلسفة كبير امر وان الاجدر ولو ببعض ارباب العقول ان يبحثوا عن الحقيقة بما فيها من الاسرار الخاصة دون الاحتفال بالمذاهب الاخرى التي ذهب اليها غيره في هذه المسألة بيد ان بعض شيناع فلسفة ديكارت انفسهم يرون ان هذا البحث عَلَى خلوه من فائدة ضار لانه يسلب من العقل حريته في تقدير الاشياء قدرها

ويرى الفيلسوف كوزين الفرنسوي غير رأي ديكارت بل انه غالى في ضرورة درس المذاهب الفلسفية السالفة حتى تدرج الى ان مزج الفلسفة بتاريخ الفلسفة ومن رأيه ان الطريقة الفلسفية الوحيدة الجديرة بهذا العصر ان يدرس المؤلف المذاهب كلها ويختار بين المذاهب التي ظهرت الى اليوم عَلَى مشهد العقل البشري من المذاهب المتناقضة .

ثم عاد ديكارت ايضاً فقال ان المصنفات التي صنفها جماعة قد تكون في كمالها دون التي صنفها فرد واحد وتدرج من ذلك الى ان قال ان العلوم التي تألفت عَلَى التوالي من آراء كثيرين قد يكون حظها من الاخذ بطرف من الحق اقل من العلوم التي هي ثمرة فكر واحد .

ومن العادة عند مؤلفي الغربيين اذا ارادوا الكتابة ان يطالعوا جميع ما يمكنهم مطالعته في الموضوع الذي يريدون الخوض فيه فيطالع الالماني ما كتبه الافرنسي والايطالي والروسي والانكليزي والاميركي وغيره غيرهم لتكون كتابته مؤيدة بالشواهد الصحيحة ولذا قرأ سبنسر فيلسوف الانكليز في القرن التاسع عشر ١٧٣ كتاباً قبل ان يكتب كتابه العدل . وهكذا كل مؤلف في الغرب اليوم

وبعد فما كل قول ينقل ويستشهد به حجة لتأييد الكلام وانما ينقل قول يكون قائله قدوة والا فما من قول الا وقد قيل كما قال كثير من الحكماء . وقد نشأ من نقل اقوال كيفما اتفق اختلاف كثير حتى ان الباحث اذا دقق النظر يرى ان تلك الاقوال ترجع الى قول او قولين ممن يعتد بهم ولو امكن لكل مؤلف ان يسلك طريقة الجاحظ في قوله : « انما احكي لك من كل نحلة قول حذاقهم وذوي احلامهم لان فيه دلالة على غيره وغنى عما سواه » لكان نهج السبيل الاقوم

ومن نقل كل ما يقال ترى في كتب التاريخ والملل والنحل اقوالاً اذا بحثت عنها لم تجدها الا عند بعض ادنى العوام فكراً ولو عين المنقول اليه لسقط موقع القول من النفوس لكن بعض الناقلين لتصورهم في النظر ينقلون كل ما يقال بدون تعيين المنقول عنه ولو عينوا المنقول لسقط الاشكال . وكثيراً ما يقصد الحذاق منهم المغالطة ليوهموا الناظر ان في المسألة اختلافاً وهو محل دقيق جداً يغلط فيه النحرير العالم على ان بعضهم يرى ان لا ينقل من قول الحذاق الا قول له موقع في النفس ومن ثم يقول القائل

وليس كل خلاف جاء معتبراً الا خلاف له حظ من النظر

وان ارباب النقد ليبحثون في كل قول عمن قاله ليعلموا درجة القائل في نفسه ودرجته في اقتداء الناس به وبذلك تظهر له الحقيقة في اجلى مظاهرها وقد قال حجة الاسلام الغزالي قولاً قاله كثير ممن قبله « لو سكت من لا يعلم لقل الخلاف في العالم »

سألنا ذات يوم احد العلماء العارفين عن السر في اختلاف المذاهب والمشاعب المنقولة فقال : وربما نجد في كتب الملل والنحل اسماء فرق لها اقوال غريبة يصعب عليك بعد التتبع الشديد ان تعرف في اي عصر وجدت واين وجدت وكيف وجدت وفي اي قطر يوجد منهم اناس وان زعم الزاعم انقراضها يعسر عليه اثبات زمان انقراضها واغرب من ذلك صعوبة معرفة ترجمة رجل من حذاقها فذكر فرقة من هذا النوع يعد سخافة من الناقل . والذين لم كتب في هذا المقام منهم الناقل غير الناقد ومنهم المموه لغلبة الهوى عليه ومنهم من لم تنتشر كتبه عندنا ولو وجدت كتب الجاحظ ومن نحا نحوه كابن ابي الحديد في هذا الباب مثلاً لكفينا المؤنة في ذلك نعم يقال ان الجاحظ قد يسلك طرق التمويه كما سجل عليه ذلك بعض معاصريه من ابناء نحلته كابي جعفر الاسكافي لكن تمويه الجاحظ تمويه عاقل ذي بصيرة اذا موه يكاد يظهر الحق من خلال تمويهه وقد يصرح بغير ذلك في موضع آخر فالعاقل ذو البصيرة ينتفع بكلامه كيف كان

قال ومن يخلط في نقله كالطبيب الذي ينقل كل قول لا يعود احد يعتد بنقوله وكذلك النحوي وغيره وهذه القاعدة تكاد تكون عامة لا تتخلف في كل فن فقد نقل ابن ابي الحديد ان الجاحظ الف كتاباً سماه كتاب العثمانية انتصر فيه للخلفاء الراشدين الا انه اظهر فيه ما يشعر بالنصب لما اقتضته طينة البصرة على زعم بعضهم فتصدى له من ابناء نحلته الامام ابو جعفر الاسكافي فنقض كتابه واطلق لسانه في الجاحظ اطلاقاً لم يقع نظيره من المضادين للجاحظ في النحلة فمن ذلك قوله: القول ممكن والدعوى سهلة سيما على مثل الجاحظ ... قوله لغو ومطلبه سجع وكلامه لعب ولهو يقول الشيء وخلافه ويحسن القول وضده

قال قاضي القضاة عبد الجبار في كتاب طبقات المعتزلة نقض الاسكافي كتاب الجاحظ في العثمانية في حياته فدخل الجاحظ الوراقين ببغداد فقال من هذا الغلام السوادي الذي بلغني انه تعرض لنقض كتابي وابو جعفر جالس فاختفى منه حتى لم يره وكان ابو جعفر علوي الرأي محققاً منصفاً قليل العصبية الف سبعين كتاباً في علم الكلام .

وقصارى القول انه لا ينقل الا كلام الثقات والعظماء للاستئناس به وتقوية اواصر الكلام به وقد ينقل كلام بعض الضعفاء لنكتة فيه او لعبرة تراد منه . والكتابة بدون استشهاد باقوال الائمة والعظماء مهما بلغت درجة صاحبها لا يلتفت اليها عند المحققين ولو حوت من اللآلىء كل عقد ثمين

التميز في الالبسة

ليس اغرب من هذا الشرق ترى فيه الاختلاف في الافكار كما تراه في الاديان بل تراه في اختلاف الهواء والماء . وقد وفق الغرب الى توحيد البسة اهله في القرون الاخيرة اما الشرق فلم يزل في تخالفه في ذلك على نحو ما كان عليه في القرون الوسطى قرون الظلم والهمجية

اختلاف المشارقة في البستهم قديم فقد كان للقضاة وللاجناد وللعلماء والعامة البسة خاصة بهم بل كان اللباس تابعاً للاقاليم فابن الحجاز يلبس ما لا يلبسه ابن الشام وهكذا تجد لو طفت الاقاليم ودرست المدنيات .

وكان لاهل الذمة في الاسلام لباس خاص بهم وهو من التحكمات السياسية التي دعا اليها العرف لا الدين وليس في الدين ما يدل على تمييز المسلمين بلباس خاص فقد اشترط الخليفة الثاني في كتاب الجزية الذي كتبه لاهل الذمة ان يؤخذوا بلبس الغيار وهو علامة لهم كالزنار ونحوه ولما تبسط الفاتحون في مناحي السلطان كان من جملة واجبات المحتسب كما في كتاب نهاية الرتبة في الحسبة ان يأخذ الذميين بلبسه فان كان يهودياً عمل على كتفه خيطاً احمر او اصفر وان كان نصرانياً عمل في وسطه زناراً او علق في حلقه صليباً وان كانت امرأة لبست خفين احدهما ابيض والآخر اسود واذا عبر الذمي الى الحمام ينبغي ان يكون في حلقه صليب او طوق من حديد او نحاس او رصاص ليختبر عن غيره .

وفي كتاب الخراج لابي يوسف ان لا يترك احد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ويؤخذوا بان يجعلوا في اوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم وبان تكون قلانسهم مضربة قال وان عمر بن الخطاب امر عماله ان يأخذوا اهل الذمة بهذا الزي اي ان تكون قلانسهم طوالاً مضربة وروي عن عمر بن عبد العزيز انه كتب الى عامل له فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب وقد ذكر لي ان كثيراً من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على اوساطهم واتخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص ولعمري لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك ان ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة

وفيما اطلعنا عليه من الكتب اشارات طفيفة لاختلاف ازياء الذميين في العصور الاسلامية وما هذا الاختلاف في الحقيقة ناتج الا من التحكم البارد غالباً . قال ابن الاثير في حوادث سنة ٢٣٥ ان المتوكل امر اهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين في مؤخر السروج وعمل رقعتين على لباس مماليكهم مخالفين لون الثوب كل واحد منهما قدر اربع اصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الاخرى ومن خرج من نسائهم تلبس ازاراً عسلياً ومنعهم من لبس المناطق وامر بهدم بيعهم المحدثة وبأخذ العشر من منازلهم وان يجعل على ابواب دورهم صور شياطين من خشب ونهى ان يستعان بهم في اعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم وان يظهروا في شعانينهم صليباً وان يستعملوا في الطريق وامر بتسوية قبورهم مع الارض وكتب في ذلك الى الآفاق .

وقال الذهبي في حوادث ٣٩٨ وفيها هدم الحاكم كنيسة القمامة بالقدس وكانت فيها اموال وجواهر ما لا يوصف والزم النصارى بتعليق صلبان كبار على صدورهم واليهود بتعليق مثل رأس العجل على صدورهم وكان الصليب رطلاً بالدمشقي من خشب ومثال رأس العجل كالمدقة وزنها رطل ونصف وان يشدوا الاجراس في رقابهم عند دخول الحمامات قال والزم الحاكم صاحب المغرب والحجاز ومصر والشام اهل الذمة بالصلبان في اعناقهم والبس اليهود العمائم السود نكاية واهنة لبني العباس قال ابن خلكان وفي سنة اثنتين واربعمائة امر الحاكم النصارى واليهود الا الخيابرة بلبس العمائم السود وان تحمل النصارى في اعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة ارطال وان تحمل اليهود في اعناقهم قرامي الخشب على وزن صلبان النصارى وان يكون في اعناق النصارى اذا دخلوا الحمام الصلبان وفي اعناق اليهود الجلاجل ليتميزوا عن المسلمين

قلنا وكان في الحاكم لوثة وجنة يأمر اليوم بأمر فينهي عنه في الغد

وذكر الذهبي في حوادث سنة سبعمائة ان النصارى واليهود البست بمصر والشام العمائم الزرق والصفر واستمر ذلك . وسنة ٧٣٤ الزمت النصارى واليهود ببغداد بالغيار ثم نقضت كنائسهم ودياراتهم واسلم منهم ومن اعيانهم خلق كثير منهم سديد الدولة وكان ركناً لليهود .

وروى لسان الدين بن الخطيب ان اسمعيل بن فرج الخزرجي من ملوك الاندلس اشتهر في اقامة الحدود واراقة المسكرات وحظر تجلي القينات للرجال في الولائم وقصر

طريهن على اجسامهن من الناس واخذ لليهود الذمة بالتزام سمة تميزهم واشارة تشهرهم وليوفي حقهم من المعاملة التي امر بها الشرع في الخطاب والطرق وهو شواش (جمع شاشية) اصفر. وذكر صاحب المعجب في سيرة ابي يوسف يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن انه امر في آخر ايامه ان يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية واكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من اقدامهم وبدلاً من العمائم كلوتات على اشنع صورة كأنها البراذيع تبلغ الى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية ايامه وصدراً من ايام ابنه ابي عبدالله الى ان غيره ابو عبدالله بعد ان توسلوا اليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم فامرهم ابو عبدالله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي الى وقتنا هذا وهو سنه ٦٢١ وانما حمل ابا يوسف على ما صنعه من افرادهم بهذا الزي وتمييزه اياهم به شكه في اسلامهم وكان يقول لو صح عندي اسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في انكحتهم وسائر امورهم ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت اموالهم فيئاً للمسلمين ولكني متردد في امرهم ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام امر المصامدة ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد ويقرؤون اولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا والله اعلم بما تكنه صدورهم وتحويه بيوتهم اه

وقال ابن ابي اصيبعة: حدثني الشيخ موفق الدين بن البوري الكاتب النصراني قال لما فتح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب الكرك اتى الى دمشق الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصراني وهو شاب على رأسه كوفية وتخفيفة صغيرة وهو لابس جوخة ملوطة زرقاء زي اطباء الفرنج وقصد الحكيم موفق الدين بن المطران وصار يخدمه ويتردد اليه لعله ينفعه فقال له هذا الزي الذي انت عليه ما يمشي لك به حال في الطب في هذه الدولة بين المسلمين وانما المصلحة ان تغير زيك وتلبس عادة الاطباء في بلادنا ثم اخرج له جبة واسعة عنابية وبقياراً مكحلاً وامره ان يلبسهما

قال ياقوت في معجم الادباء في ترجمة اسعد بن المهذب ما يأتي: كان المهذب ابوه المعروف بالخطير مرتباً على ديوان الاقطاعات وهو على دين النصرانية فلما علم اسد الدين شيركوه في بدء امره بمصر انه نصراني وانه يتصرف في (عمله) بلا غيار نهاه وامره بغيار النصارى ورفع الذؤابة وشد الزنار وصرفه عن الديوان فبادر هو واولاده فاسلموا على

يده فاقره على ديوانه مدة ثم صرفه عنه فقال فيه ابن الذروي

لم يسلم الشيخ الخطـ ـير لرغبة في دين احمد
بل ظن ان محاله يبقى له الديوان سرمد
والآن قد صرفوه عنـ ـه فدينه فالعود احمد

ولما امر شيركوه النصارى بلبس الغيار وان يعمموا بغير عذبة قال عمارة اليمني

يا اسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شد اوساطنا فما الذي يوجب كشف القفا

هذا ما كان عليه الاختلاف في الازياء بين اهل الوطن الواحد وكثيره كما ترى ناشيء من ملوك او فقهاء متعصبين تعصب ظاهراً مثل المتوكل والحاكم بامر الله ولم يسمع بان رجال الجد في الاسلام مثل الرشيد والمأمون وصلاح الدين ونور الدين تحكموا هذه التحكمات والله اعلم

-o-

الجغرافيا والعرب

لم يترك العرب ايام حضارتهم فرعاً من فروع العلوم النافعة في قيام مجتمعهم الا وتوفر افراد منهم عليه . وعلم الجغرافيا هو احد تلك العلوم ولم يكن لهم به عهد في الجاهلية كالشعر والرواية والادب والخطب واذا ذكروا بعض اسماء البلدان المجاورة لهم فانما يذكرونها بالعرض لا تشعر بمعرفة ولا تنم عن اشتغال

وكان من اول الكتب التي نقلوها الى لسانهم كتاب بطليموس اليوناني في الجغرافيا ومن اول الاعمال الجغرافية العلمية التي تمت على يد علمائهم هو ان المأمون امر محمد بن موسى بن شاكر واخويه احمد والحسن بتحقيق طول خط نصف النهار لمعرفة محيط الكرة الارضية بالضبط فقاسوا احد خطوط الطول في سهل سنجار ثم اعادوا المقاس ثانياً في وطآت الكوفة فثبتت لديهم كروية الارض وعرفوا محيطها

قال ابن خلكان في ترجمة بني شاكر : وكانت لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الاوائل واتعبوا انفسهم في شأنها وانفذوا الى بلاد الروم من اخرجها لهم

واحضروا النقلة من الاصقاع الشاسعة والاماكن البعيدة بالبذل السني فاظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الاقل ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة ولقد وقفت عليه فوجدته من احسن الكتب وامتعها وهو مجلد واحد . ومما اختصوا به في ملة الاسلام واخرجوه من القوة الى الفعل وان كان ارباب الارصاد المتقدمون على الاسلام قبل فعلوه ولكنه لم ينقل ان احداً من اهل هذه الملة تصدى له وفعله الا هم وهو ان المأمون كان مغرى بعلوم الاوائل وتحقيقها ورأى فيها ان دور كرة الارض اربعة وعشرون الف ميل كل ثلاثة اميال فرسخ فيكون المجموع ثمانية آلاف فرسخ بحيث لو وضع طرف حبل على اي نقطة كانت من الارض وادرنا الحبل على كرة الارض حتى انتهينا بالطرف الآخر الى ذلك الموضع من الارض والتقى طرفا الحبل فاذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله اربعة وعشرين الف ميل فلوا د المأمون ان يقف على حقيقة ذلك فسأل بني موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعي وقال اريد منكم ان تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك ام لا فسألوا عن الاراضي المتساوية في اي البلاد هي فقيل لهم صحراء سنجار في غاية الاستواء وكذلك وطآت الكوفة فاخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون الى اقوالهم ويركن الى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا الى سنجار وجاؤا الى الصحراء المذكورة فوقفوا في موضع منها فاخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات وضربوا في ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً ثم مشوا الى الجهة الشمالية على استواء الارض من غير انحراف الى اليمين واليسار بحسب الإمكان فلما فرغ الحبل نصبوا في الارض وتداً آخر وربطوا فيه حبلاً طويلاً ومشوا الى جهة الشمال ايضاً كفعلهم الاول ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا الى موضع اخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الاول درجة فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الارض بالحبال فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي ميل فعلموا ان كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الارض ستة وستون ميلاً وثلثان ثم عادوا الى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الاول وشدوا فيه حبلاً وتوجهوا الى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الاوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال ثم اخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الاول درجة فصح حسابهم وحققوا ما قصدوه من ذلك

وهذا اذا وقف عليه من ليزيد في علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك ومن المعلوم ان عدد دوائر الفلك ثلثمائة وستون درجة لان الفلك مقسوم باثني عشر برجاً وكل برج ثلاثون درجة فتكون الجملة ثلثمائة وستين درجة فضربوا عدد دوائر الفلك في ستة وستين ميلاً اي التي هي حصة كل درجة فكانت الجملة اربعة وعشرين الف ميل وهي ثمانية آلاف فرسخ وهذا محقق لا شك فيه فلما عاد بنو موسى الى المأمون واخبروه بما صنعوا وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الاوائل طلب تحقيق ذلك في موضع آخر فسيرهم الى ارض الكوفة وفعلوا كما فعلوا في سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك .

هذا ما قاله صاحب وفيات الاعيان بنصه وليس العمل لاثبات كروية الارض هو العمل الوحيد الذي قام به المأمون فقد قال المسعودي صاحب مروج الذهب في كتابه التنبيه والاشراف وهو مما الفه بفسطاط مصر سنة ٣٤٥ للهجرة : ورأيت هذه الاقاليم مصورة في غير كتاب بانواع الاصباغ واحسن ما رأيت من ذلك في كتاب جغرافيا لمارينوس وتفسير جغرافيا قطع الارض وفي الصورة المأمونية التي عملت للمأمون اجتمع على صنعتها عدة من حكماء اهل عصره صور فيها العالم بافلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الامم والمدن وغير ذلك وهي احسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرهما اه

قال السنيور جويدي الايطالي⁽¹⁾ وليس حكماء العرب هم الذين عنوا دون غيرهم من الامة العربية برسم صورة الارض بل ان امراءهم كذلك ومنهم امير المؤمنين المأمون الخليفة العباسي فانه اغرم برسم الارض وبذل قصارى جهده في ابرازها فجمع من بالعراق من حكماء دولته زهاء سبعين حكيماً على ما قيل فاجتمعوا على تكوينها واحكامها حتى فضلت بذلك ما تقدمها من الصور اه ولقد عرف المسلمون ان من جملة اسباب الفتح معرفة طرق البلدان والامصار فقد ذكر المؤرخون انه قام الملاحون المدعوون بالمغرورين في القرن الاول للهجرة واقلعوا من اشبونة عاصمة البرتغال اليوم بغية الوصول الى ما وراء بحر الظلمات من الاقطار الغربية او لاكتشاف الجزائر الاميركية قبل ان يكتشفها كولمبس . وفي البعثات التي سيرها الخلفاء الى الناصية كبعثة الواثق العباسي لاكتشاف سواحل

(1) محاضرات ادبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب باعتبار علاقتها باوربا وخصوصاً بايطاليا

بحر الخزر وبعثة المقتدر بالله عام ٣٠٩ الى البلغار للدعوة الاسلامية فيها واخذ احد اعضاء البعثة احمد بن فضلان معلومات مفيدة عن تلك البلاد وفي الحلة التي وصلت الى بكين بعد فتح كاشغر سنة ست وتسعين للهجرة لدعوة الصين الى الاسلام في كل ذلك اكبر دليل على تقدير العرب علم رسم الارض او الجغرافيا او علم تقويم البلدان .

ولقد كان علماء الحديث من اشد الناس عناية بالجغرافيا لتمييز النسب الى البلدان والفرق بين الرجال ومساقط رؤوسهم وهذا هو السبب الذي دعا ارباب المعاجم ان يذكروا اسماء الامصار والقرى . ومن راجع باب العشر والخراج في مطولات الفقه علم ما بين الفقه والجغرافيا من التعلق .

كتب احد الخلفاء الى حكيم من حكماء عصره حين فتح الله البلاد على العرب من العراق والشام ومصر وغيرها يقول : انا اناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ونريد ان نتبوأ الارض ونسكن البلاد والامصار فصف لي المدن واهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والاهوية في سكانها فكتب اليه ذلك الحكيم بجغرافيتها الطبيعية . وكتب عمر ابن عبد العزيز الى احد عماله ان يصف له جزيرة الاندلس لانه علم ان المسلمين نزلوا فيها في بلاد يحيط بهم الافرنج من اكثر الجهات ولا بقاء لهم في تلك البلاد .

ولما اجتمع ابن خلدون بتيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ في دمشق سأله هذا عن بلده والمغرب الاقصى فذكر له ابن خلدون ما حضره وطلب منه ان يؤلف له مختصراً وجيزاً يصف له بلاد المغرب كلها اقاصيها وادانيها وجبالها وانهارها وقراها وامصارها فكتب له في غربته اثنتي عشرة كراساً في وصف المغرب

واجمع تعريف للجغرافيا يستدل منه على موقعها من نفوس العرب واتصالها بعدة علوم لهم ما قاله ياقوت في مقدمة معجم البلدان : ومن ذا الذي يستغني من اولي البصائر عن معرفة اسماء الاماكن وتصحيحها وضبط اصقاعها وتنقيحها والناس في الافتقار الى علمها سواسية وسرد ورانها على الالسن في المحافل علانية لان من هذه الاماكن ما هي مواقيت للحجاج والزائرين ومعالم للصحابة والتابعين رضوان الله عليهم اجمعين ومشاهد للاولياء الصالحين ومواطن غزوات سرايا سيد المرسلين وفتوح الائمة من الخلفاء الراشدين وقد فتحت هذه الاماكن صلحاً وعنوة وامانا وقوة ولكل من ذلك حكم في الشريعة في قسمة الفيء واخذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات وانالة التسويغات والاقطاعات لا يسع الفقهاء جهلها ولا تعذر الائمة والامراء اذا فاتهم

في طريق العلم حزنها وسهلها لانها من لوازم فتيا الدين وضوابط قواعد الاسلام والمسلمين فاما اهل السير والاخبار والحديث والتواريخ والآثار فحاجتهم الى معرفتها امس من حاجة الرياضي الى القطار غب اختلاف الانواء والمشفي الى العافية بعد يأس من الشفاء لانه معتمد علمهم الذي قل ان تخلو منه صفحة بل وجهة بل سطر من كتبهم. واما اهل الحكمة والتنجيم والتطبيب والتنجيم فلا تقصر حاجتهم الى معرفته عمن قدمنا فالاطباء لمعرفة امزجة البلدان واهويتها والمنجم للاطلاع على مطالع النجوم وانوائها اذ كانوا لا يحكمون على البلاد الا بطوالعها ولا يقضون لها وعليها بدون معرفة اقاليمها ومواضعها ومن كان المتطبب ان يتطلع الى معرفة مزاجها وهوائها وصحة او سقم منبتها ومائها فصارت حاجتهم الى ضبطها ضرورية وكشفهم عن حقائقها فلسفية ولذلك صنف كثير من القدماء كتباً سموها جغرافيا ومعناها صورة الارض والف آخرون كتباً في امزجة البلدان وهوائها نحو جالينوس وقبله بقراط وغيرهما واما اهل الادب فناهيك بحاجتهم اليها لانها من ضوابط اللغوي ولوازمه وشواهد النحوي ودعائمه ومعتمد الشاعر في تحلية جيد شعره بذكرها وتزيين عقود لآلي نظمه بشذرها فان الشعر لا يروق ونفس السامع لا تشوق حتى يذكر حاجر وزرود والدهناء وهبود ويحن الى رمال رضوى فيلزمه تصحيح الاسم واين صقعه وما اشتقاقه ونزهته وقفره وحزنه وسهولته فانه ان زعم انه واد وكان جبلاً او جبل وكان صحراء او صحراء وكان نهراً او نهر وكان قرية او قرية وكان شعباً او شعب وكان حزناً او حزن وكان روضة او روضة وكان صفصفاً او صفصف وكان مستنقعاً او مستنقع وكان جلداً او جلد وكان سبخة او سبخة وكان حرة او حرة وكان سهلاً او سهل وكان وعراً او يجعله شرقياً وكان غربياً او جنوبياً وكان شمالياً سفل قدره ونزر كثره وآض ضحكة ويرى انه ضحكة وجعل هزأة ويرى انه هزأة واستخف وزنه واسترذل واستثقل فضله واستجهل اهـ

وبعد فقد نبغ في علماء العرب بفن الجغرافيا اناس لم يزالوا يذكرون كما يذكر الافراد فمن قدمائهم ابو موسى الخوارزمي وعبدالله بن خرداذبة وابن واضح المدني وابن الفقيه الهمذاني وعمر بن رسته وقدامة بن جعفر والجيهاني وعلي بن فضلان وابو دلف مسعر وابو زيد البلخي وابو اسحق الاصطخري وشمس الدين المقدسي وعلي بن الحسين المسعودي وابو الريحان البيروني وابو عبيد البكري وابو سعيد الاصمعي وابو عبيد السيرافي والزمخشري ومحمد بن احمد الهمداني ومحمد بن ابي بكر الزهري والشريف

الادريسي وابن فضل الله العمري ومحمد المازني ومحمد بن علي الموصلي وابو عبد الله بن شداد وابو محمد العبدري وابو عبد الله ياقوت الحموي وزكريا بن محمد القزويني وابن سعيد المغربي وشمس الدين الانصاري الدمشقي والملك ابو الفداء صاحب حماة وابن بطوطة وابن الوردي وابن اياس ولهذا كان آخرهم ممن يعتد باقوالهم فقد جاء في القرن العاشر للهجرة وبعد ذلك انقطع سند العلوم الجغرافية من المسلمين بزهدهم في كل علم ولغلبة الجهل وان صادف ان جاء من اشتغل بالجغرافيا بعد ذلك العهد فيكون ناقلاً عن مصنفات اولئك الاعلام او مختصراً لبعضها شأن العرب في القرون الثلاثة الاخيرة في جميع ما كتبوا فقد فقدت منهم ملكة التأليف والاختراع وصاروا نقلة عاديين والله اعلم

ديوان خالد الكاتب

في جملة مخطوطات دار الكتب الظاهرية في دمشق ديوان خالد الكاتب ابن يزيد كتب سنة ١١١٠ هـ بقلم محي الدين الدمشقي السلطي وهو في ٨٨ ورقة تغلب عليه الصحة ومرتب على حروف الهجاء رتبه لناشره ولم يرتبه بنفسه فيما يظهر . قال على قافية الباء .

يا ايها المعرض يا ذا الذي[1] ... هب للهوى ذنبي بطول التعب
اما تراني دنفاً هائماً ... وجداً بمن صارمني واحتجب
يا واحداً في الحسن طال الهوى ... والشوق اذ طال اليك الطلب
ندمت للعبد على ان لي ... قلباً قريحاً بك نائي الندب

وقال ايضاً

القلب مني على شوق وتعذيب ... وزفرة قرحت في قلب مكروب
لا والذي ذهبت بالنفس لحظته ... وما به يرى(؟) من حسن ومن طيب
ماطول شوقي ولا حزني ولا كمدي ... الا على مهجتي من بعد تعذيبي
كم كمن الدهر من سهم يفوّقه ... مسدد بدم العشاق مخضوب

(١) خ . ماذا الغضب

وقال ايضاً

بنفسي بلوت ليلة طالت على دنف غريب
مطوية خب الغلائل بوثرة العقب الكثيب
يغلق الفلك بالانين من الحنين الى حبيب
لم يلق بعد فراقه قمراً وغصناً في كثيب

وقال ايضاً

فلو ان خداً كان من فيض عبرة يرى معشباً لاخضر خدي فاعشبا
كأن ريح الزهر بين مدامعي بما اخضل فيه مزفى وتعبا(؟)
على انني لم ابك الا مودعاً بقية نفس ودعتني لتذهبا
وقد قلت لما لم اجد لي راحة سوى الدمع لما حل اهلاً ومرحبا

ومعظم الديوان في الغزل قال في قافية الدال

البسه السقم حتى مل عائده يا سالم القلب من شوق يكابده
ثم لا أرقت فان الم اقلقه فبات يسهد ليلاً انت راقده
وباح بالسر لما ذاب اكثره شوقاً اليك ولما بان واحده
رق العذول له حتى بكى معه حزناً واسعده بالدمع حاسده

وقال ايضاً

القلب يحسد عيني لذة النظر والعين تحسد قلبي لذة الفكر
يقول قلبي لعيني كلما نظرت كم تنظرين رماك الله بالسهر
والعين تورثه هماً فتشغله والقلب بالدمع ينهاه عن النظر
هذان خصمان لا ارضى بحكمهما فاحكم فديتك بين العين والبصر

وقال ايضاً

ولما رأيت الدمع غاض الى الحشا وان فؤادي من دموعي في بحر
نظرت الى عيني لاماء فيهما فايقنت ان الدمع تحتهما يجري
فلولا استبان الدمع في مضمر الحشا تفجر انهار الدموع من الصدر
على ان قلبي ينشف الدمع حره واين بقايا الدمع في وهج الجمر

قالوا ان معظم شعره في الغزل والنسيب واكثره من اربعة ابيات ومن شعره في المديح قوله يمدح الحسن بن وهب الكاتب

يا وجه احسن من يمشي على قدم ... بحرمة الحسن قل لي كيف حل دمي
اما وخدين يسقي الورد ماءهما ... في نسبة تمنع الدنيا من الظلم
ومقلة كلما دارت رأيت بها ... من جوهر اللحظ اسقاماً بلا الم

الى ان قال في المديح

مذهب في لباب الملك أسرته ... اهل الكتابة والالباب والحكم
من بيت دهقنة الاشراف في شرف ... أوفى على مطلع العيوق في الشمم
في ذروة من بناء العز باذخة ... علياء طالت عن الاوعال والعصم
امضى البرية في خطب واصوبها ... عزماً واكتب من املى على قلم

قال جامع الديوان وهذا آخر ما وجد في ذيله عن نسخة اخرى ند قافية الباء قوله

يا تارك الجسم بلا قلب ... ان كنت اهواك فما ذنبي
يا مفرداً بالحسن افردتني ... منك بطول الشوق والحب
ان تك عيني ابصرت فتنة ... فهل على قلبي من عتب
حسيبك الله لما بي كما ... انك في فعلك بي حسبي

وشعر خالد الكاتب كما تراه منسجم هو الى شعر المولدين اقرب منه الى شعر العرب الذي يحوي فخامة اللفظ وجزالة التركيب وقد استفدنا من ترجمة خالد الكاتب انه كان مغرماً بالصبابة وبينه وبين معاصره ابي تمام الطائي ملاحاة وشؤون وخلاصة حياته كما في فوات الوفيات للكتبي انه خالد بن يزيد ابن الهيثم الكاتب البغدادي اصله من خراسان وكان احد كتاب الجيش ولاه ابن الزيات الاعطاء ببعض الثغور فخرج فسمع في طريقه منشداً ينشد

من كان ذا شجن بالشام يطلبه ... ففي سوى الشام امسى الاهل والوطن

فبكى حتى سقط مغشياً عليه ثم افاق واختلط عقله واتصل به ذلك الى الوسواس وبطل ، قال ومن شعره

عش فحبيك سريعاً قاتلي ... والهوى ان لم تصلني واصلي
ظفر الشوق بقلبي دنف ... فيك والسقم بجسم ناحل
فهما بين وجد وضنى ... تركاني كالقضيب الناحل
وبكى العاذل لي من رحمة ... فبكائي لبكاء العاذل

ومن شعره ايضاً

عشية حيّاني بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن الى بعض

وراح وفعل الراح في حركاته كفعل النسيم الرطب في الغصن الغض

وتوفي سنة ٢٤٠ للهجرة سنة ٨٥٤ في جدود السبعين والمائتين

مصالح الابدان والانفس

قد يظن بعض من لا عهد لهم بحالة العرب ايام حضارتهم انهم كانوا كعرب البادية اليوم لا يكادون يعرفون الامور الصحية ولا تدبير البدن وانهم كانوا يسيرون متشبعين بفكر القضاء والقدر ان هلكوا قالوا قضاء وان عاشوا قالوا قدر . والحقيقة ان القوم كانوا على عناية أكيدة بامور الصحة وما بقي من كتبهم القليلة المحفوظ بعضها في دور الكتب في الشرق والغرب والمطبوع بعضها يدل دلالة كبيرة على ذلك واقرب سبيل للاشراف على عناية العرب بتدبير الصحة ان يرجع القارئ الى كشف الظنون فيرى الكتب التي الفت في هذا الفن بل الى تراجم الاطباء في القرون الستة الاولى للاسلام ويقرأ في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة اسماء الكتب التي صنفوها في تدبير الصحة فقط

وقد ظفرنا في خزانة كتب السيد ابي الخير عابدين من جلة فقهاء دمشق بكتاب مصالح الابدان والانفس لابي زيد البلخي ولعله الجغرافي المؤرخ المشهور في القرن الثالث . والقطعة مقتطعة من كتاب للمؤلف تغلب عليها الصحة فاحببنا نقله للمقتبس لان معظم ما تكلم فيه من المصالح كأنه كتب في هذه الايام قال المؤلف :

تذكرة مقتضبة على سبيل الايجاز والاختصار من كتاب ابي زيد البلخي رحمه الله تعالى المسمى بمصالح الابدان والانفس تجنبنا فيه بسط ابي زيد وتطويله وان كان مفيداً غير مخل وهو مسئول اللفظ غير متناول الا انا ملنا الى ما يدركه الحفظ ونقصر في الاحاطة به بسهولة اللفظ وبالله التوفيق والاعانة

باب الحاجة الى تعهد الاجسام وما في ذلك من استدامة الصحة

ان الجسد يحتاج في تعاخذ اركانه وتماسك اجزائه الى تعهد شديد وتفقد بليغ والنفع في ذلك بين اثره عند من دق نظره . ومثاله ما نراه من حال النمو في الاطفال وانه يتدرج على ترتيب يخفى عن الحس الى ان يبلغ غاية التمام والشباب ثم يولى تولية تلطف عن الادراك حتى يجتمع فيه من احوال الانتقاض والانتقاص ما تكون جملته محسوسة وان لم يحسن تفصيله فذلك منفعة التعهد ومضرة الاهمال في خفائهما اولاً ثم ظهورهما اخيراً .

باب في تدبير الاهوية والبلدان

كما يسافر الناس لطلب المعاش فلذلك يجب ان يسافروا لطلب المنازل المحمودة والبعد من الاهوية الفاسدة المعلة فان بعض الحيوان قد يفعل شبيهاً بذلك مثل اجناس الطير القاطعة واصناف السمك المتنقلة والهواء كالمركب أبداً من طبيعة الماء والتراب اللذين يمر عليهما واختلاف احوال سكان البلاد في صورهم واخلاقهم يتولد عن اختلاف هذه الاصول التي هي التراب والماء والهواء ، وعلى حسب ذلك يجب ان يرغب الحكيم في اصلاح ما يخصه منها . وافضل المساكن ما كانت تربته عذبة طيبة غير مشوبة ولم تبعد الشمس عن سمت رؤوس اهلها وكان عالياً في انجاد الارض وذرى الجبال ليتموج هواؤه ولا تختن فيه بخارات المياه وانفاس الحيوان . ويكون ماؤه سيحاً من مناقيع طيبة حركة التراب ، وتكون مجاريه بارزة للشمس وحركته شديدة ومسافته من مبدإه الى منتهاه بعيدة ولا يكون بقرب المنزل تربة فاسدة او مياه أجنة من بطائح ونقائع . وقد يوجد في المواضع الخربة من الارض تفاوت شديد يجب معه الحرص على طلب الاصلح واذا دفعت الضرورة الى نزول بلد هواؤه فاسد أصلح بالبخورات الموصوفة : وجلب الماء للشرب من المواضع السليمة والانتقال عنه اصلح ، فأما السلطان فتنقله في بلاد مملكته يجمع فنوناً من المصلحة منها سرور التنزه ، ومنها تخير الاصوب في تدبير الاجسام ومنها توزيع مراعاته على كل حد من حدود ملكه ، والهواء اقوى اجسام هذا العالم تصرفاً وتصريفاً لما يلاقيه وهو الذي يؤدي القوى من الاجسام السماوية الى الارضية ويوصل

قوى ما يمر عليه الى ما يصل اليه كأ يصاله الاصوات والروائح التي لو سكن لعدمت، ويجب ان يكون المبيت في الصيف بازاء مهب الشمال ، والجلوس في الشتاء بازاء مهب الجنوب وفي الفصلين بازاء مهب الصبا فهي موصوفة بطيب النسيم ولا سيما في السحر ويجتنب مع ذلك ملاقاة كل ريح عاصفة ، وانما خصت الصبا بالحركة في السحر لاقبال الشمس من ناحيتها فترقق اجزاء الهواء بحرها فيتبدد و يطلب مكانًا اوسع فيحدث النسيم المستلذ، ولان الشمس تعطي كل ما تلاقيه في اول النهار قوة عجيبة . واما الدبور فيجب اجتنابها في جميع الاوقات والاحوال . ويجب ان يجعل الجلوس عاليًا عن مهب الهواء الجاري عَلَى وجه الارض المشوب بالابخرة فانها تكدر الهواء المتنسم فيختر البدن و يفتره و يضعف قوة الحفظ و ينقصه ، وتستوطن العلالي والمناظر الا ان يمنعه منها صميم الحر والبرد فيتعوض عنها الأسرّة والفرش المنضدة قياسًا عَلَى ما قد تقرر من أن المواضع الجبلية أصح مزاجًا وانقى هواءً من السهلية . . .

باب تدبير الاكنان والملابس

واجب عَلَى الانسان توقية جسمه الحر والبرد من غير مبالغة في ذلك تكسب الترفه وتجلب الضرر عند ايسر تغيير من العادة وترتق أديم الجسم والحرارة اوحى اهلاكاً (٢) . والبرودة اشد مضادة وبذلك يهلك الشتاء النبات ويحوج الحيوان الصامت الى الاستتار بدل الانتشار ويجب ان تكون مساكن الشتاء منحرفةً عن سنن الرياح مستحصفة الحيطان لتكون احصن . . . تخلل الهواء واسعة رفيعة السمك ليكون للبخار والانفاس ودخان الوقود والمصابيح مجال فيها فانها ان تكاثفت انعكست الى المسام فكانت لها بئس الغذاء وهذه الصفة في التوسعة وتعلية السمك تلزم في الصيف والشتاء ، ويجعل مساكنه مضيئة ما امكن فان النفس تنزوي من الظلمة وتستوحش قياسًا عَلَى الليل والنهار وربما احتيج الى قراءة كتاب في الظلمة فلم يكن الا باكراه البصر واكراهه يكله ويضعفه، والظلمة مضرة بالبصر فان قوام الناظر بالهواء المعتدل . وشدة الضوء يضره كشعاع الشمس واتصال الظلمة يبطله كما اصاب من طالت مدته في الحبس . ويجب ادفاء بيوت الشتاء بالنار التي يستوي في احمائها جميع اجزاء البيت لتستوفي لذة الدفاء من جميع الجهات كمثل الحمام فان اختلفت مقادير السخونة اضرت بحسب خروجها عن الانتظام والاعتدال . الا ان يحتاج ان يسخن بعض اعضائه فيجري ذلك مجرى العلاج ويبتدىء فيدخل في

اول البرد الى الاروقة ثم الى المواضع التي تليها ثم يتدرج الى المواضع الغامضة بحسب زيادة البرد كحال الداخل الى الحمام في التنقل بين بيوته فان لزوم التدريج بين الاضداد واجب ، ويتقي برد الخريف اكثر من اتقائه برد الربيع لان ذلك مقبل وهذا مول ، واعدل الثياب القطن ولذلك لا يصيبها السوس ولا تسرع اليها الآفة وهي ملابس الشتاء والكتان للصيف لبرده ولتنشيفه العرق بيبسه ، والصوف قوي الحرارة مضر بالابدان التي تكثر حرارتها و يجب ان يختار من الملابس ما كان ناعماً لتلتذه حاسة اللمس . ويكون في الشتاء خفيفاً ليمنع البخار الخارج من الابدان من النفوذ فينعكس اليها فيكون به الدفاء وهذا حقيقة الدفاء وبه تدفأ الأوبار اكثر لان الكثافة فيها اوفر . واحتقان الابخرة في اثنائها اعظم ، وثوب الصيف متخلخل شفاف بضد ذلك الا ان يكون ضاحياً بارزاً في الصيف فيحتاج الى لباس كثيف ليوقي جسمه الحر ، ومن كان محروراً واضطر الى الوبر فليجتنب الثقيل الطويل الشعر كالثعلب ، وليجتنب ما كان ضاماً للبدن كله كالاقبية ونحوها ، وليقتصر على ما يدفئ الظهر فهو اشد ما في البدن برداً الا ان الاعضاء التي فيها الحرارة كالكبد والقلب في البطن دون الظهر ولذلك يكون ابتداء الامراض عنه اعني الظهر فان الاخلاط فجة هناك فتبتدئ الطبيعة بها ولا يغم رأس المعدة فانه موضع حساس ، وللصفراء هناك تسلط ربما آذاه لصوق الوبرية بل يجتهد ان يصل الى هذا الموضع روح الهواء ما لم يضره ، او يخالف عادته ويتوقى ملاقاة الريح فان التحرز من البرد فيها لا يمكن في الهواء الساكن فان اضطر الى ذلك استكثر من الدثار وتلثم وسد منخريه ولم يستنشق من الهواء البارد بل يتنفس من كماوما يستره ، وان كان ممن يمشي مشى فسخن جوفه وان لم يكن ممن يمشي ركب دابة كثيرة الحركة محوجاً له الى الرياضة ودلك بدنه وقتاً بعد وقت فان الحركة تقاوم البرد ودليل ذلك ما تشاهده من جمود الماء الواقف قبل الجاري ولا يباشر السفر في هذه الحال ، الا بعد ان يغتذي غذاء خفيفاً غير تام ويجعل فيه كالثوم والخردل ، وانفع من ذلك كله الشراب الموصوف فانه يسخن الدم في عروقه . ويختار للصيف المساكن الفسيحة الكثيفة الحيطان التي للرياح الهابة فيها مخترق وترش وينضح الجسد بماء الورد ويروح عنه، فاما السراديب والمواضع العميقة فتجتنب البتة فان اهويتها غليظة تكسل وتفتر واذا جلس في الخيش استعلى عن سطح الارض بالاسرة وما يجري مجراها واحتال لوصول الهواء من اعالي البيت ليخفف عنه ثقل الهواء الثقيل المنحصر فيه ويكون الاستكنان في

الخيش في وقت الظهيرة لا قبله ولا بعده ويستعمل الاطعمة الحارة في الشتاء فعلاً ومزاجاً والاطعمة الباردة في الصيف

باب تدبير المطعم

من اخذ من الغذاء قدر حاجته من غير زيادة عليه ولا تقصير عنه دامت له الصحة، وكان مثله كالمصباح يمد من الدهن بما لا ينقطع عنه فيطفئه ولا يغمره فيغرقه، واقوى الاغذية غذاء اللحم، ولذلك صارت السباع التي تغتذي به اقوى من غيرها والامم التي تنفرد باستعماله اشد بطشاً واكثر غناء في المصاولة ممن سواها كالاتراك ومن اشبههم وافضله المعتدل الذي لا تغلب عليه كيفية من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة كلحم الضأن ولذلك صار الانسان لا يمله وصار يطيب بكل صنعة وبكل طعم يضاف اليه وخص بهذه الفضيلة لاعتدال مزاجه، وخيره لحم الفتي منه وان يجتنب ما صغر كالاجنة وما قرب عهده بالنتاج فانه يكون لزجاً موادّاً للكيموس الفاسد. ويجتنب الضاني الفحل اليابس ويقصد السمان دون المهازيل والخصيان دون النعاج، فان الولد يمص جوهرها ودون الفحول فان السفاد يوبس لحمها وكلا المعنيين يأخذ صفو اجساد الحيوان ويختار للأكل الرقبة ولحم الاضلاع والكتف والمواضع المتوسطة للجسد. ويجتنب الرأس وكل ما فيه والافخاذ وما يليها فان لحومها غليظة ثقيلة بطيئة الانهضام والاعضاء ذوات الاسماء والميثات ولا خير فيها كالقلب والكبد والطحال والامعاء والكروش انها ليست لحماناً خالصة ولحم الطيور بالحكم الاعم اخف من لحوم المواشي وربما ثقل بعضها بالحكم الاخص وينبغي ان يقصد منها الاسرع انهضاماً، والحيوان المائي كالبط والغرانيق غليظة زهمة بطيئة الانهضام ولا خير في السمك لاصحاب الابدان الباردة الرطبة وقد ينفع الطري منه المحرورين ويقصد منه المتوسط بين الصغير والكبير ولما كان في المياه العذبة دون البحار والآجام والمملوح منه كالقديد من اللحم ولا خير فيهما فانهما كالشيء الذي ذهب صفوه ولبابه وبقي اثقل واغلظ ما فيه، واما الالبان فمناسبة للحم في جوهرها لان اصلها الدم وتعمها اللطافة وسرعة الاستحالة فللطفها صارت غذاء للصغار الذين تضعف قواهم عن المضغ ولاستحالتها صارت اجزاؤها تتميز سريعاً كالزبد والسمن وامكن ان تتخذ اصنافاً كثيرة من الاغذية والاقتصاد عليها ليس بمحمود الا لمن جرت عادته بها وان جعلت اداماً او في الطبيخ فان طبيعتها عند ذلك تمتزج بطبيعة ما يكون مخلوطاً بهما والحموضة

فساد عارض في اللبن كما يعرض مثله في الشراب فليجتنب الصادق الحموضة منه ما امكن . وبياض البيض غذاء ثقيل وخيم وصفرته غذاء شريف كثير التغذية، وافضله النيمبرشت والذي ينهضم من الحبوب ويستحيل منها الى الدم اقلها والباقي الفاضل عن الهضم اكثرها وهي في ذلك مخالفة للحم لانه مناسب للدم بجوهره سريع الاستحالة اليه ، وينبغي ان يجتنب منها ما طبيعته توليد الرياح فكل ما يتولد الرياح عنه رديء بطيء الانهضام ، واجود الحبوب للاغتذاء السمين وما تناهى ادراكه ولم يكن نجا ولا عتيقا عفنا كالفتي من الحيوان بين الاطفال والمسان ويعتمد لبابها ، ويجتنب قشورها ، فان القشور تولد كيموسا غير محمود ، والفواكه قليلة الغذاء ومن افضلها التين والعنب ، وهما مع ذلك اذا لم ينهضا ولدا امراضا رديئة والاكثار من جميع الفواكه ومن هذين النوعين رديء لاسراع العفونة اليها في المعدة واستحالتها الى الكيفيات الرديئة ويجتنب قشورها فربما لصق القشر بالمعدة والامعاء فضر ويهجر كل ما كان نجا وقديما عفنا من جميع اصنافها والبقول لا يكاد ينهضم منها الا ما كان مطبوخا لانها عادمة النضج في جميع احوالها الا انها في اول منبتها الطف ويجب ان يجتنب اكلها بالجملة كل معني بحفظ الصحة فان دعت شهوة او ضرورة فالفرذج (؟) لانه يقوي المعدة والهندباء لانه يصفي الدم ، والخس فانه يرطب ويقمع الصفراء ويهجر ما له حرافة وحدة الا ان يطبخ في جملة الطعام

صنعة الطعام

احكام صنعة الطعام احد قوانين حفظ الصحة لان الطبيعة تشتهيه فتستمريه وقوام الطعام مبنيان نوع الغذاء وصنعه وفوت الصنعة اضر من رداءة النوع ، لان الرديء النوع قد ينقله احكام الصنعة الى ان يلتذ ويشتهى . والجيد النوع قد يجري امره بالضد فيقل ميل الطبيعة اليه ونيلها منه وما فاته جودة الصنعة حل من الطبيعة محل الدواء المستكره لا الغذاء المشتهى وربما ولد امراضا لنفار الطبيعة منه وقلة احتوائها عليه ويبلغ من الانتفاع بقوة الشهوة ان الضار قد يصير بها نافعا بجودة الاستمراء له واستيلاء القوة عليه حتى ان المرضى ربما اشتهوا شيئا رديئا فاصلحت قوة الشهوة فساد مزاجه فقل لذلك الاستضرار به ، واحوج الناس الى هذا الباب من اعتاده ومرنت حاسة الشم منه عليه وارتاضت مذاقته به والجفاة الطبع اقل حاجة الى التدقيق في هذا الباب اولا لجفاء التركيب ، وثانيا لفقد العادة في الارتياض لمعرفة الطيب وغيره فقليل

الصنعة كثير عندهم ، وثالثاً ان كثرة حركاتهم تجود هضم معدهم حتى يستمروا من الخبز الفطير ومن اللحم ما ناله الاشمام ولا يستضرون بشيء منه بل يناسبون الحيوانات الصامتة في اكثره واولى الاشياء بالتنقية فيه الخبز لانه اصل الغذاء والراتب منه واصوب ما يستعمل فيه المبالغة في انضاجه فان القليل النضج منه يولد في البدن اخلاطاً غليظة وادواء خبيثة ، والخبز الخشكار اكثر حرارة واسرع هضماً لحرارة نخالته

والحوارى ابطأ انهضاماً واذا انهضم كان اكثر غذاء وافضل جوهراً وبالجملة فكل ما فاته النضج فالآفة فيه على البدن عظيمة جداً ولا يتناول منه الحار لوقته فانه بمثابة ما لم يدرك ولا اليابس فانه بمثابة القديد وكلاهما اذا اصابه الماء في المعدة انتفخ وربما كما يصيبهما اذا صب عليهما الماء خارجاً عنه ، بل ما كان مخبوزاً ليومه او غده ثم اللحم ومن التدبير فيه انضاجه ويتجاوز ذلك فيمن ضعفت معدته الا ان يهرا له تهرية ، فاما من قوي هضمه كرجال الحرب فالصواب ان يتناولوا من الخبز الفطير ومن اللحم المشوي ما لم ينته نضجه ليتولد لهم اللحم الصلب الكثير المحتمل للألم فان اختار الجبن وتهرية اللحم يقلل قوتهما ، وما كان من الحيوان رطباً كالسمك والحملان الرضع شوي ليقلل رطوبته وما كان مسناً طبخ ليقلل رطوبة الطبيخ بيبوسته ، والشواء يوبس الطبع والطبيخ يحله ، وما عمل بالكانون اخف مما عمل بالتنور ، لان التنور يغمه فيرجع اليه البخار فيكسبه ثقلاً ووخامة واغباب شواء التنور اصلح ويستعمل بعد شوق اليه ، وشهوة له تعين على هضمه ويطيب الطبيخ بلباب البصل والحمص وماثهما دون قشورهما وجملة جرمهما وبالجملة فاللب من كل شيء اكثر نفعاً واقل ضرراً من القشور ، ويجتنب الاشياء الحريفة كالخردل والثوم فربما لذعت الآت الغذاء وقرحتها كما تفعل في ظاهر البدن قلت وهذا الحنين فيه قول يدل على انها تقرح الظاهر وتعفن الباطن واذا انهضمت الاشياء اللذاعة احدثت في الكيموسات كيفية حادة حريفة مضرة جداً لان الذي تفعله استحالة كيفية الدم اضر مما تفعله كميته ويجب ان يجتنب التي منها حتماً واصلح الاطعمة ما لم يغلب عليه طعم فان الطعم الغالب يدل على الكيفية الغالبة واشد الطعوم مشاكلة للدم الحلاوة ، ولذلك تشتد شهوة الصبيان لها لانهم في سلطان الدم والحلو الاصلي كالتمر والعسل اشد تسخيناً للدم واحراقاً له من الحلو الدسم كالفالوذج ونحوه وهذه المركبة اقل غائلة في تنوير الحرارة لان الدسومة تقاوم تلك السورة الا انها أثقل على المعدة لمكان الدسومة وشرب الماء على الحلو الاصلي انفع من شربه على المركب لان الماء يمازج الاصلي فيكسر حلاوته ويعدله

ولا يمازج الدسم فيعقب لذلك تخماً ، والاصلح في تناول الحلو استعماله غباً وبعد الشوق الشديد ثم الاقلال وقصد اللطيف كالمعمول من السكر الطبرزد واللوز والحامض يفتق الشهوة الا انه اقل غذاء من الحلو وهو مضر بالعصب ، ويعقب الهزال والنحافة ، واصلح الحموضات الخل فان فيه تحليلاً وتلطيفاً ، والمالح معين على الهضم ويعتبر ذلك من تأثيره في الاشياء التي يطيب بها فيدفع العفونة والفساد عنها وهو ينوب عن الافاويه الحارة مع سلامته وقلة غائلته ، ويجتنب اكل الطبيخ الحار الذي في بقية غليانه ولم تفارقه الاجزاء النارية فانه كالشيء الذي لم يدرك ، والغاب والفاسد رديء لا خير فيه . . . .

اوقات الاكل

اصلح اوقاته وقت الحاجة اليه وتجتنب استعماله بالعادة في وقت بعينه في كل يوم او بالمساعدة او بالشهوة الكاذبة فانه يحدث حينئذ امراضاً خبيثة والغداء والعشاء يصلحان للعامة ويجب ان يخفف الغداء لئلا يثقل البدن عن التصرف في المعاش ويستوفوا العشاء لان النوم يتبعه فيعين على هضمه فلليل خاصية في تجويد الهضم ليست لنوم النهار الا ان العشاء ربما اضر بالرأس والعين لان قوة الهضم تحدث ابخرة كثيرة ، فاما الملوك فصدر نهارهم مشغول بمهماتهم وهم يستكثرون مع ذلك من الالوان فلا يبقى فيهم فضلة لاكلة اخرى ، بل الواجب ان يستقبلوا الليل بعد النوم الذي يعين على هضم الغذاء وهم في نهاية الجمام والنشاط للسهر والمؤانسة وان دعت احدهم نفسه الى اكلة ثانية وليس ذلك بصواب له فليحذر اللحم والدسم ويقتصر على الخبز فان الخبز لا يكاد يعرض منه تخمة ولا يثقل الا ان يفرط في الاكثار منه ، ويجعل ادمه في هذه الحال من الحموضات والملوحات وليحذر كل الحذر ويتوقى كل التوقي اكله بين شرابين فانه مجرب الضرر ولا يكاد مستعمله يسلم منه

تدبير الطعام

الحمية اصل الطب ، وقلة الاكل افضل العلاج ، وحد ذلك ان يمسك عن الاكل وقد بقيت من الشهوة بقية تدعوه الى الازدياد ، فان الطعام يربو وينتفخ في المعدة بعد اكله فاذا امليت به ولم يترك فيها فضاء لرتوه احدث الكظة واوجب التخمة وتولدت عنه الامراض الرديئة ، ومن ضعف هضمه ، جعل اكله دفعات وخففه واقتدى فيه بتدبير الطبيعة في تفريقها غذاء الاطفال وتقليله في كل مرة ، وينبغي ان تكون الجرأة

عَلَى الاكل في الشتاء اكثر لانهزام الحرارة الى غور البدن ويستعمل في الصيف ضد ذلك ويقصد في زمان الصيف اللطيف من الاغذية كالبوارد.

ترتيب الوان الطعام

يجعل الاخف قبل الاثقل ولا يبتدي بالدسومة فتفتر الشهوة وتلطخ المعدة بل يقدم الحامض بالخل فانه يحلل اجزاء ما لاقاه فيفتق الشهوة ويمكن لما سواه ولا يقدم الشيء الحلو فان الطبيعة لميلها اليه تستولي عليه فتنقطع به عما سواه ولا يبتدي بالشواء فان القوة الهاضمة اذا تعلقت به قهرها فاقتصرت عليه فلم يمكن الاستكثار من شيء بعده ومن كانت معدته باردة فيجب ان يستعمل الفاكهة بعد الطعام بساعة جيدة ليلحق خفته الثقيل المنهضم قبله

صفات الاكل

يجتنب تعظيم اللقم وسرعة الاكل . وان لا يخلط في الاطعمة فان في هذا الادب فوائد اولها انه ابلغ في الاستيفاء من الطعام واهون عَلَى الهضم الجيد وابعد من الكظة لان الذي يصل الى معدته الشيء بعد الشيء من الطعام تستولي عليه القوة الهاضمة وتتمكن في الهضم ، واللقم المتتابعة تقهر هذه القوة وتغص المعدة فيتولد عنها الفواق والجشاء المؤذي المستبشع وكذلك حال الماء في امتصاصه والعدول عن عبه وتأني الاكل ابعد من مشابهة الحيوانات التي تتناول اغذيتها بالنهم والشره واحرى ان لا يستقذر الانسان وتعاف الانفس مؤاكلته ثم ان كانت عنده دعوة او جماعة كان تأنيه امكن لهم في تناول حاجتهم فمن رزق هذه العادة والا فليرض نفسه عليها ، ويجتنب الاكل عَلَى حال انزعاج من النفس بغم او حزن فان الطبيعة لا تقبل حينئذ غذاء بل يجب التشاغل عما يعرض النفس وما ينسيه ثم يتناول الغذاء بعده ويسر نفسه بمحادثة المواصلين ، ومؤانسة المنادمين فان ذلك معين عَلَى نجوع الغذاء ولذلك كانت الملوك لا تنام ولا تشرب ولا تأكل الا عَلَى سماع ملذ او حديث ممتع وان لم يتمكن من النوم بعد الاكل فلا بد من اضطجاعة او تكأة فان الانتصاب والقعود تعب والتعب يمنع من تمام الهضم

الباقي الآتي

اسبانيا والعمران العربي

«تتمة ما في الجزء الماضي»

دثرت المدنية الاسلامية الباهرة لا بايدي المسيحيين الذين كانت تخشى بأسهم بل بصنع اناس من المسلمين انفسهم نسفوها نسفاً واعني بهم المرابطين . ولم يلتجىء امراء العرب في الاندلس الى هؤلاء الافريقيين القساة المتبربرين الذين حملوا الى الاسلام روح تعصبهم المنبعث من ضيق عقولهم الجاهلة الا بعد ان اوجسوا خيفة عَلَى حياتهم وزاد سوء ظنهم في العواقب . هلك المعتضد ونفسه تحدثه بالشر الذي يجره عَلَى بلاده واخلافه . وبينا كان الفونس السادس ملك طليطلة اذا هو قد اصبح مدكاً عَلَى اشبيلية وقرطبة وغرناطة وغدا الاندلسيون مهددين من جهتين فرأوا ان يستسلموا لابناء دينهم من المرابطين ليدفعوا غارة المسيحي عنهم وهو عدوهم القديم .

وفي سنة ١٠٨٦ هزم يوسف (بن تاشفين) وعصاباته الافريقية الفونس السادس في وقعة الزلاقة شر هزيمة وفي سنة ١١٠٠ كتب لهذه العصابات ان تطرد عامة ملوك الطوائف او تقتلهم وفي عام ١٠٢٧ استرجعوا مدينة سرقسطة وخضعت اسبانيا كلها لملك مراكش .

وان الثلاثة الملوك من المرابطين الذين استولوا عَلَى الاندلس منذ سنة ١١٠٠ الى ١٤٤٥ وهم يوسف وعلي وتاشفين كانوا عَلَى شجاعة فيهم ضعاف المدارك موسومين بالتعصب لا وقوف لهم عَلَى اللغة بل ولا عَلَى آداب العرب فاخذوا بتحريض الفقهاء يضطهدون الشعراء والعلماء والفلاسفة باسم الدين حتى اضطر هؤلاء ان يصمتوا او ان يفروا بانفسهم الى بلاد اعدائهم القدماء ملوك قشتالة ونزلوا مدينة طليطلة حيث توفروا عَلَى تخريج النصارى يعلمونهم من احكام الترقي ما كان ينقصهم للحاق بالمسلمين

ومن الغريب انه لم ينشأ عَلَى عهد عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني عَلَى كثرة حرصهم عَلَى المعارف علماء متبحرون وفلاسفة عظام في البلاد الاندلسية المستعربة . وعَلَى العكس كنت ترى الفلاسفة يكثرون في عهد الشدة ايام اخذ المتعصبون من اهل الدين يطاردون كل من يجرأ في ارض الاندلس عَلَى مخالفة مذهب مالك . نعم كانوا ينبغون عَلَى

حين غرة من اولئك المتطمين و يتيلون اسبانيا العربية مجداً لم يبلغه المسلمون ايام كانوا مشارقة صرفًا . فجاء الاندلس امثال ابن باجة وابن الطفيل وابن زهر ولا سيا ابوالوليد ابن رشد الذي تخرج بابن باجة واتمى الى ابن الطفيل وصحب ابن زهر

هذه الفلسفة التي انتقد عليها فيا بعد خلوها من الابداع قد كان لها شأن عظيم في حضارة القرون الوسطى بلن كانت واسطة النقل الى الغربيين الذين اضاعوا حتى الاسم من معارف اليونان عَلَى ما تلقتها عنهم مدرسة الاسكندرية و بفضل هذه المدرسة تسنى امل الفلسفة واللاهوت (علم الكلام) في القرون الوسطى في الغرب ان أتصل التقاليد المدرسية بآداب النهضة

كان للشعراء مقام كريم بين الناس بما فطروا عليه من التصورات فكانوا عَلَى طبيعتهم الشرقية لا يأتون ما يخالف روح الاسلام وكان الملوك بما فيهم من الاستبداد الطبيعي والاغراض السياسية يمقتون الفلاسفة . هذا الى ما هنالك من حقد المتطمين والمتفقهين وما جبل عليه الشعب الاسباني من اخلاق التعصب وكان الاسبانيون بانتحالهم الاسلام يزيدون المسلمين تعصباً الى تعصبهم

وكان عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني من التسامح عَلَى جانب مع العلماء ولقد اتهم المنصور حاجب هشام الثاني بافكاره الفلسفية فلم يدفع عنه هذه التهمة الا بتكبير مسجد قرطبة ونسخ القرآن بيده وادرار الهدايا والعطايا عَلَى العلماء والفقهاء وتخريب خزانة كتب الحكم الثاني لانها كانت عبارة عن كتب فلك وفلسفة وجغرافيا وطب فاحرقت وباحراقها بادت الى الابد كنوز لا تقدر بثمن ونال لقاء ذلك رضا المتطمين فخلا له الجو في قصره واخذ يشتغل بالدروس التي يحظرها عَلَى الناس ويشتد في الانكار عليها . وما اتاه من هذا القبيل سياسة قام به المرابطون مدفوعين اليه بعامل من الاعتقاد وتابل من امزجتهم

فكما احرقت سنة ١١٥٠ كتب ابن سينا في بغداد بامر الخليفة رأينا ابن باجة يسجن بدعوى المروق من الدين ويضطر ابن واهب من اشبيلية ان يتخلى عن دروسه الفلسفية ابقاء عَلَى حياته ويقتل ابن حبيب من اهل تلك المدينة لاتهامه بالفلسفة . ويضطهد ابن الطفيل حتى يضطر الى الاعتراف جهاراً بايمانه الصحيح ومعتقداته الخالية من الشوائب . وهكذا انقضى زهاء قرن والكتب تحرق في اطراف اسبانيا الاسلامية وبها يبيد اثمن ذخر من الآداب العربية

حاول السلطانان الاولان من الموحدين وهما عبد المؤمن ويوسف وكانا يميلان الى

الحرية ان يختفا من تعصب عصابتهما ومن تشدد المتطعين من المتصوفة حتى حظر عبد المؤمن احراق الكتب على نحو ما كان يفعل المرابطون لابادتها واحسن معاملة ابن الطفيل وابن زهر وابن باجة • واغدق يوسف وكان اعلم امراء عصره على ابن الطفيل من انعامه الشيء الكثير وقرأ عليه فلسفة ابن رشد وفوض اليه ارقى المناصب ومنها منصب القضاء في اشبيلية ثم اقامه طبيباً اول في قصره (١١٨٢) ووسد اليه منصب قاضي القضاة في قرطبة على نحو ما كان ابوه وجده • وافاض عليه يعقوب المنصور بالله ما كان له من اسلافه وزاد عليه ولكن ارادة شخص ولو كان ملكاً لا تقوى على صد هجمات تيار الرأي العام ولا سيما في عصر كان فيه سلاطين الموحدين مضطرين الى اضرام جذوة التعصب في نفوس رعاياهم المسلمين من الاندلسيين لمناكسة ملوك قشتالة واراغون الذين كانوا على الدوام يتقدمون الى الامام

وفي سنة ١١٩٦ بعد وقعة الاركوس التي كتب فيها النصر للمنصور على الفونس التاسع صاحب قشتالة قويت شوكة الحزب الديني في القصر السلطاني ونكب ابن رشد على شيخوخته نكبة هائلة تناولت كثيرين من العلماء والاطباء والشعراء بل والفقهاء متهمين بحرية الفكر والخروج عن مقصد الجماعة • وطرد العامة ابن رشد على ابشع صورة من الجامع الاعظم في قرطبة وكان ذهب اليه لاداء الصلاة مع ابنه عبدالله الذي كان من اعظم عمال تلك المدينة ونفي الى مدينة لوسنا اليهودية • وفي غضون ذلك صدر امر من المنصور يحظر فيه على مراكش واسبانيا درس الفلسفة المضرة والعلوم وما يتعلق بها ولم يستثن من هذا الحظر الا الطب والحساب ومبادئ الفلك • وعهد بتنفيذ امره الى ابن اخت ابن زهر وكان فيلسوفاً كخاله فصدع بالامر والخوف رائده • ثم ان ابن رشد نال الرضا من سلطانه قبل موته باربع سنين وعاد المنصور يتوفر على دراسة ما كان يحظره على أمته من العلوم ولكن بعد ان ضربت الفلسفة الاسبانية العربية ضربة لا يجبر كسرها

واذ طردت العلوم الاسلامية من بغداد ومراكش واسبانيا لم يبق لها غير مصدر واحد تلجأ اليه في طليطلة حيث طلبت حماية الدول المسيحية التي هي الد اعدائها وكان سبقها الى تلك العاصمة كثير من المسيحيين والاسرائيليين من اهل الاندلس فزعوا اليها لتحمي حياتهم ومعتقداتهم • واذ كان المرابطون والموحدون متعصبين بالفطرة اضطروا ان يتظاهروا بالتعصب سياسة ايضاً فكانوا يعيشون في جهاد دائم لمقابلة المسيحيين من

سكان الشمال الذين لم يكونوا دونهم في الانغماس بحمأة التعصب ايضاً للدفاع عن كيانهم في بلادهم ولم ير اولئك المرابطون والموحدون وسيلة الى بث دعوتهم في نفوس ابناء دينهم احسن من اثارة روح التعصب في جمهور العامة المتعصب وليس من سبيل الى اقناعهم الا بتحسين دينهم لهم واضطهاد غيره من الاديان · فلا عجب من ثم اذا عومل نصارى الاندلس باقصى الشدة وخربت كنائسهم وصودرت اموالهم وغدوا على الدوام مهددين في حياتهم ·ولما عيل صبرهم استصرخوا الفونس السابع المعروف بحبه للحرب والضرب فاقتصر من نجدتهم على غزو المسلمين في عقر دارهم ولكن بدون طائل اذ قاسى مسيحيو الاندلس من تلك الغزوات ضروب النكبات فقتل بعضهم او نفي الى افريقية (١١٢٥) على صورة متوحشة بحيث هلكوا باسرهم قبل ان يبلغوا منفاهم

وجرى استئصال شأفة النصارى سنة ١١٣٦ على اقسى وجه حتى لم يبق منهم باقية في الاندلس ومن نجوا من الموت والتشريد لجؤا الى قشتالة · وهكذا اسدى المرابطون والموحدون لنصارى الشمال معروفاً عظيماً غير متوقع بما توفروا على القيام به من العسف حتى نقضوا العهد الذي كان عقد بين اسبانيا الجنوبية والمسلمين العرب وقووا الشعور الوطني والتحمس الديني في الاندلسيين وجمعوا بين الاسبانيين من سكان الشمال ومن سكان الجنوب بما بينهم من اواصر الجنس والدين فقاموا قومة رجل واحد في وجوه المسلمين مسوقين الى ذلك بحب الانتقام المتأصل بين الاسلام ومن يخالفه · وما كان الاضطهاد الذي نال اهل الصناعات الوديعين من المغاربة بعد خمسة قرون الا جواباً طال التفكر فيه ودعت اليه قسوة المرابطين والموحدين وكان نتيجة تعصب مماثل لذاك التعصب ورأي سياسي مشابه لتلك الآراء وان كان الى الصراحة اقرب

ولم يلبث امتزاج الشعوب الاسبانية على اختلاف العناصر والدين ان اثمر الثمرة المطلوبة فانهارت قوة الموحدين في وقعة لاس نافاس دي تولوزا (١٢١٢) وسقطت قرطبة (١٢٣٨) واشبيلية (١٢٥٤) وبلنسية ومرسية في ايدي الاسبانيول وغدا هذا الامم بعد حين جامعة دينية اكثر مما هو جامعة جنسية لان جميع من لم يرتدوا عن الاسلام دخلوا في سواد العرب البربر وامتزجوا فيهم اي امتزاج · وان المغاربة الذين رضوا بان يعيشوا في الاندلس عيش التثبت الى القرن السابع عشر ليصعب عليهم ان يبرهنوا على انهم من دم افريقي ثم انه يتعذر على الاسبانيول ايضاً ان يذكروا انسابهم لان بعضهم مخضرمون خلاسيون فيهم الدم العربي وقليل منهم يسري اليهم دم البربر

إبان الفتح وآخرون اصبحوا افريقيين صرفًا عند زوال ذاك السلطان وخفوق راية الاخفاق عَلَى ربوع الاندلس الاسلامية

ومما قوى امل المسلمين في المستقبل وزادهم نشاطًا كثرة عديدهم فقد طرد منهم فرديناند الثالث بعد دخوله اشبيلية زهاء ثلثمائة الف مسلم من اهل هذه المدينة فلجؤُا من اشبيلية الى قرطبة وجيان وبلنسية وغرناطة حيث بقيت دولة بني نصر مائتين وخمسين سنة ايضًا وعَلَى هذا كانت غرناطة آخر ملجإٍ للعمران العربي ازهر اي ازهار عندما اوشك بالانقراض فرأت حدائق الحمراء البهجة كبار الشعراء والمؤرخين من العرب امثال محمد بن الخطيب وابن خلدون يجتازانها هما وابن بطوطة الجغرافي العظيم

كان من نتائج وقعة لاس نافاس دي تولوزا ان حررت اسبانيا من رق العبودية للمسلمين وادرك ملوك قشتالة ان ليس من العقل مقاطعة الماضي القديم وانهم في حاجة بعد الى ان يتعلموا من معلميهم القدماء ومنافسيهم الالداء (المسلمين) فحاول الفونس العاشر خليفة القديس فرديناند الثالث وكان اوسع ملوك عصره مداركه ان يعمل لاسبانيا المسيحية ما عمله العرب لاعلاء شأن الاسلام وذلك بالاخذ باحسن ما في الحضارتين ومزجهما بالحضارة الاسبانية

فاسس سنة ١٢٥٤ في اشبيلية مدرسة عامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية رونقها العربي الصرف واستدعى الى عاصمته العلماء من جميع الملل والاجناس ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختيار احسن المعارف النافعة وهي اقرب الى التسامح من المدرسة الاولى اذ كانت تجمع الى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبراني ٠ وذلك لان الاسرائيليين عَلَى سعة آمالهم في احكام صلات التآلف بينهم وبين مسلمي الاندلس وما عرفوا فيه من مرونة الاخلاق قد عوملوا أسوأ معاملة وأوذوا في انفسهم كما آذى المرابطون والموحدون نصارى تلك البلاد ٠ فقتل الاسرائيليون ونفوا ومن سعدهم ان لجؤا الى ارض ملوك قشتالة واراغون الذين احسنوا استقبالهم وكان لهم في بلاطهم شأن مهم اواخر القرن الخامس عشر فكان منهم امناء الخزائن ومستشارون واطباء للملوك ٠ وبلغ عددهم في طليطلة ايضًا زهاء اثني عشر الف شخص ٠ وظل اليهود الى ذاك الحين اقدر التراجمة عَلَى نقل الحضارة العربية وبما ترجم منها الى لغتهم نجت اثمن آثار تلك الحضارة لان الموحدين والمرابطين اخذوا يبددون كتبها عامة ٠ وكان زان بن زاكت ويهوذا هاكوهن والربان زاك هم الذين نقلوا لالفونس العالم معظم كتب

التاريخ والفلسفة والفلك عند العرب مع الشروح التي علقها عليها الشراح . واتى دهر ظن فيه ان الفونس العاشر سيحيي اسبانيا بعد موتها

ظهرت الكنيسة انها تطمع في تنصير المسلمين بالبرهان فوضع احد الرهبان الدومينيكيين واسمه رامون مارتي اول معجم عربي باللغة الاسبانية سنة ١٢٣٠ وفي سنة ١٢—١٣١١ امتدح البابا كليمان الخامس في احدى المجامع الدينية من انشاء كرسي لتعليم العربية في مدرسة سالامنكة . وفي اواسط القرن الثالث عشر كان الدومينيكيون مثالاً لغيرهم بانشاء مدارس لتعليم اللغات الشرقية ليقف رهبان من اهل الغيرة عَلَى لغات غير ابناء دينهم ومعتقداتهم و يباحثوهم و يجادلوهم . وقد انشأ يعقوب الاول صاحب اراغون مدرسة مثل هذه في ميرامار اكراماً لثلاثة عشر راهباً فرنسيسكانياً واخذ المجمع الديني في طليطلة ينفق عَلَى طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية اشخاص ينقطعون الى دراسة اللغة العربية ليقاوموا الفقهاء والمشايخ بسلاحهم . وعَلَى هذا التقليد ظلت الجمعيات الدينية ولا سيا الفرنسيسكان الى القرن الثامن عشر في اسبانيا هي القائمة بدعوة الاستشراق اي درس آداب الشرق ولغاته وتاريخه

كانت وطنية الاسبانيين متشبعة بروح السخط وحميتهم قائمة عَلَى التعصب وعدم التسامح وسياسة ملوكهم الى الشدة ولذلك نالوا ما طمحت اليه نفوسهم من استنباع المسلمين بدراسة علومهم وقد نشأت من هذا الاحتكاك حضارة ذات قلب وابدال مركبة من حضارتين مهمتين بغناهما ثم استقل الاسبانيون بعقولهم المرنة الشديدة المروضة واصبحوا مصدر حضارتهم ومقرري مدنيتهم

اعترفت اسبانيا بما هي مدينة به للحضارة العربية بما حفظته لها في مدارسها من الشأن حتى بعد ان تحررت من قيودها . كان في سالامنكة التي استحقت ان تجمل في مصاف باريز واكسفورد و بولونيا احدى المراكز العلمية الاربعة في الغرب سبعون حلقة للتدريس وربما بلغ عدد طلبتها سبعة آلاف في القرن السادس عشر ولم تنل هذه الشهرة الطائرة اولاً الا لكونها بتأثير العلم العربي اقامت عَلَى اساس معقول تعليم العلوم الطبيعية والطب التي كانت الى ذاك العهد مغشاة بتجارب تافهة وعمليات مضحكة من نحو السحر والطلسمات . ولم يكن في سالامنكة في اواخر القرن الثالث عشر عَلَى عهد البابا بونيفاس الثامن غير خمسة وعشرين حلقة للتدريس منها حلقة لليونانية واخرى للعبرانية وثالثة للعربية

ولقد اصيبت هذه الحركة المثمرة المباركة بضربة شديدة عندما عاد ملوك الكاثوليك فاستولوا عَلَى غرناطة سنة ١٤٩٢ واستصفوا ارض اسبانيا وابادوا آخر مملكة اسلامية من شبه جزيرة الاندلس · ومنذ ذاك العهد أعلنت حرب لا عَلَى دين اصحاب تلك البلاد ونعني بهم المسلمين بل عَلَى جنسيتهم ومدنيتهم · وقد جرت العادة بان تلقى تبعة هذا العمل عَلَى رجال الدين من الاسبانيين ممن كانوا في الحقيقة متفانين في تنفيذ هذا العمل وذاهبين بفضل الربح فيما قاموا به من الذرائع عَلَى ان هذا الحكم لا يخلو من غلو ووضع المسؤلية في غير موضعها وذلك لان ملوك الكثلكة مثل شارلكان وفيليب الثاني وفيليب الثالث الذين نسب اليهم الفخار بهذه الاعمال هم اليوم يبوؤن بالقسم الاعظم من العار · فكانت الشدة فيهم منبعثة عن رأي سياسي كاذب اكثر مما هي عن تعصب ديني يراد بها التوسع في الملك عَلَى وجه سخيف · فطمع الاسبانيون بمد الوحدة السياسية والملكية التي نالوها بالصبر عليها قروناً ان يضموا اليها الوحدة الادبية المتناهية في الخيال وهي التي كان يتصورها لويس الرابع عشر بفكره القاصر وانتهت بفسخ الامر الصادر في نانت · وكان الفكر السائد منذ عهد فرديناند الكاثوليكي الى فيليب الخامس بين جميع حكومات اسبانيا ان يعملن كلهن عَلَى تطبيقه عَلَى ضعاف المغاربة بالشدة التي جرين عليها في الازمان السالفة فكن يقاومن امراء المسلمين في الاندلس مقاومة ليس بعدها مقاومة · ومثل ذلك كان يجري على الاسرائيليين بصورة اكثر شدة ولكن لا تكاد يشعر بها لان اليهود كانوا عبارة عن طائفة اقل من المسلمين وكان الغضب والاحقاد الشخصية تصب عليهم في الفترات متقطعة ثم زاد التعصب الاسباني وعجل بالقضاء عَلَى كل مخالف · واكد فرديناند وايزابيلا للمغاربة في غرناطة والاندلس بانهم في حل من البقاء في ارض اسبانيا وان يكونوا احراراً في دينهم على شرط ان لا يدعوا اليه وان تجعل جميع مساجدهم كنائس كاثوليكية · ولما قضى نحبه الكردينال بدرو كونزالز دي مادوزا سنة ١٤٩٥ قام الكردينال كسيمنس دي سيسنروس رئيس اساقفة طليطلة ومن قدماء الاساتذة ومن الشاهدين على ما قالته إيزابيلا وحاكم اقليم قشتالة بنقض العهد الذي تم مع المسلمين رثاء ونفاقاً · وكان هذا الرجل معروفاً بسعة نظره وقوة عارضته في العمل بكل رأي يراه صواباً فيدعو على العمياء لتأييد الحكم المطلق للمقام البابوي او للحكومة الملكية

وانشأ القوم بعد ذلك لا يكتفون بدعوة المسلمين الى النصرانية بل يتطلبون الى

تعميدهم او طردهم فجرى تعميد الوف في اشبيلية وطليطلة وقرطبة وغرناطة من اولئك اليائسين من المسلمين ممن اضطرتهم المصلحة والخوف واحترام المتغلب وحب الارض التي ولدوا فيها ان يرضوا بتغيير معتقدهم وقلوبهم منكرة عليهم اعمالهم ثم تكفل ديوان التفتيش الديني بمراقبتهم لتتبين له طهارة اعتقادهم . ومنذ سنة ١٥٠١ — ٢ طرد من قشتالة ومملكة غرناطة كل من ظلوا محافظين عَلَى الاسلام ولم يعد الدومينيكيين والفرنسيسكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا بها من مجادلة الفقهاء وتخلوا عن علومهم لانها افسدت افكارهم وزهد المسيحيون في علوم المسلمين اذ قام في اذهانهم انها خطرة عليهم . ولذلك رأينا الكردينال كسيمنس عندما اسس اواحيا سنة ١٤٩٩ كلية الكالادي هنار استنكف ان يضيف الى دروسها حلقة لتعليم العربية مع انه نسج في تأسيسها على منوال مدرسة سالامنكة وجعل فيها حلقتين لتدريس العبرية واليونانية فرأى ان تكون هذه المدرسة الجامعة لتلقي علوم اللاهوت وان تبث الدين الذي يريد الملوك والبابا ان يروه عاماً موطداً الدعائم من اقصى اسبانيا الى اقصاها . وكان اعظم استاذ في سالامنكة في القرن السادس عشر فري لويس دي ليون شاعراً لاهوتياً وفيلسوفاً مستشرقاً يحسن اللغة العبرية كل الاحسان ولكنه يجهل العربية .

صدر امر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد ان احرق في ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية ولا سيما من المصاحف المخطوطة ان تباد كتب العرب من بلاد اسبانيا عامة فتم ذلك بغيرة عمياء مدة نصف قرن ولولا تلك المترجمات الى العبرية واللاتينية لقضي على الحضارة العربية بجملتها التي امتد رواقها على اسبانيا مدة ثمانية قرون ولم يبق لعينها من اثر . وكاد ديوان التفتيش الديني على ما اخذ به نفسه من ابادة كل اثر للعرب ان يجعل طعاماً للنار تلك المخطوطات العربية التي حفظت في خزانة كتب الاسكوريال لولا ان تلطف الماركيز فيلادا وحال دون احراقها . اما متنصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين فلم يكونوا يستطيعون ابداء أسفهم الا سراً وفي الكتب العربية المكتوبة بالعجمية اي الاسبانية المكتوبة بحروف عربية دليل على تعلق اولئك المتنصرة بقديمهم

ولم يحظر فيليب الثاني سنة ١٥٥٦ على متنصرة المسلمين حمل السلاح فقط بل منعهم من استعمال اللغة العربية وارادهم على ان تنزع من اسمائهم التراكيب العربية ومن اجسامهم الالبسة الشرقية ليدل بذلك على انه يريد مزجهم في سواد ابناء المذهب

الكاثوليكي · ثم ان قدماء المسيحيين من الاسبان كانوا كل حين يحتقرون اولئك المتنصرة عَلَى نحو ما كان العرب قديمًا ايام عزهم يزدرون بالمولدين ولما ضاقت صدور المغاربة انتقضوا عَلَى الحكومة فشتت شملهم في اودية البوجاراس[1] وبعد مقاومة شديدة نفي اولئك المتندمرة او سجنوا في اواسط بلاد اسبانيا واصبحوا امراء(١٥٥٨)

سيم المسلمون في اسبانيا سوء العذاب فحاولوا ثانية ان يشقوا عصا الطاعة عَلَى عهد فيليب الثالث وعندها نفوا آخر مرة وعددهم نحو مليون نسمة عَلَى صورة قاسية مخيفة · ولم يبق اذ ذاك من الحضارة العربية واللغة العربية غير ذكراهما البعيد واصبحتا مزدرىً بهما · وهنا لا يسعنا الا الاعتراف بان الاسبانيول عاملوا الكتب والناس عَلَى نحو ما جرى المرابطون والموحدون وكانوا يمقتون اكثر لو لم يستعيضوا عن المدنية التي قضوا عليها بمدنيتهم التي كانت اذ ذاك في اوائل انبلاج فجرها فان تخالفت النتيجة فالطرق اليها سواء في اللوم والتقريع

ومما لا يقبله العقل لولا انه حقيقة ان اسبانيا التي كان للمدنية العربية عليها ايادي بيضاء قد بلغت بها الحال الى ان تناستها بالكلية · فكان يزهد خلال القرن السابع عشر والثامن عشر بالمرة في تعليم اللغة العربية في ارض اسبانيا ولم يكن له اثر الا اذا كان عَلَى طريقة سرية افرادية وغدا الاطلاع عَلَى العربية نقصًا وربما اتهم من يتعلمها بالالحاد ولم تبق مدرسة تريانك لرهبنة الفرنسيسكان في اشبيلية من اساليب تعلم العربية الا اثرًا ضئيلاً فكان يكفي الطالب منها ان يلفظ الاسماء المستعملة ليذهب بعد الى افريقية وآسيا داعية للنصرانية ومن كان يحب التقدم منهم في معرفتها مجذوبًا بما حوت من الآداب الغنية لم يبلغ شوطًا كبيرًا في معرفتها اذ لم يكن يراها احد عنوان مجد لاسبانيا الكاثوليكية في عصره

ومن العدل ان يقال ان اسبانيا كانت منذ عهد فيليب الرابع الى شارل الثالث تتخبط في المسائل الشاقة سواء كان في شؤونها الداخلية او الخارجية فلم يترك لها انحطاطها السياسي والعلمي وقتًا ولا قوة لدرس العربية والتفرغ للبحث في تاريخ الحضارة الاسلامية وقد اوشكت عَلَى عهد شارل الثالث ملك الفلاسفة ان تعود العربية وآدابها الى ما كانت

(١) هي اودية سيرانيفادا لا يزال فيها الى اليوم آثار قرى المغاربة في بوبيون وكابيلرا وباميانيرا

عليه من الحياة في اسبانيا وان كان بعض الاسبانيين الى اليوم ينكرون عَلَى هذا الملك افكاره عَلَى انه كان له في اسبانيا الحديثة شأن اقل من فيليب الثاني وان كان مثله في مكانته وسلامته ففيليب الثاني وشارل الثالث هما الملكان الكاثوليكيان اللذان بلغا بمملكة اسبانيا اوج الفخار اما شارلكان فهو اوربي اكثر منه اسباني وان كانت اسبانيا بلد أمه . و بآثار ذينك الملكين يعثر في كل خطوة من يزور شبه جزيرة اسبانيا . فقد بلغ من جرأة شارل الثالث ان ضرب الماضي ضربة ادخلت اسبانيا في الحياة الجديدة التي اخذ شعوب الغرب يستمتعون بها فاراد وهو مشغول القلب بماضي مملكته شغله بمستقبلها ان يعيد الى اسبانيا عهد الآداب العربية فاستدعى لذلك رهبانًا موارنة من سورية وانفق عليهم النفقات الطائلة ليعلموا الاسبانيين لغتهم الاصلية الثانية . وكان هذا العمل من الصعوبة بحيث لم يكف عصر شارل الثالث (١٧٥٩ — ١٧٨٨) لاتمامه هذا مع ما وقف في سبيله من الاوهام والعثرات حتى اذا مضى لسبيله انقطع العمل الذي قصد اليه . بيد انه يحق للنصف الثاني من القرن الثامن عشر ان يباهي باساتذة متمكنين من اسرار العربية امثال القصيري وكامبومان والاب بلانكري وكوندو وفري باتريسيو دولانور وغيرهم

جرّت حروب نابوليون الويلات والاضطرابات عَلَى شبه جزيرة الاندلس وانقطع عَلَى عهد فردیناند السابع كل عمل يراد به احياء العلم عَلَى نحو ما بدأ به شارل الثالث . ولما تولت الملك ايزابيلا الثانية قويت النهضة وخلصت النيات للتجديد ودخل الاصلاح الى تلك الكليات القديمة التي كانت تتسكع في ديجور الباطل والعاطل الا ان مسألة تعلم اللغة العربية كانت في الدرجة الثانية بالنسبة لما شرع فيه من اصلاح التعليم سنة ١٨٤٥ عَلَى يد المسيو جيل دي زارات و بفضل هذا عادت العربية تدرس في الكليات رسميًا .

ولما استلمت الحكومة الاسبانية سنة ١٨٥٧ زمام اصلاح التعليم من دون رجال الدين او الملك او الاشراف ربحت اللغة العربية حتى كادت تعود اليها حياتها التي كانت لها في شبه جزيرة الاندلس منذ القرن الثامن الى القرن الخامس عشر ثم ان فقد اسبانيا المستعمرات في اميركا وآسيا ضاعف حركتها العلمية وطمحت بها آمالها السياسية نحو استعمار افريقية اي مراكش

فاخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية من تلقاء نفسها تدخل في قائمة دروس التعليم العالي واصبحت المجموعة النفيسة من المخطوطات العربية الموجودة في

مكتبة الاسكوريال ومكتبة الامة ومكتبة المجمع العلمي التاريخي ميداناً للمستعربين من الاسبانيين يبحثون فيه ما شاؤا ويضاف الى تلك الاسفار الثمينة المجموعة النادرة جداً من المخطوطات العربية المكتوبة بحروف عجمية التي احتفظت بها رهبنة الكنيسة الكاتدرائية في طليطلة . دع عنك تلك النفائس التي اقتنتها بعدمكتبة العالم كاباتكوس وما اقتناه الاستاذ كودرا في رحلاته الى مراكش وتونس

وعندنا ان للمستشرق كاباتكوس الفضل في انه خط للمشتغلين بالعربية في اسبانيا طريقاً مهيعاً فقام على اثره زمرة من العلماء وفي مقدمتهم المحترم الدكتور فرنسيسكو كودرا الذي احتفل بيوبيله احتفالاً دل على عواطف اهل العلم الاوربي . وقد اصبحت مدينتان من مدن اسبانيا كهف اللغة العربية ونعني بهما مجريط (مدريد) وغرناطة فنبغ في مجريط الدكتور كودرا استاذ الكلية الوسطى والدكتور فرناند ايكونزالز والاب لازكانو الذي اخذ يبحث في اللهجة السورية في دير الاسكوريال وهو العمل الذي بدأ به في بيروت . وغير هؤلاء العلماء بالمشرقيات وقد انضم الى هاته الزمرة الغيورة اناس من الفتيان اخذوا على انفسهم الجري على آثارهم لاتمام العمل الذي بدأوا به وتقوية روابطه مثل الكاهن المسيو ميكل اسين استاذ اللغة العربية في الكلية الوسطى والاستاذ ريبرا استاذ كلية سرقسطة الذي يدرس في مجريط حضارة المغاربة والعبرانيين والمسيو آلماني مدرس اليونانية والعالم المشهور بالعربية والمسيو فيف عضو المجمع العلمي التاريخي والمؤرخ الاثري المحقق والمسيو كونزالفو خازن كتب السجلات الوطنية والمسيو فيلالتا الذي قضى شطراً مهماً من حياته في مزغان والدار البيضاء وطنجة

وقد كانت غرناطة فيما مضى مثل مجريط اليوم عاصمة الاندلس لحق لها ان تكون مركز الدروس العربية وكان الدكتور فرنسيسكو جافيه سيمونه هو الذي رفع مقام هذه اللغة وعد تحصيلها فرضاً رسمياً على الطلاب في غرناطة . مات مؤخراً وهو مشهور بابحاثه العديدة في الجغرافيا والتاريخ وأصول اللغة والآداب الاسبانية الاسلامية واخصى في حل الخطوط العربية ومثله الدكتور ليوبولد آكويلاز والدكتور ماريانو كاسبار ريبيرو وامتازت اشبيلية بابحاثها الكتابية المتعلقة بغرناطة وهو الفرع الذي برز فيه الاستاذ الماكرو كاردناس ولكل من مدينتي برشلونة وسالامنكة صفان لتدريس اللغة العربية وآدابها كما ان لبرشلونة وبلنسية منذ سنة ١٩٠٨ صفين لتدريس العربية العامية ونجد مثل هذين الصفين في مالقة وقادش وبالمادي ولورقة وتنيريف في قناريا

ولا يسعنا أن ننسى ما اصدره كل من الدكتور كودرا والدكتور ريبرا تاراغو من الاثر النفيس باسم المكتبة العربية الاسبانية فانهما لم ينشرا منذ سنة١٨٨٢ الى ١٨٩٢ اقل من عشرة مجلدات في اصول اللغة والتاريخ والجغرافيا والآداب والنقود العربية في اسبانيا · ومما لا يصح السكوت عليه ما نشر باسم مجموعة الدروس العربية بمساعي الدكتور ماريانو دي بانو والدكتور ميكل اسين والدكتور بوفس والدكتور ماريانو كاسبار والنشيط الغيور الدكتور كودرا وقد بلغ ما نشروه حتى الآن سبعة مجلدات

وانك لتجد في اسبانيا ميدانًا عجيبًا للدرس وذلك لان المخطوطات والكتابات كثيرة فيها عَلَى الرغم مما اصابها من التلف منذ القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر كما تقرأ ذكرى الحكومة العربية في كل حجر يقع نظرك عليه بل في كل وجه يتمتع طرفك بمرآه وتجد العاملين المدربين عَلَى العمل كثارًا فلا يعوزك الا ان تدعوهم فيستخرجون معك الدفائن والكنوز · ولولا الصفات الشخصية التي فطر عليها المشتغلون بالعربية من الاسبانيين بالنظر لانفرادهم وقلة معونة الحكومة لهم وجهل الامة قيمة ما يشتغلون به لما كان للعربية في اسبانيا ذاك المقام المحمود فقد رأينا الحكومة تتشدد في توسيد تدريس العربية في الكليات اذا خلت من مدرسيها فتقتصد بذلك رواتب المدرسين او تعهد بالتدريس الى اناس غير متمكنين منها حق التمكن كما فعلت في سالامنكة ويرشلونة ووسدت التعليم فيهما الى مدرس اللغة العبرية · والمعلوم ان العلم كلما ارتقى احتاج الى اناس متبحرين واخصائيين · والاخصاء في فن يفتح لصاحبه السبيل فيبذل جهده في نقطة واحدة وبذلك يبرع ويبرز

حالة المسلمين الاجتماعية[1]

ايها السادة

ان من يلقي نظرة على التاريخ الاسلامي ويرى ما كان عليه المسلمون في القرون الاولى من عزة الجانب وقوة السلطان وحرية الافكار واتحاد الكلمة وما هم عليه اليوم من وهن العقيدة وضعف العزيمة وانحلال الرابطة قد نالت منهم الاهواء وفتك فيهم داء الشقاء تذوب نفسه حسرة وأسى ويتشوق الى الوقوف على ما اصاب المسلمين فبدل من حالهم ونزل بهم من مستوى العظمة الى حضيض الضعة والمهانة وهم اليوم اعز من سلفهم نفراً واكثر مالاً وارقى عيشاً وهذا كتاب الله وسنة رسوله وهما الاساس المتين الذي قامت عليه قوة الاسلام ومنهما قد انبثق نوره واضاءت محجته يتليان بين ظهرانيهم بكرة وعشياً • وهذه معاهدهم العلمية تخرج في كل عام من رجال الدين وحملة الشريعة وارباب الاقلام ما يربو عدده اضعافاً مضاعفة على ما تخرجه قرون كثيرة في اول الاسلام

ليت شعري كيف لا يذهل قارئ التاريخ مما وصلت اليه حالة المسلمين وهو يرى ان الاسلام قد ظهر بتعاليمه السامية ومبادئه العالية فاشرق نورها على افئدة قوم لم يسبق لهم عهد بالمدنية ولم يعرفوا بين الامم الا بجفاء التربية وعبادة الاوثان وشن الغارات وشظف العيش وخشونة الطباع اللهم الا بعض اخلاق كريمة كالكرم والوفاء ونحوهما مما لا يعد ركناً ركيناً تستند عليه الامم في نهضتها فما لبث ان حرر الافكار من عقالها وبعث الهمم من مراقدها وانشأ منهم نشأً جديداً فلم تكن عشية او ضحاها حتى تجلت عروس تلك المدنية العربية في ثوبها القشيب جامعة بين قوة السلطان وصولة العلم بين التسامح والشدة فعمروا الارض واحيوا فيها موات الفضيلة وبلغوا شأواً عظيماً من رقة الشعور وصفاء العقل فمكنتهم ذلك من التلطف بالامم حتى وقفوا على خفيات أخلاقها وعاداتها وكشفوا ما كان مستوراً عندها واستخرجوا من كنوز معارفها ودقائق حكمها ما ظهر فضله على الاوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية

(١) محاضرة القاها محمد افندي المهدي في النادي الاسكندري في مصر مساء الجمعة ٢ حزيران

نعم لم يمض جيل حتى اخذت ذوله العلم تعانق دولة الاسلام في جزيرة العرب وما فتحه المسلمون من الامصار فينبغ فيهم الحكيم والطبيب والفيلسوف والمهندس والمخترع والفقيه والمحدث والسياسي المحنك والاصولي البارع والامام العادل فأخذ هؤلاء يجوبون الآفاق يقودون طلائع تينك الدولتين اينما حلوا حل معهم ما استفادوه من صنائع الفرس والآريين وعلوم المصريين والرومانيين بعد ان هذبوه وغسلوا عنه ما تراكم عليه من الاوضار بايدي الرؤساء في الامم حتى غدا بفضلهم ابلج ناصعاً يختال في حلة عربية تدهش الناظرين وتزري بكل شيء في العالمين

وان ديناً هذا شأنه في ترقية الشعوب وتهذيب النفوس لجدير بان لا يقف باهله تيار الرقي والتي كلما توالت الايام وحرصوا على التمسك بمبادئه ونهجوا منهجه القويم . فما هو هذا الداء العضال الذي مني به المسلمون فتقاعسوا عن اللحاق باسلافهم وتقطعت بهم السبل وبرح بهم داء الفشل

ارجع البصر معي ايها السامع الكريم وانظر الى ما وصلت اليه حال المسلمين . انك لا تجد اقليمين متجاورين اوناحيتين في اقليم او قريتين في ناحية او بيتين في قرية واهل احدهما مسلمون والآخر غير مسلمين الا وتجد المسلمين اقل من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً في جميع شؤونهم الحيوية والعمومية واقل من نظرائهم في كل فن وصنعة واعظم اهمالاً واكثر خمولاً واكبر شقاقاً واحقر نفوساً واتعس حالاً حتى توهم كثير من حكماء الامم الحية لينصفوا التاريخ ان الاسلام والنظام ضدان لا يجتمعان وعدوان لا يأتلفان

ايها السادة

ان علينا لواجباً كبيراً وفرضاً محتماً امام الله ورسوله والناس امام الشرف والتاريخ لا نخرج من عهدته ولا نبرأ من تبعته الا اذا وجهنا جل عنايتنا وصرفنا اوقاتنا وقللنا شباة يراعنا بحثاً وتنقيباً حتى نصل الى تشخيص هذا الدواء ومعرفة جراثيمه واعراضه وما يستأصلها من الدواء الناجع وهذا افضل جهاد نثاب عليه من الله والتاريخ وانعم الجهاد هذا الجهاد لذلك رغبت في ان يكون هذا المبحث الجليل موضوع محاضرتي اليوم طرقته مستعيناً بالله وبما اوتيته من العلم فاقول:

اختلف الباحثون من العلماء في منشإ هذا الفتور فذكروا اسباباً كثيرة كلها فروع ترجع الى اصل واحد الا وهو الانحراف عن جادة الكتاب والسنة وتلمس الهدى من

غيرهما نحققت علينا كلمة القرآن « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » · « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » · « ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » · وقد ذكرنا في المقدمة ما كان عليه العرب قبل الاسلام من الاعراق في البداوة لم يتبلغوا بشيء من النعيم والترف ولم يشموا رائحة العلم والصناعة فما كادوا ينفضون عنهم غبار الوثنية حتى ظهر من امرهم ما قصصناه عليك · وذلك ان الدين الاسلامي كما انه يدعو الناس الى توحيد الله والايمان بما بعد الموت من عالم الغيب يدعوهم ايضاً الى الايمان بعالم الشهادة والسير عَلَى سنن الكون ثم اطلق لهم عنان الحرية وطالبهم بالتفكر فيما خلق الله من عالم السموات والارض قد وضع لهم قانوناً جامعاً لضروب الهداية متكفلاً لهم ان هم اتبعوه ونصروه باصلاح شؤونهم في هذه الحياة الدنيا قد احكمت اصوله عَلَى قاعدة جلب المنافع ودرء المفاسد والارشاد الى انه الدين القيم الفطري الملائم لاصلاح النفوس بالاخلاق الفاضلة واصلاح شؤون البشر الاجتماعية باقامة العدل واتباع الطريقة المثلى في كل شيء · «سنة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله»

فهم السلف الصالح هذا الاصل من القرآن فاهتدوا بهديه ولم يحيدوا عنه قيد شبر عالمين (ان من اقام هذه الاركان كلها كان هو المسلم الكامل ومن هدمها كلها كان ملحداً في دينه ومن كان اقرب اليها كان حظه من السعادة بمقدار سهمه منها) وان ليس بعد القرآن والسنة الا الضلال والعمى كما قال تعالى «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً »

تفرع ايها السادة عن هذا الاصل الويل امراض هشمت من عظمة الاسلام وشوهت من محاسنه فاول جرثومة سرت منه الى المسلمين رجحان كفة السياسة الكاذبة عَلَى كفة الدين الصحيح لحاجة في نفس بعض الامراء المستبدين كانت الحكومة الاسلامية في احكامها نيابية اشتراكية (ديموقراطية) كما نطق بذلك القرآن الكريم وارشدت اليه السنة وظلت كذلك زمن الخلفاء الراشدين الى ان وقع التنازع بين علي ومعاوية فاتخذ بنو أمية ذلك ذريعة حول مجراها وقيد مطلقها وجعلها ملكاً عضوضاً بملكه فرد يستبد به كيف شاء فبدأ ينطرق الى الامة داء الذل ووجد الضعف منفذاً الى قلوبهم ووجد الابرياء من بعدهم مع توالي الايام مجالاً فسيحاً من صدور اولئك الذين نصبوا انفسهم قادة للدين

وسموا انفسهم حماة الشريعة فوضعوا لذلك اصولهم في التشيع والاختلافات في اصول الدين وفروعه فاشتغل بها الناس وصدفوا عن الكتاب والسنة وولوا وجوههم شطر البدعة وذهبوا شيعاً متباينة مذهباً متباعدة سياسة ومشرباً كل طائفة تجادل عن نفسها وتدعو الى كتابها ولو ادى ذلك الى تكفير الاخرى فخرج الدين عن حضارة اهله وتحول عن بساطته واتسع الخرق وانحلت الرابطة الاسلامية بل والقومية وفشت المنكرات وانطمست معالم السنن وتحكم التقليد لانه اثر من آثار التشيع بل ركن من اركانه

(التقليد)

التقليد وما ادراك ما التقليد التقليد هو قيد الاحرار وسجن العقول وهادم الافكار وعدو الشرائع ومبيد الامم وجيش الاستبداد

كان الاسلام ملة سمحاء ليلها كنهارها واضحة المسالك معروفة الواجبات سهلة المأخذ يتلقفها الاعرابي الجافي من فم الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يبرح من مجلسه الا وقد خالطته بشاشة الاسلام وأشرب في قلبه التوحيد كما قال تعالى «ما جعل عليكم في الدين من حرج شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه»

عجباً كيف يرضى المسلم العاقل ان يغل اعز شيء وهبه الله وهو العقل بغل التقليد والاستسلام ويلقي بنفسه في براثن الجمود والله قد امره بان يكون على بصيرة في دينه فقال تعالى « قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني » انما ضل من اخلد الى التقليد بعد ان تبين له الحق كمثل رجل اراد ان يسلك طريقاً مستقيماً واضح المسالك لا عوج فيه فوسوس اليه الشيطان قال: هل ادلك على طريق آخر هو اقرب الى غايتك فانصاع له فأخذ يقوده كالاعمى في طريق مظلم كله تعاريج وعقبات فلما ان توسطاه قال اني بريء منك وتركه يتخبط في ديجور حالك لا يدري اين يذهب «كلما اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور»

انحى الله باللائمة والتقريع على اهل الجمود من المقلدين في كثير من آي القرآن قال تعالى بعد ان احتج على المشركين وبين ان لا حجة لديهم في عبادة الاوثان (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون . وما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون) فقد احتج على المقلدين

بانه يجب عليهم اتباع النظر وما هو اهدى ولم يعذرهم بالتقليد فدل عَلَى انه عذر غير مقبول عنده ولو كان التقليد عذراً لاحد لكان جميع المشركين معذورين عنده

كان الصحابة والتابعون يأخذون اصول الدين وفروعه من القرآن وما يثبت من السنة يحكمون العقل واللغة في تفهمها واستنباط ما لا يجدون فيه نصاً صريحاً وان اختلفوا في شيء رجعوا فيه الى ذينك الاصلين كما قال تعالى (فان تنازعتم في شيء الآية) فهنالك يرتفع الخلاف ويرجع المخطئ عن خطئه ويظهر الحق كما وقع لامير المؤمنين عمر بن الخطاب مع ابي بكر رضي الله عنه في قتال اهل الردة وهذا هو الاجتهاد الذي كان سائغاً في السلف الصالح من الائمة وكأن هؤلاء نظروا الى المستقبل من طرف خفي فانكروا اشد الانكار عَلَى من يأخذ بآرائهم في الدين قبل ان يعرف مصدرها من الكتاب والسنة فقد روي عن ابي حنيفة انه قال لا يحل لاحد ان يأخذ بقولنا ما لم يعلم من اين قلنا وقال الشافعي اذا صح الحديث فهو مذهبي ولكن خلف من بعدهم خلف وقف بهم جمود الفطنة وقصور الهمم عن اتباعهم وتقليدهم تقليداً اعمى فجعلوا مذاهبهم اصولاً يرجع اليها واخذوا يتفننون في فرض المسائل واستنباط الاحكام من تلك الاصول فتشعبت الآراء وكثرت الاختلافات واتسعت التآليف في الفقه واصول الدين عَلَى غير اسلوب فصيح من اللغة العربية لا يخالها القارىء الا رموزاً او احاجي يتعاصى فهمها عَلَى العربي الصميم . يمضي الطالب وأسفاه زهرة العمر في تحصيلها فلا يخرج من تلك المضايق الا وقد حشر في مخيلته ضروباً من الاصطلاحات والمسائل متشاكسة متنافرة لا تروي من ظمإ ولا تشفي من علة وان فهم القرآن والسنة لاسهل بكثير من هذه الشروح والحواشي لان كلامها عربي مبين لم يتلوث بالعجمة ولم يتدنس بسقم التركيب والآراء فمن تعلم العربية تعلماً صحيحاً تيسر له الفهم منهما فلا يعاني عشر معشار ما يعانيه في تلك المعجمات (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)

ثم لم يكفهم ذلك حتى حجروا عَلَى الله واسعاً فاوصدوا باب الاجتهاد واسدلوا بين الامة وبين كتابها ستراً من الاوهام وحرموها لذة النظر والتدبر في معجزاته فاصبح لا يتلى الا في المآتم وعَلَى المقابر (تبركا) يتأكل به اناس من الكسالى يتغنون به عَلَى قارعات الطرق وابواب المساجد يحرفون الكلم عن مواضعه ويشترون به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون

من هنا ايها السادة اقتسم هذا الدين فريقان فريق اطمأنت نفسه الى القديم فهو يريد ان يرجع بالناس القهقرى يحمل اهل القرن الرابع عشر عَلَى ان يتخلقوا باخلاق اهل

القرون الوسطى ويحذوا حذوهم في احكامهم وآرائهم ومدنيتهم فلا يتخطوها قيد شبر يكابرك في المحسوسات ويجادلك في الحق وينكر سنة الله في خلقه من ان لكل عصر طوراً من اطوار الحياة يأخذ قسطه من النمو والارتقاء بحسب استعداد اهل ذلك العصر ولذلك كانت نصوص القرآن خصوصاً ما يتعلق منها بالآلاء والاخلاق التي هي اكبر معجزاته مجملة يتناولها اهل كل زمان بقدر ما وصلوا اليه من الرقي

وفريق رأى من وعورة المسلك وصعوبة الفهم في كتب القوم ما يقطع نياط القلب دون الوصول الى الغاية وان كثيراً منها عَلَى تشتته وتشويشه لا ينطبق عَلَى مقتضيات العصر الحاضر ولا يأتلف مع مدنيته فرطوا في امر الدين واهملوا مجد آبائهم وذهبوا يتلمسون الاصلاح من غيرهما فعبدوا بهرج المدنية الاوربية وصبت اليها نفوسهم حتى اصبح التدين ضرباً من التهوس وسمة من سمات التأخر وساعدهم عَلَى ذلك ما رأوا من نظام الغربيين طفرة منهم قد خرجوا من ورطة التقليد الاولى ووقعوا في شر منها فلم يكن من جراء ذلك الا انهم قلبوا اوضاع مبانيهم وغيروا من ازيائهم وبدلوا من هيئات مآكلهم وملابسهم وآنيتهم وتنافسوا في ايهم يسبق الآخر في احكام نظامه الى اجود ما يكون في البلاد الاوربية وتوغلوا في الاسراف والبذخ وانسابت ميازيب الثروة من ايدي الشرقيين الى جيوب الغربيين لجلب ما تستدعيه تلك المدنية من الضروريات والزخارف فكسدت بذلك اسواق الصناعات الوطنية ومات اربابها لانها اصبحت رثة بالية لاتروق في اذواقهم ولم تجد معضداً من موسريهم وسراتهم لتنهض من خمولها وتضارع اختها في الغرب كما فعل اهله ابان رقيهم فنخاص من شر ما يضمره لنا المستقبل من الفقر المدقع ان دام هذا السبات لان ما قريناه من المدنية الكاذبة لم يتم عَلَى اساس متين . نعم انا لا انكر ان في الامة الاسلامية كثيراً ممن تعلموا في اوربا فوقفوا على اسباب حياتها وحملوا الينا شيئاً مما تعلموه ولكن قل ان ترين من هولاء مهندساً مخترعاً او طبيباً مكتشفاً او عالماً اخلاقياً او اصولياً مشرعاً وهناك اناس لا يسعون وراء الثروة ويتكلون على الوظائف ومن كان هذا شأنه فمحال ان يعمل لخير بلاده .

قرر علماء الاخلاق والباحثين في اطوار الامم ان المتدين في كل امة المنتحلين اطوار غيرها يكونون سلما لتطرق الاعداء اليه ويكونون بما وقر في قلوبهم من تمجيد الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مبادئهم ولو كانوا من ابناء جلدتهم او اخوانهم او عشيرتهم فيستهينون بجميع اعمالهم ويحتقرون امرهم ويسخرون منهم وبهذا وامثاله وهنت الرابطة

القومية وانحلت عقدتها وفقد التضامن الذي عبر عنه عليه الصلاة والسلام بقوله «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً. مثل المؤمنين في تعاضدهم وتآزرهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وكفى بذلك مدعاة للتقهقر والانحطاط ولكن يلوح من بين هذه النابتة الذين تهذبوا بنور العلم وعركتهم يد الحوادث بصيص من الامل يجعل الامة تتطلع الى مستقبل باهر كما قال فيهم بعض الفضلاء: أرى في شجرة الاسلام التي جفت اوراقًا خضراء فلا ادري اهي بقية مما مضى او باكورة للمستقبل

(البدعة في الدين)

ايها السادة

أرايتم لو ان طبيباً وصف لاحد المرضى علاجاً رأى فيه شفاءه فحدد للصيدلي ما يحتاجه ذلك الدواء من العقاقير وبالتالي مقاديرها وكيفية تركيبها فخالف الصيدلي امر الطبيب واخذ يزيد وينقص في المقادير كيف شاء حتى جعلها سماً زعافًا لا دواء نافعاً انكم ولا شك تحكمون عَلَى هذا الكيماوي اما بالجهل في صناعته واما بالغش والخيانة وانه من اكبر العاملين عَلَى تفشي الامراض وازهاق الارواح بسبب ما يرتكبه من الخطل في تلك المهنة الشريفة

ولكم مثل الذي يبتدع في الدين ويفتري عَلَى الله الكذب لان القرآن والسنة والله هما شفاء لما في الصدور قال الله تعالى «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة. ونزلنا الكتاب تبيانًا لكل شيء» فالذي يبتدع في الدين انما يحارب الله ورسوله ويصيب كبد الاسلام بسهم مسموم

يا حسرة عَلَى الاسلام ظهرت بوادر هذه البدع في ابان الاسلام فكان قادة الاسلام يحاربونها بسلاح القرآن يدحضون الحجة بالحجة ويقرعون البدعة بالسنة الى ان تمكن حب التقليد من النفوس وقل الاشتغال بالتفسير والحديث واهمل التاريخ فاختلط الحابل بالنابل وراجت سوق الاحاديث الموضوعة وانتفخت بها بطون التآليف لا سيما ما يتعلق منها بالزهد والرغائب والحث عَلَى القناعة باليسير والكفاف من الرزق واماتة المطالب النفيسة كحب المجد والرئاسة والاقدام عَلَى عظائم الامور ودب الى الامة داء التواكل واسترسلت وراء الاوهام وعلق بالقلوب كثير من ادران الشرك وظهرت المعجزة في حديث «لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» أليس ما نراه اليوم من تعليق الآمال بقبور الصالحين وتشييد الاضرحة وبناء القباب

والمساجد عليها والتغالي في زخرفتها ونذر النذور لها وشد الرحال لزيارتها مما يعتقد كثير من الناس انه من اعظم القربات كان في صدر الاسلام ضرباً من الشرك بل هو الشرك الذي جاء الدين بمحوه

ان القرآن والسنة لم يتركا باباً من ابواب الشرك الا واوصداه بالف حجة وبرهان وخليا بين العبد ورب به يناجيه ويرفع اليه حوائجه كيف شاء ومتى شاء لا يحتاج في ذلك الى وسيط او وسيلة اللهم الا ما شرع لنا من وسائل الاعمال الصالحة كما فسر الرسول بذلك الوسيلة في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة

نرى كثيراً ممن يهتدى بهم يتهافتون عَلَى هذه المهلكات تهافت الذباب عَلَى الطعام ويقتسمون ما يلقى في الاضرحة من النذور كأنه ميراث ورثوه عن الاجداد والآباء ويؤولون ما ورد في ذلك من النصوص القطعية كحديث : لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها السرج . لا تتخذوا قبري من بعدي وثناً يعبد . لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الاقصى

ايها السادة هذه هي امهات البدع التي الصقت بالاسلام ولولا انه دين قويم قام عَلَى اساس متين لانمحى اثره من الوجود لكثرة ما رزيء به من امثال هذه الامراض القتالة

(الامر بالمعروف والنهي عن المنكر)

لم ارَ ديناً كدين الاسلام خول لكل فرد من افراد الامة الاشراف عَلَى الشؤون العامة والقيام بامر الارشاد والنصيحة واطلق لهم عنان الحرية في مباشرة هذين الاصلين بحسب ما تستدعيه حالة الامة . قال الله تعالى: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوة . فقد نعت الله المؤمنين بانهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فالذي لم يقم بهما لا شك انه خارج من هيئة المؤمنين

كان خطباء المساجد هم من القائمين بهذه الوظيفة يمزجون مصالح الامة بالمواعظ والارشادات فكانت خطبهم تفعل بالنفوس ما لا تفعله السيوف . هذه كتب الادب فطالعها ان شئت تجدها مشحونة بخطب السلف من الامراء وغيرهم عَلَى نحو ما تسمعه اليوم عن الغربيين في دور نوابهم ومجالس اعيانهم كم نبهت شعوراً واحيت امماً واماتت جبناً واصلحت معوجاً وهذبت نفوساً وسنت نظاماً. انعكست القضية فاصبح خطباء المساجد

الا قليلاً من اجهل الناس يقولون ما لا يفعلون و يتكلمون بما لا يفهمون من سقط القول فلا تسمع الاسجاعاً كسجع الكهان واني يوء ثر الوعظ اذا كان لا يتجاوز اللسان

(احتياجنا الى العلم)

ايها السادة: ما اشبهنا في حياتنا الاجتماعية بالحيوانات الاليفة او الطيور الداجنة التي يحبسها ربها في الاقفاص تنتظر منه فضالة من طعام او رشفة من ماء فان هو منعها ذلك هلكت جوعاً وظمأ اذ ليس لها من الحول والقوة ما تفك به قيود الاسر فتخرج الى الفضاء آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان

واأسفاه . سبقتنا الامم شوطاً بعيداً فاصبحنا في مؤخر الرحل كقدح الراكب عالة عليها في كل حاجاتنا الادبية والمادية حتى فيما يتوقف عليه فهم كتابنا الكريم من الحكمة العرفية والعلوم الكونية . بربك هل تجد فيما يدرأ عنك طوارئ الغاديات وتدفع به غوائل الحر والبرد مما تذود به من سلاح ولباس وما تسكنه من قصور شامخة ومبان شاهقة واكواخ حقيرة وما تحتاجه من آنية طعام وشراب وموائد واخشاب وحرائر واطالس وفرش ومقاعد ومصابيح ومطابخ وحلي وجواهر ونقود ومعادن وما يحتاجه الزارع في زراعته والكاتب في كتابته والكيماوي في حانوته . هل تجد في كل ذلك يداً اصابع شرقي اللهم الا اذا كان مكارياً او سمساراً او عاملاً بسيطاً او تاجراً لا يربح من تجارته الا اليسير لا يدري اين صنعت ولا كيف صنعت

جهلنا حقائق الاشياء فلا نعلمها الا اماني واقتصرنا عَلَى ما يتعلق بعلاقة الانسان مع ربه وحكمنا عَلَى ما عدا ذلك بالاعدام وحاربنا اهله وازهقنا روح التقدم واطفأنا مصابيح العرفان في الاذهان

اين منا المؤرخ والنباتي؟ اين منا الطبيب والكيماوي اين منا المهندس والطبيعي واللغوي والاديب والمنطقي اين منا عالم الاخلاق والحكيم والفلكي وعالم الزراعة نعم ان لدينا منهم نفراً ولكن هم دون الحاجة وقليل منهم العاملون

دعانا داعي الاصلاح فارشدنا الى مواقع الضعف منا وان لا نجاة الا بمجاراة الامم الغربية وان نقلع جذور هذه التربية العقيمة علنا نعمل فنسترجع مجد آبائنا الاولين اساتذة الغرب فنعق به دعاة السوء من كل جانب ان قد خالفت الدين افتراء منهم عَلَى الله وما كانوا مهتدين

يا قومنا هذا القرآن حجة عَلَى الشعوب الاسلامية بما فرطوا من امر الدين والدنيا

نتلى عليكم وفيها من اسرار الكون وعجائب المخلوقات ما لا سبيل لنا الى فهمه الا اذا اخذنا نصيباً من هذه العلوم

قال الله تعالى «ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء لآيات لقوم يعقلون» « وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون» ٠ هذه الآيات وامثالها تسجل علينا العار واننا لسنا من العقلاء في شيء اذ العقلاء هم الذين تتغذى ارواحهم بمعرفة ما ابدع الله في الكائنات وما ذرأ في الذرات من مباهج الآلاء والحكمة ٠ العاقل من تدعوه لذة النظر الى الشوق والولوع في حوز المعارف والعلوم

يا قومنا هذه هي ازمتنا وهذه جراثيمها التي لا تزال تنخر في جسومنا وتفسد من اعضائنا وتميت من مشاعرنا فهل لنا ان نكشف الغطاء عن ابصارنا و بصائرنا فنخرج الى عالم النور فنحيا حياة طيبة

يا قومنا لا دواء لنا من هذه الادواء الا بالعلم ولا علم الا بالتربية والتربية مفقودة عندنا نسمع ضجة للعلم وجلبة للمدارس ونبغ فلان واخذ فلان الشهادة فاذا سرنا في الشوارع او بين دور الوطنيين نرى ما تذوب له الاكباد نرى فلذاتنا امة الغد من ذكور واناث كقطعان الغنم يتلاكمون و يتلاطمون و يتنابزون بكلمات الفحش والفجور قد صبغتهم الاوساخ وشوهت من محاسنهم الامراض اليس هذا بدليل عَلَى ان الامة لا تزال في اقصى درجات الانحطاط مسخنا نصوص الشريعة الغراء فاذا دعانا داعي الاصلاح ان لا سبيل للرقي الا بتعليم المرأة صوبنا اليه سهام الطعن وقلنا كذباً وافتراء ان ذلك مخالف للدين

افلا تنبهنا الحوادث وتوقظنا العظات وها نحن قد شخصنا امراضنا وعرفنا اسباب تأخرنا فلم لا نعمل عَلَى ازالة هذه الاسباب فنفيق من رقودنا ونهب من سباتنا ونخلص من هذه القيود ونسبح في فضاء الحرية نستبدل بهذا الخور عزيمة وبالذل عزاً وبالاستكانة شهامة وبالتفرق وئاماً وبالجهل علما

يا قومنا ان العلم كنز مفاتيحه الاخلاق وحاجتنا الى هذا الكنز شديدة فهلموا نهذب من اخلاقنا ونمحو آثار الرذيلة من بيننا ونحافظ عَلَى عاداتنا علنا ان نفتح هذا الكنز المغلق فنكون خير امة اخرجت للناس

مطبوعات ومخطوطات

شرح ديوان طرفة بن العبد

للشيخ احمد بن الامين الشنقيطي طبع بمطبعه و... في قزان (روسيا) سنة ١٩٠٩
(ص ١٨٠)

طرفة بن العبد احد فحول شعراء الجاهلية المقدمين الذين يستشهد بصحة عربيتهم وديوانه هذا قليل الجرم جم النفع وهو مرتب على رواية يعقوب بن السكيت واشار الشارح الى ما اخذه من تعليقه بقاف بين قوسين منبهاً على ما لم يروه الشنتمري في شرح الستة ومن شعر طرفة:

واعلم علماً ليس بالظن ... د دل مولى المرء فهو ذليل
وان لسان المرء ما لم تكن له ... حصاة على عوراته لدليل
اذا قلت فاعلم ما تقول ولا تقل ... ...ات عم لم تدر كيف تقول
وان امرأ لم يعف يوماً فكاهة ... ...ن لم يرد سوأ بها لجهول
تعارف ارواح الرجال اذا التقوا ... ...م عدو يتقى وخليل

ومنها:

قد يبعث الامر العظيم صغيره ... حتى تظل له الدماء تصبب
والظلم فرق بين حيي و... ... ...كر تساقيها المنايا تغلب
قد يورد الظلم المبين ا... ... ملحاً يخالط بالذعاف ويقشب
وقراف من لا يستفيق دعا... ... يعدي كما يعدي الصحيح الاجرب
والاثم داء ليس يرجى برؤ... ... والبر برؤ ليس فيه معطب
والصدق يألفه اللبيب المرتجى ... والكذب يألفه الدني الاخيب

اللمع في اصول الفقه

لابي اسحق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦
عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني
طبع بمطبعة السعادة بمصر (ص ٩٥)

الشيرازي هو مدرس النظامية ببغداد رحل اليه الناس من الامصار كما قال الحافظ السمعاني وكان يضرب به المثل بالفصاحة وكان عامة المدرسين بالعراق والجبال تلاميذه واصحابه صنف في الاصول والفروع والخلاف والجدل وقد اشتهر كتابه هذا اللمع في معظم البلاد حتى قال فيه الرئيس ابو الخطاب بن الجراح :

اضحت بفضل ابي اسحق ناطقة صحائف شهدت بالعلم والورع
بها المعالي كسلك العقد كامنة واللفظ كالدر سهل جل ممتنع
رأى العلوم وكانت قبل شاردة فحازها الالمعي الندب في اللمع

وقد طبع الكتاب بمراجعة نسختين جيدتين منه في المكتبة الظاهرية بدمشق تاريخ احداهما ٥٧٤ والاخرى في العام نفسه وقد علق عليه الاستاذ جمال الدين القاسمي تعليقات نافعة تدل على فضل اطلاع منها ما علقه في صنعة المفتي والمستفتي قال : قال برهان الدين التقصير في علم اللغة اخلال باول فروض الاجتهاد وقد احسن الشيخ ابو المعالي فيما علق عنه من الاصول حين بين مواد العلوم ومقاصدها وحقائقها وجعل مادة الفقه الاصول القطعية وهي الكتاب والسنة والاجماع وجعل اللغة مادة لهذه المادة قال لان الشريعة عربية فلا بد من القيام بها ليفهم عن الله مراده فاللغة اصل الاصول ومادة المواد فكيف يكمل فقه من اخل بها

ثلاث رسائل

الاولى المنظومة الموسومة بمواهب المشاهد في واجبات العقائد لمؤلفها هبة الدين السيد محمد علي وهي ٣١ ص والثانية روائح الفيوض في علم العروض للفاضل الموما اليه وهي قريبة المأخذ جمة الفوائد في ٤٢ ص والثالثة متن اعتقادات الامامية لبهاء الدين العاملي صاحب الكشكول وهي موجزة وافية بالغرض وقد جاء فيها بشأن الخلافة عند الشيعة ما نصه : « نعتقد ان خليفته من بعده على امته بالنص الجلي في يوم الغدير وغيره امير المؤمنين وسيد الوصيين علي ابن ابي طالب عليه السلام وبعده ولده الحسن ثم الحسين ثم علي زين العابدين ثم محمد الباقر ثم جعفر الصادق ثم موسى الكاظم ثم علي الرضا ثم محمد التقي ثم علي النقي ثم الحسن العسكري ثم محمد المهدي صاحب الزمان صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين بنص كل سابق على لاحقه وان جميع الانبياء واوصيائهم معصومون من جميع الذنوب والسهو والنسيان وسائر النقائص وان محمد المهدي عليه

السلام هو مستور عن الناس كالخضر والياس الى ان يؤذن له في الظهور فيملأ الارض قسطاً كما ملئت جوراً وظلماً اه » قلنا ومن الشيعة سرت الى السنة عقيدت المهدي المنتظر راجع ما قاله ابن خلدون في احاديث المهدي في المقدمة

خلع السلطان عبد الحميد

خليل افندي الخوري طبع في مطبعة الاصلاح بدمشق
سنة ١٩٠٩ (ص ٨٠)

ذكر كاتب هذه الرسالة السبب الذي حمل الاحرار عَلَى خلع السلطان العثماني السابق وطرفاً من سيرته وسياسته وقد رأينا فيها بعض امور كنا نود لو عزاها ناقلها الى مظانها مثل قوله (ص ١٥) انه منذ عشرة اعوام نوت بريطانيا الجلاء عن القطر المصري واحضر سفيرها في الإستانة الاوراق الرسمية وعرضها عَلَى الصدر الاعظم فابى المخلوع كل الاباء وقام رجال المابين المنافقون مدعين ان الانكليز يدسون الدسائس للدولة العثمانية وان الانكليز الى الآن لا يتأخرون البتة عن اخلاء مصر اذا رضيت الدولة ان ترسل جنودها الى هناك للاستيلاء عَلَى القطر · ولو صح مثل هذا الخبر لكتبت فيه المجلدات فضلاً عن المقالات · الكتاب شاهد بادب كاتبه حري بالمطالعة

مجلات جديدة

النعمة — مجلة دينية علمية اخبارية تصدرها البطريركية الانطاكية الارثوذكسية في دمشق مرتين في الشهر ومعظم القسم التاريخي والادبي بقلم عيسى افندي اسكندر معلوف احد المنشئين المشهورين · وقيمة اشتراكها في دمشق ريال ونصف وريالان في الممالك العثمانية وخمسة عشر فرنكاً في الخارج ·

الكوثر — مجلة علمية فنية سياسية لصاحبها ومحررها بشير افندي رمضان من فضلاء الكتاب تصدر في بيروت في غرة كل شهر وفي الجزء الاول منها مقالات نافعة منها التأثر الفطري بالانسان والاقتصاد والتراموای الكهربائي واختراعه والحفريات في بابل وغير ذلك من الموضوعات الملذة المفيدة · وقيمة اشتراكها ريالان في بيروت وريالان ونصف في سائر الولايات وخمسة عشر فرنكاً خارج البلاد العثمانية

الحسناء — مجلة نسائية علمية ادبية تاريخية اخلاقية اجتماعية لمنشئها جرجي افندي نقولا باز ويساعد في تحريرها نخبة من الكاتبين والكاتبات وهي تصدر مرة في الشهر

وفي الجزئين اللذين طالعناهما منها عدة ابحاث نسائية مفيدة منها ترجمة مدام دي ستال ومدام رولان وهما العقيلتان اللتان اعدتا الافكار للنهوض قبيل الثورة الفرنسوية الاولى ومقالة في المرأة والدين الى غير ذلك من الفوائد المنزلية والبيتية وصاحب هذه المجلة معروف عند معظم قراء العربية بمقالاته ورسائله في الاخلاق والاجتماع · وقيمة الاشتراك بالحسناء عشرة فرنكات في بيروت واثنا عشر فرنكاً في الخارج

فنرجو لرصيفاتنا الجديدات نجاحاً يكثر من سواد اعوانها وانصارها وينفع بسطورها ومنشورها وفق اربابها الى انارة العقول وبث روح المدنية الصحيحة



سير العلم والاجتماع

الغاء الرتب

صدر امر نظارة الداخلية العثمانية ان تكون التشريفات يوم ١٠ تموز شرقي اي يوم ذكرى مرور حول كامل على اعلان القانون الاساسي في المملكة العثمانية بالالبسة السوداء على عادة الامم الديمقراطية وقد صدعت اكثر الولايات بهذا الامر وبذلك اقرت الدولة بانها الغت الرتب التي طالما كانت السبب في افساد اخلاق الامة ايام كانت الدولة العثمانية دولة استبدادية

قانون المتشردين

وضعت الدولة العلية نظاماً للمتشردين واخذت تطبقه في العاصمة والولايات وبموجبه يضرب المضرون في المجتمع الانساني بالعصي وذلك لان طبيعة البلاد تقتضي الضرب الآن ولولا هذه العقوبة المحسوسة لا يؤثر القانون اثره المطلوب في بعض طبقات الناس

شاه ايران

قويت شوكت الاحرار وظفروا بشاههم الظالم المستبد محمد علي شاه بعد ان خضبوا ارض فارس بدمائهم فانزلوه هذا الشهر عن عرش الاكاسرة وجعلوا مكانه بكره الشاه

احمد وهو في الثالثة عشرة من عمره وبخلع الشاه محمد علي قاجار والسلطان عبد الحميد العثماني منذ ثلاثة اشهر ابان الفرس والعثمانيون بانهم اقوياء في العقل اشداء في العمل ينكرون عَلَى الظالمين في سرهم وجهرهم وان الاخلاق اليوم ارقى منها بالامس اذ لا عمل بلا خلق واعداد عامة المعدات في الوصول اليه

استعمال السكر

ثبت ان الاكثار من السكر يزيد في القوة العضلية من ٢٦ الى ٣٣ في المئة وقد أكد بعض اطباء الجند من الالمان ان السكر يسكن الظمأ والجوع ويؤخر التعب ويمكن استعماله للجنود السيارة ولراكبي الدراجات والانتفاع به · كما اثبت بعضهم ان اعطاء خيول الحوافل والعجلات الصغيرة سكراً يقتصد به كثير من طعامها · وهناك اناس من الباحثين في صحة البطون اثبتوا ايضاً ان ليس من خواص السكر في الاشربة والمربيات والمعجنات اللذة في الطعم فقط بل هو مادة من المواد التي يحتاج اليها في التغذية · وقد قال الدكتور لاندوزي ان خمس قطع من السكر تورث الجسم من الكالوري ثلاث مرات ما تورثه قطعة من ضلع غنم ثمنه قرشان · وكان معدل ما يتناوله الفرد في البلاد الراقية ١٣ كيلو غراماً في السنة عَلَى حين اثبت الاختبار انه يمكن للفرد ان يتناول في اليوم من خمسمائة غرام الى كيلو غرام وبالجملة فان الاكثار من السكر انفع في الصحة من الاقلال منه

صحة الاسنان

اثبت الاخصائيون في علم الاسنان ان الناس الذين تتناسب ثناياهم مع ناباتهم واضراسهم يقل عددهم شيئاً فشيئاً حتى في الملوك انفسهم وهم الغلاة في القيام عَلَى الصحة ومنهم الفونس الثالث عشر ملك اسبانيا وادوارد السابع ملك انكلترا فان اسنانهما غير متناسقة في وضعها · وهذا الاختلال في وضع الاسنان لا يغير صورة الوجه ويجعلها بشعة فقط بل يحدث ارتباكات معدية تنشأ من قلة مضغ الطعام ويجب التوقي من ذلك ولكن الوقاية لا تفيد في الاكثر الا في زمن الصبا · وقد وضعت الفطرة الاسنان عَلَى نظام خاص لينطبق بعضها عَلَى بعض فاذا جاءت نائتة او متداخلة تشوه منظر الفم واضرت بصحة الجسد · ومن الابوين من يتساهل في أخذ الولد الى طبيب الاسنان فيزيد ألمه ومنهم من لا يعنون بصحة الفم فينخر السوس الاسنان ويضر بها اي ضرر

وقد ارتأى الدكتور جاريته ويت من بوستون ان من انجع الطرق في حفظ صحة الفم ان يزور الطبيب اولاد المدرسة ليبحث عن اسنانهم وابان في محاضرة له في هذا الباب ان الفم مستنبت الجراثيم الباثولوجية وغير الباثولوجية يفعل فيه الاعتدال المناسب والرطوبة وثترات الطعام وقال ان التساهل بصحة الاسنان ادى الى ان كان في المئة من اولاد الالمان ٨٤ الى ٩٥ لهم اسنان عاطلة وعمت البلوى في الاسنان الرديئة في اميركا حتى لا تكاد تجد اميركياً في الستين من عمره ممتعاً باسنانه كلها او لا يشكو منها . ومن الناس من يعمدون الى قلع اسنانهم عند اقل عارض يعرض لها ويستعيضون عنها باسنان صناعية حتى في السادسة عشرة او الثامنة عشرة من اعمارهم بحيث كان طلب الاسنان صناعة رابحة في اميركا وغيرها واغتنى اربابها فاصبح عددهم يزيد كل يوم . قال الدكتور المشار اليه وان التساهل بالاسنان مرض اشد فتكاً من الاوبئة والامم لا تهلك الا من اسنانها

المطبوعات الالمانية

نشر في المانيا من تموز ١٩٠٧ الى تموز ١٩٠٨ نحو ثلاثين الف تأليف المالي طبع القسم الاعظم منها في برلين ويليها ليبسيك على ان هذه المدينة كادت تكون فيها اعظم سوق للكتب في العالم اما ادمبورغ التي كان يسميها الانكليز مدينة الكتب مفاخرين فقد كادت تسقط من مكانتها

تبادل الاولاد

قامت فئة منورة في بعض بلاد اوربا تتفنن في تعليم ناشئتها فرأت ان من خير ما يقوي ذهن التلميذ ويزيد في اختباره وعلمه ان يرسل به الى مملكة اخرى فالانكليزي يبادل ابنه مع الفرنسوي والفرنسوي يرسل بابنه الى صاحبه الالماني وقد أخذ هذا المبدأ ينمو حتى بلغ عدد من ارسلتهم فرنسا من شبانها هذه السنة الى خارج بلادها بواسطة جمعية مقايضة الاولاد الدولية ١٧٥ طالباً ارسلت ثلثهم الى المانيا

فلسفة تولستوي

كتب المستر روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق ومحرر مجلة اوتلوك يصف فلسفة الكونت تولستوي الروسي فقال انه رجل نابغة وقصصي كبير كما تشهد به رواياته المختلفة التي اثرت تأثيراً حسناً في اهل عصره ولكنني اشك فيما اذا كان تأثيره

كبيراً بين رجال العمل من الوجهة الفلسفية والادبية . ولست انكر ان فلسفته تؤثر بعض التأثير في الناس الذين يلزمون مخادعهم ولا يتخطون دائرة مكتبتهم . وان كانت قد اثرت شيئاً في اهل العمل فانما كان ذلك للشر لا للخير عَلَى انني لا اظن ان فلسفته تجد محلاً رحباً في صدور رجال العمل بل الذي اراه انها استولت عَلَى اذهان ضعاف العقول وصغار الاحلام . والاقوياء العقول قد يستفيدون شيئاً من تعاليم تولستوي الادبية ولكن بشرط ان يكونوا عَلَى درجة من قوة العقل والارادة تمكنهم من نبذ تعاليمه السخيفة او المضادة للادب . ثم ضرب الامثال عَلَى خطأ فلسفة تولستوي فقال :

ان تأثير فلسفة تولستوي في الذين يندفعون معها ويسيرون في تيارها من رجالنا انما هو تأثير مضحك في الغالب فان بعضهم كتب منذ زمن وجيز كتاباً في مسائل اميركا البلدية قال فيه ان عيوبنا الادبية والاجتماعية ناشئة بعض الشيء عن خطيئة المذهب الحربي . ولما كتب الكاتب هذه العبارة لم يكن تحت تأثير ما يقع امام عينيه وما يخبره بنفسه وانما كان متأثراً باقوال تولستوي ومذاهبه التي لا تنطبق البتة عَلَى المعيشة الاميركية فان المذهب الحربي عامل من عوامل الخير او الشر في معظم البلاد الاوربية ولكنه في اميركا كمية عاطلة لا يتعدى تنظيم البوليس الوطني لتأييد الأمن والنظام . ان اكل لحم الخيل امر يختص بالذوق فقط ولكن المبشرين الاولين في شمالي اوربا رأوا ان اكله مجلبة لضرر عظيم لان القوم كانوا يأكلونه مذبوحاً للوثن فحرموا اكله . والحق يقال ان عيوبنا الاجتماعية ليست اكثر علاقة بالمذهب الحربي منها باكل لحم الخيل المذبوح للصنم !!

وكان آخر عندنا ينظم القصائد الطوال في الدفاع عن المهدوية وحجته في ذلك الدفاع انه احتجاج عَلَى الحرب ومبدئها طبقاً لتعاليم تولستوي . والمهدوية كما تعلم شر ما رأى الناس من اسباب اراقة الدماء والظلم والفساد والتعصب وكانت عاقبتها المباشرة بقتل نصف السكان في البلاد التي نكبت بها وترك النصف الآخر في حضيض البؤس والمهانة . فدفاع تولستوي وتلاميذه عنها اعظم دليل عَلَى سوء مذهبه الادبي وما في حسبانه مرشداً ادبياً من الخطر عَلَى العقول والآداب انتهى ملخصاً عن الجريدة

الساعات في ايطاليا

بلغ عدد الساعات التي دخلت ايطاليا ثمانية ملايين ونصف مليون ساعة اتى معظمها من سويسرا • فاستجابت ايطاليا سنة ١٩٠٧ ٢١٥٩٧ ساعة ذهب منها ٢٠٢٠٠ من سويسرا وبلغ الوارد اليها في السنة الماضية ٥٩٥٦٩٢ منها ٥٦٦٩٩٢ من سويسرا

تجارة البيض

يبلغ ما تخرجه الولايات المتحدة كل سنة من البيض ٨٦٢،٥٤٦ طناً تستخرجها من ٢٣٣ مليون دجاجة وما تخرجه المانيا ٢٧٠ الف طن تستخرجه من ٥٥ مليون دجاجة وما تخرجه فرنسا ٣٠٠،٠٠٠ طن تستخرجه من ٥٠ الف دجاجة وما تخرجه انكلترا ١٢٥٠٠٠ طن تستخرجه من ٢٥ مليون دجاجة ويجمع الكيلو من البيض من عشرين بيضة على ان ايراد الدجاجة الواحدة يختلف بحسب الاقاليم •

وثبت في الاحصاء ان البلاد العثمانية تبعث الى الغرب كثيراً من البيض ومحه حتى ان ما تستورده فرنسا وحدها من بلادنا يبلغ مسانهة اربعة آلاف طن

حكم صغيرة

يقول اوجين مار بر : الحرية احترام حقوق كل فرد والنظام احترام حقوق المجموع قالت العقيلة رولاند : من يعمل ولا يرجع الى مبدإ كمن ينظر الى ساعته وقد وضع ابرتها كيفما اتفق • وقال لابرو ببر : من الحقائق ما يكتب له الظفر وتكتب له المبالغة ايضاً حتى تصبح كاذبة • وقال : من الامور ما لا يطاق فيه الاعتدال الشعر والموسيقى والخطاب العام • وقال مونتسكيو : من يتكلم بدون تفكر اشبه بصياد يصيد بدون ان يتوجه جيداً للغرض • وقال بلين : العفو جزء من اجزاء العدل

اصل الفواكه

يعرف كل نبات في بلد بانه اصيل فيها لا دخيل عليها اذا رأيت منه اصنافاً برية نبتت من تلقاء نفسها ولم تنقلها يد بشرية • فالتوت الافرنجي (فريز) دخيل على جميع البلاد التي ينبت فيها الآن والجيد منه في انكلترا اتي به من فرجينيا سنة ١٦٢٩ والتوت الشوكي (فرامبواز) هو من ثمار البلاد المعتدلة في اوربا ودخيل على قارة آسيا والمشمش لم يأت من ارمينية كما توهم بعض علماء النبات بل جاء من الصين ولكنه كان

بريًا حامضاً وقد عرف من تاريخ الشمش انه كان معروفاً لليونان والرومان منذ الفي سنة . والخوخ عرفه الرومان واليونان ايضاً ولكن توهم بعضهم بان اصله فارسي والحقيقة انه صيني ولاهل الصين فيه اساطير . والكرز هو من فصيلة الكرز العام (كريوتيه) نبت على ضفاف بحر الخزر . والدراق وتبلغ اجناسه ثلثمائة جنس والجنس الاول منه خاص بارض الاناضول والقافقاس والروم ايلي . والاجاص واجناسه كثيرة ايضاً روي منه صنف بري في الاقاليم المعتدلة من اوربا وفي آسيا الغربية . والسفرجل منشأوه في جنوبي شرقي اوربا وبلاد القافقاس واقليم بحر الخزر . والتفاح على انواعه ينبت في اوربا والقافقاس وما وراء النهر وفارس والتفاح هو احد الفواكه القديمة المعروفة اذ كانت الشعوب قبل التاريخ تستعمله بكميات وافرة . واللوز انتقل الى اوربا من سلاسل جبال لبنان (جبل الشيخ وجبل قلمون وجبل الآكام) وما وراء بلاد القافقاس وبين النهرين وفارس وتركستان . والتين لم يهتد علماء النبات الى معرفة بلاده الاصلية والغالب انه من اقاليم البحر المتوسط ولا سيا سورية وكذلك العنب لا يعرف منشأوه لانه ثبت انه قديم الاستعمال جداً بين البشر وهو حديث العهد في جنوبي اوربا وشمالي افريقية وغربي آسيا واصل الجوز من اقاليم القافقاس والعجم وشمالي الهند . والبرتقال اتى على غالب الظن من جنوبي الصين وكوشنشين وانتقل الى اوربا في القرن السادس عشر والليمون جاء من الهند ودخل الى ايطاليا حوالى القرن الثالث او الرابع للمسيح

تموز الحرية

اذا انقضى مارت فاكسر خلفه الكوزا ... واحفل بتموز ان ادركت تموزا
اكرم بتموز شهراً ان عاشره ... قد كان للشرق تكريماً وتعزيزا
شهر به الناس قد اضحت محررةً ... من رق من كان يقفو اثر جنكيزا
سل اهل باريز عن تموز تلق لهم ... يوماً به كان مشهوداً لباريزا
كانت لهم فيه لما ثار ثائرهم ... بينة هدت الباستيل مبزوزا
وان تموز شهر قام فيه لنا ... على اليفاع لواء العز مركوزا
في شهر تموز صافانا لما وعدت ... بيض الصوارم بالدستور تنجيزا

هي المساواة عمتنا فما تركت فضلاً لبعض على بعض وتمييزا
امست لنا قسمة بالملك عادلة حكمًا وكانت على علاتها ضيزى
كنا من الجور عميانًا وليس لنا من قائدين ولم نملك عكاكيزا
حتى نهضنا الى العلياء تقدمنا عصابة برزت في المجد تبريزا
ان تلقهم تلق منهم في الوغى جبلاً اوهجتهم للمنايا هجت راموزا
قوم اذا طمعوا في حومة تخذوا قصاعهم من قحوف القوم لاالشيزى
قمنا على الملك الجبار نقرعه بالسيف منصلتا والرمح مهزوزا
حتى تركناه في هيجاء معضلة القت ضراماً على الطاغين مأزوزا
انا لنأبى على الطاغي تهضمنا حتى نهوز في الهيجاء تهويزا
ونأكل الموت دون العز نمضغه كمضغنا التمر برنيًا وسهريزا
لا عاش من لايخوض الموت مرتضيًا بتاءه بعصي الذل موكوزا
راعت سلانيك دار الملك فانبهت من ذاك طهران تخشى امر تبريزا
حتى غدت وهي في تموز ناكسة رايات شاه رماه الخلع مجنوزا
فالشاه في شهر تموز هوي وكذا عبد الحميد هوى في شهر تموزا
يا شهر تموز لا راعتك رائعة ولا لقيت من الاحداث ارزيزا
يا شهر تموز قد زينت رايتنا بالعدل توشية فيها وتطريزا
من لي بانجم هذا الافق انظمها قصائداً فيك مدحًا او اراجيزا
او انحت الماس اقلامًا معرضة امدها ذهبًا في الطرس ابريزا
واجعل الجو في تموز امدحه طرسًا اجادته كف النور ترزيزا

الاستانة في ١٠ تموز ٣٢٥ معروف الرصافي



جمادى الاولى وجمادى الثانية ١٣٢٧

اكبر الاشياء في العالم (١)

أعلى جسر طبيعي في العالم هو جسر صخري في ولاية فرجينا (الولايات المتحدة) علوه مائتا قدم

أكبر مبلغ من الاوراق المالية المستعملة في العالم هو في الولايات المتحدة . فسكان هذه الجمهورية العظمى يستعملون ٧٠٠٠٠٠٠٠٠ من تلك الاوراق في حين ان مملكة روسيا العظيمة تستعمل منها ٦٧٠٠٠٠٠٠٠٠

أكبر شركة لضمانة الحياة في العالم هي شركة (موتشال) في مدينة نيويورك (الولايات المتحدة) . رأس مال تلك الشركة يبلغ ١٠٨٠٠٠٠٠٠٠ دولار

أشهر صدى في العالم هو في قلعة (سيمونا) على مسافة ميلين من ميلان فاذا اطلق فيه عيار ناري تراجع صداه ستين مرة

أكبر بركان في العالم هو بركان (اتنا) . دائرة قاعدته ٩٠ ميلاً وعلوه ١٠٠٠٠ اقدم وقد انفجر لاول مرة في سنة ٤٧٤ للمسيح

أكبر شجرة في العالم هي في ايالة (تركر) في (كليفرنيا) علوها ٢٧٥ قدماً ودائرة محيطها ١٠٦ اقدام

---

(١) هذا الفصل وما يتبعه تحت هذا العنوان عربته عن الانكليزية وهو فصل من مئات فصول كتاب ضخم يقع في ثماني مئة صفحة سيظهر بالعربية في المستقبل

أكبر صحراء في العالم هي (شارا) في شمالي افريقية · طولها ثلاثة آلاف ميل وعرضها ٩٠٠ ميل ومساحتها مليونا ميل مربع

أكبر ماسة في العالم هي (براغانزا) في بلاد البرتقال تزن ١٨٨٠ قيراطاً وقد وجدت في برازيل سنة ١٧٤١

اطول رجل في العالم هو يوحنا هال من انكلترا · طوله تسعة اقدام وستة قراريط · وطول كلٍ من يديه سبعة عشر قيراطاً وعرض كل منهما ثمانية قراريط ونصف القيراط

أعلى عمود تذكاري اقيم في العالم حتى اليوم هو في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة علوه ٥٥٥ قدماً

أعلى بناء اقيم في العالم هو برج ايفل (٢) في باريس عاصمة فرنسا علوه ٩٨٩٥ قدماً وتمّ بناؤه سنة ١٨٨٩

يعمر كلٌّ من الغراب والاوزة مئة سنة · والحدأة او طير الرخم ٥٩ سنة والببغاء ٦٠ وابو حوصل ٥٠ والقنبرة ٣٠ والعصفور الدوري والباشق ٤٠ والطاووس والكناري والغرنوق ٢٤ سنة

أعظم جنادل في العالم هي شلالات (نيفاغارا) في الولايات المتحدة علوها ١٦٥ قدماً · اما اعلى جنادل في العالم فهي في كليفرنيا فمياهها تسقط عَلَى علو ٢٥٠٠ قدماً

أقدم مدافن في العالم هي مدافن ملوك مصر القدماء التي يرد تاريخها الى الفي سنة قبل المسيح · اما مدافن رومية القديمة ففيها نحو ستة ملايين من رفات الاموات · واما مدافن باريس القديمة ففيها ثلاثة ملايين من تلك الرفات

اكبر عدد من الماشية جيء به الى مدينة واحدة في العالم في سنة واحدة هو ما استاقوه الى مدينة شيكاغو في سنة ١٨٨٤ وقد بلغ عدد الابقار التي جلبت الى تلك المدينة في تلك السنة ١،٨٧٤،٩٨٤ وعدد العجول ٣٠،٢٢٣ وعدد الخنازير ٥،٦٤٠،٦٢٥ وعدد الاغنام ٧٤٩،٩١٧ وعدد الخيول ١٥،٦٢٥ وقد شغلت تلك الماشية تسعة آلاف قطار كلٌ منه مؤلف من احدى وثلاثين مركبة · فاذا قطرت كل تلك القطر والمركبات يبلغ طولها ٢١٤٦ من الاميال

---

(٢) المعرّب · في نيورك اليوم بناية عدد طبقاتها ثلاث واربعون طبقة يقال انها اعلى بناية في العالم

اكبر مزرعة في العالم للغلات هي في الجنوب الغربي من ولاية لوزيانا ٠ مساحتها شمالاً وجنوباً مائة ميل ٠ وقد كلف تسييجها ٥٠٠٠٠ دولار

اكبر عقد في العالم هو (اكودكت) في واشنطن ٠ فهو يزيد عن عقد (شاستر) في انكلترا بعشرين قدماً واطول من عقد (نيولي) باثنين وتسعين قدماً ومن جسر واترلو في لندن بمئة قدم ٠ اما علو عقد واشنطن فمئة قدم

أوسع معادن العالم هي المسماة (فيبرغ) (ساكسوني) عرفت في القرن الثاني عشر للميلاد ٠ وقد امتدت دهاليزها الغربية في سنة ١٨٣٥ الى مئة واثنين وثلاثين ميلاً واعمق عمود قائم في معدن في العالم هو في (بريزلرام) وهو معدن رصاص عمقه ٣٢٨٠ واعمق معدن لفحم حجري في العالم هو عَلَى مقربة من (ثورني) في (بلجيكا) عمقه ٣٥٤٢ قدماً ٠ على ان ليس له اسطوانة كاسطوانة معدن الرصاص المتقدم الذكر ٠ واعمق نقب او ثقب او فتحة في الارض هي بئر في (بوتسدام) في انكلترا ٠ عمقها ٥٥٠٠ قدم ٠ واعمق اسطوانة معدن لفحم حجري في الولايات المتحدة هي في «بوتسفيل» (بنسلفانيا) عمقها ١٨٠٠ قدم ومن هذا العمق العظيم يستخرج يومياً ما يملأ اربعمائة (كار)[٣] يسع كل منها (اربعة طنات)[٤] من الفحم الحجري واعمق معدن فضي في الولايات المتحدة هو المدعو (بلوجاكت) في (فرجيناستي) في ولاية نيفادا ٠ واوطأ مسطحاتها ٢٧٠٠ قدم

اكبر جسر حجري عَلَى وجه البسيطة أُنجز في ايار سنة ١٨٨٥ في (الفانغ) في الصين بناه مهندسو الصين وهو يقطع جون البحر الصيني طوله نحو ستة اميال وله ٣٠٠ عقد طول كل منهما سبعون قدماً وهو اعظم بنيان شيده الانسان (ومع ذلك ترانا نزدري بتلك الامة الوثنية العظيمة)

اكبر جسر حديدي في العالم هو ذلك الجسر الذي يقطع (فرث تاي) في (سكوتلاندا) طوله ١٨٩١٢ قدماً ٠ واكبر جسر خشبي في العالم هو ذلك الجسر الذي يقطع بحيرة (بونشارتين) عَلَى مقربة من نيواورلين ٠ طوله ٢١ ميلاً واعلَى جسر في الولايات المتحدة هو المبني فوق نهر (كينزينا) عَلَى مقربة من (برادفورد) بنسلفانيا بني سنة ١٨٨٢

(٣) مركبة سكة حديدية (٤) ١٦ قنطاراً

اكبر ثور في العالم هو في (فيلادلفيا) (الولايات المتحدة) بلغ وزنه ٤٩٠٠ (بوند)(٥) واكبر بقرة بلغ وزنها ٣٢٩٦ بونداً .

اشهر واكبر واجمل بناية للعبادة في العالم هي كنيسة القديس بطرس في رومية . موقعها في شمالي غربي رومية وقد بنيت عَلَى هيئة الصليب اللاتيني . طولها ٦١٢ قدماً ونصف قدم وعلوها ٤٤٨ قدماً وعلو قبتها ١٥٢ قدماً ونصف وقطرها ١٦٣ قدماً اما وزن جرسها ما عدا المطرق او المطرقة فنحو ٣٧ قنطاراً وقد أُسست في سنة ١٤٥٠ للميلاد وعاش ومات فيها ٤٣ بابا .

اكبر بنيان شيدته يد الانسان عَلَى الغبراء هو هرم مصر مساحة قاعدته ٧٦٢ قدما وعلوه ٤٨٦ قدماً وهو يشغل ستة افدنة من الارض وقد قدر العارفون من المهندسين نفقاته بثلاثين مليون ليرة انكليزية وانه بني نحو سنة ٢١٧٠ قبل المسيح او في عهد ابرهيم الخليل وانه تقاضى نحو عشرين مليون قنطار من الاحجار النحيتة وان تلك الاحجار قد جلبت من مقلع عظيم من البلاد العربية على مسافة نحو سبع مئة ميل

اكبر وانفس قصر في العالم قصر اللورد (بيوث) في انكلترا يشغل فسحة من الارض قدرها ثلاثة افدنة . وقد بني عَلَى نسق بناء قدماء الغوطيين و يبلغ علوه مئة وعشرين قدماً وتقدر نفقاته بثمانية ملايين دولار

اكبر جسم مائي بارد في العالم هو بحيرة (سو بيرور) طولها ٤٠٠ ميل وعرضها ١٨٠ ميلاً ومساحتها ٣٢٠٠٠ الف ميل مربع وعمقها ١٢٠٠ قدم ومساحتها اكبر من مساحة (نيو انكلترا) وهي تعلو عن سطح البحر ٦٣٦ قدماً

اكبر آلة لنقل الآلات في العالم هي آلة شركة المركبات الكهربائية في (بولمان) عَلَى مقربة من شيكاغو (الولايات المتحدة) وقد اجتهد امبراطور برازيل ان يشتريها فلم يفلح . اما علوها فاربعون قدماً وقوتها توازي قوة ١٤٠٠ حصان ولها اسطوانتان طول كل منهما اربعون قيراطاً

اكبر قارب في العالم هو قارب (سولانا) المستخدم اليوم بين (بينيسيا) ومرفإ (كوستا) طوله ٤٦٠ قدماً وعرضه ١٦٦ قدماً وعمقه عشرون قدماً وله ثمانية مراجل من بولاد وثلاث دفات

(٥) عبارة عن ١٥٠ درهماً فيكون وزن الثور ٧٣٥٠٠ درهم او ١٠٢٠ رطلاً وكسور

أعلى بناية في العالم بعد برج (ايفل) وبناية مرصدواشنطن ودار البلدية في (فيلادلفيا) الولايات المتحدة هي بناية كنيسة (كولوغن) علوها ٥١١ قدماً وطولها كذلك وعرضها ٢٣١ قدماً . أسست في ١٥ آب سنة ١٢٤٨ وكمل بناؤها في ١٤ آب سنة ١٨٨٠ اي بعد اكثر من ٦٠٠ سنة من عهد وضع حجر زاويتها

كان الباحثون يظنون ان اعلى جبل على وجه البسيطة هو جبل (ايفرست) اما اليوم فقد بدا فساد ذلك الظن . فجبل (هيركولس) أعلى منه فهواي هيركولس يعلو عن سطح البحر ٣٢٧٦٣ قدماً ويعلو ايفرست عن سطح الاوقيانوس الهندي ٢٩٠٠٢ من الاقدام وقد اكتشفه القبطان (لاوسون) في سنة ١٨٨١ في جزيرة (بابوا نيوجونيا) .

اكبر ولاية في الولايات المتحدة هي تكسس وهي تحتوي على ٢٧٤٣٥٦ ميلاً من الارض الخصيبة وتسع عشر بن مليوناً من الناس ولا يحتشدون فيها بهذا العدد اكثر من احتشاد سكان اسكوتلاندا في الزمان الحاضر وقد تقدر انها تسع كل سكان الكرة الارضية وانه يصيب الواحد منهم اربعة اقدام من الارض

اطول انهار العالم هو نهر (ميسوري) في الولايات المتحدة . طوله ٤٣٠٠ ميل ويجري مساحة ١٧٢٦٠٠٠ من الاميال المربعة . واوسع نهر في العالم هو نهر (امازون) في برازيل طوله ٤٠٠٠ ميل ويجري ٢٣٣٠٠٠٠ من الاميال المربعة

اكبر ديوان للجمارك في العالم هو في (نيواورلينس) له ١١١ غرفة وعلوه من قاعدته الى قمة اطار عمودة ثمانون قدماً ومن قاعدته الى رأس قبته ١٨٧ قدماً ومساحة هذه وحدها ٤٩ قدماً مربعاً وعلوها ٦١ قدماً وذلك الديوان مبني من الرخام والاخشاب النفيسة ويقدرون اكلافه باربعة ملايين وتسعمائة دولار

اكبر نزل في الولايات المتحدة وربما في العالم هو نزل (بالاس) في سانفرنسيسكو كلفيرنيا وهو مؤلف من تسع طبقات وقد كلف ثلاثة ملايين دولار ونصف مليون دولار (واحترق في جملة ما احترق من القصور والدور الشاهقة في ١٨ نيسان سنة ١٩٠٥ وسبق ذكر ذلك في مقالة للعرب في حريق وزلزال سانفرنسيسكو نشرت في الجزء السابع من سنة المقتبس الاولى)

أجمل ملعب في العالم هو في باريس عاصمة الفرنسيس . وهو مبني من الحجر الناعم الصلد الجميل وارضه مرصوفة بالرخام وهو يشغل ستة افدنة من الارض . اما (لاسكالا)

من ميلان ففيها اكبر محل للجلوس · واما دار الخطابة في شيكاغو التي تم بناؤها في سنة ١٨٨٩ ففيها سبعة آلاف مقعد للجلوس

اكبر مجلد عرفه الانسان منذ الخليقة حتى اليوم هو كتاب الملكة فيكتوريا المنتقلة الى رحمة ربها في سنة ١٩٠١ وهو يتضمن التهاني التي وردت عليها بيوبيلها وبلغ سمكه ١٨ قيراطاً ويزن اكثر من عشرة ارطال

اكبر كاس للفحم الحجري في العالم هو في (ادوارد شفيل كوليرين) في بنسلفانيا الولايات المتحدة وهو يحضر من الفحم الحجري ما يملأ اربعمائة كاراً (مركبة) في كل عشر ساعات

أعظم علو بلغه المنطاد هو ٣٧٠٠٠ قدم او نحو سبعة اميال وكان ذلك في ٥ تشرين سنة ١٨٦٢ في «ولفرها فبتسن» في انكلترا

اطول سلك برقي مفرد في العالم استخدم لاجل رسالة برقية فقط هو في الهند · فقد مد فوق نهر كسينتوا بين «بزورا» «وسيكنوكروم» اما طوله فاكثر من ستة آلاف قدم وهو يمتد من قمة جبل الى قمة جبل آخر وعلو ذينك الجبلين نحو الفي قدم

اكبر تمثالين في العالم هما في يابان احدهما في «نارا» وعلوه ثلاثة وخمسون قدماً وتسعة قراريط وكان اول نصب أقيم في القرن الثامن عَلَى انه تهدم فيما بعد وجدد في سنة ١٢٢٣ واما الآخر فهو نصب «كامار كورا» وعلوه ٤٧ قدماً

«المعرب» اقول ومن هذا يظهر ان المغاربة الذين ما زال صغار العقول منهم وكثيرو الدعوى الفارغة بينهم يشمخون بانوفهم عَلَى المشارقة ويقولون في انحطاطهم وجهلهم كل كلمة عوراء ان الشرق سبقهم في نصب التماثيل بمئات السنين كما سبقهم بكثير مما يفاخروننا به في هذا العصر

اكبر منارة في العالم هي في «سدني» استراليا· فقوة نورها توازي قوة نور مئة وثمانين الف شمعة · وتشاهد تلك المنارة عَلَى مسافة خمسين ميلاً في البحر · وثاني منارة في العالم بكبرها وقوة نورها هي في باليس «اندوستراي» وقوة نورها توازي قوة نور مئة وخمسين الف شمعة · اما منارة «سان جوزف» كلفرينا فقوة نورها توازي قوة اربعة وعشرين الف شمعة · واول منارة أنشئت في العالم كانت في جزيرة «فاروس» القائمة عَلَى ثغر الاسكندرية

اكبر بلاطة رصفت في دار للسكن هي في دار وليم فاندربلت المثري الشهير في

مدينة نيويورك · وقد جلبت من قضاء « بايك » في بنسلفانيا(الولايات المتحدة) وكان نقلها لنيويورك تسعة آلاف ومئتي دولار اما اكلافها كلها فبلغت سبعة واربعين الف دولار ·

اعظم ملاك الاراضي في العالم هو « ولسن ودنهام » فله من الاراضي في المكسيك وغير المكسيك مليون ونصف مليون فدان « آكر » وكلها صالحة للزراعة

أعظم وزر « قلعة او حصن او معقل » للفنون الحربية هو وزر « غبرلتر »فهو يشغل صخراً ناتئاً خارج البحر طوله نحو ثلاثة اميال وعرضه ثلاثة ارباع ميل ويعلو عن سطح البحر ١٤٣٥ قدماً وجهته الشمالية عمودية في حين ان جهته الشرقية ملأى بالاخادير المرعبة · ويحده من الجنوب المكان المعروف برأس « يوربا » وتحدره في غربيه اقل منه في شرقيه و يفصل بينه وبين البحر مضيق وتلك القلعة من القلاع التي هزأت وتهزأ بحملات الجنود البواسل وقنابل مدافعهم الهائلة ويبلغ عدد الجنود فيها في زمن السلم سبعة آلاف جندي

اكبر كهف بحري في العالم هو في مقاطعة « ادمونسن كنتكي » في الولايات المتحدة وهو عَلَى مقربة من النهر الاخضر ونحو ستة اميال من مدينة « قاف » وثمانية وعشرين ميلاً من « بولن كرين »

اكبر جرس في العالم هو دير بودهست عَلَى مقربة من « قانتن » في الصين · علوه ثمانية عشر قدماً ومحيط دائرته خمسة واربعون قدماً وهو واحد من الثمانية الاجراس النحاسية العظيمة التي سكبت بامر الامبراطور « يانغ لو » في سنة ١٤٠٠ للمسيح وقد كلفت ثمانية نفوس في اثناء صبها وحفر عَلَى ذلك الجرس العظيم ثمانية واربعون حرفاً صينياً توءلف قصة صينية شهيرة

اكبر آلة لرفع المياه في العالم هي تلك المضخة « الطلبمة » المشهورة في « فردسفل بنسلفانيا » الولايات المتحدة · فهي ترفع في الدقيقة سبعة عشر الف وخمسمائة « غالون » « مكيال انكليزي يسع عشر ليبرات او ١٤٤٠ درهماً من الماء » اما قطر دواليبها ذات الدفع فهو خمسة وثلاثون قدماً ويزن كل منها مئة وستين قنطاراً وطول قضيب مجذافها اربعون قدماً وقطر اسطوانتها مئة وعشرة قراريط وقطر قبضتها ثمانية عشر قيراطاً

اكبر مدفع في الولايات المتحدة هو في معقل « هملتن » في مرفإ نيويورك العظمى · طوله ٢٤٣ قيراطاً · وقطره الاعلى ٦٤ قيراطاً وقطره الادنى ٣٤ قيراطاً وقطر ثقبه ١١

قيراطاً ويبلغ ما يحشى من البارود مئتي « بوند » وتزن قنبلته الفي « بوند »

اكبر مطرق بخاري في العالم هو لشركة المعمل الحديدي في بيت لحم (الولايات المتحدة) . فقوة ضربته او صدمته توازي ثقل خمسمائة قنطار وهذه المطرقة لاجل صنع السبائك الذهبية التي تزن الواحدة منها من اربعمائة الى ستمائة قنطار

اعظم مدينة شاهدها الانسان منذ عهد الخليقة حتى يوم الناس هذا هي مدينة لندن او عاصمة بريطانيا العظمى . فهي تشغل سبعمائة ميل من الارض وعدد سكانها نحو ستة ملايين نفس . منهم اكثر من مليونين من الاجانب من كل ناحية من نواحي الكرة الارضية المعمورة . وفيها من الكاثوليك الرومانيين اكثر من كاثوليك رومية ومن اليهود اكثر من يهود فلسطين ومن الايرلنديين اكثر من سكان « دوبلن في ايرلندا » ومن الاسكوتلنديين اكثر من سكان ايدنبرغ ومن اهالي ويلس اكثر من سكان « كاردف » ومن المزارعين اكثر من سكان اقضية ديفون وواروكشير ودورهام

وتلد فيها نفس كل خمس دقائق وتموت نفس في كل ثماني دقائق ويحدث يومياً اسبع حوادث في شوارعها التي تبلغ ثمانية آلاف ميل ومعدل كل من تلك الشوارع اربعون ميلاً ويبنى فيها خمسة عشر الف بيت سنوياً

والمعدل السنوي لزيادة السكان في لندن من طريق الولادة فقط هو ٩٠٠٠٠ نفس تجد في مرفإها يومياً ما يزيد عَلَى الف سفينة وعشرة آلاف ملاح . وفي لندن حوانيت للشروبات الروحية يبلغ طولها اذا بني كل منها الى جنب الآخر ثمانية وسبعين ميلاً . ويقف كل سنة امام دكة القضاء من سكيريها ثمانية وثلاثون الف سكير وتفتح ابواب الحوانيت فيها نهار الاحد عَلَى مسافة سبعين ميلاً

وللندن نفوذ بين في كل صقع من اصقاع العالم . ويوافيها من الرسائل سنوياً ٢٩٨٠٠٠٠٠٠ رسالة ويمر يومياً عَلَى منعطف «شافام» فيها خمسون قطاراً . ويسير في نفقها تحت الارض ١٢١١ قطاراً كل يوم . ويركب في مركبات شركة الحوافل « اومنيبوس » فيها كل سنة ستة وخمسون مليون راكب

والغريب ان الخطر في السير في شوارع لندن اكثر منه في السفر في القصر او السفائن البحرية بين نيويورك وليفربول — في سنة ١٨٨٦ قتلت المنقلات او المركبات ١٣٠ نفساً وتضرر ٢٠٠٠ في شوارع تلك العاصمة

اما عدد كل فرقة من رجال المحافظة في لندن وساقة المنقلات والعملة في ادارة

البريد فهو ٠٠ : ٥٠٠ ا ..

وتنفق لندن سنوياً عَلَى النور « الكاز » ثلاثة ملايين دولار · وعدد جرائدها اليومية والاسبوعية ٤٠٠ ·

اما تاريخ تأسيس لندن فيرجع الى سنة ٢٨٣٢ للعالم اي انه انقضى عَلَى اول بناية بنيت في لندن ٣٠١٥ علماً ومياه لندن نظيفة وصالحة للشرب ومعدل الموت فيها قليل جداً

« لنكلن نبراسكا » الولايات المتحدة · يوسف جرجس زخم

حقوق البشر

من المحال ان تأمن غوائل المستقبل ودوا في الزمان وتغلب الاشرار وتلاعب الفجار اذا لم نغرس في قلوب ابناء الامة محبة الوطن الحقيقية ونعرفهم حقوقهم وواجباتهم للهيئة الاجتماعية ونرقي شعورهم وعواطفهم بحيث ينطبعون عَلَى عزة النفس واباء الضيم وحرمة الفضيلة واحتقار الرذيلة · فيهجون بذلك عَلَى اهبة الدفاع عن مصلحة الامة والوطن دفاع البطل المستميت الذي يرى لثم شفار السيوف وشرب كأس الحتوف خيراً من الصبر عَلَى الذل والرضى بالعار واهتضام الحقوق ولا سبيل للوصول الى هذه الغاية الشريفة الا بالعلم والتربية · اريد بالعلم جماع العلوم الصحيحة التي بنيت قواعدها عَلَى البراهين القاطعة واريد بالتربية تهذيب الناشئة عَلَى مقتضى الحكمة والعقل تهذيباً ينسف صروح الخرافات والاباطيل نسفاً ويقذفها في اليم قذفاً · واول شيء ينبغي ان يجعل نصب اعين المصلحين تعليم الامة حقوقها المقدسة واخص بالذكر حقوقها الاجتماعية التي كانت مداسة بالاقدام بايدي الوف من الاعوام ·

شعار الانسان الحرية · وهي التخلص من قيود الاسر المادي والادبي · ولا يجوز ان يطلق انسان عَلَى من عدم هذه الحرية وكان في امكانه نيلها ·

الاسر الادبي اشد تأثيراً وامر فعلاً من الاسر المادي · وهو ان يكون الانسان تابعاً لآراء غيره مقلداً له في افكاره وحركاته تقليداً اعمى لا يميز الصحيح من الفاسد ولا يعرف الخبيث من الطيب ·· وما ابعد الحرية عن اناس اذا سمعوا منادياً ينادي في الاسواق تجمعوا حوله ونظروا اليه واذا تبع ذلك المنادي واحد منهم تبعوه جميعاً

وهم لا يدرون الى اين يذهب بهم ذلك المنادي أإلى ذرى جنات النعيم ام الى اسفل دركات الجحيم ...

وفي قصة (اعطه جمله) عبرة وذكرى تبين لنا معنى الاسر الادبي بياناً لا يدع مجالاً للشك والريب !

مالنا ولهذا الليس الجهل رقاً مؤبداً واسراً مخلداً .. واعظم مراتب الجهل جهل الانسان حقوقه الاجتماعية ومن كان في غفلة عنها فهو حيوان مسخر يستخدمه الآخرون بابخس الاثمان ... في عنقه حبل الاسر مشدود الوثاق وفي رجله قيد الذل والهوان

ثم ان من عرف حقوقه ولم يكن في جسمه دم حار يدفعه للذود عن حياضها عندما تمسها ايدي الظلمة الغشمة فهو دون مرتبة الحيوان ! .

ولا يقيم عَلَى ضيم يراد به الا الاذلان عير الحي والوتدُ
هذا عَلَى الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثي له احد

ما هي الحقوق المقدسة التي يجب عَلَى كل فرد معرفتها ؟

اليك سبعة عشر بنداً تتضمن حقوق البشر وابناء الوطن نظمها خمسة اعضاء من مجلس التأسيس الذي انعقد إبان الثورة الكبرى في فرنسا سنة ١٧٨٩ وقد تلاها امام المجلس الخطيب الطائر الصيت « ميرابو » في اليوم الثاني عشر من شهر آب وقوبلت بالقبول والاستحسان في اليوم السادس والعشرين من ذلك الشهر وهي الآن فاتحة دستور الحكومة الجمهورية في فرنسا . ومن تأملها يجدها وقد جمعت فاوعت من حقوق البشر وواجباتهم وما اجدر ابناء وطننا ان يحفظوها بالحرف ليعرفوا مكانهم من هذه الهيئة المبجلة وهاهي:

«١» يلد الانسان حراً و يظل حراً . والناس متساوون في الحقوق لا امتياز لاحد عَلَى الآخر الا بالاعمال التي تعود عَلَى المجتمع بالنفع الشامل والخير العام..

«٢» الغاية من كل اجتماع سياسي صيانة حقوق الانسان الطبيعية التي لا تسقط بمرور الايام وكرور الاعوام . وهذه الحقوق هي :

الحرية .

الملك .

الامان عَلَى النفس .

الدفاع عن النفس .

«٣» الامة اصل كل سلطة وسيادة .. فليس لفرد من الافراد او هيئة من الهيآت

استعمال سلطة لم تخوله اياها الامة

«٤» الحرية هي القدرة عَلَى اي عمل لا يضر بالغير ويسوغ لكل فرد من ابناء المجتمع التمتع التام بحقوقه الطبيعية التي تنتهي حدودها عندما تبتدئ حدود حقوق الآخرين وحدود الحقوق لا تتعين الا بنص القانون

«٥» ليس للقانون ان يحظر الا الافعال التي تضر بالهيئة الاجتماعية · كذلك لا يجوز لاحد من البشر مطلقاً ان يمنع امراً لم يحظره القانون كما انه لا ينبغي ان يجبر احد عَلَى عمل شيء لم يأمر به القانون

«٦» القانون مجموع ارادة الامة · ولكل فرد من ابناء الهيئة الاجتماعية الحق الصريح بالمشاركة في وضعه اما بالاصالة واما بارسال نائب عنه · ومن الواجب المتحتم ان يكون حكم القانون عاماً شاملاً سواء في القصاص والعقاب او الحفظ والحماية · وبما ان جميع الناس متساوون في نظر القانون فمن البديهي ان تفتح ابواب المناصب والمراتب وخدم الدولة العامة لابناء الوطن كافة عَلَى السواء كل بحسب استعداده وكفاءته لا يمتاز بعضهم عَلَى بعض الا بالفضيلة والدراية والمعرفة

«٧» لا يجوز بتاتاً تهمة احد او حبسه او توقيفه الا في الاحوال المعينة في القانون وعَلَى الطرق المصرح بها فيه

والذين ينفذون اوامر عرفية او يتوسطون في تنفيذها ينالون قسطهم من العقاب · · غير انه يجب عَلَى كل من يدعى باسم القانون تلبية الدعاء في الحال ومن يمتنع عن الاجابة يعد من المجرمين ·

«٨» لا ينبغي ان يوضع في القانون الا العقوبات الضرورية التي لا بد منها · ولا يجوز ان يعاقب احد الا بنص قانون قد سن ونشر وطبقت احكامه عَلَى الاصول قبل حدوث الجرم ·

«٩» الاصل براءة الذمة · فكل فرد من افراد الهيئة الاجتماعية يعد بريء الذمة الى ان يثبت جرمه · فاذا دعت الحاجة لألقاء القبض عَلَى احد قبل المحاكمة وثبوت الجرم فعلى القانون ان يمنع كل شدة وقسوة لا تفيدان في معرفة ذلك الرجل

«١٠» لا يؤاخذ احد اصلاً عن آرائه وافكاره ولو كانت فيما يتعلق بالامور المذهبية والمسائل الدينية · الا اذا كان التظاهر بمثل هذه الآراء والافكار يخل بالراحة العامة التي تكفل بها القانون ·

«١١» حرية بث الافكار والآراء من اجل حقوق الانسان واثمنها ، فلكل فرد من افراد المجتمع الحرية الكاملة بان يكتب ما يشاء و ينشر مايشاء و يتكلم عما يشاء

غير ان سوء استعمال هذه الحرية داع للسؤال والمؤاخذة عَلَى مقتضى الشروط المصرح بها في القانون . . .

«١٢» لا بد من قوة عامة (يريد بها الجند) لصيانة حقوق الناس وابناء الوطن وهــذه القوة معدة لحفظ منافع الامة جمعاء لا لحفظ منافع الذين انيطت بهم ادارة هذه القوة ! . . .

.. «١٣» لا غنى عن تكاليف عامة لادارة تلك القوة وتدبير شؤون الملك . ومن الواجب ان توزع هذه التكاليف عَلَى جميع ابناء الوطن كل بحسب قدرته واستطاعته

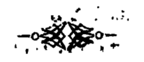
«١٤» يحق لابناء الوطن البحث في لزوم هذه التكاليف وتحقيقها اما بالاصالة او بالنيابة . ومن حقوقهم الاقرار عليها ومراقبة صرفها في وجوهها وتحديد مقاديرها ومدة دوامها وتعيين طرق جبايتها . . . .

«١٥» من حقوق الهيئة الاجتماعية مراقبة العمال ومناقشتهم الحساب فيما يأتونه من جميع الاعمال .

«١٦» اي هيئة اجتماعية لا تصان فيها حقوق الانسان ولم توزع فيها القوى العامة « التشريعية والعدلية والاجرائية » فليس لها دستور . . .

«١٧» . الملك حق جليل لا يقبل الغصب لذلك لا ينزع من احد ماله بتاتاً . واذا مست المصلحة العامة لاستملاك بعض الاملاك فمن الواجب ان تكون ضرورية و يعطى ثمنها لصاحبها .

. سروج . . عبد الوهاب .



مصالح الابدان والانفس

تابع ما في الجزء الماضي

القول في الشراب

الطعام عامته جسم ارضي يحتاج الى ما يرقق اجزاءه ويهيئه للقوة الهاضمة وحقيقة الشراب هو الشيء الذي اذا طبخ صار جميعه بخاراً بلا ثقل كالماء فاما ما يبقى له ثقل او ينعقد منه شيء اذا طبخ فهو بالطعام اشبه واوفق الاشربة التي يكثر استعمالها السكنجبين العسلي لان فيه قوى العسل والخل ، ولها الجلاء والتحليل ، وعلى هذين المعنيين مدار افضل المعالجات فان الاشياء التي تحفظ الاجسام وتمنع من العفونة والفساد هي الخل والعسل والملح والصبر فقد اجتمع في السكنجبين شيئان من هذه الاربعة

القول في المشمومات

كما ان الماء ليس يغذو بنفسه ، وانما هو مركب للغذاء كذلك الهواء لا يغذو الا بما يستصحبه من الرائحة الطيبة وكذلك وقع المشموم في باب حفظ الصحة ويجب للحكيم ان لا يترك الانتفاع بالروائح الأرجة وان يجعل استعمالها غباً لان للمشمومات قوى مفرطة في الحرارة والبرودة فربما ضرت مداومتها فلأن حاسة الشم اذا انغمست في الروائح الطيبة كلت عنها وفترت لذتها منها كالعطارين والدباغين في القيدين ولا يدني المشمومات الى انفه ادناء كثيراً لغلبة الكيفيات بل يبخر له المجلس وثيابه ويجمع من المشمومات رطبة كانت او يابسة طبائع مختلفة لتكون اقرب الى الاعتدال واعون على الاستكثار فان التركيب الذي ما استعمل في الاطعمة وانفع ما استعمل في الادوية كالأيارجات ونحوها

القول في النوم

من كان ارطب بدناً كان النوم عليه اغلب والمشايخ اكثر نوماً الا ان رطوبتهم ليست اصلية فيضعف لذلك نومهم واضطرب وهو من الاقوات الطبيعية الا ان الاكثار منه يرخي البدن ويهيج الوجه ويكل الحواس ويملأ الاعضاء فضولاً ويفتر الحركات وربما كان سبباً لعفونة الاخلاط واضعاف الحفظ والفهم والذكاء ، والحاجة اليه في الصيف

اكثر لغلبة الحرارة واليبس فيه ولطول نهاره وكثرة التعب بحركات اليقظة فيه وهو في الربيع مستلذ وفي الصيف علاج ويجب ان لا يلحق المرء نصف الليل الا وهو نائم فهو حقيقة الليل واستحكام الظلام وان امتد به السهر فلينم في السحر وقبل طلوع الفجر فان اتصال اليقظة ليلاً ونهاراً ليس بصالح والنوم في اول النهار خطأ لانه وقت الانتشار وحركة الحيوان فالنوم فيه تنكيس للامور الطبيعية عن جهاتها وكذلك آخر النهار، لانه ينقص نوم الليل ويفسده والليل افضل الاوقات للنوم ويحمد النوم عند الغم والخوف لانه يقلل الحرارة التي يهيجانها، وتقدير زمان نوم الحكيم، الثلث من جميع ساعات الليل والنهار ولا يلزم شكلاً واحداً في النوم فربما اضطر الى غيره ولا يوقظ الانسان بازعاج فان نفسه تتموج واعضاءه تسترخي عند نومه، فكل شيء من الافعال الطبيعية فيجب ان يكون الانتقال منه الى ضده بتدريج وترتيب وليكن النوم بالليل عَلَى فراش وثير والجلوس بالنهار عَلَى مقعد وطيء

فصل في الباه

ينبغي تجنبه في حالي الخواء والامتلاء وحال الامتلاء اسلم، وفي حال الغم والحزن وان تكون التي تواقع محركة النفس بنشاط او غضب فان ذلك يوجب ذكاء المولود وليجتنب مجامعة العليلة والفاترة النفس والمسترخية البدن والمغلوبة بالنوم فان ذلك يوجب بلادة المولود ..

القول في الحمام

وهو من اشرف مرافق الابدان ومعاون الصحة لانه يجمع الماء الحار، والهواء الحار فيفتح المسام ويخرج الرطوبة الفجة المتولدة عن فضول الاغذية التي مقامها في البدن مؤدٍ الى العلل والاسقام وهو يجمع الى نقاء البدن من داخل نقاءه من خارج وتنظيفه من الادران وفيه لذة نفسانية لان النفس مجبولة عَلَى حب الزينة والنظافة وكلما كانت الطف كان هذا الطبع عليها أغلب، ففيه لذتان للنفس والجسم، واكثر نفعه لاصحاب الابدان المتخلخلة، وربما ضر اصحاب الابدان المستحصفة لانه يثير الابخرة ثم يمنع الاستحصاف من خروجها الا باطالة مكثٍ في الحمام يحل القوة ويكرب ويضعف ويجب اجتنابه في الصيف او تقليل اللبث فيه جداً واصلح الاوقات له الغداة لانه بعد ثقل النوم وبرده ورطوبته، وليجتنب عَلَى الامتلاء فانه يثور ما في المعدة والجسم محتاج الى التسكين في

ذلك الوقت ليتم هضمه وربما احدث ضرراً عظيماً ، ويهجر بعقب الجماع والتعب والاستفراغ وهيجان الاعراض النفسانية ولا يستعمل الغذاء بعد الخروج منه ولا الركوب والتعب الا بعد راحة او نومة لانه يثور الاخلاط . فتحريك البدن قبل ان تستقر طبيعته قرارها ضار مخوف العاقبة ، ويجب استعماله غباً فانه ادوم للذمة واعدل لنفعه

القول في الحركات الرياضية

الرياضة من اشرف العلاجات وقد نرى اصناف الحيوان تستعملها وتختلف في الطيران والمشي غير طالبة لشيء من مأكل او مشرب غير الحركة فقط . وقد ترى الماء الجاري بعيداً من الفساد . والراكد كثير العفونة ولذلك صار المترفون يدفعون الى امراض مزمنة كالنقرس وغيره ، والانسان خلق خلقاً متحركاً مشاء بالطبع فاذا عطل نفسه مما خلق له اداه ذلك الى المرض ولا يسرف في الحركة فان افراطها اسرع في توليد الامراض ، والملوك احوج الى الرياضة من العوام لكثرة تودعهم ولاختلاف الاطعمة والاشربة عليهم ، فاما العوام والسوقة فهم في رياضة دائمة ، وافضل الحركات حركة المشي وحركة الركوب دونها ويجب ان يحرك البدن عَلَى الدابة ، ومن الحكمة ان ينزع الانسان في القوس الشديدة نزعات كل غدوة ونعم الرياضة لاهلها اللعب بالصوالجة ويجب ان يبدأ الانسان بالرياضة ثم الاستحمام ثم السكون ثم الاكل ثم النوم ثم الشرب ، ومن لم يتهيأ له المشي والركوب ، فالكلام والمحادثة فقد قيل ان الكلام الكثير يهزل البدن ومن اجل ذلك يؤمر صاحب المرض الحاد بالاقلال منه ، ولتجنب الحركة بعد الغذاء وفي وقت اشتداد الحر لان غلبة الحر تحال القوة الغريزية

القول في التغميز

هذا احد المعاون في حفظ الصحة ولا سيما بعد التعب والحركة والخروج من الحمام ومن الدليل عَلَى الانتفاع بالتغميز واخراجه الابخرة وتفتيحه المسام استدعاء الطبيعة الحل لابراز البخار الذي يحتقن داخل المسام واستعمالها التمطي والتثاؤب لذلك ولا سيما عند حركة الحمى وامتلاء البدن من الفضول والترخ لمثل ذلك لا يكون التغميز بخرق بل برفق ولا في حال امتلاء

القول في السماع

يجب ان يميل الملك من السماع الى ما يوقر ويرزن دون ما يخفف لئلا تقع الابصار منه عَلَى ما ينقص الهيبة وان مالت نفسه الى ذلك كان في حال خلوة

القول في الادوية

الادوية كلها مضادة للطباع والقوة تجاهدها فلذلك يجد البدن بعد الاستفراغ ما يجده المستريح من التعب ، وفعلها في الابدان اذا كثرت كفعل الصابون ينقي ويخلق وهي ان وافقت فضلة اخرجتها والا اخرجت الرطوبة الغريزية فكان ضررها بذلك عظيماً والابدان المستحصفة التي لا يسهل خروج الابخرة منها احوج الابدان الى المداواة ....

فصل في الحرارة

لا تجوز المداواة في صميم الحر لان الغريزية تضعف في عمق البدن وتبرز الى ظاهره فلا يجوز ان يجمع عليه الضعف من هذا الوجه . والضعف بالاسهال والحرارة اذا ثبتت في ظاهر البدن جذبت الاخلاط الى خارج . والدواء يجذبها الى داخل فتجري بينهما ممانعة وتتعب الطبيعة ولا يؤمن معها مضرة شديدة ولا في صميم البرد لان الاخلاط جامدة عسرة الحركة فربما كان في مجاذبة الادوية لها سحج واضرار بالآت الغذاء

فصل في العلاج

يجب ان يكون العلاج بما يدخل في باب الغذاء اكثر منه بما يدخل في باب الدواء لان الغذاء شكل ، والدواء ضد . وان يختار الاسلم منهما وان كان نفعه اقل ، فتدارك التقصير اهون من تدارك الافراط وتدارك الحمية قبل الدواء بيومين او ثلاثة ويجتنب اللحم لانه يملأ الاوعية وغيره مما يولد السدد والحامض لانه يخشن . فربما احدث الدواء بعده سحجاً بل تستعمل قبله الاغذية الخفيفة الدسمة الخفيفة لتجلو المجاري وتسلسلها ويشيع الدواء بحمية ايام لتثوب الى البدن قوته ويجتنب بعده التخليط فان الشيء الضار على النقاء .... النقاء اشد ضرراً

فصل في اخراج الدم

يحسب الانتفاع باخراج ما له كيفية رديئة من الدم يكون الاستضرار باخراج النقي الجوهر منه واذا بثيع في جوف العزوق لم يشف الا اخراجه بالفصد واذا كان في خارج العزوق نفعت منه الحجامة والصبي والشيخ يضعفان عن الفصد والاكحل عام النفع لجميع البدن والقيفال لاعلاه والباسليق لاسفله ويجب اخراج الدم على ثلاثة وجوه اما

غلبة الكمية بغير كيفية فاسدة وعلامته ثقل البدن وحكة ليس لها لذع شديد او لفساد الكيفية بغير كمية فيكون مثل الماء الذي يغلي عَلَى النار ، وعلامته حرقة الجسد و يثور لذاعه او تغلب فيه الكيفية والكمية فتمكن منه العفونة والاستحالة وعلامته مجاوزة الاعراض التي ذكرناها الى توليد الامراض ٠ والحمايات والاورام ، والصنف الثاني يخرج منه القليل وربما اغنى فيه التسكين والاول اكثر والثالث يخرج منه كل ما تحمله القوة ويقدم الفصد قبل الدواء لان الاخلاط الاخر متشبثة بالدم فربما اغنى اخراجه عن المسهل وليكن الاقدام عليه وقت استحكام قوة البدن ويمتنع بعد الفصد من الاغذية التي تولد السدد والكيموس الرديء كالبقول والفواكه ويجتنب عَلَى حال خواء اوامتلاء او خمار او جماع او تحرك بعض الاعراض النفسانية

القول في حفظ صحة الانفس

ينبغي للعاقل ان يشعر نفسه ان الدنيا مبنية عَلَى الشوائب والتكدير فلا يطلب منها ما ليس في طبيعتها ويستعمل التغافل وترك الاستقصاء ويروض نفسه عَلَى احتمال صغير ما يضجر فانه تمرين عَلَى احتمال الكثير ومن التدبير البليغ ان يعرف الانسان وزن نفسه ومبلغ استقلاله وقوة قلبه فيكون ما يخاطر في طلبه ويغرر له من مآربه بحسب احتماله فان راحة القلب وطمانينته مع الاقلال خير من ضده مع ضده والانسان يقبل من غيره اكثر مما يقبل من نفسه ولذلك يجب ان يكون مع الملك طبيب لاخلاقه كطبيب الجسم يذكره ويعظه في اوقات الخوف والغضب

فصل آخر في الخوف

الخوف هو ابعد واسهل والفزع لما هواقرب او اشد فلذلك كان الخوف مقدمة للفزع والجزع اشد الحزن فهو من الحزن كالفزع من الخوف

فصل في الغضب

ينبغي للعاقل ان لا يفارقه من قد اطلق له وعظه وتذكيره في اول اهتياج الغضب عليه وان يتصور ان الغضب كالنار اولها سريع الاطفاء وآخرها كثير الضرر فليقصد لقمع غضبه من اوله كما يكبح الفرس في اول جماحه وليتذكر فضيلة الحكم وشرف الكظم وما حازه الحلماء من حسن الذكر ويفكر في ان شدة الانتقام وسرعة المؤاخذة تنفر قلوب الخدم وتكسب الاحقاد والضغائن وتفسد طاعة المحبة وتنقلها الى طاعة الرهبة والذين

يطيعون الرئيس بالمحبة حراسه من حيث يعلم (ولا يعلم) والذين يطيعونه بالرهبة يحتاج الى الاحتراس منهم وما احسن قول بعض الملوك (ما غضبي عَلَى من املك ولاغضبي عَلَى من لا املك) ويجب ان يفكر في انه لا يكاد يعاقب الا عَلَى ما فيه جنس منه ومن عاقب عَلَى ما يأتي مثله او بعضه فليس بمنصف ويذكر نفسه حرمات المغضوب عليه ووسائله او ما يرجو من مستأنف خدمته وما يستخلصه الحلم من طاعته ومناصحته ويجب ان لا يقع بصره عَلَى من اغضبه الى ان يسكن غضبه

فصل في الخوف والفزع

ليس شيء يخاف منه الانسان كخوفه عَلَى نفسه من التلف والالم ومنه شيء يكون عَلَى البديهة لرقة الطبع وسرعة استحالة النفس وهذا لا حيلة في دوائه ويجب ان يفكر الخائف في قولهم اكثر الروع باطله فان الحكماء شبهت الامور المخوفة بالضباب الذي يتولد عَلَى وجه الارض فيتخيل الانسان من بعد انه جسم كثيف ليس فيه متنفس ولا عمل للبصر فاذا افضى اليه وجده شبيهاً للهواء الذي فارقه وشدة الخوف ربما اذهل عن الحيلة للخلاص مما يخاف فيكون الخوف داعية ما يخافه الانسان والعاقل لا يستجيز مثل هذه الحال ويجب ان يفكر في ان الخوف والجزع من خور النفس وانهما خاصة للصبيان والنساء فيغضب عَلَى نفسه من ان لا يكون فيها من الجلادة والصرامة ما ينفي هذا العار عنه فليس شيء ابلغ في التشجيع من قوة الانفة · ويفكر في ان الخوف فعل الغر الذي لا يعرف حقائق الاشياء ولذلك خوف الصبي اكثر وخوف من لم يشاهد الحروب والقتلى اوفر ولو قد تحقق الصبي من حال الاشخاص التي يفزع بها ما تحققه البالغ العالم لما خافها وقل اكتراثه لها وخوف الصبي والجاهل كخوف الطير من الشبح الذي ينصب لها عَلَى الزرع ولو تحققت كيفيته لاقدمت عليه وكنفار الخيل من الاشخاص التي لم يألفها حتى تؤنس بها فابلغ الادوية في ازالة الخوف الاستكثار من العلم والمعرفة بحقائق الاشياء وتعويد حاسة السمع والبصر ملابسة ما يهول ويجب ان يخرج اولاد الملوك الى معارك الحروب لتهون عليهم الاهوال فان الاطباء الذين يباشرون الكيّ والبط والملاحين الذين قد تمرنوا عَلَى الرياح العواصف والامواج العظائم يقل ارتياعهم لما يشاهدون من ذلك ولذلك يرتاع الانسان للمرض اول ما يناله ثم ينوبه دفعات فيألفه فيقل استيحاشه منه والجاهل تروعه الكسوفات والعالم العارف باسبابها وحسابها قليل الارتياع منها وهذا مثل لغيره

فصل في الحزن والجزع

الجزع اشد الحزن وهو كالنار الملتهبة والحزن كالجمر الباقي بعد سكون اللهب وكأن نفس الانسان التي هي نور بدنه وضياء جسده في حال الغم والحزن . شمس كسفت وهو يفعل ضد المسرة فان وجه المسرور مستبشر بهي مشرق والحزن لفوت محبوب كما ان الخوف توقع مكروه والحزن ابداً لما مضى والخوف لما يستقبل والحزن المجهول السبب يرجع الى الاعراض البدنية وتولده عن كدر الدم او برده ومن ادويته النفسانية احداث السرور بالمحادثة والمؤانسة وينبغي للمحزون ان يتذكر ما بقي له من قنيته (؟) فان ذلك يسليه عن المفقود . تصور كثرة الاسى له ففي ذلك سلوة ويتصور ان الحزن يبلى كل يوم وينقص فان التفكر في ارتفاع المكروه ونقصانه يعقب سروراً عاجلاً .

القول في الوسواس

هذا منه جنس من قبل الطبع وما يقع في المواد وهو الزم واسلم من الغريب الطاري والوسواس على نوعين نوع فيما يرجى ونوع فيما يخشى فالذي يرجى كالمستهتر بمعشوقه فلا يعرف غير صياغة الاماني فيه والاشتغال عن اكثر اعماله به . والذي يكون فيما يخشى فانه يوهم الانسان الشيء يخافه وهو بعيد عنه مقام القريب منه . فلا يزال نصب وهمه فكأنه يلاحظه ومتى اراد الاشتغال بغيره طفرت نفسه اليه . ومن شأن من هذه حاله انه اذا عرض له امر من الامور يمكن ان يتصرف على وجهين لم يذهب وهمه الا الى ما هو اصعب واخوف دون ما هو اسهل وارجى ومن الاعوان على ازالة هذه الافكار ترك الانفراد فان الوحدة تهيج الفكر لا سيما اذا كانت النفس ذكية رقيقة الطبع . وانما تحمد الوحدة لذي سلطان يخلو بالفكر في تدبيره او لعالم يخلو باستنباط حكمة او لناسك ينفرد بمناجاة ربه وما خلا هذه الوجوه من ابواب التفرد مذموم . وعلى ان الله عز وجل خلق الانسان يحب الأنس والاجتماع مع اهل جنسه فليس يسد ذاك عن هذا الطبع الا من عرض له نقص في طباع الانسانية ومناسبة السباع وهو خلق موجود في الحيوان الذي طبعه افضل واسكن كبهائم الانعام والطير وضده موجود في السباع من الصنفين ولذلك قيل ان الواحد شيطان ويجتنب الفراغ كتجنبه الوحدة ويصرف الفاضل من اوقات زمانه عن شغله الى قضاء اوطاره من اللذات والسماع المحرك لقوى النفس والنظر الى

الصور الجميلة والاستجداد منها ليكون اشغل لقلبه واغلب عَلَى فكره والآن من طباع صاحب هذا العرض ان يكون ملولاً ومما يستعان به على صرف هذا الفكر الجليس الذي يثق به ليعرفه بطلان ما يتخيل له من الفكر الرديئة واذا علم من نفسه ان هذا خلق وقع له بالطبع الاقدم والمزاج الاول كان اخف امثالته واقل الاشتغال بامره به ومما يزيل كثيراً من الاستشعار التعويل عَلَى صناعة النجوم وما تشهد به من السلامة فانها صناعة شريفة قد استعملتها الامم المتباعدة البلاد واتفقوا مع اختلاف ديارهم عَلَى صحة اصولها وتجربة فروعها فلا يجوز ان يكون اتفاقهم عليها باطلاً بل عن وحي لا يكذب او الهام لا يبطل ويجب ان يفكر في ان الله عز وجل لما اراد عمارة الدنيا جعل اسباب العطب ودواعي البقاء والنجاة اقوى من دواعي الانحلال والبوار وهذا امر موجود بالمشاهدة فانا نرى ذوي السلامة اكثر من ذوي العاهات والزمانة · فيكون هذا الفكر اميل به عن الخوف الى الرجاء وبالله التوفيق وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله عَلَى سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم اه

نكارتر[1]

الماسة المفقودة

كان نكارتر البوليس السري المشهور عند وقوع هذه الحادثة في مدينة دانفر من مقاطعة كولورادو · وقد دعاه اليها عمل مهم انجزه فملأت الجرائد المحلية اعمدتها بذكر نكارتر واعماله الغريبة ودار اسمه عَلَى الالسنة وتناقلته الافواه

وحين انهى طعام الغذاء في احد الايام جلس في الغرفة مع معاونه باتسي واذا بخادم الفندق اقبل عليه وسلمه رقعة زيارة قال له ان صاحبها يود ان يكلمه في الحال فأخذها البوليس وقرأ عليها اسم فيليب دلمار بصوت منخفض ثم التفت الى معاونه باتسي وسأله هل سمعت بهذا الاسم قبلاً · فابدى باتسي اشارة النفي · فتبسم نكارتر وقال اذن فلنغتنم هذه الفرصة للتعرف الى هذا الرجل وقال للخادم ادخله لنرى ·

وبعد هنيهة اقبل الزائر وهو ربعة في الرجال قد لوحت وجهه اشعة الشمس وكانت حركاته العنيفة تدل عَلَى انه عرضة لاضطراب وانفعال شديد حتى انه لم يفتكر بتحية البوليس عند الوصول بل صرخ قائلاً : يجب ان استعيد ماستي المفقودة المدعوة (عين الشيطان)

فاجابه نكارتر · — ذلك مما لا ريب فيه

فقال باتسي ممتعضاً — حسناً يفعل هذا الرجل إذا تكلم عن الشيطان ذاته

ولكن الغريب استتبع الكلام وقال يا للغرابة أليس من العجب ان افقد عين الشيطان ماستي الثمينة · فقال البوليس بتأن حسناً ولكن اسمح لي اولاً ان اقدم لك نفسي فانا نقولا كارتر من نيويورك

فعض الزائر عَلَى شفته ثم قال :

وانا فيليب دلمار · واذا كنت لم اقم بالواجبات فأرجوك مغفرة لانني اضعت صوابي حين فقدت ماستي العزيزة التي لا يقع عليها ثمن ·

---

(١) معربة عن الافرنسية بقلم جرجي افندي حداد

فقاطعه نكارتر قائلاً : تفضل واجلس ثم قص علينا قصتك بالسكينة التامة فاذا وجدت فيها ما يستحق العناية فانا رهين امرك

فجلس دلمار عَلَى المقعد الذي اشار اليه نكارتر ثم التى عَلَيّ بانسي نظر مستفهم وقال اظن ان هذا الشاب مساعدك

— نعم ومن اشد مساعديّ ذكاء ثم بعد ان تعارف الرجلان وتصافحا قال دلمار فلنعد الآن الى حديث الماسة واظن انه يهمك ان تعرف تاريخها قبل ان تدخل في ملكي

— لا حاجة لي بذلك فيكفيني ان اعرف منك كيف ومتى انتقلت هذه الماسة اليك

— انها دخلت في حوزتي منذ سنة تقريباً وكنت في تلك الاونة تاجراً في كلكتا فاتفق لي مرة انني انقذت حياة رجل برهمي له شرف أثيل وثروة جزيلة ودفعت عنه غائلة لصوص داهموه — ولست افتخر بشجاعتي — ولكني اقول اني لحسن الحظ كنت حاملاً مسدسي وانتم تعلمون ان السلاح الجيد يفعل ما لا تفعله البسالة

— ذلك مشهور ولكنه يتوقف عَلَى الساعد الذي يدير السلاح

انني اجيب عَلَى هذا — وانا بريء من التبجح — انني استعملته بمهارة فائقة . فان اثني عشر لصاً هاجموا البرهمي في ضواحي المدينة ولم يكن هناك سواي فبادرت الى نجدته مع اني لم اكن اعرفه قبلاً ولم احتج في انقاذه الى شجاعة فائقة بل كفى لذلك ان اطلق النار ذات اليمين وذات اليسار وان اعيد حشو مسدسي باسرع ما يمكن فصرعت رجلاً بكل طلق ولا استحق الاعجاب بهذا فان اللصوص كانوا قريبين مني حتى لم يمكنني ان اخطئهم فقتلت خمسة منهم ومات السادس اثناء نقله الى المستشفى وفر الباقون هاربين

فابتسم نكارتر وقال له إذن فانا لا اوثر ان انازعك ما دام مسدسك في يدك لانك تبلغ به ما تريد

— دعنا من هذا فلو كان لي جرأة ان استخدم مسدسي منذ ثمانية ايام مارأيتني اليوم آتياً لازعجك لانني كنت اوقفت كقاتل . ولنرجع الآن الى تتمة الحديث ففي اليوم الذي تلا الواقعة اتاني البرهمي الى مخزني وكان يريد ان يقدم لي هدية دليلاً عَلَى شكره فاعطاني علبة صغيرة وقال لي ان ضمنها الماسة المعروفة في الهند بعين الشيطان ثم قال لي ان هذه الماسة ذات قيمة لا تقدر يا صاحبي واشير عليك ان تبارح الهند بعد الآن فحياة الذي يملك هذه الماسة في خطر شديد لان جميع الطبقات في الهند تعرفها

وكثيراً ما اثارت المعارك الدموية في سبيل امتلاكها . ثم ذهب البرهمي وتركني ذاهلاً والصندوق في يدي وعندما فتحته وجدت فيه ماسة كبيرة الحجم جداً لم تقطع بعد وتكاد لا تعرف لها لوناً لشدة صفائها . وعندها لم ادرِ ماذا افعل ولما استشرت كبار الجوهريين في كلكتا واخبروني عن قيمتها الحقيقية تهت عجباً ولم تعد حياة تاجر في الهند تطيب لي فبعت مقتنياتي وعدت الى الولايات المتحدة آملاً بان اقطع الحجر وابيعه باغلى ما يتيسر لي

فسأله نكارتر وهل تقطن في كولورادو

— لا . انني لم اقطن في مدينة بعد لانني لم اترك الهند منذ اكثر من شهر وقد جئت من بوسطون الى كولورادو

قبل ان انزح الى الهند اقمت عدة سنوات في هذه البلدة عساني اوفق الى حشد ثروة فاتخذت اصدقاء كثيرين وفي هذه الاونة لم يسمح لي قلبي ان امر في مقاطعة كولورادو دون ان اذهب لزيارة اصدقائي القدماء

وحين نمي اليّ ان اثنين منهما يقطنان هذه المدينة القيت فيها عصا التسيار

وقد مضى عليّ هذا اسبوع وفي اليوم التالي من وصولي دعوت صديقيّ الى العشاء في الفندق فلبيا دعوتي وخصصت غرفة لنا فقط و.... إن هذه لصدفة عجيبة . اننا كنا جالسين في هذه الغرفة عينها ذلك اليوم المشؤوم

فقال البوليس ان الامر ذو شأن خطير . انك ولا ريب اريت الحجر الكريم الى اصدقائك

— نعم وآسفاه

— اذن فاخبرني بالتدقيق عن المدعوين الذين حضروا العشاء

— حباً وكرامة . كانت المنضدة « الطاولة » موضوعة في الزاوية حيث يجلس المسيو بانسي الآن . وكان الخادم قد وضعها اولاً في وسط الغرفة كما ترونها الساعة ولكنني نقلتها من موضعها لانه كان يمكن القاطنين في الجوار ان يروا كل ما نفعله لو بقيت المنضدة في محلها فغيرت وضعها وجلست قرب هذين الزرين اللذين تراهما في الحائط وانت تعلم ان احدهما لاستدعاء الخادم والآخر لانارة المصابيح الكهربائية واطفائها . هذا هو السبب الذي دعاني الى وضع المنضدة هنا قصصته عليك لانك تود ان تعرف كل ما جرى بالتفصيل وعندما وصل اصدقائي الثلاثة نهضنا الى المنضدة

فقاطعه نيكارتر وقال له هل كانوا ثلاثة انك لم تذكر لي حتى الان سوى اثنين منهما
— هذه هي الحقيقة ولكن واحداً منهما احضر معه شريكه الاعمى فجلست قرب الحائط حتى يسهل عليّ استدعاء الخادم بتحريك اللولب وجلس امامي كراب الرجل الاعمى وكان عن يميني شريكه ماتيو وعن يساري صديقي المدعو دونلسون
— ارجوك ان تعرفني باسماء اصدقائك الاولية
— فرانك ماتيو وجورج دونلسون اما كراب فاظن انه يدعى يوحنا
— فردد البوليس لفظة جورج دونلسون وهو يلتفت الى معاونه باتسي الذي كان الى جانبه ثم سأل دلمار ما هي صنعة هذا الرجل
— يقوم بمشاريع كثيرة يؤمل منها ان يكتشف مناجم غاز
— حسناً كنت ظننت انه هو هو وتراني مسروراً جداً لانني اسمع عنه شيئاً
فتعجب دلمار وسأل نكارتر قائلاً وهل كنت تعرفه قبلاً
كلا ولكنني اود كثيراً ان اتعرف اليه وسنتكلم عنه فيما بعد ٠٠٠٠ ارجوك الان ان تتم حديثك
والذي دفع نكارتر الى السؤال عن دونلسون هوان هذا الاخير كان له ضلع في كثير من الجرائم الفظيعة من قتل وسرقة بالتحريض والاغراء دون ان يعلم بها البوليس وكان هذا الداهية المحتال ينسل من وصمائها ولو علم بها البوليس لقادته الى السجن او الى الكرسي الكهربائي (آلة الاعدام)
وكان نكارتر وباتسي هما الوحيدان اللذان قدرا ان يكتشفا اسرار فعلته ٠ ولكنهما لم يكشفا امراً آملين ان يقبضا يوماً على الشرير ويدعا شكواهما عليه بالبراهين الجلية
ثم عاد دلمار واستانف حديثه فقال : وانتهى العشاء كما تنتهي الولائم في الفنادق عادة وبعد ان رفع الخدم المائدة وقدموا القهوه واللفائف « السكاير » وخرجوا اخرجت الماسة من جيبي ٠ فتناولتها الايدي والكل يعجبون بها وسمع كراب الاعمى ذلك واذ لم يكن قادراً ان يبصرها اراد ان يمسها عَلَى الاقل ٠ وبعد ان جسها وضعها بقربي عَلَى المنضدة اه اني اذكر كل حركة جرت عندئذ فقد نظرت كراب السكين يقلب وعاء السكر عند ما مد يده ليناولني الحجر الكريم وسمعت تنهده حين وضعه امامي ٠ وبقي عَلَى المنضدة هنيهة يسيرة سألني في اثنائها اصدقائي الف سؤال عن تاريخ هذا الحجر فلم اجد مانعاً من اخبارهم بكل ما جرى فقصصت عليهم كل ما اعرفه من تاريخ الماسة وكيف

اتصلت بي .. قصصت عليهم كل هذا باخلاص و بساطة شأن الاصدقاء

واخيراً فرغت الاقداح فضغطت عَلَى زر الجرس الكهربائي لاستدعي الخادم وكان في نيتي ان اقدم الى المدعوين قدحاً من الكونياك الفاخر . ومع هذا فلم اول اصدقائي ظهري تماماً لانني لم اشأ ان أحول نظري عن الماسة ولكن لنكد طالعي ضغطت عَلَى زر الكهربائية وللحال استولى عَلَى الغرفة ظلام دامس لم يستمر بضع ثوان اعدت في خلالها المجرى الكهربائي ولو قدر لي ان اعيش مئة سنة لم انس اليأس الذي اخذ بخناقي عندما القيت نظري عَلَى المنضدة فوجدت الماسة قد اختفت

وحين وصل دلمار الى هذا الحد من حديثه امر يده عَلَى جبهته وانقطع عن الكلام

فقال نكارتر لو لم تأت اليّ اليوم وتقص عليّ هذا الخبر لكنت اقول ان احد اصدقائك سرق الحجر

فقال دلمار هذا هو فكري بتمامه

فاجاب نكارتر نعم ولكنك إذ لم تفتشهم حالاً صار الواجب علينا ان نسلم ان اختفاء الماسة سر غامض

فسأل دلمار وكيف هذا انني لا افهم شيئاً

فقال نكارتر ان المسألة واضحة كل الوضوح وهو ان رجلاً يجيد استعمال المسدس مثلك كان من الواجب عليه ان لا يدع شيئاً ثميناً كهذا يفقد من دون ان يطلق طلقاً او ينبس ببنت شفة بل كان يفتش حالاً في الموضع الذي وضع فيه الحجر فان الحجارة الكريمة لا تسرق نفسها عَلَى ما اعلم

فقال دلمار انني اخبرتك انني حزين لانني لم اعمد الى المسدس فقد اخرجته من جيبي ولكنني لم اطلق النار . عَلَى ان الماسة اختفت كما قلت بطريقة غامضة خفية للغاية فانها لا تسرق نفسها كما قلت وبالتالي فلم اجد طريقة اوضح فيها هذا الابهام

— فاخبرني بالتفصيل والتدقيق عما اجريته عندما فقدت الماسة.

— إذن فاسمع اول ما وقعت الحاظي عَلَى ماثيو وكانت يده عَلَى شفتيه تنتزع السيكار الذي كان يدخنه دون انقطاع . وكانت مظاهر الدهش تعلوه فعزوت هذه المظاهر الى ما ناله من سرعة فقد الماسة وكانت يده اليمنى عَلَى المنضدة

وكان دونلسون يرسل اليّ لحظاً لم يسرني فاشتبهت به للحال ويعسر عليّ ان اصف هيئته وصفاً مدقيقاً ولكنني اذكر ما يلي : كانت عيناه موجهتين الى موضع الماسة تواً

وكانت يده اليسرى قابضة عَلَى المنشفة ومضطربة بفعل عصبي ويده اليمنى موضوعة عَلَى زجاجة خمر فارغة وكان جالساً عَلَى كرسيه في المؤخرة بعيداً جداً عن الطاولة . اما كراب الاعمى فكان عَلَى شفتيه كأس ماء وكانت عيناه متجهتين الى القدح ونظرت رماد سيكارته تتساقط عَلَى المنشفة بينا كان يشرب الماء . وكل هذا اذكره تماماً . ثم وضع القدح عَلَى المنضدة وكان فيه بقية ماء اضطربت ثواني قليلة ثم سكنت

— ان وصفك تام مدقق فلننظر الآن في شأن دونلسون وقد قلت لي انه كان بعيداً جداً عن المنضدة

— نعم وكانت نظراته تشف عما في صدره

— يظهر انه اغتنم فرصة الظلام فسرق الماسة اليس كذلك

كان ذلك كما تقول . وكان له هيئة تشبه هيئة الثعلب الذي سقط في فخ

— وهل كان جالساً على مقعده بدون اهتمام عندما اظلمت الغرفة

— اظن ذلك

ففكر البوليس لحظة ثم قال

يمكنني ان اتصور الآن كيف جرت الحوادث فان دونلسون نظر اختفاء الماسة

— لا لا قال دلمار وكان يتزايد اضطرابه العصبي انا لا اعتقد بهذا ولكنني اظن ان دنلسون هو السارق وهذا الشك يتزايد في خاطري فقال له نكارتر املك روعك فانك قد قصصت عليَّ الاخبار بدقة وتفصيل نادر فلا تشوش حديثك بالاضطراب . فلنفكر بكل هذه الشؤون ولنمعن النظر فيها بهدو وسكينة

فتضجر دلمار وقال سابذل جهدي لاتباع نصيحتك فماذا تريد ان اخبرك الآن

— اريد ان تخبرني ماذا قال اصدقاؤك عندما القيت الشبهة عَلَى احدهم وماذا صنعوا ليعينوك عَلَى اكتشاف السارق

— فقال دلمار انني نظرت الى دونلسون فوجدت الوانه متغيرة لانه لحظ انني اتهمه بالسرقه

فقال لي لا توجه اليَّ هذه النظرات يا دلمار

— انني لا احب هذا النوع من اللهو . قلت هذا بصوت اجش والقيت عليه نظرات لا تسر

ونظرت ايضاً الى مانيو ثم قلت

فلتعاد الي ماستي ان المسألة خطيرة اكثر من ان تجعل موضوعاً للهو والمزاح فالذي اخذ الماسة عليه ان يعيدها حالاً الى موضعها وفي هذه اللحظة دخل كراب في الحادثة وقال والدهشة بادية على وجهه ما هذا وماذا جرى —

فاوضحت له بكلمات قليلة ان ماستي فقدت في اللحظات القليلة التي استحوذ فيها الظلام على الغرفة وان احد اصدقائي قد سلبها وكان هذا الرجل لم يعلم الى تلك الساعة شيئاً من القضية حتى انه ربما لم يشعر بانطفاء النور فكان من الواجب عليّ ان اوضح الامر وعندئذ اخذ الثلاثة يتكلمون سوية

فقال كل من دونلسون وماتيو اني لم آخذها يا ديلمار بينما كان كراب يقول ان هذا النوع من المزاح مسيء جداً وانه شعر بما احاق بي من الكدر الشديد

ويمكنكم ان تتصوروا ما الم بقلبي من الاشجان . فلم يكن من الممكن ان تتصاعد الماسة في دخان السيكارات . كنا اربعة في الغرفة وإذ لا يحتمل ان اسرق نفسي كان من الضروري ان يكون السارق احد الثلاثة . ان فقدان الماسة اثر بي تأثيراً شديداً ولكن شعوري بان هذا العمل المعيب صدر من احد اصدقائي كان اشد ايلاماً لي .

ولما لم استفد شيئاً من ذلك نهضت ووضعت يدي على طرف المنضدة وقلت لاصحابي اصغوا اليّ واسمعوا جيداً انني افادي بكل شيء في سبيل استبقاء اصدقائي القدماء ولكنني مضطر ان اوضح لكم انه إذا لم تعد الماسة في عشر ثوان الى موضعها من المنضدة فانني عندئذ اعتبركم اعداء لي واعاملكم معاملة الاعداء

فلم يتحرك احد منهم

عشر ثوان لا تحسب شيئاً اليس كذلك يا مسيو كارتر ولكنني استطلتها كالدهر وحبست نفسي حتى انقضت المهلة المعينة وكنت قد وضعت ساعتي امامي ولاحظت عقربها وانا ارتعش بنوبة من الحمى

فقال ماتيو انا لا ادخل في دائرة هذا الوعيد ثم رمى لفافته ووضع يديه على صدره وقال ان هذا العمل الذي جرى لهو مكدر للغاية ولكنني أومل انك لا تعتقد انني قادر ان .....

فصرخ دونلسون وانا ايضاً بريء كل البراءة

وفي هذه الحالة بدأت بالكلام فقاطعني كراب الذي اثر بي اضطرابه وارتعاشه وقال: انني لست صديقاً قديماً لدلمار فإذا كان فقد ماسته كما يدعي فالاولى ان تقع التهمة عليّ

فقال ماتيو إذن يكون مجنونًا فكيف يمكنك ايها المسكين ان تسرق شيئًا وانت عَلَى ما انت عليه من العاهات والضعف

فقال الاعمى بلطف من الموكد انني لم اسرق الحجر الكريم ولكن دعوني مع هذا اتكلم انا عارف ان الشبهات يجب ان تقع عليَّ بالاكثر . كما كنت افعل لو كنت موضع دلمار ولهذا فانا ارجوه ان يفتشني

ثم نهض واقترب مني وهو يتلمس طرف المنضدة في مسيره

وكنت اراقب الاثنين الآخرين فلما وجدت انهما لم يتأثرا تلاشت صداقتي لها ومرت بخلم وزاد في نفسي الريب فقلت لهما : انا اعقل من ان اشك في هذا الاعمى او يخيل لي انه السارق ولكنني اذ رأيتكما لم تتأثرا ولم تتحركا فانا عازم ان اتبع مقالته بالحرف

فارتجف دانسون وظهر الغضب عَلَى وجهه وصرخ هل تريد ان تشك بي

فقلت له بلهجة الآمر اجلس في محلك وللحال سحبت مسدسي ووجهته اليه وانت تعلم يا مسيو كارتر انني بالمسدس ذاته قد هزمت لصوص كلكتا ولم انس طريقة استعماله بعد ثم ناديت دونلسون اياك والحراك والا فانت هالك لا محالة فسقط على كرسيه وتناول لفافة شعلها ولم يقل شيئًا ثم عرفت بعد ذلك انه لم يكن ناقلاً سلاحًا ناريا وكان ماتيو اعزل ايضًا ولكن كراب كان مسلحًا

فصاح نكارتر آه واي سلاح كان مع الاعمى ان هذا لغريب

— مسدسًا من اشهر المعامل

فظهرت على محيا البوليس امارات البغتة

— هذا غريب اليس كذلك وقد فكرت مليًا في معنى وجود المسدس في جيب هذا الاعمى فقال لي وهو يتبسم انه يصحب السلاح ليدافع عن نفسه اذا تعرض له احد وانه كثيراً ما يهزم عدوه باطلاق النار في الهواء . ثم وضع مسدسه على المنضدة وطلب مني ان افتش جيوبه كلها فاتممت ما طلبه بعد ان وضعت مسدسي على مقربة مني ليسهل عليَّ استعماله اذا هم احد الاثنين بنأمة ولكننا لم نصل الى هذا الحد

ولما لم اجد ماستي في جيوب الاعمى اعدت اليه بعض ثيابه التي كنت اخذتها ثم عاد الى موضعه وهو يستعين بالارتكاء على طرف المنضدة والتفتُّ الى دونيلسون وقلت له قد جاءت نوبتك فنهض وهو مصفر كالميت . حتى خيل لي انه لم يبق نقطة دم في عروقه وصرخ ان هذا لا يليق بي انني لم آخذ ماستك وانا لا اسمح لك ان تفتشني

فلم اجبه ولكنني رفعت مسدسي نحوه فتناول زجاجة فارغة من المائدة واراد أن يرميني بها . وكنت اسرع منه فاطلقت النار . فاصابت رصاصتي عنق الزجاجة ومرت بين اصابعه وهو الرمي الذي وجهت اليه الكرة فانكسرت الزجاجة وسقطت كسرها على المنضدة وقد اتممت بهذا الخطة التي رسمتها لنفسي فانني كنت ابغي ان ابين له انني قادر على قتله فاستمر دونلسون واقفاً عاجزاً ان ينزل ذراعيه وظل قابضاً على عنق الزجاجة باصابعه المتشنجة لان ضربتي كانت قد ارعبته وكان ماتيو قد نهض في هذه الاثناء فصحت به مكانك فلبث صاغراً وعاد الى مجلسه اما كراب فكان يدخن وهو رابط الجاش ساكن كانه لم يسمع شيئاً ثم قلت لدينلسون يجب عليك ان تذعن للتفتيش . وانصحك اذا كنت حريصاً على حياتك ان تنزع ثيابك دون تذمر ولا ممانعة فقد فرغ صبري وضاق صدري

وفي هذه اللحظة قرع الباب ففتحت وإذا بخادم الفندق جاء على صوت اطلاق الرصاص فقلت له ان مسدسي انطلق عرضاً ولم يسبب ادنى ضرر فعاد من حيث اتى واغلق الباب . فقلت لدينلسون بلهجة التهديد اما إذا انطلق عرضاً مرة ثانية فسيردي رجلا منكم

وكان من شأن النظرات التي ارسلتها الى دنلسون ان اقنعته بعزمي فاطاع الامر وبدأ بخلع ثيابه . وبالاختصار فانني جردته من ثيابه ولمست مجاسده بيدي وفتشت جيوبه بدقة ولكنني كدت اجن لما لم اجد شيئاً . وكان دينلسون يخشى ان تأخذني الحدة فتنطلق من يدي رصاصة تكون القاضية عليه

يقولون في المثل ان النتائج الجيدة تحصل في المرة الثالثة ولهذا اوعزت الى ماتيو ان جاء دورك لجرد ثيابك

وكان يشبه دونلسون بشدة تأثره ولكنه لم يجد مفراً من ذلك فتقدم الى وسط الغرفة وبدأ بنزع ثيابه

فوجدت جيوبه اخلى من جيوب دو نيلسون وعندئذ أخذني دوار شديد شعرت معه ان كل ما في الغرفة يتحرك ويضطرب واستلقيت على المقعد وقد خارت قواي ولحسن الحظ لم يشعر اصدقائي بما آلت اليه حالتي من الضعف والوهن . وقبل ان يبدأ دونلسون بالكلام كنت شفيت من هذا الدوار

فقال لي دونيلسون بصوت أبح ضع حداً لهذه الوقاحة . ها هنا مدعو لم تهنه بعد

لانك لم تبلغ درجة من القحة تأمره فيها بنزع ثيابه

وعندما اتم دونيلسون جملته نهض كراب وكان حتى الساعة جالساً عَلَى كرسيه بسكينة تامة يدخن سيكارة، فيتصاعد منها الدخان كما يتصاعد من مدخنة المعمل

فوضع لفافته ... وانني لا ازال اذكر كيف كان يمر بيده عَلَى المنضدة ليجد الدنفضة ولم يبد عليه اقل انزعاج ثم قال بصوت منخفض انا عالم ماذا يراد مني ولحسن الحظ ان ذلك سهل جداً عليَّ لانني اعمى

وحين قال هذه الكلمات بدأ بنزع ثيابه فآلمني هذا المنظر واخذتني الشفقة عَلَى ذلك المسكين وكنت مزمعاً ان امنعه من ذلك ولكن امارات الاستهزاء التي بدت عَلَى وجه دونيلسون وماتيو وافتكاري بالسرقة هيجا غضبي فغلى الدم في عروقي وعوضاً ان امانع كراب اوعزت اليه بالاسراع

وفي بضع دقائق كنت قد فتشت جميع اثوابه . ولكن جميع التنقيب الذي أجريته لم يجدني شيئاً وظلت الماسة مفقودة ويصعب عليَّ ان اقول انني كنت آمل ان اجدها مع كراب ولكنني انخذلت ثالثة

وفي هذه المرة سمعت صوت دونيلسون وهو يقول بلهجة كئيب :

والآن فانك قد اكتفيت من اهانتنا ففتش تحت المنضدة عساك ترى شيئاً

ولم يكن هذا الفكر قد خطر لي قبلاً . فشعرت بحمرة الخجل تعلو جبهتي واومض لي في ظلمات اليأس برق من الرجاء

وحين ارجعت المنضدة قليلاً كي لا تعيقني في عملي وانحنيت عَلَى البساط محدقاً فيه كنت افكر باي طريقة اعتذر لاصدقائي اذ كان من المحتمل ان اكون انا ذاتي قلبت الماسة عَلَى الارض حين التفت لاضغط الزر . ولكن يا للأسف فانني لم اكد ارسل نظرة الى ذلك البساط حتى تلاشى آخر رجاء ولم اقف للماسة عَلَى اثر

وعندما استفزني غضب شديد فاندفعت بحدة شديدة أبحث في جيوب هولاء الرجال الذين اعتبرتهم اصدقائي ودعوتهم ليقاسموني المسرة والصفاء . فذهب كل ما بذلته من الجهد ادراج الرياح ولم اظفر بضالتي

وهكذا فان ماستي الثمينة . الماسة التي كنت افتخر بها فقدت ولست ادري ماذا جرى بها

وحين بلغ هذا الحد من خطابه سكت قليلاً واخذ يمسح العرق البارد المتصبب على جبهته، ثم سقط على مقعده ذاهلاً وكان قد وقف حين استفزته الحدة اثناء الحديث

= فقال نكارتر انها لقصة عجيبة وانا اود ان اعلم كيف تنتهي فاشار دلمار برأسه وبعد ان تنهد تنهداً عميقاً عاد الى حديثه فقال : ولما وجدت ان بحثي ذاهب سدى استلقيت عَلَى مقعدي خلف المنضدة واذنت لهم بلبس ثيابهم

ولما ابصرت النظرات المخيفة التي كان يرشقني بها كل من دونلسون وماتيو احتطت لنفسي فجلست وراء المنضدة والمسدس في يدي اليمنى

وكنت الاحظ هولاء الرجال وهم يتشحون بأثوابهم . ولم يلفظوا كلمة واحدة لانهم عَلَى ما اظن لم يجدوا كلاماً يعبر عما في انفسهم من شدة الانفعال لاهانتي اياهم اذا كانوا حقيقة ابرياء

وانتهى بي اعمال الروية الى الافتكار ان واحداً منهما سلب الماسة بإسلوب خفي غامض ومهارة تامة حتى خفيت فعلته عن صديقه الآخر وعَلَى كل فقد وجدت من المناسب ان اسعى لاعادة الصلات الحبية التي كانت تضمنا حتى تلك الساعة فقلت لهم :

يا اصدقائي الاعزاء ان الحادثة التي جرت قد أدمت قلبي ولو علمتم عظم الخسارة التي حلت بي لصفحتم لي عن المعاملة القاسية التي حزنت لاجلها و...

فصرخ دونيلسون بغضب خفف عن نفسك مؤونة الاعتذار فلو جثوت امامي مئة سنة لم يكف ذلك لمحو الاهانة التي الحقتها بي . كل علاقة بيننا قد توترت منذ الآن وانقلب الحب بغضاً فاذا صادفتني في الشارع ومسدسي في جيبي فخذ الحذر

فالتفت عندئذ الى ماتيو وكان لونه متغيراً ولكنه كان هادئاً فقال لي « اما انا فلا اتهدد »

لم يقل غير ذلك ولكنني فهمت فكره تماماً وعرفت انه حقود لا يصفح لي عن الاهانة وانه اصبح عدواً هائلاً يخيفني اكثر من دنلسون فما زلت منذ تلك الساعة احاذر ان اوجد في طريقه

اما الاعمى المسكين الذي لم اعرفه قبلاً فكنت لا اعلم باي عبارة اعتذر اليه فجلست عَلَى المقعد ولم اهم بحركة حتى اكمل الثلاثة لباسهم وهموا بالخروج فقال دونيلسون وصوته يتهدج من الغضب : أتأذن لي الآن بالانصراف

اما ماتيو فلم يقل شيئاً بل كان ينتظر كراب الذي تأخر في الاكتساء لضعفه كي يقوده الى خارج الغرفة . ولما استعد تقدم اليّ ببطء وبخطوات متقلقلة فاراد ماتيو ان يقوده خارجاً ولكنه دفع الذراع التي مدها اليه صديقه وقال له :

انتظرني دقيقة ايضاً يا فرانك

ثم خاطبني قائلاً :

ان هذه الحادثة قد ازعجتنا جميعاً ولكنني لا احقد عليك لانني اقدر ان اتمثل حالة نفسك فانا مغتم غير انني ارجوك ان لا تظن بي سوءا

وهذه الكلمات التي لفظها ذلك المسكين اذابتني خجلاً لانني لم اكن مستحقاً هذا التلطف بعد ان عاملته بخشونة كما عاملة رفيقيه فاجبته

تأكد يا مسيو كراب انني كنت راغباً ان لا افتشك لولا اصرار دونلسون

فقال الاعمى لا شك عندي بذلك ومهما يكن من الامر فاني لا اطوي لك ضغينة في صدري

ثم مددنا يدينا وتصافحنا مصافحة الاخاء وبعد ان حييته واجاب تحيتي قال :

لي اليك كلمة ايضاً وبعدها اذهب : ان الحادثة التي جرت في هذه الليلة قد ضيقت صدري فادركني بقدح من الماء فلم استغرب هذا الطلب لان حلقي كان يلتهب من الظمأ فقلت له ان آنية الماء قد انكسرت فهل لك في قدح خمر او غيره من المشروبات

فقال شكراً لك اذ لا حاجة لي بذلك . ولكنك تجد بقية ماء في قدحي

فاخذت القدح وناولته اياه

فشكرني وهو يأخذ القدح وبعد ان شرب السؤر وضعه عَلَى المائدة وتأبط ذراع ماتيو وخرجا سوية من الفندق وكان ينوي ان يكلمني فوقف الكلام عَلَى شفتيه

ثم سقطت عَلَى مقعدي خائر القوى واحاقت بي ظلمات متراكبة من اليأس

وان الفكر الذي كان يدور في خلدي من ان السارق احد هؤلاء الثلاثة لم يبارحني لحظة . وكانت شبهاتي تقع عَلَى دونلسون ومع هذا فلم ار بداً من التسليم انه من المحتمل ان يكون الثلاثة شركاء في السرقة قد اتفقوا من قبل ان يلعبوا بي هذه اللعبة المشومة فقلت اذا كان الامر هكذا فانهم لا يلبثون بعد خروجهم من الفندق ان ينشقوا او يتنازعوا وللحال نهضت ومشيت عَلَى اطراف اصابعي دون ان احدث اقل صوت ومشيت في الرواق فادركت ماتيو وكراب في منتصف السلم وظلا صامتين لم يلفظا كلمة حتى بلغا الباب الخارجي . فعندئذ قال ماتيو لكراب

ها هنا عربة وساعينك عَلَى الصعود اليها واعين للسائق المحل الذي تروم ان تبلغه . واما انا فلا اود ان ادخل البيت حالاً لانني ما زلت متهيجاً جداً

فاجاب الاعمى حسناً انني اعرف ذلك ولكن اياك ان تأخذك الحدة والطيش بسبب هذه الحادثة اسمعت يا فرانك

فلم يجبه ماتيو

ثم نظرت كراب يصعد الى العربة وصديقه يري السائق الجهة التي يجب ان ينحوها فسارت العجلة من الوجهة المعينة وسار ماتيو في الجهة المعارضة حيث كان دونيلسون ينتظره على كثب

وبقي الرجلان اللذان لم يرياني صامتين بضع دقائق وأحدهما بجانب الاخر ثم شرعا بالكلام معاً وكانت جملهما واحدة تقريباً

= هل انت أخذت الماسة يا جورج (سأل ماتيو)

= هل انت اخذت الماسة يا ماتيو (سأل جورج)

ان صدور السؤالين في وقت واحد وبتركيب واحد تقريباً لم يغير شيئاً من جد الرجلين · وكان دونلسون اقل صبراً من رفيقه فاجاب قائلاً

أوكد لك انني لم آخذ الماسة

فقال ماتيو ولا انا ايضاً · وليس في وسعنا ان نقول ان كراب هو السارق لاننا اذا فرضنا انه هم بذلك فان عاهته تمنعه ذلك

فاجاب دونلسون وانا اسلم بذلك ولكن ما هي هذه اليد الخفية التي سرقت تلك الماسة الشيطانية

فقال ماتيو يظهر ان دلمار خولط في عقله فلا يبعد ان يكون وضع الماسة في جيبه واظن انه سيجدها بعد ان يملك روعه

فصرخ دونيلسون انني ادفع مئة ريال عن طيب خاطر اذا صح افتراضك ووجد هذا التعيس ماسته في جيبه

فسأله ماتيو أيسرك ذلك ولماذا

فاجابه دونيلسون الست تعرف لماذا ? قالها بلهجة تهديد مخيفة حتى انني ارتعشت رغم ارادتي

ثم تمم حديثه قائلاً : لانني بعد ان حدث ما حدث الليلة اريد ان اعرف موضع الماسة حتى احول ظنه الى حقيقة

فقال ماتيو هذا ما اقصده لاني اذا قدرت ان اغرمه جزاء العار الذي الصقه

بنا فانا لا اتاخر عن ذلك . فاتبعني الآن يا جورج لنروي ظمأنا الشديد

وعندئذ سار صديقاي القديمان وذراعهما ملتفتان احداهما على الاخرى

وانك ترى الآن يا مسيو كارتر انني قصصت عليك الحادثة بتفصيلها ولم اسقط حرفًا واحداً . وبذلت الجهد حتى لا ادع شيئًا دون ان اقصه عليك ولم اهمل امراً لم انبئك به ولو كان طفيفًا في الظاهر لانني اخشى ان يكون ذلك الامر مفتاح السر

وهنا سكت دلمار كمن انهى حديثه

فسأله نيكارتر قد مر علي هذه الحوادث اسبوع اليس كذلك ؟

= نعم

= وانا اظن انك لم تفتر عن السعي في خلال هذه المدة لاستجلاء الغامض

= انا .. كنت جننت لو لم ادأب في السعي

= إذن فقل لي ماذا صنعت

= انني ساشرح لك ذلك بحرية تامة فقد تدرجت في الشوارع بحالة تشبه الجنون وقد ظهر لي اذ، من الممكن ان اكون انا نفسي قد وضعت الماسة في جيب من جيوبي فعدت مسرعًا الى حيث تناولنا طعام العشاء . وابتدأت افتش نفسي بدقة لا مزيد عليها فقلبت جيوبي جميعها ومزقت بطانة اثوابي وعريت من كل لباسي حتى صرت في حالة جدينا الاولين . وان خجلي من قص ذلك عليك لا يوازي خجلي من إخفاق مساعيّ . فقد اختفت الماسة ولم اقف لها على اثر

ولم اكد اتمم لبس ثيابي حتى قرع الباب ففتحته وإذا بخدام الفندق قادمين ليرتبوا الغرفة وبينا كانوا يدأبون في عملهم كنت اراقبهم بمزيد الانتباه واقول من المحال ان لا يجدوا الماسة

ولما انجز الخدام عملهم ولم يجدوا شيئًا خرجت اتجول في الشوارع وظللت نحواً من ساعتين . وكان الوقت الساعة التاسعة ليلاً . ثم وقفت بغتة لارى الجهة التي اسلك فيها وتطلعت فاذا انا امام مركز البوليس فهممت بالدخول لاقص عليه الواقعة . وبعد ان فكرت بهذا علمت ان لا رجاء لي بمساعدة البوليس العادي في هذه المسألة الغامضة . اذ ليس في يدي برهان يؤكد حدوث السرقة . ان الماسة فقدت دون شك ولكن بعد البحث المدقق الذي اجريته لم اجد مجالاً لاتهام ضيوفي .

فاتممت نزهتي منفرداً وكان يأسي يزداد من حين الى آخر وكنت اعزي نفسي بان

فقدان الماسة لم يجعلني مملقاً فما زالت ثروتي في كلكتا ولكن هذه التعزية كانت تزول حين كنت افتكر انني خسرت بضياع الماسة نحواً من نصف مليون دولار . ولا سيما عندما افتكر ان هذه الثروة الواسعة فقدت في بضع ثوان

فسأله نيكارتر وهل اخبرك الجوهريون في كلكتا انها تساوي هذا الثمن الفاحش

= نصف مليون ؟ هذا موكد وهو ليس بثمنها الفاحش بل المعتدل . وقد اخبروني ان الماسة اذا قطعت قطعاً لا يشوبه خطأ فان ثمنها يرتقي الى ثلاثة اضعاف هذه القيمة

= اذن فانت تعتقد ان عين الشيطان تستحق العناء الذي ستصرفه في البحث عنها

= آه يا موسيو كارتر وهل تريد ان تتولى امر البحث عنها

= عَلَي الارجح ... ولكنك لم تقل لي بعد ماذا فعلت ولعلك قد عثرت عَلَي اثر يدلك عَلَي مكانها

= قد حزرت يا مسيو كارتر قد عثرت عَلَي ادلة عديدة ولكنك تعرف مبلغها من الصواب اكثر مني

بعد ان ادرت ظهري لمركز البوليس اتممت المسير فاجتزت المدينة وقبل الساعة الحادية عشرة وجدت نفسي امام محطة السكة الحديدية وابصرت عربة مقبلة تقل مسافراً . ولما وصلت قفز السائق الى الارض وساعد الراكب عَلَي النزول ولم يكن هذا الراكب سوى كراب الرجل الاعمى

فصرخ نيكارتر يا للعجب

فتبسم دلمار عندما سمع ذلك وقال

ربما افتكرت انه اراد ان ينجو بالسرقة وانا اعتقد انه ربما كان هذا ممكناً وربما كان من الواجب عليَّ ان استعمل المسدس ولكن إصغَ : انني رأيت السائق يأخذ خريطة كراب من العربة ثم امسكه بذراعه وقاده الى غرفة الانتظار . فكنت لها الزم من ظلهما

ثم اخذه الى حيث قطع جوازاً الى بونيلو وكنت خلفه فسمعته يسأل المأمور عن ميعاد سفر القطار فأجابه سيقوم القطار الاول الى بونيلو بعد عشر دقائق

وفي هذه الاثناء كان السائق واقفاً وراء كراب ليقوده الى القطار وعندما اجتازا غرفة الانتظار أعوزتني السكينة ولم اتمالك نفسي فعارضتهما في الطريق

وقلت له وانا اشتعل من الغيظ

أسعدت صباحاً يا مسيو كراب

فحدق بي الاعمى وادار نحوي عينيه وظهر عليه انه عرف صوتي فقال وهو يتردد في القول :

يظهر لي اني اعرف صوتك . الست المسيو دلمار . فهل خدعني سمعي

فقلت له انا هو

— إذن فقل لي بالله هل وجدت اثراً لماستك تهديك لمخبأها

— فقلت لا وكنت اراقب ماذا يكون تأثير جوابي فيه

— ان هذا مكدر جداً . ان هذه الضربة هائلة

— نعم ولكن ليس في وسعي الا ان اتلقى مصيبتي بالصبر . والآن فاني اراك عَلَى وشك السفر

نعم وآسفاه فانني وجدت في منزلي عند رجوعي اليه هذا النبأ البرقي الذي اجبرني ان اسافر مع القطار الاول

ودفع الي النبأ حين طلبته منه وانا اعترف لك انني لم اتردد بل قرأته بمزيد السرعة وكان من بو يبلو وهذا نصه حرفياً :

« اختك عَلَى فراش الموت عجل بالحضور . = الطبيب ا . م . غوردون »

فعزيته بكل ما حضرني من عبارات التعزية

فقال لي : منذ مدة كنت اتوقع ورود هذا النبأ . فوردني اليوم . وبما انني راحل فانا اشكر جميلك إذا انبأتني بالدلائل التي تبدو لك والآثار التي تهتدي اليها وانت تعرف السبب الذي يهيج هذه الرغبة في نفسي

فاجبته متململاً نعم اعرفه جيداً

ثم قال بعد ان اواري اختي المسكينة في التراب اعود الى هنا ولديك عنوان اقامتي فارجوك ان تواصلني بما يجد معك في هذا الشأن

فوعدته ان انبئه بكل ما يحدث

فاستتبع حديثه قائلاً ان اقامتي في بو يبلو ستكون في بيت اختي . فاذا اتضح لك كيف اختفت ماستك او إذا وجدتها كما اتمنى لك — فستكون لك علي يد بيضاء اذا انبأتني عَلَى لسان البرق لانك تعلم انه ما زالت ستور الخفاء مسدولة عَلَى هذه المعضلة

تظل العلائق بيني وبين صديقي ماتيو متوترة وان هذا ليحزنني لانني كنت واياه دائماً صديقين حميمين ٠

فهمت ان اخبره بما قاله عنه ماتيو ودونيلسون بعد خروجهما من الفندق ولكنني آثرت الرصانة والسكوت واقتصرت عَلَى نسخ العنوان الذي اعطانيه كراب

و بعد ذلك صافحني وقاده السائق الى الرصيف حيث كان القطار مزمعاً ان يقف٠ وعدت الى الفندق وفي اثناء عودتي عولت ان اراقب دونلسون وماتيو وعبثاً كنت احاول ان اطرد هذا الفكر عن خاطري وهو ان احدهما كان السارق

و بينما انا اسير صادفتهما في الطريق ولكنهما لم يبصراني فتبعتهما عَلَى بضع خطوات وانا احذر كل ما من شأنه ان ينبههما الى وجودي .

وكانا آتيين من النادي دون شك ووجهاهما مقطبان فتبعتهما وما زالا سائرين حتى وصلا الى المنزل الذي يقطنه كراب وكان لماتيو غرفة هنالك ايضاً ففتح ماتيو الباب بمفتاح اخرجه من جيبه ودخل الرجلان

فلم يمكثا اكثر من خمس دقائق

وكنت لحظت ان النور قد اضيء واطفي بسرعة في ثلاث من الغرف او اربع فدل ذلك عَلَى انهما كانا يفتشان عن ماتيو الذي لم يبلغهما بعد خبر سفره الفجائي

فقال ماتيو وهما ينزلان الى الشارع ان القطار قد نحا به بما من ربع ساعة تقريباً

فاجابه دونلسون نعم ان هذا الفاجر قد بعد مسافة طويلة فقال ماتيو ولكن لحسن الحظ ان اللحاق به سهل

وهذا كل ما قدرت ان اسمعه من المحادثة وكان من المؤكد عندي انهما يتكلمان عن كراب ولكنني لم اعرف هل كانا ينظران ماسني وهما يتكلمان هذا ما اترك حله لك يا مسيو كارتر

ثم دخلا مسرعين الى بيت آخر وقد فهمت بعد ذلك انه مسكن كليمور شريك دونيلسون فلم احفل بهذا الاخير لانني لم اعلم كيف يكون له دخل في سرقة الماسة

فقاطعه نيكارتر قائلاً حسناً حسناً انك انت لا تعرف كليمور ولكننا نحن نعرفه فهو متهم بالتحريض والاغراء علي كثير من حوادث القتل والسرقة وهو الآن في السجن ينتظر جزاءه وان علائقه مع صديقك دونيلسون كانت تدلني عَلَى ان في حياة هذا الاخير اموراً خفية غامضة ولكن ارجوك ان تتمم حديثك الآن

فاستأنف دلمار الكلام وقال انني انتظرت ساعة قرب بيت كليمور خرج بعدها الاثنان ولكنهما انفصلا في اول عطفة من الشارع فتبعت دونلسون الذي عاد الى منزله . اما ماتيو فلا اعلم اين انتهى به السير ولم انظره بعد ذلك ولكنني ارجح انه ذهب في اليوم التالي الى بو يبلو ليلاقي كراب هناك

اما دونيلسون فقد اقام عامة اليوم التالي في مكتب المحل الذي يديره هو وشريكه كليمور وفي اليوم التالي نظرت صدفة ان دونلسون أخذ رسالة برقية و بعد ان قرأها ظهرت عَلَى وجهه علائم الاهتمام والتأمل ولم اقدر ان اعرف مصدر الرسالة ولا محتواها ولكنني اعرف انني لم ار دونلسون في اليوم التالي ولما ذهبت في اليوم الثالث اطلبه في محله اخبروني انه سافر الى بو يبلو . و بالطبع ركبت انا ايضاً القطار الاول وتبعته

فقال نيكارتر انه لفكر في غاية السداد فماذا اكتشفت هناك

— لا شيء في لا شيء اجاب دلمار انني رمت ان اذهب الى المحل الذي اعطاني كراب نمرته ولكنني فهمت انه لا يوجد بيت في المدينة بهذا العنوان . وكان الشارع موجوداً فقط ولكن النمرة التي معي كانت عنوان ارض ما زالت خالية من البناء ولم يكن هنالك بيت الى بعد مئة خطوة من جميع الجهات

فقلت لعلني اخطأت في نسخ النمرة فسألت عن اخته التي كانت عَلَى فراش الموت فلم اسمع احد يتكلم عن امرأة ماتت او اشرفت عَلَى الموت فسالت عن الطبيب ا . م . كوردون فلم يكن حظ هذا من الوجود اكثر من حظ الاخت الموهومة

فلم يبق لي الا ان اسأل عنه فسألت مأموري المحطة هل شاهدوا رجلاً اعمى نزل في الليل من القطار قادماً من نيو يورك ووصفت لهم ملامحه

فلم يذكر احد في المحطة انه شاهد رجلاً اعمى بهذه الملامح وبالاختصار فانني قد اضعت يومين في بو يبلو وانا افتش دون طائل

فعزمت عَلَى ان اقصد مركز البوليس واشرح له خبر السرقة وكل ما يتعلق بها . وحين قرأت في الجرائد اعمدة باسرها ملؤها اطراؤك والثناء عليك ووصف العمل العظيم الذي قمت به قبل الليلة السابقة وعلمت انك حضرت الى هنا عاد لي بعض الرجاء وانيت اليك لاعرض عليك القصة بجميع تفاصيلها

فقال البوليس لدلمار اني اقدم لك تحياتي وتهاني لانني قلما نظرت رجلاً قادراً مثلك عَلَى الاحاطة باطراف الموضوع واستقصاء شوارده وايضاح دقائقه ووصف ذلك بطريقة

مهلة واضحة . وسنقتفي بعد الآن اثر « عين الشيطان » وإذا ساعدنا الحظ فاننا نرجو ان نهتدي اليها

— انني اقدم لك شواعر الشكر التي تختلج في صميم الفؤاد . وارجوك ان تخبرني هل عزمت عَلَى السفر الى بوبيلو

— على الارجح

— وهل تريد ان ارافقك

— لا ولكن اترك لي عنوانك واذا اضطررت الى الانتقال فابلغني ذلك . حتى تصلك جميع الرسائل والانباء البرقية التي يمكن ان ارسلها اليك . ولا اطلب منك غير هذا سوى ان تثق بي

وثم تحادث الثلاثة سوية بشأن الامور المادية التي يقتضيها البحث والتنقيب . وبعد ذلك استأذن المالك الشرعي للماسة من البوليس الشهير ومعاونه وانصرف

وبعد ان خرج دلمار التفت كارتر الى معاونه الشاب الايرلندي وقال له:

— ما رأيك في هذه القضية يا باتسي

يظهر لي انها اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة فهل صدقتها يا استاذي

— صدقتها كما اصدق بالحياة الابدية التي لا اشك فيها لحظة

— اذا فرنا هذا فكيف امكن الثلاثة ان يخفوا الماسة

فضحك كارتر طويلاً ثم قال :

يظهر لي انك تظنهم شركاء في الجريمة قد تعاقدوا عليها سابقاً

— إذن فماذا تريد ان اعتقد في شأن هذه الماسة التي اختفت وغابت آثارها

اسمع يا باتسي اريد ان احدثك بشأنها ولكنني لا اتكلم عن لصوص

— عمن تتكلم اعن لص واحد

— نعم فانا اعتقد ان كراب هو السارق الوحيد

— ايمكن هذا . ايمكن هذا الاعمى ان يسلب الماسة وامامه ثلاثة رجال يبصرون

فقال نكارتر ان كراب هو الذي اخذ الماسة قال هذا وهو يتظاهر بانه لم يسمع اعتراض المعاون ومع هذا فاظن انه لم يفكر ان سرقتها بامكانه لما قبل الدعوة ولا اصدق باتفاق سابق وأؤكد لك ان دونلسون وماتيو بريثان من وصمة السرقة وهما يعتقدان كما اعتقد ان كراب هو السارق . وقد هاجهما ما صادفاه من الاهانة فعزما عَلَى اتباع كراب واجباره

عَلَى رد المسروق او ان يقاسمهما عَلَى الاقل ولما علما بسفره الى بو بيلو عرفا انه قد خدعهما

فاقتنع باتسي بتأكيدات استاذه وقال حسناً يمكننا الان ان نستنتج النتائج من هذه المقدمة وقد فهمت الآن معنى المحادثة التي دارت بين الرجلين امام الفندق

— وجلي ان سفر كراب الى بو بيلو هو اعتراف ضمني بذنبه

ولهذا تبعه ماتيو الى بو بيلو حيث علم ان السبب الذي انتحله الاعمى للسفر كان مختلقاً وهذا الذي عرفه دلمار بعد بضعة ايام

— من الراجح ان يكون ماتيو مرسل النبا الذي اهتم له دونيلسون كثيراً . فسافر لينضم الى رفيقه في الحق بالاعمى

— احسنت يا باتسي هذا ما حدث برمته

— ولكن كيف قدر هذا الشيطان كراب ان يسرق الماسة عَلَى هذا الشكل الخفي الغامض حتى لم يقدر دلمار ان يجدها في ثيابه حين فتشها

و بعد ان توقف لحظة عن الكلام ضرب بيده عَلَى جبهته ثم قال :

يخيل لي ان هذا الخبيث المحتال ليس اعمى

— حسناً واي فرق في ذلك .

فقال باتسي لا فرق وضاع سروره باكتشافه حقاً ان الحالين سيان فهل تظن انه اعمى يا استاذ

ثم ساد سكون قطعته قهقهة باتسي الذي قال وهو يضحك

— آه . آه . ان تفتيشاً كالذي اجراه دلمار لا يتفق حدوثه دائماً . ثلاثة رجال عارين لجدهم آدم قبل ان يخطئ حقاً انه منظر مضحك .

فاجابه نكارتر ضاحكاً

لا اظن المشابهة تامة اذ ينقص الاخيرة قليل من الصحة

فعاد باتسي بعدها الى الجد وقال

· انا ارى يا استاذ انك فكرت لتبلغ نتيجة فبأي اسلوب تظن كراب سرق الماسة وتمكن من اخفائها

ولكنه انذهل عندما وجد ان كارتر اقتصر عَلَى الضحك وهو يرفع كتفيه ثم خاطبه قائلاً

يا عزيزي باتسي لم اعلم عن ذلك شيئاً

— افهذا ممكن

— نعم ممكن للغاية . فقد ارى في الامر سراً لم اقدر عَلَى فهمه حتى الساعة وانا احتاج في حله الى تأمل طويل ساباشره اثناء سفري ولذلك ارجوك ان تستفهم لي عن مواعيد سفر القطر

فنزل باتسي مسرعاً الى مكتب الفندق وهناك تقويم لهذه الشؤون فامعن فيه البوليسان هنيهة وبعد ما اختار نكارتر القطار الذي سيقله قال لمعاونه :

ارى ان واحداً منا يكفي لمطاردة هذا الاعمى اما انت فابق هنا في دنفر واخبرني اذا عاد احد الرجلين واعلم انه يحتمل ان يحدث هذا باسرع مما نفكر فتيقظ

فقال باتسي كن اميناً من هذه الوجهة

ولم يكن يتعذر عَلَى رجل ماهر كنكارتر ان يقفو اثر اعمى ففهم وهو في الطريق ان كراب قبل ان يصل الى بويبلو طلب من السائق جوزاً عاماً

فمع اكتفاء البوليس بهذا التصريح توصل الى علم ما يأتي وهو انه في يومين مختلفين من الاسبوع الماضي كان في القطار مسافران القيا الى المفتش هذا السؤال بعينه فتحقق عند ذلك ان ماتيو ودونيلسون قد اجتمعا في بويبلو ومن هناك سارا للبحث عن الاعمى

وبعد برهة اكتشف عَلَى آثار الاعمى وكأن صوتاً داخلياً يناجيه ان كراب هو السارق الوحيد . وعرف انه اشترى نعالاً محددة واكترى جواداً من قرية صغيرة من قرى مقاطعة الاريزونا الشمالية . وسافر من هناك مصحوباً بدليل توصل البوليس الى معرفته وطلب منه ايضاحاً وبسط مايعرفه عن المسافر الذي كان يصحبه

فقال الدليل :

لم ارافقه مدة طويلة إذ انه قال لي بعد خمسة ايام من بدء السفر « يمكنك ان تعود الآن » فترددت في الرجوع وتركه منفرداً لاننا كنا عندئذ في اوحش قسم من الاريزونا ولكنه اصر عليَّ فتركته وعدت

ففكر نكارتر ملياً في ما قاله الدليل ولم يفهم كيف ان رجلاً اعمى ضعيف القوة يود ان ينفرد في تلك البقعة الكثيرة الاخطار . فسأل الدليل

— هل تعتقد ان الرجل كان اعمى حقيقة

فقال الدليل كل الاعتقاد ودعم حديثه بسرد بعض الحوادث التي جرت عَلَى الطريق والتي تؤيد قوله

ثم استتبع البوليس السير في طريقه

ولم يكن الذي يلقاه عَلَى الطريق قادراً ان يعرف هذا الرجل ذو الشهرة الواسعة في العالم والذي يختلف الى الاندية العليا في نيويورك وله المنزلة الرفيعة بين الاريستوقراطيين لان كارتر تزيا بزي سكان الغابات فاتخذ هيئة متوحش يؤثر استعمال السلاح وخشونة العيش عَلَى رفاهية الحضارة

وكان جواده كريماً فاعمل في خاصرته المهماز ليبلغ ذلك المحل الذي يكاد يكون في آخر الدنيا حيث فارق الدليل كراب

وبينا كان يجد السير صادف فارساً مقبلاً عليه من الجهة المقابلة ناداه وهو يوقف مطيته قائلاً

ايها الغريب

فاوقف كارتر جواده وقال له

ماذا

— اعندك تبغ

— مؤكد . عندي قطع كبيرة

وكان نكارتر يعلم ان رجل الغابات يجب ان تكون معه مؤونة من التبغ فحمل معه كمية منه مع انه لم يكن يستعمله

ثم اخذ علبة من جيبه وقال للرجل هوذا التبغ فخذ حاجتك

فقال الرجل اشكرك ومد يده وحاول ان يمضغ قطعة منه

فقال له نكارتر اقطعها الى قسمين لانك لا تزال بعيداً جداً عن العمران وعَلَى ما اظن ان التبغ لا ينمو عَلَى الاشجار كما قيل لي منذ هنيهة

— انت محق . فانني طالما وجدت في هذه البقعة التي هجرها الله والناس وكان قد أخذ نصف قطعة التبغ ورد بقيتها الى نكارتر

فسأله البوليس : اذن انت تعرف المقاطعة

— نعم تقريباً الا تعرفها انت

— لا هذه هي المرة الاولى من مجيئي اليها

— في طلب الذهب

— ليس تماماً فانني الاحق رجلاً اعمى

— ماذا؟ ان هذا لغريب جداً

— نعم ان قدوم اعمى ليختبيء في هذه المواضع الموحشة لهو غريب جداً ولكنه حدث
— ليس هذا الذي اريد ان اقوله ولكنني افكر بشخصين استأجراني لخدمتهما كدليل وطباخ وهم ايضاً مثلك يفتشون عن اعمى
— يا للشيطان . هذا ما نسميه صدفة قال ذلك نكارتر وهو يلفظ سلسلة من الاقسام تليق بسكان الغاب ثم سأل الرجل وما هي المسافة بيني وبينهما
— اظنهم اصدقاءك
— تقريباً فانهم من معارفي
— حسناً فانتم الثلاثة في هذه الحالة تطاردون شخصاً واحداً وهذا كل شيء
— أصبت ايها الشجاع . وعلينا ان نتابع هذا الاعمى حتى نظفر به ولو اضطرنا الامر ان نذهب الى نهاية العالم
— لتسترجعوا منه الماسة اليس كذلك
— بسم الـ . . . وكيف عرفت ذلك
— اخبرني به صديقاك
— حسناً ان هذه الماسة لا تخص الاعمى
فاغمض الرجل عينيه وبدأ يقهقه وقد بدت على وجهه امارات المكر ثم قال : اصدق قولك ان الماسة لا تخص الاعمى . فاذن هي ملك الذي يظفر بها . ولكن هذا لا يهمني فحاول ان تجتمع باصدقائك
— يدهشني وقوفك على هذا السر
— لا غرابة في ذلك فالمسافرون اياماً عديدة في القفار تنشأ بينهم روابط شديدة . وقد كانا يتكلمان بادئ الامر سراً فكنت اصغي الى حديثهما ثم أخذت بسؤالهما ولما وجداني وقفت على شيء من القصة شرحاها لي واخبراني منها بما كنت لم اعلمه بعد
— قصا عليك كيف سرق الاعمى ماستهما اليس كذلك
— نعم او بالاحرى ماسة احد اصدقائهما
فتعجب كارتر من ثرثرتهما وقال للرجل ان اذنيك لم تخدعاك
— آه آه . انت هو الصديق صاحب الماسة
— هذا ممكن فانا لا انفيه
— حسناً فاسمع إذن ان كنت لا تريد ان تصادف رصاصة تورد حتفك فالاولى

بك ان لا تحاول الاجتماع بصديقيك . لان مصاحبتهما خطرة وقد شعرت بذلك ولهذا فارقتهما هذه الليلة

— يظهر لي انهما اخبراك بكل شيء وانا ارجوك ان تخبرني عن واسطة اتجنب فيها ملاقاة هذه الرصاصة وان تخبرني عن الطريق الذي سلكاه

فرفع الرجل كتفيه وقال ان فكر ملاحقتهما هو فكر جنوني . ولست اعلم ماذا تفعل إذا وجدت امام اثنين هذا اذا لم نعد الاعمى . انني تركت صديقيك اول البارح فاذا اسرعت في السير نحو الشرق تصل الى مخاضة نزل فيها صديقاك وركبا النهر وسافرا

— اشكرك عليّ هذه التعليمات

ثم حرك كارتر جواده ولما رآه الرجل سأله هل انت مصمم عليّ التقدم

— بلا ريب

— حسناً فهل يلزم ان اعلن خبر موتك

— لا تتعجل استودعك الله

— سر بالسلامة ايها الغريب واشكرك على تبغك . لاحظ انك واحد ضد اثنين ما عدا الاعمى ولكنني اشتهي لك الفوز من قلبي

فارخى نكارتر لجواده العنان وبعد ان قطع ربع ميل التفت وهو عليّ سرجه ونظر الرجل الذي كان يراقبه وهو ثابت في محله فقال البوليس في نفسه ان هذا الرجل ليس ابله كما اظهر لي وقلبي يحدثني انه سيكون لي وله شأن قبل ختام القصة . آه لله ما اشد حمق ماتيو ودونلسون اللذان يكتمان اسرارهما لكل سائل . واستمر البوليس في سيره حتى احلولك الليل فاستراح قليلاً ثم ركب جواده وعاد الى السير حتى وصل الى ضاحية كولورادو التي اهداه اليها الرجل ثم ربط جواده في جذع شجرة ثم اوقد قليلاً من الحطب واعد لنفسه عشاء من المؤن التي اشتراها ثم التحف بغطاء ونام على الارض ليريح نفسه بضع ساعات من عناء النهار

وفي الثلاثة الايام الاخيرة من اقامته هناك نظر عن بعد ثلاثة بيوت في ذلك القفر ولم يعلم البعد بينها وبين اقرب عمران وعلم ان المخبأ الذي يختاره الاعمى ليكون فيه لا يتسنى لصحيحي النظر ان يقيموا فيه . ثم قال لماذا لم يسافر كراب الى مدن الشرق الكبيرة حيث يصادف فرصة اوفق لبيع الماسة . وردد هذا السؤال في خاطره دون ان يهتدي الى حل مرضي واخيراً اغمض عينيه ونام حتى الفجر نوماً عميقاً هادئاً وعندما استيقظ تناول

قليلاً من الطعام ثم علا ظهر جواده وسار فعرف بفراسته ان فرساناً آخرين قد تقدموه منزهين في نفس الطريق . فسر بهذا وعلم ايضاً ان الفارس اهداه الى الصراط المستقيم وكان كلما تقدم يزداد منظر البلاد وحشة وانفراداً . وكان النهر يجري بسرعة شديدة بين مضايق صخرية ثم تصب مياهه المزبدة في مصب بعيد الغور فيسمع لها ضجة شديدة

وبعد الظهر بقليل وصل نكارتر الى سفح رابية صخرية فهم ان يتسلقها وهو راكب وقد ظهرت له آثار عَلَى الارض عرفته ان فرساناً آخرين مروا من هنالك حديثاً . وكانت قمة الرابية جرداء تطل عَلَى ما جاورها الى امد بعيد فوقف كارتر فجأة لانه نظر عَلَى بعد ثلاثة اميال تقريباً خطاً رفيعاً من الدخان يتصاعد الى الافق فقال لعل هنالك مفتشاً عن الذهب او لعل الطريدة التي الاحقها قد عادت . وكان كل ما حوله يظهر له واضحاً فابصر نقطاً متحركة تشبه النمل السائر فظنها هنوداً ولكن هذا لم يكن راجحاً لان البوليس منذ دخوله الى تلك البلاد المتوحشة لم يشاهد اكثر من ستة من ذوي الجلود الحمراء . فتفرس في هذه النقطة بالعين المجردة لحظة من الزمان ثم تناول منظاره ووضعه على عينيه فوجدانهم اربعة فرسان يسرعون في المسير جنوباً وإذ لم تكن جهة سيرهم هي الجهة التي ينحوها البوليس تأكد انهم لا يقتفون آثاره وفضلاً عن ذلك فليس لهم من اللحاق فائدة

وعند ما فكر بهذا عاودته الهواجس فتناول منظاره وبدأ بالتفرس فوجد الاربعة يتدرجون الى اليمين وينحون في سبيلهم مخاضة عَلَى بعد عدة اميال ثم وضع منظاره في جيبه وقد ظهرت عَلَى وجهه علائم الاهتمام والتأمل العميق لانه نظر بين الاربعة وعَلَى زعامتهم الفارس الذي طلب منه تبغاً وقص عليه ما عرفه عن دونلسون وماتيو

وكان الجو قد طبق بالغيوم مما دل علي قرب هبوب العاصفة فتساءل في نفسه عما يجب عليه ان يفعله وهل كان يسير في النهج القويم فاذا كان ذلك فهو يدرك جماعته قبل ان يبلغهم الفرسان الاربعة ولكنه إذا كان يعتسف في طريقه فماذا يحدث ؟ وبعد ان فكر قليلاً قال لا . لا . انني اتبع الآثار ذاتها ثم لكز جواده واخرج من كيس معلق بسرج الجواد بعض الامتعة الصغيرة . ثم ساق مطيته الى سفح الرابية حيثما ربطها في مرجة صغيرة محاطة بالعلايق حيث يجد الجواد حوله شيئاً من الكلاء فيمكن لنكارتر ان يتركه هناك برهة طويلة دون ان يخشى عليه شراً ثم اطرد سيره ماشياً

وقد تبع في مسيره ضفة النهر وما زال يسير حتى وصل الى مضيق عميق تندفع اليه مياه النهر بسرعة وتنصب فيه فيسمع لها دوي شديد . وكان ممتداً عَلَى المضيق جذعا

شجرتين كبيرتين قصفهما النهر فاشبها جسراً ورأى نكارتر آثاراً دلت عَلَى ان خيولاً عبرت ذلك الجسر حديثاً فتتبع الآثار فقاده تتبع الآثار الى غابة كثيفة نظر من خلال اشجارها خطاً من الدخان رآه وهو عَلَى الصخرة غيراًنه كان الآن قريباًمنه وهو يتصاعد من بناية خشبية عاث السوس في عوارضها

وكانت تجري امام هذا الكوخ ساقية جميلة مملوءة بالسمك وامامها ما يشبه الاصطبل قد ربط فيه ثلاث جياد

ولم يكن غير هذا الكوخ معموراً في الجوار • فاقترب نكارتر بهدوء واصغى لما يجري داخل الكوخ الذي ظهر له انه كوخ رجل يفتش عن مناجم الذهب فيسمع من الداخل جلبة وضجة • فتقدم بدون احتراس الى ان دخل الباب فسمع صوتاً يقول:

قد اكتفينا يجب ان نضع حداً لهذا الانكار • فاسمع ياكراب الحقيقة اننا نريد ان نقاسمك فاذا اصررت عَلَى الانكار لا نسلبك ماسنك فقط بل حياتك ايضاً

ثم ارتفع صوت آخر يقول

اننا لم نأت الى هنا لنسمع ثرثرتك

فاجاب شخص ثالث

— افعلا ما بدا لكما • اذا لم تخجلا ان تهاجما اعمى مسكيناً ونقتلاه فلا تترددا • ولكنني اعيد عليكم انني لا اعرف ماذا حدث للماسة واود ان ابذل جهدي لابرهن لكم صحة قولي فانني خلعت ثيابي عندما امرني دلمار فهل تودون ان اعيد ذلك الآن

فصرخ المتكلم الاول

ما هذه الترهات عندما تسدد حسابك نعلم ماذا نصنع بثيابك واما الآن فما عليك الا ان تجيبنا الى ما طلبنا وتيقن اننا بعد ذلك نكون كرماء جداً حتى اننا نهبك حياتك • اعطنا الماسة او اهدنا الى موضعها وانت اذا رفضت مائت لا محالة

فقال الاعمى وهو يتنهد واي معنى للرفض هنا هل يقدر الانسان ان يعطي الا ما يملكه

— آه

ثم عاد الاعمى الى الكلام فقال

افكروا فيما تقدمون عليه وتذكروا ان الدم المهراق ينتقم له دائماً

— هوذا الرسول الصالح ! اننا نعلم ما يجب ان نعمله

ثم خيم السكوت لحظة على تلك الغرفة

فقال نكارتر لنفسه يظهر لي انني وصلت في الوقت المناسب لامنع هذين الشريرين من ارتكاب جريمة جديدة

ففتح الباب بلطف ليرى ما يجري داخل الكوخ · فوجد كراب جالساً قرب منضدة في وسط المحل وعيناه الكبيرتان تحدقان بالحائط امامه · ولا شك ان الاخيرين باغتاه وهو على المائدة إذ كان عليها قطع من الخبز واللحم البارد وقدح ماء ووعاء للقهوة والملح · وكان ماتيو ودونيلسون واقفين امامه وعلى وجهيهما امارات التهديد فكان واحد منهما رافعاً هراوة ضخمة فوق رأس الاعمى والآخر مستعداً ان يضربه بخشب البندقية

فقال لا يوجد في القضية ما يقال ان كراب اعمى اذ ليس بيدي اقل ممانعة لهذا الخطر الموشك الحدوث

فتخطى عتبة الباب واسرع الى الداخل والقى نفسه بين الاعمى وبين الشقيين وصرخ بهما

— انجلا ايها الشقيان اتضربا اعمى لا طاقة له على الدفاع ان هذا منتهى الجبن والنذالة

ونزع الهراوة من يد ماتيو برشاقة وقبض على بندقية دونيلسون وحمى الاعمى الذي لم يعلم ماذا جرى والذي لم يكن يشك انه اشرف على الهلاك

فجمد الشريران لمفاجأة هذا الرجل الذي لم يعرفا من اين اتى فخيل لهما انه هبط من السماء · واستولى الذهول عليهما بضع ثوان · اما كراب فانه نهض جزعاً واختبأ تحت المائدة

واخيراً تمتم دونيلسون قائلاً

اي شيطان هذا · من انت ايها الرجل · من انت

وكان لنكارتر مزية عليهم هي انه يعرفهم لانه نظر صورهم واما هم فلا يعرفونه البتة

— من انا · لا أرى اخباركم بهذا ضروريا ولكن الذي يهمكم هو انني لااقدران اسكت عندما ارى شريرين قويين مثلكما يفتكان باعمى ضعيف ليس له نصير ولا قدرة على الدفاع · انني لست عظيماً من عظماء الارض ولكنني لست نذلاً لادعكما وشأنكما

فقال ماتيو : انه لم يكن هنا سوى ضجيج فقط واننا رمنا ان نخيفه

— ان تخيفاه · حسناً · ولكنني لم افهم كيف يمكنكما ان تروعا اعمى بمثل ما عملتما

وكان الرجلان شاخصين بابصارهما اليه فقال نكارتر

— أصغيت قليلاً قرب الباب فسمعتكما تتكلمان عن ماسة وإذا كنتم تودون ان تتقاسموها وذلك يتعبكم فانا ارضى ان اكون حكما واذا كنت اقدر ان افيدكما فانا خادمكم

فقال دونيلسون بحدة

لا تزعج نفسك فهل يهمك امرنا وهل لك زمن طويل هنا هلم اهرب باسرع ما يمكنك

— شكراً لك عَلَى هذه الدعوة للهرب · ولكنني اروم ان امكث قليلاً

ثم أخذ البوليس كرسيًا وجلس بسكون ثم قال : اصغوا لكلامي كل الاصغاء يا رفاقي :

إذا حدث خصام في هذا الكوخ بعد الآن فهو سيحدث بيننا · انكم سألتموني عن اسمي فانا اجيبكم عَلَى ذلك انني (جاك الاحمر) من مقاطعة مونتانا المدعو ايضًا (بالدموي الهائل)·وقد تعودت ان التهم اثنين اقوى منكما واضخم غذاءً لي

وفي اثناء الحديث اسند البندقية الى المائدة وسحب مسدسه من جيبه

— انتظران جيداً هذا الكلب الصغير انه ينبح دون ان يتحرش به أحد · وصوت واحد منه كاف

ثم ضحك البوليس ضحكاً مرعبًا وجلس الى المنضدة بينما كان ماتيو ودونيلسون يتبادلان النظرات · فقال ماتيو

فلنسافر فلنسافر · اذ ليس لنا مقام هنا بعد

فاقترب الاثنان من الباب

فقال نكارتر وهو يعبث بسلاحه

ارجوكما ان تقيما خمس دقائق هنا ايضًا · فهذا المحل اوفق لكم وانا اقول لكما السبب فان عندي شيئًا لاقوله لكما وهو يهمكما جداً

فنظر الاثنان بارتياب الى جاك الاحمر الدعي وهما يرغبان ان يفتكا به ولكن سلاحه كان يوحي لهما ان يحترماه

واستانبع نكارتر الحديث فقال :

عودا الى محليكما فما دمتما في هذا الكوخ فانتما في مأمن من خطر الموت انني اريد ان اقدم لكما اقتراحًا فاذا اردتما ان تساعداني ساعدتكما ايضًا

وكان انفعال الشقيين يشتد وهما يحدجانه بابصارهما دون ان يلفظا كلمة

فقال نكارتر بلهجة تدعو الى الثقة
اذا كان احدكم امهر من رفيقيه فسلب الماسة دونهما فلا تخاصموا الآن لاجلها . كونوا اصدقاء . لان خطراً مهولاً يتهددكم جميعاً
فقال دونيلسون :
اي خطر هذا . عماذا تتكلم يا رفيقي . اوضح
فقال كراب الذي نهض من مخبأه تحت المنضدة
نعم . اوضح ماذا تريد ان تقول . ليس عندنا ماسة قط فقال البوليس وهو يرفع كتفيه
— هذا ممكن ولكن يوجد في هذه النواحي رجال مقتنعون بعكس ما تقرره . ايكفي هذا ؟ هل فهمتم معنى كلامي
— كلا اننا لم نفهم فهل تريد بتلميحاتك افهامنا ان بوليساً يقتفي آثارنا
فقال نكارتر وهو يرفع كتفيه ثانية
— ربما ولكنني لا اعرف شيئاً من ذلك . ولكن الذي اعلمه ان رجالاً آخرين يطاردونكم وهم اشد خطراً مما لا يقدر من افراد البوليس
اجلسوا مواضعكم يا رفاقي واسمعوا كيف عرفت ذلك . انني لا اريد ان ارهقكم فنزاعنا وسلامنا يتوقفان عليكم
وبعد ان تبادل ماتيو ودونيلسون النظرات وجدا الاوفق لهما ان يتشجعا ويجلسا فجلس الاول على كرسي مخلعة والثاني على صندوق فارغ فاخرج كارتر من جيبه ورقة مربعة يعلوها الغبار مكتوبة بحروف حمراء ومد هذه الورقة لدونيلسون دون ان يقول كلمة
وكان فيه تصريح من احد اشراف مقاطعة مونتانا يعد فيه بمكافأة كبيرة = خمسمائة ريال = لمن يقبض على جاك الاحمر الشهير حياً او ميتاً
وكان نكارتر يتلاعب هذا التلاعب وهو امين ان ينفضح سره فانه عرف ان جاك الاحمر كان في سجن هيلينا من مقاطعة مونتانا فليس في وسعه ان يفسد هذه الوحدة
ثم قهقه نكارتر وقال لم مما قرأتم في هذه الورقة يمكنكم ان تثقوا بي واسمعوا قصتي الغريبة : فانني اضطررت ان اقتل رجلاً كما اقتل ذبابة . وكان هذا الرجل قد صب ماء في قدح خمري أسمعتم ؟ ماء مع الويسكي ! ماء . ماء .
فقلت لهذا الشقي الذي تجاسر على مزج الويسكي بالماء : ان قايين ليس شيئاً بالنسبة اليك . ان ما فعلته هو اعظم من قتل الاب او الأخ واريد ان اريك ايها الشقي كيف

تجاسر ان تسمم رجلا شريفًا بالويسكي الممزوج بالماء . ولم ادعه ينتظر كثيراً بل اطلقت عليه رصاصة كانت القاضية

انتم ترون اني كنت محقًا فيما فعلت ولكن الشريف واعضاء محكمته حكموا بغيرهذا وبالاختصار فانني لو لم اقتل اثنين من الحرس لكنت علقت الآن في مشنقة جميلة . وكان موتي خسارة على الوطن اليس كذلك

ثم بدأ بطي الورقة وقال :

اما الآن فبما انني بزي بربري او وحشي كما يقولون فقد نجوت من الشرور ولم يعد من معارض لي في نزهتي . ولكنني قد صادفت منذ يومين فارسًا قص علي خبراً غريبًا

قال لي انه كان في خدمتكما واكد لي ان في حوزتكما ماسة لا نظير لها في العالم بأسره وحاول ان يقنعني بالاتفاق معه لنسلبكما اياها

فنظر دونيلسون وماتيو احدهما الى الآخر وهما متعجبان . ثم قال دونيلسون :

إسمع . اننا نعرف حق المعرفة هذا الرجل الذى تتكلم عنه فقد كان معنا وقد وقف على شيء من سرنا فلم يعد لنا مندوحة عن افشائه لنجو من تعرضه . ولكن هذا ليس بالامر الخطير

فقال نكارتر حسنًا دعني اتكلم

على مسافة قليلة من هنا تجد رابية صخرية تتذكرانها دون شك لانكما وطئتماها بجواديكما . وقد وقفت عندها لاروح النفس قليلاً فنظرت في السهل اربعة فوارس سائرين بجد ولم تكن هذه الناحية وجهتهم التي يقصدونها رأسًا ولكنكم القوم الذين يقتفون اثرهم وإذا نكبوا عن الطريق قليلاً فذلك حتى يجتمعوا برفاقهم

أما متابعتهم لكم فهذا واضح وضوح الشمس واذا كنت اشك في ذلك فانا اقسم لكم بالوعد انني اغتسل غداً وليحرسني الله = وقائد هذه الفرسان هو الرجل الذي كان في خدمتكم . وهنا انتهى كلام البوليس سامعيه الذين لم يشكوا في وشك الهلاك فاقترح دونيلسون سرعة الهرب

فقال جاك الاحمر الدعي لا تفكر بهذا البتة فهؤلاء القوم يعرفون المقاطعة كما يعرفون جيوبهم فهم يمسكونكم حالاً . لا . لا . فاحسن ما نفعله هو ان نتربص هنا وندافعهم اذا هاجمونا

— ماذا تقول ؟ نتربص . إذن فات من جملتنا

— مؤكد . فهل تظنون انني احتمل ان اراهم يشجون رؤوسكم بالرصاص و يقتلون

هذا الاعمى المسكين . انكم إذا ظننتم هذا فانتم لا تعرفون جاك الاحمر حق المعرفة . إذا حميتم ظهري قليلاً فلا اتردد عن ان اقف وحدي امام اثني عشر فارساً

فقال كراب

آه يا الهي لماذا باشرت هذا السفر

فسأل ماتيو

هل انت متأكد يا مسيو جاك ان هولاء الرجال يعرفون طريق رجوعنا

قال هذا وهو يتبادل النظرات مع دونيلسون

فقال جاك الدعي

اني احذركم فان هولاء الرجال اقدر على اقتفاء الآثار منكم لانها حرفتهم االا تعتقدون انهم يعرفون بوجود هذا الكوخ

— هذا مرجح

هل يخص هذا الكوخ احداً منكم ؟

فقال دونيلسون لا

فصرخ كراب :

— انه يخصني اكثر مما يخص غيري . لانني انا الذي بنيته حين قدمت منذ بضع سنين الى هذه الانحاء طلباً لمناجم الذهب وكنت لم افقد البصر بعد

فقال له كارتر شكراً لك على هذه التعليمات فهل يوجد اكواخ في الجوار

فاجاب كراب : لا يوجد اكواخ الى مسافة بعيدة اما اذا كانوا قد بنوا في هذه السنوات الاخيرة فهذا ما لا اعلمه

فقال البوليس : لا اظن ان احداً يستثمر هذه البقعة التي هجرها الله فهذه الذئاب تقاطع الدببة حتى انها لا تحييها تحية المساء . واذا اتفق ان مسافراً أعوزه الويسكي في هذه القفار فما عليه الا ان يصلي صلاة الموت .

وكان دونيلسون وماتيو منزويان يتكلمان بصوت منخفض واخيراً خاطب دونيلسون جاك الدعي بقوله

— نعم اننا مرشكون ان نقع في خطر عظيم وانا نشكرك يا صاح لانك انذرتنا بالخطر قبل وقوعه فاذا رضي كراب ان يدفع الينا الماسة فمن الممكن ان ننجو جميعاً . قبل ان ...

فقاطعه نكارتر قائلاً

— من الجنون ان تفكروا بمثل هذا الآن . ان هولاء الاشقياء يتبعوننا الى مئات من الاميال

فقال كراب

— كيف يمكنني ان اعطي ما لا املكه وما لم املكه البتة

فخاف ماتيو من اصرار شريكه ففتح فاه ليجيبه ولكن نكارتر اسكته وقال :

سواء وجدت الماسة او لم توجد فانها عَلَى ما يظهر ستذهب بحياتنا جميعاً ... إصغوا

فعلت وجوه الثلاثة صفرة واصغوا وقد حبسوا تنفسهم فسمعوا وقع حوافر جياد

فأظهر جاك الدعي الضجر وقال

إذا لم يكن هولاء هم الفرسان الذين اخبرتكم عنهم فاني آلو عَلَى نفسي ان لا اشرب الا الماء الصرف بقية ايام حياتي . ولكي اريكم قدر الذي حالفتموه يا اصدقائي وسعادتكم بهذه المحالفة ارجوكم ان تتركوني افتتح القتال بنفسي

ولم ينتظر البوليس جواب الثلاثة بل ترك الكوخ وبعد عنه اربعين متراً في طريق ضيق وراء الكوخ

ثم وقف فرأى الفرسان يقتربون وكانوا اثني عشر وعَلَى قيادتهم الرجل الذي طلب تبغاً من كارتر . فابدى كارتر لهم اشارة بيده ادهشت الرجال فاوقفوا خيولهم كأنهم يخضعون لأمر

فصرخ القائد

— هل وجدت معارفك

— نعم . أجاب الوحشي الكاذب . صحتهم حسنة وقد كلفوني ان احمل لك تحياتهم فاين تذهب الآن

فبهم القائد ثم قال

انني قدمت الى هنا مع صديقين لنساعدك

— اوكد لكم ان مساعدتكم لا تفيدني

— لماذا

— لانني لست في حاجة اليكم وهذا كل شيء

ثم ابدى البوليس اشارة من يده في طيها معان كثيرة

فاقترب الفرسان وتشاوروا بصوت منخفض جداً حتى ان كارتر لم يسمع من محادثتهم كلمة واحدة

ثم عاد القائد الى الكلام فقال

— يقولون انك تقصد ان تحرش بنا وتغضبنا

— نعم فتكونون لي خبزاً اجوهريا قال ذلك وهو يضحك . انني منذ يومين لم اقتل احداً لاقتات به ومعدتي فارغة ومع هذا فليس لكم بقلبي بغض ولا حقد ولا اريكم اسناني الا اذا قصدتم الشر

فقاطعه القائد قائلاً

اقصر عناك وكف عن هذا الكلام اقول لك مرة . مرتين . ثلاث هل تريد ان نتخلى عن طريقنا

— انك تقرأ افكاري ايها الخبيث

— بالنتيجة فماذا تريد منا اذا لم نلحق بك أذى

— حتى الساعة لا . اما فيما بعد فانتم موشكون

— اذا مسست شعرة من رأس احد اصدقائي جعلت لحمك طعمة للعقبان

فاجابه البوليس ضاحكاً

— اذن فابدأ

فصاح رجل كان واقفاً بجنب القائد

يجب ان نرسل رصاصة لدماغ هذا الخشن

ثم دفع جواده الى الامام قبل ان تبين نكارتر

فعندئذ اطلق البوليس مسدسه فسمع للرصاصة دوي واختلج الرجل فوق سرجه ثم سقط الى الارض لان الرصاصة سحقت كتفه

ثم قال نكارتر

عندي من هذه الرصاصة قدر ما تشاؤون لا اتأخر عن بذلها في سبيل خدمتكم . ان الممر ضيق جداً حتى لا يمكن لاكثر من اثنين منكم ان يتقدما سوية . وعندي لكم مؤونة كافية واصدقائي عندهم ايضاً كثير منها فاذا اصررتم عَلَى غيكم فاننا سنرديكم واحداً بعد الآخر حتى لا يبقى منكم احد . وسامسر جداً اذا قدرت ان اخدمكم بان اجمعكم مع اجدادكم السالفين

فظهر الرعب علي وجوه الفرسان عندما شاهدوا مصرع صديقهم وزاد في رعبهم صهيل الخيول واضطرابها . ثم صاح اثنان من موخرتهم اننا لا نقدر ان نحتمل اكثر وحاولا ان يتقدما الى الامام ولكن جواد القائد اجفل وسد الممر فجعل هذه المحاولة مستحيلة

ولم يمكن لاحد من الصف المتأخر ان يطلق النار عَلَى البوليس خشية ان يصرع احد رفاقه، فلم يجدوا افضل من العود فلووا اعنة الجياد وانفتلوا راجعين

ونزل القائد واحد رفاقه فساعدا الجريح عَلَى الركوب وبينا كانا يجدان لينضما الى الفرقة التفت القائد الى نكارتر وقال له

ايها الغريب انك قد بدأت القتال فاحذر من انتقامنا قبل ان يطلع النهار .

فقال نكارتر بحدة

جربوا فان عندنا من (الملبس) ما يكفيكم

وعندما توارى الفارسان عن نظره عاد الى الكوخ . فوجد دونيلسون وماتيو وفي يد كل منهما مسدسه وهما واقفان امام الباب

اما كراب فلم يتحرك من موضعه، وكان وجهه مصفراً وامامه عَلَى المنضدة مسدسه

فقال ماتيو للبوليس

يا للشيطان . انك عراف شهير دون شك فانك لو لم تنبئنا بالخطر لقبضوا علينا ونحن في الكوخ كما يقبضون عَلَى الثعالب

فقال نكارتر

لم تنته المعركة بعد فانهم سيعيدونها

فسأله كراب وهو يضطرب

اتظن ان هذه العصبة ستعاود الهجوم قبل الليل

— لا . لا . اننا الآن آمنون الى اجل قصير ويحسن بنا ان نغتنم هذه الفرصة لنقتات بشيء وبعدها نعد الوسائل لمصادمتهم . قال البوليس هذا ثم دخل الى الكوخ

فقال له دونيلسون

كل قدر ما تشاء اذا كنت جائعاً . اما انا فانني لا اقدر ان اتناول لقمة واحدة وافضل ان اقوم عَلَى حراستكم خارجاً . واظن انه من الضروري ان يقوم واحد منا عَلَى هذه الحراسة

فقال له جاك الاحمر الدعي — كما تشاء

وكان يظن ان دونيلسون يحاول الهرب فلم يهمه ذلك ولم يحاول ان يصده لان شكوكه كانت تقع عَلَى كراب في الغالب وترك ايضاً ماتيو يرافق صديقه ،

فقال كراب للبوليس

— هنا في هذا الوعاء قهوة وعَلَى المائدة تجد لحماً مقدداً فتقدم كارتر بانطلاق . وقد حاول ماتيو ان يأكل ولكنه لم يقدر ان يبلع

ومع هذا فان دونيلسون لم يحاول الفرار بل عاد الى الكوخ بعد ان اتم كارتر عشاءه فسأل البوليس وفمه ملآن

— ماذا يوجد

فقال دونيلسون : انهم سيهاجموننا قبل الليل — وكانت هيئته مضطربة — فاذا شاء كراب ان يعطينا النأسة فمن الممكن ان ننجو جميعاً

- كيف ذلك

— يمكننا ان نمر عَلَى هذا الجسر المؤلف من جذعي الشجرتين ثم نطلق فيه النار فلا يمكن الآخرين العبور

فقال جاك الكاذب : انت تعتقد بذلك يا صديقي ؟ يظهر انك لا تعرف هؤلاء الرجال معرفة يقين . انهم قادرون ان يمسكونا إذا جازوا من محل آخر

— ولكن يمكننا ان نختبىء بين الصخور وندعهم يتقدموننا .

— كان ممكناً هذا لولا ان هؤلاء الرجال يعرفون هذه الصخور — منذ ولادتهم — فهم يحاصروننا حتى نهلك جوعاً . واقول لكم ان احسن ما نفعله هو ان نبقى هنا ونصادمهم كالابالسة . اننا اربعة عَلَى اثني عشر ملـنا في غاية الضعف لاننا في هذا الكوخ كأننا في معقل

— ولكن لا يمكننا ان نعد كراب بين المدافعين

— هذا حق انني نسيت انه اعمى . ولكن اذا كنتما من الرماة الماهرين مثلي إذن . . . .

فقاطعه دونيلسون قائلاً

ان هذا كلام في كلام . ستهلك جميعنا اذا بقينا هنا

— اجب سؤالي اولاً ايها الجبان هل تعرف ان تطلق النار جيداً

— ذلك مما لا ريب فيه

— وانت يا ماتيو

— يا الهي : انني عند الحاجة اعرف كيف استعمل المسدس

— حسناً فليس علينا الا ان ندافع عن نفوسنا فماذا تقول يا كراب وقبل ان يجيب كراب افرغ قدح الماء في فيه ثم قال

— ليس لي ما اقوله سوى انني كنت اود من صميم الفؤاد ان لا ابلغ هذه الانحاء المقفرة . انني انصحكما يا رفيقي ان تتبعا نصائح هذا الرجل فانتما سبب هذه المتاعب . انكما تريدان ان تجعلاني سارق الماسة واخبرتما غريباً بما تقصدان فكانت نتيجة ثرثرتكما ان عصبة من الاشقياء تتعقبنا الآن وهذا كاسياتي على حياتنا

وكان كراب يتكلم بلهجة ملؤها الاخلاص حتى اوشك ان ينخدع بها نكارتر نفسه لولا ان براهين دامغة كانت تقنعه ان كراب بالرغم عن انكاره الشديد هو سارق الماسة

فلمعت شرارات الحقد في نظري دونيلسون وماتيو الموجهين الى كراب ثم التفت نكارتر الى دونيلسون وسأله قائلاً : هل تظن انهم يهاجموننا هذه الليلة

— انني نظرت هولاء الاشقياء حين صعدت الى ذروة الرابية فوجدتهم في الوادي مشتغلين بتناول الطعام والعناية بالجريح وسيصلون الينا في الليل فقال ماتيو لم يبق للظلام الا ساعة واحدة

فتنهد كراب تنهداً كثيراً وسأل قائلاً . — هل يوجد مظاهر تدل على قرب وقوع المطر

— نحن معرضون من حين الى آخر لغيث ساكب

وكان نكارتر قد انهي العشا فدخن لفافته بهدو . وكان من مظاهر السكينة التامة التي تلوح على وجهه انها أثرت تأثيراً حسناً في نفس البقية . وبعد قليل اقبل الظلام

وكان نكارتر جالساً قرب الباب فالتفت الى الداخل وقال : اظن ان العصبة لا تتأخر طويلاً فاستعدوا للمصادمة

فقال ماتيو والحيرة لا تفارقه

— ماذا نقدر ان نصنع

— انهم يعتقدون دون شك اننا سنتحصن هنا فاذا اغلقنا باب الكوخ احبطنا ما يرومونه من حصارنا ولا اظنهم يعودون الينا راكبين ولكنهم يترجلون في الوادي ويتسلقون الصخر الينا

فقال دونيلسون:

— اننا نقابلهم سوية وهم يقابلوننا واحداً واحداً حقاً ان هذا موافق

— هل تنظرون ذلك الصخر عَلَى بعد خمسين متراً

وكان الليل حالكاً فلم يتبينوه ولكنهم عرفوا عماذا يريد ان يكلمهم

— اثنان منا يلوذان بذلك الصخر فيصيران كأنهما في معقل . فانتما يا دونيلسون وماتيو تذهبان الى هناك وانا والاعمى نتوارى وراء هذا الصخر المقابل وان يكن اقل مناعة من ذاك الا انه كاف . فاذا انحدر المهاجمون من الرابية شوبناهم بنار بنادقنا

فقال ماتيو : فكر في غاية الاصابة فتعال يا جورج

— نعم ان هذا التدبير حسن — قال البوليس — ان رصاصي تسوى اثنتين اما الاعمى فيحشو لي السلاح . اليس كذلك يا كراب

فاجاب التعس بلهجة اليائس . افعل كل ما تأمرني به . ثم افرغ قدح الماء في فمه وسار وهو يتلمس الحائط الى زاوية من الغرفة . ثم عاد وفي يده حقيبة ملأى بالخرطوش .

فسأله نكارتر : اهذه لي

— نعم . فقدني الآن الى الزاوية التي عينتها

فسار دونيلسون وماتيو الى الصخر الذي دلهما عليه البوليس وسار كراب ونكارتر الى الصخر المقابل عَلَى بعد خمسين خطوة من الصخر الاول

— لا يوجد في هذا الصخر سوى محل لرجل واحد فتمدد انت عَلَى الارض

فسأله الاعمى : وانت ماذا تفعل يا صديقي

— انا اجد ملجأ ليقيني المهاجمة من بعض النواحي

فتنهد كراب وقال كل هذا من اجل ماسة مشؤومة

فقال البوليس ضاحكاً

— نعم . انني بعد كل ما سمعته لا ارى اشأم منها . ولكن كفى الآن ! فاما ان يكون سمعي قد خدعني او ان المهاجمين اقتربوا ! اصغ

واصغيا فسمعا دوياً من غابة مجاورة وكان خفيفاً جداً في بادىء الامر ثم أخذ بالاشتداد شيئاً فشيئاً

واطلق بغتة طلقان ناريان من وراء الصخر الذي لاذ به دونيلسون وماتيو

فتململ البوليس وقال ما اشد حمقهما انهما اهديا الاعداء الى مكنهما عوضاً عن ان يجعلاهم البادئين . فهذه الغباوة والرعونة ستكلفهما كثيراً

وفي الواقع انه لم يكد الطلقان يلمعان حتى دوت ست طلقات من المهاجمين وكلها موجهة الى حيث خرجت النار

فايقن نكارتر ان الوقت قد حان فاطلق النار وللحال تصاعد في سكون الليل صراخ الم شديد . فقال البوليس قد اجدى الطلق عليّ ما اظن . ثم افرغ من مسدسه الخمس الطلقات الباقية بسرعة مدهشة . ثم امر كراب ان يحشو السلاح

وكان يسمع حركة الاعمى وهو يحشو المسدسات . وسمع ايضاً من قمة الرابية صراخاً وتجديفاً فقال قائد العصابة

يا للداهية . انهم اكثر مما ظننتهم

فسأله آخر قائلاً

هل جرحت يا وان

— نعم

— وانا ايضاً مصاب بجرح بليغ

فظن نكارتر ان الاعداء سيقاتلون وهم متقهقرون فاذا كان ذلك فما عليه الان يطلق طلقاً واحداً . او انه يفرغ سلاحه في الهواء

وفي هذه اللحظة دوى طلق من صخر الصديقين أجابه الاعداء بطلقات شديدة قوية

ونظر نكارتر شبحاً يتسلل بين الاشجار فصوب عليه المسدس واطلقه فاضطرب الشبح وتوارى في الغاب دون ان يهم بصيحة الم

-- هذه خسارة = قال البوليس = كنت افضل لو صرخ . لانه كان يلقي الرعب في قلوب المهاجمين

وهذا الطلق بدل الوجهة التي كان يقصدها المهاجمون فانهم عرفوا ان الخطر يهددهم من الجهة الاخرى . وللحال لمعت رصاصة وسقطت عليّ الصخر وراء نكارتر والاعمى . فتمدد نكارتر عليّ بطنه . اما كراب فانه حشا الاسلحة واعطاها لرفيقه الشجاع وهو يتململ وسأله :

هل تظن انهم يحاصروننا هنا

-- هذا ممكن

ولمعت طلقات جديدة بالقرب منهما

فقال البوليس وهو يحاول ان يتبين المهاجمين — عمل حسن

ثم سمعوا طلقاً من وراء صخر الصديقين . فلم يقابله الاعداء بالمثل

ثم ابتدأ الحصار الذي تنبأ عنه كراب ونكارتر

وقد سبقه سكون لم يفرغ في اثنائه نكارتر رصاصة من مسدسه ثم نظر بغتة دوران الفتيان المتسرعين

فنهض قليلاً وهو يحمل في كل يد مسدساً فافرغهما بالتتابع عَلَى المهاجمين بسرعة فائقة . وقد اصاب في الجميع تقريباً فكنت ترى هنا هيكلاً بشرياً ينقلب عَلَى الارض او يضطرب او يتوارى في الظلام

ولم يسكن الاعداء مدة طويلة بل عادوا الى المهاجمة فانطلقت رصاصة رفعت قبعة نكارتر وطرحتها عَلَى الارض . ولكن في ذات اللحظة سقط الرامي عَلَى الارض وهو يصرخ صراخ الالم

وكان نكارتر قد ابقى رصاصتين في كل مسدس

ولكن طلقاً بالقرب منه أَلفت انظاره فوجد كراب قد اطلق النار فسأله

ماذا صنعت هل انت مجنون . دعني لهذا العمل فعلينا ان نقتصد في الذخيرة

انت محق . ولكنني فكرت ان رصاصة تطلق صدفة ربما كان لها بعض النفع وقد تهيجت حتى لم امتلك نفسي

وظهر انه قد اصاب المرمى لان البوليس نظر شبحاً يميل ذات اليمين وذات اليسار ثم سقط وقد كان مؤكداً انه لم يطلق النار على هذا الرجل فتمتم قائلاً في نفسه

آه . آه . انني بدأت ان افهم

ولكن الوقت لم يكن وقت تفكير

فان ثلاثة اشباح اندفعت نحوه وهي تطلق النار بدون انقطاع حتى كادت تصم اذنا البوليس وكانت الرصاصات تمر بجانبه ولها صوت كفحيح الافاعي ثم شعر برصاصة قد خرقت قميصه ولامست كتفه . والحال غير نمط المهاجمة فعوضاً ان يبقى في مكمنه انقض عَلَى مهاجميه وهو يثب وثب النمر وافرغ من مسدسه رصاصة صرعت اقربهم منه

وكان الثاني قريباً جداً من نكارتر فاستعمل نكارتر مسدسه كهراوة وضربه عَلَى رأسه ضربة كانت القاضية عليه فسقط المسكين عَلَى الارض

اما الثالث فركن الى الفرار لا يلوي عَلَى شيء كأن الموت يقتفيه ثم توارى في الوادي فتركه نكارتر يفر

وهذه البسالة الفائقة من رجل واحد قررت النصر والظفر

ثم التفت نكارتر الى صديقه الاعمى وقال له اما الآن فسنعود الى الكوخ اذ لم يعد من خطر

فنهض كراب واستند بيديه عَلَى ذراع البوليس · فلاحظ هذا ان الاعمى قام بهذه الحركة بسكون ولم يخامرها شيء من الاضطراب والتردد الذي كان يرافق اقل حركاته ·

كان الاعمى يتشكى منذ مدة يسيرة انه عصبي المزاج سريع التأثر ولكنه في هذه اللحظة كان يظهر انه ليس اقل جلداً من نكارتر نفسه · فقاده البوليس الى الكوخ · ولما وصل الاثنان الى الباب وضع نكارتر يده عَلَى فمه ليستجمع قوة صوته ونادى الرفيقين الباقيين ان اخرجا من مخبإكما فكل شيء قد انتهى وللحال ابصر رجلاً يعجل السير نحوه وكان هذا الرجل ماتيو · فسأله نكارتر : اين صديقك ؟ فاجابه ماتيو بصوت متلجلج · قد مات · أصابته رصاصة عند الطلق الاول نفذت الى دماغه

— آه ما اتعسه ! ولكن لماذا عرض نفسه للخطر بتصديه لاطلاق النار اولاً

— لماذا · لانه ظل متهوراً الى الساعة الاخيرة · فاني توسلت اليه ان يتربص قليلاً ولكنه ابى الا ان يكون البادىء · وحالما اطلق النار رفع رأسه ليرى اذا كان اصاب المرمى وفي الدقيقة عينها صاح صيحة مرعبة وسقط بين ذراعي ميتاً

— اني سمعت تلك الصيحة ولكنني ظننتها نشأت عن الاعداء · ماذا تريدون ؟ ان الذي لا يصغي الى النصائح تكون العاقبة وبالاً عليه والآن فلننظر خسائرنا فهل انت جريح يا رفيقي

— كلا · وانت

— انني خمشت في ذراعي فهل عندكم مصباح

وكان مع نكارتر مصباحه الكهربائي ولكنه فضل ان لا يستعمله لئلا يثير الشكوك في نفس الرفيقين وكان يشعر بحاجة الى الحذر والاحتراس كلما تقدم خطوة · وفوق ذلك فانه لم يتمم وظيفته بعد فبالرغم عن كل ما قام به فالماسة ما زالت مفقودة

فقال كراب هناك مصباح في الزاوية

وبعد ان أوقدوا عدداً كبيراً من الثقاب (عيدان الكبريت) وجده ماتيو فاضاءه في اثناء ذلك كان نكارتر قد خلع ملابسه ورفع كم قميصه فظهر عَلَى ذراعه جرح خفيف فقال البوليس ان الرصاصة كانت مسددة · ولنخرج الآن لنرى ساحة

القتال ثم تناول المصباح واقترب من الباب ·

فصرخ ماتيو

هل انت مجنون · فإذا كان احد الاعداء مطروحاً عَلَى الارض وله مكنة عَلَى اطلاق النار افلا يتخذ منك هدفاً مناسباً

— هذا صحيح · ولكنني اشك في بقاء احدهم حياً واذا وجد احد فهو لا يؤثر النزاع · وعند اقترابه من الاشجار ابصر شبحين يقتربان ببطء فصاح به احدهما

لا تطلق النار ايها الغريب فاننا قد نلنا فوق الكفاية

= كما تريدون ايها الاصدقاء انا قوم مسالمون ولا نود ان نؤذي احداً ولكن اذا كان جلد احد كما يأكله فما عليه الا ان يعود · فما زال لدينا ذخيرة معدة لخدمته ونستأنف الدور · فلم يجيباه وعندها تقدم البوليس فرأى عَلَى نور المصباح ان احدهما كان جريحاً جرحاً بليغاً واما الجريح الثاني فكان خطبه ايسر فسألهما هل خرج احدمنكم سالماً من المعركة

— نعم · ثلاثة

— واين هم

— انهم نجوا كالارانب واختبأوا في الكهف

= كذلك يفعل الابطال · اني اراكم قادرين عَلَى المسير فاذهبا وادعوا اصدقاءكما · نوبا عني تحيتهم ونادياهم ليرجعوا او يعنوا برفاقهم وليطمئنوا من جهتنا فاننا سنساعدهم في مهمتهم · ولكن اصغوا : اذا كنتم عازمين ان تعيدوا المشهد فاننا سنجعل اجسادكم قوتاً لذئاب هذه الغابة

فتمتم احد الرجلين

يا اله السماء · اننا نلنا اكثر من حسابنا · فكن مطمئنا · فنحن لا نريد الا المسالمة عَلَى شرط ان تقابلنا بالمثل

ثم ودعا البوليس — وداعاً بسيطاً — وانحدرا مسرعين الى منحنى الكهف ثم عادا ومعهما الاصحاب الفارون

وفي خلال غيابهم جال نكارتر في ساحة القتال ليرى اذا كان في وسعه ان يساعد احداً من الجرحى · فوجد اثنين منهم ضمد جراحهما بمناديل احضرها ماتيو من الكوخ خمسة من المهاجمين في جملتهم القائد سقطوا في المعركة

فقال البوليس وهو يفكر

يحزنني ان اضطر الى الفتك بهؤلاء . ولكننا كنا ندافع الدفاع الذي يجيزه الشرع . فلو لم ندافع لكانا قتلانا الواحد بعد الآخر وظل الثلاثة الاصحاء نحواً من ساعتين حتى واروا قتلاهم في الثرى واعانوا الجرحى الى بلوغ مرابط الخيل. ثم توارى هولاء الفرسان عن العيان وكانوا منكسي روؤسهم حزناً لاخفاق سعيهم فعوضاً ان يلاقوا الماسة لاقوا الضرب والرصاص

وعند ما بعد الاعداء قال جاك الكاذب اول فرض يجب علينا القيام به هو ان ندفن دونيلسون . فاستحسن ماتيو هذا الفكر واشتغل الاثنان بحفر ضريح لجسد رفيقهما فصرفا في هذا السبيل ساعة من الزمان

وفي اثناء ذلك كان المطر يتساقط غزيراً

وكان كراب جالساً داخل الكوخ ووجهه بين يديه وكان مضى الهزيع الثاني من الليل حين عاد كارتر وماتيو الى الكوخ

فقال نكارتر لا اعلم يا صديقي اذا كنتما قادرين عَلَى السهر اما انا فسأنام قال ذلك وهو يتثاءب

فقال ماتيو

لو اعطوني ذهباً لانام ما امكنني ذلك . .

ولكنه بالرغم من هذا الكلام اضطجع في زاوية من الغرفة وبعد بضع دقائق علا غطيطه واستغرق في النوم . ولكن البوليس لم يغمض له جفن

وكان الهواء يزداد رداءة . وقبل الفجر بقليل هبت عاصفة شديدة يصحبها برق ورعد . ولكن ماتيو لم ينتبه البتة بل ظل مستغرقاً في النوم

وكان الظلام لم يزل سائداً عند ما لحظ البوليس ان الاعمى نهض بتأن ومشى عَلَى روؤس اصابعه نحو الباب . وكان يتقدم ببطء ولكن حركاته ليست حركات من فقد بصره

وهنا تلاشى الشك الاخير من نفس نكارتر . لقد شك به اثناء المعركة ولكنه تأكد الآن ان كراب كان من النوع المسمى (نكتالوب) والنكتالوبا هي خاصة في العين تمنعها من النظر الا في النور الضعيف او الظلام الحالك وهي واضحة في الهرة الداجنة التي تبصر ليلاً كما تبصر نهاراً

وهذه الحالة نادرة جداً بين بني الانسان ولكن نكارتر نظر مشهدها فكان كراب في النهار اعمى ولكنه يبصر جيداً في الليل

وقد قدر ان يخدع جميع من شاهده حتى اصدقاءه الاخصاء فانهم كانوا يعتقدون انه فقد بصره تماماً • ولكن لما اطلق النار رغم ارادته فصرع الرجل الذي استهدفه كابرع صياد كشف سره لنكارتر

وهذا الاكتشاف زاد شبهة كارتر فجزم بان كراب هو سارق الماسة دون غيره • وكان عليه ان يعرف مخبأها • ولم يفكر بايقافه بل حاذر كل ما من شأنه ان يلقي الريب في نفس الاعمى قبل ان يعرف مخبأ الماسة

ان هذا النكتالوب اظهر مهارة فائقة لا في سرقة الماسة فقط بل بتغييبها على شكل غامض حتى لم يجدوها معه ولا في ثيابه • فكان البوليس متكلاً على الصدفة وان يدع السارق اميناً

ولهذا لم يعارضه حين خرج تحت المطر المتساقط كافواه القرب بل نهض بتأن ليتبعه

إن الثبات الذي كان يسير به كراب في تلك الارض الوعرة والمغطاة بالعوسج وليس فيها طريق مطروق اذهل البوليس اذ انه على الرغم من نظره الثاقب ومن اعتياده المسير في الليل والنهار بين الوعور والآكام كان يبذل جهداً شديداً كي لا تزل به القدم

وكان كراب يتقدم دون تردد ولا تأخر وبدأ بالنزول على الصخر الى مصب النهر

فضاق صدر نكارتر لانه لم يعلم كيف يتبع النكتالوب في هذه الليلة الحالكة فوقف لحظة ليفكر فسمع بغتة وقع خطوات وراءه • فالتفت واذا ماتيو قد انقطعت انفاسه من سرعة الجري وكان قد وصل الى حيث كان البوليس فقال له بصوت منخفض

انني نهضت فجأة ونظرت نور البرق فوجدتك قد خرجت من الكوخ فهل تقدمك

— بدون شك — اجاب نكارتر وهو شديد العجب من تصرف ماتيو انه قد خبأها في الكهف على ما يظهر

فآلى ماتيو على نفسه ان يلحق به وكاد يندفع في سبيله فامسكه نكارتر بيد شديدة فاثبته في محله وقال له ببرودة

انتظر دقيقة بعد يا عزيزي فعندي شيء اريد ان اوضحه لك فارتعش ماتيو • فانه رأى ان سلوك جاك الدعي لم يعد هو ذاته حتى ان لهجة صوته تغيرت ثم قال :

— ماذا تريد ان تقول

— انني بوليس ليس الا وانا مكلف ان اعيد الماسة الى صاحبها الشرعي الذي سلبت منه . فحين تصل الماسة ليدي اعيدها الى دلمار . اما انت يا مسيو ماتيو فانا لا اريد منك شيئاً ولكن اذا حاولت ان تقاومني او تحبط ما احاوله فستندم على ذلك . فوقف ماتيو دقيقة دون حراك كأن الصاعقة قد انقضت عليه وحاول عبثاً ان يتكلم

— بو . . . . ليس . . . . بوله . . . . يس — تمتم اخيراً . وانت انت . . ت . . تر . . . قبنا .

— انا لا اقتفي آثارك ولكنني الاحق كراب . كنت افعل مثلكم

قال نكارتر ببشاشة — فانني كنت اعلم منذ زمن بعيد انك لا انت السارق ولا دونيلسون ولكنكم صممتم ان تستردوا الماسة ولكن لا لتعيدوها الى صاحبها بل لتبقوها لانفسكم .

— لكن . . . لكن . . . لا اعرف . . . اريد ان اسألك . . . ماذا تدعي

— ادعى كارتر من نيويورك وعادة يدعونني نكارتر

— يا الهي

فارتجفت جميع اعضاء ماتيو واستلقى على صخر وهو يحاول ان يستعيد نفسه

— صمم الآن — قال البوليس انني قدمت لك نصيحة حسنة وانا آمل ان تقابلني بالمثل وهذا كل ما اطلبه منك

— اعتمد عليّ يا مسيو كارتر . فلتحرسني السماء من عداوتك

— لا احتد عليك — قال البوليس — وقد اخذته الرأفة على ضعف ماتيو ورعبه . فلنسمع .

— كل ما تريد

— هل انت شريك كراب

— نعم ولكن لا في سرقة الماسة

— اعرف هذا . ولكنك تعرفه منذ زمن طويل . هل تعرف انه كان نكتالوب « يعني اعمى في النهار » ويرى في الليل

فنظر ماتيو الى مخاطبه بعجب

— حقاً انك لاحظت ذلك . انني اشتبهت به منذ زمن طويل وكدت اتأكد

— واخيراً تبدل شكك باليقين

— لا ولكن بالعكس بل كثيراً ما كنت اغالط نفسي . فان كراب اذا لم يكن سوى نيكتالوب فانه امهر ممثل عرفته في حياتي

— انا على رأيك في هذا الامر . انه نكتالوب واقدر ان اوكد ذلك

— هل تعرف اين خبأ عين الشيطان . .

— لم الاحظ اقل شيء من ذلك . ولا اقدر ان اجزم فيما اذا كانت الماسة في حوزته فليس عندي اقل برهان سوى الاستدلال والاستنتاج .

— وانا من رأيك .

— ارجوك — اذا كنت تريد الخير لنفسك — ان لا تكتم عني شيئاً علمته واقدر ان استفيد منه شيئاً

— اقول لك الحقيقة يا مسيو كارتر كما لو كنت اتكلم بعد القسم وأوكد لك انني افادي بكل شيء حتى لا احاديك .

— حسناً — وانا اسمع — عند ما اجتمعت بصديقك دونيلسون وصادفتما الاعمى هل كان في الكوخ

— لا . كان الكوخ خالياً . ولكننا وجدنا آثاره فجزمنا برجوعه

— ومتى رجع

— امس مساء

— اول الليل

— نعم

— اذن فهو في الليل يرى بجلاء اذ كيف يمكن الاعمى ان يجول وحيداً في هذه المقاطعات المنفردة . او لم ينبهك ذلك الى انه نكتالوب .

— نعم ان هذا الفكر داخلني . ولكنني لم افهمه لدونيلسون بكلمة

— هل عرفت شيئاً عن المحل الذي كلفت فيه كراب . . . .

— لا اعرف . . . ولكنه اتى من هذه الجهة . ثم اشار الى جهة الكهف

— فهل تظن انه ينزل الى هنا الى الكهف . . . .

— اننا راقبناه طول الليل . فلم ينكشف لنا من الامر شيء حتى وصلت الينا . وقد تفننا في سؤاله واخيراً فرغ صبرنا فعولنا على ارغامه ليعطينا الماسة طوعاً او كرهاً

— انكما تصرفتما بكل خرق في التذرع بالوسائل ولو لم اباغتكما لكنت الآن قاتلاً شقياً امام الله والناس

فارتجف ماتيو وغطى وجهه بيديه ثم قال وهو يتململ

— كنت اود لو لم اتداخل في هذه القضية . مع اني انا . أنا الذي زينت لدونيلمسون اتباع الاعمى واغتصاب الماسة

— اني قلت لك واكرر ما قلت . ليس في صدري شيء عليك لا شخصياً ولا بداعي الوظيفة ويمكنك ان تنسحب الآن دون ان تخشى شيئاً . ولكن كن حكيماً في المستقبل . وانصح لك الآن بالرجوع الى الكوخ مسرعاً كما تفر من الموت . اما انا فسأتبع الاعمى الى الكهف

— دعني اصاحبك يا مسيو كارتر . اني فكرت ملياً في ذلك . فقد كانت هذه الماسة مشؤومة فالقتني في هذه الوهدة . واريد الآن ان ابذل الجهد المستطاع لاردها الى صديقي القديم دلمار

فقال البوليس وهو يرفع كتفيه

— كما تشاء اذ لا اجد مانعاً من اجابتك الى ما تطلب . ولكنني اود ان الفت انظارك الى الخطر الذي تسعى اليه فان كراب يحمل مسدسه وهو يرى في الظلمة كما يرى الهر .

— اذا لم اكن مخدوعاً اقول انه خبأ ايضاً بندقية في الكهف ولكن هذا لا يثني عزمي عما اروم

— حسناً جداً . ولكننا نحتاج نوراً لئلا نعثر في انحدارنا لاننا لسنا من فصيلة (نكتالوب) كما تعلم

— ساذهب الى الكوخ وافتش عن المصباح

قال ذلك وهم بالذهاب فامسكه نكارتر بذراعه وقال له

لا حاجة لذلك فان معي ما يغنينا . واخذ من جيبه المصباح الكهربائي واناره بضغطه على الزر

فأبصرا امامهما ممراً ضيقاً متحدراً كثير المزالق يؤدي بعد معاناة الاخطار الى قاع الكهف . فتدرج الاثنان في هذا الطريق وهما متحدران . ولكنهما أسرعا في المسير على قدر الاستطاعة

وصلا ايضاً الى ارض جرداء ولم يكن فيها سوى طريق صغير متعرج ضيق مملوء بالحجارة المحددة الرؤوس التي كانت تمزق الاحذية وكان على يمينها صخر ينهض الى الاعالي حتى تغيب قمته في السحاب وعلى يسارها النهر بامواجه المزبدة فسأل البوليس اي طريق يسلكه كراب عند مروره من هنا ·

ولم ينتظر طويلاً حتى يسمع جواباً على ذلك فان شهاباً لمع للحال قرب النهر وسمع دوي طلق نار رعب نكارتر رعباً شديداً

وصرخ ماتيو صراخاً هائلاً وأن انة جزع لا تترجم بالكلام ثم رفع ذراعيه الى السماء وحركهما هنيهة وبعد ان خطا بضع خطوات الى الوراء سقط الى الارض لان الرصاصة كانت قد اخترقت قلبه

ولكن نكارتر لم يفقد صوابه فادار نور المصباح الى الجهة التي اتى منها الطلق ولكن النور لم يبلغ المسافة المطلوبة حتى يرى من هو الذي اطلق النار · فعزم البوليس ان يتبع مجرى الحوادث ·

وبعد لحظة دوى طلق آخر أصاب المصباح الكهربائي الذي كان في يد البوليس ولحسن الحظ كان نكارتر ماداً يده بالمصباح لتطول المسافة التي يبلغها نوره فرضت يده الصدمة الشديدة · وحين فقد النور عرف شدة الخطر الذي وقع فيه اذ كان لخصمه تلك مزية كبرى في انه يرى بجلاء على رغم الظلام المتكاثف او بالاحرى بواسطته

ولكن البوليس لم يكن يرى شيئاً فراح يعدو الى جهة الصخر ليتحصن به

فوفق الالتجاء الى تجويف ضيق في الصخر انسل اليه بصعوبة وهناك ربض ينتظر النتيجة بفارغ الصبر

فدوى طلق جديد وقع على الصخر الذي كان البوليس على وشك مغادرته فقال : اذن ينبغي ان اقيم هنا دون حراك فانني اذا خاطرت في التقدم خطوة الى الامام اصابتني رصاصة شدخت رأسي · لان هذا الحيوان يصيب المرمى احسن اصابة · ومع هذا فان مقامي ليس اقل خطراً من التقدم فقد يمكن ان يبلغه كراب دون ان اشعر به

وفي هذه اللحظة دوى الرعد فرددت صدى دويه الاودية بما يصم الآذان ولمع البرق فاضاء تجويف الصخر وتلك الارجاء كلها حتى سهل النظر على البوليس

اغتنم نكارتر هذه النهزة وحاول ان يستفيد منها عالماً ان كراب لا يستطيع فيها شيئاً بسبب ضعفه · فخاطر حينئذ ورفع رأسه قليلاً ليرى خصمه فوجده على بعد خمسين

خطوة واقفاً امام ضفة النهر وهو يحمل باليد الواحدة بندقية ويستر عينيه بالاخرى حتى لا يبهره النور . . . .

فعمد نكارتر الى الاحتيال الذي خلصه من مواقف اشد خطراً من هذا الموقف فأخذ قبعته وعلقها على رأس صخرة ثم نزل مسرعاً الى ضفة النهر حيثما لا يرى

ثم اختفى نور البرق وساد الظلام ولم يعد البوليس قادراً ان يرى كراب فلم تمر لحظة حتى سمع دوي شديد وسمع كارتر صوت قبعته المتدحرجة على الارض . .

— لم يخدعني فكري فقد ظننت انه سيلحج قبعتي . وأومل ان يسقط الآن في الفخ وكان يسمع خطوات تقرب من المحل الذي كان جاثياً فيه كأنها تقتفي آثار قبعته لان كراب كان آتياً ليرى خصمه قتيلاً

ولم يكن كارتر قادراً ان يميز شيئاً في الظلمة ففضل ان يستمر على سكونه ولم يشأ ان يخاطر بطلق ناري يجعله هدفاً لنار (نكتالوب)

ولكن يجب ان نؤمن بآلاء خاص للبوليس السري فان لمعة برق اشد من التي سلفتها انارت الكهف حتى ظهرت اشجاره وعوسجه ورؤوس صخوره . .

فوقف كراب فجأة ووضع يديه على عينيه متألماً لان النور بهرهما وسكن بدون حراك كأن نار السماء قد احرقته

وللحال وثب البوليس وارتمى عليه . فشعر كراب بدنو خصمه فصاح صياح الغضب وقد ارتجف غيظاً لان نور البرق لم يكن قد اختفى بعد فحاول ان يقابل البوليس ولكن هذا كان اسرع منه فقبض على فم البارودة قبل ان يطلقها كراب فضاع الطلق في الهواء وسمع له دوي اضطربت له تلك الصخور من اسسها

ولسوء الحظ عادت الظلمة ثانية

وقام بين الرجلين صراع شديد . وكان اليأس يضاعف قوى كراب وفضلاً عن ذلك فانه يرى في الظلام بينا كان نكارتر يصادف مشقة شديدة ليقبض على خصمه وقد قلل كراب بخفة النمر فكان يثب ويضرب ويزمجر ولكنه تعب اخيراً فقبض نكارتر على رقبته بذراعيه الشديدتين . وانهارت التربة التي تحت اقدام الرجلين فجأة لما تخللها من المطر . ففقد كراب الموازنة ولكن البوليس نجا بوثبة وثبها الى الوراء من خطر التدحرج من رفيقه الى اعماق النهر . .

ولمع البرق فأنار تلك الارجاء فابصر نكارتر خصمه متدهوراً في ذلك المنحدر

لزهو يحاول ان يتمسك بالعوسج فخاب ما حاوله . وسقط المسكين في النهر وقد صرخ هذا التعس وهو على وشك الهلاك :

" فلتكن ملعوناً . فلتكن ملعوناً . انك لن تظفر بالماسة البتة . البتة . البتة . وطفت عليه مياه النهر فصاح صيحة هائلة جمد لها الدم في عروق نكارتر ثم غاص في الماء

***

وبعد بضعة ايام وصل البوليس — وهو الوحيد الذي بقي حياً من العصبة الى مقاطعة في الاريزونا فيها مكتب للتلغراف . فراسل باتسي الذي كان باقياً في دانفر كما امره وعلم منه ان دلمار سافر الى سان فرنسيسكو فاجابه نكارتر تلغرافياً بما يأتي

سأقابله في سان فرنسيسكو واطلعه على تفصيل الحوادث اما انت فيمكنك ان تذهب الى نيويورك .

وكان نكارتر بعد الواقعة قد جاس الاراضي وسترى نتيجة فعله . ثم عاد يلتمس الجواد فوجده حيث عقله اما سائر المطايا فقد هلكت برصاص المتقاتلين . واستمر البوليس مسافراً على ظهر الجواد حتى وصل اول موقف لسكة الحديد فركبها الى فرنسيسكو وهو يتنهد تنهد الراحة لانه وجد اخيراً في غرفة متقنة فيها جميع معدات الراحة والرفاهية

وفي فرنسيسكو قابل دلمار التاجر الهندي القديم ووضع في يده الماسة الثمينة التي كان يعتقد انه فقدها الى الابد . فكان تأثر التاجر شديداً حتى تعذر عليه النطق بضع دقائق ثم دعا البوليس الى تناول الطعام وسأله ان يقص عليه الحوادث التي جرت

فقال نكارتر

ليست مهمة جداً — قال ذلك لانه كان يكره ان يذكر الاعمال الفائقة التي قام بها — ولكنني اقول انه كان من المستحيل علي ان الاقي الماسة لو لم اعرف كيف سرقت

فقال دلمار

اؤكد لك اني لا اعرف ايهما يسرني اكثر ان تعود الماسة الى حوزتي ام ان اعرف الاسلوب الخارق الذي سرقت به

— ان اللغز الذي حير الباب كان بسيطاً للغاية . فكانت مظاهر الصعوبة التي تجلله اشبه بالظاهر التي جللت اركاز بيضة خريستوف كولومب .

يجب علي ان اقول لك ان كراب كان كالبوم اي انه لم يكن يرى في النهار ولكنه في الليل يرى بجلاء وعلى هذا فكان يستحيل عليه ان يرى على النور الكهربائي .

ولكنك لما التفت. وضغطت الزر فأظلمت الغرفة نظر الماسة تلمع في ذلك الظلام فخطفها ورماها في قدح الماء الذي كان امامه

ولما شعر انك ستعيد النور حالاً وضع القدح على فمه واذ لم يكن للماسة لون استحال عليك ان تراها في القدح

فصادق دلمار على كلامه وقال

والاغرب من ذلك ان الماسة كانت تحت يدك عندما كنت تفتش جيوب اصحابك وثيابهم

وعندما طلب كراب منك أن تناوله قدح الماء قبل ان بارح الغرفة قدمت له الكأس والماسة معاً وقلبك منسحق للاهانة التي وجهتها لهذا الضعيف اليس كذلك يا موسيو دلمار ان هذا يميت من الضحك

وانك تذكر جيداً انه بعد ان تناول الماء كله فاقتصر على الانحناء امامك وقد عزوت هذا لانفعاله الشديد من الاهانة حتى وقفت الكلمات على شفتيه آه آه آه.

وعندما خرج من الغرفة تناول الماسة من فمه ووضعها في جيبه وقد اتى مثل ذلك مراراً في الكوخ حيثما اجتمع عليه صديقاه واني اؤكد ان الماسة كانت امامه في الكاس حين شرعنا بالقتال مع البرابرة . واذكر ايضاً انه افرغ القدح في فمه قبل ان يجلب لي حقيبة الرصاص ولا شك ان الماسة كانت عندئذ في فمه ثم خبأها في الكهف

ولكي اختصر القصة اقول لك انني خفت خوفاً شديداً لما سقط كراب في النهر من ان تكون الماسة معه فلا يعود في اليد حيلة كما تعلم واخيراً عزمت ان لا ابارح الكهف بل انتظر طلوع النهار واخيراً بدأت بالتنقيب بين الصخور

ولم يكن لي مطمع ان اجد جثة كراب فانني لم اقف لها على اثر وبعد ان فحصت الحاجز الصخري وجدت تجويفاً فيه يؤدي الى مغارة وكان في المغارة قوت وغطاء من الصوف وبندقية ومسدسان وعدة حوائج أخر

ولا يقتضي فطنة كبيرة حتى يعرف الانسان ان هذه المغارة هي مخبأ حصين وقد انتقاها كراب عند مبارحة الكوخ وأجاد في انتقائها لان رجلاً فيها يمكنه ان يحارب جيشاً على شرط ان يكون عنده الذخائر الكافية

واخذت انقب في زوايا الكوخ ومكانه ولكن آمالي خابت في ان اجد الماسة فيه إذ لم يلح لي اقل أثر منها وكدت ايأس لولا انني لحظت في جنب الكهف صخراً على شكل

مائدة وفي وسطه تجويف طبيعي صغير ملآن ماء

اقول تجويف طبيعي ولكن الامر كان بالعكس لانه كان من المستحيل ان يتسرب الماء من نفسه الى ذلك التجويف فكان من الواجب ان تكون يد انسان قد صبتها فيه فوضعت يدي في هذه الماء فوقعت على جسم صلب لا اراه ولكنه كان موجوداً لانه كان يقاوم اصابعي ولله ذلك السرور الذي شعرت به فانني عندما جذبت ذلك الجسم من الماء كانت الماسة بعينها التي طالما بكيت عليها وحننت الى استرجاعها . هذا هو حل اللغز

ثم استلقى نكارتر على مقعده واغرب في الضحك

فاستحوذ العجب والدهشة على دلمار وكان يتنازعه عامل السرور باستعادة الماسة وعامل الاحترام لذلك الشجاع النبيل المهذب فنهض وطوق عنق البوليس بذراعيه وجد في تقبيله قبلات شديدة اما نكارتر فلم يمانعه في ذلك البتة

ثم قال دلمار

ان كراب هذا هو ادهى لص لقيته في حياتي اليس كذلك يا مسيو كارتر ؟ انني لا اعرف كيف اعبر عن شكري العظيم

فتبسم البوليس . ثم استأنف دلمار الكلام فقال :

ان الماسة صارت اعز عليّ الآن بعد ان تعرضت لخطر الضياع . ولكنني كنت اود ان اعلم ماذا جرى بكراب

فقال البوليس وهو يرفع كتفيه —انني لم آل جهداً في التفتيش عنه فذهبت مساعيّ ادراج الرياح واعتقد الآن انه يرقد بسلام في اعماق نهر كولورادو . . . .

وقفة عند يلدز

لمن القصر لايجيب سؤآلي آهلات ربوعه أم خوال
مشمخر البناء حيث ترآى باليا مجده بلى الاطلال
لم تصبه زلازل الارض لكن قد رمته السماء بالزلزال
وكسته الايام بالصمت لما نطقت فيه حادثات الليالي
فترآءت ابكاره شاحبات باكيات باعين الآصال

***

ايها القصر ايه بعض جواب لاتكن ساكتاً على تسآلي
ليت شعري والصمت فيك عميق ذاكر انت عهدهم ام سال
ماتداعى منك البناء ولكن قد تداعى بناء تلك المعالي
كنت كل البلاد في الطول والعر ض وكل العباد في الاعمال
كنت مأوى العلى مثار الدنايا مهبط العز مصدر الاذلال
كنت جباً واي جب عميق بالعا للنفوس . والاموال
مورد الخائنين كنت وكانت منك تدلى مطامع العمال
قصر عبد الحميد انت ولكن اين ياقصر اين عرش الجلال
اين خاقانك الذي كان يدعى قاسم الرزق باعث الآجال
ما أرى اليوم ذلك المجد الا كخيال يمر بعد خيال
هل وقوفي على مبانيك الا كوقوفي على الطلول البوالي

***

قد تخوّنتنا ثلاثين عاماً جئت فيها لنا بكل محال
تلك اعوام رفعةٍ للاداني ۔ تلك اعوام حطةٍ للاعالي
تلك فيما جرت به نقطة سو داء تبقى بجبهة الاجيال
ملأت خطة الزمان شناراً فأبتها كل العصور الخوالي
يثب العدل طافراً كلما مـ رّ عليها مشمر الاذيال
وكأني ارى اضطراب نفوس كنت تغتالها واي اغتيال
اسمع الآن فيك ماكان يعلو من أنين لها ومن اعوال
حائمات على الذي فيك ابقيـ ن دفيناً من الرفات البوالي
تلك ياقصر انفس انفت منك فطارت الى سماء المعالي
وترقت الى ذؤابة أعلى كوكب في سمائه جوال
وهي اليوم أحرقتك بشهب قذفتها عليك ذات اشتعال
لم يضع مجدها وان هي امست ضائعات الاشلاء والاوصال

***

كيف ننسى تلك الخطوب اللواتي لقحت منك حربها عن حيال
يوم كنا وكان للجهل حكم خاذل كل عالم مفضال
آمر من عتوه كل امر يغرس البغض في قلوب الرجال
افاصبحت نادماً ايها القـ صر تبالي بالقوم ام لاتبالي
لم تفدك الندامة اليوم شيئاً قضي الامر فاصطبر باحتمال
وعزاء فلست اول قصر نكس الدهر من ذراه العوالي
قد تداعى من قبل ايوان كسرى بعد ان طال شاهقات الجبال

وكاين من قصر ملك ترامى ساقطاً بالملوك والاقيال
فابق يا قصر عابس الوجه كيما يصبح الملك باسم الآمال
وتعثر فلا لعالك حتى ينهض العدل ناشطاً من عقال
انما نحن امة تدرأ الضيم وتأبى ان تستكين لوال
امة سادت الانام وطابت عنصراً من اواخر واوالي
فاذا ماعلا الغشوم نهضنا فقذفناه سافلاً من عال
نملأ الارض ان مشينا لحرب بزئير الغضنفر الرئبال
واذا ما غل المليك رددنا ه ذليلاً يقاد بالاغلال
نحن من شعلة الجحيم خلقنا لاولي الجور لا من الصلصال
ياملوك الانام هلا اعتبرتم بملوك تجور في الافعال
ليس عبد الحميد فرداً ولكن كم لعبد الحميد من امثال
فاتركوا الناس مطلقين والا عشتم موثقين بالاوجال
هل جنيتم من التجبر الا كل اثم عليكم ووبال

الاستانة   معروف الرصافي

تدبير الصحة

اتفق لنا ونحن نعجب بالنبذة التي ننشرها لابي زيد البلخي من اهل القرن الثالث في تدبير الصحة ان عثرنا في « المجلة » الباريزية علي بحث للدكتور هيريكور الفرنسوي في هذا المعنى نفسه فرأينا تعريبه ليقابل القراء بين القديم والحديث قال : الصحة اعظم النعم ولا شيء يوازيها من سلطة وثروة في جلب الراحة بل ليس من سعادة اعظم مما توليه الصحة . ففي الصحة شعور بطول بقاء المرء مما يقوي الساعد عَلَى العمل والانتاج الى ما وراء التصور فيزيد في حسن الخلق الذي ينشر السعادة في اطراف صاحبه . والصحة الطبيعية شرط في الصحة الادبية لان من سلمت حواسه من العيوب واطرافه من الفساد يسلم عقله . والصحة الادبية عبارة عن قواعد من شأنها ضمان صحة الافراد والمجموع . ولا يظن ظان ان هذه القواعد تزيد في الانانية بل هي ولامراء مدرسة مدهشة بثت روح الغيرية لان خلق التضامن يتجلى في ابهى مظاهره في مسائل التدابير الصحية . والتضامن هو المحور الذي تدور عليه حياة المجتمعات البشرية في المستقبل .

وانا اشعر بالمسوءلية الادبية التي تصيبنا في المسائل الصحية العامة . مثال ذلك ان امرأ اذا كتم مرضاً ساريا ينشأ منه وباء يهلك فيه الوف من الناس افليس خليقاً به ان يدرك بانه اذا باح بالمرض يقاتله هو ومن حوله عَلَى حين لو كتمه لاودى به وبغيره فليس تدبير الصحة والحالة هذه هو تدبير الجسم فقط بل هو تدبير الاخلاق بمجموعها

يعلمنا علم منافع الاعضاء ان الجسم آلة لا تبقى على حالة حسنة كما هو الحال في جميع الآلات الا بالعمل . وعلم الصحة بما فيه من القواعد التي من شأنها حفظ حياة الفرد وحياة الجماعة يعلمنا ايضاً الطرق التي تضمن لتلك الاداة البشرية احسن نتائجها واطول ايامها وكيف يتمكن الآباء من ايلاد الاولاد الاقوياء النافعين . فاذا عرفنا من علم الفسيولوجيا كيف ان الفرد هو ابن محيطه فان العلم يشير الى تلك النقطة التي يجب عَلَى المقننين ان يوجهوا عنايتهم اليها اذا احبوا تحقيق اسباب حسن تربية الفرد التي لها اتصال بطبيعة الارض أكثر من اتصالها بنوع البذار اي بصحة الاجسام بأكثر من صحة التعاليم .

وعلى الجملة فان علم الصحة (الهيجيين) يأمر المرء بالعناية بصحته وصحة الناس و يشير اليه بالعمل و يدله على اسباب العمل الجيد و يبصره بعواقب الغرور ومخاطر الشهوات التي يطلب المرء فيها سعادته عبثاً وما هي في الحقيقة الا سيئة الاثر منهكة للقوى . نعم ان علم حفظ الصحة يمثل الصحة بانها السعادة الوحيدة الحقيقية و يبرهن بان غلط الفرد يلحق المجموع وان التكافل لا بد منه .

وانا بما نورده من النصائح نوجز المبادئ الجوهرية في حفظ الصحة في الفرد والمجموع ونلمّ ما يجب العلم به وانمل له من القواعد الاساسية التي نوجهها خاصة لمن كانوا في مقتبل العمر من الشبان والشابات

القاعدة الاولى — « يجب عليك ان تعنى بصحتك » لان صحة الفرد ليست له وحده بل هي للمجتمع ونجاح هذا وقوته منوطان بصحة مجموع من يتألف منهم . فالواجب على المرء ان يعمل بحيث يقدم للمجتمع ما يصيبه من الحصة من العمل والانتاج ومن يهتم بصحته كان كمن يسعى لابقاء تلك الآلة التي يملكها كل انسان للقيام بما يفرض عليه من العمل و يؤدي ما عليه للمجتمع الانساني . وتختلف عناية المرء بصحته بحسب حاله وشأنه فقد تضطره الحال في بعض الاحيان ان يفادي بصحته حباً بابقاء صحة المجموع ولذلك كان من الواجب على كل امرئ ان يقوي صحته حتى لا يقف ساعة امام ما يتحتم عليه بذله عند الاقتضاء

القاعدة الثانية = « اعلم ان العقل القويم بالجسم السليم » ان في مجموع تركيب الجسم كما في المجتمع جميع الحواس متكافلة بعضها مع بعض فالدماغ وهو حاسة الفكر والارادة معرض لعامة الامراض التي تصيب سائر الحواس كما هو عرضة لجميع النقائص ولذلك قضت الحكمة ان تبذل العناية بذاك المجموع النامي على اختلاف مناحيه ولا سيما اذا كان في ابان نموه . ومتى عني باحدى الحواس بنوع خاص يستأثرون سائر الحواس بالعناصر المغذية و يبطل عمل سائر الاعضاء وتقل تغذيتها فتنقطع الموازنة العادية في الصحة ولا تلبث تلك الحاسة الممرنة كثيراً ان تصير الى حال من الاضطراب وتفقد غناءها بما يصيبها من البوائق التي تسممها وتضيق عليها وتفلجها وعليه فاقتضى ان يعمل لكل حاسة ما تحتاجه من العناية سواء كان من حيث الفكر او الحركة

لا يضر البالغ اذا لم تعط كل حاسة فيه حقها بقدر ما يضر الطفل واليافع لان اعضاء هذا تكون في بدء امرها لم تستوف قسطها من الاستحصاف من اجل هذا وجب ان تجدد

بتدقيق صلات العمل الطبيعي والعمل العقلي ويقتضي للحواس قبل انتاجها ان تستعد لذلك واذا تعجل المرء في الالحاح عليها تفسد وتعطل · فتربية الطفل يجب ان تكون باعثة لمجموع الجسم عَلَى التقوية لا ان يعجل في استخدامها قبل اوان بلوغها ودماغ الولد لا يكمل الا بعد حين ولذلك اقتضى ان لا يطلب منه انتاج شيء قبل العمل ويكتفي بتلقين الولد العادات والاساليب التي تدربه بعد عَلَى العمل · وعَلَى العكس في العضلات فانها تقوى بسرعة وكذلك هيكل الجسم فانه يستحكم في السنين الاولى من الحياة ويقاوم احسن مقاومة فنرى ان يمرن الطفل من سن الخامسة الى العاشرة ساعة في الاشغال العقلية ومثلها في الاشغال الطبيعية ومن العاشرة الى الخامسة عشرة ساعتين في الامور الذهنية وثلاث ساعات في الاعمال العضلية ومن الخامسة عشرة الى العشرين ثلاث ساعات في الاعمال العقلية وساعتين في الاعمال العضلية · والاخير خاص بالشبان الذين يختصون بالاعمال العقلية والادبية والعلمية والفنية · ولا بأس في تلك السن بتعليم الاحداث صناعة يدوية اذ ان جمهور الفسيولوجيين عَلَى ان مهارة اليد تعمل عملاً نافعاً في جلاء الفكر وتؤثر احسن تأثير في قوة الارادة · بيد ان العمل اليدوي يعدل من العمل العقلي بل يكون له عوناً عَلَى تربية الفتى تربية عملية نافعة ويتمكن من تحصيل معاشه عَلَى كل حال فيكون مثال الرجل الحر المستقل

القاعدة الثالثة = « ليكن جسمك طاهراً نظيفاً عَلَى الدوام » = للجلد وظائف مهمة للصحة كالرئتين فانهما للتنفس والكليتين لافراز السموم التي تحدث من حياة الخلايا المؤلفة منها حواسنا وانسجتنا فالجلد كالرئة يتنفس ويرشح فبالعرق يفرز الجلد كما تفرز الكليتان مع البول مواد سامة وتنفع الكلي وبالرشح يتعدل مزاج الجسم لان الرشح هو العامل الوحيد في تركيبنا لمقاومة الحرارة شأن آنية يبرد ما فيها بتبخر السائل الذي يرشح الى سطح الطين ذي المسام · واذ كان الجلد سطحاً واقياً من الوسط الخارجي والعوامل الطبيعية والجراثيم يجب ان يترك نظيفاً ليحفظ نعومته التي بها يقاوم المؤثرات الخارجية فالجلد الذي لا يعنى به يتخرق ولا يقاوم فعل البرد وتدخل فيه الجراثيم التي تعلق فوق سطحه · وتحسن حالة الجلد بالدلك والغسل وصب الماء الحار او البارد عَلَى الجسم بحسب مزاج الانسان والمواسم · وربما لا تطيق بعض الاجسام صب الماء عليها ففي هذه الحالة يجب الاعتياد عَلَى الدلك والغسل يومياً لان ذلك شرط في تدبير صحة الجسم

القاعدة الرابعة = « اقلل من طعامك » ان خطر الافراط في الاكل يضر بنا في

الاغلب اكثر من التغذية القليلة فالطعام اذا كثر عَلَى المعدة وساء هضمه يوشك ان لا يستحيل بالهضم بدرجة كافية فتهيج به الاحشاء كما لو دخلت عليها مادة غريبة وتحدث المًا في الامعاء واذا بلعت لا ينتفع بها الا قليلاً اي لا تحترق الا بعض الشيء في داخل الجسم وهذا مثل الموقدة التي يختل تصريفها للدخان تمتلئ بجميع الفضلات الناشئة من اختلال الوقود · فالحامض البولي وهو اخص هذه الفضلات يسمم الدم او يهيج الانسجة التي تحويه فيصبح الاكول اذ ذاك عرضة لوجع المفاصل وغيره من الامراض · وتكون هذه العوارض عَلَى طول الزمن دائمة وقد كان يمكن زوالها وتبدو في شكل تكوين الحصاة او وجع المفاصل والبول السكري

فالافراط في التغذية وعنه يحدث الاضطراب في الهضم يتبعه في الغالب تخمر خارق للعادة في الاحشاء وتنبعث منه سموم متنوعة في قناتها ولا يأتي عَلَى هذه السموم المبتلعة الا الكبد ولكن اذا كثرت عليه وظيفته ينتهي به الامر ان يتعب ويصبح غير كاف عمله وعندها تحدث سلسلة من الاضطرابات التي تغير ميزانية الصحة والكفاءة للعمل ·

القاعدة الخامسة «اجعل الماء شرابك العادي» الماء هو الشراب الطبيعي ينفع في الهضم وتنقية الدم · ولا شك ان الماء يحوي جراثيم مضرة وهذه الجراثيم لا تبيد كما يزعم بعضهم باضافة شيء من الخمر اليها · فاذا اشتبه في الماء او كان ثمة خطر من وباء ينتقل في الماء كالحمى التيفوئيدية والهواء الاصفر · يجب غلي ماء الشفة وماء الاغتسال ولا يصح الاعتماد ابداً عَلَى راووق (مصفاة الماء اوفيلتر) البيت لانه يستلزم عناية كبرى لا تنهض بها الا المعامل الكيماوية ويحتاج الى التطهير والتعقيم مرة في الاسبوع عَلَى الاقل · والماء المغلي لا يسوء هضمه فلكي يجعل قابلاً للشرب يحتم تبريده وتهويته ويكفي ترويقه بالنفوير · وان الاشربة التي تؤخذ على الريق لا تبقى في المعدة بل تنساب في الحال الى الحشا الذي يبتلعه حالاً فلاحسن اذاً ان يشرب الماء في اول الطعام لا في اواخره وتبقى الاشربة التي لا تهضم في المعدة مع الغذاء ويحل العصارة المعدية ويبطيء عمل الهضم في المعدة

القاعدة السادسة — «امتنع من تناول الالكحول بتاتاً» ليست الالكحول غذاء بل هي سم قتال للخلايا العصبية ومروره على الكبد والكليتين يفسد عناصرها عَلَى صورة يتعذر الشفاء مما ينالها وان جسماً يقوى بالالكحول لقليل البقاء اذ يفقد ادوات دفاع الجراثيم الضارة عنه ويكون عرضة لعامة الامراض الالتهابية التي تشتد عليه اكثر ممن

يمتنع عن تناول المسكرات ثم ان اهم الاحشاء تصاب بتبال يؤدي بها الى العقر او يصاب نسل اولئك السكيرين بتشويه في اجسامهم لا يبرؤن منه . فكما قالوا ان الالكحول هي مقدمة لداء السل في شاربيها كذلك هي مدرجة للامراض العضالة في الكليتين والكبد واذا ورث ابن السكير نقصاً في جسمه تبلغ به الحال ان يكون جانيا او مجنوناً . وجميع ما يصاب به اولئك البائسون من تشويه الخلقة والهستيريا وضعف المجموع العصبي والصرع مما يقضون به حياة شقية ناشيء ولا جرم من تسميم دم ابيهم لهم وتوريثهم هذه الاوصاب

اما سائر الاشربة المقوية كالقهوة والشاي فليس فيها من ضرر من هذا القبيل وعَلَى كل فلا بد من الاعتدال فيها والا فلا تلبث ان تضر بالاعضاء الهاضمة . ومن الآراء الخرافية ما هو شائع عَلَى الالسن من ان القهوة تساعد على الهضم

القاعدة السابعة — « اذا كنت تعمل بعضلاتك اعتمد في طعامك عَلَى البقول واكثر من تناول السكر واذا كنت تعمل بعقلك فاعتمد في تغذيتك عَلَى اللحوم » يستلزم العمل بالعضلات طعاماً يكثر فيه الكربون اذ ان العضلات هي ادوات لانتاج الحركة والقوة تسخن بالفحم فالبقول تحتوي عَلَى اطعمة كربونية والسكر هو فحم العضلات التي توقد منه وعَلَى العكس في الاعمال العقلية فانها تصرف عناصر ازوتية لا يمكن التعويض عليها الا بتناول مواد البومينية من اللحم . واللحم النيء يصلح ما يفقده مجموع الجسم من الازوت اكثر مما يصلح اللحم المطبوخ

القاعدة الثامنة — « للوقاية من البرد اذكر ان قطعة من الورق تعادل معطفاً او حراماً » قد يحدث ان البرد يداهم المرأ عَلَى حين يكون بلا معطف ولا دثار ومعلوم ان ما يدفيء الجسم هو ان تجعل حوله طبقة من الهواء سخنة وهذا الغطاء يجب مضاعفته او تقليله لان الهواء كجميع الاغذية هو اسوأ موصل للحرارة ولذلك ليس من المهم ان تكون البسة المرء غليظة بل ان تكون كثيرة منضدة بعضها فوق بعض وفي هذه الحال ينتفع بقطعة من الورق كما ينتفع بثوب جيد بالنظر لقلة ثخانته اذ يجعل طبقة واقية من الهواء واذا وضعت جريدة تحت الصدرة او تحت الدثار تعادل بما تورث الجسم من الحرارة المعطف او دثاراً ثانياً

القاعدة التاسعة — « احذر البرودة (الرطوبة) اكثر مما تحذر البرد » لاشك ان اخص وظيفة للثوب ان يقي من البرد ولكن الامراض الناشئة من البرد نادرة جداً على حين ان الامراض المنبعثة من البرودة شديدة وكثيرة فاقتضى ان تكون الثياب مانعة

من التنقل الفجائي بين البرودة والحرارة اي من البرودة · والثوب الذي يقوم بهذه الغاية هو الصدرة من الفلانلا · ومعلوم ان الجسم المتصبب عرقًا معرض للبرودة بالترشح السريع من العرق · والفلانلا تمتص افراز العرق عند حدوثه وتقف حاجزاً دون برودة الجلد ونتائجه المضرة ويكون ذلك في الصيف والشتاء عَلَى حد سواء ثم ان الفلانلا في الحقيقة انفع في الصيف منها في الشتاء بالنظر لكثرة الرشح من البدن للحرارة الكثيرة وعَلَى من يلبس الفلانلا ان يعلم بانه اذا اراد ان يحفظ لها تأثيرها اي خاصيتها في الامتصاص يجب عليه ان ينزع في الليل مالبسه في النهار ويستعيض عنه قميصاً اخف منه · والمراوحة عَلَى هذا الوجه بين قميص الليل وقميص النهار ضرورية لابقاء صفات القماش عليه

القاعدة العاشرة — «اعمل بنشاط فالعمل من شروط الصحة» — وذلك لان الجسم الحيواني هو في الواقع آلة تخرج النشاط من طريق الحركة او من طريق الفكر · ولذلك كانت الآلة التي لا تأتي بالعمل الذي خلقت له لا يتيسر بقاؤها والآلة التي لا تستعمل تصدأ والصدأ يسرع في تخريبها اكثر من الابتذال وهكذا فان جسم الانسان لا يستقيم شأنه الا اذا استخدم فيما يراد منه · و يعرف الناس امثلة كثيرة من اولئك الذين ينقطعون عن العمل قبل الاوان ويتقاعدون في بيوتهم فلا تلبث البطالة ان تودي بهم الى الهرم فالموت · ومن قضي عليهم من الناس ان يمتازوا بمالهم من ثروة ان يعيشوا بدون ان يعملوا يشعرون مع هذا بالحاجة الى العمل فيعمدون الى الرياضات من ركوب الخيل والدراجات وغيرها مما هو في الحقيقة من الصنائع اليدوية يقوم بها اولئك الموعون بها ·

القاعدة الحادية عشرة — «اذا كنت تعمل بعقلك استرح بان تعمل بيديك واذا كنت تعمل بيديك استرح بالعمل بعقلك» — لموازنة الصحة علاقة بتوازن القوة عَلَى العمل في التركيب الانساني عَلَى اختلاف اعماله · فعلى المشتغل بعقله ان يجعل له من وقته حصة للاشتغال بالامور الطبيعية وذلك بان يخصص كل يوم ساعة او ساعتين للمشي وعَلَى من يعمل الاعمال اليدوية ان ينقطع قليلا للنظر في الامور الذهنية فيجب عليه ان يخصص لها مثل هذا الوقت ايضاً · وهذا من الضروريات التي تضمن لمتعاطيها سهولة هذه التربية لمساس الحاجة اليها في نفع الصحة الطبيعية والاخلاقية

القاعدة الثانية عشرة — «اصرف الراحة الاسبوعية في الخلاء» — تقضي دواعي

المدنية عَلَى العاملين من كل طبقة سواء كانوا عاملين بعقولهم او بايديهم . ان يعودوا من حين الى آخر الى الحالة الطبيعية التي يمثلها العيش في الخلاء . فالراحة الاسبوعية التي يمكن ان يقال عنها انها قانون السلام تمكن صاحبها من الرجوع الى الحالة الطبيعية عَلَى شرط ان لا يصرف المرء وقته في دور التمثيل ولا في الحانات بل يصرفه في تهوية الرئتين وتليين المفاصل وذلك بان يعمد الى الرياضات البدنية عَلَى انواعها ايضاً كالمشي والركض والقفز والتزحلق عَلَى الجليد بحسب سنه وذوقه والفصل الذي يكون فيه من فصول السنة . ويستفيد النساء والفتيان ويلتذون بالالعاب في الهواء الطلق مثل لعبة التنيس وركب الزوارق والدراجات .

القاعدة الثالثة عشرة — « ونم ثماني ساعات » — كان من قواعد تدبير الصحة في القديم ان لا يسمح للمرء بان ينام اكثر من ست ساعات الى سبع عَلَى انه لا وجه للشبه بين ما يعمله احد سكان مدينة آثينة في زمن افلاطون او احد سكان رومية في عهد هوراس وبين ما يعمله رجل بيده او بعقله في القرن العشرين . اما اليوم فان العامل بذهنه او ببدنه يقتضي له راحة اطول تعوض ما يتوفر عليه من شاق الاعمال ولا سيما في الاطفال والفتيان ممن لا يتم نموهم في الحقيقة الى نحو الخامسة والعشرين من اعمارهم . ولا يتوهمن متوهم ان اطالة الليل في النوم يستلزم تقصير النهار فليس السر في عدد ساعات العمل بل في الصورة التي تستعمل فيها فيتهيأ الفكر بعد الراحة المعوضة الى العمل والحركات تكون دقيقة وسريعة والآراء سليمة واضحة والعمل يتم عَلَى وجه اسرع واحسن . وماذا يفيد طول مقام المرء في مكتبه او معمله اذا كان يقضيها وهو سأم او كالحيوان المخدر .

القاعدة الرابعة عشرة — « لا تدخن ولا تمضغ التبغ » — التبغ من النباتات المخدرة للشعور المادي وتسلي اكدار الحياة تسلية موقته وبذلك يتوهم بعض المشتغلين بالاعمال العقلية انه ينشطهم ويبعثهم عَلَى العمل عَلَى انه يأتي عَلَى شعور المصاعب ويتغلب عليها ويلقي حجاباً عَلَى الحقيقة ولا يقف تأثيره في الدماغ فقط بل يتناول الاعصاب لان التبغ سم الاعصاب وهناك عصب يتأثر اكثر من غيره ونعني به القلب وما هو الاعصب من الاعصاب

وان المولعين بالرياضيات والعدو والصراع وركوب الدراجات والقوارب يحسنون صنعاً اذا طرحوا عادة التبغ لانه يفعل فيما يعانون من انواع الرياضيات . فينساق المرء بابل من العادة وقد يتعودها بصعوبة بادئ بدء بحيث يحتاج معها الى ارادة قوية

تتغلب عَلَى كراهة طعم التدخين حتى اذا ألفه يضر بالذهن ولا سيما في الخلق ٠
لا شك ان التبغ يثلم الشعور الطبيعي والاحساس الادبي فيقلل من الضجر والوسواس ويمنع الوجدان الادبي من الانبعاث ٠ ومن الصعب ان يحكم عَلَى مستعمل التبغ بان له وجداناً طاهراً سليماً وقوة ارادة ٠
القاعدة الخامسة عشرة — « يجب الرفق بالأم وهي حامل » — تراعى المرأة الحاملة انوع المراعاة فمنذ تحمل تتجه اعضاؤها كلها الى تكوين طفلها وكل ما يضر بصحتها يلحق منه ضرر عَلَى الرحم ويصده عن نموه العادي وقد تكون الهموم والاحزان والافراط في التعب اصل المشوهات الطبيعية والعقلية التي تنال الطفل منذ ولادته وتعذبه طول حياته ٠ فالواجب اذاً ان يمنع عن المرأة في خلال حملها كل ما يضر بخلقها ويغير صحتها الأم شخص مقدس تحمل في احشائها مستقبل الانسانية ورقيها ومتى كان حملها عادياً يتيسر لها ان تعمل بعض الاعمال الغير المتعبة الى آخر الايام التي تسبق الوضع ٠ وان ما ينبغي التوقي منه كثيراً معاودتها العمل بعد الوضع حالاً فقلة الراحة بعد الولادة تضر بحوامسها الباطنة فينشأ عنها اضطرابات تضعفها مدة حياتها وتضر بها في حملها بعد ذلك فيلزم للنفساء راحة تامة لا تقل مدتها عن خمسة عشر يوماً ثم تعاود العمل بالتدريج
القاعدة السادسة عشرة — « لبن الام خاص بابنها » — اذا كانت الام ممتعة بصحتها يجب عليها ان ترضع ابنها فلا شيء انفع له من لبنها كما ان اعضاء المرضع تضمن صحة الام لان الرضاع طبيعي لها ولذلك كانت كل امرأة لا ترضع طفلها نصف أم لا اماً كاملة ٠ فاذا عهدت بابنها الى مرضع تجهل او تتساهل اموراً كثيرة تجب العناية بها لحفظ صحة طفلها ولا ينتبه له ويهتم له اهتمامها غيرها ثم انها تكون في تلك الحال سبباً لاهمال طفل آخر وهو ابن المرضع ٠ وان طفلاً ترضعه ربيبة لهو طفل آخر ربي عَلَى الابريق ذي زمولة (مصاصة) والطفل الذي ترضعه غير امه تكون امه قد ارضعت الاثنين رضاعاً غير طبيعي والطفل الذي يرضع من غير ثدي امه بعيداً عنها يوشك في الغالب ان يموت في سنته الاولى فالام التي يتيسر لها ارضاع ابنها بذاتها وتدفعه الى مرضع تكفله لها تحت نظرها هي مسؤولة عن هذا الاهمال جملة ٠ والام التي تبعث بابنها الى المرضع بدون ضرورة تجرم جرمين اثنين وقد تهلك ابنها بصنعها
القاعدة السابعة عشرة — « عليك ان تزن اولادك » — ينمو الطفل كثيراً فاذا كانت صحته جيدة يزيد وزنه على الدوام فوزنه المرة بعد المرة احسن واسطة لاثبات

جودة صحته · فالميزان هو ميزان حرارة الصحة ومعدل زيادة الطفل الجيد الصحة والتغذية هو ان يزيد في الشهر الاول ٢٥ غراماً وفي الثاني ٢٣ وفي الثالث ٢٢ وفي الرابع ٢٠ وفي الخامس ١٨ وفي السادس ١٧ وفي السابع ١٥ وفي الثامن ١٣ وفي التاسع ١٢ وفي العاشر ١٠ وفي الحادي عشر ٨ وفي الثاني عشر ٧ · ويجب ان لا تمضي ثلاثة اشهر الا ويوزن الاولاد والفتيان على اختلاف اعمارهم لان من الامراض ما يتهددهم في المدن الكبرى مثل السل وكثيراً ما يكتفي لحسم الداء ان يعطى المريض راحة وتغذية مناسبة ·

القاعدة الثامنة عشرة — « يجب لك ان تجعل اولادك المرضى بمعزل عن الاصحاء حتى لا ينقلوا اليهم المرض » — تكاد تكون جميع امراض الاولاد امراضاً معدية كالحمراء والحمى الحصبية والجدري وانتفاخ لوزتي الاذنين والخناق وتكاد تبدأ كلها باضطرابات يظن انها زكام خفيف وهي نزلة او التهاب في الحلق والحنجرة ومجاري الاذن · فاذا ظهر بعض هذا فعلى الابوين في الحال ان يعزلوا اولادهم وان لا يبعثوا بهم الى المدرسة او الى اي اجتماع كان وان يفردوهم وحدهم في الدار · وكم من اناس عدوا باولادهم المرضى اولاد غيرهم فكانوا بأخذهم المرض من اولادهم قبل ان ينتبهوا سبباً لسريان الامراض التي تصبح اوبئة عامة بعد ان كانت مقصورة على بعض الافراد

القاعدة التاسعة عشرة — « لا تسمح بان يتعانق الاولاد » — ليس للاولاد ميل طبيعي لان يتعانقوا والابوان هما اللذان يربدانهم على العناق ويسوقانهم الى هذه العادة فتقبيل الاولاد بعضهم بعضاً يجري مضرات كثيرة بان ينقل الامراض السارية وتكون تلك لقاحاً واي لقاح لسريانها · وقد تقدم ان اكثر الامراض في الغالب نزلات ووجع في الحنجرة والانف والاذن كالحمراء والحمى الحصبية والسعال والحمى ذات البثور وان الخناق (الدفثيريا) ينتقل بواسطة اللعاب عادة وعليه فان التقبيل من العادات الضارة وكم من الاطفال هلكوا فيه ·

القاعدة العشرون = « كل مسكن سليم نافع للصحة اذا استطاعت الشمس ان تدخل اليه والهواء ان يخرج منه » — كما ان البيوت تحصر الناس في بقعة من سطح الارض فهي تقيهم متبدلات الجو والبرد والهواء والمطر والحرارة فالواجب ان يدخل اليها الهواء والنور فان الهواء البليل الصافي الذي لم يستنشق ولم تمازجه غازات الوقود من المواقد والمصابيح ولم تشبه شائبة هو من انفع الاشياء للكبد والتنفس بل هو غذاء الحياة ·

لغرف العمل او النوم على حجمها اذا لم يتخللها الهواء على الدوام تفسد بانفاس السكان وغازات الوقود والاستصباح فمن الازم اللازب ان يتخلل الهواء اي يتجدد على الدوام ويكفي في الصيف فتح الابواب والنوافذ وفي الشتاء يخشى بعض الناس من البرد فلا يتركون الهواء يتخلل الامكنة فينشأ من ذلك اختناق بطيء ولكنه خطر ان لم يقرب الموت العاجل يهيء السبيل الى عدة امراض ولا سيما السل ٠

وبعد فيجب استنشاق الهواء بليلاً او بارداً ولذلك كانت الآلة ناقلة الحرارة التي تدفئ الهواء من ابشع وسائط التدفئة على حين ان الموقدة التي تدفئ ببروز الاشعة وتجلب هواء من الخارج من احسن الوسائط المنطبقة على حفظ الصحة والمواقد ذات الحرارة البطيئة خطرة فيجب الامتناع من استعمالها ٠ وليست الشمس اقل لزوماً للصحة من دخول الهواء النقي وما شعاع الشمس الا باعثة للقوة في الجلد وتغذية الانسجة والنباتات التي لا تصيبها الشمس تذبل وتفقد الوانها وتصبح بشعة المنظر ولا تلبث ان تموت وكذلك الحال في الحيوان والانسان وكما تفيد اشعة الشمس النباتات والحيوانات تضر بالنباتات الطفيلية والعفن والجراثيم التي هي واسطة جميع الامراض وذريعة الى سريان العدوى وبفضل الشمس نجو من الجراثيم الضارة العابثة بجسومنا وحيث تدخل الشمس لا يدخل المرض والتعرض للهواء وللشمس هما من المقويات في الحياة

القاعدة الحادية والعشرون — «يجب التوقي من الغبار بالرش لا بالكنس بالقمة (المقشة) من ريش» — الغبار مضر جداً وذلك لاحتوائه على ذرات كثيرة كلسية وآلية وحيوانية تهيج الغشاء التنفسي وتؤذيه وتدعو الى عدة امراض كالزلات والدفثيريا وجزء من الغبار مؤلف من براز المصابين بالامراض فتسطو هذه الذرات على الاغشية المخاطية وتلقحها وتجرحها ٠ فمن اهم قواعد الصحة في البيوت ان يمنع عنها الغبار لا بكنسه بمكنسة او مقمة فان ذلك مما يثيرها على الكانس او المكنس وعلى اهل المنزل او المارة في الشارع والاوانق في تلك الحال ترك الغبار متراكماً في الدار دون ان يمس لان ضرره يكون واقفاً ولو موقتاً من اثارته على تلك الصورة ٠ ولذا اقتضى ان لا يكنس وينفض بدون ماء وان يزال الغبار بمناشف ندية او فرشايات ومكانس ندية ٠ ويجب جمع الغبار لابادته لا اثارته لينتقل الى الجيران

القاعدة الثانية والعشرون — «لاتستعمل الستور والبسط والاثاث المزين بالرفارف» — وذلك لانها مانعة من نفوذ الهواء والنور مستنبت للغبار وقد لا تتمكن ربة البيت من

نفضها وتهويتها وكذلك الورق الملون الذي يجعل عَلَى الجدران فانه عش الجراثيم الضارة
واحسن المساكن التي يصفها رجال الصحة ما كان منها مصقولاً مدهوناً قابلاً للغسل
واحسن الغرف ما كانت مدففة او مبلطة وان يكون اثاثها عبارة عن خشب وجلد لا من
قطيفة ومخمل و بسط ورب سجادة حوت من الجراثيم بالغبار الذي عليها ما لا يوجد اضر
منه في الشارع نفسه ٠

القاعدة الثالثة والعشرون — « لا تتسامح بدخول الحشرات الى منزلك » — الهوام
وسائط لنقل الامراض السارية وتلقيحها فالذباب يقع عَلَى القاذورات فاذا كانت قاذورات
حميات تيفوئيدية او وباء (كوليرا) او سل تنقل اجزاءها في ارجلها الى الطعام والثياب
واغشية من تقع عليهم بعد ٠ والبعوض ينقل في البلاد ذات المستنقعات حيث تشتد
الحميات جراثيم من تقرحهم ممن يكونون مصابين بالحمى وتلقح بها غيرهم من الاصحاء ٠
والبق والبراغيث تفعل بقرصها فعل البعوض بقرصه فبالبق تنقل جراثيم حمى التيفوس
والتيفوئيد ويخشى ان يكون ناقلاً للسرطان والجذام ومن المحقق ان البراغيث هي التي
تلقح جراثيم الطاعون وتنقلها من الجرذان الى الانسان ٠ ولا تخلو من ان تنقل جراثيم
الحمى التيفوئيدية والسل ٠

واقرب الطرق الى النجاة من هذه الهوام ان يجعل شيء من روح الصمغ عَلَى سطح
القاذورات في المراحيض وان تصب كمية من البترول عَلَى المياه الراكدة فتموت الهوام
الناقلة كالبعوض وغيره وان تستر النوافذ في الليل بستائر من السلك الرفيع لتمنع البعوض
من الدخول وقرص الساكنين وهم نيام وصب شيء من البترول عَلَى المحال التي يعيش
فيها البق انفع واسطة للخلاص منه كما ان الماء انفع ذريعة للنجاة من البراغيث وغسل
الحيوانات الاهلية عَلَى الدوام حتى لا تنقل البراغيث الى القائمين عَلَى تربيتها ٠

القاعدة الرابعة والعشرون — « اجعل الحيوانات الاهلية في اصطبل » — ليست
الدار نادي الحيوانات الاهلية كالقطط والكلاب والطيور فان ايواءها في الدور مضر
وناقل للامراض ولا سيما للسل والسرطان فالكلب مصاب بالسل غالباً والهر بالسرطان
والببغاء ذكورها واناثها بالتهاب ذات الرئة بل ان الكلب والهر واسطتان لنقل الحميات
ذات البثور كالجدري والقرمزية والحمراء والدفتيريا واورام الجلد وغيرها من الامراض
المعدية ثم ان الكلب يلعق كل ما يقع امام عينيه وقد يدلله صاحبه وما ان يدري ينقل الكلب
ان لم تنل مرضاً آخر دع عنك ريشه فانه مستويل الجراثيم ينقلها من السقيم الى السليم

وعليه فالقطط والكلاب الاهلية هي خطر دائم عَلَى الصحة العامة .

القاعدة الخامسة والعشرون — «اعنِ بنظافة الشارع كما تعنى بنظافة مسكنك» — تقضي شطراً من حياتنا في الشوارع ولذلك وجب علينا ان نطهرها من الادناس والارجاس على اننا نطرح فيها بدون مبالاة الغبار والاوساخ وتنفض فيها البسط ومماسح الارجل وما الكناس الا واسطة لنقل باسيل الامرض وهناك قاذورات الكلاب والخيل وهي سبب لعدة نزلات اذنية وحلقية وكل ذلك مما يبتلع منه ساكن المدن كمية غير قليلة فلو جمع غبار المساكن بوسائط ندبة او احرقت في النار او وضعت في ماء مغلي واذا امتنع المرضى عن البصاق في الشارع ولم يكنس الكناسون الا بعد الرش كما في بعض البلاد المتمدنة لما اصبح الشارع كما هو الآن مستودع الامراض ومحلاً اضر من غرفة في مستشفى

القاعدة السادسة والعشرون — «اذا بصقت على الارض فكأنك تبصق عَلَى جارك» — يجب الامتناع عن البصاق في الشارع والمحال العامة والدار وذلك لان بصاق الرجل السليم من العادات المخالفة للقواعد الفسيولوجية فالواجب نزع هذه العادة اما المسلول فانه ببصاقه ينقل عدواه في الحال الى غيره وذلك اذا بصق في الشارع لا تلبث بصقته ان تجف فتطاير في الهواء ميكروباتها فعليه ان لا يبصق حتى في منديل لانه كلما اخرجه من جيبه يقذف جراثيمه عَلَى من امامه بل عليه ان يستعمل مبصقة يضعها في جيبه هذا هو من الفروض الاجتماعية ومن اوائل قواعد التضامن فمن كان به مرض ولم يستعمل هذه الطريقة فهو مرتكب جناية لا محالة .

القاعدة السابعة والعشرون — «اذا كان بك مرض خذ الاحتياطات بذاتك او بالواسطة لئلا تنتقل العدوى الى من حولك» تكاد تكون جميع الامراض الحادة وكثير من الامراض المزمنة من الامراض السارية فاذا رأى كل مريض من واجبه وقاية جاره من نقل جراثيم مرضه اليه لا تلبث معظم الامراض السارية ان تضمحل . وما من قانون صحي عام ينفع في هذا السبيل بقدر ما تنفع عناية كل فرد عَلَى حدته بصحة من حوله وكل ما تقوم به البلديات من اسباب التطهير قليل جداً في جانب الوقاية التي يجب عَلَى المرء نفسه ان يتخذها وكثير من ارباب الأسرات يصابون بمرض سار فيعدون به اولادهم وازواجهم ومن حولهم بتساهلهم وعدم اتخاذهم الاحتياطات الصحية فيقتلونهم بايديهم جهلاً وغباوة ومن نظر في تاريخ البيوت يدرك ان الاولاد لا يصابون بالتهاب ام الدماغ الا بتساهل آبائهم فالواجب عَلَى المريض ان يسأل الطبيب عن اسباب الوقاية

التي يحتم عليه اتخاذها وتطبيقها على نفسه بالفعل

وانت يا هذا اذا أصبت ذات يوم بمرض فلا تحمل اللوم على قواعد حفظ الصحة وقلة غنائها ولا على ضعف العلم بل ان الذنب في ذلك على اجدادك ومواطنيك

رحلة الى جبل قلمون

يعد جبل قلمون بين جبال سورية من اطيبها ماء وهواء وانباتاً ومع هذا لم يشتهر اشتهار جبال لبنان وحرمون والكلبية واللكام على قربه من دمشق قاعدة بلاد الشام • وكان يقال له في القديم جبل سنير وبذلك عرفه الجغرافيون والمؤرخون والشعراء • قال ابن خرداذبة في المسالك والممالك وهو مما ألف منذ نحو الف سنة ان كورة دمشق واقاليمها سهل الغوطة اقليم سنير مدينة بعلبك البقاع اقليم لبنان كورة جدنية كورة اطرابلس كورة جبيل بيروت صيدا البثنية كورة حوران كورة الجولان وظاهر البلقا وحوالى الغور وكورة ماب وكورة جبال وكورة الشرا وبصرى وعمان والجابية • فاقليم سنير هو من اقرب الاعمال الى دمشق ولم نظفر له بتحديد اجمع من تحديد ياقوت في معجم البلدان • قال ان سنير بفتح اوله وكسر ثانيه ثم ياء معجمة باثنتين من تحت جبل بين حمص وبعلبك على الطريق وعلى رأسه قلعة سنير وهو الجبل الذي فيه المثالج يمتد غرباً الى بعلبك ويمتد مشرقاً الى القريتين وسلمية وهو في شرقي حماة وجبل الجليل مقابله من جهة الساحل وبينهما الفضاء الواسع الذي فيه حمص وحماة وبلاد كثيرة • وهذا جبل كورة قصبتها حوارين وهي القريتين ويتصل بلبنان متيامناً حتى يلتحق ببلاد الخزر (؟) ويمتد متياسراً الى المدينة وسنير الذي ذكر انه بين حمص وبعلبك شعبة منه الا انه انفرد بهذا الاسم وقد ذكره عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي فقال من قصيدة

أسيم ركابي في بلاد غريبة ... من العيس لم يسرح بهمه بعير
فقد جهلت حتى اراد خبيرها ... بوادي القطين أن يلوح سنير
وكم طلبت ماء الاحص بآمد ... وذلك ظلم للرجال كبير

وقال البحتري

وتعمدت ان تظل ركابي بين لبنان طلعًا والسنير

انتهى كلام ياقوت جاء في ابي الفداء ان الجبل الشرقي الممتد شمالي الشام كان يدعى سنير في عهده وقد ورد سنير في التوراة فقال الدكتور بوست في قاموس الكتاب المقدس : سنير (درع او شلالة) اسم قسم من جبل الشيخ (حرمون) (١ اي ٥ : ٢٣ — وحز ٢٧ : ٥ (وقال ياقوت في القلمون انه بفتح اوله وثانيه بوزن قربوس وهو فعلول قال الفراء وهو اسم وانشد

بنفسي حاضر بجنوب حوضى وابيات عَلَى القلمون جون

ومن القلمون الذي بدمشق بحتري بن عبيد الله بن سلمان الطابخى الكلبي من اهل القلمون من قرية الافاعي وقال في القاموس قلمون محركة موضع بدمشق . التاج ان القلمون رومية وحروفها اصلية . وكلمة تالا بالرومية طيب ولعله الجبل الطيب او نحو ذلك وحوارين التي قال عنها ياقوت انها القريتين هي قصبة جبل سنير وهي كما قال في مكان آخر حصن من ناحية حمص قال بعضهم

يا ليلة بحوارين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

وقال احمد بن جابر مر خالد بن الوليد في مسيره من العراق الى الشام بتدمر والقريتين ثم اتى حوارين من سنير فاغار عَلَى مواشي اهلها فقاتلوه وقد جاءهم مدد من اهل بعلبك ثم اتى مرج راهط وفي كتاب الفتوح لابي حذيفة اسحاق بن بشير وسار خالد بن الوليد من تدمر حتى مر بالقريتين وهي التي تدعى حوارين وهي من تدمر عَلَى مرحلتين وبها مات يزيد بن معاوية في سنة ٦٤ قال الراعي

الحزن بحوارين في مشمخرة بيبت ضباب من فوقها وثلوج

وقال ايضاً والقريتان قرية كبيرة من اعمال حمص في طريق البرية بينها وبين مخنة وأرك اهلها كلهم نصارى وقال ابو حذيفة في فتوح الشام وسار خالد بن الوليد رضي الله عنه من تدمر الى القريتين وهي التي تدعى حوارين وبينها وبين تدمر مرحلتان واياها عنى ابن قيس الرقيات بقوله

وسرت بغلتي اليك من الشا م وحوران دونها والعوير

وسواء وقريتان وعين الـ تمر حزن يكل فيه البعير

فاستقت من سجاله بسجال ليس فيه منٌّ ولا تكدير



الجزء السادس من المجلد الثالث

جمادى الثانية سنة ١٣٢٦ موافق يوليو (تموز) سنة ١٩٠٨

صدور المشارقة والمغاربة

عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى

نشأ للعربية في اوائل القرن الثاني للهجرة كاتبان بليغان يصح ان يدعيا واضعي اساس الانشاء العربي . اعني طريقة الكتابة المرسلة فكانا منارا يهتدى به الى يوم الناس هذا ونعني بهما عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى الكاتب . ظهر هذان الامامان واللغة في نضرتها الاولى فكان لما من فطرتهما السليمة اعظم مساعد لهما على النبوغ وزادت شهرتهما الاتصالها بالخلفاء والامراء ومرانهما على الكتابة في الاغراض الكثيرة التي كانت تطلب اليهما فيخوضان عبابها مجليين مبرزين .

نشأ ابن المقفع في العراق على ما ينشأ عليه ابناء اليسار وكان والده ينتحل نحلة مجوس الفرس وَلِي خراج فارس للحجاج بن يوسف الثقفي في الدولة الاموية . ولقب بالمقفع لان الحجاج ضربه فتقفعت يده اي تشنجت لمدها لاخذ الاموال على ما يقال . وربي ابنه عبد الله تربية اسلامية واولع بالعلم وهو مكفي المؤونة فجاء منه في سن العشرين ما يندر ان يكون مثله لابناء الاربعين والخمسين . واتصل بعيسى بن علي عم السفاح والمنصور الخليفتين الاولين من بني العباس وكتب له واختص به واراد ان يدين بالاسلام فجاء الى عيسى

ابن علي وقال له : قد دخل الاسلام في قلبي واريد ان اسلم على يدك . فقال له عيسى : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس فاذا كان الغد فاحضر . ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم على عادة المجوس فقال له عيسى : اتزمزم وانت على عزم الاسلام فقال : اكره أن ابيت على غير دين . فلما اصبح اسلم على يده فسمي بعبدالله وكني بابي محمد .

اهم كتب ابن المقفع التي طار ذكرها كتاب كليلة ودمنة الذي نقله عن الفارسية ورسالته المعروفة باليتيمة في طاعة السلطان . قال القفطي وهو اول من اعتنى في الملة الاسلامية بترجمة الكتب المنطقية لابي جعفر المنصور وترجم كتب ارسطوطاليس المنطقية الثلثة وهي كتاب قاطيغورياس وكتاب باري ارمينياس (اوبارميناس) وكتاب انالوطيقا وذكر انه ترجم ايساغوجي تأليف فرفوريوس الصوري . والارجح انه نقل هذه الكتب عن الفارسية او نقلها له ناقل عن اليونانية وصاغها هو في قالب عربي فنسبت له اذ لم يثبت انه كان يعرف غير الفارسية من اللغات . وعبارة ابن ابي أصيبعة في تاريخ الاطباء تشبه قول القفطي في تراجم الحكماء والغالب انهما نقلا عن مصدر واحد مع تغيير طفيف في عبارتيهما .

قال ابن النديم واسمه بالفارسية روزبه وهو عبدالله بن المقفع ويكنى قبل اسلامه اباعمرو فلما اسلم اكتنى بابي محمد والمقفع ابن المبارك انما تقفع لان الحجاج بن يوسف ضربه بالبصرة في مال احتجنه من مال السلطان ضرباً مبرحاً فتقفعت يده واصله من خوز لمدينة من كور فارس وكان يكتب اولاً لداود بن عمر بن هبيرة ثم كتب لعيسى بن علي على كرمان وكان في نهاية الفصاحة والبلاغة كاتباً شاعراً فصيحاً وهو الذي عمل شرط عبدالله ابن علي على المنصور وتصعب في احتياطه فيه فاحفظ ذلك اباجعفر فلما قتله سفيان بن معاوية حرقاً بالنار وقع ذلك من المنصور بالموقع الحسن فلم يطلب بثاره وطُلَّ دمه وكان احد النقلة من اللسان الفارسي الى العربي مضطلعاً باللغتين فصيحاً بهما وقد نقل عدة كتب من كتب الفرس منها كتاب خداينامه في السير كتاب آيين نامه في الاصر كتاب كليلة ودمنة كتاب مزدك كتاب التاج في سيرة انوشروان كتاب الآداب الكبير ويعرف بماقراحسيس كتاب الادب الصغير كتاب اليتيمة في الرسائل .

وقال ان اباالجاموس ثور بن يزيد اعرابي كان يفد البصرة على آل سليمان بن علي وعنه اخذ ابن المقفع الفصاحة ولا مصنف له وقال : بلغاء الناس عشرة عبدالله بن المقفع . عمارة بن حمزة . حجر بن محمد . محمد بن حجر . انس بن ابي شيخ . وطبه اثمد احمد بن يوسف الكاتب . سالم . مسعدة المرير . عبدالجبار بن عدي : احمد بن يوسف . وذكره

في الشعراء الكتاب فقال انه مقل" وقال وقد كانت الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية فنقل ذلك الى العربي عبدالله بن المقفع وغيره وقال في الكتب المصنفة في الاسماء والخرافات ان عبدالله بن المقفع من جملة من كان يعمل الاسمار والخرافات على السنة الناس والطير والبهائم .

والراجح ان الحسد غلت مراجله في صدور بعض معاصريه والمعاصرة كما قيل حرمان فنسبوا اليه ما نسبوا من الزندقة لقصورهم عن بلوغ شأوه او لغرض في انفسهم قال ابن خلكان نقلاً عن الجاحظ :ان ابن المقفع ومطيع بن اياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون في دينهم قال بعضهم : كيف نسي الجاحظ نفسه . قلنا وعبارة الجاحظ في بعض رسائله بشأن ابن المقفع تشير الى قصوره في علم الكلام فقط فانه قال:

فصل" ومن المعلمين ثم من البلغاء المتأدبين عبد الله بن المقفع ويكنى ابا عمرو وكان يتولى لآل الاهتم وكان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير وكان جواداً فارسا جميلا وكان اذا شاء ان يقول الشعر قاله وكان يتعاطى الكلام ولا يحسن منه لا قليلا ولا كثيرا وكان ضابطاً لحكايات المقالات ولا يعرف من ابن غُر المغتر ووثق بالواثق واذا اردت ان تعتبر ذلك ان كنت من خاص المتكلمين ومن النظار بن فاعتبر ذلك بان تنظر في آخر رسالته الهاشمية فانك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم رديء المدخل في مواضع الطعن عليهم . وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم فيظن بنفسه عند ذلك انه لا يحمل عقله على شيء الا بعد به اه

لاجرم ان اطلاق ابن المقفع لسانه في المعتزلة دعا احد ائمتها الى ان يصدر عليه هذا الحكم الغريب ولكن الجاحظ ايضا على ثبوت تدينه لم يسلم من هذا الطعن كما رأيت. وان مسألة التهمة في الدين من الامور التي شاعت في كل عصر ومصر ويكون المتهمون بها في معظم الاحوال ابرياء والا فكيف تسجل الزندقة على ابن المقفع اذا جرينا مع الدليل . وليست الزندقة بحثاً عما يضمره الانسان في نفسه لان مثل هذا لا يطلع عليه الا الله تعالى ويكفي ان يقال هلاّ شققت عن قلبه . بل الزندقة التي تذكر في الكتب وتترتب عليها الاحكام ويسوء ان يقال عن فلان انه زنديق امور تقوم عليها بينات ظاهرة من اقوال وافعال وكلام ابن المقفع في الدين يدل على شدة تمسكه وفرط ميله على ما يتجلى لك من رسائله .

ولو كان ثمة سبيل لما ينسب اليه لاسيما مع غضب المنصور عليه لكان الاقرب ان يتقرب مثل المنصور بمثل ذلك وفيه ما فيه من ارضاء العامة وشفاء الغليل من العدو بحيث ينتقم منه مع اسقاطه ولا يعدم المنصور حينئذ حيلة في قتله جهاراً بهذه التهمة . اه

اتهام ابن المقفع بمعارضة القرآن فتتعرف على القاعدة في اتهامه بالزندقة وما نظن القاضي عياض والباقلاني الا ناقلين عن اناس من اهل السذاجة ومع ذلك فانهماقالا انهاتاب ٠

التهمة بالزندقة امر نشأت منه مضار كثيرة حتى لم يخل منها مثل الامام الغزالي الذي كان اعظم انصار الدين فانظر الى كتاب فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة الذي الفه في الرد على اولئك الذين سبوا اليه مانسبوا فان فيه الفناء واغرب من ذلك القيام على أبي حاتم (١) ابن حبان البستي امام المحدثين في عصره وصاحب الصحيح المشهور به والكتب الممتعة الكثيرة واستحصال الامر بقتله لو لم ينج من ذلك بعوارض لا تخطر في البال

ومعارضة القرآن اكثر ما تنسب للزنادقة المشهورين بالادب والفضل يتبع ذلك اناس يقصدون اهلاك عدوهم بأي وسيلة كانت او اناس هم اقرب الى الزندقة ممن ينسبونهم اليها حتى ان أبا العلاء المعري على اضطراب الاقوال في نهاية امره مع ما علم به من احواله قد عزي اليه كتاب كان معروفاً في بلاد المغرب يسمى بالفصول والغايات ولا يتوقف من كان قريب العهد من عصره في انه عمله في معارضة السور والآيات وكان كثير ممن يميلون الى أبي العلاء المعري من اهل المغرب يعجبون مما وقع فيه من سخافة القول الذي يحط عن جميع كلامه المعروف مع انه ليس له يد في الكتابة كما علم من كتاب سر الفصاحة وكلامه في رسالة الغفران ينادي بخلاف ذلك (٢)

وعلى الجملة فان نسبة الزندقة الى ابن المقفع لاتثبت بوجه من الوجوه التي تعقل في اثباتها واذا نظرنا الى ما يتعلق بالغيب فالحكم الشرعي انه هو والناسبون اليه جميعاً في معرفة ما

(١) راجع ترجمته في معجم البلدان لياقوت في مادة بست

(٢) قال المعري في رسالة الغفران عند كلامه على ابن الراوندي الزنديق الذي صنف في الرد على القرآن : بئس ما نسب الى راوند فهل قدح في دباوند انما هتك قميصه وابان للناظر خميصه واجمع لمحد ومهتد وناكب عن الحجة ومقتد ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالاعجاز ولقي عدوه بالارجاز ما حذي على مثال ولا اشبه غريب الامثال ما هو من القصيد الموزون ولا الرجز من سهل وحزون ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ذوي الارب وجاء كالشمس اللائحة نوراً للمسرة والبائحة لو فهمه الهضب الراكد لتصدع او الوعول المعصمة لراق الفادرة والصدع وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون وان الآية منه او بعض الآية لتعترض في افصح كلم يقدر عليه المخلوقون فيكون فيه كالشهاب المتلألىء في جنح غسق والزهرة البادية في جدوب ذات نسق فتبارك الله احسن الخالقين

دانوا كلهم بالاسلام منذ زهاء قرنين وقلبوا الاوضاع المسيحية باوضاع اسلامية حتى انهم يطلقون على بيت الخوري بيت الحوري بالاهمال وفي هذه القرية شجر الفستق القديم ولا يزال ينقرض لان اهلها لا يجددون غرسه وهذه القرية هي الوحيدة في قرى ولاية سورية التي تخرج الفستق وهو من احسن الانواع لا يكاد يضاهيه بجودته فستق روم قلعة من اعمال حلب

***

طفت هذا الشهر أمهات قرى قلمون وكنت زرتها منذ عشر سنين فرأيت عليها مسحة من الارتقاء اتتها في الغالب من المال الذي جناه من اميركا المهاجرون من القلمونيين ففي قرية معرة صيدنايا وصيدنايا ويبرود ودير عطية مثلاً بيوت جميلة أقيمت بالحجر الصلد النحيت على مثل بيوت لبنان الجديدة ومن البيوت ما كلفت الفي ليرة وربما اكثر اما سائر معالم الجبل فظلت على حالها او ارتقت بعض الشيء بطبيعة الزمن . وقد اشترك في الهجرة الى اميركا سكان الجبل من المسلمين والمسيحيين الا ان عدد هؤلاء اكثر والناجحين منهم اوفر ويقدرون عدد المهاجرين من الجبل بنحو اربعة آلاف رجل نجح منهم في الاكثر من اعتادوا شظف العيش مثل مهاجري دير عطية والنبك وصيدنايا والمعرة ومعلولا وقارة اما المترفون او الذين اعتادوا الترف قليلاً فاخفق سعيهم وانقطعوا او كادوا لقلة ذات ايديهم . ولا يعلم على وجه الصحة ما يبعث به المهاجرون القلمونيون من النقود كل سنة اذ ليس ثمة احصاء مدقق وغاية ما يقال ومنه يستنتج ما يقرب من الحقيقة ان معدل عدد الرسائل التي ترد من المهاجرين كل سنة الى اهلهم في الجبل يبلغ ثمانمائة رسالة . هذا في القرى التابعة لقضاء النبك وهي مركز الجبل ومزدحم الاقدام وفيه من القرى ٢٨ قرية و١٢ مزرعة . وباقي قرى الجبل وهي ١٣ قرية تابعة لقضاء دوما فاذا فرضنا انه يأتي من المهاجرين في السنة الف رسالة وهو اقل تعديل ولا يكتب لاهله الا الناجح منهم في العادة ويرسل كل واحد ثلاثين ليرة فيكون معدل ما يصل من النقود الى قلمون ثلاثين الف ليرة . وهو مبلغ لا يستخف به بالنسبة لفقر الجبل ولو كان هذا المال يأتيه مع توفر العناية بالزراعة وتربية المواشي وغرس الاشجار والغابات لكان الجبل من اعمر جبال العالم .

ويبلغ عدد نفوس الجبل باحصاء الحكومة ٥٨٠١٢٧ نسمة بين ذكور واناث منهم ٤٥٠٠٧٤ في القرى التابعة لقضاء النبك اليوم و١٢٠٥٥٣ في القرى التابعة لدوما وعدد المسلمين في قضاء النبك ٤٠٦٦٠ وعدد الروم الارثوذكس ٥١٠٥ وعدد الروم الكاثوليك ٢٩٢٠

وعدد السريان الكاثوليك ٢٩٩ وعدد البروتستانت ٩٠ ورجا بلغ عدد المسيحيين في الثلاث عشرة قرية التابعة لقضاء دومة ٢٥٠٠ نسمة

وبلغت اعشار الزرمي التابعة للنبك هذه السنة ١٠٤٤٣١٧٥ غرشاً واعشار القرى التابعة لقضاء دومة ٤٣٩٣٥٠ غرشاً واهم قرى الاولى الغنية يبرود والرحيبة وجيرود والقطيفة وقارة والنبك ودير عطية ومعلولا واهم قرى القضاء الثاني التل ومنين وحلبون وتلفيتا وصيدنايا ومعرة صيدنايا وباقيها مزارع او اشباهها ٠

وينقسم قلمون بحسب موقعه الطبيعي الى قسمين فوقي وتحتي فمن قرى الفوقي او الفوقاني رنكوس وحوش عرب وهي تعلو عن سطح البحر ١٧٧٠ متراً وعسال والفيل والجبة ومغرة باش وفليطا والسحل وقارة وعرسال ودير عطية والنبك وبخعا ورأس العين ويبرود وجبعدين ومن التحتية الواني وعكوبر ونبدا وحفير الفوقا وحفير التحتا وحلة ومعلولا والقسطل وعين التينة والقطيفة والمعظمية وجيرود والرحيبة والضمير ومعرونة وتلفيتا وصيدنايا ومعرة صيدنايا والتل ومنين وحزنة وبطحاية والدريج ومعربا وحلبون وهي التي تخزن الثلج في الربيع في جردها وتأتي به كل مساء الى دمشق وتشاركها في بيع الثلج قريتا اوفرة او قفرة وقرية منين

وتعد زراعة قلمون من الدرجة الثالثة ولو توطدت دعائم الامن فيه لاستطاع اهل القرى القريبة من البرية للشرق ان يزرعوا تلك السهول الفسيحة وينتفعوا بالمراعي البعيدة عن القرى ساعات ٠ واكد لي العارفون بان الامن اذا استقر في نصابه وأمن القضاء من غارة اشقياء العرب والدروز على المواشي والزروع تكثر مواشيه كثرة زائدة ويغتني الفلاح والحكومة فقد نهب العرب والدروز منذ نحو سبع سنين زهاء مئة وخمسين الف رأس من الغنم والماعز لو سلمت لاربابها لكانت بلغت الآن على اقل تعديل مليون رأس ومعدل ربح الرأس مئة قرش هذا عدا ما هو موجود اليوم من مواشي الجبل

وليس مثل جرود قلمون في الصيف لرعي المواشي ومثل سهولها الشرقية في الشتاء والبان قطعانها من ادسم ما ذاق الذائقون ٠ ولو تمت امنية الفلاح القلموني بانتشار الامن في شعابه وهضابه في الفصول الاربعة لربح الفلاح كل سنة القرش قرشين من ماشيته فقط ومن كانت عنده المئة يجني المئتين ومن ملك الالف جاءته الفان ٠ ويرى الخبيرون بانه لا سبيل الى تقرير الامن في قلمون الا بوضع اربع مخافر الاولى في الضمير والثانية في الناصرية والثالثة في الحميرة والرابعة في القريتين وان يجعل في كل واحدة منها — وفي

بعضها قلاع لايواء الجند — خمسة وعشرون جندياً نظامياً فارساً (مفرزة) وبذلك يرهب اشقياء عرب البادية بأس الحكومة ويكفون عن السطو عَلَى ضعاف الاهلين كما اهتبلوا الغرة .

ولا تجد في قلمون غابات كاكثر جبال العالم بل هو جبل اجرد اقرع ولو صحت عزيمة سكانه لاكثروا من زرع التين والكرم واللوز والجوز في الاراضي القريبة من القرى ومن السنديان والبلوط في النجاد والشعاب . والظاهر ان فأس الحطاب واسنان الماشية اتفقت زمناً طويلاً عَلَى تجريد الجبل من اشجاره ونباته فلا تجد اشجاراً الا قرب القرى وقد تمشي الساعات ولا تجد اثراً للزرع ولا للشجر

قال احد الاجانب ممن زاروا هذا الجبل مؤخراً كنت اتمنى في حياتي ان اشاهد جبلاً اجرد من الكلاء والشجر فها قد قرّت عيني في قلمون بعد مدة ما كنت اريده من الجبال الجرداء اما ابن سورية فيتمنى لو قرت عينه برؤية جباله خضراء ذات غابات غيناء

وليست مياه قلمون شحيحة عزيزة بل هي عذبة غزيرة كاحسن البلاد الجبلية ولكن منها ما يحتاج للانباض والتعهد والعناية واذا توفر الاهلون وساعدتهم الحكومة قليلاً عَلَى توفير مياههم تزيد كميتها بحفر العيون والاقنية والانتفاع بالمياه والسيول حتى لا تضيع منها نقطة بلا فائدة . ومن هذه العيون ما يشفي الاوصاب ويقوي الاجسام ويساعد عَلَى هضم الطعام واطيبها ما قرب من حدود الجبال حيث يكثر نزول الثلوج وتبقى كل سنة ستة اشهر متراكمة في النجاد والوهاد واشهر مياه الجبل نبعاً في معرونة وهي جمع من ماء الشتاء ولكن طعمها اشبه بالملح الانكليزي يبدو انها ثابتة في الطعم فلا تثقل عَلَى الهضم .

وقد بحثنا في بعض قرى الجبل عن آثار حجرية مكتوبة او كتب مخطوطة علنا نقع فيها عَلَى مواد تاريخية ينتفع بها فخاب سعينا اذ شاهدنا معظم اديار الجبل لا يعرف اهلها من التاريخ الا تقاليد يتناقلونها بالافواه وهي لا تساوي شيئاً اذا وضعت عَلَى محك النقد واذا كانت الاديار خالية من مثل هذا فاحر بان تكون بقية المعاهد اخلى . فدير صيدنايا لراهبات الروم هو بحسب ما شاهدنا من اقدم اديار الجبل وليس فيه تاريخ الدير نفسه وقيل لنا ان اهل الدير حرقوا باختيارهم منذ نحو قرن كتباً سريانية كثيرة ولو ابقوا عليها لما خلت من فوائد كان القائمون عليها يقرؤونها او يخافون منها اذ ذاك وهي انفع ما يكون للتاريخ اليوم وغاية ما فيه الآن كتاب نسخته احدى راهبات الدير سنة ١٨٨٧ م واسمها نقلا غزال ولم تذكر شيئاً عن الاصل الذي نقلت عنه وهو حديث ايضاً ويفهم منه [illegible]

وفيه شرح تقاليد كثيرة متعلقة بدير صيدنايا ان هذا الدير بني على يد يوستنيانوس الكبير ملك الروم في السنة الخامسة والعشرين من ملكه سنة ٥٥٣ للميلاد وذلك عند مروره في تلك البقعة فاختارها لاقامة هذا الدير ليجعل محطة لقاصدي بيت المقدس من اهل القسطنطينية وغيرهم وفي هذا الكتاب امور تتعلق بتجلي السيدة العذراء عليها السلام ليوستيانوس حتى بنى ديره وهو مثل ما يقوله المسلمون عن بعض معاهدهم . وهذه التقاليد لا يثق فيها التاريخ ولا تنطبق على النقل ويأخذها المتقدون بالتسليم دون اعمال النظر فيها على ان الاحساس الديني تجب مراعاته مهما كان وحقائق العلوم العصرية هي التي تمحو وتثبت .

وفي الجبل اديار غير العامرة الآن في قارة ويبرود ومعلولا قد اصبحت مأوى للبوم مثل دير مار شربين ودير مار توما بالقرب من صيدنايا كما تجد كثيراً من النواويس (مقبور) محفورة في الجبال . ومنها ما رأيته في منين وعين الصاحب ومعلولا

والجبل الا قليلاً متشابه بعمرانه ولكنه مختلف بهيئات سكانه ولهجاتهم فلكل قرية لهجة خاصة بها وسحنة يعرف بها اهلها فاهل معلولا لا يشبهون اهل عين التينة واهل يبرود لا شبه بينهم وبين اهل الرحيبة . والظاهر من سحنات القلمونيين انمنهم اليعاقبة والسريان ومنهم الروم والتركمان ومنهم العرب فاختلفت لهجاتهم باختلاف اصولهم وان كان تركيب بعض اسماء قراهم متشابهاً مثل يبرود وجيرود ومعرة ومعرونة وعسال وعرسال وجبة وجبعدين وفليطا وتلفيتا . وتلفيتا هذه هي التي قال فيها صاحب المعجم انها كانت بلد قسام الحارثي من بني الحارث بن كعب باليمن المتغلب على دمشق في ايام الطائع وكان في اول عمره ينقل التراب على الدواب ثم اتصل برجل يعرف باحمد الحطار من احداث دمشق وكان من حزبه ثم غلب على دمشق مدة فلم يكن للولاة معه امر واستبد بملكها الى ان قام من مصر يلتكين التركي فغلب قساماً ودخل دمشق لثلاث عشرة ليلة بقيت من محرم سنة ٣٧٦ فاستتر اياماً ثم استأمن الى يلتكين فقيده وحمله الى مصر فعفا عنه واطلقه .

ومن صنائع جبل قلمون وبعبارة ثانية بعض قراه مثل النبك وحلبون ويبرود ومعلولا البسط فانه تعمل فيها بسط غليظة ولكنها متينة يستعملها اهل الجبل والمجاورون لهم من سكان القرى كما يحيكون الخام الجيد في هذه القرى . ولا جمال على صنائعها ولكنها متينة جداً ورخيصة وقد لا يربح العامل قرشين في نهاره ومع هذا يجد نفسه سعيداً

بهذا المقدار الطفيف .

وهواء الجبل معتدل جداً وهو انفع لاكثر الاجسام من هواء لبنان البليل القرب ذاك من البحر يرزث النفوس نشاطاً ومضاء وان الذكاء الفطري يغلب على سكانه وتساوى في ذلك سكان جروده وسهوله وقراه ومزارعه واسلامه ونصاراه ولو سعت الحكومة بجد لاصلاح طرقه ومواصلاته والخطب فيها سهل جداً لكثر اختلاف المصطافين اليه وبخصوصاً سكان دمشق لان قلمون منها بمنزلة لبنان من بيروت والطرق فيه عامرة بطبيعتها مثل طريق صيدنايا الى معلولا وطوله خمس ساعات وطريق معلولا الى يبرود وطوله ثلاث ساعات وطريق يبرود فانبك تدير عطية فقارة وهذا الطريق على طوله لو صرف عليه بضع مئات من الليرات لسارت عليه المركبات كما تسير على احسن الطرق المعبدة ولكن الحكومة في الدور الاستبدادي كانت لا تحسن من الادارة الا ان تسلب نعمة الفلاحين بطرقها المعروفة من تكثير الضرائب والعشور والرسوم وارهاق الفقير بالاعانات الكثيرة ولعل دولة الدستور تقوى في اقرب وقت فتجعل من مالها ووقتها نصيباً تصرفه في ترقية البلاد فتستعيده بعد سنين اضعافاً مضاعفة من اهلها وقد كانت حكومة الاستبداد ترى ان غناها بافقار الاهالي فالواجب على حكومة الدستور ان تعتقد ان غناها من غناهم وسعادتها بسعادتهم

وان جبلاً كقلمون وهو جزء صغير من ولاية سورية وجزء اصغر من هذه المملكة العثمانية اذا حسنت ادارته ونظرت حكومته في عمرانه ليخرج من الخيرات ما لا يخرج مثله الجبل الاسود ذو البند والعلم وصاحب الملك والوزراء . وكيف يعمر مثل قلمون اذا كان ولاة دمشق يقضون بها السنين الطويلة ولا يزورون معاهده ويتفقدون حالة اهله بل ان القائمقامين الذين طالما تناوبوا الحكم عليه لا يهمهم الا قبض رواتبهم واخذ ما يريدون اخذه من الاهالي واذا طافوا بعض قراه فللنزهة والتماس الصحة والراحة لا لرفع ظلامة واقامة عدل وتحسين حال ويعتمدون في امورها على مشايخ معظمهم على غير علم كانوا ولم يزالوا عون كل ظالم والسعيد منهم من كان الجهل اغلب على قريته ليسوغ له ان يحكم فيهم حكماً قره قوشياً ولا اغالي اذا قلت اليوم ان اهل قلمون لم يلفحهم حتى الآن رشاشة من نعمة الدستور على قربهم من الحواضر ولولا بصيص نور يتلألأ في عقول بعض اهل القرى التي يكثر فيها المنيخون والمدارس والمجرة لكان قلمون كما كان منذ مئات من السنين .

وهنا رأينا ان نختم هذا الفصل بقصيدة للامير عبد القادر الحسني الجزائري قالها وقد سأله بعض الفرنسيين اي العيش اطيب عيش الخلاء والبداوة ام عيش المدن والحضارة وقد كنا نردد اكثر ابياتها في رحلتنا واكثرها مما يصدق عليها لمناسبتها مع الحالة التي كنا عليها في الجبل من الصحة وفراغ البال قال رحمه الله :

يا عاذراً لأمريء قد هام في الحضر وعاذلاً لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيوتاً خف محملها وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
لو كنت اصبحت في الصحرا تمر عَلَى [1] بساط رمل به الحصباء كالدرر
او جلت في روضة قد راق منظرها بكل لون جميل طيب عطر
تستنشقن نسيماً طاب منتشقاً يزيد في الروح لم يمرر عَلَى قذر
او كنت في صبح ليل هاج هاتنه علوت في مرقب او جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها سرباً من الوحش يرعى اطيب الشجر
فيا لها وقفة لم تبق من حزن في قلب مضنى ولا كداً لذي ضجر
نباكر الصيد عند الفجر نبغته فالصيد منا مدى الاوقات في ذعر
فكم ظلمنا ظليماً مع نعامته وان يكن طائراً في الجو كالصقر
يوم الرحيل اذا شدت هوادجنا شقائق عمها مزن من المطر
فيها المذارى وفيها قد جعلن كوى مرقعات باحداق من الحور
تمشي الحداة لها من خلفها زجل اشجى من الناي والسنطير والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها شليلها زينة الاكفال والخصر
نطارد الوحش والغزلان نلحقها عَلَى البعاد وما تنجو من الضمر
نروح للحي ليلاً بعد ما نزلوا منازلاً ما بها لطخ من الوضر
ترابها المسك بل انقى وجاديها صوب الغمائم بالآصال والبكر
نلقى الخيام وقد صفت بها نضدت مثل السماء زهت بالانجم الزهر
قال الاولى قد مضوا قولاً وصدقه نقل وعقل وما للحق من غير
«الحسن يظهر في شيئين رونقه بيت من الشعر او بيت من الشعر»

(١) في رواية : «لو كنت اصبحت في الصحراء مرتقياً» الى آخر البيت

انعامنا ان اتت عند العشي تخل[1] اصواتها كدوي الرعد بالسحر
سفائن البر بل انجى لراكبها سفائن البحر كم فيها من الخطر
لنا المهارى وما للريم سرعتها بها وبالخيل نلنا كل مفتخر
خيلنا دائماً للحرب مسرجة من استغاث بنا بشره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا احداً واي عيش لمن قد بات في خفر
لا نحمل الضيم من جار فنتركه وارضه وجميع العز في السفر
وان اساء علينا الجار عشرته نبين عنه بلا ضر ولا ضرر
تبيت نار القرى تبدو لطارقنا فيها المداواة من جوع ومن خصر
عدونا ماله ملجا ولا وزر وعندنا عاديات السبق والظفر
شرابنا من حليب لا يخالطه ماء وليس حليب النوق كالبقر
اموال اعدائنا في كل آونة نقضي بقسمتها بالعدل والقدر
ما في البداوة من عيب تذم به الا المروءة والاحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافية والعيب والداء مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى فنحن اطول خلق الله في العمر



(١) في رواية : « اموالنا اذ تروح بالعشي علت » الى آخر البيت

سير العلم والاجتماع

العاملات في الافرنج

يزيد عدد العاملات من النساء في بلاد الغرب كلما صعب استحصال القوت وكثرت مطالب الحياة فقد بلغ عددهن في اميركا ٥٬٠٠٧٬٠٦٩ امرأة ذات صنعة منهن ٩٧٤٬١٠٠ مزوجة ومن تلك العاملات ١٨٥ بيطارة و٤٥ وقادة في القاطرات وقد زاد عدد المحاميات من ٢٠٨ الى ١٠١٠ وعدد المستمليات (ستينوغراف) ٣٠٥ في المئة وعدد المهندسات ٢١٧ في المئة وعدد المبشرات ١٩٧ في المائة وعدد خازنات الكتب ١١٦ في المئة

وبلغ عدد النساء العاملات في فرنسا ٦٬٨٠٠٬٧٠٧ منهن الطبيبات والاديبات وبينهن ٤٣٢٠ مصورة ونقاشة و٤٤١٥ موسيقية و٤٥٠٠٠ قابلة و٤٠٠٠٠ يصنعن ازياء و١٠٠٠٠٠ معلمة و١٢٠٠٠٠ مستخدمة في الادارات و٢٦٠٠٠٠ مستخدمات في المحال التجارية و[illegible] عاملة في المعامل و٨٢٠٠٠٠ خادمة و٩٠٠٠٠٠ تعمل باشغال الابرة و[illegible] في الحقول [illegible] تنتخب النساء في المجالس النيابية في فنلندا وسويسرا ويحاولن الآن في اكثر الاصقاع الاوربية ان يشاركن الرجل في هذه المهام . وللنساء حق الانتخاب في زيلندا الجديدة واوستراليا .

صناديق التوفير

سبقت انكلترا غيرها من ممالك اوربا في ايجاد صناديق للتوفير في ادارات البريد فانتفع بها الفقراء اي انتفاع في اقتصاد دريهمات لتكون لهم بعد رؤوس اموال و حذت حذوها في ذلك فرنسا والنمسا وايطاليا والبلجيك وهولاندا والسويد وفنلندا وبلغاريا وروسيا وسويسرا . وهذه المعاهد لا تسهل على الناس الاقتصاد فقط بل هي مصارف حقيقية للامة تدير شؤونها الحكومة فيتأتى لكل فرد في انكلترا ان يدفع في السنة لاحد فروع صندوق التوفير من فرنك الى ١٢٠٠ فرنك وان يتناول منه ما يريده على ان لا يتجاوز ما يأخذه ٢٥ فرنكا . ولهم طريقة في التسهيل على من يريد الاقتصاد ولا تكاد تخلو قرية من فرع لهذه الادارة فقد بلغ مادخل صناديق التوفير في برد انكلترا سنة ١٩٠٥

٣٠٧٤١٠٩٣٤٠٠٠٠ فرنك وماخرج منها٤٩٠٠٤٠٣٦٩٦٩٠٩ فرنكاً وبلغ ماوضعه المقتصدون من الفرنسيس في صناديق هذه الادارة في تلك السنة نفسها ١٢٧٨٢٥٧٦٤٧ فرنكاً وضعت في ٧٨٨٤ فرعاً وبلغ عدد اربابها ٤٠٥٧٧٠٣٩٠ شخصاً وبلغ عدد مثل هذه الصناديق في ايطاليا ٥٩٣١ دفع لها ٥٠٢٨٣٠٠٠٣ اشخاص ٩٨٣ مليون ليرة وعدد المقتصدين على تلك الصورة في هولاندا ١٠١٨٤٠٣١٦ شخصاً دفعوا ١٢٩٠٩٢٩٠٥٧٤ فلورينياً وعدد الصناديق في النمسا ٦٤٧٩ اشترك فيها ٢٠٠٠٤٠٤٨٧ شخصاً دفعوا ٢١٨ مليون كورون . وقد بلغ مجموع المودع في صناديق البريد بمصر في تلك السنة ذاتها ٢٣٦٠٠٠٠ ج م وصار في السنة التي تليها ٣٢٥٠٠٠٠ وعدد المودعين ٤٣٠٤٢٤ نفساً فزاد حتى بلغ ٥٩٠٠٨٤ . وليس في المملكة العثمانية صناديق وفر كهذه .

سكة حديدية بالبترول

ادخلت شركة شمالي اميركا طريقة استعمال زيت البترول لتسيير القطارات بدلاً من الفحم الحجري واتخذت لذلك مركبات وقاطرات خاصة بحيث لا يتجاوز محمولها ٢٥ طناً اما المحرك فهو أفقي الشكل وقوته ٢٠٠ حصان ويقطع ٣٣ كيلومتراً بدون اهتزاز ويمكن ايقافه باسرع ما يمكن وهو من خير القطارات في الصعود الى النجاد العالية وربما قطع بعد مدة ٤٠ كيلومتراً في الساعة .

شركات التلفون

بعد مدة تمد في مدينة الاستانة وكثير من قواعد البلاد العثمانية خطوط تلفونية كسائر البلاد الراقية وقد احصى العارفون انه يشترك كل ١٦ ساكناً في الولايات المتحدة بالتلفون وفي السويد لكل ٤٥ ساكناً اشتراك بالتلفون ولكل ٥٠ شخصاً في الدانيمرك ولكل ٥٤ في سويسرا ولكل ١٠٠ في المانيا ولكل ١٤٣ في انكلترا ولكل ٣٦٤ في فرنسا .

فمتى تكون المملكة العثمانية بخطوطها التلفونية كأدنى ممالك اوربا فيها وقيمة الاشتراك السنوي بالتلفون هو خمس ليرات في سويسرا وتنزل الى ٤٠ فرنكاً في السنة الرابعة للاشتراك وفي ايطاليا ٧٥٠ فرنكاً وفي المانيا ٨٥٠ ماركاً وفي النمسا ٢٠٠ فرنك وفي بروكسل ٢٥٠ فرنكاً ومثلها في مصر

التعاويذ

نشر المسيو انطوان كاباتون من علماء المشرقيات في مجلة العالم الاسلامي مقالة في التعاويذ عند الشعوب ولا سيما التي دانت بالاسلام جاء فيها من البحث التاريخي ما تعريبه: الظاهر ان التعاويذ قديمة كالضعف والخوف المتحكمين في الانسان امام قوى الطبيعة. فتراه بضعف عن ان يجاهد بنفسه في تحمل الآلام المعنوية والطبيعية على اختلاف مظاهرها كالمرض والحزن والخراب يتدرع بما يبعدها عنه او يقيه شرها بواسطة كلمات او اشارات او اشياء يعزو اليها قدرة واقية فوق الطبيعة ومن هذه الغريزة المنبعثة من سرعة التصديق وحب الدفاع عن النفس نشأ في الغالب استعمال التعاويذ في كل مصر وعصر منذ زمن الطاوبين على عهد قدماء الفرس والايارجيين في كاليدونيا الجديدة الى انكريكريين من زنوج افريقية الوسطى . ولا تنس التعاويذ المستعملة عند المحدثين من اهل الغرب التي يحلون بها اذرعهم

واغلب الآراء على ان جميع انواع الحلي والزينة كانت بادئ بدء عبارة عن تعويذة فتتخذ تارة من عصائب او من اوراق مربعة او من جلد كتبت عليه كلمات او رسمت عليه اشكال ورسوم او اعداد لها في نظرهم فضيلة خاصة او سور من كتب مقدسة كما تتخذ طوراً من الاحجار الكريمة او الاحجار الغريبة الشكل والاصل او من النباتات والجذوع والشعر والوبر والعظم والاظافر والاسنان او تصنع من مواد كلسية علامة على حيوانات معينة او من اقراط واسورة وتماثيل من المعدن او الحجر او الخشب او من الحلي والجرار او كرات الذهب او الفضة او الرخام او صفائح المعدن او من خرق الاقمشة او من جلود الحيوانات يزعمون ان انقشها ورقشها خاصية الوقاية .

ويدعون ان تأثير التعويذة ناشئ من كيفية حملها وانها تنفع الحيوان كما تنفع الانسان وهي وقاية للقطيع كما هي وقاية الراعي وتساعد في النوم كما تساعد في اليقظة وفي عقد البيوع كما في الامراض الطارئة

ولئن عم استعمال التعاويذ بما في فطرة الناس كلهم من السذاجة والجبن فالظاهر انها نشأت من الشرق اوانها على الاقل كثر استعمالها فيه لان الانسان كان يشعر تحت السماوات الصافية بحاجة الى ما يدفع عنه الاسواء . .

وقد عهد في الحضارة المصرية استعمال الاسورة والتماثيل والاحجار الكريمة التي كانوا

يزعمون انها تجلب السعادة . وان الكتابات على ورق البردي التي كانت تلف وتخاط في الثوب ليحملها الانسان وكان تتزين الرجال والنساء بعقود الصقر الحقي ومن حرذون محفور على الحجر او على المعدن كما كانت تعويذ للوقاية لاشياء الزينة والتبرج يراد منها طرد الارواح الشريرة والامراض ودفع الخراب والموت

واعتاد الاشوريون والبابليون ان يكتبوا بعض كلمات سحرية وتراكيب الشفاء على عصابتين احداهما من قماش ابيض والثانية من قماش اسود وتقوم هاتان العصابتان مقام التعويذة بان كانوا يضعونها على الايدي او على الجبهة . وقد نقلوا هذه الطريقة الى الاسرائيليين مع شيء من التعديل فيها ولكنها لا تكاد تختلف عنها كثيراً ومع ان الشعب الاسرائيلي كبير الاعتقاد بالمولى فهو يعتقد بتأثير التعاويذ

وتأثير التوراة الى هذه العقيدة فقد وردت فيها عدة آيات في التعاويذ والاحراز . ومعظم التعاويذ اليهودية عبارة عن صفائح معدنية او حلق او جذور او عصائب من الرق كتب عليها اسم المولى او آية من التوراة وبعضها مؤلف من جذع بعض الاشجار . حيات قمح وضعت في كيس جلد تناط في عنق الاطفال او الحيوانات على حد سواء . ويلبس البالغون من الاسرائيليين تعاويذ على صفة خواتم .

وقد شاع استعمال التعاويذ بين اليهود منذ القرن الاول الى القرن السابع للميلاد

وكان الرومان واليونان يعتقدون كابناء اسرائيل بتأثير التعاويذ ولما ظهرت النصرانية لم يكن من تأثيراتها الا انها حولت مجرى الخرافات وحلتها بالاسم والاعمال فاخذ الناس يعتقدون بالايقونات والصور والتماثيل وبعض المعابد كما كان البشر يعتقدون من قبل بتأثير بعض الينابيع او بعض المغاور الآهلة بالجن

اما الشرق الاقصى فقد فاق الشرق القريب والغرب باعتقاد اهله بالتعاويذ . فالصينيون والهنود اعتقدوا ولا يزالون يعتقدون بنفعها واقتبسها البراهمة والطاوسيون والبوذيون واقتبسوها غيرهم من النحل والملل . ولشعوب الهند الصينية كالخمريين والشميين والاناميين ممن امتزجوا ببعض الامم الراقية اساليب كثيرة من التعاويذ وللهنود نوع من الخرز يزعمون انه يقي حامله من كل سوء وينيله كل خير وللاناميين والصينيين نوع من البطاقات يكتبون عليها كلمات او الغازاً ويجعلونها في الاعناق عوذة كما انهم يستعملون الانواط والاقراط الذهبية والفضية واظافر النمر وغيرها لدفع الارواح الشريرة

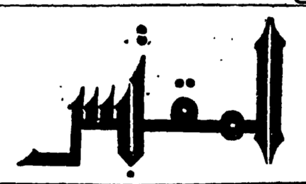
جاء الاسلام وهو آخر الاديان وفيه امور من اليهودية والنصرانية ولم يتيسر له مثل

غيره ان يتخلص من عدوى سرعة الاعتقاد فاستمال العامة بان اقرهم على بعض معتقداتهم على نحو ما فعلت النصرانية . وربما كان الاسلام على سذاجته المملوءة بالتقوى والنفع اكثر الاديان تسامحاً في معنى التعاويذ وذلك لانه انتشر بين شعوب شرقيين تأصلت فيهم الخرافات منذ القدم . ولم يأت الاسلام غير توحيد صورة التعاويذ الظاهرة بعض الشيء عند جميع الشعوب الاسلامية

فتعاويذ المسلمين في الشرق الاقصى تكاد تكون كلها عبارة عن سور من القرآن او حكم او كلمات لا يفهم لها معنى تكتب على الورق او القماش او على نصل او صفيحة من معدن ويستعملون في كتابة هذه لاحراز ماء الزعفران او الكركم او ماء الورد او ماء الزهر وتسامح الالايو والجاويون فاخذوا يستعملون الحبر الافرنجي

ومن التعاويذ ما ينفع في جميع حالات الحياة فمنها للوباء وللمرض وللحريق وللسحر ومنها ما يلبسه الغزاة في حروبهم والنساء لحبلهن او لحفظ ما لهن من ولد ومنها ما ينزل المطر ويفتح الكنوز ويحرس الحيوانات ومنها ما يقي من قرص الذباب ونقيق الضفادع . اما عدد ما يحمل منها فراجع الى ذوق الشخص وكذلك يضعها في جميع اطراف بدنه موقتاً او دائماً ومعظم التآليف الموضوعة في فن الرقية والتعاويذ من تآليف اناس من مسلمي افريقية واكثر ما يعول عليه بين المغاربة والمشارقة كتاب شمس المعارف ولطائف العوارف ولهذا الكتاب عندهم حرمة تكاد تقرب من احترامهم الكتاب العزيز منهم لا يمسونه الا مطهرين .

وشاع استعمال التعاويذ بين العرب والترك ومسلمي افريقية الشمالية والشرقية والفرس وهم مكثرون منها وشعوب الالايو والبولينيزيين وسكان مدغسكر ونزالالايو وهم من شيعة اكثر الشعوب الاسلامية اغراقاً في استعمال التعاويذ . وكذلك الحال عند البوكوبين والماكاساريين في سيليب والاتشينوا والباتاقيين في سومطرا والداياكيين في بورنو والتاكالين والبيزيين في جزائر فيلبين



رجب سنة ٣٢٧

نخب الذخائر

في احوال الجواهر

اشتهر ابو عبد الله شمس الدين محمد بن ابراهيم بن ساعد السنجاري المصري بن الاكفاني بتآليفه الجيدة وهو من اهل القرن الثامن توفي بالطاعون سنة تسع واربعين وسبعمائة وكان طبيباً بمصر ومن موءلفاته كتاب كشف الغين في احوال العين وشرحها وقاية العين لنور الدين علي المناوي وتمنية اللبيب في غيبة الطبيب ونهاية القصد في صناعة الفصد والنظر والتحقيق في تقليب الرقيق ونخب الذخائر في احوال الجواهر وارشاد القاصد الى اسنى المقاصد وبعضهم زاد عليها وسماها الدر النظيم في احوال العلوم والتعليم . وكتاب ارشاد القاصد طبع مرتين في القاهرة وبيروت وهو من كتب التعليم الممتعة على صغر حجمه ولكن المصنفات بفوائدها لا بحجمها .

وكتابه نخب الذخائر واحرى به ان يسمى رسالة تفضل باهدائه للمقتبس محمود شكري افندي الآلوسي عالم العراق الآن فاحببنا ان نضمه الى صدر المجلة لينتفع به القراء . اما هذا الموضوع فقد الف فيه عدة كتب كما يفهم من عبارات المصنف ومن الكتب المؤلفة فيه كتاب الجماهر في معرفة الجواهر لابي الريحان البيروني الفيلسوف المشهور الفه للملك المعظم ابي الفتح ومنه نسخة في مادريد ومنها ازهار الافكار في جواهر الاحجار لشهاب الدين ابي العباس احمد بن يوسف التيفاشي المتوفي سنة ٦٥١هـ . واليك نخب الذخائر :

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الفقير الى الواحد الباري · محمد بن ابراهيم بن ساعد الانصاري · الحمد لله كفء افضاله · والصلاة عَلَى سيدنا محمد وآله · (وبعد) فهذا كتاب لخصت فيه خلاصة كلام الاقدمين والمتأخرين · من الحكماء المعتبرين · في ذكر الجواهر النفيسة باصنافها وصفاتها ومعادنها المعروفة · وقيمتها المشهورة المألوفة · وخواصها ومنافعها باوضح لفظ واصح معنى · ووسمته بنخب الذخائر في احوال الجواهر · وجانبت فيه الاطناب · وميزت فيه القشر عن اللباب · والله اسأل ان ينفع به بمحمد وآله ·

القول على الياقوت

اصنافه اربعة الاحمر وهو اعلاها رتبة واغلاها قيمة والاصفر والازرق والابيض وللاحمر سبع مراتب اعلاها الرماني ثم البهرماني ثم الارجواني ثم اللحمي ثم البنفسجي ثم الجلناري ثم الوردي · فالرماني وهو الشبيه بحب الرمان الغض الخالص الحمرة الشديد الصبغ الكثير الماء ويوجد لونه بان يقطر عَلَى صفحة فضة مجلاة قطرة دم قرمز اعني من عرق ضارب فلون تلك القطرة عَلَى تلك الصفيحة هو الرماني والبهرماني يشبه بلون البهرماني وهو الصبغ الخالص الحاصل عن العصفر دون زردج ومن الجوهريين من يفضل البهرماني عَلَى الرماني والتفضيل انما هو بشدة الصبغ وكثرة المائية والشعاع ومنهم من يقول هما شيء واحد وانما اهل العراق يقولون بهرماني واهل خراسان يقولون رماني فالخلاف لفظي والارجواني ايضاً شديد الحمرة · وقيل كان الارجواني لباس قياصرة الروم وكان محظوراً عن السوقة الى زمن الاسكندر فانه اقتضى رأيه ان لا يختص الملك بلباس يعرف به فيقصد · ومنهم من يسمي الارجواني الجمري بالجيم تشبيهاً بالجمر المتقد وصحفه بعضهم بالخمري وكان الخميري هو البنفسجي · واما اللحمي فهو دون الارجواني في الحمرة يشبه ماء اللحم الطري الذي لم يشبه ملح والبنفسجي يشوبه كهبة تخرجه عن خالص الحمرة وهو لون البنفش المعروف بالماذيني · واما الجلناري فيشوبه بعض صفرة والوردي يشوبه بياض وهو انزل طبقات الاحمر ·

واجود هذه الالوان كلها ما توفر صبغه وماؤه وشعاعه وخلا عن النمش وعن الحومليات وهي حجارة مختلطة به وعن الرثم وهو وسخ فيه شبه الطين · وعن

التفت وهو كالصدع في الزجاجة اذا صدمت يمنع نفوذ الضياء والاشفاف . وهذا قد يكون اصليًا وقد يكون عارضًا . ومن عيوبه ايضًا اختلاف الصبغة فيشبه البلقة ومنها غمامة بيضاء صدفية تتصل ببعض سطوحه فان لم تكن غائرة ذهبت بالحك واذا خالط الحمرة لون غيرها يزول بالحمي بالنار بتدريج وتبقى الحمرة خالصة ولا يثبت على النار غيرها ومتى زالت الحمرة بالحمي فليس بياقوت .

ومعدن الياقوت بجبل يسمى الراهون في جزيرة سرنديب . وفي سيلان ومكران معدن الياقوت الاصفر والازرق وتحت جبل البرق معدن الياقوت الاحمر والياقوت اصلب الجواهر . ولا يخدشه منها الا الماس ولا يتجلى بخشب العشر الرطب وانما يسوى بالسنباذج ويجلى على صفيحة نحاس بالجزع المكلس والماء وهو اشد الجواهر صقا لا واكثرها ماء . وشعاعه في الليل في ضوء الشمع احمر وشعاع البلخش ونحوه ابيض .

وذكر التدباه ان قيمة المثقال الفائق من الياقوت الاحمر ثلاثة آلاف دينار . واما في الدولة العباسية فان الغالب من قيمته ان الجيد منه اذا كان وزن طسوج يساوي خمسة دنانير واضعفه عشرين دينارًا وسدس مثقال ثلاثون دينارًا وثلث مثقال مائة وعشرين دينارًا ونصف مثقال اربعمائة دينار والمثقال بالف دينار والمثقال ونصف بالفي دينار هذا ما تقرر في ايام المأمون مع كثرة الجواهر في ذلك الزمان . والمثقال من البهرماني بثمانمائة دينار ومن الارجواني بخمسمائة دينار ومن الجلناري بمائتي دينار ومن اللحمي بمائة دينار والبنفسجي يقاربه والوردي دون ذلك وكان في خزانة يمين الدولة يافوتة شكلها شكل حبة العنب وزنها اثنا عشر مثقالاً قومت بعشرين الف دينار وكان للمقتدر فصًا يسمى ورقة آلاس لانه كان علي شكلها وزنه مثقالان الا شعيرتان اشتراه بستين الف درهم . واما في هذا الزمان فان قيمة الياقوت وسائر الجواهر زادت كثيرًا .

واما الياقوت الاصفر فاعلاه ما قارب الجلناري وبعده المشمشي وبعده الاترجي وبعده التبني وبلغت قيمة الاصفر الجيد المثقال مائة دينار . واما الازرق ويسمى الاكهب فاعلاه الكحلي ثم النيلي ثم اللازوردي ثم السمائي . وكان في القديم قيمة الجيد من الازرق عشرة دنانير المثقال وما زاد فتزداد قيمته باضعاف ذلك . واما الابيض فانه يحمل من سرنديب ويكون رزينًا باردًا في الفم واجوده البلوري الكثير الماء وهو اقل قيمة من سائرها .

قال ارسطوطاليس لا بمزاج سائر اليواقيت حار يابس واذا علق شيء من اي اصنافه كان على انسان اكسبه مهابة في اعين الناس وسهل عليه قضاء حوائجه ودفع عنه شر الطاعون · وقال ابن سينا ان خاصيته في التفريح وتقوية القلب ومقاومة السموم عظيمة · وشهد جمع من القدماء انه اذا امسك في الفم فرح القلب · وقال الغافقي وغيره انه ينفع نفث الدم ويمنع جموده تعليقاً · وقال ابن زهر ان شرب سحيقه ينفع الجذام وان التختم به ينفع حدوث الصرع وقال ابن وحشية من علق عليه الياقوت الاحمر اتسع رزقه وتصرفه في المعاش · وفي زماننا هذا حجر نفيس يعرف بعين الهر لشبهه اياها كأن فيه زئبق يتحرك يتغالى فيه الملوك والامراء ويقال انه من اصناف اليواقيت ويظهر من معادنها · وقيمته اذا كان فائقاً وزنته نحو نصف مثقال الف درهم فما فوقها ويقال انه وقاية لعين المجدور ·

القول على البلخش

ويسمى اللعل بالفارسية وهوجوهر احمر شفاف مسفر صافي يضاهي فائق الياقوت في اللون والرونق · ويتخالف عنه في الصلابة حتى انه يحتك بالمصادمات فيحتاج الى الجلاء بالمرقشيشا الذهبية وهو افضل ما حلي به هذا الجوهر ومنه ما يشبه الياقوت البهرماني ويعرف باليازكي وهو اعلاها واغلاها · وكان يباع في ايام بني بويه بقيمة الياقوت حتى عرفوه فنزل عن تلك القيمة وقرر ان يباع بالدرهم دون المثقال تفرقة بينه وبين الياقوت · ومنه ما يميل الى البياض ومنه ما يميل الى البنفسجية وهما دون الاول ومعدنه بالمشرق على مسير ثلاثة ايام من بذخشان · وهي له كالباب ومنه ما يوجد في غلف شفافة ومنه ما يوجد بغير غلاف وشوهد منه ما يزيد وزنه الى المائة درهم وكانت قيمته في القديم عن كل درهم عشرين ديناراً وربما زاد عن ذلك وليس لهذا الجوهر منفعة كالياقوت بل يشترى لحسنه ·

القول على البجادي

ويعرف بالبنفش وهو حجر يشبه الياقوت بعض الشبه الا انه لا يضيء غالباً حتى يلعق من تحته بالحفر ليشف عن البطائن وشبه ارسطوطاليس لونه بنار يشوبها دخان ومنه ما يجلب من سرنديب وهو ارفع طبقاته ويعرف بالماذيني · ومنه ما يجلب من بذخشان ومنه ما يجلب من بلاد المغرب ويعرف بالقروي · ومنه ما يجلب من بلاد

الافرنجة ومنهُ صنف يشوبهُ صفرة خلوقية ويعرف بالاسبادشت ويوجد في الخراساني منهُ ما يكون وزنهُ نصف من ·

اما السبنديي فانه لا يتجاوز مقدار الياقوت بكثير وزن · وقيل ان الجيد منه يلتقط زغب الريش المنتوف ويبلغ قيمة الدرهم منه ديناراً واحداً · قال ارسطوطاليس ان من تختم بوزن عشرين شعيرة منه لم ير في منامه احلاماً ردية ومن ادمن النظر اليه نقص نور عينيه وقال ابن ابي الاشعث لبسه يورث الخيلاء ويحرك الشبق · واما الاسبادشت فانه يقطع الرعاف ونزف الدم تعليقاً اذا كان وزنه نصف مثقال فما فوقه ·

القول على الماس

هو جوهر يشبه الياقوت في الرزانة والصلابة وعدم الانفصال عن الحديد وقهره لغيره من الاحجار وهو شفاف فيه ادنى بريق ويوجد فيه الابيض والزيتي والاصفر والاحمر والاخضر والازرق والاسود والفضي والحديدي واشكال الماس كلها مضرسة مخروطية ومثلثات من غير صنعة والهند تفضل منه الابيض والاصفر بسبب ما يظهر منهما من الشعاع الاحمر بقوس قزح اذا اقيما في مقابلة عين الشمس · واما اهل العراق وخراسان فلا يفرقون بين الوانه لانهم انما يستعملونه في ثقب الجواهر خاصة ومعدنه بقرب معدن الياقوت · وله معدن بقرب غزنه ومعدن بمقدونية من بلاد الروم ولونه كلون النوشاذر · ومعدن باليمن وهو حديدي اللون ومعدن بقبرس وهو فضي اللون رخو · ومن غريب حال الماس انه اذا طرق بمطرقة على سندان نكأ فيهما ولا يتكسر واذا لف في صفيحة اسرب وضرب انكسر · وغالب ما يوجد منه قطع صغيرة بقدر الفلفل ونحوه · وكان قيمة هذا قديماً المثقال بمائتي دينار وما كان بقدر البندقة او قاربه فيكون قيمته من ثلاثمائة الى خمسمائة دينار ·

وحكى نصر الجوهري ان معز الدولة بن بويه الديلمي اهدى الى اخيه ركن الدولة من الماس فصاً وزنه ثلاثة مثاقيل ولم يسمع باعظم منه · واخبرني السيد الشريف ناصر الدين الترمذي انه رأى عند السلطان قطب الدين ملك الهند من الماس الجيد الجليل القدر شيئاً كثيراً جداً ولعلهم لا يسمحون بخروج جيده من ارضهم لانهم يتيامنون به · قال ارسطوطاليس الماس بارد يابس في الرابعة يثقب به الياقوت وسائر الاحجار الصلبة ومتى كان في مجرى البول حصاة فتلصق شبة من هذا الحجر

في حديدة كالقاثاطيرثم يدخل في القضيب لتماس الحصاة فتفتتها ولا ينبغي ان يدخل الفم فانه يكسر الاسنان وان ابتلع منه شيئاً فربما قتل ٠

القول على الدر واللؤلؤ

الحيوان الذي يتولد فيه اللؤلؤ هو بعض الاصداف وهو دقيق القوائم لزج يفتح بارادة منه وينضم كذلك ويمشي اسراباً ويزدحم على المرعى واختلفوا في تولده في هذا الصدف فمنهم من قال انه يتكون فيه كما يتكون البيض في الحيوان البياض ذكر ذلك جمع من المحققين ٠ وقيل بل يطلع الى سطح البحر في شهر نيسان وينفتح الصدف ويتلقى المطر فينعقد حباً ذكره نصر الجوهري وكثير من الناس واقول عند التدقيق لاتضاد بين القولين لجواز ان يكون تكون اللؤلؤ في صدفه كتكون البيض ويكون قطر نيسان له بمثابة النطفة ٠

وقال الكندي ان موضع اللؤلؤ من هذا الحيوان داخل الصدف وما كان منه مما يلي الفم والاذن فهو الجيد منه وقالوا ان الحب الكبير انما يتكون في حلقومه ويزداد بالتفاف القشور عليه والدليل علي ذلك انه يوجد طبقات والداخلة منها شبيه بالخارجة وكلها تشابه باطن الصدف وله مغاصات مشهورة في البحر الاخضر ويوجد في مجازات بين تلك المغائص وبين تلك السواحل ٠ ومن المغاصات المشهورة مغاص اول بالبحرين ومغاص دهلك والسرين ومغاص الشرجه باليمن ومغاص القلزم بجوار جبل الطور ومغاص غب سرنديب ومغاص سفالة الزنج ومغاص اسقطرة وقد يتفق في بعض المغاصات مانع من الغوص كالحيوانات المؤذية التي في مغاص القلزم ٠ ولهذا يدهن الغواصون عند الغوص ابدانهم بالميعة السائلة لان الهوام البحرية لا تقربها ٠

ويختلف اللؤلؤ باختلاف المغاصات من جهة تربة المكان وغذاء الحيوان كما تغلب الرصاصة على اللآلئ القلزمية والدهلكية والوقت الذي يغاص فيه هو من اول نيسان الرومي الى آخر شهر ايلول وفي ما عدا هذه المدة يسافر هذا الحيوان من السواحل و يلجج ويختلف اللؤلؤ بالمقدار فمنه الكبار والصغار وما بين ذلك واعظم ما وجد منه اليتيمة التي كانت عند عبد الملك بن مروان ذكر انها كان وزنها ثلاثة مثاقيل وكانت مع ذلك حائزة لجميع صفات الحسن مدحرجة نقية رطبة رائقة ولذلك سميت اليتيمة ولم يذكر عنها قيمة لكن ذكر الاخواني الرازيان انهما شاهدا في خزانة الامير يمين الدولة حبة ذات قاعدة وزنها مثقالان وثلث وانها قومت بثلاثين الف

دينار . ويختلف اللؤلؤ ايضاً من شكله فمنه المدحرج و يعرف بالعيون واذا كثرت استدارته وماؤه سمي نجماً . ومنه المستطيل الزيتوني ومنه الغلامي وهو المستدير القاعدة المحدد الرأس كأنه مخروط ومنه الفلكي المفرطح ومنه الفوفلي واللوزي والشعيري . ومنه المضرس وهو دونها شكلاً . ويختلف اللؤلؤ ايضاً من لونه فمنه اليقي البياض ومنه الرصاصي ومنه العاجي وصفرته غالباً في حساب المرض له واذا فاز وطال زمانه اسود . واللؤلؤ سريع التغير لانه حيواني بخلاف الجواهر المعدنية اذ ان اعمارنا لا تفي بتغير اكثرها . ويثقب هذا الحب لانه يزداد بحسن التأليف في الا حسناً ورونقاً وقيمة وانما يثقب بالماس فلذلك لم يستعمل الاطباء في الادوية النظم البكر غير المثقوب .

والقيمة عن الدر في القديم النجم اذا كان وزنه مثقالاً كانت قيمته الف دينار واذا كان وزنه ثلثي مثقال كان قيمته خمس مائة دينار واذا كان وزنه نصف مثقال كانت قيمته مائتي دينار واذا كان وزنه ثلث مثقال كانت قيمته خمسين ديناراً واذا كان وزنه ربع مثقال كانت قيمته عشرين ديناراً واذا كان وزنه سدس مثقال كانت قيمته خمسة دنانير وثمن مثقال قيمته ثلاثة دنانير ونصف سدس مثقال قيمته دينار واحد . والغلامي بالنصف من قيمة النجم وما عداها بالنصف من قيمة الغلامي . واما ما زاد على وزن مثقال فيزاد لكل قيراط في الوزن مائة دينار في الثمن الى ان يبلغ مثقالاً ونصفاً ثم يزاد لكل دانق في الوزن خمس مائة دينار في الثمن الى ان يبلغ مثقالين وما زاد عليه تتضاعف قيمته . واما الآن فالقيمة على قياس الجواهر متضاعفة لكثرة الرغبات من ملوك العصر في اقتناء الجواهر النفيسة . واما صغاره فبالدرهم يقوم . وخاصية اللؤلؤ المنفعة من خفقان القلب وتوحشه ويجلو العين ويزيد في الباه ويقطع نزف الدم وشربته درهم والمحلول منه يذهب البهق والبرص والكلف والنمش طلاء ويبرئ الصداع والشقيقة سعوطاً . وصفة حله ان يسحق ويعجن بماء حماض الاترج ويعلق في دن فيه خل بحيث يرتقي اليه بخار الخل فانه ينحل في ثلاثة اسابيع وهو يابس في الدرجة الثانية بارد في الاولى وقيل حار فيها لطيف جداً .

قال نصر الجوهري : اذا ذهب ماء اللؤلؤ وكدر فينبغي ان يودع اليه مشروحه وتلف الالية في عجين مختمر ويجعل في كوز ويحمى عليه فاذا خرج دهن بالكافور . وقال ابو الريحان البيروني ان ما كان تغيره من قبل الطيب فيجعل في قدح مطين فيه

صابون ونورة غير مطفية جزآن متساويان و يصب عليه ماء عذب وخل خمر و يغلى في نار لينة ولا يزال ترفع رغوة الصابون وترمى بها الى ان تنقطع ويصفو الماء في القدح وبعد ذلك يخرج اللؤلؤ و يغسل · وان كان التغير في اديمه الى السواد فينقع في لبن التين اربعين يوماً ثم ينقل الى قدح فيه محلب وكافور وخروع اجزاء سواء ويوضع على نار فحم مقدار ساعتين بدون نفخ عليها ثم ينحى · وان كان السواد في باطنه طلي بشمع وجعل في قدح مع حماض الاترج و يبدل عليه كل ثلاثة ايام وتدام خضخضته حتى يبيض · وان كان في اديمه صفرة نقع في لبن التين اربعين يوماً ثم نقل الى قدح فيه قلي وصابون و بورق بالسوية ويفعل فيه كما يفعل بالاسود · وان كانت الصفرة في داخله جعل في محلب وسمسم وكافور متساوية الاجزاء مدقوقة ثم تلف فوقها عجين وتوضع في مغرفة حديد وتغمر بدهن الاكارع وتغلى غليتين ثم تخرج · وان كان احمر غلي في لبن حليب ثم طلي باشنان فارسي وشب يماني وكافور اجزاء متساوية تدق ناعماً وتعجن بلبن حليب و يطلى به طلياً ثخيناً وتودع جوف عجين قد عجن بلبن حليب و يخبز في التنور · وان كان رصاصياً نقع في حماض الاترج ثلاثة ايام ثم يغسل بماء البيض ويحفظ من الريح بالقطن · وذكر غيرها في تبييض الفاسد ان يلقى في خل ثقيف مع حبتين تنكار وقيراط نوشادر وحبة بورق وثلاث حبات قلي مسحوقة وتغلى في مغرفة حديد ثم ترفع المغرفة عن النار وتوضع في ماء بارد ويدلك فيه بملح اندراني مسحوق ناعم ثم يغسل بماء عذب ولا يبعد ان هذا العمل ينزع عنه قشره الاعلى او بعضه والتجربة خطر ·

القول في الزمرد

الخضرة تعم اصنافه كلها وافضله ما كان مشبع الخضرة ذا رونق وشعاع لا يشوبه اسود ولا صفرة ولا نمش ولا حرمليات ولا عروق بيض ولا نفوت · وليس يكاد يخلص عنها ودونه الريحاني الشبيهُ بورق الآس الرطب ودونهُ السلقي الشبيهُ بورق السلق الطري واهل الهند والصين تفضل الريحاني منهُ وترغب فيه · واهل المغرب يرغبونَ لما كان مشبع الخضرة وان كان قليل الماء و يزداد رونقاً اذا دهن بزيت بذر الكتان · واذا ترك بدون دهن يذهب ماؤُه ويمتحن بالعقيق المحدد فان خدشهُ فهو من اشباه الزمرد ومعدنهُ بسفح جبل قرشندة من ارض البجاة بصعيد مصر الاعلى واكثر ما يظهر منهُ خرز مستطيلة ذات خمسة اسطحة ويسمي اقصاباً وثقبةُ يشينهُ

بعكس اللؤلؤ وظهر في زماننا هذا من هذا المعدن قطع لم يسمع بمثلها في العظم مايقارب زنة من ونحو ذلك · والمشهور ان الدهنج يكدر الزمرد اذا ماسه فيذهب رونقه وهو الآن بدون القيمة التي كانت في القديم بخلاف سائر الجواهر وما ذلك الا لكثرته · فان ابا الريحان البيروني حكى ان زنة نصف مثقال من الجيد منه يساوي الف دينار وقيل ان منه صنفاً يعرف بالذبابي لانه يشبه الذباب العظام التي تكون في المروج وان من خاصية هذا الصنف ان الافاعي اذا نظرته تسيل اعينها وانا الى الآن لم ار هذا الصنف ولكنني امتحنت الريحاني والسلقي في هذا الامر فلم يصح ولاتغيرت اعين الافاعي وخاصية الزمرد النفع من السموم المشروبة ونهش الافاعي ولدغ العقارب. يؤخذ من سحيقه تسع شعيرات ويجد شاربه في بدنه وجعاً عظيماً وانحلالاً في قوته ثم يفيق وقد انتفع ويوقف الجذام في ابتدائه ويقطع الاسهال المزمن ونفث الدم شرباً وتعليقاً ويقوي المعدة ويقوي اسرع تعليقاً وامساكه في الفم يقوي الاسنان والمعدة وان علق على فخذ المطلقة اسرعت الولادة وادمان النظر اليه يجلو البصر ويحده وطبعه بارد يابس ·

القول في الزبرجد

هو صنف واحد فستقي اللون شفاف لكنه سريع الانطفاء لرخاوته وقيل ان معدنه بالقرب من معدن الزمرد ولكنه مجهول في زماننا هذا ومع ذلك فقيمته نحو قيمة البنفش وطبعه حار يابس وتقرب منافعه من منافع الزمرد ويدفع شر العين ·

القول على الفيروزج

معنى اسمه بالفارسية النصر ولذلك يسمى حجر الغلبة ويسمى ايضاً حجر العين لان حامله يدفع عنه شرها والمشهور عنهُ انهُ يدفع الصواعق وهو حجر ازرق اصلب من اللازورد يجلب من اعمال نيسابور · وكلما كان ارطب فهو اجود والمختار منهُ ما كان من المعدن الازهري والبوسحاقي لانهُ مشبع اللون صقيل مشرق · ثم اللبني المعروف بشيرقام · ثم الاسمانجوني الغميق · قال ابو الريحان اعظم ما وجد من الفيروزج وزن مئة درهم ولم يوجد من الخالص منهُ غير المختلط بشيءٍ غيره الا وزن خمسة دراهم · وبلغت قيمته مائة دينار قال الكندي وقد كرهه قوم بسبب تغيره بالصحو والغيم والرياح وتصفير الروائح الطيبة له واذهاب الحمام لمائه وامانته بالزيت وكما انه يموت بالزيت كذلك يحيى بالشحم والالية يعالج بان يجعل في أيدي القصابين · قال بن زهر

أن الملوك تعظم هذا الحجر لانه يدفع القتل عن صاحبه ولم ير في يد قتيل قط ولا في يد غريق واذا شرب منه نفع لدغة العقرب • وقال الغافقي انه بارد يابس • وقال ديسقوريدس انه يقبض نتو الحدقة و ينفع بثرها و يجمع حجب العين المخرقة و يجلو الغشاوة • وقال ارسطوطاليس انه ينقص من هيبة حامله • وذكر هرمس انه اذا نقش عليه صورة طائر في فمه سمكة وجعل في خاتم وتحته شيء من خصي الثعلب و يكون القمر وعطارد في الثور فان حامله يقوى عَلَى الجماع وتزداد شهوته له • وقال ابن ابي الاشعث انه يقوي القلب الا انه دون الياقوت • ووجدت نقلاً عن بعض الاطباء انه اقوى في تقوية النفس من سائر الاحجار •

القول عَلَى البلور

يجلب من خزائن الزنج ومن كشمير ومن نواحي بذخشان وله معدن ببدليس ومعدن بارمينية و يجلب ايضاً من سرنديب ومن بلاد افرنجة ومن المغرب الاقصى ومنه ما يلتقط من البوادي • وقيمته بحسب ما يعمل منه من الاواني وحسن صنعتها ووجد منه قطعة زنتها مائة رطل بالعراقي وافضله المستنبط من بطن الارض ويكون ساطع البياض كثير المائية رزيناً صلباً بحيث يقدح منه النار ويخدش كثيراً من الجواهر بخلاف الملتقط من ظاهر الارض ومن خاصيته انه من علقه عليه لم ير مناماً يفزعه ورأى احلاماً حسنة ويسقى منه مثقال بلبن الاتن لاصحاب السل فينفعهم و ينفع الرعشة تعليقاً •

القول على الجمز

ويقال جمست هو حجر يشبه الياقوت البنفسجي واعلاه ما غلبت عليه الوردية ومعدنه بقرية الصفراء بالحجاز • ويوجد مغشى ببياض كالثلج عَلَى وجهه حمرة ووجد منه قدر الرطل واكثر ينفع وجع المعدة تعليقاً والشرب بآنيته يبطي بالسكر وقيمته رخيصة •

القول عَلَى الدهنج

هو حجر رخو شديد الخضرة تلوح فيه زنجارية وفيه خطوط سود دقاق جداً • وربما شابه حمرة خفيه ومنه طاوسي ومنه موشى وقيل انه يصفو بصفاء الجو و يكدر بكدورته ومنه افرندي وهو افضل اصنافه ومنه هندي ومنه كرماني وخراساني ومنه كركي ومنه معزل والهند ترى انه ضرب من الثوتيا و يكون رخواً وقت اخراجه من

معدنه ثم يزداد صلابة • وقال ارسطوطاليس ان شرب منه شارب السم نفعه وان شرب منه من غير سم كان سماً • وقد وثق عامة الناس من الفرندي انه يجلو بياض العين جلاء حسناً •

القول علي اليشب

ويقال يشم منه مجلوب من بلاد الترك والوانه ابيض واصفر وزيتي وهو افضلها • ومنه مستخرج من ناحية ختن من واديين يسمى احدهما فاش ويستخرج منه ابيض فائق ويسمي الآخر واقاش والمستخرج منه كدر • وربما خرج منه شيء اسود ولا يوصل الى معدنه وانما السيل يخرجه والقطع الكبار للملك والصغار للرعية والترك • واهل الصين تتخذ منه مناطق وحلية للسيوف والسروج حرصاً على الغلبة وزعموا انه يدفع الصواعق وجرب من الاصفر والزيتي انه ينفع وجع المعدة تعليقات عليها وينفع اوجاع الاحشاء :

القول على الغازدهر

ويقال بازهر ومنه معدني ومنه حيواني والمعدني منه ابيض واصفر واخضر واغبر ومسكت وهو افضلها ومعادنه بالمند والصين والخالص منه اذا القي من سحالته شيء في لبن حليب جمده ويعرق في الشمس وهو نافع من جميع السموم ومقدار ما يشرب منه اثنا عشر شعيرة فيخرج السم بالعرق من الجسد • واذا وضع علي لسع العقرب او الزنبور نفع نفعاً بيناً واذاانثرت سحالته علي موضع اللسع اجتذبت السم منه وجرب انه اذا نقش في فص منه صورة عقرب والقمر في العقرب في احد اوتاد الطالع وركب على خاتم ذهب وطبع به والقمر في العقرب علي درهمين كندر ممضوغ فانه يشفي من لسعة العقرب شرباً • واما الحيواني من البازهر فانه يتولد في مرابر بعض الايايل بارض شنكاره من جبال شيراز كما يتولد حجر البقر في مرير ها واكثره بلوطي الشكل لونه بين الخضرة والغبرة ويترا كم طبقات بعضها فوق بعض في المسن من هذا الحيوان حتى يبلغ زنة البلوط منه عشرة مثاقيل مع خفته وهو جوهر شريف يقاوم سائر السموم شرباً اذا شرب منه من دانق الى نصف درهم يسحل على المسن بالماء القراح وسحالة الخالص بيضاء وربما تميل الى حمرة خفية والمغشوش منه سحالته تميل الى خضرة او صفرة واذا تقدم انسان باستعماله علي سبيل الاحتياط • وشرب منه في اربعين يوماً متوالية كل يوم وزن دانق لم يضره ما يرد علي بدنه من السموم وينفع المجزومين نفعاً

بليغاً ويجلو بياض العين والكلف والنمش جلاء · وحيا ويحل مغل الدواب وامسر بولها سريعاً ·

القول على الخرتوت

ويقال خثو قال ابو الريحان البيروني هو حيواني يقال انه يؤخذ من جبهة ثور يكون في نواحي بلاد الترك بارض خرخيز · وقيل بل من جبهة طائر عظيم يسقط في بعض تلك الجزائر وهو مرغوب فيه عند الترك واهل الصين يزعمون انه يعرق اذا قرب من طعام مسموم· قال الاخوان الرازيان خيره المعقرب الضارب من الصفرة الى الحمرة · ثم المشمشي · ثم الضارب الى الكهوبة وكان في القديم ما كان وزنه مائة درهم فقيمته من مائة دينار الى مائة وخمسين ديناراً · وجرب من دخان بخوره انه ينفع البواسير نفعاً بليغاً · وليكن هذا آخر هذا الكلام في هذا الكتاب واقتصرت على ذكر هذه الجواهر لانها النفيسة التي تدخرها الملوك والاكابر وتحلى بها الغواني · ومنافعها جليلة ولم اطل فيه القول بكيفية تولدها لعدم الفائدة في ذلك ولا ذكرت ما يلتحق بها مثل المرجان والسبج ونحوهما لنزول رتبتها عن هذه الجواهر النفيسة · وقد آن ختم الكتاب بحمد الله تعالى والصلوة على نبيه محمد سيد المرسلين وآله وصحبه الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل ·

المطبوعات العربية

كان اول كتاب عربي مثل بالطبع في القرن الخامس عشر للميلاد في رومية العظمى كرمي البابوية فطبعت على ذاك العهد امهات من الكتب النافعة كاسفار ابن سينا وغيره. وعني الطابعون بتصحيحها ومعارضتها على اصول وقعت اليهم فدلوا بذلك على ان حب الاتقان واختيار الاجود تكاد تكون غريزة في الغرب ثم انصرفت الرغبة في اوربا الى تعلم لغات الشرق ولا سيما العربية فطبع المستشرقون من الفرنسيس والالمان والهولانديين وغيرهم كتباً جليلة لنا وبذلوا مجهودهم في تصحيحها ووضع الفهارس والمعاجم لها والدلالة على ما فيها من فوائد واوابد وشوارد · وكل هذه المطبوعات على رسم الحروف التي كانوا يستعملونها في مطابعهم كانت على غاية من جودة الورق

ومتانته وجمال الوضع والشكل ٠

ولما دخل الطبع الى البلاد العثمانية سنة ١١٣٥ ﻫ تأسست في اسكدار أحدى احياء الاستانة اول دار للطباعة كان في جملة المطبوع من الكتب العربية بعض كتب دينية وبينها بعض الكتب العلمية والتاريخية الا ان الطباعة لم تكن على الاتقان المطلوب والعناية بالتصحيح كانت دون عناية الاوربيين بكثير اما الفهارس والتبويب فلم يحفلوا بهما لما يحتاج وضعها اليه من طول النفس وسعة الصدر وكثرة العلم ٠

ولما قام محمد علي الكبير في القطر المصري واليًا عليها واراد ان يجعل لها شأناً في الحضارة لتدخل في عداد البلاد الراقية كان مما قام به تأسيس المطبعة الاميرية الكبرى فشرعت تطبع الكتب المعتنى بها متخيرة لها اجود الحروف واجود الورق وخيرة المصححين والناظرين ٠ وان بعض الكتب التي نشرتها تلك المطبعة عَلَى اوائل عهدها لا تزال الى اليوم مثال الاجادة ومنها كتاب كلستان الفارسي للحافظ الشيرازي والقاموس المحيط للفيروز آبادي ٠

وما برحت احوال المطبعة الاميرية عرضة للقلب والابدال عَلَى ما يكون حال الادارات والمشاريع في الشرق غالبًا تختلف سقوطًا وارتفاعًا بحسب ارادة القائم عليها وهي تطبع مع تلك الكتب القديمة التأليف الاسفار التي عني الشيخ رفاعة الطهطاوي وجماعته بتعريبها من اللغات الافرنجية ولا سيما الافرنسية فجاءت الا قليلاً انموذج الجودة شكلاً ووضعًا ٠

ثم اخذ بعض التجار في اواسط القرن الماضي بمصر ينشئون المطابع ويطبعون الكتب للتكسب منها فقط فوضعت لهم بعض امهات الحروف ولكنها سقيمة بالقياس الى حروف المطبعة الاميرية وزادها سقماً ان اولئك الطابعين طفقوا يتخيرون من الورق اردأه ويقتصدون في التصحيح حتى لقد يعهدون به واكثرهم أميون لا يقرأون الكتاب الى أناس يماثلونهم في ضعف المدارك والعلم فكانوا اذا احسنوا واجادوا يطبقون المطبوع بالحرف عَلَى ما عندهم من الاصل وربما كان في البلد على قيد غلوة منهم خمس نسخ او عشر من ذاك الكتاب كتبت في اوقات مختلفة وهم لا تحدثهم انفسهم بان يعارضوا عليها نسختهم التي يطبعون عليها وان يذيلوها كما جرت عادة الاوربيين بوضع اختلاف النسخ في اسفل الصفحات ٠ لما التبويب والفهارس المتقنة فليس لها اثر فيما

طبعه اولئك المنجرون ببضاعة العلم ·

وعلى ذاك العهد فتحت بعض المطابع في بيروت عَلَى يد بعض الجمعيات الدينية المسيحية وكان سبق لبعض الاديار في لبنان ان كان لها مطابع حجرية · طبعت بعض الكتب الدينية واللغوية ومن جملتها شرح الزوزني على المعلقات وهو طبع حجري لا حرفي · فتخيرت مطابع تلك الجمعيات الكتب الدينيـة اولاً واجادت بعض الشيء في طبعها ثم ارتقت الطباعة الى ان أُصيبت بيائقة المراقبة فانقطعت الرغبات عن الطبع بل زهد الناس في تعلم العربية ورأوا ربحهم المادي من اللغات الاعجمية اكثر وانشأ دير الفرنسيسكان في القدس مطبعة طبعت بعض كتب واكثرها في الدين ومثلها دير الدومينيكين في الموصـل طبع مع كتب الدين كتباً علمية قديمة وحديثة ومنها تآليف المطران يوسف داوود العالم المشهور · وأُنشئت اذ ذاك في دمشق مطبعتان الا انهما لم تطل ايامها حتى تزيد العناية باتقان مطبوعاتهما عَلَى ما ينبغي ·

وهكذا اتت فترة نحو ربع قرن على مصر والشـام والطبع الا قليلاً يكاد يكون العوبة في ايدي اناس من العامة يرون الربح من مطبوعاتهم بالاقتصـاد من التصحيح والعناية والورق والشكل ورص السطور والكلمات بعضها فوق بعض بدون فواصـل ولا تقطيع وكانت اكثر مطبوعاتهم في فروع الفقه والنحو والكلام والزهد والخلاعة مما الفه المتأخرون وفيه من الحشو واللغو والموضوع والمصنوع ما كثر ضرره في عقول الطالبين والمتأدبين ·

ومنذ عادت الى العربية بعض نضرتها الاولى ايام هب منذ بضـع سـنين أُناس استناروا بقبس الغرب اصبحت المطابع تستحي من طبع التآليف الساقطة وتستشير اهل الرأي في تخير المصنفات للطبع ولو عملوا بنصـائح العلماء كل حين لما اخرجوا كتاباً للناس قبل بذل الجهد في تنقيحه وتصحيحه واتقان طبعه ووضعه ولكن ما الحيلة وهم يعتقدون كما قلنا ان الربح لا يتيسر لهم الا بمثل هذا الاقتصاد البارد · وما اعجب الا من طابع يطبع كتاباً يكلفه الالف والالفي ليرة ثم يبخل بعشرات من الليرات او بعض النسخ جائزة لمن يتقن النظر فيه · ·

اما سائر المطابع المصرية كمطابع الصحف فلم تطبع شـيئاً يذكر من الكتب المهمة وان كانت اكثر سخاء من اولئك التجار في اتقان الطبع وجودة الورق وحسن التنسيق · ولم نر في المطبوعات التي انتشرت في العهد الحديث اتقن واجمل واصح من

كتاب المخصص لابن سيده تعاورته بالتصحيح ايدي بعض العلماء الاخصائيين المحققين فجاء مزيدًا في بابه لا نخجل منه اذا نظر فيه عالم اوربي كسائر مطبوعاتنا الاخيرة ٠

نقول هذا ونحن عَلَى مثل اليقين في ان ما طبع من الكتب العربية في بلادنا ما عدا بعض كتب طبعت في المطبعة الاميرية في مصر وبعض كتب لغوية ادبية طبعت في المطبعة اليسوعية في بيروت لا ثقة للمستشرقين به ٠ وقد أكد لنا احدهم ان كل نقل ينقلة احد مؤلفيهم من كتاب عربي طبع في الشرق تسقط مكانتهُ وان جمهورهم لا يعترف بالصحة الا لكتاب عربي طبعه اوربي ولكن هـذا لا يخلو من غلو ايضاً ٠

اليس من العار ان تكون سيرة ابن هشام التي طبعت في المانيا اصح من الطبعة التي طبعت في المطبعة الاميرية نفسها وهي التي كنا نقرظها الآن بجودة الطبع واختيار المصححين وقد نبغ منهم فيها امثال الشيخ نصر الهوريني وامثاله ٠

اليس من العار ان يطبع امرؤُ القيس الطحان او (ماكس موللر) الالماني طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة في مصر فيخرج بجودة تصحيحه وفهارسه عَلَى ما تراه وتطبع مصر كتاباً لاحد كبار فقهائها الذين تفاخر بهم وهو كتاب طبقات الشافعية للسبكي فيأتي مشعثًا سقيماً كما تشهد ٠ نعم ان نفس تأليف ابن أصيبعة ارقى وامتع من مصنف السبكي في بابه ولكن اتقان الطبع والتصحيح والفهارس هو الذي نبكي عَلَى فقده بين اظهرنا وهو موضوع بحثنا الآن ٠

اي فرق بين كتاب لنا طبع مرة في اوربا واخرى في الشرق ٠ بالله كم تساوي نسخة معجم البلدان لياقوت طبع اوربا اذا قيست بالنسخة التي نقلت عنها وطبعت في مصر او كتاب الكامل المبرد المطبوع في اوربا اذا قيس بالطبعة الثانية المصرية التي نقلت عنه فكانت الصحة تغلب عليها اكثر من الكتب التي نطبعها ابتداء ٠

ومن غريب امر الطابعين في مصر انهم يستحلون طبع الكتب التي تعب علماء المشرقيات من الاوربيين في احيائها فيعيدون طبعها بالسقم المعهود في مطابعنا فتجيء والعين تنبو عن النظر اليها دون الطبعة الاوربية بمراحل ومع هذا يستنكف اولئك الامناء ان يشيروا الى النسخة المنقول عليها تمويهاً بانهم هم ناقلوها عن اصل مخطوط ظفروا به وتكلفوا في البحث عنه ضروب المشقة والنفقة كأن اولئك الفضلاء الذين لهم الفضل الاكبر في احياء مآثر اجدادنا غير احرياء ان يذكروا بكلمة شكر لمعاونتهم لنا ٠

وانا لنرى حتى الآن خزائن الكتب في بلادنا طافحة بالمخطوطات من الامهات التي تجب المبادرة الى تمثيلها بالطبع عَلَى مناحي الغربيين ونرى طابعينا وكتبيينا يكررون طبع تلك الكتب المألوفة والمستنير الفكر منهم يمد يده الى كتاب طبعه اوربي فعانى عرق القربة في سبيل نيله فيعيد طبعه مدعيه لنفسه وانه هو الذي احياه · وخزائن كتب الاستانة (١) وخزانة دار الكتب المصرية وحدها مملوءة بالنوادر التي لو أحييت عَلَى الطريقة التي تجب من العناية لكان فيها الربح الجزيل والشرف الاثيل لطابعيها وناشريها ·

لو بذل ارباب المطابع في مصر والشام والاستانة وبغداد وتونس وفاس بعض عناية الاوربيين بكتبنا قبل ان يمثلوها بالطبع لكان عندنا اليوم من المطبوعات العربية ما نفاخر الامم بكميته واتقانه · نحن لا نقول لطابعينا ان يتأنقوا ويبالغوا في التصحيح كما يبالغ اكثر المستشرقين في الطبع بان يرسلوا احياناً الملازم المصفوفة حروفها من مملكة الى اخرى لتعارض عَلَى الاصل الآخر الذي هناك او لتدفع لعالم متمكن من الفن الذي جعل الكتاب في موضوعه يمر عليها نظره وانما نريدهم عَلَى السخاء المعتدل في التصحيح وجعله من اوليات المسائل في الطبع لا مناص من توسيده الا للعالمين به كما لا مهرب من اعطاء اجرة المنضد والمرتب والطابع والمجلد لكل من اراد ان ينشر كتاباً ·

طبعت بعض مطابع الهند وفارس كتباً عربيـة كثيرة ومعظمها بالحجر في موضوعات دينية من حديث وفقه وكلام ولكن بعضها عَلَى العجمة المستحكمة من السن اهل تلك البلاد تكاد تكون اقرب الى الصحة والضبط من بعض ما طبعه العرب من ارباب الطباعة فى هذا الشرق الادنى ·

اما الآن وقد رفع الحجر عن العلم في البلاد العثمانية واصبحت كالديار المصرية في حريتها فالفرض العينى عَلَى المتجرين بالكتب والمتمحضين لخدمة الآداب والعلم ان يسارعوا الى استنساخ ماحوته خزائننا العامة والخاصة من الاسفار الممتعة ويحذوا حذو الاوربيين في التصحيح والشكل والفواصل والتقطيع والفهارس المنوعة حتى ينتفع المراجع بفوائد الكتاب لاول وهلة ويسقط على ما يريد معرفته منه بادنى نظر دون انهاك القوى فى تصفحه كله على غير جدوى من اجل العثور عَلَى مسألة او اقتباس جملة ·

(١) راجع « المخطوطات النادرة » المقتبس ٢ ص ٥٩٩

وبذلك يرفعون العار عن العربية الذي يشيعه عنها الجاهلون فضلها فيرمون كتبنا عنها بانها معقدة غير متسعة وان المطالعة في كتب جملت جملة واحدة ضرب من العنت واضاعة الوقت عَلَى غير طائل . وافناء العمر في باطل وعاطل .

رسائل بليغة (١)

وقع الينا كتاب مخطوط وقد كتب عَلَى جلده بخط حديث « لاتحزن ان الله معنا ». حكمة بالغة لبعض الحكماء : لا مجد كمجد من يخدم وطنه . وقال اسكندر دوماس الفرنسوي المشهور : ان الاشرار يتحاملون علي النفوس الشريفة بيد انهم لا يستطيعون لما اذىً فهي (اي النفوس الشريفة) كالصخور الصوانية تطغو عليها امواج البحر عند هبوب العواصف فتظن انها قد اغرقتها وهي قد غسلتها فتعود في نور الشمس اكثر جلاء .

وليس لهذا المجموع اسم ولا عرفنا اسم جامعه ولا سنة نقله وانما الظاهر من خطه المشرقي انه مما كتب قبل الالف للهجرة وهو في ستة واربعين ورقة من قطع الربع . وفي الورقة الاولى منه صورة سؤال كتبه الشيخ الفقيه المفتي ابو محمد عبد الحميد بن ابي الدنيا الى الفقيه الامام العلامة الشيخ عز الدين ابي محمد عبد العزيز بن عبد السلام رضي الله عنهما فيمن تصدى للفتيا والجواب عليها وقد استغرق السؤال والجواب ورقتين :

اما المجموع فهو رسائل لبعض البلغاء فالرسالة الاولى كتاب الفقيه المشاور ابو محمد عبد القوي في زواج ابنته الى احد الفقهاء وكتاب لابي بكر بن صاحب الصلاة الى بعض اخوانه يوصيه بالتحفظ بكتبه من الفار وكتاب له الى بعض اخوانه يصف جامع قرطبة جاء فيه :

« والجامع قدس الله بقعته ومكانه . وثبت اساسه واركانه . قد كسي بردة الازدهاء . وجلي في معرض البهاء . كأن شرفاته فلول في سنان . او اشر في اسنان . وكأنما ضربت عَلَى سمائه كلل . وخلعت على ارجائه حلل . وكأن الشمس

(١) من مكتبة وجيه أفندي الكيلاني احد ادباء دمشق ووجوهها .

قد خلقت فيه ضياءها · ونسجت على أقطاره اضياءها · فترى نهاراً قد احدق به ليل · كما احدق بربوة سيل· ليل دامس· ونهار شامس · وللذبال تألق كنضنضة الحيات · او اشارة السبابات بالتحيات · قد اترعت من السليط (شيرج) كؤوسها · ووصلت بمحاجز الحديد رؤوسها · ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة · او كالثعابين العائمة · عصبت بها تفاح من الصفر · كاللقاح الصفر · بولغ في صقلها وجلائها · حتى بهرت بحسنها ولألائها · كأنما جليت باللهب · او أُشربت ماء الذهب · ان سامتها طولاً رأيت منها سبائك عسجد · او قلائد زبرجد · وان جئتها عرضاً رأيت منها افلاكاً ولكنها غير دائرة· ونجوماً ولكنها غير سائرة · تتعلق تعلق القرط من الذفرى · وينبسط شعاعها بسط الاديم حين يفرى · والشمع قد رفعت على النار رفع البنود · وعرضت عليها عرض الجنود · ليجتلي طلاقة روائها القريب والبعيد · ويستوي في هداية ضيائها الشقي والسعيد · »

وهنا انتهت الصفحة واختلط الكلام بغيره والغالب ان ورقة سقطت من الوسط · وكان فيها تكملة ذلك الوصف المسجع المستملح· وهناك رسائل كتب بها الوزير الكاتب ابو مروان بن زكريا ورسائل كتب بها ذو الوزارتين ابو بكر بن عبد العزيز منها كتاب كتبه عن اهل قرطبة الى علي بن يوسف بن تاشفين ونصه : « ايد الله امير المسلمين بالتقوى وعمر به ربع الاسلام فلولا رجاؤه لكان قد خرف في هذه الجزيرة واقوى واتم به وعليه النعمي وجعل ذراه الامنع الاحمى وامده بالقوة والرحمى وانار به طريق الهدى وصدع بنظره الجميل جميع العدى وجعله ممن اشتمل بالتوفيق وارتدى وجرى في غايات البر فسيح المدى واتبع آثار الذين هداهم الله واقتدى · كتبناه ادام الله تأييده وطاعته لم تخلق برودها ولم تنقض عهودها ولم يتغير معهودها ونحن لحقه مقدمون ولما اوجب الله من فرض امامته معظمون ولما قضاه مسلمون ولما امضاه مستسلمون وبين يديه اشفاقه باكون خاشعون والى جنابه وارتماضه (انفعاله) شاكون ضارعون وللحق فيما ينهيه حاكون وبه صادعون وقد ضاقت بالنفوس الحناجر واسلمت الدموع المحاجر وسمعنا صراخ الاسرى المضطهدين يمنة ويسرة فما ملكنا الا عبرة او حسرة ووددنا يوم انتقل الامير الاجل ولي العهد عن انظارنا وارتحل من ديارنا انا لقينا الموت المعجل فاراحنا من الاوجال ولم ترتق الخطوب الينا حالاً بعد حال وهذا العدو المجاور لنا قصمه الله قد احرقنا بشررة من ناره واغرقنا في قطرة من غماره

فكيف نكون بعد وقد اشجانا بشؤبوب برد ورمانا بضرم متقد ونحن نستقبل به جمعاً ولا نطيق له بغير الله دفعاً وتترقب آزفة تترك انوار الاسلام « والله الكافي » كاشفة ولا تجد لها من دون الله كاشفة بل هو القادر على ان يصرف الينا نظر امير المسلمين فيسهل الينا مقاصدها ومسالكها ويرد عنا محاذيرها ومهالكها ·

« وتفسير هذه المقدمة الشديدة الوقوع الكريهة المسموع الاميرة قلعة رباح ومورة نفدت في شهر كذا واوعب العسكر مع والينا ابي محمد وفقه الله في نقلها ونهضوا بما تحملوا من ثقلها فلما اعتقبوا في مضارهم وبعد عنا ما كنا نتطلع من اخبارهم جاء الصريخ ان عسكر الروم دخل على فج المساجد الى بلاد الاسلام رد الله عنه كيد عبدة الاصنام وهناك مقاصد شتى شعوبها وغنائم لا يتعذر مطلوبها فاخذ بنا الروع في كل طريق وخفنا على بكل جانب من جوانب المسلمين وفريق وتوجه من بقي في البلد من اهل الفلاحة وغيرهم للانذار وتقليع الاقطار واعلام اهل البوادي بنباء هذا العسكر الجرار ورفعهم عن مواضع سكناهم عسير ولا يرد قدر الله عمن هو قتيل او اسير واستصرخنا الامير الاجل ابا زكريا يحيى بن اسحق وفقه الله لهذا الخطب النازل والعدو المغير المنازل فتوانى فيما كان يروم وسبقه الينا الروم فاغاروا من الوادي الكبير الى القايمة الى لورة الى فرنجولس واجتاز الوادي الى يله وبعض نواحي استجة وكان ذلك في اليوم الثالث من وصول خبرهم الينا وورود علينا واكثر اهل هذه الناحية لم يطيعوا النذير ولا صدقوا التحذير بل غلبهم ضعف المقدرة عن الانتقال وكثرة العيال والاطفال فامتلأت بالسبي الجبال واسلمت من فيها السهول ولا تعصمهم الجبال واخذوا من النهاب والامتاع والحاضر والكراع ما لا يدركه الاحصاء ولا يملكه الاستقصاء وبقوا في ذلك يومين لا يجدون من يرد امتدادهم ولا من يرمي سوادهم حتى غلب اكفهم الانتهاب وضامه بهم المشي والذهاب . ووصل كتاب والينا ابي محمد من كركي بعد اخذه في الصدر والقفول من ذلك السفر يذكر ما اتصل به من الخبر ووعدنا بالتشمير في اتباعهم واخذ الاهبة لقراعهم وتلوه اذن الله في ذلك لاعبين بكثرة الجند واجتماعهم وجاء ايضاً عن والي اشبيلية انهُ وصل لورة وسيره حثيث وهو للمسلمين ناصر ومغيث والنصارى قد اثقلتهم الاسرى والغنائم فلا يمشون الا رويداً ولا ينتقلون الا صار الامن لهم قيداً واجتمع الواليان وفقهم الله والعدو لم يبعد طلبه ولا تعذر مطلبه ونفر المسلمون من كل مكان خفافاً وثقالاً فرساناً ورجالاً وقد رأوا اسباب

النجح بينة ولوازم الجهاد متعينة ولما تراءت الفئتان قصرت الأقدام وقلّ الاقدام وطفئت الحفائظ وكان لما توقد واحتدام ونسي فرض الاسلام واستخف ثقل الملام ورأى الكافر ما عليه من عساكر تترادف امدادها وتزيد ضعفاً على من عنده اعدادها فلجأ العدو الى جبيل لا يعصم الهارب ولا يمنع الطالب وسدل به الرجالة المطوعون فارهقوه عسراً وحالوا بينه وبين المواشي قسراً وخالطوا الكفار في صعيد وسائر العساكر غير بعيد ورزق الله المطوعين الصبر في محاربتهم والاجتهاد في مطاعنتهم ومضاربتهم فما ذعر الكفار لهم سربا ولا فلوا لهم غربا فاستمدوا الولاة وعندهم الكماة وبين ايديهم الرماة فما امدوهم بحام ولا اعانوهم برام بيد ان الكفار يئسوا من الحياة ولم يطمعوا في النجاة واعتنقوا اعتناق وداع ولا يثقوا بقوة ولا خداع وفني عمر اليوم والكتائب لم تتحرك وقد اذن الله بالاملاء لمن اشرك وترك الليل فقوض الكافر بجمعه على اعين الناس واسرى ومعه الدواب والاسرى وقد اهملهم اهل الاسلام ولم ترع فيهم ذمة محمد عليه افضل الصلاة والسلام وتركت الغنم والبقر سدى واغتالتها يد الردى وانتهبتها اهل الحصون كما تنتهب المغنم المباح واخذوها كما تؤخذ الفوائد والارباح ولم يرجع منها الى اهلها الا النذر اليسير والتافه الحقير وكان للاسرى عند رحيلهم عجة في الاصفاد وضجة في الاغلال والاقياد تصرع الجماد وتفجر الاحجار الصلاد فما رقت لذلك قلوب اقستها الذنوب وبعد عنها نصر الله وهو قريب ومنها من حسن اليقين شك مريب . ومعظم الشكوى باهل اشبيلية فانهم اظهروا المباعدة واقلوا المساعدة وعادهم في ذلك الخميس عيد من ذكر يوم الخميس فاستقبلوا العجز استقبالاً وخرجوا للنصر فما زادوا الا خبالاً فيالله ويالامير المسلمين من دماء سفكت وحرمات هتكت وانفة في دين الله وضعت وتركت وجماعة من المسلمين غلبت بيد الباطل وملكت . وقدامهم من اخوانهم من يزيد على عددهم اضعافاً يغلب فيها النساء الرجال ويسبق ذوي الغرر والحجول ربات الحجال ولو كانوا نصفهم لكان ذلك النصف يحسبهم وكتاب الله تعالى قد اوجب انه يغلبهم وقد روى ثقات الاخبار خطبة علي رضي الله عنه بالانبار وامير المسلمين اولى من اهتدى بهديه ورأى في الاسلام مثل رأيه وقد علم الروم ان حمى الاسلام غير ممنوع وغاربه غير مدفوع وعندهم في هذه السنة احتفال واحتشاد وتأهب واستعداد وما منا احد الا وهو يحتاز للجلاء اقرب طرقه ويرى موضع الفداء والسيف من عنقه وقد دعونا امير المسلمين بما اسلف الينا

من نعمه واعلقنا من ذممه وقرب الينا من مسافة مطالعه واقتضاء الواجب في مناصحته ومشايعته والرب سائله عما استرعاه ومجازيه بعمله المبرور ومسعاه ولعل الله يجعل لنا في قلبه رأفة تعطفه الى هذه الشكوى وترفه ما نزل بنا من البلوى وانا لننتظر من نظره الجميل وجوابه الواضح السبيل ما يقر النفوس في قرارها ويعيد الآمال في النجاة بعد فرارها وهو ايده الله بذكر ما اخذه علينا من العهد المسؤول في النصح المبذول والصدق المقبول فرأينا ان لا نكتم ما يجب ابداؤه ولا نمسك ما يلزم اداؤه وهو المسؤول جلت قدرته ان يرفع بالتقوى قدره ويشرح لهذه الشكوى صدره ويجزيه عن جوانب الاتها العدل وبسيطها (؟) ومذاهب زانها الرفق واقسطها افضل ما جزي به اماماً تواضع لله فحببه الى خلقه واعانه على حقه لا رب غيره والسلام »

فراجعهم علي بن يوسف بن تاشفين :

« كتابنا كتب الله لكم يقيناً تطمئن بصدقه القلوب وتهون بعده الخطوب وايدكم بايمان تنبعث به البصائر وتثوب ويذهب بسببه الروع الذي يخوف به الشيطان اولياءه فلا يعقب ولا يؤوب من حضرة مراكش حرسها الله في الثاني عشر من جمادي الآخرة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ونحن نحمد الله الكريم الله الذي لا اله الا هو حمداً نتخذه الى المزيد من نعمته سبيلاً ونجعله الى رحمته دليلاً وننزله بعصمته كفيلاً ونصلي على محمد نبيه الكريم صلاة عامة تامة تتعاقب اليه مع التسليم الاصفى وعلى آله الطيبين وصحبه الاكرمين بكرة واصيلا . اما بعد تجاوز الله عن ذنوبنا وذنوبكم وفزع بامنه عن قلوبنا وقلوبكم وصفح عما يعلمه من عيوبنا وعيوبكم فان كتابكم الاثير وافانا مضمناً من سوء اثر العدو قصمه الله في المسلمين عصمهم الله ما اغص واشرق وامضى وارق وجمع علينا من همومكم وغمومكم ما انتشر وافترق وذلك ما احصاه قبل خلق الخلائق كتاب من الله سبق قال الله سبحانه وبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم وصدق (ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) وما نهون مصاباً إدرك المسلمين والمسلمات فيه من النكال الموجع ما ادرك وظهر على المؤمنين في مواطنهم من كفر بالله واشرك وفتك في حوزته بدين الله من فتك ولوددنا والله شاهد ان يجعل دون نفس المسلمين نفساً لا ندخرها مستطعنا من فدائهم ولا نكره ان نبذلها جهدنا في جهاد اعدائهم وان نكون جنة

واقية من أمامهم وورائهم ولكن نقول ما قال سبحانه وتسليماً وتراه كما هو عند الله عظيماً (ولا تجادل عن الذين يختانون انفسهم ان الله لا يحب من كان خواناً اثيما) وقد علمتم امتع الله بالحسنى امتاعكم واقر بعوائد البشرى ابصاركم واسماعكم وكشف عنكم وعنا فيكم ما وقذكم وراعكم انا قد تقدمنا الى جميع العمال ومن تحت ايديهم من الرجال ان يتظافروا على العدو قصمه الله ويأتلفوا ويتطاوعوا ولا يختلفوا ويتقدموا في حسن الدفاع ويزدلفوا ولو ان جميع المسلمين من قلة أتي وباضعاف كثيرة رمي لقلنا في الحاجزة نعما هي ولكن فت في اعضاد الله تبريحهم وتنازعوا ففشلوا وذهب ريحهم ولم يحظ عندنا بقبول تعريضهم في العدو وتصريحهم فاستحقوا مقت الله ومقت الامة ولومها واعطوا شيعة الكفر على الرغم منهم حكمها وشومها وفضحوا المسلمين كما فضحت عامل (عاد ؟) قومها وعلى الله تعالى ثم علينا تقويم الزيغ بعينه والاود والتقدم لكل خاصة وللمسلمين عامة على توفيق الله تعالى بالنظر الاحد واعينونا رحمه الله بالادعية الصالحة التي هي امضى السلاح واوثق العدد واما ما سرى اليكم من عداد العدو قصمه الله لخروج يستقبله وفساد في البلاد يؤمله فالله تعالى بقدرته يشغله عن ذلك ويذهله ويرميه بحوادث لا ننتظره ولا تمهله وحق علينا وقد استصرختم بنا ان نلبي بمشيئة الله نداءكم ونجيب على الصعبة والذلول دعاءكم ونقي دونكم بالاموال والانفس اعداءكم وما كنا لو لم تعلنوا في الكتب المجردة نجواكم ولم يبلغنا على السنة الاقلام شكواكم لندعكم لعدو يستبيح حماكم ويجمع نفسه لمعرتكم واذاكم ولا نستقيم اصلحكم الله بما نيتنا لكم عن اذكراكم اشتصاما جميعا بالله هو مولانا ومولاكم واعلموا وفقكم الله ان حماكم حمانا ومن رماكم فقد رمانا ومن ارادكم بسوء والله يكبه لوجهه فما تخطانا ولا تعدانا وظلام الاسلام بحمد الله ممتدة وتلك النصب التي تقدمنا بها في العام الاول معتدة والاهبة بحمد الله منى حزب حازب مستجدة والذي من نصرتكم نستدعيه ونستمنحه في الله ونستهديه دعاة نتعرف بنعمة الله بركة اخلاصكم فيه على الذين شغلوا خيل الله قبلنا عن ثنايا في غزو الكفر نطلعها واودية في مواطئ يغيظ حزب الشيطان نطويها ونقطعها والله يأخذ هذه الفئة ولا يدعها ويكبتها سريعاً ببطشته الكبرى. ويصدعها فخذوا رحمكم الله في ادعية يقبلها ويرفعها ويد الله مع الجماعة ولن يرجع الا بالاجابة السريعة ان شاء الله مجتمعها واما ما انتهبه اهل الحصون وسوام من اغنام المسلمين فلا فرق بينهم في ذلك وبين المشركين ولو كان لذلك

الشر جامع يعم تفاريقه وحائط المسلمين يرى الحرج و يخشى ضيقه او آمر بمعروف ادناه عن منكر يوثر الحق ويسلك طريقه لحفظ تلك البقية على اربابها وحال بين المسلمين وبين انتهابها لكنهم أمنوا من سعتها وطلابها ومامنعه قوم لم يحضرهم من اهل الرغى خاضر ولم يشهده منهم ناصر والله على نصر المتضمين قادر توكل الله للمسلمين بناصر ناجز ولا وكلهم الى مضيع ولا عاجز. وجعل بينهم وبين الاعداء كل حجر مانع وحاجز بمنة والسلام»

ومن الكتب ايضاً اربعة كتب من ابي الحسن علي بن سيده الى استاذه . وفي المجموع عدة كتب لذي الوزارتين ابي عبد الله بن ابي الخصال منهم رسالة الى عسكر انهزم فوبخه وثانية كتبها عن تاشفين بن علي الى صاحب فاس في امر محمد بن تميم حين استراب منه وثالثة ايضاً مراجعاً للوزير الكاتب ابي مروان بن زكريا جواباً عن رسالة خاطبه بها وغير ذلك ومما يوثر ما كتبه عن علي بن يوسف الى يحيى بن علي بولاية بلنسية وها هو :

« كتابنا اعزك الله بتقواه ورفع قدرك واسماه وايد عزمك في ذاته وقواه ولا زلت تتقلب في عوارفه المقيمة ونعماه من حضرة مراكش حرسها الله لاربع خلون لجمادي الاولى سنة اربع وعشرين وخمسمائة وانا بما نعرفه من صفو ولائك وصدق غنائك وظاهر استقلالك واكتفائك نرى ان نرفعك بمقتضى حقك في الاحوال ونوسع لك في الاعمال ونعقد بطوقك منها ما نعلم انك به ناهض مضطلع ونضيف اليك من جسيمها ما انت بشروطه والقيام بحقوقه رحب الصدر متسع ولضبط جوانبه ومراعاة لوازمه منتظم الامر مجتمع فقلدناك بعد استخارة الله تعالى والابتهال اليه في اطلاعنا على مواقع السداد وامدادنا بحسن التوفيق والارشاد ولاية بلنسية واعمالها حماها الله تقليداً جمعنا لك به بين الولايتين وملكناك به امر كريمتين وزمام جحفلين فتقلد ما قلدناك على الطائر السعيد وتظاهر التأييد وتوله معرفاً فيه يمن التقليد وتوالي الصنع الحميد وانفذ الى عملك وتسلمه من المصروف بك واستقبل الامر باقوى عزيمة وجد وانفذ مضاء وامضى حد وكن به جد ناهض مستبد وتلك حال خطيرة قد جذبنا اليك زمام قيادها وتوخينا بك اقامة منآدها وثغور قد رميناها منك بسدادها وامور صارت بتصييرها اليك عند عالم باصدارها وايرادها وقد اغنانا علمك بالسياسات في جميع الطبقات عن ان نفصلها تفصيلاً او ناتيك بها قبيلاً وانما اعطيناكها جملة

لا يؤودك تدبيرها ولا يذهب عنك تفسيرها لانك انما تقدم على بلد صاقبته كثيرا وجاورته دهراً طويلاً فشؤونه في صدرك مجتمعة والى فكرك منحصرة مع تكررك على المكان واطلاعك عليه تارة بالخبر وتارة بالعيان وقديماً تمنى ان يلقي اليك قياده وصب سادته ورعاياه واجناده فاجزهم الآن بودادهم وحطهم في انفسهم واموالهم وبلادهم وعم جميع الاحوال بتصفحك ومتع الجميع بتأملك واعط كلاً حقه من نصفتك وحسن رعايتك واذقهم حلاوة الامن والعدل في ولايتك ان شاء الله . وموضع اقامتك هناك انت تختاره حيث تهوى لنفسك فتبوأ مكاناً يصلح لامرك ولا تبعد به كل البعد عن قاصية ثغرك فترجح ما بين شاطبة وبلنسية او منزلة بينهما ذلك مصروف الى اختيارك والشاهد يرى مالا يرى الغائب ونحن بعيد وانت قريب وانك كما علمنا موفق الرأي مصيب والله تعالى مؤيدك ومرشدك ومعينك ومنجدك بجوده ومجده لا رب غيره فان احتجت ان تستعين بابي عبد الله محمد بن علي اخيك اعزه الله فاستعرفه يقدم عليك واستدعه يسرع اليك واستنب مكانه بيورقة محمود المناب نافذاً في ذلك الباب ان شاء الله عرفك الله يمن ما وُليت واعانك على حفظ ما استرعيت بفضله وجميل صنعه لا إله غيره والسلام . »

وكتب عنه ايضاً الى اهل بلنسية في ذلك :

« كتابنا كتب الله لكم تمهيد الاحوال والجهات وامدكم بسوابغ الاجمال والهبات ويسركم للاعمال الصالحات والمساعي المرضيات من حضرة مراكش حرسها الله لاربع خلون لجمادى الاولى سنة اربع وعشرين وخمسمائة وقد رأينا بعد استخارة الله التي يتوصل الى المراشد من بابها وتدرك المناجح من اسبابها ان نولي عليكم ابا زكريا يحيى ابن علي اعزه الله بتقواه فقد قلدناه اعمالكم ووصلنا به حبالكم نظراً منا لكم بمكانه والقاء بازمتكم الى حازم وقته واوانه فانه والله ينجده ويسعده بحيث علمتم حسن سيرة وعدل ومتانة دين وفضل وتمسكاً من التقوى باقوى حبل مع صالح مشهد وبلاء وصادق حفاظ وغناء ونفاذ عزيمة ومضاء فآثرناكم منه بحافظ لنظامكم ومصرف لزمامكم وساد لثغوركم وقوام بأموركم فهو يقلبها على الحزم ويديرها ويمضي على ما يراه ويحكم تدبيرها وحسبنا في تمهيد اكنافكم وحراسة اطرافكم ان نجعلها واياكم في كفالته ونختار لها ولكم حسن انابته وقد فزعنا اليكم به من شؤونكم وقضيناكم به مطول ديونكم فما ترجعون بعده بتباعة ولا تخشون معه ان شاء الله من حوزة مضاعة فعليكم رحمكم

الله ان تتلقوا امره بأتم سمع وطاعة وتتوخوا نصحه بكل جهد واستطاعة ثم انه لايسعني ان تكونوا ظهراً في الخاتم (؟) التي يتوخى بها جبر احوالكم ورم مارث من حبالكم فليجدكم عندها امام كل ارادة ولتنجذبوا في يده باسمح مقادة فانه لايحملكم الاعلى الذي فيه عن حوزتكم دفاع ولمصالح الحكم انتظام واجتماع وانتم عنده على منازلكم يقدر كلاً قدره ويقضي اليه امره فما في بره ولا في سياسته تقصير ولا عنده في غير كنهه جانب عسير وعلى ذلكم فقد وصيناه بجانبكم من غير ان نخاف منه عن القصد انحرافاً او نحذر من جهته نكوباً عن الواجب او خلافاً وانما قصدنا معه الذكرى فانها توقظ ذا الحجى وتنبه وتبين لذي الحلم والنهى ما يشتبه عرفنا الله واياكم ميامين هذا التقليد وجعله كافلاً بالامر السعيد والصنع الحميد انه الكريم والسلام ․ »

وكتب الى العسكرية بها في الغرض المذكور !

« كتابنا ابقاكم الله وعصمكم بتقواه واجزل حظوظكم من حسناه وجعلكم سابقين الى طاعته ورضاه متقلبين في عوارفه ونعماه من حضرة مراكش حرسها الله في تاريخ كذا من سنة كذا وقد ولينا امركم اباز كريا يحيى بن علي اعزه الله بتقواه وقلدناه تصريف اعنتكم وارمينا اليه بازمتكم ومكانه حيث لم تجهلوه خيراً وضياً ونصاباً كريماً وهدياً قوياً واقداما وتصميماً ومضاء كان به اذا رفع اللواء كمي الخميس زعياً والان بولائه اياكم فقد آن ان تتصاعف نجداتكم وتصدق عزماتكم فانه يقود بكم من يرسل امام اعنتكم عنانه ويروي قبل اسنتكم سنانه وانتم مع ذلك بحكمه مصرفون وبالتزام طاعته مكلفون والى رايته مجتمعون وتحتها متألفون فاذا امر فأتمروا واذا رمى بكم جانباً فابتدروا واذا اوردكم فردوا واذا اصدركم فاصدروا فان حسن الطاعة بركة وجمال ويمن واقبال كما ان الاستعصاء عليكم مبني على الاخلاق اللئيمة ومخبثة للنفوس الكريمة فأطيعوه كما فرض عليكم في المكروه والمحبوب وانضموا عليه راشدين مشفقين انضمام الجوانح على القلوب فان لكم حسن الايثار جزاكم الحسنى والحياء الاتم الاسنى جعلكم الله ممن احسن في القياد واجاب داعي الرشاد وآثر التقوى واعتقدها خير زاد بمنه والسلام ․ »

وفي هذا المجموع ايضاً بعض مقامات منها المقامة القرطبية وتنسب الى ابي عبدالله بن ابي الخصال وقد تبرأ منها وهي في وصف اعيان قرطبة ورؤسائها ثم رد على صاحب المقامة ايضاً اسمها الانتصار كتب بها ابو جعفر بن احمد والمقامة الشبلية وتعزى

لابي الوليد بن سيد امير . ورسالة لابي محمد بن القاسم في الترجيح بين الصابي والبديع وقد فضل البديع على الصابي و [illegible] عبد الله بن ابي الخصال في الانتصار للصابي . هذه نموذجات جزئية من [illegible] الوقت بالرجوع الى نقل بعض جمل من كتب ابن سيده . [illegible]

روح الاجتماع

قلت الكتب التي تنشر هذه الايام باللغة العربية ويراد منها بث علم نافع او تصحيح فكر سقيم وذلك لقلة المؤلفين والمترجمين ولقلة القارئين والعا[illegible] وكتاب روح الاجتماع الذي عربه عن الافرنسية احمد فتحي زغلول [illegible] التي قصد بها مؤلفها نفع امته وتصحيح بعض اغلاطها والمؤلف هو [illegible] العلامة صاحب التآليف الممتعة ومنها كتاب « مدنية العرب [illegible] كتابه لامته لينتفعوا منه انتفاع الفرنسيين او بعضه . ومعرب [illegible] التعريب صحت عزيمته حتى الآن على نشر بعض الكتب المفيدة ومنها [illegible] الشرائع » لبنتام و « سر التقدم الانكليز السكسونيين » لديمولانس و [illegible] لهنري دي كاستري وهي من الكتب النافعة التي احدثت تأثيراً في [illegible] المستنيرون من قراء العربية ولا سيما من لم يسعدهم الحظ بتعلم لغة اجنبية لتناول مثل هذه الافكار من مصدرها الاصلي .

ولو تصدق كل من حذق لغة اوربية واحكم اللسان العربي فنقل لامته كتاباً او كتابين لكان عندنا اليوم من المترجمات العصرية في العلوم والاجتماع لا في القصص والاساطير ما يملأ خزانة كبرى تصبح معها لغتنا كاحدى اللغات الغربية بغناها بافكارها وكتبها الجديدة . وليست طلاوة الجديد كطلاوة القديم وما قط كان العلم الخيالي كالعلم العملي . لو تصدق كل واحد من ارباب الاقلام ودارسي اللغات والفنون كما يتصدق المرة بعد المرة امثال حضرات احمد فتحي زغلول . محمد فريد . عبد العزيز جاويش . عبد العزيز محمد . احمد زكي . صالح حمدي حماد وامثالهم من المعاصرين لاغنونا بعلوم الغرب وقلبوا في مدة كيان الافكار من طريق العلم .

كتاب روح الاجتماع هو « في بيان احوال الجماعات وما يعرض للفرد مجتمعاً من

تغير المشاعر واختلاف النظر وتبدل حكمه فيما يحيط به » حلل فيه المؤلف روح المجتمعات الحديثة ولا سيما في فرنسا تحليلاً نفسياً فلسفياً حيث ناظر الى اكثر مايتعلق به بعض ضعاف المؤرخين من الحوادث بل نظر الى الدواعي النفسية والمعتقدات والعادات نظر المستبصر الناقد علماً منه بان « الحوادث الظاهرة مثل الامواج المتلاطمة التي تترجم فوق سطح البحر عما هو واقع في جوفه من الاضطرابات التي خفيت عنا ونحن اذا نظرنا الى الجماعات نراها تأتي من الاعمال بما يدل على انحطاط مداركها انحطاطاً كلياً غير ان لها اعمالاً اخرى يظهر انها منقادة فيها بقوة خفية سماها الاقدمون قدراً او طبيعة او يداً صمدانية وسماها اهل هذا الزمان صوت من في القبور »

« واحرج الازمان في تطور الفكر الانساني زماننا هذا ولهذا التطور عاملان رئيسيان الاول تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التي تتكون منها عناصر المدنية الحاضرة والثاني قيام احوال جديدة ونشوء افكار جديدة في الحياة تتولد من المكتشفات العصرية العلمية والصناعية . ولما كان تهدم الافكار القديمة لم يتم فلم تزل قوتها وكانت الافكار التي ستحل محلها في دور تكونها كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى ....

« ولكن الذي نراه منذ الساعة انه سيكون امام تلك الامم قوة عظيمة لا بد لها من الاعتداد بها لانها اكبر قوة وجدت اريد بها قوة الجماعات تلك القوة التي قامت حتى الآن وحدها على الطلال الافكار البالية التي كان الناس يعتقدونها حقائق وماتت وعاشت بعد ان حطمت الثورات المختلفة كل سلطة كانت تحكم في الناس وهي القوة التي يظهر لنا ان مصيرها ابتلاع ما عداها في القريب العاجل الا ترى ان معتقداتنا القديمة اخذت تهتز من وهن اساسها وان اساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتحطم وان سلطة الجماعات هي وحدها التي لا يهددها طارئ بل هي تعظم وتنمو وعليه فالدور الذي نحن قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة ...

« الجماعات اقدر على العمل منها على التفكير وقد اصبحت بنظامها الحاضر ذات قوة كبرى وعما قريب يكون للمذاهب التي نراها اليوم في دور التكون من السلطان العظيم على الافكار ما للمذاهب التي رسخت اصولها في الاعتقادات اعني سلطاناً مستبداً لا تأثير فوق تأثيره فلا تعود تحتمل البحث او الجدل وحينئذ يقوم حق الجماعات المقدس

مقام حق الملوك الاقدسين .

ينحصر الاثر الواضح لعمل الجماعات حتى الآن في هدم صروح المدنية فالتاريخ يدلنا على انه كلما وهنت القوى الادبية التي يقوم عليها بناء تقدم امة من الامم كانت خاتمة الانحلال تمّ على يد تلك الجماعات الوحشية اللاشعورية التي سميت بحق متبربرة اما الذين اقاموا صروح المدنية وشيدوا اركان الحضارة فهم نفر امتازوا بسمو المدارك وبعد النظر ولكننا لم نر حتى الآن للجماعات اثرًا مثل هذا فهي انما تقدر على الهدم والتحطيم وزمان حكمها زمان بربرية على الدوام لان المدنية لا تقوم الا على مبادئ مقررة ونظام ثابت وانتقال من العمل بمقتضى الغريزة الى الاهتداء بنور العقل والبصر بالمستقبل ومرتبة راقية من العلم والتهذيب وتلك وسائل برهنت الجماعات على انها غير اهل لتحقيقها اذا تركت وشأنها — ومثل الجماعات في قوتها الهادمة مثل المكروبات التي تعجل بانحلال الاجسام الضعيفة وتساعد على تحلل الاجساد الميتة فاذا تداعت عظام مدنية تولت الجماعات نقض بنائها هنالك يظهر شأنها الاول ويخيل لنا بادئ بدء ان العامل في حوادث التاريخ هو كثرة العدد . انا نخشى ان يكون هذا ايضًا مصير مدنيتنا لكن ذلك الذي لا نعرف منه شيئًا حتى الآن ....

«معرفة روح الجماعات اصبحت اليوم آخر ملجأ يأوي اليه السياسي العظيم لا لاجل ان يحكمها — صار ذلك الآن صعبًا كثيرًا بل ليخفف عنه شدة تأثيرها . واذا اردنا ان نعرف ضعف تأثير القوانين والنظامات في الجماعات فانما السبيل الى ذلك تدقيق البحث لمعرفة روحها والوقوف على احوالها النفسية وبذلك نفقه ايضًا انه لا قدرة لها على تكوين رأي او التفكير في شيء خارج عن الدائرة التي رسمت لها وانها لا تنقاد بقواعد العدل النظرية بل بالبحث عما من شأنه التأثير فيها او اختلابها .

« ان الجماعات لا تعرف من المشاعر الا ما كان متطرفًا بسيطًا وهي لذلك لا تقبل ما يلقى اليها من الآراء والافكار والمعتقدات بجملتها او ترفضها كذلك فتأخذها حقائق مطلقة او ترغب عنها اباطيل مطلقة على ان هذا هو الشأن في المعتقدات التي تحصل من طريق التلقي لا التي تتصل بالانسان من طريق النظر والتعقل وكل يعرف ما للمعتقدات الدينية من التأثير في عدم احتمال المخالف ومن السلطان على النفوس .

« ولما كان باب الشك غير مفتوح امام الجماعة في كل ما اعتقدت انه حق او باطل وكانت تشعر شعورًا تامًا بقوتها كانت امرتها متساوية لعدم احتمالها . يطيق الفرد

المناظرة والخلف اما الجماعة فلا تطيق ذلك ابداً واقل خلف يأتي به الخطيب الذي يتكلم في المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون باصوات الغضب والسباب الشديد فان اصر نتصيبه الاهانة والطرد بلا امهال ولولا الرهبة من رجال الشرطة الحاضرين لقتلوه احياناً ٠٠٠٠٠ »

والمؤلف يكرر بعض الافكار ولعله عن قصد لترسخ في النفوس وربما حذا كما قال في كتابه حذو دعاة الاشتراكية العصرية ممن يستعملون التوكيد والتكرار وسائل في التأثير وقد عقد لذلك فصلاً من ذلك قوله ان المدنيات هي صنع اناس من أرباب الافكار العالية وسائر الناس معهم تبع ومثل قوله « ان التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان عَلَى الدوام كل شعور ديني و يلازمان كل من اعتقد انه ملك ناصية السعادة في الحياة او في الآخرة وهاتان الصفتان توجدان في كل جماعة تحركت باحد المعتقدات فقد كان اليعاقبة (اليعقوبيون) زمن الهول متدينين كما كان اهل الاضطهاد متدينين ومنبع حماسة الفريقين في القسوة واحد ٠

« كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الاعمى والتعصب الوحشي والاكراه في الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الديني وما البطل الذي تهلل الجماعة له الا اله في نظرها ٠ هكذا كان نابليون مدى خمسة عشر عاماً ولم يكن لمعبود سواه عباد اشد اخلاصاً من الذين عبدوه ولم يسهل عَلَى معبود قيادة النفوس الى حتفها اكثر منه وما كان لآلهة الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب اعز من سلطانه ٠

«ان جميع موجدي الديانات ومؤسسي المذاهب السياسية لم يقيموها الا لانهم تمكنوا من احداث التعصب الذي يجعل الانسان يرى سعادته في العبادة والطاعة ويهيئه لان يهب حياته لمعبوده ٠٠٠ ليس لفاتحي النفوس في هذا الزمان معابد وهيا كل لكن لهم صور وتماثيل والعبادة التي يعبدون بها لا تخالف كثيراً ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة التاريخ لتوقف على اجادة معرفة هذا البحث في علم روح الاجتماع ٠٠٠»

وقال : لا يقوم سلطان الفاتحين وتبنى قوة اعماله عَلَى تخيل الامم ولا تجر الجماعات الا بالتأثير في ذلك التخيل وكل حوادث التاريخ العظيمة كايجاد البوذية وتشييد اركان المسيحية والاسلام وقيام البرتستانتية والثورة فيما مضى وكاغارة الافكار الاشتراكية المزعجة في هذه الايام انما هي نتائج قريبة او بعيدة لتأثرات شديدة في تخيل الجماعات ٠ ذلك هو العلة في ان جميع اقطاب السياسة في كل عصر وفي كل امة

حتى اشدهم استبداداً · اعتبروا تخيل اممهم اساساً تقوم عليه قوتهم وما فكروا يوماً في ان يحكموا الناس بدونه ·

قال نابليون في مجلس شورى الحكومة (اني اتممت حرب الفنديائيين لما تكثلكت واستوليت عَلَى مصر اذ أسلمت وتوجت بالظفر في حرب ايطاليا لاني قلت بعصمة البابا ولو كنت احكم شعباً يهودياً لاعدت معبدسليمان) ويظهر لي انه لم يقم منذ الاسكندر الاكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير في تخيل الجماعات مثل نابليون فقد كان ذلك التأثير همه الدائم ما نسيه في انتصاراته وخطبه واحاديثه ولا في عمل من اعماله وكان يفكر فيه وهو عَلَى سرير موته ·

وقد اجاد المؤلف في كلامه عَلَى افكار الجماعات ومعتقداتها ولا سيما في فصل التربية والتعليم واثباته بالاحصاء ان الميل الى الجرائم يزداد بانتشار التعليم اوهو يزداد بانتشاره علي طريقة مخصوصة وان الامم اللاتينية اسست تعليمها عَلَى قواعد غير صحيحة تُنمي الكفاآت الفنية ولا تؤثر في رقي الاخلاق وان طريقة الانكليز السكسونيين غير طريقتهم فليس لهؤلاء مدارس خصوصية بقدر ما لفرنسا والتعليم عندهم لا يتلقى من الكتاب بل من الشيء نفسه فالمهندس مثلاً يتكون في المصنع لا في المدرسة وهو ما يسمح لكل واحد ان يصل في حرفته الي الحد الذي تصل قدرته العقلية فيكون عاملاً او رئيس عمال اذاقعدبه الذكاء عند هذاالقدر وهو مهندس اذا قاده استعداده الي هذا الدرج ·

واحسن ما شاء الاحسان في الكلام عَلَى الصور والالفاظ والجمل وما لها من السلطان على النفوس فقال ان الالفاظ والمعاني قد تختلف معانيها في قرن عن قرن وفي امة عن امة فمعنى الديمقراطية عند الجنس اللاتيني انزواء ارادة الفرد واقدامه على العمل من نفسه امام ارادة المجموع وهمته والمجموع تشخصه الحكومة فالحكومة هي المكلفة لادارة كل شيء وحصر كل شيء واحتكار كل شيء وصنع كل شيء وهي التي تلجأ اليه دائماً الاحزاب بلا استثناء من احرار الى اشتراكيين الى ملكيين وعلى الضد من ذلك يفهم الانكليزي السكسوني وبالاخص الاميركي من كلمة ديمقراطية نمو ارادة الفرد واقدامه الذاتي الى الحد الاقصى وانزواء الحكومة بقدر ما امكن فلا تكلف بعد الشرطة والجيش والعلاقات السياسية بشيء حتى التعليم وعليه فاللفظ الواحد يفيد في بلد جمود ارادة الفرد وسكون اقدامه الذاتي واستعلاء كلمة الحكومة

ويفيد في بلد آخر انزواء هذه وارتفاع صوت الاول ٠

وهكذا زاد الموضوع جلاء في الفصول التي عقدها المؤلف بعد هذا الفصل واصبح لا يتعذر فهمه عَلَى الطبقات المتوسطة في المعرفة وجوّد الكلام عَلَى المجالس النيابية اي اجادة وابان مواقع الضعف والقوة من اعمالها وهو فصل كنا نتمنى نقله برمته او تلخيصه على الاقل لا سيما والامة اليوم في مصر تطالب بدستورها وفي البلاد العثمانية نالته ولكنه ما زال منقولاً عن اوروبا نقلاً لم يطبق على العمل فنوصي القارئ بالرجوع اليه ٠

وبعد فهذا مضمون الكتاب وموضوعه مصغراً وقد بان منه اسلوب معربه من الجمل التي نقلناها بحرفها آنفاً ومن قابل بين سلاسة العبارة هنا وضعفها في كتاب اصول الشرائع يدرك سر التوفر عَلَى العمل وان مدرسة الزمن هي اعظم مخرج لابنائها العاملين ٠ وما برحت بعض هفوات لغوية تعلق عَلَى اسلة قلم المؤلف ومنها ما سرى اليه من الجرائد ونص عليه اهل اللغة مثل الحريري وعبد اللطيف البغدادي والسيوطي وغيرهم ٠ وذلك مثل قوله : « لا نراها الا رؤيا ناقصة » والصواب رؤية لان الرؤيا تكون في النوم والرؤية في اليقظة ٠ واستعماله (الظروف) بدلاً من الاحوال والظروف لا تعطي هذا المعنى واستعماله (حيث) في غير مكانها واستعماله (تمام) كثيراً مثل (واضحة تمام الوضوح ٠ تخالف تمام المخالفة ٠ ويفقه فيها ذاته الشاعر تماماً) والفصيح ان يقال واضحة كل الوضوح ومنها قوله (رجل تمام) والاجدر ان يقال كامل او تام الادوات او نحو ذلك واستعمل (تر تكز على) وهذه الصيغة لم تسمع الا في لغة الجرائد المصرية ٠

ومثل ذلك (مجرد انضمامهم الى بعضهم) والاحسن ان يقال بعضهم الى بعض ومثله (رغماً عما ذهب اليه) والاولى ان يقال عَلَى الرغم مما ٠ ومثله (يضحي مصلحته الذاتية) وهذا التعبير فيما احسب هو من ركاكات الجرائد الشامية القديمة سرى الى مصر فاستعملة حتى افاضل الكتاب عَلَى غير روية وهو تعبير افرنجي والاجدر ان نقول فادى بدلاً من ضحى ٠ ومثله (كان فرداً مستنوراً) والصواب ان نقول منوراً او مستنيراً ومثله (منقادة عادة الى) وهو تعريب حرفي مثل بالسهولة وبالصعوبة وجلياً وبانتظام وبلا عناء ويمكن الاستعاضة عن هذه الكلمات بالفاظ او تراكيب اقرب الى الاسلوب العربي ٠

ومثله (مندهش) والاحسن مدهوش و (منجر) والاحسن مجرور ومثله استعمال (الاجيال) للتعبير عن القرون والعصور · وما الاجيال الا اصناف من الناس على ما اذكر · واستعمال (مراسح اللهو) والاولى ان يقال مسارح ومثله عنيف كثورة عنيفة وغير ذلك وهي من المبذوء ولنا من الفاظ اللغة التي تدل على معانيها مندوحة عن استعمالها · ومثله العموم للتعبير عن الناس وهي من الالفاظ العامية · والاهمية وهي غير عربية بل تركية مثل محظوظية وممنونية · والرضوخ لحكمها وليس في اللغة رضوخ بمعنى الخضوع او الأتمار وانما الرضوخ العطاء القليل وفي مقامات الحريري بدريهمات رضخ بها له · وقد عدى يؤثر بعلي والصواب تعديتها بفي ومثله فطاحل العلماء ولفظة فطاحل وان كانت شائعة عَلَى هذه الصورة للتعبير عن كبار العلماء لكنه لم يسبق للبلغاء استعمالها ولا للغويين بهذا المعنى تدوينها ومثله (الحفظ عن ظهر القلب) والاحسن ان يقال الاستظهار وهي اخصر واجمل ·

وجمع مشروعاً عَلَى مشروعات والاحسن جمعه عَلَى مشاريع · ومثله (اعداء الداء اشداء ضد الحكومة) والذوق العربي يقضي بان يقال على الحكومة ومثله جمل ينطقها المتكلم · والصواب ينطق بها ومثله معاني ما كانت لها ابداً · وابداً بمعنى دائماً والاولى ·· الا قط · ومثل جمعه عادة عَلَى عوائد كالاستعمال الشائع والاحسن جمعها على عادات وعاد ومثلها جمعه لواء على لواآت والصواب الوية ·

واستعمل من التراكيب الشائعة فلولا هي ما خرج من بربرته الاولى ولولا هي لراح مسرعا والصواب فلولاها · ولولا هي من تراكيب عامة المصريين ومثلها لولا هو ما شاء الآلهة والصواب لولاه ومثل النصب عَلَى التاجر وما ادري اذا كانت لفظة النصب معروفة باللغة بهذا المعنى ومثله من رجاله الخصوصيين ولو قال من خاصته لاحسن ومثله يريق قطرة دم لواحد من اهلها والاولى قطرة دم واحد ومثلها جاز الاعتراف من السامعين والاسلوب الفصيح ان يقال جاز اعتراف السامعين ومثله شكلوا محكمة وهي مما سرى الينا من التركية والصواب الفوا محكمة وللتشكيل معنى آخر غير هذا ومنها استعمال المصالح للدواوين والمصالح لفظة عامية مصرية ·

وهناك بعض التراكيب التي يقع نظرك عليها في الكتاب وهي تنبئك عن نفسها بانها افرنجية لم تذق طعم العربية مثل تحت تأثير احد هذه الافكار وهم تحت ذلك التأثير وقتل الوقت ولكان ثمنها كثيراً من الثورات · واما الحكومة التي تصنع من حملة

الشهادات والذين اضطربت قوام العقلية الى النصف ولا تلبث المياه ان تعود الى مجاريها وغير ذلك ٠

ومنها بعض التراكيب التي فيها شيء من ركاكة وسقم مثل غرق ٨٥٠ مركب شراعي و٢٠٣ مركب تجاري والصواب ٨٥٠ مركباً شراعياً و٢٠٣ مراكب تجارية ٠ ومن عرف كيف يؤثر في تخييل الجماعات عرف كيف يقودها ٠ لا دخل لتلك التظليمات لا في سعادة ولا في شقاء ٠ فانه كان رجلاً هجوماً لا ذكاء فيه لكن ذا عزم ومضاء ٠ أنحى على العمال بالعطش ٠

ويخالف مألوف المعربين في ترجمته السنديكات بالجمعيات وقد اصطلحوا على تعريبها بالنقابات ومجيء اولى وترجم البورصات بغرف التجارة وغرف التجارة كما لا يخفى هي غير البورصات وعرب الفيلوتين التي كانت تقطع الرؤوس في فرنسا بالمجلة ووضع لها بعضهم المقصلة ولفظها احسن ٠ ووضع بعض الالفاظ بلفظها مثل (ماندران) وهو الحاكم الصيني و (الاردواز) وهو لوح الحجر ٠

ولكن هذه الالفاظ والتراكيب القليلة لا تقدح في فضل الترجمة خصوصاً واكثرها مما عمت البلوى باستعماله ولكن كنا نود ان يكون ذاك الثوب النفيس خالياً من الشوائب ليجيء كتاب اليوم مستوفي الشروط من حيث اصله وفرعه ولغته ورشاقته وطبعه ووضعه وعسى ان تكون مترجمات المعرب المشار اليه في الايام المقبلة اتم واكمل لتزيد منها فائدة المطالعين والمتعلمين والله لا يضيع اجر المحسنين ٠

الصحافة العثمانية

الصحافة او فن الجرائد والمجلات هي عنوان ارتقاء الامة المحسوس وكل امة كانت صحافتها اوسع وامتع يسوغ لك ان تحكم عليها بانها ارفع وامنع • فالجرائد الانكليزية مثلاً اوسع مادة وابعد نظراً واصدق اقوالاً من الافرنسية والايطالية لان الانكليز رجال الاتجار والاستعمار اعلى كعباً من الفرنسيس والطليان ودولتهم ارقى الدول • وهكذا الحال في صحافة الامة العثمانية المختلفة العناصر والاجناس وتاريخها يرد الى سنة ١٢٧٦ هـ • ولعلنا لا نخطئ اذا قلنا ان الصحافة التركية ارقى من الصحافة العربية والرومية والارمنية والبلغارية وبعبارة اخرى ان الصحف التركية ارقى من العربية اذ لا يجوز لنا ان نحكم على الصحافة الرومية والارمنية والبلغارية ونحن لا نعرف لغاتها لنقرأها بها والحكم على الشيء فرع عن تصوره • اما التركية فلمعرفتنا بها يتيسر لنا الحكم على جرائدها وجرائدنا معاً كما نحكم على الصحف الافرنسية التي تصدر في بلادنا ايضاً •

كانت الجرائد العربية قبل الانقلاب الاخير عبارة عن الاعيب وروايات عن السياسيات الخارجية محرفة وكان يحظر عليها خصوصاً في العشر السنين الاخيرة ان تبحث في موضوع اجتماعي اداري او سياسي وطني فكانت موضوعاتها من ثم مسخاً او سلخاً من جرائد اوربا والاستانة في شؤون تافهة لا ترقي عقلاً ولا تلقن فضلاً •

ولما انقذ الله البلاد من ظلم الاستبداد كانت صحافتها اول ما تحرر من اوضاعها مع صحافة العناصر الاخرى فداهمتها الحرية على حين غرة واصبحت في حل من الخوض في كل موضوع وعندها ظهرت كفاءتها وصح لمن يريد التنظير بينها وبين الصحافة التركية ان يصدر حكمه عليهما •

لم يكن في سورية والعراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس الغرب غير بضع جرائد ومجلتين في مدينة بيروت ولبنان وواحدة في دمشق واخرى في طرابلس الشام اما حلب والبصرة وبغداد واليمن والحجاز فكان يصدر في كل واحدة منها جريدة رسمية باسم ولايتها نصفها بالتركية والنصف الآخر بالعربية السقيمة وسائر قواعد البلاد خالية من الجرائد الرسمية وغير الرسمية لان الجرائد كانت العدوة الكبرى للسلطان المخلوع فلم يكن يسمح باصدارها الا مضطراً او بالاحتيال العظيم والبذل الكثير •

ولم تمض سنة عَلَى نشر القانون الاساسي حتى ظهرت بضع جرائد يومية جديدة في بيروت ودمشق وحلب وصدرت في الموصل وبغداد والبصرة ومكة وجدة وطرابلس الشام وطرابلس الغرب والقدس وحيفاء ويافا ومرج عيون واللاذقية جرائد اسبوعية متناسبة مع حال البلاد التي تصدر فيها وان كانت جرائد سورية من حيث التركيب البياني واللغوي ارقى من جرائد غيرها من الاقطار لان الملكة العربية مستحكمة من القائمين بها في بلاد الشام اكثر من غيرها ولكن [illegible] الجرائد الصادرة في الاقطار الاخرى نافعة عَلَى كل حال بما تأتي به من ا[illegible] حار و[illegible] خبار وسيكون منها بحول الله النفع العام لمن تنشر بين اظهرهم ·

اما الجرائد التركية قبل الدستور فكانت عبارة عن مقتطفات [illegible] الصحف الاوربية في السياسة الخارجية وتبليغات اوامر الحكومة الاستبداديه وابواق خصصت لتأليه عبد الحميد الثاني واطرائه اطراء لم يعهد في لغة من اللغات ولا في امة من الامم وكانت تلك الجرائد متخومة بانعامات السلطان السابق ورشى بعض الشركات لتساعدها عَلَى ابتزاز خيرات السلطنة · ومع كل هذه المساوي كان الارتقاء بادياً عَلَى الصحافة التركية اكثر من غيرها لان التركية لغة الحكومة وجرائدها مقروءة في بلاد الترك من آسيا واوربا كما تطالع في غيرها من البلاد لكثرة الموظفين وغيرهم ممن يعرفون التركية ويهتمون ان يطلعوا عَلَى قرارات حكومة العاصمة ومنشوراتها وانبائها ·

ثم ان الاتراك بمجموعهم ارقى بتربيتهم وتعليمهم من مجموع العرب ونظام الأسرة عندهم امثل منه عند اكثر العرب والمرأة التركية والحق يقال اكثر تعلماً وتهذيباً من المرأة العربية · فقد تطوف البلد الكبير في هذه الديار ولا تجد الا بضع بنات متعلمات ولو استقريت قواعد البلاد التي يغلب فيها العنصر التركي لرأيت المتعلمات من التركيات يبلغن المئات والالوف ولا سيما في العاصمة · وهذا هو احد اسرار انتشار الجرائد في الاتراك اكثر من انتشارها هنا لكثرة سواد القارئين والقارئات عندهم وقلته عندنا ·

واذا اردنا المقارنة بين الصحف التركية وخصوصاً صحف العاصمة وبين الصحافة العربية في الولايات تكون للعربية الدرجة الاخيرة بين الصحافة العثمانية فيما نحسب ولذلك وجب ان نقابل الصحافة العربية كلها بالصحافة التركية كلها اي الصحف التركية التي تصدر في الاستانة وازمير وسلانيك وادرنة ومناستر وغيرها من البلاد العثمانية

والصحف التركية التي تصدر في القريم والقافقاس مع الصحف العربية التي تصدر في الولايات العثمانية ومصر وتونس والجزائر والمغرب الاقصى وجرائد المهاجرين من السوريين في اميركا الشمالية والجنوبية . وهذه الصحف على اختلاف مصادرها مستمتعة بحريتها الفكرية ما خلا بعض صحف تونس والجزائر والقريم والقافقاس واذ كانت درجة ارتقاء الشعوب التي تملى عليها متفاوتة جاءت هي كذلك .

ولذا كان من اللائق اذاً ان نقيس صحف بلد معين بآخر معين لان قوة الجرائد بقوة من تصدر بينهم كما قلنا واذ كان اهل الاستانة ارقى من حيث المجموع من اهل سائر الولايات ومدينتهم عاصمة سلطنة عظمى من اعمالها ثلاثون ولاية عدا الايالات المستقلة وهي مهوى افئدة الامم الاسلامية كافة كانت صحافة الاستانة ارقى من صحافة القاهرة وهي عاصمة مملكة فيها نحو ثلث سكان الولايات العثمانية ولها السبق علينا بالاستمتاع بنعمة الحرية . ومركز القاهرة السياسي مهم ايضاً واهلها عريقون في الحضارة منذ عشرات من السنين وهي في غناها الطبيعي اغنى من الاستانة في الحقيقة . فلا عجب اذا امتازت فروق من هذه الوجهة عن مصر .

تأملنا كثيراً في صحافة مصر والاستانة في العهد الاخير فرأينا امهات الجرائد التركية ارقى من امهات الجرائد المصرية مادة واسلوباً وشكلاً ووضعاً وطبعاً . ولا أغالي اذا قلت ان جريدة طنين ويكي تصوير افكار ويكي غزته . وصباح واقدام لا تفوقها الطان والديبا والفيغارو والماتين والجورنال الا بحوادثها الخارجية وما عدا ذلك من البحث في ادارة البلاد وسياستها الداخلية واخبارها وافكارها وآدابها واجتماعها فالجرائد التركية شقيقة الجرائد الفرنسوية بقيتها الا قليلاً . هذا مع بعد عهد الفرنسيس بالحضارة وقدم جرائدهم وقرب عهد الترك بها وحداثة جرائدهم . وتفوق جرائد القاهرة كاللواء والمؤيد والجريدة والاهرام والمقطم مثلاً بانها امهر في الضرب على الوتر الحساس في الامة اكثر من جرائد الاستانة .

اما المجلات الافرنسية فهي ارقى بلا جدال من المجلات التركية، وتصدر تحت سماء الاستانة بضع مجلات مثل « علوم اقتصاديه واجتماعيه مجموعه سى » و «مملكيه» و «شهبال» و « ثروت فنون » لا تقل في ابحاثها وتدقيقها في موضوعاتها عن المجلات العربية الكبرى في مصر والشام وهي ارقى منها من حيث الوضع والطبع واشبه بالمجلات الاوربية في ان ابحاثها تكتبها الايدي المنوعة من اهل الاختصاص . ومن العجيب ان

مصر على كثرة علمائها الاخصائيين لم يصدر فيها حتى الآن مجلات يكتبها المصريون انفسهم ولولا « مجلة الجامعة المصرية » و « صحيفة نادي دار العلوم » وهما ابتدأتا هذه السنة لقلنا ان مصر لا تميل للعلميات بميلها الى السياسيات واهل العلم والادب فيها لا صبر لهم على المشاريع العلمية حتى تنضج كاصبرار ارباب «المشرق» و«المقتطف» و«المنار» و«الهلال» و «المقتبس» و «الجامعة» وغيرهم من ارباب المجلات السورية الحديثة « كالمباحث » و«النبراس» و«المنتقد» و«الحسناء» و«الكوثر» و«النعمة» و«العرفان» وغيرهم ممن لا تحضرنا اسماؤهم في مصر والشام .

اما جرائد سورية اليومية فهي اشبه من كثير من الوجوه بالصحافة التونسية من حيث المواد وقلة البحث في حالة البلاد وان كانت جرائد الشاميين اكثر حرية واسلم عبارة بل انضج اسلوبا من جرائد التونسيين والفضل في ذلك للمدارس التي تعلم آداب العربية في الشام اكثر من تونس على ان المملكة التونسية وان كانت اصغر من الجزائر ومن مملكة مراكش فهي في هذا التهذيب ارقى لهجة وعربية منهما بل هي بالنسبة للجزائر كنسبة سويسرا الى اسبانيا او المانيا الى روسيا ولعل كثيرا من فقهاء الجزائريين يحرمون حتى اليوم كبعض فقهاء المراكشيين ما يقال له الجرائد والمجلات وكم للجامدين من جنايات جنوها على الدنيا والدين .

وقصارى القول ان الصحافة التركية ارقى بمجموعها من الصحافة العربية ولا سيما في السياسيات والاداريات والعسكريات . والترك منذ قرون هم اهل السياسة والادارة والجندية وادبياتهم ايضا اقرب الى الادبيات الغربية من ادبيات العرب . وعسى ان يكون الترقي الذي يتناول كل امة فينيلها حظها منه في ظل القانون الاساسي يجوي التعادل بين البلاد فيعم الاخوة كافة بعد جيل او جيلين من الناس ويعد رجال صحافتنا في الولايات العربية في ترقية جرائدهم ومجلاتهم ويسهرون على ابداعها بكل مفيد من الابحاث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية والادارية والعلمية والادبية بحيث يزول عن العقول صدأ الجهل فتنجلي من جلى المدنية الحقيقية ما ينيلنا السعادتين ويغبطنا عليه اهل الخافقين .

غنى العثمانيين

لا يعقل ان تكون المملكة العثمانية على هذه السعة والاعتدال وفيها من الانهار والخراج والمعادن ما فيها ومن ذكاء سكانها وزكاء تربتها العجب العجاب وتصبح في هذه الدركة من الفقر والانحطاط .

لا يعقل ان تكون بلاد هذه السلطنة التي ضمت الى صدرها كثيراً من ممالك الاقدمين كالفينيقيين والغسانيين واللخميين والحثيين والحميريين والصفويين والنبطيين والبابليين والاشوريين والمقدونيين واليونانيين والفراعنة وتكون مساحة ولاياتها الثلاثين خمسة اضعاف المانيا ولا يكون فيها من السكان سوى نحو ثلاثين مليوناً على حين يبلغ سكان المانيا زهاء خمس وستين .

لا يعقل ان بلاداً فيها من الانهار العظيمة مثل سيحان وجيحان ودجلة والفرات وقزل ايرمق واردار وغيرها من الانهار ان تمحل ولا تخصب مع ان الخالق خصها بتربة ممرعة فيعطي مد الحنطة في بعض جهاتها مئة مد ثم نقرأ الفقر المدقع في وجوه اهلها .

لا يعقل ان بلاداً لها عشرات من الموانئ على شواطئ البحر الابيض والبحر الاسود والبحر الاحمر وبحر الادرياتيك والمحيط الهندي وهي متاخمة لممالك البلقان واوربا من جهة ولبلاد السودان وصحراء افريقية وشماليها من جهة وروسيا وايران من اخرى ثم لا تستطيع ان تبعث بغلاتها الى البلاد الخارجية لتتناول منها ثمنها نقداً لسد العجز المحسوس بين وارداتها وصادراتها .

ولكن من نظر في الامر نظر متدبر وعرف ان حكومة الاستبداد تحرق الاخضر واليابس وتخرب العامر والغامر وان الجهل مبيد الامم برمتها دع عنك عمرانها لا يستغرب ما قدر لهذه السلطنة بل يعجب كيف ابقى الاستبداد فيها عقولاً تفكر وايدي تعمل ونفوساً تشعر بالتأخر .

كان همّ الحكومة المطلقة في هذه السلطنة ان تحتال لسلب النعمة الباقية من يد الاهلين فكانت تشاركهم في اموالهم على غير رضاهم وهي لا تحميهم في انفسهم واموالهم ولا في مرافقهم وصحتهم وكيف تهتم لاسعادهم وهم عبيدها اذا طلبوا ان تخفف عنهم العذاب قاتلتهم وان ارادوها ان تحاسنهم خاشنتهم . وكيف يطلب

من الجاهل ما يطلب من العالم وهل ينفق امرؤ الا مما عنده وهل الحكومات الا افراد مجتمعون ·

لسنا في صدد بيان مساويء الدور البائد بل نريد الالمام بغنانا وذكر شيء من مستقبلنا · وغنانا في دور هذه الحكومة النيابية السعيدة مناط بهمتنا وهمتها ان عملت وعملنا حسبت بلادنا في عشر سنين في جدول البلاد الراقية والا فتبقى دستور بين بالاسم لا نستثمر من قوانيننا الجديدة وخيرات بلداننا العشيدة فائدة يعم نفعها ·

نحن نطالب الدولة اليوم ان تؤسس لنا من المرافق العامة ما لا طاقة للافراد ان يقوموا به من مثل انشاء السكك الحديدية حتى تربط الاستانة مع اقصى بلاد العرب وتتصل وان باشقودرة وطرابزون بالقدس وبغداد بالقاهرة ودمشق بطرابلس الغرب فتصبح ولايات الروم ايلي والاناضول وبلاد العرب متصلة كالحلقة الواحدة بشرايين من حديد ويتيسر لفلاح ملاطية وحكاري في الديار الكردية ان يبيع غلاته وثمراته من ابن طنطا والاسكندرية في الديار المصرية فلا تباع اقة الخبز الجيد بعشرين بارة كما في بعض بلاد الاناضول وتباع في دمشق بثمانين وتباع بمئة وستين في القاهرة ·

نطالب الدولة ان تنشئ السدود وتجفف المستنقعات حتى ينتفع بكل شبر من الارض يمكن زرعه وتشجيره ولا تهلك البلاد المجاورة لتلك المياه لقلة ريها كمن يصبح عطشاناً وفي الماء فمه وان تصلح سقياها فلا يذهب ماء الفرات ودجلة بل مياه كثير من الانهار والخلجان بلا فائدة وترى حواليها البلاد قاحلة تنتظر ماء الامطار لتروى وما هي بمضمونة معظم السنين · وبذلك تجود صحة السكان النازلين بالقرب من تلك الاراضي وتقل الحميات والامراض الوافدة فيهم فينمون ويتناسلون فتزيد البلاد بهم قوة ·

كانت الاوبئة والطواعين تنتاب البلاد العثمانية قبل ان يعرف الاهالي والحكومة معنى التوقي المشروع فتهلك من سكانها مئات الالوف ولو ذكرت تواريخ المتأخرين ما انتاب البلاد كلها من الموتان فقط في المائتي سنة الاخيرة لزال العجب من قلة النفوس في بعض الولايات قلة لا تكاد تصدق · ولكن الزلازل والاوبئة والحريق والغارات مهما بلغ من تدميرها السكان والمكان يتأتى جبر ما اوهنته ورتق ما فتقته وتعويض ما خسرته لو كان في البلاد شيء يقال له عدل وعلم ·

مثال ذلك مدينتا بيروت ودمشق فانهما منذ جلب اليهما ماء نهر الكلب وعين

النقية في انابيب تقي الماء من الجراثيم الضارة فقلت الامراض قلة محسوسة حتى ان الهواء الاصفر انتاب سورية مرتين في العهد الاخير ولم يعرج على بيروت مع انتشاره كثيراً في صيدا وطرابلس المجاورتين لها وكذلك في دمشق منذ اخذ بعض اهلها يشربون من ماء الفيجة الطاهر فلو تيسر لسائر مدن سورية مثلاً ما تيسر لنا من الماء النقي كالقدس ويافا وعكا ونابلس وطرابلس وصيدا واللاذقية وحمص وحماة وحلب وغيرها من الامصار لما جاء على سورية ربع قرن الا وسكانها ضعف ما هم الآن .

هذا في ابسط الاشياء واقربها تناولاً فما الحال لو تشعبت خطوطها الحديدية عريضة كانت او ضيقة بحيث لا تخلو قرية فيها خمسة آلاف نسمة من الارتباط مباشرة مع امهات المدن كحاصبيا وراشيا وقطنا ودومة والنبك والقنيطرة وصلخد وعاهرة والسويداء والصمرانية وسلمية وبصر الحرير وعجلون والسلط والكرك كل هذه القصبات مراكز اقضية مهمة لا اتصال لأكثرها مع حاضرة الولاية الا على ظهور الدواب والبغال والجمال فلو اتصلت بدمشق مثلاً كما اتصلت الزبداني والبقاع وبعلبك وحمص وحماة ومعان وشمسكين ودرعا اذاً لتوفر عمرانها وغزر سكانها واغتنت ارضها بغلاتها وثمراتها وسهل على البعيد ان يقتني اراضي لا يصل اليها على المطايا الا في ايام طويلة فيبلغها مع القطار في ساعات .

ومثل ذلك قل عن ولايتي حلب وبيروت ومتصرفيتي القدس وجبل لبنان بل قله عن ولايات طرابلس الغرب واليمن والحجاز والبصرة وبغداد والموصل وديار بكر ومعمورة العزيز وبتليس وقسطموني ووان وارضروم وطرابزون وسيواس وقونية وانقرة وطنه وجزائر البحر الابيض وآيدين وخداوندكار والاستانة وادرنة وسلانيك ومناستر ويانيا وقوصوة واشقودرة ومتصرفيات بنغازي والزور ويافا وبيالجه وازميد .

ليس عند الدولة اليوم من الخطوط الحديدية ما يكفي لخمس ولايات فقط وقدروا عدد ما لديها منها بنحو سبعة آلاف كيلومتر تدفع على اكثرها ضمانات كيلومترية كل سنة لا تقل عن ستمائة الف ليرة ولو كان رجالها في العهد الماضي على شيء من الذمة والعقل لما فادوا بمصلحة امتهم لقاء منفعة ذاتية تافهة الى هذا الحد ولكانوا انشئوا معظم تلك الخطوط بايدي شركات عثمانية تستلف من اوربا ما يقتضي لها من المال بفائدة معتدلة تسدده من مداخيل الخطوط التي قد تكفي كما لم يعسر على الحكومة

العثمانية انشاء خط حديدي من دمشق الى المدينة وهو لا يقل عن الف ومئتي كيلومتر في وادٍ غير ذي زرع لا يصعب عليها او على الامة ان تنشئ خطاً حديدياً مثلاً من دمشق الى بغداد والمسافة بينهما ثمانمائة كيلومتر او من دمشق الى الاستانة والمسافة الف ومئة كيلومتر تمر باقاليم كلها عامرة بطبيعتها مشهورة بخصبها وجودة تربتها ·

ولكن البلاد حتى اليوم لم تبرح كمن خرج من تحت الردم لا يكاد يفيق لكثرة ما لقيه من مصائب الادوار السالفة والحكومة على سعي القائمين بشؤونها في العاصمة لم تستطع حتى الساعة ان تدبر ميزانيتها على ما ينبغي والعجز لم يزل يربو على اربعة ملايين ليرة كل سنة فقد بلغت نفقات الحكومة هذا العام ٢٩٬٣٢٩٬٥٢١ ليرة عثمانية وواردها ٢٤٬٥٨٧٬٢١٧ ليرة على ما ادخل عليها من تعديل رواتب الموظفين وغير ذلك من انواع الاقتصاد وكان يرجى ان تزيد الاعشار هذه السنة زيادة محمودة لان معظم ارباب النفوذ والغنى لم يعتادوا ان يؤدوا للخزانة في السنين الغابرة اكثر من خمس وارداتهم في الاغلب بل بعضهم ما كانوا يدفعون عشر العشر دع عنك سائر التكاليف ·

وآخر احصاء رأيناه في زيادة اعشار هذه السنة انها زادت في السلطنة عن السنة الماضية مائة وخمسين الف ليرة مع ان اعشار ولاية سورية وحدها زادت ثلاثة واربعين الف ليرة ولو عنيت حكومة هذه الولاية بتلزيمها حق العناية لما قلت الزيادة عن مئة الف ليرة من الاقضية والالوية التي تدفع الاعشار بدلاً فضلاً عن لواء حوران الذي يدفع عشراً مقطوعاً بلغ هذه السنة تسعين الف كيلة من الحنطة ولو استوفت من اهله الاعشار بحسب ما يجب عليهم اداؤه لاخذت هذا القدر المأخوذ من قضاء واحد فما بالك بسائر الاقضية على ان بعض الولايات كحلب مثلاً اصيبت هذه السنة بنقص غلاتها وثمراتها بالجراد الذي انتشر في ارجائها ولكن حال سائر الولايات ليس كذلك·

ولا علة لهذا الا ان موظفي المالية والادارة ضعاف في معظم الولايات والاهلون اكثر منهم جربذة واحتيالا فتمكنوا كما كانوا في العهد السالف من التزام الاعشار بالاثمان البخسة ويفكر ناظر ماليتنا اليوم في تخفيض العشر من اثني عشر ونصف في المئة الى عشرة فقط لتبقى للفلاح بقية صالحة من وارداته يعمر بها ارضه ويكسو اهله ويرمم اصطبله وداره ويستكثر من الماشية لان الحكومة تستوفي الآن من الفلاح جميع ما يملك كل سبع سنين · كما يفكر في زيادة رسوم الكمارك اربعة في المئة

فتصير خمسة عشر في المئة بدلاً من احد عشر فاذا حسبنا قيمة ما تتقاضاه الدولة من الكارك سنوياً ٣٬٤٨٦٬٨٦٦ ليرة عثمانية كما هو المقدر في الميزانية الاخيرة. والكرك بعد عشرة في المئة لا تقل الزيادة عن مليون ونصف ليرة يسد بها جانب مهم من عجز الميزانية من قليل . ولا شك ان ضرائب الاملاك ستزيد ايضاً لانها قليلة بالنسبة ولا سيما على ارباب السعة الذين كانت الحكومة السالفة تتسامح معهم بأكل حقوقها عن قصد والمأمول ان يزيد كل شيء على تلك النسبة من مثل بدلات العسكرية التي ستتقاضاها الحكومة من غير المسلمين في السلطنة .

قلنا ومن امثل الاعمال تخفيف الاعشار في السلطنة او الغاؤها ان امكن والاستعاضة عنها بضرائب على الاراضي بحسب موقعها وخصبها والزيادة في الكارك وربما لا يخلو هذا الصنيع من زيادة قليله في ثروة البلاد ويرغب السكان بعض الشيء عن البضائع الاجنبية ويستعملون ما امكن من مصنوعات بلادهم فاذا لم يقل الوارد من السلع الاجنبية فلا اقل من وقوفه عند هذا الحد . ويقدرون قيمة صادراتنا بنحو اثنين وعشرين مليون ليرة عثمانية وورداتنا بنحو ثلاثة وثلاثين مليوناً اي ان البلاد الاجنبية واوربا خاصة تاخذ منا كل سنة عشرة ملايين نخسرها من مجموع ثروتنا واذا اضفنا اليها قيمة ما تدفعه الحكومة العثمانية ربا ديونها وهو لا يقل عن تسعة ملايين ليرة لان ما عليها من الديون يبلغ نحو مئة مليون من الليرات فتكون السلطنة العثمانية قد خسرت نحو عشرين مليون ليرة كل سنة على اقل تعديل .

والطريقة الاقتصادية لسد هذا العجز في الميزانية هو الوقوف في النفقات عند حد معين والسعي في استثمار الاسهل فالاسهل من خيرات البلاد بحيث لا تتكلف الدولة الانفاق على مشروع الا اذا كانت الارباح فيه تربو على الخسارة منذ اول سنة كاصلاح ري العراق مثلاً فانه يحتاج الى عشرة ملايين ليرة مثلاً تأتي الدولة والاهالي بمليوني ليرة على الاقل تأخذ منها الحكومة لا اقل من مليون ليرة فاصلاح ري العراق بالاستدانة من اوربا ربح ظاهر لا محالة ولا سيما اذا تقدمه انشاء خط حديدي من بغداد الى دمشق كما هو رأي السير ويلكوكس المهندس الانكليزي المشهور .

واذا عنيت نظارة الغابات باستثمار غابات السلطنة على الاصول المتبعة في اوربا وصانتها من فأس الاهلين وانياب مواشيهم تزيد ثروة المملكة زيادة محمودة تؤثر في المجموع فلا نتناول ما يلزمنا من الاخشاب من النمسا او رومانيا مثلاً بل نبتاعه من

سواحل قونية وقسطموني وآيدين وتكفي سائر حراج الروم ايلي والاناضول وسورية الموجود فتكفينا مؤونة الفحم الحجري او البترول او غيره من الوقود الذي نجلبه من الخارج

الاوائل

ذكرني ما طالعته في العددين الخامس والسادس من مجلة المقتبس الغراء (٤: ٢٧٣) بما كنت قد عنيت بجمعه منذ سنوات من الاوائل (اي اول من عمل شيئاً) عند القدماء من يونان ورومان وفرس وعرب ثم عند من جاء بعدهم من الامم الى عهدنا من الاعارب والاعاجم ولا يخفى ما في هذه الابحاث من المحاضرات التاريخية والأ... والعلمية واللغوية الخ فرأيت الآن ان الخص مقدمة هذه الرسالة وبعض مباحثها ... القراء الكرام يرون فيها فكهة وجماماً وهاك نبذة منها :

لم يفت العرب جمع (الاوائل) شأنهم في كثير من الموضوعات التي طرقوها والفوا فيها على حين لم يطرق مثلها كاتب اعجمي وعلم الاوائل هو كما عرفه الحاج خليفة في كتابه كشف الظنون الشهير (طبعة مصر ا : ١٣٢) : ما يعرف منه اوائل الوقائع والحوادث بحسب المواطن والنسب وموضوعه وغايته ظاهرة وهو من فروع علم التواريخ والمحاضرات لكنه ليس بمذكور في كتب الموضوعات وقد الحق بعض المتأخرين مباحث (الاواخر) فيه والفوا فيه كتباً عددها ملخصة وهاك تفصيلها من مظانها الاخرى .

(١) اول من صنف في (الاوائل) ابو هلال حسن بن عبد الله العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م) وسمي رسالته (الاوائل) وهي مختصرة

(٢) ومن المؤلفات فيها (محاسن الوسائل في علم الاوائل) للقاضي بدر الدين محمد ابن عبد الله السبكي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ — ١٣٦٧ م

(٣) (اقامة الدلائل على معرفة الاوائل) للحافظ شهاب الدين ابي الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ — ١٤٤٨ م

(٤) (الوسائل الى معرفة الاوائل) لجلال الدين السيوطي الشهير المتوفى سنة

٩١١ هـ — ١٥٠٥ م لخص فيه اوائل العسكري (١) المذكور آنفاً وزاد اضعافه ورتبه ترتيب الفقه وختمه بالعلم والامثال وفيه منظومة بالرجز اسمها الوسائل ويرجح انها ارجوزة وسائل السائل الى معرفة الاوائل التي ذكرها كشف الظنون — ٢: ٤١٥

(٥) محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر وهو مختصر للشيخ علي دده اتمه سنة ٩٩٨ هـ — ١٥٨٩ م ووضعه على قسمين الاول في فصول الاوائل مرتبة على ٣٧ فصلاً والثاني في فصول الاواخر وفيه ٤ فصول

(٦) ازهار الخمائل (٢) في وصف الاوائل للولى عثمان بن محمد المعروف بدوقه كين زاده الرومي المتوفى سنة ١٠١٣ هـ — ١٦٠٤ م وقد رتب الاوائل على الحروف بالتركية واهداها الى السلطان مراد خان الثالث

(٧و٨و٩) الاوائل للطبراني (٣) ولمحمد بن ابي القاسم الراشدي ولابن خطيب داريا — وهذه اهم المؤلفات بهذه المحاضرات . على اننا لم نقف على مخطوط منها حتى الآن واليك الآن مثالاً مما جمعته من الاوائل :

اول انسان هو ابونا آدم واول امرأة هي امنا حواء

اول قتيل ومحسود وزراع ولدهما هابيل واول قاتل وحاسد وحراث ولدهما قايين

اول ضارب بالمطرقة حفيدها توبال قايين

اول عازف بآلة طرب لامك

اول مشترع ومؤرخ وقائد موسى النبي

اول من كتب في السل انه داء معدٍ سقراط الفيلسوف اليوناني الشهير

اول من قال من الروم ان الارواح غير فانية بل هي ازلية ابدية طاليس الفيلسوف اليوناني

اول من عرف علم الطبيعة والهيئة عند اليونانيين طاليس هذا

وهو اول من قال الكلمة المشهورة « ايها الانسان اعرف نفسك »

وهو اول من انبأ بكسوف الشمس وخسوف القمر قبل وقوعها

وهو اول من بحث عن اسباب الاهوية والزوابع والصواعق والبرق والرعد

(١) وفي الكشف ٢: ٤١٥ العكبري وهو خطأ (٢) غلط الكشف في هذه التسمية بموضعين لولاً قال ازهار الجبال (١: ١٣٢) ثم ازهار الجائل (١: ٧٠) — (٣) كرر الكشف هذا الكتاب مرتين في محل واحد. (١: ١٣٢)

وهو اول من قاس ارتفاع القلاع والاهرام من ظلها الجنوبي لما تكون الشمس في الاعتدال

واول من قرب القربان للهيأكل وطهر الارض والمدائن والمنازل الفيلسوف انبيذيس اليوناني

اول من اخترع عمل الفخار بالدولاب انخرسيس الفيلسوف اليوناني

اول من امتنع لتواضعه ان يلقب حكيماً فيثاغورس الفيلسوف اليوناني

اول من شهر علم الفلسفة بطريقة جلية في جميع اليونان دون غيره إنكساغوراس الفيلسوف اليوناني

اول من ادخل فلسفة اليونان الى رومية شيشرون الخطيب الروماني الشهير قبل الميلاد بقرن

اول من قال في الجاهلية اما بعد قس بن ساعدة اسقف نجران النصراني

وهو اول من اتكأ على عصا عند خطبته واطال الكلام

واول من وصف الخيل واجاد بتشبيهاته امرؤ القيس من اصحاب المعلقات

واول من لعب بالصقور الحارث بن معاوية بن ثور الكندي ملك كندة

واول طبيب عند العرب الحارث بن كلدة الثقفي ثم ولده النضر

اول من سكن نجران يزيد بن عبد المدان من بني كهلان نزلها نحو سنة ٤٥٠ م

واول من سمى اليوم السادس من الاسبوع الجمعة وكان يقال له العروبة كعب ابن لؤي

اول من قال مرحباً واهلاً سيف بن ذي يزن الحميري قالها لعبد المطلب بن هاشم لما وفد اليه مع قريش لتهنئته برجوع الملك اليه

اول من خطب في الاسلام النبي (عليه الصلاة والسلام)

وهو اول من قال (مات فلان حتف انفه)

واول من اسلم خديجة زوجته

اول كتاب كتب في اللغة العربية بصدر الاسلام المصحف في خلافة ابي بكر لانه اول من اعتنى بجمعه

اول من كتب في الاسلام علي بن ابي طالب

وهو اول من قال جعلت فداك

اول من قال ايدك الله واطال بقاءك عمر بن الخطاب

واول والٍ لمرضى لقد رعيته نفقته ابو بكر الصديق

وهو اول من سمي خليفة

وهو اول خليفة مسلم ولي غيره وهو حي

وهو اول من سمى القرآن مصحفاً

واول من قال اجعل هذا الشيء بأجا (طريقاً) واحداً عثمان بن عفان

واول من قال فاض الميت شريح قال هذا حين فوضه

واول من جمع الدجال مالك بن انس فقيه المدينة بقوله : هؤلاء الدجاجلة

واول خليفة بايع لولده في الاسلام هو معاوية بن ابي سفيان بايع لولده يزيد

وهو اول من وضع البريد . واول من خطب جالساً على الارجج

وهو اول من سمى الطيب غالية واول من عمل المقصورة في المساجد

واول من ضرب الدراهم والدنانير في الاسلام عبد الملك بن مروان

واول من بنى المارستان في الاسلام .ودار المرضى الوليد بن عبد الملك وعين له اطباء برواتب وحبس المجذومين واجرى عليهم وعلى العميان الرزق

واول من ضبط الحروف العربية بالنقط والحركات نصر بن عاصم بخلافة عبد الملك ابن مروان

واول من اتخذ اللغة العربية في الدواوين بنو امية

اول لحن سمع بالبادية هذه عصاتي واول لحن سمع بالعراق حي على الفلاح

اول من سمي وزيراً في الاسلام ابو سلمة حفص بن سليمان الخلال الهمداني استوزره السفاح في القرن الثالث للهجرة

اول من لقب امير الامراء في الاسلام ابن رائق امير البصيرة وواسط في القرن الرابع للهجرة وكان صاحب هذا اللقب يتولى رئاسة الوزارة والجند

اول من لقب بالصاحب من الوزراء اسماعيل بن عباد وزير مؤيد الدولة في القرن الخامس للهجرة

اول من التزم الصحيح من اللغة مقتصراً عليه الامام ابو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري في كتابه الصحاح

اول من وضع كتاب الاجناس في اللغة الاصمعي لان التجنيس مولد وليس من كلام العرب

اول من ذكر ابنية الاسماء والافعال فاورد للاسماء ثلاثمائة مثال وثمانية امثلة سيبويه في كتابه المشهور

اول من نقل الخط من القلم الكوفي الى الصورة المتعارفة ابن مقلة وزير المقتدر بالله

اول من وضع المثلث في اللغة قطرب من اهل القرن الثاني للهجرة

اول من تعمق بدرس كتب ارسطو الفيلسوف اليوناني وفسرها ونشرها بين العرب الفارابي

اول من تكلم باصول الفقه واستنبطه الامام الشافعي

اول من دعي بقاضي القضاة ابو يوسف القاضي من اهل القرن الثاني للهجرة وقيل ابن جنبة الانصاري

واول من غير لباس العلماء الى زيه المعلوم عندنا اليوم ابو يوسف المذكور

اول خليفة لعب بالصولجان والكرة عند العرب هو هرون الرشيد العباسي

اول من عمل اسطرلاباً في الاسلام الفزاري زمن المنصور العباسي

اول من اشتغل بنقل العلوم الى العربية خالد بن يزيد الاموي حفيد معاوية الاكبر في القرن الاول للهجرة

اول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسي الموتورة موسى الهادي العباسي في القرن الثاني للهجرة

اول رصد وضع في الاسلام بدمشق زمن المأمون العباسي

اول من كتب من العرب في السياسة المدنية او الاقتصاد السياسي الفارابي ثم ابن خلدون في مقدمته

اول جمعية علمية فلسفية عند العرب جمعية « اخوان الصفاء » في بغداد في اواسط القرن الرابع للهجرة

اول من استخدم المرقد « البنج » في الطب العرب واستخدموا له الزوان او الشيلم

اول من استخدم الكاويات في الجراحة العرب على نحو ما هي عليه اليوم

اول من كتب في الجذام اطباء العرب واول كتاب فيه ليوحنا بن ماسويه

اول من وصف الحصبة والجدري بكتاب هو ابو بكر الرازي

اول من انشأ حوانيت الصيدلية واشتغل في تحضير الادوية العرب

اول من استخدم الجيوب والاوتار في قياس المثلثات والزوايا البتاني الرياضي العربي

اول من استنبط الكرة البيروني الجغرافي العربي الشهير

اول من تناول الارقام عن الهنود الخوارزمي فنسبت اليهم

اول من حسب فلك نجم المذنب على موجب قواعد تعليمية اسحق نيوتون الانكليزي في القرن السابع عشر

اول من استعمل الشاري «قضيب الصاعقة» فرنكلين سنة ١٧٥٩ م

اول من اكتشف الكينا رجل اسمه بليتيه سنة ١٨٢٠ م

اول من اكتشف التلقيح بالجدري ادورد جنر الطبيب الانكليزي سنة ١٧٩٦م

اول من استعمل طوابع البريد الانكليز في لندن سنة ١٨٤٠ م

اول طابعة «تيب ريتر» صنعت في اميركا سنة ١٨٧٣ م

اول من اكتشف النيتروجين الدكتور روثر فورد سنة ١٧٧٢ م

اول من اخترع تذاكر البريد الدكتور هرمن الالماني سنة ١٨٦٩ م

اول جريدة عربية انشئت في مصر «تقويم الوقائع» سنة ١٨٢٨ م

اول جريدة عربية انشئت في الاستانة العلية «مرآة الاحوال» لرزق الله حسون الحلبي سنة ١٨٥٤ م

اول جريدة عربية انشئت في سورية «حديقة الاخبار» لخليل الخوري اللبناني سنة ١٨٥٨م

اول مطبعة عربية انشئت في سورية مطبعة حلب الارثوذكسية منذ مائتي سنة أي في اول القرن الثامن عشر للميلاد

زحلة «لبنان» : عيسى اسكندر المعلوف



سير العلم والاجتماع

اللغة العثمانية

معلوم ان اللغة التركية العثمانية اليوم موءلفه من ثلاث لغات التركية الاصلية والعربية والفارسية وان الالفاظ العربية في العهد الآخير كثرت فيها جداً حتى تكاد تجد في الصفحة الواحدة ثلاثة ارباعها من الالفاظ العربية وربما اكثر وقد شق هذا الامر عَلَى « اقدام » احدى جرائد الاستانة فقامت تطلب تصفية اللغة العثمانية من الالفاظ العربية وقد ردت الجرائد الاخرى عَلَى هذا الرأي وزيفته وفي مقدمتها جريدة « تصوير افكار » بقلم صاحبها ابي الضيا توفيق بك الكاتب المشهور فقال من مقالة له ما تعريبه : زعمتم أن يوسف الثاني ملك النمسا كان اخذ عَلَى نفسه نشر اللغة الالمانية بين المجر فانتبه المجريون لما يراد بلغتهم واخذوا يطرحون منها الكلمات الزائدة من اللاتينية والالمانية فتم لهم ان يكونوا اليوم امة وان البلغار وان كانوا في الاصل اتراكاً ابدلوا لما نزل قسم منهم اوربا مذهبهم ولسانهم بالنصرانية والسلافية فغدوا ينظرون الينا نظر الخصومة كأنا لسنا منهم وليسوا منا في شيء . ولكننا لو نظرنا الى تاريخنا وكيف تألفت جنسيتنا لا نحتج بمثل هذه الحجج .

فانا لقوم (الترك) قد دفعتنا ايدي بكواتنا وامرائنا وكنا عبارة عن الف او الفين من الرجال اضطرتنا غارات جنكيز الى الرحيل عن اوطاننا فجئنا الى القرب من هذه العاصمة ونزلنا قصبة سكود ومنذ ذاك العهد حتى اواخر سلطنة سليمان القانوني ايام بلغنا غاية الغايات في فتوحاتنا ووصلت قوتنا الى ارقى مراقيها اخذنا ننتشر في قارات الدنيا الثلاث الكبرى فجمعنا تحت لواء حكومتنا نحو عشرين الى ثلاثين جنساً ومثل هذا العدد من الاديان والمذاهب حتى لقد استولينا ايضاً عَلَى جزء من بلاد المجر المبحوث عنها آنفاً .

واذ تعذر في العهد الاخير ان تتقدم سياسة التغلب الى الامام التي لم تكن مبنية عَلَى مقصد خاص عَلَى نحو ما كانت سياسة بطرس الاكبر امبراطور روسيا مثلاً ولما لم تكن سياستنا نتيجة فطنة وتأمل قائمة عَلَى اساس متين انحلت عرى هذه الاجناس المخالفة التي لم يدرك بادئ بدء ان الضرورة تدعو الى توحيدها لاذنى خلل عرض لقوة الدولة .

ثم ان الرابطة التي تربطنا والشعوب الاسلامية ومن هم قوام روابطنا كالعرب والاكراد وبعض العشائر المغولية التي سقطت الى هذه الارجاء وتوطنت فيها ومن تركناهم من اولاد الفاتحين ومن تفرقوا من المجاهدين اتباع بكوات الروملي فانتشروا في تلك الديار ان تلك الرابطة قد دعت الى ان يمتزج هؤلاء باهالي البلاد الاصليين اي بالبلغار بين والصربيين والارناؤد والبوشناق فاخذ هؤلاء يدينون بالاسلام حتى اصبح نحو نصف سكان تلك الاقطار الواسعة من المسلمين . واضطر اولئك المسلمون الى تعلم امور دينهم وبهذه الواسطة انتشر اللسان العثماني وتغلب الفكر الديني على الجنسي وانشأ اولئك الشعوب يعتقدون بان السلطنة العثمانية حامية الدين وسلامتها سلامة لهم في الدارين وبفضل هذا الاعتقاد غدا اهالي البوسنة المسلمون خاضعين للحكومة المتساوية وهم لا يقلون عن ٥١٠٠٠٠ نسمة ينظرون الى النمسو بين نظر الاعداء مع انهم من عرق واحد . ومثل ذلك قل في البوماقيين والجتاقيين وغيرهم من سكان بلغاريا ممن يرون السلافيين اعداءهم على حين هم واياهم من اصل واحد ولا يستثنى من ذلك الا الارناؤد فانهم في بلادهم يفضلون الجامعة الجنسية على كل جامعة فيدين المرء فيها بما يريد ولا من يسأله عن معتقده دان بالاسلام او بالنصرانية لان مسائل الاعتقاد من الامور الوجدانية النفسانية ولكن يبقى للجنسية القول الفصل بينهم فاذا استباح حماهم اجنبي يقوم المسيحيون والمسلمون يذودون عن حياض بلادهم قومة رجل واحد بمعنى انه لم تنشب قط ولا تنشب فتنة باسم الدين في بلاد الارناؤد فاللسان التركي الذي نستعمله منذ ستمائة سنة مؤلف من ثلاث لغات وقواعد صرفه ونحوه هي من الاصول المتحصلة من القواعد التي اقتبسها العجم عن العرب ولذلك اصبح لغة قائمة برأسها ولهجة خاصة بالعثمانيين فقط . وبقدر ما بين التركية الشائعة فيما وراء النهر والتركية المستعملة في آذربيجان والتركية التي يتكلم بها بعض الشعوب الاتراك في قافقاسيا والتركية المستعملة بين التاتار بين في القريم من الفروق فالفرق كذلك بين لغتنا ولغتهم .

وبالجملة فان ما فقدته الدولة العثمانية من املاكها بعد دور الفتح من البلاد وما خسرته بعد عهد السلطان سليمان من النفوس مما لا يقل عن ثلاثة ارباع السكان وما نحن مضطرون ومفتقرون اليه من تعلم اللغة العربية التي هي لسان شريعتنا وعقيدتنا مع كل هذا هل جذب العربي التابع لنا التركي اليه وصبغه بصبغته ام نحن

صبغنا العربي بصبغتنا ٠ وما ادري كيف نشأ خيال الخوف من فقدنا وطنيتنا اذا لم نتداركه بتصفية لساننا فقد رأينا جميع ابناء العرب النازلين في المدن والبلاد الواقعة بين الاسكندرونة وبغداد يتكلمون بالتركية ولقد انسنا بشرف اللقاء في مجلس النواب باناس من مبعوثي العرب يطلق عليهم لقب «آغا» ولكنهم يفوقون بفضائلهم وكانهم كثيراً من وزرائنا فكان الحلبيون والرهاويون والعينيون (اهل اورفه وعنتاب) والمواصلة والكركوكيون والسليمانيون والبغداديون يتكلمون ويكتبون بهذه اللغة العثمانية الممزوجة من التركية والعربية والفارسية بلسان يشف عن فضل بيان واحسان لا يضاهيهم فيهما الا قلائل منا وما ذلك الا اثر من آثار انتشار آداب التركية الجديدة بينهم لا التركية القديمة ٠

وعاد الكاتب المشار اليه في عدد آخر يقول في الرد عَلَى مناقشيه: ان اللسان العثماني هو لسان الامة التي انشأت هذه الدولة العثمانية من الاتراك وغيرهم من الشعوب الذين اتحدوا معهم افترق كل الافتراق عن تركية الجغتاي لمقصد سياسي بل من الواجب عليه ان ينفصل عنها وذلك لاشتراك الشعوب الكثيرة التي دخلت دائرة اتحادنا فانشئت هذه الهيئة الاجتماعية ولذا لا تجد حاجة لها ان تتخاطب وتتكاتب بالف باء اويغور وتركية ما وراء النهر ٠

فما دامت الف بائنا اليوم هي آلة الكتابة المشتركة التي اتخذها العرب واضاف اليها الفرس اربعة حروف فعبروا بها عن لغتهم ومادمنا نرى من الواجب علينا ان نقلد العرب بسائق الدين ونقلد الفرس بسائق الادب ونحن في حاجة ماسة الى الاخذ من موءلفات العرب والفرس والانتفاع بما خلفوه من علومهم منذ الف وثلاثمائة سنة وما دامت مصنفاتنا العثمانية منذ ستمائة وخمسين سنة قد دونت من هذه اللغات الثلاث فنشأت عنها اللهجة العثمانية ما دام الامر كذلك فنحن نأخذ في كل عصر من خزائن معارف هذه اللغات الثلاث ولا نتخذ عنها بديلاً ٠ ولعمري ماذا نجني من الفوائد اذا قلدنا اليوم البخاريين والخوقنديين والكشغريين بلهجاتهم وكتابتهم ولكن هذه الشعوب اذا قلدتنا في لهجتنا تقترب من منهاج معارفنا فتستفيد من ذلك فوائد حسنة ٠

مقاومة الكحول

يشتد حملة الاقلام وامراء البيان في الممالك الافرنجية يوماً بعد يوم في مقاومة المسكرات وذلك بواسطه جمعيات نذر اعضاوءها عَلَى انفسهم ان يقعدوا للمسكرات كل

مرصد وقد كانت سويسرا من اول الامم التي قاومت انتشار الابسنت منذ ثلاثين سنة فصدعت الحكومة هناك بامر الشعب وارادة الشعب حكم وعملت عَلَي ما اقتضاه منه المقاومون للسكرات عَلَي كثرة خصومهم باديء ذي بدء والموافقون عَلَي المنع رجال الصحة والادب والجمعيات الطبية والسياسية والكنائس والاحزاب السياسية المتطرفة من كاثوليك و برتستانت ولم يقف عَلَي الحياد في هذا الباب سوى الحزب الراديكالي .

وقد سبقت فنلندا سويسرا في مقاومة المسكرات فاصدرت حكومتها امراً منذ سنة ١٨٨٢ بمنع بيع المسكرات بالمفرق للناس والاتجار بها وجعلت بيعها بيد جمعيات تنفق ريعها عَلَي ما من ورائه فائدة عامة . وهذه الجمعيات تقاوم السكر بكل ما فيها من طاقة وتصد العامة من غشيان الفنادق وتدفعهم الى الاختلاف الى المطاعم الصحية التي لا تبيع المسكرات واخذت تلك الجمعيات تدخل في دروس المدارس مضار المسكرات وتنفر الدارسين من تعاطيها . وحذت النمسا حذو الامم العاملة عَلَي تقليل المشروبات فانشأت جمعيات تصد العملة عن الشرب وافلحت في تكثير سواد افرادها وانصارها . قد جعلت جمعية نقابات العملة شعارها : ان المشروبات الروحية منبع الا... العظيمة عَلَي طبقة العملة تسلبهم قواهم الطبيعية والعقلية اللازمة لهم في جهاد الحياة .

وهكذا ترى الحال في معظم الامم الاوربية ولا سيما في الممالك الصغرى مثل السويد ونرويج والدانيمرك وهولانده والبلجيك وبلغاريا . وهذه الامارة الاخيرة اخذت منذ أسست سنة ١٨٧٨ تقلد الاوروبيين في مناحيهم واحبت مخالفة القواعد التي كانت مرعية فيها عَلَي عهد حكم العثمانيين عليها من وضع العقبات في سبيل المسكرات ولكنها عادت ففكرت في العاقبة حتى قل فيها تعاطي المشروبات كثيراً في البلاد التي تكثر فيها الكروم واخذ البلغاريون يرددون المثل البلغاري السائر بينهم وهو ان الماء لا يقلق الرأس ولذلك جعلوا شربهم الماء الصرف وقد لا يتناولون المسكرات في بعض اعيادهم وهي لا تتجاوز الخمسة او الستة ايام في السنة كلها .

وانتبهت بعض ولايات اميركا الشمالية الى مضار المسكرات فسنت منذ سنة ١٨٤٦ قانوناً لحظر بيعها بالمفرق ومن هذه الولايات كنساس وميسيسبي والاسكا وغيرها وقد عادت بعض الولايات ايضاً بعد ان رأت فائدة المنع مثل ولايتي الاباماوجيورجيا فسنت قانون الحظر لتنقذ سكانها السود من الموبقات وسكانها البيض ولا سيما النساء من اعتداء الزنوج عليهن و بذلك اخذ يقل توقيف المعربدين والجناة شهراً عن شهر

في تينك الولايتين قلة محسوسة

اما المملكة العثمانية فمع ان دين حكومتها هو الاسلام والاسلام اشد الاديان في حظر المسكرات فتراها امس واليوم تشدد على المسكرات ظاهراً ويهمها في الباطن ولا سيما قبل ان تكون دستورية ترك الامور لطبائعها حتى تستفيد الديون العمومية من رسوم المسكرات . ويا حبذا لو فكر مجلس الامة في سن قانون شديد للمشروبات الروحية والاكثار من الرسوم عليها اكثاراً لا يستطيع معه حتى الاغنياء تناولها وبذلك تنتفع البلاد نفعاً نقدره قدره بعد سنتين عندما يصبح معظم ابنائها متعلمين مهذبين بفضل التعليم الاجباري . وبعد تعريب ما تقدم منعت الدولة العلية دخول الالكحول التي تعمل من غير العنب الى بلادها وان لا يدخل اليها من الالكحول (اسبرتو) الا ما كان ممزوجاً ببعض الاجزاء فيستعمل في بعض الصناعات فحبذا يوم تمنعه على اختلاف ضروبه .

الاعلانات

يؤكدون ان الولايات المتحدة تنفق في السنة ٢٥٠ مليون ليرة على نشر الاعلانات حتى ان بعض اصحاب معامل الصابون ينفقون كل يوم على اعلاناتهم ٢٥٠ ليرة وقد ارسل احد المخازن مؤخراً الى زبنه قوائم ببضائعه عدد صفحات كل قائمة الف صفحة ووزنها ثلاث ليبرات فكان ما كلفه ذلك اجرة نقلها في البريد فقط ٦٤٠ الف دولار او ١٢٨ الف ليرة انكليزية . وقد انفق احد اصحاب معامل الامواس هذه السنة خمسين الف فرنك زيادة عن السنين السالفة لنشر اعلاناته فباع ستة ملايين موسى زيادة عن القدر الذي كان يبيعه في الاعوام الماضية .

الصحة في اسوج ونروج

اهل الممالك الصغرى في اوروبا من اسعد الناس حالاً وانعمهم بالاً . فترى نروج منقسمة الى مناطق طبية ولكل مقاطعة طبيب تعينه الحكومة وتدفع اليه راتبه وفي كل مديرية مجلس صحة يرأسه مفتش صحة وطبيب له سلطة تامة على المديريات والافراد ويلقنون الطفل في المدرسة مبادئ حفظ الصحة فيجد فيها التلميذ حمامات ورشاشات (دوش) . وجميع الامة تعتقد بتأثير المكتشفات العلمية والطبية وكلها تقوم بالواجب

في اي مكان كان والناس يقومون احسن قيام بالتدابير الصحية دون ان يتأففوا او يحاولوا التملص منها . وقد كان معدل الوفيات في اسوج ٧و١٧ في الالف سنة ١٨٨١ فنزل سنة ١٩٠٦ الى ٣ و١٤ ومعدل وفيات الاطفال ٧و١١٢ في الالف فنزل الى ٨٣ وكان عدد سكان اسوج سنة ١٨٨١ —٤٥٧٢٢٤٥ فاصبح سنة ١٩٠٦ ٥٣٢٧٠٥٥ . وكان معدل الوفيات في نروج ١٦ في الالف سنة ١٨٨٠ ووفيات الاطفال ٩و٩٥ فنزل سنة ١٩٠٦ الى ٥و١٣ في الالف و٤و٦٩ في الاطفال وبعد ان كان عدد سكانها سنة ١٨٨٠ —١٩٠٨٥١٢ اصبحوا سنة ١٩٠٦ —٢٢٩٦٣٠٠ كل ذلك بالمحافظة على الصحة على ما يوجبه الشرع والعقل .

العطورات والاخلاق

جاء في احدى المجلات الافرنجية : الظاهر انه تمكن معرفة اخلاق الناس من الطيوب التي يستعملونها حتى اصبح الآن من القواعد النفسية الجديدة قولهم : قل لي كيف تتطيب حتى اقول لك من انت كما قالوا قل لي من تعاشر لاقول لك من انت كلما قوي الشعور في الاعصاب الشامة كانت طبيعة المرء مهجة وعقله حصيفاً ولطيفاً فروائح الطيب المندي والرائحة المعروفة برائحة قبرص وجلد اسبانيا وكلها مما لايحمد امره لان مستعمليها يكونون من ارباب التأثر والهذر والرفاهية يصابون بكسل مزمن في عقولهم ويميلون الى الاسراف ويستعدون للسمن . اما المولعون بعطر المسك فهم من فطرة احط من اولئك ايضاً ويعرفون بالبلادة والتوحش على ان استعمال عطر المسك مع عطر آخر يدل على عقل راق . وفي العادة ان المولعين بعطر البنفسج من المستنيرين الذين يحبون الجمال على اختلاف مظاهره ولكن من يستعملون ماء الكولونيا يفوقون غيرهم بحكمتهم ووفرة فضائلهم . و يصعب اعطاء صفة لمستعملي عطر الكوريلبسيس الياباني لان طبائعهم غريبة يجمعون الى حب الغرائب فطرة خبيثة قد تكون نائمة في نفوسهم فلا تلبث ان تنبعث في حالة غير منتظرة وتظهر متجلية كالشمس في رابعة النهار .

هبات الاميركيين

بلغ ما جادت به نفوس المحسنين واغنياء الاميركان منذ الحرب الاهلية حتى الساعة بليون ريال على اقل تعديل جادوا بها على اقامة المدارس والمكاتب والمستشفيات وغيرها من الاعمال العلمية والخيرية العامة . ومن اوائل المحسنين المستر سلاتير وهب

مليون ريال لتهذيب الزنوج والمستر بيبادي وهب كثيراً من ماله فمنح دفعة واحدة خمسة ملايين ريال لتصرف في سبيل التعليم . ومن محسنيهم المستر ليلاندستانفورد انشأ جامعة كبيرة فمنحها دفعة واحدة عشرين مليون ريال . ومن محسنيهم او محسناتهم مسز اليتصابات اندرسون ومسز رسل ساج ومنهم مورغان وكارنجي وروكفلر فهبات الاول مكتومة وان كان يعرف منها الشيء الكثير وبلغت هبات الثاني مئة مليون ريال وهو عاقد العزم ان يوزع ثروته البالغة ثلاثمائة مليون في الاعمال التي يعود نفعها على مجموع امته وجاوزت هبات الثالث مائتي مليون ريال . يجودون باموالهم التي اكتسبوها في الغالب من التجارة والاقتصاد من الامة التي كان بعض افرادها خداماً لهم واعواناً على اثرائهم وذلك على طريقة لا تدخل الكسل على الناس بل على العكس تدعوهم الى اقتفاء آثارهم و الائتمام بهديهم ولطالما سمعنا ان فلاناً يجود بمبلغ كذا اذا جاد الناس بمثله فلا يلبث المبلغ المطلوب ان يجمع فيندفع الكريم ماله راضياً . ولو جمع ما جاد به هؤلاء الاغنياء وامثالهم على المعاهد العلمية والصحية فقط خلال الاربعين سنة الاخيرة لابتيع به ممالك كبرى من ممالك الشرق ولاحتقر الشرقي نفسه وامته ونعى فقرها المدقع وجهلها المطبق .

كليات ايطاليا

نشرت مجلة التعليم الدولية احصاء بكليات ايطاليا السبع عشرة وما فيها من الطلبة فكان مجموع من في كلية نابلي ٥٨٥٦ طالباً منهم من يدرسون العلوم ومنهم الطب وبعضهم الصيدلة وفي كلية رومية ٣٠٦٩ وفي تورين ٢٠٨٣ وفي بولونيا ١٦٩٥ وفي بافيا ١٣٦٠ وفي بادو ١٢٩٩ وفي بيز ١١٨٦ وفي بالرمة ١٣١١ وفي جنين ١٠٩٥ وفي كاتان ٨٤٢ وفي بارم ٥٣٢ وفي مودين ٤٣١ وفي ماسراتا ٣٥٦ وفي كاكلياري ٢٤٥ وفي سين ٢٤٠ وفي ساساري ١٩٨ واذا اضفنا الى هؤلاء التلامذة مجموع ما في الكليات الحرة وهي كامارينو وفرار وبروز واوربن يبلغ مجموع الطلبة في الكليات الايطالية ٢٤٦٤٤ منهم ٤٣٥٦ في الطب و٣٣٢٢ في العلوم و٢٢٧١ في الصيدلة .

الامويون والعباسيون

القى رفيق بك العظم خطبة في نادي دار العلوم في القاهرة في اسباب سقوط الدولة الاموية والعباسية قال فيها : كان الامويون شديدي الحذر من آل علي كما

ذكرنا وكان هؤلاء بعد نكبتهم في خلافة يزيد قليلي الجرأة عَلَى الظهور لشدة العمال عليهم ومراقبتهم لحركاتهم وسكناتهم ولان الخلفاء من بني امية كانوا مع شدة حذرهم منهم يراعون مكانتهم ويحسنون اليهم فلم ينزع احد منهم الى الخروج عليهم لضعفهم الاّ زيد بن علي فقد خرج في خلافة هشام فقتل في الكوفة وقتل ابنه يحيى في خراسان اما تسميم ابي هاشم فقد كان بامر سليمان بن عبد الملك لانه خاف جانبه لما رأى فيه من النجابة والذكاء .

وربما كان هناك سبب آخر لضعف آل علي من بني فاطمة وهو أن الذين بقوا منهم احياء بعد نكبتهم في كربلاء كانوا اطفالاً لا يصلحون لقيادة النـاس فالتف الشيعة حول محمد بن عَلَي المعروف بابن الحنفية من غير ولد فاطمة وهكذا ساقوا الامامة في بنيه من بعده كما ساقها غيرهم الى بني فاطمة ايضاً وانتقلت من ثم الى ابي هاشم الى بني العباس .

لاجرم ان سليمان بن عبد الملك جنى عَلَى دولته بقتل ابي هاشم لان آل علي كانوا لشدة ما عانوا من المراقبة والاضطهاد شديدي الحذر بطيئي الخطى في الوثوب عَلَى الخلافة الاموية والظهور لمنازعة الامويين عليها فتلقى العهد بها آل العباس وهم بعيدون عن سوء الظن والمراقبة لم يعانوا مشاق الدعوة ولم يذوقوا طعم الاضطهاد فيخافون الوقوع فيه : ولذا ما لبث ان عهد الى محمد بن علي بالامر حتى نهضوا باعباء الدعوة بجرأة عظيمة وكان لابراهيم بعد موت اخيه محمد ما كان مع ابي مسلم بتفويض امر الزعامة اليه وقيام هذا ببث الدعوة احسن قيام حتى استفحل امرها وظهرت عَلَى خصومها .

احس الامويون بهذا الخطر السريع فبادروا ابراهيم الامام بالقتل فنهض ابو العباس السفاح بعد قتل اخيه ابراهيم وعاجل الامويين بالوثوب عليهم قبل ان يدب الفشل في اهله وشيعته منتهزاً فرصة وقوع الشقاق بين الاخوة وابناء الأعمام من آل مروان. وتلظي المملكة الاموية بنار الفتن وظفر بما اراد وقضى عَلَى دولة الامويين في المشرق فذهبت كأن لم تكن بالامس .

عَلَى ان ظفر العباسيين عَلَى هذا الوجه وبهذه السرعة له بواعث واسباب اخرى كاختلال نظام الدولة وغيره ارى ان الم بها عَلَى قدر ما يمكنني من الاختصار .

تعلمون ان الدولة تموت برجل وتحيا بآخر وان الرجال في الدول قليل والدولة

الاموية لما فقدت رجالها فقدت جانباً عظيماً من قوتها واعني باولئك الرجال الرجال المخلصين الذين يخدمون الدولة بمنتهى الصداقة بقطع النظر عما ينسب الى افراد منهم من القسوة فيتهمونهم من اجل ذلك بالظلم اذ الرجال يصطبغون بصبغة الدولة و يتشكلون بشكلها والدوله الاموية لما كانت دولة مطلقة لزم ان يسير عمالها عَلَى سننها ٠

من رجال الدولة الاموية المخلصين٠ موسى بن نصير٠ والحجاج بن يوسف٠ وخالد ابن عبدالله القسري٠ و يزيد بن المهلب٠ وقتيبة بن مسلم واضرابهم ومن خطاء الخلفاء الامويين انهم لم ينصفوا امثال هؤلاء الرجال فاحرجوا من احرجوه منهم حتى اخرجوه فقتلوه كخالد بن عبدالله وقتيبة بن مسلم و يزيد بن المهلب الذين ذهبوا ضحايا سوء التفاهم٠ وموسى بن نصير الذي زج به في السجن في نظير فتحه الاندلس ومات اقبح ميتة ففقدت الدولة بفقد هؤلاء الرجال وامثالهم جانباً لا يقدر من قوتها واخذت تنحط من ثم هيبتها اما الحجاج فموته في الحقيقة مبدأ افول نجم الدولة الاموية لانه كان يدها التي بها تضرب وعينها التي بها تبصر فانه بعد ان اخمد لهم فتنة ابن الزبير كان والياً عَلَى الكوفة واليه ولاية خراسان وكلا المكانين عش الفتنة ومنبع الدعوة الامامية ومع هذا فقد ضبط البلاد وارهب ببطشه المنازعين للدولة والنازعين الى الشغب٠ واحسن في انتقاء العمال والقواد فامتد ملك الامويين عَلَى عهده الى كابل من بلاد الافغان شرقاً والتركستان الصينية شمالا ولو وجد بعده من يخلص من الولاة للدولة اخلاصه و يكون في مثل حزمه وعزمه لطال عمر الدولة الاموية بلا ريب٠

ولعل نوابغ الرجال يكثرون في مبدإ نشوء الدولة وان كانت هذه النظرية تحتاج الى تمحيص٠

ومما ساعد ايضاً عَلَى اختلال نظام الدولة الاموية تباعد اطراف المملكة بما صار اليهم من الفتح الى عهد هشام بن عبد الملك اذ اتسعت دائرة ملكهم الى ما لم تبلغه قبلهم غير دولة الرومان٠

فما بين النهرين المعروف بالجزيرة وايران وقسم من الافغان والتركستان والتبت والقوقاس وارمينيا وشبه جزيرة العرب وسورية ومصر والمغرب والاندلس كل هذه الممالك دخلت في حوزتهم واصبحت خاضعة لسلطانهم٠ وضبط مثل هذا الملك المترامي الاطراف مع صعوبة المسالك والمواصلات لذلك العهد متعذر جداً ولاسيا عَلَى امة حديثة عهد في سياسة الامم٠ ولذا فقد كانت الفتنة في طرف من اطراف

المملكة بين الجنود والامراء المتنازعين عَلَى الولاية وتنتهي بقتل وال وقيام غيره وربما انتهت بغلبة المشاغب او المتنازع وضم البلاد الى حوزته واستقلاله بالولاية عليها دونه وفصلها عن جسم الدولة والخليفة لا يعلم ذلك اولا تصل قدرته الى اخماد نار الفتنة في تلك البلاد النائية ٠

مثاله ما وقع في المغرب في خلافة الوليد بن يزيد سنة سبع وعشرين ومائة اذ تنازع عبد الرحمن بن حبيب من ولد عقبة بن نافع الفهري فاتح افريقيا مع حنظلة بن صفوان والي افريقيا فكانت الغلبة للاول واستأثر بالسلطة عَلَى البلاد وبقيت افريقيا مستقلة عن الخلافه الاموية حتى قيام الدولة العباسية ٠

ومثل هذا وقع في الاندلس وفي بعض الاطراف السحيقة ولا يخفى ما في هذا من الوهن والخطر عَلَى المملكة ٠

ثم ان من الامور الثابتة في الاجتماع ان الدول الحربية الفاتحة لا تزال في افق مجدها ما دامت عَلَى جانب الخشونة وما دام الراعي والرعية مترفعين عن الانغماس في الترف والاستغراق في ملاذ الحضارة ٠ وقد عرفنا هذا في كثير من الدول البائدة كدولة اليونان وخلفاء دارا والاسكندر (اي البطالسة) والرومان حتى لقد قال مونتسكيو في تاريخه اسباب صعود الرومان وهبوطهم : ان دخول الرومانيين الى الشام كان مبدأ ضعفهم بسبب ما كان متسلطاً عَلَى اهلها وملوكها من الرخاوة والترف ٠

والدولة الاموية انما هلكت في نفس تلك البيئة التي هلك بها الرومان من قبل وبعد ان حافظت عَلَى خشونتها الاولى الى خلافة هشام بدأت في خلافة الوليد بن يزيد المعروف بالتهتك تنحط عن خشونتها التي عرفت بها واخذ الخلفاء من ثم يميلون الى الترف والراحة والاستغراق في الملاذ تبعاً لاحوال البيئة التي نشأوا فيها وهذا بالضرورة كان من الاسباب التي عجلت عَلَى دولتهم يضاف اليه انقسام العرب في خراسان التي هي منبع الدعوة العلوية والعباسية الى مضرية ويمانية وتنازع رؤسائهم عَلَى الولاية في ابان استفحال الدعوة ٠

مثاله ما وقع بين الحارث بن سريج والكرماني وبين هذا وقحطبة وبينهما وبين نصر ابن سيار حتى ملت نفوس العرب هذه الحال وسئمت ممارسة الحرب ورأوا انفسهم اتباع ضحايا القحطان وعدنان تزهق في سبيل المتنازعين عَلَى الخلافة من قريش حتى قال قائلهم :

تولت قريش لذة العيش واتقت ... بنا كل فج من خراسان اغبرا

فليت قريشاً اصبحوا ذات ليلة   يعومون في لج من البحر اخضرا

لاجرم ان الذي بث روح الشقاق بين العرب في خراسان انما هم اهل الدعوة الهاشمية من علويين وعباسيين والذي انجح قصد ابي مسلم في نشر الدعوة العباسية وقلب الدولة الاموية تواطؤ سكان البلاد الاصليين عَلَى قهر الامويين وفل عصبيتهم العربية وقد عرف ابراهيم الامام منازع الفرس وعلم ان دولته تقوم بغير العرب من الناقين منهم وان العرب شديدو العصبية للامويين لاصطباغهم بالصبغة العربية الخالصة فكتب فيما كتب الى ابي مسلم ان لا يبقي عَلَى عربي في خراسان ان استطاع فجعل رجال الدعوة يضربون العرب بعضهم ببعض لان قسماً كبيراً منهم ممن نقم من الامويين قبل الدعوة وصار من القائمين بها العاملين عَلَى تشييد دعائمها تعبداً واعتقاداً ·

هكذا اثمر الغرس الديني الذي غرسه قبل ذلك بقرن ابن سبأ واضرابه من الموالي الناقين من الدولة السائدة واستحال عَلَى العرب في المشرق استبقاء السلطة خالصة لهم دون الامم الاخرى المحكومة منهم وقد جرت سنة الوجود هذا المجرى في كثير من الامم من قبل ·

قال مونتسكيو : اقتضت الحكمة الالهية ان يكون للممالك حدود طبيعية تمسك باعثة الملوك عن تجاوز هذه الحدود وتعدي بعضهم عَلَى بعض ولما تجاوز هذه الحدود الرومانيون اهلكهم البرث اي قدماء الفرس و بددوا شملهم ولما تجاوزها البرث انفسهم اضطروا لاول امرهم للرجوع الى اراضيهم ·

واقول ان العرب اصيبوا بما اصيب به الرومان والبرث وطبائع الاجتماع تعذر اولئك الاقوام عَلَى ما فعلوه مع العرب وحسب العرب ان نشروا بينهم دين الاسلام فلا مؤاخذة ولا ملام ولا سيما ان الاسلام يرمي بطبيعته الى محو الحدود السياسية والجنسية بين الشعوب كما ترمي الى مثل هذا مبادئ جماعات السوسيالست او الاشتراكيين او الاجتماعيين لهذا العهد ·

ورب قائل يقول ان هذا الانقلاب اي انقلاب الدولة الاموية الى عباسية لم تكن نتيجته كلها كما يريد اولئك الاقوام المغلوبون للعرب اذ دولة الامويين عربية قرشية ودولة العباسيين ليست كذلك ·

الجواب عَلَى هذا يأتي من وجهين · الوجه الاول · ان امم المشرق لذلك العهد قلما كانت تقدر قيمة الحرية الكاملة لفنائها في وجود زعماء الاجتماع الشرقي او كما قال

مونتسكيو ان امم آسيا لم يكن ميلهم الى الحرية كميل امم اوربا اليها اليوم اي لعهده ٤ ليحملهم عَلَى الخروج من الاسر والاستعباد وانما كان ميلهم الى تغيير الملك ولا صبر لهم عَلَى بقائه طويلاً

وسواء صحت هذه النظرية او لم تصح فانه يجوز لنا تطبيقها عَلَى الامم التي دخلت تحت حكم العرب لذلك العهد باعتبار ان الاسلام جمع بينهم جميعاً فلا فرق عند الفرس وغيرهم ان يكون الخليفة او الملك عربياً او غير عربي ما دام الملك آئلاً الى غير الدولة التي نقموا منها وما دام مصير اكثر السلطة اليهم بعد فل حد العصبية العربية التي كانت قائمة في دولة الامويين متسلطة بقوتها عَلَى كل شيء

وقد كان ما ارادوه بقيام الدولة العباسية التي لم يكن لها من العربية الا الاسم وهي مصطبغة بالصبغة الاعجمية مشتبكة مع العناصر الاخرى بالنسب والصهر مشاركة لهم بمصالح الدولة

هذا الوجه الاول اما الوجه الثاني فانتظار النتيجة الطبيعية لمثل هذا الانقلاب ولو في المستقبل البعيد وتلك النتيجة هي ان اصطباغ الدولة او الامة السائدة بصبغة اهل البلاد يحيلها مع الزمن الى عنصر هذه الصبغة والعكس بالعكس اذ من الشعوب من اصطبغوا بصبغة العرب بعد الفتح فاندمجوا فيهم ومن الشعوب من اصطبغ العرب بصبغتهم فاندمج هؤلاء فيهم وهذا ما وقع لسكان آسيا الوسطى بعد قيام الدولة العباسية ثم سقوطها وقيام غيرها من الحكومات الوطنية عَلَى انقاضها وهكذا رأينا دولة الفرس وغيرها من الدول الاسلامية ديناً المختلفة جنساً قد عادت الى اصلها وهي قائمة الى الآن وستبقى قائمة عزيزة الجانب منيعة الجناب الى الابد ان شاء الله

وهكذا نرى الخلافة الاسلامية التي سالت من اجلها او باسمها تلك الدماء الغزيرة صارت الى غير العرب اليوم وفي دولة هي اعز دول الاسلام مكاناً واجدرها بحفظ بيضة الخلافة ولم يمنع الدين ان تكون اليها الخلافة كما لم يمنع ان تكون فيمن يقع عليه اختيار الامة ورضاها في عهد الصحابة الكرام ولو من غير بني هاشم والتاريخ يعيد نفسه

اما ما يقوله بعض المؤرخين من ظلم الدولة الاموية ويعزى اليه دمارها فمبالغ فيه وما كان منه صحيحاً فهو في نظري ثانوي بالنسبة للاسباب التي ذكرتها وتكاد تكون نتائجها طبيعية وليس من دولة في الارض قائمة بالعدل المحض حتى الدول المقيدة ناهيك بالمطلقة

ومن قال ان دولة الامويين كانت ظالمة وان ظلمها هو الذي جر عليها الدمار فجاهل باحوال الاجتماع او متعصب لدولة اخرى ولو طواب بالدليل عَلَى ان الدول التي قامت دولة الامويين عَلَى انقاضها كالفرس والروم والغوط وغيرهم كانت اعدل منها لما استطاع اليه سبيلاً

والحقيقة ان الخلفاء الامويين كانوا اشداء عَلَى خصومهم دون سائر الناس وكانوا في منزلة من العناية بالرعية والاهتمام بالعدل بين الناس فوق منزلة كثير من الحكومات المطلقة وحسبك ان اشدهم قسوة وهو عبد الملك بن مروان استهل وصيته لابنه الوليد حين الاحتضار بقوله : يا وليد اتق الله فيمن اخلفك فيهم . والشواهد عَلَى مثل هذا كثيرة لا يسعها المقام وحسب تلك الدولة فضلاً فتوحها العظيمة التي سودت دين العرب ولسانهم عَلَى احسن اجزاء المعمور الى اليوم وتلك الايام نداولها بين الناس اهـ .

التماسيح المقدسة

اعتاد بعض الآسياويين ان يعبدوا بعض الحيوانات المفترسة معتقدين انها تحفظ في جسمها ارواح من افترست . وما زال هذا المعتقد شائعاً في الهند وفي شبه جزيرة مالقة . والزحافات في الاكثر هي التي تعبد من دون سائر الحيوانات ولا سيما اذا كانت طويلة كالتماسيح المقدسة التي تعيش في الاقاليم ذات البطائح ولكثرة اختلاف الناس الى زيارتها تأنس بهم وتعتاد الخروج من الماء اذا ناداها الكاهن بدون ان تذعر فيناولها قطعة من اللحم وتبدي الدلال والتجني والناس مجتمعون عليها وربما رسموا عليها صوراً ورسوماً . وعند قيل راجبوتانا في الهند عدة تماسيح مقدسة يربيها في قصره وقد انشأ لها غديراً كبيراً تشرب منه وتتمدد فيه ومئات من الهنود يأتون الى زيارتها كل يوم ويتبركون بها .

توابع الكثلكة

وضع يوسف كاب الفرنسيسكاني تقريراً في حالة المؤمنين بالمذهب الكاثوليكي وغير المؤمنين به فقال انه يقل القائلون بمذهب كنيسة رومية منذ سبعين سنة وان جماعتها لا يخرجون من دينهم علناً بل لا يهتمون لاوامره ونواهيه فكأنهم بذلك خرجوا ضمناً وان لم يخرجوا علناً . واكد ان من ضعف ايمانهم هم خمسة ملايين نسمة في المانيا واربعة في النمسا والمجر وخمسمائة وخمسون الفاً في اوستراليا ومليونان ونصف في البلجيك وسبعمائة الف في كندا واربعة ملايين ونصف في اسبانيا والبرتقال

واربعة عشر مليوناً في الولايات المتحدة وثمانية ملايين في اميركا الجنوبية وثلاثة وعشرون مليوناً في فرنسا ومليونان وربع في بريطانيا العظمى وستة ملايين في ايطاليا وثلثمائة الف في بلاد القاع · هولاندة · وستة ملايين ونصف في روسيا ونصف مليون في سويسرا اي ان المنجلين من الكثلكة بلغوا ثمانين مليوناً من اصل مائتي مليون ·

المضغ

سأل احدهم الوزير غلادستون وهو في الثامنة والثمانين من عمره ما هو سر طول حياتك فقال له : « انني امضغ مضغاً جيداً كل ما اتناوله من الطعام » وجودة المضغ في الحقيقة من الشروط الجوهرية في الهضم وبدونها يختل نظام الصحة · وليس المصابون بسوء الهضم في العادة الا اكولين اعتادوا ان يقطعوا الاطعمة ويبلعوها بدون سحقها باضراسهم سحقاً كافياً وما خلقت اضراسهم الا لتمضغ الطعام فيتعبون معدهم ويوسدون لها عملاً ليس من شأنها فيعرضونها للتمرد والامساك والتهاب الاحشاء وهي اسباب الالم فينبغي لهم من ثم ان لا يلوموا فيه الا انفسهم · فتعلم اجادة المضغ من الضروريات للعالم اجمع ومن لا يمضغ يسيء الهضم ومن يسوء هضمه يعرض نفسه للمخاطر · وللمضغ قواعد اولاً الثاني فبدلاً من ان يقضم الطعام قضماً ويخضمه فيجعل لقمة واحدة بحسب الاقلال منه وتجزئته اجزاء صغرى ماامكن وتخميره وتليينه باللعاب واحالته كتلة تجول على اللسان بحيث يسوغ بلعه بدون جهد · وهذا من العادات التي يجب اتباعها وهي لا تتوقف الا على قليل من العناء بادي بدء وشيء من الانتباه حتى لا ينسى الآكل ما هو آخذ بسبيله ·

وقد قال غلادستون ايضاً : « تكلم قليلاً خلال الطعام او حافظ على السكوت كل المحافظة وعدّ بروية عدد المضغات وهي تختلف باختلاف الاطعمة ولا تبلع الا بعد هرس الطعام هرساً شديداً بحيث لا تحرك ماضغيك فقط بل شفتيك وخديك واذا بدأت تحدق النظر في ساعتك وامعن نظرك في الابرة التي تدل على الثواني · وبعد بضعة ايام تعتاد هذه الطريقة التي يجب عليك المحافظة عليها كل المحافظة »

وقصارى القول ان الواجب احالة الطعام الى حساء اذا مزج باللعاب تخدا جزاؤه وهذه افضل طريقة لمعرفة ما يتناوله المرء ويذوقه · ومن المعلوم انه يجب بذل العناية عادة المضغ بتناول ما يوافق المعدة من الاطعمة فلا يؤخذ منها الصلب وما يصعب

خضمه وقضمه والاحسن اختيار اللحوم والبقول الطرية . وما المعدة الا خادمة امينة اذا لم تكلف شططاً وما يكون منافياً للصحة وكم من اناس يعبثون بمعدهم باكراهها واضرارها . وقد اصدر الحكام المسيطرون عَلَى مراقبة المدارس الاميركية امراً يوعزون به للعلمين والمعلمات في المدارس ان يعلموا الاولاد كيفية الاكل ولا يغفلوا عنهم خلال المائدة وان لايسمحوا لهم بالحياد عن قوانين الصحة وان يضطروهم الى اجادة المضغ وهذه من افضل الطرق التي يجب على المدارس والبيوت ان تحافظ عليها .

كتب التبت المقدسة

اوسع الكتب المقدسة هي عَلَى التحقيق كتاب اهل التبت فانه بلغ ٣٢٥ مجلداً والتبت دانت بالبوذية التي اتتها من شمالي الهند نحو القرن السابع للميلاد فترجم علماء التبت في مئة مجلد كتاب ماهايانا المقدس ثم اضيفت اليه الشروح والحواشي عَلَى العادة في خدمة الكتب المقدسة حتى بلغ ٣٢٥ مجلداً وفي كل من مكتبة الامة بباريز ومكتبة بطرسبرج ومكتبة لندرا نسخة من هذا الكتاب .

الاسلام في المانيا

انشأت البعثة الشرقية الالمانية في بوتسدام مدرسة دينية لدرس دين الاسلام خاصة وسيكون موضوع المحاضرات التي ستلقى هذه السنة في المدرسة على اللغة العربية والفارسية والتركية وفي القرآن والفقه واصول الشعوب الاسلامية في السياسة وفي الاسلام والشرق القديم وقد اختارت المدرسة ثلاثة من المشايخ لتدريس هؤلاء المستشرقين ما يلزمهم من اصول اللغة والدين .

نقود الورق

بلغت نقود الورق التي يتعامل بها في الولايات المتحدة ٢٬٤٤٢٬٠٣٤١ دولاراً منها ماقيمته عشرة ريالات ومنها خمسة ومنها عشرون ومنها الف ريال ومنها عشرة آلاف ريال وهي اكبر ورقة وقد ضاع او تمزق من هذه الاوراق النقدية ما قيمته مليون دولار .

صحة الاطفال

قالت مجلة الكورسبوندان : رأت نيويورك منذ عشر سنين ان معدل وفيات الاطفال فيها ٢١٤ في الالف فوفرت العناية بالصحة حتى نزل معدلهم اليوم الى ١٤٤ اي الى نحو الثلث وقد عمدوا الى طرق ثلاثة في هذا الشأن اولها اختيار اللبن الجيد

الطاهر وتنزيه المرضعات في الهواء الطلق والخلاء ومراقبة الحبالى من النساء فكانوا يأخذون المرضعات من البيوت الضيقة القذرة في تلك العاصمة حيث تزدحم اقدام السكان من الفقراء وتضيق بها انفاسهم ويبعثون بهن الى الضواحي ولا سيما الى ضفاف نهر المودسون والنهر الشرقي والى مستشفيات الساحل ومراكب المستشفيات التي تطوف البحار وتنزه المرضعات والامهات ويعلمنهن مدة تجوالهن دروساً في صحة الاولاد ومتى شعرت ادارة الصحة بان امرأة حامل تحملهن على العناية بصحتهن وعلى الاهتمام بها وذلك قبل ان يضعن حملهن بستة اشهر ٠

المنتحرون

بلغ عدد المنتحرين في المانيا منذ تأسيس الامبراطورية الالمانية الى اليوم ٣٨٠ الفاً وقد كثر عدد المنتحرين سنة ١٩٠٧ فكانوا ٩٧٥٣ رجلاً و ٣٠٢٤ امرأة ٠ وفي كل مئة الف من اهل فرنسا ينتحر ٢٣،٨ وفي المئة الف في سويسرا ينتحر ٢٢،٨ ثم تجيء الدانيمرك ٢٢ والمانيا ٢٠،٢ ثم تأتي بريطانيا العظمى وسائر ممالك اوربا بقلة المنتحرين فيها وفي اليابان ينتحر ١٧،٩ في كل مئة الف اما بلاد النروج فمعدل المنتحرين فيها ٥،٥ في المئة الف وهي اكثر البلاد ميلاً الى الدعة وقلة القنوط ٠

التربية والدين

تساءلت احدى المجلات العلمية عن كيفية تربية الولد على مبادئ الدين او تركه غفلاً منها واستشهدت على ذلك باقوال المفكرين وعلماء الاخلاق والتربية فقد فضل الفيلسوف تولستوي ان ينشأ الولد على الجهل بتلقينه الدين كما هو الحالة الآن على ان يعلم ديناً مملوءاً بالاكاذيب قال اننا لا نلاحظ هذا الغلط بل ان الاولاد يشعرون به وهذا التعليم يشوش الفكر وقال البين كي بحذف الدين من المدرسة ولكن يجب على الوالدين العقلاء ان يشرحوا لاولادهم التوراة والانجيل وذهب كارل رونجر مذهب روسو في ان الواجب عدم ذكر الله للاولاد حتى اذا شب يصبح مسيحياً حقيقياً واوصى كويوبان يلتزم الآباء الامتناع عن الاسئلة الدينية ويعلمون ان كل مايحبون الاطلاع عليه من مختلف المعتقدات وينبغي للآباء ان لا يحاذروا اذا سألهم ابناؤهم اسئلة لا يعرفون جوابها ان يقولوا لا ندري لان نصف العلم لا ادري ٠

التربية العقلية

اتفقت الآراء عَلَى ان الواجب تلقين الطفل مبادئ التربية الطبيعية بتقوية عضلاته والسهر عَلَى صحته ونشاطه وتهذيب اخلاقه وتربية عقله وانارته . ووقع الاختلاف بين علماء التربية ففريق يقول ان تربية العقل عبارة عن انارة الفكر وتحسين الذوق وتلقين الادب وحب الجمال والشكل . وآخر يقول بان الواجب تهيئته لعلم واسع ومعرفة صحيحة . ويقول بعضهم ان الواجب تنمية ذكائه . علي ان الذكاء ليس مما ينال بالتعمد وتنشأ قواه بالاسباب بل يتكوَّن من دون ان يبحث عنه ويقصد بالذات مباشرة فينشأ من اسباب عديدة ومن الانتخاب الطبيعي الذي يحيا به الاشخاص المستعدون ومن عمل كل فرد لما يضمن له بقاءه ويحسن عيشه ومن بواعث الحياة الاجتماعية التي تتزايد اليوم بعد اليوم وتتنوع اساليبها . فالولد يبحث من نفسه عما يحصله من المقدمات لعقله فيعرف الاشياء بدون ان يحتاج الى تعريفها له ويفكر ويتأمل من تلقاء نفسه بدون ان نضطر الى ان نحثه عَلَى ذلك ويشرع بنفسه في توخي الطرق الى التخلص من مآزق الحياة فتراه اذا فرغ من درسه في المدرسة يعقد له صلات عديدة مع غيره ويبحث في الشؤون بذاته ويهتم بما يجري حواليه وينصت لاحاديث المسنين اكثر منه ويشاركهم في موضوعاتهم ويغتنم كل فرصة ليعد عقله وفكره . واحاديث الأسرات عَلَى المائدة وما يتبادل فيها من الافكار بين اهل البيت ويطرق فيها من مختلف الموضوعات في ساعات الفراغ اكثر فائدة لعقل الطفل من كل مايتمرن عليه في المدرسة . فيا سعادة من يكبر في بيئة ذكية وينمو عقله فيها بذاته بمجرد اشتراكه بالحياة العامة وبهذا ثبت معنا ان لاتربية تقوم مقام التربية التي يراها الطفل خارج المدرسة مما يفتح ذهنه ويعوده النظر والبحث والنشاط ويمني ذهنه بما يتوفر عليه من تمرينه المتواصل فيما يحتاج اليه في حياته ونعني به الذهن العملي .

لاجرم ان تربية الاولاد في المدارس الداخلية لاتخلو من عيوب تتعذر ملافاتها فهي نافعة في تنظيم العمل ومعودة للطفل عَلَى الصبر في مضمار الدرس ولكنها لاتفيد الا فيما ينتج جمع المعارف اما اذا كان يطلب منها اعداد ذكاء الاطفال ليحسن به الانتفاع فطلب باطل لما عرف من الفروق بين وجوه الاولاد الداخليين والاولاد الخارجيين

في المدارس فسحنة الولد الخارجي اكثر انتباهاً ونظره ابعد مرمى واذا قلّ عمله ودرسه بالنسبة للتلميذ الداخلي فهو انجح في التمارين التي تطلب ذهناً صافياً وعقلا حاضراً حتى اذا انجز دروسه زمان الدراسة ودخل معترك الحياة يجد نفسه اكثر ملاءمة معها فلا يثقل عليه الجهاد فيها لانه كان اقرب اليها ولم ينفصل عنها كما انفصل تربه الداخلي الذي يكون قضى وقته في حياة صناعية او مصنعة منعزلاً عن الناس بعيداً عن المجتمع اللهم الا اجتماعه مع اولاد من سنه فكيف بعد هذا يهتم بحوادث الحياة الخارجية وبحركة الافكار وبالوقائع العظيمة التي تجري في العالم وتضطر العقول مهما بلغ من اهمالها ان تفكر وتدبر ٠

لا يكاد يصل الى التلميذ الداخلي من حوادث الكون الا المبهم الغامض وما من يحدثه بما يجري في القرب والبعد واني لاعرف تلميذاً داخلياً أخبر ذات يوم ان روسيا تحارب اليابان منذ اشهر فلم يدهش لهذا الخبر وبذلك تبين لعلماء التربية ان حياة المدارس الداخلية بما فيها من عزلة العقل تخدر قواه واذا قدر لها ان تتمرن ففي ميدان ضيق جداً واعني بها دروس المدرسة فقط ومن اجل هذا نقرأ في وجهه ضرباً من البلاهة ومثال الملل الذي لا يعلل والاهمال وقلة الاهتمام الذي يدخل في حياته نقصاً ومن الاسف ان ذلك اكثر فشواً في الطلبة العاملين منه في الطلبة الخاملين وفي المأخوذين بدروسهم منه في المتساهلين بها فهم الذين يبوءُون بسيئات المدارس الداخلية ٠ اما المضار الادبية الناشئة من تربية الاولاد في المدارس الداخلية فمقررة عند علماء التربية فتربية الطفل في المدارس الخارجية هي التي يأخذ منها رأس ماله العقلي وذكاءه العملي الذي لا يتكون الا بدروس الحياة نفسها وما عدا ذلك فباطل ومضر اذا لم يلاحظ ذلك اولاً فالنظر لا يفيد كالعمل بحال ٠

يحتاج الطفل الى معارف حية لاليطبقها وينتفع بتطبيقها بل ليتهذب بها فالجهل المطلق في الامور يؤدي الى البلاهة لان الذهن لا يشتغل في باطل لاطائل تحته فالواجب تغذيته اذا أُريد تشغيله والذهن لا يتحرك الا بحوادث تعرض له ومبادئ يتلقاها ولا يتيسر له اتساع العقل اذا لم يكن لديه شيء من المعارف يستعمله وكلما اتسع امامه ما يترامى الى سمعه تنمو قوى عقله ٠ فالمعرفة حسنة في ذاتها وهي لا تنمو الا على هذه الصورة ٠ نعم ان من الحوادث مالا خطر له وهو من العقم على جانب ولا غناء فيها لسامعيها ولذلك ليس فيها كبير امر لاعمال الفكر والحوادث الغريبة ذات المعنى المهمة

في ذاتها والوقائع التي تبعث العقل عَلَى التفكر هي التي يستفيد منها العقل وتقع عَلَى التصور وتهز الفكر الى الحركة · وبديهي ان درس الحوادث التاريخية العظيمة هي اكثر اشغالاً للفكر من الحوادث الصغيرة في التاريخ الادبي ولا شبه بين المادة العقلية التي تستخرج من معرفة قاعدة نحوية وبين المادة التي تؤخذ بدراسة قانون الجاذبية · ولقد لاحظ كويو ان من المعارف ماهو باطل متعب للذهن اذا دخلت اليه تحدث فيه فراغاً ولا تملأه بشيء

فالواجب في مثل هذه الحال ان يترك الطفل منذ نعومة اظفاره يستمتع بشيء من ارادته ليمكن نموها بالتدريج ويجب ان لا يلاحظ الدرس عَلَى الدوام ويفرض عَلَى الدارسين حتماً · فقد قيل ان لاشيء يعادل البحث الشخصي للوقوف عَلَى الاشياء · فالمرء يحفظ ماوقع نظره عليه اكثر من غيره وما نظر اليه بعناية لان ما اكتشفه بذاته يشعر به غالباً فالتمرين عَلَى الملاحظة الشخصية هو من الاسف مما يصعب في المدارس · يجب ان تترك للتلميذ بعض حرية في اختيار ما تتجه اليه رغبته من الدروس وان يزاد من شرح الموضوعات التي تهمه اكثر من غيرها وان يصرف من وقته كمية اكثر في الدروس التي يذوقها اكثر من غيرها فقد جرت عادة المدارس ان تترك دراسة بعض المواد لاختيار التلميذ وهذا من شأنه ان ينوع العاملين ويجعل حرية للطالب ولا بأس بان تجعل للتلميذ حصة من اللعب في كل درس يراد منه العناية به فان التربية العقلية لاتنتج النتائج الحسنة الا اذا حثت نشاط العقل وجعلت منه له دافعاً وحيثما فقدت الارادة يفقد الفكر لامحالة ·

وترك التلميذ وما يختار من انواع المطالعة من اعظم مايثقف عقله فهو اذا أغرم بالمطالعة يتلقف بدون عناء معارف غريبة في تنوعها فاذا كلم غيره كلمة يدهش سامعه من الامور التي يعرفها ويتساءل كيف تعلمها ولم يتعلم ذلك الا في كتاب وقع اليه عرضاً فتصفحه مأخوذاً بما حواه واعياً ما اهمه من موضوعاته والقارئ في قراءته لا يتلقف حوادث بل افكاراً فتكون له صلة فكرية مع ارباب العقول السامية ويسير عَلَى مناحيهم ماوسعته الحال بحيث يحاول ادراك كل مايمر به فان كل ما يمكن ان يعمل لتربية ذوق الطفل وتعويده المطالعة يساعد كل المساعدة عَلَى تقدمه العقلي ومن اقتصر عَلَى كتب الدراسة اقفر عقله وافتقر ذهنه ·

وكما ان تحصيل المعارف ضروري فمن اللازم ان يكون للمرء ذاكرة جيدة فمن يتعلم

سريعاً وجيداً بعد ولا جرم من اهـل السعادة وان الرأي الشائع بان جودة الذاكرة وجودة الذكاء لا يتفقان لاحد هـو من الآراء التي لاسند لها يرجع فيه الى البحث الاكيد لان معظم نبغاء البشر كانت ذاكرتهم نادرة فاذا كان في المكنة تحسين الذاكرة بتمرينها فالواجب ان لايقصر فيه على ان في الذاكرة شيئاً لايتيسر ترقيته بالتمرين واعني به قابلية الاستظهار واذا صح بانه من الممكن تنميتها فلا مانع من اعطائهم دروساً يستظهرونها ويسمعونها على اننا لانرى التلامذة بعد دراسة سنين يستسهلون التعلم اكثر من يوم بداءتهم فان حاسة التذكر بالاشياء هي من الاستعدادات الفطرية تولد مع المرء وتنمو بسرعة فائقة وتبلغ غايتها في سن الثانية عشرة ثم تنحط كلما تقدم المرء في السن فما النفع ياترى من تمرين الذاكرة ؟ ان بتمرينها يحمل الى عقل الطفل معلومات مقررة وتذكارات بنصها يحتاج اليها ثم تنمي فيه حاسة الانتباه وهو جماع الربح الذي يستخرج منه فتمرين الذاكرة هو اول جهاد عقلي واول عمل ذهني يطلب من الطفل فهو يحثه ويحمله على ان يحصر افكاره في موضوع معين وهذا يشبه كل الشبه ماينبغي له بعدُ من إعمال الفكر متى طلب منه ان يفكر وحـده مختاراً ولقد يتعذر عليه الافتكار اختياراً بدون تمرين عقلي حازه بتمرين ذاكرته · فتسميع التلميذ ماحفظ في صفه هو في محله فبالتمرين تقوى الذاكرة · والغاية ان نجعل من الولد انساناً يفكر لا ببغاء تتكلم · والمعرفة لاتغذي العقل الا على شرط ان تتجانس اي ان تتحول ويستخدمها العقل في اساليب جديدة عقلية وان من خواص تذكر النصوص ان تنقل الينا الافكار متوسعاً فيهـا في صورة مقررة ومتى تأملنا من جـديد في الامور التي استظهرناها لايسعنا الا ان نكرر كلمة كلمة العبارة التي حفظناها فتدخل في تضاعيف فكرنا من تلقاء ذاتها كأنها استشهاد بسيط ليست ذات قيمة عقلية ومتى امتلأ رأسنا من هذه الصور والعبارات التامة الصياغة هل نصوغ نحن اكثر منها ؟ فان مايقتضي لنا لتأليف بعض الافكار الخاصة هو ان نحيط علماً بالمسائل في ذاتها وان نقتبس مافيها من الفكر بقطع النظر عن حرفيتها · ولا يتأتى الا نقل النص ولكن اذا كان للمرء امور يعرفها يزيدعليها اموراً حديثة فانا اذا حفظنا فكراً ونسينا العبارة التي عبرت عنه نبدأ من تلك الحال في الابداع بالفكر ·

فالفكر تمرين للغاية وهو العقل الفعال له في ذاته قوة التمدد تهيء له سبيل التوسع الى ماوراء الغاية وفي صور مختلفة فاذا انتقل من عقل الى آخر يصبح كأنه فكر آخر جديد ويكون كأنه ملك قائله وهو ابو عذره ولا يعبر عنه باسلوب واحد · اما العبارة التي

تستظهر فهي زهرة من مجموع اعشاب يابسة جافة متمددة والفكر الذي يبرز من الذهن كالبذرة التي تنمو و يكون منها زهرات حية فالواجب اذاً تقوية الطفل على حفظ الاشياء التي يتكلمون عنها اكثر من الاسلوب الذي تعبر به · يعلمونه المعاني اكثر من الالفاظ وهذا مايجرون عليه في بعض الدروس مثل درس التاريخ مثلا فانه مطلب من مطالب الذاكرة ولكنه يتطلب ذكرى الحوادث لا الصوز التي عبر بها عنها · وفي هذا المعنى يليق توجيه الذاكرة وتربيتها ومن اجمل التمارين ان يقرأ الطفل العبارة طويلة كانت او قصيرة بحسب تقدمه العقلي وان يسأل بعد ذلك عما تعلمه وبهذا يتأكد فيما اذا قد فهم المعنى لاول نظر وانه انتبه الى الافكار الرئيسة وانه حفظها متسلسلة ويبين له على هذا الوجه ماهو التعلم بفهم وذلك بدرسه مفكرات عقلية في موضوع يتلوه الانسان وبهذا ترقى في التلميذ جودة الذاكرة التي لاتكتفي بجمع المسائل بل تميز بين مايمكن ان ينفعها وتختار اجودها وتطرح العرض منها وتبقي على الجوهر · يجب ان يصل الفتى الى ان يطالع كتاباً برمته و يستظهر منه الضروري مما يحوي ·

ومما يحسن ايضاً تمرين الطفل بالاسئلة المتوالية على ان يغترف في الحال من ذهنه ماهو في حاجة ماسة الى ذكره · ولا يكفي ان يكون العلم مكنوناً في ذهنه كالكتب المركومة في صندوق بل ينبغي ان يكون كل حين تحت الطلب و ينتفع بها و يعثر عليها في الوقت المطلوب على ايسر وجه · فالتلميذ الذي لم ترب ذاكرته في هذا المعنى بتمارين خاصة لايكون ماوعاه من الافكار الا هاجعاً نائماً صعباً على الانبعاث لاتجيبه عند الدعوة وتستعصي عليه ابان الحاجة · ضع للتلميذ سؤالاً في المسائل التي تغلب عليه معرفتها يرتبك ولا يذكر الجواب وليس هو في متسع من الوقت يستخرج فيه من اعماق قلبه ماسبق له وعيه · سله ان يورد لك بعض الامثلة من اكثر المسائل تداولا فلا تكاد تأخذ جواب مسألة او اثنتين الا بعد اللتيا والتي فعلمه غير حاضر معه · وهذا من العيوب المؤسفة جداً ولا سيا في الحياة العملية التي يجب للمرء حضور ذهن ليتخلص من المآزق وينجو من المضايق · فذاكرة الذكي والحالة هذه هي التي تورد في الوقت المطلوب مايطلب اليها ايراده · لاجرم ان هذه الخاصية من الخواص التي تولد مع المرء ولكن يتيسر تنميتها بالترويض والتمرين ·

ليست المخيلة من القوى التي تطلب لجمالها بل لها منفعة خصوصية على اننا يجب ان نكون على مثل اليقين بانها لاتقوى بدون ذلك فبالمخيلة يتيسر لنا ان يسبق تفكرنا اعمالنا ·

وبها نطلع عَلَى الاحتمالات المختلفة في المستقبل فهي ضرورية لانسان ذكي : تجد المخيلة عند معظم الاولاد حادة للغاية فهم يحبون ان يتمثلوا الاشياء في اذهانهم ويجعلوها مسلاة لهم بل لهواً ولعباً فيخترعون من انفسهم صوراً ليتلذذوا بالنظر اليها في باطنهم وكل فرصة تمكنهم من استخدام هذه القوة وترويضها يفرحون بها ويسمون للقيام وهذا التبسم من التربية العقلية يسهل عليهم لانها مستميلة لقلوبهم جامعة لاهواء نفوسهم وبهذه الطريقة يتقي المؤدب من حسن الارادة من يؤدبه . لابد للتصور بادئ بدء من مواد يتغذيها ومن المعلوم انه مهما بلغت حاسة الاختراع فينا لانتمكن من الابداع العقلي الا بصور ننتزعها من الحقيقة فكل مافينا من ارادة يكتفي بتحويله قليلاً وترتيبه عَلَى صور منوعة فنحن لانستطيع ان نتصور امراً اذا لم يسبق لنا رؤية مثال منه . والاقوال مهما بلغ من سلطانها عَلَى نفوسنا لاتكون الا الى العجز في ادراكنا امراً ايَّا كانت منزلته اذا لم تذكرنا بشؤون من عالم الحقيقة يتأتى ادراكها مباشرة

فالواجب اذاً تزويد الطفل بتصورات عقلية واسعة المادة . أره كثيراً من الاشياء تجلب بها دهشته وربما لاتجد منه ارتياحاً الى ماانت ملقنه اياه ولا اطمئناناً الى ما تحسنه له فهو يختار بذاته مايهتم به . ضع امام عينيه صوراً ورسوماً ولوحات واعمل عَلَى ان تكون كتب درسه طافحة بالرسوم وهكذا اذا تزود بصور شتى مصنوعة وتصورات وتذكارات يستطيع ان يعمل بذاته ويؤلف من عنده . اما نحن فلا يعنينا امر خيالاته فهو حر فيها وهي من خصوصاته فانا نراه اذا ترك وشأنه ينسى العالم الحقيقي فيجعل له من ذاته عالماً يجول فيه خياله ويرى مدهوشاً في مضيق الصور الباطنية . فتصوراته مهما بلغت درجة غرابتها ومهما كانت طفلية فهذا ليس من شأننا معه .

بيد انه لايكفي المخيلة ان تعمل بل الواجب ايضاً ان تشتغل عَلَى العمل وهنا تبدأ مهمة المربي اذ يقضي عليه ان يحول هذه الحركة في الفكر الى انحاء تزيد في ذكائها وبعد ذلك تدعو الضرورة الى تمرين الذهن عَلَى اسلوب حسن فهو جزء من التربية التامة ومن الخطر ان لايفكر فيه . وقد رأى بعض ارباب الافكار القائلين بتلقين المحسات (المحسوسات) بان الانسب تدريج عقل الطفل عَلَى النظر في الحوادث المقررة المقيسة الحقيقية اي تربيته تربية عملية صرفة والا فتضعف قواه المفكرة لقلة المران ويتكون عقله ناقصاً او ان يعمل بنفسه ويضيع في الخيالات الغريبة لقلة الملاحظة . فالاحرى اشغال الذهن اكثر من كل شيء . ولا سبيل الى التأثير في الذهن الا بالكلام والمطالعة

ومتى قرئت للطفل مثلاً قصة جميلة تأخذ في الحقيقة بمجامع قلبه وتستهويه وتضطره الى تأليف بعض الصور ٠

و ينبغي للمربي ان يلاحظ فيما اذا كان الطفل الذي يعمله خاضعاً لما يجيبه الى نفسه ولا يعنى بما يلقيه عليه ٠ ينبغي ان يحقق نظره منه المشهد الذي تقصه عليه فانت لا تعطيه في الحقيقة الا بعض الدلائل وبها يقضي عليه ان يكمل الصورة باجمعها و بهذا يتهيأ امامنا التمرين الاول الذي نركبه او يعدنا الى التركيب وهو يتطلب من الفكر شيئاً من البديهة والارادة ٠ اذا كانت المطالعة في موضوع يستدعي التصور والتفكر فيكون فيه تنشيط الخيال وتوجيهه نحو وجهة معينة حرة وبفضل الاتجاه الذي يوليه للعقل يدرك صوراً اجمل واكثر تنظيماً مما يستطيع ان يخترعه بذاته وبفضل الحرية التي يطلقها له تكون مهمته محببة الى النفس خفيفة عَلَى الطبع ٠

هذا هو الربح الذي تستخرجه المخيلة من التعليم الادبي ومما لا يخلو من الفائدة ان نبين كيف يتأتى الانتفاع في هذا المعنى بالتعاليم العلمية التي ترمي الى تحصيل المعارف اكثر مما تقصد الى تهذيب العقل وهذه التعاليم تشغل المخيلة ولكن لا مباشرة ٠ فكل تعليم وصفي او نقلي فيه بحث عن المجردات يضطر المرء الى ان يتمثله ٠ هكذا الحال في العلوم الطبيعية والجغرافية الوصفية والتاريخ ٠ فقد ادرك المعلمون ان هذه التعاليم يجب ان تعرض اولاً في صورة مجردة بان ترسم ما امكن امام عين الطفل الامور التي يتكلمون عنها او صورونها له للوصول بعدُ الى المجردات والعموميات ٠ فان قصة تاريخية يمكن ان تؤثر في المخيلة نفس التأثير الذي تؤثره رواية فاجعة اوقصة عادية اذا كانت مؤلفة بخيال واسع ٠

وبعد ذلك تأتي التمارين المؤلفة تأليفاً خاصاً اي التي يحاول التلميذ الاختراع فيها ٠ انا نريد اعداد مخيلات عاملة مستعدة للتوليد لا ان نكتفي بان نعيش ابداً من رأس مال الغير فالواجب اذاً تمرين الطفل عَلَى التأليف بنفسه ٠ ويجب ان يعنى بان تكون هذه التمرينات بالطبع متدرجة في الصعوبات مبتدئة بشرح مادة تعطى له الى ان تبلغ حرية الاختراع ٠ ومما ينفع بيان مزية هذه التمرينات في التأليف من حيث التربية فقد اغرق من قالوا بابطال الطريقة القديمة في التأليف واليوم اقتصروا من التمرين عَلَى التأليف عَلَى القدر الجزئي وقد ظهر من مناقشات حديثة ان بعض المربين شرعوا يدهشون من هذا القصور فقد كان من معايب الطريقة القديمة انها تقود التلميذ خاصة

الى التوليد الادبي ومن حسنها انها تترك مجالاً واسعاً للتمرينات التي يستطيع بها المرء ان يبرهن عَلَى مقدرته العقلية فهي من ثم محرض قوي نافع للعقل وبها يجب علينا ان نفكر فما احرانا ان نغير وجهة الدروس لنجعل التلامذة اقل عناية بالادبيات منهم بالعلميات على ان لانضيق نطاق التمرين العقلي والتأليف والاختراع

تجب العناية بالرسم لما فيه من المزايا في التربية فالرسم اذا ادركت حقيقته ووجهت وجهته نحو التربية العقلية يساعد كل المساعدة عَلَى ترقية المخيلة فهو يعلمنا النظر الى الاشياء بذكاء ويقوي فينا حاسة التمثل والذاكرة المصورة والمخيلة المبدعة . واذا أُريد استخراج المنفعة الحقيقية المنتظرة من هذا التعليم فالواجب التمرين عليها . ولقد ضل من علماء التربية من جرد تعليم الرسم من كل نظر للطبيعة ومن التطبع عَلَى الاختراع فما كانوا يرمون الا الى اعداد نساخين جيدين واي فائدة لتعليم الرسم اذا لم تتحرك المخيلة

لتعليم اللغات مقام رفيع في طريقة تدريسنا وليس هذا بعجيب فان فهم الانسان للغته واجادة الكتابة والتكلم بها هو من انمن المساعدات للذهن . ومعرفة اللغات الميتة يفتح امامنا ميدان الفكر القديم كما ان معرفة اللغات الحديثة ضرورية لتتبع حركة الفكر الحديث . فباللسان يجد الفكر ما يعبر عنه فهو اداة من الالفاظ تتقدم وتتأخر عَلَى الدوام منها الى الفكر ومنه الى الالفاظ وتتطلب فكراً عاملا ابداً . ولا عجب من ثم اذا صرف وقت طويل في التعليم المدرسي من حيث تنمية القوة الشفهية فان هذا الاهتمام في محله والواجب ان يعنى فقط بان تكون هذه الدروس بحيث يستخرج منها الشبان اعظم المنافع العقلية

وهنا نبدأُ اولاً بالكلام عَلَى التمرين الذي يذهب العقل فيها من الالفاظ الى الفكر فمن اول الدلائل وادلها عَلَى بيان ذكاء الطفل ان يفهم ما نكلمه به واذا كان لا يفهم معنى الكلمات وكان من الصعب علينا الا قليلا ان نشرحها له فيجب عليه ان يحرزها وهو استدلال يستلزم منه ان يكون ذا ذكاء مدهش وبعد ان يتقدم فيه تعليم اللسان يصبح معنى الكلمات المستعملة مألوفاً له ولا يتعب فهمها ذهنه بل تكون له مفهومة بذاتها بدون ادنى تعمل ويبقى عليه دائماً الفاظ جيدة وتراكيب جمل غير عادية ليدرك معانيها وكلما نظر درساً جديداً يجد امامه مادة خاصة من الفاظ تقف امامه بعض الشيء . فنحن في مطالعاتنا نعثر كل ساعة عَلَى جمل لا تفهم لاول وهلة وبعض الافكار لا يتأتى ان يعبر عنها بصورة

واضحة وتعابير مستعملة . ومهما بلغ من استعمالنا اللغة والذكاء فلا بد في شرح صورها الشفاهية من درجة خفيفة لا يرقى اليها المرء الا بمحاولة الفهم . وهـذا الجهد نافع للعقل ولذلك كانت اللغة التي نريد اقتباسها زمان الدراسة غير مألوفة لنا كل الألفة وكان درسها عبارة عن تمرين عقلي حقيقي .

وبهذا النظر لانرى بدأ من التوصية باستعمال الترجمة فانها في الحقيقية احدى الرياضات المدرسية الدالة عَلَى فرط الذكاء فيضطر الولد فيها ان يفرض عدة وجوه للمعاني الكثيرة التي يحتملها النص وتمييز اوجه الشبه بينها ويستخرج من مجموع معنى الجملة المعنى الخاص بها الذي يجب اعطاؤه لكل كلمة فيتمرن عَلَى هذه الصورة ذكاؤه وعقله . ولافرق بين ان يكون هذا التمرين بلغة حية اوميتة ويجب ان يلاحظ فقط ان الطريقة المتبعة في تعليم اللغات الحية مباشرة ترمي الى ذلك التمرين عَلَى الشرح والترجمة . وهذه الطريقة سامية من حيث العمل ومهيأة التلميذ باسرع ما يمكن لاستعمال اللغة ولكنها قلما تمرن العقل فيجب ان يفكر المربي في التعليم بهذا التمرين الحسن اوبما يعادله عَلَى الاقل

وان استعمال الترجمة والشرح ليمكن حتى من لغة المرء الاصلية فان معنى شرح عبارة هو حل معناها الحقيقي وترجمتها الى لغة شائعة وبذلك يتعود المرء عَلَى ما هو لازم له من جودة النظر في الكلمات فلكم رأينا . مناقشات قامت خاصة عَلَى ما احدثه سوء التفاهم في اللغة فانا ندخل في براهيننا تعابير مبهمة اومدرسية تكذب فكرنا اوتمنعنا من ايضاحها كل الايضاح

وهناك تمارين اخرى تقودنا من الفكر الى الالفاظ فاننا نحاول ان نوجه للتعبير عن فكرنا لفظاً مستعملاً ولطالما دهشت من الالفاظ الكثيرة التي يقتدر التلميذ الصغير عَلَى الافصاح بها عن افكاره بدورات تدل عَلَى حذق وبقليل من الالفاظ . حتى ان محاولتنا التعبير عن افكارنا مما يفيدهم . ومن النادر ولا سيما عند ما نفكر في مسائل قليلة الصعوبة ان نكون عَلَى استعداد مما نقوله قبل ان نبدأ في الكلام فالفكر يبقى منتشراً مشوشاً وهو على سهولته في حيز القوة لا يخلو من ابهام اذا اريد اخراجه الى العمل ومن المحتمل كثيراً انه يبقى في هذه الحالة المختصرة اذا لم نبحث عن طريقة ابيانه وتكميله بالتعبير عنه فالفكر لا يتم الا بالجملة

فالواجب والحالة هذه تمرين طلبتنا على التكلم وسؤالهم على الدوام وتمرينهم على الافصاح عما يجول في خواطرهم ببيان رائق . وهذا احسن واسطة لتنبيه عقولهم حتى في

خلال الدرس فانهم اذا لم يكونوا الا سامعين لما يلقى عليهم لا يلبثون ان يكونوا خاملين غير مهتمين بالدرس . ويتيسر للمعلم اذا تكلموا ان يستدل على انهم في حالة يعملون بها اذهانهم ويستعملون قواهم العقلية فانت ترى تلامذتنا الذين اعتادوا ان لا يفكروا الا والقلم بايديهم مرتبكين في الاحايين التي يحتاج فيها الى حضور ذهن . وليس معنى هذا ان يجعلوا خطباء بل ان يمرنوا على التعبير عن افكارهم حتى امام الجمهور بدون ارتباك ولا غموض . فالتمرين اللفظي يضطر الى التفكر بسرعة وايجاد تعبير للفكر الذي يعرض في الحال فهو يقوي الصفات العقلية التي تجعل المرء عاملاً .

التمارين المكتوبة ترقي الانتباه لتأليف الكلام في أوقات الفراغ وتمكن صاحبها من العمل بعقله عملاً متتابعاً ومن التفكر طويلاً وتضطره الى ايجاد بعض الافكار في موضوع معين وتنظيمها والابانة عنها احسن ابانة في حين ان التمرين اللفظي يعلم استخدام الذكاء . فالتمرين الكتابي هو العمدة لترقية العقل في الاكثر والمرء يتعلم التفكر اذا اخذ يكتب فالصور والحقائق تسير دائماً جنباً الى جنب في الاشغال العقلية . انشاء الكاتب وفكره متلازمان حتى انك تشك في التأليف الرديء الانشاء فيما اذا كان فيه خطأ في الفكر فاذا كانت الجملة رديئة التركيب مشوشة الاساليب يستحيل ان يكون الفكر واضحاً على نسق متتابع . فلنعمل اذاً بكل ما فينا من قوة الى تحسين انشاء تلامذتنا فاننا بذلك نربي عقولهم . ومن اعظم الخدم التي نخدمهم بها ان نعلمهم لغة نصيحة ثابتة صريحة لان مستقبلهم العقلي موقوف عليها . يقولون ان اللغة الفرنسية هذه الصفات الى درجة امتازت بها وحقيق ما يقولون . ان الاداة حسنة فعلينا ان نعلم الفتيان كيف يحسنون استعمالها . منذ بضع ستين اتى الى اللغة الفرنسوية بحران غريب اوشك ان يفسد اللغة واعني به كثرة الكتابات والاستعارات والظاهر الآن ان هذا الوباء قد كاد يضمحل لولا اننا لم نبرح نعثر على بقايا من هذا المرض في لغة بعض معاصرينا من الكتاب لا يشتغل بعددهم . اما نحن فندعو الى الوضوح في العبارة وانت ترى اي معنى يجب ان توجه اليه وجهة التمرين على الانشاء للانتفاع منه انتفاعاً عقلياً فلا ينبغي النظر الى الصور الجميلة بل الى الصفات العقلية . فنحن في مبحثنا هذا لا نرمي الى ان نخرج ادباء بل الى تربية ذهن الطفل بتمرينه على الافصاح عن افكاره بذكاء .

وها قد وصلنا الى التمرين الذي يقصد منه تربية الفكر فانه لا يكفي حث الدماغ على العمل بكل الاسباب الممكنة فيمكن ان يفكر المرء كثيراً وتكون مادته فائضة ابداً

ولا يكون الا متوسط الذكاء وكل هذا العمل في الدماغ يجب ان يكون منظماً منسقاً متجهاً الى وجهة واحدة ولكل جهاد فكري غاية والمطلوب ابداً ايجاد شيء من تقرير حقيقة او البحث عن احسن واسطة لتحقيق غاية فالواجب من ثم ان نمرن عقلنا على العمل بصورة نافعة ·

يميل الطفل الى التفكر لهوى في نفسه يتلذذ به فيفرض كيفما اتفق قضايا لا يتعب نفسه في مراقبتها ولا يهتم في الحقيقة لملائمتها وبهذا يبقى كثير من الناس طول حياتهم في حكم الاطفال · وان المرء ليعجب ان يرى اموراً تثبت باقل نظر بمجرد المناقشة فيها والخوض في الاحاديث خوضاً عادياً فالواجب العمل على مايخالف هذا الميل منذ الصغر بالجري على نظام عقلي حسن

وان حكم الطفل على الاشياء ليصحح خلال الحديث كلما خالف الواقع فمن خصائص عقله ان لا يمس الوقائع والحقيقة فالواجب ارجاعه اليها فكل فكر مناط هو حكم متهور اذا وضع على محك النظر لا يلبث ان يكذب بالبحث والنقد فالواجب اذاً الرجوع ابداً الى الحقائق ويجب ان لا يفوتنا الاحتراس من ان الاوهام في الاحكام تصدر في العادة من نقص في الاخلاق لا من ضعف القوة المنطقية فيحكمون على الامور التي لا يحق لهم ان يبتوا فيها حكماً لا لان العمل العقلي الذي يصدر به الحكم سيء الترتيب بل لقلة اهتمامهم وخفة احلامهم ونقص في استقامة عقولهم · وعلاج ذلك ان يشعر الطفل بما في كل قضية مهما كانت من الامور الجدية ابداً وهناك تدخل التربية العقلية كما ينتظر في التربية الاخلاقية

والواجب ايضاً تربية قوة التعقل فان بعض قضايانا ليست مستخرجة من التجربة مباشرة بل هي مستندة الى آراء أُخذت من قضايا سابقة ففكر يولد لنا فكراً آخر ونتوسع في تأكيده واثباته وما جودة الاحكام الا ان يكون للمرء تسلسل في افكاره لا يناقض احدها الآخر بل ان يعضد اولها آخرها فيتألف منهما مجموع متماسك الاجزاء · فانا نستطيع ان نعود اولادنا على صحة الحكم وذلك باشراكهم معنا في الحوار والمناقشة معلنين لهم نقص تصورهم بان نعيد افكارهم الى الطريق السوي متى حادت عنه ولذلك ألف مناسبة للاشراف على عقل الطفل في الحياة اليومية او اثناء الدرس والتعليم

وانا اذا سما بنا النظر الى ترقية التربية العقلية اكثر مما هي الآن في اطفالنا ليجب علينا ان نجعل في المدارس تمرينات خاصة لتربية القوة العاقلة ودروساً في المنطق العملي · وليس في طريقة تعليمنا اليوم شيء مما يشبه هذا فانا لا نعلم التلاميذ المنطق

الا في اواخر سني الطلب و بعض القواعد المنطقية الصحيحة التي يدرسونها عَلَى هذه الصورة هي سطحية مبتذلة قليلة التطبيق في العمل و يكاد يكون نفعها في التربية الفعلية قليلاً جداً ·

لاجرم ان المربين يستندون عَلَى تلقين العلوم المجردة للطفل لترقية القوة المنطقية في عقله ولكن في الرياضيات والهندسة صورة قاسية من تقوية العقل وهذه القسوة فيها تجعل هذه الدروس قليلة النفع ولذا لا يسهل كثيراً الفرق بين تقوية العقل على طريقة جيدة او رديئة فلاتقاء السفسطات والامور المخالفة للمنطق نحتاج الى دقة وحذاقة أكثر من احتياجنا الى ذهن يعي الهندسة · وكل منا يعرف ان المرء قد يكون مهندساً بارعاً و يكون حكمه بعيداً عن الصواب في جميع المواد الاخرى · وهل معنى هذا اننا ننسب لدرس العلوم المجردة قلة غناء في التربية عَلَى حين نتوقع نحن منها نفعاً عقلياً كبيراً يخالف مايراه بعضهم كل المخالفة ·

فكل تمرين للطفل نافع لما يتطلب النظر فيه من الجهد والتعمل · فاي مقاومة خاصة يقضي على دارس العلوم المجردة ان يتغلب عليها واي حاسة تمرن بها ؟ فان هذه العلوم متى فهمها المتعلم وادركها يقوم له البرهان عليها والصعوبة الاولى في الاهتداء اليها وفهمها وللنجاح فيها يجب ان يكون صاحبها اهلاً لان يجعل الافكار المجردة كل التجرد قريبة من العقل ما امكن ببيان الصلات بينها بمعنى انه يتوصل الى ان يلاحظ عليها ملاحظة حقيقية · يجب ادراك مابين المسائل الكثيرة من الارتباط في النظريات التي قد تحدث ولا تتسلسل وفي مثل هذه المآزق يستدل على فلسفة العقل وقوتها · وانت ترى ان الصعوبة في بلاغ الذهن الى تلك المجردات لتحقيق هذه الاعمال العقلية ومن هنا نشأ الجهاد والتعب وفي هذا التمرين الحقيقي نفائدة العلوم المجردة هو تمرين العقل على المجردات

ان التعلم عَلَى سهولة مأتاه في المجردات والترقي بالتمرين المتصل الى مجردات اعلى منها هو ارقى انواع التهذيب العقلي و بدون افكار مجردة لانجاوز معدل الذكاء الحيواني ولا نفكر الا بصور خاصة كنحو مايلزمنا في حياتنا اليومية · في حين ان جميع الاعمال العقلية ذات الشأن والتشابيه المركبة والعموميات والتصورات الصعبة كلها بنت المجردات وربيبة النظر فمعنى ادراك الافكار المجردة الاستعاضة عن الفكر الحقيقي المرتقي في تصوير الاشياء بفكر هو في حيز القوة يستعمل كما لو كان راقياً · فالعقل المرن الصريح المعتاد على التفكر

في الامور المجردة . .رمن نفسه . هذه القوة و يقودها و يكتفي برسم الاعمال العقلية بدون ان يقوم بها بالفعل فينشأ من ذلك تخفيف عن الفكر يشبه ماحدث من نوعه عندما استعاض تصورنا عن الاشياء الحقيقية بصورة بسيطة من هذه الامور . وبذلك تنمو قوة ادراكنا ونظرنا في العواقب نمواً مدهشاً ونعمل اعمالاً مختصرة بدون جهد اعمالاً يتجاوز ارتقاؤها طوقنا وذكاءنا . وعلى هذه الصورة يرتقي العلم بان يدخل افكاراً مجردة في افكار مجردة اعلى منها و يوجد طرقاً اقرب الى الجادة لحل المشاكل تتطلب حلاً ماهراً و بذلك يسمو المرء الى نظر اعلى في مجموع مايعيه والى المدركات الواسعة فذكاء المرء يمكن ان يقاس بما فيه من قوة على اقتباس المجردات فانا نرى الطريقة التي يفرض اتباعها واضحة امامنا فيجب ان يسري تعليمنا من الاعيان الى المجردات لا لان للعقل ميلاً الى الجري على هذه الصورة بل لان هذا هو الطريق الوحيد لبلوغ الارتقاء العقلي . نعم اننا بذلك نكثر على العقول الفتية من الجهد وربما خيف من ان تتجاوز مثل هذه التمرينات القوة التي خصصت لها ولذا نرى من اللازم ان يجرى على سنة التدريج في ايراد الصعوبات

فان ذهن الطفل لايتأتى ارتقاؤه الا بالتأني من سنة الى اخرى باجتياز محطات تناسب تغيرات نموه الطبيعي ولا يتقاضى زيادة عما تحتمله سنه . ولا يعدم احد منا امثلة على هذه التربية الخرقاء من تحميل الطفل الذكي فوق طاقته بجهل والديه او مربيه فيدفعونه الى مايجب ان يحموه عنه ويعودونه الشدة في التربية حتى تنهك قواه فيقوى عقله قبل الاوان لكثرة مايحملون اليه من الحركات ولكنه قد يضل ثم يقف هذا الارتقاء عن جريه و يظل الطفل وسطاً في حياته . الا فلنمتنع من كل طريقة في التربية تكون الى الشدة وتظهر منها نتائج خارقة للعادة لقاء عياء اكيد يصيب الطفل ولنعمل على العكس مايضمن للطفل استمتاعه بقواه كما نريد على النحو المستقيم وان نطلق سراحها خلال الدرس حرة في موازنتها الطبيعية والادبية .

و بعد فان الواجب تقوية الذكاء على صورة معتدلة ويمكن تقويته بالارث لان رقي الدماغ الذي يمتع المرء بصحته الطبيعية من شأنه الانتقال بالوراثة . الذكاء امر نافع وكل من يرى الارتقاء العقلي الذي بلغه البشر بالعمل فكان اثمن هبة حصل عليها وتحدثه نفسه لان يبذل كل مرتخص وغال لترقية الذكاء البشري درجة اخرى وما اطمأنت نفس اذا رأينا الجيل المقبل ارقى منا في منازعة بما نعني به من تلقينه تربية ارقى من تربيتنا

نحن لانغالي في آمالنا ونعرف مايتطلبه النشوء الاجتماعي لادخال التكامل على عصر من السذج البله وان المرء بذاته لايتحول على ايسر وجه وان الارتقاء العقلي الذي يتأتى لنا ان نرجوه من التربية الحسنة هو محدود بالطبيعة . فالطفل يولد على شيء من الذكاء قل او كثر بمعنى انه يكون ذا مزاج معتاد في رقيه فترتفع منزلته الى قياس عقلي معتدل ومهما يبلغ في الترقي فلا يتيسر ان يتجاوز به هذا القياس . ولقد رأينا كثيراً من الفتيان والفتيات لم يربوا التربية الكافية توقفوا في درجة عقلية يتأتى لهم تجاوزها وكان لهم استعداد طبيعي لم يحسن القائمون على تربيتهم استخدامه فاست تربيتهم مقيدة بقيود تزيدهم بلاهة بدلاً من ان تزيدهم ذكاء . فالذكاء كالصحة والقوة الطبيعية في الانسان لايكون من الاكثار من اسبابه سوى اهلاكها لا نماؤها والاخذ بيد كل انسان الى حيث تصل قواه هو الحسن والاحسان بعينه وان مانقصد اليه في هذا المبحث الاقتصار على التربية الضرورية حتى يرتقي العقل حراً متمتعاً بما فيه من كفاءة ارثية . نعم ان العقول مختلفة في مداركها فالكسلان الغليظ الذهن يظل ابداً كذلك والذكي بالفطرة يزداد ذكاؤه مضاء بالعمل والدريب والمتوسط متوسط والمستعد الى التقدم تزيد قواه العقلية نشاطاً والتربية لاتزيل الفروق الارثية بل تزيدها فالنفوس المستعدة تستفيد اكثر من غيرها من اسباب الترقي وتتقدم تقدماً محسوساً . والتمرين الشديد الذي تتطلبه التربية العقلية العالية لايتأتى قبوله الا لمن كانت عقولهم عاملة بطبيعتها اما غيرهم فلا استعداد لهم اليها . ائن كان تعديل اساليبنا في التعليم على النحو الذي اوردناه نافعاً للجميع فهو نافع خاصة لبعض الناس وذلك لانه يزيد تنشيط بعض الاذكياء المستعدين للنبوغ ولا ينبغي ان نستاء من هذه النتيجة ونقلق منها فان ذكاء الطبقة المختارة من الخاصة هو مولد النجاح الذي يستفيد منه المجموع (انتهى معرباً عن مبحث طويل في مجلة التربية الباريزية)

سكة الحجاز

قالت مجلة الطبيعة الفرنسوية : كان الحجاج يسلكون الى مكة طريق القوافل من جهات الساحل او من الداخلية ويجيء الفرس والهنود من الشرق ناهجين ايضاً طريق القوافل باجتياز صحاري بلاد العرب ويسير غيرهم وعددهم ليس بقليل عن طريق جدة على البحر الاحمر على مسافة ٧٥ كيلومتراً من مكة ويسير حجاج افريقية من طريق البر مجتازين شبه جزيرة سينا في حين ان غيرهم يأتون من البحر الى جدة . ولهذا كان هذا

الثغر من البلاد المهمة للغاية يجتمع فيه كل سنة عدد عظيم من الحجاج قادمين من مصر وافريقية الشمالية وبلاد الهند والعثمانية وروسيا الجنوبية . اما حجاج سورية فهم ايضاً كثار العدد يقصدون الى مكة من طريق القوافل فيجتازون بلاد العرب من الشمال الى الجنوب من الخط الذي يربط دمشق بالمدينة ومكة . وبعد ان يجتمع هؤلاء الحجاج بالترب من دمشق يؤلفون ركباً تخفره من غارات البدو كتيبة من المشاة ومدافع جبلية وذلك على طول الطريق البالغ ١٨٠٠ كيلومتر ويقطعه الحجاج في اربعين يوماً . واذا اضفت الى هذا الحرس المؤلف من نحو مئة بدوي يعهد اليهم العناية بالمتعبين من الحجاج او بالمرضى منهم والوف من الجمال والبغال التي تستعمل لحمل الاثقال والذخيرة اللازمة لطعام الحرس والحجاج تتمثل لك تلك الصعوبات التي يجلبها اعداد مثل هذه القافلة وتسييرها ويجب ان لا يفوتنا بان من المتعذر الامتيار طول الطريق واذا استثنينا بعض الانحاء في الطريق نجد الحال في هذه الدرجة من الصعوبة في استقاء الماء القابل للشرب . فكل شيء يجب والحالة هذه نقله على ظهور المطايا .

ونرى من جهة ثانية ان القيمة التي يكلفها هذا الحج فاحشة وان اختلفت باختلاف الحجاج في غناهم ورفاهيتهم ومتى كان مع الحاج جمال لنقل اثقاله وحمله قد تبلغ كلفة الحاج من دمشق الى مكة الف فرنك ولكن كثيراً من الحجاج يذهبون مشاة وبعضهم يستخدمون عكامة او خدمة لتقليل النفقة

ولقد فكر القوم منذ زمن طويل في واسطة لتقليل هذه الصعوبات الى اقل ما يمكن واختصار المسافة بانشاء طريق حديدي من دمشق الى مكة وبقيت الحال على هذا المنوال الى يوم ١ ايار ١٩٠٠ وقد اصدر السلطان السابق عبد الحميد باشارة امين سره عزت باشا الدمشقي ارادته بانشاء السكة الحديدية ودعا السلطان العالم الاسلامي للاعانة لتمديد الخط فتقاطر المسلمون يدفعونها عن رضى حتى بلغ ما جمع في برهة قليلة ما يكفي للمباشرة بالعمل ماعدا بعض التخصيصات التي اعطتها الحكومة او الافراد

واذ كان من المتعذر الحصول على عملة من سكان البلاد يكتفون للقيام بهذا العمل وكان الواجب الاقتصاد من النفقات على القدر الضروري عمدت الحكومة الى استخدام الجنود في تمديد الخط فعهد الى جنود من المشاة بالاعمال الترابية والى كتائب السكك الحديدية بنقل الاحجار واعمال البناء اما سرايا الاستحكام فاستعملوا في الاعمال الميكانيكية في الورشات ووضع الاسلاك البرقية . وبالجملة فان انشاء سكة حديد الحجاز قامت

بايدي العاملين من المسلمين ماخلا مهندس الماني واحد اسمه المسيو مايسنر ٠

يسير هذا الخط من دمشق الى المدينة متجهاً من الشمال الى الجنوب وجهته متوازية مع طريق القوافل الذي لا يبعد عنه الا في بعض المحال وذلك تفادياً من الصعوبات في تمديده ويمتد على القسم الاعظم من الطريق على سطح يرتفع بالتدريج من الشاطئ ٨٩٨ متراً فوق سطح البحر الى دمشق حتى اذا كان في الكيلو متر ٨٨٨ فما بعده ينزل حتى يبلغ المدينة فيصير على ٧٠٠ متر من سطح البحر بعد ان يكون بلغ في محطة البدية اي في الكيلو متر ١١٢٦ — ٣٤٥ متراً من سطح البحر

وقد أريد بادئ بدء تمديد الخط من درعا والاكتفاء من دمشق اليها بالخط الذي كانت مدته شركة فرنسوية ولها الحق بالشعبة التي تصل بين درعا ومرفإ حيفا على البحر المتوسط ٠ وهي شعبة مهمة للغاية لسكة حديد الحجاز لانها تصله مباشرة بالبحر وبعد اخذ ورد طويل ترك تمديد الخط من درعا الى حيفا لسكة حديد الحجاز ولكن لم يتيسر الاتفاق على اعطاء الحق الاصلي من دمشق الى درعا لادارة سكة الحجاز فمن ثم اضطرت هذه الادارة ان تجعل دمشق مركز سيرها وتبني خطاً جديداً موازياً للخط الاول بين دمشق ودرعا ٠ ويجتاز الخط بين هذين البلدين ببلاد حوران وهي اقليم غني بالجملة وكان قديماً انبار رومية ويزيد غناه بفضل خصب التربة فيه ويرتقي كما هو المأمول ارتقاء حسناً اذا تيسر له الخلاص من عصابات قطاع الطرق التي تعيث فساداً في ارجائه ويجتاز الخط بعد درعا وجهة متوازية مع جبال موآب التي تمتد على شواطيء بحيرة لوط ويقطع صقعاً متموجاً بالزروع ومغطى بالمراعي يسير فيه البدو ومعهم قطارات من الجمال ٠ وفي ذاك الاقليم تجد مدينة عمان القديمة التي لا تزال آثارها ماثلة للعيان

وبعد ذلك يصل الخط الى بادية العربية الصخرية اوالسعيدة ومن تلك النقطة تبدأ الصعوبة في الحصول على الماء الضروري لتسيير القطارات وشرب الركاب ٠ وعند الكيلو متر ٤٥٨ اي من محطة معان تصل الى واحة ذات حدائق ونخيل تسقيها عينان نضاختان مياهها باردة صافية وفي جوار هذه المحطة خرائب مدينة بترا القديمة

ومن بعد معان الى العلا والمدينة تتبدل هيئة البلاد كل التبدل فتشتبك بجبال عالية قد تبلغ قمم بعضها ٣٠٠٠ متر عن سطح البحر ممتدة على طول البحر الاحمر وتنتهي على خط عمودي من البحر بارصفة متتابعة وهناك اسناد تشقها اودية لاماء فيها تطيل مسافة هذه الارصفة والاودية فبعد ان تتجه تارة اتجاهاً عمودياً نحو الصخور الجبلية تكون طوراً

متآزية ثم ينقطع اثرها في البادية . وتختلف سعة هذه الاودية اختلافاً كثيراً فتكون واطئة احياناً بحيث يبلغ علوها في بعض الاماكن زهاء مئة متر .

وفي سفح هذه الاسناد يسير الخط الحديدي الى المدينة مجتازاً ما امكن الاودية المختلفة التي تكاد تكون وجهتها متآزية . وبذلك تيسر الاقتصاد في نفقات بناء الخط الى اقصى ما يمكن

ولقد قلنا آنفاً انه ماعدا محطات معان وذات الحج وتبوك والاخضر والعلا فليس من ماء في تلك الاصقاع بل انك ترى الاودية الا في بعض احوال نادرة جافة حتى في موسم المطر . وموسم نزول الامطار في تلك الاصقاع يكون في شهر تشرين الثاني وشباط وآذار ومن النادر ان تهطل في شهري كانون الاول وكانون الثاني والمطر يبقى في المكان الذي يهطل فيه حتى في اشهر المطر فبعض الانحاء لا يبلغها الماء على حين يصل منه الى غيرها كميات كبيرة تجري في الاودية فتغرقها ولطالما كانت سبب انقطاع المجاري في خلال انشاء السكة الحديدية

ومناخ هذه الاصقاع العالية جيد جداً ولجفاف الهواء تبلغ درجة الحرارة ٥٥ في اشهر القيظ الا انه مما يحتمل لما يعدله من الريح البليل الذي يهب في تلك الارجاء طول السنة ولا يصعب احتمال هذا الهواء الا في الاودية المحصورة جداً مثل التي في جوار العلا حيث تكون سبباً لانتشار الحميات وتنزل درجة الحرارة في الشتاء الى ٤ او ٥ ومن النادر ان تنزل الى الصفر . واهم الاحتياطات التي يجب اتخاذها التوقي من اختلاف درجة الحرارة بين النهار والليل

وبعد ان يخرج الخط الحديدي من معان يعود فيدخل في اقليم قفر يشبه الذي اجتازه في الشمال فتتخلله اودية كثيرة قليلة العمق . وقد اقتضى لقطعها انشاء مجار من الحجر اما تربتها فقاسية جداً وهي قاحلة ومملوءة بالحجارة

وبعد ان يقطع الخط الحديدي في بطن الغول على ستين كيلو متراً من معان قمة جبل يبلغ ارتفاعها ١١٦٨ متراً عن سطح البحر يعود فيهبط نحو ذات الحج سائراً في وادي رتم الذي تختلف سعته ويعظم كلما اقترب من ذات الحج وهي واحة فيها نحو مئة نخلة محيطة بقلعة قديمة لرد هجمات البدو الرحل وما من منزل حول هذه الواحة الحقيرة . وهذه الاراضي القاحلة المنبسطة تقطعها من مكان الى آخر اودية تكون الى تبوك البعيدة ٦٩٢ كيلو متراً من دمشق وهي واحة مهمة فيها زهاء الف نخلة ولها معقل حصين وسكانها نحو ثلثمائة نسمة

وفي تلك الاصقاع المقفرة حيث تشتد حرارة الهواء الجاف بما تبعثه فيه الشمس من اشعتها تجد النور بهيجاً وتصبح وتبدو الاصقاع البعيدة غريبة في انوارها فتنقطع الآكام المنفردة في شرق السكة الحديدية والجبال التي تحاذي البحر الاحمر بما فيها من نقوش النبات والاوراق المحبوبة التي ترى عن بعدٍ من الجهة الغربية تحت سماء مدهشة بصفائها وتكسو الشمس هذه الجبال عند الشروق والغروب بالوان منقطعة الشبه والنظير ·

وكلما توغل الخط في قطع المساوف نحو الجنوب يصل الى اصقاع منبسطة قاحلة ولكن تجري الى الاودية ثم كية وافرة من ماء المطر اثناء الشتاء ولذلك قضت الحال باجتياز هذه الاودية لانشاء مجارٍ عظيمة القناطر ولا سيما في وادي اثيل وقد اقيم عليه جسر من الحجر طوله ١٤٣ متراً وله ٢٠ قنطرة فتحة كل منها ستة امتار · وهذا هو اهم عمل في الخط ·

ثم يقترب الخط من الصخور البركانية الجبلية فيتجاوز في حارات العمارة الاسناد الاولى بواسطة نفق طوله ١٦٠ متراً وذلك بالقرب من محطة الاخضر فيدخل ثمت في اودية مختلفة محاذياً لها الى العلا على مسافة تسعمائة كيلو متر من دمشق بعد ان يكون قد قطع عدة محطات واهمها المعظم والمطلع ومدائن صالح

وتتألف واحة العلا المهمة التي يبلغ سكانها ٣٦٠٠ نسمة من غابة نخيل وليمون وطولها من ٥ الى ٦ كيلو مترات وعرضها خمسمائة متر · وانتهى الخط الآن بالمدينة وهي على مسافة ١٣٠٠ كيلو متر من دمشق وسيشرع باكمال الخط بين المدينة ومكة · وقد بحث في عدة طرق لتمديد هذه الشعبة الاخيرة بين البلدين الطاهرين احداهما تسير تواً من المدينة الى مكة والاخرى اطول مسافة تقترب من البحر وهذا الفرع الاخير الذي يبلغ طوله ٤٤٢ كيلو متراً هو الذي شرع ببنائه اليوم وبه يصبح طول السكة الحديدية من دمشق الى مكة ١٧٥٤ كيلو متراً

ان عرض خط الحجاز ١٠٠٥ امتر وهو غير متساو في رسمه فترى فيه في بعض المحال انحداراً طوله ٢٠ ملمتراً في كل متر ودورة تبعد عن التخطيط الاصلي مئة متر اما تمديده فلم يستدع سوى فرش التراب ووضع الخطوط ما خلا جسرين من الحجر احدهما بين محطتي عمان والقصر والآخر على وادي اثيل وهناك جسور لا شأن لها وهي كثيرة لان الحاجة مست في عدة اماكن الى انشاء جسور في ممر الاودية التي تجف في

الصيف وتطفح في الشتاء بالسيول الغزيرة

وما عدا جسر طوله ١٥ متراً له مآخذ من حديد فان جميع اعمال البناء من الحجر وذلك لكثرة العملة من الجند ولسهولة جلب الحجر من المحال القريبة . وقد أنشئت بعض الانفاق القصيرة لاجتياز القمة التي تفصل بين مصاب بعض الاودية وجعلت هذه السكة من خطوط حديدية وزن المتر منها ٢١ كيلو غراماً تسند الى خشب او حديد ولكن الادارة اضطرت بعد قليل الى الاستعاضة عن الخشب بالحديد لكثرة فعل الشمس فيها فمجموع وزن المتر من هذا الخط و يدخل فيه قضبان الحديد الذي يسير عليه القطار والذي اسند عليه وغيره هو ١٠٣ كيلو غرامات اما فرش الخط فمن حجارة مكسرة من الاحجار البركانية

وعدد المحطات المهمة قليل وهي تتألف من بناية لمكاتب الاستثمار و يقيم فيها المستخدمون ومن محطة للقاطرات واحواض ماء وآلات رافعة للماء اللازم للقاطرات ثم طرق لتخزين المركبات . ولبعض هذه المحطات ورشات لاصلاح ادوات الخط وآلاته الثابت منها والمتحرك . وتجد بين هذه المحطات الرئيسة على مسافة عشرين الى ثلاثين كيلو متراً محطات اخرى اقل شأناً من تلك وليس فيها سوى بناء هو عبارة عن مسكن للمستخدمين ويضاف في كل ٧٠ الى ٨٠ كيلو متراً الى هذه المحطات مايلزم للقاطرات من اسباب حمل الماء اللازم ففي بعضها آبار وللبعض الآخر برك وهذه البرك قديمة البناء انشئت لسد حاجات القوافل تمتلئ ماء في الشتاء فيستعمله الحجاج والبدو الذين يقصدونها للاستقاء منها مع إبلهم . وسعة بعض هذه البرك ٣٦ الف متر و بعضها ٧٠ الفاً واذ كانت غير مغطاة ممتدة السطح وقليلة العمق يصبح الماء بعد مدة قليلة كريهاً ويتبخر سريعاً من حرارة الشمس . اما المحطات ذات الآبار واكثرها قليلة العمق غالباً فان مياهها تنضب بسرعة . فلا سبيل من ثم الى ايجاد الماء الكافي للقاطرات والاستثمار الا في بعض المحطات البعيد بعضها عن الآخر في الغالب وهذه الصعوبة في قلة الماء تزيد كلما توغل الخط متقدماً نحو المدينة . وللتغلب على هذه الصعوبات اضافوا اولاً الى كل قاطرة مركبة حجمها ١٢ متراً مكعباً ثم استخدموا احواضاً بمركبات تنقل الماء الى المحطات التي يضطر فيها القطار الى الاستقاء ولكن هذه الوسائط لم تخل من عوائق تجعل الخلل دائماً . فعقدوا العزم من ثم على حفر آبار عميقة جداً في كل ٧٠ الى ٨٠ كيلو متراً ليمتاح منها الماء الى البرك المغطاة . وقد جعلوا في الاماكن التي لم يتيسر فيها الحصول من الآبار على نتائج

مرضية احواضاً عظيمة مغطاة عمقها من ٦ الى ٧ امتار لتجمع فيها مياه المطر وتستعمل للشرب وجعلوا لها ادوات لتصفيتها من الاوساخ · ويحمل ماء الآبار والبرك الى المحال اللازمة بواسطة مضخات بالبخار والاغلبُ بواسطة طواحين هواء

وقد حاولت الادارة ان تفتح آباراً ارتوازية وحفرت بعضها الى عمق ١١٠ امتار فلم تظفر بماء ينبض وعللوا ذلك بان السبب فيه ان ذاك السطح من الارض يعلو من ٨٠٠ الى ١٠٠٠ متر عن مساواة نهر الاردن فتسيل مياه الامطار التي تتساقط هناك في الاحافير الكثيرة في الارض نحو ذاك النهر · وربما كانت النتائج من ذلك احسن كلما اقترب الخط من المدينة حيث تجري المياه الى وجهة مخالفة

ومعلوم ان سورية و بلاد العرب فقيرة جداً بغاباتها وليس فيها مناجم فحم اما الاصقاع التي يجتازها الخط الحجازي فهي خالية من كل ذلك بالمرة · فوقود القاطرات والوقود اللازم لتدفئة المستخدمين وطبخ طعامهم والاستصباح كل ذلك يجلب من الخارج الى دمشق اوحيفا ومنها يحمل الى المحطات الكثيرة حتى المدينة اي الى مسافة زهاء ١٤٠٠ كيلومتر وبهذا يرتفع سعر طن الفحم ارتفاعاً فاحشاً ولذا تبحث الادارة في الاستعاضة عن هذا الوقود بزيت ثقيل يجلب من روسيا اومن الموصل عَلَى مقربة من بغداد ·

كما ان الادارة تفكر في طريقة تحفظ بعض التسويات الترابية فان الخط في كثير من الاماكن ولاسيما في جهات العلا يجتاز اصقاعاً تتألف تربتها من رمال تسفيها الرياح الشديدة التي تثور في بعض فصول السنة فترتفع تلك الرمال تغشي الطريق وتسده وتحمل تلك التسويات التي اقيمت بهذا الرمل ولتقوية هذه التسويات غطوا الحدور والسطوح بطبقة من تراب صلصالي مزجوها بالحصا من حجم مناسب وهو يوجد عَلَى ايسر وجه في جوار الخط ·

اما ادوات الخط فتتألف من ٤٣ قاطرة و ٥١٢ مركبة للبضائع و ٣١ مركبة للركاب · هذا وقد بدئ بانشاء الخط الحجازي في اوائل سنة ١٩٠٠ وتم موءخراً الى المدينة عَلَى مسافة ١٣٠٠ كيلومتر بمعنى انهم مدوا ١٤٠ كيلومتراً في السنة وقد كلف كل كيلومتر بما فيه المحطات والادوات المتحركة من ٣٥ الى ٤٠ الف فرنك وهو قدر زهيد بالنسبة اذا اعتبرنا الاحوال التي تتخلل العمل هناك من الصعوبات عَلَى ان ايدي العملة من الجند هي التي ينسب اليها الفضل في تقليل النفقة

نرى للخط الحجازي من حيث المنافع العثمانية مكانة عسكرية وسياسية كبرى لانه

فيصل عماقريب بخط حديدي لا ينقطع بين الاستانة وبين قطر بعيد كثيراً عنها ويسكنه قوم صعب قيادهم . اما من حيث التجارة فاي فائدة له ؟ وليت شعري هل يكفي نقل البضائع والركاب لوفاء رأس المال الذي صرف عَلَى الخط والنفقات اللازمة لاستثماره وهي ليست قليلة . وهل يختار الحجاج الذين يقصدون مكة الركوب في هذا القطار على السير في طرق القوافل يا ترى ؟ هذه مسائل يحلها المستقبل ثم الا يخشى من انتشار الهواء الاصفر بهذا الخط بين البلاد عَلَى الرغم من المحجر الصحي في تبوك الواقعة عَلَى سبعمائة كيلومتر من دمشق اه .

هذا ما نشرته مجلة الطبيعة الثقة في العلوم الطبيعية والرياضية بشأن سكة الحجاز وقد ختمها الكاتب بما لا تكاد تخلو منه كتابات الافرنج عن الشرق وضعف الامل في مستقبله واعماله ونعني بذلك ان الخط الحجازي لا شأن له من حيث التجارة لان الحجاج قد يؤثرون طريق القوافل عَلَى الركوب فيه وانه يكون واسطة لنقل الوباء من القطر الحجازي الى القطر الشامي . وكل هذا هو الخطأ بعينه لانا نرى الحجاج يؤثرون الركوب في الخط الحجازي عَلَى ما فيه الآن من خلل في ادارته واستثماره وقلة وسائط الراحة ولو وفرت العناية به لظهرت الفوائد التجارية المادية ظهور الشمس في رابعة النهار ويكفي الآن ان الخط بين دمشق والمدينة قد حسن تجارة البلدين كثيراً بل ان من بعض الاراضي عَلَى طول الخط ما عمر او كاد الآن بفضل المواصلات . والافرنج يقولون : مدد الخط الحديدي في قفر ونحن نضمن له العمران فما بالهم يحللون لانفسهم ما يحرمونه علينا ثم ان دعوى ان الخط الحجازي ينقل جراثيم الوباء مسألة فيها نظر بعد ان تحجر الحكومة على الحجاج في تبوك اياماً على انه قد تمر السنين ولا ينتشر الوباء في الحجاز .

المهر والزواج

القى المسيو مالابر احد اساتذة الفلسفة في باريز محاضرة في مدرسة الدروس الاجتماعية العالية قال فيها : ان من يذهبون الى ان التصريح بشرح المحظورات والرذائل امام الطلبة مما يضر بآدابهم ويعرفهم ما كان يجب السكوت عنه معهم هم في ضلال من آرائهم . وان ما يرونه من جهل الاطفال في هذه الامور مما يحفظ عليهم طهارتهم وعفتهم هو الخطر والخطل وذلك لان الجهل لا يعد فضيلة ولا يقوم مقامها لان للجهل حداً وزمناً يقف عندهما وعندئذ يسرع العطب الى الفضيلة . ثم ان من يتوهم بان الشاب يبقى الى السادسة

عشرة من عمره غير عارف باسرار الرجولية هو من العماية بمكان . لان الشاب لا يلبث ان يتعلم من بعض اقرانه الذين هم اعرف منه بهذه الامور ان لم يتعلم ذلك من والديه او معلمه فالوالدة خصوصاً هي اعرف بالزمن الذي يجب ان تنصح به لابنها بما ينبغي له اتقاؤه من المفاسد وهي اقدر من غيرها عَلَى نصحه النصح اللازم بدون ان تمس اصلاً من اصول الحياء . ولكن معظم الوالدين يتسامحون باعطاء هذه النصائح ويتخذون من جهل ابنائهم بما يترتب عليها من المفاسد حجة عَلَى سكوتهم . ومن المعلمين من تضيق صدورهم بشرح ما ينبغي ذكره للشبان مجتمعين ويؤثرون ان يذكروها لبعضهم منفردين ومنهم من يرون ان يعهد ببث هذه النصائح لطبيب الأسرة وآخر للرئيس الديني والاحسن ان يكون امرها بيد المعلمين

يجب ان يقال للاولاد انكم اذا احببتم ان تكونوا في حياتكم اهل شرف وحشمة ان تعرفوا ان الامم يضمحل امرها متى فقدت آدابها وانه لا سبيل الى شخص ان يكون في مبدإ امره فاسقاً ثم يكون في دور آخر صاحب فضيلة محترم المقام . فمن فصول الاخلاق فصل اعتادوا ويا للاسف ان لا يشرحوه لكم عَلَى حين هو جدير بالشرح واعني به علاقة الرجل بالمرأة لما في ذلك من المخاطر والاهواء والشرور والمفاسد التي تعبث بمعنى الفضيلة والشرف والعدل . ان من ابشع ضروب السفسطة ما يزعمه بعضهم من ان خيانة المرأة من اعظم الجنايات ويغتفرون خيانة الرجل وربما عدوها من انواع الظرف والاباء عَلَى حين هما مشتركان في الجريمة وارتكاب المآثم والرياء . ولعلهم يرون ان المرأة مخلوق بلغ مبلغاً عظيماً من الطهر والعفاف وهما لها من الامور الطبيعية السهلة وان الرجل هو من هذه الوجهة محتقر مرذول لا سبيل الى مطالبته بان يسير عَلَى غير ما يسير عليه الخنازير او العصافير . ولعل بعضهم يقول بان خيانة المرأة وهي تأتي الى البيت الابوي بولد ليس منه يشارك اهله في العطف والارث ويسيء استعمال الحقوق الطبيعية التي هي لاهله الاصليين من دون الدخلاء لا تعد شيئاً ولكن الرجل الذي يضع ابنه في غير بيته هل هو اقل ظلماً لأسرته والمجتمع من تلك المرأة وهذه تحمل الطفل في احشائها تسعة اشهر وترضعه وتربيه وتتعب به اما الوالد فيقضي حظه في ساعته ويذهب مختالاً . ولكن هذا الظلم في الحكم عَلَى الجنسين ليس الا اعتقاداً عاطلاً قديماً ورثناه عن الاجداد الذين كانوا ينظرون الى المرأة نظرهم الى حيوان مفترس اودابة ركوب وانها خادمة الرجل وملكه ومتاع، نهبها في الحرب اوابتاعها من السوق وبذلك كانت سرقتها خرقاً لحقه وجنايتها اهانة .

لعظمته وتمكينها من نفسها ضرباً من ضروب الاعتداء على حق غيرها وهي لاحق لها يعرف بتة ·

نعم ليس ثمت ادبان فمن سار سيرة سيئة دنيئة مع امرأة لا يستطيع ان يكون عفيفاً مخلصاً عادلاً بقية حياته ومن استخف بما يقولونه حتى كاد يسري مسرى المثل ان الشبيبة طور من اطوار الحياة ولابد من قضائه اي انه يتسامح مع الشاب ان يأتي ما يأتي · وكم من رجال أفسدوا بهذه الحكمة السخيفة ومن وجدانات يعبث بها كل يوم من تأثيراتها · فمن افظع الامراض التي يصاب بها الشباب مرض الزهري فقد اثبت الاحصاء ان واحداً من كل سبعة رجال يصاب به في فرنسا وواحداً من كل اربعة يصاب به من طلبة باريز فهذا الطاعون الجديد كما يسمونه يحمل معه امراضاً كثيرة منها العقم والفالج العام والموت فكما انه مرض عقام فهو معدي حتى من بعد خمسين سنة فان من أصيب به يحمله الى غيره حتى بعد هذه المدة فقد ثبت ان الاصابات على هذه الصورة ليست نادرة بل ان ١٩ في المئة من النساء يصبن به من رجالهن وينقلنه الى اولادهن وان عشرين الف طفل في سنة يولدون ميتين او يموتون في الشهور الاولى من ولادتهم بسبب هذا الطاعون ومن يعيش منهم يمتون في عاهات وسقوط نفسي وجسدي كاحديداب ظهورهم ووقر في آذانهم وعقلة في السنتهم وضعف في قواهم العقلية وبلاهة وحمق · فاي شاب عاقل يعرض اولاده لهذا المرض بصنعه ويورثه هذه المصائب ولا تؤاخذه نفسه على ما اتى قائلاً انه يكفر عن سيئات ارتكبها ويؤخذ بجنايات اتاها دع عنك ما ينال الشخص نفسه من ضعف القوى العقلية وضعف النشاط والفتاء مما قد يجعل فيه استعداداً للسل وللامراض العصبية والعقلية فمن يسرف في حبه على صورة دنيئة جنونية يوشك ان يهينه ولا يهين المرء حبه الا اذا اهان نفسه فقد قيل ما من امرىء يأتي ما يخجل منه بدون ان يصدر عنه بعض المقت والقذارة · وبهذا رأيتم ان العفة تطالبكم بالاحتفاظ بها لا لحيطة على النفس فقط بل حرصاً عليها من التدنس والعار ·

واني لاعجب لمن يعمد الى اغواء فتاة ثم لا يعلم انه كما تدين تدان ويستاء اذا بلغه ان اخته او احدى اقاربه قد اتخذت لها خليلاً حتى يكاد يموت خجلاً وربما ادى به ذلك الى ارتكاب الجنايات · واني لارثي لحال تلك الفتاة التي أغويت وتركها مغويها بما فيه من دناءة · ومن قال بان جريمته تغتفر اذا استفاد من فتاة اغواها قبله انسان فهو شريكه

في الجرم لامحالة ومن امثال هؤلاء الشبان كثر العهر والفجور احد الادواء الاجتماعية في هذا المجتمع . فمن دناءة الطبع ان يبيع المرء جسمه من كل طالب فهل ترون اقل دناءة من يبتاع جسم غيره ؟ فقد قال فيكتور هوغو كلاماً حرياً بالامعان : يقولون ان الرق زال من الحضارة وهذا وهم لانه مازال بحاله ولكنه رق لاتنوء تحت عبئه الا المرأة وهو مايسمى بالعهر . لايثقل الا على المرأة اي على اللطف والضعف والجمال والأمومة وذلك من موجبات الخجل للرجل

وان من يقول ان الشاب بما يأتي يقوم بواجب طبيعي لانجيبه الا بان مايعمله هو من نتائج التفكر . و يتأتى له ان يفلت من مخالب هذه المفاسد اذا صحت عزيمته وسلمت ارادته فالارادة وحدها هي الباعثة على الشهوات واذا قيل ان مقاومة الطبيعة صعبة فانا نقول بان مايصرف من القوى في جهاد النفس والهوى اقل مما ينصرف منها اذا سار المرء بما تمليه فطرته الرديئة . ومن خلص نفسه من هذه المآزق كان خليقاً بان يعد مالك نفسه ثبت الارادة متين الاخلاق كريم العواطف وكل ذلك من صفات الرجولية

فعليك ياهذا ان تعلي قدر « الحب » وان لاتبتذله لانه اجمل مافي الارض واقدسه وان تعلي قدر المرأة بحيث لاتهان لانها في البيت والمجتمع حارسة الكمال وهي في ذاتها جزء بل اشرف جزء من الكمال في الحياة وعليك ان تتمثل ابداً المرأة في ذهنك صورة حية كما تتمثل اختك وامك صورة الطهر واللطف واعتقد بما قاله تورية : « ان من يتزوج شاباً وهو سليم البنية و يختار فتاة شريفة سالمة من العاهات و يمازج حبها شغاف قلبه و يبذل كل نفسه وقواه و يجعلها رفيقة امينة له واماً ولوداً و يميل لتربية أولاده ويكون لهم خير مثال بمدوفاته هذا هو الحقيقة وما عدا ذلك خطأ وجناية وجنون » . ولااسهل عليك من التوقي من ضروب الاغواء والغواية اذا ازمعت ان تتزوج شاباً وفكرت فيمن تكون اليفة حياتك ممن ربما تكون عرفت صورتها من قبل واحببتها وكتمت حبها في صدرك فتشاطرك في الحياة آلامها وافراحها وهي تكون لك عوناً كما انت لها عون بما تشعر به من حبك لها حباً دائماً جميلاً وتتخذ من جسدك وروحها احسن مادة تؤلف منها جسد ولدك وروحه .



شعبان سنة ١٣٢٧

غرائب الغرب

الرحيل من دمشق الى لبنان

١

كان من اعظم اماني النفس منذ بضع سنين ان ارحل الى اوربا رحلة علمية اقضي فيها ردحاً من الدهر للتوفر على دراسة حضارة الغرب في منبعها واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المنزهون والعلماء العاملون والساسة المستعمرون والقادة الغازون والتجار والصناع والزراع والماليون وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها .

وكانت الاحوال تعوق هذا القصد عن اتمامه وتحول دون البغية المنشودة الى ان قدر الله فاقام والي سورية السابق تلك القضية الملفقة على جريدة المقتبس واحتال انتقاماً لنفسه لاقفال المطبعة وتوقيف الجريدة والمجلة قبل صدور حكم المحكمة علي" فقلت الآن حان وقت الرحلة في طلب ما لم نتفرغ لتحقيق ما في الخاطر ريثما يتبين الحق من الباطل والحالي من العاطل وعسى

ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ·

في الهزيع الاخير من ليل الثلاثين من رمضان (١٣٢٧) ركبت من دمشق عربة مع صديقين عزيزين قاصدين قرية القابون وفي ظاهرها وقفنا لحظات الى ان وصلت فرسي ومعها صديق لي آخر راكباً فرسه فركبنا وعاد ذانك الحبيبان الى المدينة · وكان بدأ في تلك الساعة الاشراق في الافق والسكون لم يبرح مستحوذاً على الارباض والرياض ولم نكن نسمع من بعيد غير قعقعة اجراس الطحانين والمكارين وصياح الديكة او عواء الكلاب وما كدت اعلو متن مطيتي حتى ترامى الى مسمعي صوت مؤذن القابون ينادي « هلموا الى طاعة الله يرحمنا ويرحمكم الله » فقلت كلمة حق لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لها لرحموا ولكنها جمل جميلة تقال ومعان شريفة لا يعمل بها وعادات ألفت بمعزل عما فيها من الأسرار النافعة في صلاح المعاش والمعاد ·

التفت الى الغوطة الدمشقية التفاتة اخيرة وهي احب بقعة الى قلبي في الارض وقد كشر في افقها شفق الفجر فذكرت طرفاً من ايامها البيض والسود · ذكرت الغوطة المحبوبة وذكرت مطامع البشر وانحطاط اخلاقهم وعقولهم فقاد ذلك الى التفكر في شقاء الانسان بالانسان وموت بعض لحياة كلّ وافتقار مئات لاغناء افراد وشقاء ربوات لسعادة عشرات وتعب فريق لراحة امة فتمثل لي عجيب صنع المولى في خلقه سبحانه لا يبقي العالم على حال هو المعز المذل القابض الباسط المغني المفقر يقلب الارض ومن عليها ولا يرثها الا عباده الصالحون ·

سارت بنا مطيتانا فاجتزنا قرية برزة ومعربا ولم تشرق الشمس الا وقد

قطعنا اراضي معربا واشرفنا على اكماتها فالتفتنا الى ماوراءها وقد تجلت لنا بعض بقاع الغوطة والمرج من خلف الجبال فالقينا عليها نظرة الوداع واغذذنا السير الى بسيمة ومنها الى دير مقرن فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد وفي هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر ·

ولم اشهد هذا الوادي وكنت مررت به راكباً منذ ستة عشر عاماً شيئاً من التغير والارتقاء المحسوس فالفلاح فيه لايزال ينتظر موسم الفاكهة ان سلمت اشجاره من لفحات الجليد يرتاش تلك السنة ويعتاش برمانه وجوزه وتفاحه وكمثراه وتينه وعنبه والا فيضطر في الاكثر الى الاستدانة على الموسم المقبل وان كان على شيء من القوة والجلد يرحل الى بعض الكور المجاورة كقرى وادي العجم او الغوطة يعمل فيها اشهر الصيف ليأتي في الشتاء بمؤونة تكفيه من الحنطة في كنه وكانونه

وذلك لان هذا الوادي منذ قرية دمر حتى سوق وادي بردى لايغل من الحبوب مايسد عوز سكانه بعض السنة لغلبة اليبوسة على جروده وجباله ولأن اكثر تربته صخرية تحتاج للعمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة لتأتي اكلها · اما الاشجار وبعض الخضر والبقول التي ينتفع بها الفلاح هنا فالفضل لنهر بردى في اروائها يأخذ من مائه في مجاري يعليها بقدر حاجته او اكثر

ولقد اخذت اثمان الفواكه تأتي اصحابها بارباح اكثر من السنين السابقة خصوصاً منذ تم استثمار السكك الحديدية في سورية كسكة بيروت — دمشق — حوران وسكة دمشق — حيفا — المدينة وسكة دمشق — حلب — بيرهجك (البيرة) فاصبحت ثمارهم تصدر الى الجهات القاصية

وكانوا يقدمون اكثرها في سني الخير علفاً للدواب او يلقونها في الطريق لان العطلة في نقلها من محلها الى دمشق او بيروت مثلاً على الدواب لاتقوم باجرة المكار ودابته ·

نعم لم ار ارتقاء محسوساً في حالة فلاح وادي بردى واني يتم له ارتقاء وليس له طريق يسلك غير ماحفرته اقدام المارة وحوافر الدواب والماشية وجرفته السيول والرياح منذ قرون · فالطرق المعبّدة المطروقة لا اثر لها في هذا الوادي ولعل ذلك ناشيء من كونه حديث عهد بالحكومة المنظمة فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لاقضية بعيدة اما الآن بعد ان غدا من مركز قضاء الزبداني على بضع ساعات فقد بات يرجى بفضل قائمقامه الغيور ان تنتظم لاهل قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة الولاية ليتيسر للناس الغدو والرواح من أيسر السبل · وما اخال ذلك معتذراً على الحاكم اذا حث اهل كل قرية ان يقوموا بانفسهم لتمهيد طريقهم ايام انقطاعهم عن العمل كفصل الشتاء مثلاً لما يعرفون من الفوائد التي تنجم لهم عنها او يعلمونها بواسطة الموظفين الامناء وان كانت هذه الطريقة لاتخلو من محظور لأنها تؤدي الى السخرة والسخرة ممنوعة بنص القانون الاساسي · وتمهيد الطرق وبث الأمن من جملة الفروض العينية على كل حكومة ·

وبعد فانه لاوجود في وادي بردى لسائر المرافق التي يتمتع بها الفلاح في البلاد المتمدنة وذلك لان الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهمها من الفلاح الا ان تأخذ منه لاان تهيء له سبيل الاخذ · فكان قصاراها تكثير الجباية وتوفير الضرائب واخذ من تريده للخدمة العسكرية اما امتاع الاهلين

بالوسائل الصحية وتعليمهم الطرق الزراعية القريبة المأخذ وفتح سبل المواصلات ورفع علم الامن وتعليمهم الضروري من القراءة والكتابة فكانت أموراً لا تعرفها لا في وادي بردى فقط بل في جميع اودية البلاد العثمانية وسهولها وجبالها ·

ومن اغرب ما رأيناه في وادي بردى ان بعض قراها تحفر القبور لموتاها امام الدور فترى حي الاحياء مع حي الاموات وما ادري هل يأتون ذلك بالقصد حرصاً على رفات موتاهم من ان تسطو عليها الوحوش الكاسرة في مدافنها اذا لحدوها بعيدة عن العمران ولو بضع خطوات او انهم يؤثرون دفن الموتى امام اعينهم ليذكروا كل شارقة وبارقة مصير الانسان الى دار البقاء ويزهدوا في دار الفناء فلا يهتمون باسباب الهناء والصفاء

ومما عمت به البلوى في الفلاحين انك ترى القاذورات ايضاً تعمي العيون وتخنق الانفاس فترى روث البهائم وغائط الآدميين وسط الدور وخلفها وقدامها وعن ايمانها وشمائلها · ولولا بقية من عادة النظافة والتطهر ورثها المسلمون بالتسلسل عن آبائهم وشيء من جودة الهواء في الجملة في القرى لما بقيت باقية لسكان هذا الاقليم ومن حوله ·

ركبت صبيحة العيد ورفيقي قاصدين سوق وادي بردى ولعلها سميت كذلك لسوق كانت تقام فيها فيما مضى للبيع والشراء على العادة في اسواقنا الباقية حتى الآن فيقال مثلاً سوق الأحد وسوق الجمعة وسوق الخيل وسوق الحمير · ولهذه الاسواق أمثال في اوربا · وبالقرب من السوق تضيق فوهة الوادي وينقطع العمران ليخرج منه الى منفسح وادي الزبداني · وجبال السوق لا تخلو من نواويس قديمة على نحو ما تجد منها في جبال الشام محفورة في الغالب في القمم والآكام

ومن السوق انتهي بنا نفس السير الي قرية عيتاالفخار من اعمال البقاع العزيز وهي القرية التي اشتهرت منذ عهد بعيد بفخارها الذي تطبخه اكثر بيوتها في تنانير خاصة وتبيعه في المدن الداخلية من اعمال دمشق ٠

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ اطللنا علَى عيتا ورأينا بيوت القرميد التي بنيت بالحجر النحيت علي المثال الذي نشاهده في اكثر بيوت سورية ٠ وعلمنا ان سبب ماشاهدناه من جمال المساكن في عيتا تلك الامـوال التي جلبها بعض سكانها من هجرتهم الى اميركا واحبوا حتى من لاتحدثهم انفسهم بالسكنى ثانية في عيتا ان يظهروا غناهم بانشاء الدور المنظمة ليصح عليهم المثل العربي « ابت الدراهم الا ان تخرج اعناقها » « ان الغني طويل الذيل مياس » او الاثر المشهور « ان الله يحب ان يرى اثر نعمته على عبده » وليس كالبيوت تنم عن يسار وتدل علَى سعة ٠ وبعد عيتا مررنا بكامد اللوز فجب جنين فلالا فبعلول من وادي البقاع وفي هذه القرية بتنا عند رجل من اهلها انزلنا عنده واكرمنا ولم يعرفنا ومع حرصه علَى معرفتنا اكتفينا من التعريف بالتعريض وفي المعاريض مندوحة عن الكذب ٠

وقد سرت الى هذه القرية والى جميع قرى البقاع عدوى الهجرة وتناول الاغتراب السكان علَى اختلاف نحلهم ومن حديث كثير من البقاعيين تبين ان اهل كل قرية في الغالب يؤثرون في بلاد المهجر اقليماً خاصاً لهم ينزلونه او مملكة يوجهون وجهتهم اليها فيقصد مثلا اهل قرية كذا ولاية كذا من شمالي اميركاواهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرون ينزلون كندا وغيرهم اوستراليا وفريق السنيغال وبعض الترنسفال فكأن عدوى الانتقال تسري اليهم بالعشرة فلا يحب المواطن الا ان يقلد مواطنه

في مآتيه ومنازعه بل في شقائه وسعادته · وقد اذ كرناهذا بحال العرب في الفتح و بعده فكان القيسيون ينزلون بلد كذا واليمانيون اقليم كذاثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الاندلس كان جندالشام يختار بقعة غير التي اختارها جند حمص ولذلك كان الجند يدعون كل بلد ينزلونه باسم بلدهم الاول كما يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن مثل ذلك في الولايات المتحدة ·

وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة فمررنا بجسرها المخرب الممتد على نهر الليطاني وانجدنا قاصدين جزين اول حدود لبنان الى الجنوب · ومشغرة اقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة في البقاع الغربي وهي مشهورة الى الآن بدبغ الجلود للاحذية اشتهار مدينة زحلة او اكثر والمسافة بين مشغرة من اعمال ولاية سورية وجزين من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعلو قمة عالية ثم تنحدر في واد عميق ·

ومع ان قضاء البقاع من اعمر اقضية ولاية سورية بزراعته لخصب تربته وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرقي ومتاخمته لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ماتنبته ارض البقاع من الحبوب والثمار ومع كثرة الاعيان الذين يملكون فيه المزارع والاراضي الواسعة ومنهم من انشأ فيه حقولاً انموذجية حقيقية و صرفوا عليها الاموال الطائلة واستخدموا لها احدث الطرق الزراعية كالاراضي التي عمرها نجيب بك سرسق في عميق ودير طحنيش واقامها الآباء اليسوعيون في تعنايل — مع كل هذا العمران المستبحر وما تأخذه النافعة من اموال الاهلين كل سنة باسم الطرق والمعابر لاترى في القضاء طريقاً مسلوكاً اللهم الا طريق الشام القديم الذي تركته شركة البلجيكانس لما انشيء خط بيروت الحديدي · وقيل لنا ان الحكومة

صح عزمها مؤخراً على انشاء طريق عجلات بين المعلقة مركز القضاء وبين مشغرة في غربه وان هذا الطريق وصل او كاد الى قرية عيتنيت ولعله جسماً لا اسماً كاكثر الطرق التي انشأتها النافعة في الولايات فكانت نفقاً بلا معنى واسماً بلامسمى لم ينشأ عنها الا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العمران وخدمة الاوطان ·

وصف لبنان الطبيعي

٣

كنت في لبنان اشبه بابي زيد السروجي او ابي الفتح الاسكندري احتاج الى راوية مثل الحارث بن همام او عيسى بن هشام يروي كلٌّ منهما لمثل الحريري او بديع الزمان تلك المظاهر التي اضطررت الى الظهور فيها لانجو من مخالب عدو ممازق او جاسوس مخادع وليتيسر لي درس حالة البلاد بدون حجاب ·

فقد قيل اكتم ذهابك ومذهبك وذهبك ولكن هذه القاعدة لا يرضاها منك اللبنانيون الاذكياء فتجدهم يحرصون كل الحرص عَلَى استطلاع طلع كل مصطاف بينهم او سائح في جبالهم والوقوف عَلَى مقصده ومبلغ ثروته والدين الذي يدين به · وربما كان سؤالهم عن الاخير قبل كل شيء لان عامتهم متدينون جداً فهم يسرون اذا شعروا انهم يتعارفون الى رجل يشاكلهم في المعتقد · واني لمن قضى عليه شدة اخلاصه في خدمة وطنه ودولته ان يصرح لهم بهويته وهو مشرّد طريد محكوم عليه بالجناية حكماً قره قوشياً !

... وذعني رفيقي غداة وصلنا الى جزين وعاد الى الفيحاء وبقيت وحدي لا رفيق لي الا كتابي وفرسي · فانقلبت لساعتي من جزين قاصداً دير القمر فاجتزت اليها تاترو وعماطور والمختارة وغيرها والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء الغاية تمشي فيه وسط اشجار الزيتون وهي غابات غبياء في الشوف كما ان اشجار الصنوبر كذلك في قضاء المتن · ودير القمر هو مركز الجبل القديم وصلت اليه قبيل الغروب وقد بدت القصبة بابنيتها الشاهقة كالعروس في حليها وعكست شمس الاصيل على زجاج نوافذها وسطوحها فاختلطت الحمرة بالصفرة بالخضرة بالزرقة فكان اجمل منظر تقع عليه عين انسان · واهل الدير كمعظم سكان الجبل موصوفون بالرقة وحسن المعشرة يتحببون الى الغريب كيف كانت حاله · وفي هذه القصبة الى اليوم جامع قديم من القرن العاشر بناه احد امراء لبنان ولا يزال الديريون يحرصون على سلامته فيتعهدونه بالعمارة وان لم يكن له من يقيم فيه الصلاة ·

وقصبة الدير بكثرة سكانها وتوفر مرافق الحياة فيها اشبه بالمدن منها بالقرى وهي مشهورة بتجارة الحنطة تحمل اليها من حوران فتوزع في الاطراف · وليس دير القمر وحيداً في نوعه باكتظاظ الاقدام فيه فمدينة زحلة لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين الف نسمة واوصل بعضهم نفوسها الى خمسة وثلاثين · وتكثر النفوس في حمانا وراس المتن وبرمانا وبيت مري وبحمدون وبيت شباب وبكفيا وبسكنتا وبعبدا والشوير وحصرون والشويفات وحدث الجبة وبسقاين ومجدل المعوش وعالية ومعلقة الدامور وجزين وجبيل واهمج وتنورين وجمشيت وغزير وجونية وكفر ذبيان

والبترون واهدن والهرمل وأميون وزغرتا وكوسبا وفي غير ذلك من القصبات التي يعد فيها النفوس بالالوف والمئات

والقرى والمزارع متصلة خصوصاً في المحال التي ترتفع كثيراً عن سطح البحر ولا يتعذر العيش فيها في الشتاء لكثرة ثلجها و بردها وجليدها واعاصيرها وما اشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن تسعمائة وستة وخمسين قرية (١) الا بقصر فخيم جميل واسع الارجاء محفوف من اطرافه بالرياحين والازاهير العطرية وغرفه الكثيرة تلك الدساكر والضياع لا يكاد المتجول يمل من مقصورة حتى ينتقل الى أخرى وما اسرع وصوله اليها من تلك الطرق المعبّدة وهذا القصر مزدانة افنيته واروقته باقصى ماتخص به يد الصانع من بدائع الزينة و يد المخلوق لم تقصر كثيراً في تعهده ·

معنى لبنان الابيض وهو اسم عبراني سمي به لتعمم قممه بالثلج في الشتاء والربيع وبعض الصيف · وقد ورد ذكره في الشعر القديم فقال النابغة الذبياني :

حتى غدا مثل نصل السيف منصلتاً يقرو الاماعز من لبنان والأكما

وقال احمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن الخراساني الطرابلسي من المحدثين :

دعوني لقاً في الحرب اطفو وارسب ولا تنسبوني فالقواضب تنسب
وان جهلت جهال قومي فضائلي فقد عرفت فضلي معدٌّ ويعرب
ولا تعتبوني اذ خرجت مغاضباً فمن بعض مابي ساحل الشام يغضب
وكيف التذاذي ماء دجلة معرقاً وامواه لبنان الذّ واعذب

(١) دليل لبنان لابراهيم الاسود

فمالي وللأيام . لا درّ درُّها تشرّق بي طوراً وطوراً تغرّب

وانشد المتنبي في مدح ابي هرون بن عبد العزيز الاوارجي في قصيدة :

بيني وبين ابي علي مثله شمُّ الجبال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وقال البحتري :

وتعمدت ان تقلّ ركابي بين لبنان طلماً والسنير
مشرفات عَلَى دمشق وقد اعـ رض منها بياض تلك القصور

وقال الجغرافي اليزه ركلو من المتأخرين يصف (١) لبنان : اذا ماالقيت ببصرك من البحر الى سلسلة لبنان المستطيلة رأيت من هذا الجبل منظراً مهيباً فيلوح لك ازرق او وردياً في الصيف ومشتملاً في الشتاء والربيع بجلباب ثلجه الفضي واذا تصاعدت الابخرة في الجو البست قممه الشامخة ثوباً شفافاً هوائياً غاية في اللطف بيد ان جمال هذا المنظر لايخلو من سطوة الشدة فترى ذاك الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لايقوم في وجهه قائم عَلَى ان النظر الى محاسن هذا الجبل عن كثب هي دون جماله عن بعد فترى ظهره عَلَى طول ١٥٠ كيلو متراً اقهب اجرد لاتكسوه الخضرة · اوديته متشابهة ومشارفه كأنها قدت عَلَى قالب واحد ·

وقال الاب لامنس : ان لبنان اشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من الجنوب الغربي الى الشمالي الشرقي وفي الجهة الشرقية تراه ينقطع بغتة اما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعاً متعددة عَلَى هيئات شتى من آكام وبطون وسهول وربي متسلسلة يدخل بعضها في بعض واذا استثنيت هذه

(١) تسريح الابصار للاب لامنس

التفرعات الثانوية والتجعدات الغير المتسقة تحققت ان سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية وجانب كبير من البساطة ولذلك قلما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقر بها العين وانما يقع البصر على حاجز كبير في حدود الافق يتواصل على خط مستقيم لاتكاد قممه العليا تمتاز عن بقية اقسامه ·

ووصف شكله ايضاً فقال : ومن تفرع الجبل من الجنوب الى الشمال وجده يتزايد علواً وكذلك يتسع عرضاً ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيدا ومشغرة لوجده يزيد عن ٢٩ كيلومتراً وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس ٣١ كيلومتراً ومعظم اتساعه بين طرابلس والهرمل ٤٦ كيلومتراً فيكون لبنان على كل ذا شكل مربع منفرج عن زاويتيه العلويتين اه ·

ولقد قدروا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر يحده جنوباً صيداء واعمالها وشمالاً طرابلس وكورتها وشرقاً ولاية سورية وغرباً البحر المتوسط ومدينة بيروت · هذا هو حده الجديد وهو المعروف بلبنان الغربي والاصل في التسمية · ويطلقون اسم لبنان الشرقي على وادي التيم وجبل الشيخ (حرمون) اي على قضاءي حاصبيا وراشيا وما اليهما والبقاع فاصل بين اللبنانين · وحده القدماء فقالوا : (١) انه جبل مطل على حمص يجيء من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل وما كان بالاردن فهو جبل الجليل وبدمشق سنير وبحلب وحماة وحمص لبنان ويتصل بانطاكية والمصيصة فيسمى هنالك اللكام ثم يمتد الى ملطية وسميساط وقاليقلا الى بحر الخزر فيسمى هنالك القبق قال وفي

(١) الازهري في معجم البلدان لياقوت الحموي

لبنان سبعون لساناً لايعرف كل قوم لسان الآخرين الا بترجمان (؟) وفيه من جميع الفواكه والزروع من غير ان يزرعها احد وفيه يكون الابدال من الصالحين ٠٠ وقال القلقشندي ثم يمتد لبنان الى الشمال ويجاور دمشق واذا صار في شماليها سمي جبل سنير ٠

وعلى ذكر الصالحين نقول ان لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس الى العبادة فيه فقال ابن جبير في كلامه على العلم والمتعلمين في الشام في القرن السادس للهجرة ما نصه : وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم ان احب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال وينهال الخبز عليه من اهل الضيعة و يلتزم الامامة او التعليم او ما شاء ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى او يصعد الى جبل لبنان او الى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف الى حيث شاء ٠ ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به احد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت واحسنوا اليهم ويقولون هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فيجب مشاركتهم وهذا الجبل من اخصب جبال الدنيا فيه انواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة وقل ما يخلو من التبتل والعبادة ٠ وقال ابن بطوطة في القرن الثامن : ان جبل لبنان من اخصب جبال الدنيا فيه اصناف الفواكه ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه ٠

قلنا ولكن الشهير المعروف اليوم بالاحصاء ان في لبنان نحو الفي راهب وراهبة لهم ١١٨ ديراً ما عدا الكنائس والبيع والصوامع التي لاتخلو قرية عن

واحدة او عدة منها ولا يقلّ دخل الرهبنات والاديار فيه عن مئة وخمسين الف ليرة في السنة كما أكد بعض العارفين . وهو نحو ثلث ايراد لبنان بأسره . وفيه المحابس التي ينقطع فيها الى النسك بعض الرهبان فيقيمون في مغارة او مكان منفرد يتعبدون في الخلاء . زرت احدهم في مديرية القاطع فرأيته متوفراً على كرم له هناك حتى جاد واخصب يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى نضج ويصرف شطراً من وقته في النسك والصلاة . ولو قام كل امرىء بالواجب عليه فسعى للمعاش سعي هذا الحبيس وعبد الله وخافه لارتفعت الشرور من البشر وقلّ احتياجنا للحكومات وقوانينها . وهذه المحابس (١) قديمة في لبنان ترد الى عهد هيلاريون الناسك او قبله وفي عدلون بين صيداء وصور على مقربة من صرفند عند الجسر صخر عال حفر فيه نحو مائتي كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم .

وبالنظر لتوسط لبنان من سورية كان نافعاً بعمرانه لها بطبيعته فكان علو قممه — واعلاها ظهر القضيب علوه ٣٠٦٣ متراً ثم في الوسط جبل صنين وعلوه ٢٨٠٦ متراً واعلى نقطة في جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً —وتكاثر ضبابه وكثرة اشجاره وقربه من البحر كلها داعية الى كثرة الثلوج والامطار فيه فيتكون من عصاراتها ومسايلها انهار ذات شأن عظيم في عمران الشام . فمن سفوح لبنان تنبجس اعظم انهار سورية فنهر العاصي الذي يروي اراضي وادي حمص وحماة وانطاكية ينبجس من الهرمل في شمالي لبنان ونهر الليطاني الذي يروي بلاد صيداء وصور وتنتفع به بعض بلاد البقاع ينبع من لبنان ونهر طرابلس المسمى بنهر ابي علي ويعرف قديماً بقاديشا يخرج من

(١) تسريح الابصار

سفح لبنان ونهرا الكلب وبيروت اللذان يسقيان مدينة بيروت وضاحيتها ينبجسان من السفح الغربي من لبنان ونهر البردوني الذي يسقي زحلة وبعض البقاع هو لبناني المنبع ايضاً · ومن لبنان الشرقي ينبجس الاردن «الشريعة» كما ينبجس من غرب لبنان الغربي نهر ابراهيم

فلبنان في فائدته لسورية اشبه بجبال الالب في سويسرا او بنيل مصر من حيث امتداد المنافع · وللالب والنيل المثل الاعلى · وفي لبنان عدة ينابيع منها نبع الاربعين ونبع صنين وبقليع واللبن والعسل والباروك وعين زحلتا وقد زرت هاتين الاخيرتين

وصلنا الى الباروك في زهاء ساعتين من دير القمر مارين ببيت الدين مركز متصرفية لبنان الصيفي وكفرنبرخ وبعض المزارع وقرية الباروك في واد منفرج قليلاً تنبع عينها على قيد غلوة منها اما المصطافون فيها فيختارون في الغالب النزول باقرب من رأس العين في نزل هناك او خيام لهم يضربونها وسط الحراج المبثوثة على آكام الباروك وجبالها فيوفر لهم بذلك الى جودة الماء التي مابعدها جودة فيما اظن — طيب الهواء ونسيم الارز والصنوبر العليل البليل · ومن الباروك الى عين زحلتا ساعة على الراكب وفي هذه القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين اليها للتمتع بنبع الصفا وقاع الريم اللذين ينبعان في ظاهرها ولتسريح عيونهم بجمال موقعها وخصب واديها وحراجه الغبياء · وعين الباروك وعين زحلتا على مساماة واحدة في العلو وماؤهما يكاد يكون متشابهاً والطريق من عين زحلتا الى عين صوفر ماراً بطريق السكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربة او على الراكب وهذه العيون ينتفع بها كلها في سقي الحدائق في القرى البعيدة والقريبة

ومن صوفر قصدت حمانا وقرنايل فصليما فعبدات فبحنس فبكفيا فبيت شباب فالشاوية فالفريكة · وهنا قضيت مع صديقي الابر امين افندي ريحاني الكاتب الشاعر المفكر الشهير اياماً رائقة ريثما ركبت البحر من بيروت قاصداً القطر المصري فاوربا · هذا وقد كان سبق لي منذ سنين ان زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحلة فاكون هذه المرة بما خبرته من حال هذه الاقضية الثلاثة الاخرى وهي جزين والشوف والمتن خليقاً بان اتكلم على الجبل خصوصاً ولم ينقصني منه الا قضاء الكورة فقط ·

نبذة في تاريخ لبنان

لم يخرج لبنان في دور من ادواره عن كونه معقلاً حصيناً كل من ساده يكون في الاعم من حالاته الى الشدة والمضاء يتعب من يسودهم وقد يتعب به جيرانه من اهل البلدان الاخرى · ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ معظم المقاطعات السورية استقلالاً وخضوعاً للغريب ولكن ايام الاستقلال اكثر من غيرها في غيره من اقاليم الشام

والغالب ان قاصيته خضعت للفينيقيين كما خضعت شواحله واستولت عليه حكومة الايتوريين العربية في عهد الروم · والايتوريون شعب شديد الشكيمة مولع بالحروب اكتفأ من حوران واللجاه بلاده ونزل البقاع فانشأ له مدينة شالسيس او عين جر جعلها عاصمة واخذ يشن الغارات على لبنان ويتقدم الى الامام حتى تيسر له ان تسور قممه واخضعه لسلطانه ثم انحدر الى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزاً ثانياً (١) واكثر من كانوا

---

(١) تسريح الابصار

يتأذون من بأس الايتوريين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لانفسهم طولاً ولا حولا

نعم خضع هذا الجبل للفاتحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس اتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الايتوريين فنزل المردة (٢) في الشمال اوائل القرن الاول للهجرة ثم جاء التنوخيون ونزلوا جنوبيه وتوالى عليه الامراء المعنيون فآل عساف التركمان ومن سلالة المعنيين الامير فخر الدين الذي عهد اليه السلطان سليم فاتح سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن امرائهم الامير بشير المالطي الثاني ومن امراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذكر ٠

وروى التاريخ ان سكان كسروان اخذوا في القرن السادس واوائل القرن السابع للهجرة يطيلون ايدي اعتدائهم على ابناء السبيل يخطفون المسلمين ويبيعونهم من الاعداء فكان عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين او الظنينين كما سماهم ابو الفداء وجيوش التتار التي انهالت على هذه البلاد كالسيل العرم ان نجا المسلم من التتري لا ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩) ولذا سار شيخ الاسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح اولئك العصاة فلما لم ينجع النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالاً هائلاً بزعامة جمال الدين اقوش الافرم نائب دمشق ٠ والغالب ان سكان كسروان كانوا اذ ذاك خليطاً من النصيرية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة ٠

(٢) هذه اللفظة فارسية ومعنى مرد الرجل

وما زال نواب الشام (١) الاشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يحاربون النصيرية في كسروان حتى اخرجوهم وجعلوا بدلهم قوماً من التركمان في بعض النواحي وبقي كثير من المتاولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان ولا سيما جبيل واعمالها من ايدي الافرنج سنة ٥٨٣ فرتب (٢) في جبيل قوماً من الاكراد لحفظها فبقيت على ذلك الى سنة ٥٩٣ فباع الاكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الافرنج بعد صلاح الدين لان الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال

ولذلك امر حسام الدين لاجين نائب دمشق بان تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الافرم كما تقدم اذ قضى بقطع كرومهم وتخريب بيوتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وتفرقوا في البلاد ايدي سبا ·

ولما انتشر التركمان بكسروان سنة ٦٠٦ تداركوهم (٣) بثلاثمائة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا يمنعون من يستنكرونه ان يتعدى دربند نهر الكلب الا بورقة طريق من المتولي او من امراء الغرب كما كانوا يفعلون بقطية (٤) على درب مصر وجعلوا التركمان ثلاثة ابدال كل بدل يقيم في الدرك شهراً لحفظ المواني والدروب · وفي سنة ٦٨٦ صدر منشور من ملك الامراء

(١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى

(٢) معجم البلدان لياقوت

(٣) تاريخ بيروت

(٤) قرية في طريق مصر وسط الرمل كانت المجاز بين مصر والشام

لاجين نائب الشام عن الملك المنصور قلاوون الى جمال الدين وزين الدين ابن علي انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر الى جهة كسروان والجرد ان يتوجها اليه بجموعهما واسرتيهما وان من سبى امرأة منهم كانت له جارية او صبياً كان له مملوكاً ومن احضر منهم رأساً فله دينار وان سنقر توجه لاستئصال شأفتهم ونهب اموالهم وسبي ذراريهم · وهذه الفقرات على شدتها لم تصدر عن امراء الشام الا بعد ان طفح كأس صبرهم من تمرد الكسروانيين

واختلف العلماء في اصول سكان لبنان والارجح انهم خليط من الفينيقيين والآراميين والروم والعرب مزجتهم بودقة واحدة فغدوا مزيجاً واحداً كما هو حال معظم البلاد فانك ترى كثيرين من اسرات لبنان المشهورة نزحت من بلاد حلب وحماة وحمص وحوران في الداخلية ولاسيما في القرون الخمسة الاخيرة · ذكر المؤرخون ان معاوية نقل الى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء قوماً من الفرس يسكنونها · وذكروا ايضاً ان ابا جعفر المنصور العباسي لما قدم دمشق من بغداد قدم عليه من بلاد المعرة الامير ارسلان واخوه الامير منذر بجماعة من عشيرتهما فطابت نفس الخليفة بهما فامرهما ان يسكنا في جبال بيروت الخالية من السكان وانعم عليهما بمقاطعات معلومة فسكنوا وبعضهم في كسروان واخذوا يشنون الغارات على مجاوريهم وفي بعضها احرقت قرى من كسروان السفلى وتقوى الامراء الارسلانيون بعشائرهم وعمروا العمائر في الشويفات وجوارها ·

اما الموارنة فكان اول منشأهم في شمالي سورية في الاغلب ينتسبون الى قديس لهم اسمه مارون وهم طائفة كاثوليكية لا يكادون يختلفون عن الكثلكة

في امر جوهري في المعتقدات جاؤا شمالي لبنان اولاً وما زالوا يمتدون ويطردون سكان الجبال الاصليين او ينصرونهم ويدمجونهم في جملتهم حتى بلغوا الجنوب واحتفظ الدروز ببلادهم بما فيهم من الشدة والاباء ·

وزعم بعضهم ان الموارنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد لانه لايوجد بين اديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع عشر وان جبيل والبترون كانتا على الحياد مع الصليبيين فلم تنحازا اليهم ولا للمسلمين اصحاب البلاد الا ان هذا لم يمنع من الرواية الثانية من ممالأة الموارنة للصليبيين ودلالتهم على الطرق ونجدتهم (١) لهم وثباتهم معهم على العهد الى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٣٠٢م ومن اجل هذا اضطر حكام البلاد ان يحرقوا ويقتلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل اهدن وبقوفا وحصرون وكفرسارون والحدث

وما برح لبنان ينقسم بين امراء المقاطعات يحكمونه على النحو الذي كانت عليه صورة الحكم في البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات· يقوى اليمانيون تارة والقيسيون اخرى والناس معهم في امر مريج ومن التحزبات القيسية واليمانية ماوقع في الربع الاول من القرن السادس عشر للميلاد بين الامير فخر الدين المعني القيسي وجمال الدين الارسلاني اليمني · قال المقريزي وعشير الشام فرقتان قيس ويمن لا يتفقان قط وفي كل قليل يثور بعضهم على بعض ·

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزبكي نسبة الى يزبك جد الشيخ عبد السلام العماد زعيمه والجنبلاطي نسبة الى الشيخ علي جنبلاط زعيمه الآخر

(١) تاريخ البطريرك الدويهي وتاريخ المقاطعة الكبيروانية للخوري منصور طنوس الحتوني

وذلك سنة ١٧٢٩ — ١٧٥٤ وامتد في لبنان ولم يزل له اثر كما نشأت احزاب اخرى كالملوفي والمكارمي ومثل هذه الاحزاب قد لا تخلو من حدوث فتن تهرق فيها الدماء وتكثر الأيامي والاماء كما فعل الحماديون واحرقوا بلاد جبيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها الى بلاد ابن معن وكانت العداوة بين بني سيفا وبني معن سبباً في تخريب الجبل ايضاً ٠

ومن الوقائع التي ليتمت فيها الاطفال تلك الوقعة التي جرت في القرن العاشر عقيب ان نهب بعض امراء لبنان الصرة السلطانية من جون عكا بينما كانت محمولة الى الاستانة فجمع ابراهيم باشا صهر السلطان مراد بن السلطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب وقدم بها الى مرج عرجموش قرب زحلة وامسك طريق البحر والبقاع على الدروز فقتل نحو ستمائة منهم واسر بعض الامراء ٠

وما زالت حال الجبل في اقبال وادبار تقع اليوم فتنة العاقورة وغداً وقعة مرخلاتا وبعده وقعة ارض خلدة ثم فتنة برج الغلول وبعد ذلك وقعة عين دارة حتى اقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمر باشا النمسوي والياً فلم تطل مدته حتى منحت الدولة للجبل امتيازات وقسمته في السنة التالية الى مقاطعات ٠ وتعرف الاولى (١) بقائمقامية النصارى وهي الشمالية تمتد من نهر البارد في عكا الى طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت تولاها الامير حيدر اسماعيل اللمعي وتعرف الثانية بقائمقامية الدروز وهي الجنوبية تمتد من طريق الشام الى منتهى جبل الريحان في الشمال مع قرى اقليم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الامير احمد عباس الارسلاني

(١) دواني القطوف لعيسى افندي اسكندر المعلوف

اما قصبة دير القمر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والي ايالة صيداء وكانت قائمقامية النصارى مؤلفة من المتن وكسروان والبترون والكورة وزحلة وقائمقامية الدروز تشمل قضاءي الشوف وجزين وقسماً من غربي البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلة اليوم في قضاء المتن وفرض عَلَى لبنان في كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس

ودام الحال عَلَى ذلك الى سنة ١٨٦٠ وقد اشتعلت جذوة تلك الفتنة المشؤومة بين الدروز والنصارى في لبنان فمنحت الدولة هذا الجبل استقلالاً اداريًا بان جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تبعث به الدولة كل خمس سنين او تجدد انتخابه بمصادقة الدول . وجعل مال لبنان سبعة آلاف او ثلاثة ملايين ونصف مليون قرش وضعت عَلَى الاعناق

ولحكومة لبنان موارد اخرى سنوية منها نحو اربعة ملايين قرش من بدلات حاصلات الاراضي الاميرية ورسوم المحاكم والمقاولات والعربات والعجلات وتعدل بثلاثة عشر الف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئًا من مال الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع اليه العجز في ميزانيته . وفي لبنان الف جندي لبناني بادارة امير الاي لبناني وفي بيت الدين فرقة من الجند العثماني المحافظ وعليها امير الاي بادارة حكومة لبنان .

وتحاول حكومة الجبل الآن ان تزيد الضرائب قليلاً ليتيسر لها القيام ببعض الاصلاحات والتوسعة علي موظفيها كما وسع عليهم في سائر البلاد العثمانية بعد الدستور الا ان معظم الاهلين يقاومونها وفاتهم ان الليرة منذ خمسين سنة لاتعادلها اليوم الا الثلاث ليرات او اكثر لوفرة الذهب وغلاء الاسعار . وهم يعتبرون ان هذا العمل اخلال بشروط امتيازاتهم ويخافون

ان يتدرج الامر الى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن من اجل هذا ابى اللبنانون ان يبعثوا الى مجلس الامة العثمانية بنواب منهم يمثلونهم وما نظن وطنيتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين ارسال نواب عنهم حتى يشتركوا وسائر اخوانهم العثمانيين في الغنم والغرم فليس من الانصاف ان يبقى جبلهم بدعوى قلة خصبه على الحياد وهو في وسط البلاد ويحسب جزءاً متمماً من اجزاء السلطنة العثمانية كيف تقلبت الحال وتعددت المظاهر والاشكال

غابات لبنان

ليس في لبنان ارض تبلغ مساحتها مائة كيلومتر مربع بل غاية ما فيه من الاراضي منحدرات ومنعرجات واودية ضيقة ومسايل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم واشجارهم واكثر الاراضي مما يصلح للشجر اكثر مما يصلح للبقول والغلات شأن جبال الارض في الاكثر . وليس في الأيدي نص قديم يشير الى اصناف زراعة لبنان منذ عرف التاريخ غير مانقلناه في نبذة سالفة عن مؤلفي العرب من ان فيه اصناف الفواكه والزروع وا كثرها مما ينبت بنفسه وهو كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع . واذ كانت طبيعة ارض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التي لا تناسبها ارضه ضعيفة فيه او تكاد تكون معدومة .

ولكن لم تخل ارض لبنان في زمان من ازمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز واللوز والتفاح والصنوبر والتوت من الاشجار المثمرة والزان والسنديان والسرو والارز من الاشجار الغير المثمرة . وقد اكثر

القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الارز لوروده ذكره في الكتاب المقدس مرات ولان من خشبه بني قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في ايام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم . وقالوا انه ثبت ان ملوك الاشوريين والبابليين استعملوا في قصورهم خشب الارز وان المصريين ادخلوا من خشبه في بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس وان الاسكندر المقدوني وضع من خشب الارز في السد الذي اقامه بين الجزيرة والشاطئ حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين في سورية ادخلوا خشب الارز في بناء دورهم .

وكل هذه الاخشاب قطعت من لبنان او من الجبال المجاورة له وكانت تحمل في الغالب الى طرابلس وصيداء وصور حيث كانت دور الصناعات وقد انشأ بعض ملوك الاسلام اساطيل من خشب الارز وقالوا ان بيروت (١) كانت دار صناعة دمشق (ترسانتها او ورشتها) وبها عمر معاوية المراكب وجهز فيها الجيش الى قبرص ومعهم ام حرام واسمها العميصاء وقيل انه عمر من الارز الفاً وتسعمائة سفينة وبعد سنين جهز اسطولاً اضخم من الارز نفسه وتبعه غيره من ملوك الاسلام في اختيار الاخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الارز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من قارة الى قارة ومن مملكة الى أخرى وهو عطر الرائحة اذا وضع في النار ويحسن في المشم اذا مسسته بيدك ولونه صفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لاتعبث به الارضة ولا يفعل فيه السوس

(١) تاريخ بيروت

ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله في ابنيتهم وقصورهم وبيعهم وهياكلهم وتماثيلهم ونصبهم ·

والغالب ان الحكومة السالفة (١) القديمة في لبنان كانت تحتكر اربعة اشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها وهي السرو والعرعر والارز والصنوبر وتسمح بقطع غيرها واحتطابه او غرس غيره محله · وقد بدأ النقص في هذه الاشجار ولا سيما الارز منها منذ خمسة قرون لان اللبنانيين احتاجوا الى الاحتطاب واخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصاً وقد جرت عادة بعض حكام لبنان اذا غضبوا على احد ان يقطعوا اشجاره ويخربوا داره والى اليوم لايزال من الامثال العامة السائرة في الجبل « الله يقطع رزقه » اي مايملك من شجر و « الله يخرب زوفه » اي بيته

مثال ذلك ان الامير احمد المعني طرد المشايخ الحماديين المتاولة لما كثر بغيهم في كسروان ففروا الى بلاد بعلبك فاحرق قراهم في القرن الحادي عشر وقطع اشجارهم وقد رسم مرة بيدمر (٢) نائب الشام لشهاب الدين ابن زين الدين صالح من امراء الغرب في لبنان وكان في دمشق ان يركب على خيل البريد ويتوجه الى قرية عين زحلتا من شوف صيداء ليكشف عما فيها من اشجار التوت النافع لعمل النشاب فلم يجده موافقاً وربما احب عدم تصديع اهل البلاد بقطعه ونقله ومنذ ذاك العهد اجتهد اهل الشوف في قطع شجر التوت وتعطيل نشوئه واستئصاله لئلا تصدعهم الدولة من جهته · قلنا ومثل ذلك مانشاهده في ايامنا من ان بعض اهل القرى البعيدة

(١) دواني القطوف

(٢) تاريخ بيروت

عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع اشجارهم فراراً من ظلم ملتزمي الاعشار واشتطاطهم في تقاضي العشور عليها اضعافاً مضاعفة .

ولم يبرح شجر الارز موجوداً في عدة اماكن من لبنان على كثرة ماانتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠٠ شجرة يسمونها الابهل واخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة النمو لكثرة الامطار والثلوج والعواصف في تلك الارجاء وثالثة فوق قرية عين زحلتا وكان احرق اكثرها لاستخراج القطران منه وقطع بعضها ايام حادثة سنة ستين لتجدد بخشبه بعض بيوت المنكوبين ورابعة بين افقا والعاقورة في جرد جبيل من بلاد كسروان وخامسة بين قرية تنورين وبشري صغيرة الشجر وعدد شجيراتها نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشري على علو ١٩٢٥ متراً عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها اضخم اشجار الارز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى واكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً وارتفاع اطولها خمسة وعشرون متراً وقدروا عمرهما بثلاثة آلاف سنة . ولا اثر الآن في سورية لشجر الارز الا في اعالي سير بلاد الضنية (١) في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند اهله تنوب .

ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم على غرس شجر الارز او اي كان من شجر الاحتطاب في الاماكن الخالية ولا سيما في القمم والقنن لما اتت عشرات من السنين الا وقد زادت ثروة الجبل زيادة محمودة وكان مع طول الزمن

(١) تسريح الابصار

لا بن لبنان من اشجارة مورد آخر غير التوت والزيتون مثلاً لان شجر الارز لا يجود في الغالب الا في مثل هذا العلو من الجبل بل من جبال سورية التي تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها

واذا زاد عدد الغابات في سورية زيادة كبري وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفيتي القدس والزور بتكثير الغابات في الاماكن الخالية ولا سيما في المحال التي يعرف انها كانت غابات غبياء نافعة بتحول مناخ سورية وتكثر فيها الامطار بعد سنين ولا تعود تخشى اليبوسة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فيتأذى بذلك العرب الرحالة في باديتهم كما يتضرر ابن المعمورة بهم ويصبح منهم بين نكبتين سماوية بقلة الامطار وارضية بسطو ابن البادية على ما بقي لابن القرى من رزق

وليت حكومة لبنان تبدأ فتفرض عَلَى كل لبناني ان يغرس عشر شجرات من اصناف الشجر عله تقتدي بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك فلا يأتي علينا جيل الا وتصبح سورية غنية بغاباتها كغنى سويسرا او اكثر والاشجار في بلادنا اكثر نمواً مما هي في اوربا لما عرف من اعتدال الفصول ولطف الجو ولقد جربت حكومة الجزائر فغرست الغابات منذ زهاء خمسين سنة فكانت النتيجة ان كثر اليوم تهطال الامطار فيها عَلَى طريقة منظمة وسيكثر خيرها كلما زادت اشجارها وعسانا نقتدي في سورية بهذا المثال

الهجرة من لبنان

٥

منذ أمن السكان في لبنان على ارزاقهم وانقطعت شأفة ارباب المقاطعات الذين طالما اشتطوا في مطالبهم وبطلت او كادت السلطة الافرادية الذوقية وقلت الاوبئة والزلازل التي كانت تحصد العمران والسكان حصداً كالزلزال الذي عاود لبنان مرات سنة ١٧٥٩ م وخرب القرى واهلك الناس والطاعون الذي حدث سنة ١٧٨٩ وعم لبنان كله واستمر الموتان ثلاثين سنة (١) — منذ خفت العوارض الطبيعية والارضية اخذ كل فرد يحسن من حاله فنمت النفوس باستتباب اسباب الراحة واخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون ابناء الجبل على المنازع الدينية ويلقنونهم شيئاً من اللغات الافرنجية والعلوم العصرية كما ان الموارنة مازالت لهم علائق مع الكرسي البابوي ، رومية يختلف اليه احبارهم منذ قرون وربما انتفع الجبل من هذه الصلة والعائد .

ثم ان طبيعة الجبل تقتضي التحسين والتنظيم والمسيحيون على الجملة يميلون الى الرفاهية ويقدرون طعم الحياة قدرها ولم يكد يدخل القرن الثالث عشر للهجرة في دور العدم ويطلع القرن الرابع عشر حتى دخل جبل لبنان في طور جديد فكثرت طرق عجلاته حتى اصبح لديه منها الآن نحو الف كيلومتر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة المحكمة وتهيء سبل التنقل على المصطافين في ربوعه واكثر هذه الطرق في قضاء المتن لانه ظهر لبنان ونقطته الوسطى ومقصد المصطافين من البيروتيين والشاميين والمصريين وغيرهم · وفيه الآن سبعون كيلومتراً من الخطوط الحديدية منها خمسون

(١) تاريخ المقاطعة الكسروانية

من طريق بيروت ودمشق وعشرون من ترامواي شمالي لبنان ٠

وفي هذا الجبل ٢٥ (١) مدرسة داخلية كبرى وصغرى و ١٠٤ مدرسة اكليركية و ٨ مستشفيات و ٢٠٦ من الحراج والغابات و ١٤٧ من معامل الحرير و ٨١٩٧ من الدواليب وبلغت حاصلاته من الفيالج (الشرانق) سنة ١٩٠٦ — ٢٠٢٧٠٣٠ اوقة ومن الزيت ٢٥٤٨٨ اقة وثمن الحرير الذي يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك في السنة وكثر سكانه حتى عدلوا ان في كل كيلومتر مربع ٦١ نفساً ولا يفوق الجبل في ذلك غير ولاية الاستانة وجزيرة سيسام (ساموس) ٠ وسكانه الآن زهاء اربعمائة وثلاثون الف نسمة منهم ٢٥٠ الفاً من الموارنة و ١٦٠ الفاً من الروم و ٣٦ الفاً من الكاثوليك و ٥٥ الفاً من الدروز و ٣٣ الفاً من المسلمين (سنة وشيعة) و ١٥٠٠ من البرتستانت والباقون ارمن واسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه خمسمائة من اهل الوبر يعيشون في مضاربهم خارج القرى واكثرهم فقراء يتكففون الاكف وقد احصى غليلموس الصوري في تاريخ الصليبيين عدد الموارنة في عصره فكانوا اربعين الفاً وما زال عددهم يربو على عدد وفياتهم ولئن هاجر كثيرون بعد ذلك الى قبرص ورودس والقدس ومالطة ولا يعد ان تكون اللغة العربية انتشرت في جزيرة مالطة بواسطتهم ٠

ولا يسعنا وقد وصلنا من بحثنا في شؤون الجبل الى هذا الحد الا ان نرسل بجملة في شغف اللبنانيين بالهجرة الى اميركا وغيرها من البلاد التي توهم ابن سورية ان المال فيها ملقى على الشوارع لايحتاج الا لمن يمد يده ليتناوله مع ان اولئك المهاجرين لو صرفوا في بلادهم نصف مايصرفون من

(١) دليل لبنان

الوقت والقوة في بلاد المهجر على طول السنة وحسبوا ماصرفوه في ذهابهم وايابهم وقدروا عدد من هلكوا منهم لرأوا ان المعدل واحد والفرق قليل لا يشاوي هذا النصب ·

والذي ظهر من قرائن الاحوال ان ابن لبنان كان اول فلاح سوري هاجر الى اميركا او جرأ سائر السوريين على الهجرة مجذوباً بما اشتهر عن القارة الاميركية من الغنى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبعدها ولان ابن لبنان اكثر اهل جبال سورية تعلماً ونوراً واوفرهم نشاطاً ومضاء وشمماً وادلالاً بل ان مجموع القارئين والكاتبين فيه اوفر من مجموع القارئين والكاتبين في مجموع مدن الشام

واول من دخل اميركا (١) من السوريين الخوري الياس بن القسيس حنا الموصلي الكلداني من سنة ١٦٦٨ — ١٦٨٣ واول من دخل اميركا الشمالية في القرن الماضي الخوري فلابيانوس الكفوري سافر اليها سنة ١٨٤٨ واخذ معه ناصيف الشدودي واول من دخل الجنوبية المطران باسيليوس حجار سنة ١٨٧٤ وكانت غايتهم جمع الاحسان واول من دخل اميركا الشمالية للتجارة تجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المرصعة بالصدف الى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم عادوا الى بلادهم بثروة وافرة فاقتفى اثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالي لبنان وامتد في كل سورية ثم كثرت الجالية السورية في العالم الجديد واوستراليا وجزر البحر المحيط بل وفي افريقية شرقها وغربها وشمالها وجنوبها

وقدر بعضهم ان ثلث المهاجرين يسكن اميركا وثلثهم يرجع الى وطنه

(١) دواني القطوف لعيسى افندي اسكندر المعلوف

والثلث الآخر يموت . ونظن ان الثلث الاخير مبالغ فيه وان كان عدد الهالكين في المهجر غير قليل . واحصي (١) عدد السوريين المهاجرين الى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين الفاً منهم ستون الفاً في الولايات المتحدة وخمسون الفاً في جمهوريات اميركا الجنوبية وخمسة وعشرون الفاً في اميركا الوسطى وعشرة آلاف في اوستراليا وبعض الجزائر والباقون في افريقية والهند والفيلبيين وكوبا ومصر وعدد اللبنانيين منهم ستون الفاً نصفهم ذكور ونصفهم اناث وربما كان الذكور اكثر

كثرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان باقدامهم وذكائهم المعهود فنزلوا في دار الهجرة بلاداً تحتاج الى ايدٍ عاملة ونفوس لا تعرف التعب فانشأوا يعملون ويذخرون ويقترون علَى انفسهم في النفقة علَى خلاف عادة معظم المهاجرين الى اميركا من اهل اوربا مثلاً فآب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال في هجرته غير صحته بمئات من الليرات فكان اول همه ان يعمر له داراً فوراء بالحجر النحيت والقرميد علَى المثال الذي رآه في بيوت المهجر

وكثر تقليد الناس بعضهم لبعض ومنهم من اشترى له ارضاً في بلده وطفق الآخر يتجر بما جناه من ذاك الرأس المال القليل اما الافراد الذين اغتنوا فعدت ثروتهم بالالوف فقد استوطنوا البلاد التي هاجروها جرياً علَى المثل العامي « في المطرح الذي فيه ترزق الصق » وهم ان كانت تحدثهم انفسهم بالرجوع لا يهنأ لهم بال متى عادوا اذ يتجلى لهم الفرق الكبير بين نيويورك وشيكاغو وسان فرنسيسكو وبونس ايرس وسان باولو مثلاً وبين

(١) دوائي القطوف

عشقوت وبسكنتا وعمشيت وعرنة ومعرونة اماواولادهم فينطبعون بطابع البلاد التي ولدوا فيها واكثرهم لايتعلمون اللغة العربية ولذلك لايرجى البتة ان يعودوا الى موطن آبائهم وهذا القسم ممن خسرتهم البلاد حقيقة والذي يزيد في الحسرة عليهم ان بعضهم ذهب برأس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم على جانب من الاخلاق والمعرفة لم يعمدوا الى الطرق السافلة في تحصيل الثروة ·

نفعت الهجرة لبنان واضرته وعندي ان المضار اكثر من المنافع اذ لاينظر الى العيان في الغالب الا الحسن · فقد يذهب الف مهاجر مثلاً الى بلد كذا ولا ينجح منهم الا واحد او اثنان فيأخذ الناس يتحدثون في امرهما وينسون اولئك المئات الذين يعملون اربع عشرة ساعة كل يوم في اشق الاعمال ولا يكادون بعدمرورسنين يوفون اجرة الطريق التي استلفوها من احد المرابين في بلدهم او باعوا في الحصول عليها ارضاً لهم ورثوها من آبائهم خل عنك من هلكوا بالامراض وغيرها وهكذا الحال في مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها ·

فان من نظر في الامور نظراً سطحياً وشاهد تلك البيوت البديعة في قراه ومزارعه التي عمرت بمال اتى به المهاجرون من غير ارض لبنان وسمع بان فلاناً اصبح يملك كذا وكذا من الليرات وان بلد كذا يدخل اليه كل شهر من تحاويل اميركا مايقدر بكذا من الذهب — من شاهد ذلك وسمعه لا يعتم ان تعروه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد ان الحال اذا دام على هذا المنوال واموال اميركا تتسرب الى بلادنا نصبح بعد بضع سنين اغنى من الاميركان وننقل شطراً عظيماً مما عندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهى السعادة البشرية

ليست السعادة بكثرة المال · السعادة شيء غير مايتوهمه من همهم انشاء البيوت وتزيينها من الظاهر وفي باطنها الشقاء والحسرة · قالت لي عجوز في صلما وقد سألتها اين رجالكم : « ذهبوا الى اميركا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التي عمروها تسرح فيها الفيران عادوا ليجمعوا كمية اكبر من المال لان ماجمعوه لم يكفهم لاتمام هذه الدور على مايحبون وفرشها ونقشها ثم ان حالة البلاد لم تعجبهم بعد ان شاهدوا مشاهد اميركا · » وقول هذه العجوز الذي احزنني مغزاه ولا تزال الاذن تردد صداه قد سمعت مثله من كثيرين من اهل لبنان رجال ونساء ·

اي حسرة اعظم من ان تتوقع ام في كل اسبوع قدوم ابنها وقد تمضي الشهور ولا تتناول كتاباً منه او زوجة تنتظر بعلها منذ سنين هي واولادها وهو لايكاد يبعث لهم بنفقتهم فتضطر تلك المرأة المسكينة ان تعمل ليلها ونهارها لتطعم اولادها من كدها وما هي بفلاحة · واي بلوى اكبر من ان تدخل القرية وتجد فيها عشرات من البنات عوانس ينتظرن عروساً لان شبان الضيعة هاجروا واكثرهم لايريد ان يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة اميركية وزهد في أسرته وقريته لانه تمدن بزعمه ولا يليق به ان يتزوج الا من متمدنة · ومن شاهد البنات العوانس في لبنان يدرك سر تعدد الزوجات في مثل هذه الحال ويسجل بان اقل سيئة من سيئات الهجرة انقطاع الاهلين عن التناسل ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومائه وتوفر اسباب الراحة فيه ·

وان دعوى من يدعون ان لبنان لولا الهجرة لاصبح خراباً مردودة من وجوه احدها انهم يعتقدون ان تلك الاموال التي دخلت لبنان وهي

تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هي غنى لبنان وما الثروة في الحقيقة الا العمل ليس الا . فقد رأينا اسبانيا على عهد شارلكان يتسرب المال الى صناديقها بالبدر والسبائك من اقطار المعمور لان هذا الملك كان يعتقد ان كثرة النقود والذهب في بلاد كاف وحده في غناها ولكن لم تكن بضعة عقود من السنين حتى امست اسبانيا افقر بلاد اوربا لان اهلها انقطعوا عن تعهد تربتها والاخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الرافعة من شأنهم

ان انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين الى نزول اميركا وافريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على امل العودة الى مساقط رؤوسهم متى امتلأت اكياسهم وجيوبهم وعيابهم قد حال دون تعهد ارضهم واستثمار صناعاتهم . ففي لبنان من الخيرات الطبيعية مايكفي اهله اذا زادوا ضعف ماهم الآن ومهما بلغت العناية اليوم بزراعته لايزال فيه فضل للعمل وميدان واسع للجد . ولا يشعر بذلك الا ارباب الاملاك . مثال ذلك ان « كدنة » الفلاحة كانت تساوي منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشاً فاصبحت اليوم تساوي ستين على حين ان غلات التوت مثلاً لم تزد على تلك النسبة وذلك لقلة ايدي العاملين وارتفاع اسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش في البلاد ولان المهاجر اللبناني الذي كان فلاحاً حراثاً الى عشرين او ثلاثين جداً من اجداده اذا هاجر وقضى في هجرته ثلاث سنين ثم آب الى بلاده تكبر نفسه فلا يعود يتنازل الى معاناة الزراعة بل يفضل ان يعيش كما يعيش تجار اميركا وارباب الاملاك في بلادنا وهو لايملك رأس مال يكفيه سنة واحدة اذا ظل عطلاً من العمل .

في امثال العامة « انا امير وانت امير فمن يسوق الحمير » حكمة لطيفة

نافعة تصدق على لبناني المهاجر فاذا احب كل فرد من المهاجرين ان يقلد الاعيان في عيشه ورفاهيته فمن يبقى لتعهد التوث والزيتون وغرس الصنوبر والارز والسنديان والزان وحفر الاقنية والاحواض وتمهيد الطرق ومعالجة الصناعات من حل الحرير وصنع الاقمشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وانواع الزينة ·

ولقد قال الاقتصاديون ان من جملة ما ساعد المانيا على عظمتها التجارية الصناعية العلمية انك تجد في رجالها انواع العاملين ولا يستنكف كل عامل من عمله بل ولا يريد ان يعرف الا به فالالمان اشبه بجيش منظم فيهم الجندي كما فيهم الضابط الصغير والكبير والقائد العظيم وكل واحد منصرف الى عمله لا تحدثه نفسه ان يقلد رفيقه او يعتدي عليه بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويحسنه ما امكنه الحال ولو جرى اهل بلادنا على هذا المثال لاصبحنا بعد جيل امة راقية حقيقة ولما رأينا الصغير يشكو لانه يريد تقليد الكبير واسبابه لا تساعده ·

نحن لا نجاري اولئك الذين يدعون ان لبنان كان خراباً لولا الهجرة لامور اقلها ان البلاد السورية واسعة واهل لبنان اليوم وقبل اليوم يستطيعون ان ينزلوا الاقاليم القليلة السكان المحتاجة الى العناية ويستعمروها فان فتشوا ذات اليمين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعلبك والبقاع ومرجعيون وصيداء تتاخم جبلهم وتحصرهم فيه فان لهم من بلاد الكرك وحوران وبادية الشام وبلاد حلب مثلاً مايكفي لاغناء مئات الالوف من الناس فلو نزلوا تلك البلاد الخاوية وعمروها بكدهم لاصبحت بعد سنين جنات زاهرة واقل ما في ذلك من المنافع ان هذه البلاد منهم على ايام قليلة

يستطيعون في استمارها ان يقضوا معظم ايام السنة في جبالهم ٠

وقد كتب قائمقام سروج من اعمال حلب منذمدة في جريدة المقتبس يقول ان خمسين قرية في قضائه وحده محلولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف قرش فلو اشتراها بعض ارباب الاموال من اللبنانيين وانفقوا عليها النفقات التي ترقي زراعتها وغرسوا فيها الاشجار واقاموا البيوت لما اتت ثلاثون سنة الا وهذا القضاء وحده من اعمر البقاع السورية فما بالك بما في غيره من الاقضية والالوية والولايات العثمانية من الخيرات

لانوافق القائلين بالاغتناء بسرعة فان ماياًتي بدون عناء كبير قد يذهب في الا كثر كما جاء ٠ وانما لنؤثر ان يوجه اللبنانيون ولا سيما في عهد الدستور السعيد وجوههم قبل البلاد الداخلية من سورية والعراق والاناضول ففيها متسع لهم وفيها لهم مغانم كثيرة لو صبروا على جنيها لكان لهم ولابنائهم واحفادهم منها مال خالد وملك لا يكاد يبلى

وفي لبنان من الصناعات القديمة مايرتقي لو سعوا الى تحسينه كعمل الاقمشة والنجارة والحدادة (١) وغيرها وله مورد آخر للربح ينتفع منه الآن اكثر من سائر جبال سورية ونعني به موسم المصطافين فان لبنان من سورية ومصر كسويسرا من اوربا واميركا يقصده الكثيرون كل سنة التماساً للصحة والراحة فلو عني اللبنانيون اكثر مما يعنون براحة من ينزلون عليهم لاتاهم الصيف في كل سنة بما لا يقل عن مليون ليرة فقد حسب بعضهم عدد

(١) في قرية بيت شباب من مديرية القاطع تصنع اجراس الكنائس وهذه الصناعة لاتعرف في بلاد العرب ولا في مصر وقد دخلت اليها في الغالب على عهد الصليبيين وكان المسيحيون من قبل في بلادنا يستعملون النواقيس من الخشب وما زالت هذه الصناعة محصورة في عائلة واحدة من عمال تلك القرية ٠

المصطافين في لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر الف نسمة اكثرهم من المصريين فلو فرضنا ان الواحد ينفق عشر ليرات لكان بذلك مبلغ لا يقل عن مئة وخمسين الف ليرة فما الحال لو زاد هذا العدد ونحن نرى ان سويسرا وايطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة مالا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة واذا زادت عناية حكومة لبنان واهله بالمصطافين في قمم لبنان لا يعتم ان يجلب اليه اناساً من المصطافين من اهل اوربا نفسها خصوصاً اذا رأى السياح ان النفقة في الجبل أقل مما في جبال الالب وانها لا تبلغ مع اجور النقل في البحر والبر المبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطياف.

وبعد فانا لا نفتأ نكرر القول بان من الانفع لابن لبنان ان يوجه بعد الآن وجهته الى الداخلية ليعتاش ويرتاش وانه اذا استفاد المهاجرون منا الى اميركا من حيث ارتقاؤهم في اقتباس بعض اصول التمدن في الملبس والمأكل والمسكن فان الانفع له اليوم ان يستعمر بلاده نفسها وهي تحتاج الى اضعاف اضعافهم. وسوف يعلمون ان هذه النصيحة صادرة عن اخلاص لا يراد منها الا نفع لبنان خاصة وسورية عامة فان مايقاسيه اللبناني من الم الغربة والمهانة في الاحايين واحتقار الغربي له مهما بلغ من مكانته جدير بان لا ينسيه بلاده والعيش بين اهله وجيرته. وقدر احد العارفين منذ ثلاث سنين ان ماحمله اللبنانيون المهاجرون الى لبنان يبلغ خمسمائة الف ليرة اي على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا ان هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هذا المبلغ يعادل مافقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والادبية

نهضة العربية الاخيرة

سادتي الاخوان (١)

سألتموني بيعدت بكم اوطانكم ان احدثكم بطرف من تاريخ نهضة اللغة العربية في المئة سنة الاخيرة وما منكم الا من استفيد منه واتشرف بالاخذ عنه · انتم من اهل الفئة الفاضلة في وطنكم يتوقع منكم ان تنيروا آفاق جهله بانوار معارفكم وان تعمروا اكناف معالمه ومجاهله بما تقفتموه في هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتموه من علم صحيح وآداب رائعة · فانى لي وانا نازل بينكم متعلماً لا معلماً ان افوه في حضرتكم بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع مصاقع الخطباء وتقريرجهابذة الباحثين والعلماء وما حالي وحالكم لو انصفتكم وانصفت نفسي الا حال من يحمل التمر الى هجر او المسك الى ارض الترك استغفر الله بل ان حال من يلقي محاضرة عَلَى جمعية الاخاء المصرية في باريز اعجب واغرب ·

اخواني : تعلمون قرت بكم عيون مصر انه اتت عَلَى اللغة العربية ادوار واطوار وعرض لها مايعرض لكل كائن في الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة وان اتعس ايام ضعفها كانت في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة وهو عهد الفتور في جسم الامة الاسلامية عامة والامة العربية خاصة · ثلاثة قرون بل اكثر مضت في مرض مستحكم كانت تكون لموت هذه اللغة الشريفة التي تعقد اليوم عَلَى امثالكم خناصرها وترجو بمساعيكم ان يكون مستقبلها خيراً من حاضرها وغابرها بيد ان لغة يفرض عَلَى زهاء مائتي مليون من المسلمين ان يتعلموها ليفهموا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضمحلال مادام في الارض مسلم يوحد الله ·

لابد لكل حركة من سبب · وسبب ماعرا العربية من الضعف في تلك القرون انقطاع الملوك عن الاخذ بيدها فاصبحت الامور العلمية صورية ينظر فيها الى الأشكال لا الى الحقائق واقتصر الناس عَلَى فروع الفقه والكلام والتوحيد وعدوا ما عداها من العلوم فضولاً لاغناء فيه وساعد عَلَى انتشار هذا الرأي السخيف مااصاب البلاد من ضعف الاحكام وفساد النظام ولا علم حيث يفقد الامن وفي النادر ان يهتم جاهل بتعليم او يربي من لم يترب؟

وكأن قدرة المولى تعلقت بان هذه اللغة التي نشأ لها الضعف من ابنائها ان تأتيها

---

(١) من محاضرة القيناها عَلَى جمعية الاخاء المصرية بباريز

الصحة عَلَى ايدي غيرهم . وربما يعجب بعضهم الآن اذا قلنا له ان مبدأ نهوض الامة العربية كان في مصر ايام محمد علي وقد صحت عزيمته عَلَى خدمتها مسوقاً بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من اهل العلم من الفرنسيس فكان من اعماله الجليلة ماخلد له الفخر عَلَى الدهر وجعله من حيث خدمته للغة والعلم لامن حيث منازعه السياسية من اعاجيب الحكام في الشرق . والشرق ابو المعجزات والكرامات .

ليس من يجهل ان محمد علي كان امياً او يقرب من درجة الأمية . مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لانه كان ارناؤدياً ولم يخط سطراً واحداً لانه تعلم في الكهولة مبادئ طفيفة من حسن الخط والقراءة فقط . ومع هذا فقد عني بما لم يعن به احد من ملوك المتأخرين وشرع منذ استتب له امر مصر يختار الاذكياء من ابنائها ممن قرؤا الدروس الوسطى فيبعث بهم عَلَى نفقة الحكومة الى اوربا ليخصوا في العلوم التي اولعوا بها حتى اذا عاد احدهم واتم تحصيله يحبسه عنده في قلعة الجبل ويخرج له كتاباً بالافرنجية في الفن الذي اتقنه ويوعز اليه بان لا يخرج من القلعة قبل ان يترجمه بالعربية ويأمر له باسباب الراحة والمعينات عَلَى الترجمة والتأليف . فاذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على امير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس او الى لجنة كانت معروفة اذ ذاك بلجنة الامتحان فبعد ان تنظر فيه ترخص بطبعه في المطبعة الاميرية ويغدق الامير عَلَى المترجم انواع الهبات ويشرع في ترقيته في المراتب ان كان ممن استعدوا للادارة او الجندية او البحرية واذا كان من الاساتذة يوسد اليه التدريس في بيوت العلم موسعاً عليه في الرزق ليتخرج به ابناء مصر . وهو عمل يذكرنا بما كان يأتيه المأمون العباسي من الانعام عَلَى المترجمين ولكن مايصدر عن المأمون وهو اعلم خليفة في الاسلام لا يستكثر منه وعصره عصر شباب هذه الامة بقدر مايستكثر ماتم عَلَى يد محمد علي الامي الالباني وعصره عصر شيخوخة الاسلام والمسلمين .

قال لي صديقي الدكتور عثمان بك غالب احد حسنات مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التي اختطها محمد علي لمن يجيء بعده وشاهد تلك الحركة العلمية في ابانها ثم شاهدها في انحطاطها وهو يشهدها الآن في تجددها : لقد ظلت نهضتنا العلمية سائرة احسن سير الى سنة ١٨٨٢ فما بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من ابناء مصر نفسها وهو علي باشا مبارك ناظر المعارف فسعى وربما كان بدون قصد شيء منه لاحلال اللغة الانكليزية محل اللغة العربية في المدارس الاميرية زاعماً بان الواجب عَلَى

المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لا يتأتى الا اذا اتقن المصريون لغة البريطانيين فبدأت نظارة المعارف في ايامه وبعدها تسلب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لابناء انكلترا وقطعت الارساليات العلمية الى اوربا حتى لم يكد يبقى اليوم من اولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل اذا عادوا الى منابر التعليم لا يسدون حاجة مصر واخذت المعارف في عهد المبارك تطهر المدارس بامثال دنلوب وارثين من كل ما ينفع اللغة او كان من آثار النهضة الاولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة اكداساً من مستودعاتها كما يطرح القذى والنوى لتسجل العار على من عقوا لغتهم وامهم كما عق اخوة يوسف ابن ابيهم على حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التآليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرها من مصنفاته

قال غالب بك كان اكثر اساتذة المدارس التي أنشئت في مصر على عهد نهضتها الاولى من الفرنج . وبين المستعربين يكتب الاستاذ درسه بالفرنسوية والمترجم معه ينقله الى العربية فيلقي على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الاستاذ بروجر بك الفرنسوي رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلية والمستشفيات المصرية الى خديوي مصر في عهده يقول له في تقريره السنوي ان الوقت قد حان لان تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين اذ قد اصبح فيهم الاكفاء الآن وان مهمة فرنسا في تربية ابناء مصر في هذه الفروع العلمية قد انتهت او كادت .

ثم في ذاك العهد تم للعربية ما تريد من تعريب المصنفات العلمية والادبية على اختلاف انواعها وعادت فاضحت لغة علم بعد ان انقطع سند العلوم منها قرونا واحيا اولئك المصريون امثال الطهطاوي والرشيدي والشباسي والبيهاوي والنحراوي وحماد وبهجت والفلكي وندى والنبراوي والبقلي الفاظاً من لغتنا كانت في حكم الدارس مهجورة منذ كان العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية في بغداد والاموية في قرطبة والفاطمية في مصر واضافوا الى تلك الالفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التي سلك عليها اجدادنا المعربون غالباً حتى ان الاترك والفرس لما شرعوا يعلمون العلوم في البلاد العثمانية والايرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا امامهم كنزاً حاضراً ينتفع به في الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة في الهندسة والطب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية برمتها وادمجوها في تضاعيف لغتهم

كان الطلبة الذين ارسلهم محمد علي الى التخرج في اوربا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن حملة لواء العلم لا في القطر المصري فقط بل في البلاد العربية كافة واصبحت مصر بيض اياديهم من هذه البلاد بمثابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتهز اعصابها للارتقاء حتى بلغت الكتب التي ترجمت في فنون مختلفة من الافرنجية زهاء الفي مجلد · والاثر الاكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ من ألف وترجم في عهده بما خلفه من قبله او عرب في قلم الترجمة برئاسته وبا بتداء من المبادىء في مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس · وكلها اعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جزيل · خل عنك تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الاثناء ومنها جريدة وادي النيل لابي السعود ومجلة يعسوب الطب لكلوت بك ·

ورب معترض يقول اي علاقة لتعلم العلوم الجديدة ونقلها الى العربية بحياة للغة التي يراد منها آدابها المنثورة والمنظومة ليس الا · والجواب انه لا ادب لمن خلت لغته من امثال هذه المعارف · فكما ان للعلوم ارتباطاً كلياً بعضها ببعض هكذا للغة دخل عظيم في سلاسة آدابها بما تأخذه عن غيرها بل ان لغة مهما حوت من انواع البديع والمعاني والبيان لا تعد من اللغات الحية ان لم تكن لغة علم قبل كل شيء ·

وهنا مسألة مهمة لااحب ان امر بها وانا منطلق لان لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الادبية وهي انا اذا تدبرنا تاريخ محمد علي وحسناته على العلوم والمعارف لانلبث ان نشبهه من ملوك الافرنج بالامبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية · وشارلمان كما لا يعزب عن علمكم كان من اعظم ملوك دهره وله صلة بملوك المسلمين وهو الذي انفذ اليه الرشيد العباسي رسولاً من قبله سنة ٨٠١ م يحمل اليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهذا الذي كان يحمي الملتجئين اليه من امراء المسلمين الهاربين من الخلفاء في قرطبة · كان شارلمان لاول امره أمياً تعلم الكتابة البسيطة على كبر مثل محمد علي الا ان تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروساً فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المستنيرين والمعلمين الذين كان يستعين بهم على نشر المعارف بما انشأه من المدارس باشارة الكوين المشهور استاذه وامين سره وبإذر الجراثيم الاولى من المعارف في هذه الارض الفرنسوية وبمساعيه أنشئت المدارس في اكس لاشبل عاصمة البلاد اذ ذاك وتور واورليان وليون واستنسخت الكتب الوافرة لينتفع بها الطلاب

ومن العجيب انه حدث لنهضة شارلمان ماحدث لنهضة محمد علي حذو القذة بالقذة وذلك

انه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت ريحها جملة واحدة لان من خلفوه عَلَى سرير الامبراطورية لم يكونوا عَلَى قدمه ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولان الاعمال العظيمة في البلاد المنحطة قد تنوم بالفرد اكثر من قيامها بالافراد وعَلَى العكس منها في البلاد الراقية . اتت خمسون سنة عَلَى فرنسا بعد وفاة شارلمان مات في خلالها التعليم اوكاد ولم تدب روح التجديد فيها الا بانتباه عقول الامة وعَلَى يد اناس من ابنائها كما قامت مصر منذ نحو عشر سنين تجدد حياة ادابها بيدها بعد محمد علي بنحو خمسين سنة متكلة في مهمتها عَلَى نفسها لاعَلَى الحكومة وبذلك جازلنا الاستنباط بان كل اصلاح يقوم بالامة في هذا الوجود يكون الامل في بقائه اكثر مما يقوم بيد الحكومة ولا سيما في الدول الاستبدادية التي تجد فيها تمييزاً بين الامة والحكومة . والحكومات قد تعرض لها عوارض تنسى معها الترغيب في العلم ومنها الى اليوم من يفضل الجهل عَلَى العلم . ولهذه المسألة نظائر كثيرة في تاريخ الامة العربية فقد رأيناها تسعد وترقى في برهة قليلة عَلَى يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهدناها تشقى وتنحط بفرد آخر لا يرجع الى عقل ولا الى نقل .

كان الادب العربي قبل دور النهضة الاخيرة عبارة عن سجع كسجع الكهان طول بلا طول ولا طائل وجمل باردة سمجة وشعر ركيك اكثره في الاماديح والاهاجي وان ارتقى الشاعر انفتق لسانه في وصف الخد والخال وذات النطاق والخلخال من ربات الحجال او الذكران من الرجال . وما اظنكم اعز الله بكم دولة الادب الا قد وقع لكم شيء كثير من امثال هذه الركاكات والسخافات فضربتم بها عرض الحائط وحمدتم الله على ان خلقكم في زمن قام فيه من الكتاب امثال محمد عبده واحمد فارس وابراهيم المويلحي وابراهيم اليازجي وابراهيم الحوراني وطاهر الجزائري وعبدالله فكري ومحمود شكري الالوسي وجمال الدين القاسمي وحفني ناصف ويعقوب صروف وابراهيم مصور وسليمان البستاني وعبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وقاسم امين واحمد فتحي زغلول ورشيد رضا ورفيق العظم وعبد الحميد الزهراوي وعبد العزيز جاويش وصالح حمدي حماد ولبيب البتنوني وفريد وجدي ومحمد فريد وعلي يوسف واحمد تيمور وزكي مغامز وشاكر شقير وسامي نصيري وشحادة شحادة وسعيد الشرتوني ورشيد الشرتوني وفرح انطون وجرجي يني وابراهيم النجار واديب اسحق ونعوم لبكي ونعوم مكرزل واحمد فؤاد وسعيد ابو جمرة ومصطفى الغلاييني وعبد الباسط فتح الله ومحمد بيرم وخير الدين

التونسي ومحمد المهدي وشكري العسلي وشاكر الحنبلي وعبد الوهاب الانكليزي ونجيب شاهين واسكندر شاهين وسعيد الباقي ومحمد محمود وحافظ عوض ومحمد حسني الطوبراني واحمد سمير وعبد الغني العريسي ورزق الله حسون و يوسف البستاني وانطون جميل وعادل ارسلان ونسيب ارسلان وجرجي حداد ورشيد عطية ونجيب طراد ويوسف زخور وعبد الوهاب النجار وميشيل بيطار وخليل زينية ومحمد مصطفى واحمد زكي ومصطفى لطفي المنفلوطي وامين ظاهر خير الله وعيسى اسكندر المعلوف وديمتري قندلفت و يوسف الخازن وروحي الخالدي ومحي الدين الخياط ومحمد المويلحي وخليل سعادة وداود بركات وبشارة زلزل و بولس زوين وعبد القادر المغربي و بدر الدين النعساني ومرسي محمود ومحمد صادق عنبر وعبد الرحمن البرقوقي وعبد القادر المؤيد وعبد الكريم سلمان واحمد الصابوني وعشرات غيرهم لاتحضرني الآن اسماؤهم من شيوخنا وكهولنا وشباننا . وقام من الشعراء محمود سامي وعبد المحسن الكاظمي واسماعيل صبري وحافظ ابراهيم واحمد شوقي ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وشكيب ارسلان وفارس الخوري وخليل مطران وعبد الله البستاني ومصطفى صادق الرافعي و بطرس كرامة وناصيف اليازجي وعبد الباقي العمري ونجيب الحداد وامين الحداد وولي الدين يكن ونقولا رزق الله وشبلي ملاط وداود عمون وفضل القصار ورزق حداد وغيرهم ومن الخطباء جمال الدين الافغاني وعبد الله نديم وابراهيم الهلباوي وسعد زغلول واحمد الحسيني ونقولا توما ومصطفى كامل وعبد الرحمن شهبندر وانيس سلوم واسكندر العازار وفارس نمر ومحمد ابو شادي وامين ريحاني ومحمد لطفي جمعة واحمد لطفي السيد واحمد عبد اللطيف وعمر لطفي واحمد لطفي وابراهيم اللقاني واحمد محمود وعبد العزيز الثعالبي وغيرهم ممن هم عمدة العربية في نهضتها الاخيرة عملوا الخيرها في مصر والشام والعراق وتونس اعمالاً وخلف اكثرهم من مآثر فضله ما يطرس المتأدبون عليه وينسجون على منواله .

و بينا كانت اللغة العربية تزهر في مصر في الامارة العلوية عزَّ على الشام ان تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة في سورية لا بواسطة الحكومة كما في مصر بل بواسطة الافراد والجمعيات وذلك في اواسط القرن الماضي وكانت بيروت مدينة وهي ثغر لبنان وسورية موطن تلك الشعلة وقد جاءها اناس من مرسلي الفرنسيس والاميركان وانشأوا فيها مدارس جعلوا لغتها الاولى اللغة العربية واتقنها كثيرون من اهل لبنان لحمد مسعاهم وكانت اليد الطولى في تنشيط لغة قريش للدكتورين كرنيليوس فانديك و يوحنا ورتبات وهما من اعظم مؤسسي

الكلية الاميركية الانجلية في بيروت تعلما العربية والاول اميركي والثاني ارمني ودرسا بها مع اقرانهما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرتهما عليها ان عمدة المدرسة لما عمدت ان تجعل لغة التعليم في الكلية اللغة الانكليزية بدل العربية قاوما ماوسعثهما المقاومة ولما اخفقا استقالا من وظيفتيهما لانهما ابت مروءتهما الا ان يمحضا النصح للبلاد ولغتها . والدكتور كرنيليوس فانديك الاميركاني في سورية بفضله علَى اللغة العربية وما عرب لها من كتب العلم اشبه بالشيخ رفاعة الطهطاوي في مصر ووجه العجب في فانديك اعظم لانه اميركي الجنس والمنشأ غار علَى لغة العرب اكثر من اهلها ومن الغضاضة علَى مصر والشام انهما لم تعرفا لهما حقهما علَى ما يجب وكان علَى القطرين ان يرفعا لهما تمثالين كما رفعت باريز لهوغو وروسو اوكما رفعت مصر لمحمد علي وابراهيم . والعلماء ان لم يكونوا احق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا اقل من ان يكونوا علَى مستواهم .

ولقد كان من اعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت علَى ذاك الدور ايضاً بطرس البستاني وأسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من اصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الاسير وابراهيم الاحدب وناصيف اليازجي وأسرته وغيرهم . فهؤلاء كلهم توفروا علَى التعليم وتخرج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في اقطار الشام ومصر واميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والمحامون والخطباء . ولم تحرم الاستانة — والعواصم مرزوقة منذ خلقها الله — من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبحثه واعني به احمد فارس الشدياق الذي اقترح عليّ صديقي سيد افندي كامل من رجال الجامعة المصرية ان اتوسع في الكلام عليه .

اصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مسيحية خرج من بلاده مغاضباً فقضى زمناً طويلاً في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وانكلترا وتعلم في خلال ذلك الانكليزية والافرنسية ثم دان بالاسلام والف بعض الكتب ومنها التأليف في كل معنى طريف طبع في مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتبه في اوربا كتاب الساق علَى الساق في ما هو الفارياق او ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجام طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠ﻫ ضمنه ترجمة حياته وشؤونا وشجونا علَى اسلوب يجمع بين الجد والفكاهة تقدر ان تعده من الانشاء المعروف عند الافرنج بالامورستيك (الجد في الهزل) او الريااليست

ز الحقيقي) الذي حدث في عهد فلوبر او الناتوراليست (الطبيعي) الذي تم عَلَى يد زولا وانك لتدهش من قدرته فيه عَلَى التعبير ورشاقته في التصوير ومتاقته في التحرير والتحبير فكأن اللغة التي كان من جملة محفوظات احمد فارس فيها قاموس الفيروزابادي الذي الف كتاباً مهماً في نقده سماه الجاسوس عَلَى القاموس — كانت نصب عينه يأخذ منها كل ساعة مايشاء ويستحضر في دقيقة مايصعب الاتيان به في ساعة ويتقن ماشاء بيانه وتبيانه • ولفظ الفارياق مقتطع من اول اسمه « فارس » وآخر اسم أسرته «الشدياق » • وقد حمل في كتابه عَلَى رؤساء الدين حملة منكرة لان بعضهم قتلوا اخاه ظلماً وتعصباً جعلوه في بناء لهم وبنوا فوقه لانه دان بالمذهب البرتستانتي (١)

هبط احمد فارس مدينة الاستانة بعد ان خبر حالاً او باخبرة زائدة وانشأ جريدة الجوائب التي طارصيتها في الآفاق ورزق الحظوة بعلمه فكان ملوك الاطراف يهادونه وينحونه المنائح وممن كان يساعده خديوي مصر وباي تونس وملك باهوبال في الهند حسن صديق خان الذي طبعت له مطبعة الجوائب معظم تآليفه العربية وكان هذا الملك اعلم الملوك المتأخرين بل اشبه بابي الفداء صاحب حماة في جمعه حكم الناس الى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة العجم والعرب في فهم اسرار الكتاب والسنة

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الانشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا التي أسست بعدها عَلَى نسقها وقلَّ ان نشأت لنا جريدة في صحنها وديباجتها العربية اللهم الا ان تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ومصباح الشرق لابراهيم بك المويلحي والبرهان للشيخ حمزة فتح الله وذلك لان جريدته كانت كهاته اسبوعية وله فيها مساعدون في الاقطار كان يهاديهم ويهادي علماء عصره حتى كثر احبابه من العلماء في شمالي افريقية وغربي آسيا ووسطها وهو الذي يتولى النظر في كل ماينشر فينمقه ويزوله وناهيك بكلام تصقله الانامل الفارسية • فاحمد فارس هذا لو انصفنا هو واضع اساس الصحافة العربية وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلفه من آثاره • ومن اراد ان يطلع عَلَى شيء من كتاباته في جوائبه فعليه بالرجوع الى كنز الرغائب في منتخبات الجوائب وهو مطبوع متداول وان احب الاطلاع عَلَى الجوائب برمتها في حجمها ووضعها فليرجع اليها في خزائن الكتب في اوربا ومصر والاستانة •

ولم يقف عمل احمد فارس عند حد نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب سر الليال ورحلة

(١) وهنا قرئت نموذجات من شعر احمد فارس ونثره من كتابه الفارياق

له الى اوربا جديدة محضة وكتاب نحو اللغة الانكليزية وديوان شعره وغيرها بل نشر طائفة من كتب الادب واللغة والشعر ككتب الثعالبي والتوحيدي والطغرائي والبديع وغيرهم من ائمة الادب نشرها على احسن اسلوب راق في طول البلاد وعرضها باثمان بخسة فعمت بها الفائدة وانشأ طلاب الآداب يحذونها في اسلوبها . ومابرحت مطبوعات الجوائب الى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب لينتفع بها الاحفاد والبنون على ممر الدهور والقرون .

ابتلي احمد فارس باناس حسدوه واي عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره ونثره وينقدون جريدته وكتبه ولكن تلك المناقشات اللغوية الادبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزبهم لم تزد فارسنا الا جرأة على الجري في مضماره وقبولا بين العالمين بمصنفاته وآثاره فكان بنقده بعض كتاب العربية اشبه بسانت بوف في نقده كتاب عصره من الفرنسويين فاستفاد ارباب الاقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد مما دار بين التقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق وبذلك اخذ من يعانون صناعة القلم يتأنون قليلاً فيما يكتبونه واخذت تخف اغلاط الكاتبين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كلما نقل الناقلون عن اللغات الافرنجية ونحا المؤلفون مناحي قدماء الكتاب في ترك التكلف والتعسف حتى صح لنا ان نقول اليوم ان اسلوب الكتابة العربية لا ينقص عن اللغات الافرنجية الراقية بايجازه واندماجه وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المنشئين وسلاسة المعاصرين وافكارهم .

نعم عادت للغة العربية ولاسيما في الثلاثين سنة الاخيرة نضرتها الاولى في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة وخلصنا من ذاك السجع المتكلف الذي اتانا به العماد الكاتب الاصفهاني من فارس — وفارس مورد بدع كثيرة في الاسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب — ونقله الى العربية فاجاد في اكثره الا ان من جاؤا بعده قد افسدوا به علينا لغتنا لانهم لم يتقنوه

واني لاازال اذكر ما كنت اكثر من مطالعته واستظهاره ايام ولوعي بالادب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصابي وتاريخ اليميني للعتبي ومقامات الزمخشري ومقامات الاصفهاني وقلائد العقيان وذيله مطمح الانفس للفتح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وخزانة الادب لابن حجة والريحانة للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت اطرب لتلاوتها ولا اكاد افارقها في خلوتي

وجلوتي . ولما كتب لي الاطلاع عَلَى الآداب الفرنسوية والتركية وانشأت ابحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون وابي حيان التوحيدي وابن مسكويه والراغب الاصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشئين غدوت اعجب من نفسي كيف اضاعت وقتها في تلقف تلك الاسفار المسجعة وفي اللغة مثل نهج البلاغة والبيان والتبيين والذريعة والاحياء وغيرها مما لا يتسع المجال لتعداده وهو في الحقيقة ونفس الامر مادة ادب كما هو مادة علم لا تبلى على الدهر جدتها ولا تخلق ديباجتها كما كنت اعجب من اقبالي ايام الطلب عَلَى تلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والصفي الحلي وابن منجك وابن مليك والجندي من شعراء المتأخرين وعند العرب من اهل هذا الشأن امثال ابي تمام وابي الطيب وابي عبادة وابي نواس والشريف الرضي وابن حمديس الصقلي وابي فراس الحمداني .

يرجع الفضل الاكبر في انتشار دواوين الادب والتاريخ واللغة من كتبنا لعلماء المشارقة من الغربيين امثال دوزي ودساسي ووستنفيلد وعشرات غيرهم من اهل اوربا ولبعض مانشره اليسوعيون في مطبعتهم المتقنة في بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي ألفت في اوقات مختلفة في مصر لاحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التي طبعت لنا المخصص لابن سيده احسن كتاب عني بطبعه في شرقنا ولما طبعته المطبعة الاميرية ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس . كل هذه الاعمال اعانت العربية عَلَى تحسين آدابها وترقيتها . ولا ننسى غيرة اولئك الذين نسجوا في منظومهم ومنثورهم عَلَى مناحي الاوربيين من حيث قلة الكلفة ومجاراة الطبع ومحاكاة الطبيعة ووصف عواطف النفس بايجاز واعجاز واولئك الذين وقفوا انفسهم منذ عشرات من السنين يعربون لنا كل يوم في جرائدهم ومجلاتهم افكار الغربيين في سياستهم وعلومهم واجتماعهم فكوّنوا بمجتمعنا الادبي عَلَى ماترونه وجددوا للغة شبابها بحيث أمنا بفضلهم عليها من العفاء واصبحنا نرجو لها دوام النماء والارتقاء .

انا لا اقدم لكم مثالاً من امثلة ارتقاء لغتنا اكثر من ان احيلكم عَلَى مراجعة مجموعة من جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة في سورية والفلاح والمحروسة في مصر وان ترجعوا الى كتابة الدواوين في مصر في منتصف القرن الماضي مثلاً وترجعوا اليها اليوم وان كانت الى الآن عشيقة الركاكة بعض الشيء . قابلوا المنشورات

التي تصدر اليوم في الوقائع الرسمية في مصر وما كان يصدر من امثالها منذ مئة سنة مما اورد الجبرتي في تاريخه نموذجاً صالحاً منه بنصه وفصه . عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به السن المحامين واقلامهم في مصر من التفنن في اساليب الدفاع والتأثير الخطابي وبين ما كان للغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب المحاماة طرفاً صالحاً منه يتجلى لكم كيف ارتقت لغة القضاء . استمعوا للخطباء اليوم ممن درسوا الدروس النظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقابلوها باكثر ما يحفظه خطباء الجوامع او يقرأونه من السجعات في دواوين الخطب القديمة . تدبروا لغة التمثيل اليوم وان كانا فيه دون سائر فروع الآداب تأخراً واسألوا كيف كانت منذ البدء حليفة الضعف والسماجة . اقرأوا المحاضرات التي تتلى اليوم في نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في مصر الخالية من التعقيد والغلط الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التي كانت تتلى زمن الثورة العرابية وبعدها مثلا تدركون كيف وفقنا الله الى قيام بناء آدابنا على هذا الاسلوب الرائق والابداع في الاداء والالقاء

اليس مما يعد من نهوض اللغة مانراه من احكام ملكتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فقد رأينا طلبة احداثاً تخرجوا من دار العلوم فكانوا والله اعرف بالعربية وفنونها من اكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الاخير على غير حق اما من تمحض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفاخر العربية في هذا العصر استحكمت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء واحاطوا بعلوم الوقت احاطة نبهاء الغربيين .

واليكم ايضاً مثالاً صغيراً اذكره لكم على ماأتت به بعض مدارس مصر في حياة اللغة فقد شاهدت في وادي النيل بعض المعمد ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجملة تسقط فيها على روح البيان والتلطف في التعبير مما لاتتلوه في عسلطات المحشين والمهمشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين وما ذلك الا بفضل المدارس المنظمة وما تلقيه الجرائد على مسامع الناس وانظارهم كل يوم من فصح العربية وشواردها وتفنن فيه من اساليب التعليم . نعم ان مطالعة الجرائد والمجلات اعانت على انتشار الآداب واحدثت الغيرة على التعلم في نفوس ارباب الاستعداد

ولذا رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الاصول الحديثة ولم يولع اهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم مازال اهلها الى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراكش فان مدينة فاس منذ القديم

ماخلت من افراد يعانون الآداب عَلَى الأصول القديمة ولكنهم في الجملة خير من اهل الجزائر الذين لانكاد تجد فيهم فرداً يعد في الطبقة الثانية في كتابنا فيما علمت وما ذلك الا لان اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر في دور من الادوار سوق نافقة ولان حكومتها تحاول منذ القديم ان تجعل اهلها فرنسيساً في لغتهم وافكارهم ومنازعهم

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثها فيها خير الدين باشا التونسي واشياعه فان الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لانتباه التوانسة الاذكياء الخلدونيين وغيرهم • اما طرابلس الغرب وبرقة والصحراء والسودان فهي من اخوان الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عدمها ولكن هناك في صحراء مراكش بلد غريب في تلقف ملكة العربية واعني به شنقيط بلد الشيخ محمد محمود الشنقيطي الحافظ المشهور في عصرنا • وطريقة اهلها طريقة الاقدمين في التلقي والاستظهار وقد شوهدت في شنقيط بعض البنات الشنقيطيات الى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم واظن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الازهر •

اما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في احياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الاخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضرموت ومسقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق الا ان ذلك لم يحل دون نبوغ بعض افراد شاركوا اتم المشاركة في حياة العربية ونعني بهم بعض اولئك العراقيين النوابغ الذين الفوا وكتبوا ولم يعقهم الحجز عَلَى الافكار الذي دام في البلاد العثمانية الى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لانغالي اذا قلنا ان ثلاثة ارباع ماتم للعربية من الارتقاء في القرن الاخير يرجع الفضل فيه لمصر والربع الآخر يورع عَلَى سورية والعراق وتونس • ومن الاسف اننا لانزال نرى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربي منها يكاد يكون اشبه بالمالطية والكرشونية منه بالعربية الحجازية فتسقط فيها من الاغلاط في التركيب والتأليف والالفاظ والوضع ماتسأل الله معه السلامة واقل من ذلك غلطاً تلك الجرائد التي صدرت مؤخراً في طرابلس الغرب وبعض مدن سورية الصغرى وبغداد والبصرة والموصل واحسن منها جرائد مهاجري سورية في اميركا الشمالية والجنوبية وهي لاتقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد الرشيق • ومع هذا فان الآمال قويت بان لاينتصف

هذا القرن الرابع عشر للهجرة الا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التي ينطق فيها بالضاد بل بالصاد والحاء والخاء والعين والغين والثاء والذال والظاء ورقيت لغتنا بمساعي المأورين من ابنائها امثالكم درجة عالية خصوصاً في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث انوارها واريد بها الحجاز واليمن ونجداً فان فيها بقايا من ارباب الذكاء النادر الى الآن من لو تمرنوا عَلَى العمل اذا تهيأت لهم الاسباب لاتى عَلَى ايديهم خير كثير للامة ولا يرجى ذلك الا متى انقطعت شأفة الفتن من تلك الاقطار وأمن الناس على اموالهم وارواحهم ليتفرغوا اوافرادمنهم للدرس والاستنارة

هذا ما احضرني في موضوع نهضة العربية الاخيرة القيمة في هذه المحاضرة وربما خرجت عن البحث بعض الشيء وساحة عفوكم تسعني وانتم تعلمون اني عَلَى اوفاز استودعكم الله والسلام عليكم

طريقة التعليم

كان من اول الاصلاح في اوربا أواخر القرون الوسطى وأوائل القرون الحديثة لما شرعت الامم الراقية فيها تدرس العلوم المادية والادبية ان اتت عَلَى طريقة التعليم تصلحها بما يقتضيه حال الزمن والتجارب فتم لها في أوائل القرن الماضي تنظيم مدارسها عَلَى النحو الذي نراها عليه اليوم واصبحت يدخلها الطالب فيتعلم في بضع سنين لغة اولغتين او ثلاثا معها الى مايتحتم عليه معرفته من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والادبية والاقتصادية فيخرج الطالب بعد هذه الدروس النظامية الاولية ملماً بفروع كثيرة بل بامهات العلوم واصولها المقررة لاعداد العقول للتفكير والانامل للكتابة والالسن للنطق والاجسام للحركة وهذه الدروس التي يسمونها دروس الموسوعات (الانسكلوبيذية) يمر فيها الطالب عَلَى كثير من المطالب تغنيه اذا اراد الاقتصار عليها والانصراف الى اكثر الاعمال التجارية والصناعية والزراعية والعلمية . واذا سمت به همته الى الاخصاء في علم واحد من العلوم التي ذاقها في الجملة يتمحض لها ويدخل مدارسها الخاصة كمدارس الزراعة والتجارة والمعادن والميكانيكيات والادب والطب

والهندسة والقضاء والجندية واللغات والفلسفة واللاهوت والاجتماع وغير ذلك من اصناف العلوم التي جعل لكل فرع منها مدرسة خاصة اوصف خاص يدرس فيه من تصح عزيمته على الامتياز في احد فروعها ليكون فيها مرجعاً ويبرز على اقرانه فينفع وينتفع

ولولا اصلاح طريقة التعليم والالقاء لم يتيسر للشاب ان يدرس في سنين قليلة مثل هذه الدروس الكلية ولكن اصول الكتب التي أُلفت بحسب سني الطلب وسن الطالب وطريقة الالقاء الشفاهي والاملاء الكتابي هي التي تفتح ذهن الطالب وتحبب اليه الدرس والبحث منذ الصغر فلا يتداول من العلم الا بقدر معلوم ولكنه يتداول اللباب ويطرح القشور ويقرأ المختصرات ابان دراسته كليات العلوم فاذا شب يتناول المطولات فتكون منه على طرف الثمام

فبمثل هذا التنظيم في التعليم ثم الاخصاء في فرع او فرعين نبغ في الغرب رجال في علوم البشر لاشبه بينهم وبين رجالنا في سعة المدارك وبعد الهمم والعلم الواسع وبتربية بنيه على هذا الاسلوب المتقن نبغ في القرون الاخيرة افراد ليس في رجالنا من يضاهيهم او يبلغ علمه ربع علومهم امثال ديكارت وكونت وكانت وباكون وسبينوزا وبينتزلا وامرسون ونيوتن وهاكسلي وسبنسر وكيتي وشيلر وروسو وفولتير ومئات يتعذر الآن احصاؤهم

هذه المدارس وطرق تدريسها هي التي حرم منها الشرق الا قليلا ولا يرجى تأسيسها على ما يجب في البلاد المصرية والعثمانية الا بعد ان تكون المائة والخمسون طالباً الذين بعثت بهم نظارات الحكومة العثمانية الى كليات أوربا قد انجزوا الفروع التي يتمحضون لها ويعود اولئك الذين ارسلتهم الجامعة المصرية للاخصاء في فروع متنوعة من العلم يدرسون في الجامعة بالعربية فيتخرج بهم ارباب الرغبات في العلم كما يتخرج الآن في السلطنة العثمانية اناس كثيرون بالرجال الذين درسوا الفنون العسكرية والطبية في المانيا او يتخرج المصريون بالاساتذة القلائل الذين تعلموا في كليات انكلترا وفرنسا والمانيا على نفقة نظارة المعارف المصرية

متى كثر عدد المتعلمين على الطريقة الحديثة واصبح الاستاذ لا يجلس في حلقة تدريسه وعلى منبر القائة الا اذا كان افنى شطراً من حياته بالقعود على دكات تلك المدارس الراقية وأسهر الجفن في الليالي وراء المناضد وتخرج باعاظم اساتذتها الاعلام

هنالك قل للعثمانيين والمصريين انكم بلغتم درجات الامم الحية لجديرون وانتم ما أنتم ان يهابكم العدو ويحترمكم الصديق . واي سلاح امضى من العلم الصحيح والآداب الرائعة واي عاقل يجل غير الحري بالتجلة والاكرام ممن امتاز بصفات الرجولية الحقيقية .

لاجرم ان اصلاح التعليم عَلَى الاسلوب الجديد وتدريس علوم الدنيا به ينفع اذ ذاك في احياء العلوم الدينية أيضًا لان الارتقاء سلسلة لا يتيسر ان يكون بعضها عاطلا وبعضها حاليا بل هو كالبناء لا يكون صحيحًا اذا تداعى منه جانب .

متى حسنت طريقة التعليم لا يقضي طالب العلم الديني بضع سنين مثلا في تعلم بعض العلوم الآلية ليحسن مطالعة عبارة معربة فيغوص كما هو الحال في الروم ايلي والاناضول والشام سنين كثيرة في بحر البناء والمقصود والعزي والمراح والعوامل والاظهار والكافية والشافية والسمرقندية والمختصر والسنوسية والايساغوجي وغيرها من كتب النحو والصرف والبيان والمنطق ثم لا يتلو شيئًا من العلوم التي يقصد تعلمها كالتفسير والحديث والفقه والكلام والحكمة .

وذلك كما يغوص طالب العلم في الازهر في قراءة الاجرومية والكفراوي والازهرية وابن عقيل والخضري والصبان وغيره من كتب النحو المطولة والمختصرة ينتقل من واحد الى آخر حتى يفرغ صبره ولو قرأ احد هذه الكتب المطولة قليلاً كابن عقيل وشرحه مثلا لاغنته عن هذا التطويل الذي يضيع به وقته ويتبلد ذهنه وتفوته الغاية المقصودة من الطلب واللغة آلة لا غاية . ولكن عقم طريقة التعليم قضى ان لا يتعلم طلبة الجوامع والمدارس سواء كان في الديار المصرية والبلاد العثمانية الا هذه القوانين والقواعد ويحرموا من تطبيق الذكر عَلَى العمل

وليت شعري اليس من فساد طريقة تعليم المشايخ ان لا يعلم الطالب منهم كتاباً اوشذرة من علم الادب واللغة لينفهم اثناء دراسته النحو والصرف والبيان معاني الكلام الفصيح ويطبق النحو والصرف والبيان والمنطق عَلَى العمل ثم يتأتى له تأليف جملة صحيحة عربية وكيف يتأتى للمرء اتقان لغة دون ان يطلع عَلَى كلام اهلها وكيف يؤلف الكلام من لا يفهمه وهل اللغة الاسماع من اصحابها والجري عَلَى مناحي بلغائها وما نظن الغزالي وابن رشد وابن سينا وابن الطفيل وابن زهر وابا حيان وابن جرير الطبري والماوردي ومئات غيرهم في الاسلام كانوا يعرفون فروع النحو ودقائقه مثل ابن الحاجب وابن عقيل والبركوي والصبان واضرابهم من أئمته ومع هذا انتفعت الامة بكتب

أولئك الفلاسفة والعلماء انتفاعا يبقى أثره على الدهر ولم تعهدلهم غلطة شائنة ولا اسلوب ركيك

لا يتيسر اتقان لغة من لغات العالم كلها الا بالسماع من افواه اهلها وسلوك الطريقة العملية في اقتباسها فلو اتقن الطالب جميع قواعد النحو والصرف والبيان والمنطق كما هو الحال الآن في هذا الصنف من المتعلمين ولم ينظر في تحليل الكلام العربي واستظهار القدر اللازم من منثوره ومنظومه ولم يتدبر معاني الكتاب ولا اخذ بقسط من الحديث وغيره ما استطاع الطالب أن يفهم روح اللغة العربية على اصولها ومن لم يفهم اللغة كان حريا بأن لا يفهم اسرار الشريعة على ما يجب

ان المدارس الغير النظامية كالازهر والفاتح صدت الناس عن الطلب لما اعترضهم دونه من العقبات بالطريقة العقيمة المتبعة معهم واي طريقة أفسد من ان يظل الشيخ يشرح للطالب المبتدىء في اول يوم يشرع فيه بتعلم النحو كيفية اعراب البسملة ووجوه قراءتها على حين يكون الطالب غفلا لا يعرف الجار من المجرور ولا المرفوع من المنصوب ولا الصفة من الموصوف وهكذا يبقى الشيخ يضيع وقته ووقت الطالب على غير جدوى وقد رأيت من المشايخ من قرأوا العوامل في سنة والعوامل مثل فهرس لابواب النحو لا يبلغ ثلاث ورقات الا ان المدرس أوسعها شرحا وتحشية وتهميشا حتى صارت كتاب نحو مطول هيهات أن يستوعبه عقل طالب

ولذا كان من خير ما تم من الاصلاح في الازهر على عهده الاخير الاستغناء ما أمكن عن الشروح والحواشي . ولعل المشيخة الاسلامية تنظر لطريقة تعليم طلبة الجوامع بما يقوم أودها فتقضي على طلبة العلوم الدينية ان يمتحنوا امتحانا عمليا لا نظريا ممزوجا بشيء من العلوم العصرية كما هو حال مدرستي دار العلوم والقضاء الشرعي . وتسير على هذا المنهج ادارة الازهر الشريف فيعود اليه سالف مجده ويخرج في السنين القليلة طلابا درسوا علوما كثيرة تنفعهم في جهاد الحياة .

سير العلم والاجتماع

الارض وما تخرجه

تبلغ مساحة الحقول المزروعة بايدي البشر ٥٣٧ مليون هكتولتر اي واحد من خمسة وعشرين جزءاً من اراضي القارات الخمس وثلث اراضي اوربا مزروع وواحد في كل ١٢١ هكتاراً من كندا ويبلغ ما في الارض من الحيوانات ذوات القرون ٢٨٠ مليون رأس و٤١٣ مليون خروف و١٢٧ مليون خنزير و٧٠ مليون حصان. ومملكة هولاندة اخصب بلاد العالم يعطي كل هكتار من ارضها ١٢٣٥ لتراً من الحنطة في حين يعطي الهكتار في فرنسا ٧٢٠ وهي معدودة ارقى بلاد اوربا بزراعتها ويخرج من الولايات المتحدة ٢٣٤ مليون دجاجة

الدواب والاثقال

افضل ما اهتدى اليه الانسان استعمال الخيل كانت المعول عليها في التنقل قبل الدراجات والسيارات والمناطيد. ومن اقطار العالم ما لا تستعمل فيه الخيول لانها غالية الثمن او لا تحتمل مناخ الاقليم الموجودة فيه او لان الطرق غير معبدة او لان الاحمال التي يراد نقلها عليها غير متناسبة مع قواها فاستعاض سكانها بغيرها من الحيوانات ففي الهند وبعض بلاد الشرق الاقصى يعمدون الى استعمال الفيلة لا لقلع الاشجار بل لحملها الى الاماكن البعيدة وان مخالب الفيلة في برمانيا وسيام على صغرها وقوتها لتكفي لقلع اضخم الاشجار من جذوعها ولما كانت مخالب الفيلة في سيلان وسومطرا ضعيفة اكتفوا منها بان استخدموها بدل البنائين فعهدوا اليها بنقل الاحجار الضخمة ووضع بعضها فوق بعض كما توضع سائر مواد البناء

وفي الترنسفال تجر ثماني او عشر اوثنتا عشرة بقرة مركبة بسرعة مهمة وفي جزائر الارخبيل يربطون البقر توصلهم واثقالهم الى الحقول حتى اذا بلغوها استعملوها فيما تستعمل فيه الخيول. وفي برمانيا جنس من الجاموس معد للسباق وهو مطلوب بقدر ما تطلب خيول السباق في اميركا. ويستعملون في جهات القطب الشمالي الوعل والكلب بدل الخيول والوعل هو خيل بلاد لابون يقطع ١٥٠ كيلو متراً في اليوم وهو مربوط الى مركبة متسعة والكلب فيما وراء ذاك الاقليم اي في اصقاع القطب بمثابة الدواب التي تجر

الاثقال وهو مستعمل في شركة نهر الهدسون باميركا كما يستعمل القرد المعروف بالاسكيمو . والكلاب هنا قد تقطع ٥٠٠ كيلومتر بدون ان تستريح طويلاً ومن الغريب انهم لا يطعمونها بل هي التي تمتان انفسها اذ يصعب حمل مؤونتها في جملة ما يراد حمله في المركبات التي تجرها ولذلك كثيراً ما يحدث ان تفترس الكلاب بعضها بعضاً لقلة الغذاء فلا تصل المركبة الى المكان المقصود الا بزوجين او باربعة ازواج من الكلاب في الاكثر . والجمل كما هو المعلوم في افريقية وآسيا هو الذي يحمل الاثقال

وفي كثير من البلاد يستعمل الانسان بدل الحيوان لنقل الاثقال ولا تزال المحارات والدراجات التي تسير من نفسها في بلاد انام وقد انتقلت اليها من اليابان وهي عندهم دخيلة ادخلها منذ اربعين سنة احد المرسلين الاميركان لينتفع بجرها محاويج الاهلين ولكنها شاعت عندهم شيوعاً هائلاً حتى انك تجد اليوم في طوكيو وحدها عشرة آلاف عربة من هذا النوع تقطع عشرة كيلومترات في الساعة ولا تزال هذه المركبات التي يجرها البشر شائعة في انام وسيلان والهند وجنوبي افريقية على الرغم من انتشار السكك الحديدية والترامويات والدراجات والسيارات . والركبات المستعملة في المكسيك هي من نوع ما كان يستعمل من المحارات لنقل الملوك في اوربا وثمن البغل في الحبشة ضعفا او ثلاثة اضعاف ثمن الحصان ولذلك يؤثرون استعماله للاكرام ومن يريدون اكرامه ليحظى بحضور نجاشي الحبشان يركبونه على بغل ويركبون الخدم على الخيول . واشتهرت حمير القاهرة حتى احرزت قصب السبق في بعض المعارض . وفي بعض المدن الكبرى من فرنسا يستعملون مركبات يقطرونها الى العنز يستخدمونها لتنزيه الاولاد في الحدائق العمومية كما يقطر النعام في افريقية الجنوبية وكليفورنيا الى المركبات ليجرها . والبقر شائع في جر المركبات في كثير من الاصقاع الاوربية والآسياوية . وفي هولاندا والبلجيك وبعض الاقطار الشمالية من فرنسا يقطرون الكلاب بالمركبات وتجر عربات باعة الحليب [illegible]

مدة النوم .

كان الطب القديم يقضي بان ينام الاطفال والشبان والشيوخ ست ساعات في الاربع والعشرين ساعة ويعد من ينام كثيراً من الكسالى ولكن علم الصحة الحديث قضى بان تكون كمية النوم متناسبة مع ما يصرفه الانسان من قواه فالشيخ الذي [illegible] عليه سنه ان لا يصرف كثيراً من قواه ينبغي له ان لا ينام كثيراً ايضاً ويقول المثل الافرنجي [illegible] دليل [illegible] الحياة في كثير [illegible] القول .

فسبع ساعات تكفي لمن يتعاطى الاعمال الصعبة منها ساعة في النهار و ينتاب داء المفاصل والحميات المتقطعة العامل الذي ينام عَلَى الارض معرضاً للهواء ولو كان في الشمس كما ان علة الصرع قد تعتري الشيوخ الذين ينامون بالقرب من النار بعد الطعام

عدد البقر

في انكلترا ٤٥٥,٠٠٠ ١١ رأس بقر وفي المانيا ١٩,٠٠١,٠٠٠ وفي فرنسا ١٣,٥٥١,٠٠٠ وفي روسيا ٣٧,٤١٣,٠٠٠ وفي النمسا والمجر ١٤,٢٣٧,٠٠٠ وفي ايطاليا ٥,٠٠٠,٠٠٠ وفي اسبانيا ٢,٤٥٢,٠٠٠ اما بلادنا فليس فيها احصاء مدقق للبشر فضلاً عن البقر

طحين الشوندر

هو محصول جديد يستخرج من الشوندر الذي اصبح منذ مدة يستخرج منه للصناعة سكر والكحول وكان هذا الطحين يستعمل في المانيا ولكن لعلف الماشية فتوصل احد الزراع البلجيكيين الى الانتفاع به في المعجنات . وطحين الشوندر يحتوي عَلَى ٦٥ في المئة من السكر .

الكليات الفرنساوية

كان عدد اساتذة العلم في الخمس عشرة كلية في فرنسا سنة ١٩٠٩ ٣٦٦ و ١٠٢ ناظر ومحاضر و١٤٨ ناظراً عاماً عَلَى الاعمال العلمية و ٣٣٦ معيداً للدرس وطلب من الحكومة لرواتب الاساتذة ومن يتبعهم سنة ١٩١٠ مبلغ ١١,٦٧٩,٥٥٣ فرنكاً و٢,٢٢٩,٨٢٧ فرنكاً لابتياع الادوات وقد زادت ميزانية تلك الكليات زهاء ربع مليون فرنك

عطايا كليات اميركا

كانت عطايا المحسنين لكليات اميركا في السنة الماضية كثيرة عَلَى العادة واهمها لكلية يال ٤٧٥ الف دولار ليؤسس فيها معمل طبيعي و٧٣ الف ريال لتصرفها عَلَى تعليم بعض نوابغ المعوزين و٢٣٦ الفاً لجامعة دورهام و٥٠ الفاً لكلية ماك جيل في مونتريال و١٠٠ الف لكلية برنستون و٥٠٠ لكلية اوهيو و٢٣٠ الفاً لكلية هارفرد واعطت عقيلة ريد مبلغ مليوني دولار فقط لتأسيس مدرسة جامعة للفنون والعلم في بورتلاند من اقاليم اورغون.

عظمة بريطانيا

نشرت المجلة الوردية احصاء في بلاد الانكليز ومستعمراتهم وتجارتهم في العام الماضي

جاء فيها ان مساحة بريطانيا العظمى ١٢١٬٣٩٠ ميلاً مربعاً وسكانها ٤٤٬٥٣٨٬٧١٨ ومساحة الهند الانكليزية ١٬٧٦٦٬٥١٧ ميلاً يسكنها ٢٩٤٬٣١٧٬٠٨٢ ومساحة مستعمراتها الاخرى في آسيا ١٤١٬١٥٠ ميلاً يسكنها ٦٬٢١٨٬٠٠٦ ومساحة مستعمرات المحيط الكبير ٣٬١٩٠٬٣٦٠ ميلاً سكانها ٥٬٨٤٨٬٤١٣ ومساحة مستعمرات افريقية ٢٬٠٩٩٬٤٨٣ ميلاً سكانها ٣٤٬٦٠٥٬٣ ٥ ومساحة كندا ٣٬٧٤٥٬٥٧٤ ميلاً سكانها ٦٬١٥٣٬٧٨٩ ومساحة المستعمرات الاميركية الاخرى ٢٧٩٬١٢٣ ميلاً فيها ٢٬٣٣٦٬٩٥١ ومساحة املاكها في اوربا ١١٧ سكانها ٢٢٨٬٦١٨ فيكون مجموع مساحة ما يخفق عليه العلم البريطاني في القارات الخمس ١١٬٣٤٣٬٧٠٦ اميال مربعة و٣٩٤٬٢٤٦٬٨٨٢ ساكناً او نحو خمس العالم وواردات بلادها ١٬٠٥٣٬٢٦٥٬٩٩٥ ليرة انكليزية وصادراتها ٩٦٨٬٣٤٤٬٥٦٢ ليرة اي بزيادة ثلاثين مليون ليرة في قسم الواردات وعشرة ملايين في قسم الصادرات بالنسبة للسنة السابقة وزادت خطوطها الحديدية حتى اصبحت في السنة الماضية ٢٣٬١٠٨ اميال في بريطانيا و٢٩٬٩٣٦ في الهند و٥٣٬١٩٩ في سائر المستعمرات

الطب الصيني

قال احد اطباء الغرب في يونان من بلاد الصين ان ما يقال في شهرة طب الصين مبالغ فيه عَلَى ان الصيني لا يعادي الطب الاوربي ومعلوم ان احد امبراطرة الصين درس سنة ٢٧٣٧ ق٠م زهاء مئة نبات شافٍ ونظمها تنظيماً حسناً وان علم تركيب الادوية الصينية يربو عَلَى خمسمائة نوع من النباتات الطبية والتراكيب المختلفة مثل قرن الوعل وذرور الاظافر وشوارب النمور واذ كانت تستعمل بالافراط احياناً فقد تودي بحياة المريض وعند الصينيين من النباتات ما يستعملونه من الخارج مثل نبات يقي من الاسهال يجعلونه عَلَى البطن في لزقة وعندهم ادوية تقي من السكر ومن الخوف او تجلب الخوف وادوية لمداواة العشق وادوية للنزعه ٠ وذكر الطبيب المشار اليه حالة اهل الصين مع حفظ الصحة فقال ان البيت الصيني قذر مظلم كثيب لا نوافذ له في الاغلب وفراش الصيني وهو من الخشب مغشى بالحصير واغطية وسخة لا تنظف بل تكون خواناً يأكل فيه صاحبه ودكة يقعد عليها ومحلاً يرتاح فيه ويجعل تحته في الشتاء موقدة ترمي بروائح اوكسيد الفحم لترسل الحرارة في المكان ٠ وليس عند الصينيين عناية بتنظيف

الجسم فيكاد الصيني لا يستحم مدة عمره ولا ينزع ثيابه عن بدنه الا اذا نزعته وليس في البيوت محال للاغتسال ومراحيض والمستنقعات مملوءة بالاقذار ولذلك كانت الحمى التيفوئيدية والزحير من الامراض الوافدة في الصين وكثرت وفيات الاطفال كثرة هائلة ولكن التناسل كثير جداً

الاضواء في فرنسا

تكون الاضواء في المدن والقصبات الفرنسوية بالكهرباء والغاز والاسيتيلين ففيها ٣٧٦٩ مدينة ومديرية لها معمل للغاز او محطة للكهربائية والاسيتيلين وفي فرنسا ٢٧٠٠ حاضرة مقاطعة و٧٧٢٠ مديرية يربو سكان كل واحدة منها عَلَى الف نسمة لم يزل بعضها محروماً من الكهربائية ولا تكثر الكهربائية الا بالقرب من شلالات المياه وتمتد عَلَى مسافة طويلة فتضيء الارجاء

اكتشاف العالم الجديد

عثر الباحثون في مينوستا في الشمال الشرقي من الولايات المتحدة عَلَى اثر تاريخي يستدل منه عَلَى ان اميركا دخلها اناس من العالم القديم قبل ان يصل اليها خريستوف كولمبوس بمئة وثلاثين سنة ٠ وقد زعموا كثيراً ان جماعة من السكانداويين نزلوا الشاطىء الشرقي من غروانلانده ولابرادور نحو سنة الف للميلاد ولكن ذلك من روايات بعض القصصين الذين جاؤا قبل القرن الخامس عشر وظهر ان الاثر الذي عثر عليه الآن اقرب الى الصحة وقد عثر عليه جماعة من العملة بينا كانوا يعالجون اخراج جذع من الارض وهو عبارة عن حجر بين جذعين وقد عرف من البحث في الجذعين انهما اصل لشجرتين قديمتين غرستا بعد وضع ذاك الحجر المكتوب عليه من وجهيه بحروف رونية كتبت في القرن الرابع عشر والحروف الرونية هي حروف السكانداويين في القرون الوسطى لا يعلم حلها الا افراد قلائل وما كان منها من القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر يمكن تقليده ولذلك تبين لهارلاند العالم الاثري ان هذا الحجر صحيح والكتابة به واضحة ومعناها ان ثمانية من الغوطيين واثنين وعشرين من النور بين بينا كانوا يطوفون البحار سافروا من فنلاندا في ايكوسيا الجديدة ونزلوا عَلَى مقربة من ليلثين بالقرب من هذا الحجر وذهبوا الى صيد وشهدوا غندعودتهم عشرة من رجالهم ميتين: رحماك ايتها السيدة البتول فان عشرة من رجالنا نازلون عَلَى الشاطىء بالقرب من سفننا عَلَى اربعين يوماً و يوم من هذا الحجر كتب سنة ١٣٦٢

الروائح والهضم

كل الناس يعلمون ان الروائح التي تنبعث من الطعام اللذيذ تفتح شهوة الطعام والروائح المنبعثة من الطعام الكريه تصد النفس وتمنع القابلية . وقد استدل احد اطباء الولايات المتحدة بالبحث والتجارب ان الروائح والعطور توءثر كل التأثير في بعض الحواس وذلك ان بعض الاشخاص لا يتأتى لهم ان يقعدوا في غرفة فيها باقة من الزنبق (ليلك) او الياسمين وان اناساً يصابون بالصداع او المقس (القيء) اذا استنشقوا الياسمين البري او وردة وان اكثرهم يصابون باضطرابات معدية اذا دخلوا بيت تربية النبات وكان فيه التنوم (دوار الشمس) وذكر ان امرأة متوسطة العمر كانت تصاب بوجع في القلب كلما كانت تشم رائحة لحم الخروف والسمك وكانت تتناول منه مسرورة على شرط ان تسد انفها حتى لا تشم رائحته ومن ذلك ان كثيرين يصابون بالقرف اذا قدمت لهم صفحة من لحم كريه عندما يشمونه . وقال ان له زبوناً كان ضابطاً في حرب الانفصال كلما رأى البصل يصاب باضطراب في المعدة لانه كان يقدم له في تلك الحرب بصل محضر تحضيراً رديئاً فيتناول منه متكارهاً مضى على ذلك خمس واربعون سنة وهو لا يزيد للبصل الا كراهة . وافضل دواء لمن يصاب بذلك ان يعمد الى اخذ المقبلات ولكن يجب ما امكن التوقي من الروائح الدافعة فالجيد منها نافع والكريه ضار حتى ان بعض الشرقيين يعمدون قبل الطعام الى استنشاق الطيوب والعطور علماً منهم بانهم بذلك يحسنون اعصابهم وهضمهم

الطلاق

انتشر الطلاق في الولايات المتحدة وسويسرا انتشاراً هائلاً بحيث اصبح المطلقون والمطلقات كثيرين جداً ويقال ان السر في ذلك فساد قوانين الزواج حتى اختل نظام الزوجية وانتشار العيشة الفردية وقلة التدين ويوءكد من يعللون هذا الحال بقلة الدين ان بعض المقاطعات في الولايات المتحدة يقل فيها الطلاق جداً لان اهلها متدينون ولا تزال تغلب عليهم التقاليد والاوهام .

غنى اشراف الانكليز

في المجلة البارزية بحث في حال الاشراف والفقراء في انكلترا جاء فيه ان فيها ٢٧ دوقاً ما عدا الدوقات الذين هم من دم ملكي يملكون نحو ٢٥٠٠ مزرعة كبرى اي اراضي نصف المملكة على التقريب . ويقدرون مساحة اراضي الدوق دي سوترلاند بـ ١٫٣٥٨٫٥٤٥

فداناً او نصف مليون هكتولتر بلغت وارداتهـا منذ عشرين سنة ٦٦٧_١٤١ ليرة انكليزية ويجيء بعده الدوق دي بوكلوش واراضيه تبلغ نصف مليون فدان ولكن وارداتها اكثر اي انها تبلغ خمسة ملايين ونصف من الفرنكات و يجيء بعدهما دوقات ريشموند وديفونشير وهاملتون واتول وارجيل و بورتلاند ونورتومبراند ومونتروز وهم يملكون مئة الف فدان تأتيهم بنحو مليون فرنك من الواردات ثم يجيء بعدهم الدوقات الصغار ولا يقل ما يملكه الواحد عن عشرة آلاف فدان

و يتألف من هؤلاء الدوقات والنابهم وغيرهم امتن اساس في بنيان المجتمع الانكليزي الحاضر وهم المحور الذي تدور عليه الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد ولطالما كان هؤلاء الاشراف منذ القديم موضوع احترام انكلترا ولكنهم بما يملكون من هذه الاراضي الواسعة اصبحوا لا يعرفونها ولا يخدمونها فصحت فيهم آية التوراة ان الذين يضيفون من بنيكم حقلاً الى آخر تنتهي بهم الحال ان يكونوا نساكا متزهدين . نعم تركت حقولهم وغاباتهم بدون ان تتعهدها الايدي تركوها لتكون متنزهًا ومجالاً للارتياض والصيد في حين ان الوفًا من الايدي تنقطع عن العمل لقلة الاراضي لديها و يتحكم الاشراف في مزارعيهم ومزارعهم تحكماً غريباً فان الدوق ديفونشير لا يسمح لمزارعيه ان يعلقوا في اراضيهم اعلانات يتناولون اجرتها بضعة قروش من المعلنين والدوق دي فيف لا يرضى ان يبقى احد في الفندق القريب من مقره عندما يجيء اليه

فغنى انكلترا المشهور هو في ايدي الاسرات الممتازة المختارة من طبقة الاشراف واغنياء الطبقة الوسطى والرفاهية وقف عليهم وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من اهل الطبقات الاخرى كما هو الحال في فرنسا . وقد بلغ عدد المعوزين في انكلترا ٨٤٨_٩٥٩ اي ان شخصاً واحداً من كل سبعة وثلاثين شخصاً محتاج ان تعوله الحكومة او جمعيات الاحسان وفي لندرا وحدها من البائسين ٥٤٥_١٢٣ ولا يزال عددهم في ازدياد في الولايات والعاصمة فقد كان منذ سنين معدل الفقراء في بريطانيا العظمى ٩_٥٧ في الالف فاصبح في اواخر العام الماضي ٥٨٦ في الالف

و يستدل من هذه الارقام ان الامة الانكليزية تعيش منذ سنين برأس مالها واذا ظلت على هذا الحال تفلس افلاساً اقتصادياً واجتماعياً وان الحكومة من حيث السياسة دلت بذلك على انها لم تستطع ان تحكم لتوسع على الامة راحتها وسعادتها بل تركتها بلا سلاح في معترك الحياة تغنى لنفسها وتفقر كذلك . والسبب الوحيد في هذا الفقر اضطرار

الناس الى الانقطاع عن العمل بداعي حرية التجارة . ويقول آخرون ان السبب في هذا الشقاء هو مسألة تقسيم الاراضي فاملاك الاشراف مهملة لايستفاد منها وتلك الايدي العاملة تنقطع اضطراراً عن عملها لانها لا تجد ما تعمل في الصناعة والتجارة وكانت تعمل في تلك الاراضي الواسعة لو وزعت عليها توزيعاً معقولاً فاشراف انكلترا هم العائق الكبير في كل اصلاح وارتقاء واملاكهم هي الحاجز الاقتصادي الحائل دون نماء الراحة العامة فعليهم التبعة العظمى في غلاء المعيشة وقلة الاعمال والشقاء الاجتماعي الذي يزيد يوماً عن يوم

ومنذ عشرين سنة فتحت طريقة جديدة لادخال لوردات جدد علاوة على القديم منهم وهم من كبار ارباب المعامل والماليين مثل الدوق دي نورفولك وواردااته السنوية ٣٧ مليون فرنك ما عدا الاربعمائة فدان التي يملكها في حي وستمنستر في لندرا وريعها مليون جنيه والدوق دي بدفور وريع اراضيه البالغة ٢٥٠ فداناً في لندرا هو مليونا جنيه واللورد نورثامبتون وريع املاكه مليونا ليرة افرنسية وغيرهم كثيرون

وهكذا اصبح دوقات انكلترا ارباب الاحتكار للثروة وهم سبب شقاء الطبقات ومنهم ضرر البلاد .

ري العراق

خطب السر ويليم ويلكوكس في اجتماع الجمعية الجغرافية الملكية في لندرا : في العراق ماضيه وحاضره ومستقبله خطاباً حضره كثير من سراة الانكليز وعلمائهم فقال انه لما انتدبته الحكومة العثمانية الجديدة لري العراق واصلاح اقنية دجلة والفرات وبيان الطرق اللازمة لعمران تلك البلاد بدأ بدرس طرق الري القديمة وما يلزمها من الاصلاح فاستفاد من ذلك فائدتين اساسيتين الاولى كثرة نفع الماء الخالي مما يحمله عادة من الوحل والحكاكات والثانية لزوم اتخاذ الاحتياطات لمنع الفيضانات وان الاثني عشر مهندساً الذين ساعدوه في بغداد كانوا بينوا له انهم قادرون على القيام بهذين العملين فعرضوا على الحكومة قبل ذلك طريقة للتخلص من فيضان ماء الفرات حتى مهابط نهر بيزون القديم وقدر المال اللازم لذلك بثلاثمائة وخمسين الف ليرة والوقت بثلاث سنين وبذلك تصبح الارض القابلة للزرع مضاعفة ومحصولات الحنطة تبلغ ثلاثة اضعاف اما المزارعون اليوم فانهم لا يجرأون على زرع الاراضي بالبذور اللازمة وكذلك هم يحسبون انهم يخسرون كل شيء في السنة السالفة .

ومشروع اليوم هو القناة الوسطى الكبرى في اوض الدلتا اللازمة لري ٣٠٠٠٠٠٠ فدان من احسن اراضي العراق لريها بماء نقي ففي الشمال الغربي من بغداد بين دجلة والفرات انخفاض في الارض يسمى بحيرة عكاركف ومساحتها اذا كان ماؤها على اقل درجاته اربعون ميلاً مربعاً واذا كانت مملوءة ثلاثمائة ميل مربع وانخفاض سطحها عن الفرات خمسة وثلاثون قدماً وعن دجلة عشرة اقدام والى هذا المنخفض من الارض يأتي نهر الصقلاويه وهو فرع من الفرات عرض قناته ٢٤٠ قدماً وعمقها ٢٥ قدماً وينقسم عند وصوله اليها من الغرب الى نحو عشرين فرعاً ٠

وعند اتصاله بالفرات يلزم ان يوضع له معياران قويان يعينان الماء المار فيه وكذلك يوضع للفرات سد بعد مفرق فرع الصقلاوية لتنظيم مجرى ماء الفرات نفسه ٠ ان ما تقدم من الاعمال يؤمن وصول الماء من الفرات واما من جهة دجلة فان المهندسين ارتأوا وضع سكر في البلد عند حاجز النمرود وهذا السكر يوضع في مرتفع من نهر دجلة يعلو ستين قدماً عن سطح بحيرة عكاركف وبهذه الواسطة يمكن ان يحفر له فرع لري الارض المخصبة الواقعة شمال بغداد ويصنع لهذا الفرع منفذ الى البحيرة المذكورة فيحفظ قناته من الوحل ويصل دجلة بالبحيرة وهكذا يحصل الزارعون على ما يلزمهم من الماء من النهرين المنصبين في تلك البحيرة من غربها وشمالها واما من جهتها الجنوبية والشرقية القريبة من بغداد فيحفر قناة توازي ضفة دجلة اليمنى وتنتهي في الحي وهذه القناة تكفي لري ستة ملايين فدان ٠

اما الوحل الشديد المضر ومدته لا تتجاوز خمسة عشر يوماً في السنة فانه يرسب في البحيرة ٠ ووليكوكس يقترح ان تسمى الضفة اليسرى من هذه القناة باسم اول حاكم دستوري في البلاد العثمانية وهي تكون حاجزاً يحمي البلاد من فيضانات دجلة وعليها تمر سكة حديدية تنقل محصولات البلاد وهكذا تعود مدن صبارة وكوثا ونيل ونفور وأرخ وتل سكورخ وتل لو الى عمرانها

وبعد ان بين الطرق التي تحمي البلاد من الفيضانات وكيف ان المباشرة تكون بري ثلاثة ملايين فدان من الارض تغل سنوياً مليون طن من القمح ومليوني بالقطن ذكر طريقة ايصالها لاسواق التجارة مع ملايين من الاغنام ومئات الالوف من الماشية التي يمكن ان تعيش في الدلتا وقد فاوض تجار بغداد فوجدهم متفقين على ان تأخر البلاد ناشئ في الاكثر عن انقطاع المواصلة مع الغرب وان محصولات العراق اليوم وهي الغنم

والبقر والجاموس والصوف وعرق السوس والحنطة والشعير مطلوبة على الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط وفي اوربا وكل ما تحتاج اليه البلاد يمكن ان يأتيها من الغرب لذلك لا ينقصها الا احداث سكة حديدية تصل بغداد بالبحر المتوسط من اقرب الطرق وارخصها ومثل هذا الخط يكون مخرجه قرب صور او صيداء وطوله من بغداد الى دمشق خمسمائة وخمسون ميلاً تكلف مليونين ومائتي الف ليرة ٠ اه‍ (معرباً عن جريدة التيمس بقلم احد اصدقائنا)

ثقل الايام

يقال ان فلاناً اثقله كر الغداة والعشي وقد اثبت احد العلماء ان المرء كلما تقدم في السن زاد جسمه خفة فالكبد ووزنه العادي في البالغ ١١٦٥ غراماً لا يبلغ وزنه في الرجل الشيخ اكثر من ٨٠٠ الى ٩٠٠ غرام ووزن الكلية في البالغ ١٨٠ غراماً ولا تكون كلية الشيخ اكثر من ١٠٠ غرام ٠ اما القلب فلا يزال ينمو بنمو السن فيبلغ زهاء الف غرام في الشيخ اكثر من الفتى وكلما شاخ المرء كبر قلبه وربما كان ذلك ناشئاً من اسفه على السنين تمر به فتقربه من اجله

دارسو العلوم

بلغ عدد الطلبة الذين قيدوا اسماءهم سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ في جامعة العلوم الباريزية ٢١٥١ طالباً منهم ١٥٧٧ فرنسوياً و٤٢٧ روسياً و٢٧ رومانياً و١٥ من جمهوريات اميركا و١٣ نمساوياً مجرياً و١٣ عثمانياً و١٠ المان و١٠ يونان و٨ من الولايات المتحدة و٨ بلجيكيين و٦ سويسريين و٥ سويديين ونروجيين و٤ صربيين بلغاريين و٤ مصريين و٤ ايطاليين و٣ من كل من الجزائر البريطانية وهولاندة وشيلي و٢ من كل اسبانيا والبرتغال والصين وواحد من كل من الدانيمرك وايران وسورية والراس والهند الانكليزية و٨٠ طالباً اجنبياً في سائر الجامعات منهم ٥١ في الطب و٢١ في الصيدلية و٥ في الادب و٣ في الحقوق

معمل الفولاذ

انشأوا على ٤٠ كيلو متراً من شيكاغو على شاطىء بحيرة مشيغان في مدينة اسمها طاري اعظم معمل للفولاذ في العالم وهو يحوي من التنانير ما يخرج في اليوم اربعة آلاف طن وتقدر اكلاف هذا المعمل بعشرين مليون ليرة وحجم الغاز الذي يخرج في السنة من كل تنور عالٍ يبلغ ثمانين الف متر مكعب وفيه ١٧ محركاً بالغاز تبلغ قوتها ٢٥٠٠٠

حصان ومجموع ما يصدر من هذا المعمل في السنة ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ طن

مخترع المكرونة

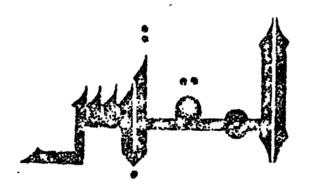
قالت احدى الكاتبات الايطاليات ان تاريخ اختراع المعكرونة يرد الى سنة ١٢٢٠ يوم خميس الجسد وهو اليوم الذي تاب فيه في بلرمة ونابولي الملك الصالح فريدريك الثاني ففي ذاك اليوم اخترع احد علماء الكيمياء من الطليان واسمه سيشو هذه المعكرونة فسرقت منه سر هذه الصناعة امرأة اسمها لاجوفانلادي كانزيو فاستعملتها من مواد كثيرة واجادت صنعها وتناولها الملك فاستطابها ثم الاسرة المالكة واهل البلاط والاشراف والنبلاء والفرسان و بعد ان عمت ايطاليا انتقلت الى اوربا باسرها بل الى العالم كله

الفراسة بالاظافر

يقول احد اطباء الايدي في باريز ان الاظافر العريضة والقصيرة هي دليل كاف عَلَى الشدة في الخلق والقسوة والغضب و يكون صاحبها متناقضاً في افكاره وعنيداً للغاية . واذا كانت الاظافر طويلة ومنبسطة تدل عَلَى كبر العقل والتصور وعَلَى الحكمة وتوازن الدماغ . واذا كانت مستطيلة ومنفسحة تدل عَلَى ميل صاحبها الى الشعر والفنون عَلَى اختلاف انواعها وعَلَى كسل غريزي فيه . واذا كانت محنية كالمخالب فهي دليل نفاق خبيث شديد قاس كما تدل عَلَى القسوة والميل الى القتل ومن كانت اظافره رخوة فدليل ضعف جسمه وعقله في حين ان من يأكلون اظافرهم كثيراً ما يكونون من المائلين الى الخلاعة . ومن كانت اظافره متلونة تدل عَلَى صحة وفضيلة وسعادة وميل عظيم للكرم

معادن العالم

احصى احد العارفين ما استخرج من معادن الرصاص والنحاس والتوتيا «الزنك» سنة ١٩٠٧ فكانت ٩٩٢ الف طن من الرصاص و٧١٣ الف طن من النحاس و٧٣٣ الف طن من التوتيا ومعدل سعر الطن من المعدن الاول ٤٨٢ فرنكاً وربع ومعدل سعر الطن من الثاني ٢١٧٧ فرنك و٥٥ سنتيماً ومعدل سعر التوتيا ٣٣٧ فرنكاً ويوزع المستخرج من الرصاص عَلَى ست ممالك فيصيب الولايات المتحدة ٣٤١ الف طن واسبانيا ١٨٦ الفاً والمانيا ١٤٠ الفاً واستراليا ٩٧ الفاً والمكسيك ٧٢ الفاً وانكلترا ٢٠ الفاً ويصيب الولايات المتحدة من النحاس ٤٢١ الف طن واوربا كلها ١٤٣ الفاً وانكلترا ٧٢ الفاً والمانيا ٣٢ الفاً واليابان ٤٥ الفاً واوستراليا ٣٢ الفاً و يصيب الولايات المتحدة من التوتيا ٢٢٧ الف طن والبلجيك ١٤٥ الفاً الخ



رمضان سنة ١٣٢٧

غرائب الغرب

حالة مصر (٦)

هبطت مصر وعهدي بها ليس ببعيد غبت عنها اربعة عشر شهراً وكنت صرفت فيها اربع سنين ايام الحكم الاستبدادي في المملكة العثمانية فلم ار اليوم وانا عابر سبيل ان امكث فيها اقل من اربعة عشر يوماً قضيتها في مشاهدة من خلفتهم فيها من الاصدقاء الكثيرين · والقاهرة من البلاد العربية كباريز من البلاد الافرنجية حوت ما في العواصم من ضروب الرقي والانحطاط مما تنفقه على غيرها طوعاً او كرهاً ويأتي الناس من القاصية فيأخذونه عنها ويهتمون بتقليده وتأييده

ان من ينظر الى مصر نظراً سطحياً يأسف لها كثيراً ويعدها كنزاً ضائعاً ودماً ضيعه اهله . ومن يمعن النظر في مواردها ومصادرها ويدرس مساعيها ومقاصدها ويقيس النتائج بالمقدمات والماضي بما هو آت . يدرك ان المستقبل المخبوء لمصر في حياتها الاجتماعية والسياسية لا يقل عما احرزته في حاضرها من المنافع المادية والادبية اذا ظلت عناية اهلها متوفرة على التعليم والتربية وهم يتقبلون شنشنة عن اخرى في تلقف ماينفعهم من انواع المعارف

لقيام بناء مجدهم الجديد على احسن نظام

ليس في اقطار الشرق ولا في اقطار الغرب بلد عرف تاريخه كما عرف تاريخ مصر ولا بلد مثله ابقى على آثاره الخالدة واحتفظ بتراثه القديم فنفع العلم والعالم بما ادخره ·

فقد قال لنا التاريخ ان عهد بعض سلائل فراعنتها كان عهد ارتقاء ومدنية وان مدنيتهم لاتقل من وجوه عن المدنية الرومانية واليونانية والفارسية فكانت دولة فاتحة غازية مستعمرة كما كانت دولة فاضلة متحضرة وانه جاء زمن طويل على مدينة الاسكندرية ايام الروم كانت تفيض العلم النافع على العالم اجمع بمدرستها كما كانت تفيض العلم مدرسة بغداد ومدرسة قرطبة ايام الخلفاء وكما تفيض كليات اوربا واميركا على آسيا وافريقية اليوم

اتى على مصر دور انحطاط بعد دولة الفاطميين اشتغلت فيه بنفسها وكان حظها من المعارف حظ سائر بلاد الاسلام وان كانت لها الميزة ابداً في هذا الباب على الاقطار المجاورة فقد كانت على عهد الايوبيين والجراكسة والمماليك على انحطاطها مورداً تستقي منه البلاد الاخرى وكانت العلوم الاسلامية والادبية خاصة مما يحمل من ازهرها الى شمالي افريقية وداخليتها وبلاد العرب والترك وسورية وغيرها · ولما جاء نابوليون الاول ثم محمد علي الكبير دخلت فيها بواسطة علماء من الفرنسيس روح الحضارة الغربية واسلوب التعاليم الاوربية واخذت حكومتها ترسل بالبعثات العلمية بل بالبعوث السلمية الى اوربا ليدرس النشء في كلياتها ثم يعودوا الى مصرهم فينفعوها بما علمهم الله والبشر الراقي

وما برحت هذه الارساليات تكثر ومصر الحديثة تتكون على المناحي

الغربية حتى جاء الخديوي اسماعيل واسرف في مالها اسراف جنون وجهل فاضطرت الى الاستدانة من الماليين الاوربيين واكثرهم انكليز وفرنسيس ولما حدثت الفتنة العرابية وجدت انكلترا مدخلاً لها بحجة ان ارباب الاموال يوجسون خيفة على اموالهم ورأت من فرنسا غفلة او تغافلاً فدخلت وحدها على اطفاء الفتنة فصدقت عليها كلمة نابوليون في قوله وقد اخرجته انكلترا من مصر بعد احتلاله لها بضع سنين في القرن الماضي انها لم تخرجنا منها الا لتأخذها لنفسها في المستقبل·

دخلت انكلترا مصر لاطفاء الفتنة اولاً ثم للمحافظة على ترعة السويس التي اصبحت اكثر اسهمها لجماعة من ابنائها · والترعة كما هو المعلوم طريق الهند الاقرب ومادة حياة دولة البحار · ومن حافظ على سلامته ومادة حياته يعذر

ولقد كان ميدان الاصلاح فسيحاً امام المحتلين لتوفر الاسباب الطبيعية لمصر وان بلاداً لا ينقطع ماؤها ولا تغيب شمسها ولا تتعب تربتها ولا تتعاصى على الانسان طبيعتها لأقرب البلاد الى معالجة الاصلاح في مجاهلها ومعالمها ·

ولما استتب الامن في انحاء القطر اقبل ارباب الاموال من الغربيين وغيرهم يتجرون و يزارعون ويؤسسون المشاريع العمرانية فكانت تلك الحركة نافعة في نهضة القطر الاخيرة نهضة اقتصادية كبرى حسدتها عليها بلاد كثيرة ·

تهيأ لمصر والحق يقال من رجال الاحتلال اناس عملوا باخلاص لتحسين زراعتها وريها وتنظيمها لينتفع من ذلك البريطانيون والمصريون معاً · وكان

عميدهم الاكبر لورد كرومر الذي ادار دفة السياسة المصرية اربعاً وعشرين سنة ارخى في خلالها عنان الحرية الفكرية والاجتماعية فهاجر الى مصر كثيرون من المشارقة · عمل هذا وغيره من الاعمال النافعة ولكنه كان يحاول ان يقف بالمصريين عند حد الاشتغال بالزراعة ثم بالوظائف القليلة التي لاتسمح الحال الا باعطائها للمصريين وماعدا ذلك من الارتقاء العقلي والسياسي فقد كان اللورد يقول لهم كل سنة تصريحاً وتلويحاً في تقاريره السنوية انكم لا استعداد لكم معاشر المصريين لغير ذلك من الاعمال فهل نسيتم ماضيكم ايام كنتم تساقون الى السخرة سوقاً وتستعبدون استعباد العبيد والارقاء ايام الحكومات الماضية المدمرة فاحمدوا الله على ان انجاكم مما كنتم فيه فحالكم الآن احسن من ماضيكم مئة مرة فمليكم ان تقنعوا بما حزتموه ·

ولكن نبهاء مصر لم يفتهم معنى هذه السياسة وكان الفضل الاكبر للجرائد في تنبيه شعور الامة المصرية الى ان وراء ماهم متمتعون به الآن مطلباً اسمى وانفع فقاموا يسعون اليه سعيهم وهم على اختلاف في الطرق الموصلة اليه لايختلفون في كون بلوغه لايتأتى الا من طريق التعليم والتربية

فبذل اهل الاقتدار المالي ماسمحت به نفوسهم من انشاء الكتاتيب في الارياف والمدن حتى اسفرت النتيجة بعد بضع سنين عن تكثير سواد القارئين والكاتبين ثم رأوا ان الامة لاترقى الا اذا كان فيها افراد يحسنون تعليم الامة بلغتها مايلزمها من المعارف المادية والاقتصادية والاجتماعية فسعوا الى اقناع الحكومة بجعل التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية باللغة العربية وكان اكثره بالانكليزية من قبل ثم رأوا انه اذا لم يكن لهم من ابنائهم

من يعلم العلم العالي سبب ارتقاء الامم لايكون العلم الا عقيماً ناقصاً فانشأوا لذلك المدرسة الجامعة المصرية وهم اليوم ينظمونها لتكون بعد سنين على مثال الجامعات الاوربية تدرس علوم الجامعات الافرنجية باللغة العربية وهي اول جامعة من هذا النوع لأمة لايقل الناطقون بها عن ستين مليوناً من البشر

نعم ان الجامعة المصرية اليوم وما دخل من الاصلاح على الازهر ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة دار العلوم ومدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة الهندسة والزراعة وسائر المدارس الاميرية والخصوصية هي التي تتألف منها اليوم طبقات رجال مصر الحديثة ولا بد لهذا الامر من آخر ولمساعيهم الحسنة من نتيجة اذا سلك القوم سبيل التؤدة وطبقوا اعمالهم على قانون العقل الصحيح واستفادوا بتجارب الامم السالفة وانصاع العامة للخاصة ووحدتهم ولم يبق المجال للغوغاء وبذلك تصبح اسباب القوة المادية والمعنوية في بلادهم على مستوى ماهي عليه عند الامم الحية حقيقة لامجازاً .

لاجرم ان المصريين بما فيهم من الذكاء وماورثوه من حضارتهم القديمة وتيسر لهم من الرقي المادي هم بمجموعهم ارقى من مجموع الشرقيين فضلاً عنك اليابانيين وفيهم اليوم من العقلاء المفكرين العاملين والباحثين من لم يشذوا دون ابناء طبقتهم في الغرب وربما فاق الاتراك المصريين تحليلاً الا في الامور السياسية والحربية .

ولا يعاب على مصر الا فتور همة ابنائها في منتصف الطريق في الاغلب وهذا الخلق يكاد يكون عاماً في القطر لايقوى في التغلب عليه الا التربية العملية . وحبذا يوم نرى فيه مصر تقبل على تعلم العلوم الطبيعية من الكيمياء والميكانيك والمعادن مثلاً اقبالها على تعلم الحقوق مثلاً بقصد ان يكون من ابنائها من يستغلهم

زهاء خمسمائة طالب في كليات اوربا واميركا والقسم الاعظم منهم يدرسون الحقوق ليترشحوا منها الى الوظائف لانه وقر في النفوس ان فن المحاماة اكثر عائدة على صاحبه من غيره من الفنون خصوصاً وهو متوقف بعد العلم النظري على طلاقة لسان وفضل بيان والمصريون اكثر العرب حظاً من تينك المزيتين ·

اصبحت مصر بمجموعها اليوم قطعة من اوربا كما قال الخديوي اسماعيل ولكن احبابها يريدون لها ان تكون كاوربا في صفاتها العالية وحضارتها الراقية حتى لا تخرج املاكها بطيش الطائشين من ابنائها الى ايدي الغريب فيعود المصري بعد بضع سنين والعياذ بالله كالغريب في بلده وما اصعبها من حالة · ان مسألة الراية التي تخفق على امة لا تهم بقدر ما تهم في الحقيقة مسألة الاملاك اذ انه مهما بلغ من حيف امة فاتحة او مستعمرة لا تحدثها نفسها ان تنزع من المالك ملكه الا برضاه · ومصر التي تتأذى اليوم بوطأة الرومي والطلياني والانكليزي وغيره لا تنتقل بعض املاكها منها الا برضى اولئك الوارثين والمسرفين الذين لا يعرفون دخلهم من خرجهم ولا دينهم من دنياهم هذه هي الفئة الضالة المضلة في هذا القطر المحبوب ومنها يخشى على مستقبله · فبقلة عقول المستهترين اصبحت نحو تسمة اعشار الاطيان والاملاك في مصر للغرباء وعليها مائتان وخمسون مليون جنيه من الديون منها نحو مئة مليون دين الحكومة ولا نعرف متى توفيه والباقي على عنق الفلاح الصغير والمزارع الكبير ·

ان ما نخشاه على مصر هو الاسراف الزائد وتقليد الغربي على العمياء ولو كان لاهل وادي النيل شيء من الامساك المحمود والاقتصاد المعقول

اذاً لكانت حال مصر السعيدة ارقى مما هي اليوم · ومن حاز الثروة وقانون الحكمة يدبرها والحكمة قائدها ورائدها وانتظر الفرص التي لا يزال الدهر يخبأوها للافراد كما لا يبخل بها على الامم لابد ان يتمتع يوماً بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي منتهى آمال كل امة حية في هذا الوجود



مرسيليا

في الساعة الرابعة بعد الظهر اقلعت بنا من الاسكندرية الباخرة ايكواتور (خط الاستواء) احدى بواخر شركة الميساجري ماريتيم الفرنسوية فبلغنا ثغر مرسيليا اكبر موانى فرنسا على البحر المتوسط والمحيط والمانش في اليوم السادس الساعة الخامسة بعد الظهر ولم نر في طريقنا شيئاً يستحق الذكر سوى بعض سواحل ايطاليا وفرنسا وقد تجلت عن بعد وكان نظرنا يختلف اليها بقدر بعدنا او قربنا منها ودام البحر رهواً حتى اذا خرجنا من مضيق مسينا اصبحنا واصبحت سفينتنا على كبرها وطولها وعرضها العوبة العواصف والتيار يتقاذفنا من كل مكان حتى لم يبق راكب في درجات السفينة الاربع الا وقد اخذه الدوار او كاد ولم نملك حواسنا الا عند بلوغنا ساحل السلامة

وقوة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصاناً ومحمولها ٣٨٤٨ طناً وتقطع في الساعة اثني عشر ميلاً وهي احدى بواخر الشركة التي تغدو وتروح بين موانى البحر الابيض والبحر الاسود والبحر الاحمر وبحر الادرياتيك ولهذه الشركة التي جعلت رأس مالها خمسة واربعين مليون فرنك تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصت سيرها بالبحرين الاولين في الاغلب · ومن موانينا التي تقف

عليها بواخر الميساجري ماريتيم خانيا وسلانيك والاستانة وجناق قلعة وازمير ومدانيا وفاتي ولارنكا ومرسين والاسكندرونة واللاذقية وطرابلس الشام وبيروت ويافا وحيفا ورودس والاسكندرية وطرابلس الغرب وصمصون وطربزون وبورسعيد والسويس ولولا امثال هذه البواخر الفرنسوية والنمسوية والروسية والايطالية والانكليزية والالمانية والرومانية لما بقيت لنا تجارة تصدر من بلادنا وترد اليها ولتعذر التنقل الا في السواحل على ظهور الجمال والبغال والحمير او في المركبات وبعض القطارات القليلة التي تربط اجزاء مملكتنا بعضها ببعض

ولشركة الميساجري ايضاً اثنتان وعشرون باخرة تمخر العباب الى الهند الصينية وتوابعها وخمس بواخر لخط الكوشنشين وست بواخر لخط اوستراليا وخلكيدونيا الجديدة وخمس بواخر في المحيط الاطلانطيكي (الظلمات) وسبع اختصت بالبحر المحيط الهندي وذلك ماعدا السفن الصغرى التي جعلتها في بعض المواني الكبرى · واشغال الشركة متوسطة مع ان حكومة فرنسا تدفع اليها اعانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق والغرب وخدمة الجمهورية فيما يلزمها ·

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب ان البواخر الالمانية والانكليزية والطليانية تفوق بانتظامها وحسن خدمتها البواخر الفرنسوية وان الراكب يجد راحته في تلك اكثر من هذه مع ان الاجور واحدة ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها الى تخفيض الاجور في الصيف الى نحو النصف على ركاب الدرجة الاولى والثانية والثالثة واخذت تخصم خمسين في المئة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان القيمة المقررة فاذا كانوا

اربعة فاكثر تحسم للرابع فما بعده خمسة وسبعين في المئة ولذلك يسهل السفر في الصيف لاعتدال اجوره ٠

ومن التسهيلات التي قامت بها هذه الشركة ان اتفقت مع شركات البواخر الانكليزية والاميركية وشركات السكك الحديدية عَلَى ان تنقل الركاب الى المواني التي تختلف اليها بواخرها وتلك الشركات تنقلهم عَلَى بواخرها بحيث يطوفون العالم ويجتازون من نصف الكرة الغربية الى النصف الشرقي والاجرة في ذلك معتدلة فيسلك الراكب ان احب احد الطرق التي يختارها في قطع البحور والبرور فالطريق الاولى عن مواني الصين واليابان وكندا ماراً بفانكوفر وهو يكلف في الدرجة الاولى ٣٢٨٨ فرنكاً والطريق الثانية اوستراليا وفانكوفر ويكلف في الدرجة الاولى ايضاً ٣٥٧٥ والطريق الثالثة الى اوستراليا فمضيق توريس فاليابان ففانكوفر واجرتها ٤٢٥٧ في الدرجة الاولى والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الخامسة الى اوستراليا ومضيق توريس واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٤٢٥٧ فرنكا في الاولى فيركب الراكب من مرسيليا الى هونغ كونغ عَلَى بواخر شركة الميساجري عن طريق السويس وجيبوتي اوعدن وكولومبو وسنغافور وسايغون ومن هونغ كونغ الى شنغاي الى كوبي فيوكوهاما عَلَى بواخر الشركة او عَلَى بواخر شركة الباسيفيك الكنادية بحسب مايختار الراكب ومن يوكوهاما الى فانكوفر عَلَى بواخر الشركة الكنادية ومن هنا يركب القطار الى كيبك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون او نيويورك ومن نيويورك الى ليفربول او سوثمتون عَلَى احدى البواخر الانكليزية او الاميركية او النمسوية او من نيويورك الى الهافر عَلَى

بواخر الترانسلانتيك وبين الهافر بالسكة الحديدية الى باريز.

هذه هي المسافات التي يقطعها من يريد الطواف حول الارض ولو قال قائل هذا لاحد اجدادنا الاقدمين وقال له انني اريد السير للنزهة على هذه الخطة لنسب اليه الجنون وقال ان ذلك لن يكون ولكن اذا عرف سر الاسفار في هذه الاعصار يقول سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخار يفعل مايشاء ويختار.

وبعد فلم يتسع لي الوقت لادرس جميع معالم المدنية في مرسيليا لاني لم اصرف فيها الا ثلاثة ايام قضيت اكثرها في الراحة من وعثاء السفر الذي طال علينا احدى عشرة ساعة زيادة على المعتاد لمصادفته الباخرة في طريقها من الانواء ولطاريء طرأ على آلتها في عرض البحر فاصلحتها ولولا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الاسكندرية ومرسيليا في خمسة ايام بلياليها لا تقف قرب اليابسة. ومن البواخر الانكليزية مايقطع المسافة بين بور سعيد ومرسيليا في اربعة ايام وهذه البواخر خاصة بالبريد الانكليزي تنقله من اوستراليا والهند الى الجزائر البريطانية في خمسة وثلاثين يوماً لا تكاد تستريح في طريقها الا بقدر ماتحمل زاداً ووقوداً وركاباً والمسافة المعتادة بين اوستراليا وانكلترا لاتجتازها الشركات المعتادة في اقل من سبعين يوماً.

قامت مرسيليا في منقطع وادي الرون الجميل فكانت جملة الجمال الفرنسوي بما فيها من الجبال والسهول وما احرزته من مجد قديم وغنى حديث وان محيطها الذي لاتقل مساحته عن مئة كيلومتر مربع لاحلى من العافية في بدن السقيم او النضارة في خدود الجواري — كما يقول بديع الزمان — استغفر الله بل كاد يكون اجمل من الحور الذي تقرأوه في عيون

المرسيليات الدعج . ولعل جمال العيون في النساء هنا التي فاقت عيون البدويات الرغايب انتقلت اليهن من اجدادهن العرب فقد قال ميشله المؤرخ ان اصل سكان مضايق الرون مختلط كثيراً ففيه العنصر السامي واليوناني والعربي وخليط من الطليان والغالب ان سكان جنوبي اوربا يوصف نساؤهم بدعج العون وسواد الشعور كما يوصف الشماليات بزرقة العيون وشقرة الشعور .

والى اليوم يكثر في مرسيليا الغرباء ولا سيما الطليان ففيها ٥٥٠ الفاً من السكان خمسهم من الطليان وبيدهم كثير من الصناعات والمعامل وهم عشر الاجانب في فرنسا وكان في مقاطعة مرسيليا سنة ١٩٠٦ : ٧٦٦٥٠٠ ساكن منهم ١٢٣٥٠٠ اجانب وفيها ٧١٨ مدرسة وفي مقاطعتها ٧١٧ كيلومتراً من الخطوط الحديدية و ١٦٣ كيلومتراً من الترام و ٢٨٤ من الطرق الاهلية و ٣٦٨٣ كيلومتراً من طرق العجلات الموصلة بين اقاليمها

واهم صناعاتها عمل الاقمشة وتحضير الاطعمة والمأكولات وصنع القرميد خل عنك تجارتها الهائلة وزراعتها التي لاتختلف في الرقي عن زراعة عامة البلاد الفرنسوية وفيها دور صناعة للاساطيل والبواخر التجارية ولاسيما دار صناعة الميساجري ماريتيم .

قال من كتبوا عن مرسيليا من المؤرخين ان تاريخها من اقدم التواريخ وهي اول ميناء بحرية لفرنسا يرد عهد انشائها الى القرن السادس قبل المسيح وفي مقاطعتها اليوم ٤٩ الف منزل منقسمة بين الفي شارع وطريق ومعظم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة الملكية الثانية . ومن احسن متنزهاتها الكورنيش الذي انتهى سنة ١٨٦٣ وكان عدد السفن التي دخلت

مرفأها البالغ سطحه ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧ — ١٦٣٣٠ وعدد الركاب ٥٥٠ الفاً وقدروا مايدخل اليها ويخرج منها في اليوم بسبعة واربعين باخرة وبارجة وناهيك به من عدد ·

ويطبع فيها وينشر ١٤٦ جريدة ومجلة · وجريدة البتي مارسيليه (المرسيلي الصغير) اوسعها انتشاراً تطبع ١٨٠ الفاً كل يوم وهو في حجم الماتين والايكودي باري كما يطبع البتي باريزيان (الباريزي الصغير) الذي يصدر في باريز مليوناً ومائتي الف نسخة في اليوم والثاني اكثر جرائد فرنسا انتشاراً · فكأن لهذه الاسماء الصغيرة من حسن التوفيق ما لا يخالف الاعمال التي تبدأ بالالقاب الضخمة والاسماء الفخيمة ·

زرت ادارة البتي مارسيليه فرأيت النظام مستحكماً في كل مايتعلق بها وهي اليوم في السنة الثالثة والاربعين من عمرها واقدم منها بل اقدم جرائد مرسيليا « السيمافور دي مارسيل » انشئت سنة ١٨٢٧ وهي من الجرائد الجدية المعتبرة الا انها اقل انتشاراً · وهذه الجريدة تباع في مقاطعة الرون وما اليها مثلاً فلو فرضنا ان مايطبع من جرائد مرسيليا ومجلاتها يبلغ كل يوم مليوني نسخة لاصاب كل فرد في مقاطعتها جريدتان ونصف على اقل تعديل هذا عدا الجرائد الباريزية وغيرها التي ترد على مرسيليا وتباع في شوارعها بالالوف ايضاً ·

ومن الاسف العظيم اننا لو احصينا عدد مايصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والايرانية لا يبلغ بكميته قدر ماتطبع كل يوم جريدة البتي ملرسيليه احدى جرائد ولايات فرنسا · وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيس وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ولا سيما في الامور العقلية

ليون
٨

ماذا يصف القلم من مدنية الفرنسيس وكل فرع من فروعها المدهشة لو تعاورته الاقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما كانت الا الى جانب القصور · نعم لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل وشاهد مدنية فرنسا فقط لحوقل واسترجع وقال هذه حضارة ليس لنا في وصفها مطمع ولو اتى المسعودي بقلمه وعلمه لعجز عن الوصف والتسطير ولو جيء بابن بطوطة لآب من رحلته الطويلة لايحسن املاء ماراًى وسمع ولوقام ابن جبير لاعترف بقصور ذرعه وعدم نفاذ طبعه وقال ان هذا الا حلم وخيال ونحن لانسجل في رحلتنا الا ماتقع علينا ابصارنا ويترامى الي آذاننا وتمسه ايدينا ·

وبعد فما ذا يصف القلم في ليون أجمالها الطبيعي ام الصناعي · معاملها الحريرية ام مدارسها وكليتها ام انتظام شوارعها ودورها وقصورها وحدائقها ام غناها ومتاحفها وعادياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها ومخازنها وحوانيتها وتماثيلها وانصابها وخطوطها الحديدية والكهربائية وجسورها الحديدية والحجرية وارصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها ونهريها العظيمين الرون والسون اللذين يقطعانها شطرين ويزيدان في بهجتها ما تقر به العين

ماذا نذكر من ليون ثاني مدينة في فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية في كونها عاصمة دين كما هي عاصمة صناعة وعمل · وعلى جنسر ليون مر الصليبيون في القرون الوسطى ذاهبين الى المشرق لانقاذ البيت المقدس من ايدي المسلمين · نعم ماذا نعدد من ليون وبدائع صنع الانسان فيها وما ضمت

من معاهد قديمة وحديثة ومشاهد بهيجة . ويالله ما اعجب معرض نموذج الانسجة الذي حوى اربعمائة الف نموذج ليس لها نظير في العالم وعرضت على انظار اهل البلاد والسائحين ينتفعون بالنظر اليها ويستدلون بها على تفنن يد الانسان في كسوة الابدان ·

لئن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصريف مصنوعاتها بسرعة فان البخار البري عوض عليها هذا الحرمان فزاد في عظمتها التجارية ففي كل يوم يمر في محطات سككها الحديدية ١٤٠ قطاراً جائية ذاهبة من انحاء شتى ولاسيما من الشمال الى الجنوب · والمسافة بين باريز ومرسيليا ٨٥٠ كيلومتراً ليس فيها شبر واحد لا اثر للعمران فيه يقطعها القطار بالسير السريع في ١٤ ساعة · وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريز عاصمة البلاد ومرسيليا ثغرها والحكومة اليوم شارعة بمد خط حديدي ثالث لتسيير القطارات لان الخطين الموجودين لا يتأتى ان يجري عليهما في كل بضع دقائق اكثر من قطار واحد مخافة ان يحدث اصطدام بين القطارات ويكلف الخط الجديد بين باريز ومرسيليا مئات الملايين من الفرنكات وكل ذلك حتى لا يتأخر راكب ولا بضاعة وتأخذ كل جهة حظها من العمران ·

لم تقف ليون عند حد الاعمال الصناعية والتجارية والمالية بان كانت هي التي أسست مصرف الكريدي ليونيه مثلاً من اعظم مصارف العالم · بل لها حظ كبير من النهضة العلمية واثر راسخ في الحضارة الفرنسوية وناهيك بكليتها التي تحوي فروع العلم ولاسيما الطبيعي والحقوق والطب والتجارة يختلف اليها ٢٥٠٠ طالب منهم الاجانب وفيهم نحو خمسين مصرياً اكثرهم يدرسون الحقوق وقليل منهم الطب واقل في التجارة والمصريون حديث

عهدهم بنزيل ليون لتخرج في كليتها وقد كثر ورودهم عليها بعد ان ترك المسيو لامبر احد اساتذة مدرسة الحقوق في القاهرة منصبه فعينته حكومته في كلية ليون استاذاً فكان من اثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له ان جذب غشرات منهم للتعلم في كليتها وهو يشرف عليهم اشراف الاب على اولاده · وكانت مصر تعتمد في تنشئة اولادها من قبل على كليات الولايات الفرنسوية ولاسيما كلية مونبليه وذلك على عهد الخديوي اسماعيل لانه كان يعتقد ان اهل مونبليه اقل معاداة للملوك وابعد الفرنسويين عن التطرف ·

قضيت في ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقي محمد لطفي افندي جمعة الكاتب الخطيب الغيور فرأيت فيها غاية الرقي الاجتماعي والتكافل الانساني والذوق الفرنسوي وفي مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيس لما يشهده السائح فيها من السكون والانقطاع الى الاعمال الشريفة فلا يسفون كاكثر سكان العواصم في الاغلب للمكاسب الدنيئة او يرضون بان يكونوا عالة على الحكومة يأخذون رزقهم من خزانتها بالتوظف والاستخدام

ويا ما ابهج ساحة بلكور (الفناء الجميل) يوم الاحد والرجال والنساء والاولاد غادون رائحون فيها لا تقرأ في وجوههم غير الادب ولا في حركاتهم الا التربية البيتية العالية والتشبع بالنظام المدني المعقول حتى اذا جن الليل يختلف القوم الى دور التمثيل واماكن اللهو والطرب وسماع الخطب والمحاضرات وهكذا ليلهم كنهارهم عمل وراحة واستفادة وافادة اخذوا بحظ وافر من دنياهم ولم ينسوا تعهد آدابهم · فليون بلد طيب امين يسكنه المهذبون العاملون ·

ولقد كنت كلما وقع نظري في ليون على شارع عظيم او بناء جسيم تحدثني النفس بسورية فاقول متى ياترى يكون فيها مثل ما في ليون على الاقل ولو ان عمران ليون وحدها وهي احدى مدن فرنسا وما فيها من قوة مادية وادبية وزعت على سورية من عريش مصر الى الفرات ومن البحر المتوسط الى اقصى بادية الشام وحدود نجد والحجاز لغدت سورية وهي في مساحتها نحو مساحة فرنسا كلها من حيث عمرانها ارقى مدن المعمور ولكن الرزق لايأتي بالتمني والوجود لاينتفع به الا من يحسنون استخدام مافيه من القوى والعناصر ·

تحية باريز

٩

سلام عليك مرضعة الحكمة · وربيبة الرخاء والنعمة · وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية · ومحيية المدنية الاصلية في الاقطار الغربية والشرقية · ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين · والضرب على ايدي الرؤساء والنبلاء والمالكين · انت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل · انت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل بل تأليهه فقضيت بالتقدم له على كل شيء في الوجود · وبالغت في اكرام رجال العقول من ابنائك ·

سلام عليك ياعشيقة الابداع والاختراع · وسابقة الاقران في مضمار الانتفاع بماحوت الرباع والبقاع · استخدمت القوى المادية فاجدت استخدامها · واستثمرت القوى العقلية فابدعت في استثمارها · واحييت حضارات الامم

السالفة . وانشأت لك حضارات لايزال يحسدك عليها اسبق الشعوب الى الترقي مهما تقلبت بك الحال . ويجدون في اوضاعك ماليس يجدونه في اوضاعهم من المرونة والجمال .

سلام عليك ياواضعة حقوق الانسان وملقحة الاذهان بالتناغي بحب الاوطان والداعية الى ثل عروش الجبارين والمخربين . انت لم ترهبك تقاليد ابطال القرون الوسطى . ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها . ولم تعلقي مسائلك علَى القضاء والقدر بل اخذت بالاسباب والمسببات فقتلت من اراد قتلك . ووضعت من لم يهمه رفعك . وكنت للناهضين من الناس خير مثال .

سلام عليك يامعهد المعارف والصناعات بما انشأتيه من مجامعك العلمية ومدارسك الجامعة والكلية . ومجالسك العامية والخاصية . وجمعياتك ونقاباتك لخدمة المدنية والانسانية . ودور تمثيلك ومعاهد انسك وسماعك . ومتاحفك وحدائقك ومكاتبك ومعارضك . وكل ماابدعته افكار ابنائك وايديهم ودل علَى مجد طريف وتالد وتاريخ علَى جبين الدهر خالد

سلام عليك ياملقنة الخلق بمعنى الاخاء والحرية والمساواة ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم علَى تبادل المنافع حتي لايبقى تمييز في الحقوق والواجبات بين المختلفين في الموالد والديانات وقطعت التفاضل الا بالاعمال الصالحة والاحلام الراجحة .

سلام عليك يامتشبعة بافكار الحكماء ارتضيتيها منهم قانوناً تجرين عليه لسعادتك ولئن حاد بعض ابنائك ببعض الشيء عنها فذلك لان سياسة المنافع والمصالح قد تخالف ناموس الحق والعمل الصالح ولان نظام بقاء

الانسب لا قلب له والتنازع في جهاد الحياة كثيراً ما يدعو الانسان الى ركوب ماتحظره الشرائع الوضعية والسماوية ولا سيما في هذه العصور التي يفصل فيها كل عمل على قالب الماديات وما ذلك الا ليقر البشر بعجزهم ويعلموا ان الكمال الآن محال ولعله لايفوتهم في مستقبل القرون والاجيال ·

السلام على هذه العاصمة التي احسنت الى الشرق فيما مضى فعلمته حتى استمد منها النور فان قلنا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الاقرب انا نأخذ عن المدنية الغربية فانما نعني المدنية الفرنسوية وبعبارة اصح المدنية التي تنبعث اشعتها من باريز ومن طريقها وبلغتها واسلوبها تيسر لنا ان نستطلع طلع سائر مدنيات الارض ·

سلام عليك علمت وعلمت فما احسن العلم والعمل اذا اجتمعا · وما احلى الاخلاص والشعور بالواجب ·

سلام عليك سننت للغرب سنة التضامن والتكافل · والعطف على البائسين والمساكين · والرفق بالضعفاء والعاجزين · والاخذ بايدي المقهورين والعاثرين · والانتصار للمظلومين من الآدميين خصوصاً اذا كانوا من طينة اوربية

سلام عليك انت العاصمة التي تركت القصور الفخيمة التي عمرت بدماء الامة مباحة للناس يدخلونها وكانت بؤرة المظالم والمغارم · ومنبعث الشهوات والاهواء · ولطالما جأرت جوانبها بالدعاء الى السماء من حيف الكبراء ايام كان يوقع احد ملوكها وهو على سرير نومه توقيعاً واحداً يترك من الغد مئة الف اسرة في هذه البلاد تبيت جائعة عريانة ليعمر بما يجمع قصراً له او يدفعه لمحبوبته صبرة واحدة فلما اضناك الظلم والعنت قمت تجعلين من تلك القصور الفاسقة متاحف عامة ومن دور الظلم والظلمات مجالس

عدل وعلم ونور ٠

سلام عليك خلدت اعمال من خلّفوا لك هذه المدنية واقمت تماثيلهم ونصبهم موقع الاحترام والاعظام وتوفرت على تكرير اسمائهم على المسامع كل يوم الوف الالوف من آثارت تجعليهم مهمازاً لمن يأتي بعدهم من الابناء والاحفاد ٠

سلام عليك يابلد ديكارت و كونت وروسووفولتير وديدرو وسيمون ومونتسكيو وهوغو وباسكال ورنان ومئات اضرابهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك فلم تنس افضالهم عليك بعد مماتهم ٠

انت ان خجلت من ذكرى الحروب الصليبية وديوان التفتيش الديني ومذبحة القديس برتلماوس ومقتل الفيلسوف فيفاني وجنون نابوليون وغير ذلك من الاعمال البربرية في عصور الظلمة فان سكانك يفاخرون وحق لهم الفخر بانهم احفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الاعمال المشكورة في عصور النور ماينسي الماضي الاقلّه٠ ان الحسنات يذهبن السيئات ٠

السلام عليك باريز اجمل عواصم العالم واغنى البلاد ببدائعها الطبيعية والصناعية واجمعها لمرافق الراحة والرفاهية ٠ لست انت اليوم عاصمة مئة مليون من البشر اربعون في ارضك وستون في المستعمرات بل انت بما فيك من المزايا عاصمة معظم الخافقين لاسباب هنائك وصفائك ونعيمك ونمائك وتفردك من بين العواصم بسلامة الذوق وسلامة الابداع ووفرة العلماء والباحثين والكاتبين والشاعرين والقصصيين ٠ فكل شيء في باريز مبذول حتى لتعافه النفوس من اقصى مايتصور الفكر من الفضيلة الى آخر مايجول في خاطر او يحوم حوله خيال ٠

فباريز ولا مراء جنة ارضية جمع فيها موجدوها — استغفر الله — ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر عَلَى قلب بشر

باريز بعد الغروب

١٠

ان فاخرت باريز بمعارضها التي اقامتها في اوقات مختلفة لتلفت اليها الانظار وتستفيد الفخار والنضار فان لها كل ليلة معارض لاتختلف عن السابقة الا في كون البقعة التي تقوم عليها هذه اوسع مجالاً واكثر جمالا ٠

يصرف الباريزيون او معظمهم نهارهم في الاستعداد لليلهم وكثيرون لايعملون الا في الليل ويصرفون النهار في جمع قواهم وادخار احسن ماعندهم لما بعد الشفق فهم لايجعلون الليل لباساً والنهار معاشا كما هي عـادة معظم الامم بل ان الحركة عندهم تبدأ قبيل الظهر بطيئة ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس وتطلع بدلها شموس واقمار ٠

ترى المدينة في النهار عابسة مظلمة عَلَى كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها المغروسة عَلَى جانبيها بالاشجار غالباً وطرقها وازقتها وساحاتها العامة وفي هذه الاماكن تشهد مجالي الحسن والاحسان وماتفننت في ابداعه العوامل وتاطفت في روائه الافكار والانامل ٠

عَلَى تلك الارصفة تناجي النفس رب النجوى قائلة اللهم هل خلقت باريز من معدن اللطف والظرف لتكون مثالاً من جنة ارضية فخصصت اهلها بالاستمتاع بنعمة الجمال حتى لكأنك شطرته شطرين شطر وقفته عَلَى الباريزيات وشطر وزعته عَلَى سائر بنات حواء ٠

ان امتاز الفرنسيس بالابداع في الصناعات فقد امتازوا ايضاً بنضرة الوجوه · والى باريز تحمل هذه الامة ولا سيما في فصل الشتاء افضل ماعندها من مجالي الكمال والجمال ايام تكون ام هذه القرى مقصد السائحين والمتجرين والطالبين والعالمين والسياسيين والخاطبين وتغص دواوينها واداراتها وتلتئم مجالسها العلمية والسياسية والاجتماعية ·

ويزيد الوجوه بهجة في باريز تفنن القوم في الازياء وتغاليهم في التبرج والزينة تغالياً مهما تقدم عند غيرهم لايزالون مصدره ومورده واساتذته وسدنته · ومظاهر الازياء تتجلى في باريز بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات وفي المركبات والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الارض وتحتها وفي دور التمثيل ومسارح اللهو والطرب ومحال الفرج والحانات والقهوات والمطاعم والفنادق ويزيدها فتنة للناظرين ماعتاده الباريزيات الا من عصم ربي من ابداء زينتهن لغير المحارم اكثر من ابدائها لبعولتهن وذوي قرباهن ورنين اصواتهن في الكلام رنيناً تحسبه من مزامير داود وتستطيبه اكثر من تغريد العندليب وهناك الفتنة بعينها والفتنة اشد من القتل ونعوذ به تعالى من فتنة القلب وفتنة العين

ولعل هذه المجالي في الحرية المفرطة حملت الكثير من الغرباء على نزول باريز ليشهدوا فيها مالا يشهدونه في غيرها وتربح منهم الليرات بالملايين والكرات عملاً بما قاله احد ملوك بروسيا وقد قيل له ليس من اللائق ان تضرب ضريبة على محال الاطمئنان في الشوارع فقال « الربح لا رائحة له » وارسلها مثلاً ولذلك يقول الافرنج ايضاً « الغاية تبرر الواسطة » فما دامت الغاية الكسب فلا بأس من الاحتيال لنيله ومن اجل هذا تظهر باريز بعد

الغروب اقصى الفضيلة واقصى الرذيلة والناس معها وما يختارون

بعد الغروب تحمى في باريز اندية الخطابة والمحاضرة والعلم وتلقى فيها من الفوائد ما يبلغ الاذهان عفواً صفواً ويفيض معين البيان ويبدو حذق يد الانسان ويسعى العالم الى تعليم الجاهل في ساعة ما تعب في احضاره الايام والاعوام فائدة الخطب والمحاضرات معروضة · ودروس الفضائل عامة موروده ·

بعد الغروب يعمل معظم الكاتبين كتبهم والشاعرين اشعارهم والمؤلفين مؤلفاتهم والمخترعين اختراعاتهم والصانعين صناعاتهم كأن الافكار لا تنطلق من عقالها والايدي لا تحذق اعمالها الا عند ما ترقد عيون البشر او كأن الزهرة ربة الجمال لا تحب ان تملي على من هم احوج الناس الى طلعتها الا من الليل ككوكب الزهرة لا يبدو في مطلع الافلاك الا مع الدجى · ولذا يحرص اهل باريز ان يجعلوها بعد غروب الشمس مجمع الانس وريحانة النفس

وكأن الباريزيين وهم العارفون بتقسيم الاعمال عزّ عليهم ان تمضي ساعة في بلدهم ينقطع فيها العاملون عن اعمالهم فخصوا النهار ببعض الصناع والتجار والعملة والعاملات والليل بالمفكرين والمفكرات والمؤنسين والمؤنسات والمغنين والمغنيات والممثلين والممثلات · · · حتى لا تنقطع حركة ولا يقف دولاب عمل وكان بذلك الحظ الاوفر للغرباء فلا يدخل على الغريب ملل من تغير المشاهد ولا يفتأ من الفجر الى الفجر ان احب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتعلم ويأنس ويتنزه

يقول الباريزيون ان بلدهم مبارك على الغريب اكثر منه عليهم وانهم مضطرون ان يواصلوا السير بالسرى ويكدحوا الليل والنهار ولكن هذا قول

من ملك شيئاً فزهد فيه والروح ترتاح الى التنقل اما الشرقي الذي يري اهل باريز ويغبطهم على اكثر مادبروه لراحتهم ورفاهيتهم فانه يعجب لمن يسأ كنهم زمناً كيف ترضى نفسه ان يختار عن باريز بلداً كما يعجب لاهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياة اضعاف اضعاف ما يأسف غيرهم عليها ومن قال بان دواعي الراحة تطيل حبال الآجال يستعظم على اهل باريز لم لم يعمروا اكثر من عامة الخلق وعندهم النعيم المقيم والخير العميم

الرسالة العذراء (١)

في موازين البلاغة وادوات الكتابة كتب بها ابو اليسر ابراهيم بن محمد بن المدبر

بسم الله الرحمن الرحيم

فتق الله بالحكمة ذهنك ، وشرح بها صدرك وانطق بالحق لسانك ، وشرف به بيانك ، وصل اليّ كتابك العجيب الذي استفهمتني فيه بجوامع كلمك جوامع اسباب البلاغة ، واستكشفتني عن غوامض آداب ادوات الكتابة ، سألتني ان اقف بك على وزن عذوبة اللفظ وحلاوته ، وحدود فخامة المعنى وجزالته ، ووشاقة نظم الكتاب ومشاكلة سرده ، وحسن افتتاحه وختمه ، وانتهاء فصوله ، واعتدال وصوله، وسلامتهما من الزلل ، وبعدهما من الخطل ، ومتى يكون الكاتب مستحقاً اسم الكتابة ، والبليغ مسلماً له معاني البلاغة ، في اشارته ، واستعارته ، والى اي ادواته هو احوج، وبأي آلاته هو اعمل اذا تخصص الحق ، ودعي الى السبق ، وفهمته وانا راسم لك ايدك الله من ذلك مايجمع اكثر شرائطك ، ويعبر عن جملة سؤالك ، وان طولت في الكتاب وعرضت واطنبت في الوصف واسهبت ، ومستقص على نفسي في الجواب على

(١) منقولة من مجموع قديم من كتب الشيخ طاهر الجزائري وهي مما كتب فيما كتب في القرن الرابع او الخامس .

قدر استقصائك في السؤال ، وان اخل به التياث الحال ، وسكون الحركة ، وفتور النشاط ، وانتشار الروية ، وتقسم الفكر ، واشتراك القلب ، والله المستعان

اعلم ايدك الله ان ادوات ديوان جميع المحاسن وآلات المكارم طاعة منقادة لهذه الصناعة التي خطبتها وتالية تابعة لها وغير خارجة الى جحد احكامها ولا دافعة لما يلزمها الاقرار به لها اضراراً منها اليها وعجزاً عنها فاق تقاضتك نفسك علمها ونازعتك همتك الى طلبها فاتخذ البرهان دليلاً شاهداً والحق اماماً قائداً يقرب مسافة ارتيادك ويسهل عليك سبل مطالبها واستوهب الله توفيقاً تستنجح به مطالبك ، واستمنحه رشداً يقبل اليك بوجه مذاهبك . فاقصد في ارتيادك . وتأمل الصواب في قولك وفعلك . ولا تسكن الى جحود قصد السابق باللجاج ولا تخرج الى اهمال حق المصيب بالمعاندة والانكار ولا تستخف بالحكمة ولا تصغرها حيث وجدتها فترحل نافرة عن مواطنها من قلبك وتظعن شاردة عن مكانها من بالك . وتتعفى بعد العمارة من قلبك آثارها وتنطمس بعد الوضوح اعلامها واعلم ان الاكتساب بالتعلم والتكلف وطول الاختلاف الى العلماء ومدارسة كتب الحكماء فان اردت خوض بحار البلاغة وطلبت ادوات الفصاحة فتصفح من رسائل المتقدمين ماتعتمد عليه ومن رسائل المتأخرين ماترجع اليه في تلقيح ذهنك . واستنجاح بلاغتك . ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به ومن الاشعار والاخبار والسير والاسمار ما يتسع به منطقك . ويعذب به لسانك ويطول به قلمك . وانظر في كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وحدود المنطق وامثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وتوقيعاتهم وسيرهم ومكايدهم في حروبهم بعد ان تتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والشروط كتب السجلات والامانات فانه اول ما يحتاج اليه الكاتب وتمهر في نزع آي القرآن في مواضعها واجتلاب الامثال في اماكنها واختراع الالفاظ الجزلة وقرض الشعر الجيد وعلم العروض . فان تضمين المثل السائر والبيت الغابر مما يزين كتابتك ما لم تخاطب خليفة او ملكاً جليل القدر فان اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجلة الرؤساء عيب واستهجان للكتب الا ان يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له فان ذلك مما يزيد في أبهته ويدل على براعته . وان شدوت من هذه العلوم ما لا يشغلك محله . وتنقبت من هذه الفنون ما تستعين به على ايطالة قلمك وتقويم اود بيانك

بعد ان يكون الكاتب صحيح القريحة . حلو الشمائل . عذب الالفاظ . دقيق

الفهم حسن القامة · بعيداً من الفدامة خفيف الروح · حاذق الحس · محنكاً بالتجربة · عالمًا بحلال الكتاب والسنة وحرامهما · وبالملوك وسيرها وايامها · وبالدهور في تقلبها وتداولها · مع براعة الادب · وتأليف الاوصاف · ومشاكلة الاستعارة · وحسن الاشارة وشرح المعنى بمثله من القول حتى تنصب صوراً منطقية تعرب عن انفسها · وتدل عَلَى أعيانها ، لان الحكماء قد شرطوا في صفات الكتاب طول القامة · وصغر الهامة · وخفة اللهازم · وكثافة اللحية · وصدق الحس · ولطف المذهب · وحلاوة الشمائل وملاحة الزي · حتى قال بعض المهالبة لولده : تزيوا بزي الكتاب فان فيهم ادب الملوك وتواضع السوقة

وخاطب كلاً عَلَى قدر ابهته ، وجلالته ، وعلوه وارتفاعه · وتفطنه وانتباهه · واجعل طبقات الكلام عَلَى ثمانية اقسام فاربعة منها للطبقة العلوية واربعة دونها ولكل طبقة منها درجة ولكل قسمة حظ لايتسع للكاتب البليغ ان يقصر باهلها عنها · ويقلب معناها الى غيرها فالطبقة العليا الخلافة التي اعَلَى الله شأنها عن مداواتها باحد من ابناء الدنيا في التعظيم والتوقير والمخاطبة والترسل · والطبقة الثانية الوزراء والكتاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم والسنتهم · ويرتقون الفتوق بآرائهم ويتجملون بآدابهم الثالثة امراء ثغورهم وقواد جيوشهم · يخاطب كل امرئ منهم عَلَى قدره وبما حمل من اعباء امورهم · وجلائل اعمالهم · الطبقة الرابعة القضاة فانهم وان كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضلاء فمعهم أبهة السلطنة وهيبة الامراء

اما الطبقات الاربع الاخر فالملوك الذين اوجبت نعمهم تعظيمهم في الكتب وافضالهم تفضيلهم فيها · والثانية وزراؤهم وكتابهم واتباعهم الذين بهم تقرع ابوابهم وبعنايتهم تستماح اموالهم والثالثة هم العلماء الذين يجب توقيرهم في الكتب لشرف العلم وعلو درجة أهله · الرابعة لأهل القدر والجلالة والظرف والحلاوة والعلم والادب فانهم يضطرونك بحدة اذهانهم وشدة تمييزهم وانتقادهم الى الاستقصاء عَلَى نفسك في مكاتبتهم · واستغنينا عن الترتيب للتجار والسوقة والعوام رتبة لاستغنائهم بتجارتهم عن هذه الآلات واشتغالهم بمهماتهم عن هذه الادوات ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن تراعيها في مراسلتك اليهم في كتبك وتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه وتعطيه قسمه وتوفيه نصيبه فانك متى اضعت ذلك لم آمن بك ان تعدل بهم غير طريقهم وتجري شعاع بلاغتك في غير مجراه وتنظم جوهر كلامك

في غير سلكه فلا يفيد المعنى الجزل ما لم تلبسه لفظاً جزلاً لائقاً بمن كاتبته ومشابهاً لمن راسلته · وان الباسك المعنى وان شرف وصلح لفظاً مختلفاً عن قدر المكتوب اليه لم تجر به عادتهم تهجين للمعنى واخلال بقدره وظلم لحق المكتوب اليه ونقص مما يجب له كما ان في امتناع تعارفهم وما انتشرت به عاداتهم وجرت به سنتهم وضعاً لقدرهم وخروجاً من حقوقهم · و بلوغاً الى غير غاية مرادهم وا تقاطاً لحجة أدبهم ضمن الالفاظ المرغوب عنها والصدور المستوحش منها في كتب السادات والامراء والملوك عَلَى اتفاق المعاني مثل ابقاك الله طويلاً وعمرك ملياً وان كنا نعلم انه لافرقان بين قولهم أطال الله بقاءك وبين قولهم ابقاك الله طويلاً ولكنهم جعلوا هذا أرجح وزناً وانبه قدراً في مخاطبة الملوك كما انهم جعلوا اكرمك الله وابقاك احسن منزلة في كتب الظرفاء والادباء من جعلت فداك عَلَى اشتراك معناه واحتماله ان يكون فداء من الخير كما يكون فداء له من الشر ولولا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن ابي وقاص فداك ابي وامي لكرهت ان يكتب بها احد عَلَى ان كتاب العسكر وعوامهم قد اولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها مجيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والصغير والكبير ولذلك قال محمود الوراق

كل من حل سر من را من النا ... س وممن يصاحب الاملاكا
لو رأى الكلب ماثلاً في طريق ... قال للكلب ياجعلت فداكا

وكذلك لم يجيزوا ان يكتبوا بمثل ابقاك الله وامتع بك الا الى الحرمة والاهل والتابع والمنقطع اليك واما في كتب الاخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه ولذلك كتب عبدالله بن طاهر الى محمد بن عبد الملك الزيات

أحلت عما عهدت من أدبك ... ام نلت ملكاً فتهت في كتبك
ام هل ترى ان في التواضع للاخـ ... وان نقصاً عليك في حسبك
اتعبت كفك في مكاتبتي ... حسبك مما يزيد في تعبك
ان جفاء كتاب ذي أدب ... يكتب في صدره وامتع بك

فكتب اليه محمد بن عبد الملك

انكرت شيئاً فلست فاعله ... فان تراه يخط في كتبك
فاعف فدتك النفوس عن رجل ... يعيش حتى الممات في ادبك
كيف اخون الاخاء يا املي ... وكل شيء انال من سببك

ان يك جهلاً اتاك من قبلي   فعد بفضل عليّ في أدبك

واما صدور السلف فانما كانت من فلان بن فلان الى فلان كذلك جرت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العلاء بن الحضرمي والى اقيال اليمن والى كسرى وقيصر وكتب اصحابه والتابعين كذلك حتى استخلص الكتاب هذه المحدثات من بدائع الصدور واستنبطوا لطيف الكلام ورتبوا لكل رتبة وجروا عَلَى تلك السنة الماضية الى عصرنا هذا في كتب الخلفاء والامراء وثبتوا عَلَى ذلك المنهاج في كتب الفتوحات والامانات والسجلات ولكل مكتوب اليه قدر ووزن ينبغي للكاتب ان لا يتجاوز به عنه ولا يقصر به دونه . وقد رأيتهم عابوا الأخوص حين خاطب الملوك بمخاطبة العوام في قوله

واراك تفعل ما تقول وبعضهم   مذق الحديث يقول ما لا يفعل

فهذا معنى صحيح في المدح ولكنهم أجلوا اقدار الملوك ان يمدحوا بما يمدح به العوام لان صدق الحديث وانجاز الوعد وان كان مدحاً فهو واجب عَلَى كل والملوك لا يمدحون بالفروض الواجبة وانما يحسن مدحهم بالنوافل لان المادح لو قال لبعض الملوك انك لا تزني بحليلة جارك وانك لا تخون ما استودعت وانك تصدق في وعدك وتفي بعهدك كان قد اثنى بما يجب ولكنه لم يصل بثنائه الى مقصده وقال ما لا يستحسن مثله في الملوك

ونحن نعلم ان كل امير تولى من امور المؤمنين شيئاً فهو امير المؤمنين غير انهم لم يطلقوا هذه اللفظة الا للخلفاء خاصة ونعلم ان الكيس هو العقل اذا عنوا به ضد الحمق ولكنك لو وصفت رجلاً فقلت : ان فلاناً لعاقل كنت قد مدحته عند الناس ولو قلت انه كيس كنت قد قصرت في وصفه وقصرت به عن قدره الا عند اهل العلم باللغة لأن العامة لا تلتفت الى معنى الكلمة الا الى حيث جرت بها العادة في استعمالها في الظاهر مع الحداثة والعزة وخساسة القدر وصغر السن فقد روينا عن علي رضي الله عنه انه تبجح بالكيس حين بنى الكوفة وقال : .

اما تراني كيسا مكيساً   بنيت بعد نافع مخيساً

حصناً حصيناً واميراً كيسا

وقال آخر : ما يصنع الاحمق المرزوق بالكيس ونعلم ان الصلوة وحي غيرانهم قد حرموها الا عَلَى الانبياء كذلك روي عن ابن عباس (رضه) وسمع سعد بن ابي وقاص أخاً له يلبي ويقول : ياذا المعارج فقال نحن نعلم انه ذو المعارج ولكن ليس كذلك كنا نلبي عَلَى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انما كنا نقول : لبيك اللهم لبيك وكان ابو ابراهيم

المزني قال في بعض ما طالب به داود بن علي خالف الاصبهاني فقال : وان قال كذا فقد خرج من الملة والحمد لله فانتقد عليه ذلك داود وقال : تحمد الله علي ان يخرج مسلماً من الاسلام هذا موضع استرجاع وللحمد مكان يليق به ونحن نقول عَلَى المصيبة انالله وانا اليه راجعون.

فامتثل هذه الرسوم والمذاهب واجرِ عَلَى آدابهم فلكل رسومٌ امتثلوها وتحفظ في صدور كتبك وفصولها وافتتاحها وخاتمتها وضع كل معني في موضع يليق به وتخير لكل لفظة معنى يشا كلها وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكر الشكوى بمثل والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل. وفي موضع ذكر البلوى نسأل الله دفع المحذور ونسأل الله صرف السوء وفي موضع ذكر المصيبة بمثل انالله وانااليه راجعون. وفي موضع ذكر النعم بمثل والحمد لله خالصاً والشكر لله واجباً. فانها مواضع ينبغي للكاتب تفقدها فانما يكون كاتباً اذا وضع كل معنى في موضعه وعلق كل لفظة عَلَى طبقتها من المعنى فلا يجعل أول ما ينبغي له ان يكتب في آخر كتابه في اوله ولا اوله في آخره فاني سمعت جعفر بن محمد الكاتب يقول: لا ينبغي للكاتب ان يكون كاتباً حتى لا يستطيع احد ان يؤخر اول كتابه ولا يقدم آخره .

واعلم انه لا يجوز في الرسائل ما أتى في آي القرآن من الايصال والحذف ومخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاص لان الله سبحانه وتعالى أنما خاطب بالقرآن اقواماً فصحاء فهموا عنه جل ثناؤه امره ونهيه ومراده والرسائل انما يخاطب بها قوم دخلاء عَلَى اللغة لا علم لهم بلسان العرب وكذلك ينبغي للكاتب ان يتجنب اللفظ المشترك والمعنى الملتبس فانه ان ذهب عَلَى مثل قوله تعالى واسأل القرية واسأل العير بل مكر الليل والنهار احتاج ان يبين بل مكركم بالليل والنهار ومثله في القرآن كثير

ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر لان الشعر موضع اضطرار فاغتفروا فيه الاغراب وسوء النظم والتقديم والتأخير والاضمار في موضع الاظهار فمن الحذف قول الحطيئة « من صنع سلاّم » يريد سليمن بن داود وكقول الآخر . « والشيخ عثمان ابوعفان » وكقول الآخر

وسائلة بثعلبة بن سير - وقد علقت بثعلبة العلوق

اراد ابن سيار وكقول النابغة « ونسج سليم كل قضاء زائل » يريد سليمن وكذلك ينبغي في الرسائل ان لا يصغر الاسم موضع التعظيم وان كان ذلك جائزاً عَلَى مثل قولهم دويهية وجذيل وعزيق . ومما لا يجوز في الرسائل كلمت اياك واعني اياك واساءة النظم

في التأليف في الشعر كثير وتكون الكلمة بشعة حتى اذا وضعت موضعها وقرنت مع اخواتها حسن حالها وراقت كقول الحسن بن هاني

« ذو حضر افلت من كد القبل » والكد كلمة قلقة لاسيا في الرقيق والغزل والتشبيب غير انها لما وقعت في موضعها حسنت كما ان اللفظة العذبة اذا لم توضع موضعها نفرت قال :

رأت عارضاً جونا فقامت غريرة بمسحاتها قبل الظلام تبادره

فاوقع الجلف الجافي هذه اللفظة غير موقعها وظلمها اذ جعلها في غير مكانها لان المساحي لا تكون ولا تصلح للغرائر واين كان عن قول الشاعر

غرائر ما حدثن يهدين انسة فما فوقه منهن غير غرائر

حديث لو ان العصم تدعى به اتت ودون يد الفحشاء حد البواتر

فتخير من الالفاظ ارجحها وزنا ، واجزلها معنى ، والبقها في مكانها ، وليكن في صدر كتابك دليل واضح عَلَى مرادك وافتتاح كلامك برهان شاهد عَلَى مقصدك حيثما جريت فيه من فنون العلم ونزعت نحوه من مذاهب الخطب والبلاغات فان ذلك اجزل لمعناك واحسن لاتساق كلامك ولا تطيلن صدر كلامك اطالة تخرجه من حده ولا تقصر به عن حقه . ولو صور اللفظ وكان له حد لوقفتك عليه غير انهم في الجملة كرهوا ان يزيدوا سطور كتب الملوك عَلَى سطرين وهذه اشارة لا تعبر الا عن الجملة من المقصود اليه لان الاسطر غير محدودة

واعلم ان اول ما ينبغي لك ان تصلح آلتك التي لا بد لك منها وادواتك التي لا تتم صناعتك الا بها وهي دواتك فابدأ بعمارتها واصلاحها وتخير لها ليقة نقية من الشعر والوذح لئلا يخرج عَلَى حرف قلمك ما يفسد كتابك و يشغلك بتنقيته وخذ من المداد الفارسي خمسة دراهم ومن الصمغ العربي درهماً وعفصاً مسحوقاً نصف درهم ورماد القرطاس المحرق درهمين ثم تسحقها وتغربلها وتجمعها ببياض البيض ثم بندقها واجعلها في الظل فاذا احتجت اليها اخذت منها مقدار حاجتك فكسرته وحشوت به دواتك واذا نقعته في ماء السلق حتى يحل ويذوب ويختمر ثم امددت من مائه دواتك كان اجود وانقى ثم اختر بعد ذلك من انابيب القلم الذي يصلح لكتابة القراطيس أقله عقدة وأكثفه لحماً واجلبه قشراً واعدله استواء وتجنب الاقلام الفارسية ما استطعت فانها ما تصلح الا للكواغد والرقوق

واجعل لقلمك بزاية حادة فان تعثر يد الكاتب وقت قطع القرطاس ناقص مروءته ومخل بظرفه وان قدرت ان لا تقطع القرطاس اذا فرغت من كتابك الا بخرطوم قلمك فافعل فان ذلك اكمل لمروءتك وابدع لظرفك وقطعك

واستعمل لبري القلم سكيناً طواوبسيا مذلق الحدوميض الطرف فيكون ذلك عوناً لك على بري اقلامك فان محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس ولئن قيل كأنه الرمح الرديني فقد قال الكاتب كأنه القلم البحري · وتفقد الانبوبة قبل بريكها لئلا تجعلها منكوسة وابرها من ناحية نبات القصبة وأرهف ما قدرت جانبي قلمك ليرد ما انتشر من المداد ولا تطل شقه فان القلم لا يمج المداد من شقه الا مقدار ما احتملت شبتاه فارفع شبتيه ليجمعا لك حواشي تحضيره واما قط القلم فعلى قدر القلم الذي يتعاطاه الكاتب من الخط غير ان المسلسل لا يكاد يتسلسل الا بالقلم المربع القط كما ان كتب الملوك والسجلات لا تحسن الا بالقلم المحرف الكوفي واما قلم اللازورد فهو المعتمد عليه والمقصود اليه في النوائب والمهات

ورأيت كثيراً من الكتاب يختارون قلم النرجس لتجمده وتجانسه ومن اللازورد ابسط منه واقوم حروفاً واما الموشع والمولع والمدبج والمنمنم والمسهم فعلى قدر رشاقة خط الكاتب وحلاوة قلمه واما حسن الخط فلا حد له قال علي بن زريز النصراني الكاتب اعلمك الخط في كلمة واحدة لا تكتبن حرفاً حتى تفرغ مجهودك في كتابة الحرف المبدوء به وتجعل في نفسك انك لا تكتب غيره حتى لا تعجل عنه الى غيره · واياك والنقط والشكل في كتابك الا ان تمر بالحرف المعضل الذي تعلم ان المكتوب اليه يعجز عن استخراجه فلأن يشكل علي الحرف احب الي من ان يعاب بالنقط والاعجام · وقال المأمون لكتابه اياي والشونيز في كتبكم يعني النقط ولذلك قال ابن هاني

لم ترض بالاعجام حين كتبته حتى كتبت السب بالاعراب

ولا تغفل الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام فقد قال ابو العيناء ان بني أمية هم الذين كانوا امروا كتابهم فطرحوا ذلك من كتبهم فجرت عادة الكتاب الى يومنا هذا على ما سنوه · وقد قال عليه الصلاة والسلام لا تجعلوني كقدح الراكب ولكن اجعلوني في اول الدعاء واوسطه وآخره صلى الله عليه وعلى آله وسلم اولاً واوسطاً وآخراً

واحب ان تجعل بدل الاشارة التراب فان النبي صلى الله عليه وسلم قال أتربوا كتبكم فانه انجح للحاجة ولا تدع التاريخ فانه يدل على تحقيق الاخبار وقربها وبعدها

وانظر الى مامضي من الشهر وما بقي منه فان كان الماضي اقل من نصف الشهر قلت لكذا ليلة مضت من شهر كذا وان كان الباقي اقل من النصف قلت لكذا ايضاً بقيت وقد قال بعض الكتاب ان الماضي من الشهر ان تحصيه والباقي لا تحصيه لانك لا تدري ايتم الشهر او ينقص وليس هذا بشيء لان تاريخ الكتاب ليس من الاحكام في شيء وما عَلَى الكاتب ان يكتب الا بما ظهر وتبين لا بما يظن

ولا تجعل سحاة كتبك غليظة الا في العهود والسجلات التي تحتاج الى خواتمها وطوابعها فان محمد بن عيسى الكاتب كاتب آل طاهر اخبر عنهم ان عبدالله بن طاهر كتب الى العراق في اشخاص كاتب كان كتب اليه فكتب وغلظ سحاة كتابه فرد الكتاب اليه فقدم عليه راجياً لبره وجائزته فقال عبدالله بن طاهر ان كان معك سحاة فاقطع خزم كتابك وانصرف وراءك وكذلك لا تعظم الطينة ففي المثل من عظم الطينة فانه مظلوم ولا تطبعها الا بعد عنواناتها فان ذلك مرادبهم وقد يجب عليك علم الصاق القراطيس ومحوها ولم ار شيئاً في الصاقها الطف من ان ينقع الصمغ العربي في الماء ساعة حتي يذوب ثم يلصق به وكذلك ماء الكثيرا والنشاستج ثم تطويه طياً رقيقاً وتجعله في منديل نظيف ويرفع تحت وسادة حتى يجف واما محوها فعلى قدر لطف الكاتب وتأنيه غيرأنه ينبغي له ان لا يلقط السواد من القرطاس الا بشر الشمع المسخن واللبان الممضوغ وما اشبههما ثم يكون لقطه رويداً رويداً كلما لقط جانباً حوله الى الجانب الآخر

واما قراءة الكتب المختومة والتلطف لنقض خواتيمها فما لا نذكره خوفاً من سفيه

واما تضمين الاسرار حتى لا يقرأها غير المكتوب اليه ففيه أدب وقد تعلقت العامة بالقمي والاصبهاني فيجب ان يبدل الحروف تبديلاً يخفى والطف من ذلك ان تأخذ لبناً طيباً فتكتب به في قرطاس فيذر المكتوب اليه عليه رماداً حاراً من رماد القراطيس فانه يظهر وأن كتب بماء الزاج وذُرَّ عليه العفص المدقوق بجاز او بماء العفص وذر عليه شيئاً من الزاج او ينقع شيئاً من وشق ثم تكتب به ثم نثرت عليه الرماد فانه يظهر وان احببته لا يقرأ بالنهار ويقرأ بالليل فاكتبه بمرارة السلحفاة وان حاولت صنعة رسالة او انشاء كتاب فزن اللفظة قبل ان تخرجها بميزان التصريف اذا عرضت والكلمة بعياره اذا سنحت فربما مرّ بك موضع يكون مخرج الكلام اذا حسب انا فاعل احسن من أنا افعل واستفعلت أحلى من فعلت

وأدر الالفاظ في اماكنها واعرضها عَلَى معانيها وقلبها عَلَى جميع وجوهها حتى تتع

موقعها ولا تجعلها قلقة نافرة فهي صارت كذلك هجنت الموضع الذي اردت تحسينه واعلم ان الالفاظ في اماكنها كترقيع الثوب الذي اذا لم تتشابه رقاعه تغير حسنه قال الشاعر:

ان الجديد اذا ما زيد في خلق   تبين الناس ان الثوب مرقوع

وارتصد لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف لان سماحة النفس بمكنونها وجود الاذهان بمخزونها انما هو مع الشهوة المفرطة في الشيء والمحبة الغالبة فيه او الغضب الباعث منه ذلك . قيل لبعضهم لِمَ لا تقول الشعر قال: كيف اقوله وانا لا اغضب ولا اطرب . وهذا كله ان جريت من البلاغة عَلَى عرق وظهرت منها عَلَى حظ فاما ان كانت غير مناسبة لطبعك ولا واقعة شهوتك عليها فلا تنضي مطيتك في التماسها ولا تتعب بدنك في ابتغائها واصرف عنانك عنها ولا تطمع فيها باستعارتك الفاظ الناس وكلامهم فان ذلك غير مثمر لك ولا مجد عليك ومن كان مرجعه فيها الى اغتصاب الفاظ من تقدم والاستضاءة بكوكب من سبقه وسحب ذيل حلة غيره ولم يكن معه أداة تولد له من بنات قلبه ونتائج ذهنه الكلام الحر والمعنى الجزل فلم يكن من الصناعة في عير ولا نفير

عَلَى ان كلام العظماء المطبوعين ودرس رسائل المتقدمين عَلَى كل حال مما يفتق اللسان ويوسع المنطق ويشحذ الطبع ويستثير كوامنه ان كانت فيه سجية قال العتابي: ما رأينا فيما تصرفنا فيه من فنون العلم وجرينا فيه من صنوف الآداب شيئاً اصعب مراماً ولا اوعر مسلكاً ولا ادل على نقص الرجال ورجاحتهم وأصالة الرأي وحسن التمييز منه واختياره من الصناعة التي خطبتها والمعنى الذي طلبته وليس شيء اصعب من اختيار الالفاظ وقصدك بها الى موضعها لأن اللفظة تكون اخت اللفظة وقسيمتها في الفصاحة والحسن ولا يحسن في مكان غيرها وتمييز هذه المعاني ومناسبة طبائع جها بذتها ومشاكلة ارواحهم جعلوا الكتابة نسباً وقرابة واوجبوا على اهلها حفظها

سهل بن وهب: الكتابة نفس واحدة تجزأت في ابدان مفترقة ومن لم يعرف فضلها وجهل اهلها وتعدى بهم رتبتهم التي وصفهم الله بها فانه ليس من الانسانية في شيء . قالت البرامكة: رسائل المرء في كتبه دليل عَلَى عقله وشاهد على غيبه قال الشاعر:

وتنكر دا لمرء في لحظ عينه   وتعرف عقل المرء حين تكاتبه

آخر:

وشعر الفتى يبدي غريزة طبعه   وبالكتب يبدو عقله وبلاغته

الشعبي : يعرف عقل الرجل اذا كتب وأجاب • العتبي : عقول الناس مدونة في كتبهم •ابن المقفع : كلام الرجل وافد عقله • وشبهت الحكماء المعاني بالغواني والالفاظ بالمعارض فاذا كسا الكاتب البليغ المعنى الجزل لفظاً رائقاً واعاره مخرجاً سهلاً كان للقلب احلى وللصدر املى ولكنه بقي عليه ان ينظمه في سلكه مع شقائقه كاللؤلؤ المنثور الذي يتولى نظمه الحاذق والجوهري العالم يظهر بإحكام الصنعة له حسناً هو فيه ومنحة بهجة هي له. كما ان الجاهل اذا وضع بين الجوهرتين خرزة هجن نظمه واطفأ نوره - كان حبيب بن أوس ربما وقع عَلَى جوهرة فجعلها بين بعرتين قال الشاعر :

ولو قرنت بدرٍ فاخرٍ خرزاً من الزجاج لقلنا بئسما نظما

والياقوت حسن وهو في جيد الحسناء احسن وكذلك الشعر الجيد مونق ولكنه من افواه العظماء آنق والتاج الشريف بهي المنظر وهو عَلَى الملك أبهى كما قال ابن الرقيات « يعتدل التاج فوق مفرقه » قال ابو العتاهية لابن مناذر : بلغني انك تقول الشعر في الدهر والقصيدة في الشهر فقال نعم لو رضيت لنفسي ان اؤلف تأليفك واقول ياعتب يادرة الغواص لقلت في اليوم والليلة الف قصيدة وقال عمر بن لجأ لشاعر : انا اشعر منك قال : ولم قال : لانك تقول البيت وابن عمه وانا اقول البيت واخاه

فان منيت بحب الكتابة وصناعتها والبلاغة وتأليفها وجاش صدرك بشعر معقود او دعتك نفسك الى تأليف الكلام المنثور وتهيأ لك نظم هو عندك معتدل وكلام لديك متسق فلا تدعونك الثقة بنفسك والعجب بتأليفك ان تهجم به عَلَى اهل الصناعة فانك تنظر الى تأليفك بعين الوالد لولده والعاشق الى عشيقه كما قال حبيب:

ويسيء بالاحسان ظناً لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون

ولكن اعرضه عَلَى البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجاً بغيره فان اصغوا اليه واذنوا له وشخصوا بالابصار واستعادوه وطلبوه منك وامتزج فاكشف من تلك الرسالة والخطبة والشعر اسمه وانسبه الى نفسك وان رأيت عنه العيون منصرفة والقلوب عنه واهية فاستدل به عَلَى تخلفك عن الصناعة وتقاصرك عنها واستريب رأيك عند رأي غيرك من اهل الادب والبلاغة فقد بلغني ان بعض الملوك دعا انساناً الى مؤانسته حتى ارتفعت الحشمة بينهما فاخرج له كتاباً قد غشاه بالجلود وجمع اطرافه بالابريسم وسوى ورقه وزخرف كتابته وجعل يقرأ عليه كلاماً قد حبره فيه وعجبه عند نفسه وجعل يستحسن مالا يحسن ويقف عَلَى ما لا يستثقل قراءته حتى اتى عَلَى الكتاب فقال له كيف رأيت ما قرأت عليك

فقال اري عقل صانع هذا الكلام اكثر من كلامه ففطن له ولم يعاوده الى أن وقف به علي تنور مسجور ثم قذف بالكتاب في النار وهذا رجل في عقله فضلة وفيه تمييز

وانما البلية فيمن اذا بينت له سوء نظمه واختياره ووقفته علي سخافة لفظه هجرك وعاداك فاجعل هذا الاصل ميزاناً تزن به مذهبك في رسائلك وبلاغتك ولا تخاطبن خاصاً بكلام عام ولا عاماً بكلام خاص فمتى خاطبت احداً بغير ما يشاكله فقد اجريت الكلام غير مجراه وكشفته وقصدك بالكلام الشريف للرجل الشريف تنبيه لقدر كلامك ورفع لدرجته قال :

فلم امدحه تفخيماً لشعري ولكني مدحت بك المديحا

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها فتعرف تمامها ونظامها ومواردها ومصادرها وتجنب ما قدرت الالفاظ الوحشية وارتفع عن الالفاظ السخيفة واقتضب كلاماً بين الكلامين

الجاحظ : ما رأيت قوماً امثل طريقة في البلاغة من هؤلاء الكتاب فانهم التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاسوقياً : وقال خالد بن صفوان : ابلغ الكلام ما لا يحتاج الي كلام واحد . ما لم يكن بالبدوي المغرب ولا القروي المخدج الذي صحت مبانيه وحسنت معانيه ودار علي السن القائلين وخف علي آذان السامعين ويزداد حسناً علي مر السنين بتجلية الرواة وتقنيه السراة والكاتب المستحق اسم الكتابه والبليغ المحكوم له بالبلاغة من اذا حاول صنعة كتاب سالت علي قلمه عيون الكلام من ينابيعها وظهرت من معادنها وتدرب من مواطنها عن غير استكراه ولا اغتصاب

حدثنا صديق للعتابي قال له: اعمل لي رسالة واستمده مرة بعد اخري فقال له : ما اري بلاغتك الا شاردة فقال له العتابي . لما تناولت القلم تداعت علي المعاني من كل جهة فاحببت ان اترك كل معني يرجع الى موضعه ثم اجتني لك احسنها . املى يزيد بن عبد الله اخو دينار علي كاتب له واعجل عليه الاملال فتعثر قلم الكاتب عن تقييد املاله فقال متحرشاً : اكتب يا حمار فقال الكاتب : اصلح الله الأمير انه لما هطلت شآبيب الكلام وتدافقت سيوله علي حرف القلم كل القلم عن ادراك ما وجب عليه تقييده فليتذكر الامير عذري فكان جوابه ابلغ من بلاغة يزيد . وكلما احلولى الكلام وعذب ورق وسهلت مخارجه كان اسهل ولوجاً في الاسماع واشد اتصالاً بالقلوب وأخف علي الافواه ولا سيما اذا كان المعنى البديع مترجماً للفظ مونق شريف ومعبراً بكلام مؤلف رشيق لم يشنه التكلف بميسمه ولم يفسده التعقد باستهلاكه كقول ابن ابي كريمة

قفاه وجه حسن والذي قفاه وجه يشبه الشمسا

فهجن المعنى بتوعر مخارج الحروف واخذه الحسن بن هاني فسهله وقال « يذ حسن الوجه حسن قفاكا » وكلاهما من حسان حيث يقول :

قفاؤك احسن من وجهه وأمك خير من المنذر

وانظر الى سلاسة الحسن بن سهل حيث قال:

شرست بل لنت بل قابلت ذاك بذا فانت لا شك فيك السهل والجبل

وكتب عيسى بن لهيعة كتاباً الى بعضهم فعقد كلامه وجاز المقدار في التقطع فوقع له

اني يكون بليغاً من اسمه كان عيا
وثاث الحرف منه اذا كتبت مسيا

ودخل كاتب على مريض فوجده يئن فخرج من عنده فوجد طائراً يقال له الشفانين بباب الطاق فاشتراه وبعث به اليه وكتب كتاباً يتقطع فيه ويذكر انه يقال له الشفانين شفاء من الانين فاجابه لو عطست ضبأ لم تكن عندي الا نبطيا فاقصر عن بغضك وسهل كلامك ومثله بمخلد الموصلي يهجو حبيب بن أوس الطائي

انت عندي عرني والسلام
شعر ساقيك وفخـ ـذيك خزامى وثمام
وقفاً تحلف ما ان اعرقت فيه الكرام
أنا ما ذنبي ان الـ ـنبي فيك الامام

وسألني بعض اهل العلم ان اكتب له قصة الى جعفر بن عبد الواحد القاضي وقال: اكتب لي قصة سهلة بليغة الالفاظ فقلت له : دعني اكتب لك ما يصلح للقضاة فغضب وقال ما اسأل ان تعطيني شيئاً انما اسألك هذا المعنى الرخيص فاحتملت عتبه لنمام فكتبت له قصة لا تصلح ان تدفع الا لرؤبة بن العجاج يقرؤها اوالطرماح فلما حصلت بيد القاضي اراد قراءتها فاذا هي مغلقة عليه فقال له : انت كتبت هذه القصة قال :نعم قال: اذاً فاقرأها فذهب ليقرأها فاذا هي بالسودانية استعجاماً عليه فقال له : اصلح الله القاضي انما اقرؤها في بيتي فقال له : فاطلب حاجتك اذاً في بيتك فرجع الي غضبان آسفاً يشتم ويؤذي وسألني ان اكتب له قصة على ما ارى فكتبت له كتاباً يشبه ان يكون من مثله الى القضاة فقرأها وقضي حاجته وعلم انه لم يكتب واحدة منهما والكتاب

اذا لم يكن شبيهاً بحاجة صاحبه، كان احد الاسباب المانعة والمعاني كلها ممثلة والكلام مشبعاً ولكن سياسته صعبة وتأليفه شديد الا عَلَى جهابذته وفرسانه امراء الكلام يصرفونه كيف شاؤوا ولا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ويكون اللفظ الاسبق الى الاسماع من معناه الى القلوب

الجاحظ : كان لفظه في وزن اشارته وطبعه في معناه في مطابقة معناه . ذكر الحسن ابن وهب احمد بن يوسف فقال ما كنت أدري الفظه آنق ام معناه او معناه اجزل ام لفظه . والمعاني وان كانت كامنة في الصدور فانها مصورة فيها ومتصلة بها وهي كاللآلئ المنظومة في اصدافها والنار المخبوءة في احجارها فان اظهرته من اكنانه واصدافه تبين حسنه وان قدحت النار من مكانها واحجارها انتفعت بها والا بقيت محجوبة مستورة وربما يستثار الكامن منها او يستخرج المستسر من جواهرها بقدر حذق المستنبط وصواب حركات المستخرج وقصد اشارته ولطف مذاهبه وكذلك ليس كل ناطق ولا كاتب يوضح عن المعنى ولا يصيب اشارته وكلما كان الكلام افصح والبيان اوضح كان ادل على حسن وجه المعنى الخفي بالروح الخفي واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر واذا لم ينهض بالمعنى الشريف لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ولا النظام متسقاً والدال عَلَى المعنى اربعة اصناف لفظ واشارة وعقد وخط

وذكر ارسطاطاليس خامساً وهي التي تسمى النصبة وهي الحالة الدالة التي تقوم مقام تلك الاصناف الاربعة الناطقة بغير لفظ والمشيرة اليه بغير يد وذلك ظاهر في خلق السموات والارض وفي كل صامت وناطق وهي داخلة في جملة هذه المعاني الاربعة وخارجة منها بالحلية

ولكل واحدة من هذه الدلائل صورة مخالفة لصورة صاحبتها وحلية غير مشاكلة لحلية اختها غير انها في الجملة كاشفة عن اعيان المعاني واوضح هذه الدلائل صنفان منها وهما اللسان والقلم وكلاهما يترجمان ويدلان عَلَى القلب ويستمليان منه ويؤديان عنه ما لا تؤدي هذه الاصناف الباقية

واما اللسان فهي الآلة التي يخرج الانسان بها من حد الاستبهام الى حد الانسانية ولذلك قال صاحب المنطق : حد الانسان الحي الناطق وانما يبين عن الانسان اللسان وعن المودة العينان والله سبحانه رفع درجة اللسان فانطقه من بين الجوارح بتوحيده وما جعل الله من عبر عن شيء مثل من لم يعبر عنه

الاعور التيمي :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقال آخر

ان الكلام لفي الفؤاد وأنما ... جعل اللسان عَلَى الفؤاد دليلا

الطائي

ومما كانت الحكماء قالت ... لسان المرء من خدم الفؤاد

للخط صورة معروفة · وحلية موصوفة وفضيلة بارعة · ليست لهذه الاوصاف لانه ينوب عنها في الايضاح عند المشهد و يفضلها في المغيب وكفى بفضيلة العلم والخط قول الله عز وجل الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم واقسم به كما اقسم بغيره ثم اقسم بما يكتبه القلم افصاحاً عن حاله واعظاماً لشأنه وتنبيهاً لذكره فقال: وما يسطرون · ومن فضيلة الخط انه لسان اليد ورسول الضمير ودليل الارادة · والناطق عن الخواطر · وسفير العقول ووحي الفكر · وسلاح المعرفة · ومحادثة الاخلاء عَلَى التنائي · وأنس الاخوان عند الفرقة · ومستودع الاسرار · وديوان الامور · وترجمان القلوب · والمعبر عن النفوس · والمخبر عن الخواطر · ومورث الآخر مكارم الاول والناقل اليه مآثر الماضي والمخلد له حكمته وعلمه. والمسامر للعين بسر القلب · والمخاطب عن الناصت · والمجادل عن الساكت · والمفصح عن الابكم والمتكلم عن الاخرس الذي تشهد له آثاره بفضائله واخباره بمناقبه وقد وقعت البلاغة من العلم علو القدر وباذخ العز كابي مسلم صاحب الدولة فرقت شمله و بددت جمعه ونقضت برمه وافسدت صلاحه وضعضعت بنيانه مع ذكائه وفطنته ومكايده ودهائه واصالة رأيه وشدة شكيمته وامتناعه عَلَى ابي جعفر ونفاره عنه كيف استفزه ابن المقفع وصالح بن عبد القدوس وجبل بن يزيد واستمالوه بسحر الفاظهم وبلاغة اقلامهم حتى نزل من باذخ عزه وجاء مبادراً حتى وقع في الشرك المنصوب له فتفرق جمعه وانطفأ نوره وصار خبراً سائراً ورسماً واثراً ورفع القلم خاشع الطرف صغير الخطر لئيم الجنس درج من عش التجار ونشأ بين المكيال والميزان كيف أشالت البلاغة بضبعيه ورفعت من ناظريه حتى شافهت به عنان السماء ورفعت بناءه فوق البناء حتى طلبه الراكب وقصده الطالب وخشعت له الرجال · ولحظته العيون بالوقار · وتمكن من الصنائع ومدت نحوه الاصابع · فشكرت منه اللفظة · ورجيت منه اللحظة · كمحمد بن عبد الملك بن الزيات وفيه يقول علي بن الجهم :

احسن من عشرين بيتاً سدا   جمعك معناهم في بيت
ما احوج الملك الى مطرة   تغسل عنه وضر الزيت

فاجابه محمد بن عبد الملك :

رقيت في القول الى خطة   قدرك فيها قد تعديت
فيرتم الملك فلم ننقه   حتى غسلنا القار بالزيت

ومدحه حبيب بن اوس يمدحه ويصف قلمه :

لك القلم الاعلى الذي بشباته   تصاب من الامر الكلى والمفاصل

وكان محمد من الطف الناس ذهناً وأرقهم طبعاً واصدقهم حساً وارشقهم قلماً واملحهم اشارة اذا قال أصاب واذا كتب ابلغ واذا اشعر احسن واذا اختصرا غنى عن الايطالة امره الواثق ان يتلطف بعبدالله بن طاهر ويعلمه انه صرفه عن امر الجزائر والعواصم وفوض ذلك لابن عمه اسحاق بن ابراهيم فكتب اما بعد فان امير المؤمنين رأى ان يخلع مافي يمينك من امر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

سهل بن بركة يهجو أبا نوح النصراني الكاتب فقال :

بابي وامي ضاعت الاحلام   ام ضاعت الاذهان والافهام
من صد عن دين النبي محمد   اله بأمر المسلمين قيام
إلا تكن اسيافهم مشهورة   فينا فتلك سيوفهم أقلام

قال عبد الرحمن بن كيسان استعمال الكلام اجدر باحضار الذهن عند تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام ولم يختلف في شرف القلم وانما اختلف في كيفية البلاغة وماهيتهاوقد مدحها كل قوم باوضح عبارتهم واحسن بيانهم فقال صاحب اليونانيين البلاغة تصحيح الاقسام واختيار الكلام . الرومي : البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة . الفارسي : هي معرفة الفصل من الوصل . الهندي : هي البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ثم ان يدع الافصاح بها الى الكناية عنها اذ كان الافصاح اوعر طريقاً وربما كان الاطراق عنها ابلغ في الدرك واحق بالظفر . غيره : جماع البلاغة التماس حسن الموقع والمعرفة بساعات القول وقلة الحذق بما التبس من المعاني وغمض وبماشرد عليك من اللفظ وتعذر ثم قال وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته ان تكون الشمائل معتدلة والالفاظ موزونة واللهجة نقية فان جامع ذلك السن والسمت.

والجمال وطول الصمت فقد تم كل التمام ٠ وقيل لهندي ما البلاغة فاخرج صحيفة مكتوبة عندهم فيها اول البلاغة احتمال آلة البلاغة ٠ وذلك ان يكون البليغ رابط الجأش ساكن الجوارح قليل اللحظ متخيراً للفظ لايكلم سيد الامة بكلام الامة ولا الملوك بكلام السوقة ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الالفاظ كل التنقيح ويصفيها كل التصفية ويهذبها غاية التهذيب ولا يكون كذلك حتى يصادف فيلسوفاً حكيماً عليماً ومن قد تعود حذف فضل الكلام واسقط مشترك اللفظ

انوشروان لبزرجمهر : متى يكون العيي بليغاً فقال اذا وصف بليغاً

ارسطاطاليس : البلاغة حسن الاستعارة

بشر بن خالد : البلاغة التقرب من المعنى البعيد والتباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالقليل عَلَى الكثير

خالد بن صفوان : ليس البلاغة بخفة اللسان ولا بكثرة الهذيان ولكنها اصابة المعنى والقرع بالحجة ٠

عمر بن عبد العزيز : البليغ من اذا وجد كثيراً ملأه واذا وجد قليلاً كفاه ٠

ابن عتبة : البلاغة دنو المأخذ وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير ٠ بعضهم : اني لأكره للانسان ان يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار عقله كما اكره ان يكون مقدار عقله فاضلاً عن مقدار لسانه وعلمه ٠ يكفي من حظ البلاغة ان لا يؤتى السامع من سوء افهام الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع

عمرو بن عبيد : ما البلاغة فقال ما بلغك الجنة وعدل بك عن النار وما بصرك بمواقع رشدك وعواقب غيك فقال السائل ليس هذا أريد ٠ فقال من لم يحسن ان يسكت لم يحسن ان يسمع ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول قال ليس هذا اريد ٠ قال النبي عليه الصلاة والسلام : انا معاشر الانبياء بكاؤون وكانوا يكرهون ان يزيد منطق الرجل عَلَى عقله فقال له السائل ليس هذا اريد قال كانوا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت فقال ليس هذا اريد فقال فكأنك انما تريد تخير اللفظ في حسن افهام انك اردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المؤونة عن المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالالفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الاذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة عَلَى الكتاب والسنة كنت قد اوتيت فصل

الخطاب واستوجبت من الله سبحانه جزيل الثواب · الخليل بن احمد : كلما أدى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة فان استطعت ان يكون لفظك لمعناك طبقاً ولتلك الحال وفقاً وآخر كلامك لاوله مشابها وموارده لمصادره موازناً فافعل واحرص ان تكون لكلامك متهماً وان ظرف ولفظامك مستوبياً وان لطف بمواتاة آلتك لك وتصرف ارادتك معك فافعل أن شاء الله

وهذه الرسالة عذراء لانها بكر معانٍ لم تفترعها بلاغة الناطقين ولا لمستها اكف المفوهين ولا غاصت عليها فطن المتكلمين ولا سبق الى الفاظها اذهان الناطقين فاجعلها مثالاً بين عينيك ومصورة بين يديك ومسامرة لك في ليالك ونهارك تهطل عليك شآبيب منافعها ويظلك منها بركاتها وتوردك مناهل بلاغاتها وتدل عَلَى مهيع رشدها وتصدرك وقد نقع ظموءك بينابيع بحر احسانها ان شاء الله عز وجل والحمد لله وحده وصلى الله عَلَى سيدنا محمد وعَلَى آله وصحبه وسلم ·

جابلق وجابلص او جابلقا وجابلصا

كان الافرنج قبل ان يعنوا بدرس اللغات الشرقية ينسبون اشياء جمة الى العرب ويقولون عنها انها خرافات خيالية لا نصيب لها من الحقيقة بل ولا اثر لها في عالم الوجود · ولما اخذوا بالبحث عن تلك الامور والايغال فيه ناموا يرجعون شيئاً فشيئاً عما عزوه اليهم تحكماً أو تهكماً وبدأوا ينضمون اليهم مستصو بين اقوالهم · الا انه مما يمكن ان يقال في هذا الصدد ان الناطقين بالضاد بالغوا في ذكر بعض الامور العرضية حتى كاد الجوهر يخرج عن طوقه بما حملوه من الامور الوهمية نقلاً عمن ليسوا من فرسان الميدان · ومن هذا القبيل هاتان المدينتان اللتان نريد ان نبحث عنهما في نبذتنا هذه ·

(اختلاف اللغات فيها)

قال في اللسان في مادة جبلق: التهذيب : جابلق وجابلص (اي بفتح البآء الموحدة التحتية وفتح اللام في كليهما عَلَى ما ضبطنا كتابة) واما في القاموس فقد ضبطها ايضاً بالفتح في جابلق وبالفتح أو بالسكون في جابلص · وذكرها ياقوت في معجمه : جابرس وجابلق اي براء مهملة ساكنة بعد الباء الموصلة التحتية · وبلام ساكنة بعد الباء في الثانية

ورواها صاحب البرهان القاطع روايات مختلفة فذكر في ٢ : ٧٩ جَبلسان في جابلق . ورواها ايضاً جابرسان وجابرُسا في جابلص . وحكى في شفاء الغليل ان المتكلمين يقولون جابلقاء وجبلصاء بالمدّ وخطأهم . واوردها الطبري في تاريخه بصور مختلفة اي جابرت وجابرس وهو يريد جابلص وجابلق وجابلقا وهو يرمي الى جابلق . فهذه اللغات والروايات وان اختلفت فهي واحدة في المرجع والاصل ثم اختلفت تبعاً لسنة المعرب او الاعجمي عَلَى ما هو مشهور في ما أُفرغ في قالب عربي . وتعاور اللام والراء في العربي الفصيح امر مشهور كالطلمساء والطرمساء وداهية لبساء وربساء ونافة عبهر وعبهل فكيف في الدخيل . ومثله يقال في تبادل التاء والسين في لغة معروفة في اليمن وهي الوتم . ولا حاجة في التصريح بان السين والصاد تترادفان في العربية والامثلة تفوت الحصر (المزهر ١ : ٢٢٦ و٢٢٧)

اقوال العرب فيها

قال في التهذيب : « جابلق وجابلص : مدينتان احدها بالمشرق والاخرى بالمغرب لس وراءهما إنسيّ . روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما انه ذكر حديثاً ذكر فيه هاتين المدينتين . » اه .

وقال الامام السهيلي في كتاب المبهم : اظنها مجاورتي ياجوج وماجوج . وقد آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم اذ مرّ بهم في ليلة الاسراء فدعاهم فآمنوا » . اه

وقال الخليل : بلغنا ان معاوية امر الحسن بن علي ان يخطب الناس . وهو يظن ان الحسن سيحصر لحداثته فيسقط من اعين الناس فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ايها الناس انكم لو طلبتم ما بين جابلق وجابلص رجلاً جدّه نبيّ ما وجدتموه غيري وغير اخي وان ادري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين واشار بيده الى معاوية . اه

وقد جاء حرف جابلق في شعر ابي الاسود الدؤلي عَلَى انه اسم موضع معروف قد شاهده فقد قال :

تلبس لي يوم التقينا عويمر   بجابلق في جلد أحنس باسلِ

فهذا كلام يشعر بانهما التقيا بجابلق . وهي غير جابلق الواردة في حديث الحسن وهي التي ذكرها احمد بن يعقوب الهمداني في كتاب الاكليل اذ يقول : في جابلق وجابلص بقايا عاد وثمود الذين آمنوا بهود وصالح

وقال ياقوت في معجمه في مادة جابرس : مدينة بأقصى المشرق . يقول اليهود .

ان اولاد موسى عم هربوا اما في حرب طالوت (= شاول) اوفي حرب بخت نصر فسيرهم الله وانزلهم بهذا الموضع فلا يصل اليهم احد وانهم بقايا المسلمين · وان الارض طويت لهم وجعل الليل والنهار عليهم سوآء حتى انتهوا الى جابرس فهم سكانها ولا يحصي عددهم الا الله فاذا قصدهم احدمن اليهود قتلوه وقالوا : لم تصل الينا حتى افسدت سنتك فيستحلون دمه بذلك · وذكر غير اليهود انهم بقايا المؤمنين من ثمود وبجابلق بقايا المؤمنين من ولد عاد · اه · وذكر في جابلق : جابلق بالباء الموحدة المفتوحة وسكون اللام · روى ابو روح عن الضحاك عن ابن عباس ان جابلق مدينة باقصى المغرب واهلها من ولد عاد واهل جابرس من ولد ثمود ففي كل واحدة منها بقايا ولد موسى عليه السلام كل واحدة من الامثين · اه · المقصود من ايراده

وقال صاحب التاج في مادة ج ب ر س « جابرسا » آخر بلاد الدنيا (من جهة المغرب) وقال في جبلق : جابلق قد اوضح المولى سعد الدين البلدين وعرّف بهما وذكر معناهما على الوجه الاكمل في بحث المثال في شرح المقاصد · ذكر ذلك الشهاب في شفاء الغليل ... اه · قلت انا : لم ار شيئاً في شفاء الغليل المطبوع في مصر مما ذكره صاحب التاج · نعم انه تكلم عن البلدين الا انه لم ينطق بكلمة بخصوص المولى سعد الدين · فاحفظه · واما شرح المقاصد لسعد الدين فهو وان كان بيدي الا انه لما كان خالياً من فهرس مرتّب يهديني وحياً الى مطلبي لم اتمكن من العثور عَلَى البحث المذكور فرجعت عنه بما رجع به حنين ·

وكفانا تتبعاً لاقوال الكتبة اذ بما اجتزأنا بذكره وفاء بالمقصود لا سيما ان الجميع يكررون اقوال بعضهم عن بعض والنتيجة واحدة · والذي يستخلص مما تقدّم بعد طرح الزوائد المستحيلة التي جاء بها الاسرائيليون ما يأتي :

جابلص آخر البلاد المعمورة من جهة المغرب عَلَى ما كان يظنه ابناء ذلك الزمان · وجابلق آخر البلاد من جهة المشرق وجابلق تجاور بلاد ياجوج وماجوج · وجابلص في اقصى المغرب واقصى المغرب كان ينتهي في عرف الاقدمين عند بحر الظلمات في نحو الجزائر الخالدات او في ما يسامتها · وعليه فيجب علينا ان نبحث عن جابلق او جابلقا في ما يجاور بلاد ياجوج وماجوج ونبحث عن جابلص في ما ينتهي عند بحر الظلمات · واول كل شيء نحتاج اليه في البحث عن ضالتنا ان ننظر الى الكلمة ونتفحصها لنعرف مأتاها · والحال ان العلماء قد اتفقت عَلَى ان اللفظة ليست بعربية ورجعوا كونها فارسية · لانهم

يقولون ان الجيم والقاف او الجيم والصاد لا يجتمعان في لفظة عربية واذا وجدتا فيهما يدلان على ان الكلمة اعجمية او فارسية . فاذا تقرر انها فارسية يتضح لك ان وجود « جا » في صدر كلا الحرفين يدل على ان اللفظة مركبة وان « جا » تعين معنى يصح ان يقع على الكلمتين . وهو امر لا ريب فيه فان «جا» حرف فارسي معناه المحل والمكان والمقام . او كما يقول العرب « الدار » التي وردت معناها الاصلي الحقيقي وبمعنى البلد والمدينة . لان اول ما تنشأ عليه المدينة تكون داراً ثم تبتني دور اخرى بجانبها حتى يتقوم منها البلد او المدينة . فقد قالوا دار السلام ودار الاسلام ودار السعادة ودار الحرب الى آخر ماهنالك . واما بلقا او بلقا فيجب ان تكون اسم مدينة في آخر البلاد المعمورة من جهة الشرق مما يجاور بلاد يأجوج ومأجوج وهذا ما يصدق على بلدة « بلقا » وبالافرنجة Volga وهو اسم نهر عرفه العرب ايضاً باسمه القديم « الاتل » وهو يروي بلاد الروس وباسمه تسمى جيل البلغار او البلقار لخروجهم من سقي ذلك النهر . ويشهد على صحة ذلك وجود مدينة هنالك تسمى الى اليوم بلقاري او بلغاري Bolgary وهم يكتبونها بحرف y تمييزاً لها عن Bolgarie او bulgarie للبلاد المشهورة . وie اللاحقتان باخر الكلم تدل على البلاد كما في Arabie, Turquie, Ossyrie كما ان « جا » في رأس الالفاظ تفيد هذا المعنى عند الفرس ومنها جابروان وجابتن وجابرم وجابمن وجاسك وجاكرديزه وجالقان وجاورسان الى غير هذه

واما جابلص او جابرسا أو جابلسا او جابلصا فهي . بلص او برسا او بلصا او بلسا بعد تجريد « جا » عنها . واذا فتشنا عن مدينة بهذا الاسم في منتهى المغرب المعروف في ذلك العهد وجدناها باسم « بلسا أو بلصا » في بلاد لوسيتانية اي هي البلدة المعروفة اليوم باسم تافيرة Tavira في بلاد البرتقال .

واذا علمت ذلك ظهر لك ان لاحق للاجانب ان ينسبوا العرب الى الجهل والقول بالخرافات والله الهادي الى كل صواب

بغداد ساتسنا

نظرة في نخب الذخائر في احوال الجواهر

وقفت على نسخة مضبوطة قديمة العهد من نخب الذخائر وعلقت عليها بعض حواش وملاحظات لانشرها في احدى المجلات . فسبقتني الى ذلك مجلة المشرق البيروتية في سنتها الحادية عشرة صفحة ٧٥١ وبالمقابلة وجدت ان نسخة المشرق ليست بمضبوطة كل الضبط وقد وقع فيها اغلاط وسقط منها عبارات وكلمات فترقبت فرصة أخرى انشر نسختي مع حواشيها وملاحظاتي على مجلة المشرق . ولما زرت حلب في الصيف الماضي زدت النسخة تحقيقاً بمعارضتها بنسخ كثيرة فزدت ثقةً بما اجتمع لديَّ منها ثم انتهى اليَّ منذ اسبوعين الجزء السابع من مجلتكم المقتبس الغراء . لسنتها الرابعة فاذا بكم نشرتموها ايضاً فعارضت ذلك بنسختي فوجدت اختلافات افردت لها هذه المقالة الآن وقبل ان ادخل في الاشارة الى اختلافات نسخة المشرق والمقتبس عن نسختي اقدم الكلام في احوال الجواهر والمعادن وما عرفه العرب عنها مع اعتقاداتهم واعتقادات الافرنج بالحجارة الكريمة

ان مؤلف نخب الذخائر في احوال الجواهر هو شمس الدين ابو عبدالله محمد بن ابرهيم بن ساعد الانصاري السنجاري المصري المعروف بابن الأكفاني (١) نسب الى سنجار حيث ولد ونشأ وطبَّ بمصر وتوفي بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ ١٣٤٨ م وترك مؤلفات ذكر بعضها الحاج خليفة في فهرسه كشف الظنون منها كشف الرين (٢) في امراض العين وغنية (٣) اللبيب في غيبة الطبيب ونهاية القصد في صناعة الفصد وارشاد القاصد الى اسنى المقاصد وهذا طبع مؤخراً في بيروت سنة ١٩٠٤ م في ١٤٨ صفحة وبعضها لم يذكرها مثل النظر والتحقيق في تقليب الرقيق وغيرها مما هو في بعض مكاتب اوربا والشرق واخبار المؤلف قليلة

ولقد ألف كثير من القدماء في الجواهر منها كتاب (الاحجار) لارسطو صنفه واستخرج بنظره والارشاد الالهي خواصها ومنافعها وذكر فيها خاصية ستمائة حجر ونيف . وقد عربه لوقا بن سرابيون وعليه اعتمد العرب في ما كتبوه عن الجواهر . فألف في

---

(١) وفي المشرق الأكناني .هو غلط (٢) وفي المشرق كشف الرين في احوال العين والاول ذكره الحاج خليفة في كشف الظنون ٢ : ١٧٩ (٣) وفي المقتبس ثمينة وهو خطأ

هذا الفن ابو الريحان محمد بن احمد البيروني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) واسم كتابه الجماهر في الجواهر · وابو العباس احمد بن يوسف التيفاشي القاهري المتوفى في سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) واسم كتابه (ازهار الافكار في جواهر الاحجار) وصف فيه ما في خزائن الملوك منها · وقد رأيت نسخة منه في حلب وطبعه انطونيو رانادي الايطالي في فرنسا سنة ١٨١٨ م ونقله الى الافرنسية كليمان موله · وممن الف في المعدنيات والاحجار الشيخ تقي الدين احمد بن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ١٤٤١ م واسم كتابه (المقاصد السنية في معرفة الاجسام المعدنية) · وموفق الدين البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ (١٢٣١ م) له رسالة في المعادن وابطال الكيمياء

ومن اشهر من كتب في هذا زكريا بن محمد بن محمود الكوفي القزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٤ م) في عجائب المخلوقات معدداً الحجارة والمعادن · والابشيهي المتوفى في اوائل القرن التاسع ينتهي في المستطرف الباب السابع والستون · وابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٧ هـ (١٣٧٦ م) في رحلته ذكر مغاص الجوهر بين سيراف والبحرين · ومعدن الياقوت في جزيرة سيلان وعدد بعض اللآلي في خزائن الملوك والعظماء · وابو الحسن المسعودي المتوفى ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) عدد في كتابه مروج الذهب بعض المغاوص ووصف بعض الجواهر مما لا يخرج عن اعتقاد العرب وتتمة للفائدة اذكر اسماء المعادن والحجارة الكريمة التي اوردها القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات) قال : المعدنيات تنقسم الى الفلزات وهي الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والاسرب والخارصيني والى الاحجار وهي الاثمد وحجر ارسون وحجر اسفيداج وحجر افرنجس وقليميا الذهب وقليميا الفضة وباهت وبسد وبلور والبورق وتنجادق وتدمر وتنكار وتوتيا وجالب النوم وجزع وحامي وبليناس واسانجوني وحجر ابيض واحمر واخضر واسود واصفر واغبر وحجر الباءة والبحر والحباري والحصاة بالحية والخطاف والدجاج والرحى والسامور والسم والشياطين والصدف و الصنونو (السنونو) والعاج والعقاب والغار والقمر والقير و القيء والكلب والمطر وحجر تمرغ فيه الناقة وحجر يتولد في الانسان وحجر يتولد في الماء الراكد وحرض وموسناي وخبث الحديد وخصية اللص وحجر در وذهنج وحجر دمياطي ورخام ورقوس واحجار زاجات وحجر زبد البحر والزجاج والزرنيخ والزنجار والزبجفر وحجر سبج وسندليس وسنباج وشاذنج وشب وصدف وطارد النوم وحجر طالقون وطلق وطرسوطوس وحجر عقيق وعنبري وعطاس وحجر فادزهر

وفرسلوس وفرطاسيا وفرفوس وفيروزج وفيلفوس وفيهار وقرياطيسون وقروم وقلقديس وقلطار وقلقند وقلي وقيسور وقبراطير وحجر كرسياد وكرسيان وكرك وكرمان وكهرباء وحجر لازورد ولاقط الذهب وحجر لاقط الرصاص وحجر لاقط الشعر وحجر لاقط الصوف وحجر لاقط العظم وحجر لاقط الفضة وحجر لاقط القطن وحجر كاغيطوس والماس ومغناطيس وماهاني ومراد ومرجان ومرداسنج ومرقشتا ومسن ومسهل الولادة وحجر مغناطيس وملح وحجر نطرون وحجر نوبي ونورة والنوشادر وحجر هادي وحجر ياقوت وحجر يشب وحجر يقظان · اه

وذكر الابشيهي في المستطرف ان المعادن تقسم الى ما يذوب وما لا يذوب وقال ان المشهور منها سبعة الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والاسرب والخارصيني · ثم عدَّ من الاحجار الجوهرية · الياقوت والبلخش والبنقش وعين الهرّ والالماس والزمرّد والزبرجد والفيروزج والعقيق والجزع والبلور والمرجان وحجر الماطليس والحجر الماهاني وحجر مراد والدهنج والسبج والمغناطيس وحجر الخطاف وحجر الزاج وحجر الزنجفر وحجر الملح وحجر النطرون وحجر اللازورد اه

وقد ذكر كل من القزويني والابشيهي خرافات كثيرة بشأن خواص الجواهر واتخاذ الناس لها مما كان اقدم من ذكر مثله من الاعتقادات ارسطو وديوسقوريدس اليونانيان وبلينوس الروماني وغيره فجاراهم العرب بهذه الافكار

وربما يظن بعضهم ان العرب ومن تقدمهم من الامم اعتقدوا بهذه التخرصات فقط مع ان لمتمدني الافرنج حتى يومنا اعتقادات ليست باقل من تلك اوهامًا فالانكليزيون يعتقدون ان الياقوت يشفي من الرثية (الروماتزم) ويقي حامله من برد الاطراف · والفيروز يحمي حامله من السقوط من شاهق والياقوت الازرق يحمي حامله من الافاعي ويزعمون ان حجرًا كريمًا يظهر في رأس الهرّ مرة كل الف سنة فمن يجعله تحت لسانه تنبأ واخبر بالغيب · واهل نا بولي في ايطاليا يلبسون احجبة المرجان تعويذًا من عيون الحساد · ويزعمون ان الزبرجد يزيل حدة الطبع ويشفي من البرص · ويستعملون حجر اليشم لمنع العطش واتقاء الزوابع والصواعق والفيروز للوقاية من السقوط · والعقيق لقطع نزيف الدم والاستشفاء من لدغ الثعبان · ومن اعتقاد الافرنج عمومًا ان حجر الكهرباء يقي من مرض الحمرة ووجع الحلق · وكان القدماء من الفرنجة يطردون السحر بالياقوت الاصفر ويعالجون الجنون به ويرمزون بالماس الى العدل والعفة

والثبات الى غير ذلك

وهاك الآن النظرة في مقالة النخب المنشورة في مجلتي المشرق والمقتبس معتمدين على مجلة المقتبس ثم على ما في نسخة المشرق واخيراً نسختنا المخطوطة

صفحة ٣٧٨ سطر ٣ كفء افضاله وفي نسخة المشرق ونسختنا كفاء وهو الاظهر . وسطر ٥ الجواهر النفيسة باصنافها وفي نسختنا واصنافها . وسطر ١٣ صفحة فضة مجلاة وفي نسختنا صفيحة فضة مجلوة وهي اصح وسطر ١٥ بلون البهرماني ـ البهرمان (١) . وسطر ٢١ تشابيهاً بالجمر — تشبيهاً له بالجمر — وكأن الحميري — الخمري . وسطر ٢٣ بالماذيني — بالماذيني ولعل الاولى أولى

صفحة ٣٧٩ سطر ١ وعن التفت — التفث (٢) وسطر ٣ عاءرة — غائرة . وسطر ١٣ واضعفه — وضعفه = ثلاثون ديناراً — ثرتين . وسطر ١٨ وكان في خزانة يمين الدولة — الامير يمين الدولة محمود وسطر ١٩ وكان لثقة دفصا — فص.

صفحة ٣٨٠ سطر ٥ الفافقي — الغافقي وسطر ٦ ينفع لحدوث الصرع — يدفع وسطر ٧ الياقوت الاحمر ه وكذا في المشرق — وفي نسختي الياقوت الابيض وسطر ٨ كان فيه زئبق — زئبقاً . وسطر ١٠ وتقال انه وقاية لعين المجدور — ويقال انه اصح وقاية . وسطر ١٢ مسفرص في وكذا في المشرق — صاف . وسطر ١٤ بالمرقشيشا الذهبية — بالرقشيشا الذهبية = ما حلي به — ماجلي . وسطر ٢٢ البجادي — البجادي (٣) . وسطر ٢٥ بالماذيني — بالماذيني . وسطر ٢٦ بذخشان — بدخشان

---

(١) كل ما وقع بعد هذا الخط — يكون من نسختنا المخطوطة

(٢) الفث وآخرها الثاء الوسخ ونحوه (٣) نسبة الى البجاد وهو الكساء المخطط

البقية تاتي

زحلة (لبنان) عيسى اسكندر المعلوف

سير العلم والاجتماع

كيف نحسن الأكل

كثيراً ما ينشأ سوء الهضم من هيئة الجسم ووضعه فاذا اردت ان تتقيه فعليك بجعل قامتك منتصبة ما امكن واقفاً كنت او جالساً فتلقي كتفيك الى الوراء وصدرك الى الامام وهذا من اهم القواعد في حفظ الصحة . ومن انفع الرياضات لتقوية اعصاب الظهر والبطن ان يستلقي المرء عَلَى قفاه ويجعل يديه تحت نقرته ويجلس رويداً رويداً ويداه قابضتان عَلَى قفاه ويكرر هذا العمل مرات بتدوبه فينحني الى الامام وهو جالس ويمد يديه ليمس طرفي رجليه باطراف انامله . وهنالك رياضة اخرى نافعة كثيراً وهو ان يقف المرء منتصب القامة وينحني الى الوراء ثم يرجع الى الامام ويميل ذات اليمين ثم ذات الشمال وينتقل الى الاطراف الاربعة بدون ان ينقل رجليه من مكانهما ثم يقف رافعاً يديه ومفرقاً بين رجليه كهذا الحرف ٨ ويمد بعد ذلك حقنتيه بحيث تماسان وهو واقف مباعداً بين ساقيه ومنحنياً يمد يديه ما امكن . هذه الحركات من شأنها تمرين عضلات البطن فاذا قام بها الانسان قبل الاكل تنبعث شهوته للطعام واذا اتاها بعده تسهل عليه الهضم ومما ينصح به لمن يريد حفظ صحته ان يبدل قبل الجلوس الى المائدة ثيابه في النهار او ثياب عمله ويضع المائدة وضعاً محكماً لان لرداءة وضع الخوان تأثيراً في شهوة الاكل والنظر اليه وحده باعث عَلَى سوء الهضم والاحسن ان يستريح الانسان قليلاً قبل الطعام وعليه ان لا يجلس عَلَى كرسي وذراعاه عَلَى ركبتيه وظهره منحن لان هذه الجلسة تعوق الهضم

النوراستينيا

النوراستينيا اوضعف المجموع العصبي اسم لمرض عرف منذ ثلاثين سنة وهو يزداد مع الحضارة والافراط في مقتضياتها وهو عبارة عن تغلب الحالة العصبية عَلَى باقي المجموع العصبي والعصبي اعظم امراض هذا العصر فالتعب عَلَى اختلاف انواعه والاضطراب الدائم واشتغال الفكر في المعاش ولا سيما في المدن الكبرى والهموم ومعاكسة الدهر والخيبة في العشق وتعب الاسراف عَلَى النفس كلها من الاسباب الصحية المعتادة في انحلال الاعصاب وضعف مجموعها . وربما كان هذا المرض وراثياً فيحدث عنه اذ ذاك ضعف

منوع في الاعصاب يؤدي الى داء المفاصل وداء الملوك وهما من الامراض العصبية كما هو المعلوم وكثيراً ما يؤدي ذلك الى الامراض العفنية واضطراب الآلة الهاضمة والتناسل البولي. واعراض النوراستينيا واحدة في الاكثر اهمها وجع الرأس ووجع الظهر والارق والاضطرابات المعدية خاصة والضعف الذي يعم الجسم . وكثيراً ما تقل الوظائف العقلية والذاكرة والانتباه والارادة ويصبح التأثر قريباً من المرض ويصحب كل ذلك قلق دائم وافكار مرتبكة رديئة ويبدوا عب العام في الصباح عند الانتباه من النوم فيشعر المريض احياناً بتكسر في جسمه وارتخاء في قواه .

ويشعر باهم الاضطرابات المعدية بسوء الهضم وثقل في جوف المعدة واحياناً في قرصها فهذا المرض هو سوء هضم عصبي وكثيراً ما تقل شهوة الطعام وينتفخ البطن وترى في الوجه طفحة حمراء

والنوراستينيا كالهستريا (اختناق الرحم) لا تهلك صاحبها بل تسمم جسمه وتصعب عليه الحياة ويتأتى للمصاب به كل حين ان يشفى منه وليس المعول فيه على الدواء والدواء ثانوي فالمهم في شفائه ان يزال السبب الذي نشأ منه كالاهتمام بالاشغال والاعمال العقلية المفرطة والافراط في كل شيء . وتغيير البيئة والمقام في الفلاة مما ينفع في شفائه نفعاً كبيراً . اما مداواته فالاحسن بالكهربائية والاستحمام بالماء الفاتر او الحار والابتعاد عن الماء البارد واستعمال المضخة (الدوش) بالماء الفاتر . والاستحمام بالكهربائية يؤثر في التغذية والاعصاب فالاضطرابات المعدية والشقيقة والارق والاحلام الرديئة تنقطع بمجرد توجيه الكهربائية الى الرأس . ونحاف الاجسام ينتفعون بالاحتقال بالزرنيخ ويفيد فيه التغميز (التمسيد) ولا بأس من استعمال بعض المشروبات التي تزيد القابلية للطعام واخذ خلاصة القنب الهندي من عيار خمسة في المئة سانتغرام يزيل وجع الشقيقة لا محالة

عمر الجراثيم

ثبت لاحد علماء الالمان ان الجراثيم اطول اعماراً ومقاومة للاحتفاظ بحياتها مما نتوهمه لعلمنا انها احياء صغيرة لا ترى الا بالمجهر فقد اخذ خراطيش حشاها رصاصاً وجعل عليها الوفاً من الجراثيم الصغيرة ثم ملأ بندقية واطلق الرصاص على عابة من التنك وكان فيها نوع من الملام السائل الذي يصلح لان تعيش فيه الميكروبات ونامخض العابة شاهد ان الجراثيم التي اطلق عليها الرصاص قد نمت وتكاثرت بدلاً من ان تهلك باطلاق

التار عليها والاغرب انه رأى الرصاصة قد اخذت من الهواء جراثيم أخرى في طريقها أكثر حياة ترتع في الجسم الذي تحل فيه ولا تبقي ولا تذر

تنظيف الرأس والشعر

يستعمل لتنظيف الشعر والرأس صفار بيضة تحل بقليل من ماء الكولونيا و يدلك به ثم يغسل المكان بماء فاتر وينشف الشعر و يدوم مكشوفاً ريثما يجف ولا يبقي فيه اثر للنداوة

رجال الشرطة

من زار باريز يعجب برجال الشرطة وهو يراهم في الشوارع والجادات والمنعطفات واقفين لتأييد النظام يدلون الغرباء عَلَى الشوارع وهم منتبهون لكل ما يخل بالراحة ولكن الباريزيين يحسدون الانكليز عَلَى شرطتهم و يقولون انها اكثر نظاماً وانتباهاً وآداباً قائلين ان ثمانية آلاف لا تكفي للضرب عَلَى ايدي ثلاثين الفاً من الاوباش والاوغاد في عاصمة الفرنسيس · ويقولون ان الشرطة في يابان يتولون حفظ النظام في شوارع أمهات المدن و يلبسون لباساً اوربياً و يتقلدون سيفاً دلالة عَلَى سلطتهم والحكومة تختارهم من قدماء الجند ولا سيما من طبقة اسمها الساموريه عرفت بشدتها وجلادتها في الحروب والغارات ولذلك كان لهم في الشعب تأثير قوي و يزيدهم قوة عناية الحكومة بتربيتهم وعزة نفوسهم التي ضربت بها الامثال · وترى رجال الشرطة في المانيا يلبسون لباس رجال المدفعية و يضعون عَلَى روؤسهم خوذة وطنية سوداء لصغارهم كتب عليها بحروف من نحاس اوائل الحروف من اسم الامبراطور و بيضاء للضباط عليها صورة نسر باجنحة مفردة واسم الامبراطور بحرف مذهب · واذ كان الالمان من اهل الطاعة العمياء اصبحت وظيفة الشرطة سهلة سواء ارادوا القيام بها مع الفرد او مع الغوغاء والجماهير و يعين الشرطة الرجالة رجال من الشرطة الفرسان في مدينة برلين كما هو الحال في مدينة باريز · ويكتسي رجال الشرطة الايطالية بجوخ ازرق وسراويل رمادية فاتحة وخوذات ملونة ويلبس ضباطهم البسة من الحرير الازرق واذ كان الطليان اصعب مراساً من الالمان فكثيراً ما يشاهد رجال الشرطة في بلادهم يتماسكون مع من يريدون القبض عليه او دعوته الى التزام النظام وينتهي ذلك بما لا تحمد عقباه من اجل هذا جعل لرجال الشرطة الطليانية حبل من سيور الجلد ليقيدوا به السجناء

اما شرطة فينا فودعاء لطفاء يبشون في وجوه الناس · وشرطي بروكسل رقيق الجانب يخاطبك بلا كلفة · وشرطي هولاندة يحمل كل ما يلزم لاغاثة جريح يراه من

الادوية الاولية

وسادة رجال الشرطة في الارض هم بالاجماع شرطة الانكليز وينقسمون الى قسمين في لندرا قسم في الحي القديم وهو حي الحركة والتجارة وقسم لعامة ارجاء المدينة وعدد الاول الف رجل وهو قليل المكانة بالنسبة للثاني المؤلف من ٣٠ وكيلاً و٥٣٩ مفتشاً و٢١٤٨ جاويشاً و١٤١٢٩ ضابط بوليس ولهم كلهم ديوان كبير فخيم وتختارهم الحكومة من ارباب قامات تكون اطول من الوسطى والصحة الجيدة بالطبع وعليهم ملاحظة الحراس والعسس في الليل وستون في المئة منهم يلاحظون امن المدينة ليلاً ولذلك قلما يحدث ما يكدر وراتب الشرطي من الدرجة الثالثة ثلاثة جنيهات في الاسبوع ويدفع اليه علاوة عن كل ساعة تزيد على العشر ساعات المقررة للخدمة كل يوم وليلة . ومخافر الشرطة في لندن هي عنوان الرفاهية يعيش فيها الشرطة الغير المتزوجين حائزين على كل ما يلزمهم اما المتزوجون فلهم مخافر خاصة بهم فيها قاعات استقبال وحمامات والمضخات وقاعات لعب وخزائن كتب وغيرها فيعيش الشرطة فيها مع اسراتهم عيشة اشتراكية عسكرية . وفي لندرا ثلثمائة شرطي راكب لربط محطات الشرطة يستخدمون خاصة في اوقات المظاهرات والاحتفالات العامة ومثل هذا العدد لحفظ الامن في نهر التايمس ويقوم بنجدة من تصيبهم بائقة ولهم مئة قارب وثلاث سفن معدة للجري كل حين وهكذا كانت شرطة لندرا اجمل زينة لانكلترا وضامن لحفظها و بقائها فعسى ان لا تقل شرطتنا العثمانية عن امثالهم في البلاد الانكليزية بعد حقبة من الزمن

علاج الشهقة

وجدوا ان خير علاج للشهقة ان يمسك لسان من يشهق بين اصبعين يمسك بهما فوطة لئلا يغلب اللسان وان يشد ما امكن بحيث يبقى هنيهة خارج الفم فاذا لم تنجح هذه الحركة في المرة الاولى تعاد ثانية وفي ذلك الشفاء . وقد اهتدوا الى هذه الطريقة من الدكتور لابورد الذي ما زالت تنقذ الوفا من الغرقى والمصلوبين وغيرهم بسحب السنتهم

علاج الزكام

افضل علاج الزكام ان يدهن المزكوم منخريه بزيت الزيتون و يستنشق زهر الكبريت وان يلف صدغيه من الليل بمنديل . ويمكن التوقي من الزكام في اوله ببل المنخرين بصبغة الارنيكا فاذا طالت مدته فليس غير هذه الصبغة يستعملها المزكوم وان احرقته ولكن فائدتها مضمونة

صوت الرعد

رأى بعض الاخصائيين بعلم الحوادث الجوية ان معرفة صوت الرعد عن بعد لتوقف عَلَى ملاحظة اول العاصفة او آخرها لا وسطها والاحسن ان يلاحظ البرق الافقي المنبعث من بين الغيم والارض فان صوته الجاف يعرف عَلَى ايسر وجه من الصوت الناشيء من البرق الذي يجول بين الغيوم · قال اراغو العالم انه لا يسمع صوت الرعد الى ابعد من خمسة وعشرين كيلو متراً وسبقه الامبراطور كانغ هي الصيني فقال انه يسمع من مسافة اربعين كيلو متراً وان صوت المدافع يسمع الى ٣٠ فرسخاً (١٢٠ كيلو متراً) وقال اراغو ان صداها قد يتردد الى بعد مائتي كيلو متر وانه سمعت المدافع التي اطلقت من ثغر بورتسموث يوم جنازة الملكة فيكتوريا الى بعد ١٣٤ كيلو متراً وقد قام الباحث المشار اليه بتجارب عديدة منذ بضع سنين فلم يستطع ان يسمع صوت الرعد الى ابعد من ٤٥ كيلو متراً هذا اذا لم يحل دونه جبال ولا آكام وكان الهواء ساكناً · وان عاصفة تحدث عن بعد خمسة عشر كيلو متراً فقط قد لا يسمع صداها حتى ان بعضهم قال انها اذا ارعدت السماء في لاهاي لا تسمع في ليدن وهي منها عَلَى اربعة فراسخ

عداوة الزهور

يظهر ان بعض الزهور تعادى اشد عداوة كالورد فانه لا يطيق الا سليخ (ريزيدا) ولك ان تربط واحدة من كل منهما في باقة وتضعهما في الماء فبعد ساعة تذبل الوردة واختها عَلَى حين تزيد تلك الزهور الاخرى نضارة والسوسن قاس ايضاً عَلَى سائر الزهور يقتلها بدون رحمة علي العكس في القرنفل وعباد الشمس فيحب احدهما صاحبه فوآسفاه حتى الزهور التي تعطر الارجاء لا يحتمل احدها الآخر

مضار التدخين

في احدى المجلات الافرنجية ان مضار التدخين لا تنحصر في النيكوتين اي سمه فقط بل ان للدخان سموماً اخرى تصيب شاربيه وهي موجودة في تركيب مادة الدخان وهي البيريدين والكريزول وحامض الكربون وغيره وكلها ضارة لمن يدخنون اللفائف الكبيرة واللفائف المصنوعة من التبغ وهي اسوأ اثراً في الا كثر في من يبلعون الدخان فيصل الى الرئتين فينشأ منه قيء واضطراب في القلب وعرق بارد · ولا يتوقف تبطيل التدخين الا عَلَى قوة ارادة ولاجل ان تعزف النفس عن التدخين يجب ان يتمضمض المدخن بجزء ٢٥و٠ في المئة من نترات الفضة فاذا احب بعدها التدخين يصاب بقرف

شديد يدوم معه زمناً عَلَى ان هذه المضمضة لا تخلو من خطر ثم ان نترات الفضة تسود الاسنان في برهة قليلة ورأى احد اطباء الروس ان يدهن غشاء الفم بنترات عَلَى معدل خمسة في المئة والافضل من هذين الطريقتين ان يدهن سقف الحلق بمحلول نترات الصودا بكمية ١٠ في المئة

لون الجوارب

من الجوارب ما يزول لونه في الحال فعليك اذا احببت حفظ الوانها عليها ان تجعلها في ماء فاتر وتغسلها باثني عشر لتراً من الماء البارد تجعل فيه حفنة من الملح وقدحاً من الخل الجيد

ازالة البقع

لتنظيف البقع من الثياب (كالاقمصة والقفاطين وغيرها) وازالة آثار الرطوبة منها افركها بالمحلول الآتي : ملعقة من الملح ممزوجة بملعقة من ذرور النشادر تحلهما في ربع قدح ماء وتضع من هذا المحلول عَلَى البقع مرات متوالية ثم تترك الثياب منشورة في الهواء نهاراً ثم تغسلها عَلَى العادة فلا يبقى فيها اثر حتى ولا البقع القديمة

البورصة

كتب خليل افندي سعد في المهذب رسالة في البورصة جاء فيها ان البورصة نادٍ يجتمع فيه التجار والمضاربون فيشترون فيه و يبيعون إما نقداً وهو قليل وإما الى ميعاد وهو اهم اعمال البورصة لما يجد فيه المشتري من السهولة والامل بارتفاع الاسعار فيحمله ذلك عَلَى مشترى كميات اثمانها اكثر مما يقدر عَلَى ادائه نقداً

واعمال البورصة عَلَى نوعين احدهما مختص بالاتجار بحواصل الارض كالقطن والحبوب والسكر والمعادن وغيرها والآخر مختص بشراء وبيع القراطيس المالية من مثل اسهم المصارف وسندات الحكومات المالية واسهم السكك الحديدية وما شاكل ذلك

ولكي يعلم القارىء ما معنى هذه الاسهم وكيف توجد بطريقة رسمية تصير صالحة للتعامل بها نقدم له مثالاً وهو كيفية تأسيس المصارف ذات الاسهم وهاك البيان :

اذا عزم احد عَلَى انشاء مصرف وكان غير قادر عَلَى تقديم رأس المال من جيبه الخاص فانه يدعو جماعة من المتمولين للاشتراك معه في هذا العمل فيؤلف لجنة تدعى لجنة التأسيس او المؤسسين . فهؤلاء إما ان يؤدوا كل ما يطلب لرأس المال ، واما ان يقدموا جزءاً منه مقابل اسهم معلومة يأخذونها و يطرحون الاسهم الباقية برسم البيع

بالاشتراك فيشترك من يريد من الناس بعدد منها كل علي قدر ارادته

فاذا اعلن المؤسسون عن وجود مئة الف سهم مثلاً كل سهم بثمانمئة قرش فقد ترد لهم اشتراكات بخمس مئة الف سهم فيقال حينئذٍ ان اسهم هذا المصرف غطيت خمس مرات ولذلك فلا ينال من كان طالباً خمس مئة سهم مثلاً الا مئة سهم فقط لوجوب توزيع هذه الاسهم بالتساوي علي طالبي الاشتراك فيها

ثم ان المؤسسين يخصون انفسهم باسهم يأخذونها مجاناً او بثمن قليل جداً «اي السهم بخمسة قروش مثلاً» مقابل اتعابهم في انشاء المصرف ،وتدعى هذه اسهم التأسيس فيعطى لحامليها شيء معلوم مما يبقى من الارباح بعد توزيع خمسة في المئة مثلاً علي حاملي الاسهم العادية

قلنا ان ثمن السهم من اسهم هذا المصرف الاعتيادية مئة قرش فاذا عمل المصرف بعد تأسيسه اعمالاً كثيرة الربح ارتفعت قيمة اسهمه جميعاً من مئة قرش الى مئة وخمسين مثلاً او اكثر او اقل تبعاً لمقدار الارباح والعكس بالعكس . اما اسهم التأسيس فيبيعها اصحابها بالاثمان التي تساعدهم عليها حالة السوق وقد يبلغ ثمن السهم الواحد بين عشرة الى خمسين ليرة تبعاً لشروط المصرف وموافقتها في توزيع ارباح طائلة على الاسهم التأسيسية ذات الامتياز

وهذه الاسهم جميعاً عبارة عن ورقة مطبوع عليها نمرة السهم و قيمته الاصلية و بذيلها عدد من الكوبونات وهي مربعات محاطة بخروق تمكن من قطعها علي حدة فيقطع فيها كل سنة واحد من هذه الكوبونات أو القطيعات يسلم الى المصرف و ينقد حامل السهم قيمة القطيعة وهذه القيمة تكون اما خمسة بالمئة او اكثر او اقل تبعاً لمقدار ارباح المصرف اوما يعينه في اعلان سابق يدرجه في الجرائد المحلية مبيناً ميعاد قبول الكوبونات واثمانها

هذه اخص الطرق لاصدار اسهم المصارف فيمكن يقاس عليها كيفية اصدار اسهم باقي الشركات التجارية وسندات الحكومة التي تقترض بموجبها ما يسد به دينها والآن فلنعد الى كيفية المعاملة بالبضائع والاسهم وهي ما يأتي

تفتح البورصة عند الساعة التاسعة صباحاً فيجتمع التجار والمضاربون في ردهتها ولا يسمح بالدخول الى حلقة المناداة بالبيع «اي عرض البضاعة او الاسهم» الا لاناس مخصوصين هم السماسرة ووكلاؤهم

فهؤلاء يكونون قبل ان يدخلوا حلقة المناداة قد تلقوا اوامر مختلفة من عملائهم

بعضها بالمشترى و بعضها بالبيع بأثمان يعينونها لهم · فيدخلون و بيد كل منهم مذكرة بشكل دفتر صغير فينادون و يعرضون ما لديهم من البضائع او الاسهم مبينين اثمانها وذلك كأن ينادي احدهم قائلاً : عندي خمس مئة قنطار قطناً من الصنف الوسط والقنطار بعشرين ريالاً تسليم آذار ، او اني اشتري مئة سهم من اسهم البنك العقاري بثلاث مئة فرنك السهم لميعاد شهرين فيجيبه آخر اني اشتريت ما تعرضه وآخر اني بعتك ما تطلبه فيدون ما بيع وما اشتري في مفكرات يوقعها البائع والشاري

فاذا كان البيع نقداً والبضاعة حاضرة يدفع الشاري الثمن و يستلم ما اشتراه · اما اذا كانت المعاملة الى ميعاد فلا يطلب من الشاري الا جزء من الثمن (بين ٥ و ٢٠ في المئة تبعاً لحالته من المالية

كثيراً ما سمعت الناس يسألون عن معنى التغطية · وعندما اشتغلت النساء في مشترى اسهم المعادن منذ زمن في بيروت سمعت احداهن تقول ان فلانة غطت بايزارها اوما ماثل ذلك

ولكي تعلم حقيقة معنى التغطية البورصية لا الوجهية نفرض انك اشتريت مئتين وخمسين قنطارقطن مصري وهي اقل كمية يتعامل بها من صنف القطن في البورصة · فان كان عميلك عَلَى ثقة منك فانه قلما يطلب منك ان تدفع مقدماً اكثر من عشرة قروش عَلَى كل قنطار بصفة تأمين يأخذه لنفسه اذا هبطت الاسعار · وبما ان شراء القطن يكون لمواعيد مختلفة فانك تعين الميعاد الذي تستلم فيه ما اشتريته فتوصي عميلك بان يشتري لك هذه الكمية تسليم شباط او ايار او غير ذلك · فلفظة تسليم هنا وهمية لانك لست تاجر قطن لتستلم وانما المقصود ان تبيع ما اشتريته في ميعاد التسليم وتقبض او تدفع فرق الثمن الذي يكون قد صعد حينئذٍ او هبط · فاذا استمر السعر في صعود فلك ان تبيع وقتما تريد وتربح فرق الثمن · اما اذا هبط السعر فخسرت اكثر من العشرة قروش التي دفعتها تأميناً فيطلب منك العميل اما ان تغطي الخسارة فتدفع عشرة قروش أُخرى واما انه يضطر الى تصفية ما اشتراه لك فيبيعه لئلا تلحقه الخسارة شخصياً لانه هو المسؤول لاانت بالخسارة امام من اشترى هو منه لحسابك

في البورصة حزبان احدهما يضارب عَلَى الصعود فيكثر من المشترى ليدفع الاثمان الى الاعلَى والآخر يضارب عَلَى النزول فيكثر من عرض البضائع والاسهم للبيع لتكثر عَلَى طلابها وتكسد فتهبط الاسعار ولكل من هذين الحزبين حيل وطرق للوصول الى

الغاية لا يمكن استيفاؤها هنا. غير اننا ننصح للمتعاملين بالبورصة ان لا يغتروا بالتلغرافات التي تأتي من الخارج عن اقبال المواسم او محلها لان بعض المضاربين قد يشيع نشوب الحرب بين دولتين لتهبط الاسعار ويخرج من مركزه رابحاً

وفي كثير من الاوقات يحتكر حزب الصعود صنفاً من البضاعة ولا سيما اذا صار قليلاً قرب انتهاء موسمه فيرفع اسعاره بقدر ما يتمكن من ذلك . وهذا هو السبب في بقاء اثمان بعض الاصناف مرتفعة على الرغم من قلة الطلب و فرة وجود البضاعة . ويعلم ذلك من اثمان الماس الآن فانها فاحشة بالنسبة الى ما يجب ان تكون عليه وما سبب ارتفاع ثمن التيراط من ١٥ ليرة الى ٣٠ ليرة مؤخراً الا تمكن جماعة من احتكاره وخصوصاً بعد حرب البوير وتعطل معادن الماس زمناً

فيرى من ذلك ان المضاربات كثيرة الاخطار ولو كانت مبنية على الحكمة والتعقل والدرس واليقظة . فقد يكون المضارب على علم بزيادة المطلوبية لصنف من الاصناف مع عدم اقبال موسمه فيهجم على الشترى ظناً منه ان الربح محتم والحالة لا يلبث ان يرى الحالة بالعكس في كثير من الاوقات ، إما لأسباب محلية توجب اهمال هذا الصنف او تقليله وإما لعارض وقتي من مثل اشهار الحرب بين دولتين او اعتصاب العمال او لاتفاق حزب النزول على تنزيل قيمته او لقيام صنف آخر مقامه وهلم جرا

فاذا كان لا بد لشخص من المضاربة بالبورصة فأفضل نصيحة نقدمها له ان يتروى كثيراً قبل المشترى او البيع فيدرس حالة السوق على خبيرين ثم اذا اسعده الحظ وكسب عليه ان يكتفي بالربح القليل حالاً لانه يكون قد وثق منه ثم يعود الى الاتجار رابحاً بعزم جديد ومكسب يمكنه من تحمل الخسارة لو وقعت . فيكتب اذ ذاك ان يخرج من مركزه مردداً قول القائل :

على انني راضٍ بان احمل الهوى واخرج منه لا عليّ ولا ليا

وقد دل الاختبار على ان البورصة لا يمكنها ان تبلغ جراحها الا في من يتهورون لطمعهم بالغنى العاجل مع ان الغنى العاجل من البورصة لا يكون الا بنسبة ٥ الى ١٠٠ من حوادث الخراب وذلك لذهاب معظم ارباح المضاربين الى جيوب السماسرة الذين ينشبون المنشار فيأكلون الارباح صاعداً ونازلاً سواءٌ ربح المضارب على ايديهم او خسر ، لان نصيبهم (وهو في الغالب عمولة قدرها ٥ في المئة) ثابت لا ريب فيه مالم يغتروا هم فيجازفون بمالهم الخاص ارضاء لعملائهم

في البورصة طريقة لتأمين المضاربين عَلَى اموالهم بتحديد خسائرهم وهي ان يدفع المضارب مبلغاً معلوماً بصفة سوكارتاه ضد صعود الاسعار او هبوطها تبعاً لارادته

فاذا شاء المضاربة بالقطن مثلاً واختار طريق الصعود اي ان يكون شارياً لا بائعاً فانه يدفع نحو ربع ريال عَلَى كل قنطار لمدة شهرين فيأمن الخسارة مهما هبط السعر ولكنه لا يربح الا اذا ارتفع الثمن اثناء الشهرين فوق الربع ريال الذي دفعه بصفة تأمين له ضد الخسارة

وهناك طرق وعمليات أُخرى من مثل العملية المسماة «ستلاّج» وهي الربح سواء صعد الثمن او هبط مقابل دفع مبلغ اكثر من المبلغ المتقدم ذكره مما لا فائدة من الاسهاب في شرحه هنا لمماثلته لما تقدمه في الجوهر

وخلاصة ما ننصح به للقارىء ان يبتعد عن البورصة لانها كثيرة الاخطار والنفقات والهموم . وقد يوافق الاشتغال بها لمن كان عضواً في داخلها يقف كل يوم عَلَى بواطنها فيتمكن من التصفية حالاً . اما من كان بعيداً عنها فخسارته له ومعظم ارباحه لغيره

هذا فضلاً عما يحف بالبورصة من الدواعي والاسرار التي تغل الايدي عن السعي وتقيد الهمة عن الظهور بمظهرها الحقيقي خلافاً لحقل التجارة الواسع فان فيه لذوي الذكاء والهمة والاستقامة مضرباً نائي الاطراف يمكن من كان مستعداً من الاصلاح والفوز بالفلاح

سر السعادة

كتبت احدى العقائل في مجلة مطالعات البيوت ما تعريبه : قال الفيلسوف فون كنيبل: «سكن رغائبك الشديدة واجلس الى مائدة الحياة كما يجلس الضيف المحتشم ولا تطلب صنفاً من الطعام لا تراه مكتوباً في قائمة الالوان» وهي كلمات فيها سر السعادة فان حياة المرء تنقضي في البحث عن السعادة وكم من افراد قلائل يتيسر لهم الحصول عليها . يدخل المرء في سن العشرين مضمار الحياة فيريد ان يؤسس له مقاماً بالرضى او الغضب ويحاول ان يحرز او يأخذ النمر الرابحة في يانصيب الحياة وكل يظن نفسه عَلَى ثقة من ربح الشطر الاعظم لان الاهواء في السعادة تختلف باختلاف الاشخاص حتى اذا بلغ الاربعين يتعب و يشكو و يقول انني اضعت سعيي هباء ولم احظ بما اتطال اليه من السعادة ولو بحث المرء في حياته بحثاً مجرداً عن الهوى لاعترف في الغالب انه بتعلقه بالوهم قد تخلى عن الوف من الحقائق الحسنة في الحياة السعيدة

السعادة تنشأ اليوم بعد اليوم من لذات مختلفة موقتة وافراح طفيفة رائقة تكون بنت ساعتها فالواجب ايجادها بهمة وعناية عَلَى نحو ما تعمل النحلة العسل الجيد من عصارة الزهور المتباينة في الجودة فلقد كتب كارنو الكبير الى ماكدبورغ في ساعة يأس بالابيات الآتية :

(١) ايتها السعادة انت التي يتحرك بك كل شيء عَلَى الارض
اينزل ندماؤك على الكبراء ام في القرى ؟
في اسبارطة ام في سباريس ؟ في المعسكر ام في المقبرة ؟
ام انك تؤثرين الغابات ام حفظ القطعان ؟
أأنت في البذخ ام في المجد ام في الوهم ؟
في الرغبة الحاصلة ؟ وفي الخلاص من الامراض ؟
في الصداقة او الحب او في البغض ؟
في السلام والمعرفة والفضيلة او بين القبور ؟
السعادة ايها الفاني الجزوع هي بنت الامل
هي في فؤادنا وهي تتوج الطهر والعفاف
تقام نذورنا وتأتي غير منتظرة
هذه الهدية من الخالق هذه الجذوة السماوية
لا يتأتى تعريفها فهي خبز الروح
لا تعرف قيمتها الا بفقدها

والحق مع كارنو الكبير في جعله السعادة ابنة الوجدان المستريح وانها خاصة بالامل ومن لم يقع له ان تحقيق رغبة طلبت زمناً لا تنشأ عنها المسرة التي كانت تتوقع من قبل الحصول عليها فاجمل القصور وازهاها للسكنى القصور التي يبنيها صاحبها في اسبانيا (اي الاشتغال بعالم الخيال) وان ما يبعد السعادة من طريقنا عدم قناعتنا بما يحصل في اليد ونغتبط به فمعرفة السعادة هي حسن استعمال ما في الحياة من صالح وعدم مطالبتها بما لا تستطيع ان تمنحه

ولربما رأينا زوجين تكدر عيشهما بعد اقترانهما بقليل لان الزوجة نظرت الى ارفع منها مقاماً فحسدتهن وارادت بمال زوجها تنافسهن فما هي الا عشية اوضحاها حتى تحمل بعلها

(١) عربناها بالحرف نثراً على ان بعض شعرائنا يعربونها شعراً

عَلَى الاحتيال للعاشر ليأتيها بما تريد لبذخها واسرافها فيترك سنن الاقتصاد والبساطة ويحاول ان يسعد امرأته اكثر من اسعاد الفطرة لها فما هو الا ان تسود الدنيا في عينيه وعينيها ويضطر الى الابتعاد عنها في طلب مظاهر الرفاهية واذا رزقا اولاداً لا يكون منهم غير تنغيص العيش والشكوى عَلَى حين هم شمامة الانس وريحانة النفس ·

ليس لك من الحياة الا ما اعددته وكثيراً ما نكون نحن العاملين على شقائنا بانفسنا فبقليل من العقل والخبرة كان في وسع هذه المرأة التي جعلت حياتها بيدها لمجاهدة البؤس ان تكون بزواجها اسعد مما هي وكان لزوجها بشيء من المضاء والعمل وحسن السلوك بدلاً من ان يعيش في البؤس ان يصبح ذا مقام متناسب مع ذوقه واصله وامانيه ولو صحت نية تلك الام عَلَى ان يكون لها حنان حقيقي لاستطاعت ان تحسن تربية ابنائها الذين هم علة شقائها وربما خجلها ·

الحياة دار ممر لا دار مقر لا يقف فيه السائر فالواجب التقدم عَلَى الدوام والاكتفاء بجني الزهور التي تصل يدنا اليها بسرعة عَلَى الطريق ونحن سعداء اذا لم نكن ممن اصابت ايديهم شوك وعوسج واذا كنا ممن خانتنا السعادة فعلينا ان نجعل سرور غيرنا علة لسرورنا انفسنا وعلينا ان نعمد الى صالح الاعمال بدون جزاء وان لا نبتعد قط عن خطة الواجب ننظر في مرآة ماضينا بدون الم لوجداننا وعلينا حتى نسعد ان ننظر الى تحتنا الا الى من فوقنا ولا نكدر عيشنا بخوف ما يحدث وربما لا يحدث فكم عذاب يارباه يحدث لنا من الشرور التي لا تلحقنا تبعتها ·

فالعاقل يستمتع بما ملكت يداه وينظر الى المستقبل باسماً ويقول ان الحياة زائلة والايام معدودة فلماذا لا اغتنم السعادة الحاضرة · فاذا طرق البؤس بابي ذات يوم انلقاه باحتشام رجل عرف الاستمتاع بالايام الرائقة · وقليل في الناس اليوم من يرضون بما قسم لهم بل يطلبون ارقى منزلة مما هم فيها ويطمحون الى اسباب ليست لهم ومن موجبات الاسف ما تسمعه من شكاوي الناس الذين يشكون مما لا يشتكى منه وليس ابؤسهم اثر الا في مخيلتهم او في اطماعهم التي لا تشبع وهم ابداً في خيبة مهما أُعطوا ولو عقلوا لكانوا سبب سعادة للبائسين في الامور التي يشكون منها ويتحبون · قال فوستل دي كولانج المؤرخ « ان الواسطة الوحيدة لسعادة الانسان هو ان لا يفكر في نفسه بل يعمل لغيره وان ينصرف بكليته الى عمل يعتقد نفعه فالبشر لم يجدوا حتى الآن اسباباً تؤتيهم السعادة والملاذ تعزف عنها النفس بسرعة والمطامع لاحد لها فالاخلاص هو الذي فيه الهناء

والجزاء في ذاته »

اذا نقص شيء مما تريد ففكر فيمن لا يملكون شيئاً في هذه الدنيا . ذهب احد الفقراء لزيارة احدى الاماكن المقدسة ولم يكن له حذاء فمشى عَلَى الادغال والشوك يدمي رجليه والحصا يضرسها وكان طول طريقه يشكو سوء طالعه وقلة ذات يده قال انه لما وصل الى المكان المقصود رأى زواراً اتعس حالاً منه رأى اعمى لاساق له فقال بعد ان رأيت ما رأيت لم اعد اشكو من فقدي حذاء البسه في رجلي

عمر الحيوانات

قليل في الناس من يعلمون كم تعمر الحيوانات فالحصان يعيش خمساً وثلاثين سنة والبقر ثلاثين في الاكثر ويبلغ البغل سن الستين والكلب لا يصل الا الى الخامسة والعشرين والهر الخامسة عشرة ومثله العنز والغنم وقد شوهد خنزير عمره عشرون سنة ولكن من النادر ان يبقوا عليه بل يذبحونه والارنب قد يعيش من ثماني الى عشر سنين ويعيش الديك الهندي والدجاج البري (الغرغر) اثنتي عشرة سنة وذكر البط قد يبلغ الثلاثين وصغار الطير كالحباشة والعصفور وحسون لا تتجاوز الخامسة والعشرين اما الغراب فانه كما يقول علماء الحيوان يعمر عمراً طويلاً

الجبن السريع

اذا اردت ان تعمل من اللبن الحليب جبناً في الحال بدون ان تستعمل الروبة التي يطول امرها متى مزجت باللبن فعليك باستعمال السعتر البري تمسح به الاناء النظيف الذي تضع فيه الحليب ثم تصبُّ عَلَى الاثر اللبن الذي يجمد في الحال

تدوير الساعات

افضل وقت ليدور الانسان ساعته ان يوقت لها وقتاً يربطها فيه كل يوم في الميعاد المعين ومن الناس من يختارون المساء ومنهم من يختارون الصباح لربطها والصباح افضل اذ تكون الساعة في النهار معرضة للحركة اكثر من الليل فاذا كان عهدها بالرباط قريباً تظل بقوتها الى آخر النهار ثم لا تزال تضعف في الليل الى صباح اليوم التالي وبذلك تستقيم جريتها وحركتها

طرد الجرذ والفيران

عليك بدهن ثقوب الجرذ والفيران بزيت النعنع فانها تكره رائحته كثيراً وذلك اسهل من استعمال السم لقتلها

تدخين الحيوانات

يقولون ان الجمل والهجين يحبان دخان التبغ ومتى أُغويا به يسهل ان يحملا الاثقال ويطلب منهما كل صعب المنال وفي افريقية الشمالية يعمد من يقودون ذينك الحيوانين الى استهوائهما بالتدخين فيخضعان لكل ما يراد منهما ومتى صح العزم على قطع الابعاد الشاسعة بهما يعطونهما لفائف يدخنونها فيسيران احسن سير ويكون مع قوادهما في الغالب قطعة من الخشب مثلثة الشكل يجعل في طرفها المثقوب لفافة والخشبة في فم الحيوان فاذا شعلت اللفافة يمص دخانها ويرسله من منخريه حتى ينتهي منه ويطبق الجمل والهجين عيونهما في خلال شرب الدخان شاعرين بلذة فائقة وانس غريب

بيوت الرمل

وقر في الاذهان ان البيوت التي تبنى على الرمل لا بقاء لها حتى اصبح ذلك من امثالهم . نشأ ذلك مما ورد في بعض الكتب المقدسة من المقارنة بين من بنى بيته على الرمل ومن بناه على الصخر على ان آخر الآية ان الامواج عاث على ذاك البناء فانهار ولو بنيت البيوت في رمل جاف متين لما استطاعت صروف الايام ان تقوضها واهرام مصر اصدق دليل على ذلك لانها بنيت على الرمل وهي لم تتزعزع منذ الوف من السنين

الهر في يابان

كتب احد الباحثين ان الهر نقل من الهند الى الصين ومن هذه الى اليابان وهو في الصين معدود من الحيوانات الاهلية منذ زمن طويل .وفي كتب الصين القديمة وصف مطول لاخلاقه وهو هناك يتوفر على ابادة الفيران من الحقول التي تسطو على الزرع وفي سنة ١٢١٢ من التاريخ الياباني الموافقة لسنه ٥٥٢ للتاريخ المسيحي اخذوا في يابان يقدمون ضحايا للقطط وقد تبين له ان القط دخل يابان يوم دخل المذهب البوذي وذلك لوقاية المخطوطات الصينية التي تبحث في الاخلاق من سطوات الفيران وكانت العادة قديماً ان تجعل القطط في المعابد وكثيراً ما كانوا يرسمون صورها في المحال التي تألفها الفيران

حمل الاحمال

يحمل الناس احمالهم في البلاد الجبلية على الجزء الاسفل من ظهورهم او على اصلابهم وذلك بواسطة سير من جلد يجعلونه من امام الصدر او بقد يربطونه على الجبين بحيث ينتفع بعمل اعصاب النقرة ومن النساء الفلاحات من يحملن جرار الماء على رؤوسهن

وعَلَى العكس في سكان الجبال فانهم يحملون الاحمال الثقيلة عَلَى رؤوسهم حتى تنزل قدة الحمل عَلَى الجسم ولكن اذا حمل هكذا في الصعود الشديد يتعرض للسقوط الى الامام • اما الاشياء الخفيفة او المتوسطة فيتأتي حملها بالذراع وعَلَى الورك والكتف مباشرة او بواسطة ميزان كما هو الحال في الشرق الاقصى • ومن النادر ان يحمل الحمالون في البلاد السهلية عَلَى ظهورهم واذا فعلوا فانهم يجعلون الحمل عَلَى الجزء العالي من الظهر ولا يقربونه من الصلب كما يفعل الجبليون • وهذا كله ناشئ من تركيب الارض التي يعيش فيها المرء فترى ابن الجبال ربعة مجموعاً قصيراً ولذلك يحمل حمله عَلَى صلبه حتى لا يتعرض للسقوط وترى ابن السهل طويل القامة نحيف الجسم اهيف فيحمل الاثقال عَلَى جنبه او يرفعه كثيراً غير متخوف عليها السقوط

البوسنة والهرسك

كان في البوسنة والهرسك الى سنة ١٩٠٦ نحو ثمانين الف مزرعة وارض زراعية لا يملكها العاملون فيها من الفلاحين بل هي ملك للسادة والاغوات يعطيهم الفلاح ثلث غلاتها وقد اخذت حكومة النمسا تبتاع تلك الاراضي من اربابها ولكن عَلَى طريقة بطيئة والغت اكراه الاولاد عَلَى العمل بالطرق الاهلية وكان يقضى من قبل عَلَى كل ولد من سن السادسة عشرة الى العشرين ان يسخر في الطرق واستعاضت عن ذلك بتكاليف وضعتها عليهم ومنحت الولايتين مجلساً نيابياً مصغراً •

اخلاق الكوريين

عادات اهل كوريا من اغرب العادات فهم لا يعرفون الخياطة وبدلاً من ان يخيطوا البستهم وثيابهم يصمغونها بصمغ السمك وهم لا يعرفون الفرش بل يستعملون بدلاً منها الواحاً من الورق المزيت لطيفة الملمس وآكلهم بسيط للغاية ومادته الاصلية عبارة عن الارز ولحم الخنزير ولحم الكلب وهم عَلَى قرب بلادهم من بلاد الصين لا يعرفون الشاي بتة واهم صناعات كوريا الورق وهو اهم الصادرات الى يابان ثم القيشاني والفخار يصنعونه بذوق غريب • اما وسائط النقل فهي عَلَى الفطرة الاصلية فترى المركبات فيها قليلة جداً والكرامي التي تحمل هي خاصة بالاغنياء والمتمولين وقلة الخيل والحمير استعاضوا عنها في حمل الاثقال بالثيران • والمرأة في كوريا محترمة للغاية ولكنه ينظر اليها كما ينظر للطفل وهي لا تسأل عن الجرائم التي تقترفها •

بكور الطيور

جاء في احدى المجلات الافرنجية ما مثاله معرباً : الطيور اكثر منا بكوراً في العادة نعي التي تتولى ايقاظنا في ساعات لا تكاد تختلف ولا بأس بالوثوق بهما فطير البرقش (الشرشور) يستيقظ في شهر حزيران ويأخذ بالتغريد نحو الساعة الثانية بعد نصف الليل وابو زريق في الساعة الثانية ونصف والسلوى (سمانات) في الساعة الثالثة والبلبل في الثالثة ونصف والشحرور يغرد منذ الساعة الثالثة ونصف الى الساعة الرابعة والمتغليب يبدأ في الرابعة ونصف وابو زريق المستنقعات ربما تأخر تغريده الى الخامسة بسبب برودة المكان الذي هو فيه والضباب المتكاثف عليه . والعصفور الدوري هو اكسل الطيور ينتبه من وكنته في الخامسة ونصف ولكنه يملأ الفضاء بتغريده . هذه ساعة الطيور ومن اراد الاعتماد عليها في اوقاته فعليه ان يسكن الغابات ويتمتع باصوات هذه المخلوقات لا يخاف دركاً ولا يخشى والاجدر ان لا يجعل الطائر الذي يروق السمع بتغريده في قفص بل ان يبقى كما يريد من البيت واكثر الطيور انيسة للغاية وتحب مجتمع الناس اذا وقع في نفسها انه لا تمس حريتها . واحسن الطرق لجعل صغار الطيور ويبوضها في مأمن من مخالب الهررة وغيرها من الحيوانات الغاصبة ان تضع حزمة من الشوك والعوسج في جذع الاشجار التي تناط بها الاعشاش والطيور المغردة تطربنا بنغماتها وهي من اعظم الاعوان على نجاح الزراعة

الاعمار والعقليات

في مجلة المطالعات البيتية ما تعريبه: ان علاقة الاعمار بالاعمال الذهنية وتأثيرها هي من المسائل التي جرت المناقشة فيها كثيراً ولم تنجل عن نتيجة حتى اليوم . فمن المفيد من ثم ان نأتي على هذا الاحصاء الذي اورده احد العلماء وقابل فيه بين اعمار زمرة من الرياضيين والشعراء والمصورين فاورد في المقدمين لايبنز الذي عمره ٧٠ سنة واوليرا ٧٦ سنة ولاكرانج ٧٧ ولابلاس ٧٨ وكوس ٧٨ وافلاطون ٨٢ ونيوتن ٨٥ وارخميدس ٧٥ وفيثاغورس ٩٠ واورد من الشعراء والمصورين بندار الذي عاش ٨٠ سنة وسوفقلس ٩٠ واريبدس ٧٥ وسيمونيدس ٨٩ وشوبير ٧١ وميشل آنج ٩٠ والتيتين ٩٩ ونوردورت ٨٠ ولاتدور ٨٩ فمعدل الحياة بموجب هذه الارقام ٧٩ سنة لرجال العلم و٨٥ سنة لغيرهم .

فهذا الاحصاء يرضي القائلين بان الاشغال العقلية لا تختصر حبل الاجل اما القائلون بعكسه فيقولون لك بالاحصاء ايضاً ان رفاييل مات في سن الـ ٣٧ سنة وموسه

في ال٤٧ وهيجزيب مورو في ال٢٨ وشكسبير وبرون في سن الشباب وغيرهم ماتوا في زهرة العمر · وعليه فان احسن شرح لما تقدم ان يقال ان الارتقاء في الامور العقلية في الاكثر نتيجة الصحة الجيدة وان القوة الطبيعية هي التي تطيل الاجل في حين ان هذه الاشغال العقلية نفسها تقصر اعمار ضعاف الاجسام وتقودهم في الاغلب الى اشد حالات الاضطرابات الدماغية

ابادة الجراد

لم ير الباحثون حتى الآن في طبائع الجراد واضراره بالمزروعات والاشجار بحيث يقضم الاخضر واليابس الا ان تتوفر العناية على جمع بذوره قبل ان تفرخ وتبيض كما يفعل المستعمرون في بلاد مراكش والجزائر حيث يكثر الجراد فيجرد كل خيرات البلاد معظم السنين ·

دواء التهزيل

كثير من النساء من يريد التخلص من السمن الذي يعاجلهن قبل الاوان فتضيق به انفاسهن وتتأذى به نفوسهن ليصبحن رشيقات ممشوقات · والذريعة الى ذلك ان يعمدن الى تمرين عضلي بسيط للغاية فاذا احبت المرأة ان تصغر وركيها فعليها ان تضطجع على الارض مستطيلة ووجهها على الارض وترفس برجليها مرات ثم تنهض وترفع ساقيها ثانية لما بحيث تكون ساقها على صورة زاوية قائمة مع قامتها وتظل تعمل هذه الحركة بساقيها خمس دقائق كل مرة · وفي الاسبوع التالي تقف منتصبة وتضع ذراعيها وراء ظهرها وتحمل شيئين ثقيلين تربطهما بطرفي حبل وفي الاسبوع الثالث تصعد الى حتى ركبتيها وتمد الساق الثانية مداً مستطيلاً وتضع يدها مفتحة على الارض وذراعها الآخر وراءها وفي الاسابيع التالية تحني بدون ان تثني ركبتيها بحيث تمس اطراف اصابعها اطراف رجليها ولا بأس من الاعتماد على كرسي في بداءة هذه الرياضة فقط ويستغنى عنه فيما بعد · ثم تقفز بعد ذلك مستندة الى اطار (طارة) واسع وهو احسن من الحبل الذي يقفز به · حتى اذا اكتست المرأة ثياب الزينة تنتصب مستقيمة وتمد ذراعيها ثم تستنشق الهواء بكل ما فيها من قوة ثلاث مرات وبهذه الواسطة يهزل جسمها بحول الله وقوته وتغدو رشيقة القوام — انتهى معرباً عن مجلة البيوت



القضاة والنواب

١

صحيفة من تاريخ القضاء

ترى الناس على اختلاف مذاهبهم ونحلهم واجناسهم مجمعين علي انتقاد اعمال القضاة والنواب شاكين كل حين من ظلمهم وغدرهم على ان العدل والامن والراحة العامة وتأمين الحقوق في ايديهم وحياة الامة وعمران الوطن وسعادته تتوقف على اصلاحهم فهم على ما هم عليه من المكان من حيث الدين والدنيا نرى اكثرهم كانوا من اكبر المخربين في هذا المجتمع الانساني وقد تيسر لي اختبار اعمالهم وافعالهم فرأيت ان اكتب شيئاً عنهم غير اني لم اقدم عليه قبل الرجوع الى امهات الكتب الدينية والوقوف على حقائق هذا المنصب العظيم ٠

وقد انشأت هذه المقالات بعد ان طالعت مقدمة ابن خلدون وحاشية ابن عابدين وتكملته والاشباه والنظائر والاحكام السلطانية وتاريخ الطبري وتاريخ الكامل لابن الاثير ورحمة الامة في اختلاف الائمة والميزان للشعراني وسراج الملوك وغيرها ولذلك ارجو من وجد غرابة في بعض اقوالي ان يرجع الى هذه الكتب المهمة ٠

القضاء

القضاء لغة : الحكم ويجيء بمعنى الفراغ والاداء واما القضاء شرعاً فهو فصل الخصومات وقطع المنازعات غير انه مظهر للامر الشرعي لا مثبت ٠

كان النبي صلى الله عليه وسلم وحياً يوحى لا ينطق عن الهوى ولذلك لم يكن قضاة في زمانه وفي مقر نبوته لانه كان يأتي بالحكم او يحكم مثلما يوحى اليه غير انه عليه السلام لما بعث معاذ بن جبل الى اليمن ارسله اليها عاملاً وقاضياً وبعث علياً الى جهة اليمن عاملاً وقاضياً فكان امر القضاء ممتزجاً مع الامارة في زمان النبوة ولما صار ابو بكر الصديق رضي الله عنه خليفة قال له ابو عبيدة انا اكفيك المال يعني الجزاء وقال عمر انا اكفيك القضاء فمكث عمر سنة ولم يخاصم اليه احد فكان عمر اول قاض في المسلمين .

ولما تولى الخلافة ادرك ان توسع امر الفتح وكثرة الاشتغال بالسياسة يؤخره عن القيام بالقضاء ولى ابا الدرداء معه في المدينة وولى شريحاً في البصرة وولى ابا موسى الاشعري بالكوفة وكتب له كتابه المشهور الذي تدور عليه احكام القضاة وهي مستوفاة وفيه يقول :

« اما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا ادي اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له واس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً احل حراماً او حرم حلالاً ولا يمنعك قضاء قضيته امس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقاً غائباً او بينة امداً ينتهي اليه فان احضر بينة اخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه فان ذلك انفى للشك واجلى للعماء . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حد او مجرباً عليه شهادة زور او ظنيناً في نسب او ولاء فان الله سبحانه عفى عن الايمان ودرأ بالبينات واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكر والسلام »

وكان الخلفاء الراشدون يباشرون امر القضاء بانفسهم ويقلدون القضاء عمالهم مع الامارة ولما ازداد الفتح واتسعت الممالك وتوفرت الامور السياسية وكثر الاشتغال بها وصارت مدافعة الاوطان ذات بال وعظم امر الجهاد ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية به اخذوا يولون القضاء غيرهم تخفيفاً على انفسهم غير انهم كانوا يقلدونه

اهل عصبيتهم بالنسب ومواليهم ولا يقلدونه من بعد عنهم ·

وكانت وظيفة القاضي في صدر الاسلام محصورة في الفصل بين الخصوم فقط ثم اتسعت وحينما تفرد الخلفاء بالسياسة صار لهم مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين واهل السفه وفي وصايا المسلمين واوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء على رأي من رآه والنظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب والتحقيق عن احوالهم ليحصل له الوثوق بهم وقد كان الخلفاء من قبل يحولون للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج الى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدين منها ·

وقد بلغ منصب القضاء مقاماً عالياً وكان في مقر الخلافة قاض يقال له قاضي القضاة وكانت ولايته عامة وكان في كل مدينة وحتى في كل جهة من بغداد وقاض لكل مذهب قاض في المدن الكبرى وكان قضاة ينظرون في مخاصمات الحريم فقط ·

كان الخلفاء الامويون والخلفاء العباسيون في اول امرهم لا يولون القضاء الا لاهله وكانوا يرغبون في علم القاضي وعقله وفضله وكمالاته ويولون القضاء للمعتزلي والظاهري والشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي وكان بين القضاة من مزج المذهبين في خطته ولما تسلط المماليك على خلفاء بني العباس وصار لهم الامر والنهي واصبحوا سلاطين مطلقين في مقر الخلافة اخذوا يتداخلون في القضاء مع انه من حقوق الخلافة الصريحة وساروا يولون من يشاؤون فاضاعوا حقوق الله وحقوق عباده وهتكوا حرمة الدين ·

ثم ولى معز الدولة بن بويه ابا العباس عبد الله بن الحسن بن ابي شوارب القضاء بالالتزام فضمنه هذا الخبيث على ان يؤدي كل سنة مائة الف درهم وكان اول من ضمن القضاء فغضب الخليفة المطيع لله ولم يقدر على عزله غير انه اكتفى بمنعه عن الدخول عليه وامر بان لا يحضر الموكب ثم عزل بعد عامين وتقلد القضاء مكانه ابو بشر عمرو بن اكثم وعفا عما كان يحمله ابن ابي الشوارب من الضمان عن القضاء وامر بابطال احكامه وسجلاته غير ان ابا الشوارب فتح هذا الباب وصار امر القضاء بالضمان في بعض الاحيان وصار مثالاً سيئاً فاصبحت الحسبة والشرطة تولى بالضمان وهذا من اسوإ ما ارتكبه السلاطين في ايام بني العباس · وكان من اهم اسباب انقراض امرهم ومن اعمالهم ان بهاء الدولة قلد النقيب ابا احمد والد الشريف الرضي نقابة العلويين

بالعراق وقضاء القضاة والحج والمظالم وكتب عهده بذلك من شيران فامتنع الخليفة من تقليده قضاء القضاة وامضى ما سواه . وهكذا فسد امر القضاء وقلّ من تولاه من ارباب العفة والاستقامة .

وكان بعض الزهاد المتقين من الفقهاء يمتنعون عن قبول القضاء لما يشاهدونه من الفساد في تلك الايام ويشغل بعض ارباب الفضل هذا المنصب حفظاً لاحكام العدل والدين فمنهم ابو بكر محمد بن المظفر الشامي تولى قضاء القضاة في بغداد ولم يأخذ عَلَى القضاء اجراً واقر الحق مقره ولم يحاب احداً ورد شهادة احد الفقهاء لانه لبس الحرير وكان السلاطين يومئذ يعظمون القضاة رئاء الناس لمنصبهم الشرعي ولكنهم كانوا يرغبون في تولية الجهال والفاسدين حتى يسيطروا عليهم ويتيسر لهم بذلك اخراج القضاة من مجالسهم فاستقلوا بآرائهم واستبدوا باحكامهم فهذا هو البلاء المبرم والقضاء المحكم فلا حول ولا قوة الا بالله .

ولاية المظالم

٣

ولاية المظالم او نظر المظالم . وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء فهذه الوظيفة تحتاج الى علو يد وعظيم رهبة لتقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدي من المتنازعين ولذلك كان شروط الناظر فيها ان يكون جليل القدر نافذ الامر عظيم الهيبة ظاهر العفة قليل الطمع كثير الورع وتكون هذه الصفات في ولي العهد او وزير مفوض او امير الاقاليم وقد تكون الولاية عامة وتكون مقيدة بما عجز عن انفاذه القضاة .

نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم المظالم في الشرب الذي تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الانصار ولم ينتدب للمظالم من الخلفاء الاربعة احداً لانهم في الصدر الاول مع ظهور الدين كان الناس يرتدعون بالوعظ فلم يكن بينهم اعتداء ولا خلف الا عَلَى امر اشتبه به غير ان علياً رضي الله عنه لما تأخرت عنه الامامة واختلف الناس فيها سلك هذه الطريق واستقل بها وبعد حين اخذ الناس يجاهرون بالظلم والتغالب ولا يصغون الى الوعظ واحكام القضاء .

فبدأ خلفاء بني امية ينظرون في المظالم واول من خصص لها يوماً عبد الملك بن مروان وكان يرجع في الاحكام الى قاضيه أبي ادريس الاودي فكان ابو ادريس المباشر وعبد الملك الآمر ثم زاد جور الولاة وظلم العتاة زيادة لم يكفهم عنها الا اقوى

الايدي وانفذ الاوامر .

وكان عمر بن عبد العزيز اول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها وراعى السنن العادلة ورد مظالم بني امية على اهلها حتى قيل له وقد شدد عليهم فيها واغلظ انا نخاف عليك من ردها العواقب فقال : « كل يوم اتقيته واخافه دون يوم القيامة لاوقيته »

واول من جلس للمظالم في بني العباس المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم المأمون خصصوا لها يوماً يقال له يوم المظالم ودام نظر الخلفاء فيها الى عهد المهتدي .

كان الخلفاء يباشرون النظر في المظالم بانفسهم ورفعها بعضهم احياناً الى قضاتهم فعمر بن عبد العزيز كان يوكل قاضيه ابا ادريس الخولاني والمأمون يوكل يحيى بن اكثم والمعتصم يوكل احمد بن ابي دؤاد .

وكان الخليفة يستكمل يوم المظالم مجلساً حافلاً من خمسة اصناف لا يستغني عنهم ولا ينتظم النظر الا بهم احدهم الحماة والاعوان لجذب القوى وايقاع الهيبة وثانيهم القضاة والحكام لاستعلام مايثبت عندهم من الحقوق ومعرفة مايجري في مجالسهم بين الخصوم والثالث الفقهاء ليرجع اليهم فيما اشكل ويسألهم عما اشتبه واعضل والصنف الرابع الكتاب ليثبتوا ماجرى بين الخصوم وما توجه لهم او عليهم من الحقوق والصنف الخامس الشهود ليشهدهم على ما اوجبه من حق وامضاه من حكم .

واما وظائف ولاية المظالم فهي عَلَى عشرة اقسام القسم الاول النظر في تعدي الولاة عَلَى الرعية وظلمهم فينظر فيهم ان وجدهم منصفين قواهم وان وجدهم ظالمين كف اذاهم واستبدلهم القسم الثاني النظر في جور عمال المال وجباته فيرجع فيه الى القوانين العادلة في دواوين الائمة فيحمل الناس ويأخذ العمال بها ويرد الزيادة ولو دخلت بيت المال القسم الثالث النظر في احوال كتاب الدواوين والمستخدمين لانهم امناء المسلمين وايقافهم عَلَى حدودهم .

القسم الرابع النظر في تظلم المرتزقة من نقص ارزاقهم وتأخرها فيرجع الى ديوانه في فرض العطاء العادل ويدفع الحقوق الى اهلها ويعزل من ابطأ واخطأ .

القسم الخامس النظر في الغصوب فيرجعها الى اصحابها سواء كان الغاصب السلطان او الحكام او من آحاد الناس فيكتفي بالقيود الرسمية والسجلات السلطانية في غصب هؤلاء واما اذا كان الغاصب من ذوي النفوذ والايدي القوية فيرجع اليه باعتراف الغاصب واقراره او بعلم والي المظالم او بينة او بتظاهر الاخبار الدافعة للشكوك .

القسم السادس النظر في الوقوف (الاوقاف) ٠

القسم السابع تنفيذ ما وقف القضاة من احكامها لضعفهم عن انفاذها وعجزهم عن المحكوم عليه لتعززه وقوة يده او لعلو قدره وعظم خطره ٠

القسم الثامن النظر فيما عجز عنه الناظر في الحسبة في المصالح العامة ٠

القسم التاسع النظر في مراعاة العبادات الظاهرة كالجمع والاعياد والحج والجهاد من تقصير فيها او اخلال بشروطها فان حقوق الله اولى ان تستوفى وفروضه احق ان تؤدى ٠

القسم العاشر النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين فلا يخرج في النظر بينهم عن موجب الحق ومقتضاه ولا يسوغ ان يحكم بينهم الا بما حكم به الحكام والقضاة ٠

واما الفرق بين نظر المظالم وبين نظر القضاة فهو على عشرة اوجه احدها ان لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة في كف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التعدي ٠

الثاني ان نظر المظالم يخرج من ضيق الوجوب الى سعة الجواز فيكون الناظر فيه افسح مجالاً واوسع مقالاً ٠

الثالث انه يستعمل فصل الارهاب وكشف الاسباب بالامارات الدالة وشواهد الاحوال اللائحة ما يضيق عَلَى الحكام فيصل به الى ظهور الحق ومعرفة المبطل من المحق ٠

الرابع ان يقابل من ظهر ظلمه بالتأديب ويأخذ من بان عدوانه بالتقويم والتهذيب ٠

الخامس ان له من التأني من ترداد الخصوم عند اشتباه امورهم واستبهام حقوقهم ليمعن في الكشف عن اسبابهم واحوالهم ما ليس للحكام ٠

السادس له ان يصالح الخصوم بواسطة الامناء وليس للقاضي ذلك الا عن رضى الخصمين بالرد ٠

السابع ان يفسح في ملازمة الخصمين اذا اوضحت امارات التجاحد ويأذن في الزام الكفالة فيما يسوغ فيه التكفل لينقاد الخصوم الى التناصف ٠

الثامن انه يسمع من شهادات المستورين ما يخرج عن عرف القضاة في شهادة المعدلين ٠

التاسع يجوز له تحليف الشهود عند اتيانه بهم ويستكثر على عددهم وليزول الشك عنه وليس ذلك للحاكم .

العاشر يجوز له ان يبدأ باستدعاء الشهود ويسألهم عما عندهم في تنازع الخصوم وعادة القضاء تكليف المدعي احضار بينة ولا يسمعونها الا بعد مسألة .

فقد اتضح لك مما تقدم ان احكام ولاية المظالم تكون في البينات والتقرير واعتماد الامارات والقرائن على خلاف القضاء .

كان في الاسلام وظيفة دينية اخرى من الوظائف الشرعية وهي النظر في الجرائم واقامة الحدود كانت هذه الوظيفة في الدولة العباسية والاموية كما بالاندلس ودولة العبيديين بمصر والمغرب راجعة الى صاحب الشرطة فهذا له ان يوسع النظر فيها عن احكام القضاء قليلاً فيجعل للتهمة في الحكم مجالاً ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة .

وكانت ولاية المظالم والجرائم للخلفاء او لمن يجعلون ذلك له من وزير مفوض او سلطان متغلب ثم تنوسي شأن هاتين الوظيفتين في بعض الدول وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها وظيفة التهمة على الجرائم واقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين وكان في زمان الدول المذكورة حاكم يحكم فيها بما تقتضيه السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية ويسمى تارة باسم والٍ وطوراً باسم الشرطة والقسم الثاني التعازير واقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعاً فجميع ذلك مع ما تقدم ذكره في المقالة الاولى للقاضي وهكذا استقرت وظائف القاضي وكانت كما تراها مع بعض تحولات .

كما انه انقسمت ولاية المظالم والجرائم في زماننا بين محاكم الادارة والمحاكم الجزائية .

القضاء في الدولة العثمانية

٣

كان السلطان عثمان الغازي موسس هذه الدولة ورعاً ديناً يستخدم قضاةً وحكاماً للنظر في الامور الشرعية والقيام باحكامها ولما تولى الملك ابنه اورخان الغازي طلب من الشيخ علاء الدين الاسودي رجلاً يقوم بمصالح الناس الشرعية في اسفاره فاوصاه بقره خليل افندي جندرلي فاتخذه قاضياً لبروسة عاصمة ملكه ثم جعله قاضياً على العسكر وخصه باموره ولما آنس منه اختباراً في السياسة استوزره وسماه خير الدين

باشا ونصب رستم افندي مكانه قاضياً للعسكر ٠

وفي زمان السلطان بايزيد الاول تولى العالم محمد شمس الدين افندي منصب الفتيا في قاعدة السلطنة للنظر في الامور الشرعية وجمعها في مركز واحد فاصبح المفتي ناظراً عاماً عَلَى جميع العلماء والقضاة والمدرسين وقد بدأ تنظيم مراتب العلماء الحالية ونظامهم في زمان محمد الفاتح على انه لم يكن حتى في آخر زمانه سوى قاضٍ واحد للعسكر ولما كثرت الاعمال قسم القضاء عَلَى قسمين فصار قاضي عسكر للروم ايلي وقاضي عسكر للاناضول وجعل الفاتح جلال زاده خضر بك قاضياً عَلَى استانبول ومفتياً في مركز السلطنة وذلك عقيب فتح الاستانة ٠

وبعد حين تولى العالمان الشهيران ابن كمال باشا وابو السعود افندي منصب الفتيا بعدما كانا قاضيين للعسكر ثم اخذ يطلق عَلَى منصب الافتاء مقام المشيخة الاسلامية واصبح منصب الافتاء فوق منصب قاضي عسكر الروم ايلي وقاضي عسكر الاناضول وجعلت له رئاسة الطرق العلمية ونظارة المحاكم الشرعية واصبح مقام شيخ الاسلام معادلاً لمقام الصدارة العظمى وصار يقال لشيخ الاسلام (ولي النعم) وعدامر المعارف والعدل من حقوق مقام المشيخة واخذ طلبة العلوم عندما يجزون دروسهم عَلَى الطريقة القديمة يقيدون اسماءهم في جريدة الدولة فيغدون قضاة ٠

ولم تكن مناصب قاضي عسكر وقضاء استانبول وقضاء ادرنه توجه الا عَلَى اكبر المدرسين ومنتهى رتب التدريس رتبة المولوية بيد ان هذه الوظائف كانت مقرونة بالعمل والقاعدة ان ينالها المرء بحسب قدمه ولكن قوة الوساطة والشفاعة والرشى صارت تؤهل الجاهل لبلوغ تلك المناصب فدخل الفساد فيها حتى اصبح القضاء العوبة بايدي التجارة وصعاليك الناس وانشأ من ينال شهادة الملازمة بوسائط غير مشروعة يصل بها الى القضاء ٠ وكان قاضي استانبول اكبر مأمور شرعي بعد قضاء العسكر وله النظر في امور البلدية وشؤون ارباب التجارة والحرف ٠

قلنا ان احكام العدل كانت من وظائف مقام المشيخة وان الدعاوي تنظر في المحاكم الصغرى واما الدعاوي الكبرى فينظر فيها امام قاضي عسكر وكان الديوان الهمايوني بمنزلة محكمة كبرى فوق المحاكم ينظر في امور الدولة والامور الشرعية معاً ثم تغيرت صورة هذا الديوان وانفردت امور الدولة عن مصالح الرعية فاخذ القاضيان يجتمعان في غرفة العرض مرتين من كل اسبوع وينظران في الدعوى التي تعذر حلها في

المحاكم الصغيرة وكان يقال لهذا المجلس « حضور مرافعه سی »

واصبح هذا المجلس في سنة ١٢٥٤ يلتئم بحضور شيخ الاسلام وفي عهد المرحوم عبد المجيد لما كان عارف افندي شيخ الاسلام غدا انتخاب الحكام تحت نظام وفتح مكتب النواب عام ١٢٧٢ وشرط ان يكون النائب من متخرجي هذه المدرسة وفي سنة ١٢٧٤ تألف مجلس التدقيقات الشرعية واصلح في سنة ١٢٨٩ واصبح تدقيق الصكوك والاعلامات من وظائف باب الفتوى .

وبعد ذلك انقسم مستخدمو الشريعة الى قسمين الاول للفتوى والثاني للقضاء وصار في مركز كل ولاية ولواء وقضاء مفت وغدا المفتي مرجعاً لحل الامور الشرعية وعد شيخ الاسلام المفتي الحقيقي وشرط في الافتاء ان لا تعطى الفتوى لارباب المصالح قبل تصديق شيخ الاسلام عليها واما امر القضاء فامره لشيخ الاسلام يتولاه من السلطنة اومقام الخلافة غير ان مجلس انتخاب الحكام ينتخب الحكام وشيخ الاسلام يصادق عليه عند تقبيلهم ذيله ثم تكتب المراسلة ويختمها قاضي عسكر من ظهرها فوق التوقيع وعلى هذا فقد حصر امر القضاء في قاضي عسكر الروم ايلي وقاضي عسكر الاناضول وقاضي الاستانة وقاضي غلطة وقاضي الخواص الرفيعة وقاضي مكة وقاضي المدينة وغدا قاضي عسكر الاناضول قاضياً على آسيا وافريقية وقاضي عسكر الروم ايلي قاضياً على الروم ايلي واما بقية البلاد فيحكمها نواب هؤلاء القضاة فلكل مركز ولاية نائب ولكل مركز لواء نائب ولكل مركز قضاء نائب ولبعض النواحي نواب فنواب آسيا وافريقية نواب قاضي عسكر الاناضول واما نواب الروم ايلي فهم نواب قاضي عسكر الروم ايلي وللمنصب النيابة رتب منها خامسة ورابعة وثالثة ومسبوق ومستخدم الخ .

وترك الخيار في مراجعة المحاكم لارباب الدعاوي وتقرر استئناف الاحكام في مجلس التدقيقات الشرعية وتمييزها في مقر الفتوى والتمييز قبل الاستئناف خلافاً للاحكام النظامية فالحجج والاعلامات ينظر فيها بعد تدقيق توقيعها وختم خاتمها فان وافقت الاصول الشرعية ترسل الى مجلس التدقيقات الشرعية .

ثم جعلت محكمة (التفتيش) في نظارة الاوقاف للنظر في دعاوي الاوقاف ومحكمة « القسمة العسكرية » للنظر في دعاوي الارث وتحرير الشركة وتقسيمها وعين مفتش الاوقاف حاكماً في محكمة التفتيش ومدته سنة والقسام العسكري حاكماً لمحكمة القسمة العسكرية واختصت محكمة التفتيش بدعاوى توجيه الجهات والتولية والمحلولات

واستئنافها بمجلس التدقيقات الشرعية واما القسام العسكري وقسام بيت المال فملحقان بقاضي عسكر الروم ايلي وليس لقاضي الاستانة سوى النظر في دعاوي الطلاق والنكاح والنفقة والمنازعات المتعلقة بالكدكات . واما سائر المحاكم الشرعية فلها ان تنظر في دعاوي النكاح والطلاق والنفقة والحضانة والحرية والرق والقصاص والدية والارش والوصية والارث والاقراض بالدور الشرعي والدعاوي الوقفية المتعلقة برقبة المسقفات والمستغلات والكدكات من الاوقاف الصحيحة ودعاوي الايتام والدعاوي المتعلقة برقبة الاوقاف الصحيحة التي هي من ذات الاجارة الواحدة او ذات الاجارتين هذه الدعاوي في الامور الشرعية مشوشة من حيث المرجع تحتاج الى اصلاح حقيقي .

اوصاف القضاة الشرعية ٢

القضاء فرض كفاية وسنة متبعة لا يجوز ان يقلد الا من تكاملت فيه شروطه وذلك بان يكون رجلاً بالغاً عاقلاً صحيح التمييز جيد الفطنة بعيداً عن السهو والغفلة حراً مسلماً عادلاً صادق اللهجة ظاهر الامانة عفيفاً عن المحارم متوقياً المآثم بعيداً عن الريب مأموناً في الرضى والغضب صاحب مروءة في دينه ودنياه سالم السمع والبصر ليصح بهما اثبات الحقوق وان يكون عالماً بالاحكام الشرعية وعلمه بها يشمل علم اصولها والارتياض بفروعها .

واما اصول الاحكام الشرعية فهي اربعة احدها علمه بكتاب الله عز وجل حق معرفته والثانية علمه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة من اقواله وافعاله وطرق مجيئها والثالثة علمه بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا فيه ليتبع الاجماع ويجتهد برأيه في الاختلاف والرابعة علمه بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها الى الاصول المنطوق بها والمجمع عليها حتى يجد طريقها الى العلم باحكام النوازل ويميز الحق من الباطل .

فاذا احاط علمه بهذه الاصول الاربعة للاحكام الشرعية عد فيها من اهل الاجتهاد في الدين وجاز له ان يفتي ويقضي وان اخل بها او بشيء منها خرج من ان يكون من اهل الاجتهاد فلم يجز ان يقضي ويفتي وجوز ابو حنيفة تقليد القضاء من ليس من اهل الاجتهاد ليستفتي في احكامه وقضاياه واختلف اصحابه فمنهم من وافقه ومنهم من خالفه والذي عليه جمهور الفقهاء ان ولايته باطلة واحكامه مردودة .

ويقول ابن هبيرة في الايضاح « انما عني بالاجتهاد لما كان عليه الناس في الحال الاولى قبل استقرار مذاهب الائمة الاربعة فالقاضي الآن وان لم يكن من اهل الاجتهاد ولا تعب في طلب الاحاديث وانتقاد طريقها لكن عرف من لغة الناطق بالشريعة عليه الصلاة والسلام مالا يحتاج معه الى شروط الاجتهاد وانما على القاضي ان يقضي بما يأخذه من الائمة او عن واحد منهم فانه في معنى من كان اداه اجتهاده الى قول قاله وعلى ذلك فانه اذا خرج من خلافهم متوخياً مواطن الاتفاق ما امكنه كان آخذاً بالحزم عاملاً بالاولى ويجب عليه الاخذ بالاكثر والعمل بما قاله الجمهور دون الواحد فانه يأخذ بالحزم مع جواز عمله بقول الواحد الا انني اكره له ان يكون مقتصراً في حكمه على اتباع مذهب ابيه او شيخه فلو عدل عما اجتمع عليه الائمة الثلاثة الى ما ذهب اليه ابو حنيفة بمفرده من غير ان يثبت عنده بالدليل ما قال ولا اداه اليه اجتهاده فاني اخاف عليه من الله عز وجل ان يكون اتبع في ذلك هواه ولم يكن من الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ·

ثم قال : لو اهملت هذا القول ولم اذكره ومشيت على ما عليه الفقهاء من انه لا يصلح ان يكون قاضياً الا من كان من اهل الاجتهاد لحصل بذلك ضيق وحرج على الناس فان غالب شروط الاجتهاد الآن قد فقدت في اكثر القضاة ولذلك ان ولاية الحكام جائزة وان حكوماتهم صحيحة نافذة وان لم يكونوا مجتهدين والله اعلم اه »

وبهذا علمت ان قد جوز ابن هبيرة قضاء من لم يكن من اهل الاجتهاد وذلك في زمانه ولكنه لم يجوز قضاء الجهال ولو نظرنا الى قوله لادركنا ان القاضي اذا لم يكن من اهل الاجتهاد يجب عليه ان يكون قريباً من درجته ليتمكن من ترجيح القول الراجح والقول الموافق ولو على غير مذهبه فان ائمة الدين والفقهاء المحققين اوصوا باختيار القول الراجح ولو كان على غير مذهبه « لان التقليد الاعمى في احكام الشرع محظور والاجتهاد فيها مستحق » ·

نهى الشارع عن طلب القضاء وقد ضرب السلف الصالح وحبسوا ليتولوا القضاء فلم يقبلوا وجوز بعضهم طلب القضاء في حالتين احداهما ان يكون القضاء في غير مستحقه اما لنقص علمه واما لظهور جوره والحالة الثانية ان لا يكون في القضاء ناظر وهو خال من وال · وطلبه لاحتياجه مباح وان كان لاقامة الحق فهو مستحب وان كان طلباً للجاه فهو مكروه ·

واتفق الائمة الاربعة والفقهاء المتقدمون والمتأخرون عَلَى ان القاضي اذا اخذ القضاء بالرشوة لا يصح قضاؤه واذا حكم لا ينفذ حكمه ويجب نقضه واجمع الفقهاء عَلَى ان القاضي اذا ارتشى لا ينفذ قضاؤه فيما ارتشى فيه . وقال السرخسي لا ينفذ كلها .

ولا يجوز للقضاة اخذ العائدات والمحصول ولو احتجوا باذن موليه لان ابن عابدين انكرها كل الانكار وذكر في الخيرية ان من التزم القضاء عَلَى مبلغ معلوم فهو كافر والعياذ بالله ولا يصح الاحتيال لحصول القضاء . واما القضاء بظلم او رشوة فيوجب العزل والتعزير وقد منع القاضي من قبول الهدية والاستعارة والاستقراض وسائر ما يتبرع به ويمنح ويجب رد الهدية الى صاحبها او لبيت المال اذا لم يعلم صاحبها وعدم القبول هو المقبول . واذا فسق القاضي عزل ولا يكون القاضي فظًا غليظًا جبارًا عنيدًا وكره تحريمًا اخذ القضاء لمن خاف الظلم والعجز عن اقامة الحق والعدل .

ولاية القاضي مقيدة بالزمان والمكان والحوادث وتكون ولايته عامة او خاصة في بعض المسائل او عَلَى احد المذاهب وله ان يستخلف نوابًا اذا فوض اليه صريحًا كولِّ من شئت او دلالة كجعلتك قاضي القضاة ولا يصح للقاضي او النائب ان يحكم بما خالف الدليل لانه لا ينفذ ولو حكم به الف قاضٍ واما قضايا القضاة فهي عَلَى ثلاثة اقسام الاول حكمه بخلاف النص والاجماع فهو باطل ينقض والثاني حكمه فيما اختلف فيه فهذا ينفذ وليس لاحد نقضه والثالث حكمه بشيء يتعين فيه الخلاف بعد الحكم فيه اي يكون الخلاف في نفس الحكم فقيل نفذ وقيل توقف عَلَى امضاء قاض آخر فلو ابطله الثاني بطل وان امضاه فليس لقاض آخر نقضه .

واما منزلة القضاة من حيث الآخرة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة اثنان في النار وواحد في الجنة رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ورجل عرف الحق فلم يقض وجار في الحكم فهو في النار ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس عَلَى جهل فهو في النار فانظر الى ما كانت عليه احوال القضاة واحكامهم تعلم منازلهم .

ويسرنا ان نرى الحكومة الدستورية اخذت تعنى بانتخاب من توفرت فيهم الشروط الشرعية وفقها الله .

احوالهم الاخيرة

٥

في المقالة الثالثة ان مدرسة النواب أسست لتخريج نواب قادرين عَلَى القيام بما

يعهد اليهم من الوظائف عارفين باحكام الشريعة غير انني حتى الآن لم اصادف بين من اجتمعت بهم من المتخرجين في المدرسة المذكورة عالمًا بوظائفه واحكام الشريعة كما يجب الا القليل منهم وهذا مما يدل على ان ذلك المعهد العلمي غير كاف وفي حاجة عظيمة الى الاصلاح ومع ذلك فاننا نرى كثيرين من النواب تخرجوا بكتابة المحاكم الشرعية وربما يتعلم هؤلاء الكتابة وتنظيم الاعلامات والصكوك والحجج الشرعية وضبط الدعوى وتصير مفهم ملكة المعاملات غير انهم يخبطون في احكامهم خبط عشواء و يجمعون من مجلة الاحكام العدلية وكتب الفتاوى مايجدون كحاطب ليل واغرب من ذلك ما صادفته في بر الاناضول وذلك ان النواب هنالك يستخدمون نوابًا لانفسهم جوالين (سيار نائب) ثم يأخذونهم الى باب المشيخة و يجعلونهم نوابًا بالوسائط التي بلغوا المناصب بها وقد شاهدنا بام العين نوابًا لم يكونوا ممن انتسب الى العلم ·

فالنواب حينما يذهبون الى الاستانة في طلب التعيين ينتظرون زمانًا طويلاً و يتكبدون نفقات طائلة ويقاسون انواع العذاب ولا يحصلون على نيابة الا بعد ان يصرفوا ما جنوه من اموال العباد في خلال نيابتهم الاولى فيخسرون ما جمعوه وتبقى عليهم حقوق العباد وعذاب الواحد الديان واغلبهم يصل الى النيابة اما بطرق غير مشروعة واما بشفاعة غير جائزة وندر من غدا نائبًا بطرق سهلة ·

واما رواتبهم فهي قليلة في اكثر انحاء المملكة وقلما تقوم بنفقاتهم ولذلك تراهم منصرفين الى ادخار الاموال ليصرفوها في طرقهم واقامتهم بالاستانة واخذ النيابة ولهذا السبب ايضًا ترى هممهم تزيد العائدات التي انكرها الفقهاء على ان المشيخة الاسلامية تركت تلك العائدات للكتبة فالنواب يشاطرونهم اياها حتى على تزكية الشهود ونفقات الطريق واجرة القيد وما يسمونه الدلالية والقرطاسية ولا يسع الكتاب الا السكوت والرضى لانهم اذا امتنعوا عن اعطاء القسم الاعظم من العائدات تهددوهم بالعزل وعدم اصدار الاعلامات وحل المخاصمات بلا ضبط فحينئذ اما ان ينعزل الكاتب واما ان يحرم من العائدات وقد تزيد هذه العائدات على رواتب النواب في اغلب الاحيان وتشغلهم كثيرًا وتدعوهم الى احالة الدعاوي الحقوقية الى المحكمة الشرعية ·

فهذه العائدات على قسمين قسم مقيد في دفتر الخزينة فما يتجاوز الخمسمائة من هذا القسم يكون مشتركًا بين النواب والخزينة وما كان دون الخمسمائة يكون حق النائب والكاتب لذلك لو دققت دفاتر الخزينة في كل الجهات ترى عدد العائدات قلما

تجاوزت الخمسمائة واما القسم الثاني فذلك مادخل كيس النائب والكاتب من غير ان يقيد بصندوق الخزينة وهذه الاجور والعائدات مصرح بمقاديرها في نظام اموال الايتام غير ان الشريعة المطهرة لم تأمر بها عَلَى اننا لو نظرنا الى حقائق الشريعة وما يقتضيه الدين والصلاح نرى ان امر القضاء فرض كفاية كحفظ القرآن لا يستحق الاجرة كما فعل ابو بكر بن المظفر الشامي وغيره ولقد افتى الفقهاء المتقدمون بتخصيص رواتب معلومة من بيت المال لتفرغهم عن المكاسب واشتغالهم بمصالح الناس وانكروا تناول العائدات وقالوا ان الراتب يجب ان يكون كافياً ·

لو نظر المرء الى « المراسلة » التي تنبيء بنيابتهم وتصرح بوظائفهم تحت توقيع القاضي عسكر وجد ان عمل النواب محصور بانفاذ الاحكام الشرعية عامة وبشدة الاعتناء في تحرير التركة ·

واما التركة التي يجب تحريرها فهي تركة رجل مات عن صغير او غائب اومات عن غير وارث او اذا كان الميت مستغرقاً بالديون او اذا طلب احد الورثة تحرير تركة ابيه والغرض من ذلك حفظ حقوق الورثة واخص بالذكر منهم الايتام وقد رأينا النواب مسارعين الى تحرير التركات غير ان السبب الحقيقي الذي يدفعهم الى هذه السرعة هي العائدات والنفقات التي يأخذونها فنواب الاناضول تستخدم النواب الجوالين في تحرير التركات فيطوف هؤلاء القرى ويفتشون القبور والمدافن ويستخبرون عن الاموات فعند ما يعلمون بوفاة احد يجب تحرير تركته يحررونها فيتألم الورثة واهل القرية وتستولي عليهم الكآبة والاحزان فوق حزنهم غير انهم لا ينطقون ببنت شفة لان النائب المجول جاء باسم الدين والحكومة ولم اشهد هذه الحالة في البلاد السورية لان تحرير التركة هنا يتولاه النائب بنفسه او يرسل رئيس كتابه ·

واما تحرير التركات في مراكز الولايات فذلك من شأن نائب النائب وكتبة الحاكم فهؤلاء يستخدمون جواسيس واعواناً يطوفون في البلدة ويستخبرون عن الاموات من المغسلين والحفارين ولما يعلمون بتركة تستحق التحرير يذهبون اليها مهرولين فهنالك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى عَلَى الايتام فتؤخذ الاشياء الثمينة والنادرة بثمن بخس واسم مستعار وترسل الى بيوت النواب والكتبة ثم يحسبون اجرة الدلالة والقيد واجرة اعلامات الديون واعلامات الصلح واجرة دفتر القسام واجرة اقدامهم لانهم كلفوا انفسهم وتعبوا في حفظ حقوق الايتام والورثة · وبعد ذلك يضمون

الطوابع والاوراق الحجازية ويأخذون كل هذه النفقات من ثمن التركة فيصبحون بذلك شركاء الورثة وربما اخذوا اكثر من الورثة وهذا الامر يكاد يكون عاماً واما سوء الاستعمال في الادانة والاستدانة وثبوت الرشد فحدث عنه ولاحرج وندر النواب الصالحون الذين لا يمسون اموال الايتام ·

ولا يخفى ان الله سبحانه وتعالى منع مس اموال الايتام بتاتاً وصرح بمنعه في آيات عديدة واتفق الفقهاء والعلماء عَلَى تحريم اخذ اموال الايتام حتى حرموا الجلوس عَلَى كراسيهم واثاثهم واستعمال اوانيهم ولست ادري عَلَى اي كتاب واي قول واية نص يأخذون هذه العائدات والاجور فان قيل ان في ذلك فتوى اقول ولا ابالي ان لا مساغ للاجتهاد في مورد النص واجماع الأمة والفقهاء وعَلَى ما اظن ان تلك العائدات وضعها وجوزها القضاة والنواب الذين كانوا يأخذون مناصبهم بطريق المزايدة والالتزام ·

وزد عَلَى ذلك كله ان النواب اعضاء في مجالس الادارة ومجالس القرعة العسكرية ولجنة الفراغ ورؤساء للمحاكم البدائية الجزائية ومحاكم الحقوق ودائرة الاجراء ولهذا لا يفترون عن الاستفادة الغير المشروعة من كل مسألة لهم فيها علاقة فالناس والمستخدمون يتألمون مما يشاهدونه من سوء استعمالهم في قسم الجزاء فيحكمون عَلَى بريء ويبرؤن الجاني ويتركون الاشقياء والمجرمين ويحبسون المساكين وتسهيلاً لمقاصدهم يجعلون غرفة الاستقبال في بيوتهم محكمة شرعية عَلَى ان الفقهاء صرحوا بان القضاء يقام في اكبر الجوامع او في محل خاص في منتصف البلدة فلو نظرنا الى التاريخ لعلمنا ان اهم المدارس بدمشق كانت مقراً للقضاة وان المدرسة العادلية كانت مقراً القاضي المذهب الشافعي

نظرة في اصلاحهم

٦

ذكرنا ان المشيخة الاسلامية عبارة عن الفتيا وان الفتيا والقضاء من حقوق الخلافة والامامة الكبرى وان المفتي يخبر عن الحكم الشرعي والقاضي يلزم به عَلَى ان كل عالم يستطيع ان يفتي بما يفتي به المفتي لان الفتوى لا تتضمن الحكم والالزام ولا يجوز لعالم ولا لمفت ان يحكم بما حكم به القاضي مع ان للقاضي ان يفتي ويستخلف امناء ونواباً ولم ار حتى الآن عبارة او قولاً فقهيه يشار به الى استخلاف المفتي نواباً اوالى تداخله في تعيين النواب لانهم نواب القاضي لا نواب المفتي وامر الاستخلاف يتوقف عَلَى

اذن الخليفة .

ذكرنا ان مجلس انتخاب الحكام ينتخب النواب وشيخ الاسلام او مفتي الانام يأمر بتوظيفهم وقضاة العسكر يوقعون على مراسلاتهم ليكونوا نوابًا لهم توفيقًا للاحكام الشرعية ومن ذلك يظهر ان القاضي هو الذي يستخلف النواب وقد عجبت لحصر القضاء في قضاة العسكر وابقاء هذا التعبير لان هؤلاء القضاة هم في الحقيقة قضاة عامة المسلمين والامة ليست بامة مسلحة على اننا لو نظرنا الى التواريخ علمنا انه كان في كل مركز ولاية قاض وفي اعظم مراكز الالوية قضاة وانه كان في المدن الاسلامية الكبرى قضاة لكل مذهب ولذلك ارى ان يكون في مركز كل ولاية وفي مركز بعض الالوية المهمة قاض وان يكون شيخ الاسلام قاضي القضاة يرجع اليه جميع القضاة وان يكون للقضاة حق استخلاف النواب باذن من الخليفة فيصبح امر تعيين النواب بيد قضاة الولايات فيتخلص هؤلاء من العناء والذهاب الى الاستانة ولا مانع من جعل مدة النواب اربع سنوات لان ذلك امر اجتهادي ثم يجب ان يؤلف مجلس من فحول علماء المسلمين تحت رئاسة قاضي القضاة ينتخبون القضاة من بينهم فيه لحق على انتخابهم قاضي القضاة ويعرضهم على الخليفة لتصدر ارادته بتعيينهم وينتخب لمنصب قاضي القضاة ثلاثة علماء من هذا المجلس او من غيرهم باكثرية الآراء والخليفة يختار واحدًا منهم يجعله قاضي القضاة .

واهم ما يجب اصلاحه مكتب النواب والرأي توحيده مع شعبة العلوم الدينية في دار الفنون العثمانية واصلاح الدروس وتعيين افاضل المعلمين ليخرج فيه نواب افاضل ومفتون ومدرسون عالمون ويكون هذا المكتب اعلى قسم لمكتب استعدادي ينشأ في دمشق ويكون هذا مخرجًا لتلاميذ القسم العالي والغرض من الاستعدادي تعليم النواب اللغة العربية التي لا غنى للنواب عنها اذا كانوا يرغبون في تطبيق اعمالهم على احكام الشريعة ثم تسهيل التحصيل على الفقراء لكثرة المدارس والاوقاف بدمشق وعندما يتم التلميذ التحصيل في المدرسة الاستعدادية يذهب الى الاستانة ليدخل مدرسة النواب ويجوز قبول المتخرجين في المدارس الرسمية الاستعدادية وطلاب العلم بالامتحان وعندما ينال التلميذ شهادة القسم العالي يستخدم على حسب استعداده وعلمه ويكون له حق الترفيع .

ويجب ان يكون مقر الحكم في دائرة رسمية لا في بيوت النواب ولا يجوز انفراد

النواب في الحكم لانه غير معقول ولا يوافق مقتضيات زماننا وناهيك بما نشاهده من سوء احوال النواب · وورد في الكتب الفقهية ان للقاضي امناء يعينونه في الحكم فهؤلاء هم في الحقيقة اعضاء ولا فرق في المعنى كما انه لا اعتبار للالفاظ فان شئت سميهم امناء وان شئت سميهم اعضاء ومن ثم يجب ان يكون مع كل نائب في القضاء امينان عالمان ومع كل نائب في الولاية واللواء اربعة امناء اكفاء ويسأل هؤلاء الامناء عن الحكم ويجعل النائب رئيساً لهم فاذا رأوا حكم الرئيس مخالفاً للاحكام الشرعية يكونون في حل ان يعترضوا ويصرحوا باسباب الاعتراض تحت توقيعهم فالمفتي والمدرس الذين تقرر تعيينهم اخيراً يكونان امناء نائب القضاء والمفتي والمدرس وعالمان في مركز اللواء ومركز الولاية يكونون امناء قاضي او نائب اللواء وقاضي الولاية ·

واذا نظرنا الى انواع قضايا القضاة الثلاثة التي سبق ذكرها واخص بالذكر منها القسم الثالث الذي يتوقف حكمه على امضاء قاض آخر فان بطله بطل وان صدق عليه نفذ ندرك ان حكم القاضي من اي قسم كان من هذه الاقسام الثلاثة يحتاج الى تدقيق ولذلك يجب تمييز اعلام محكمة القضاء في محاكم اللواء او الولاية بحسب البعد والقرب واعلام الولاية يميز في مركز السلطنة اذا كانت الولاية قريبة من العاصمة ويدقق الحكم فاما ان ينقض لمخالفته احكام الشريعة واما ان يصدق عليه اذا كان موافقاً فيصير حكماً مقضياً ·

ولا بأس بتوحيد المحاكم الشرعية والمحاكم الحقوقية وجعل الامناء اعضاء في كلا المحكمتين ·

ويجب حينئذ اصلاح احكام المجلة بحسب الاحوال والزمان والمكان والحكم الذي لا يوجد في المذهب الحنفي قد يوجد في مذهب المالكي وقد سبق الذكر بان القاضي لا يحصر حكمه في مذهبه واتباع هواه فحينئذ تتألف لجنة من افاضل علماء المذاهب الاربعة فينقحون المجلة ويصححون اقوالها المرجوحة ويجعلونها جامعة للاحكام الدينية الصريحة ولا شك بانهم يجدون الاحكام الموافقة للعقل والنقل والزمان ·

ويكون الامناء مسلمين بيد انه اذا حدثت قضية بين مسلم وغير مسلم او بين غير المسلمين تجوز استنابة اعضاء المحاكم الجزائية والتجارية من غير المسلمين اثناء المحاكمة لان الامام الاعظم وغيره من الفقهاء صرحوا بجواز حكم الذميين بين اصحاب مذاهبهم (١)

(١) الاحكام السلطانية ٦٢ وحاشية ابن عابدين ٤ ٣١ و ٣١٢

ومن لا يرضى بالحكم فله ان يميز دعواه في محكمة اخرى واذا عرف الحكام بالعدل والانصاف لا يمتنع احد عن قبول احكامهم لان العدل يرضي كل انسان اما المسائل المذهبية فتترك لرؤسائهم الروحية بحسب القواعد الصلحية ٠

هذه نظرات اساسية لقواعد يجب وضعها في اصلاح النواب والقضاة فيجب بادئ بدء تأليف مجلس العلماء الذي اشرنا اليه ليبحثوا في الاحوال والزمان والمكان ثم ينظرون في احكام القرآن والحديث وفي الكتب الفقهية والمدونات فيقررون قواعد تحفظ بيضة الدين وقواعد الاسلام وترفع شأن المسلمين ٠ شكري العسلي

قضاء الفرد وقضاء الجماعة

« من خطبة لرفيق بك العظم القاها في مدرسة القضاء الشرعي في القاهرة »

ليس المراد بقضاء الجماعة هو قضاء هيئة مؤلفة من اكثر من واحد فقط كما قد يتبادر الى الذهن بل هي بالمعنى المشترك ايضاً جعل قوة التشريع القضائي مصونة عن رأي الافراد وتفردهم بالتشريع منوطة بالجماعة تثبتاً من الحكم واطمئناناً للدليل واعتماداً على ما هو الاصلح عند الجماعة اذا تعذر وجود النص ٠

ان مراعاة الاصلح قاعدة من اهم قواعد الشرع الاسلامي التي يدفع بها الحرج وتدرأ المفاسد عن المجتمع حتى لقد كان كبار الصحابة يراعون قاعدة الاصلح عند الضرورة مع وجود النص ويتنازعون على المسألة الواحدة يجيء بها النص من عدة روايات او يحتاج الى التفهم الدقيق تثبتاً من الحكم ورغبة بمحض الخير للامة والعدل بين المتقاضين وبذلاً للجهد في بيان الحقيقة للمستفتين وقد قال ابن القيم تنازع الصحابة في كثير من الاحكام ولكن لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الاسماء والصفات والافعال ٠ اي المسائل التي تتعلق بالايمان ٠

قلنا ان المراد بقضاء الجماعة جعل قوة التشريع القضائي في حياز جماعة لا فرد لان ذلك اسلم وابعد عن الخطأ واضمن للعدل وسببه ان الاحكام التي يرجع فيها الى الرأي والاجتهاد او القياس عند تعذر وجود النص او عند لزوم ترجيح رواية من

الروايات تحتاج الى شروط قلما تتوفر في الفرد الواحد وان توفرت له فربما لا يتيسر له تحري المصلحة وتطبيق الحكم عليها من كل وجه بحيث لا يخالفه فيه غيره ممن هو في طبقته من اهل العلم .

اعتبروا ذلك في ائمة المذاهب المجتهدين فانه مع بذل كل واحد منهم في تقرير فروع المذهب واصوله منتهى الجهد في تحري صحيح الآثار والاخبار وتتبع اصول الشريعة فقد اختلفوا في كثير من المسائل واختلف اتباعهم بعد ذلك اختلافهم ايضاً فكان من ذلك انقسام القضاء الاسلامي عَلَى نفسه حتى وجد في بعض العصور اربعة قضاة لاربعة مذاهب في مصر واحد من الامصار الاسلامية هذا فضلاً عن اختلاف فقهاء كل مذهب ايضاً في المسألة الواحدة حتى اصيب الافتاء بما أُصيب به القضاء من التشتت والانقسام واضطرب امر العدالة ايما اضطراب مع ان الاصل لهذه المذاهب واحد وهو الدين الاسلامي المبين .

لهذه العلة الخطرة كان الصحابة الكرام لا يستنكفون عند الاستفتاء من حدهم ان يحيل بعضهم عَلَى بعض او يستشير بعضهم بعضاً في تقرير الحكم كما ثبت ذلك في كتب السنة خوف الوقوع في خطأ يجر الى مظلمة او اثم ولا سيما فيما يحتاج فيه الى العمل بالاجتهاد والرأي .

لما كانت الشرائع مبنية عَلَى درء المفاسد وجلب المصالح والشريعة الاسلامية احرى الشرائع برعاية هذين الامرين فقد سن الشارع ايقاف العمل بالنص مراعاة لمصلحة ولكن عند الضرورة القصوى وثبوت المصلحة ولزومها عَلَى وجه لا يقبل الشك في ان المصلحة تترتب عَلَى العدول عن النص اكبر من المصلحة التي تترتب عَلَى العمل به واستن بسنته صحابته والخلفاء الراشدون من بعده فكان ذلك شرعاً ايضاً فيه تيسير عظيم على المسلمين واليكم الدليل .

في حديث لابي داوود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى ان تقطع الايدي في الغزو . وانتم تعلمون ان القطع حد من حدود الله لم يستثن النص القرآني منه الغزاة لكن النبي نهى عن اقامته في حال مخصوصة خشية ان ينشأ عنه مضرة وهي لحاق صاحبه بالعدو وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم عدة اخبار اخرى من هذا القبيل لا محل لذكرها هنا وهي مبسوطة في كتب الحديث .

وقد استن الصحابة بسنته واوقفوا الحدود في احوال مخصوصة تدعو اليها الضرورة

جاء في كثير من كتب الاخبار ان عمر كتب الى الناس الا لا يجلدن امير جيش ولا سرية ولا رجل من المسلمين حدا وهو غاز حتى يقطع الدرب لئلا تلحقه حمية الكفار .

وروى ابن القيم في اعلام الموقعين عن ابن حاطب بن ابي بلتعة ان غلمة لابيه سرقوا ناقة لرجل من مزينة فأتي بهم عمر فأقروا فأرسل الى عبد الرحمن بن حاطب فجاء فقال له ان غلمان حاطب سرقوا ناقة رجل من مزينة واقروا على انفسهم فقال عمر يا كثير بن الصلت اذهب فاقطع ايديهم فلما ولى بهم ردهم عمر ثم قال اما والله لولا اني اعلم انكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى ان احدهم لو اكل ما حرم الله عليه حل له لقطعت يديهم وايم الله ان لم افعل لاغرمنك غرامة توجعك ثم قال يا مزني بكم أريدت منك ناقتك قال باربعمائة قال عمر (اي لعبد الرحمن) اذهب فاعطه ثمانمائة .

وغير هذا فقد اسقط عمر الحد في عام المجاعة للضرورة وتجاوز ابو بكر عن خالد بن الوليد في حادثة مالك بن نويرة اذ قتله دون تثبت من اسلامه كما تجاوز عنه رسول الله (صلعم) قبل ذلك بما صنعه ببني جزيمة لما ارسله داعياً لا محارباً فذهب اليهم وحاربهم وقتل وسبى منهم فبرئ رسول الله من عمله الى الله ولم يؤاخذه به وما ذلك الا لحسن بلاء خالد في الحروب وخدمته العظيمة في الاسلام وكذلك اسقط سعد بن ابي وقاص الحد عن ابي محجن في حرب القادسية وقال والله لا اضرب اليوم رجلاً ابلى للمسلمين ما ابلاهم .

والشواهد على هذا من اعمال النبي واصحابه كثيرة لا يتسع لها مقام الخطابة ولعل هذه القاعدة سوغت بعد لبعض الحكومات الاسلامية التجاوز عن الحدود والعقوبات المدنية كالسن بالسن والعين بالعين وابدلت بها العقوبات الادبية كالحبس والتغريم مثلاً لضرورة تغير الزمان اولفشو المنكرات فشواً لم ينجع في تأديب مرتكبيها الاحبس حريتهم في السجون او غير ذلك من الدواعي والاسباب الزمانية .

ليس فيما ذكر غض من مقام الشريعة او مس لاصولها المقدسة مادام من اصولها وقواعدها ايضاً العدول عن النص عند ثبوت المصلحة او درء المفسدة باقل ضرر منها والشريعة كما تعلمون مبنية على المصلحة وقد سبق الله تعالى رسوله والائمة من بعده الى تقرير قاعدة مراعاة الاصلح وهو ما يسمونه النسخ وما هو بنسخ وانما هو تقرير حكم اقتضته مصلحة زمان وحال غير حكم آخر في زمان تقدمه واحوال اقتضته كحكم جهاد .

المشركين من العرب في مبدإ امر الدعوة لحمايتها وحماية المسلمين من اعدائهم واعدائها وفيه الاذن بقتالهم حتى يقولوا لااله الا الله ثم تقرير حكم آخر بعده اي بعد ان انتشرت الدعوة وقوي جماعة المسلمين وصاروا في مأمن من غائلة الضعف وهو حكم الدعوة بالتي هي احسن ٠

وبالجملة فان ملخص ما تلوته عليكم ينحصر كله في المقدمات الآتية :

(اولاً) ان القضاء في العصر الاول كان مرجعه نصوص الشريعة اي اصولها التي قررها الشارع واجتهاد الصحابة والتابعين فيما لم يرد به نص ٠

(ثانياً) ان الاحكام التي جاءت عن الشارع لم يكن في استطاعة فرد واحد حفظها او يتعذر عَلَى الواحد الاحاطة بها فاحتيج في القضاء الى استشارة حفاظها ٠

(ثالثاً) ان الصحابة كانوا قد يختلفون في المسألة الواحدة اما في تطبيق النص اوفي مسوغ الحكم اذا كان اجتهادياً تثبتاً من وضع الشيء في محله بجهد الامكان ٠

(رابعاً) انهم كانوا يعدلون عن النص عند الضرورة الداعية وفي احوال مخصوصة تدعو اليها المصلحة التي بني عليها الشرع اقتداء بالشارع ٠

(خامساً) ان ورعهم وتقواهم وخوفهم من الوقوع فى الاثم كل هذا كان يدعوهم الى عدم الانفراد بالحكم ومشاركة خيار المسلمين وعلمائهم في تطبيق الاحكام اذا كانت اجتهادية على القياس الصحيح او الرأي السالم من خطأ الفرد ٠

هذه المقدمات تنتج نتيجتين مهمتين احداها ان القضاء في الاسلام كان قضاء الجماعة لا قضاء الفرد والثانية ان الشريعة الاسلامية بما تقرر فيها من قاعدتي الاجتهاد ورعاية الاصلح كانت من الشرائع التي توافق كل زمان ومكان وتجيز لكل ضرورة حكماً يوافق مقتضى المصلحة والحال وان خالف النص مع اعتبار هذه القاعدة شرعاً ايضاً خلافاً لما يتقوله عليها المتقولون من انها شريعة ضيقة توافق زماناً غير زماننا هذا ومكاناً غير مكان الامم الراقية لهذا العهد فهي اذا صلحت لاهل هذا العصر لا تصلح لعصر تسير شرائعه مع مقتضيات المدنية الحديثة وحاجاتها سيراً تدريجياً في كل ما يقتضيه ترقي الجمعيات ٠ ومنشأ تقولهم هذا الجهل بحقيقة الشريعة الاسلامية وعدم الوقوف عَلَى اصولها وقواعدها وكلياتها يساعدهم على ذلك ما يرونه من تعصب بعض علماء الشريعة المقلدين لما جاء في كتب الفروع دون الاصول وردهم لكل مالم يرد فيها من اسباب التيسير وان ورد فى اصول الشريعة وكلياتها مع ان في كتب الفروع من

الاحكام التي لا تستند الى دليل قطعي مالا يعدو مبناها الاجتهاد او الرأي والقياس ومع هذا فانهم يفضلون العمل بهذه الاحكام عَلَى الرجوع الى اصل الشريعة مهما كان فيها من التقيد والتضييق عَلَى انفسهم والامة ومهما ترتب عَلَى ذلك من التهم الباطلة التي يرمينا بها الباحثون في طبائع الاجتماع ٠

وحجة هؤلاء العلماء في هذا سد الذريعة او خوف انتشار دعوى الاجتهاد اذا فتح بابه وتطرق الفساد الى الشريعة وهي حجة معقولة ومسلّمة لا يخالفهم فيها عاقل لكن فيما لو صارت قوة التشريع او الاجتهاد الى الافراد واطلق العنان لكل قائل ان يقول هذا حكم الله ورسوله ولكل حاكم ان يحكم بما يرى و يقول ٠

ومعاذ الله ان يريد هذه الفوضى للشريعة الاسلامية عاقل قط وانما المراد ان ينظر في المسائل التي يقتضيها تغير الزمان وتجدد المصالح والحاجات عَلَى شرط عدم الوقوع في ذلك المحذور الذي يخشاه العلماء وذلك بان تناط قوة التشريع او الاجتهاد في المسائل الطارئة في كل عصر بجماعة من اهل العلم الواقفين عَلَى دقائق الكتاب والسنة والعارفين بحاجات الامة ليقرروا لها الاحكام الموافقة لمقتضي الحال ثم تنال هذه الاحكام تصديق اهل الحل والعقد فتصبح قانونًا رسميًا يتحتم العمل به في الحكومة الاسلامية التي هي في حاجة اليه لا يعدل عنه الى غيره من اقوال الفقهاء والعلماء وان مجتهدين تنضبط بهذا قوانين الشريعة و يؤمن عليها من تطرق الفساد ثم يكون من ذلك ان تجدد هذه القوانين تجديداً يغني عن الرجوع الى كتب الفقه التي تختلف في المسألة الواحدة اختلافًا كثيرًا يؤدي في كثير من الاحيان الى التشويش عَلَى القضاء ويكفي ان تكون تلك الكتب شروحًا لقوانين الشريعة المعمول بها يومئذ يرجع اليها عند الضرورة والحاجة الى تفسير نصوص ذلك القانون كما هو الشأن في مجلة الاحكام العدلية المعول عليها في محاكم الدولة العثمانية دون غيرها ٠

***

للقضاء في الاسلام دوران دور العمل بالاصول ودور العمل بالفروع وانما اخترت هذا التقسيم لاختصار الطريق او اختصار البحث خوفًا من تعب القارئ والسامع مع ان ادواره بعد دور التشريع الاول كثيرة جداً اذا اعتبرنا تقسيمه الى طبقات المفتين والمحدثين من الصحابة والتابعين ثم الائمة المجتهدين ومن بعدهم من طبقات الفقهاء والمقلدين من اتباع كل مذهب نعتبر ذلك بما قسموا اليه طبقات الحنفية مثلاً فقد

قالوا انهم ينقسمون الى ست طبقات : الطبقة الاولى طبقة المجتهدين في المذهب كأبي يوسف ومحمد وغيرهما من اصحاب ابي حنيفة القادرين عَلَى استخراج الاحكام من القواعد التي قررها الامام ٠٠

والثانية طبقة المجتهدين في المسائل التي لارواية فيها عن صاحب المذهب كالخصاف والطحاوي والسرخسي والحلواني والبزدوي وغيرهم وهم لا يقدرون على مخالفة امامهم في الفروع والاصول لكنهم يستنبطون الاحكام التي لارواية فيها عَلَى حسب الاصول ٠

والثالثة طبقة اصحاب التخريج القادرين عَلَى تفصيل قول مجمل وتكميل قول محتمل من دون قدرة على الاجتهاد ٠

والرابعة طبقات اصحاب الترجيح كالقدوري وصاحب الهداية القادرين على تفضيل بعض الروايات عَلَى بعض بحسن الدراية ٠

والخامسة طبقات المقلدين القادرين علي التمييز بين القوي والضعيف والمرجح والسخيف كاصحاب المتون الاربعة المعتبرة ٠

والسادسة من دونهم الذين لا يفرقون بين الغث والسمين والشمال واليمين ٠

***

لما اتسعت دائرة الفتح وانتشر الاسلام في الممالك القاصية وتفرق حفاظ الشريعة ورواتها في الانحاء مع اتساع دائرة القضاء بازدياد وسائل الحضارة واستبحار العمران وتجدد الحوادث التي يقتضيها تشعب المعاملات وحال الامم الداخلة في الاسلام من غير العرب ولهذا خيف من تشتت احكام الشريعة ودخول الفوضى في القضاء والافتاء احتيج بالضرورة الى امرين مهمين : الاول تدوين الشريعة في الكتب ٠ والثاني وضع قواعد للتفريع عن اصول الشريعة لتطبيق الحوادث التي تحدث في احكام المعاملات عَلَى قوانين الشرع ٠ واول من تنبه للحاجة الى هذين الامرين عَلَى ما اظن عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الاموي وسداً للحاجة الاولى امر الزهري من جلة التابعين وحفاظهم بتدوين الحديث في دفاتر وتوزيعها عَلَى الامصار في اواخر القرن الاول ففعل كما هو مشهور معروف ٠

اما الحاجة الثانية فقد شعر بها ولكن سدها بعده الائمة المجتهدون بدليل ما روي عن الامام مالك بن انس انه قال قال عمر بن عبد العزيز : يحدث للناس من الاقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور ٠

ادرك هذا عمر بن عبد العزيز وادركه الائمة المجتهدون من بعده مالك والشافعي وابو حنيفة واحمد بن حنبل وغيرهم من ائمة المذاهب التي لم يبق لها اتباع لهذا العهد كداوود الظاهري وغيره وكأئمة الشيعة الذين يعمل بمذاهبهم الى اليوم زيد بن علي وجعفر الصادق وغيرهم فلم يكتفوا بتدوين السنة في الدفاتر والكتب بل رأوا الحاجة تدعو الى البيان والتفصيل والتفريع والترتيب فعمدوا الى النظر في اصول الشريعة من الكتاب والسنة فاستخرجوا منها الاحكام ووسموها ورتبوها ودونوها كل على اصول مذهبه وقواعده واصول الاجتهاد المعروفة في كتب الاصول فضبطوا بذلك قوانين الشرع بما بلغه اجتهادهم وادى اليه جهدهم فكانت كتب كل مذهب شرعاً يعمل به اتباعه الى اليوم ٠

ولسنا بصدد اطراء هذا العمل الجليل الذي قام به اولئك الائمة الكبار وحسب هذا العمل او هذه الخدمة التي خدموا بها الامة والشرع انها تصون منزلة الافتاء والقضاء عن متناول كل من ادعى ان عنده مسكة من العلم بالدين والوقوف على السنة هذا لو احسن العلماء بعد العمل بقوانين الفقه ٠

وبعد فقد ارتكب الفقهاء متن التضييق والتوسع حتى احرجوا الامة والجأوا بعض الحكومات الاسلامية الى العمل ببعض القوانين المقررة عند الامم الاوربية خصوصاً الجنائية والتجارية ثم ان اختلاف الاقوال في المسألة الواحدة وكثرة الحواشي والشروح على القوانين والشرائع موجودة عند كل امة فالقانون الفرنساوي مثلاً له شراح من المتشرعين واشهرهم دالوز وكاربانتيه وسيريه وغيرهم كثيرون الا ان القضاء عند تلك الامم لما كان بيد الجماعة وقوة التشريع ليست من حق فرد من الافراد بل من حق الامة ونوابها فدستور العمل عندهم ما اجمعت على وضعه قوة التشريع وصادقت على قبوله الحكومة فصار قانوناً للقضاء لا يعدل عنه الى تلك الحواشي والشروح وآراء المتشرعين ويصار اليها الا لتفسير مبهم او تطبيق الحوادث بعضها على بعض ٠

لشريعة المسلمين اصول وكليات تعتبر اساساً للتشريع ومع ان احكامها مسلمة فقد كان العمل بها في عهد الصحابة بالشورى بين المتفقهين منهم هذا فيما نص منها على ما يرد عليهم من النوازل فما بالكم فيما احتاج الى الاجتهاد والتشريع بالقياس على تلك الاصول او الاستنباط منها وقد كانوا لا يحكمون حكماً الا بعد استشارة خيار الامة وعلمائها واقرارهم جميعاً على ذلك الحكم حتى اعتبر بعض الائمة المجتهدين بعد

احكام الصحابة لقوتها شرعًا او اصلاً من الاصول التي يبنى عليها التفريع سموه عمل الصحابة او اجماعهم كما سبقت الاشارة اليه وكما ترون ذلك في كتب الاصول ·

اذا كان اجماع الصحابة عَلَى مسألة شرط في صحتها واعتبارها شرعاً يلزمنا العمل به فقد لزم من هذا امران :

الاول — ان اجماع الجماعة على تقرير حكم في مسألة شرط في صحة ذلك الحكم واعتباره شرعًا لزمنا العمل به وهو ما تفعله الامم الاوربية في تقنين قوانينها لهذا العهد وقد وجد له اصل في الشرع الاسلامي فتركناه واصبحنا نغبط الامم الاوربية وقوانينها او قضاء الجماعة عندها لهذا اليوم ·

والامر الثاني ان كل اقوال الفقهاء واختلافاتهم الواردة في كتب الفروع ليست بشرع الا من حيث اشتمالها عَلَى احكام يرد بعضها الى اصول الشريعة الا انه غير متوفر فيها شرط التشريع الذي مر · واناطة ترجيح قول دون آخر من حيث قربه من الاصل بشخص واحد لا يكسب هذا القول او الحكم قوة التشريع ليسمى شرعاً او قانونًا وجب العمل به الا اذا اتفق عليه وقرره جمهور من المتشرعين او المرجحين وهذا ما اردته من وجوب بقاء الاجتهاد لكي لا ليتناوله من شاء فيما شاء · كلا بل ليناط بجماعة من علماء المسلمين تقرير الاحكام التي تدعو اليها المصلحة وتتجدد بتجدد الزمان ·

ولذا فان اجتهاد الجماعة كما انه لازم في الاصول فهو لازم في الفروع ايضاً وذلك لجمع اقوال الفقهاء عَلَى اختلاف مذاهبهم ما اصاب من تلك الاقوال محجة الصواب والمصلحة ووافق اصول الشريعة من الكتاب والسنة والاجماع والقياس الصحيح في كتاب بعينه يعتبر قانوناً في المعاملات مجمعًا عليه من العلماء ليعرف منه كل مسلم ما له من الحقوق وما عليه لا تتقاذفه اقوال الفقهاء من خلاف لآخر ومن قول لنقيضه فتصير به الى اهواء القضاة والمفتين يحكمون بما ترجح لديهم وبما يشتهون ·

وليس اختلاف المذاهب بمانع من ان يحكم للشافعي او عليه بقول للحنفية او المالكي بقول للشافعية مثلاً اذ كل اتباع المذاهب ابناء دين واحد وكل اقوال كتب الفقهاء مأخذها واحد وهو الشرع والواقع يثبت ان احكام المعاملات كانت في اكثر الممالك الاسلامية ولم تزل الى اليوم جارية في القضاء على مذهب الدولة الحاكمة وربما كان اكثر الرعية من اتباع مذهب غير مذهبها ·

ومع هذا فليس ثمة نكير من العلماء على اهل الدولة فلا سبيل لهم الى النكير على القائلين بلزوم جمع الاقوال الموافقة لمقتضى المصلحة والعصر من كتب المذاهب وجعلها قانوناً جامعاً في المعاملات للمسلمين بل هذا خير وسيلة لاصلاح القضاء ربما اغتفرت للفقهاء ماضي تفريقهم وحدة الامة باسم التعصب للمذهب وكانت خاتمة اضطراب نظام القضاء في الاسلام ·

ليس اضطراب حبل القضاء في الاسلام بجديد وليس الظلم والعسف الذي لاقاه المسلمون من حكامهم الظالمين وحكوماتهم الجائرة الا نتيجة توكئهم على ضعف القضاء خصوصاً ما يتعلق منه بولاية المظالم لا لنقص في الدين او الشريعة بل لنقص في طرق التقنين والتنفيذ ·

ان الدين الذي ينزل على الظالمين صواعق الانذار ويقرن الظلم بالشرك بالله تعالى ويأمر باقامة ميزان العدل ويريد سعادة المجتمع الذي يدين به ما كان ظالماً ولن يكون وانما المسلمون انفسهم يظلمون ·

تعلمون ان احفل العصور الاسلامية بالعلماء والمفتين والفقهاء المتشرعين وارقاها في سلم المدنية الاسلامية عصر هارون الرشيد العباسي اذ الشريعة في ابان زهوها والتفريع في مبدإ مجده والائمة المجتهدون هم القائمون بالتشريع والى كتبهم ترجع الفتوى ·

في ذلك العصر الزاهر بمجد الاسلام وامجاده العظام يرى ابو يوسف صاحب ابي حنيفة من ضعف القضاء وتسلط عمال الجور واضطراب نظام ولاية المظالم ما يلجئه الى وضع كتاب الخراج لامير المؤمنين هارون الرشيد وليس فيه الا آية او حديث او مثال من قضاء الصحابة اي كنه من اصول تلك الشريعة الطاهرة يذكره فيه بالرجوع الى قضاء الله ورسوله واصحابه او قضاء الجماعة المتين قائلا : ارجع يا امير المؤمنين الى هذه الاصول في سياسة الرعية وجباية الخراج وتوزيع الفيء ، اقعد يا امير المؤمنين بنفسك للمظالم وانصاف المحكوم من الحاكم ، ادرك الزراع فقد كاد يهلكهم الظلم فقد بلغني عن عمالك انهم يقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد وانهم يفعلون بهم ويفعلون مما لا يحل لهم بوجه من الوجوه ·

هكذا كان الحال في عصر الرشيد وائمة الشريعة احياء يرزقون فما بالكم بما جاء بعده من العصور التي صار فيها التشريع الى عدد لا يحصى من المخرجين والمرجحين والفقهاء والمفتين وكلهم يقولون قولي اوقول فلان هو شريعة الله المفتى بها والمعول عليها

وما هو الا تفكك نظام القضاء وتشتت قوة الجماعة فلا حول ولا قوة الا بالله ·

والنتيجة ان ضمان العدالة الوحيد انما هو قضاء الجماعة لا قضاء الفرد واعني ان التشريع وحده غير كفيل بالعدل في القضاء الا اذا أنيط كلاهما بالجماعة بالوضع والتنفيذ · ولا تظنوا ان هذا المطربش الواقف امامكم يريد شيئاً جديداً في الدين او قلباً لكيان الاحكام مع انه ليس من علماء الدين ولا الائمة المجتهدين ·

كلا فليس قضاء الجماعة بجديد في الاسلام بل هو من عصر الصحابة وهم واضعو اساسه المتين في الدور الاول للقضاء في الاسلام ·

اما الدور الثاني فالذي اذكره ان دولتين من دول الاسلام تنبهتا اليه وتوالتا عليه اولاهما دولة الامويين في الاندلس التي جعلت في القرن الثاني داراً في قرطبة لشورى القضاء اعضاؤها من جلة العلماء يرجع اليهم في تقرير الاحكام ·

والحق اقول اني لم اظفر بكثير بيان عن هذه الشورى لكن ما رأيته عنها في ثنايا الكتب التاريخية يكفي للدلالة عليها فقد ورد ذكرها في نفح الطيب في ترجمة بعض العلماء كقوله كان فلان مشاوراً وطلب فلان الى الشورى فأبى ونقل اليَّ ثقة عن كتاب من الاسف انه غير موجود بين يدي بل هو في مكتبة دمشق وهو كتاب الاحكام للقرطبي ورد فيه ذكر هذه الشورى بقوله ان الشورى خالفت الامام مالكاً في عدة احكام اخذت فيها بقول ابي القاسم · وفي هذا دليل كاف على انه كان لديهم سلطة في التشريع وان الدولة الاموية ثمة كانت مسددة الاعمال حتى قبيل وهنها وسقوطها حريصة على اجراء قوانين العدل بين رعيتها ·

اما الدولة الثانية التي تنبهت الى مثل ما تنبه اليه الامويون فهي الدولة العثمانية لهذا العهد فانها جمعت من علماء الامة وفقهائها الموثوق بفضلهم وعلمهم جماعة سمتهم جمعية المجلة وذلك من بضع وثلاثين سنة انتخبوا من كتب المذهب قانوناً جامعاً لاحكام المدنية وهو المعروف بمجلة الاحكام العدلية واقر على العمل به اهل الحل والعقد فصار مرجع القضاء في المحاكم الى اليوم ·

ديوان الرصافي

طبع بالمطبعة الاهلية في بيروت سنة ١٣٢٨ (ص ٢٣٠)

يعرف قراء هذه المجلة شعر معروف افندي الرصافي بماقرأوه له في مجلدات المقتبس الاربع من الشعر الاجتماعي العذب المتين الذي كان فيه الفرد المقدم في العراق والشام ايام كان الكلام يحظر على كل انسان وقد اشتهر بذلك حتى وصفه بعضهم بانه شاعر المقتبس ولا عجب فهذه المجلة تفاخر بهذه النسبة · وقد طبع هذه المرة ديوانه واكثر من ثلاثة ارباعه مما نشر في هذه المجلة عني بتبويبه الشيخ محي الدين الخياط من افاضل بيروت وقدم له مقدمة رائقة وجعله في اربعة ابواب الكونيات والاجتماعيات والتاريخيات والوصفيات ومن شعر الرصافي الاخير من قصيدة في جرائد الاستانة ·

ولم يكفها هذا الخلاف وانما اطافت بنقص للحقيقة زائد
فما بين مكذوب عليه وكاذب وما بين مجحود عليه وجاحد
ترى في فروق اليوم قراء صحفها فريقين من ذي حجة ومعاند
جدال على مر الجديدين دائم بتفنيد رأي او بتنقيد ناقد

وقال فيها :

ولم ار شيئاً كالجرائد عندهم مبادئه منقوضة بالمقاصد
يقولون نحن المصلحون ولم اجد لهم في مجال القول غير المفاسد
وكيف يبين الحق من نفثاتهم وكل له في الحق نفثة مارد

وقال من قصيدة في وصف لبنان :

لبنان تفعل بالحياة جنانة فعل الزلال بغلة الظمآن
وترد غصن العيش بعد ذبوله غضاً يميد بفرعه الفينان
فكأن لبنانا عروس اذ غدا يزهو بنشر غدائر الاغصان
وكأنما البحر الخضم سجنجل يبدي خيال جمالها الفتان
جبل سمت منه الفروع واصله تحت البسيطة راسخ الاركان
تهفو الغصون به النهار وفي الدجى تهفو عليه ذوائب النيران
وترى النجوم على ذراه كأنها من فوقه درر على تيجان

الى ان قال :

لبست ربى لبنان ثوباً اخضراً وزهت بحيث الحسن احمر قان
نثر الربيع بهن زهراً مونقا يزري بنظم قلائد العقيان
فبرزن من وشي الطبيعةِ بالحلى فكأنهن بحسنهن غوان
وكأن صنيناً اطل مراقباً يرنو لهن بمقلة الغيران
تلك الربى اما الجمال فواحد فيها واما اهلها فاثنان
رجل يسير الى النجاح وآخر يسعى وغايته الى الخسران
متخاذلين بها وهم اعوانها ومن البلاء تخاذل الاعوان
ضعفت مباني كل امر عندهم ما بين هادمها وبين الباني
وتفرقوا دنيا كأن لم يكفهم في النائبات تفرق الاديان
وسعوا فرادى للنجاح وفاتهم ان التضامن رائد العمران

وقال من قصيدة حول البوسفور :

سفوح جبال بعضها فوق بعضها مكللة حافاتهن باشجار
يروق بجنبيها خرير مياهها ويشجي بقطريها ترنم اطيار
ويجري النسيم الرطب فيها كأنه تبختر بيضاء الترائب معطار
معاهد زرها في الهواجر تلقها موشحة فيها برقة اسحار
نزلنا بها والشمس من فوق ارسلت على منحنى الوادي ذوائب انوار
وقد ظل من بين الغصون شعاعها يوقع دينارا لنا جنب دينار
كأن التفاف الدوح والنور بينها جيوب من الانوار زرت بازرار
تميل اذا هب النسيم غصونها فتأتي بظل في الجوانب موار
ترانا اذا ما الطير في الدوح غردت تميل باسماع اليها وابصار

وقال من قصيدة في التربية بعد ان شاهد مسرح الحيوانات في بيروت :

كأنما الليث لم يخلق اخا ظفر محدد الناب قذافا الى العطب
شاهدته مشهداً بدعاً علمت به ان الغرائز لم تطبع على شغب
وان خبث البرايا في طبائعها لابد فيه سوى الاطباع من سبب
وان ليث الشرى ماصيغ مفترساً لكن احالته فراساً يد السغب
وكم من الناس من قد راح مندفعاً بدافع الجوع نحو القتل والسلب

وان تربية الانسان يرجعه ... اكسيرها وهو من ترب الى الذهب
هذا اذا حسنت اما اذا قبحت ... كالمندلي بها يمسي من الحطب
فكل ماهو في الانسان مكتسب ... فلا تقل فيه شيء غير مكتسب
اني ارى اسوأ الآباء تربية ... للابن احرى بان يدعى اعق اب
والمرء كالنبت ينمو حسب تربته ... وليس ينبت نبع منبت الغرب
من عاش في الوسط الزاكي زكا خلقاً ... حتى علا في المعالي ارفع الرتب
فاحرص على ادب تحيا النفوس به ... فانما قيمة الانسان بالادب

وقد عني بتفسير الفاظه اللغوية الشيخ مصطفى الغلاييني منشئ مجلة النبراس الشهير فجاء الديوان موفور الخيرات من كل الجهات حرياً بكل من ذاق لماظة من الادب ان يقتنيه ويتدارسه فشعر الرصافي هو النموذج الراقي من شعر هذا العصر ·

حكم افرنجية

من الناس من فيهم الكفاءة ولا يرتقون لكن ليس منهم من يرتقون دون ان يكونوا على شيء من الكفاءة (لاروشفوكولد) ·

الادب يظهر المرء في مظهره الخارجي كما يجب ان يكون عليه في مظهره الداخلي (لابروبير) ·

على من يريد ان يعمل الخير ان يعرف كيف يفكر بان الحياة قصيرة لا ينبغي ان تضاع هنيهة منها عبثاً (فولتير)

علينا ان نعلم من نريد تعليمهم بالمثال الحسن اكثر من ان نسن لهم الطرق ونختط لهم الخطط فالمثال هو الذي يعلم الرجال (شاتوبريان) ·

انا نشعر بالالم الكثير من الملل من ايام السعود اكثر مما نشعر بسرور الاستمتاع في ايام النحوس (بالزاك) ·

عاش من عرت نفسه من الاوهام ·

لا يكفي المرء ان يكون له عقل حتى يخلص من البهيمية بل يجب ان يعرف كيف يستخدم عقله ·

السعادة كالطير الاخضر الذي يقترب منك ثم يقفز قفزة صغيرة فلا تقدر ان تمسكه ·

انتظار المدعو الى دعوة اذا تأخر عن الميعاد قلة احترام لسائر المدعوين الحاضرين ·
التغاضي عن الواجبات الصغيرة مدرجة الى ارتكاب الاغلاط الكبيرة ·
يمتص النحل والزنبور من زهور واحدة ولكن كلاً منهما لا يعرف ايجاد العسل نفسه ·
مما يدل عَلَى المروءة التامة تعرض المرء لانظار ارباب المروءة ·
يؤثر النساء ان يغتبن في فضيلتهن عَلَى ان يطعن في فكرهن وجمالهن (دوماس)
الشهوة العظمى هي زهرة عاصفة لا تنبت الا عَلَى حجر ذربته الاعاصير ·
لسنا الا ثمرة نشوئنا ·
الافكار الحسنة كمسامير من نحاس تنغرز في الروح ولا تستخرج منها قط ·
في الاعتبار عزاء عن كل شيء ·
من القهقهات ما يخرج كصوت القنابل لا يفيق منها صاحبها
الفكر الجديد هو مثل زاوية لا يمكن ادخالها الا من الانشوطة الكبرى ·
سلسلة الزواج ثقيلة جداً لا سبيل الى حملها الا اذا استعد لها المرء واقفاً عَلَى قدميه
الاسنان كالكلاب كلما اعطوا قضموا ·
اننا نجور حتى في شفقتنا وذلك لاننا نتأثر لمصاب عرضي يعرض للسعداء اكثر من تأثرنا لمصاب دائم يلازم البائسين ·
كثير من الناس يرون السياسة علم الربح بدون رأس مال ·
من الصعب عَلَى الاغنياء ان يحرزوا الحكمة اكثر مما يصعب على الحكماء ان يحصلوا الثروة ·
اذا لم يستطع ارباب العقول ان يحسنوا الانتفاع من الاغبياء فما الفائدة من عقولهم (رنان) ·
التأمل يكمل الاخلاق بدون ان يغيرها كما ان القواعد تخدم القرائح ولا تساعدها على الانبعاث ·
نتألف الحياة التي نستطيلها من كثير من الايام التي نستطيلها ايضاً ·
جسم جميل في روح خبيثة كسفينة حسنة وفيها ملاح رديء ·
لا تكن محتاجاً الى الامل لتشرع في عمل ولا الى النجاح حتى تظل مداوماً عَلَى ما انت آخذ في سبيله ·

تشحذ الحياة الرجال في باريز كما تشحذ السكين على المسن ولكنها تثلمها ·

في المجتمع الرديء النظام تشبه القوانين بيوت العناكب تعثر فيه الهوام الصغيرة اما الكبيرة فتفلت من اطرافه ·

ثلاثة امور صعبة الاحتفاظ بسر وتحمل الاذى واستعمال اوقات البطالة (فولتير)

لا تكن ساذجا ولا خبيثًا ·

اذهب متثاقلاً الى ضيافةِ اصدقائك وسارع اليهم كثيرًا في ايام بؤسهم ·

اكثر الرياء خطرًا ما احاط بنا من المحطاط المحيطين بنا ·

كثيرًا ما يخفق رجل العقل في مشاريعه لانه يخاطر كثيرًا (مونتسكيو)

حب المجد في القلوب الكبيرة يشغل المكان الذي يملأه العجب في النفوس الصغيرة ·

لا تكرر كلمة جافة شائنة واذا سمعت كلمة في قريبك فاكتمها في صدرك فانك لا تضيق بها ذرعًا ·

ثلاثة امور تعلي قيمة الهدايا الاحساس والمناسبة واسلوب الهدية ·

اني استحسن الرياضات التي تعلمنا احتقار الحياة على شرط ان لا تدخل فيها حياة الغير ·

الناس يستمعون النميمة عَلَى ما يكرهون اكثر من استماعهم مديح ما يحبون ·

كثيرًا ما ترى للناس ميلاً طبيعيًا لمبادرة معونة الرجل الاقوى فيهم ·

من سيئات المساواة هو اننا لا نريدها الا مع الاعلى منا مقامًا ·

التسليم بالقضاء والقدر هو سعادة من ليس لهم سعادة ·

الآلام خير من تعذيب الوجدان ·

المناكدة شقاء الصالحين ·

قام كل عمل عظيم في العالم ببركة اجابة نداء الواجب وكل اثر سيء في العالم قام باسم المصلحة ·

لا تبهر الفضائل الصغرى الانظار بل تعطر صاحبها فهي بنفسج الروح ·

ان المنجم الذي لا ينضب تعدينه عَلَى كثرة تعاور الايدي عليه منذ ازمان هو منجم الحمق البشري ·

من الناس من يتكلمون قبل ان يفكروا بهنيهة اي يسبق كلامهم تفكرهم ·

لا تشاور في موضوع القيام بالواجب ·

غرائب الغرب

تاريخ عمران باريز

١١

لعل باريز كانت في الاصل احدى تلك الضياع التي كان الغاليون ينشوئنها في جزر الانهار الكبرى ايام كان يسهل عليهم ان ينشوئا جسوراً يتخذونها مجازاً الى طرق مهمة واول ذكر ورد لها ولسكانها في التاريخ كان ٥٣ ق ٠ م فدعا القيصر ساكنيها باريزيا كما دعا المدينة لوتيتيا وضم اليها سنة ٥٣ نواب الامم الخاضعة ٠

مضى زمن لم يمتد فيه عمران المدينة خارج الجزيرة الاصلية ثم استفاض عمرانها على الشاطئ الشمالي على عهد الامبراطور كونستانس كلود الذي انشأ فيها قصراً تسمى بقاياه اليوم بقصر الترم وسكن فيه جولين لما نادى به جنده قيصراً وكانت الجزيرة محاطة بمتاريس وفيها قصر تفصل فيه الامور البلدية ومذبح على اسم جوبيتر اقامه الملاحون الذين كانوا يغدون ويروحون في تجارة نهر السين وفي سنة ٢٥٠ غدت لوتيس مركز اسقفية وعلى ذلك العهد اطلق عليها اسم باريزي وهواسم الشعب الذي يسكنها وكانت عاصمة بلاده

فتحت باريز ابوابها للفرنك سنة ٤٩٧ فدخل قصر الترم كلوفيس ثم ماتت القديسة جنفياف حامية باريز ووقف العمران على عهد الكارولنجيين بل تراجع فنقل الامبراطور شارلمان عاصمة ملكه الي اكس لاشبل وما كان يقيم في باريز الا نادراً وكان عهد خلفائه عهد شقاء

وكانت القرى في شمالي المدينة وجنوبها تؤسس تحت حماية الاديار

وكثيراً ما كانت تخرب بايدي اشقياء من السكان او بغارات النورمانديين وفي سنتي ٨٨٥ — ٨٨٦ جاء النورمانديون وعددهم ثلاثون الفاً وعسكروا امام جزيرة المدينة وحاصروها ثلاثة عشر شهراً وبهذا الحصار افتتحت باريز ايام سعادتها واصبحت كما قالوا رأس فرنسا وقلبها ٠

وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر امتد عمران هذه القاعدة وانشئت فيها اديار وبيع ومستشفيات ومدارس واقيم لها في ايام لويس السادس عمدة ينظر في شؤونها وامور ضبطها وربطها وبدأ فيها العمران المادي ٠ وعلى عهد فيليب اغسطس وهو اهم دور من ادوار عمران هذه العاصمة كثرت الكنائس الكبرى وأسست الاديار والمدارس ودور المرضى والاسواق والمجاري واحواض المياه والفساقي والمرافئ وفي سنة ١١٨٥ اخذوا يبلطون شوارع المدينة للمرة الاولى وفي سنة ١٢٠٤ انشئ قصر اللوفر وبعد ذلك جمعت مدارس باريز وكان عدد طلبتها عشرين الفاً وجعلت منها مدرسة جامعة اطلق عليه اسم الابنة الكبري للملوك (السوربون) واخذ سكان المدينة ينمون حتى بلغ عددهم سنة ١٣٢٣ — ٢٧٥ الفاً وصرفت العناية منذ زمن شارل الخامس الى لويس الثالث عشر في تزيين مدينة باريز وتطهيرها وانشئت فيها فنادق جميلة

ولقد كانت القرون الوسطى على باريز كما كانت على فرنسا قرون مصائب واضطراب فاستباح الانكليز سنة ١٤٢٠ حمى باريز وحاولت الفتاة جان دارك على غير طائل ان تطردهم عنها فذهب سعيها عبثاً ومنذ سنة ١٤٠٨ الى ١٤٢٠ اكثر الارمنياكيون والبوركنيون من ذبح سكان باريز التي احتلها الانكليز من سنة ١٤٢٠ الى ١٤٣٦ وجاء طاعون جارف على

الاثر اهلك الكثير من سكانها ومع هذا لاتزداد عروس الغرب الا عمرانا ·

وفي سنة ١٥٣٣ وضع الحجر الاول في اساس دائرة المجلس البلدي الذي هو مفخر من مفاخر البناء في هذه العاصمة كما أسس قصر التويلري المشهور عَلَى ايام شارل التاسع وعادت باريز فاء بحت ميدانًا لقتل من دانوا بالمذهب البرتستانتي من اهلها وانتشرت الفتن الدينية زمنًا واصبح القول الفصل فيها للمتعصبين والجامدين

وفي خلال ذلك اشتد فيها القحط فاهلك من سكانها ثلاثة عشر الفًا وكثرت الفتن عَلَى الملك وقتل بعض ملوكها وبدأ عهد لويس الثالث عشر بالارتقاء المادي والعقلي فجعلت باريز سنة ١٦٢٢ مقر رئيس اساقفة وكانت اسقفية صغرى وفي سنة ١٦٢٠ انشئت مطبعة الامة وسنة ١٦٢٦ انشئت حديقة النباتات وسنة ١٦٣٥ أسس المجمع العلمي وانشئت بعض الشوارع والساحات وغرست بالاشجار وكثرت الحارات والاحياء الجديدة واتصل العمران بالقرى المجاورة حتى تضاعفت مساحة المدينة وعلى عهد لويس الرابع عشر اخذوا يضيئون الشوارع بمصابيح يجعلون فيها شموعًا وذلك في الليالي الغير القمراء

ولقد نشط هذا الملك البحث في التاريخ والصناعات والعلوم بانشاء المجامع الاثرية والصناعات النفيسة والعلوم وبترخيصه للناس ان يختلفوا الى المكتبة وكانت من قبل خاصة بالملوك فقط · وكان عهد الوزير كولبر المشهور عهد عمران هذه العاصمة الذي لم يسبق له نظير وزاد سكانها حتى بلغوا نحو ٥٦٠ الفًا وعلى عهد لويس الخامس عشر طبعوا اسماء الشوارع على صفائح من توتيا وجعلوها في رأس كل شارع واستعاضوا عن مصابيح

الشموع القديمة بمصابيح الزيوت

ولما جاءت ثورة سنة ١٧٨٩ كثر عمران باريز اذ اعقبت تخليص الاراضي من الكنائس والبيع لتنشأ فيها الشوارع والجادات وكثرت الابنية العامة والخاصة والمعاهد العلمية والصناعية والحدائق العامة والمدارس الكبرى ولئن كان من الثورات التي حدثت بعد ولا سيما فتنة سنة ١٨٤٨ مانشأ عنه بعض الاضرار على العمران الا ان الهمم كانت اعظم للتعمير منها للتخريب وقد جاء عشرون الفاً من الالمان واحتلوا سنة ١٨٧١ بعض احياء المدينة عقيب الحرب التي فشل فيها الفرنسيس في موقعة سدان وعاد الالمان من حيث اتوا بعد ثلاثة ايام

وكان عهد عصابات الكومون بعد ذلك من اشأم ايام الخراب علی عمران باريز فتقوض بها ٢٣٨ داراً خاصة وعامة وقتل سبعة آلاف جندي وقتل وجرح خمسمائة ضابط وقدرت الخسائر بثمانمائة وستين مليوناً من الفرنكات وكثر بعد ذلك العمران باستتباب اسباب الراحة وكان من المعارض الثلاثة التي اقامتها باريز سنة ١٨٧٨ و ١٨٨٩ و ١٩٠٠ ولا سيما المعرض الثاني الذي اقيم تذكاراً لمرور مئة سنة علی الثورة الفرنسوية الاولى اعظم مظهر من مظاهر الصناعة عند الفرنسيس واول دليل علی ارتقائهم التدريجي الذي لم يقف قط عن الجري

اجماليات في عمران باريز

١٢

باريز واقعة في الدرجة ٤٨٬٥٠٬٤٩ من العرض يشقها نهر السين الى قسمين غير متساويين من الشرق والجنوب الشرقي ويتخللها في وسطها عدة آكام وجبال مهدتها حتى غدت كأنها بعض اجزائها منها مايبلغ ارتفاعه ١٠١ متر ومنها ١٢٨ ومنها ١٣٦ ومنها اقل من ذلك وتبلغ مساحتها ٧٨٠٢ هكتار ومحيطها ٣٦ كيلومتراً

وطولها من الشرق الى الغرب نحو ١٢ كيلومتراً وعرضها من الشمال الى الجنوب نحو تسعة كيلومترات وطول طرقها العامة ٨٨٨٠٠٠ متر فيكون مجموع مساحتها السطحية ١٥٣٢ هكتاراً ولها ٧٠ باباً او منفذاً منها ٥٧ باباً و ٩ طرق للسكة الحديدية وطريقان لمجرى السين وطريقان لترعة سان ديني واورك وعدد سكانها بحسب الاحصاء الاخير ٢٧٦٣٣٩٣ وباريز بالنسبة لحجمها اكثر المدن ازدحاماً اذا قيست بالمدن الاوربية ومعدل الزواج فيها كل سنة ٢٥ الفاً والولادات ٦٥٠٠٠ والوفيات ٥٠٠٠٠

وتقسم من حيث امورها الادارية الى عشرين قسماً لكل واحد منها عمدة وثلاثة او خمسة مساعدون ولباريز ٢٣٤٥ زقاقاً و ٨٢ جادة كبرى و ١١٥ شارعاً و ١٦٦ ساحة و ٤٠٦ طرق غير نافذة و ٤٦٨ ممشى و ١٥٤ قرية و ٤٩ مصيفاً و ٧١ مجرى عاماً و ٤٢ رصيفاً و ٣١ جسراً و ٤٨٠٠٠ بيت وتمتد الطرق المغروسة بالاشجار وفيها ٨٧٠٠٠ شجرة على طول ٢٧٠٣٦٣ متراً وفيها ٨١٠٣ مقاعد لجلوس الناس في الطرق والشوارع والساحات والحدائق

تضاء باريز في الليل بنحو ٥٢٣١٣ ضوء غاز و ١٥٧٥ مصباحاً كهربائياً وقوة القوى الكهربائية فيها للشركات الخاصة والعامة في باريز ٢٠٣٠٠٠٠٠ مصباح كل واحد ذو عشر شمعات . ويجري ماء الشفة الى مدينة باريز في قساطل من عدة ينابيع صافية نافعة خلافاً لما يدعيه بعض المتجرين بالخمور من ان ماءها مضر بالصحة حتى ينفقوا خمورهم ومعدل مايجري منه اليها ٣١٠٠٠٠ متر مكعب يأتي الى ٨٤ الف محل من البيوت الخاصة و٧٤٣٣ مضخة للحريق و١١١٦٩٥ محلاً لشرب المارة ويجري اليها ماء للاستعمال غير صالح للشرب وهو للصناعات وغيرها يجري في ٦٤٦٠٠ آلة عامة

في باريز ١٦٠٠٠ عربة بالخيل واكثرها بحصان واحد والمركبة ذات الحصانين هي في الاكثر عربات خاصة بالاعيان وارباب الفنادق وفيها ١٣٠٠٠ اوتوميبل كبير تنقل زهاء ٣٠ مليوناً من الناس في السنة و ١١٩ خطاً من خطوط الحواقل (اومنيبوس) والترامواي وفيها ٢٥٠ عجلة اومنيبوس و ١٩٠٠ مركبة كهربائية تنقل في السنة مالا يقل عن ٣٠٠ مليون راكب وعشرة آلاف مركبة خاصة و ١٢٠٠٠ سيارة (اوتوميبل) وقد كان في فرنسا في السنة الماضية ٤٤٧٦٧ اوتوميبلاً و ٤٠٠٠٠ مركبة نقل ولا تدخل فيها الكميونات وفي باريز ١٦٠ الفاً من الدراجات و ١٠٦ مراكب نهرية تحمل نحو ٢٣ مليون راكب في السنة وسككها الحديدية المحدقة بها تحمل ٣١ مليوناً ويركب من الست محطاتها الكبرى فيها زهاء ٧٧ مليون راكب ومثلهم يأتون اليها .

ويلزم لباريز في السنة ٢٩٢ مليون كيلو من الخبز و ١٥٩ مليون كيلو من اللحم و٣٦ مليون كيلو من السمك و٦٦٩ مليون بيضة و ٣١ مليون كيلو

من الطير والصيد و ٦ ملايين هكتولتر من الخمور و ٦٩٢٠٠٠ من الجعة و ١٢٠٠٠٠ هكتولتر من سائر المشروبات الروحية

وفيها ٣٠ الف فندق وحانة وقهوة ومطعم يعيش منها مئة الف نسمة ولتجارة الاطعمة ٢٤٥٠٠ محل يعيش منها ٩٠ الف شخص ولتجارة الفرش والاثاث ٣٢٠٠ محل وعدد البيوت والمخازن التي تبيع الامتعة والثياب والازياء ٩٥٠٠ محل فيها ٧٢ الف عامل وعاملة وعدد محال الاطعمة ومعاملها ٧٥ الفاً فيها ٤٣ الف مستخدم وخمسمائة الف عامل وعاملة فيكون مجموع من يعيشون من هذه المحال نحو مليون نسمة

واكبر وسائط النقل واسرعها في مدينة باريز السكة الحديدية الكهربائية تحت الارض التي يسمونها المتروبوليتين وهي تدل على عظمة العقل وآخر ماوصل اليه الانسان من التفنن وليس لهذا الخط نظير في سعته وجدته في برلين ولا في لندرا افتتح الخط الاول منه سنة ١٩٠٠ وله الآن ستة خطوط منها ماطوله عشرة كيلومترات ومنها اكثر واقل الى السبعة عشر كيلومتراً تربط اجزاء المدينة بعضها ببعض وينتقل الراكب ان احب من فرع الى فرع آخر بدون زيادة اجرة وقد تم الخط الرابع منه هذه الآونة وهو يسير تحت نهر السين ويكلف كل كيلومتر من هذا الخط ثلاثة ملايين فرنك وهو سريع نظيف رخيص يدفع الراكب في الدرجة الاولى ٢٥ سنتيما وفي الدرجة الثانية ١٥ وقد نقلت هذه السكة الحديدية سنة ١٩٠٩ : ٢٥٤٤٥٩٩٢٠ راكبا وكان عدد من اقلتهم في السنة التي قبلها ٢٢٩٧٠٠٥١٩ وكانت ارباحها سنة ١٩٠٨ نحو اربعين مليار فرنك فاصبحت في السنة التالية زهاء اربعة واربعين ملياراً وهم يعملون ابداً على تهويته على طريقة لا تخليه من

الهواء النقي ويذرون فيه المواد المضادة للتعفن وقد يتأذى بالركوب فيه بعض ضعاف المزاج ولكن ذلك من كثرة الازدحام فيه لا من شي آخر

علم المشرقيات

١٣

لا يتأتى لغريب عن امة ان يعرفها حق المعرفة الا اذا درس لغتها وتاريخها وآدابها. واللغة مفتاح باب كل معرفة ومقدمة بين يدي كل عمل . ولذلك كان من الراغبين في درس احوال الشرق من اهل اوربا ان يدرسوا لغاته ليحيطوا خبراً باهله وكان للغة العربية المقام الاول بين تلك اللغات لانها لغة امة ذات حضارة باهرة ودين دان به اهل الاقطار المعتدلة من صميم الشرق. فتوفروا على احكام العربية وتنافسوا في تعليمها حتى نبغ منهم اناس لم يقلوا في فهم اسرارها عن خلص ابنائها الذين نشؤا في حجرها واحكموا ملكة نظمها ونثرها وكان لفرنسا من بين ممالك الغرب يد طولى في هذا المضمار . وكل مملكة من ممالك اوربا واميركا لا تخلو من افراد من اهلها انفسهم يعانون حل معضلات لغة العرب وينسلون الى تلقفها من كل حدب

ولقد دعوا تعلم هذه اللغات وما ينبغي لها علم المشرقيات او الاستشراق والمشتغلين بها علماء المشرقيات او المستشرقين وقديماً كان العارفون من اهل هذا الشأن من الفرنسيس اكثر من غيرهم وقد اصبحوا اليوم واكثرهم من الالمان . والالمان امهر الغربيين في النطق باللسان العربي واكثرهم نبوغاً فيه وعند الالمان من علماء المشرقيات بقدر ما عند الفرنسيس والنمسويين والمجريين والايطاليين والهولانديين والانكليز والروس والاسبانيين والبرتقاليين

والاميركيين والبلجيكيين كثرة عدد وحسن معرفة ولا عجب فالالمان نبغوا في كل شأن من شؤون الحياة والعلم والصناعة ودرس العربية كان له النصيب الاوفر من عنايتهم ·

وقد اشتهرت في فرنسا الجمعية الآسياوية ومدرسة اللغات الشرقية الحية وقد درست احوالها وزرتهما غير مامرة وهاءنذا الخص للقاريء ماعرفته عن الجمعية الآسياوية بواسطة صديقي المسيو لوسين بوفا احد الاعضاء العاملين العالمين في الجمعية المشار اليها فقد كتب اليَّ ماتعريبه : ان فكر تأسيس جمعية علمية تعنى بدراسة الشرق قد جرى البحث فيه منذ اواسط القرن الثامن عشر ولكنه لم يتم الا بعد زمن طويل · فقد انشئت الجمعيات الاولى للباحثين في المشرقيات خارج اوربا مثل جمعية العلوم والفنون في باتافيا (١٧٧٨) والجمعية الآسياوية في البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسياوية في بومباي (١٨٠٥) ومنذ ذاك العهد أنشئت في اوربا واميركا عدة جمعيات للمستشرقين ولكن اقدمها عهداً الجمعية الآسياوية في باريز أُسست سنة ١٨٢٢

وعلى ذلك العهد رأى جماعة من مستشرقي الفرنسيس ان الحاجة ماسة الى ان يجتمعوا او يجمعوا مواد الدروس المختلفة الضرورية لهم وان يصدروا مجلة تكون لسان حالهم وقائمة اعمالهم · وكان المسيو دي لاستي انشط هؤلاء العلماء وبفضله أُسست الجمعية الآسياوية التي ناب في رئاستها ما يقرب من ثلاثين سنة وكان الرئيس اذ ذاك سلفستر دي ساسي احد اعضاء المجمع العلمي واستاذ مدرسة فرنسا ومدرسة اللغات الشرقية وهو اعظم من خدم اللغة العربية في فرنسا وربما كان اعظم مستشرق نبغ ونفع من الفرنسيس وكان من

مؤسسي الجمعية ايضاً كوسان دي برسفال وكارسين دي فاسي ورموسا

فبدأت الجمعية أعمالها لاول تأسيسها بنشر المجلة الآسياوية التي اختصت بالبحث في لغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره ولا تزال الى اليوم نموذج العلم الراقي وسيدة المجلات الاخصائية في فرنسا

وانشأت الجمعية خزانة كتب جمعت فيها كل ماوصلت يدها اليه من الكتب والمخطوطات والرسوم وغيرها مما يفيد العلماء من اعضائها وجمعت ايضاً مجموعات من النقود القديمة والتحف البديعة . ونشرت مصنفات في تاريخ الشرق واصول لغاته وفلسفته واديانه وطبعت على نفقتها عدة مصنفات وساعدت كثيرين مساعدات ادبية ومادية على نشر الكتب النافعة وكان نشر المخطوطات وترجمتها من اهم الاعمال التي تعنى بها . وخصت جلساتها في سماع المراسلات والمناقشات العلمية النافعة كما عنيت بمراسلة العلماء الاجانب على الدوام والانتفاع بآرائهم واعمالهم .

واذ قد ظهرت منافع الجمعية الآسياوية سنة ١٨٢٨ عادت بعد ان ضعف امرها بضع سنين الى مكانها الاولى ولم تلبث ان قويت عن ذي قبل وانتشرت كلمتها فرأسها امثال سلفستر دي ساسي ثم جوبر ورينو وموهل وكارسان دي تاسي ورنيه ورنان وباربيه دي مينار وسينار . ومن جملة رؤسائها الثانويين كوسين دي برسفال وبارتلي سان هيلير ودفرني وبوريه دي كورتيل وماسبرو وربنس دوفال وبين امناء سرها ايل ريمورا وجايمس ودار مستتير وشافان

تنقلت الجمعية منذ تأسيسها في عدة اماكن ومنذ سنة ١٨٨٣ اتخذت لها مقراً في بناء ملاصق للمجمع العلمي وذلك بفضل رئيسها اذ ذاك رنان

الفيلسوف المعروف ونالت من الحكومة الفرنسوية عدة معونات رسمية ومنحت الجمعية مكتبة الامة الكبرى عدة كتب ومخطوطات وغيرها من النفائس ولا سيما المخطوطات التي اتت بها من الهند والمجموعة التبتية وكتب الديانة البوذية ·

وما عدا المجلة الآسياوية التي تصدرها الجمعية في نحو مائتي صفحة كل شهرين ويتألف منها مجلدان كل سنة فقد نشرت على نفقتها ٢١ مصنفاً تتألف من نحو ٤٠ مجلداً وبعض هذه المصنفات طويلة الذيل مثل مروج الذهب للمسعودي نشرته بنصه العربي وترجمته الى الفرنسوية وهو في تسع مجلدات ونشرت رحلة ابن بطوطة في اربع مجلدات وكتاب الماهافاستو في ثلاث مجلدات

وهذه الجمعية تمنح كل سنة معونات لبعض المؤلفين في الموضوعات العلمية · واعضاؤها اليوم ٢٥٠ عضواً منهم ٢٦ من الاجانب وهي تبعث بمجلتها الى نحو مئة جمعية علمية ومدرسة جامعة او مجلة دورية والى ثمانين مكتبة من مكاتب العالم على يد نظارة المعارف الفرنسوية وللمجلة ١٣٠ مشتركاً ليسوا من الداخلين في الجمعية · وقد بلغت وارداتها سنة ١٩٠٨ : ٢٥٦٣١ فرنكاً و ٦٦ سنتياً وفي مكتبتها نحو اثني عشر الف مجلد من الكتب و ١٥٠٠ صفيحة و ٢٠٠ كتاب مخطوط وفيها مجموعة من النقود القديمة اه

هذا اجمال حال الجمعية الآسياوية وفيها من الاعضاء من لا فائدة منهم ولا رابطة بينهم وبين الغرض الذي ترمي اليه الا انهم يؤدون الراتب السنوي المضروب عليهم ويتناولون المجلة لقاء ذلك وكثير منهم لا يعرفون من احوال الشرق ولغاته واصول سكانه اكثر مما نعرف نحن عن الصين وتبت ...

اما مدرسة اللغات الشرقية الحية وهي التي تقرئ مبادئ الغات الشرقية وهي مخرج لاعضاء هذه الجمعية وغيرهم ممن يتولون القنصليات والترجمة والسفارة عن حكومتهم في بلاد الشرق فاسمها فيما ارى اكثر من نفعها وما دامت فرنسا تراعي الخواطر في توسيد وظائف التدريس لغير الاكفاء فان تعليم اللغات الشرقية يبقى صورياً لا حقيقياً · وهيهات ان ينشأ لفرنسا وهي على هذه الحال امثال المستشرقين الاول من ابنائها الذين باهت بهم الامم مادامت سوق الشفاعات رائجة عندها ·



درس من سلانيك

١٤

بينا كنت مأخوذاً بما اشاهده من مظاهر عظمة الامة الفرنسوية واقرأ مثالاً مجسماً من الارتقاء الغربي ولا افرغ ليلي ولا نهاري من زيارة المعاهد العلمية وحضور الدروس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واغوص في مكاتب باريز ولا سيما مكتبة الامة ومكتبة السوربون وبينا تكاثرت عليَّ المواد وانا لا اعرف باي لسان اعبر ولا باي قلم احبر وبينا انا افكر في بلادي وما يجب عليَّ ان اكتب لها مما تأثرت به عواطفي واخذ بمجامع قلبي حمل اليَّ البريد من سلانيك كراسة باللغة الافرنسية من قلم صموئيل سام افندي ليفي رئيس تحرير جريدة سلانيك الفرنسوية وهي محاضرة القاها في نادي الاتحاد الرياضي في ذاك الثغر اواخر الشهر الماضي عقيب عودته مع جماعة العثمانيين الذين ذهبوا لزيارة بلاد النمسا والمجر منذ مدة فرأيت ان الخصها للقراء ليعلموا ان تأثر العثمانيين واحد عند زيارتهم الديار الاوربية وان ابن سورية

اذا اقامه ماشاهده في غربي اوربا واقمده بما فيها من آثار العمل والجد فان ابن مكدونية لاينقص عنه تأثراً في ماشاهده من اواسط اوربا وشعور ابناء الوطن واحد . قال الكاتب السلانيكي :

في ستة وعشرين يوماً ساح مائتان وخمسون رجلاً من اهالي الاستانة وسلانيك وازمير وغيرها من مدن الداخلية سياحة كبرى قطعوا فيها ٤٥٠٠ كيلومتر في السكك الحديدية و ١٥٠٠ في البواخر والعجلات والسيارات وعلى الارجل فوقفنا في خمس وعشرين مدينة كبرى وصغرى وزرنا نحو ١٥٠ داراً صناعية ومعهداً علمياً او مدرسياً وفنياً واداريا ومتحفاً وغيره وحضرنا مئة دعوة وغيرها اقامتهالنا ١٥ جمعية و ٢٥ غرفة تجارة وحكومة النمسا والمجر فلم يبق من تلك الرحلة التي تذكرنا السائحين جول فرن وماين ريد الا ان نذكر شيئاً من ذلك الحلم الذي مر علينا في رحلتنا ونتثبت من تلك الاشباح لنحسن الانتفاع بها في مادياتنا وتكون لنا علماً ودرساً نافعاً ولقد كانت غايتنا من رحلتنا اقتصادية لندرس دور الصناعات والاوضاع التجارية والمدرسية والادارية عن أمم ولكن المسائل الاقتصادية والاجتماعية كما قال البارون هلوموتسكي فيما خطبنا به لها مساس كلي بالمسائل السياسية وبينها روابط ولوازم ولا سبيل الى البحث في الاولى مع اغفال الثانية .

ولقد كنا نقضي العجب من كل مايقع نظارنا عليه حتى كنا نتساءل عما اذا كان ماتقع عليه انظارنا من مدهش الاعمال هو من صنع ايدي البشر وهم الذين قاموا بهذه العجائب وبحق ماقاله النائب الدكتور رضا توفيق رئيس جماعتنا السائحين عندما غادر النمسا ان اغنى اللغات عاجزة عن بيان الشعور الذي نتأثر به كلنا كما ينبغي لما لقيناه من الحفاوة الخارقة للعادة مدة مقامنا في

بلد بلغ هذه الدرجة من الرقي . نعم لقد تجلت لنا بلاد النمسا والمجر مملكة دخل اليها التجديد من كل اطرافها وتناول كل فرع من فروع اعمالها الخاصة والعامة .

وكثيراً ما اتفق لنا ان زرنا معهدين او ثلاثة في فرع من فروع الصناعة وفي اقاليم مختلفة فكنا نجد في كل منها ماعدا اساليب العمل التي يقضي بوجودها العلم اعمالاً كمالية تابعة وتحسينات خاصة ومحلية تدل على الاقدام الذاتي وقوة ارادة شخصية وحب في البحث وكلها ظواهر محسوسة لعمل عام ونشوء متواصل . كنا نشهد ذلك في كل الفروع الصناعية والفنية والمدرسية والانسانية . ولكثرة عنايتنا بالسؤال عن معاهد الاحسان ومعونة العملة تراءى لنا ان النمسا في مقدمة الامم في هذا الباب ومن ذلك ان ٤٢٠٠ من العملة العاجزين يعيشون في لاينز بالقرب من فينا لا على قدر الكفاية فقط بل يعيشون كما يعيش الملوك . وما ننس لا ننس ملجأ المرضى العصبيين في شنهوف وفيه ٣٦٠٠ عامل يعاملون كما لو كانوا في قصور ملكية وهم موزعون على ٦٤ بناية في مسافة من الارض تتجاوز مساحة مدينة سلانيك وقد صرفت عليها حكومة النمسا السفلى ستين مليون كورون فقط لا غير

وبينا كان رفقائي في رحلتي يدهشون من زيارة المعامل والمصانع ودور الصناعات على اختلاف انواعها في بلاد المجر والنمسا ومورافيا وبوهيميا وستيريا وغيرها كان يلفت نظاري خاصة منظار اتفقوا على تسميته باسم مملكة هابسبورغ . فان هذه المملكة هي في الحقيقة رقعة شطرنج فيها غرائب الفسيفساء من العناصر المختلفة والوطنيات الغير المتجانسة ولكن هذه الجماعات على اختلاف اصولها قد اجتمعت ليكون مجموعها مثال جمال ولطف وتنوع

وما كانت وحدة هذا المزيج الا نتيجة نظام الحكومة المركزية وحسن مأتاها وبعد نظرها فرأت ان تترك لكل قوم استقلالا اداريا كان غاية الغايات في ابداعه وبذلك توقت الصدمات الهائلة ولم يحدث حتى الآن مايكدر صفو الراحة · وهذا الرأي في توسيع سلطة الاقاليم لم يكن منه الوحدة الجوهرية فقط لما فيه من احترام القوميات بل نتج منه ارتقاء خارق للعادة في جميع فروع العمل وذلك ان كل قطر له من نفسه غنى طبيعي غزير ورجال نوابغ اذكياء هم خيرة رجاله فاستطاعوا الانتفاع بما حوت بقاعهم وكان من ذلك ان استمتع كل جماعة بما لهم من الحقوق. فنشأت المنافسة بين العناصر المختلفة واخذت كل واحدة منها تضاعف عنايتها وتكثر من جهادها فاوجدوا بذلك مجموعة من بدائع الاعمال منوعة الاساليب تمت في عامة فروع الجهاد الانساني وكان ذلك من اهم المشاهد واجملها التي وقع نظرنا عليها في رحلتنا واحسن معلم لنا معاشر العثمانيين

تألفت مملكة هابسبورغ من زواج امراء بعضهم من بعض عَلَى حين كانت الانقسامات الداخلية سببا لضعف تلك المملكة ولطالما طمحت بها مطامع جيرانها واعتداؤهم ولكن لما عزمت الحكومة ان تمنح العناصر المختلفة التي يتكون منها جسم المملكة دستوراً قائما عَلَى المبادئ الحرة في مراعاة الحق العام الحديث بدأ نهوضها وارتقاؤها الى الامام

فعلى نواب العثمانيين في مجالسنا النيابي ان ينظروا في أمر العناصر العثمانية ويحلوها كما حلتها النمسا والمجر التي كانت في حالة اشبه بحالتنا اليوم منذ نصف قرن فاحسنت حلها عَلَى مايجب فهي سابقتنا في هذا الباب وما علينا الا ان نأخذ عنها وبذلك نأمن العثرات ولا نسير على غير هدى

وهنا التفت الى رفاقي في الرحلة الذين دخل عليهم اليأس من ارتقائنا مما شاهدوه من الشوظ البعيد الذى قطعه جيراننا

فاقول لهم ان ماشاهدناه عندهم ليس الا ثمرة عمل عظيم وجهاد منظم وارادة قوية واساس راسخ واذا احببنا ان نبلغ بامتنا مبلغهم فما علينا الا ان نمد نحن يد مساعدتنا للدستور ونستخدم جميع القوى الحية في الامة وان تعمل الحكومة عملا فعالا لما فيه انهاض الشعب كما علَى الشعب ان يعمل لمعاضدة الحكومة الصالحة وبالجملة ان يعمل كلاهما بل يعمل الكل للواحد والواحد للكل ويعرف كل الواجب عليه ونكران النفس والمفاداة

وهنا خاض الكاتب في مسألة نهوض العثمانيين وانها موقوفة علَى التعليم وانا لانبجح الا اذا حذونا علَى الاقل حذو البلاد التي كانت تابعة لنا بالامس كممالك البلقان مثلا وارسلنا من شباننا من يتعلمون العلوم الكاملة في كليات الغرب فمن اعظم نجاح تلك الامارات انها مازالت منذ زهاء ربع قرن ترسل بشبانها الى كليات العلم حتى لاتكاد تدخل كلية في اوربا الا وتجد منهم كثيرين وهؤلاء هم الذين استلموا زمام الاعمال في بلادهم ونفخوا فيها من ارواحهم ولسنا نضطر الى الاجانب لتعليم اولادنا في بلادهم بل يجب ان نجلب رجال الصناعات والعلم منهم يؤسسون في بلادنا مدارس ودور صناعات كما نحن في حاجة الى رؤوس اموال الاجانب لاستخدامها في اعمالنا ومشاريعنا وان نكون في سياستنا الاقتصادية كما قال ارنست لافيس المؤرخ الفرنسوي في تعريف السياسة انها علم خديعة غيرك وانت تظهر بانك تحملهم علَى الاعتقاد باننا لم ندرك بانهم خدعونا او انهم يحاولون خداعنا

نظرة في نخب الذخائر في احوال الجواهر

صفحة ٣٨١ سطر١ الافرنجة — افرنجة . وسطر ١٠ هو جوهر — حجر = وعدم الانفصال — الانفعال . وسطر ١٤ الاحمر بقوس قزح — الاحمر الشبيه بقوس قزح . وسطر ١٩ صفحة اسرب — صفيحة اسرب وسطر ٢٠ قيمة هذا — قيمة هذه . وسطر ٢٤ ناصر الدين الترمذي — الزمردي

صفحة ٣٨٢ سطر ٢ وان ابتلع منه شيئاً — وان ابتلع منه شيء وسطر ٨ عند التدقيق — عند التدقيق في النظر . وسطر ٩ لجواز أن يكون — وفي المشرق والجواز أن يكون والأولى أولى . وسطر ١٤ تلك المغائص وهكذا في المشرق — المغاوص . وسطر ١٥ مغاص اول — مغاص أوال . وسطر ٢١ تغلب الرصاصة — الرصاصية . وسطر ٢٦ الاخواني الرازيان — الاخوان الرازيان .

صفحة ٣٨٣ سطر ٤ وهو دونها شكلاً — وهو أدونها شكلاً . وسطر ٥ للنقي البياض — النقي البياض = واذا فاز — زاد . وسطر ٦ اذان — فان . وسطر ٧ و ٨ سقطت كلمة النظم من آخر السطر السابع الى آخر الثامن وابدلت بكلمة الا في السطر الثامن . وسطر ١٧ يبلغ مثقالاً ونصفاً وفي المشرق مثقال ونصف وهو غلط . وس ١٨ تتضاعف قيمته وفي المشرق يتضاعف قيمته والاولى أولى = قياس الجواهر في نسختي المقتبس والمشرق — وفي نسختي قياس سائر الجواهر . وس ٢٥ يودع إليه مشروحة وكذا في المشرق — يودع أليه مشروحة وهو المراد .

صفحة ٣٨٤ سطر ٧ ثم نقلى الى قدح — ثم ينقل الى قدح وس ٩ ثم تلف فوقها عجين — ثم يلف فوقها عجين وس ١١ غلي — أغلي . وس ١٢ سقطت هذه العبارة برمتها من نسخة المشرق وهي (ويطلى به طلياً ثخيناً وتودع جوف عجين قد عجن بلبن حليب) وسطر ١٣ و يخبز في التور — ويخبز . وس ١٥ مع حبتين تنكار وهكذا في نسخة المشرق — مع حبتي تنكار . وس ٢١ اسود ولا صفرة — سواد ولا صفرة = ولا تفوت — ولا تفوث (١) . وس ٢٤ يرغبون لما وكذا في المشرق — يرغبون بما

صفحة ٣٨٥ سطر ٢ اذا ماسهُ — اذا مسهُ وس ٣ القيحة — القيمة . وس ٥ — الطاووسية التي تكون في المروج وكذا في المشرق — الطاووسية اللون التي تكون في

(١) التفوث جمع تفث بمعني شعث او اغبرار .

المروج المخضر . وس ٨ الافاعي وخاصية وكذا في المشرق — الافاعي بوجه وخاصية = ولدغ العقارب وفي المشرق لذع والأَولى أصح . وس ١٢ المطلقة — المطلوقة وهو المراد . وس ٢٧ كذلك يحيى بالشحم والالية . وفي الشرق فانه يحيي بالشحم أولا لية (٢) — كذلك يحيا بالشحم والألية وهو المراد

صفحة ٣٨٦ سطر ٢ لدغة العقرب وفي المشرق لذعة والأُولى المرادة هنا . وس ٣ العين المخرقة — العين المخرونة . وس ٨ أبن ابي الاشث . وفي المشرق ابن ابي الاشعب. وس ١٠ من خزائن الزنج وكذا في المشرق — من جزائر الزنج = ومن نواحي بذخشان وكذا في المشرق — ومن نواحي بدخشان . وس ١٣ زنتها مائة رطل وفي المشرق زنتها مائتا رطل — زنة مائتي رطل . وس ١٩ ما غلبت عليه الوردية وفي المشرق ماغات عليه الوردية والاولى اصح . وس ٢٦ افرندي — فرندي . وس ٢٧ ومنه معزل — ومنه مغربي

صفحة ٣٨٧ سطر ٥ « ويقال يشم منه مجلوب . . . الى قوله والمستخرج منه كدر » وفي المشرق اختلاف عن النسختين وهذا ما جاء فيه (مشرق ١١ : ٧٦٣) « اليشب ويقال يشم منه مجلوب من بلاد الترك من ناحية ختن والوانه ابيض وأصفر وزيتي وهو افضلها ومن مستخرج من واديين يسمى احدهما قاش. ويستخرج منه ابيض فائق ويسمى الآخر واقاش والمستخرج منه كدر » وفي المنتبس بدل قاش فاش والاولى في نسختنا . وس ١٠ تعليقات عليها — تعليقاً عليها . وس ١٢ الغازدهر وفي المشرق الفاذزهر — الفادزهر . وس ١٧ واذ انثر — واذا نثرت . وس ١٩ عَلَى درهمين كندر وكذا في المشرق — عَلَى درهمي كندر . وس ٢٠ الايابيل — الايائل . وس ٢١ في مريرها في — مرائرها . وس ٢٢ لونهُ بين الخضرة والغبرة وفي المشرق لونهُ من الخضرة والغبرة . والأُولى اولى . وس ٢٣ البلوط منه — البلوطة منه . وس ٢٤ وسحالة الخالص بيضاء . وفي المشرق وسحالة الخالص — وسحالة الخالص منه بيضاء وس ٢٥ عَلَى سبيل الاحتياط وفي المشرق عَلَى الاحتياط . وس ٢٦ المجزومين — المجذومين

صفحة ٣٨٨ سطر ١ جلاء . وحيا — جلاء وحياً اي سريعاً . وس ٨ و ٩ ما كان وزنه مائة درهم فقيمته من مائة دينار الى مائة وخمسين ديناراً وفي المشرق (١١ : ٧٦٥ سطر ٢) ما كان وزنه مائة دينار الى مائة وخمسين ديناراً وهو خطأ ظاهر — ما كان

(٢) هكذا وردت حروفها مرتبة ومحركة

وزنه درهم فقيمته من ٠٠٠٠ وسطر ٩ وجرب من دخان وفي المشرق وجرب مع دخان

هذا ما تمثل للذهن القاصر من معارضة النسخ الثلاث استجلاء للحقيقة ومحافظة على عبارات المؤلف الاصلية وتثبتاً في النقل خشية ان ينقل شيء من هذا الكلام ويشوبه اقل تغير فيبعد عن أصله وتفوت الفائدة وما على الناقل والناسخ الا أن يبقي الاصل على علاته ولعل القراء يرشدوننا الى نسخة صح والله الهادي الى الصواب والملهم السداد بمنه وكرمه

زحلة (لبنان) عيسى اسكندر المعلوف

سير العلم والاجتماع

ضخام الاجسام

قالوا ان الاصحاء من ضخام الاجسام هم اسعد حالاً من النحاف وان السمين يسعد أسرته وزوجته اكثر من الهزيل فلا يهتم بالجزئيات كالنحيف و يساعد زوجه في الامور البيتية اما الهزيل فانه في الاغلب يعتقد ان اعباء الامة عليه وانها تهلك اذا لم يساعدها ويفكر لها . وقد نصحت المجلة التي نعرب عنها لكل فتاة تريد ان تحيا حياة طيبة مع زوجها ان تختاره من السمان حتى يكون لها خير كفء ولا ينغص عليها عيشها كما يخشى ان ينغصه النحيف .

اصل المظلات

كانت المظلات مستعملة عند الفرس والاشوريين والمصريين والرومانيين وبقيت زمناً دليل القوة والعظمة في كل قطر ولم ينتشر استعمال المظلات في اوربا الا سنة ١٦٨٠ وفيها انتشر استعمال المظلات للمطر فكانوا يؤجرونها للمارة من الساحات والجسور ثم كثر استعمال المظلات وابتذلت ولكنها لم تتغير عن حالتها بل كان ينظر فيها الى اللطافة وجمال قماشها وحسن قبضتها

اقدم شجرة

في جزيرة كوس من شاطيء آسيا الصغرى قامت الى اليوم اقدم شجرة في العالم وهي دلبة نبأ في ظلها ابقراط مؤسس الطب تلامذته واذ كانت قديمة حتى في ذاك الزمن فلا يتيسر ان يقال ان عمرها الآن اقل من الفين وخمسمائة سنة ومحيط جذعها عشرة امتار ولا تزال اغصانها كل ربيع تغطى بالورق وقد انشئت لها دعائم من القرميد تجعل

عليها اكبر اغصانها

ممثلو الفرنسيس

من اعظم دور التمثيل في فرنسا الاوبرا والاوبرا كوميك في باريز فالاولى تأخذ من الحكومة ثمانمائة الف فرنك اعانة سنوية والثانية ثلثمائة الف ومع ذلك لا تكاد تجد في ميزانيتها زيادة كبرى في المدخل عن الخرج لانهما يدفعان رواتب باهظة للممثلين والممثلات . فتدفع الاوبرا للمسيو الفارز ٢٢٠٠ فرنك كل ليلة اي ١٢٨ الفًا عن ٦٤ ليلة في السنة وتدفع لغيره من الممثلين رواتب تختلف في السنة بين ٨٥ الفًا الى ٣٠ الفًا وعن كل ليلة يغني فيها كاروزو عشرة آلاف فرنك وتتناول كل من العقيلة مارغريت كاري والآنسة شنان اربعة آلاف فرنك في الشهر وهكذا لا يقل راتب الممثلة او الممثل في الاوبرا كوميك عن الف فرنك في الشهر .

التدخين

قالت مجلة الحياة البيتية بمناسبة الضريبة التي وضعتها المانيا على انواع الدخان ان فرنسا ايضاً تفكر في وضع ضريبة ولكن على الدخان الجيد تبيع بما قيمته ٩٠٠ـ٩٨٨ـ٥٠٥ فرنك في السنة وان عادة التدخين تضر بالاحداث كثيراً كما ان التدخين لا يضر الضرر البليغ الذي يتصوره بعضهم فان ملايين من البشر يدخنون ولا شيء يصيبهم سوى انفاق دراهمهم وان كثيراً من الفلاسفة والعلماء والشعراء لا يدخنون ومنهم من يدخنون وان فرنسا تحسن صنعاً لو اعطت الحق لكل وطني ان يقبض على كل صبي يراه يدخن لما في ذلك من الضرر على جسمه كما ان في انكلترا يحق لكل انكليزي ان يأخذ بتلابيب كل صبي يسير على هواه ويعمد الى الكسل ولا يستعمل في العمل الصالح قواه

سقوط الشعر

اخترعوا في المانيا دواء بسيطاً لمنع الشعر من السقوط وذلك بان تأخذ مائتا غرام من جذع القراص (قريص) وتسحقه سحقاً جيداً وتغلى في لتر ماء ونحو نصف لتر من الخل الجيد ويصفق هذا المحلول فيفرك كل يوم محل الشعر

الصحافة

قالت مجلة النجاح ما مثاله معربًا : عرّف لاروس في معجمه ان الصحافي هو الذي يشتغل بتحرير جريدة وهذا التعريف لا يخلو من ابهام وغموض وذلك ان الواجب على الصحافي ان ينظر في جملة ما يتحتم عليه النظر فيه من الرسائل الواردة على ادارته وينظمها

بحسب الاحوال الداخلية وان يسارع في عمله و يكون مستعداً ابداً لاملاء الفراغ الذي يقضى عليه احيانًا ان يملأه لان للجريدة وقتًا معينًا تصدر فيه ولا مناص من تأخيره . فالمطلوب منه شيء كثير اكثر مما يطلب من غيره من ارباب الصناعات ماعدا الطاهي فان صناعة الطبخ اشبه بصناعة الجرائد من عدة وجوه فيطلب الى الطابخ اشياء كثيرة كما يطلب من الصحافي ووجه الشبه بينهما لايخلو من فروق فان الاول يغذي الاجسام والثاني يغذي العقول والفرق بينهما ان عدد من يقضى عَلَى الطاهي اطعامهم محدود اما عدد من يغذيهم الصحافي فكثير جداً قد يبلغ مئات الالوف .

ثم ان للصحافي جمهوراً كبيراً من الحانقين ممن لا يعرفون للشفقة معنى ولا يقيمون للرأفة وزنًا واعني بهم من يعتقدون انهم يحسنون معرفة كل شيء اكثر من غيرهم فالصحافي يقاسي الامرّين من اهل هذه الفئة

يأتي الصحافي في الصباح الى مكتبه فيجد امامه بريده يغطي منضدة التحرير وفيها ادلة عَلَى قلة حظوته من الناس فمنهم من يكتب اليه ليتك تعنى عناية كبرى باحوال المجلس البلدي وآخر يقول له : كفَّ عن مراقبة كل ما يحدث في البلدية وثالث يقول له ان السياسة لاتهمني فاذا انت لم تعن كثيراً بالحوادث المحلية اضطر الى الاشتراك بجريدة غير جريدتك ورابع يقول له العكس و يريده على ان يكثر من مؤازرته في المسائل السياسية والابتعاد عن سفساف اخبار المدينة . ومنهم من يقول لماذا لا تكثر من نشر الشعر فمتى عزمت عَلَى النشر فانا اقدم لك قطعاً من شعري ومنهم من ينتقد نشر الجريدة للنمر الرابحة في اليانصيب و يوعز الى صاحبها ان يستعيض عنها يوم لا شيء له يملأ به فراغه بقطعة من رواية يجعلها رفرفًا للجريدة ومنهم من يأمر محرر الجريدة ان يحذف بالمرة صفحة من تلك القصص الغرامية التي لافائدة منها

وهكذا يدرس الصحافي رأي قرائه من احكامهم عَلَى مقالاته واخباره والانكى من ذلك ان بعضهم يوجهون هذا النقد الى مديري الجرائد واصحابها وهؤلاء يعتقدون ان اقل نقد يوجه الى جريدتهم يوقف رواجها وربما يقصر حبل اجلها و يقضي عَلَى الصحافي اذ ذاك ان يفهم صاحب الجريدة وهناك المصيبة لانه يكون في الاكثر من رجال المال فقط ولا يهمه سواه .

ولا تنتهي آلام الصحافي بخروجه من غرفة التحرير بل انه اذا دخل محل قهوة ليستريح لا يلبث ان يراه بعض من يعرفونه فيحومون حوله معتقدين ان الفرصة قدحانت

لنصحه ويأخذون في نقد العدد الصادر ذاك النهار فاذا لم يسلم لهم بانتقادهم يزيد الى اعدائه اعداء

وبعد فان الارض لا يحرثها الا الفلاح والجنود لا يقودها الا ضابط والشعور لا يقصها ويزينها الا الحلاق ولكن الجريدة يعرف كل الناس ان تكتبها وتنتقدها . نعم الجريدة يحسن تحريرها كل طالب في مدرسة وكل فتىً شاب وكل قاعد في قهوة وكل معجب برأيه سخيف في عقله الا الصحافي فكأن كل القراء يخلقون والقلم وراء آذانهم

وهناك شؤون من مؤلمات الصحافي تعوق القرائح عن جريها واعني بذلك اذا اخطأ ذات يوم وحمل عَلَى احدهم فعندها تقام عليه القضية حتى اذا عاد يغضب الله عليه ويسجن فلا يرثي له احد . وللصحافة حسنات ولكنها قليلة جداً وذلك ان اعتقاد الصحافي يكون في الاكثر ان يخدم الحضارة وبعد العقول ولكنه كثيراً ما يضطر ان يكتب غير ما يعتقد بحسب الحال ومع ان راتبه قليل ولا تجد في الجرائد الا عدداً قليلاً تدفع رواتب حسنة للصحافي فالقسم الاعظم منها يدفع في السنة لرئيس التحرير من ٢٤٠٠ فرنك الى ٦٠٠٠ فرنك ومن الجرائد ما يستغني عن المحررين ومع كل هذا فان الصحافة مرغوب فيها كثيراً بما حوت من الظواهر والمظاهر ولان كل من خانهم الحظ فلم يقدروا ان يعتاشوا في صناعة اخرى يرون من انفسهم الكفاءة لانشاء الجرائد اه .

الحصاد في العالم

في شهر كانون الثاني يبدأ الحصاد في معظم مقاطعات اوستراليا ويشرع بنقل الغلات الجديدة في البحار كما يبدأ بالحصاد في هذا الشهر في كل من زيلاندا الجديدة وشيلي وبعض اقطار اميركا الجنوبية . ويبدأ الحصاد في شهر شباط في مصر والهند ويبقى الى اواخر آذار وفي نيسان يبتدأ بالحصاد في سورية وقبرص وعَلَى شواطئ مصر وكوبا والمكسيك وايران وآسيا الصغرى وفي ايار تحصد الغلات في آسيا الوسطى وايران وآسيا الصغرى والجزائر وسورية ومراكش وتكساس وفلوريدا والصين واليابان وفي حزيران تحصد الغلات في كليفورنيا واريغون والولايات الجنوبية من اميركا الشمالية واسبانيا والبرتقال وايطاليا والمجر والرومايلي وروسيا الجنوبية وممالك الطونة وجنوبي فرنسا واليونان وصقلية وكانتوكي كانساس وكولورادو وغيرها . وفي شهر تموز يشرع في العادة بالحصاد في ولايات الجنوب الشرقي والوسطى من انكلترا ويدوم في اوريغون ونبراسكا ومينوستا وايوا وايلينوا وانديانا وميشيغان واوهيو وانكلترا الجديدة ونيويورك وفرجينيا

وكذا العليا وفرنسا والمانيا والنمسا وايطاليا وسويسرا والمجر وبولونيا ويدوم الحصاد في شهر آب في بريطانيا وفرنسا والمانيا والبلجيك وهولاندة ومانيتوبا وكذا السفلى والمانيا وبولونيا . وفي ايلول يشرع بالحصاد في ايكوسيا من بلاد الانكليز واميركا والسويد وشمالي روسيا وبعض فرنسا ايضاً وفي تشرين الاول يحصدون الحنطة والقرطمان في ايكوسيا والذرة في اميركا وفي تشرين الثاني يشرعون بالحصاد في جنوبي افريقية (بلاد الراس وغيرها) وبيرو وشمالي اوستراليا وفي كانون الاول يشرع بالحصاد في ولايات لابلاتا وشيلي واوستراليا الجنوبية

تقويم الهواء

اذا رأيت الكواكب في الصيف تتلألأ وهي كثيرة فهي اشارة الى صفاء الجو وفي الشتاء علامة على البرد . فاذا فقدت لمانها بدون ان تظهر السماء غائمة فذلك اشارة الى المطر . ولمعان ضوء القمر دليل على الصحو واذا احاطت به الهالة البيضاء فدليل المطر . متى سطعت الشمس عند الشروق طاردة امامها الابخرة البيضاء التي تبدو عند الفجر فذلك اشارة على ان اليوم مصح ومتى اشرقت الشمس وبدا معها في الافق ضوء اصفر محاط بالضباب فذلك علامة المطر ومتى غابت وبدا معها لون ذهبي قليل الحمرة والسماء صافية الاديم فذلك اشارة الى جودة الهواء واذا اخترقت اشعتها السحاب عند الغروب وبدت في باقات مستطيلة تتماس بعضها مع بعض فذلك اشارة المطر . والسحاب الذي يقرب من الارض بعد المطر يدل على الصحو والسحاب الذي يشبه كتب الثلج علامة الهواء في الصيف والثلج في الشتاء والسحاب الغليظ الاسود الذي يبدو في صورة منحدرات وجبال اشارة الى العواصف والضباب الذي يحدث خلال الصحو ويرتفع تاركاً وراءه سحباً دليل رداءة الهواء ويشعر الهواء الشمالي والشمال الشرقي والشرقي والجنوب الشرقي بصفاء الجو وهواء الشمال الغربي والغربي ولا سيما الجنوب الغربي والجنوبي يؤذن بالمطر . وضباب الصيف الذي يبدو صباحاً يبشر بصحو النهار والضباب الذي يرتفع بدلاً من ان يتساقط ندى يدل ابداً على المطر والضباب الذي يبدو في الوقت الرديء يدل على ان الصحو قريب وضباب الخريف مقدمة للجليد الاول ومتى اخذ البط يقفز ذات اليمين وذات الشمال في الصحو صائحاً وغائصاً في الماء وتمرغ الدجاج في التراب وطار السنونو محوماً على سطح الماء فلك ان تحكم بان المطر لا يلبث ان يهطل .

البقول والاخلاق

يعرف الناس التأثير المضر الذي ينشأ من الاكثار من القثاء . والبصل ما زال منذ بدء العالم يبعث متناوله على النفقة ومن يأكلونه فجأ سبد دمعهم في رية من آقيهم والجزر يقوي في الطفل غريزة السلب . والكراث يحدث الخلق ويكثر في متناوله الصبر ويجعله كفوءاً للعمل في الزراعة والفجل الاسود يولد السوداء وعلى نحاف الاجسام ان يتوقوا تناول البطاطا لانها سبب الهزال . ومن اراد تقوية عقله فعليه ان يتناول الثوم . ومن احب السبانخ يتطال الى المناصب العالية . ومن اكثر من العدس قوي فيه الميل الى البحث الجبري والارز يكثر منه الحرارة والجرجير يمنع القرعة اما اللوبيا البيضاء فقد قال زولا انها نافعة لمن يطيرون في المناطيد

جمال الاصقاع

جمال كل صقع اليوم مورد ثروة لاهله . عرف السويسريون هذه الحقيقة وقدروا ما خصت يد الصانع بلادهم به من بهيج المناظر وجيد الماء والهواء فتوفروا على تهيئة اسباب الراحة في جبالهم واوديتهم وسهولهم وبحيراتهم وانهارهم فقد كان سكان سويسرا سنة ١٨٨٩ ٣٠٠ ـ ٩٣٣ ـ ٢ وكان مايلحق الفرد منهم من الثروة ٧٢ فرنكاً ونصف ومابرح عدد السائحين الذين يأتونهم يزيد حتى بلغ عدد من زاروها سنة ١٨٩٩ مليونين ونصفاً وعدل ما تركه كل واحد منهم من الربح ١ ٨٩ فرنكاً فارتفعت ثروة كل فرد او اخر سنة ١٨٩٩ الى ١٥٢ فرنكاً ونصف . وهكذا بعد ان كانت هذه البلاد من افقر بلاد العالم اصبحت من اغناها لانها من اجملها . ثم ان لسويسرا من معاملها مورد ثروة آخر فقد بان بالاحصاء انها تخرج كل سنة ٩١٧ مليون فرنك من مصنوعاتها على ان جمال اقاليمها هو اهم مورد لغناها . ولذلك تراها تنشيء كل يوم العمارات الجديدة التي تستوفي فيها شروط الراحة والرفاهية فلا يلبث المال الذي يدخل تلك الفنادق ان يتسرب الى جيوب الفلاحين في اصغر قرية . وفي الفنادق السويسرية من انواع البذخ ومعدات الحضارة مالا تكاد تجد مثله في نيس ومونتكارلو وقد كان عدد اعضاء جمعية ارباب الفنادق السويسرية سنة ١٩٠٠ ٨٢٨ عضواً ولها ٢٢٠ ـ ٦٥ سريراً للسياح وتصدر باسمها جرائد وتنشر صور بلاد سويسرا الجميلة على جدران العالم المتمدن وتفرق بالالوف كتباً تدل السائح على ما في سويسرا من مظاهر الراحة والظرف والصحة . ولو احتذت سورية هذا المثال لما اتت بضع سنين الا وهي من اغنى اقطار الارض

تقويم العيد

السنة عند الصينيين ٣٦٠ يوماً تنقسم الى اثني عشر شهراً ينقسم اليوم الى ٩٦ جزءاً والاعياد كثيرة عندهم واكثرها اعياد الطبيعة والدين ففي شهر كانون الثاني عيد العذراء الصينية وفي ايار عيد حامية العميان . والعمى من اعظم امراض مملكة ابن السماء . وفي شهر ايلول عيد الحصاد وعيد الزراعة وعيد الرعد وفي كانون الاول عيد ولادة فيلسوفهم كونفوشيوس وعيد الههم بوذا

عمر الانسان

يقول احد علماء الالمان انك اذا فرضت مالك في الحياة فجعلته ٨٦ سنة وقسمت الباقي على اثنين يكون الحاصل ما بقي لك من سني الحياة . ويقول عالم بلجيكي ان خمسة في كل واحد يعيشون وفي سن الخامسة ١١٩ من الالف وفي العاشرة يبلغون ٥١٢ وفي الخامسة عشرة ٣٤٧ وفي العشرين ٢٠٧ وفي الخامسة والعشرين ١٥٦ وفي الثلاثين ١٢٩ وفي الخامسة والثلاثين ٩٧ وفي الاربعين ٧٨ ويقول ان في كل الف رجل عمر الواحد منهم ستون ٥٥٩ يعمرون السبعين و ١٢٠ يبلغون الثمانين و ١٧ الى التسعين واربعة فقط يبلغون سن المئة من كل الف شخص عمر الواحد منهم تسعون ٦

مدارس الصناع

لكل صناعة في الغرب مدرسة خاصة بها فعدد تلامذة المدارس الصناعية في فرنسا ٢٢ الفاً ومثل هذا القدر عدد تلامذة المدارس الصناعية ايضاً في الدانيمرك واهلها مليونان ونصف في حين ان اهل فرنسا نحو اربعين مليوناً وفي الدانيمرك ١٢١ مدرسة صناعية و ٥٧ مدرسة تجارية وعدد تلامذة مدارس الصناعات والتجارة في المانيا ٣٢٩٬٦٥٦ تلميذاً تصرف عليهم في السنة ثلاثين مليون فرنك ما عدا الاعانات الادبية والمادية التي لا تزال تنهال عليها وكان عدد تلامذة المدارس التجارية في بروسيا فقط سنة ١٩٠٣ ثلاثين الفاً وهذه المدارس اجبارية . وفي سويسرا مدارس كثيرة للصناعات المختلفة ومدارس زوريخ وجنيف يضرب بها المثل بكثرتها واتقانها ولليابان ٣٨ مدرسة للصناعة فيها اربعة آلاف طالب وفي مدارسها الزراعية ٦٢ الف طالب وفي مدارسها التجارية ١٣ الف طالب ومدارس المعامل خاصة بصنع الزهور الصناعية والتطريز وليس من تلميذ في المدارس الصناعية في السابعة من عمره الا وهو يعرف يصور زهرة او حشرة او غصناً ولا عجب من ثم اذا زادت تجارة يابان زيادة كبرى فكانت تجارتها

الخارجية سنة ١٨٩٧ ٩٨٢ مليون فرنك فاصبحت سنة ١٩٠٦ مليارين و١٥٩ مليون فرنك ٠

التكاليف او الضرائب

قالت مجلة الاقتصاديين الفرنسوية ما ملخصه : من القواعد الاقتصادية المعروفة ان يكون ابناء الوطن الواحد سواء في تحمل الضرائب شركاء في الغرم كما هم شركاء في الغنم وان الضرائب يجب ان تفرض بحيث لاتقف حاجزاً دون حرية التجارة والضرائب مخصصة للخدم العامة في الامة ٠ كانت البضائع ولا سيما الغلات اذا اريد نقلها في اوربا منذ قرن وربع من اقليم الى اقليم تراقب انواع المراقبة وتؤخذ من اصحابها عدة رسوم ولكن رجال الاقتصاد تغلبوا على رجال السياسة وابطلوا بالتدريج في اوقات مختلفة هذه العراقيل في التجارة علماً منهم بان التجارة ليست سرقة كما يقول بعضهم بل هي مقايضة عن تراض بين البائع والشاري ولان التضامن الذي كان اول من قال به آدم سميث شيخ الاقتصاديين هو صورة من صور تقسيم الاعمال يستلزم الاخصاء في الكفاءات والتنويع في الحاجات فاذا ساءت مثلا زراعة القطن في الولايات المتحدة تقف في الحال معامل لانكشير في انكلترا

ابان الاقتصاديون منزلة قاعدة العرض والطلب من عالم المعاملات لانها ميزان المقايضات بين الامم وهي من الضروريات التي لا تستغني عنها دولة ٠ قال كثير من الاقتصاديين ان تجار غيرنا من الامم هم كتجارنا ابناء وطننا فدل بهذا القول على فائدة المنافسة التجارية واشار الى التشبث بها ما امكن والمنافسة اليوم من اعظم العوامل الادبية في المدنية الغربية ٠ وان الخطر العظيم الذي ينالها هو الاستعاضة عن المنافسة الاقتصادية بالمنافسة السياسية ٠ لاجرم ان الاقتصاديين ترددوا بشأن اجرة العامل ولكنهم توصلوا الى ان فرض الاجور هو عبارة عن وفاق للمقايضة وان الاجرة لا تؤدي عن العمل بل في مقابل ما تنتجه وينشأ من اثرها وان صاحب العمل يؤدي للعامل سلفة من اجرته وان المتبايعين هم الذين يؤدون اجور العملة كما يؤدون الضرائب والمكوس والمبتاعون هم الناس اجمعون ٠ اما الاختلاف بين رأس المال والعمل فليس في الحقيقة الا اختلافاً بين المنفق الذي يهمه ان يرى اسعار الاسواق متدنية ما امكن وبين العامل الذي يقبض اجرته ويرمي برفع الاجور وتنقيص ساعات العمل الى زيادة قيمة ما يعود عليه ٠

ولم يفتأ الاقتصاديون يحاربون كل من يقصدون احداث قيم مصنعة بما يدبرونه من الوسائط السياسية والادارية والشرعية او يعمدون الى استعمال الشدة والقسوة في انفاذ ما يريدون سواء كان بوضع الضرائب او الاعتصابات او برفع سعر الفائدة في الاقتراض او برفع سعر السلعة الفلانية او قيمة الشيء الفلاني ثم زيادة سعر الحنطة بوضع رسوم الجمارك عليها وخفض قيمة الخبز الى اقل من سعر الحنطة مادته الاولى بوضع رسوم البلدية عليه

ان الاحسان والرفق بالضعفاء يزيدان في شقاء البائسين ويكثران من عدد المحتاجين والمعوزين . فالاقتصاديون يوجدون الاسباب للقضاء على الشقاء من اصله بدلاً من ان يعمدوا الى صوغ جمل محزنة مبكية كما يفعل من يجمعون الصدقات ليستدروا باعمالهم اموال المحسنين ولذلك يوصف الاقتصاديون بكزازة الايدي واولئك المحسنون بسباطتها .

حارب الاقتصاديون الامتيازات في كل مكان واثبتوا ما يحق لكل عامل ان يتناوله من عمله ورسموا له جزاء يساوي اتعابه ولقد ابان آدم سميث كيف ان من يبحثون عن منفعتهم الخاصة في ضمن النجاح العام . ولا يستطيع مالك رأس المال ان ينتفع به الا باحد وجهين اما ان يستعمله في امور تأتي بربح او ان يقرضه لاناس يستخرجون منه ارباحًا يعطون لقاءها فائدة . ولا يأتي رأس المال بربح الا على شرط ان يلقى به للاستثمار او ان يصرف في سد حاجة ويدفع عنها ما يقابلها واجرة رأس المال هي في الحقيقة مقياس الانتفاع من استخدامه

قال الاقتصاديون : ان على المرء تبعة عمله فلا تعتبر الحكومات اداة بسيطة وآلة صماء فالرق والعبودية ممنوعة وحرية العمل اشرف من الاستعباد فيه وان العامل اذا عمل مدفوعًا بعامل الربح يعمل اكثر مما اذا عمل مكرهًا واثبتوا ان لاشيء بلا مقابل ولكل عمل ثمن واجرة . وان المسائل الاقتصادية تجلى بالربح والخسارة وهناك المعيار الذي قلما يختلف مما ليس لغيرها من المسائل .

فالافراد يعملون و يقتصدون لان الحكومات لا تخضع لناموس الربح والخسارة بل تنفق جزافًا وتسرف اسرافًا . ورجال الحكومات والبلديات في العالم يقدرون فائدة اعمالهم ببعض الآراء الوطنية والسياسية والدينية والصحية والادارية والشخصية فقد كان الناس في القديم عندما كانوا ينكبون بوضع الضرائب يتعزون بان ما يؤخذ منهم

يعود عليه . حتى قال فولتير في القاموس الفلسفي ان ملك انكلترا يأخذ كل سنة مليون ليرة انكليزية وهذا المليون يعود برمته بانفاقه له الى امته (١) ولكن الاقتصاديين ردوا هذه الاوهام وقالوا ان الخراج يستولي على كل شيء من الدخل والخرج والوفر ولروؤس اموال ارباب الاملاك والمستثمرين للاعمال الكبرى والعامل وان هاته الطبقات لو توفر لها ما تتقاضته منهم الدولة لتنفقه على الموظفين والجند لكانوا هم ايضاً انفقوه ولتيسر لهم ان يقتصدوا منه جانباً ينفقونه في تحسين اراضيهم واعمالهم وربما كان للعامل من هذا الوفر رأس مال له ولا يزال الى اليوم اناس ممن يزعمون انهم على شيء من العلم والتجارب يقولون في الاعمال الغير المثمرة وماذا يضر ذلك مادام المال ينتقل من يد الى اخرى . يقولون هذا وهم لا يدركون ان الاموال التي تصرف في اعمال عامة لا فائدة منها مثل بعض الطرق الحربية بل هي ملقاة في المياه وضائعة ضياعاً لا يرجى معه رجعة وان الاسراف في هذا المال يقلل من روؤس الاموال الموجودة كما يقللها الحريق والغريق

يقتصد الاقتصاديون من مال الحكومة لان مالها هو مال المكلفين . قالوا ان الخراج والجباية الباهظة تقضي على نشاط العاملين . فالعثماني لا يعمل متى علم ان الباشا سيسلبه ما ظهر من ارباحه . الخراج لم يغن قط امة وان احسن الكرم الذي تعطف به حكومة على محكومين ان تتناول من المكلفين اقل ما يمكنها من الجباية والوزائع . والمكلفون هم العالم اجمع . ولذلك قال كبار الاقتصاديين ان الحكومة في اسبانيا هي الجرح النغار في جسم البلاد

قال الاقتصادي شارل دونويه ان الحكومة هي المغنية في الحقيقة ونفس الامر . وليس معنى هذا انها هي التي تصنع المصنوعات بل لانها تحمي الصانع في صناعته وتزيد في تأمينه وراحته فاذا حصلت ارباحه وقدرتها على ما يجب من الاعتدال يقوم غيره من ارباب الاقتدار ويجمعون روؤس اموال ويحسنون الزراعة . فاغناء الحكومة هو توزيعها الثروة في الناس على نصاب العدل وذلك لان الحكومة كما قال المشار اليه اذا ارتفعت حمايتها ولم تمد جناح امنها على ما يجب تفقد الثروات قيمها الحقيقية وتنقطع القوى المنتجة عن الانتاج وتصاب بالانحلال والخمول وعلى العكس اذا نشرت الامن فانها تزيد قيم

(١) لابن خلدون في المقدمة في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية كلام يشبه كلام فولتير فراجعه

جميع الخيرات وتزيد جماع القوى نشاطاً ومضاء واخصاباً وكلما ارتقى الامن والثقة يزيد النجاح وكلما زاد النجاح يزيد الناس رغبة في رفع اعلام الامن ويرون الحاجة اكثر ما تكون مساساً اليه ٠

فالحاجة الى الراحة اعظم من الحاجة الى نشر كلة المدنية ورفع شأنها والناس يتقاضون عن الاسر يعاً خالصاً تراعى فيه الحرية مع التشدد في المحافظة على النظام والراحة حتى لا ينغص احد في استعمال قواه وما تملك يداه والواجب ان تكون هذه الراحة باقية عامة وان لا يكدر من يصرفون قواهم ورؤوس اموالهم في المشاريع في مقايضاتهم واعمالهم مثال ذلك ان المانيا تضرب الضرائب على القمح واللحم لتغري بذلك كبار ارباب الاملاك وتوطد اقدام الفلاحين في قراهم

فتأخذ منهم جنداً قوياً تقابل به الجند الذي تدعوه الى حمل السلاح من فستفاليا وولاية رين وهم اهل صناعة يدفعون لها الضرائب التي تعدل بها القوى في الانتخابات ٠ والحكومة المجرية تريد ان تنشيء صناعات لتهيء عملاً لمن لا عمل له من الفلاحين الذين يتكاثر عددهم اليوم بعد اليوم ولتحول بذلك دونهم ودون الهجرة ٠ والاقتصاديون يبحثون عن عامة الوسائط التي يراد بها معاونة العلم على نجاحه والصناعة على الترقي وللزيادة في تنقل الناس والبضائع والاموال قائلين ان صاحب رأس المال يحتاج الى امرين الحرية ليستخدم رأس ماله فيما يعود عليه بفائدة اكثر واللامن لينال ثمرة رأس ماله فاذا اخطأته الحرية يضطر في الغالب ان يضع رأس ماله في اعمال قليلة الربح وربما يؤدي به ذلك الى الخراب واذا اعوزه الامن يبحث لا عن الموارد النافعة له اي عن انفعها له ولغيره بل ينقل رأس ماله الى مكان آخر او لا يستعمله الا في امور محدودة

علائم الموت

فقدان العقل والشعور والاحساس في الجلد ووقوف التنفس والدم وغؤور العينين هي العلائم التي تثبت الموت ولكن هذه الاشارات قد تخطيء ٠ وقد ابان احدهم مؤخراً طريقة لمعرفة الميت ممن لم يزل فيه نسيس من الحياة لا ينتظر معها تفسخ الجثة حتى يتحقق ذهاب الروح منها وهي ان يجعل المائت في هواء غير متحرك ويوجه احد اعضائه الى الارض ويرسل عليه نار تمس طرف الجلد مساً خفيفاً فينتفخ الجلد بعد بضع ثوان انتفاخاً يسمع صوته ويكشط هذا الانتفاخ مكاناً من الجلد كالقرش وتنقبض بقايا البشرة المكشوطة حوالى المكان المحروق ولكن بدون سائل ٠ واذا جرب ذلك في

شخص حي تحدث في بشرته بثرة ذات مادة مائية لا بثرة غازية كما في شخص ميت وعليه فان البثرة الغازية لا تنشأ الا بعد وقوف مجرى الدم و بذلك يتحقق موت الشخص

افضل الغذاء

من المسائل الصعبة اختيار افضل الغذاء فقد قال علماء الفرنجة ان لحم الخنزير اذا اكثر منه الانسان تسود الدنيا في عينيه وعَلَى العكس في مستعمل لحم البقر فانه يورثه قوة ونشاطاً . والظاهر عَلَى ماقالوا ان لحم الخروف اشبه بلحم الخنزير اما لحم العجل فمن خواصه ان يسلبك القليل من النشاط الذي فيك . والزبدة واللبن الحليب تجود بتناولهما صحة النساء . ومتى اكثرنا من تناول الزبدة تورثنا كسلاً وعَلَى رجال الادب وارباب الاقلام والصناعات النفيسة وكل من يصرفون من دقائق الدماغ كثيراً ان يكثروا من تناول التفاح وان يجتنبوا البطاطا فانها كالزبدة تورثهم الكسل . ومن الغريب ان لحم الحمام هو اتعب اللحوم للمعدة والجسم حتى ان احد الانكليز تراهن مع احدهم عَلَى ان يتناول لحم الحمام ثلاثين يوماً فلم تمض عشرة ايام حتى عراه العياء وطلب ان يطعم شيئاً من المرق

النوام

تقول مجلة المطالعات البيتية ان مرض النوم او النوام الذي اكتشفه العلماء عند بعض الشعوب في اواسط افريقية ليس من الامراض الحديثة اذا نظرنا الى الحوادث المشابهة له التي اوردها قدماء المؤلفين فقد قص علينا بلنيوس القديم ان الفتى ابمنيدس نام ذات يوم في كهف سبعاً وخمسين سنة بدون ان يستيقظ وانه بعد ان انتبه من نومه عاش الى سن المئة والخامسة والسبعين . وليس بلينوس هو الوحيد في بابه فهناك السبعة نيام في افسيس (اصحاب الكهف) الذين لم ينجوا من الموت خلال الاضطهادات التي وقعت عَلَى المسيحيين بامر دسيوس الا باعتصامهم في مغاور ناموا فيها ١٩٦ سنة عَلَى ما يؤكدون . وهذا النوم اشبه بداء النقطة ولكنه لا يشبه النوام الذي تكلم عنه سوانيدوس من فيرون في كتابه وصف بلاد المسكوب قال انه يوجد شعب يسكن لوكوموريكو وهي ناحية واقعة فيما وراء بلاد السارماتيين فيظهرون انهم ماتوا منذ اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الاول كالضفادع لشدة البرد القارس في بلادهم وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر نيسان يستيقظون وتعود اليهم حياتهم ولسكان هذه البلاد صلات مع الامم المجاورة وهم يدخرون عندما يقرب نومهم السنوي موتهم ونتهم

من الطعام فيأتي جيرانهم عند ذاك يبحثون عنهم تاركين بضائع وميرة على سبيل المقايضة بثمن متساو ومتى عادت الى اللوكوموز يكبين حياتهم يطالبون بحقوقهم اذا لم يجدوا المقايضة متناسبة وتثور بينهم خصومات ربما ادت الى حروب بين هاته الشعوب المسكوبية . وما ندري اذا كان هذا الشعب لم يوجد له اثر الا في مخيلة الكاتب الايطالي او انه اختلطوا عليه مع اليرابيع التي ترقد في الشتاء

رماد الانسان

يقول الاميركان ان المرء يبلغ غاية الصحة في سن الاربعين ويقدرون ثمن الرجل الشجاع الذكي العامل بالفي ليرة اما الكيماويون فيقدرون ان ثلثي جسم الانسان مؤلف من ماء ممزوج بسموم فنطفتنا تساوي الوفًا من بيض الدجاج والهيدروجين الذي فينا يكفي لنفخ منطاد غير قليل فاذا اضيف اليه الكربون يتأتى ان يضاء به شارع طوله خمسمائة متر طوال الليل ففي احشائنا ما يساوي ١٩ فرنكاً من غاز الاستصباح وفي هذا الكربون مادة كبيرة للتصوير يستخرج منها ٧٨٠ دزينة من جيد اقلام الرصاص فاذا قطعت رجل انسان يستطيع ان يستخرج منها مادة قلم الرصاص تكفيه لكتابته مادام حيًا . وفي الانسان مادة فوسفورية تكفي لعمل ٨٢٠ الف من الثقاب اي عود الكبريت وفيه من المواد الدهنية ما يكفي لعمل عشر دزينات من الشمع الجيد اللهم اذا استخدمناها لعمل الحساء وهذا يتأتى لنا تمليحه بالملح الذي تحويه انسجتنا وهو نحو عشرين ملعقة

ضمان الاغلاط

في الغرب شركات لضمان العقارات من الحريق وضمان الاسرات من موت ابيها وضمان الغلات من البرد وضمان السفن من الانواء وضمان الاجسام من العوارض وها قد اسس الالمان اليوم شركة لضمان الانسان من غلط يرتكبه موظفو البرق في كلمة او كلمات تؤدي الى تحريف الرسائل البرقية تضرر بذلك صاحبها او لم يتضرر

الاجراس

اعظم اجراس الكنائس في العالم جرس كنيسة الثالوث في موسكو وزنه ٦٧٠٨٣ كيلو غراماً وجرس بلدة موسكو ٦٥ الف كيلوغرام والجرس الامبراطوري في كولونيا زنته ٢٨ الفاً وجرس السفوايارد في باريز وزنه ١٦٨٨٨ وجرس عما نويل في كنيسة نوتردام في باريز ١٢٠٠٠ وجرس سيدة الحماية في مرسيليا ٨٠٤٤ وجرس كليمان في جنيف وهو من الفضة وزنه ٢٠٧٠ كيلوغراماً

العدد المشؤم

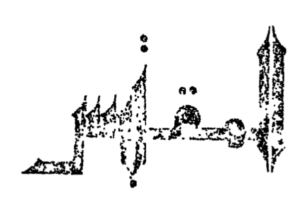
يتشاءم عامة الافرنج من العدد ١٣ وهذا التشاؤم كان قبل الميلاد عنوان الموت فكان العدد ١٣ في ورق اللعب الذي يستعمله اهل بوهيميا للتنبؤ عن المستقبل عبارة عن هيكل عظام مسلح بمنجل ولهذا الرمز اثر عند بعض اليهود فلا يلفظ به عامتهم ويسمح لكبار حاخاميهم ان يذكروه مرة في السنة · والعدد ١٣ هو العدد المقدس عند اهل المكسيك وقبائل يوكاتان اذ كان في بلادهم ثلاث عشرة حية تعبد وتمجد · وللعدد المذكور شأن في الاساطير النروجية وغيرها ·

نبات يضيء

كل يوم يكتشف علماء النبات خواص لم تكن معروفة لبعض النباتات فبالامس اكتشفوا نباتًا يغتذي باللحوم ونباتًا يطير كالمنطاد والطيارة الهوائية واليوم اكتشفوا في برازيل في مقاطعة سان جواكيم من اعمال ولاية سان باولو نباتًا يضيء كالكهرباء او كمصابيح الغاز والبترول والشموع ويسميه اهل تلك البلاد نبات الاوروبيه ويتنافسون فيه فيجعلونه في اصاصي واواني ويزينون به القصور فيظل اياماً يبعث نوراً يكفي لان يطالع المطالع به جريدة وكتاباً · قالوا انه من فصيلة النباتات التي لازهر لها وان كان لايشبه الفطر ·

غابة عظيمة

في شاطئ العاج احدى مستعمرات فرنسا في افريقية غابة مساحتها ١٢٠ الف كيلومتر مربع لم تمسها يد بشر وفيها من انواع الحراج والنبات من ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ نوع منها خمسون نوعاً يبلغ علو شجرها خمسين متراً وجذعها من متر الى مترين ونصف وعدد الاشجار التي يبلغ طولها من ٢٥ الى ٤٠ متراً من ١٥٠ الى ٢٠٠ وهناك من انواع الاشجار اغربها وفي ظلالها من النباتات ادهشها ومن جملتها المطاط والنخيل الذي يستخرج منه الزيت ·



كتاب العرب

او الرد على الشعوبية

لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة من اهل القرن الخامس (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما (قال) ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة جعلنا الله واياك علي النعم شاكرين. وعند المحن والبلوى صابرين . وبالقسم من عطائه راضين . واعاذنا من فتنة العصبية وحمية الجاهلية وتحامل الشعوبية فانها بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة وتلحق بها كل رذيلة وتغلو في القول وتسرف في الذم وتبهت بالكذب وتكابر العيان وتكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف وتغص

(١) وجده الشيخ جمال الدين القاسمي من علماء دمشق في مكتبة المرحوم شاكر افندي الحمزاوي الدمشقي في مجموعة كانت موقوفة ونجز وقفها معنونًا عليه بكتاب ذم الحسد تأليف العلامة ابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رحمه الله تعالى بخط مسند الشام في عصره الشيخ ابراهيم الجينيني الحنفي جامع الفتاوى الخيرية — من رجال القرن الثاني عشر — وقد نسخها رحمه الله على اصل مخروم الآخر حتى كتب في آخر نسخته ما مثاله : هذا آخر ما وجدته الخ .

من النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكر بالشجا . وتطرف منه نلي القذى . ونبعد من الله بقدر بعدها ممن قرب واصطفى . وفي الافراط الهلكة وفي الغلو البوار والحسد هو الداء العياء . اول ذنب عصي الله به في الارض والسماء . ومن تبين امر الحسد بعدل النظر اوجب سخطه عَلَى واهب النعمة وعداوته لمؤتي الفضيلة لان الله تعالى يقول «نحن قسمنا بينهم معيشتهم ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا» فهو تبارك وتعالى باسط الرزق وقاسم الحظوظ والمبتدي بالعطا والمحسود آخذ ما أُعطي وجار الى غاية ما أُجري .

وقال ابن مسعود: لا تعادوا نعم الله قيل ومن يعادي نعم الله قال: حاسد الناس وفي بعض الكتب يقول الله: الحاسد عدو نعمتي متسخط لقضائي غير راض بقسمي .

وقال ابن المقفع : الحاسد لا يبرح زارياً على نعمة الله لا يجد لها مزالا ويكدر عَلَى نفسه ما به فلا يجد لها طعماً ولا يزال ساخطاً عَلَى من لا يترضاه ومتسخطاً لما لا ينال فوقه فهو مكظوم هلع جزوع ظالم اشبه شيء بمظلوم محروم الطلبة منغص المعيشة دائم السخطة لا بما قسم له يقنع ولا على ما لم يقسم له يغلب والمحسود يتقلب في فضل الله مباشراً للسرور ممهلاً فيه الى مدة لا يقدر الناس لها عَلَى قطع وانتقاض ولو صبر الحسود عَلَى ما به وضمر لجوته كان خيراً له لانه كلما هرّ خسأه الله وكلما نبح قذف بحجره وكلما اراد ان يطفيء نور الله اعلاه الله ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون . ولله در القائل :

واذا اراد الله نشر فضيلة يوماً اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

ولم ار في هذه الشعوبية ارسخ عداوة ولا اشد نصباً للعرب من السفلة والحشوة واوباش النبط وابناء اكرة القرى فاما اشراف العجم وذوو الاخطار منهم واهل الديانة فيعرفون مالهم وما عليهم ويرون الشرف نسباً ثابتاً .

وقال رجل منهم لرجل من العرب : ان الشرف نسب والشريف من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم : وانما لهجت السفلة منهم بذم العرب لان منهم قوماً تحلوا بحلية الادب فجالسوا الاشراف وقوم اتسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان فدخلتهم الانفة لآدابهم والغضاضة لاقدارهم من لوم مغارسهم وخبث عناصرهم فمنهم من الحق نفسه باشراف العجم واعتزى الى ملوكهم واساورتهم ودخل في باب فسيح

لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه ومنهم من اقام على خساسة ينافح عن لؤمه ويدعي الشرف للعجم كلها ليكون من ذوي الشرف ويظهر بغض العرب يتنقصها ويستفرغ مجهوده في مشاتمها واظهار مثالبها وتحريف الكلم في مناقبها وبلسانها نـ... وبهممها انف وبآدابها تسلح عليها فان هو عرف خيراً ستره وان ظهر حقره وان احـ... التأويلات صرفه الى اقبحها وان سمع سوءاً نشره وان لم يسمعه نفر عنه وان لم يـ... تخرصه فهو كما قال القائل :

ان يعلموا الخير يخفوه وان علموا شراً اذيع وان لم يعلموا بهتوا

ومن ذا رحمك الله صفا فلم يكن له عيب وخلص فلم يكن فيه شوب ·

وقيل لبعض الحكماء هل من احد ليس فيه عيب فقال لا لان الذي ليس فيه عيب هو الذي لا يموت وعائب الناس يعيبهم بفضل عيبه و ينتقصهم بحسب نقـ... ويذيع عوراتهم ليكونوا شركاءه في عورته ولا شيء احب للفاسق من زلة العالم ولا الى الخامل من عثرة الشريف قال الشاعر :

ويأخذ عيب الناس من عيب نفسه مراد لعمري ان اردت قريب

وقال آخر :

واجرأ من رأيت بظهر غيب على عيب الرجال ذوو العيوب

وقد كان زياد بن ابي سفيان حين كثر طعن الناس عليه وعلى معاوية في استلحاقه عمل كتاباً في المثالب لولده وقال من عيركم فقرعوه بمنقصته ومن ندد عليكم فابدءوه بمثلبته فان الشر بالشر يتقى والحديد بالحديد يفلح ·

وكان ابو عبيدة معمر بن المثنى اغرى الناس بمشاتم الناس والهجهم بمثالب العرب وحاله في نسبه وابيه الاقرب اليه حال نكره ان نذكرها فنكون كمن امر ولم يأتمر وزجر عن القبيح ولم يزدجر وهي مشهورة ولكن كرهنا ان تدوّن في الكتب وتخلد على الدهر ولا سيما وهو رجل يحمل عنه العلم ويحتج بقوله في القرآن · ومن اتعب قلباً وانصب فكراً ممن اراد ان يجعل الحسنة سيئة والمنقبة مثلبة ويحتال لاخراج الباطل في صورة الحق فيقصد من المناقب مثل قوس حاجب فتحك منها ويزري بها ويذهب في ذلك الى خساسة العود وقلة ثمنه وهذا لو كان على مذاهب التجار والسوق في الرهون والمعاملات لرجع بالعيب على الآخذ لا على الدافع لان الدافع لا يألو ان يدفع احقر ما يجد في اكثر ما يأخذ والمغبون من غرّ بالصغير عن الكبير وانما رهن عن

العرب بما ضمنه هنهاهن كف الاذى عن مملكته حتى يحيوا وتنكشف عنهم السنة ولو كان مكان القوس مائة الف رأس من الغنم عن هذا السبب ما كان القوس الا احسن بالدافع والقابل لان سلاح الرجل شيء عزه وشرفه واسلام المال احسن من اسلام العز والشرف ٠ وقد يدفع الرجل خاتمه وبرده او رداءه عن الامر العظيم فلا يسلمه خوفاً من السبة وانفة من العار ٠

قال ابو عبيدة لما قتل وكيع بن ابي سود التميمي قتيبة بن مسلم الباهلي بخراسان بلغ ذلك سليمان وهو بمكة وهو حاج خطب الناس بمسجد عرفات وذكر غدر بني تميم واسراعهم في الفتن وتوثبهم عَلَى السلطان وخلافهم له فقام الفرزدق ففتح رداءه وقال يا امير المؤمنين هذا رداي رهناً بوفاء تميم ومقامها على طاعتك فلما جاءت بيعة وكيع قال الفرزدق :

فدى لسيوف من تميم وفى بها ردائي وحلت عن وجوه الاهاتم

يريد الاهتم بن سمي التميمي ورهطه وهذا سيار بن عمرو بن جابر الفزاري ضمن لبعض الملوك الف بعير دية ابيه ورهنه قوسه فقبلها منه عَلَى ذلك وساقها اليه وفيه يقول القائل :

ونحن رهنا القوس ثم تخلصت بالف عَلَى ظهر الفزاري اقرعا

وسيار هذا هو جد هرم الذي تنافر اليه عامر وعلقمة ٠ ومن هذا الباب قول جران وذكر اجتماعه مع نساء كان يألفهن :

ذهبن بمسواكي وقد قلت انه سيوجد هذا عندكن فيعرف

يظن من لا يعرف هذا الخبر انهن سلبنه المسواك فاعتد عليهن واخبرهن انه سيوجد عندهن ويعرف لقدر المسواك عندهن وعنده ولان الاعراب انظر قوم في التافه الحقير الذي لا خطر له وكيف يظن به وبهن هذا وبلد نجد مستخلس بضروب من شجر المساويك لا تحصى فكيف يبخل عَلَى نساء يهواهن بعود هو يصطلي به ويختبز ويطبخ بشجره ومتى احتاج الى مسواك منه لم يتكلفه بثمن ولم يبعد في طلبه والمعنى ان نجداً تختلف منابتة فمنه ما ينبت الاسحل ومنه ما ينبت الاراك ومنه ما ينبت البشام فاهل كل ناحية منهم يستاكون بشجر بلدهم وكان جران العود معروفاً بهؤلاء النساء يزورهن عَلَى حذر من مزار بعيد وهو يستن من الشجر ما ينبت في بلده ولا ينبت في بلدهن فلما اخذن سواكه ليتذكرنه ويسترحن اليه كما يفعل المتحابون قال ان هذا

شيوجد عندكن واذا وجد علم انه مما ينبته البلد الذي اسكنه فاستدل به على زيارتي اياكن و يقصد لقول القائل :

ايا ابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذي البردين والفرس الوردا

فيتضاحك بالشعر و يستهزئ بالبردين والفرس الورد و يعارض ذلك بملوك فارس واسرتها و تيجانها و بان ابرويز ارتبط تسعمائة وخمسين فيلاً على مرابطه و بلغت مخدته (؟) التي كان يشرف بها على الداخل عليه الف اناء من الذهب وخدمته الف جارية وقد جهل هذا معنى الشعر واخطأ في المعارضة ونخر بما ليس له فيه حظ ولا نصيب.

اما معنى الشعر فان ابا عبيدة ذكر ان وفود العرب اجتمعت عند النعمان بن المنذر فاخرج بردي محرّق وهو عمرو بن هند وقال ليقم اعز العرب قبيلة فيأخذهما فقام عامر بن احيمر بن بهدلة فاخذهما فاتزر بواحد وارتدى بآخر فقال له بما انت اعز العرب فقال العز والعدد من العرب في معد ثم نزار ثم في مضر في خندف ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب ثم في عوف ثم في بهدلة فمن انكر هذا من العرب فلينافرني فسكت الناس فقال النعمان هذه عشيرتك كما تزعم فكيف انت في اهل بيتك وفي بدنك فقال انا ابو عشرة وعم عشرة وخال عشرة يغنيني الاكابر عن الاصاغر والاصاغر عن الاكابر فاما انا في بدني فهذا شاهدي ثم وضع قدمه على الارض وقال من ازالها من مكانها فله مائة من الابل فلم يقم اليه احد من الناس فذهب بالبردين فسمي ذا البردين قال الفرزدق :

فما تم في سعد ولا آل مالك غلام اذا ما قيل لم يتبهدل

لهم وهب النعمان ثوبي محرّق بمجد معد المديد والمحصل

واما الفرس الورد فان الخيل حصون العرب ومنبت العز وسلم المجد وثمال العيال وبها تدرك الثار وعليها تصيد الوحش وكانوا يؤثرونها على الاولاد باللبن ويشدونها بالافنية للطلب والهرب وقد كنى الله عنها في كتابه بالخير لما فيها من الخير فقال حكاية عن نبيه سليمان صلى الله عليه وسلم « اني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب » يعني الخيل وبها كان شغل سليمان عن الصلاة حتى غربت الشمس وقال طفيل :

وللخيل ايام فمن يصطبر لها ويعرف لها ايامها الخير يعقب

وقال آخر :

ولقد علمت عَلَى توقي الردى ... ان الحصون الخيل لا مدر القرى
اني وجدت الخيل عزًا ظاهرًا ... تُنجي من الغمي ويكشفن الدجى
ويبتن بالثغر المخوف طلائعًا ... وتبين للصعلوك جمة ذي الغنا
باتوا بصائرهم عَلَى اكتافهم ... وبصيرتي يعدو بها عتد وأى

والبصيرة الدم يريد انهم لم يدركوا الثار فثقل الدماء عَلَى اكتافهم وانه قد ادرك ثاره على فرسه وحدثني محمد بن عبيد قال حدثني سفيان بن عيينة عن شبيب بن غرقدة عن عروة البارقي قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة)

قال ابو محمد وليس لاحد مثل عتاق العرب ولا عند احد من الناس من العلم بها ما عندهم وسأذكر من ذلك شيئًا فيما بعد ان شاء الله . واذا كان للرجل منها جواد مبر كريم شهر به وعرف فقيل العسجدي ولاحق وداحس والورد . وليس العجب من سرير كسرى ونخر العجم به وتصويرهم اياه في الصخور الصم وفي رعان الجبال . واذا رأيت العرب تنسب الى شيء خسيس في نفسه فليس ذلك الا لمعنى شريف فيه كقولهم لهنيدة بنت صعصعة عمة الفرزدق ذات الخمار فمن لم يعرف سبب الخمار هاهنا يظن انها كانت تختمر دون نساء قومها فنسبت الى الخمار لذلك قال ابو عبيدة كانت هنيدة بنت صعصعة تقول من جاء من نساء العرب باربعة مثل اربعتي يحل لها ان تضع عندهم خمارها فصرمتي لها ابي صعصعة واخي غالب وخالي الاقرع بن حابس وزوجي الزبرقان بن بدر فسميت ذات الخمار لذلك .

وقال كان هند بن ابي هالة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم يقول : انا اكرم الناس اربعة ابي رسول الله وامي خديجة واختي فاطمة واخي القاسم فهؤلاء الاربعة لا اربعتها واما خطأه في المعارضة فان صاحب البردين لم يكن ملك العرب فيعارضنا عنه بملك العجم ولم يدّع احد انه كان للعرب في دولة العجم مثل ملكها واموالها وعددها وسلاحها وحريرها وديباجها فيحتاج ان يذكر فيلة ابرويز وجواريه وفرشه وقد كان هذا لاولئك كما ذكرتم جعله الله لهؤلاء فابتزوه واستلبوه والتحوهم كما يلتحي القضيب والناسخ افضل من المنسوخ . واما نخره بما ليس له فيه حظ ولا نصيب فانما يفخر بملك فارس ابناء ملوكها وابناء عمالهم وكتابهم وحجابهم واساورتهم . فاما رجل من عرض العجم وعوامهم لا يعرف له نسب ولا يشهر له اب فما حظه في سرير كسرى وتاجه

وحريره وديباجه وليس هو من ذلك في مراح ولا مغدى ولا مظل ولا مأوى . فان قال لاني من العجم وكسرى من العجم فمرحبًا بالمثل المبتذل ابن جار النجار ولو قال ايضًا لاني من الناس وكسرى من الناس كان وهذا سواءٌ وما هو باولى بهذا السبب من العرب لان العرب ايضًا من الناس .

قال ابوعبيدة: اجريت الخيل فطلع منها فرس سابق فجعل رجل من النظارة يكبر ويثب من الفرح فقال له رجل الى جانبه يافتى اهذا السابق فرسك فقال لا ولكن اللجام لي .

وقال المسعودي : قدم علينا اعراب وكانوا يأتون ببضائعهم فأبيعها واقوم بحوائجهم وكانوا يتمولون رحم الله اباك دينارًا فكنت لا آلوهم عناية فقلت لهم اخبروني عن السبب بينكم و بين ابي قالوا كان يساومنا مرة باتان فقلت لهم هل كان اشتراها منكم قالوا لا قلت الله اكبر قالوا وما ذاك قلت لو اشتراها صارت رحمًا ونسبًا .

وقد كانت العجم رحمك الله في ذلك الزمان طبق الارض شرقًا وغربًا وبرًا وبحرًا الا محالّ معدّ واليمن افكل هؤلاء اشراف فاين الوضعاء والادنياء والكساحون والحجامون والدباغون والخمارون والرعاع والمهان وهل كان ذوو الشرف في جملة الناس الا كاللمعة في جلد البعير واين ذراريهم واعقابهم ادرجوا جميعًا فلم يبق منهم احد و بقي ابناء الملوك والاشراف .

واعجب من هذا ادعاؤهم الى اسحق بن ابراهيم صلى الله عليهما وسلم ونخرهم على العرب بانه لسارة الحرة وان اسماعيل ابا العرب لهاجر وهي أمة وقال شاعرهم :

في بلدة لم تصل عكل بها طنبا ... ولا خباءٌ ولا عكٌ وهمدان
ولا لجرم ولا بهراء من وطن ... لكنهـا لبني الاحرار اوطان
ارض تبنى بها كسرى مناسكه ... فما بها من بني اللخناء انسان

فبنو الاحرار عندهم العجم من ولد اسحق واسحق لسـارة وهي حرة وبنو اللخناء عندهم العرب لانهم من ولد اسماعيل واسماعيل لهاجر وهي امة قالوا واللخناء عند العرب الامة فالويل الطويل لهؤلاء والبعد والثبور من هذه العداوة لاولياء الله والانباز القبيحة لصفوة الله وقد غلطوا في التأويل على اللغة وليس كل امة عند العرب لخناء انما اللخناء من الاماء الممتهنة في رعي الابل وسقيها وجمع الحطب وحمله واستقاء الماء والحلب واشباه ذلك من الخدمة كما يقال الامة الوكعاء وليس كل امة وكعاء وانما قيل لها لخناء لنتن ريحها و يقال لخن السقاء يلخن لخنًا اذا تغير ريحه وانتن .

واما مثل هاجر التي طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل دفر وارتضاها للخليل فراشاً وللطيبين اسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام اماً وجعلها لها سلالة فهل يجوز للمحد فضلاً عن مسلم ان يطلق عليها اللخن ولو لم يكن الا ان ملك القبط متع بها سارة وكانت انفس امائه عندهم واحظاهن لديه لقد كان في ذلك دليل عَلَي انها لم تكن من الاماء اللخن ولو جاز ان يطلق علي كل امة لخناً لجاز ان يقال لكل شريف ولدته امة هذا ابن اللخناء كما يقال هذا ابن الامة وقد ولدت الاماء الخلفاء والخيار والابرار مثل علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب والقاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق وسالم ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب ٠

حدثني سهل بن محمد قال حدثنا الاصمعي قال كان اهل المدينة يكرهون اتخاذ امهات الاولاد حتى نشأ فيهم هؤلاء الثلاثة ففاتوا اهل المدينةِ فقهاً وورعاً فرغب الناس في السراري والنساب لا يعرفون لاهل فارسَ ولا للنبيط في اسحق بن ابراهيم حظاً لان اسحق تزوج رفقا بنت ناحور بن تارح وتارح هو آزر ورفقا بنت عمه فولدت له عيصو ويعقوب توأمين في بطن واحد فيعقوب هو اسرائيل الذي ولد الاسباط كلهم وكانوا اثني عشر رجلاً واولادهم جميعاً يدعون بنو اسرائيل وهم اهل الكتاب ليس لهؤلاء فيهم سبب ولا نسب وعيصو هو ابو الروم وكان الروم رجلاً اصفر شديد الصفرة فى بياض ومن اجل ذلك سميت الروم بني الاصفر ٠ قالوا وكانت ام الروم بنت اسماعيل ابن ابراهيم وولد من الروم خمسة نفر فكل من بارض الروم من نسل هؤلاء الرهط قالوا ولماسبقه يعقوب الى دعوة اسحق فصارت النبوة في ولده دعا لعيصو بالنماء والكثرة فالروم كلها من ولده وبعض الناس يزعم ايضاً ان الاشبان من ولده وقالوا النبط بن ساروح بن ارغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن ارفخشد بن سام بن نوح ويقال انه ابن ماش بن سام ابن نوح قالوا واهل فارس من ولد لاوذ بن ارم بن سام بن نوح وكان كثير الولد فنزل ارض فارس فاجناس الفرس كلهم من ولده فليس بين هؤلاء وبين اسحق بن ابراهيم عَلَى ما ذكر النسابون نسب يجمعهم الا سام بن نوح والناس يجتمعون في ولادة شيث بن آدم ثم في ولادة نوح ثم يتشعبون فولد نوح اربعة نفر سام وحام ويافث ويام فاما يام فهلك بالطوفان فلا عقب له وهو الذي قال له ابوه (يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) واما حام فان اباه لعنه ودعا عليه بان يكون عبداً لاخويه فحملت ذريته وسقطت فيه فهم النوبة وفزان والزغاوة واجناس السودان والسند والقبط واما يافث

فان اباه دعا له بالنماء والكثرة فولد الصقالب والترك ويأجوج ومأجوج واممًا عدد الرمل والحصا في مشارق الارض • فاما سام فبارك عليه فاشراف الناس من ولده منهم العماليق ومنهم الجبابرة وفراعنة مصر وملوك فارس ومن ولد سام الانبياء جميعًا بعد نوح وهود وصالح وشعيب وابراهيم ومن بعده الي نبينا محمد عليه الصلاة والسلام • فالعرب وفارس يتساوون في هذه الجملة وتفضلها العرب بعدها بانها من ولد اسماعيل ابن ابراهيم فهي ادنى من خليل الله دناوةً وامس به رحما •

ثم تتساوى العرب وفارس في ان الفريقين ملكوا وتفضلها العرب بان قواعد ملكها نبوة وقواعد ملك فارس استلاب وغلبة • وتفضلها العرب بان ملكها ناسخ وملك فارس منسوخ وتفضلها بان ملكها متصل بالساعة وملك فارس محدود وتفضلها العرب بان ملكها واغل في اقاصي البلاد داخل في آفاق الارض وملك فارس شظية منه ليس فيه الشام ولا الجزيرة ولا خراسان في اكثر مددهم ولا اليمن الا في ايام وهزر وسيف ابن ذي يزن •

ومن عجب امرهم ايضًا فخرهم عَلَى العرب بآدم بقول النبي صلى الله عليه وسلم لا تفضلوني عليه فانما انا حسنة من حسناته ثم بالانبياء وانهم من العجم الا اربعة نفر هود وصالح وشعيب ومحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم وفي هذا القول وضع الفخر عَلَى غير اساس ومن اسس بنيانه عَلَى الباطل والغرور اوشك ان يتداعي وان يخر وظلم للعرب فاحش ومنه ادعاؤهم آدم كأن العرب ليسوا من ولده ومنه انتحالهم موسى وعيسى وزكريا ويحيي واشباههم من بني اسرائيل وليس بين فارس وبين بني اسرائيل نسب عَلَى ما بينت لك ومنه دفعهم العرب عن قربهم بهؤلاء الانبياء وهم بنو عمومهم وعصبتهم لان العرب بنو اسماعيل بن ابراهيم باجماع الناس فهم بنو اخي اسحق بن ابراهيم واولى به واحق بشرفه واولى بموسى وعيسى وداوود وسليمان وجميع الانبياء من ولده وقال الله تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحًا وآل ابراهيم وآل عمران عَلَى العالمين) فآل ابراهيم هم ولد اسحق وولد اسماعيل ثم قال (ذرية بعضها من بعض) فاعلمنا ان العرب وبني اسرائيل شيء واحد في النسب وفيما اوحى الله الى موسى : اني ساقيم لبني اسرائيل من اخوتهم مثلك اجعل كلامي على فيه : يريد انه يقيم لهم من العرب نبيًا مثل موسى يعني نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهذا علم من اعلامه وحجة من حججنا علي اهل الكتاب من كتبهم فان قالوا في ذلك انه يقيم لهم من بني اسرائيل نبيًا

مثل موسى وقالوا ان بني اسرائيل بعضهم اخوة بعض اكذبهم النظر لانه لو اراد ذلك لقال لهم من انفسهم ومنهم كما ان رجلاً لو اراد ان يبعث رسولاً من خندف لم يقل سأبعث رسولاً من اخوة خندف فان كان دفعهم ولد اسماعيل عن تشابك نسبهم بولد اسحق لنزول اسماعيل الحرم ونكاحه في جرهم فان الديار قد تتناءى والمحال قد تتباين والرجل قد ينكح في البعيد وقد يولد له من الاماء ولا تنقطع الارحام والانساب وان كان اسماعيل نطق بالعربية فليس اختلاف الناس في الالسنة يخرجهم عن نسب آبائهم واخوانهم وعشائرهم فهؤلاء اهل السريانية قد خالفوا في اللسان اهل العبرانية وهذه الروم كفرت بالله ولا شيء اقطع للعصمة من الكفر وتكلمت بالرومية ورغبت عن لسان آبائها وليس ذلك بمخرجها عن ولادة اسحق بن ابراهيم عَلَى ان اسماعيل لم يكن اول من نطق بالعربية وانما تعلمها وانما اصل العربية لليمن لانهم من ولد يعرب بن قحطان وكان يعرب اول من تكلم بالعربية حين تبلبلت الالسن ببابل وسار حتى نزل اليمن في ولده ومن اتبعه من اهل بيته ثم نطق بعده ثمود بلسانه وشخص حتى نزل الحجر ٠

حدثني ابو حاتم قال حدثني الاصمعي قال اخبرنا ابو عمرو بن العلاء قال تسع قبائل قديمة طسم وجديس وعهينة وضجم (بالجيم وبالحاء) وجعم والعماليق وقحطان وجرهم وثمود ٠

وحدثني ابو حاتم قال حدثنا الاصمعي قال حدثنا ابن ابي الزناد عن رجل من جرهم قال : نحن بدء من الخلق لا يشاركنا احد في انسابنا يقول من قدمنا فهؤلاء قدماء العرب الذين فتق الله السنتهم بهذا اللسان وكانت انبياؤهم عرباً هود وصالح وشعيب ٠

حدثني عبد الرحمن عن عبد المنعم عن ابيه عن وهب بن منبه انه سأل عن هود أكان ابا اليمن الذي ولدهم قال لا ولكنه اخو اليمن في التوراة فلما وقعت العصبية بين العرب وفخرت مضر بابيها اسماعيل ادعت اليمن هودا ليكون لهم والد من الانبياء٠ (قال) واما شعيب من ولد رهط من المؤمنين تبعوا ابراهيم لما هاجر الى الشام ولم يكن يثبت لهم نسب في بني اسرائيل ولم تكن مدين قبيلة ولكنها امة بعث اليها فلما بوأ الله اسماعيل الحرم وهو طفل وانبط له زمزم مرت به من جرهم رفقة فرأوا ما لم يكونوا يعهدونه واخبرتهم هاجر بنسب الصبي وحاله وما امر الله اباه فيه وفيها فتبركوا بالمكان ونزلوه وضموا اليهم اسماعيل فنشأ معهم ومع ولدانهم ثم انكحوه فتكلم بلسانهم فقيل

نطق باليعربية الا ان الياء زيدت في الاسم فحذفت في النسب كما تحذف اشياء من الزوائد وغير كما تغير اشياء عن اصولها والدليل على ان اصل اللسان لليمن انهم يقال لهم (العرب العاربة) ويقال لغيرهم (العرب المتعربة) يراد الداخلة في العرب المتعلمة منهم وكذلك معنى التفعل في اللغة يقال تنزر الرجل اذا دخل في نزار وتمضر اذا دخل في مضر وتقيس اذا دخل في قيس وقال الشاعر:

وقيس عيلان ومن تقيسا

ولو كان كل من تعلم لسانا غير لسان قومه ونطق به خارجاً من نسبهم لوجب ان يكون كل من نطق بالعربية من العجم عربياً (وسأقول في الشرف باعدل القول وابين اسبابه ولا ابخس احداً حقه ولا اتجاوز به حده) فلا يمنعني نسبي في العجم ان ادفعها عما تدعيه لها جهلتها واثني اعنتها عما تقدم اليها سفلتها واختصر القول واقتصر على العيون والنكت ولا اعرض للاحاديث الطوال في خطب العرب وتعداد ايامها ووفدات اشرافها على ملوك العجم ومقاماتها فان هذا وما اشبهه قد كثر في كتب الناس حتى اخلق ودرس حتى مل لا سيما واكثر هذه الاخبار لاطريق لها ولا نقلت من الثقات والمعروفين ايضاً تخبر عن التكلف وتدل على الصنعة وارجو ان لا يطلع ذوو العقول واهل النظر مني على ايثار هوى ولا تعمد لتمويه وما ابرأ بعده من العثرة والزلة الا ان يوفقني الله وما التوفيق الا به ·

وعدل القول في الشرف ان الناس لاب وام خلقوا من تراب واعيدوا الى تراب وجروا في مجرى البول وطووا على الاقذار فهذا نسبهم الاعلي الذي يردع اهل العقول عن التعظيم والكبرياء ثم الى الله مرجعهم فتنقطع الانساب وتبطل الاحساب الا من كان حسبه تقوى الله وكانت ماتته طاعة الله ·

واما النسب الادنى الذي يقع فيه التفاضل بين الناس في حكم الدنيا فان الله خالق آدم من قبضة جميع الارض وفي الارض السهل والحزن والاحمر والاسود والخبيث والطيب يقول الله عز وجل (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا) فجرت طبائع الارض في ولده فكان ذلك لاختلاف غرائزهم فمنهم الشجاع والجبان والبخيل والجواد والحي والوقاح والحليم والعجول والدمث والعبوس والشكور والكفور وسبباً لاختلاف الوانهم وهيآتهم فمنهم الابيض والاسود والاسمر والاحمر والاقشر والوسيم والخفيف على القلوب والثقيل والمحبب الى الناس

من غير احسان والمبغض اليهم من غير ذنوب وسبباً لاختلاف الشهوات والايرادات فمنهم من يميل به الطبع الى العلم ومن يميل به الى المال ومن يميل به الى اللهو ومن يميل به الى النساء ومن يميل به الى الفروسية . ثم يختلفون ايضاً في ذلك فمنهم من يسرع الى فهمه الفقه و يبطئ عنه الحساب ومنهم من يعلق بفهمه الطب و ينبو عنه النجوم ومنهم من يتيسر له الدقيق الخفي و يعتاص عليه الواضح الجلي ومنهم من يتعلم فناً من العلم فيرسخ في قلبه رسوخ النقر في الحجر و يتعلم ما هو اخف منه فيدرس دروس الرقم على الماء ومن طلبة المال من يطلبه بالتجارة ومن يطلبه بالجراية ومن يطلبه بالسلطان ومن يطلبه بالكيمياء فيتلف بالطمع الكاذب والتماس المحال اثلة المال ومن طلبة النساء من يريد المهفهفة ومن يريد الضناك ومن يريد الغرة الصغيرة ومن يريد النصف الوثيرة واعجب من هذا من ربما حبب اليه العجوز قال الشاعر :

عجوز عليها كبرة وملاحة اقاتلتي يا للرجال عجوز
عجوز لو ان الماء ملك يمينها لما تركتنا بالمياه نجوز

ومن لؤم الغرائز ان من الناس من يحب الذم كما يحب غيره المدح و يرتاح للهجاء كما يرتاح غيره للثناء ومنهم من يغري بذم قومه وسب نفسه وآبائه وشتم عشيرته منهم عميرة بن جعيل التغلبي وهو القائل :

كسا الله حي تغلب ابنة وائل من اللؤم اصفاراً بطيئاً نصولها

ومنهم الحرمازي (١) وهو القائل :

ان بني الحرماز قوم فيهم عجز وتسليط على اخيهم
فابعث عليهم شاعراً يخزيهم يعلم منهم مثل علمي فيهم

ومنهم القحيف وهو القائل في امه :

ياليتما امنا شالت نعامتها ايما الى جنة ايما الى نار
ليست بشبعى ولو اسكنتها هجراً ولا بريا ولو حلت بذي قار
تلهم الوسق مشدوداً اشظته كأنما وجهها قد طلي بالقار
خرقاء في الخير لا تهدى لوجهته وفي صناع الاذى في الاهل والجار

(لها بقية)

(١) يقال له الكذاب الحرمازي واسمه عبدالله بن الاعور وقيل له الكذاب لكذبه اه من طبقات الشعراء للمؤلف

شذرة ذهب

من فن الادب

من كلمات اللغة العربية مايدل عَلَى اصل المعنى · ومنها مايدل على المعنى نفسه مع زيادة قيد او شرط او وصف حالة · مثال الأول ان تقول (افتخر) زيد فانه يفيد اصل معنى الافتخار · ومثال الثاني ان تقول (أنفج) زيد فان معناه الافتخار وشيء آخر زائد : وهو ان يفتخر الانسان بما ليس عنده او بصفة ليست فيه · او يفتخر احياناً باكثر مما عنده · فيكون كريماً بالجملة مثلا ثم يصف من كرمه وجوده اكثر من الواقع ومما يعلمه الناس فيه · فحينئذ يقال عنه انه أنفج · وقريب من معنى المتنفج (الفنجة)— بضم الفاء وفتح التاء · وقالوا في معناه انه الرجل الذي يتفنج في المجالس ويكثر من ذكر ماأوتيه من مِلك وأدب يتطاول بذلك عَلَى الحاضرين

ومثل (تعلم) فانه يفيد اصل التعلم · اما اذا قلت (أخصى) فانه يفيدنا زيادة معنى في التعلم · هو انه تعلم علماً واحداً كأن يتعلم فن الطب وحده او الكيمياء وحدها ولا يلقي باله الى غيرها من العلوم

مثل هذه الاوصاف او الافعال التي تدل على معنى مركب يجب ان نعنى بها ونجتمع منها طائفة للقارئ والكاتب

قد تريد ايها الكاتب ان تصف انساناً بكونه متقلباً لا يثبت عَلَى رأي واحد فتارة يتبع رأي هذا · وطوراً رأي ذاك · فتفكر كثيراً في كلمة تدل عَلَى هذا المعنى المركب · ولكنك اذا حفظت كلمة (إمعة)— بكسر الهمزة وتشديد الميم المفتوحة— فانك تستعملها وتقول · فلان لا بأس به لكنه إمعة تريد انه لارأي له وانما يتابع كل انسان عَلَى رأيه

وقد تريد ان تصف صاحبك بانه لا يثبت عَلَى صداقة احد فهو يؤاخي هذا يوماً ويمله · وينتقل الى مؤاخاة الآخر وهكذا · تريد وصفه بذلك فيعنيك الأمر وربما سردت لبيان هذا المعنى جملا طويلة عريضة ولكن العرب يقولون لا تثق بفلان فانه « مقطاع » اي لا يثبت عَلَى مؤاخاة احد

وقد تحاول وصف بعض معارفك بانه كسول لا ينشط الى الكسب ولا يسعى في طلب معاشه فيضيق عليك الوصف إما اذا تعلمت كلمة (لبد) عَلَى وزان (كتف)

فانك تصفه به وتقول ان صاحبي فلان ابد لا يبرح منزله ولا يطلب معاشاً لنفسه

وقريب من كلمة (تفج) التي معناها افتخر بما ليس فيه كلمة (ابتهر) هو ان يقول المرء فعلت كذا وأفعل كذا وهو لم يفعل شيئاً مما ادعى . وكثيرون يدعون فعل مالم يفعلوا فيضيق المرء ذرعاً بالواحد من هؤلاء ويريد ان يوجز في وصفه وفي الاخبار عنه بكلمة واحدة فأرى له ان يقول : دعونا من فلان فانه يبتهر في كل مايقول .

اما اذا كان المرء يقول فعلت الشيء ويكون قد فعله صدقاً . فهل من كلمة تدل عَلَى هذا المعنى ؟

تدل عليه كلمة (الابتيار) : فاذا قلنا فلان يبتار كان معناه يقول و يفعل لا كصاحبنا الأول الذي يبتهر ابتهاراً . وقد جمع الاعشى الشاعر الكلمتين في قوله :

(قبيح بمثلي لفت الفتا ة إما ابتهاراً واما ابتيارا)

يقول انه لا يليق بادبه ان يعرّض بالفتيات و يأخذ في سرد حوادثه مع اوانس الحي : فيقول كان من امري مع فلانة كذا وخبري مع فلانة كذا : فهو لا يبتهر ولا يبتار ولا يقول عن الفتيات شيئاً صادقاً او كاذباً .

فليتق الله ازيار النساء . وليأنسوا بالاعشى فانه موضوع للأسى .

و يعرض لك احياناً ان تقول : ان القاضي كان يكلم المدعى عليه اثناء المحاكمة بغيظ وغضب . فبدل ان تأتي بكلمتين تقول كان (يدمدم عليه) اي يكلمه بغضب واراك تتهيب استعمالها لأول الأمر ثم لاتلبث ان تأنس بها ويألفها. سمعك فتشيع وتروج بين الكتاب .

واذا مات امرؤ في ميعة الشباب وصحة الجسم واردت ان تخبر بذلك فقل مات فلان عبطة . اي شاباً صحيحاً . واعتبطه الموت . وقد تعيب آخر بكونه يشبه النساء في شدة تزينه وتنعمه فتأتي في وصفه بكلام كثير . والاجدى لك ان تقول لايعجبني فلان فانه يتزلق . قالوا ومعناه ان يتزين ويتنعم حتى يكون الونه وبيض « أي لمعان » ولبشرته بريق

واذا اردت ان تثني على صديقك بانه ينفق عَلَى ذوي رحمه الفقراء ويكفيهم ذل السؤال تقول انه (يعولهم) ولكن هناك كلمة اخرى لاأرى بأساً في استعمالها وهي ان تقول انه (يتعدهم) — بتشديد العين — اي يقوم بامرهم ويكفيهم مؤونة الكسب

واحسبك تفضل (يعول) عَلَي (يقعد) وتقول انها اخف منها على السمع · نعم ولكن الاستعمال كفيل بصقلها وادنائها من الذوق

والمرأة التي تبغض زوجها ماذا يقال لها ؟

يقال لها (فارك) اما اذا كانت تحبه فتسمى (العلوق) وقالوا انها التي لاتحب غير زوجها

واذا مر موكب في الشارع ورأيت امرأة تنظر اليه من نافذة بيتها وتمد عنقها مبالغة في المد فقل انها (تتلع) اي تمد عنقها متطاولة· واذا رأيت صاحبك يمشي الهوينا وينسحب انسحابا واردت ان تحكي عنه تقول اني رأيته (يتخزل) اي يمشي وهو متثاقل في مشيته · واذا كان صاحبك المذكور مولعا بمعاشرة النساء والجلوس اليهن فقل عنه انه (علّ)· وقالوا في تفسيره انه الذي يكثر زيارة النساء ·والراهب لاتعرف له اسمًا غير اسمه هذا ولكنني اذكرك باسم آخر ربما فاقه رشاقة وحسنا وهو(الابيل) وقالوا في معناه انهُ الراهب المنقطع عن النساء · ومن كلامهم فلانة لو ابصرها الابيل لضاق به السبيل وما احلى ماقاله محي الدين بن العربي في هذا المعنى

لو أنهـا برزت لأشمط راهب فاق العباد عبادة لو أنهـا

واتت لتطلب منه ماخلقت له متذكرًا نهي المسيح لما انتهى

لم يدع ابن العربي وجهًا من اوجه الحسن اللفظي والمعنوي الا اودعه بيتيه هذين : وقوله لو أنها في آخر البيت لافادة استبعاد ان تبرز تلك الفتات من خدرها وهذا يستلزم ان تكون حصانا عفيفة · وقوله لتطلب منهُ ماخلقت له غاية في نزاهة التعبير ولطف الاشارة · وقوله متذكرًا نهي المسيح مما يؤكد حسن تلك الفتاة فضل تأكيد · وان جمالها يملك النفس ويخدر الحس ·

ويوجد اناس يتركون اللحم فلا يأكلونهُ · فاذا اردت ان تخبر ان فلانا من هؤلاء القوم · وبحثت عن كلمة واحدة تؤدي هذا المعنى المركب دللتك عَلَي قولهم فلان (يتنحس) بالحاء المهملة عَلَى وزن يتكلم اي انه ترك اكل اللحم

واذا ترك التلميذ المذاكرة ومطالعة دروسه ومال الى البطالة والكسل ·ماذا نسمي عمله هذا ؟

نسميه « تناوة » وقالوا في تفسيرها انها ترك المذاكرة وهجران المدارسة

واذا كان هذا التلميذ نفسه قد اعتاد عادة قبيحة وهي ان يغمض عينيه ويفتحهما

دواليك واردت ان تنهاه عن ذلك فقل له دع هذه العادة يابني ولا ترضك عينيك اي لاتغمضها وتفتحها • وهو رباعي وماضيه أرضك عَلَى وزن اكرم•

واذا لامك لائم على شيء لم تفعله فقل انهُ «يتذفح» لي اي ينسب اليّ ذنباً لم افعله • ومثله «يتجرّم» وكلاهما عَلَى وزن يتكلم ومثلها يتجني فلان عَلَى فلان

واذا وقح الرجل وقل حياؤه فلم يعد يبالي ذمةُ الناس او مدحوه • رضوا عنهُ اوسخطوا عليه • فذهب في ارتكاب المآثم واجتراح السيئات كل مذهب ماذا تسميه ؟

يسمونه «مستولغ» وفسروها بانه الرجل لايبالي ذماً ولا عاراً • وهناك تعبير آخر يفيد هذا المعنى • وهو قولهم ان فلانا « يلحم الناس عرضه »اي يمكنهم من عرضه بما يفعله من القاذر والمخازي فيقعون فيه ويطعنون عليه • فكأنه بذلك جعل عرضهُ لحماً أطعمهم اياه • وأكل لحم الغير كناية عن اغتيابه والنيل من عرضه • ومنه قوله تعالى « ايحب أحدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً» • واذا مهدت لك اسباباً حملتك بها على سب فلان وشتمه كنت قد ألحمتك عرضه • وورد « ان الله يبغض البيت اللحم» بكسر الحاء على وزن كتف • وفسروه بالبيت الذي تؤكل فيه لحوم الناس بغيبتهم والاستطالة في اعراضهم • وكان للوليد بن عبد الملك ولد يقال له العباس • ولم يكن في اطواره واخلاقه كشبان بني مروان بل كان امرأً صدق يتشبه بعمر بن عبد العزيز فقال يخاطب قومه ويحثهم عَلَى الاتحاد والاقلاع عن الفجور ومخالفة الدين

ان البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لاتلحمن ذئاب الناس عرضكمو ان الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا

فقوله (لا تلحمن)بضم التاء وكسر الحاء وتشديد الميم المضمومة خطاب للجمع وقد حذفت واوه لاتصالها بنون التوكيد • اي ان الناس كالذئاب فاذا مكنتموهم من الوقيعة فيكم لايقصرون كما ان الذئاب اذا رأوا فريسة أغروا بها ونهشوا منها

ومن الناس من يقابل الآخرين بذكر مايؤلمهم ذكره • ويصف من احوالهم مايحملهم به عَلَى كره الحياة بل كراهة انفسهم • فهذا الرجل الذي يفعل بالناس كذلك يسمى «أجوم» عَلَى وزن جسور ويقال انه يؤجم الناس — بتشديد الجيم — اي يكره اليهم انفسهم • وهو مشتق من اجم الطعام وغيره اذا كرهه وملهُ

وقد قام في زماننا قوم ينقصون العرب •ويصغرون من شأنهم

وآخرون يفعلون كذلك بالمسلمين فماذا تسمي الاولين؟ وماذا تسمي الآخرين ؟

الأولون يسمون (شعوبية) والواحد منهم (شعوبي) وقالوا في تفسير الشعوبية انهم الذين يحتقرون العرب ·

والآخرون يسمون (دققة) — بفتح القافين — وقالوا انهم الذين يظهرون عيوب المسلمين ·

اما (دققة) فظاهر انه مشتق من دقق نظره في الشيء اذا تأمل فيه · وبحث في ماخفي عليه من امره · ومن يكره المسلمين يفعل ذلك وينقب عن مساويهم ليشهر بها ويشنع عليها ·

واما الاولون مبغضو العرب فلماذا سموا (شعوبية) ؟

سموا بذلك نسبة الى الشعوب جمع شعب بفتح الشين وهو الجماعة الكبيرة من الناس غير العرب · اما الجماعة الكبيرة من العرب فتسمى قبيلة كما ان الجماعة الكبيرة من بني اسرائيل تسمي سبط · فالقبائل للعرب · والاسباط لليهود · والشعوب لغير هؤلاء واولئك · ومنه قوله تعالى في صدد الامتنان على البشر (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) · وكتب المعتمد بن عباد احد ملوك الاندلس الى يوسف بن تاشفين ملك المغرب يستنجده على الاسبانيول — «فانا نحن العرب في هذه الاندلس قد تلفت قبائلنا · وتفرق جمعنا · وتغيرت انسابنا · فصرنا فيها شعوباً لاقبائل · واشتاتا لاقرابة ولا عشائر» الخ · فانظر كيف قال انهم تلفت قبائلهم فلم يعودوا قبائل وانما اصبحوا شعوباً اي جماعات اعجمية · وذلك بسبب فقدهم مزايا العرب وكريم خصالهم التي منها النجدة والنعرة في حماية الذمار · والدفاع عن الجار ·

اما الكتاب اليوم فقلما يفرقون بين (الشعوب) و (القبائل)وانما يستعملونها في مطلق الجماعات من اي جنس كانوا ·

ولما كانت شعوب الاعاجم تحط من قدر قبائل العرب عادة سمي كل من يحتقر امر العرب (شعوبي)

اسكلة طرابلس الشام المغربي

استعمار الهند

معربة عن المجلة الزرقاء الفرنسوية

احدث مايقوم به الهنود في العهد الاخير من مقاومة حكومتهم قلقاً وهلعاً وذلك ان الثورة تضطرب لهزتها اعصاب امبراطورية الهند والقوم هناك يدعون الى الاستقلال جهاراً حاملين العلم الاحمر ويقوم الدعاة من كل مكان يوقدون جذوة التعصب والتحزب ولا يستنكفون من اتيان كل منكر من قتل النفوس واهراق الدماء

قويت هذه الحركة وامتدت دون ان يعوقها عائق لانه لم يهتم بها احد في مبدإها لغرابة امرها ولانها ظهرت غير متناسبة مع حال العقول في الهند · ولئن كان جمهور موظفي الحكومة الانكليزية هناك على جانب من طهارة الوجدان والعلم والتهذيب والتجارب الا انهم لم يحسبوا لهذه الحركة حسابها ووهموا في نتائجها وفاتهم على ماعرفوا به من الذكاء ان مادعا الى ذلك غلطات لهم ارتكبوها فنشأ عنها مانشأ · والوقوف على الصلات المتبادلة بين الحكام الانكليز والمحكومين الوطنيين من الهنود يجب ان نبين الأسس التي قامت عليها الادارة البريطانية في شبه جزيرة الهند فنقول :

ان الهند اوسع من اوربا فمساحتها ٤،٨٩٤،٠٠٠ كيلو متر مربع وسكانها ٢٦٦ مليوناً (١) واهلها خليط من الناس ما كانوا ولن يكونوا امة برأسها · قال الفرد ليل : كل من اراد ان يحكم على امريء بالحكومة التي تحكمه والبلاد التي ينزلها لايكون حكمه الا ناقصاً اذ يجهل بذلك حالته الطبيعية والادبية وجنسه وحالته الاجتماعية واخلاقه وعاداته فدرس طبيعة الحكومة التي تحكمه لايفيد شيئاً في معرفته نفسه لان الحكومة نتيجة احوال عارضة وتدبير موقت اه ·

لما استولى الانكليز على الهند عقيب ان دالت دولة المغول ورفع عن بعض ارجائها علم الفرنسيس لم يجدوا أمامهم حكومة وطنية في البلاد ولا جماعة اجتمعوا لتدبير شيء ونهم تربطهم المصلحة المشتركة بها بل رأوا هنا وهناك عصابات غير طبيعية نشأت بالاتفاق بطبيعة الفتح وظلت بطبيعة الحال عبارة عن مجتمعات منفصمة العرى تجمع تحت لوائها ملايين من الناس في اماكن متباينة وكان لهذه الاقوام بحسب مكانتها زعماء

(١) ان مساحة اقليم برمانيا وحده ٧٥٠ الف كيلو متر مربع وليس فيه من السكان سوى ثمانية ملايين

يقودونها سموا انفسهم امراء وراجات ونوابا وسلاطين وامبراطرة ولم تتغير هذه الصورة من الحكومة منذ الاعصر التي استولى فيها الفرس والمقدونيون والبارثيون والتتار والمغول وغيرهم على تلك القارة

ومع ما نراه من حال ذاك الشعب الممزق المنتشر الاطراف الخالي من كل جامعة قد انشأ له مدنية باهرة دامت قرونًا تنير العالم بدائعها وظلت الى يوم الناس هذا لم تمسسها يد بسوء . فارتبط الهنود من الشمال الى الجنوب من جبال حملايا الى رأس كومور برباط واحد وعملوا بقلب واحد وحدوا بعزايم وروح واحدة تدفعهم الثبات الذي لا يوصف والغاية المشتركة التي وجهوا كلهم وجهتهم اليها وذلك انهم لم يرموا الى غرض سياسي ولا الى غرض اقتصادي بل لان المجتمع الذي الفوه ورتبوا درجاته (١) لم تكن غايته زمنية دنيوية بل كانت دينية فاستقام الامر للمستعمرين لان القوم لا تهمهم السياسة ولان النواب والراجات المغلوبين على امرهم ليست لهم اصول راسخة في البلاد ولا منزلة في قلوب الامة فكان الدين هو الذي يحرص القوم على بقائه والانكليز احرص الناس على احترامه ولا سيما بين طبقات البراهمة التي كان لها تأثير شديد في العامة

أدرك الانكليز في الحال صراحة بانهم في حل من ان يؤسسوا في الهند الحكومة التي تروقهم من حيث الادارة والنظام السياسي والتشريعي على ان لا يمسوا المعتقدات ولا رجال الدين بسوء فانشأوا حكومة جديدة سموها حكومة الاستقلال ولم يراعوا في تأسيس هذه الحكومة اصول الشعوب اذ كان هنا البنغاليون الجياع وهناك المهراتيون الشجعان وفي مكان ابعد سكان ميزور وفي المقاطعات الاخرى السيخيون النشيطون فتجد الفلسفة العالية والتصوف البديع الى جنب الخرافات المستحكمة والتعصب الشديد بل راعوا اختلاف طبائع الاقاليم من حيث وضعها الطبيعي عملاً بما قاله احد رجالهم من ان الاختلاف في اصقاع الهند اشد مما نراه في ظاهر ارضنا وسياراتنا من المشاهد . ولم ير المستعمرون من مصلحتهم ان يؤلفوا وطنية هندية فيكون لسكان بنجاب وبنغال وطنية خاصة بل عزموا على توسيع الاختصاص وتقسيم البلاد في ادارتها على خلاف ماجرت عليه فرنسا في ربط البلاد كلها بالعاصمة مباشرة لانها ترمي الى تجنيس اهل البلاد المستعمرة بالجنسية الفرنسوية . وبعد تجارب طويلة تمت لانكلترا سنة ١٨٦١ صورة ادارة الهند وكانت هذه الصورة معدلة منظوراً فيها وهي الصورة

(١) في الهند ١٩٢٠ قبيلة مختلفة Caste وقال آخر انها ١٤٠٠

التي جرت عليها شركة الهند الشرقية سنة ١٧٧٣ واستصدرت بها قانوناً من مجلس النواب فقسمت الهند اولاً الى ثلاث ولايات بنغال ومدراس وبومباي دعوها رئاسات presidence لان ادارتها كانت بيد مجلس ينشر القوانين وينفذ القرارات وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو دور الحروب والمنازعات الهائلة رأت انكلترا من الضرورة ان توحد الادارة السياسية مع الادارة الحربية لتقوية كل منهما فعهدت سنة ١٧٧٣ بولاية الهند لحاكم بنغال بحيث يكون له التقدم على حاكمي مدراس وبومباي ولكن ولايته اسمية لافعلية فاخذت الولايات الثلاث تضيع الوقت في الاخذ والرد والادارة مختلفة الاساليب لاترجع الى يد تلم شملها حتى اذا كانت ثورة السيباي سنة ١٨٥٧ وهي التي كادت تخرج انكلترا من الهند وضعت الحكومة صورة ادارة كانت اساساً للامبراطورية الهندية وهو عمل اداري لم توفق اليه امة ولم يخطر في خاطر حاكم .

فقسمت اراضي الهند الى طبقتين جوهريتين اراضي السلطنة البريطانية اي البلاد التي تحكمها انكلترا مباشرة وهي عبارة عن ولايتي مدراس وبومباي اللتين بقيتا على ما كانتا عليه في حدودهما وولاية بنغال وقاعدتها كلكوتا جعلت عاصمة المملكة وقسمت الى ثماني مقاطعات لها حق الانتخاب . والطبقة الثانية امارات الوطنيين التي تركت تحت سلطة الراجات الاسمية او الفعلية فقسمت الى قسمين في وضع الحماية الانكليزية عليها وبذلك صار الحكم للوالي العام والرئاسات وحكومات الولايات والامارات الوطنية

ولحاكم الهند او نائب ملكها مجلس مؤلف من ستة وزراء لهم معاونون وفي بعض الاحيان ولا سيما عند سن القوانين يضطر الى اخذ آراء المجلس وله الحرية ان يعمل بها او يرفضها وهؤلاء الوزراء يشبهون من وجوه كثيرة وزراء لويس الرابع عشر لاوزراء ادوارد السابع وهم وزير الداخلية والخارجية والمالية والمعارف والتجارة والحربية والعدلية والاشغال العمومية ويحق لواليي مدراس وبومباي ان يحضرا في المجلس عضوين فوق العادة وهذا المجلس الوزاري يجتمع في المكان الذي يستنسبه الحاكم العام فحيثما التأم فهناك العاصمة . ويضاف الى هذا المجلس بعض الاعضاء فيصبح برلماناً اي مجلس نواب فيكون نصف هؤلاء الاعضاء الاضافيين من الاعيان اوربيين كانوا او وطنيين على ان لا يكونوا من موظفي الحكومة يعينهم الحاكم العام فبذلك يصبح العنصر الرسمي في هذا المجلس اكثر

من العنصر الاهلي وهذا العنصر قليل العدد ولذلك لاحكم له ومعاونته اسمية في الاغلب

اما المجلس التشريعي فله سلطة واسعة لا يقف امامها الا امتيازات البرلمان البريطاني وحقوق السلطنة الانكليزية وتنفذ قراراته عند ما يصدق عليها حاكم الهند ٠ وهذه الطريقة التي تسهل احالة السلطة الاجرائية الى السلطة التشريعية تحل مسألة تقسيم الادارة على ايسر وجه في حين تمنحها وحدة الآراء والاميال

وفي مجلس النواب كما في مجلس الوزراء يعمل كل عضو بما فيه المنفعة العامة وينظر في المسائل التي يحسن معرفتها بخلو غرض و يعطي رأيه حراً وللموظفين ضمانات لا تضر بالنظام ولكنها تقي اشخاصهم كل الوقاية

وبعد فان الحكومة العامة تنظر خاصة في المسائل الملكية كالديون العمومية والكمارك والرسوم الاميرية والمقايضات والبريد والبرق ونفقات الحربية والاديان وقانون الجزاء والباتنتا والعلائق الخارجية والحقوق الادبية وغيرها فتوجه دفة السياسة الى الوجهة التي تختارها وتوحد بين المصالح العامة والخدم العامة فهي المنظمة والمدبرة وحافظة العهد الدستوري اما ولاة الاقاليم فلكل منهم مجلس خاص ومجلس تشريعي لا تسري احكامه على احكام الحاكم العام كما ان هذا لا يعتدي على امتيازات الامبراطورية وما عدا ذلك فالحكومة مالكة حريتها برمتها ولها مطلق التصرف ان تقرر ما تشاء ٠ ويخاطب واليا مدراس و بومباي لندرا مباشرةً ويتناولان التعليمات بانفسهما اما سائر الولايات فادارتها ترجع الى ولاة و بعضها الى متصرفين يعينهم الحاكم العام ويتناولون رواتبهم من الامبراطور ويختارهم من الموظفين الذين قضوا عشر سنين في الهند على الاقل وهم يخابرون كلكوتا في شؤونهم ولكن في الامور الادارية ولهم سلطة كسلطة واليي مدراس و بومباي ولهم الميزة عليهم بانهم اكثر خبرة ونفوذاً

اما الجيش فيؤلف من جيش عامل من الاروبيين والهنود و يقدر بمائتين وسبعين الفاً منهم ثلاثة وسبعون الفاً من الانكليز ومن جيش مساعد تقدمه الامارات الوطنية المستقلة عدده ٣٨٠ الفاً ولكن على الورق فقط وعنده اربعة آلاف مدفع واذا استثني من الجيش العسكر الانكليزي وبعض الالايات كالسيخيين والباتان والغوركا فالجيش الهندي لا يساوي شيئاً ٠ واذا استثني من الجيش المساعد فيلق مملكة الكواليور لا يساوي شيئاً ايضاً ٠ قال احد كبارهم ان هذا الجيش عبارة عن خليط من الاوباش لا علم

له بالتدريب الحربي وليس لديه سلاح منظم وان الاثنين او ثلاثة من جيشنا مع بطارية خيالة تمزق شمل خمسين الفاً من مثل هؤلاء المحاربين فمجموع هذا الجيش العامل وقدره سبعمائة الف مع الجيش الاحتياطي هو عبارة عن تضليل يزول كالسراب او كالدخان عند مداهمة الخطر

وتقسم كل ولاية وارداتها مع الولايات العامة على نسبة محـدودة وتقوم بنفقات القضاء والمعارف والاشغال العمومية واعانة البائسين ولكل ولاية الحق في ان تستلف نقوداً على واردات خمس سنين تصرفها في الطرق التي تراها نافعة لعمران ولايتها ونقتصد ماتشاء وفي الهند اربع محاكم عالية في بومباي وبنغال والشمال الغربي ومدراس تميز اليها اهم الدعاوي المدنية والجزائية وينتخب اعضاؤها من قبل السلطنة الانكليزية ويقبض كل عضو من مئة الف الى مائتي الف فرنك راتباً سنوياً وفي كل حاضرة ولاية محكمة استئناف ومحكمة جزاء نقالة ثم محاكم المقاطعات ويعمدون تارة الى استعمال قانون لندرا واذا وقع اختلاف بين اوربيين من رعايا انكلترا يطبقون عليهم القانون الهندي واحياناً قانون الجزاء الانكليزي الهندي

ومأمورو الادارة الملكية عبارة عن ٧٦٥ موظفاً فيكون بذلك موظف واحد لكل ربع مليون ساكن وتحت ايديهم صغار الموظفين من الوطنيين «١» ومن مبدإ انكلترا في الهند ان تبقي جميع الوظائف الكبرى في ايدي الاوربيين وتعطي جزءاً مهماً منها للوطنيين ولا ترى الحكومة ان تقبل احداً من رعاياها الهنود وتجعلهم انكليزاً في جنسيتهم وهم يهزأون من فرنسا التي جنست رعاياها في بوندشيري بجنسيتها واعطتهم حق الانتخاب لارسال نواب واعيان .

اما الامارات الهندية المستقلة فهي منقسمة الى طبقتين تقل في الاولى السلطة الانكليزية عليها ومنها الامارات الاسلامية التي تركت وشأنها لان ذلك اقصد في النفقة عليها ولكن حالتها الى الزوال لادنى اشارة تصدر من الحاكم العام ثم ان امراء تلك الامارات الاسلامية هم غرباء ويدينون بدين يكرهه السواد الاعظم من

«١» في الهند ٢٥٠٠ موظف وطني يقبضون مسانهة من ١٢ الفاً الى ٢٥ الف فرنك فيكون عدد الموظفين الوطنيين الذين يقبضون من ٣٠٠ فرنك الى ١٠،٠٠٠ فرنك بنسبة ٩٠ في المئة

رعاياهم فهكذا تجد في مملكة النظام مملكة حيدر آباد الدكن «١» تسعة ملايين من البراهمة لقاء مليون من المسلمين وفي سائر الممالك المستقلة (٢) خمسون مليون بر همي اما ممالك كواليور واندور وبارودا فليس لها من المهراتية الا الاسم لان امراءها هم دخلاء عليها · اما ممالك الطبقة الثانية من الوطنيين فتختلف عن هذه كثيراً ومن هذه الممالك ميزور وراجبوتانا وترافانكور وجيبور وجوبور وملوكها هم من البراهمة ولئن اعتادوا العبودية فذلك لانهم كانوا الى عهد قريب خاضعين للمهراتيين والمغوليين ولذلك ترى الحكومة من الحكمة ان تضيق خناقهم وهي لا تخافهم ولكنها لا تركن اليهم الا قليلا قال جايمس ستيفن : ان الانكليز في الهند هم نواب تمدن محارب وسلام تدعمه القوة وما من بلاد نظمت شؤونها وحالفتها الدعة والراحة مثل الهند البريطانية ومتى خفت شدة الحكومة يكر نظام الهند كأنه ، مأخوذ بسيل جارف اه · وتنقسم درجات التعليم في الهند الى ابتدائي ووسط وعالي وهو النقطة الضعيفة من ذاك البناء الانكليزي الهندي البديع

ان من يسكنون البلاد الواقعة بين نهر الاندوس وشاطئ كوروماندیل ویطلقون عليهم اسم الهنود يجب ان يجعلوا من الشعوب التي تشمئز من الغريب وتعاديه شأن كل الشعوب التي لها تاريخ قديم وفلسفة معروفة وتمدن خاص بها وهذا يصدق عَلَى الاكثرية من البراهمة كما يصدق عَلَى الاقلية من المسلمين فالبراهمة يرون من واجباتهم ان لا يحيدوا قيد شبر عن تعليم اولادهم الصنعة التي يعلمها آباؤهم بالارث وتلقينهم الفروض الاجتماعية والعالمية والدينية التي تصدر عن زعمائهم وان جزءاً من هذا الشعور ليتعلمه الطفل بالفطرة والتقليد وباقيه يحصله في مدرسة قريته او يأخذه عن رئيسه الديني مع ما يأخذ من آداب امته ودينها فيملأ ذهنه بالتراكيب المبهمة والصلوات ولا سيما صلاة الغداة ومعناها : « لنعبد النور السامي من هذه الشمس ربة كل موجود في الوجود التي تقود فكرنا كما تقود عين معلقة بقبة السماوات »

اما التعليم الحديث فان رب الأسرة يدفعه عن اسرته مشمئزاً بقدر ما كان يشمئز الاوكون من هدايا اليونان ويرفضها ولذلك يعز عَلَى البراهمة ان يخونوا مبادئهم

«١» مؤسس هذه الدولة هو من نسل احد قواد اورنك زيب المشهور الذي خلص سنة ١٧٢٤ من سلطة المغول وعاصمة مملكته حيدر آباد وهي انكليزية محضة جسيمة البقعة جميلة بين المدائن (٢) عدد هذه الامارات عشرون امارة وهي ماعدا مملكة باهوبال وباهاوال لا شأن لها من حيث السياسة ودخلها ١٢٥ مليون فرنك

المقدسة وأكثر مايحذرونه من الامور التي يحملها اليهم الغرب المدرسة فان شيئاً خفياً في فطرتهم يدعوهم في السر : اياكم والمدرسة الانكليزية فهي عدوتكم

وعلى هذا حارت انكلترا في سياسة التعليم التي تجري عليها بين البراهمة لانها لاتستطيع ان تعلمهم التعاليم الاوربي ألا اذا اضرت بمعتقداتهم الدينية ومعتقدهم هو وطنيتهم وهي لاتريد ان يخرجوا عنها حتى ان انكلترا اضطرت سنة ١٨٤٠ ان تجيب مطالب ثلثمائة الف رجل اجتمعوا في سهل بنارس يقيمون الحجة على الرسوم التي تريد وضعها على البيوت وعزموا ان يهلكوا جوعاً او تجيبهم الحكومة الى الغاء هذه الرسوم فاجابتهم مكرهة مخافة ان يحدث وباء فاذا عادت روح الاعتصاب وسرت في اعصاب مائتي مليون رجل لمقاومة سياسة التعليم ماذا تعمل بريطانيا ؟

ولم تر انكلترا اسلم لها من تلقين الهنود مبادئها بالتدريج الى ان تعلمهم ماتعلمه ابناءها في عاصمة الجزائر البريطانية وتشربهم حب الانكليزية على شرط ان لايحيدوا عن جادة الاخلاص لها ولا يسيئوا استعمال المفتاح الذي تسلمهم اياه ويستخدمونه لفتح الباب في ايذائها

والمسألة لاتخلو من اشكال ايضاً فيما يتعلق باهل الطبقة العالية من المسلمين فقد جاء في احد التقارير عن الهند مانصه : « انا اذا صرفنا النظر عن الاسباب الاجتماعية والتاريخية في الشعب الاسلامي في الهند نرى لانحطاطهم اسباباً ذات شأن لها علاقة بتربيتهم التي تؤثر في حياتهم . » فتعليم الجامع يجب عندهم ان يكون سابقاً دروس المدرسة ولا يتيسر اخذ الطفل من المسلمين الا بعد ان يقضي بضع سنين في مدرسة يتعلم فيها اللغة العربية والفقه الاسلامي ولكن تعليم المدرسة الدينية يقوده الى ان يختار الخدم الدينية مؤثراً لها على اربح المسالك والاعمال . وقد ايدت التجارب هذه الملاحظة اذ حدث ان حب الوظائف العامة قد اثر قليلاً في المسلمين في الهند وظلوا يقاومون التعليم الانكليزي كل المقاومة ولحسن طالعهم لم تعن الحكومة الانكليزية بان تجعل المسلمين اوربيين كما حرصت على جعل الهنود كذلك ورأت انكلترا ان تنقذ الطبقة العالية من الهنود من الاوهام القديمة لتستخدم منهم اناساً في الادارة والقضاء والمالية وقد رأى اللورد ماكولى سنة ١٨٣٥ على مافيه من العقل الذي اثر تأثيراً سيئاً في الهند ان من الواجب تعليم اللغة الانكليزية في مدرسة شبان الهنود من ارباب الطبقات المختلفة لترشح التربية الانكليزية من الاعلى الى الادنى وكان يقصد من ذلك ان يأخذ مايلزم للبلاد من الموظفين من اهل البلاد انفسهم

وفي سنة ١٨٥٤ انشأت انكلترا ديوان المعارف العمومية فعنيت بادخال اللغة (الانكليزية) الى مدارس بنغال و بنارس ونظمت مدارس الوطنيين مع محافظتها لها عَلَى صفاتها الخاصة وفي سنة ١٨٥٧ اثمرت البذرة التي وضعها لورد ماكولي في تربة الهند فأسست ثلاث كليات في كلكوتا و بومباي ومدراس عَلَى مثال الكليات الانكليزية فيها انواع الراحة والرفاهية وتدرس فيها الدروس التقليدية وانشئت في حاضرة كل مقاطعة مدرسة عالية وفي المدن الصغرى مدارس وسطى ثم أنشئت كليات لاهور لاقليم بنجاب والله آباد لاقليم الشمال الغربي وساغ للمتخرجين من تلك الكليات ان يتدرجوا في المراتب مثل من تخرجوا من كليتي اكسفورد و كمبردج

فتخرج من تلك الكليات اناس من ارباب الذوق والادباء والمشرعون وقل في المتخرجين العلماء اذ لاحظ السير هنري مين ان عقل الهندي المستعد لقبول ماحلا وطاب من المعارف هو محروم مما يتصور من قياس مدقق للحقيقة فالهندي يجيد التكلم والكتابة والتفكر الدقيق ولكنه متوسط الاستعداد للحساب والارقام واصبحت الحكومة تبعث الى لندرا بارقى طبقة من متخرجي كليات الهند ليكونوا نموذجاً عَلَى اشتغالها ورموزاً لمن طبعتهم بطابعها فكانت تكرم وفادتهم في لندرا ولم تعقهم الوانهم السمراء وتناسب اعضائهم وعيونهم التي تقدح شرراً وقاماتهم القصيرة وحركاتهم المتناسقة وامزجتهم الشديدة عن ان يستميلوا قلوب الناس اليهم ونالوا من الكرم البريطاني انواع الرعاية والعناية وفتح الانكليز لهم ابواب دورهم الانيقة الشريفة كأن كل فرد منهم كان اميراً خطيراً وراجا كبيراً فأخذوا بما شاهدوا وتكلنزوا عَلَى اجمل اسلوب وعاشوا عيش الوطنيين الانكليز وقدروا حق قدره كل مافي الوطنية من الاحترام والامن والشرف والاستقلال العالي .

فكانوا يتعاشرون و يتسامرون و يتعارفون في المجالس الى من يخطبهن من الآنسات الفتانات الشقر البيض و يلعبون معهن انواع الالعاب المألوفة والرياضات الانكليزية النافعة وكانوا في جميع احوالهم مثال الظرف في البستهم والترتيب في قبعاتهم حتى اذا اتموا دور التمرين التي كان كل يوم منها ابتسامة للمستقبل وتشبعوا بهواء الغرب وتبطنوا اسرار فلسفة هربرت سبنسر وشوبنهور ونيتش وخفقت افئدتهم بما علمت وتلبس شعورهم بالبدائع وحشيت عقولهم بخطب مجلس النواب الانكليزي — يركبون البحر عائدين الى بلادهم بلاد الشمس والحرية يحملون اجمل ذكرى مما رأوه وفي صناديقهم

واصونتهم الاوراق المطيبة والزهرات الذابلة وقطع من الشريط وبعض الفساطين يؤتبون والكبر آخذ منهم ويعود محيطهم البرهمي يخيفهم ويرجعون الى سابق اوهامهم واحقادهم عَلَى الادارة الانكليزية التي لم تؤثر فيها كثرة تغذيهم بمبادئ اصحابها

ولقد شاعت اللغة الانكليزية بين امراء الهند حتى صارت لهم بمثابة لغة الاسبرانتو في الغرب يتكلم بها الهنود وهم من اجناس مختلفة واصحاب لهجات متباينة فالمتكلمون باللغة السنسكريتية والبراكريتية والبالية والتيلنكا والبنغالية والهندستانية والمالاكالية والتامولية وغيرها من لهجات الهند يحسنون الانكليزية كأهلها رهذا ماحدا انكلترا ان تضاعف مدارسها وكتاتيبها وكلياتها ثم رأت من الحكمة ان تعتمد على العنصر الاسلامي فاعظمت له مكانته واقلت من مكانة العنصر البرهمي فزاد ذلك البراهمة نفوراً واخذوا ينادون في سرهم وجهرهم « الهند للهنديين » وارادوا محاربة الانكليز حرباً اقتصادية فلم يكن من ابناء جنسهم اناس يكفون للظفر في هذه المعارك فلم يسعهم الا ان يلجؤا للاجانب فكان الالمان وهم الشعب الذي يحاول ان يخالف الانكليز في كل مكان هم الذين مدوا ايديهم للهنود واصبح ماتخرجه معاملهم من بالات القطن وصناديق الشاي واكياس القهوة يسافر الى ميناء همبورغ بدل منشستر

ثم حدثت مشاغبات وفتن وقتل رجال الثورة بعض اعضاء الحكومة فلم يسع انكلترا الا ان تعطي الهند نظاماً جديداً مصبوغاً بالصبغة الديمقراطية اكثر من ذي قبل واشركت الهنود في سياسة بلادهم واستعملت انكلترا الرفق فيمن دعوا الى الثورة من رجال الصحافة والمحاماة وكان من تقربها من روسيا وتحالفها مع اليابان اكبر مفتر لهمم الهنود عن نزع ايديهم من يد حكومتهم اما المسلمون الذين رأت بريطانيا بعد حين ان تعتمد عليهم فقد تحركت نفوسهم وادركوا قصورهم خصوصاً عندما رأوا اخوانهم شبان العثمانيين الاحرار الذين حرروا المملكة العثمانية من السلطة الاستبدادية كل هذا ليصدق عَلَى سكان الهند ماقاله احد المفكرين من رجال السياسة الانكليزية «سيبقى الشعب الهندي عَلَى الدوام شاهداً ناطقاً بالماضي غير ممسوس بيد الغرب الا مساً خفيفاً » ومحاولة تجديد شبابه هو من الغلط وقلة الخبرة .

الالبان

امتلأت الجرائد في هذه الايام باسم هذا القوم المحارب ويجدر بنا ان نذكر شيئًا من تاريخه ولو مختصراً لنعرف ما كان عليه في الايام الخالية وما صار اليه الآن . وقد اتخذت قاموس الاعلام ، لشمس الدين سامي بك اماماً وكتاب التاريخ لمؤلفه دوروي معاوناً

ان اسم هذا القوم فيما بينهم « اربانيا » في قبيلة كيفه و « اربريا » في قبيلة طوسقه لأن هذه كثيراً ماتبدل النون راء وكلاهما مشتق من اللغة الآرية القديمة من كلمة « آر » الحقل و « بان » من يعمل فيه او يحرثه او يزرعه فكأنه قيل لهذا القوم « الحارث » او « الزارع » لأنه هو اول من ادخل هذه الصنعة من آسيا الى اوربا ولما كان اليونانيون يبدلون الباء بالواو لفقدان الاولى عندهم دعوا هذا القوم « اروانيتيس » بزيادة « يتيس » وهي اداة النسبة عندهم اي منسوب الى اربان (ظنا منهم ان اربان اسم للأرض التي يسكنونها) والسين زائدة تظهر في اكثر كلماتهم حالة الرفع وتسقط في حالة النصب والجر وفي التثنية والجمع ولما دخلت الاتراك الى تلك البلاد اخذوا الاسم اليوناني فدعوهم ارناويت بحذف السين الزائدة وتقديم النون على الواو تحريفًا (كما حرفنا نحن كلمة عربون وقدمنا الراء فقلنا رعبون) وثقل اول الكلمة اقتضى ان يكون آخرها كذلك فبدلت التاء طاء وكسرت الواو ضمة لغير سبب فصارت ارناؤط واوربا اليوم تدعوهم « البانى » بتبديل الراء لاما وهما قريبا المخرج وكثيراً ما يتبدلان وفي العربية البرت والبت بمعنى واحد وهو القطع

تبين لدى علماء الالسنة المحققين ان لسان الالبان يشابهُ اليوناني القديم واللاتيني والصقلبي والغوطي والفارسي والسنسكريتي وان هذا اللسان من اقدم شعب اللسان الآري . ومن يقدر ان يحكم ان الكلمات المشتركة بين هذا اللسان وبين اليوناني القديم هي يونانية اخذها الألبان او البانية اخذها اليونان ؟

لا يقدر عَلَى ذلك الا العالم بكلتا اللغتين المتوغل فيهما . وقد ادعى شمس الدين سامي بك بأن كثيراً من الكلمات تدل صورتها الالبانية عَلَى انها اصل وصورتها اليونانية او اللاتينية عَلَى انها فرع . (كما نعلم نحن العرب مثلا ان يئس وجذب اصل وان ايس وجبذ فرع) ومن هنا يتبين ان هذا اللسان اقدم من اليوناني واللاتيني

ثم ان مشابهته للسان الفارسي والزند والسنسكريتي اكثر من غيره من الالسنة الآرية الاورية تدل على انه لم يتشعب من هذه الالسنة التي هي شعبة من غيرها بل انه جاء رأساً من آسيا الوسطى ابان الهجرة العمومية

وقد انتخب هذا القوم لنفسه شرق اوربا وطناً له كما ان انسباءه السلتيين اختاروا غرب اوربا · ثم تفرق فرقاً فمنهم من اقام في ايليريا وهي بلاد الالبان الآن وبوسنه وهرسك ودالماسيا ومنهم من سكن في مكدونيا القديمة وهي عبارة عن سيروز وولاية سلانيك ومناستر واسكوب ومنهم من انتشر في ثراكيا وهي اليوم ولاية ادرنة وقسم من بلغاريا ومنهم من بقي في آسيا ولم يدخل اوروبا وهم الفريجيون ومسكنهم من سواحل الاناضول في البحر الابيض الى سيواس وانقرة

وقد ثبت بالأدلة التاريخية ان هذه الفرق الاربع من اصل واحد الا ان اهل ايليريا اقرب الى اهل مكدونيا واهل ثراكيا اقرب الى اهل فريجيا لغة وخلقا · وكان يجمعهم اسم (بلاسج او بلاسغ) في قديم الزمان ويظن بعض علماء اللغة ان كلمة بلاسج مأخوذة من كلمة «بلاق» الالبانية ومعناها الشيخ سموا باسم حكمهم اي مجلس الشيوخ حتى ان اهل الجبل منهم الآن يحكمون مجلس الشيوخ فيما يختلفون فيه ويسمونه «بلاقونيا» · ومن هنا يعلم ان هذا القوم العظيم انتشر قبل الفي سنة من ترييشا في بلاد المجر الى سيواس في الاناضول · اما من كان في الاناضول فقد استولى عليهم الفرس ثم اليونان ثم الرومان فاختلطوا بهم فضاعوا وانقرضوا · واما من كان في مكدونيا وايليريا فقد زاحمهم البلغار والصقالبة حتى اجتمعوا كلهم واكتفوا بالقسم الجنوبي من ايليريا · وكان هؤلاء لايختلطون بغيرهم من الأمم ولا يوءلفون جامعة لهم ولا يخطر ذلك في بالهم بل كانوا يعيشون متفرقين كما هو حال اهل الجبل منهم الآن في جوار ديره واشقودرة ولذلك حافظوا على لسانهم وعاداتهم واخلاقهم · ولكن لم يحصلوا من الادبيات القومية على شيء لفقدان الجامعة بينهم ·

اتى عليهم زمن اسس فيه بعضهم دولة فكان منهم حكومة في اشقودرة واخرى في يانية وثالثة في مكدونيا ومركز هذه بلدة «بلا» على نهر «قره آزمق» قرب بلدة «ينكيجه واردار» من توابع سلانيك ومن ملوكها اسكندر المشهور ابن فيليب وهو الباني الاصل والنسب تعلم اليونانية لآدابها في ذلك الوقت فظنه الناس انه يوناني واكبر دليل على انه ليس بيوناني خطب ذلك الخطيب اليوناني الشهير «ذيموستن» وتحريضه لأهل

آثينة وتسميته له في تلك الخطب باسم «باربـاروس» (*) اي اعجمي وكانوا يسمون كل من لم يكن يونانياً (باربـاروساً) كما ان العرب تسمي كل من لم يكن عربياً (اعجمياً) ومن اشهر ملوك يانيه (بيروس) فقد غلب الرومان مرتين واستولى عَلَى كثير من البلاد حتى توسع ملكه الى اليونان ومصر ولم يكن همه الا الظفر فقط ولذلك لم يترك لبنيه الذين ورثوه الا ماورثه عن ابيه ٠

ان الالبان الذين استولوا على العالم باسره في عهد اسكندر ابوا ان يكونوا في أسر الرومانيين ولقد كانت لهم وقائع عظيمة معهم دلت علي شجاعتهم و بسالتهم الى ان اتى «بول اميل» (١٦٨ ق ٠ م) بعسكر جرار فغلبهم وخرب لهم سبعين قصبة (قرية واكبر منها) وأسرمنهم مائة وخمسين الفاً وساقهم الى رومية و باعهم هناك عبيداً ٠

اتظنون انهم بعد هذا اطاعوا الرومانيين كلا فأنهم التجأوا الى الجبال وتحصنوا فيها وتركوا الاراضي الخصبة وآثروا الفقر مع الحرية عَلَى الثروة مع الأسر ٠

وهكذا كانت حالهم لما دخل ملوك بني عثمان الى الروم ايلي وفي سنة ١٤٢٠ من الميلاد ظهر من بين رؤسائهم امير يقال له اسكندر بك وكان رجلاً شجاعاً مدبراً فجمع القبائل كلها تحت رياسته وقاوم العساكر العثمانية اربعين سنة ولما هلك استولت الدولة العثمانية عَلَى جميع تلك البلاد فمنهم من رأى الغربة فهاجر الى قلابريا وصقلية ومنهم من ذهب الى البندقية وجنوه ومرسيليا ومنهم من اداه السير الى اسبانيا ٠ ومنهم من اختار الأقامة وهداه الله فاسلم ثم انتشر الاسلام بينهم ولم يبق عَلَى دينه القديم الا مقدار الثلث ومذهب النصف منه اورثوذكس والنصف الآخر كاثوليك ٠ وقد ظهر منهم رجال نبغوا في هذه الدولة حتى احرز الصدارة منهم عشرون وزيراً ومن اشهر قوادهم في الجيش العثماني سنان باشا وآثاره تدل عليه وهو اول من ادخل اليمن وعمان في حوزة الدولة واوصل علمها الى الاراضي المجهولة في ذلك الوقت مثل آجينة وصوماطره وكذلك الوزير المعروف بكوبريلي محمد باشا فانه وصل الى اسوار فينا مظفرا ٠

يمتاز الالباني بانه طويل القامة غليظ العظام عصبي المزاج كبير الدماغ واسع الناصية (وهذا مما يدل عَلَى ذكائه) ٠ يرعى العهد ولو كان فيه الموت الاحمر ٠ يفدي

(*) عربنا الواو اليونانية بالباء لأن العرب جميعهم اصطلحوا عَلَى ذلك وتبعهم الفرنساويون اليوم ايضاً فقلنا الباسليق وقال الفرنساويون كذلك والاصل واسيليقوس نبهنا عَلَى هذا لئلا يظن انه يوجد باء في اللغة اليونانية

روحه في حفظ قبيلته وعائلته بل لانفاذ كلمة خرجت من فمه • يتبختر تبختر الابطال في مشيته خفيف الحركة سريع الخطو • يغلب على نسائهم الجمال الا انهن غليظات الابدان عليهن ملامح الرجال ، لايباليين بالحجاب ولكن الرجال يغارون اشــد الغيرة عليهن فاذا احسوا بان فتاة او امرأة خرجت ولو قليلا عن دائرة العفة قولاً او فعلاً فتكوا بها فتك ظالم غدار (لله درهم ودر العرب الذين لم تفسد اخلاقهم ودر هذه الغيرة التي نعدها نحن المدنيون توحشاً) نســاؤهم صناع اليد كثيرات الجد والكد ، هن ربات البيوت والرجال عندهن كأنهم ضيوف • لايتزوجون الا الاكفاء ولو بعدت المسافة بينهم • يحرمون بناتهم من الارث (عادة ورثوها عن آبائهم) ولا يعطونهن شيئاً حتى ان ثياب العرس يشتريها الزوج • صلابتهم في دينهم شديدة الا انهم يتهاملون في العبادات ولهم بعض عادات انتقلت لهم من النصرانية او من دين اجدادهم يحافظون عليها الى الآن • يرون الاتفاق فيما بينهم فرضاً ولو اختلفت دياناتهم • فهذه ميزة الالبان باختصار •

واما لسانهم فقد ذكرنا انه شعبة مستقلة من اللسان الآريے لكنه لم يحذو حذو اخواته كاليونانية واللاتينية فيرقى الى اوج الفصــاحة والبلاغة الا انه اقدم منهما لما يرى من اسماء الآلهة في اساطير اليونان واللاتين فانها منه اخذت •

وقد اكتشف الذين ينقبون عن الآثار القديمة في « طوسقانه » من اعمال ايطاليا خطوطاً قديمة لم يمكن حلها باللسان اللاتيني واكتشفوا في فريجيا ايضاً خطوطاً تشبهها فجربوا فيها اللسان الالباني فوجدوها تشبهه غاية المشابهة ومن هنا يظهر ان لهذا اللسان خطوطاً تختص به • وعندهم بعض كتب تتعلق بمذهب الكاثوليك ألفت منذ خمسمائة ســنة ولا اظنها مكتوبة الا بالحروف اللاتينية وفيها المنظوم والمنثور • ويحفظون بعض اغاني وطنية يرجع انشاؤها الى ثمانية او تسعة اعصار • ولا فرق بينها وبين لسان اهل هذا العصر الا في التعبيرات الدينية لان النصارى اتخذوها من اليونانية والمسلمين اتخذوها من العربية وكلاهما ترك اصطلاحات الدين القديم •

واما حروفهم التي يتنازعون لاجلها الآن فلست اظن انها تلك الحروف المكتشفة في طوسقانة وفي فريجيا على انه لايبعد ان تكون تلك الا انها اصلحت كالحروف العربية في بادئ الامر وشكلها الآن • ولما زادت المجادلات بينهم واخبرتنا الجرائد بذلك احببت ان ارى هذه الحروف فاخــذت كتاب الف با وفيه دروس القراءة

الالبانية • فوجدت كلمات هذا اللسان تتركب من احد وثلاثين حرفاً وسبع حركات جعلوا لها (اي لهذه الثمانية والثلاثين) ستاً وثلاثين علامة «*» اما الحركات فتلفظ همزة في اول الكلمات فقط ولذلك عددها من الحروف • واما الحروف فانها تنقص عن العربية في اشياء وتزيد في اشياء • ينقص هذه اللغة من الحروف الخاء والصادوالضاد والطاء والعين وتزيد عن العربية بهذه الحروف :

١ تس : حرف تمتزج فيه التاء بالسين فيحصل صوتاً مثل چ من فم ولد صغير اي بين « س » و « چ »

٢ چ : كما في التركية والفارسية

٣ دز : صوت يحصل من امتزاجهما ولا سبيل لفهمه الا بعد سماعه

٤ ر : راء مفخمة جعلوها مستقلة عن الراء المرققة

٥ ژ : كما في التركية والفارسية

٦ ك : حرف بين الغين والياء فلا هو غين ولا هو ياء لكنه اقرب الى الياء منه الى الغين

٧ ل : لام مفخمة كالتي في لفظة الجلالة تقدمها فتح او ضم

٨ ني : نون ساكنة بعدها ياء وهي اشبه شيء بـ gn الفرنساوية

واما العلامات فقد اخذوها من اللسان الفرنساوي عيناً الا ان e الفرنساوية وضعوها لحرف « تس » و ç وضعوها لحرف چ و x وضعوها لحرف « دز » وما زاد عن الفرنساوية فقد اتخذوا له علامات لاتخرج عن وضع العلامات الفرنساوية الا بزيادة خط معوج في رأسه او اسفله • سلانيك ر • ب

«*» يطلق الحرف ويراد به ماتتركب منه الكلمات بقطع النظر عن شكله فيسمع ولا يرى ويطلق ايضاً ويراد به الشكل المكتوب على لوح او ورق فيرى ولا يسمع وللفرق بينهما عبرت عن الاول بالحرف وعن الثاني بالعلامة • جعلوا للذال والظاء علامة واحدة وللحاء والهاء علامة واحدة ولذلك كانت ٣٦ علامة مقابل ٣٨ حرفاً

حكم افرنجية

مااحسن حال من يعتقدون انفسهم بائسين وهم ليسوا الا فارغين ملولين (الفرد دي موسيه)

مزج الباري تعالى الصداقة بالحياة لينشر في اطرافها السرور والسلوى والظرف (بلوتارك)

حيثما استطاع الانسان ان يرزق فهناك يعيش عيشاً حسناً (مارك اوريل)

اعظم غلط يرتكب في التربية ان يعجل المرء في تلقينها (جان جاك روسو)

ليست معرفة الطاعة من الضعف بل هي قوة عظمى (جانت)

التربية بوضع القواعد طويلة الاذيال واقصر منها التربية بالمثال الحسن (سنيك)

من فطرة الطامع انه مغاضب لكل مايملك (مين دي بيران)

في وسعنا ان نبدو عظماء في وظيفة هي دون اقدارنا ولكننا كثيراً مانبدو صغاراً في وظيفة هي أكبر منا (لاروشفوكولد)

الناس كالمداخن فالمدخنة التي يخرج دخانها كثيراً ليست ذات هندام حسن ·

كثرة البطالة تخالف الفضائل فمن لم يعمل عملاً لايبعد ان يعمل سيئاً

في العادة ان المرء لايستنصح الا ليبتعد عن العمل بما نصح به او ليلوم من نصح له

من الناس وكثير ماهم من لايندمون حقيقة الا من اعمالهم الصالحة ·

قلما يكون المختال جسوراً فالمرء كلما اعتبر نفسه تعرض للهلكة ·

الجائع لايكون حراً

كثيراً مايكون علم التغلب على المصاعب عبارة عن تقديرها بقيمتها الحقيقية ·

يعتقد الطحان عن طيبة قلب ان الحنطة لاتنبت الا لتحريك طاحونه

كثيراً مايكون الاسراع في اصدار الحكم خالياً من روح العدل ·

لاتأكل حتى يثقل جسمك ولا تشرب حتى يطيش عقلك ·

التدم انفع الشعور الصالح

الرحمة تجعل المساواة حتى في التعذيب

الحياة حساب فالسعيد من كان حسابه مستقيما

غرائب الغرب

دار معونة العلماء

١٥

هي الدار التي انشأتها الآنسة دوسن شقيقة العقيلة تير امرأة تير · وهو العالم المؤرخ اول رئيس للجمهورية الثالثة نفع هذا الرجل فرنسا بحياته فاحبت امرأته ان تخلد ذكره بعد مماته فاوصت بمال يصرف على تأسيس دار تؤوي خمسة عشر رجلاً من شبان العلماء يكفون فيها مؤونة الحياة المادية ويتفرغون للبحث والدرس ليكونوا صلة بين الكليات التي تخرجوا فيها والمجامع العلمية التي يراد اجلاسهم في قاعاتها · ماتت العقيلة تير على حين فجأة فنفذت وصيتها شقيقتها ووقفت مالاً بلغ ريعه مئة وخمسين الف فرنك

ان من يزور هذه الدار المباركة ويطلع على اعمالها ورجالها يوقن كل الايقان بالمثل الافرنجي القائل بان « فرنسا تخترع والمانيا تعمل »· الفرنسيس يبتكرون في كل شيء وهذه الدار هي من مبتكراتهم وما اظن لها مثيلا عند الالمان والانكليز والاميركان سادة العالم في العلم وقادة الابداع والاختراع ·

زرت هذه الدار مرتين وتشرفت بالتعرف بمديرها احد كبار فلاسفة فرنسا وعلمائهم المعاصرين المسيو اميل بوترو — ومشاهير الفلاسفة المعاصرين من الفرنسيس اليوم هم بوترو وفوليه وريبو وبرجسون

ولم اتمن في حياتي ان اكون فرنسوي الاصل والجنس الا لما رأيت هذه الدار وعلمت انها لاتقبل في حجرها الا الفرنسويين · تمنيت ان اعيش فيها

المدة المحددة لكل طالب اتفرغ لدرس ابحاث تجول في الصدر ويعوق الزمان والمكان الآن عن اتمامها ·

هذه الدار سميت باسم تير *La Fondation Thiers* والاولى ان تسمى دار معونة العلماء لانها ليست مدرسة كالمدارس ولا كلية كالكليات ولا مدرسة دينية كالمدارس الدينية بل هي دار يقبل فيها كل سنة خمسة (١) من شبان العلماء من نابني الكليات يحملون شهادة «الليسانس» او «الدكتورا» في الآداب او العلوم او ممن نالوا جائزة من جوائز المجمع العلمي في الابحاث التي تجري فيها المسابقة بين ارباب الافكار والاقلام تحت نظارة المجامع العلمية الخمسة في باريز فيقضون ثلاث سنين في هذا المعهد ينصرفون فيها الى الفن الذي يريدون الاخصاء فيه فيبحثون بانفسهم لانفسهم تحت رعاية مدير المعهد فيلسوف فرنسا المسيو اميل بوترو الذي يعيش واياهم في المعهد كما يعيش الاب مع بنيه ويمدهم بآرائه ويهديهم الى اقرب الطرق للانتفاع بمعارفهم ووضع مؤلف او مؤلفات نافعة في الفنون التي هي احب من غيرها الى قلوبهم ولا ينشرونها الا اذا نظر هو فيها واقرهم عليها · واي عالم لايحب ان ينتفع في عمله برأي عالم كالمسيو بوترو بلغ السبعين او كاد من عمره وهو يفني لياليه واياماه في العلم والفلسفة

يشترط فيمن يدخل دار معونة العلماء ان يكون ممتازاً بعقله واخلاقه ويفضل من يرتضي اساتذته اخلاقه ونبوغه ويشهدون فيه شهادة حسنة

(١) اعتمدنا في هذه المقالة على ما كتبه المسيو اميل بوترو بشأن معهد تير العلمي في مجلة الافكار الحديثة ومجلة وشنشريفت *Wochenschrift* الدولية الالمانية وغيرهما من الفهارس والقوائم

وان يكون دون السادسة والعشرين من عمره غير متزوج وقدقضي الخدمة العسكرية ويعطيه المعهد ستين ليرة في السنة لنفقته الخاصة وثلاثين ليرة ليسيح بها سياحة علمية وتعطيه غرفتين فسيحتين فيهما اسباب الراحة والرفاهية احداهما لنومه والثانية لعمله بحيث يكون الشبان العلماء الخمسة العشر وهو عدد الموجود منهم في المعهد ابداً موسعاً عليهم لايطلب منهم الا ان يؤلفوا ويبحثوا ابحاثاً علمية تنفعهم وتنفع امتهم وبلادهم ويقسم عدد من كانوا فيها سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ من شبان العلماء الى رياضيين ومؤرخين ومتشرع في السياسة والاجتماع وعالم في اليونانيات وحقوقيين وفيلسوفين ومؤرخ وموسيقار وعالمين في الجرمانيات ومؤرخ في الآداب الفرنسوية وجغرافي وقد انشيء هذا المعهد سنة ١٨٩٣ فيكون عدد من اعانهم على الاختصاء في العلم حتى الآن ٨٠ عالماً وكلهم وضعوا المؤلفات الممتعة النافعة للعلم عامة ولبلادهم خاصة وقد بلغت واردات هذا المعهد مئة وخمسين الف فرنك في السنة يتناول منها المدير عشرة الآف فرنك ٠

قام معهد تير العلمي في اجمل حي من احياء باريز في حي الاشراف والنبلاء بالقرب من غابة بولونيا الغنـاء غربي مدينة باريز في الحي الذي تؤجر الدار فيه اليوم بثلثمائة الف فرنك مسانهة وسط حديقة انيقة تحيط بها الحدائق في مكان يجمع الى السكون المطلوب للعلماء والمؤلفين ولا يبعد عن سائر احياء العاصمة وما يلزم لهم من المواد المفرقة في مكاتب باريز المختلفة ودور العلم والمستودعات والجامع والمتاحف وغيرها بحيث هم بعيدون قريبون عن الحركة العلمية والسياسية والاجتماعية وليس في المعهد مكتبة كبرى لانها على اتساع مساحتها لايتسع صدرها لكل مايلزم المؤلفين فيها من المواد بل

فيها فقط كتب الفهارس والمعاجم والمراجعة والامهات التي لاغنية لكل عالم عنها وما عدا ذلك فمكاتب باريز وعلماؤها ودور سجلاتها ومتاحفها على قيد غلوة من سكان هذه الرحبة الشريفة يأخذون منها ماراقهم كل ساعة ٠

وليست هذه الوسائط هي كل مافي معهد تير من المعونات لعلمائها بل ان لهم بفضل الشيخ الرئيس مديرهم الحكيم الكبير اهم الاسباب التي تربطهم بعلماء العالم ومجامعه وكلياته فهم كسكان الجنان توفرت لهم كل الوسائط فلم يبق عليهم الا ان يقطفوا من ثمار يجبونها كل قريب ودان

يعيش هؤلاء العلماء عيشة مشتركة فيتناولون طعامهم معاً ويلعبون ويتنزهون معاً ويبحثون عن العلوم التي يمتون بها معاً ويتألمون هكذا يعيشون عيشة الاتراب العاملين عَلَى ماتعلموا في طفوليتهم في المدارس والكليات ويستفيد بعضهم من بعض في العلوم المختلفة ويعاون بعضهم بعضاً معاونة الاخوان ويترفهون رفاهية لايتمتع بها الا عقلاء الاغنياء .

قام هذا المعهد المفيد تحت رعاية العلماء من اهل المجمع العلمي وحققت فيه موسستاه العقلية تير وشقيقتها مارسمه النظار على ذاك المعهد امثال جول سيمون ومنيه وبارتلمي سان هيلير فكان تير الذي عد من نوابغ القرن التاسع عشر الذين خدموا بلادهم خدمة تذكر عَلَى الدهر فتشكر نافعاً لامته في حياته بعقله وفي مماته بماله ٠ فمتى يصل الشرق ياترى الى هذه الدرجة في العقل والاحسان ومتى يكون علماوءه من اهل السعة واليسار الى هذا الحد ليحسنوا الانتفاع باموالهم كما احسنوها بعلومهم

ان شبان العلماء في هذه الدار بعد ان تعلموا ورأوا العلماء كيف يعملون محتاجون لهضم ماتعلموه ان يعانوا لينشأ منهم افراد متفردون في العلم فيتحولون

بهذه الواسطة من تلامذة الى اساتذة اكفاء ان يكفوا انفسهم وان يوجدوا ويخترعوا وهذا موقوف عَلى ان يستجمعوا قواهم ويتمتعوا بحريتهم واوقاتهم على مايشاؤن فالعمل كما قال اميل بوترو هو السرور على شرط ان لايكون صاحبه مستعبداً فيه لاحد ولا لمؤثر بل يقوم به مدفوعاً فقط بعامل نتائجه الطبيعية وهي الايجاد والابداع · وما التربية الا ان تخرج كل انسان على ماينفع فيه ويتيسر له النبوغ في فروعه · التربية هي تخريج المرء اولاً في مجموع المباديء العامة التي هي وقف خلفه لنا اسلافنا بتجاربهم وسموا ذلك العقل ثم تخريجه ثانياً في ان يكون مخصياً متفرداً في علم واحد يكون فيه على بصيرة عَلى نحو مايتطلب ذلك العلم الحاضر والمجتمع الحديث ثم ينشأ ثالثاً ممن دخل في هذين الطورين في التربية فيلسوف يدرك قيم الامور ويعرف الصلات المتبادلة فيما ينصرف اليه العالمون عَلى اختلاف معارفهم ويبحث في ان يوفق توفيقاً حسناً بين الحياة الخاصة والحياة العامة · وكل هذا لايفهم مغزاه شرقنا التعس الآن ·

تآخي الغربيين

١٦

كل فكر ومذهب في الوجود نتيجة الدعوة اليه وتحبيبه الى النفوس · عرف الغربيون هذه القاعدة فجروا عليها في كثير من اعمالهم وكان من ثمرات الدعوات السياسية والدينية تأليف الوحدة السويسرية والالمانية والاميركية وتوحيد كلمة الجزائر البريطانية وانتشار المذاهب الاجتماعية والاشتراكية والفوضوية وكثرة من يدينون بالمذاهب البرتستانتية والفلسفية

وقد قام هذا الشهر في فرنسا جماعة ممن يفكرون لخيرها رأوا ان بلادهم تنتفع كثيراً من تحسين صلاتها مع اميركا فألفوا جمعية دعوها « جمعية فرنسا اميركا » مؤلفة من علماء وسياسيين وقواد واجتماعيين ومعلمين وفي رأسها المسيو جبرائيل هانوتو احد اعضاء المجمع العلمي وصاحب التآليف الكثيرة في التاريخ والسياسة ووزير خارجية فرنسا الاسبق وقد انشأوا لبث هذه الدعوة مجلة شهرية باسم جمعيتهم تدعو الى هذا الغرض استفتحها رئيس الجمعية بمقالة في الغرض الذي يرمون اليه وكتب في المجلة الاسبوعيه مقالة طويلة الذيل في هذا الشأن فرأيت ان الخص للمشارقة لباب هاتين المقالتين دلالة علَى ما يأتيه المغاربة من الاعمال النافعة لمستقبلهم لننعي علَى انفسنا نومنا عن النظر في مستقبلنا

قال هانوتو : ان النجاح معقود بناصية من يعمل في الوقت اللازم ولو وجهنا وجهتنا منذ سنة ١٨٦٠ الى اميركا الشمالية والجنوبية لما احتجنا اليوم الى دعوة امتنا لتعريفها بما نعرفها به · هبت علينا الزعازع السياسية والاقتصادية منذ ذاك الحين واذ قد سكنت الآن وجب علينا ان نعمل عملاً يحمل في مطاويه احسن الفوائد

تبدلت الارض غير الارض في خمسين سنة حتى صح ان نقول ان قارتي آسيا وافريقية كأنهما اكتشفتا حديثاً فكثرت مواصلاتهما وحملت اليهما المدنية والحضارة وجرى تعليمهما واستعمارهما وكان لفرنسا من هذا التحول الغريب حصة موفورة · فقد غير دلسبس بفتحه ترعة السويس شكل الارض كما ان جول فري بموافقته علَى السياسة الاستعمارية قد حاز لنا قسماً كافيا من قسمة الاراضي الجديدة ·

وبينا كان الشرق يستدعينا غدا الغرب ينكرنا ويستغني عنا · فان مسألة باناما المشؤومة التي جاءت بعد مسألة المكسيك قد اثرت في علاقاتنا مع اميركا الشمالية والجنوبية واستغرفت التدابير الاوربية الكبرى التي اضطرتنا الى مجاراتها فكرنا وقوتنا المادية · وانحطت بحريتنا التجارية فضعفت بضعفها اسبابنا في العمل واحتفظنا باساليبنا القديمة التجارية فسبقتنا شعوب اكثر منا فتاء واكثر مضاء واقل مطالب ومشاعب

نعم تقدمنا وتأثلنا ولكننا لم نبرح كما كنا في قوتنا على عهد نابوليون على حين كانت اميركا بثروتها وقوتها وعظمتها تتقدم تقدماً لا يوصف فقد كان سكان الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ — ٣٦ مليونا اي مايقرب من سكان فرنسا على التقريب فاصبحوا سنة ١٨٩٠ — ٦٣ مليوناً وهاهم يتجاوزون اليوم الثمانين مليوناً · وفي كندا اليوم زهاء ٦ ملايين من السكان وفي الجمهوريات الوسطى والمكسيك ٢٢ مليوناً واصبحت اميركا الجنوبية ٤٥ مليوناً وكان فيها سنة ١٨٩٠ — ٣٥ مليوناً

وكان مجموع تجارة الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ خمسة مليارات ونصف فرنك فاصبحت اليوم زهاء ١٦ مليارًا وكان مجموع تجارة كندا سنة ١٨٧٨ = ٧٩ · ٧٥ مليوناً فاصبحت سنة ١٩٠٥ = ١٩٠٦ مليارين ونصفاً · ومجموع تجارة اميركا الوسطى والمكسيك مليارين ونصف وجمهوريات الجنوب اكثر من اربعة مليارات منها ملياران ونصف للبرازيل ومليار للجمهورية الفضية ·

وعلى الجملة فقد بلغ مجموع ماهناك من نفوس ١٦٠ مليوناً من البشر ومجموع التجارة اكثر من ٢٥ مليار فرنك واحدثت اميركا حركة كبرى في العالم

بدخولها مضمار الاتجار فاثرت في فرنسا تأثيراً غير قليل وكانت هذه الى ذالك التاريخ قريبة بتجارتها من انكلترا اي لها المقام الثاني في التجارة فاصبحت اليوم في الدرجة الرابعة بعد انكلترا والولايات المتحدة والمانيا · اي اننا فقدنا ما كان لنا من المكانة قديماً فنحن اليوم نريد ان نستعيد منزلتنا الاولى او ان نغتنم الوقت الضائع فالمسألة ليست متعذرة ولكن تقتضي لها الارادة والتفكر والعمل على طريقة منظمة والعودة الى تقاليدنا والانتفاع من اسبابنا

اما الولايات المتحدة بما لها من المركز الذي احاط بطرفي البحرين المحيطين فهي المهيمنة على اعمال العالم فان عدات الحالة بين اليابان وروسيا فلا يبعد ان يجيء زمن تتداخل فيه في السياسة الاوروبية وان الفرنسويين في كندا ليبلغون مليونين ونصفاً ومثل هذا العدد من الفرنسيس منتشر في جمهورية الولايات المتحدة ولا سيما في الجنوب واللغة الفرنسوية في هايتي هي اللغة الرسمية فاذا حسبنا المستعمرات الفرنسوية في كويان وجزائر الانتيل يصبح عدد الفرنسيس ومن يتكلمون باللغة الفرنسية من الاميركان ليس بقليل

وان مالنا من الايادي في اميركا ولا سيما وقد قرن فيها اسم لافاييت الفرنسوي باسم واشنطون الاميركي اللذين ساعدا على استقلال الولايات المتحدة وما وضعناه فيها من اموالنا وقمنا به في جمهوريات الجنوب من البعثات العلمية والعسكرية والمشاريع الاقتصادية والمالية كل ذلك يدعونا بلسان الحال الى ان نصل الحاضر بالغابر وان لم تكن سلسلة الصلات قد قطعت كل القطع .

والناس مهما تقلبت بهم الحال لايزالون يذكرون لفرنسا بيض اياديها عَلَى المدنية واذا نسوها فانهم لاينسون باريز التي تنشر انوارهاعلى العالم واليها يحج الالوف من الاميركيين كل سنة للتنزه والارتياض والاستفادة وكلما كثرت الرفاهية في ديارهم تدعوهم الدواعي الى نزول باريز وما في اراضي فرنسا من المصايف والضواحي كالشاطئ اللازوردي (كوت دازور) فان مجموع الاميركيين الذين يختلفون كل سنة الى ديارنا لايقلون عن مليون سائح · فعقد الصلات بين فرنسا واميركا فيها كل ما نحتاجه من الاسباب القوية فان كانت اميركا الشمالية تدعونا اليها بما فيها من القوة والعظمة فاميركا الجنوبية تنادينا اليها القرابة لان عناصرها لاتينيةوتربتها لاتينية فمن كندا الى مضيق ماجللان مارين بالمكسيك والجمهوريات الوسطى ترى الدم اللاتيني ممزوجاً في شرايين العناصر الجديدة وعَلَى اميركا الجنوبية يصح اطلاق المثل القائل« هذا دم لاماء»

ومثل هذه الجمعيات نفعتنا في القارات والاقطار الاخرى فقد كانت جمعية « افريقية الفرنسوية » اعظم معاون للحكومة في اعمالها الاستعمارية وجمعيه « آسيا الفرنسوية » اخذت على عاتقها مثل هذه المهمة و« جمعية مراكش » تعمل عَلَى نشر الافكار الفرنسوية في الغرب الاقصى فنحن بجمعيتنا هذه لانأخذ الى اميركا من معارفنا بقدر مانأخذ عنها · فلا نرمي الى الدخول فيها ونشر كلمتنا بين ابنائها بل نود ان نعاونها ولمحالفها نريد ان نتعلم عليها ونحن ابناء المدنية القديمة درساً في النشاط والمضاء فان كان لمدننا القديمة كنائسها وبيعها فللمدن الحديثة معاملها ومصانعها فنحن نقنع بامتصاص التاريخ اما هم فينشقون ارج المستقبل ·

قام في واشنطون مثل عملنا هذا يرمي الى التقرب بين جميع العناصر في العالم الجديد سموه مكتب الجمهوريات الاميركية انشأته الولايات المتحدة بمعونة الحكومات الاخرى، ومنحه المستر كارنجي مبلغاً جسيماً من المال وهو يفتح قاعات لالقاء المحاضرات والاجتماع ومكاتب لاخذ المواد والتعليمات وخزانة كتب ومجلات كبرى وينشر مجلة للدعوة الى هذا الغرض وذلك على صورة رسمية كما ان اسبانيا انشأت مثل ذلك للتوفيق بين اسبانيا واميركا وبمثل ذلك قامت البرتغال للتوفيق بينها وبين البرازيل. وفي المانيا تحدث الكليات واعمال الرجال على جلب ابناء الاميركان وتلقينهم التربية الجرمانية اما شعار جمعيتنا فهو ان نحبب فرنسا الى نفوس اميركا ونعرفهم بها ونحبب اميركا الى نفوس الفرنسويين ونعرفهم بها

ولا بأس هنا بذكر شيء من تلك العظمة الاميركية التي ادهشت العالمين المدني والوحشي فان مدائن نيويورك وشيكاغو وسان لوي وسان فرنسيسكو قد امتازت بغناها في زراعتها ومعادنها وصناعتها واعمالها التجارية الخارقة للعادة فقد كان في الثماني والاربعين ولاية ومقاطعة كولومبيا والارض الهندية والاسكا وجزائر هافاي ومنها تتألف الولايات المتحدة ٥٧٣٩٦٨٧ مزرعة سنة ١٩٠٠ ومعدل سعة كل واحدة منها ١٤٦ فداناً (آكر) وثمنها ٢٠ ملياراً ونصف مليار دولار اي ١٠٦ مليارات من الفرنكات وكان مجموع محاصيل هذه المزارع سنة ١٩٠٨ ٨ مليارات دولار منها ٢٦٦٨ مليون مكيال من الذرة و٦٦٤ من الحنطة و ٨٠٧ من القرطمان و ٣١ من الجلودار و١٦٦ مليونا من الشعير و١٣ مليون بالة قطن و٧٠ مليون طن من العلف و٧١٨ مليون لبرة من التبغ و ٢٧٨ مليون مكيال من البطاطا

و١٣٥ مليون لبرة من الصوف النقي

وكانت مساحة الغابات الأهلية ١٦٨ مليون فدان تغل كل سنة ٦٦٦ مليون دولار دع عنك الصيد في بحار اميركا وانهارها وهو يبلغ بعشرات الملايين من الدولارات ٠

وبلغ سنة ١٩٠٥ مجموع ما في الولايات المتحدة من المعامل ٢١٦ الف معمل وراس مالها ١٢٦٨٦ مليون دولار يعمل فيها ٥٤٧٠٠٠٠ يتقاضون اجوراً يبلغ مقدارها ٢٦١١ مليون ريال وتبتاع بثمانية مليارات ونصف من المواد الاولية وتبيع بما قيمته خمسة عشر ملياراً ٠ وفي سنة ١٩٠٨ اعطت الحكومة ١٦٣ الف رخصة لانشاء محال واماكن قيمتها ٥٤٦ مليون ريال

وبلغ طول الخطوط الحديدية في هذه الولايات سنة ١٩٠٧=٢٣٧ الف ميل اي ٣٨١ الف كيلومتر لها ٥٥٣٨٨ قاطرة و٢٠١٢٦٠٠ مركبة فيها من المستخدمين ١٦٧٢٠٠٠ يقبضون ١٠٧٢ مليون دولار مشاهرات وبلغ عدد من نقلتهم تلك الخطوط من الركاب ٨٧٤ مليوناً وثقل البضائع ١٧٩٦ مليون طن وثقل الطنات الانفية (الالف ١٦٠٨ امتار) ٢٣٦ ملياراً وراس مال شركات السكك الحديدية ١٦ مليار دولار وصافي ربحها اربعة في المئة ٠ وفيها ماعدا هذه السكك الحديدية ٣٨٨١٢ ميلاً من الخطوط الكهربائية ٠

وبلغت صادرات الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨ ١١٩٤ مليون دولار والواردات ١٨٦٠ ومجموع تجارة اميركا الخارجية ٣٣١٥ مليوناً

وكل هذه القوة الاقتصادية ليست بشيء لو لم تكن الاخلاق اساس عظمتها الاقتصادية وقد اخذ مقام المفكرين والعالمين يعظم في اميركا كما عظمت منزلة رجال المال والاعمال والصناعة والتجارة . وكثير من سكان المدن يعنون بالموضوعات الادبية والفنية والعلمية واصبحت بعض المدن مثل بوسطون التي هي مقر الحركة العقلية منذ زمن طويل ميدان الآداب والعلوم . وان كثيراً من الاسر لينزلون مدينة واشنطون عاصمة الولايات المتحدة في سياستها و يعيشون فيها بعيدين عن اضطرابات نيويورك وسان لوي وشيكاغو . وليس للاميركان مثل فرنسا بلاداً يعترفون منها مادة علم ولا يجدون بلداً مثل فرنسا تتلقاهم بقبول حسن وتوفر الارادات على حبهم . وفرنسا تتعلم كذلك من نشاط رجالهم فكما ان طلابهم يجدون في بلادنا مايتعلمونه كذلك اولادنا يستفيدون من تعلمهم في كليات اميركا فينشأون بين شبان يشعرون منذ صغرهم باستقلال الفكر وانهم حاملون تبعة اعمالهم ان خيراً فخير وان شراً فشر .

لما وصل النقل الى هذا الحد وقف القلم فذكرت شيئاً من حال الشرق . ذكرت حال العثمانيين والايرانيين وانهم وان كانوا من امم مختلفة فجامعتهم الكبرى وهي الاسلام لاتقول بجنس ولا عنصر فلو كنا وكانوا على شيء من السلم الحقيقي اما كنا ندعو الى انشاء جمعية عثمانية ايرانية كما ينشيء هانوتو اليوم جمعية فرنسوية اميركية

ولكن ضعف عقول رجالنا ورجالهم وتعصبنا وتعصبهم وجهلنا وجهلهم لاتلبث ان تنفجر براكينها اذ ذاك ويتذرع بعضهم بالسياسة يتوكأون على عكازها ليتنافروا بين القلوب ويفرقوا بين ابناء الاب الواحد وهناك تدخل

الدول ذوات الشأن والغايات في البلادين وينحن في ابواق الشقاق مستعينات ببعضنا على البعض الآخر . وان العاقل ليربط على قلبه بيده عند ما يفكر في عاقبة سعي الجهلاء لابقاء سوء التفاهم بين العثماني والعثماني فكيف يتمنى هذه الامنية البعيدة اليوم من ربط العثماني بالايراني . فاللهم علمنا علماً نحسن به التفاهم حتى يتآخى الشرقيون كما يتآخى الغربيون

سير العلم والاجتماع

عادات الكتاب

لكل كاتب عادة في كتابته هي الزم له من شعرات قصه لايستطيع بدونها ان تفتح قريحته فان تريستان برنارد يخلع اكمام قميصه وقت الكتابة وقبته ثم يكتب بدون ان يحذف حرفاً فاذا ماتشتت ذهنه يمسح قلمه بلحيته الجميلة الطويلة وادمون روستان الشاعر يخلع نظارته عن عينه الواحدة . وراول بونشون لايفتح عليه في محل القهوة كما يقال بل يأخذ شراباً منبهاً ويكتفي احياناً بنسخ الاشعار التي يعميها (يخربشها) بقلم رصاص في دفتر له صغير . ويكتب موريس باريس بالحبر البنفسجي على ورق ازرق ذي حواشي من الوسط على عادة رجال السياسة وترى رسوم نسور من الذهب على منضدته التي يبلغ طولها ثلاثة امتار . وهو مخطيء في استعمال الحبر البنفسجي لان ابيل بونارد قد عدل عن استعماله من تلقاء نفسه لانه يتغير كلما قدم عهده وتزول كتابته التي خطتها انامله في اسرع وقت . ولا يكتب جول كلارمي مقدمات الكتب التي تعرض عليه الا اذا لبس طاقيته واكتسي بصدرته . ولا يخط جان ريشبن كلمة قبل ان يتزيا بمشلح صنع من جوخ احمر وكذلك الكونت مونتسكيو يلبس قميصه الروماني وهو مستطيل ابيض ومطرز بالزرقة والحمرة . ويكثر هانري باتايل من صرف الاقلام والاوراق وتشمئز نفسه من صرير القلم ويود لو تيسر له ورق من الجلد الرقيق . اما بول بورجيه فلا يكتب ولكنه يملي على امناء سره فيكتبون بسرعة وقد املى روايته الباريكاد الاخيرة على رجل بندبكي هو امهر في الاستملاء من خطاطي القرن الخامس عشر ويستعمل فيليه كريفن الفليون للتدخين اثناء الكتابة على انه لايدخن الا اللفائف .

ويجس بول هرفيو نفسه عند ما يريد معالجة القلم وارنست لاجونس لاتسيل قريحته الا امام الناس ومارسل برفوست يشرب الشاي و يشرب كابوس شراب الكينا وهانري لافدان الماء المعدني • هذه عادات بعض كتاب الفرنسيس المشاهير

قاطرة كبيرة

صنعوا في اميركا قاطرة ثقلها ثلثمائة طن لها ١٦ دولاباً و ١٠ محركات وطولها ٣٢ متراً ويمكنها ان تحمل ١٨١٥٠ لتراً من البترول و ٥٤٠ هكتو لتراً من الماء بحيث يتأتى لها ان تسير بدون وقوف وهي خاصة لنقل الركاب وقطر عجلاتها متر و٨٣ سانتيماً وهذه القاطرة تسير بالبترول لا بالفحم الحجري

الفراعنة والفينيقيون

نشرت المجلة الآسياوية الفرنسوية بحثاً في علاقة المصريين بسورية في القديم جاء فيه انه كتب في ورقة البردي المحفوظة في متحف برلين المعروفة باسم وقائع سنوحيت ان رجلاً من سادات مصر غادرها سراً من نحو الفي سنة قبل المسيح عَلَى عهد امنماحيت الاول ولجأ الى الحدود الآسياوية الى اقليم اسمهُ « كدم » وهو جزء من تونو الاعلى وقد اكرم امير تونو وفادة سنوحيت واسم الامير امويانا سجي الذي قال له انك ستكون عندنا عَلَى خير حال لانك تسمع بيننا اناساً يتكلمون باللغة المصرية وقد وصف هذا المصري مقامه في ذاك الصقع ووصف خيراته ونعمه و بعض عاداتهم التي لاتخرج عن عادات البدو هذه الايام في غزواتهم وغدواتهم وروحاتهم • و يقول بعض علماء الآثار ان بلاد تونو التي وصفها المصري مخففة من لو تانو وهي الارض الواقعة بين البحر الميت وصحراء جبل سينا و يؤيد ذلك ماورد عَلَى احدى المسلات الرسمية المؤرخة من زمن امنماحيت الثالث ان اهل سينا كانت لهم صلات مع اخي زعيم لوتانو •

وجاء في اكتشاف حديث من اوراق البردي اسم مدينة « كبني » وجبلى وجبيل وهي كما قال ماسبرو مدينة بيبلوس عَلَى شاطئ سورية و بيبلوس هي مدينة جبيل في جبل لبنان وانه في ضواحي هذه المدينة يجب ان تكون مشاهد المدينة الرعائية التي وصفها سنوحيت فاذا صح هذا فتكون فلسطين عَلَى عهد السلالة الثانية عشرة المصرية متأخرة العمران اذ لم يكن في داخل البلاد مدن واهلها يعيشون عيش الرعاة والرحالة وهذا الرأي لايخلو من صعوبة عَلَى من يحتجون بورقة البردي المحفوظة في برلين ومنها يفهم انه لم يكن بين السلالة الثانية عشرة المصرية وبين السلالة الثامنة عشرة سوى

قرنين اذ ظهر من الرسائل التي عثر عليها في تل العمارنة مؤخراً ان فلسطين كانت خاضعة للحياة البلدية ولوصولها الى هذه الحياة والنظام يقتضي لها اكثر من قرنين من الزمن . على ان بيبلوس كانت في الزمن المذكور آنفاً معروفة عند المصريين اذ قد اكتشف مؤخراً على ذكر حملة مصرية الى بيبلوس في عهد السلالة المصرية القديمة اي قبل بضعة قرون من رحلة سنوحيت

وذلك ان المصريين لما بدأوا على عهد توتميس الاول اي نحو سنة ١٥٠٠ قبل المسيح بغزواتهم التي ادت بهم من سواحل سورية الى وادي الاردن فشواطىء الفرات قد استولوا قروناً على اقليمي لوتانو وخارو وبالتوطدت اقدامهم فيهما حملهم حب الاكتشاف الى التقدم الى الامام فقصدوا نهر الفرات الذي وصفه توتميس الاول في مسلة تومبوس بان الماء يتراجع فيه ثم ينزل وهو صاعد ثم قصدوا غابات لبنان حيث وضع الشريف سنوفري احد جلساء توتميس الثالث تمثاله في علوة اهق فوق السحاب ثم تقدموا الى الغابات وكانوا يأتون الى بيبلوس باحسن الاخشاب التي بلغ طولها ٦٠ باعاً مصرياً (نحو ٣١ متراً) وكان ساقها غليظاً حتى نهايته وكانوا يحملون خشب الارز من جبيل الى مصر . فكانت هذه البلاد مسرحاً للصيد والغزو وقد كتب قدماء المصريين وقائعهم واساطيرهم في هذا الشأن ولم ينته الينا الا القليل منها ويقل فيها وصف البلاد التي كانت تجري الغزوات فيها ومما وصلنا قصة قائد المشاة في عهد توتميس الثالث وكيف استولى باعمال الحيلة على الزعيم الثائر في ثغر يافا وكيف ضربه بعصا فرعون الاكبر ولكنه لم يرد في هذه القصة وصف يافا واقليمها

ويفهم من مجموع الاساطير والرحلات الباقية ان فرعون مصر كان يبعث باعوانه يطوفون البلاد بلداً بلداً في آسيا ليطبعوا النفوس على احترامه وذكروا فيها مالقوه من النصب في اسفارهم ولاسيما في اجتياز الغابات والشواطئ الجبلية او القفار التي تفصل بين المدن المذكورة وبينهم مثل جبيل مدينة الآلهة ومدينة صور حيث كان السمك اكثر عدداً من الرمل والماء يحمل اليها في قوارب من اليابسة

وقصارى القول ان ابناء الرحلات التي رحلها المصريون على عهد الرعامسة اسيف الخلاف رعمسيس قد وصفوا آسيا وصفاً خيالياً تكاد لاتكون له صبغة خاصة ليس فيه الا حروب ورحلات وحب وعشق . وفي اوراق البردي التي قرئت من مجموعة كولانيشف وصف رحلة مصري الى آسيا في القرن الحادي عشر قبل الميلاد وهي عبارة عن

رحلة تاجر . وذلك ان رجلاً اسمه اونامونو عميد قاعة الكرنك في السنة الخامسة من حكم رعمسيس الثاني عشر وفي الزمن الذي كان فيه الكاهن الاعظم للرب عمون واسمه هريهور يحكم في طيبة وكان سمندس اول ملوك التانيتيين يحكم الدلتا وعاصمة مدينة تنيس ركب اونامونو البحر الى سورية للبحث عن الخشب اللازم لأنشاء قارب الرب عمون را فوقف اولاً عَلَى دور احدى مدن زقالا في شمالي يافا ثم بلغ مدينة صور ثم جبيل ثم بلاد الازيا وهي ليست محققة فبعضهم يقول انها قبرص والآخر يقول انها في مضيق نهر العاصي . وذكر هذا السائح ان احد الملاحين سرق له اواني وسبائك ذهبية ولم يستطع ان يأخذها منه في دور ولا في صور حتى اذا بلغ جبيل وقابل اميرها ذكر له هذا ما كان فراعنة مصر يبعثون به لآبائه من الهدايا وانه لا يتيسر له ان يقبله بدون هدية مصرية تذكر واراه جريدة الهدايا التي كانوا يبعثون بها ولما وعده بمثلها عَلَى ان يرسل اناساً من قبله الى ملك تنيس امر له بثلثمائة رجل من رجاله وثلثمائة ثور وبعض ضباط لقطع الخشب من الغابات ليحمل من قابل على القوارب الى مصر ثم استعمل امير جبيل الجفاء في مخاطبته رسول مصر واخافه لما أراه ماحل بمن جاء قبله من قبل الفراعنة بدوس ارض بلاده واجداده وكل هذا مما يستأنس به في العلائق التي كانت منذ القديم بين المصريين والفينيقيين وان فراعنة مصر عَلَى قوتهم وغناهم وارباجم وكهنتهم وسحرتهم لم يكونوا يرهبون سكان صور ودور وجبيل بل كان المصريون لا يقطعون الخشب من غابات لبنان الا بما يقابلها من الهدايا والتحف المصرية ويؤخذ من كل هذه الروايات ان قدماء المصريين لم تكن لهم معرفة اكيدة الا عن سورية او الاصقاع القريبة منها ولم يكن لهم معرفة فيما وراء لبنان معرفة ينتفع بها في التاريخ الصحيح .

مكتبة الاسكندرية

كتب عبد الوهاب افندي سليم التنير في مجلة النبراس بحثاً في موضوع حريق مكتبة الاسكندرية جاء فيه نقلا عن كتاب ارتكابات الاوروبيين لصاحبيه جورج فوت وجمس اهلويلر مانعربه بالحرف :

لقد قام الافرنج بحرب طاحنة عَلَى الوثنيين وسفكوا الدماء وقد امر الامبراطور تيودوسيس بتحطيم اصنام الوثنيين وغيرها مما هو للوثنيين فقام بطريرك الاسكندرية وقاد أمته وذهب بها الى هيكل سيرابيس فدمروه ولما انتهى من خراب هيا كلهم ذهب الى المكتبة

واحرق مافيها من الكتب حتى اصبحت رفارفها فارغة فلم يرها احد بعد ذلك الا تأسف عليها غاية التأسف ٠ فالذي احرق مكتبة الاسكندرية هو البطريرك ثيوفيلوس بامر الامبراطور ثيوديس قبل دخول المسلمين الى اسكندرية بسنين كثيرة ومعلوم ان الدين الاسلامي يمنع احراق الكتب اه

وقال دوان في كتابه المسمى (خرافات الاوربيين) ماترجمته الخاصة : ان المكتبتين اللتين اسسهما البطالسة في الاسكندرية كان احراقها عن يد جيوش قيصر لما حاصر الاسكندرية وللتعويض عن هذا الخطاء أهديت المكتبة التي جمعها يوميناس ملك برغامة الي الملكة كليوبطرا عن يد الملك انطوني لكن حكم الدهر او الجهل ان لا تبقى هذه المكتبة العظيمة اجيالاً فقد احرقها البطريرك فيوفيلوس واقام على انقاض كنيسة سماها كنيسة الشهداء

وجاء في دائرة المعارف طبع تشمبيرس وشركائه في المجلد الاول عند كلمة الاسكندرية ومكتبتها : ولما حاصر يوليوس قيصر مدينة الاسكندرية احترق قسم عظيم من هذه المكتبة غير انها أعيدت الى ما كانت عليه بسبب الكتب التي جمعها ملك برغامه واهداها الى الملكة كليوبطرا وقد بقيت الى زمن سيوديسيس الكبير ولما امر هذا الامبراطور بهدم معابد الوثنيين في انحاء المملكة كافة هدموا هيكل سيرابس حيث المكتبة موجودة فهدموا الهيكل واحرقوا المكتبة في سنة ٣٩١ بعد المسيح وليست العرب هي التي احرقتها كما ينسب اليهم زوراً وبهتانا ٠ وقال جون مسبرك في كتابه المسمى الادعاآت الكاذبة : « ان الافرنج هم الذين احرقوا المكتبة الاسكندرية والمسلمون هم الذين ادخلوا العلم الى اوربا » وقال المستر هلسلي استيفونس في كتابه المسمى التفكر والاديان : (لقد أحرقت مكتبة الاسكندرية ايدي الجاهلين وهي مكتبة مهمة وبفقدانها فقد العلم وبقيت اوربا تتخبط في ظلمات الجهل الى ان انارها المسلمون بعلومهم) وقال بيتنس في دائرة معارفه (ولما افتتح يوليوس قيصر مدينة الاسكندرية احترقت المكتبة الاولى وبقيت المكتبة الثانية التي أسست بعدها وقد زادت كتبها بالمجلدات التي أهديت للملكة كليوبطرا عن يد مارك انطوني وصارت اعظم من التي احترقت وبقيت الى سنة ٣٩٠ بعد المسيح حين قام الافرنج على الوثنيين وهدموا معابدهم التي كان في جملتها هيكل سيرابيس واحرقوا المكتبة) وقال جورج مرتين في كتابه درياق الخرافات ماترجمته بالحرف : ياترى ماذا صار بمكتبة الاسكندرية قل لقد احرقها المتوحشون من الافرنج بامر

ثيودوسيوس سنة ٣٩٠ بعد المسيح ٠ وهذه الكتب الصامتة التي أحرقت تشهد علي الكذب الذي اختلقوه في رومية وقالوا انها أحرقت بامر الخليفة عمر بن الخطاب ولقد نسبوا هذه النسبة الكاذبة الخاطئة اليه زوراً و بهتاناً

وقال فوت واهو بلر في كتابهما ارتكابات الافرنج: قضى ثيودوسيوس عَلَى ما كتبه بوفيري كافة من كتب العلم بواسطة الاحراق وامر ايضاً باحراق كل الكتب التي تشتمل عَلَى شيء يخالف معتقدهم وقال ايضاً : والذي احرق مكتبة الاسكندرية هو ثيوفيلوس لا المسلمون لان الدين الاسلامي لا يبيح احراق الكتب وعدا هذا فان المؤرخين الأول كافة الذين كانوا في عصر بدء الاسلام لم يذكروا مكتبة الاسكندرية قط مع انهم ذكروا اموراً وشؤوناً طفيفة لا يؤبه لها

وقال المطران يوسف الدبس في كتابه تاريخ سورية بعد ان ذكر ماذكره لبعضهم من كيفية احراق مكتبة الاسكندرية ونسبتها للمسلمين : روى هذه القصة كثير من المؤرخين النصارى و بعض المسلمين ايضاً عَلَى ان المدققين لم يقطعوا بصحتها

وقال رنان في خطاب له في العلم والاسلام : لقد قيل ان عمرو بن العاص احرق مكتبة الاسكندرية وهذا كذب محض والمكتبة المذكورة قد أحرقت قبل زمانه بسنين عديدة

وقد اورد الباحث نقولاً عن علماء الافرنج يزيفون اقوال بعض ارباب الاهواء في نسبة الحريق للمسلمين و يبينون مأخذ عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي وابن العبري والحاج خليفة وليس لمكتبة الاسكندرية ذكر في عبارة ابي الفرج بن العبري الاصلية السريانية والنسخة العربية منقولة عنها كما ان بعض المخطوطات من تاريخه العربي لا اثر لهذه الرواية فيها والحاج خليفة لا ذكر للاسكندرية ومكتبتها في كتابه والبغدادي والقفطي نقلا عن رواية دسها عليهم بعض المتعصبين اودسوها في عباراتهما ٠ والبحث مهم في ذاته يبين تعصب الافرنج عَلَى الاسلام و به يتم هذا البحث الذي نشر المقتبس فيه عدة ابحاث ايضاً في سنيه الثلاث الاولى

حياة الرسول

ينشر المسيو فيكتور شوفين من المستشرقين البلجيكيين منذ مدة كتاباً في اجزاء كثيرة يأتي فيه عَلَى اسماء الكتب العربية التي نشرت في اوروبا المسيحية منذ سنة ١٨١٠ الى ١٨٨٥ والجزء الحادي عشر منه هو في الكتب والرسائل التي نشرت بشأن الرسول

(عليه الصلاة والسلام) وعددها ثمانمائة كتاب ورسالة وربما نشر بعض الجمل المهمة منها . نشر الآراء على اختلافها ولم ير بأساً من الاشارة الى الكتب التي كتبت في القرون الوسطى على خاتم النبيين ايام كانت علوم اوربا وكلياتها وجامعاتها بيد رجال الدين فقط .

انكلترا والشرق

شعرت انكلترا بتخلفها عن امم الغرب الراقية في معرفة علوم الشرق . . فرأت ان خير ذريعة لذلك انشاء مدرسة للغات الشرقية الحية حتى لاتنازع . . . دولة في الشرق ولا سيما في الهند فعهدت الى لجنة النظر في ذلك فق. . انشاء مدرسة لهذا الغرض تضاف الى كلية لندن كي ان تكون مستقلة باعمالها . . فيها الموظفون والضباط الذين ترسلهم الى الشرق بعد ان يتمكنوا من اللغة . . يريدون الخدمة بين اهلها لا ان يكتفوا كما كانوا باستظهار بعض الكلمات وا . . المحرفة . قال الاستاذ هدلم ان الواجب يقضي ان يكون الرجل الذي يذهب الى الخارج مقتدراً على التكلم كما يتعلم الرجل المتنور الفاضل ويكون شعوره وفكره . . . لا ان يذهب فقط يتكلم التركية كما يتكلم بها جمال . وقد سئلت الحكومة في مجلس النبلاء عن الغرض من هذا العمل فابانت فوائده وعضده لورد مورلي حاكم الهند ولورد كرزون حاكمها السابق ولورد كرومر حاكم مصر وابانوا النتائج الحسنة منه وقد استقبلت بعض الجرائد المبالغ التي خصصت لذلك ولكن التيمس قالت ان هذه النبتة ستكبر من نفسها فان المملكة البريطانية التي يتكلم باللغات الاجنبية ثلاثة من كل اربعة من سكانها سيتيسر لها ذات يوم ان تنفق في سبيل تعلم اللغات مثل ماتصرف المانيا وفرنسا . .

العلوم والتربية الوطنية

كتب المسيو ايل في مجلة الافكار الحديثة مقالة تحت هذا العنوان قال فيها : لكل امة في كل عصر من عصورها نمط من التربية تختارها متناسبة مع حالتها الفكرية وحاجاتها وضرورات بقائها والدفاع عن حوزتها وتأييد كلمتها ويبد الحكومة تحقيق هذا النموذج وتعيينه . نحن امة ديمقراطية فيجب ان تكون غاية تعليمنا الوطني ان تهيئ للامة بأسرها اسباب حكم نفسها بنفسها وان تعمل اصلح الاعمال باقل جهد وتضمن لكل واحد ان يكون ماامكن ممتعاً بشخصيته مطبوعاً بطابع الواجب الاجتماعي والواجب

الوطني فيوجه الى وجهة واحدة العنصرين اللذين بهما تتعلق حياة البلاد واعني بهما نشاط الافراد وهو موجد القوة وفكر الاشتراك الذي يدعو ابناء النبعة الواحدة الى التكافل والتضامن في اعمالهم ويكون رائدهم الوئام لئلا يدخل فيهم الخصام والانقسام يكون تعليمهم حقيقياً كما يقول الالمان ونافعاً في مجموعه وتجعل وجهته بحيث ينبه في كل مكان روح التفكر والاعتماد عَلَى النفس والاقدام على العظائم

ابان البحث في المدنيات القديمة التي كان اساسها حتى الآن من الفلسفة او من الدين ان الالحاد والاعتقاد لم يستطيعا ان يؤلفا وحدة باقية بين فكر الاشتراك وعمل الفرد وان تربية هذا اساسها تؤدي عاجلا او آجلاً الى الضعف والاختلال ولا سيما في العصر الحاضر فانها تؤدي اليهما اكثر من الحرية الغير المحددة في التفكر والكتابة ونشر الآراء عَلَى اختلاف انواعها بواسطة الصحافة الرخيصة · وليس كالعلم دواء انجع من هذا الداء فالعلم منبع التفكر والعمل والاخلاص الذي لا يطلب به صاحبه غرضاً وبالعمل النافع وبطريقة العلم تنتظم الافكار العامة بنظام حسن وبها تضمن له وحدة الارتقاء مع ترك الحرية المطلقة لفكر الفرد · وبطريقة التعليم ينتفع من المتوسطين في ذكائهم المواظبين على اعمالهم فيخدمون خدماً حقيقية في الاعمال الصناعية والزراعية · ان صاحب الذكاء المحدود اذا جمع اليه عامة صفات العمل المتصوَّر لا يكون منه في الادب ولا في الفلسفة الا امور تافهة · وعندما يجيء زمن تزول فيه كل سلطة قائمة عَلَى العهود الاجتماعية يؤسس العلم سلطة لا راد لحكمها ولا اسطع من نورها تنشأ عَلَى اصول راسخة عَلَى الاكفاء العاملين · وبتنظيم طريقة التعليم يجتنب الاسراف في الوقت والقوة بتلقين عادات التؤدة والنظر والتدقيق والبساطة في الاذواق منبهة شعور الظلام والجهل مع الرغبة في امحائهما داعية المرء بما فيه من الصفات الاخلاقية والعقلية لا بما فيه من القوى الطبيعية ووجدانه في العمل وصدقه في الحكم وطريقة التعليم تورث العقل نظاماً وتعود الفكر عَلَى البحث والقلب عَلَى الصبر والجسم عَلَى النشطة وهي الكفيلة بتربية ابناء المدينة الفاضلة ·

ولقد اضطر المربون الاول في فرنسا ان يقبلوا ارث اليونان والرومان في العلم عَلَى ما فيه من الجاذبة والمخاطر وكانت دراسة اللاتينية اولاً فرضاً ثم ضارعتها اللغة اليونانية وحذفت من الدروس تعلم اللهجة الفرنسوية وظلت المناقشات السفسطائية والجدالات المذهبية زهاء الف سنة مستولية عَلَى القوى العقلية في الامة فاصبحت الواسطة غاية وكان النقد الادبي اول ما يعنى به فلم يكن للعلوم مقام في تعليم محدود بهذا القدر بل انها اصبحت

مجهولة في الاديار مهملة في الكليات وتابعة للفلسفة السكولاستيكية ولما غدا النظر في الطبيعة لايعد سحراً امسى العمل يوصم بوصمة الكفر ولكن النقد الادبي ظل هو العلم ولم يقدر هذا الا في اواخر القرن الثامن عشر ان يكون له كيان امام ما كان يعتقد انه علم وليس هو منه في شيء ٠

وتكلم عَلَى التعليم في فرنسا وقسمه الى ابتدائي ووسط وعالٍ وقال ان لتعليم اللغة الفرنسية المقام العالي لانه من البين ان اضل كل تهذيب يجب ان توضع معرفة لغة الانسان في المقدمة معرفة حقيقية وقال ان العلوم الادبية في درجات التعليم الثلاث هي موضوع الاهتمام والعناية ودارسوها اكثر من دارسي العلوم مع ان حضارة هذا القرن تقضي بان تكون العلوم قبل كل شيء هي المعول على دراستها ٠ فالادب عند الفرنسيس هو الملجأ المضمون لكل فرنسوي هو ملجأ الاطباء الذين لازُبن لهم والمصورين الذين يئسوا من الكسب والضباط الذين عزفت نفوسهم من خدمة الجيش بل وكل من خانتهم قواهم ولم يجدوا لهم عملاً ٠

الاخلاق الحربية

قوة كل امة بقوة افرادها وجنديتها مناطة بقوة عضلات من تتألف منهم اكثر من كثرة عددهم فالجيش الالماني غلب الجيش الفرنسوي في حرب سنة السبعين بقوة افراده وتنظيم كتائبه واسباب راحته مع ان فرنسا كانت اذ ذاك تخرج من الجند عدداً اكبر والسر في تغلب الجيش الياباني عَلَى الجيش الروسي هو انه مؤلف من جند مختارين فيابان وهي اربعون مليوناً لم تخرج سوى ثلاث عشرة فرقة من ابنائها لحمل السلاح في حين ان تسعاً وثلاثين مليوناً من الفرنسويين يختارون لحمل السلاح من ٤٢ الى ٤٥ فرقة اي ثلاثة اضعاف ماتخرج اليابان هذا مع ان الصناعات تكثر في يابان كثرة زائدة ومعلوم انحطاط قوى الصناع عن الزراع فيما يتعلق بالشؤون الحربية ٠ وقد انحطت قوى الجند الفرنسوي اليوم عن مثلها منذ خمسين سنة كما يرى ذلك الضباط عياناً عند مايقضى عَلَى الجند ان يعلوهم ويشغلوا اذهانهم كما يشغلوا عضلاتهم فليس الاستعداد العسكري هو الذي يرغب فيه بل تربية الجنس تربية طبيعية ٠

اما الانكليز فقد امتاز جندهم بطول القامات وصباحة الوجوه وحمرة الخدود ومن جال في انكلترا بل في البلاد التي استعمرتها هذه الدولة يتجلى له انها توصلت بالمحافظة المعقولة عَلَى صحة ابنائها وبكثرة تمرينهم عَلَى الالعاب الرياضية حتى اصبح لديها جند مختار ٠

دربوا البشر كما تدرب الخيول المطهمة وهل الانسان الا حيوان ناطق ولقد قال روسكين فيلسوف الانكليز المشهور ان نتيجة كل ثروة اخراج خلق كثير من تكون صدورهم متسعة وعيونهم حادة براقة وقلوبهم فرحة .

فاليابان هم اكثر الامم عناية بالامور الصحية وليست عنايتهم بها دون عنايتهم بتلقين العلم حتى ان بعض الدساكر والقرى من اواسط بلادهم قد حملت كلها السلاح للدفاع عن الوطن عندما نادى نذير الحرب . وكم من امة جادت صحتها وقويت عضلات ابنائها ونشأت فيها الاخلاق الحربية بفضل الرياضة المعقولة ومن تلك الامم السويد فانها كانت منهوكة القوى بالالكحول فابطلتها وما هو الا جيل وآخر حتى اصبحت امة قوية العضلات آية في الكر والفر ومثل ذلك رومانيا التي انبعثت فيها الحياة بعد ان كانت خمسة عشر قرناً ميداناً للغارات الكثيرة ولحكم الغرباء عليها فجعلت منذ ثلاث سنين التعليم العسكري الاستعدادي اجبارياً في جميع المدارس الابتدائية الثانوية والصناعية والعامة والخاصة يتولى ذلك معلمون يعينون خاصة لهذا الغرض وكثيراً مايعضدهم الضباط .

وجرى الطليان منذ سنتين على نشر مبادئ الرماية والتعليم الطبيعي لتعد الشبان للخدمة العسكرية وتحافظ على ماتعلمه من التدريب الحربي من ليسوا تحت السلاح من ابناء ايطاليا ويكون التعليم اجبارياً في المدارس الابتدائية والوسطى بل في الكليات يعنى فيها عناية خاصة بمن يترشحون ليصبحوا اساتذة فيزيدون لهم درساً في حفظ الصحة والتعليم الطبيعي حتى لقد اصبحت مدارس المعلمين الثلاث في تورين وروميه ونابلي عبارة عن مجامع عملية لتخريج اساتذة . وعنيت البلجيك منذ سنة ١٩٠٨ بان اضافت الى مدرسة الطب في كلية غاند مجمعاً علمياً عالياً للتربية الطبيعية واخترعت شهادات للمتخرجين في التربية الطبيعية

ولم تعمل بلد من بلاد الارض ماعملته سويسرا في مسألة التربية الطبيعية للشبان وتدريبهم على الفنون العسكرية فقضت على كل طفل منذ سن الداشرة الى خروجه من المدرسة الابتدائية ان يحضر درساً في الرياضة الاستعدادية للخدمة العسكرية ويقوم بهذه الدروس اساتذة يتعلمون التعليم الكافي في دور المعلمين من كل اقليم وفي مدارس الجند . ويبلغ عدد المجندين كل سنة من ١٦ الف الى ١٨ الف جندي تعلم نحو نصفهم الرماية من قبل

وأنشئت في فرنسا جمعيات لاعداد الشبان للخدمة العسكرية والجيش حتى قلل احد القواد لاحد رجال سياسة فرنسا « هيأوا لنا رجالا لنجعل منهم جنداً » ومن هذه الجمعيات جمعيات الرياضة البدنية والتعليم والاستعداد العسكري والرماية والسيف والترس والبوكس والصراع وركب الدراجات والعوم الخ · بلغ عدد اعضائها كلها ٩٠٠ الف رجل وامرأة من اعمال مختلفة ومظاهر وطبقات متباينة والحكومة تساعدها فتعطيها مليوناً وسبعمائة الف فرنك كل سنة فضلاً عن وارداتها التي هي خمسة ملايين فرنك عدا ما يرد عليها من اعانات الاقاليم ·

المجالس النيابية

مضت العشر السنين الاولى او العقد الاول من القرن العشرين وقد كثرت المجالس النيابية او امتدت سلطة الموجود منها ففي ١٠ ايار ١٩٠٠ افتتح اول مجلس نيابي لجمهورية اوستراليا وفي ٢١ آذار ١٩٠٧ افتتح مجلس جمهورية الترنسفال واجتمع في جتينة عاصمة الجبل الاسود منذ شهر تشرين الثاني ١٩٠٦ الى شهر نيسان ١٩٠٧ اول مجلس نيابي فيها ولم تطل مدة الدوما الاولى الروسية سنة ١٩٠٦ سوى مئة يوم وحدثت بعدها الثورة ثم خلفتها الثانية والثالثة وأُصيب القانون الاساسي في فنلندا سنة ١٩٠٨ بما كاد يقضي عليه ثم عادت اليه حياته في الحال وبعد ان كان الدستور في الصرب والبلغار ساقطاً غير معمول به زمناً مثل دستور البرتغال عادت اليهما حياتهما بموت الملك اسكندر وكارلوس وافتتح الشاه المجلس النيابي الفارسي ثم اطلقت عليه القنابل وقتل احرار الامة الفارسية بيد المعطلين منها ومرت روح التجديد الى البلاد العثمانية فاعيد قانونها الاساسي الى العمل به يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ وفي هذه السنة اعلن القانون الاساسي في الصين

وما برحت المجالس النيابية معرضاً للتبديل والتغيير فتوسعت السويد بدستورها الذي نشرته سنة ١٨٦٦ وقبلت بالانتخاب العام كما قبلت النمسا والدانيمرك (١٩٠٧ — ١٩٠٨) واصلح مجلس الرشستاغ في برلين بعض خصائصه مثل مجلس همبورغ والالزاس لورين والمجر واصبحت فنلندا تنتخب الى مجلسها النيابي اثنتي عشرة امرأة منذ سنة ١٩٠٧ وكذلك تريد ان تطرس على آثارها النروج والدانيمرك والولايات المتحدة والبلجيك وايطاليا واسبانيا ليشارك النساء الرجال في التشريع لبلادهن ·

ثم ان اول مجلس نيابي اي مجلس لندرا لم يخل من ادخال بعض اصلاحات عليه مثل

مطالبته باعطاء ايرلندا استقلالاً اداريًا وربما منح مصر مجلسها النيابي لولا شؤون وشجون كما ان مجلس النبلاء يوشك ان يدخله اصلاح ديمقراطي ثم ان النيابة الاسمية في الآراء قد انحلت مسألتها في نوشاتل وجنيف وتسين والبلجيك واسبانيا والبرتقال والدانيمرك والسويد وايلينوا وكاليفورنيا وبرازيل ومملكة بونس ايرس ومملكة الرأس كما ادخلت الى فرنسا وايطاليا وبعض الاقاليم السويسرية بعض التعديل في النيابة ونالت البوسنة والهرسك من دولة النمسا والمجر بعد انسلاخها رسميًا عن المملكة العثمانية مجلسًا نيابيًا ايضًا ٠

غلاء الحاجيات

تصاعدت اثمان الحاجيات في الغرب واكثر بلاد الشرق منذ عشر سنين الى الآن فارتفعت اسعار البقول ثلاثين في المئة واسعار الحبوب عشرين والزيت خمسة عشر والسمك البحري عشرة والسمك المقدد خمسة وثلاثين والقهوة والشوكولاتا خمسة وعشرين والشحوم اربعة وثلاثين ٠ وقد قسم بعض الباحثين بلاد العالم في غلائها الى ست مناطق فجعل في المنطقة الاولى بلاد البلجيك واسبانيا وايطاليا ولوكسمبورغ والبرتقال وسويسرا وفرنسا ٠ وفي الثانية المانيا وبافيرا والدانيمرك والجبل الاسود ونروج واسوج وفي الثالثة النمسا وبريطانيا العظمى واليونان والمغرب الاقصى وهولاندة ورومانيا والصرب والعثمانية ٠ وفي الرابعة مصر وايران وروسيا ٠ وفي الخامسة اوستراليا والصين وكوريا والهند الانكليزية والهند الهولاندية واليابان وسيام ٠ وفي السادسة افريقية الشمالية والغربية واميركا الشمالية وكندا وجزائر الانتيل واميركا الجنوبية ٠ وبلاد الترنسفال اكثر بلاد الارض غلاء لان الذهب فيها مبذول لكثرة مناجمه فيها ويليها في تفاحش الاسعار بلاد الهند بل جميع المستعمرات الانكليزية وفي استوكهلم عاصمة السويد غلت الحاجيات واجور المساكن الى درجة غير معقولة فاجرة الغرفة فيها كل شهر في حي الاغنياء خمسون ليرة وبيوت هذه العاصمة للبلدية او لنقابات وشركات حتى كاد العامل الفقير يهلك فيها والحكومة هناك تفكر في طريقة لتنفس خناق السكان من غلاء المأكل والمسكن ٠

الماء الغالي

لا يخفى ان ثلاثة ارباع الجسم الانساني مركب من الماء والربع فقط من المواد الآزوتية والكربونية وغيرها ٠ وهكذا الحال في غذائنا وكثرة السوائل المائية فيه

فان في الكيلو من لحم البقر او الغنم ٢٥٠ غراماً من المواد اللحمية و٧٥٠ غراماً من الماء ولحم السمك وهو كثير التغذية جداً يحتوي ايضاً عَلَى كمية اكثر من الماء ففيه منه من ٧٧٠ الى ٧٨٠ غراماً في كل كيلو اما اللبن الحليب فيكاد لايحتوي عَلَى اكثر من ١٣٠ غراماً من المواد المغذية والبقول اكثر مائية من غيرها فان عشرة كيلو من البطاطا تحتوي عَلَى نحو ٨ كيلو من الماء وفي عشرة كيلو من الملفوف او الشوندر ٩ كيلو من الماء

معدل القهوة

لايخفى ان القهوة من الاشربة المهيجة للاعصاب وان كثيراً من الناس الذين يحبون طعمها ورائحتها الذكية تضطرهم الحال ان يحرموا منها لانها تورثهم ارقاً واضطرابات عصبية . وفي سنة ١٨٢٠ اكتشف « رونج » المادة المعروفة في القهوة واسمها الكافيين وانها هي اهم العوامل المؤثرة في هذه البزرة ولكن روبروهاس قد ابانا ان في القهوة ماخلا الكافيين عدة مواد اكثر سمية منها وهي غير معروفة . فان كان استعمال القهوة بكثرة او بقلة يحدث لبعض متناوليها شيئاً من الاضطراب احياناً فان الدكتور كوفيه حقن ارنباً في اعصابه الوداجية بنقيع القهوة فاضطرب جسمه اولاً ثم اهتز ثم عرته تشنجات ثم الموت. عَلَى ان القهوة اذا عريت من مادتها السامة ايضاً وهي الكافيين تظل عَلَى ضررها . وعَلَى هذا رأى علماء الصحة ان دعوة الناس الى الاقلاع عن شراب القهوة من العبث. مادام استعمالها شائعاً في الارض عَلَى ماهو معلوم واثبتوا انه يتأتى تناولها بدون ان تؤثر في الاعصاب اذا كانت محضرة جيداً . ولئن خلطوا القهوة بالهندباء الناشفة المحمصة او البلوط المحمص وبذر الجاودار والتين المحروق والشيل (عرق الانجيل) والشعير والذرة والارز والدخن والفاصوليا والحمص والعدس والفول والبطاطا والهليون ونوى التمر والكستانة ليخدعوا بها الناس ولكن احد الفرنسيس عثر عَلَى نبات اسمهُ « المقري » باسم وزير الحربية المراكشية اذا مزج بالقهوة لايغير من طعمها ورائحتها الذكية بل يقلل من تأثيرها في الاعصاب وثمن هذا النبات معتدل مثل الهندباء واستعمال هذا النبات معدل اقتصادي وصحي فحبذا يوم يأتينا بكثرة الى هذه الديار .

الذهب والفضة

قالت مجلة الطبيعة الفرنسوية : بلغت قيمة ما استخرج من الذهب سنة ١٩٠٩ ـ ٢٣٠٠ مليون فرنك اكثر من ثلثها من افريقية الجنوبية فزاد المستخرج منه من بلاد

الترنسفال وحدها ثلاثين مليونًا كما زادت كلٌّ من كندا والولايات المتحدة والمكسيك من ٦ الى عشرة ملايين اما اوستراليا فقد نزل محصولها عَلَى هذه النسبة وزاد المستخرج منه في روسيا خمسة عشر مليونًا . وقد كان المستخرج من الترنسفال ٧٦٥ مليون فرنك ومن رودوسيا ٦٤ ومن غربي افريقية ٢٣ ومن كندا ٥٣ ومن الولايات المتحدة ٤٩٠ ومن اوستراليا ٣٦٣ ومن المكسيك ١٣٠ ومن الهند ٥٢ ومن روسيا ١٧١ ومن الصين واليابان وكوريا ٥٥ ومن سائر الممالك ١٣٧

اما الفضة فان استعمالها يكثر في الصناعات ويقلُّ في النقود واثمانها في انخفاض وربما انخفضت اكثر وان كان المستخرج منها منذ عشرين سنة اقل من المستخرج من الذهب بالنسبة فيكاد وزن الفضة المستخرج اليوم يعادل ثمانية اضعاف مايستخرج من الذهب عَلَى حين كان منذ ١٧ سنة اكثر من ذلك باثنين وعشرين مرة وبلغ المستخرج سنة ١٩٠٩ من الفضة ٦٦٠٠ طن او ٢١٤ مليون اونس او نصف الاوقية وقد كانت الولايات المتحدة الاولى في كثرة مايستخرج منها فاصبحت منذ ثلاث سنين الثانية وزاد المحصول في المكسيك ضعفين كما كثر في كندا ولم تكن مناجم الفضة معروفة فيها قبل سبع سنين وتستخرج الفضة من مقاطعة كوبات في ولاية اونتاريو كما يستخرج من بروكن هيل في شاطئ اوستراليا الجنوبية وغاليا الجديدة في الجنوب . والطلب قلَّ عَلَى الفضة لان الممالك الكبرى لاتبتاع منه الا ماتصوغ منها نقودًا ونصفه يصرف في بلاد الصين والهند فان بلاد الهند وحدها تبتاع ٢٨٧٠ طنًا للحلي حتى ان حكومتها اضطرت ان تضرب رسمًا فاحشًا عَلَى الوارد منها اي ١٧ في المئة لسد العجز الذي يبدو من الصين في مقاومة الافيون .

اثر روماني

قطعت الصخور الموجودة في طريق سوق وادي بردى من اعمال دمشق وكان في زمن الرومانيين من المراكز المهمة ويدعى هابيلا ليزانيا او هابيلا نوزيوم وقد عثر فيه عَلَى كتابات منقوشة في الصخور باسم ماركوس اورليوس امبراطور الرومانيين

اثر فينيقي

عثر في ضواحي بيروت في قرية برج حمود من اعمال الساحل على مغارة قديمة وجدوا فيها سلمًا ينزل منه الى مغارة مربعة ووجدوا في الجهات الاربع منها اضرحة محفورة في صخور منحوتة نحتًا جميلًا ووجدت فيها بعض العظام ويقال ان هذه المغارة يرد

عهدها الى الرومانيين

اعمق بئر

اعمق بئر في العالم ذاك الذي حفر في كروشو من اعمال بولونيا فهو تحت ٢١٠٠ متر ... سطح الارض · ثم يجي بئر باروشوفيز في سليزيا العليا وعمقه ٢٠٠٣ امتار ثم ... شالوباش في بلاد ساكس البروسيانية وعمقه ١٧٤٨ متراً · وسيزيد في تقب ... الاول لان طبيعة الارض تساعد على ذلك اما عرضه فهو ٦٧ ميليمتر فقط

مملكة بردسي

قليل من الناس من يعرفون ان لملك انكلترا زميلاً وجاراً ونعني به ملك جزيرة بردسي الواقعة على نحو ثلاثة كيلومترات من شبه جزيرة لوين من اعمال كارنرفون في بلاد الغال · وهذه المملكة الصغرى مستقلة كل الاستقلال ولا تعترف بسيادة ملك بريطانيا العظمى عليها · وليس في هذه المملكة سوى ٧٧ ساكناً يدخل ... هم الملك والملكة اللذان حكم اجدادهما هذه الجزيرة الصغرى منذ عهد عريق في القدم · اما لسانهم فهو لهجة تخالف اللهجة الانكليزية كل المخالفة · ولهذا القيل او الملك الصغير عدا ادارة ملكه اعمال منها انه معلم المدرسة وضابط في الاركان حرب ولا يخضع للقوانين الانكليزية ولا يدفع السكان خراجاً ما ويعيشون مرفهين بتناول خبز الشعير والحليب والزبدة · ولهم من الصخور المحيطة بهم مادة للسرطان البحري يتناولون منها ماشاؤا ويبيعونها من الاجانب عنهم بسعر بخس ولا يهتمون بتاتاً بما يحدث خارج بلادهم ولا تدخل جريدة الى هذه الجزيرة التي لا مثيل لها ولا يخرج ملاح منهم عندما تشتد انواء البحر بسبب الصخور المحدقة بالجزيرة ·

رجل القطعان

رجل القطعان من الغنم والخرفان في العالم هو روسي اسمه غستاف كوفانونيش يملك في ... ول سيبريا الوفاً من الافدنة ترعى فيها قطعانه البالغ عدد غنمها مليوناً وسبعمائة الف يحرسها زهاء ثلاثين الف كلب من هجمات الذئاب والحيوانات المفترسة

معدل الاعمار

تؤكد بعض صحف المانيا ان معدل الحياة آخذ بالازدياد فقد زاد في المانيا من سنة ١٨٩١ الى ١٩٠٠ زيادة تذكر بالنسبة للعشر سنوات التي مضت بين سنة

١٨٧١ و ١٨٨١ فصار متوسط حياة الرجال ٤٨ سنة و٨٥ يوماً وكان ٣٨ سنة ويوماً واحداً ومتوسط حياة النساء ٥٤ سنة و ٩ ايام وكان ٤٢ سنة و٥ ايام وذلك بفضل الوسائط الصحية في البيوت والشوارع والمحال العامة

صحة العين

كتب الدكتور تروسو ان ٤٣ في المئة من العمي يمكن انقاذهم مما نالهم وكتب الدكتور مونتي الفرنسوي ان ثلاثة ملايين من العملة والمستخدمين والطلبة يتعرضون كل يوم لما يجلب الاخطار على عيونهم وقد رأى الدكتور بولي ان الواجب على كل ولد واطئ النظر او لا يميز الاشياء جيداً ان يعرض عينيه على طبيب العيون ويضع نظارات على عينيه ومن كان احسر قصير البصر فاستعماله للنظارات احسن واقي لعينيه والواجب ملاحظة الولد بعناية دائمة خلال القراءة والكتابة واعماله الجزئية والعابه واذا أصيب بالحميراء او القرمزية او الجدري او غيره من الامراض المعدية تجب العناية بعينيه من وراء الغاية وان اقل التهاب في الملتحمة يعدي ويكون فيه حبيبات ينبغي ان تتخذ لها انواع الوقاية والعزلة ويجبر العملة اثناء العمل ان يقفوا مستوية قاماتهم وان يكون النور في النهار عن شمال المرء ومن ورائه قليلا ونور الليل عن الشمال وقليلا الى الامام والكوى (اباجور) نافعة على ان لا تكون شفافة وتختبئ وراءها الوجوه واذا كان ضوء الكهرباء مضراً للعيون كثيراً بما فيه من الاشعة البنفسجية الكثيرة فالواجب استعمال زجاجات ملونة بالصفرة لا ترسل النور الا خالياً من اشعته . والواجب في جميع الصناعات التي يلحظ انها تحمل اشياء ضارة للعيون ان يضع المرء على عينيه نظارات تقيه منها واذا لوحظ ضعف في بصر الولد فالواجب استشارة الطبيب لاتخاذ الصنعة التي يختارها

الماء السائغ

القى المستر هوبارد محاضرة امام جمعية الفنون الانكليزية فقال انه يتأتى في الاقاليم التي يتيت فقراء لقلة مائها ان يجمع فيها الماء الذي يجمع من الندى على مثال الطريقة التي جروا عليها في قلعة جبل طارق وذلك بان يحفر في الارض على سطح كاف وان يغطى المحل المحفور بقش ناشف تمد عليه طبقة من الخزف او تراب الفخار فيكون القش عبارة عن مولد للحرارة يفصل بين الخزف والارض وبعد غياب الشمس يبرد هذا الخزف على اسرع ما يكون وذلك ببروز الاشعة وتنزل حرارته في الحال عن درجة

تبخر الهـواء المحيط بذاك المكان فيترا كم البخار المائي ويتجمع في الحفرة · ويحسن ان يوضع عَلَى الارض طبقة من الاسفلت حتى لا يضيع القش بنداوته خاصية نقله للحرارة · وفي جبل طارق يستعيضون عن القش او التبن بخشب ومن طبقة الخزف بصفائح حديد

التفنن في الاحسان

اخترعوا في المانيا طريقة حسنة للانفاق منها عَلَى المعوزين والبائسين فوضعوا في كل حانة علبة من المعدن جعلوها في زاوية منها فاذا دخن الانسان لفافته يقوم فيطرح عقبها في العلبة · وهذه الطريقة من اختراع احدى جمعيات الاحسان فتستخرج هذه الاطراف وتبتاع بها البسة لكسوة الاولاد المحاويج وبهذه الواسطة كست الجمعية في العام الماضي ١٧٢٦ ولداً

اثمن النصائح الصحية

هذه هي العشر النصائح في حفظ الصحة التي علقتها السويد في جميع مدارسها وهي حرية بان يجعلها نصب عينه كل من تهمه صحته من الكبار والصغار

١ً الهواء الجديد في الليل والنهار من الشروط اللازمة للصحة فهو احسن واق من مرض الكلى

٢ً في الحركة الحياة · فالواجب كل يوم الارتياض في الهواء الطلق بتحريك الاعضاء والنزهة وهذا مما يعدل مزاج العاملين وهم قعود

٣ً الزم القصد والسذاجة في طعامك وشرابك فمن يفضل الماء والحليب والثمار عَلَى تعاطي الالكحول يقوي صحته ويزيد في كفاءته عَلَى العمل وسعادته ·

٤ً اليك ما تجب العناية به لتقوية بشرتك: الجلد لا يقوى عَلَى البرد الا بغسله بماء بارد كل يوم والاستحمام بالماء الحار كل اسبوع عَلَى مدار السنة · وبذلك يتيسر لك حفظ صحتك وتقي جسمك من البرد

٥ً يجب ان لا تكون الثياب سميكة كثيراً ولا محكمة كثيراً ·

٦ً ينبغي ان يكون المسكن معرضاً للشمس جافاً واسعاً نظيفاً نيراً لطيفاً صحياً

٧ً عليك بالتشدد بالنظافة في كل امر كالهواء والغذاء والماء والخبز والثوب والفراش والدار فاذا توخيت الطهارة في كل امر وفي الاخلاق ايضاً تصبح بأمن من الهواء الاصفر والحمى التيفوس وعامة الامراض السارية

٨ً العمل المنظم الشديد من احسن الواقيات من امراض العقل وامراض الجسم

فهو العزاء في الشقاء والسعادة في الحياة

٩ً لا يرى المرء الراحة والتسلية بعد العمل الا في الاعياد العظيمة ٠ فالليل للنوم وساعات الفراغ والاعياد يجب صرفها مع الأسرة وفي الملاذ الروحية

١٠ً من اول شروط الصحة الجيدة : حياة تصرف في العمل وتشرف بالاعمال الصالحة والافراح الخالصة ٠ ورغبة المرء في ان يكون خير عضو في بيته وعاملاً صالحاً في دائرته ووطنياً مستقيما في وطنه وذلك مما يورث الحياة قيمة لاتقدر

مخطوطات نادرة (١)

من كتب اللغة في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بك

في المدينة المنورة

شرح كفاية المتحفظ لابي الطيب الفاسي

شرح فصيح ثعلب لابن درستويه نسخ سنة ٥٦١

كتاب الضاد والظاء لابن سهل النحوي نسخ سنة ٥٩٥ نحو ثلاث كراريس

كتاب الاجناس من كلام العرب وهو ما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى لابي عبيد القاسم بن سلام

تهذيب اللغة للازهري

بصائر ذوي التمييز على لطائف التنزيل العزيز للفيروزبادي

كتاب غريب الحديث لابي عبيد القاسم بن سلام احد عشر كراساً نسخ سنة ٥٤٦

الغريب المصنف له اثنان وعشرون كراسا

مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع لصفي الدين عبد المؤمن مدرس الحنابلة بالبشرية سنة ٧٤٢

من فن الكلام

شرح اشتقاق الاسماء الحسنى وصفاته المذكورة في الاثر لابي القاسم الزجاجي نسخ سنة ٤٣٤

سراج العقول في منهاج الاصول للقزويني ومعه شجون المسجون وفنون المفتون للصفدي

---

(١) اختارها من مكاتب المدينة المنورة الشيخ جمال الدين القاسمي

موضحات المتشابهات في الانجيل لدرويش علي مجلد وأحد مذهب

كتاب ايثار الحق عَلَى الخلق لابي عبد الله محمد بن ابراهيم الشهير بابن الوزير اليمني نسخ سنة ١١١٤ وفي اوله ترجمة المؤلف تأليف ابنه في نحو نصف كراس

رسالة في التوحيد لابن فورك

من المجاميع

رسالة وقصائد شتى للجاحظ

رسالة ارسلها ابن زيدون الى استاذه

مجموع فيه عدة كتب من مصنفات البيهقي

منها كلام الشافعي في احكام القرآن وخطأ من اخطأ الشافعي والانتقادات التي انتقد بها عَلَى الشافعي

مصارع المصارع لنصير الدين الطوسي

كتاب في اسماء الصحابة لابي حاتم محمد بن حيان

رسالة من نسب الى امه من الشعراء لابن جني

الابانة لابي الحسن الاشعري

رسالة في مكارم الاخلاق للثعالبي

اوصاف الاشراف للنصير الطوسي

كتاب النبات للاصمعي

مختلف الاسماء والانساب والكنى والالقاب للذهبي

رسالة في عدم جواز الجمعة في موضعين للشيخ جلال الدين التباني

رسالة في اختلاف علماء الحنفية في الديار المصرية للبقاعي

ارجوزة تسمى الاتقان في علم الالحان

منظومة في علم القلم والحبر والكتابة والورق تصنيف الشيخ ابي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي المعروف بابن البواب وعليها شرح مستمد من شرح ابن بصيص ومن شرح ابن وحيد

من المكتبة المحمودية في المدينة المنورة

جوار المسجد الشريف

شرح المقنع لشمس الدين بن قدامة المقدسي

اختيارات شيخ الاسلام ابن تيمية
مختصر فتاوي شيخ الاسلام ابن تيمية المصرية
جزء من فتاوية الكبرى
كتاب القواعد لابن رجب
كشف المسائل له ايضاً
تقرير القواعد له ايضاً
كتاب المحلي لابن حزم مجلد ٨
سنن البيهقي الكبرى مجلد ١٠
كتاب اقضية الرسول لابن فرح الاشبيلي

وقد بلغ مجموع مافي المكتبة المحمودية من الكتب (٤٥٦٩) وما في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بك (٥٤٠٤)

ويوجد مكتبات اخر كمكتبة بشير اغا عند باب السلام ومجموعها (٢٠٦٣) ومكتبة شيخ الاسلام فيض الله افندي ومجموعها (١٢٤٦) ومكتبة عمر افندي قرهباش احد كبار العلماء ومجموعها (١٢٦٩) ومكتبات اخر معروفة يتراوح عددها مابين المائة والالف

اصلاح غلط

وقعت لنا اغلاط مطبعية كثيرة في بعض الاجزاء الماضية ولاسيما في الجزء الخامس والسادس الذي ظهر خلال تغيبنا عن هذه البلاد فتركنا اصلاحها لفطانة القارئ وقد كتب لنا احد اصدقائنا في بغداد يقول :

... الا ان الطبع لا يشبه ماطبع من الملتبس في السابق . وكثيراً مايقع اغلاط طبع في الاسماء العلمية الاعجمية . وكذلك في الاسماء العربية . من ذلك ماوجدته في نبذة «ري العراق» ص ٥٢٥ — ٥٢٦ بحيرة عكاركوف . والاصح : هور عقرقوف . والاسم مشهور في كتب العرب القديمة كياقوت والبلاذري والبكري وغيرهم . وصبارة والاصح ابوحبة (وهو الاسم الحالي) او سبارة (وهو الاسم القديم) ونفور . والاصح نفر . وارخ والاصح : وركاء . وتل سكرخ . والاصح سنكرة . وتل لو والاصح تلو اه

فنشكر للناقد الكريم عنايته ونرجو ان يتفضل وسائر من اوتوا العلم ان يصححوا لنا مايبدر منا ومن موآزرينا من الهفوات فالعلم لايحيا الا بالنقد الصحيح



كتاب العرب

او الرد على الشعوبية

لابي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة من اهل القرن الخامس

تتمة مافي الجزء الماضي

ومنهم الحطيئة هجا اباه وامه ونفسه فقال في امه :

تنحي فاقعدي مني بعيدا		اراح الله منك العالمينا
الم اوضح لك البغضاء مني		ولكن لا اخالك تعقلينا
اغربالا اذا استودعت سراً		وكانوناً على المتحدثينا

وقال لابيه :

لحاك الله ثم لحاك حقا		ابا ولحاك من عم وخال
فبئس الشيخ انت على المخازي		وبئس الشيخ انت لدى المعالي
جمعت اللؤم لاحياك ربي		وابواب السفاهة والضلال

وقال لنفسه

ابت شفتاي اليوم الا تكلما		بشر فما ادري لمن انا قائله
ارى لي وجها شوه الله خلقه		فقبح من وجه وقبح حامله

واتى عيينة بن النهاس العجلي مادحا فقال عيينة لوكيله اذهب معه الى السوق فلا يشيرن الى شيء ولا يسومن به الا اشتريته له فلما انصرف عنه قال

سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلا		فسيان لاذم عليك ولا حمد

ومن لؤم الغرائز ايضاً في الناس ان منهم من يؤثر ريح الكرابيس على ريح اليلنجوج وريح الحشوش على نفحات الورد ، ويهتاج من النساء لذات القبح والدفر ، ويكسل عن الحسناء ذات العطر ، ومنها ان الرجل يكون في رخاء بعد بؤس وسعة بعد ضيق فيسأم ماهو فيه ويرغب عنه الى ما كان عليه ، وقال اعرابي قدم المصر فحسنت حاله :

اقول بالمصر لما ساءني شبعي الا سبيل الى ارض بها جوع
الا سبيل الى ارض بها غرث جوع يصدع منه الراس برقوع

وهذا واشباهه من لئيم الغرائز كثير في الامم وهذه الطبائع هي اسباب الشرف واسباب الخمول فذو الهمة تسمو به نفسه الى معالي الامور وترغب به عن الشائنات فيخاطر في طلب العظيم بعظيمته ، ويستخف في ابتغاء المكارم بكريمته ، ويركب الهول ويدرع الليل ، ويحط الى الحضيض ، وتأبى نفسه الا علواً حتى يسعد بهمته ، ويظفر ببغيته ، ويحوز الشرف لنفسه وذريته ، ومن لاهمة له جثامة لبد يغتنم الأكلة ويرضى بالدون ويستطيب الدعة وان اعدم لم يأنف من ذل السؤال والجبان يفرعن امه وابيه وصاحبته وبنيه والشجاع يحمي من لايناسبه بسيفه ويقي الجار والرفيق بمجته والبخيل يبخل على نفسه بالقليل والجواد يجود لمن لايعرفه بالجزيل وقال الله عز وجل (قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها) يريد قد افلح من انمى نفسه بالمعروف واعلاها وقد خاب من اسقطها بلئيم الاخلاق واخفاها وقد يكون الرجل مخالفاً لابيه في الاخلاق وفي الشمائل او في الهمم او في جميع ذلك لعرق نزعه من قبل اجداده لابيه وامه وقال الشاعر :

واشبهت جدك شر الجدود والعرق يسري الى النائم

ومن الناس الشريف الحسيب وذلك الذي جمع الى محاسن آبائه محاسن نفسه ومنهم الشريف ولا حسب له وذلك اذا كان لئيم النفس ومنهم من لاشرف له ولا حسب وذلك اذا كان لئيم النفس لئيم السلف

وقال قيس بن ساعدة لاقضين بين العرب قضية ماقضى بها احد قبلي ولا يردها احد بعدي (ايما رجل رمى رجلا بملأمة دونها كرم فلا لؤم عليه وايما رجل ادعى كرماً دونه لؤم فلا كرم له) يعني ان اولى الامور بالمرء خصاله في نفسه فان كان شريفاً في نفسه وآباؤه لئام لم يضره ذلك وكان الشرف اولى به وان كان لئيماً في نفسه وآباؤه كرام لم ينفعه ذلك

ومثاله قول عائشة : كل شرف دونه لؤم فاللؤم اولى به وكل لؤم دونه شرف فالشرف اولى به : وقال الشاعر في مثله

ومن يك ذا لؤم ومجد يعده فاولى به من ذاك ما كان اقربا

فلا لؤم عوداً بعد مجد يعده ولا مجد معدوداً اذا اللؤم عقبا

والحسب مأخوذ من قولك حسبت الشيء احسبه حسباً اذا عددته وكان الرجل الشريف يحسب مآثر آبائه ويعدهم رجلاً رجلاً فيقال لفلان حسب اي آباء يعدون وفضائل تحسب فالمصدر مسكن والاسم مفتوح كما تقول هدمت الحائط هدما فتسكن المصدر وتقول لما سقط الى الارض هدم فتفتح الدال من الاسم وكذلك الاسم فيها امة تميز بلبانها كالعرب فانها لم تزل في الجاهلية تتواصى بالحلم والحياء والتذمم وتتعاير بالبخل والغدر والسفه وتتنزه من الدناءة والمذمة وتتدرب بالنجدة والصبر والبسالة وتوجب للجار من حفظ الجوار ورعاية الحق فوق ما توجبه للحميم والشفيق فربما بذل احدهم نفسه دون جاره ووقى ماله بماله وقتل حميمه . منهم كعب بن مامة وكان اذا جاوره جار فمات ... حمته وداه واذا مات له بعير او شاة اعطاه مكان ذلك مثله . ومنهم عمير بن سلمى الحنفي احد أوفياء العرب وكان له جار فخالفه اخوه قرين الى امرأة فاشتد الرجل في حفظ امرأته فقتله وكان عمير غائباً فلما قدم وخبر بذلك دفع قريناً الى ولي المقتول فقتله واعتذر الى امه وعظم جرمه فقالت :

تعد معاذراً لا عذر فيها ومن يقتل اخاه فقد الاما

ومن اعجب امر في الجوار قصة ابي حنبل حارثة بن مرّ وكان الجراد سقط بقرب بيته فقصد الحي لصيده فلما رآهم قال اين تريدون قالوا نريد جارك هذا فقال اي جيراني قالوا الجراد فقال اما اذ جعلتموه لي جاراً فوالله لا تصلون اليه ثم منع منه حتى انصرفوا فخر بعضهم فقال

لنا هضبة ولنا معقل صعدنا اليه بصم الصعاد

ملكناه في اوليات الزمان من بعد نوح ومن بعد عاد

ومنا ابن مرّ ابو حنبل اجار من الناس رجل الجراد

وزيد لنا ولنا حاتم غياث الورى في السنين الشداد

وقال قيس بن عاصم يذكر قومه :

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن

وقال مسكين الدارمي

ناري ونار الجار واحدة واليه قبلي تنزل القدر
ماضر جاراً لي يجاورني ان لايكون لبابه ستر

وقال الحطيئة يعد محاسن قومه

اولئك قوم ان بنوا احسنوا البنا وان عاهدوا اوفوا وان عقدوا شدوا
وان كانت النعماء فيهم جروا بها وان انعموا لاكدروها ولا كدوا
يسوسون احلاما بعيداً اناتها وان غضبوا جاء الحفيظة والجد
اقلوا عليهم لا اباً لابيكم من اللوم اوسدوا المكان الذي سدوا

ولهم الضيافة عامة شاملة في جميع البادين منهم والايثار عَلَى النفس والجود بالموجود والفضل العطا جهد المقل

وقال عثمان بن ابي العاص : لدرهم يخرجه احدكم من جهد فيضعه في حق خير من عشرة آلاف درهم يخرجها احدنا غيضاً من فيض : ولولا ماتواصوا به من الضيافة وتحاضوا عليه من الايثار لمات الخير وابدع به دون غايته

وقال ارطاة بن سهية

وما دون ضيفي من تلاد تحوزه الى النفس الا ان تصان الحلائل

وقال ابن ابي الزناد قال عبد الملك بن مروان مايسرني ان احد من العرب ولدني الا عروة بن الورد لقوله

واني أمرؤ عافي انائي شركة وانت امرؤ عافي اناؤك واحد
اتهزأ مني ان سمنت وان ترى بجسمي مس الحق والحق جاهد
اقسم جسمي في جسوم كثيرة واحسو قراح الماء والماء بارد

يريد أنه يقسم قوته علي اضيافه فكأنه قسم جسمه لان اللحم الذي ينبت ذلك الطعام يصير لغيره ويحسو قراح الماء في الشتاء ووقت الجدب والضيق لانه يؤثر باللبن فتوقف عَلَى هذا الشعر وعَلَى مافيه من شريف المعاني

وقال آخر

اذا ماعملت الزاد فالتمس له آكيلا فاني غير آكله وحدي
بعيداً قصياً او قريباً فانني اخاف مذمات الاحاديث من بعدي
فكيف يسيغ المرء زاداً وجاره خفيف المعي بادي الخصاصة والجهد

ولعل الطاعن ان يقول في هذا الموضوع فاين هو من ذكر مزرد وحميد الارقط وهجائهما الاضياف واين هو من مطاعمهما الخبيثة من الحيات والضباب واليرابيع والعلهز وشربهم الفظ والمجدوح واكل مياسرهم لحوم الابل حنيذاً غير نضيج ونيا والعروق والعلابى وسقط المائدة لايعافون شيئاً ولا يتقذرون اكل السباع ونهش الكلاب ويفخر عليهم باطعمة العجم وحلوائها وآدابها عَلَى الطعام وكلها باليارحين والسكين فاما هذان الشاعران اللذان يهجوان الاضياف ويصفانهم بكثرة الاكل وجودة اللقم فان احدهما كان فقيرا ضعيف الحال فاذا نزل به الضيف لم يجد بداً من ايثاره بقليل ماءيده اومشاركته فيه فيبيت طاويا و يصبح جائعاً ويجيش صدره بما حل به والشاعر بمنزلة المصدور لابد له من ان ينفث فيستريح الى ذكر لقم الضيف ووصف اكله وحديثه قال هو او غيره يذكر الضيف :

تجهز كفاه ويحدر حلقه ... الى الزور ماضمت اليه الانامل
يقول وقد القى المراسي للقرى ... ابن لي ما الحجاج بالناس فاعل
فقلت له ما ان لهذا طرقتنا ... فكل ودع الاخبار ماانت آكل
اتانا ولم يعدله سحبان وائل ... بياناً وعلماً بالذي هو قائل

وقال ايضاً يذكر الاضياف :

باتوا وجلتنا الشهرين بينهم ... كأن اظفارهم فيها السكاكين
فاصبحوا والنوى عالي معرسهم ... وليس كل النوى يلقى المساكين

اراد من الاضياف من يأكل التمر بالنوى وهذا يدل عَلَى شدة فقره · واما مزرد فكان شرهاً منهوماً والشره رفيق البخل وهو القائل :

لبكت بصاعي صاع عجوة ... الى صاع سمن فوقه يتريع
فقلت لبطني ابشر اليوم انه ... حوى امنا مما تحوز وترفع
فان يك مصبوراً فهذا دواؤه ... وان يك غرثاناً فذا يوم يشبع

وقال الحطيئة :

اعددت للضيفان كلباً ضارياً ... عندي وفضل هراوة من ارزن
ومعاذراً كذباً ووجهاً باسراً ... وتشكياً عض الزمان الالزن

وهذا شر القوم وليس من الناس صنف الا وفيه الخير والشر عَلَى ذلك أسست الدنيا وعليه درج الناس ولولا احدهما ماعرف الآخر وانما يقضي باغلب الامور ويحكمون

باشهر الاخلاق · وليس في ثلاثة من الشعراء او اربعة ما هدر مكارم الاخلاق آلاف من الناس و بدد صنائعهم · فهذا كعب بن مامة آثر بنصيبه من الماء رفيقه النمري حتى مات عطشاً · وهذا حاتم الطائي قسم ماله بضع عشرة مرة ومر في سفره على عنزة وفيهم اسير فاستغاث به ولم يحضره شيء فاشتراه من العنزيين فخلاه واقام مكانه في القد حتى ادى فداءه · وكل فخر في طي فهو راجع الى نزار ولهم الجبلان وهما بنجد واخذهم بآدابهم وتخلقهم باخلاقهم · وهذا عدي شاطر ابن دارة الشاعر ماله · وهذا معن في الاسلام كان يقول فيه حدث عن البحر ولا حرج وعن معن ولا حرج · واتاه رجل يستحمله فقال يا غلام اعطه فرساً و برذوناً و بغلاً وعيراً و بعيراً وجارية ولو عرفت مركوباً غير هذا لاعطيتكه · وهذا نبيك بن مالك بن معوية باع ابله وانطلق باثمانها الى منى فانهبها والناس يقولون مجنون فقال :

لست بمجنون ولكني سمح انهبكم مالي اذا عز القمح

وهذا شيء يكثر جداً و يتسع القول فيه ويخرج الكتاب من فنه باستقصائه وكان غرضنا في هذا الكتاب ان ننبه بالقليل من كل شيء في عيون الاخبار · واما تعييرهم اياهم بخبيث المطعم كالعلهز والحيات وخبيث المشرب كالفظ والمجدوح فان هذا واشباهه طعام المجاوع والضرورات وطعام نازلة الفقر والفلوات وقال الشاعر

اذا السنة الشهباء حل حرامها

يريد انهم يأكلون فيها الميتة وقال الراعي

الى ضوء نار يشتوي القد اهلها وقد يكرم الاضياف والقد يشتوي

وانما كان يكون هذا عيبًا لو كانت العرب مختارة له في حالة اليسر كما تختار بعض العجم الذباب و بهم عنه غنى والسراطين والدجاج لهم معرضة فاما حال الضرورة فالناس كلهم يعسرون فمن لم يجد اللحم اكل اليربوع والضب ومن لم يجد الماء شرب المجدوح والفظ ·

قال الاصمعي اغير على ابل حريثة فذهب فركب بحيرة فقيل اتركب الحرام فقال يركب الحرام من لاحلال له : وقال الشاعر

ياليت لي نعلين من جلد الضبع كل الحذاء يحتذي الحافي الوقع

ومما يدلك على ان اهل الثروة منهم على خلاف ماعليه الصعاليك والغثر قول الشاعر

فما لحم الغراب لنا بزاد ولا سرطان انهار البريض

فانتفى من اكل لحوم الغربان وعير بها قوما

وقال آخر لامرأته

اكلت دماً ان لم ارعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

فلو كان شرب المجدوح عنده محموداً لم يجعل يمينه شرب الدم كما يقول القائل شركت بالله ان لم افعل كذا وكذا

وقال آخر

نعاف وان كانت خماصاً بطوننا لباب النقي والمجاباب المجردا

يريد انه يرغب وان كان جائعاً عن اكل الخبز بالتمر الى اكله بالشحم ونزل رجل من العرب فقدم اليه جراداً فعافها وانشأ يقول

لحى الله بيتاً ضمني بعد هجعة اليه دجوجي من الليل المظلم

فابصرت شيخاً قاعداً بفنائه هو العير الا انه يتكلم

اتاني ببيرقان الدبا في انائه ولم يك في برق الدبا لي مطعم

فقلت له غيب اناءك واعتزل نهل ذاق هذا الا ابا لك مسلم

واما اكلهم العلابي والعروق واللحم النيء وتركهم طيبة الاطعمة والاطبخة وحسن الادب عند الاكل فهذا لعمري هو الاغلب على من الاغلب عليه الفقر فاما ذوو النعمة واليسار والاقدار فقد كانوا يعرفون اطايب الطعام ويأكلونها ويأخذون باحسن الادب عليها

فالمضيرة لهم واسمها يدلك على ذلك تطبخ باللبن الماضر وهو الحامض فاشتق اسمها منه

والهريسة لهم سميت بذلك لانها تهرس اي تدق ويقال للمدق المهراس

والوشيقة لهم والعامة تسميها العشيقة سميت بذلك لانها توشق اي تقطع صغاراً

والعصيدة لهم سميت بذلك لانها تعصد اذا عملت اي تلوى وكل شيء الويته فقد عصدته ومنه قيل للمائل عنقه عاصد وقال مررد

لبكت بصاعي حنطة صاع عجوة الى صاع سمن فوقه يتريع

وهذا هو العصيدة وقال امية ابن ابي الصلت في عبدالله بن جدعان

له داع بمكة مشمعل وآخر فوق دارته ينادي

الى روح من الشيزى ملاء لباب البر يلبك بالشهاد

وهذا هو الفالوذ وهم اوصف الناس للطعام والطفهم في ذكره · حدثني ابو حاتم قال حدثني الاصمعي قال حدثنا ابو طفيلة قال حدثنا شيخ من اهل البادية قال ضفنا فلاناً بحنطة كأنها مناقير النغران وتمر كأنها اعناق الورلان يوحل فيها الضرس

وحدثنا الاصمعي ايضاً عن اعرابي انه قال تمرنا خرس فطس يغيب فيه الضرس كأن نواهن السن الطير تضع التمرة في فيك فتجد حلاوتها في كعبك

وحدثني عبد الرحمن عن عمه قال قال شيخ من اهل المدينة فاتاني ببرقة كأن فيها مشقاً فلم ار الا كبداً طافية فغمست يدي فوجدت مضغة فمددتها فامتدت حتى كأني ازمر في ناي ولهم اطبخة كثيرة ومن اطبختهم الغسانية وهي لا تعرفها عامتنا كالحيسة والربيكة والخزيرة واللفيتة تركت ذكرها واقتصرت عَلَى ماتعرف وكانوا يقولون : اطيب اللحم عوذه : يريدون اطيبه ماولي العظم كأنه عاذ به· وكانوا يقولون اذا اكلتم فسموا وادنوا يريدون بادنوا كلوا مما بين ايديكم وكانوا يكرهون اكل الدماغ ويرون استخراجه رغبا وحرصاً وقال قائلهم

ولا يتقى المخ الذي في الجماجم

ومن قبائل العرب من يعاف البة الشاة ويقولون هي طبق الاست وقال قائلهم

وللموت خير من زيارة باخل يلاحظ اطراف الاكيل عَلَى عمد

وكانوا يمدحون بقلة الاكل وقال اعشى باهلة

تكفيه حزة فلذان الم بها من الشواء ويروى شربة الغمر

ويعيبون بالشره والنهم والكسل ويقول للبخيل الاكول ابرماً قروناً يريد انه لايخرج مع اصحابه شيئاً ويأكل تمرتين واسل البرم الذي لايسير مع القوم وقال بعض الرجاز

تسألنا عن بعلها اي فتى خب جبان واذا جاع بكي
لاحطب القوم ولا القوم سقى ولا ركاب القوم ان ضلت بغي
ويأكل التمر ولا يلقي النوى ولا يواري فرجه اذا اصطلى
كأنه غرارة ملأى حثا

وقال الاحنف جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام فاني ابغض ان يكون الرجل وصافا لبطنه وفرجه

وان من المروءة ان يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه وقال قائلهم : اقلل طعاماً ، تحمد مناماً ، وقال ايضاً : غلبت بطنتي فطنتي

وقال عمرو بن العاص لمعوية يوم حكم الحكمان : اكثروا الطعام فوالله مابطن قوم الا فقدوا بعض عقولهم ، وما مضت عزمة رجل بات بطينا

ومثل هذا كثير لمن تتبعه فكيف تكون المعرفة بالطعام والادب عليه الا كما وصفنا

فاما تركهم انضاج اللحم فلا اعلمه الا في موضع واحد وهو اذا سافروا وغزوا فانهم يتمدحون بترك الانضاج لعجلة الزماع وقال الشماخ

واشعث قد قدّ السفار قميصه   يجز الشواء بالعصا غير منضج

وقال الكميت

ومرضوفة لم تون في الطبخ طاهياً   عجلت الى محورها حين غرغرا

ولم يزل الشرب اذا اجتمعوا والاحداث من اولاد الملوك وغيرهم يبادرون بالنشيل قبل النضج

قال اعرابي نحر بعيره وشرب

عللاني انما الدنيا علل   ودعاني من ملام وعذل

وانشلا ما اغبر من قدريكما   واسقياني ابعد الله الجمل

واما اكلهم سقط المائدة فانه اكرام للطعام واعظام للنعمة وجنس من الشكر لواهبها ونبذه في المزابل استخفاف به وتصغير له وبخس بمؤتيه حق عطيته ، ومن وهب لك شيئاً صنته وعظمته سمحت لك نفسه بالزيادة منه ، وان احتقرته وازدريته كان حريا ان يقطعه والطعام اعظم نعم الله عَلَى خلقه بعد معرفته لانه مثبت الروح وممسك الرمق فمن صانه فقد عظم نعمة الله واستوجب زيادة الله ومن امتهنه في غير ما خلق له فقد صغرها واستوجب سخط الله

حدثنا يزيد بن عمرو قال حدثنا ايوب بن سليمان عن محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال ولا اعلمه الا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اكرموا الخبز فان الله سخر له السموات والارض وقد امرنا صلى الله عليه وسلم باكل سقط المائدة ورغبنا فيه

والعجب عندي من قوم نحلتهم الاسلام ونبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ثم تتابعت الاخبار عنه بشيء امر به او نهى عنه فيعارضون ذلك بالعيب وبالطعن من غير ان يعرفوا

العلة ولا ان يكون لهم في الانكار له نفع او عليهم في الاقرار به ضرر

واما اكلهم باليارحين والسكين فمفسد للطعام ناقص للذته والناس يعلمون الا من عاند منهم وقال بخلاف ماتعرفه نفسه ان اطيب المأكول ماباشرته كف آكله ولذلك خلقت الكف للبطش والتناول والتقذر من اليد المطهرة ضعف وعجب واولى بالتقذر من اليد الريق والبلغم والنخاع الذي لايسوغ الطعام الا به وكف الطباخ والخباز تباشره والانسان ربما كان منه اقل تقذراً واشد انساً

واما الشجاعة فان العرب في الجاهلية اعز الامم انفساً واعزها حريماً واحماها انوفاً واخشنها جانباً وكانت تغير في جنبات فارس وتطرقها حتى تحتاج الملوك الى مداراتها واخذ الرهن منها والعجم تفخر باساورة فارس ومرازبتها وقد كان لعمري لهم البأس والنجدة غير ان بين العرب وبينها في ذلك فرقاً منه ان العجم كانت اكثر اموالاً واجود سلاحاً واحصن بيتاً واشد اجتماعاً وكانت تحارب برياسة ملك وسياسة سلطان وهذه امور تقوي المنة وتشد الاركان وتؤيد القلوب وتثبت الاقدام والعرب يومئذ منقطعة ليس لها نظام ومتفرقة ليس لها التئام واكثرها يحارب راجلا بالسيف الكليل والرمح الذليل والفارس منها يحارب على الفرس العربي الذي لاسرج له وعلى السرج الرث الذي لاركاب له والاغلب على قتال العجم الرمي والاغلب على قتال العرب السيف والرمح وهما ادخل في الجد وابعد من الفرار وادل على الصبر

وشجعاؤهم في الجاهلية مثل عتيبة بن الحارث بن شهاب صياد الفوارس وبسطام بن قيس وبجير وعفاق ابني ابي مليل وعامر بن الطفيل وعمرو بن ود واشباههم وفي الاسلام مثل الزبير وعلي وطلحة ورجال من الانصار وعبد الله بن حازم السلمي وعباد بن الحصين وقال ماظننت ان احداً يعدل بالف فارس حتى رأيت عباداً ليلة كابل وقطري ابن الفجاءة وشبيب الحروري وامثال هؤلاء عدد الرمل والحصا ليس منهم احد اذا انت توقفت على اخباره وحاله في شجاعته الا وجدته فوق كل اسوار والرجليون للعرب خاصة

قال ابو عبيدة رجليو العرب المشهورون المنتشر بن وهب الباهلي وسليك ابن عمير السعدي واوفى بن مطر المازني وكان الرحل منهم يلحق بالظبي حتى يأخذ بقرنيه واذا كان زمان الربيع جعلوا الماء في بيض نعام مثقوب ثم دفنوه فاذا كان الصيف وانقطع الغزو غزوا وهم اهدى من القطا فيأتون على ذلك البيض ويستثيرونه ويشربونه

وحدثني ابو حاتم قال : حدثني الاصمعي ان السليك كان يعدو فتتم سهامه من كنانته بالارض فترتز وكان يقول في دعائه اللهم اني اعوذ بك من الخيبة وامـا ... فلا هيبة

وقرأت في كتب العجم ان بهرام جور كان في حجر ملك العرب بالبادية فلما بلغه ... ابيه وان الفرس عزموا على ان يملكوا غيره سار بالعرب حتى نزل السواد و... بالملك وجادلهم عنه حتى اعترفوا له بالحق وملكوه

وقد كان كسرى اغزى بني شيبان جيشاً فاقتتلوا بذي قار فهزمت بنو شيبان ا... كسرى فهو يوم ذي قار ثم كان من امر العرب وامر فارس حين جمعهم الله لقتالهم الاسلام وساسهم بالتدبير ما لا حاجة بنا الى الاطالة بذكره لشهرته

ومما يدلك على تعزز القوم في جاهليتهم وانفتهم وشدة حميتهم ان ابرويز ملك فارس واشدها سطوة واثخانا في البلاد خطب الى النعمان بن المنذر احدى بناته فرده رغبة بها عنه ولم يزل هاربا منه حتى ظفر به فقتله

وكان لقريش بيت الله الحرام العتيق من الجبابرة المنصور بالطير الابابيل ... يزالوا ولاته وسدنته والقائمين لاموره والمعظمين لشعاره وكان يقال لهم اهل الله وجيران الله لنزولهم الحرم وجوارهم البيت وكان فيهم بقايا من الحنيفية يتوارثونها عن اسمعيل صلى الله عليه وسلم منها حج البيت الحرام وزيارته والختان والغسل والطلاق والعتق وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والرضاع والصهر

وقد كان حاجب بن زرارة وفد على كسرى فرأى العجم ينكحون الاخوات والبنات فسولت له نفسه التأسي بهم والدخول في ملتهم فنكح ابنته ثم ندم على ذلك فقال

لحا الله دينك من اغلف يحل الخوات لنا والبنات
احشت على اسرتي سوءةً وطوقت جيدي بالمخزيات
وابقيت في عنقي سبة مشاتم يجنين بعد الممات
فتـاة تجـالها شيخـها فبئس الشيخ ونعم الفتاة

ومما كان بقي فيهم من الحنيفية ايمانهم بالملكين الكاتبين حدثني بعض اصحابنا عن عبد الرحمن بن خالد الناقد قال كان الحسن بن جهور مولى المنصور خرج الى بعض ولد سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب كتابا كان ابيد ... ب بن

هاشم كتبه بخطه فاذا هو مثل خط النساء واذا هو باسمك اللهم ذكر حق عبد المطلب
ابن هاشم من اهل مكة عَلَى فلان بن فلان الحميري من اهل زول صنعاء عليه الف درهم
فضة طيبة كيلا بالحديدة ومتى دعاه بها اجابه شهد الله بذلك والملكان : وقال الاعشى

ولا تحسبني كافراً لك نعمة عَلَى شاهدي ياشاهد الله فاشهد

قوله عَلَى شاهدي اي عَلَى لساني شاهدالله يعني الملك

ومن ذلك احكام كانت في الجاهلية اقرها الله في الاسلام لا يبعد ان تكون من بقايا دين اسمعيل صلى الله عليه وسلم منها دية النفس مائة من الابل ومنها اتباع حكم المبال في الخنثى ومنها البينونة بطلاق الثلاثة وللزوج عَلَى المرأة في الواحدة والاثنتين فهذه حالها في الجاهلية مع احوال كثيرة في العلم والمعرفة . نذكرها بتمامها بعد ان شاء الله ثم اتى الله بالاسلام فابتعث منها النبي صلى الله عليه وسلم سيد الانبياء وخاتم الرسل وناسخ كل شرعة وحائز كل فضيلة ونشر عددها وجمع كلمتها وامدها بملائكته وايدها بقوته ومكن لها في البلاد واوطأها رقاب الامم وجعل فيها خلافة النبوة ثم الامامة خالدة تالدة حتى يأتي المسيح صلى الله عليه وسلم فيصلي خلف الامام منها فاردة لا يستطيع احد ان يأتي بمثلها وخاطبها وهي يومئذ لاعجم فيها فقال « كنتم خير امة اخرجت للناس » فلها فضل هذا الخطاب والامم طراً داخلة عليها فيه واما قوله لبني اسرائيل «وفضلتكم عَلَى العالمين » فانه من باب العام الذي اريد به الخاص كقوله حكاية عن ابراهيم « وانا اول المسلمين » وحكاية عن موسى « وانا اول المؤمنين » وقد كانت الانبياء قبلهما مؤمنين ومسلمين فانما اراد موسى زمانه وكذلك قوله « وفضلتكم عَلَى العالمين » يريد عالمي زمانهم وقوله لقريش « اهم خير ام قوم تبع والذين من قبلهم » ليس فيه دليل عَلَى ان اهل اليمن خير من قريش في الحسب ولا انهم مثلهم وهم من ولد ابراهيم صلي الله عليه وسلم ومن الذرية التي اصطفى الله عَلَى العالمين وليس لليمن والد من الانبياء دون نوح وانما خاطب الله بها مشركي قريش ووعظهم بمن قبلهم من الامم الهالكة لمعصيته وحذرهم ان ينزل بهم مثل مااصابهم فقال « اهم خير » من اولئك الذين كانت فيهم التبابعة والملوك ذوي الجنود والعدد فاهلكناهم بالذنوب والخير قد يقع في اسباب كثيرة يقال هذا خير الفارسين يريد اجلدهما وهذا خير العودين يريد اصلبهما وكانت قريش كما قال الله قليلا فكثرهم ومستضعفين فأيدهم بنصره وخائفين ان تتخطفهم الملوك فآمنهم بحرمه بمارهصه لهم واراد من تمكينهم واعلاء كلمتهم واظهار نوره لهم وتغيير

ممالك الامم لهم ومن ذا من المسلمين يصح اسلامه ويصح عقده يقدم عَلَى قريش او يعادل بها وقد قضى الله لها بالفضل عَلَى جميع الخليقة اذ جعل الائمة منها والامامة فيها مقصورة عليها ان لا تكون لغيرها والامامة هي التقدم وهذا نص ليس فيه حيلة لمتأول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الائمة من قريش» وروى وكيع عن الاعمش عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس تبع لقريش في الخير والشر وروى وكيع عن سفيان عن ابن خثيم عن اسمعيل عن عبد الله عن ابيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قريشاً اهل صبر وامانة فمن بغاهم الغوائل كبه الله لوجهه يوم القيمة وروى عن عبد الاعَلَى عن معمر عن الزهري عن سهل بن ابي حثمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تعلموا من قريش ولا تعلموها وقدموا قريشاً ولا تؤخروها وروى يزيد بن هرون عن ابن ابي ذئب عن الزهري عن طلحة بن عبد الله بن عوف عن عبد الرحمن عن جبير بن مطعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان لقرشي قوة رجلين من غير قريش قيل للزهري ما عنى بذلك قال فضل الرأي قال وكان يقال قريش الكتبة الحسبة ملح هذه الامة علم عالمها طباق الارض

وحدثني يزيد بن عمرو عن محمد بن يوسف عن ابيه عن ابراهيم عن مكحول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يقومن احد الا لهاشمي

وحدثني يزيد بن عمرو قال حدثنا نصر بن خلف الضبي قال حدثنا علي بن عبد الله ابن وثاب المدني عن مطرف بن خويلد الهذلي قال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً وهو يقول

ان امرؤ حميري حين تنسبني لا من ربيعة آبائي ولا مضر

فقال ذاك اضرع لخدك وابعد لك من الله ورسوله

وحدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا ابو زيد شجاع بن الوليد قال حدثنا ابو قابوس ابن ابي ظبيان عن ابيه عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياسلمان لا تبغضني فتفارق دينك قال قلت يارسول الله كيف ابغضك وبك هداني الله قال لا تبغض العرب فتبغضني

وروى محمد بن بشر العبدي قال حدثنا ابو عبد الرحمن عن حصن بن عمير عن مخارق بن عبد الله بن جابر عن طارق بن شهاب عن عثمان بن عفان قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي

وروى حميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن المؤمل عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اختلف الناس فالحق في مضر

وروى ابو نعيم عن الثوري عن يزيد بن ابي زياد عن عبد الله بن الحرث عن المطلب بن ابي وداعة والمطلب بن ربيعة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه وجعلهم فرقاً فجعلني في خيرهم فرقة وخلق قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً

ثم يتلو العرب في شرف الطرفين اهل خراسان اهل الدعوة وانصار الدولة فانهم لم يزالوا في اكثر ملك العجم لقاحا لا يؤدون الى احد اتاوة ولا خراجا وكانت ملوك العجم قبل ملوك الطوائف تنزل بلخ . ثم نزلوا بابل ثم نزل ازدشير بابك فارس فصارت دار ملكهم وصار بخراسان ملوك الهياطلة وهم الذين قتلوا فيروز بن يزدجرد بن بهرام ملك فارس وكان غزاهم فكادوه في طريقه بمكيدة حتى سلك سبيلا معطشة مهلكة ثم خرجوا اليه فاسروه واكثر اصحابه فسألهم ان يمنوا عليه وعلى من اسر معه واعطاهم موثقاً من الله ان لا يغزوهم ولا يجوز حدودهم ونصب حجرا بينه وبين بلدهم جعله الحد الذي حلف عليه واطلقوه فلما عاد الى مملكته اخذته الانفة والحمية بما اصابه فعاد لغزوهم ناكثا لايمانه غادراً بذمته وحمل الحجر الذي كان نصب امامه في مسيره يتأول انه ماتقدم الحجر فانه لم يجزه فلما سار اليهم ناشدوه الله واذكروه ماجعل على نفسه من عهده وذمته فابى الا لجاجا ونكثا فواقعوه فقتلوه وقتلوا حماته وكماته واستباحوا عسكره واسروا ضعفته ولبثوا في ايديهم اسرى ثم اعتقوهم واطلقوهم وغبروا بعد ذلك زمانا طويلا وتملوا كسرى ابن فيروز وهذا شيء يخبر به عن فارس فيما دونوا في سير ملوكهم من اخبارهم ومن اقر بهذا على نفسه لعدوه واباحه لخصمه فما ظنك بما استر وزين من امره

وكان فيما حكوا من الكلام الدائر بين ملك الهياطلة وبين فيروز كلام احببت ان اذكره في هذا الموضع لادل به على حكمة القوم وحزمهم في الامور وعلمهم بمكايد الحروب قالوا لما التقى الفريقان ثم تصافوا للقتال ارسل اخشنوار ملك الهياطلة الى فيروز ان يسأله ان يبرز فيما بين الصفين ليكلمه فخرج اليه فقال اخشنوار قد ظننت انه لم يدعك الى مقامك هذا الا الأنف مما اصابك ولعمري لئن كنا احتلنا لك بما رأيت لقد

كنت التمست منا اعظم منه وما ابتدأناك ببغي ولاظلم ولا اردنا الا دفعك عن انفسنا وحريمنا ولقد كنت جديرا ان تكون من سوء مكافأتنا عليك وعلى من معك ونقض العهد والميثاق الذي اكدت على نفسك اعظم انفًا واشد امتعاضا مما نالك منا فانا اطلقنا وانتم اسارى ومننا عليكم وانتم مشرفون على الهلكة وحقنا دماءكم وبنا على سفكها قدرة وانا لم نجبرك على ماشرطت لنا بل كنت الراغب الينا فيه والمريد لنا عليه ففكر في ذلك ومثل بين هذين الامرين فانظر ايهما اشد عاراً واقبح سماعا ان طلب رجل امرا فلم يتح له وسلك سبيلا فلم يظفر فيها ببغية واستمكن منه عدوه على حال جهد منه وضيقة ممن معه فمن عليهم واطلقهم على شرط شرطوه وامر اصطلحوا عليه فاصطبر لمكروه القضاء واستحيا من الغدر والنكث ام ان يقال نقض العهد وختر بالميثاق مع اني قد ظننت انه يزيدك لجاجة ماتثق به من كثرة جنودك وما تراه من حسن عدتهم وما اجدني اشك في انهم واكثرهم كارهون لما كان من شخوصك بهم عارفون بانك قد حملتهم على غير الحق ودعوتهم الى مايسخط الله فهم في حربنا غير مستبصرين ونياتهم اليوم في مناصحتك مدخولة فانظر ماغناء من يقاتل على هذه الحالة وما عسى ان تبلغ نكايته في عدوه اذا كان عارفا انه ان ظفر فمع عار وان قتل فالى النار فأنا اذكرك الله الذي جعلته على نفسك كفيلا ونعمتي عليك وعلى من معك بعد يأسكم من الحياة واشرافكم على الممات وادعو الى مافيه حظك ورشدك من الوفاء بالعهد والاقتداء بآبائك الذين مضوا على ذلك في في كل ما حبوا او كرهوا فاحمدوا عواقبه وحسن عليهم اثره ومع ذلك انك لست على ثقة من الظفر بنا والبلوغ لبغيتك فينا وانما تلتمس منا امرا نلتمس منك مثله وتبادي عدواً لعله يمنح النصر عليك فدونك هذه النصيحة فبالله ما كان احد من اصحابك ببالغ لك اكثر منها ولا زائد لك عليها ولا يحرمنك منفعتها مخرجها مني فانه لا يزري بالمنافع عند ذوي الرأي ان تكون من الاعداء كما لا يحبب المضار اليهم ان تكون على ايدي الاولياء ونحن نستظهر بالله الذي اعتذرنا اليه ووثقنا بما جعلت لنا من عهده اذ استظهرت بكثرة جنودك وازدهتك عدة اصحابك واعلم انه ليس يدعوني الى ماتسمع من مقالتي ضعف احسه من نفسي ولا قلة من جنودي ولكني احببت ان ازداد بك حجة واستظهارا وازداد به للنصر اه

المرأة

(علها علماً صحيحاً او دعها على سذاجتها)

لان تبقى المرأة جاهلة خير من ان تتعلم تعلماً ناقصاً . او تتربى تربية تافهة

المرأة التي تظل محافظة على سذاجتها الاولى : فلم تتلق شيئاً من مبادىء العلوم والفنون . ولم تمارس القراءة والكتابة قد يتيسر لنا ان نقنعها بانها جاهلة . ثم نوصيها بلزوم الرجوع في تربية طفلها الى رأي من هو اعرف منها بشؤون التربية

ومثل تربية طفلها تدبير منزلها وادارة احوالها ورؤية مصالحها : يحسن لها في جميع ذلك ان تعتمد على مشورة زوجها والخبيرين من ذوي قرابتها . اما تلك التي تعلمت تعلماً ناقصاً ورأى اولياؤها ان لا يعطوها من مبادىء العلم سوى قراءة القرآن . وكتابة «ابجد هوز» و «جناب الاكرم» حاسبين ان ذلك القدر اليق بها واحوط في سلامة دينها وآدابها — هذه المرأة تصبح بهذا التعلم الخداج ذات عجب وعناد ولجاج . فلا تعود تصغي لمشورة من هو اعلم منها . ولا تقف في افساد تربية ابنها وتدبير منزلها عند حد !

تسيء الظن بزوجها فتغل يده عن استثمار مالها والانفاق على اطيانها لتحسينها وتنميتها . تدير شؤون المنزل على غير ما تقتضيه قواعد الاقتصاد واصول الصحة ووسائل التطهير والنظافة . تحاول تربية اولادها فتخل بقوانين التربية وتفتات على المربي الخبير اعتداداً بكفاءتها وان معرفتها لقراءة القرآن جعلتها اهلاً لكل شيء ، وعالمة بكل شيء ، وخبيرة بكل شيء ايضاً .

تريد ان تلقن ابنها المراهق شيئاً من مبادىء الاخلاق والآداب فتحكي له قصص العفاريت والاساطير المكذوبة او تملي عليه ابيات عشق وغرام كانت سمعتها من بعض اترابها في كتاب سخيف ركيك وضعه واضعه لتعليم الاحداث صناعة الترسل والانشاء

هاهي واقفة في رأس السلم تقول لابنها وهو ذاهب الى المدرسة . حرطتك بكلمات الله التامة . سلمتك الى واحد احد . امسك يابني بالدرابزين جيداً لئلا تزلق رجلك

خرج الولد من باب الدار فاذا امه تهتف به من النافذة وتوصيه بالابتعاد عن شاطيء البحر لئلا يغرق . وعن الكلاب لئلا تزعجه او تعضه . وعن الحفر لئلا يقع فيها . ثم تلح عليه ان يشد المنديل على عنقه خوف لذع البرد وان يطبق المظلة على رأسه خشية اذى الحر

رجعت الام بعد هذه الوصاية المتكررة الى غرفتها . ارادت الادلال عَلَى زوجها والتباهي عَلَى جارتها فرفعت صوتها بتلاوة القرآن تارة ودلائل الخيرات تارة اخرى

اواني المطبخ لم تزل من دون تنظيف . ارض الدواليب لم تزل من دون مسح . طعـام الغداء لم يزل الزوج يجهل امره . و يتساءل ماذا عساه يكون ؟ وضيوفه كرام يجب ان يتجمل امامهم و يكافئهم عَلَى اياد لهم عليه . الطفل الصغير غلبه النوم في احدى زوايا تلك الدار والذباب يتطاير من فوقه . والروائح الخبيثة تنبعث من تحته

رأى الرجل الحالة عَلَى ماوصفنا فنادى امرأته ورغب اليها ان تنهض لمراقبة امور البيت وتهيئة الطعام

تغافلت المرأة عن زوجها . او ان دوي صوتها بقراءة دلائل الخيرات حال بينهما و بين سماع النداء !

هتف بها ثانية فردت عليه بخشونة . وجعلت تؤنبه عَلَى اساءته الادب مع مؤلف دلائل الخيرات وانها تخشى عليه ان يبطش به ! !

ضاق صدر الرجل فكاد يتفوه بما لا يليق في حق اهل الله ثم سكت عَلَى مضض

ولا نعلم ماذا جرى بين الرجل وامرأته . ولا كيف كان امر الغداء . ولكن نذهب مع القارىء الى تلك المرأة التي عرف اولياؤها كيف يعلمونها وكيف يجعلونها تستفيد من الذي تلقته

تزوجت فياسعد زوجها بها . رزقت اولاداً فيالسعادة اولادها من اجلها

تعلمت القراءة والكتابة ولكن لم تتعلمهما لذاتهما وانما تتعلمهما لكي تتوصل بهما الى درس حقائق اعلى وتحصيل فوائد اغلى

قرأت القرآن بامعان وتفهم : فكانت تتناول بعض الآيات و تشرح معناها لاولادها شرحاً مفيداً غاية في السهولة والتقريب . غرست في نفوس اولادها عظمة الله تعالى ووجوب خشيته واستمداد المعونة والتوفيق منه

وكثيراً ماأسمعتهم الآيات التى تحض عَلَى ممارسة الخير والفضيلة . وتطلب منهم أن يستظهروا ألفاظها و يتفطنوا لمعانيها

ولم تكتف من العلم بهذا القدر فقط بل رأت (من الواجبات) عليها باعتبارها ربة منزل أن يكون لها إلمام ومشاركة بفن الهيجين (حفظ الصحة) ثم لاحظت أنها لا تقدر عَلَى تربية اولادها تربية صحيحة مالم تدرس فن الاخلاق وعلم النفس ومعرفة

أسرار قواها المختلفة

قالت : انما أكون سعيدة اذا كان زوجي وأولادي أصحاء الاجسام ولاتدوم الصحة لهم مالم أكن عارفة بالأصول والقوانين التي قررها العلماء في حفظ الصحة

ثم ماذا تكون فائدة الصحة اذا لم يقترن بها أخلاق حسنة وتربية فاضلة ؟ فمن ثم كان الواجب عليّ ان اجمع بين درس الفنين فن الصحة وفن التربية

كانت تختلس فرصاً من وقتها ثم تقبل على مطالعة الكتب التي وضعت في هذين الفنين الجليلين . وكثيراً ما كان يشتهي عليها فهم بعض المسائل فتستأذن زوجها أن تكتب لبعض الاخصائيين في هذين الفنين . فكان يأذن لها منشرح الصدر هادئ البال

قالت اذا كان الحجاب يحول بيني وبين التردد على أفاضل العلماء في منازلهم فها أنا ذا بحمد الله أستطيع الكتابة اليهم بعبارة فصيحة فلا أدع الحجاب يحجبني عن القيام بالفريضة الدينية وهي (طلب العلم)

وقد كتبت مرة الى بعض نطس الاطباء تسأله رأيه في مهد طفلها هل تتخذه مما يهز باليد هزاً أو يكون ثابتاً يتحرك فكتب اليها يقول : « الأفضل أن يكون المهد ثابتا لأن الولد إذا اعتاد الترجح في الارجوحة اضطرب نومه . وغلب عليه القلق والارق او تبقى يد الأم قابضة على دفة السرير طول الليل وهذا مما يذهب براحتها ويحرمها طيب المنام . واذا ارادت الأم ان تستزيد من الراحة لها ولطفلها فلا تستعمل عادة التقميط فتشد لى اعضاء الطفل وتجعله كطرد « البوسطة » اوكالمومياء المصرية . وشد الطفل على هذه الصورة يضايقه ويضطره الى البكاء ومتابعة الشكوى من هذا الظلم الفادح . ولكن الأم الجاهلة لاتنتبه لسبب بكائه فتحسبه انما يبكي فجوراً منه أو نكاية بها فتأخذ في هز المهد والتدخط عليه و لى القدر طول الليل » اه

ومما رأت هذه الأم الفاضلة انها في حاجة الى تعلمه — مبادئ الكيمياء ودرس طباع المعادن وخواص الاجسام فتعرف الضار منها من غير الضار والسام من غير السام

وبعد خمس عشرة سنة من زواجها صار لها بضعة اولاد فكانت بعد رجوعهم من المدرسة تكثر من مفاكهتهم ومداعبتهم ثم في غضون ذلك تودع نفوسهم مسائل العلم واحدة فواحدة

ولا أنسى اذ كانوا مرة في صحن الدار وكانت الحاجة (طباختهم) قد ذهبت الى بيت الجيران في بعض شأنها

فنادت الأم اولادها قائلة ذهبت « الحاجة » وسوف تمكث عند الجيران اكثر من ساعة اذ اننا نعرفها تكثر الحديث وتحسن الاقاصيص فلنغتنم فرصة غيابها ايها الاولاد ولننزل الى المطبخ ونشاهد ما فيه من الأواني والادوات المختلفة . اظنكم ايها الصغار لاتعرفون انواع المعادن . وان في المطبخ من المعادن مجموعة نفيسة : هلموا معي اليها —

فتراكض الاولاد وراء امهم مسرعين

آه ما احسن تصفيف هذه الأواني وما اشد ما اعتنت الحاجة بتنظيفها . شكراً لك ايتها العجوز

انظروا هذه المقالي والقدور الصغيرة فهي من النحاس . والنحاس معدن نافع جداً يستخرج من جوف الارض والذي يصنع منه الأواني يسمى نحاساً . وهذا النحاس يتوصل الى صنع القدور النحاسية بوضعها على السندان وضربها بالمطرقة الضخمة

ثم التفتت الى ابنها الصغير (وهبي) وقالت هل تعرف ياوهبي ماهو السندان وما هي المطرقة ؟ قال نعم ياماه كنت اريتنيهما في حانوت الحداد القريب من دارنا

انظروا هذه القدر التي وضعتها (الحاجة) في ناحية بعيدة عن سائر القدور

اتعرف السبب في ترك استعمالها؟

كلا ياماه!

الستم ترونها كامدة اللون

بلى ياماه

احترزوا ايها الاولاد من ان تضعوا شيئاً من هذه المادة الخضراء في افواهكم : هذه البقع يسمونها (الزنجار) وهو احد السموم القتالة لننظر الآن في القدور الأخرى النظيفة التي نطبخ فيها

داخلها لامع نظيف . وهو مغطى بطبقة رقيقة من معدن ابيض وهذا المعدن يسمي (قصديراً) وليس القصدير كالنحاس في تولد سم الزنجار عليه ولذلك يطلون به النحاس اذا طلينا النحاس بطبقة رقيقة من القصدير قيل انه (مبيض) اما اذا مزجنا النحاس والقصدير معاً بعد صهرهما كان لنا منهما معدن يسمى (برنزا) . والتفتت الى ابنها (حسني) وسألته هل تعرف معنى الصهر ؟ قال لا . قالت الصهر تذويب المعادن وجعلها بحالة

السيلان • ثم قالت لهم هو ذا شمعدان من معدن البرنز • والجرس الصغير المعلق على باب الدار يعلن مجيء القادمين من وقت الى آخر هو من البرنز واجراس الكنائس التي تسمعون أصواتها متخذة من البرنز ايضاً • وكانوا قديما يصنعون المدافع من البرنز وبقوا عَلَى ذلك زمنا

وكان البشر في اول امرهم يستخدمون شظايا الاحجار (اي قطعها) في ضروب مرافقهم فكانوا يتخذون منها سكاكين وفؤوساً ويسمى ذلك العصر بالعصر الحجري • ثم اهتدوا الى النحاس ومزجوه بالقصدير فحصلوا عَلَى معدن البرنز ومن هذا البرنز كانوا يصطنعون اسلحتهم وادواتهم وما زالوا عَلَى استعماله حتى عرفوا الحديد في العصور الثالثة ويسمى هذا الطور الثالث للبشر (العصر الحديدي)

والحديد انفع المعادن قال تعالى (وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) • فاعترض (حسني) والدته وكان اكبر اخوته قائلا : يااماه وهل نزل الحديد من السماء ؟ قالت كلا وانما خرج من الارض قال فكيف يقول الله تعالى (وانزلنا) قالت ان معنى (انزلنا) هنا وهبنا ومنحنا

ثم قالت لهم : ليس الحديد جميل المنظر ولا هو بذي لمعان وبريق كغيره من المعادن ولكن مع هذا لا ينبغي لكم ان تحكموا عَلَى الشيء بمجرد النظر الى هيئته الظاهرة • فان للحديد مزايا لا توجد في سواه • اعظم تلك المزايا صلابته ومقاومته للضغط الشديد الذي يقع عليه • وهذا الموقد من الحديد • ويستخرج الحديد من الارض ممزوجاً بشوائب اخر فيصهرونه بواسطة موقد كبير حتى يمحصوه من تلك الشوائب • ويسمى الحديد بعد هذا التمحيص (حديد الصلب) وهذه القدر الصغيرة من ذلك الحديد • واذا طلينا الحديد بالقصدير خرج لنا معدن هو (الصفيح) وهذه الآنية الصغيرة التي نسوي فيها القهوة من الصفيح • واذا اضيف الى الحديد مقدار قليل من الكربون ازداد صلابة وسمي حينئذ (فولاذا) وهذه السكين التي ترونها عَلَى (الترابيزة) متخذة من الفولاذ

افتح الآن درج « الترابيزة » • هذه ملاعق من القصدير الممزوج بمعدن آخر لين ثقيل هو « الرصاص »

ثم قالت لهم مشيرة الى الجدار : انظروا الى المرآة • المرآة نديم المرأة ومن عجيب اخلاق النساء انهن يحرصن عَلَى اصطحاب هذه الاداة حتى في المطبخ !

هذه الطبقة اللامعة التي تغطي سطح زجاج المرآة من وراء والتي بسببها تنعكس صوركم الى عيونكم — هي مزيج من القصدير والزئبق

والزئبق معدن أبيض لونه كلون الفضة واذا كانت حرارة الهواء اعتيادية كان الزئبق في حالة ميوعة • حتى اذا اردت القبض عليه بيديك فر وتفلت من بين اصابعك • ومن اجل ذلك كنى عنه غواة الكيمياء القديمة بالعبد الفرار • وانشدوا في بعض منظوماتهم

خذ الفرار والطلقا . وشيئاً يشبه البرقا
فان احكمته سحقا ملكت الغرب والشرقا

ومعدن الزئبق يذكرنا بالفضة • انظروا ادوات الفضة • ها هي منضودة بعضها فوق بعض في الخزانة • انظروا الملاعق والشوك ما اشد لمعانها وما اكثر بريقها • والفضة من المعادن الثمينة • وهو قلما يتغير لونه مهما تعرض للهواء وهناك معدن آخر اثبت منه واقل تغيراً • هو معدن الذهب • انظروا الى خاتمي هذا : فهو من الذهب • ولست في حاجة الى جلائه او تنظيفه • فاذا اضفتم الى هذه المزية مزية لمعانه الجميل ومزية ندرة وجوده عرفتم اذ ذاك مبلغ نفاسته وفضله على سائر المعادن • والنقود ذات القيمة العالية تتخذ من الذهب لكنهم يضيفون اليها قليلا من معدن النحاس ليكسبها فضل صلابة • هلموا بنا ايها الاولاد نضع كل شيء في محله ونرتب الادوات الفضية كما كانت اولاً ولنعد النظام الى هذه المملكة الصغيرة فان المطبخ هو مملكة (الحاجة) التي لها فيها مطلق التصرف •

كيف ايها الاولاد اما جعتم ؟ ان هذه الروائح الطيبة المنتشرة فوق القدور تبشرنا بغذاء شهي لذيذ • ها هو اللحم ينضج • واني اقول لو كانت طباختنا (الحاجة) هي وقدورها في بلاد (الاسكيمو) لكان لها شأن يذكر •

قالوا ولما ذا يا اماه !

قالت الاسكيمو سكان الشمال حيث الجليد الدائم وليس لديهم معدن يتخذون منه قدوراً ولا تراب يصنعون منه اواني خزفية • فان التراب اذا استحكم جفافه اصبح صلداً صبوراً على احتمال النار • ومن لم يقدر على اقتناء قدر من نحاس اقتناها خزفاً • واذا فقد النحاس والخزف فكيف يمكنه طبخ طعامه ! والاسكيمو كيف يصنعون ؟

يتخذ الاسكيمو مكان القدور جراباً من جلد وفي هذا الجراب يطبخون ما يقتاتون به من اللحم • فصرخ احد الاولاد : كيف ذلك يا اماه : انهم اذا ادنوا الجراب من النار

احترق واذا ابعدوه عنها لايغلي الماء ولا ينضج اللحم ·

قالت امهم نعم · ولكن الاسكيمو اهتدوا الى طريقة وافية بالغرض · ذلك انهم يبحثون في شواطيء البحار عن مقادير من الحصى الصغيرة ثم يطرحونها في النار فتحمى حتى تصل الى درجة الحمرة فيتناولونها اذ ذاك وبضعونها في جراب الجلد حيث يكون اللحم والماء · فلا تلبث الحصى ان تنطفيء وتحدث حرارة قايلة في الماء · ثم يكررون العمل ويزاولونه المرة بعد المرة وبهذه الصورة تشتد حرارة الماء ثم ينضج اللحم ·

ولم تصل ام الاولاد في حديثها الى هذا المكان حتى سمعت صوت الجرس (البرنز) يرن على باب الدار يعلن رجوع (الحاجة) فصرخت لاولادها هلموا بنا قبل ان ترانا فتزعم اننا افسدنا مملكتها وشوشنا عليها نظامها · فتراكضوا جميعهم من باب المطبخ مسرورين ضاحكين ولابيهم المقبل مصافحين ومعانقين المغربي

الاسلام والمدنية

اذا كان المرء ساعياً في اصلاح داره يجب في الاكثر ان يسترشد بآراء من سبقوه الى اصلاح دورهم ليضم اختباره الى اختبارهم و يقتصر عليه مسافة عمله وربما اتى بعضهم وارهم ما هو آخذ بسبيله فان قدر ان يعمل بآرائهم كلها ان كانت صائبة والا فلا اقل من ان ينتفع ببعضها

اولع الغربيون منذ حدث انقلابنا العثماني الاخير بالبحث في شؤوننا بعد ان كانوا يئسوا من اصلاحنا فصار بعض خاصتهم يزورون العاصمة وبعض الولايات ويكتبون تصوراتهم عن السلطنة العثمانية و يقيسون الحاضر بالغابر فبعضهم يستهزئ بنا واوبانة لا بنا وهم في الاكثر ارباب الاغراض السياسية وفريق يتوسط فيمزج استحسان ما يستحسنه باستهجان ما يستهجنه ومن هذا الفريق المسيو مارتين هرتمن احد علماء المشرقيات في برلين · وهو من الذين قضوا سنين طويلة في سورية وعرف طبائع المملكة العثمانية واشتهر بمعرفة العربية من تآليفه التي نشرها وهو يجيد الكتابة والفهم بلغتنا كأحد فضلاء كتابنا وله نظر في احوال المسلمين ولاسيما في البلاد العثمانية والتركستان الصينية ·

زار هذا المستشرق عاصمة السلطنة وبعض قواعد بلاد الروم ايلي وكتب كتاباً

بالالمانية وصف فيه ماشاهده في رحلته وقد اطلعنا عَلَى زبدة من كتابه في مجلة العالم الاسلامي الفرنسوية فآثرنا الاشارة اليها ثم نعلق عليها ماآخذناه به من حكمه عَلَى المسلمين والاسلام ليرى اهل هذه الديار ما يصح لنا به جيراننا لاصلاح بيتنا قالت المجلة :

اراد بكتابه ان يعرّف ماراَه وماسمع به مدة مقامه في البلاد العثمانية فاورد ما انتهى اليه من المواد عَلَى علاته ولم ينظر فيه نظرة اخيرة ومهما يكن فان كتابه يتلى بامعان وفائدة لانه من افيد ما ظهر من الاسفار عَلَى البلاد العثمانية حديثاً وربما ظهرت على كلام المؤلف رشاشة من سوء النظر في العواقب ولكن مما لامرية فيه ان كفوءٌ في الموضوع الذي خاض غماره لاغرض له بل هو نظار جدير ان يحل كلامه موقع الاعتبار

ربما قيل للمؤلف ان مقامك قليل في تلك البلاد فكيف ساغ لك ان تحكم بهذه السرعة فقد رأينا من يطيلون مقامهم في بلد يبالغون بمنزلة المسائل الرسمية والحياة الادارية متسرعين ويطرحون النظر في حياة السواد الاعظم من العامة فيفوتهم كثير من المسائل الاجتماعية ذات الشأن العظيم عَلَى ان السائح قد يلاحظ هذه المسائل احسن من المقيم

وهناك اعتراض آخر وهو ان المؤلف قال ان كتابه عبارة عن سلسلة رسائل غير سياسية والناظر فيها تتجلى له السياسة من اعطافها واطرافها لاول وهلة · ويرد هذا الاعتراض بما هو معروف عن المسيو هرتمن من عدم التحزب لفئة وانه يحاول ان ينصف الكل فهو لايبغض احداً ويرمي الى ان تعمل كل امة وكل جماعة وكل شخص في خدمة المدنية والحضارة ماساعدتها اسبابها · فقد رأيناه بأسف عند مايرى العنصر الاسلامي وهو ممن يحبه لايسير الى هذا الغرض لان الجمع بين الشريعة وبين مطالب الحياة الحديثة لايخلو من تناقض · هو يرى ان فكر الارتجاع في الاستانة والمدن الكبرى في الولايات غير موجود ولكن اذا انقضت ايام السياسة الحميدية فان نتائجها ما انقضت

قالت المجلة ولو قلنا في العام الماضي ان عَلَى الحكومة العثمانية اذا ارادت الاستمتاع بالبذور التي يحويها القانون الاساسي في مطاويه ان تربي الامة تربية دستورية ديمقراطية فهذا مما تشتد حاجتها اليه · أيد المسيو هرتمن هذا الرأي فقال ان الانقلاب العثماني لايشبه الانقلاب الفرنسوي فقد كانت الامة في فرنسا تتبع القائمين بالثورة متحمسة

وتشاركهم في آرائهم اما الشعب العثماني فلا يزال عَلَى آرائه القديمة ولذلك اراده المؤلف ان يرجع عنها واقسم عليه ان ينظر للامور نظراً صحيحاً لان ارتفاع كلمة العثمانية معلق عَلَى اعتدالهم ويمكن ان يكون للنساء العثمانيات عمل عظيم في النهضة الوطنية

وقد درس المسيو هرتمن حالة الاتحاديين السياسية في سلانيك ولا سيما تأثيرات طائفة الدنمة وفيها وهم شعب اسرائيلي دانَ بالاسلام · وجاء الاستانة يبحث عن كل شيءٍ من سياسة ودين وادب وصحافة وحياة اجتماعية وعقلية واقتصادية · وانتقد الاسلام انتقاداً شديداً فقال انه يراه عقبة في سبيل الاصلاح فلا رجاء معه لتنظيم الادارة · والطرق الدينية في الاسلام تختلف عن الطرق الدينية في النصرانية لان لها تأثيراً سيئاً وان مايظهر من امرها يفسد الدين ويقلل من اعتباره · فاهل الطرق البكداشية والملامية والمولوية والنقشبندية والقادرية على اختلاف اسمائهم هم خطر عَلَى الامة مهما كانت مكانتهم وان اتفقوا مع اهل التربية الحديثة من العثمانيين وهؤلاء ملاحدة يعرفون كيف يتظاهرون بالدين واحترام الشريعة · ورجال الدين عَلَى الجملة هم قوة عاملة محترمة وان قلّ التسامح فيهم

يقول المؤلف ان تسعة اعشار رعايا المملكة العثمانية متعصبون فالاكراد اكثر تعصباً من غيرهم ويقل تمسك العرب بالدين في باطنهم فهم اقل تعصباً وليس المسلمون من الالبانيين من التسامح علي جانب عظيم واهالي البوسنة الذين انفصلوا حديثاً عن المملكة العثمانية موغلون في التعصب وادعياء للغاية · ومن الاسباب التي تساعد عَلَى بقاء الحمية الدينية مظاهر شهر رمضان المنوعة فالدين تسيطر عليه الحكومة ويصعب الآن ان يكون من الاعمال الخاصة بالنفس

تدخل الافكار الغربية البلاد العثمانية ببطء فالاشتراكية التي ينشرها البلغاريون خاصة في البلاد ومنهم رئيس منتدى سلانيك حيث تقرأ المطبوعات الفرنسوية والالمانية في هذا الموضوع ولهم اشياع من الروم وتصدر في ازمير جريدة اشتراكية رومية كما تصدر جريدة اسلامية اشتراكية واذ كان قراؤها على ماهو معلوم من حالتهم صعب ان يكون ارتقاؤها سريعاً بين المسلمين · فليس في البلاد العثمانية طبقة وسطى كما في سائر ممالك اوروبا

ويتيسر للمرأة العثمانية ان تكون ذات نفوذ فقد رأيناها في سلانيك ترقى بسرعة

خارقة للعادة . ولكن ارتقاءها في البلاد الاخرى بطيء جداً . ويمكن ان يقال ان حالة المرأة العثمانية احط من المرأة المسلمة في روسيا التي تستمتع بحرية عظيمة فتيسر لها ان تدرس في المدارس الثانوية والعالية وتستخدم في الوظائف على اختلاف مراتبها . والمسلمون في روسيا محبوبون الى النفوس مثل اخوانهم العثمانيين وهم يهتمون بما يجري في آسيا الوسطى والشرق اكثر من كل بلد سواه وربما كان المسلمون في روسيا غالباً اثقب اذهاناً وعقولاً من حكامهم الصقالبة اه

هذا ملخص كتاب الباحث الالماني وفيه الجيد ولكن فيه مغامز كثيرة لانحب ان يفوتنا النظر فيها نعرضها على المؤلف وعلى القائلين بمذهبه، واولها وهو ما كنا نرجو ان لايقع فيه امثال الاستاذ هرتمن قوله ان الجمع بين الشريعة وبين مطالب الحياة الحديثة لايخلو من تناقض وان الاسلام عقبة في سبيل الاصلاح ولعل المؤلف يقصد من ذلك الشريعة النافذة في بلاد المسلمين اليوم و بعضها مما يخالف الاصول الصحيحة وهدي الشارع واصحابه وتابعيه والائمة المهديين والعلماء العاملين

لاجرم انه دخلت بدع وخرافات وموضوعات على الاسلام عبثت بجماله وكادت تضيع به اصوله لو لم يقيض له في كل زمن مجددون ومصلحون يدعون الامة الى الوقوف عند حد الكتاب والسنة وطرح الزوائد التي تضر ولا تنفع واكثرها مما تسرب الى الدين من الوثنية الاصلية وسرى الى الاسلام كما سرى الى اليهودية والنصرانية من قبل .

فالاسلام دين التوحيد وهو اكثر الاديان تشديداً فيه وحرصاً عليه ومع هذا نرى بدعاً دخلت عليه تكاد تقربه من الوثنية لولا سلامة الاصول المحررة المعتبرة وقيام الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر في كل مصر وعصر .

لم يعهد المسلمون ايام كانوا يدينون بالاسلام الحقيقي ان دينهم كان مانعاً لهم من الرقي الاجتماعي والادبي والعلمي والسياسي فالدين الذي جعل من اموال الاغنياء صدقة للبائسين والمعوزين قد فرض على منتحليه مايسمونه اليوم بالتضامن والتكافل فلم تنشأ فيه الاشتراكية المتطرفة التي تهتز لها اعصاب المفكرين في الغرب اليوم . والدين الذي يأمر كتابه في الزواج بقوله فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وان خفتم ان لاتعدلوا فواحدة الى ان قال ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم قد قلل من العهر والفجور وحفظ نظام البيوت احسن حفظ وراعى حقوق المرأة ومن سنة الطلاق لزوجين لم يتأت ان يتعاشرا بالمعروف ليس فيه مايؤخر المدنية ويحول دون

سعادة اهله ولكن خلف بعد السلف خلف اضاعوا الاصل والفرع وانتهكوا حرمات الله وجهلت الامة فاغلظت حجاب المرأة بعد ان كان رقيقاً معقولا حتى منع الرجال من الاختلاط ببنات حواء فنشأت عن ذلك مضار ومنافع والمضار اكثر ولو وقف الحجاب عند حد مارسمته الشريعة من ان لا يبدي النساء زينتهن الا لبعولتهن ويضربن بخمرهن على جيوبهن لكان نظام البيوت في المسلمين اليوم ارقى مما هو وخلصوا من معاكسة الطبيعة في رغائب النفس ولتفاهم الجنسان اكثر من الآن ولما اصبحت حياة رجالنا وحياة نسائنا لاتخلو من نغص وغصص

والدين الذي يأمر صاحبه اصحابه ان يتعلموا لغة اليهود والحبشة ويحث على تفهم اسرار الكون من طرقها حتى لم يأت على الاسلام قرنان ونصف الا وقد تناول اهله بمعونة الخلفاء وما عرف من علوم البشر وتداولوه بينهم وصبغوه بصبغتهم حتى انشؤا لهم مدنية لو لم يكتب لها القيام لانقطعت من العالم سلسلة علوم المصريين واليونانيين والرومانيين والفرس والهنود ولاضطر اهل المدنية الحديثة ان يرجعوا مبتدئين بالعلوم بحيث لا يتيسر لهم تأسيس المدنية التي اسسوها في ثلاثة قرون الا ان نؤسس في عشرين او ثلاثين قرناً — ان ديناً هذا شأنه وهو لم يمنع ايضاً من تعلم العلم والفلسفة ليس من الاديان التي لا تنطبق مع روح هذا العصر

والدين الذي انتشرت كلمته في الآفاق وسلاحه الهداية والرفق بالمستضعفين وحماية العاجزين وجهاد المنافقين والخائنين حتى دانت به امم كثيرة عن رضى هو دين لم يخرج عن المعقول من استتباع الناس وارشادهم ومعظم الفتوح التي ينتقدها عليه الناقدون هي للاستعمار ومع هذا لم يحدث فيها من الويلات مايحدث لاكثر دول التمدن الحديث عندما تهمُّ ان تستعمر قطراً من اقطار الشرق

وانا لنرى الغربيين في احكامهم على الشرق يخالفون مايجرون عليه في بلادهم فترى الدول الراقية منهم في آدابها هي التي تحافظ على دينها فقد رأينا المانيا قد احتفظت بالنصرانية المشذبة اي البرتستانتية ولم تعقها عن سيرها في مدارج الكمال العلمي والصنعي والاجتماعي وكذلك نرى انكلترا تحرص كالمانيا على تقاليدها القديمة حتى عد الاجتماعيون من جملة ارتقائهما انهما لم ينبذا الدين كما نبذه رجال فرنسا فكان منه الويلات على حاضرها ومستقبلها . وما نظن النصرانية لو انصفنا اكثر انطباقاً على قوانين العلم من الاسلام

ولو قال الاستاذ هرتمن ان حالة المسلمين اليوم لاتنطبق عَلَى الاسلام امس ولذلك يصعب قيام الاصلاح بينهم لاصاب الغرض بعض الشيء فقد ذكر الطرق الدينية التي تفسد الدين وتقلل من اعتباره في الانظار ولو انصفنا ونظرنا الى من اسسوا تلك الطرق لرأيناهم عَلَى جانب من الاخلاق الفاضلة والتدين الحقيقي واكثرهم كانوا من جلة علماء الاسلام العاملين لا المعطلين الجامدين

وهذا الجمود لم يحدث الا في القرون المتأخرة بصنع اناس لاخلاق لهم من الملوك اعتزوا لرؤساء المذاهب والطرق ليتخذوهم ذريعة الى السياسة كما اتخذ الشاه عباس الصفوي من مذهب الشيعة مستنداً له في سياسته فاستعمل العلماء واسطة للتفريق بين اجزاء الامة ونشط كل ما املاه التعصب الذميم وسكت عن كل قصور وكذلك فعل السلطان سليم العثماني وقتل من الشيعة بضعين الفاً في وقت واحد في الاناضول بحجة دينية والحقيقة انه لايقصد غير السياسة

فالملوك المتأخرون استعملوا الدين ذريعة الى الدنيا وعبثوا سراً بحرم الله وادخلوا في الدين ماليس منه وجعلوا العامة مسيطرين عَلَى الخاصة ففسد النظام وعاق ذلك سير الاصلاح في القرون الجامدة والاقاليم الى اليوم مع العثمانيين ولاسيما المسلمين منهم من الرقي وقد ارتفعت اكثر الحواجز والقيود بفضل القانون الاساسي الذي لايناقض اصلاً من اصول الشريعة واذا رأينا بعض تناقض وجب علينا ان نفسر الشريعة تطبيقها عَلَى العلم كما يأمر بذلك العلماء الراسخون ·

اما اغتباط الاستاذ هرتمن بحال المسلمات في روسيا من انه يباح لهن الدرس في المدارس الثانوية والعالية مع الفتيان فهذا عَلَى اطلاقه لايصح ان يكون حجة عَلَى المسلمات العثمانيات والاختلاط الا الى حد محدود لايخلو من مفاسد يعرفها علماء الاخلاق في الغرب وهم منها اكثر شكاية منا ويرجى بفضل الافكار التربية التي تدخل ببطء الى بلادنا كما قال المؤلف ان تكون بعد اليوم حال المرأة المسلمة اكثر انطباقاً مع المدنية والعقل والشرع فليس كل مانراه هو ما كان عليه السلف الصالح كما قلنا

وان معظم مانشكو منه من امراضنا الاجتماعية ليس الدين منشأوه بل الجهل بامور الدنيا فينبغي لنا تهذيب نسائنا وتعليمهن عَلَى الاصول الدينية والمدنية ورجالنا كذلك وعندئذ لايرمي مثل المسيو هرتمن اهل هذا الدين كله بما رماهم به ونحن نرى اليابان وهي الدولة الوثنية من ارقى دول الحضارة الحديثة ولم تعقها وثنيتها عن ذلك

ونظن المؤلف يوافقنا على ان الاسلام بما دخله من خرافات المتأخرين اكثر اتفاقاً مع المدنية من وثنية يابان٠

فحياة الامم بالدين الذي لا يمازجه تعصب اكثرمنها بالانحلال من كل دين وامة لا قديم لها يصعب عليها الانتفاع بحديثها كما فعلت فرنسا فارادت نبذ كل قديم واحلال الحديث مكانه فخسرت الصفقتين او كادت ولو ربي شعبها تربية دينية خالصة مع ما يلقنه من التربية العصرية لما شكت فرنسا من زيادة العهر فيها وقلة نفوس سكانها سنة عن سنة

وانا لنعتقد ان قلة التسامح الذي نراه في الجامدين من اهل الطرق وادعياء الدين يقل جداً من السلطنة يوم نعلمهم او نعلم ابناءهم التعليم الوسط المنظم دع عنك العالي وحياتنا مناسبة باستنارتنا ولا جمود الامع الجهل ٠ وطريقة دينية على اصولها يدخلها النشوء والاصلاح بحسب سنة النمو والتدريج انفع من طريقة دنيوية لا تتشربها نفوس من تعرضها عليهم ولا تناسب تقاليدهم واوضاعهم

الشعرى

اذا غابت الشمس بساعة في هذه الايام سرح طائر نظرك على منفسح الافق تر كوكباً متوقداً يرتفع شيئاً فشيئاً بابهة وجلال وهو يزيد تألقاً كلما زادت الظلمات حلكة ويرتفع في القبة الزرقاء في جهة الجنوب الشرقي ٠ فهذا الكوكب هو الشعرى العبور وهي التي ترصع جبهة الرقيع بهذا الفص البديع بحيث يصدق ما قال فيها عبد العزيز بن عبد الله بن طاهر وهو من ظريف ما قيل فيها :

واعترضت وسط السماء الشعرى كأنها ياقوتة في مدرى

وقال فيها ابن المعتز :

شربتها والديك لم ينتبه سكران من نومته طافح
ولاحت الشعرى وجوزاؤها كمثل زج جره رامح

وشبه ابو نواس الدرهم بها فانشد : —

انعت صقراً يغلب الصقورا مظفراً ابيض مستديرا
تخاله في قده العبورا

فهذا الكوكب لحسنه عبده قوم من العرب في الجاهلية واليه الاشارة في سورة النجم

« وانه هو رب الشعرى » وكان العرب قد اخذوا هذه العبادة عن جيرانهم المصريين الذين كانوا قد ألهوها لانهم كانوا ينسبون اليها فيضان النيل . وقد زادت شهرتها لهيام شعراء الامم كلها بحسنها وتقاعضيائها الازهر . وثبت لهم الخيال اجنحة طاروا بها في عالم المحال . لارادع لهم يردعهم ولا وازع لهم يزعهم فكم من شاعر ذهب اليها باوهم فسكن فيها ونظر منها الى الارض بل وكم منهم من تعود هذه الفعال بدون ان يتروى في مايقوله من المحال . فهذا فلتير قدوضع احدوثة اسماها الصغير الكبير (مكروميغاس) جعل المروي عنه واحداً من سكان الشعرى . ثم بنى على هذا الوهم مابنى ومثله فعل رنان فانه قال : اذا اراد الانسان ان يرى محاسن الارض فليرق الى الشعرى فانه يجد فيها احسن مرقب يرقب منه هذه الحبة الخضراء المعروفة عندنا باسم الغبراء ولا يخفى مافي ذلك من الوهم المستحيل لان شدة حرارة الشعرى تمنع ايًا من كان من ان يدخلها اذا مابلغها . بل تميت ايًا من كان قبل البلوغ اليها .

فلندع اذاً اهل الخيال في جوهم يسبحون واهل المحال في ميدان تصوراتهم يمرحون ولنأت الى مجالسة اهل العلم من العصريين ولنسألهم عما كشفوا لنا من الانباء ولنطلب اليهم ان يهتكوا لنا شيئًا من استار مظاهر الخفاء ولنسمع مايرويه علينا احد اكابر الفلكيين وهو العلامة شارل نوردمان من نخبة علماء باريز اذ يقول :

اننا نرصد كل مساء الشعرى العبور ونتثبت بواسطة المرقب نورها فنحلله تحليلا ينبئنا عما هنالك من الغرائب والاسرار الغامضة وتروي لنا هذه الرسول الصغيرة في اعيننا حقائق ودقائق تأخذ من قلوبنا اي مأخذ حتى انها ترفعنا الى اعالٍ لم يرق اليها الخيال باجنحته الذهبية .

والشعرى تبعد عنا نحواً من خمسمائة مرة من بعد الشمس عنا . ونورها الينا لا يصل الا في مدة تسع سنوات . اي انك اذا رأيت نورها اليوم فهو لم يشرق عليك الا قبل تسع سنوات والذي تراه اليوم كان قبل تسعة اعوام . واذا احدث فيها حادث جديد في يومنا هذا فلا يمكنك ان تراه الا بعد ان تمضي عليه هذه المدة المذكورة لان النور يقطع في الثانية ثلثمائة الف كيلومتر . فالظاهر اذاً ان الشعرى اليمانية بعيدة عنا بعداً عجيباً ومع ذلك فهي قريبة منا بالنسبة الى سائر الكواكب التي تمد ذر قرنها منذ الوف من السنين ونورها الى اليوم لم يبلغنا . ونحن نعلم اليوم ان الشمس والشعرى ليستا الا كقطرتين من بحر عجاج متلاطم بامواج الانوار ذلك البحر الذي نسميه « المجرة » والحال ان النور لا يقطع عرض المجرة الا في مدة خمسة وعشرين الف سنة . والشعرى مع هذا هي الينا اقرب هذه الكواكب المنتشرة لي

بساط المجرة من سواها وثانيه فرصد الارض من علو الشعرى لمن التخيلات المتوغلة في المحال ·

وقد اتيح للفلكي المذكور ان يقيس بوسائط مذكورة في علم البصريات ليعرف درجة حرارة جو الشعرى فوجده لا يقل عن ١٢٠٠٠ درجة · ولا يستطيع ان يتصور علو هذه الدرجة البعيدة في الحر الا اذا قابلنا حالتنا في ايام الصيف عندما يشتد اعظم الاشتداد فلا نستطيع ان نتنفس ولا نتحرك ومع ذلك لم يبلغ الحر الا ٤٠—٥٠ درجة · ثم ما الحال لو قابلنا تلك الحرارة بدرجة غليان الماء وهو لا يكون الا في مائة درجة · وماعسى تكون تلك المقابلة لو علمنا ان اعظم حرارة بلغ الانسان الى الحصول عليها عَلَى الارض هي ٣٥٠٠ درجة وذلك في القوس الكهربائية · وان حرارة الشمس نفسها لا تزيد على ٥٣٠٠ درجة في جوها المعتدل · وعليه فتكون حرارة الشعرى اقوى من حرارة الشمس ثلاثة اضعاف تقريبًا · ومع ذلك فيوجد كواكب اخر احر جواً من الشعرى وذلك في صور تي الثور وحامل رأس الغول المعروف ايضاً باسم سياوش · فكيف بعد ذلك يمكننا ان نسمع ظلامات شعرائنا الذين يقولون ببرودة الكواكب والنجوم · نعم انهم مصيبون اذا ارادوا بذلك ان الكواكب لا تجيبهم بكلمة اذا ماشكوا لها ضيمهم والا فلا · والاولى بشعرائنا العصريين ان يستعيروا لهم برودة غير برودة الكواكب ·

هذا وقد ادت الحسابات اليوم لا بل وأبسط الحسابات ان الشمس لو كان لها جوّ مثل جوّ الشعرى لما كانت الحياة ممكنة عَلَى الارض لتحول الى البخار جميع العضويات الحية الموجودة عَلَى الارض · ولما اثر ذلك شيئًا في سير سائر النجوم والكواكب

وضياء الشعرى يضاهي حالة جوها غرابة وعجبًا · فان فلكينا الباريسي نوردمان قد اثبت بانها تنير الكون بنور اقوى من نور الشمس خمسة وعشرين ضعفًا فيكون نور الشمس بالنسبة الى نور الشعرى نسبة شمعة الى مصباح زاهر او بعبارة اخرى اخصر واصح : يجب وضع خمس وعشرين شمسًا من شمسنا لنحصل على ضياء يشابه ضياء الشعرى · وان شئت تعبيراً علميًا فقل : ان كل سنتيمتر مربع من وجهها يبرز نوراً ما يوازي تقريباً ستة ملايين من الشموع العشرية

كل هذه الحقائق المقررة قد اثبتت بوسائط علمية حديثة في منتهى السذاجة لا محل لذكرها هنا لان العين لا تستطيب نظر بناية فخمة جديدة اذا كنت تراها مدعمة باخشابها فالاجدر والاحسن ان تنزع قبل ان ترمقها الاعين لتبدو ببهجة منظرها ·

ثم ان منظر طيف الشعرى كشف لنا ايضاً اموراً ما كان ليكشفها لنا غيره وهي في

منتهى الغرابة ايضاً . فان المنظار المذكور اظهر لنا ان في الشمس اغلب معادننا الارضية واما في الشعرى فانه كشف لنا عن جو مركب كله تقريباً من كتلة عظيمة من الهدروجين وهو من اخف الغازات المعروفة . فيجب ان نستنتج من ذلك ان سائر العناصر الكيماوية التي هي اثقل قد تفككت وتحولت الى هدروجين بقوة الحرارة الشديدة حرارة الشعرى . فاذا كان الامر كذلك فحينئذ عند مرور الاعصار وكرور الادهار لما يبرد الكوكب وينتقل من حالة الشعرى الى حالة الشمس كما تحقق هذا الامر عند جمهور العلماء يجب علينا ان نسلم ان الهدروجين في برودته يسير سيراً معاكساً اي انه يتخثر رويداً رويداً فتتكون منه سائر المعادن . ومن ثم فان الكواكب تكشف لنا عن سر طالما كان غامضاً على اهل العصور الوسطى الا وهو سر علم الصنعة الذي ترمي غايته الى تحويل المعادن بعضها الى بعض وعلمه فوق كل علم بغداد ساتسنا

اماني تاريخية

الضريبة

روى المحبي في خلاصة الأثر : ان العوارض مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت في الشام في كل سنة ويقال انها من محدثات الملك الظاهر بيبرس اشار اليها العفوري بقوله معتذراً :

يا من فضله والجود سارا   مسير النيرين بلا معارض
وعدتك سيدي والوعد دين   ولكن ماسلمت من العوارض

والاكرمي بقوله ايضاً وقد اجاد:

لحا الله ايام العوارض انها   هموم لرؤياها تشيب العوارض
يضيق لها صدري واني لشاعر   خليع وبيتي ماعليه عوارض

القشلق

وروى المحبي ايضاً ان القشاق من عسكر السلطان مراد بن احمد كانوا قد عينوا لمحاربة شاه عباس فدهمهم الشتاء دون الوصول الى خطة العجم فأمروا أن يشتوا في دمشق وأطرافها من القرى وضيقوا على الناس أمر المعيشة وبالغوا في التعدي والتجاوز ونهب أموال الناس وكان قاضي القضاة بدمشق احمد بن عوض العينتابي تولى هذا المنصب سنة ١٠٤١ هـ فسعى بقمعهم وكف شرهم فقال ابراهيم الاكرمي في ذلك :

انظر الى القشلق في ذلة   العكس من حالهم الحائل
كم رجل منهم بسموره   تحت جواد صائل صاهل
تحف بالجندي ذلة   وقد اتى يسأل عن سائل

ووصفهم ابو بكر العمري بقصيدة بليغة مشيراً الى عيثهم ومعاونة القاضي في دفع اذاهم مطلعها :

اواه مما حل في جلق   من العنا في زمن القشلق
رامي البلى مذ حلّ اهلها   قوساً له قال القضا فوّقي
حتى تنادى الناس مما دهى   ياليتنا من قبل لم نخلق

ومنها : كانت دمشق الشام محسودة   لكونها بالعين لم تطرق
آمنة من كل ما يختشى   مأمنة للخائف المشفق
مائسة تزهو بسكانها   مائدة للبائس المملق
لايعرف الدخل لها مدخلاً   ولا الى عليائها يرتقي
وهي تلي ما تم من نعمة   تتيه بالحسن وبالرونق

ومنها في وصف قشلق :

في رقعة الشام غدت خيلهم   وذنت الارخاخ للبيدق
اواه من خمدة نيرانها   يا نار كيف اليوم لم تحرق

الى ان قال :

ياويح قوم دعسوا ارضنا   وأوقفونا في ردى موبق
وقد اغاروا وبنا احدقوا   ياغيرة الله الينا اسبقي
اجلوا اهالي الدور عن دورهم   بالسيف والدبوس والبندق
واتخذوها سكناً دونهم   بالفرش من خز ومن استبرق
واستوعبوا اكثر اموالهم   ظلماً بلا عهد ولا موثق
واقتنع الناس بأعراضهم   فانها بالثلب لم ترشق

وارخ ذلك بقوله :

لقد غزينا دون وعد بلا   لام فارخ سنة القشلق

واشار الى وجوب اسقاط اللام من التاريخ فتبقى سنة ١٠٤١ هـ ١٦٣١ م

زحلة   عيسى اسكندر المعلوف

غرائب الغرب

كلية باريز

١٧

كلية باريز من اقدم كليات العالم في التاريخ ان لم تكن اول كلية أنشئت وقد كانت في القرون الوسطى بلا مراء اشهر كلية واكثرها ايواء للطلبة فكان علماء الوقت كما قال احد الفضلاء ينظرون اليها بانها صاحبة الحق في استخراج كنوز العلوم ملكت ارثاً شرعياً صحيحاً وكانت اول كلية أنشئت في العالم كلية بابل أسسها نينوس مؤسس نينوي والمملكة الاشورية الاولى وخلفتها كلية منفيس المصرية وخلفت كلية منفيس كلية آثينا وبعد هذه أنشئت كلية رومية وبعدها قامت كلية باريز واشتهرت كلية بولونيا في تعليم الحقوق كما سبقت كلية باريز غيرها في الآداب المقدسة والعالمية وكان في جوارها عشر مدارس تحيط بها كأنها ام القرى وتلك من اعمالها مثل مدرسة الانكليز ومدرسة الايكوسيين والالمانيين واللومبارديين واليونانيين ولطالما بعث الملوك اليها باولادهم ليتخرجوا في المنطق .ويتعلموا رقة الجانب وحسن الادب والعشرة ٠

ظلت هذه الكلية منذ القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر تربي معظم الرجال الذين يختلفون الى التعلم فيها وفيهم الشعراء والعلماء والفلاسفة ومن مشاهير من تخرجوا فيها غليوم اوكام ورايمون لول وتوما داكين وبنوا دانانيي وبونيفاس الثامن وبرونوتو لاتيني ودانت وتوما موروس وايراسم وغيرهم وجميع طلابها عَلَى اختلاف اصقاعهم كانوا يرتاحون في حماها وكان مطمح انظارهم حب الحقيقة وهي القاعدة الاصلية فيها وكل منهم يتمتع بحقوقه٠ ولقد جاء

زمن كانت الحياة العقلية محصورة في جدران المدارس الا ان كلية باريز اعظم منبعث لبث الدعوة الى الافكار الفرنسوية وكانت وحدها تكفي لانارة العالم الا قليلاً وكان رجال تلك الازمان ينسبون العلوم الى مواطنها ويرجعون الامور الى مصادرها فيقولون ان رومية مقر البابوية والمانيا مقر السلطة وباريز مهد العلم

وكانت الافكار الفرنسوية — كما قال احدهم في المجلة الباريزية — هي اكبر معين في القرون الوسطى عضد الى النهاية الصليبيين في نشاطهم وهيأ اسباب الحماسة الدينية وفتح لامم المغرب ونشاطهم طرقاً جديدة في العمل ومن الافكار الفرنسوية نشأت بعد نزاع قديم فكرة الوطنية متجلية في صورة مؤثرة ذات بأس ومضاء بحيث خضعت السياسة لسلطانها ووضعت أسس الوحدة الوطنية · والافكار الفرنسوية هي التي طهرت رياح الاصلاح والنهضة وقادت الافكار القديمة الى التجديد وانارت العالم بقبس انوارها · والافكار الفرنسوية هي التي حملت الى العالم في عهد فولتير ومونتسكيو افكار التسامح الديني والعدل الاجتماعي والحق والانسانية · والفكر الفرنسوي هو الذى سنّ المبادئ الخالدة في دساتير الامم المتمدنة باسرها · فمن فرنسا نشأت حرية البلجيك وحرية اليونان وحرية ايطاليا وحرية العثمانية · وفرنسا مهد الادب تنشر انواره فتتناوله الاجانب وتتقبله بقبول حسن وهي البلاد التي اشتهرت بعلمائها وصناعها

ومن كلية باريز اخترع امبير اختراعاته التي لولاها لما اخترع التلغراف اللاسلكي والسلكي والتلفون ولم تتم عجائب الكهربائية الصناعية · وفي كلية باريز احدث باستور انقلابه العظيم في علم الحياة الذي جعله المحسن الى

الانسانية في العالم اجمع · وفي كلية باريز حقق برتلو الطريقة الصناعية في المواد العضوية فنشأت منها الكيمياء الحديثة · وفي كلية باريز اخترع كوري وقرينته الراديوم واهتزت في ايديهما ذرانه · وفي معامل كلية باريز اوجد مواسان للمرة الاولى التنور الكهربائي كما اخترع غيره التصوير الشمسي بالالوان

كانت هذه الكلية كما قلنا اعظم كليات القرون الوسطى فجعلوها سنة ١٨٩٦ كلية تليق بعظامتها الماضية بحيث لم تفقد مكانتها العلمية وفيها اليوم زهاء ثلاثمائة استاذ يفيضون كما افاض اسلافهم على العالم من علومهم ولاسيما على اميركا الجنوبية وبوهيميا والبلاد المصرية والعثمانية وكانت هذه الكلية رسول السلام بين الانام ومعلمة الناس كيف يكون التجانس الروحي والاخاء العام · ولكم كان اساتذتها يسيحون في بث ما علمهم الله في البلاد التي يقل فيها العالمون ولكم أنشئت في حجر هذه الدار جمعيات تريد التقريب بين الشعوب وتعليم الجاهل منهم ولكم رنت في غرفها وقاعاتها اصوات الخطباء من علماء الارض اتوها يحملون اليها نتائج ابحاثهم ودروسهم · فان كانت كلية باريز امّ كليات براغ والاستانة ومصر وغيرها من كليات البلاد اللاتينية واميركا اللاتينية فهي تفاخر بانها ام كليات انكلترا وايكوسيا ·

ويؤخذ من احصاء سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ انه كان في هذه الكلية ١٧٣٠٣ طلاب منهم ٣٣٦١ من الاجانب فتيان وفتيات ومن هؤلاء ٩٢٦ يدرسون الحقوق و ٥٢٠ يدرسون الطب و ٧٧٣ العلوم و ١٠٦٢ الآداب

ولم تقصر كليات الولايات وعددها اثنان وعشرون كلية في بث روح التكافل الاخلاقي والعقلي فانشأت كلية تولوز جمعية اجتماع الطلاب الفرنسويين في اسبانيا وانشأت كلية بوردو مدرسة الدروس الاسبانية

العالية في مدريد وانشأت كلية كرنوبل المجمع العلمي في فلورنسة وكلية نانسي وهي على الحدود الالمانية تعلم قاصديها احترام فرنسا وخدمتها للعلم · وهكذا الحال في كلية مونبليه وليل وليون فكليات فرنسا تعلم في السنة سبعة آلاف طالب وهو عدد ليس بقليل يدل على تفردها في هذا الشأن من بين اكثر الممالك الراقية .

هذه شذرة صغيرة في وصف كلية باريز التي مازالت الحكومة الفرنسوية تنفق عليها النفقات الطائلة والمحسنون لا ينفكون عن اعطائها المنائح الكبيرة فقد وهبها كارنجي المحسن الاميركي كثيراً كما ان بعض الروسيين منحوها مالاً جزيلاً والفرنسيس يعطونها عن سعة · فحيا الله يوماً تقام لكل قطر من اقطار البلاد العربية كلية مثل هذه تدرس ابناءها علوم البشر بلغتهم وتكوّن مجتمعنا بالوطنية الصحيحة كما تكونها كليات الممالك الصغرى في الغرب كالبلجيك وهولاندة والدانيرك والسويد ونروج وسويسرا والمجر وبولونيا وفنلندا والبرتغال

حدائق باريز ومتاحفها

١٨

يطول بنا نفس الكلام اذا اردنا الافاضة في كل فرع من فروع العمران بباريز وكلها مما يحتاج الى صفحات كبيرة وربما ملّ القاريء قبل ان يمل الكاتب · ولقد عنيت مدة مقامي في هذه العاصمة ان لا اضيع ساعة من وقتي الا في البحث عن جمعية او انسان وزيارة معهد فيه نموذج من ارتقاء العقول ووفرة العلم وحذق الايدي وبسطة العيش وفضل الرفاهية ومما جعلته لاوقات الفراغ غشيان الحدائق والمتاحف ودور التمثيل والسماع

في باريز حدائق كثيرة عامة ومنها الصغير الخاص بحي او شارع صغير ويسمونها «سكوار» وهي كلمة انكليزية معناها ساحة مربعة او حديقة يحيط بها حاجز من قضبان حديد وتكون في ميدان عام وعددها ٣٦ حديقة تتمنى كل حاضرة من حواضر البلاد العثمانية ان يكون لها من نوعها واحدة فقط بانتظامها وحسن تعهدها . اما الحدائق الكبرى فعددها تسع تصرف في كل واحدة الساعات وانت تسرح طرفك فيما خصتها به يد الصانع وايدي البشر من مجالي الظرف والجمال .

زرت منها حديقة الحيوانات وحديقة النباتات وحديقة كلوني وحديقة لوكسمبورغ وعجبت لمن يزور هذه الحدائق مرات لم لا يكون عارفاً بالنبات والحيوان وتاريخ مشاهير فرنسا احسن معرفة فمثل هذه الحدائق التي يتنزه فيها المتنزهون هي في الحقيقة مدارس عملية يدرس فيها المتنزه كبيراً كان او صغيراً ماينبغي له من هذه العلوم درساً عملياً لايحتاج فيه الا الى انتباه فكر قليل حتى اذا اسعده الحظ ونظر في المدرسة او خارجها في كتب هذه العلوم يصبح وهو مطبق العلم على العمل .

ولقد رأيت في حديقتي الحيوان والنبات اسماء كنت اقرأها ولا اعرف اعيانها فلما وقع النظر عليها تبينت فضل عرضها وان العلم النظري اذا لم يشفعه علم عملي يبقى كالسيف في غمده او البندقية في معملها او الكهربائية قبل توليدها . وليس في البلاد العثمانية او المصرية مايشبه هذه الحدائق اللهم الا ان تكون حديقة الجيزة والجزيرة والقناطر الخيرية في مصر وحديقة الامة وغيرها في الاستانة ولكن اين الثريا من يد المتناول وما ينظمه الباريزيون لانفسهم وينظمه الانكليز او الطليان والنمسويون لنا . وما حك جسمك مثل ظفرك .

وانك لترى في بعض الحدائق العامة تماثيل مشاهير رجال فرنسا في السياسة والعلم مجسمة من رخام مجزع او حديد مصنع كأن ساحات باريز وشوارعها العظمى لم تستوعب وحدها كبار رجالهم حتى هرعوا الى الحدائق يضعون فيها التماثيل والنصب لمن احسنوا للامة او سادوها زمناً واصبح لهم في تاريخها ذكر يردد . ففي ساحات باريز وشوارعها ٦٨ مشهداً (Monument) لمشاهير علمائهم ورجال سياستهم ومنهم اوغست كونت والفرد دي موسه وشاركو وكورنيل ودانتون وغامبتا وكي دي موباسان وجول سيمون ولافييت وواشنطون ولافوازيه وباستور وفيكتور هوغو وغيرهم وفيها ٦٨ تمثالاً اثنان منها لاسكندر دوماس الابن والاب . وواحد لبالزاك وبوفون وبرانجيه وشارلمان وكلودبرنار وكوندورسه ودانت وديدرو وغاريبالدي وجورج ساند وجان جاك روسو وجان دارك ولامارتين ومارات وموليير وباسكال وشاكسبير وفولتير وتمثال الحرية والقانون والجمهورية

هذا داخل العاصمة اما خارجها فلها من غابتي فنسين وبولونيا اعظم فسحة ونزهة وغابة فنسين في شرقي باريز على بضعة كيلومترات من نقطة دائرتها ومساحتها ٩٢٧ هكتاراً وفيها من انواع الراحة وتنويع المناظر المفيدة ماهو العجب العجاب واعجب منها غابة بولونيا في غربي باريز ومساحتها ٨٧٣ هكتاراً زرتها ثلاث مرات وان كانت في الشتاء ليست مثلها في الصيف على انها ماخلت من الانيس والجليس وكان اخد تلك الايام يوم عيد رأس السنة والسماء مصحية والشمس طالعة مريضة صحيحة والعيون المراض الصحاح خرجت من كناسها تستنشق الهواء النقي . وهناك منظر من بحيرات بولونيا وطرقها لاادري كيف يصوره الشاعر اذا كان الوقت ربيعاً او صيفاً اوخريفاً

ولو كنت شاعراً لحبرت في وصفه القصيد وان زرتها في الفصل الميت كما يقول الفرنسيس ·

***

اما المتاحف البارزية فهي ايضاً قصور نزهة وحدائق صفاء وعددها ٣١ متحفاً يحتوي كل منها على اقصى مايتصوره العقل من ارتقاء البشر في الصناعات والفنون على اختلاف الاعصار زرت بعضها وقضيت اوقاتاً طويلة في متحف اللوفر العظيم بالقرب من نهر السين ومتحف فرسال على ثلاثة ارباع الساعة من باريز · اما متحف اللوفر فهو من اجمل قصور العالم واوسعها عرف سنة ١٢٠٤ على عهد فيليب اوغسطس ومازالت ايدي الملوك تتعاوره بالاصلاح او التدمير حتى اذا كان عهد فرنسيس الاول اصبح اللوفر متحفاً يقسم اليوم الى سبعة متاحف في متحف بحسب اصول آثارها وزمنها وطبيعتها وهي متحف التصوير ومتحف الرسوم ومتحف النقش ومتحف النحت القديم ومتحف النحت في القرون الوسطى وعلى عهد النهضة ومتحف النحت الحديث ومتحف العاديات الآسياوية ومتحف العاديات المصرية ومتحف العاديات الافريقية ومتحف العاديات النصرانية ومتحف الفخار والاواني الخزفية القديمة ومتحف القلز والحلي والرخام القديم ومتحف عاديات القرون الوسطى والنهضة والقرون الحديثة ومتحف تير ومتحف البحرية ومتحف الشرق الاقصى ·

وكل متحف تصرف فيه الساعات الطويلة ولا تستوفي النظر فتأخذك الدهشة من رؤية المكان ورؤية المكين وتقضي بالعجب من كل مايقع عليه بصرك اذ تتمثل لك عظمة الانسان وتفننه فيما تصنعه يده وعينه وذوقه.

اما متحف فرسال فهو في مدينة فرسال وكانت في القرن الحادي عشر

للميلاد قرية فاصبحت بعناية لويز الثالث عشر مدينة صغرى لانه اقام فيها قصراً للراحة اثناء الصيد واراد لويز الرابع عشر ان يجعل فرسال مركز حكومة فرنسا فانشأ فيها ابنية ومصانع عظيمة وكذلك فعل لويز الخامس عشر حتى اصبح عدد سكانها ثمانين الفاً على عهد الثورة ٠ وهكذا اذا اراد الملوك ان يعمروا بلداً احيوه واذا شاؤا ان يخربوه اماتوه ٠ واشتغل في اقامة قصر فرسال الذي جعل المتحف فيه اليوم ثلاثون الف رجل وستة آلاف دابة في اليوم مدة سنين طويلة وقد فتحت ابواب المتحف سنة ١٨٣٧ وفيه اليوم ٥٦٠٠ اثر تاريخي

اما مجموعة الصور البديعة التي فيه فعددها ٢٤٠٠ صورة ليس لها نظير في العالم ومن يمعن النظر فيها كثيراً يخرج من المتحف وقد درس تاريخ فرنسا ووقائعها الحربية بالعمل والنظر

ومن جملة ماحواه اسلحة ببيوت الشرف التي اشترك فرد او افراد منها في الحروب الصليبية ٠ ومنها ابواب مستشفى فرسان رودس الذي اهداه السلطان محمود العثماني سنة ١٨٣٦ الى لويز فيليب صاحب فرنسا ٠ وفيه صور كثير من مشاهير الشرق كأنك تراهم عياناً وفيه صورة تمثل القائد كلبر الفرنسوي وسليمان الحلبي يقتله في حديقته في القاهرة زمن الاحتلال الفرنسوي في مصر ٠

اطلت الروية في كل هذا وانعمت النظر في النفقات الطائلة التي انفقت على هذه القصور المزخرفة والمصانع العظيمة فاعطيت بعدها الحق لمن قاموا بالثورات الفرنسوية يريدون انزال الملوك عن عروشهم وفصم عرى السلطة الفردية لتنقل الى ايدي الامة ٠ نعم ان اقل نظرة الى هذه القصور

يستغرب معها المرء كيف لم تحدث تلك الثورات قبل حدوثها بزمن طويل. ولكن الحوادث كالحبالى لاتلد الا بعد اتمام مدة الحمل او كالثمر لاينضج قبل ابانه ·

ولم اتمكن يوم زيارتي لفرسال من رؤية كل حدائقها ومرافقها لنزول الثلج بكثرة ولكني عَلَى الجملة اخذت منها صورة اجمالية كافية · شأني في كل مازرته من المعاهد ورأيته من المشاهد فلم يتيسر لي ان أُلقي عليه سوى نظرة واحدة لضيق الوقت و كثرة مايجب ان يدرس من آثار هذه الحضارة الغربية الغريبة

و بعد كل هذا اصرت أرى الاشتراكيين عَلَى حق فيما يطالبون به المجتمعات الحديثة في الغرب وهم يرون مئات الفدادين من الارض تجعل حدائق قد لايختلف اليها الا افراد في حين يهلك مئات الالوف من المحاويج والفقراء ولا من يرحم ضعفهم المادي والصحي او يرثي لبكائهم وتسبل عَلَى النظر هذه التحف والعاديات التي لاتقدر بثمن وحكومة الجمهورية تقترض مئات الملايين من الفرنكات لسد العجز في ميزانيتها · وهكذا نظام المجتمع الغربي ولعلّ عقول اهله المفكرة تحرر في الاجيال المقبلة الفقير من فقره او تقوى عَلَى الاقل عَلَى تعديل هذا النظام الجائر الذي يسلب من كثيرين السبد واللبد ليتمرغ به قصر البلد ويلعب في حدائقه وساحاته الوالد والوالدة والولد

· مكاتب باريز ومكتباتها

١٩

لو لم يكن في باريز الا مكتبة الامة التي حوت في قصرها الفخيم زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع ومئة الف كتاب مخطوط ومليونين ونصف

صورة مختومة والوفاً من الايقونات والانواط القديمة وغير ذلك من التحف والآثار ومجاميع الصحف والمجلات لكفاها جالباً للسائحين ولافتاً لانظار اهل العالمين من العالمين ·

مكتبة أسست منذ نحو ستة قرون وملوك فرنسا وعلماؤها واشرافها يتبارون في ان يجملوا في كل فرع من فروع العلم واللغات صنوف المخطوطات والمطبوعات حتى اذا جاء القرن العشرون اصبحت مكتبة الامة اكبر مكاتب العالم واهمها بندرة كتبها ومخطوطاتها ففيها من نوادر المخطوطات والمطبوعات العربية الوف

اختلفت اليها غير ما مرة ولم اتمكن من مطالعة كل ما اريد لضيق الوقت وضخامة الفهارس وكثرة المؤلفين والناقلين في قاعات المطالعة · وبلغني ان الكتب التي اهديت الى مكتبة الامة في العهد الاخير لم يتيسر ادخالها في قوائم الكتب على كثرة موظفي المكتبة وكادت مطبعة الامة الاميرية تعجز عن طبع فهارس هذه الخزائن ولا غرو فان ما رأيته منها مطبوعاً الى عهد ليس ببعيد يبلغ وحده مكتبة برأسه ويقضي فيه المرء الساعات ولا يستطيع ان يستوفي النظر الاجمالي

ولو صرف طالب العلم عمره كله يبحث في مخطوطات مكتبة الامة ويستعين بمطبوعاتها لما تيسر له ان يأتي الا على قسم ضئيل جداً مما حوته في بطنها من معارف البشر ولا تعد المكتبة الخديوية في مصر ومكاتب الاستانة التي تتجاوز الاربعين مكتبة ومكتبة المجلس البلدي في الاسكندرية ومكاتب دمشق وبيروت وحلب وبغداد والمدينة ومكة وغيرها من بلاد الشرق الادنى اذا جمعت كلها في صعيد واحد وجعلت لها فهارس وقوائم

منظمة الا جزءاً صغيراً من ذاك الجسم الكبير . وعلى تلك النسبة قس المطالعين والمراجعين في مكتبة الامة بالنسبة لامثالهم في البلاد العثمانية والمصرية فتراهم عند الساعة الرابعة بعد الظهر يخرجون رجالاً ونساء شيوخاً وعجائز شباناً وشابات كالقطيع الكبير لا يقل عددهم عن خمسمائة وربما جاوز الالف احياناً وتجد فيهم الغرباء من امم اوربا وآسيا واميركا وافريقية ممن تجمع بينهم كلمة العلم الجامعة وكلهم يتنافسون في البحث والدرس ويستخرجون من ركاز تلك الكنوز ما يصوغونه عقوداً ثمينة وتعاويذ محلاة تقي البشر شر الجهل والخرافة

ولعله يخطر ببال بعضهم ان هذه المكتبة هي كل ما في فرنسا من خزائن كتب صرف الفرنسيس فيها قواهم وجمعوا لها من اقطار الارض كل غال ونفيس على عادة الافرنج في التغالي بفخامة مصانعهم وضم شتيت متفرقهم وحرصهم على الاجتماع للانتفاع ولكن في باريز وحدها من المكاتب العامة ما لو جمع ايضاً لكان منه مكتبة كمكتبة الامة بكثرة اسفارها الا ان هذه تفوقها بالنوادر من المخطوطات

ولباريز عشر مكاتب اخرى في كل واحدة منها عشرات الالوف من المخطوطات والمطبوعات دع عنك خزائن كتب الجمعيات والمدارس والكليات والجامع فان لكل واحدة منها ما يقتضي للطالع من اسفار المراجعة وغيرها . اما خزائن كتب الافراد فهذه لا يحيط بها الا علاّم الغيوب او من يدعي انه يعرف ما حوت باريز من علم وادب وذهب ونشب

ويقول العارفون ان قواعد بلاد الانكليز السكسونيين كالمانيا وانكلترا والولايات المتحدة تحسن استخدام اسفارها اكثر من الجنس التوتوني اللاتيني كالفرنسيس والطليان والاسبان وغيرهم اذ ثبت ان تلك الامم العظمى الراقية

اكثر احساناً للانتفاع من قواها الطبيعية والصناعية على اسلوب حديث لم يخطر ببال الفرنسويين الذين جروا في اوضاعهم وترتيب مصانعهم وتنظيم شؤونهم على تقاليد لهم قديمة وان عرف عنهم انهم اسبق الامم الى التجديد ولكن تجديدهم في امور دون اخرى ·

والانتفاع من الكتب ايضاً لم يخرج عن هذا النظام حتى قالوا ان نفائس المخطوطات والمطبوعات الموجودة في مكتبة الامة في عاصمة الفرنسيس لو نقلت الى ليبسيك او مونيخ او برلين او فينا او اكسفورد او مانشستر او لندرا او نيويورك او شيكاغو لانتفع بها وتيسر سبيل الوصول اليها لانها تكون هناك مفهرسة مبوبة على طريقة فيها روح القرون الوسطى وقد جعلت هنا على اسلوب قريب المأخذ سهل التناول خال من القيود التي تقيد المطالع والمراجع · فان كانت فرنسا في مقدمة شعوب الارض من وجوه كثيرة ولا سيما في الامور الذوقية وبدائع الصناعات والاصلاحات الدستورية والانسانية فقد فاقها غيرها من الممالك المجاورة من حيث الفنون والاقتصاد والاجتماع فعرفوا كيف يطبقون انفسهم على الذوق العصري

مثال ذلك صناعة الوراقة او بيع الكتب فانا نجد المانيا ارقى من فرنسا فيها مع كثرة تفنن الفرنسيس فيما يدل على سلامة الذوق حتى ان ليبسيك في المانيا تبيع وحدها من الكتب قدر ما تصدر فرنسا كلها ومن الغريب ان الكتبية الالمان في نفس باريز تجدهم امهر في تصريف كتبهم فيبيعون كمية اوفر من كتبية الباريزيين ·

جاء في كتاب « المانيا الحديثة » ان المانيا اعظم البلاد اصداراً للكتب فقد كانت اوائل القرن الماضي لاتخرج في السنة سوى ٣٩٠٠ كتاب

فاصدرت سنة ١٩٠٥ ٢٨٨٨٦ كتاباً في حين ان فرنسا التي هي في الدرجة الثانية بكتبها لم تصدر سنة ١٩٠٤ سوى ١٢١٣٩ كتاباً فاذا قدّر انه يطبع من كل كتاب في المانيا الف نسخة فيصيب كل شخص فيهاعلى اقل تعديل مجلد واحد فصناعة الكتب في المانيا رابحة جداً . وقد كان عدد المحال التي تتعاطى تجارتها سنة ١٩٠٥ ٧١٥٢ محلاً تصدر الى الخارج فقط ماقيمته ٢٩٠ مليون مارك

زرت في جملة الكتبية الذين زرتهم او ابتعت منهم بعض الكتب مكتبة هاشيت المشهورة في جادة سان جرمان وهي ثلاثة طوابق وفيها نحو الف وخمسمائة موظف ومستخدم وتطبع فيها بضع جرائد ومجلات كما تطبع الكتب المدرسية والادبية والتقاويم السنوية المشهورة في العالم وهي موءسسة منذ نحو ثلاثة ارباع قرن ويعد هاشيت من اعظم كتبية العالم ان لم يكن اعظمهم ومع هذا يقول العارفون ان مكتبته على حالتها الحاضرة لو كانت لجماعة من الالمان او الاميركان لادهشوا العالم بنظامهم وارباحهم . فكأن دم الفرنسيس الذي غلى زمناً قد برد اليوم واصبح الدم الجديد غيره الآن يغلي فيدهش بحرارته . ومن مكتبات باريز المشهورة مكتبة فلاماريون ولمكتبته فروع كثيرة في مدينة باريز وبلاد فرنسا وهذه المكتبة فيما رأيت اقرب الى التجديد منها الى الجمود على القديم

٣٠
مجامع باريز العلمية

على الشاطىء الايسر من نهر السين مقابل قصر اللوفر الفخيم قام قصر عظيم عمر في النصف الثاني من القرن السابع عشر بمال اوصى به السياسي

مازارين الذي جمع بطمعه وجشعه ثروة لا تقل عن خمسين مليون فرنك عَلَى عادة عظماء القرون الوسطى · واراد ان تنفق بعده في الخيرات وحسن الاثر ومن جملة خيراته هذا القصر الذي اوصى له بمليوني فرنك فضة وخمسة واربعين الف ليرة دخلاً سنوياً ليكون منه مدرسة عالية يتعلم فيها ستون طالباً من ابناء الولايات الاربع التي اضيفت الى فرنسا بوجب معاهدة البيرنيه وروسيللون

وهذا القصر هو الذي نقل اليه مجمع فرنسا العلمي سنة ١٨٠٦ ذلك المجمع الذي أسس سنة ١٧٩٥ فكان مفخراً من مفاخر الفرنسيس وحق لهم ان يفاخروا به · وهو مجلس او ديوان مؤلف من خمسة مجامع فالاول المجمع العلمي الفرنسوي المعروف بالاكاديمي أسسه ريشليو سنة ١٦٣٥ وهو يشتغل خاصة بتأليف معجم اللغة الفرنسوية وادخال المفردات الجديدة ونبذ القديمة او اصلاحها واعضاؤه اربعون رجلاً ويقال لهم المخلدون عَلَى سبيل الدعابة لانهم اذا خلا موضع واحد بالموت ينتخب سائر الاعضاء في الحال من يخلفه والمجمع الثاني مجمع الصناعات النفيسة أسسه مازارين سنة ١٦٤٨ باسم مجمع التصوير والنقش والمجمع الثالث مجمع الخطوط والآداب انشأه الوزير كولبر سنة ١٦٦٤ ومجمع العلوم أسسه كولبر ايضاً سنة ١٦٦٦ ومجمع العلوم الاخلاقية والسياسية أنشيء سنة ١٨٣٢ وجميع هذه المجامع ينتخب اعضاؤها بعضهم بعضاً مدى العمر وينظرون في العلوم الآنف بيانها ويعطون جوائز للمحسنين من المؤلفين والعاملين وبعضها لا يستهان به · وفي باريز مجامع علمية كثيرة غير هذه منها مجمع باستور العلمي مكتشف الميكروب والمجمع الكيماوي ومجمع فتيان العميان ومجمع الزراعة ومجمع البحار ومجمع العيون ومجمع

الصم البكم ولكل منها انظامة وقوانين واعمال يطول شرحها واكتفي فقط بوصف جلسة عامة حضرتها (١) من جلسات مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية

في اليوم الرابع من كانون الاول سنة ١٩٠٩ عقد هذا المجمع جلسته السنوية تحت قبة المجمع وهي القبة التي تجتمع فيها المجامع الخمسة المعددة فيما تقدم اجتماعها السنوي وقدر الجمع باربعمائة نسمة رجال ونساء . جلسوا على مقاعد من المخمل على ترتيب بديع بحيث يسمع كل واحد منهم ويرى وكان اكثر اعضاء هذا المجمع بلباسهم الرسمي فجلس على كرسي الرئاسة المسيو رني ستورم وتلا كما هي عادة هذا المجمع منذ القديم او منذ انشائه قائمة باعمال المجمع منذ اثني عشر شهراً وصفق الحضور لمن نالوا جوائز على كتب ألفوها واعمال قاموا بها لخدمة الانسانية وتعليم البائسات واطعام الجائعات واليتامى والعمي وبين من نالوا الجوائز اربع عقائل عدا من اثنى الرئيس على اياديهن البيضاء كالأم ارنستين التي انشأت معملاً وملجأً في مدينة روان والعقيلة بيكوين التي انشأت في باريز ملجأً سمته معمل الجهاز والآنسة دي رشمون التي انشأت في مدينة كرنيل منذ اربع وعشرين سنة ملجأً للبنات تأوي اليه اربعمائة ابنة من بنات العملة وانفقت عليه ثروتها . ومن

(١) هنا ارى من الواجب عليّ ان اشكر لصديقي العالم المسيو القرد لشاتليه استاذ علم الاجتماع الاسلامي في كوليج دي فرانس ومدير مجلة العالم الاسلامي ومجلة السجلات المراكشية ومجلة الافكار الحديثة لتفضله بتعريفي الى كثير من اصدقائه من رجال العلم والادب والسياسة في باريز وبهم تيسر لي ان اطلع من مدنية هذه الامة في شهرين ما يتعذر عليّ غيري ان يراه الا في شهور واشكر خاصة امين سره الكاتب المسيو لوسين موري الناقد الادبي في المجلة الزرقاء واحد كتاب هذه العاصمة المجيدين الذي تفضل واضاع من وقته كثيراً ليقدمني الى معارفه ومعارف المسيو لشاتليه المشار اليه

المعاهد التي اخذ هذا المجمع النظر فيه معهد كارنو وهو الذي منحته المقيلة كارنو امرأة احد رؤساء الجمهورية رأس مال يأتي بثمانية عشر الف فرنك دخلاً سنوياً وقضت بان تقسم الى ٩٠ اعانة كل واحدة بمائتي فرنك توزع كل سنة يوم ٢٤ حزيران وهو يوم مقتل كارنو على تسعين امرأة من نساء العملة ممن لهن اولاد . ومن جملة الجوائز التي منحها المجمع للمؤلفين جائزة الاجادة لمن ألف كتاب « افريقية للاوربيين » وكتاب « اوربا والمملكة العثمانية » .

ثم قرأ المسيو دي نوفيل امين سر المجمع الجديد ترجمة حياة صديقه وسلفه في هذه الوظيفة جورج بيكو فاثر في السامعين وابكاهم وتفنن ماشاء وشاء البيان في وصف حسنات المتوفى واقتداره . وكانت الخطب يتلوها اولئك الشيوخ في الورق بنغمة تأخذ بمجامع القلوب ويطرب لها المالمون العاملون طربهم بنغمات الاوتار وتغريد الاطيار في الاسحار

وهكذا انصرف القوم ونصفهم من النساء يرددون محامد اعضاء المجمع اما انا فتمثلت لي ارواح اولئك العلماء العاملين الذين سنوا لمعاصرينا اخلافهم سنن الارتقاء وخدمة العلم والحق والفضيلة والآداب والفنون وحدثتني النفس ببلادنا الشرقية وقلت هل يكتب لها في المستقبل تأليف مثل هذه المجامع فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين او نظل كما نحن لانعمل فرادى ولا مجتمعين ونكتفي بالتفاخر باجدادنا نجعله عدتنا في شدتنا ومثالنا في نهضتنا ونحن عن اقتصاص آثارهم غافلون

كنائس باريز ومعابدها

٢١

من المعاهد التي يقضى على من يزور باريز ان يختلف اليها ولو مرة بيعها

و كنائسها فانها من الاماكن التي يقرأ فيها انموذجاً من انموذجات البناء في القرون الوسطى و يطلع فيها على فلسفة الفرنسيس الروحية خصوصاً والمأثور عنهم في الشرق انهم امة لاتقيم لغير العقل وزناً تجردت من العواطف الدينية حتى لم يبق فيها سوى العجائز من النساء يختلفن الى المعابد للانابة الى الله وتقديس يسوع وامه عليهما السلام ·

بيد ان من تعمق في البحث عن حال الفرنسويين الروحية يتجلى له ان جمهوراً عظيماً لم يبرح متشبثاً بدينه متشبعاً بصحة يقينه ولاسيما في القرى والبلدان الصغرى فاغلب الخاصة والطبقة العليا عندهم نزعوا كل نحلة حتى لم يعودوا يعرفون غير المادة ديناً واغلب الطبقة الوسطى يغلب عليها التدين اما العامة في المدن فكالسائمة لاتعرف غير الأكل والشرب واللهو واللذائذ واكثر اهل طبقتهم في القرى متعصبون لدينهم والسوادالاعظم من النساء متدينات · وتساوى متدينهم والمنحل من كل دين منهم او الخاصة والعامة بالتظاهر في مراعاة الشعائر الدينية ولا تختل هذه القاعدةقليلاً الا في المدن والحواضرولااثر للتعليم الديني فيالمدارس الاميرية وهوعلى اشده في مدارس الرهبنات وغيرها من المدارس الخاصة على ان نزعة التعصب التي عرفت بها فرنسا منذ صبأت عن الوثنية لتنتحل النصرانية في القرن الثالث للمسيح مابرحت لها في نفوس ابنائها حتي في هذا القرن العشرين آثار راسخة وان عبثت حكومتهم بقانون الحرية الشخصية غير مامرة ودمرت بيوت الرهبان والنسك وجردت الكنائس والبيع والمدارس الاكليركية من كل ما يدخل في حوزتها ·

يحتفل الفرنسيس يوم ١٤ تموز بعيد الجمهورية احتفالاً يقدسونه ويمجدونه

وفي ذاك اليوم تشهد في كل ارض فيها بضعة منهم او رفع لهم فيها علم نموذجاً من وطنيتهم وكيف يرى جمهورهم بالجمهورية حياته ولكن احتفال هذه الامة باعيادها الدينية لايقل عن احتفالها ذاك اليوم · واعيادها كثيرة هي صورة من صورتها في القرون الوسطى بل في القرون الحديثة قبل ان تنادي فرنسا بتأليه العقل وتعلن الحكومة علناً نزعها ربقة الدين ·

نعم ان زائر كنائس باريز تتجلى له فلسفة القوم النفسية · ومما زرته من كنائس باريز كنيسة نوتردام والمادلين وعدد الكنائس الباريزية سبعون كنيسة اسقفية للكاثوليك ماعدا بيع الروم والبرتستانت ومعابد اليهود الاربعة وماعدا المصليات والبيع الصغرى ونوتردام هي من اعظم الكنائس وهي اجمل انموذجات البنايات القديمة تجيء بمكانتها بعد كنيسة مدن شارتر وريمس وامين وبورج وتفوقها بآثارها التاريخية وكفى بانها أنشئت في اوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر ولم تزل تتعاورها الايدي بالنقش والتزيين والترخيم والتعريق حتى يوم الناس هذا وفيها من بدائع ماصنعت الايدي وتفننت فيه العقول مايدهش ويبهر

زرتها قبيل صلاة المساء مع صديقي عثمان غالب بك ووقفنا نستمع لوعظ الواعظ على جمهور المصلين واكثرهم من النساء · يعظهن واصفاً لهن غرور الحياة الدنيا بالقياس مع الآخرة ومنهن من تغرورق عيناها بالدموع او تجهش بالبكاء خصوصاً عندما يذم بلسان بليغ غروز اهل باريز · فهو داخل الكنيسة يقوم بالواجب ليدعو الناس الى الزهادة ويحبب اليهم العبادة ووراء سور الكنيسة تجري كل ساعة شؤون واعمال دنيوية هائلة كلها ماكانت تقوم لو عمل الناس بمثل هذه المواعظ وآثروا الباقية على الفانية

ان مارأيته من انتظام البيع البأريزية وتفنن البانين في ابداعها وتفانيهم في توفير قسطها من الجمال دلني بلسان حاله علَى ان مدنية القرون الوسطى قامت باسم الدين ولذلك جاءت المعابد اجمل مصانع تلك القرون وكان اكثرها الى الزوال لولم تتداركه في القرون الحديثة ببلسم من انارة العقول بالفلسفة والعلم المادي اما مدنية هذا العصر فلا ادلّ عليها الا بما ينفع الناس في دنياهم كالسكك الحديدية والبوارج والبواخر والمرافيء والمعامل والثكن والمستشفيات والمدارس والكليات ودور البائسين والحقول الانموذجية والمتاحف وحدائق الوحوش والمكاتب ودور التمثيل · فهل يأتي علَى البشر عصر ياترى يكثرون فيه ماينمّ عن مدنيتهم غير ماذكرنا قديماً في الدين واليوم في الدنيا ويخف تكالبهم على مظاهر هذا العالم وينسون بتاتاً تعظيم ماخلفته عصور التدين من المصانع والعبادات التي انتقلت الى اكثرهم بالعادة او يمزجون القديم بالحديث فيكون شأنهم غير شأنهم الآن في تصور ماضيهم وحاضرهم · هذه اسئلة ليس غير الزمان كفيلاً بالاجابة عنها والله اعلم بمصير عباده

قصور باريز وسراياتها

٢٢

من القصور العامة واملاك الحكومة في هذه الحاضرة : مصرف فرنسا وقصر الاليزه حيث يقيم رئيس الجمهورية وقصر الانفاليد والتويلري وقصر العدلية وقصر ساحة المريخ وقصر التروكاديرو والقصر الملكي وفيه دائرة شورى الدولة ومحكمة التجارة والبانتيون مدفن العظماء وقصر مجلس النواب وقصر مجلس الشيوخ وقصر المجلس البلدي ·

ونتكلم هنا علَى القصور الثلاثة الاخيرة فقد كتبت لي زيارة مجلس نواب

الامة الفرنسوية ومجلس اعيانها خلال انعقاد المجلسين فلم أسر بمشهد اجمل ولا انخم وقلما تمثل لي معنى النيابة عن الامة الا ذاك اليوم · ومجلسا النواب والاعيان هما مفخر من مفاخر هذه الامة ونموذج تقدمها ودليل اخلاقها السياسية ففي مجلس الامة الحركة والمضاء وفي مجلس الشيوخ التؤدة والروية فالاول يقيم في قصر البوربون والثاني في قصر اللوكسمبورغ وكلا القصرين من اجمل قصور الحكومة في هذه العاصمة العظيمة وعدد النواب خمسمائة تغلب عليهم همة الشباب وعدد الاعيان ثلثمائة تقرأ في وجوههم المغضنة وشعورهم البيضاء سعة العقل والتجارب الكثيرة

وما انس لا انس يوم كانت المناقشة في مجلس النواب في وضع ضريبة على العملة وقد تدفقت اقوال بلابل المجلس عَلَى المنبر وما فيهم الا الاجتماعي والاقتصادي والاخلاقي والسياسي والاداري

وان ماتلي في تلك الجلسة فقط من الخطب وجرى الحوار فيه بين الاعضاء لو جمع في كتاب برأسه لجاء منه احسن كتاب اجتماعي اقتصادي عن فرنسا ومن اراد ان يعرف ما هو البيان الحقيقي والعلم الذي تشربته اجزاء النفس فليزر مجلس النواب الفرنسوي في فصل اجتماعه يشهد ارتقاء الغرب ويدرك سر الشورى ٭

اما المجلس البلدي فهو معيار العمران وبيده اسعاد باريز واشقاؤها · يزار كما تزار اكثر المعاهد الكبرى في باريز يطلب من الزائر يقدمه الى امين سر المعهد فيرسل هذا اليه ورقة يعين له فيها الميعاد الذي يأتي فيه ·

يدخل الزائر هذا القصر المدهش فيتجسم في نظره الذوق الفرنسوي وعظمة هذه الامة لكثرة مايقع عليه نظره من الردهات والقاعات والغرف

وكلها مزدانة بنقوش وصور ورسوم من اجمل ماخطته انامل النقاشين والمصورين وتدل كلها على الذوق والمعاني اللطيفة والاشارات الحسنة .

فمن رسم يمثل الغناء والعشرة وآخر يمثل الزهور والثمار وغيره يصور اغاني شواطىء السين وآخر يمثل التجارة والصناعة فالاشهر الجمهورية ومناظر كثيرة لاجمل قصور باريز ومعاهدها واصقاعها وهنالك صور رسمت على الحيطان والسقوف في القاعات التي تستقبل بها مدينة باريز في العادة من يزورهـا من ملوك الارض وامرائها ومنها مايمثل افراح الحياة وآخر يمثل العمل ومغيب الشمس والرقاد والحلم وغيرها يريك الطبيعة الملهمة المربية فالرياضات الطبيعية فالرياضات العقلية وآخر يمثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة والنجوم وفيها مايمثل المساء في باريز والخيال والولادة فيها والجهاد والنهضة والشعر والفلسفة والتاريخ والعلم والفنون والسلام واليقظة وذكرى عيد وطني وعيد الخلاء في ضاحية باريز . وبعضها يمثل ابولون وعرائس الشعر والتصوير والادب والموسيقى والنقش والهندسة ومنها رمز القصائد الغنائية والانغام والكدر والتأمل ومن التماثيل مايرسم التمثيل بالايماء والقصص الهزلية والموسيقى والرقص والالعاب ومنها مايصور الحصاد وقطف العنب والغناء والصيد وتعاطي الشراب . ومنها الموسيقي على اختلاف العصور والطيوب والعطور ومدينة باريز تدعو العالم الى افراحها والزهور والرقص في كل عصر من اعصار التاريخ وصور تمثل اهم اقاليم فرنسا مثل الفلاندر وبيكارديا والجزائر وليون ولانكدوك وغاسكونيا والبروفانس وكوسين وبري وشامبانيا وبرتانيا وبورغونيا واوفرن واللورين ونورمانديا وكونتية نيس . ومن صورها مايمثل الصيف ومنها الشتاء ومنها مايمثل آسيا واوربا واميركا وافريقية ومنها مايصور تأليه

العلوم وهو رمز لعلم الاحداث الجوية والكهربائية وتعليم العلم وتمجيد العلم واربع أيقونات تمثل علم الطبيعة والنبات في شخص اراغو وامبر وكوفيه ولافوازيه ٠ ومنها رمز الى ساعات الليل والنهار ومشاهد الافراح والاعياد

وفي ردهة الآداب صور ترسم لك عرائس الشعر والالهام والتفكر وتاريخ الكتابة واعظم الاعمال الادبية واربع ايقونات لاربعة ادباء وهم موليير وديكارت وفيكتور هوغو وميشله ثم صور الفلسفة والشعر والفصاحة والتاريخ وهناك رمز بديع يشير الى ان التاريخ يجمع دروس الماضي والفلسفة تحرر الافكار من قيودها وعلى مقربة من ذلك رسمان اثنان نائمان وهما يمثلان الادب

وفي سقف ردهة الفنون صور كثيرة منها ما يمثل تغلب الفنون وخيال الكمال والحقيقة والرقص والفنون والنقش والموسيقى والهندسة والرسم وغير ذلك من رسوم الوقائع الكبرى التاريخية والصور والتماثيل التي تشير كل واحدة منها الى معنى من المعاني وفائدة من الفوائد وكلها من حفر او رسم او نقش اعظم رجال هذا الشأن في العالم ولاسيما من اهل فرنسا جعلت هناك نموذجاً مما خصوا به من المزايا وسعة العلم وبعد النظر وحسن الذوق

وعلى الجملة فان الشرقي الذي يزور قصر المجلس البلدي في باريز تصغر بلاده في عينه ويكاد ييأس من ارتقائها ونهضة ابنائها

اما اعمال هذا المجلس الذي تبلغ ميزانيته مئات الملايين فلا اقول فيها الا انها عظيمة جداً ويكفي ان المجلس طلب من الحكومة هذه الايام ان تسمح له بعقد قرض قدره تسعمائة مليون فرنك ليطهر بعض احياء باريز فاذنت لانه ثبت ان بعض الامراض تكثر في حي دون آخر فالواجب العناية بها حتى لا تسطو يد الفناء عليها اما انا فلم ار على كثرة تجوالي راكباً وماشياً

في شوارع باريز واحيائها موضعاً تحدثك النفس انه محتاج للاصلاح بعد لكثرة ماترى كل شيء في مكانه وان مدينة باريز لتنفق على اضواء الكهرباء والغاز الذي تنير به شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة مايبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول السنة فتأمل

تاريخ الحضارة الفرنسوية

٢٣

بسطنا القول في الفصول السالفة في كل مايهم عن معرفة باريز وهانحن اولاء نتوخى في هذا الفصل ان نلم بطرف من عمران فرنسا بأسرها واثرها في الحضارة منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة معتمدين فيما ننقل على معجم لاروس الجديد وما هذه النبذة الا احتذاء لما ورد في الفصل الفرنسوي بتصرف كثير وزيادات

فرنسا مملكة عظمى في اوربا الغربية يحدها المحيط الاطلانطيقي وبحر الشمال او المانش من الغرب ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط ومن الشرق جبال الالب والجورا والفوسج ويفصل بينها وبين البلجيك والمانيا خط اتفق عليه من الشمال الشرقي والشمال ومجموع مساحتها ٥٣٦٤٠٨ كيلومترات مربعة وسكانها نحوار بعين مليونا اي نحو اربعة اضعاف ونصف مساحة سورية ومساحة سورية ١١٥٠٠٠ كيلومتر مربع والفرنسيس كجميع سكان اوربا اخلاط من العناصر مزجتهم بودقة واحدة فجاء منهم شعب ذي قوة عقلية حقيقية واختلفت صفاتهم وميولهم لمذاهب المعاش ٠ وان فرنسا لغنية بزراعتها اكثر من غناها بمناجمها ومع هذا فهي تعد من اغنى البلاد وزراعتها ارقى زراعة في الارض ويندر في ارضها الذهب والفضة والزئبق

والنحاس والزنك والرصاص والقصدير والزرنيخ والنيكل والانتيموان والكبريت ولكن عندها مايلزمها من الحديد والفحم الحجري ٠

وانك لتدهش اذا عرفت ان جزئين من ثلاثة عشر جزءاً من ارضها تزرع وتشجر وفيها نحو عشرة ملايين هكتار من الغابات والعوسج ولها في تربية المواشي والحيوانات يد طولى وتجد المعامل الكبرى قائمة في الضواحي الغنية بالفحم الحجري والحديد والمحاصيل الزراعية القابلة للتحول وقد امتاز كل اقليم بصناعة وباريز هي ملكة المدن الصناعية في فرنسا لانها محط الخطوط الحديدية ومنتهى المواصلات

امتازت الجنوب بصناعاتها لكثرة الفحم الحجري وكثرة السكان وفيها صناعات اشتهرت شهرة الشمس والقمر كما امتاز اقليم الآردن بالجوخ واعمال الحديد والالواح الحجرية وامتاز اقليم شامبانيا ونورمانديا بالجوخ واعمال الحياكة والنسيج واقليم فرانش كونتيه بعمل الساعات وليون وسان اتين بالمنسوجات الحريرية وامتازت المقاطعات المجاورة لها بتربية الحرير والغزل وامتازت البلاد الوسطى بالفخار والخزف والصيني والكاشاني وفي ضواحي انكولم عَلَى الينابيع ذات المياه الشفافة معامل الورق ولمرسيليا الميزة بصابونها ولاقليم البروفانس بزهوره العطرة التي تستعمل في الطيب وعَلَى الجملة فان صناعات فرنسا من انفس ماتصنع صنع الايدي في العالم ولا سيما في منسوجاتها الحريرية وصناعة الجوهرية والبلور والاواني الصينية الدقيقة وكلها مما جعل فرنسا في مقدمة ممالك اوربا ٠

تقسم فرنسا من حيث امورها الادارية الى ٨٧ ايالة وهذه تقسم الى ٣٦٢ ولاية و ٢٨٩٩ كورة و ٣٦١٧٠ مديرية ولها مجلس نواب ومجلس

شيوخ ينتخب اعضاء الاول كل اربع سنين واعضاء الثاني كل تسع وهذان المجلسان هما اللذان ينتخبان رئيس الجمهورية لسبع سنين والقوة الاجرائية بيد الوزارة وهي المسوءلة امام القوة التشريعية وتقسم هذه البلاد من حيث المعارف والاديان والبحرية والبرية الى مناطق كثيرة تخالف ترتيب الايالات وكلها لسان واحد وتربية تكاد تكون واحدة ونظامها واحد

ومن نظر الى تاريخ فرنسا السياسي والاجتماعي يتجلى له انها هي بلاد غاليا المستقلة وهي عبارة عن ولاية رومانية عَلَى عهد مملكة الرومان افتتح الرومانيون منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح البلاد الواقعة عَلَى شواطيء البحر المتوسط ثم افتتح قيصر البقية سنة ٥٨ — ٥١ ق ٠ م ولم تكن اذ ذاك الا خليطًا من العناصر والقبائل لاوحدة بينها ولاجامعة تجمعها ففي الشمال قبائل جرمانية وفي الوسط سلتية وفي الجنوب الغربي ايبرية وفي الجنوب الشرقي ليكورية وفي الولايات الرومانية مدن يونانية ومستعمرات ايطالية يتكلمون بنحو عشر لغات مختلفة ولم تكن لهم وحدة سياسية ولا رئيس اعلى بل كانوا عبارة عن نحو مئة من الشعوب لهم اوضاع مختلفة ويحكم عَلَى معظمهم مجلس شيوخ ومن هذه الشعوب من يعيش عَلَى حال انفراد ومنها متحدة بينها عَلَى التساوي ومنها من يشترك مع غيره ويترك الزعامة لمن يراه احق بها

وكانت المدن قليلة جداً في بلاد غاليا وغاية ما كان فيها ملاجيء لاوقات الغارات وهي مراكز الاسواق والزيارات فبلاد غاليا كانت بلاداً زراعية وسكانها ثلاث طبقات الاشراف والمحاربون ومنهم ينتخب أعضاء مجلس الشيوخ والملوك والفرسان وعامة الشعب كانوا فدادين تقرب حالهم من العبودية ولم يكن يملك الاراضي احد ثم اصبحت ملكاً للاسرات الشريفة

اما الحراثون فهم من توابع الارض ويجيء بعدهم العبيد ويعدل من حال الاشراف طبقة الدرويد وهم الكهنة والاطباء والمنجمون والقضاة ولاسيما في اواسط البلاد

ولما استقام امير الرومانيين اقاموا زعيماً عاماً على البلاد ممتعاً بالسلطة المطلقة متصرفاً بالقوة الحربية والمدنية والدينية ونعني به الامبراطور وهو زعيم الحرب والمشرع المطلق والقانون الحي والرئيس الروحي والرب ثم امتزجت البلاد بالعادات الرومانية واللغة الرومانية بما اتاها من جيوش الرومان وتحرفت لغة الفاتحين فاصبحت الامة اللاتينية الحقلية وغدت كل امة غالية مقاطعة برأسها يرأسها زعيم واخذت التجارة والصناعة ترتقي ولولا انه كان من حق المالك ان يبيع الارض بفلاحيها وهو الحاكم المتحكم في حياتهم ومماتهم لركن الفلاحون الى الفرار

ولما اخذت النصرانية بالانتشار كانت قاصرة على المدن ولم تتعداها الى الارياف الا بعد زمن وكان من فوائد انتشارها انها اعلنت بان الاحرار والعبيد سواء امام الله هذه هي الفائدة الاخلاقية اما الفائدة السياسية والاجتماعية فقد نشأ منها تأليف طبقة رجال الدين بنظامهم الذي اخذوه عن نظام الحكومة ولم يمض الا زمن قليل حتى اصبحت الكنيسة حكومة وسط حكومة تجبي اموالاً من الناس ويغدق المؤمنون واحياناً الامبراطرة عليها من المال ماتكونت منه ثروة طائلة وتعفى املاكهم من الخراج كما يعفى خدمتها من المحاكمة مع الشعب بل كثيراً مايحاكم الشعب نفسه في الكنيسة ولطالما كان الاسقف في ابرشيته خصماً للحاكم السياسي ورقيباً عتيداً عليه ·

ولما سقطت المملكة الرومانية تجزأت غاليا الى عدة ممالك بربرية كالفرنك

والبورغوند والفيزغوت وعادت كلمة البلاد الى الانتشار بعد الاجتماع ولم يكن ملوك الفرنك يدركون معنى الوحدة كسائر الملوك البرابرة ولا يقيمون للحكومة وزناً ولئن كانوا يلبسون الثياب الارجوانية ويضعون التيجان على رؤوسهم كامبراطور الرومان الا انهم لم يكن لهم جيش دائم وليست لهم طريقة منظمة في الجباية كما ان اللغات في البلاد تعددت وكلها لهجات من اصل روماني تمازجها لهجات بربرية وعادت سلطة الاشراف وسلطة رجال الدين تقوى حتى لم يعد يعترف السواد الاعظم من الناس بالزعامة عليه الا لهم ومنهم يطلبون الانصاف ولهم يدفعون الجزية والخراج وخربت المدن وهاجر رؤساء الجيش والاديار الى الحقول وضعفت الصناعة والتجارة باختلال الامن في البلاد وكاد الفلاح يكون عبداً لسيده كما في سابق الاعصار وفي اليمين الذي أقسم سنة ٨٤٢ في ستراسبورغ ظهرت لاول مرة لغة اشتقت من اللاتينية المستعملة عند الفلاحين ومنها نشأت اللغة الافرنسية وفي معاهدة فردون سنة ٨٤٣ اعترف بوجود مملكة فرنسا وعاصمتها باريز

ومازالت الملوك تتوالى عليها وتختلف في المباديء والاطوار حتى قبيل نهاية القرن الثامن وقد حسنت فيه حال الفلاح الفرنسوي وزاد عدد المالكين من ابناء القرى زيادة مهمة وارتقت الصناعة والتجارة على ما كان يقف في سبيلها من القيود الكثيرة والانظمة المنوعة وارتقت الادبيات وتحررت من قيودها القديمة واخذت الفلسفة تبحث في التسامح الديني والحرية السياسية واصلاح القوانين الجنائية وتمايز الطبقات الاجتماعية وعارض مونتسكيو نظرية ان الملك ملهم من الله وحقه الهي على سكان الارض بنظرية الحكم الملكي النيابي ووضع روسو نظرية العهد الاجتماعي

نبهت البارلمانات في مكافحتها سلطة الملوك (سنة ١٧٨٨) افكار وكلاء الشعب فبدأت الامة ترفع صوتها وكان الملوك يخفتونه ولا يرون لها حقاً في مطالبتها بحق واتفق ان وقعت البلاد في عسر مالي فاجتمع وكلاء الامة ينظرون في حل ما اصابهم فنشأت بعد حين الثورة الاولى (١٧٨٩) واعلن لويز الرابع عشر ان الامة كلها للملك ولكن جاء في قانون حقوق الانسان والوطني ان مبدأ كل سلطة ينبعث من الامة بجوهره فما من جماعة ولا من شخص يستطيع ان يحكم حكماً لا يكون صادراً عنها بالفعل وهكذا مات حق الملوك الالهي المزعوم واتت الثورة على اعشار رجال الدين والاقطاعات والسخرات والاحكام التي يحكمها ارباب الاقطاع وساوت بين الناس في الواجبات والضرائب وقضت على قليل الكفاءة من ارباب الغنى ان توسد اليه الوظائف الكنائسية والحربية بدون استحقاق وحمت الحرية الشخصية وحرية الضمير وحرية التكلم والكتابة وحرية المسكن وتساوى كل وطني من اكبر كبير الى اصغر صغير في الخدمة العسكرية ودفع الضرائب كل بحسب طاقته وثروته

هذا موجز الاساس الذي قام عليه بناء النظام الجمهوري ثم عراه قليل من التعديل بتقلب انواع الحكومات وقيام بعض الادعياء بالملك الى عهد الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين مع المانيا وعندها استقرت الحال على ما تراها الى اليوم

اما نشأة الآداب والعلوم فلكل منها تاريخ ويقال على الجملة ان اللغة الفرنسوية هي بنت اللغة اللاتينية تكوّنت على صورة غريبة الى ان وصلت في عشرين قرناً الى حالتها الحاضرة وكانت ادبياتهم دينية لاول امرها وبعضها

شعري ونثري وأكثرها خرافي ولم تخلص اللغة من القيود العائقة الا في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر . وتاريخ العلم ونشوئه فيها طويل كتاريخ الادب ويقال على الجملة فيه ان مرسيليا كانت مدة قرون منبعث العلم الوحيد في بلاد غاليا واشتهرت مدرستها كما اشتهرت كليات آثينـا وكلية الاسكندرية وكان بيتياس احد ابنائها الذي ولد نحو سنة ٨٣٠ قبل المسيح لا يقل عن اعاظم الفلكيين في القديم وكانت بيوت العلم تفتح على العهد الروماني في البلاد المهمة والتعليم فيها عبارة عن مبادئ عملية من الحساب والمساحة والبناء ثم جاء دور الانحطاط التام فأصيب الغرب بغارات البربر ولم تخرج فرنسا من ظلماتها الفكرية الا بعد ثمانية قرون بفضل العرب وبينا كان التمدن الاسلامي بالغاً اوجه كانت العلوم منحطة كل الانحطاط في ارض فرنسا . ولم ينتشر الطب والصيدلة في فرنسا الا بمساعي اطباء اليهود الذين طردهم المسلمون من آسيا الصغرى في القرن الحادي عشر فاعتصموا باسبانيا اولاً ثم باقليم لانكدوك حيث أسسوا عدة مدارس ومن جملتها مدرسة مونبليه . وهذا كان مبدأ انتشار العلم في هذه الارض . فعن العرب اخذ الفرنسيس فيما مضى حضارتهم ونحن العرب اليوم نأخذ عنهم وندهش بحضارتهم فسبحان المعز المذل القابض الباسط

الصحافة الباريزية

٢٥

نشأت الصحافة هنا في مبدإ امرها بنشر اخبار الملوك والوزارت والموظفين والحروب والدول ثم ارتقت بارتقاء المدارك الى ان صارت تلم بمعظم الموضوعات

التي تهم القراء وتعلمهم وعلى عهد الثورة اشتد ولوع الناس بالاطلاع على الحوادث والآراء السياسية والى هذا العهد ظلّ الصحافي وراء منضدته يكتب ليفيد مثل الاستاذ على منبره والواعظ في معبده لا يقصد الا تثقيف عقل وتربية نفس

ولما تكالبت النفوس على المال واتسع للصحافة المجال بكثرة المواصلات والبرقيات واخذت التجارة ترقى دخلت الصحافة في طور جديد فبعد ان كانت هي خادمة للتجارة اصبحت هي بنفسها تجارة لا يقصد منها الا الربح واول من انزل اجور اشتراكاتها اميل جيراردين مؤسس جريدة لابريس سنة ١٨٣٦ من ٨٠ او ٦٦ فرنكاً قيمة الاشتراك بالجرائد الكبرى الى ٤٠ فرنكاً وهي قيمة زهيدة لا تعادل النفقات انزلها ليكثر قراؤها واذا كثر قراء جريدة اقبل الناس عليها باعلاناتهم ومنشوراتهم فاستطاعت بعض الصحف ان تعيش مستقلة عن معونة الافراد والحكومة والاحزاب

ولكن هذا الاستقلال وان لم يكتب لها كلها الا ان سعيها وراء الاعلانات وخدمة الشركات والبيوت المالية قيدها اكثر من قبل بل اخرجها عن المقصد منها حتى صارت العشرون الجريدة الكبرى الباريزية اليوم عبارة عن سمسار لا يهمه الا ان يقبض العمالة من البائع والشاري وغدت الجريدة من مقالتها الافتتاحية الى انبائها البرقية فرفرف قصصها وتقاريظ الكتب والحوادث الداخلية والخارجية والانباء المنوعة والمقالات الادبية والاقتصادية والسياسية والاعلانات والمنشورات وغير ذلك مما تخوض الصحف عبابه مثل اخبار دور التمثيل والرياضات البدنية والسباق لا ينشر منها اسم ولا سطر الا قبل ان يذهب صاحبه الذي يهمه وينقد امين صندوق الجريدة مبلغاً معلوماً عنه

وعند ذلك ينشر له من الافكار والمحامد مايشاء وتشاء الاهواء

فان كتبياً او طابعاً لايقدر ان ينشر كتاباً طبعه الا اذا انتقده كاتب او عالم كبير وهذا اذا فرض انه رضي بان يخدمه بالمجان يسأله مدير الجريدة من ربح الادارة من ذلك . فمقالة في تقريظ كتاب قد تكلف الطابع الفي فرنك يأخذ نصفها كاتبها الموقعة باسمه والنصف الآخر مدير الجريدة ومثل ذلك يتناولون من المصورين (١) والموسيقيين والممثلين والراقصات والعقيلات والآنسات والاعاظم والاصاغر لاتدون اسماؤهم بالطبع قبل ان يرشوا ادارة الجريدة بمال ترتضيه وكل ماتراه من اخبار الدعوات والرياضات والمآدب ووصف الازياء مع بائعات الزهور والجوهريين والخياطات والخياطين يدفعه ارباب المأدبة وتجار هذه الاصناف بل ان اخبار الاعراس والافراح واخبار المناعي والاموات لاتكتب الا لمن تؤخذ منه اجرتها والاعمال الادبية مهما بلغ من مكانتها لاتذكر بكلمة قبل ان يدفع صاحبها جعالة لقاء ذكر اسمه

وهنالك الماليون وارباب التجارة يريدون ان يعبثوا بحوالة الاسواق ويعرفون ان السياسة تؤثر كثيراً في اعمالهم فيعمدون الى ابتياع الجرائد لتكتب في السياسة على هواهم فيرفعون الاسعار يوم يريدون الرفع ويخفضونها كذلك بمالهم بواسطة هذه الجريدة من التأثير في الافكار العامة ومنهم من يبتاع من الجرائد كلامها كما يبتاع منها سكوتها فدار اللعب في امارة موناكو تدفع مشاهرات الى جميع الصحف الكبرى لتسكت عما يحدث فيها من ضروب الانتحار والخراب والفجائع التي تنشا من المقامرة كما تدفع مبالغ جسيمة ايضاً

(١) اعتمدنا في معظم هذه المقالة على ماجاء في كتاب « كيف تقرأ الجرائد » الذي صدر حديثاً في باريز لمؤلفه جورج فونسكريف

في اوقات معينة لتأخذ الصحف في حمد مرافق مونتكارلو ونزلها ودور تمثيلها وسواحلها وصفاء العيش فيها ·

وان اعظم علماء الاقتصاد لاتنشرله مقالة في موضوع مالي قبل ان يوافق عليها المصرف الذي ابتاع من تلك الجريدة روحها المالية ليصرفها كما يشاء وبعد حادثة بناما التي ظهرت فيها رشاوي الصحف الافرنسية لم يعد يقدر الانسان ان يقرأ سطراً في شأن مالي في جرائدهم الا ويشك فيه ·

وهكذا اصبحت الصحافة البارزية مقيدة في صورة حرة مطلقة ففي وسعها ان تضرب في كل ماتريد وتنزع كل أساس وتهاجم كل موضوع وتغتاب كل امرئ وتنم عن كل عمل وتفتات على كل فرد ولا يحظر عليها الا شيء واحدوهو ان تكشف الغطاء عن الاسرار المالية فاذا فعلت يحكم على الكاتب والناشر والجريدة باشد عقوبات العطل والضرر وكذلك اذا دلت على الطرق الاحتيالية التي يعيش بها المحل الفلاني منذ سنين ·

وعلى ذلك فالجرائد هنا يجب ان لا تقرأ الا بحذر شديد حتى مقالات لها في الكيمياء او التاريخ فانها لاتنشرها الا ولها منها مآرب يظهر بعد اعمدة من نفس العدد او في عدد تال · وخف كل الخوف من الصحف التي تخدم الاحزاب جهاراً فان هذه تقلب الحقائق الناصعة وتجسم الحوادث او تضعفها بحسب هواها وتستعمل من السفسطة مايضحك ويبكي ·

فكأن الصحافة البارزية جعلت لقلب الحقائق لاتقدر ان تسقط فيها على حقيقة خالصة من الشوائب فهي تزيد الى ضعف البشر الطبيعي وغلطهم وخطاهم اموراً تأتيها بذاتها بالقصد لتحريف الحق وتشويهه فمنها مايخضع للحكومة في كل مايكتب ومنها مايخضع للاحزاب وكلهم خاضعون لزبنهم

وكثير منهم يقولون كل مايريدون على شرط ان يحسن المرء دفع المطلوب منه . فقد قيل ان الرياء تكريم الرذيلة للفضيلة والصحف الفرنسوية تكرم الحقيقة من هذا النوع اي انها هي الرذيلة .

هذا مااقتبسته من فكر الكاتب الفرنسوي في هذا الباب وصاحب الدارادري بالذي فيه وقد اجمع العقلاء الذين لقيتهم من اهل العلم والمطبوعات وغيرهم على ان الصحافة الفرنسوية كاباترنشي وتلفق في احاديثها وتكذب في رواياتها ماعدا جريدة « الاومانيته » اي الانسانية وهي لجوريس احد زعماء الاشتراكيين تعيش من وارداتها الشرعية ولا تسف لتناول رشوة من احد وان الصحافة الانكليزية اشرف غاية وانبل قصداً واكثر مادة واوسع مصادر اما انا فعلمت هذا التصريح من اصدقائي الفرنسويين بان انكلترا هي ارقى الامم باخلاقها والاخلاق هي معيار الامم والجرائد مرآتها

ومن الصحف الباريزية مايصدر صباحاً واكثرها جرائد لاتهتم بالمسائل السياسية بل بالامور المالية والحركة الادبية كدور التمثيل والخطب وغيرها اما جرائد المساء فاكثرها يهتم بالسياسة فالطان والديبا من الجرائد المسائية والجورنال والماتين والبتي باريزين والبتي جورنال من الجرائد الصباحية والجرائد طبقتان قسم لعامة القراء وهي التي ينادي عليها المنادون في الشوارع باعلى اصواتهم وتباع في كل مكان فيقرأها البواب والحوذي والمساح والكساح وسائق الاتوموبيل والشرطي والمرتزق وبعض التجار وذلك كاكثر الجرائد الصباحية وقسم للطبقة العالية وابحاثها لهم بالطبع مثل الطان والديبا والغولوا والفيغارو وهذه لاينادى عليها وتباع بثمن اغلى فالطان يبتاع عددها بثلاثة فلوس او خمسة عشر سنتيماً في حين تباع تلك الجرائد العامية بفلس واحد

وهي اكبر حجماً واوسع مادة من هذه ولكن شتان بين مادة ومادة وحجم وحجم .

وجريدة الطان هي الجريدة الوحيدة التي تعنى كثيراً باخبارهذا الشرق الادنى خاصة والسياسة الشرقية عامة وهي جريدة وزارية تقدس كل وزارة تأتي وهذه بالطبع تعطيها اخباراً وربما امدتها بمونة مالية وهي لاتذيل المقالات السياسية والاخبارية باسماء كتابها على عادة معظم الجرائد السياسية وبذلك قد يقع لها ان تؤيد اليوم في مقالتها الاولى فكراً مخصوصاً ثم يجيء كاتب آخر من الغد في نفس ذلك المكان من الجريدة فيضعف ذلك الرأي بعينه وينتقده . واعرف الجرائد بالشرق على التحقيق هي هذه وربما كانت جريدة الايكو دي باري من جرائد الصباح اكثر منها مادة برقية اخبارية عنه بدون تعليق على الحوادث . ومقالات الطان عن السياسة الشرقية تتناقل لانها اقرب الى الثقة والتعقل من غيرها ومع هذا تؤخذ بكل حذر شأننا مع عامة الصحف الافرنجية التي تقول الحق ولكن اذا صادف هوى لها وهيهات ان تقوله بدون عوض . ولقد كنت اظن جريدة الديبا وحدها ترتشي من السلطان عبد الحميد المخلوع ولكن علمت هنا ان الطان ايضاً على مافيها من الغمز واللمز بالدولة كانت لاتستنكف من قبض الخمسة آلاف ليرة من اعوان ذلك السلطان لتكتب على هواه يوماً لعلم المخلوع بمكانة اقوالها في الاندية السياسية

وانواع الجرائد هنا كثيرة ومنها اليومي الذي لايكتب الا في موضوع واحد مثل جريدة « كوميديا » وهي تبحث في دور التمثيل والقصص التمثيلية والفاجعات وغيرها ومنها جرائد للسباق مثل جريدة « الاوتو » وهي لنشر

اخبار سباق الحوافل « الاتوموبيل » وغيرها من انواع السباق ومن جرائدهم ماهو خاص بتأجير الاملاك والعقارات ومنها الخاص بطلاب الزواج وطال - ومنها للازياء واخرى للعطور والطيوب ومنها للاخبار الخلاعية ولكن مقصورة على طبقة خاصة تطبع سراً وتوزع كذلك واذا رآها الشرطة صادر . وانزلوا العقوبة الشديدة بكاتبها وبائعها ومشتريها

اما تنظيم ادارات الجرائد الكبرى فهو الغاية ولا سيما الامهات منها . ل « الماتين » وهي في اعظم جادة وبنايتها اجمل بناية وآلاتها الطابعة احسن الآلات فيها اثنتا عشرة واحدة تطبع الواحدة مئة الف نسخة في الس. ة زرتها مع زهاء سبعين رجلاً وامرأة رأيتهم سبقوني الى زيارتها فما رأيت نظاماً اتم ولا استعداداً استوفى من الكمال اوفى القسم ومن احسن ماقرأته مما كتب فوق غرف المحررين « خلق المحرر ليكتب فلا تشغله فيما لا يعنيه » وزرت ايضاً ادارة البتي باريزين وهي دونها في الاستعداد وان لم تكن دونها في الانتشار والنفاد

تربية البنات

لحافظ افندي ابراهيم

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي ... في حب مصر كثيرة العشاق
اني لاحمل في هواك صبابة ... يامصر قد خرجت عن الاطواق
لهفي عليك متى اراك طليقة ... يحمي كريم حماك شعب راق
كلف بمحمود الخلال متيم ... بالبذل بين يديك والانفاق
اني لتطربني الخلال كريمة ... طرب الغريب باوبة وتلاق
ويهزني ذكر المروءة والندى ... بين الشمائل هزة المشتاق

ماالبابلية في صفاء مزاجها والشرب بين تنافس وسباق
والشمس تبدو في الكؤوس وتختفي والبدر يشرق من جبين الساقي
بالله من خلق كريم طاهر قد مازجته سلامة الاذواق
فاذا رزقت خليقة محمودة فقد اصطفاك مقسم الارزاق
فالناس هذا حظهُ مال وذا علم وذاك مكارم الاخلاق
والمال ان لم تدخره محصناً بالعلم كان نهاية الاملاق
والعلم ان لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الاخفاق
لاتحسبن العلم ينفع وحده مالم يتوج ربه بخلاق
كم عالم مد العلوم حبائلا لوقيعة وقطيعة وفراق
وفقيه قوم ظل يرصد فقهه لمكيدة او مستحل طلاق
يمشي وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تل نفاق
يدعونه عند الشقاق وما دروا ان الذي يدعون حلف شقاق
وطبيب قوم قد احل لطبه ما لا تحل شريعة الخلاق
قتل الاجنة في البطون وتارة جمع الدوانق من دم مهراق
اغلى واثمن من تجارب علمه يوم الفخار تجارب الحلاق
ومهندس للنيل بات بكفه مفتاح رزق العامل المطراق
متعنت تندى وتيبس كفه بالماء طوع الاصفر البراق
لاشيء يلوي من هواه فحده في السلب حد الخائن السراق
واديب قوم تستحق يمينهُ قطع الانامل او لظى الاحراق
يلهو ويلعب بالعقول بيانهُ فكأنه في السحر رقية راق
في كفه قلم يمج لعابه سماً وينفثه على الاوراق
يرد الحقائق وهي بيض نصع قدسية علوية الاشراق
فيردها سوداً على جنباتها من ظلمة التمويه الف نطاق
عريت عن الخلق المطهر نفسه فحياته ثقل على الاعناق
لو كان ذا خلق لاسعد قومهُ ببيانه ويراعه السباق
من لي بتربية النساء فانها في الشرق علة ذلك الاخفاق
الام مدرسة اذا اعددتها اعددت شعباً طيب الاعراق

الام روض ان تعهده الحيا بالري اورق ايما ايراق
الام استا: الاساتذة الاولى شغلت مآثرهم مدى الآفاق
انا لااقول دعوا النساء سوافراً بين الرجال يجلن في الاسواق
يدرجن حيث اردن لامن وازع يحذرن رقبته ولا من واق
يفعلن افعال الرجال لواهياً عن واجبات نواعس الاحداق
في دورهن شوؤنهن كثيرة كشوؤون رب السيف والمزراق
كلا ولا ادعوكم ان تسرفوا في الحجب والتضييق والارهاق
ليست نساؤكم حلاً وجواهراً خوف الضياع تصان في الاحقاق
ليست نساؤكم اثاثاً يقتنى في الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الازمان في ادوارها دولاً وهن على الجمود بواق
فتوسطوا في الحالتين وانصفوا فالشر في التقييد والاطلاق
ربوا البنات على الفضيلة انها في الموقفين لهن خير وثاق
وعليكم ان تستبين بناتكم نور الهدى وعلى الحياء الباقي

مطبوعات ومخطوطات

(معذرة الى المؤلفين والطابعين الذين اهدونا مؤلفاتهم لنتكلم عليها في هذه المجلة فعاقت الاحوال التي طرأت علينا دون القيام بما اعتدناه في السنين السالفة من التوسع في نقد الكتب وتقريظها والمبادرة الى النشر في حينه ولذا نرجوهم ان يعذرونا على ايجاز القول ونعدهم بان كلامنا يكون من قابل اطول نفساً واوسع مادة . وها نحن اولاء نبدأ بجملة مما كتب في الغرب على الشرق او نشر في ديار الغرب من علوم الشرق ثم نتبعه بما صدر من المصنفات الجديدة بالنظر في هذا الشرق الاقرب ونستميح عذراً ممن تفضلوا باهدائنا ما عربوه من القصص ونشروه من الروايات على اغفال مانشروه لان المجلة لاتشير الا الى المصنفات التي توافق موضوعاتها في الادب والاجتماع والعلم وتعنى بما يصنف رأساً في الادب اكثر من عنايتها بما يعرب فيه كما انها تعنى بالكلام على مايكتب او يعرب في الاجتماع والعلم على حد سواء)

الشرق الاسلامي

كتاب بالالمانية نشره المسيو مارتين هرتمن من علماء المشرقيات وهو ممن يهتمون بمستقبل العرب وكتابه قسمان قسم في تاريخ العرب وينقسم الى ثلاثة اقسام العربية القديمة والعربية الوسطى والعربية الحديثة واعتمد في سرد التاريخ على الآثار اكثر من النقول التي لا ينهض دليل تطمئن النفس اليه ومتى فقدت المادة التاريخية فليس من تاريخ وخص كلامه عَلَى اليمن لان ما اكتشف من آثارها الحجرية يسهل البحث في تاريخها وقال ان اليمانيين كانوا شعباً رحالاً ولم يكونوا عرباً كما يفهم من معنى هذا اللفظ في القديم اذ كان معناها البدو او سكان البادية وما قط كان العرب الرحالة كثار العدد ومن الغلط ان يقال ان القفر كان مادة حياة المدن القريبة منه في سكانه . وقد كان الاشراف في اليمن وهم الاذواء اي ذو يزن وذو رعين وغيرهما هم المحتكرون للتجارة والسواد الاعظم من الاهلين ينقسمون الى قبائل يخضعون للاشراف و يعيشون بالزراعة وانتشرت الديانة اليهودية في اليمن الا انها كانت قليلة البقاء كما انها لم تطل ايامها في جزيرة العرب وقد اسقط الحبشة دولة ذي نواس وتكلم المؤلف عَلَى الاسرة والزواج والقبائل وشرح حالة جنوبي الجزيرة العربية من حيث زراعتها وتجارتها وآثارها وديانتها وقال ان افكار البابليين قد انتشرت في العالم الشرقي كله وان نهضة البلاد العربية لاتتم الا بمد الخطوط الحديدية وانشاء الكليات الاسلامية .

تاريخ الاسلام

نشر المسيو ليون كايتاني من اشراف ايطاليا والمشتغلين بالعلم فيها الجزء الثاني من هذا التاريخ الضخم بالايطالية وهو يحتوي عَلَى تاريخ ١٢ سنة من الهجرة اي في اوائل الفتوحات الاسلامية ويقول من درسوا هذا التاريخ انه من اكمل ما أُلف في تاريخ الاسلام حتى الآن .

الخطاطون والمصورون في الشرق الاسلامي

نشر المسيو كليمان هوار من علماء المشرقيات باللغة الافرنسية كتاباً في هذا الموضوع ذكر فيه الخطوط العربية ومنشأها ونشوءها وجعل الخطوط طبقات بحسب ترتيب سني الخطاطين فقال ان الاصل في الخط العربي الكوفي المأخوذ من الخط السرياني والنبطي ثم قام ابن مقلة فأسس الخط الاول وجاء بعده ابن البواب وياقوت المستعصمي ثم قام الاساتذة السبعة في الخط في آسيا الصغرى سنة ١٥٢٠ ورأسهم الشيخ حمدالله بن

مصطفى البخاري نديم السلطان بايزيد الثاني · اما تذهيب الكتب فغير معروف فان قصر الامويين المعروف بقصر عمرة الذي اكتشف حديثاً قد وجد فيه صور من اصل بزنطي مثل التي تزدان بها المخطوطات العربية القديمة .

كتاب بغداد

نشر الدكتور كلار من علماء المشرقيات السويسريين الجزء السادس من تاريخ بغداد لمؤلفه احمد بن ابي طاهر طيفور من اهل القرن الثالث للهجرة وهو في سيرة المأمون بدأه بحوادث سنة ٢٠٤ وختمه بحوادث سنة ٢١٨ ففيه ذكر الوقائع الاخيرة من عهد هذا الخليفة الكبير وليس فيه شيء زائد عما عرف من حال ذاك الدور السعيد على نحو ماذكر في مطولات التاريخ ولكن فيه فوائد غيرها مثل ترجمة بعض رجال المأمون ككاتبه احمد بن يوسف ويقول ناشره — الذي استنسخه وطبعه على الحجر وقدم له مقدمة باللغة العربية تبين الغرض من نشره — ان ابن جرير اخذ عن ابن ابي طاهر ما يتعلق بتاريخ المأمون وفي ذلك نظر ·

تاريخ حكام مصر

نشر المستر كونيج من علماء المشرقيات الاميركيين تاريخ ابي عمر محمد بن يوسف الكندي وهو تاريخ القرون الثلاثة الاولى للهجرة ومرجع من احسن المراجع في تاريخ الصدر الاول في وادي النيل لقرب مؤلفه من الوقائع ·

تاريخ قضاة مصر

نشر المستر كرتهيل استاذ اللغة العربية في جامعة كولمبيا الاميركية تاريخ قضاة مصر للكندي الذي اعتمد فيه على كتاب عبد الرحمن بن عبد الحكيم في كتابه فتوح مصر واتمه ابو الحسن احمد بن عبد الرحمن بن برد الى سنة ٣٦٦ ﻫ واوصله مؤلف مجهول الى سنة ٤٢٦ ·

ولاية بغداد

هو كتاب في ٣٣٨ صفحة طبعه بالعربية حبيب افندي شيحة وفيه وصف هذه الولاية وماضيها وتاريخها ووصف سكة بغداد الحديدية وبحث في القبائل البادية بين النهرين ·

ديوان السموأل

نشره الاب لويس شيخو اليسوعي في بيروت وقد عثر على النسخة الاصلية منه الاب انستاس الكرملي الحافي البغدادي عند احد كتبية دمشق

الفرق بين الفرق

هو كتاب لابي منصور عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي من اهل القرن الخامس طبعه وعلق حواشيه محمد بك بدر في مصر وفيه ذكر الفرق الثلاثة والسبعين الواردة في الحديث .

طبقات الصحابة

نشر الجزء السادس من كتاب طبقات الصحابة لابن سعد المتوفى سنة ٣٢٠ ﻫ تحت نظارة المسيو شاشو وبعناية الاستاذ زترستين من كلية ابسال وفي هذا الجزء تراجم دعاة الاسلام في الكوفة ومنهم اناس من الصحابة مثل ترجمة علي بن ابي طالب وسعد بن ابي وقاص وابي موسى الاشعري وسلمان الفارسي .

مفيد النعم ومبيد النقم

نشر الاستاذ داود مهرمان هذا الكتاب لتاج الدين السبكي من اهل القرن الثامن وصاحب جمع الجوامع وفي هذا الكتاب وصف المؤلف الحياة الاجتماعية في عصره فذكر الولاة والقضاة والقواد والمحتسبين والمربين والاساتذة والتجار والدراويش والصناع والاطباء والكحالين والحلاقين وغيرهم وهو في ٢٤٠ صفحة .

تجارب الامم

هو تاريخ لابن مسكويه المتوفى سنة ١٠٣٠ م وهو التاريخ النفيس المنقح الذي فضله بعضهم على تاريخ الطبري بما فيه من صحة الاسانيد والنقد التاريخي نشر في لندن على نفقة أسرة جيب الانكليزية وقدم له الكنت ليون كايتاني المستشرق الايطالي مقدمة .

تاريخ السلاجقة

هو تاريخ بالفارسية للوزير محمد الحسيني اليزدي من اهل القرن الثالث عشر للميلاد طبعه في مصر الدكتور كارل سوسهيم الالماني في ١٩٢ صفحة .

اغاثة اللهفان

هي رسالة في حكم طلاق الغضبان تأليف شيخ الاسلام ابن قيم الجوزية عني بتصحيحه الشيخ جمال الدين القاسمي ووقف على تصحيح طبعه حسين وصفي افندي رضا طبع بمطبعة المنار بالقاهرة وهو في ٤٨ صفحة .

حياة اللغة العربية

هي مسامرة او محاضرة للشيخ محمد الخضر بن الحسن في تونس اتي فيها على اطوار

هذه اللغة واساليبها ومطابقتها مع المدنية واتحاد العامية بالفصحى طبعها في تونس في ٦٠ صفحة

الشهاب في الحكم والآداب

تأليف ابي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن حكمون القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ ه وهو حكم نبوية مختصرة طبع في بغداد

وشاح الكاتب

وزينة الجيش الغالب

هي رسالة في ملخص القوانين التي سنها الامير عبد القادر الحسني الجزائري في ٣٣ صفحة طبعت بدمشق

مرشد العائلات

الى تربية البنين والبنات

وهو مختصر في التربية الجسمية منذ الحمل الى سن الولادة تأليف المرحوم حسن افندي توفيق طبع في بيروت لاعانة دار العلوم

تدبير صحة الاطفال •

هو كتاب في صحة الاولاد ومايعرض لهم وما ينبغي وقايتهم منه الدكتور امين دمر طبع في الاسكندرية

حالة اليمن

هي رسالة مطولة اسمها « يمنه استجلاب نظر دقت » كتبها بالتركية جمال الدين افندي الخطيب ذكر فيها ماصارت اليه حالة اليمن من الانحطاط الاداري وطبعها في الاستانة

عبرة وذكرى

او كلمة حول الشورى للدكتور ايوب ثابت ذكر فيها المذاهب السياسية وانه لادخل للاديان في ترقي نوع الانسان طبعت في بيروت

مجلات جديدة

المورد الصافي — كتاب لجرجس افندي الخوري المقدسي يصدر في بيروت كل اربعة اشهر جزء منه في ١٠٤ صفحات يتضمن مختارات من الخطب والمقالات والاشعار والآراء العصرية في التربية والتهذيب •

الهداية — مجلة دينية علمية ادبية اجتماعية لمنشئها الشيخ عبد العزيز جاويش تصدر في مصر كل شهر في ٧٢ صفحة

الزهور — مجلة ادبية فنية علمية لصاحبها انطون افندي الجميل تصدر في القاهرة في اول كل شهر في ٤٠ صفحة

الحقوق — مجلة حقوقية نصف شهرية لمنشئيها المحاميين سليم بك المعوشي وملحم بك خلف في لبنان وهي في ٣٢ صفحة

الانسانية — مجلة علمية اخلاقية اجتماعية انتقادية عمرانية لمنشئها الشيخ حسن الرزق تصدر نصف شهرية في حماة في ٣٢ صفحة

كتب متفرقة

نشر المسيو كومب باللغة الافرنسية تاريخ ديانة السين في بابل واشور ذكر فيه الانساب والاساطير واللاهوت والآثار والمعابد والعبادات والمعابد وتأثير الاديان العيلامية والعربية والسورية وغير ذلك من الفوائد ٠

وكتب ايضاً كل من الكولونيل الوت ولانوي وجنويلاك كتابين على الصومريين وهم سكان اسفل بلاد بين النهرين وكانوا في رأي احدهما قبل المسيح بثلاثة آلاف وخمسمائة سنة مستنداً في ذلك الى ماعثر عليه من المواد الاثرية ولا سيما في تلك التي ملأت آثارها متاحف العالم ٠ ونشر اوجين اوبين كتاباً بالافرنسية في فارس اليوم وما وراء النهرين ولاسيما الاماكن المقدسة في العراق وبحيرة اورومية وبغداد وطريقها الى همدان

ونشر رايموند ويل كتاباً في جغرافية شبه جزيرة سينا وتاريخها ٠ والمسيو ايل كتاباً في وصف الشعب الاسلامي في تلمسان من اعمال الجزائر ٠ ونشر ايبوليت دريفوس كتاباً في تاريخ البهائية وحالتهم الاجتماعية ٠ ونشر رينه بنون كتاباً بالفرنسية في اوربا والمملكة العثمانية وفيه مستندات تاريخية وسياسية كثيرة

سير العلم والاجتماع

مدارس الفرص

من جملة التعليم الذي كثر بين الامم الغربية بكثرة المواصلات ان بعض المدارس او الجمعيات لاتحب ان تصرف التلامذة الى بيوت ذويهم في الصيف وتحرص على تعليمهم

وتنزيههم والسياحة بهم في هذا الفصل فابن انكلترا يطوف به اساتذته بعض بلاده او يأخذونه الى فرنسا وايطاليا والمانيا واسبانيا وسويسرا وابن المانيا كذلك والسكك الحديدية في هذه الممالك تسقط من اجورها قسماً عظيماً لتلك المدارس والجمعيات حتى ان التلميذ لايدفع عن ستة اسابيع سوى ليرتين انكليزيتين وعن اربعة اشهر اربع ليرات فرنسوية

تطهير ماء الشرب

رأى طبيبان ايطاليان ان افضل الطرق لتطهير ماء الشرب من الجراثيم الضارة ان يجعل فيه محلول فلورور الفضة فلا تمضي نصف ساعة الا وتهلك الجراثيم كلها ويمكن ان يعرض الماء بعد ذلك زمناً للهواء الطلق بدون ان يكون فيه ادنى خطر من جراثيم جديدة

اللغات الحية

عقد في باريز هذه السنة المؤتمر الدولي للغات الحية فتباحث اساتذة البلاد المتمدنة في الطرق التي تمكن التلامذة من الاستعداد اللازم لهم في جهاد القرن العشرين فكانت النتيجة ان الواجب تعليم اساتذة المستقبل اللغات الحية تعليماً عالياً لترسخ فيهم رسوخ لغاتهم الاصلية فلا يكتفي بتلقينهم من اللغة الاجنبية نحوها وصرفها وشيء من لهجتها والتكلم بها بل يعلمونها ارقى تعلم عام ادبي فلسفي . واتفقت الآراء على ان اللغات الحية اذا اريد انزالها منازل التربية تعادل تربية اللغات القديمة فالواجب ان يكون بلغ اساتذتها الذين يعهد اليهم تعليمها درجة عالية توازي درجة علماء اللغات القديمة واجمعوا على ان التعليم الثانوي يجب اصلاحه بحيث يتخرج منه اناس لاملمون باللغات الاجنبية الحديثة فقط بل ممتازون بها امتيازاً يناسب روح العصر الحاضر ورأوا ان احكام اللغة وحده لاينشأ منه مايقال له قيمة مربية ودرجة راقية في المدنية والآداب بل ان ينفعه درس اخلاق تلك الامة التي يتعلم الطالب لغتها ويتشرب روح آدابها وتاريخها فان الاطلاع على لغة حديثة ليس من الغايات بل من الوسائط فهو آلة من اثمن الآلات في جهاد الحياة فلا يكفي ان يتعلم المرء كلمات وجملاً وقواعد نحوية وصرفية بل ان يدخل في حياة الشعب الغريب عنه فبعد ان يدرس الطالب قوانين لغة امة يحيط علماً باخلاقها وتاريخها وآدابها وكيفية تصورها معنى الحياة وخير الذرائع لبلوغ هذا القصد الرحلة الى البلاد التي يتعلم المرء لغتها والاقامة فيها زمناً وهذا مايجب

ان يكون من دعائم التربية اليوم كما كان فتيان المتعلمين في رومية يسيحون في بلاد يونان في سالف الازمان . واستحسن المتآمرون الاكثار من الانفاق على المتعلمين مايقوم برحلاتهم ودعوا البلديات والاسرات والجمعيات والحكومات والمحسنين الى التنافس في هذا المضمار لان مثل هذه الرحلات توسع الفكر وتشحذ النشاط وتنبه الشعور بالانتقاد وتقوي الانتباه وحاسة النظر وتقوي الوطنية بالمقابلة بين البلاد ومن اهم نتائج هذه التربية الحديثة تقريب مابين قلوب الامم المتمدنة

وانعقدت في اكسفورد ببلاد الانكليز جمعية اللغات الحديثة فقال الرئيس في خطاب له ان اغنية رولاند ونبلنجن ليد لاتنومان مقام اغاني هوميروس ولا دانتي يخلف فيرجيل مرشده واستاذه ولا بسكال يضطرنا الى نسيان افلاطون ولا بوسويه ينسينا شيشرون ومعنى هذا ان من رأيه ان التربية الادبية الكاملة تتطلب دراسة كتب القدماء كما تتطلب درس آثار المحدثين وافاض في هذا النحو متناولاً الموضوع الذي اجمع عليه مؤتمر باريز ورأى ان تعليم اللغات كما هو شائع الآن في انكلترا تعليماً سطحياً ويراد منه التفهم مع الاجانب للاتجار هو ناقص الجهاز والاولى التعمق في الدراسة

التربية في الهواء

اخذ علماء التربية منذ سنين في المانيا وفرنسا يبحثون عن الطرق التي يعلمون بها التلامذة في الهواء الطلق ويخلصوهم من ازدحام الانفاس في صفوف المدارس لما فيها من اضعاف اجسامهم وانهاك صحتهم وذلك بدون ادنى نقص في تعليمهم وممن عني بهذا الموضوع الاستاذ فلات احد مديري المدارس العالية في المانيا فكتب بعد التجارب العديدة في ابناء مدرسته ان تعليم التلامذة في الهواء الطلق لايناسب الا الاولاد الذين تقدموا قليلاً في السن وفي هذه الحال يعلم التلامذة اصول الرياضة البدنية ولا يصعب تعليمهم خارج الصفوف دروس العلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا واللغات الحية والرياضيات وقد ألف في هذا الموضوع كتاباً تداولته الالسن بالثناء

التلامذة والاساتذة

كتب احد علماء الافرنج بحثاً ضافياً اخذ فيه رأي ٨٧ استاذاً مع تلاميذهم عن المواد التي يختار التلامذة تعليمها فكانت النتيجة ان المواد التي يحبها التلامذة اكثر من غيرها ليست هي المواد التي يرتاح الاساتذة الى تعليمها فالتلامذة يحبون الرياضات البدنية والاعمال اليدوية ثم التصوير والتاريخ ويتأففون من التعليم الديني والاملاء

والتاريخ الطبيعي · اما الاساتذة فاحب الدروس الى قلوبهم التاريخ وليست للرياضة البدنية منزلة من قلوبهم

تعليم التاريخ

كتب احد الالمان العارفين مبحثاً في مجلة علمية قال فيها نشأ من تعليم التاريخ ان كثيراً من المعلومات التاريخية ينساها المرء والضروري منها استظهاره موقتاً يساعد على تربية القلب والذكاء والاحساس الانساني والوطني فيجب على معلم التاريخ ان يغفل من درسه مالا يضر جهله ويتوسع في المسائل المهمة فيعنى بما ينطبق على الحال الحاضر من مسائله وعن تعليل اسبابها وتكوينها وينظر نظراً بليغاً فيما تمس حاجتنا اليه في حياتنا ولا يكتفي بالمعرفة البسيطة الغير المعقولة من الماضي ويجب تنبيه الذهن واعداده لادراك العالم الحاضر السياسي والاجتماعي والديني واحوال الرجال المعاصرين وان تقوى الوطنية بدون ان تكون الى العصبية الجاهلية ويقصد بالتاريخ تخريج رجال ووطنيين باطلاعهم على ماوقع لمن قبلنا وما هو دائر الآن حوالينا · وهذا مايقصد من روح التاريخ

المدارس الالمانية في العالم

نشر احد علماء الالمان كتاباً سماه المدارس الالمانية في الخارج جاء فيه ان لالمانيا في روسيا ٦٠ مدرسة فيها ٤٠٠ ١١ تلميذ وفي رومانيا ٣٠ مدرسة فيها ٤٢٠٠ وفي البلجيك ١٠ مدارس و١٩٠٠ تلميذ و٦ مدارس في البلاد العثمانية في اوربا فيها ١٨٥٠ تلميذاً و١٤ في ايطاليا تحتوي على ٨٨٠ تلميذاً ومدرسة واحدة في فرنسا (باريز) فيها ١٥٠ تلميذاً و٢١ مدرسة في آسيا فيها ١٢٥٠ منها ٩ في ازمير وفلسطين فيها خمسمائة تلميذ و٤٦ مدرسة في افريقية الجنوبية منها ١٥ في حكومة الرأس فيها ١١٠٠ تلميذ و١٦ في الناتال فيها ٤٠٠ و٣ في الترنسفال ولها ٣٠٠ تلميذ و ٨٠ في اوستراليا تضم في حجرها ٢٥٠٠ و ٨٠٠ في برازيل تجمع ٢٦٠٠٠ تلميذ و٥٠٠ في ريو الكبرى لها ١٥٠٠٠ تلميذ و٦٠ في الجمهورية الفضية لها ٣٥٠٠ تلميذ و ٣٦ في شيلي فيها ٢٨٠٠ تلميذ · اي ١٧٠٠ مدرسة فيها مالا يقل عن سبعين الف تلميذ وتمنح الحكومة الالمانية لهذه المدارس ٨٥٠ الف مارك في السنة هذا عدا الاساتذة والمعلمين الذين يدرسون في الولايات المتحدة وبذلك تتبين انتشار نفوذ المانيا على بلاد العالم ولا سيما على الممالك المحتاجة حتى الآن الى التعلم

جراثيم التعب

قامت منذ زهاء مائة سنة فئة من اطباء الالمان والطليان والاميركان يقولون بوجود جراثيم في احشاء الانسان تأتيه من ملامسة الارض التي يعمل فيها فتحدث فيه الكسل والتعب ثم تنتهي بالموت · وآخر ماقرره احد اطباء اميركا ان ظاهر انثى هذه الجراثيم كذكرها اشبه بخيط منموس بالوحل وهي تبيض حيثما نزلت الوفاً من البيوض والاجنة التي تخرج منها وتنتشر في الخلايا · وطول الذكر من هذه الجراثيم سانتمتران يعلق بالاحشاء فيتناول اجزاء صغيرة من الغشاء المخاطي وذلك بثقبها ثقوبا يمتص منها الدم وقد رأى طبيب انكليزي بمعاينة شخص مصاب بجراثيم التعب ان فيه ٢٥٠ جرثومة و٥٧٥ عضة ورأى في آخر ٨٦٣ جرثومة و٢١٧ عضة ومعظم هذه الاصابات تكون من باطن القدم اولا لانه معرض للاحتكاك بالارض التي تسكنها الجراثيم ويقدرون المصابين بهذا المرض بمليوني نسمة اكثرها في جنوبي اميركا

درجات التغذية

ما من شيء مهم في التغذية اكثر من التدقيق في معرفة مايتركب منه طعامنا حيوانياً كان اونباتياً او معدنياً جامداً كان اوسائلا فالاصل في طول حبل العمر متوقف على الاحاطة بذلك فقد قال احد الاطباء ان الواجب على المرء قبل المباشرة في الاكل ان يعرف درجة التغذية فيما يتناوله والمقدار اللازم له منها · وقال غيره ان من اوائل قواعد حفظ الصحة ان يعرف المرء النسبة بين التغذية والانفاق عليها · ولكن هذه القواعد قلما يعمل بها بالفعل وكثير من الناس يجهلون كل الجهل مايدخل في الطعام من درجات التغذية وقد نصح الدكتور فيشر من كلية يال في اميركا ان تعلق القائمة الآتية في المدارس وغرف الموائد لمعرفة درجات التغذية في كل طعام وها هي مرتبة بحسب مكانتها من التغذية :

الثمار والجوز والحبوب والعسل والزبدة ·

البطاطا وغيرها من البقول التي تقشر ·

السمن والملح القليل والقشطة واللبن والحليب والبيض وسكر القصب وشوكولاتو اللوز الهندي ·

الجبن المطبوخ واللبن الرائب ·

البقول التي تؤكل بقشورها ·

المعجنات
الجبن المخمر وجبن روكفور وغيره
الثريد
الحساء باللحم وخلاصة اللحم
الشاي والقهوة
اللحم والسمك والطيور
الكبد
التوابل ماعدا الملح ٠
الالكحول

توراة الشيطان

قالت مجلة مطالعاتنا في البيوت ماتعريبه : من جملة التحف المحفوظة في خزانة الكتب الملكية في استوكهلم كتاب مخطوط اطلقوا عليه اسم توراة الشيطان كما يسمونه مارد الكتب لضخامة حجمه المتناهي و يبلغ طوله ٩٠ سنتمتراً وعرضه خمسون ولا يستطيع نقله سوى ثلاثة رجال وهو ذو ٣٠٩ صفحات ضاع منه سبع وقد كتبت كل صفحة على عمودين ٠ وحسبوا ماوضع لهذا الكتاب من الورق فكان ١٦٠ حماراً وحروفه من نوع الكوتيك الصغير واوائل الحروف الكبرى جعلت بالذهب الملون وزينت بالصور وجلده من البلوط الغليظ ثخانته اربعة سنتمترات ونصف واقفاله من المعدن ٠ ولما حرق القصر الملكي في استوكهلم سنة ١٦٩٧ أصيبت هذه التوراة برضوض فطرحوها من النافذة الى الشارع فتعطلت اقفالها ثم أصلحت.

خاتمة السنة الرابعة

نحمد الله تعالى ان وفقنا الى النجاة من مآزق السنة الماضية واقلها مما يعوق عن التأليف والطبع والنشر في بلاد اعمتها الجهالة الجهلاء وافسدتها السياسة الخرقاء قروناً وازماناً ٠ فقد اضطررنا بعد نقل المقتبس من القاهرة الى دمشق ان نعاني السياسة فاصدرنا جريدة يومية باسم المقتبس لتخدم الاصلاح الاداري الاقتصادي كل يوم كما يعالج شقيقها الاكبر الاصلاح العلمي والاجتماعي كل شهر وما اعظم ماقاسيناه من

ممارسة أعداء الدولة والامة فتربصوا بنا الدوائر وفي مقدمتهم صنيعة عبدالحميد المخلوع وموجد الجاسوسية في الاستانة ناظم باشا والي سورية السابق فقد شق عليه مطالبتنا بالاصلاح فقام ينصب لنا شراكاً يريد بها اهلاكنا فانجانا الله منه ولكن بعد ان تحملنا في هذا السبيل وقتاً ومالاً واضطرت هذه المجلة الى الاحتجاب عن قرائها زمناً ولذلك فانا نحسب السنة الماضية من اشق ايام العمر اذ لم نقم فيها بالواجب نحو المشتركين باصدار المجلة في اوقاتها عَلَى الصورة المقبولة التي كانت تظهر بها في سنيها الثلاث الاولى واضطررنا بادئ بدء الى رفض الورق الذي اوصينا عليه من معامل النمسا بداعي مقاطعة البضائع بين البلاد العثمانية والنمساوية ولما لم نجد الورق اللازم للمجلة في بيروت ولا في دمشق اضطررنا الى الطبع عَلَى ورق الكتابة عَلَى نحو ماتراه في الاجزاء الثلاثة الاولى من هذه السنة ثم توقفنا لتنظيم المطبعة التي اسسناها فما كاد يعلم عملتها ويستعد القائمون بها حتى أغلقت ظلماً نحو اربعة شهور . وهانحن اليوم نصدر آخر جزء من سنة ١٣٢٧ اي جزء شهر ذي الحجة في جمادى الثانية من سنة ١٣٢٨ والمأمول ان نوفق بعد ثلاثة اشهر الى اصدار كل جزء في شهره خصوصاً وقد تفرغنا اكثر من قبل للتأليف والترجمة في الموضوعات التي نتابع البحث فيها

ولقد توفرت لنا المواد خلال رحلتنا الى اوربا وصارت للمقتبس علائق واسعة مع الاندية العلمية في ديار الغرب يتناول مدة الشهر من مطبوعاتها اشياء كثيرة وسيتوفر بحول الله عَلَى نقل كل مايهم هذا الشرق العربي منها ومن المجلات الفرنسوية التي ننقل عنها بعد الآن مجلة العالمين والمجلة الاسپانيولية ومجلة العالم الاسلامي ومجلة الاقتصاديين ومجلة الطبيعة والمجلة الزرقاء والمجلة الوردية ومجلة التربية ومجلة المجلات ومجلة العلم الاجتماعي ومجلة مطالعاتنا في البيوت والمجلة التونسية الى غير ذلك من المجلات التي قد نطلع عليها ولكن عَلَى طريقة غير منظمة دع عنك المجلات التركية والعربية . وسيكون في السنة المقبلة حظ واسع لتلخيص المؤلفات الافرنجية الحديثة في هذه المجلة والتوسع في الابحاث التي تؤول الى ترقية اللغة العربية وآدابها واجتماع العرب وعلومهم مع تطبيقها عَلَى حالة الغرب اليوم فنمزج المدنية العربية بالمدنية الغربية لتكون لنا منها مدنية تأخذ من كل شيء احسنه ونسأله تعالى ان يسددنا ويلهمنا رشدنا ويثبت اقدامنا في خطتنا ويقلل خطأنا وخطيئاتنا انه اكرم مسؤول

فهرس المجلد الرابع

